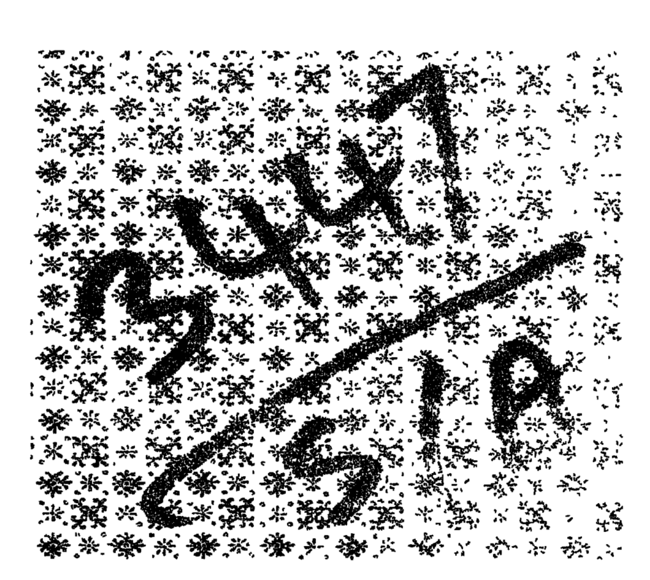




بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثاني

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م

فهرس

المجلد الثانى من عصر المأمون

ملحق الكتاب الأول — عصر بنى أمية

باب المنثور : صفحة

باب المنظوم :

ملحق الكتاب الثانى — عصر بنى العباس

باب المنثور :

مُلحَق
الكتاب الأول

باب المنثـــور

ذكرنا فى مقدّمة المجلد الأوّل من "عصر المأمون" أننا قسمنا المجلد الثانى الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة، وعُنينا عناية خاصّة الى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص لتمثيـل عصرهما . واتخذنا من عبـد الحميد الكاتب وعمر بن أبى ربيعـة أنموذجا أمويّا ، ومن أبى الربيع محمـد بن الليث وبشّار بن بُرْد مثالا عباسيا ، ومن عمرو بن مَسْعدة وأبى نُوَاس نموذجا لتصوير الحياة الكتابية والشعرية فى عصر الأمين والمأمون، الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام، وقد أوردناها من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان — اللهم إلّا تفسير بعض ألفاظها الغريبة وشرح كلماتها الغامضة — فهى فى وضوحها ودلالتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شىء. وها نحن أولاء نذكر ما وعدناك به .

١ — رسالتا أبى بكر وعلىّ

قال أبو حَيّان على بن محمد التّوحيدىّ البَغْدادىّ [١] : سمَرْنا ليـلةً عند القاضى أبى حامد أحمد بن بِشْر المَرْوَرُّوذىّ ببغداد، فتصرف فى الحديث كلَّ متصرَّف، وكان غزير الرواية،

(١) انظر كتاب صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١

لطيف الدِّراية، بجرى حديثُ السَّقيفة، فركب كلٌّ مركبا، وقال قولا، وعرّض بشيء، ونزّع الى فنّ . فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة لأبى بكر الصدّيق[1]، رضى الله عنه، الى على بن أبى طالب كرّم الله وجهه، وجواب علىّ عنها، ومبايعته إياه عَقِيب تلك المناظرة ؟ فقال الجماعة : لا والله ؛ فقال : هى والله من بنات الحقائق، ومخبّآت الصنادق، ومنذ حفظتُها ما رويتها إلا لأبى محمد المهلّبىّ فى وزارته ، فكتبها عنّى بيده ؛ وقال : لا أعرف رسالة أعقل منها ولا أبين، وإنها لتدلّ على علم وحلم، وفصاحة ونباهة، وبُعد غور، وشدّة غوص . فقال له العبّادانىّ : أيها القاضى، فلو أتممت المِنّة علينا بروايتها ! أسمعناها ، فنحن أوعى لك من المهلّبىّ، وأوجبُ ذِمَاما عليك، فاندفع وقال :

حدّثنا الخُزاعىّ بمكة عن أبى مَيْسرة ، قال حدّثنا محمد بن أبى فُلَيح عن عيسى بن دَوْأب بن المتّاح ، قال سمعت مولاى أبا عُبَيدة يقول : لما آستقامت الخلافة لأبى بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنة كاد الشيطان بها، فدفع الله شرّها ويسّر

---

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة صاحب رسول الله وأوّل خليفة له فى الإسلام وخطيب يوم السقيفة .

ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب . ولد بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين وبضعة أشهر. ونشأ من أكرم قريش خلقا، وأرجحهم حلما، وأسماهم يدا، وأشدّهم عفة. وكان أعلمهم بالأنساب وأيام العرب ومفاخرها . صحب رسول الله قبل النبوّة . وكان أوّل من آمن به من الرجال وصدّقه فى كل ما جاء به، ولذلك سمّى الصدّيق، وأنفق أمواله فى تأييد دعوته، وهاجر معه الى المدينة مؤثرا صحبته على كل أهله وولده، وشهد معه أكثر الغزوات . وما زال ينفق ماله وقوّته فى معاضدة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . واختلفت العرب ، وارتدّت عن الإسلام ، ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف ، فجرّد عليهم الجيوش حتى قمعهم ، وجمع العرب على الإسلام ، وساقهم توا إلى فتح ممالك كسرى وقيصر . وما مات إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم وتستولى على مدائنهم وحصونهم . وكان رحمه الله فصيحا بليغا ، خطيبا مفوّها ، حاضر البديهة، قوى الحجة، شديد التأثير، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة، وذلك أنه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة فيمن يبايعونه خليفة له عليهم ؛ فأبت الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم، وأبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون منهم . واشتدّ النزاع حتى كادت تقع الفتنة، فخطبهم خطبة لم يلبث الجميع بعدها أن بايعوه خليفة . وكانت وفاته سنة ١٣ هـ ومدّة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال .

خيرها ، بلغ أبا بكر عن علىّ تلكّؤ وشماس[1] ، وتهمّم[2] ونِفاس[3] ، فكره أن يتمادى الحالُ فتبدو العورة ، وتشتعلَ الجمرة ، وتتفرّقَ ذاتُ البَين ، فدعانى بحضرته فى خلْوة ، وكان عنده عمر ابن الخطّاب رضى الله عنه وحدَه ، فقال : يا أبا عُبيدة ، ما أيمن ناصيتَك ، وأبين الخيرَ بين عينيك ، وطالما أعزّ الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يديك ، ولقد كنتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المَحُوط ، والمحلّ المغبوط ، ولقد قال فيك فى يوم مشهود : "لكل أمة أمينٌ وأمينُ هذه الأمة أبو عُبيدة" ، ولم تزل للدين مُلتجأ ، وللمؤمنين مُرْتجى ، ولأهلك ركنًا ، ولإخوانك رِدْءا . قد أردتُك لأمرٍ خَطَره مَخُوف ، وإصلاحُه من أعظم المعروف ، ولئن لم يَنْدَمِل جرحُه بيسارك ورِفقك ، ولم تَجُب[4] حيّتَه بُرقيتك ، وقع اليأس ، وأعضل البأس ، واحتيج بعد ذلك الى ما هو أمرّ منه وأعلق ، وأعسر منه وأغلق ؛ والله أسأل تمامَه بك ، ونظامَه على يديك . فتأتّ[5] له أبا عُبيدة وتلطّف فيه ، وانصح لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذه العِصابة غيرَ آلٍ جَهْدا ، ولا قالٍ حَمْدا ، والله كالئُك وناصرُك ، وهاديك ومبصّرُك ، ان شاء الله . امضِ الى علىّ واخفِض له جناحَك ، واغضُض عنده صوتَك ، واعلم أنه سُلالة أبى طالب ، ومكانُه ممّن فقدْناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم — مكانُه ، وقل له : البحر مَغْرقة ، والبرّ مَفْرَقة ، والجوّ أكلف[6] ، والليل أغدف[7] ، والسماء جلْواء[8] ، والأرض صَلْعاء[9] ، والصعود متعذّر ، والهبوط متعسّر ، والحقّ عَطُوف رءوف ، والباطل عَنُوف عَسُوف ، والعُجب قدّاحةُ الشرّ ، والضِّغن رائدُ البوار ، والتعريض شِجار الفتنة ، والقِحَة ثَقُوبُ العداوة ، وهذا الشيطانُ متكئٌ على شِماله ، متحيّلٌ بيمينه ، نافخٌ حِضْنَيه[10] لأهله ، ينتظر الشَّتات والفُرْقة ، ويَدِبّ بين الأمة بالشَّحناء والعداوة ، عناداً لله عز وجل

---

(١) الشماس : المعاداة والمعاندة . (٢) تهمم الشىء : طلبه وتحسسه . (٣) نافس فى الشىء منافسة : رغب فيه على وجه المباراة والمفاخرة . (٤) تجب : تقطع . (٥) تأتى فلان للأمر : تهيأ له وأتاه من وجهه .

(٦) الجو أكلف : أسود تعلوه حمرة . (٧) الليل أغدف : مرخ سدوله مظلم . (٨) السماء جلواء : مصحية . (٩) خالية لا شجر فيها . (١٠) أى مستعد لأن يعمل عمله من الشر .

أوّلًا، ولآدمَ ثانيا، ولنبيه — صلى الله عليه وسلم — ودِينِه ثالثا، يُوَسْوِس بالفُجُور، ويُدْلِي بالغرور، ويمنّي أهــلَ الشرور. يُوحِي الى أوليائه زُخْرُفَ القول غُروراً بالباطل، دأْبًا له مُنْذُ كان على عهد أبينا آدمَ صلى الله عليه وسلم، وعادةً له منــذُ أهانه الله تعالى فى سالف الدهر، لا مَنْجَى منه إلا بعضِّ الناجذ على الحق، وغَضِّ الطَّرْف عن الباطل، ووَطْء هَامَةِ عدوّ الله بالأَشَدّ فالأشدّ، والآكَدِ فالآكد، وإسلامِ النفس لله عز وجل فى ابتغاء رضاه.

ولا بدّ الآن من قول ينفع إذا ضرّ السكوت وخِيفَ غِبُّه؛ ولقد أرشدك مَنْ أفاء(1) ضالّتَك، وصافاك من أحْيا مودّته بعِتَابِك، وأراد لك الخيرَ مَنْ آثر البقاءَ معك؛ ما هذا الذى تُسَوِّل لك نفسُك، ويَدْوَى به قلبُك، ويلتوى عليه رأيُك، ويتخاوصُ(2) دونه طَرْفُك، ويَسْرِى فيه ظَلْعُك، ويَتَرادُّ معه نَفَسُك، وتكثر عنــده صُعَدَاؤُك، ولا يَفِيضُ به لسانُك. أعُجْمةٌ بعــد إفصاح! أتلبيسٌ بعــد إيضاح! أدينٌ غيرُ دين الله! أخُلُق غيرُ خلق القرآن! أهَدْيٌ غيرُ هَــدْيِ النبى صلى الله عليه وسلم! أمثلى "تَمْشِى له الضَّراءَ(3) وتَدِبُّ له الخَمَرَ!" أم مثلُك يَنْقَبِض عليه الفضاء، ويُكْسَف فى عينه القمر! ما هذه القَعْقَعة بالشِّنَان(4)! وما هذه الوَعْوعة باللسان! إنك والله جِدُّ عارف باستجابتنا لله عز وجل ولرســوله صلى الله عليه وســلم، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنــا وأولادنا وأحبّتنا، هجرةً الى الله عز وجل، ونصرةً لدينه فى زمان أنت فيــه فى كِنّ الصِّبَا، وخِدْرِ الغَرَارة، وعُنْفُوان الشَّبِيبة، غافلٌ عمــا يُشِيب ويَرِيب، لا تَعِى ما يُرَاد ويُشَاد، ولا تحصّل ما يُسَاق ويُقَاد، سِوَى ما أنت جارٍ عليــه الى غايتك التى اليها عُدِل بك، وعندها حُطّ رَحْلُك، غيرَ مجهول القــدر ولا مجحود الفضــل؛ ونحن فى أثناء ذلك نُعَانِى أحوالا تُزِيل الرَّوَاسى، ونُقَاسِى أهوالا تُشِيب النَّوَاصى، خائضين غِمَارَها، راكبين تَيّارَها، نتجرّع صابَها، ونَشْرَج(5) عِيابَها، ونُحْكِم آساسَها، ونبرِم

---

(1) أفاء: أرجع. (2) يتخاوص: يغضّ من بصره. (3) الضراء: الاستخفاء. والخمر: ما واراك من شجر، وهو مثل يضرب لمن يخــدع صاحبه. (4) الشنان جمع شن وهو القربة الخلق الصغيرة. والقعقعة: الصوت، يريد أنه لا يخوف بمثل هذا. (5) نشرج عيابها: ننضدها ونضم بعضها الى بعض. والعياب: جمع عيبة، وهى زنبيل من أدم تجعل فيه الثياب.

أَمْراسِنا[١]، والعيونُ تَحْدجُ بالحسد، والأنوفُ تَعْطِس بالكِبْر، والصدور تَسْتَعِر بالغَيْظ، والأعناق تتطاول بالفخر، والشِّفَار تُشْحَذ بالمكر، والأرض تَميد بالخوف؛ لا ننتظر عند المساء صباحا، ولا عند الصباح مساء، ولا ندفع فى نَحْرِ أمرٍ إلا بعد أن نَحْسُوَ الموتَ دونه، ولا نبلغ مُرَادًا إلا بعد الإياس من الحياة عنده، فَادِينَ فى جميع ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالأبِ والأمِّ، والخال والعم، والمال والنَّشَب، والسَّبَد واللَّبَد[٢]، والهَلَّة والبِلَّة[٣]، بِطيب أنْفُس، وقُرَّة أَعْيُن، ورَحْب أعطَان، وثَبَاتِ عزائم، وصحةِ عقول، وطَلاقة أَوْجُه، وذَلاقة أَلْسُن؛ هذا مع خَفِيَّات أسرار، ومَكْنونات أخبار، كنتَ عنها غافلا، ولولا سِنُّك لم تكن عن شىء منها ناكِلا، كيف وفؤادُكَ مَشْهوم[٤]، وعُودُكَ مَعْجُوم!.

والآن قد بلغ اللهُ بك وأنهض الخيرَ لك، وجعل مرادك بين يديك، وعن علم أقول ما تسمع؛ فارتقبْ زمانَك، وقَلِّص أَرْدانَك، ودَعِ التقعُّس والتجسُّس لمن لا يَظْلَعُ لك اذا خطا، ولا يتزحزح عنك اذا عَطَا[٥]؛ فالأمر غَضّ، والنفوسُ فيها مَضّ، وإنك أديمُ هذه الأمة فلا تَحْلَم[٦] لجَاجًا، وسيفُها العَضْب، فلا تَنْبُ اعْوِجَاجا، وماؤُها العَذْب فلا تَحُلْ أُجَاجا. والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر، فقال لى: «يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يُجَاحِشُ[٧] عليه، ولمن يتضاءل عنه لا لمن يتنفَّجُ[٨] اليه، هو لمن يقال هو لك لا لمَنْ يقول هو لى».

ولقد شاورنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصِّهْر، فذكر فِتيانًا من قريش، فقلت: أين أنت من علىّ! فقال صلى الله عليه وسلم: إنى أكره لفاطمة مَيْعَةَ شبابِه، وحَدَاثة سنّه. فقلت له: متى كنَفْتَه يدُك، ورَعَتْه عينُك، حَفَّت بهما البركة، وأُسْبِغت عليهما النعمة؛ مع كلامٍ كثيرٍ خاطبتُه به رغبةً فيك، وما كنت عرفت منك فى ذلك لا حَوْجاء[٩]

(١) جمع مرس ككتف وهو الحبل. (٢) السبد: الشعر. واللبد: الصوف. (٣) يقال: جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة أى لم يأتنا بشىء، فالهلة من الفرح والاستهلال، والبلة من البلل والخير. (٤) مشهوم (بالشين المعجمة): ذكىّ متوقد. (٥) عطا: مدّ اليك عنقه وأقبل نحوك. (٦) حلم الجلد (من باب فرح): فسد وتثقب. (٧) أى يطالبه ويدافع عنه. (٨) يتطلع اليه ويفتخر به.
(٩) أى ما كنت عرفت منك شيئا.

ولا لوجاء، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرك، وأجد رائحةَ سِواك، وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى . ولئن كان عَرَّض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر، فلم يكن مُعرِضا عن غيرك: وإن كان قال فيك فما سكت عن سِواك، وإن تلجلَج فى نفسك شىء فهَلُمّ، فالحكم مرضىّ، والصواب مسموع، والحقّ مُطَاع . ولقد نُقل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل، وهو عن هذه العِصابة راض، وعليها حَذِر، يسرّه ما سرّها ويسوءه ما ساءها، ويكيده ما كادها، ويُرْضيه ما أرضاها، ويُسْخِطه ما أسخطها. أمَا تعلم أنه لم يَدَعْ أحدًا من أصحابه وأقاربه وسُجَرائه(١)، إلا أبانه بفضيلة، وخصّه بمزية، وأفرده بحالة ! أتظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سُدًى بَدَدا، عَبَاهِلَ(٢) مبَاهِل، طَلَاحَى مفتونةً بالباطل، مغبونةً عن الحق، لا رائد ولا ذائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقَ ولا واق، ولا هادىَ ولا حادى ! كلا ! والله ما آشتاق الى ربه تعالى ولا سأله المَصير الى رضوانه وقُربه، إلا بعد أن ضرَب المَدَى، وأوضح الهدى، وأبان الصُّوَى(٣)، وأمّن المسالك والمطارح، وسهّل المبارك والمَهَايِع(٤)، وإلا بعد أن شَدَخَ يافوخَ(٥) الشرك بإذن الله، وشَرَم وجهَ النفاق لوجه الله سبحانه، وجَدَع أنفَ الفتنة فى ذات الله، وتفَل فى عين الشيطان بعون الله، وصَدَع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل .

وبعد، فهؤلاء(٦) المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بقعة واحدة ودار جامعة، إن استقالونى لك وأشاروا عندى بك، فأنا واضع يدى فى يدك، وصائر الى رأيهم فيك . وإن تكن الأخرى فآدخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العونَ على مَصَالحهم، والفاتحَ لمَغَالقهم، والمرشدَ لضالّتهم، والرادعَ لغَوَايتهم . فقد أمر الله تعالى بالتعاوُن على البرّ والتقوى، والتناصُر على الحق . ودَعْنا نقضِى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغِلّ، ونلقَ الله تعالى بقلوب سليمة من الضِّغْن .

---

(١) سجرائه: أصدقائه . (٢) عباهل مباهل (بالباء الموحدة فى الكلمتين): مهملة . (٣) الصوى: الأعلام . (٤) المهايع: الطرق . (٥) اليافوخ (يهمز ولا يهمز) جزء الرأس الذى يتحرك فى الطفل .
(٦) فى صبح الأعشى: «فهذه» .

وبعد، فالناس ثُمامةٌ فارفُقْ بهم وأحنُ عليهم وَلِنْ لهم، ولا تُشْقِ تمسّك بنا خاصة فيهم، وأترك ناجم الحقد حصيدا، وطائر الشر واقعا، وباب الفتنة مُغلقا، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع، والله على ما تقول شهيد، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عُبيدة: فلما تأهبتُ للنهوض، قال عمر رضي الله عنه: كُنْ لدى الباب هُنيهةً فلي معك دورٌ من القول؛ فوقفتُ وما أدرى ما كان بعدى، إلا أنه لحِقنى بوجه يتندّى تهللا، وقال لى: قل لعلىّ: الرقادُ مَحلَمة، والهوى مَقحمة، ومامنّا إلا له مقامٌ معلوم، وحقٌ مشاعٌ أو مقسوم، ونبأ ظاهر أو مكتوم؛ وإن أكيس الكَيْس من منح الشاردَ تألُّفا، وقارَبَ البعيدَ تلطُّفا، ووَزَن كلّ شيء بميزانه، ولم يخلِطْ خبرَه بعِيانه، ولم يجعل فِتْرَه مكان شِبْره، دِيناً كان أو دُنيا، ضلالًا كان أو هُدى. ولا خير فى علم مستعمَلٍ فى جهل، ولا خير فى معرفة مَشوبةٍ بنُكْر. ولسنا بجِلدة رُفْغ[1] البعير بين العِجان والذنب. وكُلُّ صَالٍ فبناره، وكل سيلٍ فإلى قَراره. وما كان سكوت هذه العصابة الى هذه الغاية لِعِىّ وشِىّ[2]، ولا كلامُها اليوم لفَرَقٍ أو رِفْق. وقد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنفَ كل ذى كِبر، وقَصَم ظهر كل جبّار، وقطع لسانَ كل كَذُوب، فماذا بعدَ الحقّ إلا الضلال. ما هذه الخُنْزُوانة[3] التى فى فَرَاش رأسك! ما هذا الشَّجا المعترض فى مَدَارج أنفاسك! ما هذه القَذَاة التى تَغَشّت ناظرك! وما هذه الوَحَرة[4] التى أكلت شَرَاسيفَك! وما هذا الذى لَبِستَ بسببه جلدَ النَّمِر، واشتملتَ عليه بالشَّحناء والنُّكْر! ولَسْنا فى كِسْرويّة كِسرى، ولا فى قيصريّة قيصر! تأمَّلْ لإخوان فارس وأبناء الأصفر! قد جعلهم الله جَزَرًا لسيوفنا، ودريئةً لِرماحنا، ومرمًى لِطعاننا، وتبعاً لسلطاننا؛ بل نحن فى نور نبوّة، وضياء رسالة، وثمرةِ حكمة، وأُثَرة رحمة، وعُنوان نِعمة،

---

(١) الرفغ: أصل الفخذ من باطن. والعجان: الاست. يريد أن منزلتهم بين الأحياء والعشائر ليست حقيرة مهينة. (٢) الشىّ بالكسر إتباع للعىّ. (٣) الخنزوانة: الكبر. (٤) الوحرة (بالتحريك): والحقد العداوة والشراسيف: جمع شرسوف، والشرسوف مقط الضلع.

وظلّ عِصْمة، بين أمّة مهديّة بالحق والصدق، مأمونةٍ على الرَّتق والفَتق، لها من الله قلبٌ أبيّ، وساعدٌ قويّ، ويدٌ ناصرة، وعينٌ باصرة. أتظن ظنا ياعليّ أن أبا بكر وثَب على هذا الأمر مُفْتاتاً على الأمة خادعًا لها أو متسلّطا عليها ! أتُراه حلّ عقودها وأحال عقولَها ! أتُراه جعل نهارها ليلا، ووَزْنَها كيلا، ويَقَظَتها رُقادا، وصلاحَها فسادا ! لا والله! سَلَا عنها فوَلِهتْ له، وتَطامَن لها فَلصِقتْ به، ومال عنها فمالت إليه، واشمأزّ دونها فاشتملتْ عليه، حَبْوةٌ حَبَاه الله بها، وعاقِبةٌ بلّغه الله إليها، ونعمةٌ سَرْبَله جمالَها، ويدٌ أوجب الله عليه شكرَها، وأمّةٌ نظر الله به إليها. والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخِيَرةُ. وإنك بحيث لا يُجْهَل موضعُك من بيت النبوّة، ومَعْدِن الرسالة، ولا يُجْحَد حقُّك فيما آتاك الله، ولكن لك مَنْ يزاحمك بمَنكِبٍ أضخمَ من منكبك، وقُرْبٍ أمسَّ من قرابتك، وسنّ أعلى من سنّك، وشَيبةٍ أروعَ من شيبتك، وسيادةٍ لها أصلٌ فى الجاهلية وفرعٌ فى الإسلام، ومواقفَ ليس لك فيها جملٌ ولا ناقة، ولا تُذْكَر منها فى مقدّمة ولا ساقَة، ولا تَضْرِب فيها بذراع ولا إصبع، ولا تخرُج منها ببازِلٍ ولا هُبَع[1]. ولم يزل أبو بكر حبّةَ قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعِلاقةَ نفسه، وعَيْبةَ سرّه، ومَفْزَع رأيه ومشورته، وراحةَ كفّه، ومَرْمَق طَرْفه. وذلك كله بمَحْضَر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شهرتُه مغنيةٌ عن الدليل عليه. ولعمرى إنك أقربُ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً، ولكنه أقربُ منك قربةً، والقرابةُ لحم ودم، والقُرْبةُ نفس ورُوح. وهذا فرق عَرَفه المؤمنون، ولذلك صاروا إليه أجمعون. ومهما شَكَكْتَ فى ذلك، فلا تشكّ أن يدَ الله مع الجماعة، ورضوانَه لأهل الطاعة. فادخُل فيما هو خيرٌ لك اليوم وأنفعُ لك غدا، والفِظْ من فيك ما يَعْلَق بلَهاتك، وانفُثْ سَخِيمةَ صدرك عن تُقَاتك، فإن يكُ فى الأمد طولٌ، وفى الأجل فُسْحة، فستأكله مريئا أو غيرَ مرىء، وستشربه هنيئا أو غيرهنىء، حين لا رادّ لقولك إلا من كان آيسًا منك، ولا تابعَ لك إلا من كان طامعًا فيك، يَمُضّ إهابَك[2]، ويَعرُك أديمَك[3]،

(١) البازل: الجمل القوى الذى دخل فى سنته التاسعة. والهبع: الفصيل الذى ينتج فى الصيف فيكون ضعيفا.

(٢) يمض إهابك: يحرق جلدك. (٣) يعرك: يدلك.

ويُزرِى على هَذَيك . هنالك تقرع السنَّ من ندم، وتجرع الماء ممزوجاً بدم، وحينئذ تأسى على ما مضى من عمرك ودارج قوتك ، فتودّ أن لو سُقيتَ بالكأس التى أبيتَها ، ورُددتَ إلى حالتك التى استغويتَها . ولله تعالى فينا وفيك أمرٌ هو بالغهُ، وغيبٌ هو شاهدُه، وعاقبةٌ هو المرجو لسرّائها وضرّائها، وهو الولىّ الحميد، الغفور الودود .

قال أبو عُبيدة : فتمشّيت مترمّلا أنوء كأنما أخطو على رأسى، فَرَقاً من الفُرقة، وشَفَقاً على الأمّة، حتى وصلتُ إلى علىّ (١) رضى الله عنه فى خَلاء، فأبثثتُه بَثّى كلَّه، وبرِئتُ إليه منه، ورَفَقت به . فلما سمعها ووعاها ، وسَرَتْ فى مفاصلِه حُمَيّاها ، قال : "حلّت مَعْلُوطة (٢) ، وولّت مُخْرَوِّطة (٣)"، وأنشأ يقول :

إحدى لياليك فهِيسى هِيسى (٤) * لا تَنْعَمِى الليلةَ بالتعريسِ

نعمْ يا أبا عبيدة ، أكلُّ هذا فى أنفس القوم ، ويُحسّون به ، ويَضْطغِنون (٥) علىّ ! قال أبو عبيدة: فقلت: لا جواب لك عندى، إنما أنا قاضٍ حقّ الدّين، وراتقٌ فتق المسلمين، وسادٌّ ثُلْمة الأمّة، يعلم الله ذلك من جُلْجُلان (٦) قلبى، وقَرارة نفسى .

---

(١) هو أمير المؤمنين أبو الحسن على بن أبى طالب . وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزوج ابنته . ورابع الخلفاء الراشدين . وإمام الخطباء من المسلمين .

ولد رحمه الله بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم باثنين وثلاثين سنة . وهو أول من آمن من الصبيان . وكان شجاعا لا يشق له غبار . أيدا جليدا . شهد الغزوات كلها مع النبى إلا غزوة تبوك . وأبلى فى نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يبله أحد . ولما قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز وامتنع عن بيعته معاوية وأهل الشام شيعة بنى أمية غضبا منهم لمقتل عثمان وقلة عنايته بالبحث عن القتلة على حسب اعتقادهم، فحدث من جراء ذلك الفتنة العظمى بين المسلمين وافتراقهم الى طائفتين فتحاربوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعلى أو معاوية حتى قتل أحد الخوارج عليا غيلة بمسجد الكوفة . وكان كرم الله وجهه أفصح الناس بعد رسول الله . وأكثرهم علما وزهدا وشدة فى الحق : وهو إمام الخطباء من العرب على الاطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

(٢) معلوطة : مقتحمة من غير روية . (٣) مخروطة : مسرعة . (٤) هيسى : سيرى أىّ سير كان .

(٥) أى ينطوون على الضغن وهو الحقد . (٦) جلجلان قلبى، أى حبته .

فقال عليّ رضى الله عنه : والله ما كان قُعودى فى كَنَ هــذا البيت قصدًا للخلاف، ولا إنكارًا للمعروف ، ولا زِرَايةً على مسلم، بل لمــا قد وقَذنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فِراقه، وأودعنى من الحزن لفقده . وذلك أنى لم أشهد بعده مَشهدًا إلا جدّد علىّ حزنًا، وذكّرنى شجنًا . وإن الشوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره . وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرّق، رجاء ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وأسلم لعلمه ومَشيئته، وأمرِه ونهيه . على أنى ما علمت أن التظاهر علىّ واقع، ولا عن الحق الذى سيق إلىّ دافع . وإذ قد أُفعِمَ الوادى بى ، وحُشِد النادى من أجلى ، فلا مرحبًا بما ساء أحدًا من المسلمين وسرّنى . وفى النفس كلامٌ لولا سابقُ عقــد وسالف عهد ، لشَفَيْتُ غيظى بخِنْصَرى وبِنصَرى، وخُضْتُ لُجّته بأَخمَصى ومَفْرِق، ولكننى مُلْجَمٌ إلى أن ألقى الله ربى، وعنــده أحتسب ما نزل بى . وإنّى غادٍ إلى جماعتكم، فمبايعٌ صاحبكم، صابرٌ على ما ساءنى وسرّكم، لِيَقْضِىَ الله أمرا كان مفعولا .

قال أبو عُبيدة : فعدتُ إلى أبى بكر رضى الله عنه فقصَصْتُ عليه القولَ على غُرّه[1] ، ولم أختزل شيئا من حُلْوه ومُرّه ، وبكَرت غُدوةً إلى المسجد، فلما كان صباحُ يومئذ وإذا علىّ مخترق الجماعةَ إلى أبى بكر رضى الله عنهما فبايعه، وقال خيرا، ووصف جميلا، وجلس زَميتا[2]، واستأذن للقيام فمضى وتبعه عمر مُكرِمًا له، مستأثرا لمــا عنده .

فقال علىّ رضى الله عنــه : ما قعدتُ عن صاحبكم كارهًا، ولا أتيتهُ فَرِقًا، ولا أقول ما أقول تَعِلّة . وإنّى لأعرف منتهى طَرْفى، ومَحَطّ قَدَمى، ومَنْزَعَ قوسى، وموقعَ سهمى؛ ولكن قد أزَمْتُ على فأْسِى[3] ثِقةً بربى فى الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضى الله عنــه : كَفْكِف غَرْبَك، واستوقِف سِربَك ، ودَع العِصِىّ بلِحَائها، والدِّلاءَ على رِشَائها . فإنّا من خَلفِها وورائها ، إن قَدَحنا أَوْرَيْنا ، وإن مَتَحْنا أَرْوَيْنا ،

(١) على غرّه، أى كما هو وكما قص علىّ . (٢) زميتا : حليما وقورا . (٣) يقال : أزم الفرس على فأس اللجام اذا عضها وقبض عليها . وفأس اللجام : الحديدة المعترضة منــه فى الحنك . يريد أنه ألجم نفسه ثقة الخ .

وإن قرحنا أدمينا . ولقد سمعتُ أماثيلك التى لغزتَ بها عن صدرٍ أُكل بالجوى ، ولو شئتُ لقلتُ على مقالتك ما إن سمعته ندمتَ على ما قلتَ . وزعمتَ أنك قعدتَ فى كِنّ بيتك لما وقذك به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فقده ، فهو وقذك ولم يقذ غيرك ! بل مصابُه أعظم وأعم من ذلك ، وإن من حق مُصابه ألّا تصدع شمل الجماعة بفُرقةٍ لا عصام لها ، ولا يؤمن كيدُ الشيطان فى بقائها . هذه العرب حولنا ، والله لو تداعتْ علينا فى صبح نهار لم نلتقِ فى مسائه . وزعمتَ أن الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرةُ دينه ، ومؤازرةُ أوليائه ومعاونتهم . وزعمت أنك عكفتَ على عهد الله تجمع ما تفرق منه ؛ فمن العكوف على عهد الله النصيحةُ لعباد الله ، والرأفةُ على خلق الله ، وبذل ما يَصلُحون به ، ويَرْشُدون عليه . وزعمتَ أنك لم تعلم أن التظاهر واقعٌ عليك ، وأىُّ حقٍّ لُطَّ[1] دونك ! . قد سمعتَ وعلمتَ ما قال الأنصار بالأمس سرًّا وجهرا ، وتقلبتَ عليه بطنا وظهرا ، فهل ذكرتْ أو أشارتْ بك ، أو وجدتَ رضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلُح لهذا الأمر ؟ أو أومأ بعينه أو همّ فى نفسه ؟ أتظن أن الناس ضلُّوا من أجلك ، وعادوا كفّارا زهدًا فيك ، و باعوا الله تحاملًا عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءنى عَقيل ابن زِيَاد الخزرجى فى نفرٍ من أصحابه ومعهم شُرَحْبيل بن يعقوب الخزرجىّ وقالوا : إن عليًّا ينتظر الإمامة ، ويزعُم أنه أولى بها من غيره ، ويُنكِر على من يَعقد الخلافة ؛ فأنكرتُ عليهم ، ورددتُ القولَ فى نحرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوَحْىَ ويتوكَّف[2] مناجاةَ الملك ؛ فقلت : ذاك أمر طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أكان الأمر معقودًا بأُنشوطة[3] ، أو مشدودًا بأطراف لِيطة[4] ؟ كلَّا ! والله لا عجماءَ بحمد الله إلا أفصحتْ ، ولا شوكاءَ إلا وقد تفتّحتْ . ومن أعجب شانك قولك : «ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشفَيتُ غيظى» وهل ترك الدينُ لأهله أن يَشفُوا غيظَهم بيدٍ أو بلسان ؟ تلك جاهليةٌ وقد استأصل الله شأفتَها واقتلع جُرثومتَها ، وهوّر ليلَها ، وغوّر سيلَها ، وأبدل منها الرَّوحَ والريحان ، والهُدَى والبرهان .

(١) لط : جحد . (٢) يتوكف : ينتظر . (٣) الأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها ، اذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت . (٤) الليطة قشرة القصبة التى تلبط بها أى تلزق .

وزعمت أنك مُلْجَم، ولعمرى إنّ من اتقى الله، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه وأطبق فاه، وجعل سعيه لما وراه .

فقال على رضى الله عنه : مهلاً يا أبا حفص، والله مابذلتُ مابذلتُ وأنا أريد نكثه، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغى حِوَلاً عنه . وإنّ أخسر الناس صفقةً عند الله مَنْ آثر النفاق، واحتضن الشقاق، وفى الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكل فى جميع الحوادث . ارجع يا أبا حفص الى مجلسك ناقعَ القلب، مبرودَ الغليل، فسيحَ اللَّبان[1]، فصيحَ اللسان، فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشدّ الأَزْر، ويحطّ الوِزْر، ويضع الإِصْر، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنه : فانصرف علىّ وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ علىّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

✦

٢ — ومن كلام عائشة[2] رضى الله عنها فى الانتصار لأبيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضى الله عنه، فأرسلتْ الى أَزْفَلةٍ[3] من الناس، فلما حضروا، أسدلتْ أستارَها ، وعلَتْ وِسادَها ، ثم قالت : أبى، وما أبِيَهْ ! أبى والله لا تَعْطُوه[4] الأيدى، ذاك طودٌ مُنيف، وفرعٌ مَديد، هيهات، كذبتِ الظنون! أَنْجح إذ أَكْدَيتم، وسَبَق إذ وَنَيْتم ، سَبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأَمَد . فتى

(١) اللبان : الصدر . (٢) هى عائشة بنت أبى بكر الصديق بن أبى قحافة، عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين، ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع، وكان مولدها سنة أربع من النبوة، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر، وكان صداقها أربعمائة درهم ، وكانت أحب نسائه إليه ، وكنيتها أم عبد الله، كنيت بابن أختها أسماء، ولها خطب ووقائع . وكانت من أكبر العاملات فى وقعة الجمل المشهورة فى الاسلام صحبة الزبير وطلحة . وكانت أفصح أهل زمانها وأبينهم منطقا وأحفظهم للحديث وأفقههم . توفيت سنة سبع وخمسين ودفنت ليلا بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه . راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩) .
(٣) الأزفلة : الجماعة . (٤) لا تعطوه : لا تناله .

قريش ناشئا، وكهفها كهلا، يفك عانيها، ويريش مملقها، ويرأب شعبها، ويلم شعثها، حتى حليته قلوبها، ثم استشرى فى دين الله فما برحت شكيمته فى ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيى فيه ما أمات المبطلون. وكان رحمه الله غزير الدمعة، وقيذ الجوانح، شجى النشيج، فانقضت اليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون به (الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) فأكبرت ذلك رجالات من قريش فحنت قسيها، وفوقت سهامها، وانتثلوه غرضا، فما فلوا له صفاة، ولا قصفوا له قناة، ومر على سيسائه[1]، حتى اذا ضرب الدين بجرانه، ورست أوتاده، ودخل الناس فيه أفواجا، ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا، اختار الله لنبيه ما عنده؛ فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه، ومد طنبه، ونصب حبائله، وأجلب بخيله ورجله، واضطرب حبل الإسلام، ومرج عهده وماج أهله، وبغى الغوائل، وظنت رجال أن قد أكثبت أطماعهم نهزها، ولات حين الذى يرجون، وأنى والصديق بين أظهرهم! فقام حاسرا مشمرا، فجمع حاشيتيه ورفع قطريه، فرد رسن الإسلام على غربه، ولم شعثه بطبه، وأنتاش الدين فنعشه، فلما أراح الحق على أهله، وقرر الرءوس على كواهلها، وحقن الدماء فى أهبها، أتته منيته، فسد ثلمته بنظيره فى الرحمة، وشقيقه فى السيرة والمعدلة، ذاك ابن الخطاب، لله در أم حملت به ودرت عليه! لقد أوحدت به، ففنخ[2] الكفرة وديخها، وشرد الشرك شذر مذر، وبعج الأرض وبخعها، فقاءت أكلها، ولفظت خبأها[3]، ترأمه ويصدف عنها، وتصدى له ويأباها. ثم وزع فيها فيئها وودعها كما صحبها. فأرونى ماذا ترتئون، وأى يومى أبى تنقمون: أيوم إقامته اذ عدل فيكم، أم يوم ظعنه إذ نظر لكم؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم. ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت: أنشدكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئا؟ قالوا: اللهم لا.

---

(١) على سيسائه، أى على دأبه وعادته. (٢) فنخ: غلب وقهر. (٣) خبأها: ما غاب عنها.

٣ — كلمة أم الخير بنت الحريش[1]

ومن كلام أم الخير بنت الحُرَيش البارقية يوم صِفّين فى الانتصار لعلىّ رضى الله عنه :

يُروى أن معاوية كتب الى واليه بالكوفة أن يحمل اليه أمّ الخير بنت الحُرَيش البارقية برَحْلها، وأعلمه أنه مُجازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشر شرا . فلما ورد عليه كتابه ، ركب اليها فاقرأها الكتابَ، فقالت : أمّا أنا فغيرُ زائغة عن طاعةٍ ولا معتلّة بكذب ! ولقد كنتُ أُحِبّ لقاءَ أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صدرى . فلما شيّعها وأراد مفارقتها قال لها : يا أمّ الخير، إن أمير المؤمنين كتب الىّ أنه يجازينى بقولكِ فىّ بالخير خيرا وبالشرّ شرا ؛ فما عندكِ؟ قالت : يا هذا لا يُطمِعنّك برُّك بى أن أسرّك بباطل، ولا تؤيسْك معرفتى بك أن أقول فيك غيرَ الحق . فسارت خيرَ مَسير حتى قَدِمت على معاوية، فأنزلها مع حرمه ثلاثا، ثم أدخلها عليه فى اليوم الرابع، وعنده جلساؤه، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ قال لها : وعليك السلام يا أم الخير، وبالرغم منك دعوتنى بهذا الاسم ؛ قالت : مَهْ يا أمير المؤمنين ! فإن بديهة السلطان مَدْحَضة لما يجب علمه ولكل أجلٍ كتاب؛ قال : صدقتِ، فكيف حالك ياخالة؟ وكيف كنتِ فى مسيرك ؟ قالت : لم أزل فى عافيةٍ وسلامةٍ حتى صرتُ اليك فأنا فى مجلس أنيق، عند ملِك رفيق؛ قال معاوية : بحسن نيتى ظَفِرتُ بكم ؛ قالت : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله من دَحْض المقال وما تُرْدى عاقبتُه ؛ قال : ليس هذا أردنا ، أخبرينى كيف كان كلامك يوم قُتِل عمّار بن ياسر؟ قالت : لم أكن والله زوّرته[2] قبلُ ولا رويته بعدُ ، وإنما كانت كلماتٌ نفثهنّ لسانى حين الصّدمة، فان شئتَ أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلتُ؛ قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت الى أصحابه فقال : أيّكم يحفظ كلام أم الخير؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد؛ قال : هاتِه؛ قال : نعم كأنى بها يا أمير المؤمنين فى ذلك اليوم عليها

(١) منقولة عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨ (٢) زوّر الكلام فى نفسه : هيأه .

بُردٌ زَبيدىٌ كثيف الحاشية، وهى على جمل أرمك[1] وقد أُحيط حولها، وبيدها سوط منتشر الضفر، وهى كالفحل يهدر فى شِقشِقته تقول :

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)! ان الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل، ونوّر السبيل، ورفع العَلَم، فلم يَدَعكم فى عمياء مُبهمة! ولا سوداء مُدلَهمّة، فالى أين تريدون رحمكم الله ! أفرارًا من أمير المؤمنين، أم فرارًا من الزحف، أم رغبة عن الاسلام، أم ارتدادًا عن الحق ! أما سمعتم الله عزّ وجلّ يقول : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) .

ثم رفعت رأسها الى السماء وهى تقول :

قد عِيلَ الصبر، وضَعُف اليقين، وانتشر الرعب، وبيدك يا ربّ أزِمّةُ القلوب، فاجمع الكلمة على التقوى، وألّف القلوبَ على الهدى . هلمّوا رحمكم الله الى الإمام العادل، والوصىّ الوفىّ ، والصدّيق الأكبر! إنها إحَنٌ بدريّه، وأحقاد جاهليّه، وضغائن أُحُديّه، وثَب بها معاوية حين الغفلة ليُدرِك بها ثاراتِ بنى عبد شمس .

ثم قالت : قَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . صبرًا معشرَ المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرةٍ من ربكم، وثباتٍ من دينكم، وكأنى بكم غدًا قد لقيتم أهلَ الشأم كحُمُرٍ مُستنفِرة، فرّتْ من قَسْوَرة ، لا تدرى أين يُسلَكُ بها من فِجَاج الأرض، باعوا الآخرةَ بالدنيا ، واشتَرُوا الضلالةَ بالهدى ، وباعوا البصيرةَ بالعمى، وعمّا قليلٍ ليُصبِحُنّ نادمين، حين تَحُلّ بهم الندامة، فيطلبون الإقالة! إنه والله مَنْ ضلّ عن الحق وقع فى الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل فى النار . أيها الناس ، إن الأكياس استقصروا عمرَ الدنيا فرفضوها واستبطئوا مدّة الآخرة فسعَوْا لها . والله أيها الناس لولا أن تبطُلَ الحقوق، وتُعطّل الحدود، ويظهرَ الظالمون، وتَقْوَى كلمةُ الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فالى أين تريدون — رحمكم الله — عن ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) جمل أرمك : لونه لون الرماد .

وزوج ابنتــه وأبى ابنيه؟ خُلق من طينته، وتفرّع من نَبعته، وخصّــه بسرّه، وبجعله باب مدينته، وأعلمَ بحبه المسـلمين، وأبان ببغضه المنافقــين . فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونتــه، ويمضى على سنن استقامته، لا يعرج لراحة اللذات . وهو مُفلّق الهام، ومكسّر الأصنام، إذ صــلّى والناس مُشرِكون، وأطاع والناس مرتابون . فلم يزل كذلك حتى قتَل مُبارِزى بَدر، وأفنى أهــلَ أُحُد، وفرّق جَمعَ هوازن ؛ فيالهــا وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقا، ورِدّة وشِقاقا . وقد اجتهدتُ فى القول، وبالغتُ فى النصيحة، وبالله التوفيــق . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فقال معاوية : والله يا أمّ الخير ما أردتِ بهــذا إلا قتلى ! والله لو قتلتُــكِ ما حَرِجتُ فى ذلك .

قالت : والله ما يسوءنى يابن هند أن يُجرِىَ الله ذلك على يَدَىْ من يُسعدنى الله بشقائه ؛ قال : هيهاتَ يا كثيرة الفضول، ما تقولين فى عثمان بن عفان؟ قالت : وما عَسَيْتُ أن أقول فيه، استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال : إيهًا يا أم الخير، هذا والله أصلكِ الذى تبنين عليه؛ قالت : لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا، ما أردتُ بعثمان نقصا، ولقد كان سبّاقا إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة . قال : فما تقولين فى طلحة بنِ عبيد الله؟ قالت : وما عسى أن أقول فى طلحة، اغتيل من مأمنه، وأُتِىَ من حيث لم يَحْذَر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنةَ . قال : فما تقولين فى الزبير؟ قالت : يا هذا لا تَدَعْنى كَرجيع الصَّبيغ يُعرَكُ فى المِركَن[1]؛ قال : حقًّا لتقولِنّ ذلك وقد عزمتُ عليك؛ قالت : وما عَسَيتُ أن أقول فى الزبير ابنِ عمة رسول الله صلى الله عليه وسـلم وحَوَاريّه ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسـلم بالجنة، ولقد كان سبّاقا إلى كل مَكْرُمة فى الإسلام . وإنى

(١) المركن : الإجانة وهى إناء تغسل فيه الثياب . ويعرك : يحك . والرجيع المردود . أى لا تجعلنى كالثوب المصبوغ يحك فى الإناء مرة بعد أخرى لإخراج صبغه منه : تشـبه محاورة معاوية إياها وسؤاله لها مرة بعــد مرة لاستخراج ما فى نفسها بمـا يغسل من الثياب المصبوعة لاستخراج صبغها منها .

أسألك بحق الله يا معاوية، فإن قريشا تحدثت أنك من أحلمها، أن تسعني بفضل حلمك، وأن تعفيني من هذه المسائل، وامض لما شئت من غيرها؛ قال: نعم وكرامة، قد أعفيتك؛ وردها مكرّمة إلى بلدها .

◆◆◆

٣ — كلمة الزرقاء[1] بنت عدىّ

ومن كلام الزرقاء بنت عدىّ بن قيس الهَمْدانية ما قالته يوم صِفِّين أيضا :

يروى أنها ذُكرتْ عند معاوية يوما، فقال لجلسائه : أيُّكم يحفَظ كلامها؟ قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأشيروا علىّ فى أمرها، فأشار بعضهم بقتلها، فقال : بئس الرأى! أيحسُنُ بمثلى أن يقتل امرأة! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثِقة من ذوى مَحْرَمِها وعِدّة من فُرْسان قومها، وأن يمهّد لها وِطاءً لينا ، ويسترها بستر خَصِيف[2]، ويُوسّع لها فى النفقة . فلما دخلتْ على معاوية، قال: مرحباً بكِ وأهلا! قَدِمتِ خيرَ مَقْدَم قَدِمه وافد، كيف حالكِ ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة ! قال : كيف كنتِ فى مَسيرِكِ؟ قالت : ربيبةَ بيتٍ أو طِفلا ممهّدا؛ قال : بذلكِ أمرناهم. أتدرين فيم بعثتُ إليكِ؟ قالت: وأنّى لى بعلم مالم أعلم؟ وما يعلم الغيبَ إلا الله عز وجل؛ قال: ألستِ الراكبةَ الجمل الأحمر، والواقفةَ بين الصفّيْن بصِفّين تحضّين الناس على القتال، وتُوقدين الحربَ؟ فما حملك على ذلك؟ قالت : يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبُتِرَ الذَّنَب، ولن يعود ما ذهب؛ والدهر ذو غِيَرٍ، ومن تفكّر أبصر، والأمرُ يحدُث بعده الأمر؛ قال

(١) هى الزرقاء بنت عدىّ بن غالب بن قيس الهمدانية، كانت من أهل الكوفة، وكانت ذات شجاعة فائقة، وبلاغة نادرة، شهدت مع قومها واقعة صفين، ولها عدّة خطب تحرّض الناس فيها على القتال ضد معاوية . وبعد أن تم لمعاوية ما أراد كتب الى عامله بالكوفة باستدعائها، فأحضرت اليه، وبعد محاورة بينه وبينها سألها حاجتها، فقالت : « يا أمير المؤمنين، آليت على نفسى ألا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا» ثم انصرفت، وبعد ذلك أرسل لها معاوية جائزة . (٢) خصيف : غليظ .

لها معاوية: أتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت: لا والله، ولقد أُنسيتُه؛ قال: لكنى أحفظه، لله أبوكِ حين تقولين:

أيها الناس، اِرعَوُوا وآرجعُوا! إنكم أصبحتم فى فتنةٍ غشَّتكم جلابيبَ الظلم، وجارت بكم عن قصد المحَجّة. فيالها فتنةً عمياء، صَمّاء بكْماء، لا تسمع لناعقها، ولا تَسْلَس لقائدها. إن المصباح لا يُضىء فى الشمس، والكواكب لا تُنير مع القمر، ولا يقطعَ الحديدَ إلا الحديد. ألا مَنْ آسترشد أرشدناه، ومَنْ سألنَا أخبرناه.

أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالّته فأصابها! فصبرًا يامعاشر المهاجرين والأنصار على الغُصَص، فكأنْ قد آندمل شَعْبُ الشّتات، وآلتأمت كلمةُ التقوى، ودَمَغ الحقُّ باطلَه! فلا يجهلن أحدٌ فيقول: كيف العدلُ وأنّى! ليقضِى الله أمرًا كان مفعولا. ألا وإن خِضاب النساء الحنّاء، وخِضابَ الرجال الدماء! ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خيرٌ فى عواقب الأمور. إيهًا الى الحرب قُدُمًا غيرَ ناكصين ولا مُتَشاكِسين.

ثم قال لها: يازرقاء، لقد شَرِكْتِ عليًّا فى كل دم سَفَكه؛ قالت: أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك؛ فمثلُك من بشّر بخير وسَرّ جليسه؛ قال: ويسُرّك ذلك؟ قالت: نعم سُررتُ بالخبر فأنّى لى بتصديق الفعل! فضحك معاوية وقال: لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ عندى من حبكم له فى حياته! أذكرى حاجتَك؛ قالت: يا أمير المؤمنين، آليتُ على نفسى ألّا أسأل أميرا أعنتُ عليه أبدا، ومثلك من أعطى من غير مسألة، وجاد من غير طلْبة؛ قال: صدقتِ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكُسًا.

٤ — عكرشة بنت الأطرش

ومن كلام عِكْرِشة بنت الأطرش ما قالته يوم صِفّين أيضا:

يُروى أنها دخلت على معاوية متوكّئة على عُكّازٍ لها، فسلّمت عليه بالخلافة ثم جلست؛ فقال لها معاوية: الآن صرتُ عندكِ أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إذ لا علىّ حىّ! قال:

ألستِ المتقلِّدة حمائل السيف بصِفِّين وأنت واقفة بين الصفَّين تقولين : أيها الناس ، عليكم أنفسكم لا يضرُّكم من ضلّ اذا آهتديتم . إن الجنة لا يحزَن من قَطَنها ، ولا يهرَم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ؛ فابتاعوها بدارٍ لا يدوم نعيمُها ، ولا تنصرم همومُها . وكونوا قومًا مستبصِرين فى دينهم ، مستظهِرين على حقِّهم ؛ إن معاوية دلَف إليكم بعجم العرب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرُون ما الحكمة . دعاهم الى الباطل فأجابوه ، واستدعاهم إلى الدنيا فلبَّوْه . فاللهَ اللهَ عبادَ الله فى دين الله ! وإياكم والتَّوا كُلَ فإن ذلك ينقض عُرَى الإسلام ، ويُطفئ نورَ الحق . هذه بَدْرٌ الصغرى ، والعقَبة الأخرى . يا معشر المهاجرين والأنصار ، آمضوا على بصيرتكم ، وآصبِروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غدًا وقد لَقِيتم أهلَ الشأم كالحُمُر الناهقة تَقْصَع قصعَ البعير[(١)] .

ثم قال : فكأنى أراك على عصاك هذه قد انكفأ عليك العسكران يقولون هذه عِكرِشة بنت الأطرش ، فإن كدتِ لَتَقْتُلِين أهل الشأم لولا قَدَرُ الله ، وكان أمر الله قَدَرًا مقدورا ، فما حملكِ على ذلك؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، يقول الله جل ذكره : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية ، وإن اللبيب إذا كرِه أمرًا لا يحبّ إعادته ؛ قال : صدقتِ ، فاذكرى حاجتك ؛ قالت : كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فتُرَدّ على فقرائنا ، وقد فقدنا ذلك ، فما يُجْبَر لنا كَسير ، ولا يُنْعَش لنا فقير ؛ فإن كان عن رأيك فمثلُك من آنتبه من الغفلة وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك فما مثلُك من آستعان بالخَوَنة ، ولا آستعمل الظَّلَمة ؛ قال معاوية : يا هذه ، إنه ينوبُنا من أمور رعيتنا ثغورٌ تنفتق ، وبحور تندفق ؛ قالت : سبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقا فجعل فيه ضررا لغيرنا وهو علّام الغيوب ؛ قال معاوية : هيهاتَ يا أهل العراق ، نبّهكم علىّ فلن تُطَاقوا . ثم أمر بردّ صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

---

(١) يقال : قصع البعير بجرّته يقصع قصعا : مضغها .

٦ — رسالة لعبد الحميد الكاتب[1]

كتب عبد الحميد[2] بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لبعض من ولاه[3] :

أما بعدُ ، فإنّ أميرَ المؤمنين — عند ما اعتزم عليه من توجيهك الى عدوّ الله الجلف الجافِي الأعرابيّ، المتسكع فى حيْرة الجهالة، وظُلَم الفِتنة، ومهاوِى الهَلَكة ، ورَعاعه الذين عاثُوا فى أرض الله فسادًا ، وانتهكوا حُرْمةَ الإسلام استخفافا ، وبدّلوا نِعمة الله كفرا ، واستحلّوا دِماءَ أهل سِلْمه جهلا — أحبَّ أن يَعْهَد اليك فى لطائِف أمورك، وعَوامّ شُؤونِك ، ودخائِل أحوالِك ، ومُصْطَرَف تنقُّلك عَهْدا يحمِّلك فيه أدبَه، ويَشْرَع لك به

---

(١) هذه الرسالة منقولة عن صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٩٥ (٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرىّ ولاء، الشامى دارا ، شيخ الكتّاب الأوائل ، وأوّل من أطال الرسائل .

كان عبد الحميد من أهل الشام من موالى بنى عامر، وتخرج فى البلاغة والكتابة على ختنه أبى العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب دولته وأحد بلغاء العالم والنقلة من اليونانية . وكان عبد الحميد فى أوّل أمره معلم صبيان يتنقل فى البلدان حتى فطن له مروان بن محمد أيام توليته أرمينية وانتدابه لتسكين فتنتها ، فكتب له مدّة ولايته ، حتى إذا بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة سجد مروان لله شكرا وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان لم لا تسجد؟ فقال : ولم أسجد؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا ! قال : إذا تطير معى ؛ قال : الآن طاب لى السجود وسجد، فاتخذه مروان كاتب دولته، فصدر عنه من الرسائل ما صار نموذجا يحاكيه من بعده من البلغاء .

ولما دهمت مروان جيوش خراسان أنصار الدعوة العباسية وتوالت عليه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه فى كل هذه الشدّة ؛ فقال له مروان : قد احتجت أن تصير مع عدوّى وتظهر الغدر بى ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تحوجهم إلى حسن الظن بك ؛ فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى وإلا لم تعجز عن حفظ حرمى بعد وفاتى ؛ فقال له : إن الذى أشرت به علىّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . وأنشد :

أسرّ وفاء ثم أظهر غدرة * فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره

وبقى معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ ففر واختبأ عند صديقه ابن المقفع ففاجأه الطلب وهو فى بيته ، فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، خوفا على صاحبه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال : ترفقوا بنا فإن كلا منا له علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ويمضى بعض آخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم ففعلوا وأخذ عبد الحميد إلى السفاح فقتله سنة ١٣٢ هـ . انظر ترجمته فى ابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٦) . (٣) هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى .

عِظَتَه ، وإن كنتَ بحمد الله من دِينِ الله وخِلافتِه بحيث اصطنعك اللهُ لوِلاية العَهد مختصًّا لك بذلك دون لُحمتك وبَنِي أبيـك . ولولا ما أمرَ الله تعالى به دالًّا عليـه ، وتقدّمتْ فيه الحكماءُ آمرِين به : من تقديمِ العِظَة ، والتذكيرِ لأهلِ المعرفة ، وإن كانوا أُولِي سابقةٍ فى الفضل وخِصّيصاء فى العِلم ، لاعتمدَ أميرُ المؤمنين على اصطناع الله إيّاك وتفضيلِه لك بما رآك أهلَه فى محلّك من أميرِ المؤمنين ، وسبْقِك الى رغائبِ أخلاقِه ، وانتزاعِك محمودَ شِيمِه ، واستيلائِك على مَشابِهِ تدبِيره . ولو كان المؤدِّبون أخذوا العلمَ من عِند أنفسِهم ، أو لُقِّنوه إلهاماً من تِلقائهم ولم يُصبهم تعلّموا شيئا من غيرِهم ، لنَحَلْناهم عِلمِ الغيب ، ووضعناهم بمنزلةٍ قصَّربهـا عنهم خالِقُهم المستأثِر بعلم الغيب عنهم بوَحْدانيّته فى فردانيّته وسابِقِ لاهُوتِيّتِه ، احتجاباً منهم لتعقّبٍ فى حكمه ، وتثبُّتٍ فى سـلطانه وتنفيذِ إرادته ، على سابقِ مشيئته . ولكن العالِمَ الموفَّق للخير ، المخصوص بالفضل ، المحبُوّ بمزيّة العلم وصفوته ، أدركه مُعاناً عليه بلطف بحثه ، وإذلال كَنَفه ، وصِحّة فهمه ، وهَجْرِ سآمتِه .

وقد تقـدّم أميرُ المؤمنين إليك ، آخذًا بالحجّـة عليك ، مؤدِّيا حقّ الله الواجبَ عليـه فى إرشادك وقضاءِ حقّك ، وما ينظر به الوالد المَعْنِيُّ الشفيق لولَده . وأميرُ المؤمنين يرجو أن ينزّهك الله عن كل قَبِيح يَهَشُّ له طمَع ، وأن يَعصِمك من كلّ مكروهٍ حاقَ بأحدٍ ، وأن يحصِّنك من كلّ آفة استولتْ على امرِئٍ فى دِين أو خُلُق ، وأن يبلّغه فيك أحسنَ ما لم يَزل يعوِّده ويُرِيه من آثار نعمةِ الله عليك ، ساميةً بك الى ذِروة الشرف ، متبَحبِحةً بك بَسْـطةَ الكرم ، لائحةً بك فى أزهرِ معالِى الأدب ، مُورِثةً لك أنفَسَ ذخائرِ العِزّ ؛ واللهَ يسـتخلِف عليـك أميرُ المؤمنين ويسألُ حِياطتَـك ، وأن يعصِمك من زَيْغ الهوى ، ويُحضرك داعِيَ التوفيق ، مُعاناً على الإرشاد فيه ، فإنه لا يُعين على الخير ولا يوفِّق له إلا هو .

اِعلم أنـ للحكمة مسالكَ تُفضِى مضايِقُ أوائِلها بمن أَمَّها سالِكا ، وركِب أخطارها قاصدا ، الى سَـعَةِ عاقِبتها ، وأمْنِ سَرْحها ، وشرفِ عِزّها . وأنها لا تُعار بسُخْف الخِفّة ، ولا تُنشَأ بتفريط الغفلة ، ولا يُتعدّى فيها بامرِئٍ حدُّه . وربمـا أظهرتْ بسـطةُ الغِيّ

مستورَ العيب . وقد تلقّتـك أخلاقُ الحكمة من كل جهةٍ بفضلها، من غير تعب البحث في طلبها، ولا مُتطاوَلٍ لمنـاولة ذِرْوتها ؛ بل تأثلتَ منها أكرمَ نَبعاتها ، واستخلصتَ منهـا أعتقَ جواهرِها ؛ ثم سموتَ الى لُبـاب مُصَاصها[1] ، وأحرزتَ مُنفِسَ ذخائرها ، فاقتعِـد ما أحرزتَ، ونافِسْ فيما أصبتَ .

واعلم أن احتواءَك على ذلك وسَبْقَك إليه بإخلاصِ تقوى الله في جميع أمورك مُؤْثِرًا لهـا ، وإضمارِ طاعته منطويًا عليها ، وإعظامِ ما أنعم الله به عليك شاكرًا له ، مرتبطًا فيـه للزيد بحسن الحياطة له والذَّبِّ عنـه من أن تَدْخُلك منه سآمةُ مَلال ، أو غفلةُ ضَيـاع ، أو سِنَة تهاون ، أو جَهالة معرفة ، فإن ذلك أحقّ ما بُدِئَ به ونُظِر فيه ، معتمِدا عليه بالقوة والآلةِ والعُدّة والأفراد به من الأصحابِ والخاصّة . فتمسّكْ به لاجئًا إليه ، واعتمِد عليـه مؤثرا له ، والتجِئ إلى كَنَفه متحيِّزًا إليـه : فإنه أبلغُ ما طُلِب به رضا الله وأنجحُه مسألة ، وأجزله ثوابا ، وأعوده نفعا ، وأعمّه صلاحا ، أرشدك اللهُ لحظّك ، وفهّمك سَداده ، وأخذ بقلبك إلى محمودِه . ثم اجعـل لله في كل صباح يُنعِم عليك ببلوغه ، ويُظهِر منك السلامة في إشراقه ، من نفسك نصيبًا تجعله له شكرا على إبلاغه إيّاك يومَك ذلك بصحّةِ جوارح وعافيةِ بَدَن ، وسُبوغ نِعَم ، وظهور كرامة ، وأن تقرأ فيه من كتاب الله ــ تبارك وتعالى ــ جزءا تُردِّد رأيك في آيه ، وترتّل[2] لفظك بقراءته ، وتُحضِره عقلَك ناظرًا في مُحكَمه ، وتتفهّمه مفكرا في مُتَشابِهه : فإن في القرءان شفاءَ الصدور من أمراضها ، وجِلاء وساوِس الشيطان وصَعَاصِعِه[3] ، وضياء مَعالم النّـور ، تبيانا لكل شيء وهـدى ورحمة لقومٍ يؤمنون . ثم تعهّدْ نفسك بمجاهدة هواك ، فإنه مِغـلاق الحسنات ، ومِفتاح السيئات ، وخَصم العقل .

واعلم أن كل أهوائك لك عدوٌّ يحاوِل هَلَكتك ، ويعـترِض غفلتك ، لأنهـا خُدَع إبليس ، وخَواتِل مكره ، ومصايدُ مَكيدته ؛ فاحذرها مجانبا لها ، وتوقّها محترِسا منها ؛ واستعِذ

(١) المصاص : خالص كل شيء .

(٢) كذا في صبح الأعشى وفي مفتاح الأفكار (ص ٢٨٢) وغيره « وتزين » .

(٣) الصعاصع : جمع صعصع وهو طائر أشهب يصيد الجنادب ، شـبه وسوسة الشيطان به . وفي بعض المؤلفات «وسفاسفه» .

بالله عزّ وجلّ من شرها، وجاهدها إذا تناصرتْ عليك بعزمٍ صادقٍ لا وَنيَـةَ[1] فيه، وحزمٍ نافذٍ لا مَثْنوِيّةَ[2] لرأيك بعد إصداره، وصدقٍ غالبٍ لا مطمعَ فى تكذيبه، ومضاءةٍ صارمةٍ لا أناةَ معها، ونيّةٍ صحيحةٍ لا خَلْجةَ شكٍّ فيها: فإن ذلك ظِهْرِىٌّ صِدقٍ لك على رَدعها عنك، وقمعها دون ما تتطلّع إليه منك، فهى واقيةٌ لك سُخْطةَ ربّك، داعيةٌ إليك رضا العامّةِ عنك، ساترةٌ عليك عيبَ من دونك، فازدنْ بها متحلّيا، وأَصِب بأخلاقك مواضِعَها الحميدةَ منها، وتوقّ عليها الآفةَ التى تقتطِعُك عن بلوغها، وتقصِّر بك دون شأوها: فإن المؤونة إنما اشتدّت مستَصْعِبةً، وفَدَحت باهظةً أهلَ الطلب لأخلاق أهل الكرم المنتحِلين سموَّ القدْر، بجهالةِ مواضعِ ذميم الأخلاق ومحمودها، حتى فرّط أهلُ التقصير فى بعض أمورهم، فدخلَتْ عليهم الآفات من جهاتٍ أَمِنُوها، فنُسِبوا إلى التفريط، ورضُوا بذلّ المنزِل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، عَمِيهين عن دَرَج الشرف، ساقطين دون منزلة أهل الحِجا. فحاوِل بلوغَ غاياتها مُحرِزا لها بسبْق الطلب إلى إصابة الموضِع، محصِّنا أعمالك من العُجب: فإنه رأس الهوى، وأوّل الغَواية، ومَقاد الهَلَكة؛ حارسًا أخلاقك من الآفات المتّصِلة بمساوِى الألقاب وذميمِ تنابُزِها، من حيث أتت الغفلة، وانتشر الضَّياع، ودخَل الوَهْن. فتوقَّ غُلُوبَ الآفاتِ على عقلك، فإن شواهد الحق ستُظهِر بأماراتها تصديقَ آرائك عند ذوِى الحِجا حالَ الرأيِ ومَحْصِ النظر. فاجتلِبْ لنفسك محمودَ الذّكر وباقِى لسانِ الصّدق بالحذر لما تقدّم إليك فيه أمير المؤمنين، متحرِّزا من دخول الآفاتِ عليك من حيث أمنك وقلّة ثقتك بمُحْكَمِها: من ذلك أن تملِك أمورَك بالقصد، وتدارِىَ جُندك بالإحسان، وتصونَ سِرّك بالكِتمان، وتداوِىَ حِقدك بالإنصاف، وتذلِّلَ نفسك بالعدل، وتحصِّنَ عيوبك بتقويم أَوَدِك، وتمنَعَ عقلك من دخول الآفاتِ عليه بالعُجب المُرْدِى. وأناتَك فوقِّها المَلالَ وفوتَ العمل، ومضاءتَك فدرِّعها رويّةَ النظر واكْنُفها بأناة الحِلم. وخلوتَك فاحرُسها من الغفلة واعتيادِ الراحة، وصَمْتَك

---

(١) لا ونية: لا توانى. (٢) أى لا استثناء.

فانفِ عنه عِيَّ اللفظ ، وخَفْ سوء القالَة ، وٱستماعك فازِمه حُسن التفهّم ، وقوِّه بإشهاد الفِكر، وعطاءك فأمهِد له بيوتاتِ الشرفِ وذوِى الحسب، وتحرّز فيه من السَّرَف وٱستطالة البَذْخ وٱمتنانِ الصنيعة، وحياءك فامنَعه من الخجل وبلادةِ الحَصَر، وحِلمَك فزَعْه عن التهاون وأحضِره قوّةَ الشكيمة ، وعقوبتَك فقصِّر بها عن الإفراط ، وتعمّد بها أهلَ الاستحقاق، وعفوَك فلا تُدخِله تعطيلَ الحقوق، وخذْ به واجبَ المفترض ، وأقِم به أوَدَ الدِّين، وٱستِئناسَك فامنعْ منه البَذَاء وسوء المُنَاقَشَة[١] . وتعهّدْ أمورَك فخُذه أوقاتا، وقدِّره ساعاتٍ لاتستفرغ قوّتك، ولا تستدعِى سآمتَك، وعَزَماتِك فأنفِ عنها عجلة الرأى، ولجاجةَ الإقدام ، وفرحاتِك فاشكُلْها عن البَطَر، وقيِّدها عن الزَّهْو، وروْعاتِك فحُطْها من دَهَش الرأى وٱستِسلام الخضوع ، وحذَرَاتِك فامنعها من الجبن ، وٱعمِد بها الحزم، ورجاءَك فقيِّده بخوف الفائت، وٱمنعه من أمْنِ الطَّلب .

هذه جوامعُ خِلال، دخَّالُ النقصِ منها واصلٌ إلى العقل بلطائف أبْنَه، وتصاريف حوِيله[٢] ، فأحكِمها عارفًا بها، وتقدّم فى الحِفظ لها، معتزِما على الأخْذ بمراشِدها والانتهاءِ منها إلى حيث بلغتْ بك عِظةُ أمير المؤمنين وأدبُه إن شاء الله .

ثم لتكن بِطانتُك وجلساؤك فى خلواتك ودخلاؤك فى سِرّك، أهلَ الفِقه والورع من خاصّة أهلِ بيتك، وعامّة قوادِك ممن قد حنّكته السنُّ بتصارِيفِ الأمور، وخبّطته فِصالُها بين فراسِن البُزّل[٣] منها، وقلّبته الأمور فى فنونها، وركب أطوارها ، عارفًا بمحاسن الأمور ومواضع الرأى وعينِ المشورة، مأمونَ النصيحة، منطوِىَ الضمير على الطاعة . ثم أحْضِرهم من نفسك وقارًا يستدعِى لك منهم الهيبة ، وٱستِئناسا يَعطِف إليك منهم المودّة، وإنصاتا يفُلّ إفاضتهم له عِندك بما تكره أن يُنشر عنك من سخافة الرأى وضَياع الحزم . ولا يَغلِبنّ عليك هواك فيصرِفك عن الرأى ويقتَطِعك دون الفِكر . وتعلّم أنك وإن خلوتَ بسرّ

(١) يقال : ناقش فلان فلانا بالكلام : آذاه .

(٢) الحويل : الحذق والقدرة على التصرف .

(٣) الفراسن : واحدها فرسن وهو طرف خف البعير .

فألقيتَ دونه سُتورك، وأغلقتَ عليه أبوابك ، فذلك لا محالة مكشوفٌ للعامّة ، ظاهرٌ عنك وإن آستترت بربّما ولعلّ وما أرَى إذاعة ذلك وأعلم، بما يرون من حالاتٍ من ينقطع به فى تلك المواطن . فتقدَّمْ فى إحكام ذلك من نفسك، وآسدُد خلله عنك : فإنه ليس أحدٌ أسرعُ إليه سوء القالة ولغَطُ العامّة بخيرٍ أو شرٍّ ممن كان فى مثل حالك ومكانك الذى أصبحتَ به من دينِ الله والأملِ المرجوّ المنتظرِ فيك . وإيّاك أن يَغمِز فيك أحدٌ من حامّتك وبطانة خدَمتك بضَعْفةٍ يجد بها مَساغا الى النطق عندك بما لا يَعتَرِك عيبُه، ولا تخلو من لائمتِه، ولا تأمنُ سوء الأُحدُوثة فيه، ولا يرخُص سوءُ القالةِ به إن نجَم ظاهرا أو عَلَنَ باديا، ولن يجترئوا على تلك عندك إلا أن يروْا منك إصغاء إليها وقبولا لها وترخيصا لهم فى الإفاضةِ بها . ثم إيّاك وأن يُفاض عندك بشىءٍ من الفُكاهات والحِكاياتِ والمِزاح والمَضاحِك التى يَستخِفّ بها أهلُ البِطالة، ويتسرّع نحوها ذوو الجهالة، ويجِد فيها أهلُ الحسد مقالا لعيب يذيعونه، وطعْنا فى حقّ يجحدونه، مع ما فى ذلك من نقص الرأى، ودَرَن العِرض، وهدْم الشرف، وتأثيل الغفْلة ، وقوّة طِباعِ السوءِ الكامنةِ فى بنى آدم كَكُمُون النار فى الحجر الصَّلْد، فاذا قُدِح لاح شررُه، وتلهّب وميضُه، ووَقَد تضرمه . وليست فى أحد أقوى سطوةً، وأظهرَ توقُّدا، وأعلى كُمونا، وأسرَع إليه بالعيب وتطرّق الشَّيْن منها لمَن كان فى مِثل سِنّك : من أغفال[1] الرجال وذوى العُنفُوان فى الحداثة الذين لم يقع عليهم سِمَات الأمور، ناطقا عليهم لائحُها، ظاهرا فيهم وسْمُها، ولم تمحّضهم شهامتَها، مظهِرةً للعامة فضلَهم، مُذيعة حسنَ الذكر عنهم، ولم يبلُغ بهم الصِّيت فى الحُنكة مستمَعا يدفعون به عن أنفسهم نواطِقَ ألسُن أهل البَغى، وَمَوادَّ أبصار أهل الحسد .

ثم تعهَّدْ من نفسك لطيفَ عيب لازمٍ لكثيرٍ من أهل السلطان والقدرة : من إبطار[2] الذرع ونخوة الشّرف والتّيه وعيب الصّلَف ، فإنها تُسرِع بهم الى فسادٍ وتهجين

(١) الأغفال جمع غفل وهو الذى لم يجرب الأمور . (٢) يقال : أبطره ذرعه اذا حمله فوق ما يطيق . وفى صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٠١) «أبطال الذرع» . وقد توقف فيها مصححه .

عقولهم فى مواطن جمّة، وأنحاء مُضْطرِفة، منها قلة اقتدارهم على ضبط أنفسهم فى مواكبهم ومسايرتهم العامّة : فمن مُقَلقِل شخصه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله، تزدهيه الخفّة، ويُبطره إجلابُ الرجال حوله ؛ ومن مُقْبِل فى موكبه على مداعبة مُسايره بالمفاكهة له والتضاحُك إليه، والإيجاف فى السير مَرَحا، وتحريك الجوارح متسرّعا يخال أن ذلك أسرعُ له وأحثُّ لمطيته . فلتحسُنْ فى ذلك هيئتك، ولتجمُلْ فيه دَعَتك ؛ وليقِلَّ على مُسايرك إقبالُك إلا وأنت مطرِق النظر، غيرُ ملتفتٍ إلى محدِّث، ولا مقبل عليه بوجهك فى موكبك لمحادثته، ولا مُوجِف فى السير مقلقِل لجوارحك بالتحريك والاستنهاض؛ فإن حسنَ مسايرة الوالى واتّداعه فى تلك الحالة دليلٌ على كثير من غيوب أمره ومستتر أحواله .

واعلم أن أقواما يتسرّعون إليك بالسِّعاية، ويأتونك على وجه النّصيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة، ويستدعونك بالإغراء والشبهة، ويُوطئونك عَشْوة الحيْرة : ليجعلوك لهم ذريعة إلى استئكال العامّة بموضعهم منك فى القَبول منهم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة، او أسرعوا بك فى أمره إلى الظِّنّة ؛ فلا يَصلنّ إلى مشافهتك ساعٍ بشُبهة، ولا معروفٌ بتهمة ، ولا منسوبٌ إلى بِدعة فيعرِّضك لإيتاغ(١) دينك، ويحملك على رعيّتك بما لا حقيقة له عندك ، ويُلْحِمك(٢) أعراضَ قوم لا علم لك بدَخلهم(٣) ، إلا بما أقدم به عليهم ساعيا وأظهر لك منهم مُتنَصِحا . وليكن صاحبُ شُرْطتك المتولّى لإنهاء ذلك هو المنصوبَ لأولئك، والمستمعَ لأقاويلهم، والفاحصَ عن نصائحهم؛ ثم ليُنْهِ ذلك إليك على ما يُرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه، وتَقِفه على رأيك من غير أن يَظهر ذلك للعامّة : فإن كان صوابا نالتك خيرَتُه، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل، أو فَرْطةً سعى بها كاذب، فنالت الساعيَ منها أو المظلومَ عقوبةٌ ، أو بدَر من واليك إليه عقوبةٌ ونكال، لم يَعْصِب(٤) ذلك الخطأُ بك ولم تُنْسَب إلى تفريط، وخلوتَ من موضع الذمّ فيه محْضِرا إليه ذهنك وصوابَ رأيك.

---

(١) أوتغ دينه بالإثم : أفسده . (٢) ألحمه عرض فلان : أمكنه منه يشتمه . (٣) دخل الرجل (بالفتح والكسر) : نيته ومذهبه . (٤) لم يعصب أى لم يلحق .

وتقدّمْ الى من تُولِّي ذلك الأمرَ وتعتمِد عليه فيه ألا يُقْدِم على شيء ناظرًا فيه ، ولا يحاول أخْذَ أحد طارقًا له ، ولا يُعاقِبَ أحدا مُنكِّلا به ، ولا يُخَلِّيَ سبيلَ أحد صالحًا عنه لإصْحار(١) براءته وصِحّة طريقته ، حتى يرفَع إليك أمرَه ، ويُنْهِي إليـك قضيّته على جهة الصّدق ، ومَنْحَى الحقّ ، ويقِين الخبر ؛ فإن رأيتَ عليه سبيلا لمَحْبَس أو مجازًا لعقوبة ، أمرتَه بتولّي ذلك من غير إدخالِه عليك ، ولا مشافهةٍ لك منـه ؛ فكانْ المتولّيَ لذلك ولم يَجرِ على يديك مكروهُ رأْى ولا غِلظةُ عقوبة . وإن وجدتَ إلى العفو عنـه سبيلا ، أو كان مما قُرِف به خَلِيًا ، كنتَ أنتَ المتولّيَ للإنعام عليـه بتخلِيَةِ سبيله ، والصفحِ عنه بإطلاق أسْره ، فتولّيتَ أجرَ ذلك وآستحققت ذُخْره ، وأنطقتَ لسانَه بشكرك ، وطوّقتَ قومَه حمْـدَك ، وأوجبتَ عليهم حقّك ؛ فقرَنْت بين خَصْلتين ، وأحرزْت حُظوتيْن : ثوابَ الله فى الآخرة ، ومحمـودَ الذكر فى الدنيا .

ثم إيّاك أن يصِـلَ إليك أحدٌ من جندك وجلسائك وخاصّتك وبطانتِك بمسألة يَكشِفها لك ، أو حاجةٍ يَبْـدَهُك بطلبها ، حتى يرفعَها قبـل ذلك إلى كاتبك الذى أهدفتَه لذلك ونصبتَه له ، فيعرِضَها عليك مُنْهيا لها على جهة الصّدق عنها ، وتكونَ على معـرفة من قدْرها : فإن أردتَ إسعافَه بها وإنجاحَ ما سألَ منها ، أذِنتَ له فى طلبها ، باسطًا له كَنَفك ، مُقبِلا عليه بوجهك ، مع ظهور سرورك بمـا سألك ، وفُسْحة رأى وبَسْطة ذَرْع ، وطِيبِ نفس . وإن كَرِهتَ قضاء حاجتـه ، وأحببتَ ردّه عن طَلِبته ، وثقُل عليك إجابتـه إليها وإسعافُه بها ، أمرتَ كاتبك فصفَحه(٢) عنها ، ومنعه من مواجهتِك بها ؛ فخفت عليك فى ذلك المؤونةُ ، وحَسن لك الذكرُ ، ولم يُنْشَر عنك تجهُّم الردّ ، ويَنلْك سوءُ القالة فى المنع ، وحُمِل على كاتبك فى ذلك لائمةٌ أنت منها برىء الساحة .

وكذلك فليكن رأيُك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود وأتاك من الرُّسل ، فلا يَصِلَنّ إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليـك ، وعِلم ما قَدِم له عليك ، وجِهةِ ما هو مكلّمك

(١) أى لوضوح براءته ، ففى حديث علىّ : فأصحر لعدوّك ، أى كن من أمره على أمر واضح .
(٢) صفحه عنها ، ردّه عنها .

به، وقدّر ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك، فأصدرتَ رأيك فى حوائجه، وأجلتَ فكرك فى أمره، واخترتَ معتزماً على إرادتك فى جوابه، وأنفذت مصدور رويّتك فى مرجوع مسألته قبل دخوله عليك، وعلمه بوصول حاله إليك؛ فرفعتَ عنك مؤونة البديهة، وأرخيتَ عن نفسك خناق الرويّة، وأقدمتَ على ردّ جوابه بعد النظر وإجالة الفكر فيه . فإن دخل إليك أحدٌ منهم فكلّمك بخلافِ ما أنهى إلى كاتبك وطوى عنه حاجته قِبلك، دفعته عنك دفعا جميلا، ومنعتَه جوابك منعا وديعا؛ ثم أمرتَ حاجبك بإظهار الجفوة له والغلظة عليه، ومنعه من الوصول إليك؛ فإن ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب، صارفاً عنك مؤونتها، ومسهّلا عليك مستصعبَها .

إحذرْ تضييعَ رأيك وإهمالَك أدبَك فى مسالك الرضا والغضب واعتوارهما إياك، فلا يزدهينّك إفراطُ عُجب تستخفّك روائعُه، ويستهويك منظرُه، ولا يبدُرَنّ منك ذلك خطأً وتَزَق خِفّة لمكروه إن حلّ بك، أو حادثٍ إن طرأ عليك . وليكن لك من نفسك ظِهْرِيّ ملجأ تحترز به من آفاتِ الردى، وتستعضده فى مُهِمّ[1] نازلٍ، وتتعقب به أمورك فى التدبير . فإن احتجتَ إلى مادّة من عقلك، وروِيّةٍ من فِكرك، أو انبساطٍ من منطقك، كان انحيازُك إلى ظِهريّك مُزدادا مما أحببتَ الامتياح منه والامتيار؛ وإن استدبرتَ[2] من أمورك بوادرُ جهلٍ أو مضيّ زللٍ أو معاندةُ حقٍّ أو خطلُ تدبيرٍ، كان ما احتجتَ إليه من رأيك عذرا لك عند نفسك، وظِهريًّا قويًّا على ردّ ما كرهت، وتخفيفًا لمؤونة الباغين عليك فى القالة وانتشار الذكر، وحِصْنا من غُلُوب الآفاتِ عليك، واستعلائها على أخلاقك .

وامنعْ أهلَ بطانتك وخاصّةَ خدمِك من استلحام أعراض الناس عندك بالغيبة، والتقرّب إليك بالسّعاية، والإغراءِ من بعضٍ ببعض؛ أو النميمةِ إليك بشىء من أحوالهم

---

(١) فى صبح الأعشى : « وتستعضد فى موهم النازل » . وفى رسائل البلغاء : «وتستمهده فى مهم نازل» . واخترنا من العبارتين ما يناسب المقام .

(٢) كذا فى صبح الأعشى والمفتاح ورسائل البلغاء ، ولعله وإن ابتدرت ... الخ .

المستترة عنك، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة: فإن ذلك أبلغُ بك سموًا الى مَنالة الشرف، وأعونُ لك على محمود الذكر، وأطلقُ لعنان الفضل فى جَزالة الرأى وشرف الهمة وقوة التدبير .

وآملك نفسك عن الانبساط فى الضحك والانفهاق، وعن القطوب بإظهار الغضب وتنحُّله : فإن ذلك ضَعْف عن ملك سَوْرَة الجهل، وخروجٌ من انتحال آسم الفضل . وليكن ضحكك تبسُّمًا أو كَشْرا فى أحايينِ ذلك وأوقاته، وعند كلّ رائع مستخِفّ مُطْرِب؛ وقطوبُك إطراقا فى مواضع ذلك وأحواله، بلا عَجَلة الى السّطوة، ولا إسراعٍ الى الطِّيَرة، دون أن تكنُفها رويّةَ الحلم، وتملك عليها بادرة الجهل .

اذا كنتَ فى مجلس مَلَئك، وحيث حضور العامّة مجلسَك، فإياك والرمىَ بنظرك الى خاصٍّ من قُوّادك، أو ذى أثْرة عنـدك من حشمك . وليكن نظرُك مقسومًا فى الجميع، وإراعتُك سمعَك ذا الحديث بدَعةٍ هادئة، ووقارٍ حسن، وحضورِ فهْم مجتمِع، وقلّةِ تضجُّر بالمحدِّث. ثم لا يبرح وجهُك الى بعض حرسك وقوادك متوجها بنظرٍ ركين، وتفقُّدٍ محض. وإن وجه اليك أحد منهم نظره محدِّقا، أو رماك ببصره مُلِحّا، فاخفض عنه إطراقا جميلا باتّداع وسكون . وإياك والتسرّعَ فى الإطراق، والخفّةَ فى تصريف النظر، والإلحاحَ على من قصد اليك فى مخاطبته إياك رامقًا بنظره .

واعلم أن تصفُّحك وجوه جلسائك وتفقُّـدك مجالِسَ قوادك من قوة التدبير، وشهامةِ القلب، وذكاء الفِطنة، وآنتباه السِّنة . فتفقَّد ذلك عارفا بمن حضَرك وغاب عنك، عالمـا بمواضعِهم من مجلسك، ثم آعدُدْهم عن ذلك سائلا لهم عن أشغالهم التى منعتْهم من حضور مجلسك، وعاقتهم بالتخلّف عنك .

إن كان أحدٌ من حشمك وأعوانك تثِقُ منه بغيبِ ضمير، وتعرِف منه لينَ طاعة، وتُشرِف منه على صحة رأى، وتأمَنه على مشورتك، فإياك والإقبالَ عليه فى كلّ حادثٍ يَرِد عليك، والتوجّهَ نحوه بنظرك عند طوارِق ذلك، وأن تُرِيَه أو أحدا من أهل مجلسك أن

بك حاجةٌ اليه مُوحِشة ، أو أن ليس بك عنه غِنًى فى التدبير، أو أنّك لاتقطع دونَه رأيا ، إشراكًا منك له فى رويّتــك، وإدخالا منك له فى مشُورتك، وآضطرارا منــك الى رأيه فى الأمر يَعْرُوك: فإن ذلك من دخائل العيوب التى ينتشِر بها سوءُ القالة عن نظرائك، فانفِها عن نفسِــك خائفا لاعتلاقها ذِكرك، وآحجُبها عن رويّتك قاطعا لأطماع أوليائك عن مثلها عِندك ، أو غُلُوبهم عليها منك .

وآعلم أن للشورة موضعَ الخَلْوة وآنفرادَ النظر، ولكل أمرٍ غايةٌ تُحيط بحدوده، وتجمعُ معالمَه . فابغِها مُحْرِزا لها، ورُمْها طالبــا لنيْلها، وإيّاك والقصورَ عن غايتها أو العجزَ عن دَرْكها، أو التفريط فى طلبها . إن شاء الله تعالى .

إيّاك والإغرامَ عن حديثٍ مّا أعجبك، أو أمرٍ مّا آزدهاك بكثرة السؤال، أو القَطْعَ لحديث مَن أرادك بحديثِه حتى تنقُضَه عليه بالخوْض فى غيره أو المسألة عما ليس منه : فان ذلك عند العامّة منسوب الى ســوء الفهم وقِصَر الأدب عن تناوُل محاسن الأمور والمعرفةِ بمساويها ، ولكن أنصِت لمحدّثك وأرْعِه سمعَك حتى يعلم أن قد فهِمتَ حديثه، وأحطتَ معرِفةً بقوله ؛ فان أردتَ إجابتَه فعن معرفةٍ بحاجته وبعد عِلم بطَلِبته ؛ وإلا كنتَ عند آنقضاء كلامه كالمتعجِّب من حديثِه بالتبسّم والإغضاء، فأجْزَى عنك الجواب، وقطَع عنك ألسُن العتْب .

إيّاك وأن يظهر منك تبرّم بطول مجلسك ، أو تضَجُّر ممّن حضرك؛ وعليك بالتثبُّت عند سَوْرة الغضب ، وحَمِيّــة الأَنَف، ومَلاَل الصبر : فى الأمر تستعجِل به والعملِ تأمُر بإنفاذه؛ فان ذلك سُخْف شائن، وخِفّة مُرْدِيَة ، وجهالة بادية . وعليك بثبوت المنطق ، ووقار المجلس ، وســكونِ الريح ، والرّفض لحَشْو الكلام ، والتَّرْك لفضوله والإغرامِ بالزيادات فى منطِقك، والترديدِ للفظك : من نحو آسمع ، وآفهم عنّى، ويا هنَاه، وألا ترَى، أو ما يُلْهَج به من هــذه الفضول المقصِّرة بأهل العقل، الشائنــة لذوى الحِجــا فى المنطِق، المنسوبة إليهم بالعِيِّ، المُرْدِية لهم بالذّكر . وخِصالٌ من مَعايب الملوك ، والسُّوقة عنها غبِيّةٌ

النظرِ إلّا من عرفها من أهل الأدب ، وقلّما حاملٌ لها ، مضطلع بها ، صابرٌ على ثِقلها ، آخذٌ لنفسه بجوامعها ، فانفِها عن نفسك بالتحفّظ منها ، وأمِلكْ عليها أعتيادَك إياها محتبيا بها ، منها كثرةُ التنخّم ، والتبصّق ، والتنخّع ، والتّوباء ، والتمطّى ، والجُشاء ، وتحريك القَدَم ، وتنقيضُ الأصابع[1] ، والعبثُ بالوجه واللّحية أو الشاربِ أو المِخْصَرة أو ذؤابة السيف ، أو الإيمـاضُ بالنظر ، أو الإشارةُ بالطّرْف إلى بعض خَدَمك بأمر إن أردتَه ، أو السّرار فى مجلسك ، أو الاستعجال فى طَعْمك أو شُرْبك . وليكن طَعْمك متّدعا ، وشُرْبك أنفاسا ، وجَرْعك مصّا . وإياك والتسرّعَ إلى الأيمان فيما صَغُر أو كَبُر من الأمور ، والشّتيمةَ بقول : يابن الهَنَاه ؛ أو الغميزة[2] لأحدٍ من خاصّتك بتسويغهم مُقَارَفَة الفُسُوق بحيث محضرُك أو دارُك وفناؤك : فان ذلك كله مما يقبحُ ذِكرُه ، ويسوء موقعُ القول فيه ، وتحمّلَ عليك معايبُــه ، وينالك شينُهُ ، وينتشِر عليك سوءُ النبإ به . فاعرِف ذلك متوقّيا له ، واحذَره مجانبا لسوء عاقبته .

استكثِرْ من فوائد الخير : فانها تنشُر المحمدة ، وتُقِيل العثرة ؛ واصبِر على كَظْم الغيظ : فانه يورِث الراحة ، ويؤمّن الساحة ، وتعهّــدِ العامّةَ بمعرفة دَخْلهـم ، وتبطُّنِ أحوالهم ، واستثارةِ دفائنهم ؛ حتى تكون منهـا على رأْيِ عَيْن ، ويقينِ خِبْرة ؛ فتُنعِش عديمَهم ، وتجبُر كسيرهم ؛ وتُقيم أوَدَهم ، وتعلّمَ جاهلهم ، وتستصلح فاسـدَهم : فان ذلك من فِعلك بهم يورثك العِزّة ، ويقدّمك فى الفضل ، ويبقِى لك لسان الصّدق فى العاقبة ، ويُحرِز لك ثوابَ الآخرة ، ويردّ عليك عواطفهم المستنفِرة منك ، وقلوبَهم المتنحية عنك .

قِسْ بين منازِل أهل الفضــل فى الدّين والحِجـا والرأى والعقــل والتدبير والصّيت فى العامّة ، وبين منازِل أهل النّقص فى طبقات الفضــل وأحوالِه ، والخمول عنــد مُبَاهاة النّسب ؛ وانظُرْ بصحبة أيّهم تنال من مودّته الجميــل ، وتستجْمِع لك أقاويلَ العامّة على التفضــيل ، وتبلُغ درجةَ الشرف فى أحوالك المتصرِّفة بك . فاعتمد عليهـم مُدْخِلا لهم فى أمرك ، وآثِرهم بمجالستك لهم مستمِعًا منهم ؛ وإيّاك وتضييعَهم مفرّطا ، وإهمالَهم مضيّعا .

(١) يقال : أنقض أصابعه : صوّت بها وليس فى كتب اللغة نقض بالتضعيف . (٢) الغميزة : المطعن .

هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسرا، وجمع لك شواذها مؤلفا، وأهداها إليك مرشدا؛ فقف عند أوامرها، وتناه عن زواجرها، وتثبت في مجامعها؛ وخذ بوثائق عراها، تسلم من معاطب الردى، وتنل أنفس الحظوظ ورغيب الشرف؛ وأعلى درج الذكر، وتأثل (١) سطر العز. والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد، وتتابع المزيد، وبلوغ الأمل، وأن يجعل عاقبة ذلك بك الى غبطة يسوغك إياها، وعافية يحلك أكنافها، ونعمة يلهمك شكرها: فإنه الموفق للخير، والمعين على الإرشاد؛ منه تمام الصالحات، وهو مؤتي الحسنات، عنده مفاتيح الخير، وبيده الملك وهو على كل شيء قدير.

فاذا أفضيت نحو عدوك، وأعتزمت على لقائهم، وأخذت أهبة قتالهم، فاجعل دعامتك التي تلجأ اليها، وثقتك التي تأمل النجاة بها، وركنك الذى ترتجى منالة الظفر به وتكتنف (٢) به لمعالق الحذر، تقوى الله مستشعرا لها بمراقبته، والاعتصام بطاعته متبعا لأمره، مجتنبا لسخطه، محتذيا سنته، والتوقي لمعاصيه في تعطيل حدوده، أو تعدى شرائعه؛ متوكلا عليه فيما صمدت له، واثقا بنصره فيما توجهت نحوه، متبرئا من الحول والقوة فيما نالك من ظفر وتلقاك من عز، راغبا فيما أهاب (٣) بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد، ورمى بك اليه محمود الصبر فيه عند الله من قتال عدو المسلمين، أكلبهم (٤) عليه وأظهره عداوة لهم، وأفدحه ثقلا لعامتهم، وآخذه بربقهم، وأعلاه عليهم بغيا، وأظهره عليهم فسقا وفجورا، وأشده على فيئهم الذى أصاره الله لهم وفتحه عليهم مؤونة وكلا (٥). والله المستعان عليهم، والمستنصر على جماعتهم، عليه يتوكل أمير المؤمنين، وإياه يستصرخ عليهم، وإليه يفوض أمره، وكفى بالله وليا وناصرا ومعينا، وهو القوى العزيز.

ثم خذ من معك من تباعك وجندك بكف معرتهم، ورد مشتمل جهلهم، وإحكام ضياع عملهم، وضم منتشر قواصيهم، ولم شعث أطرافهم، وتقييدهم عمن مروا به من

(١) تأثل: تثبت. (٢) اكتنف الكهف: دخله. (٣) أهاب بك: دعاك.
(٤) من قولهم كلب الدهر على أهله اذا اشتد وألح. (٥) الكل: الثقل.

أهل ذِمّتِك وملّتك بحُسن السيرة، وعفافِ الطُّعمة، ودَعَةِ الوقار، وهَدْى الدَّعَة، وجَمام المستجمّ، محكما ذلك منهم، متفقّدا لهم تفقّدك إيّاه من نفسك . ثم آصْمِد لعدوّك المتسمّى بالإسلام، الخارج من جماعة أهله، المنتحِل ولايةَ الدِّين مستحلّا لدماء أوليائه، طاعنًا عليهم، راغبا عن سُنّتهم، مفارِقا لشرائعهم، يبْغِيهم الغوائلَ، وينْصِب لهم المكايد، أضْرَم حِقدًا عليهم، وأرصَد عداوةً لهم، وأطْلَبَ لغِرّات فُرَصهم من التُّرك وأُمم الشِّرك وطواغى المِلل، يدعو الى المعصية والفُرقة، والمُروق من دين الله الى الفِتنة، مخترِطا بهواه للأديان المنتحَلَة والبِدع المتفرّقة خَسارا وتخسيرا، وضَلالا وتضليلا، بغير هدًى من الله ولا بيان . ساء ما كسبتْ له يداه وما اللهُ بظلّام للعبيد، وساءَ ما سوّلتْ له نفسُه الأمّارةُ بالسوء، واللهُ من ورائه بالمِرصاد : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

حَصِّنْ جندك، وآشكُمْ نفسك بطاعة الله فى مجاهَدةِ أعدائه، وآرجُ نصرَه، وتنجّز موعوده، متقدّمًا فى طلب ثوابه على جهادهم، معتزِمًا فى آبتغاء الوسيلةِ إليه على لقائهم : فإن طاعتك إيّاه فيهم، ومراقبتَك له ورجاءَك نَصْرَه مسهِّلٌ لك وُعورَه، وعاصِمُك من كل سُبّة، ومُنجِيك من كل هُوّة، وناعِشُك من كلّ صَرْعة، ومُقِيلك من كل كَبْوة، ودارئٌ عنك كلّ شبهة، ومُذْهِب عنك لَطخة كلّ شك، ومُقوّيك بكل أيْدٍ[1] ومكيدة، ومُعزّك فى كل مُعْتَرَكِ قِتال، ومؤيّدك فى كل مَجْمع لقاء، وكالِئُك عند كل فتنةٍ مُغشِية[2]، وحائطك من كل شبهة مُرْدِية، واللهُ وليُّك وولىّ أمير المؤمنين فيك، والمستخلَف على جندك ومن معك .

اِعلم أن الظَّفَر ظَفَران : أحدُهما — وهو أعمّ منفعةً، وأبلغُ فى حسن الذكر قالةً، وأحوطُه سلامة، وأتمّه عافيةً، وأحسنُه فى الأمور وأعلاه فى الفضل شرفًا، وأصحُّه فى الرَّوِيّة حَزْما، وأسلمُه عند العاقبة مَصْدرا — ما نِيل بسلامة الجنود، وحُسن الحِيلة، ولُطف المكيدة ويُمْن النَّقِيبة، وآستِنزال طاعةِ ذوى الصُّدوف بغير إخطار الجيوش فى وَقْدة جَمْرة الحرب،

(١) الأيد : القوّة . (٢) أى مدلهمة سوداء، من قولهم : أغشى الليل اذا أظلم .

ومبارزةِ الفرسان فى معترَكِ الموت، وإن ساعدَتْك طُلُوق الظَّفَر، ونالك مزيدُ السعادة فى الشرف، ففى مُخاطرة التَّلَف مكروهُ المصائب، وعِضاضُ السيوف وألَم الجراح، وقِصاص الحروب وسجالها بمُغاوَرة[1] أبطالها . على أنك لا تدرِى لأىٍّ يكون الظَّفر فى البديهة ، ومن المغلوبُ بالدولة، ولعلك أن تكون المطلوبَ بالتمحيص . فحاوِلْ إصابةَ أبلَغِهما فى سلامة جندك ورعيّتك، وأشهرِهما صِيتًا فى بُدُوّ تدبيرك ورأيك، وأجمعِهما لألفة وليّك وعدوّك، وأعونِهما على صلاح رعيّتك وأهل مِلّتك، وأقواهما شكيمةً فى حَزْمك، وأبعدِهما من وَصْم عزمك ، وأعلقِهما بزِمام النجاة فى آخرتك، وأجزلِها ثوابا عند ربّك .

وابدأ بالإعذار إلى عدوك ، والدعاء لهم إلى مراجعــة الطاعة وأمرِ الجمــاعة وعِزِّ الأُلفة، آخِذًا بالحجّة عليهم ، متقــدّمًا بالإنذار لهم، باسطًا أمانَك لمَنْ لجأ إليك منهم ، داعيًا لهم إليه بألْيَــن لفظك وألطف حِيَلك ، متعطّفا برأفتك عليهم ، مترفّقا بهــم فى دُعائك ، مشفِقا عليهم من غَلَبة الغَوَاية لهم وإحاطة الهَلَكة بهم ، منفذا رُسُلَك إليهم بعــد الإنذار : تَعِدُهم إعطاءَ كلِّ رغبة يَهَشُّ إليها طمَعُهم فى موافَقة الحق ، وبَسْط كل أمان سألُوه لأنفُسِهم ومَنْ معهم ومن تَبِعهم؛ موطِّنًا نفسَك فيما تبسُط لهم من ذلك على الوفاء بعهــدك ، والصبرِ على ما أعطيتَهم من وثائق عَقْدك؛ قابِلًا توبةَ نازِعهم عن الضَّلالة، ومُراجَعةَ مُسِيئهم إلى الطاعة؛ مُرصِدا لمُنحاز إلى فِئــة المسلمين وجماعتِهم إجابةً إلى مادعوتَه إليه وبصّرتَه إيّاه من حقّك وطاعتك ، بفضل المنزِلة ، وإكرام المَثْوَى، وتشريف الجاه . وليَظْهَرْ من أثَرِك عليــه وإحسانك إليــه ما يرغَب فى مثله الصادفُ عنك ، المُصِرُّ على خِلافِك ومعصيتِك، ويدعو إلى اعتلاق حبْل النجاة وما هو أمْلَك به فى الاعتصام عاجِلا[2]، وأنجى له من العِقاب آجِلا، وأحوطُه على دِينه ومهجته بَدْءًا وعاقِبةً ؛ فإن ذلك مما يَسْتَدْعى به من الله نصرَه عليهم، ويعتضِدُ به فى تقديمه الحجّة إليهم، مُعْذِرا أو مُنْذِرا، إن شاء الله .

---

(١) المغاورة : المقاتلة . (٢) كذا فى صبح الأعشى ويظهر أن السياق يقتضى معمولا لهذا الفعل اما ضميرا أو اسما ظاهرا .

ثم أذْكِ عيونَك على عدوّك متطلّعا لعلم أحوالهم التى يتقلّبون فيها، ومنازلهم التى هم بها، ومطامعهم التى قد مَدُّوا أعناقهم نحوها، وأىّ الأمور أدعى لهم إلى الصّلح، وأقودُها لرضاهم إلى العافية، وأسهلُها لاستنزال طاعتهم، ومن أىّ الوجوه مأتاهم : أمِنْ قِبَل الشدّة والمُنافرة والمكيدة والمُباعدة والإرهاب والإيعاد، أم الترغيب والإطماع؛ متثبّتا فى أمرك، متخيّرا فى رويّتك، مستمكنا من رأيك، مستشيرا لذوى النصيحة الذين قد حنكتهم السنّ، وخبطتهم التجربة، ونجّذتهم الحروبُ؛ مُتَشَزِّنا(١) فى حربك، آخذا بالحَزم فى سوء الظن، مُعِدّا للحذر، محترسا من الغِرّة؛ كأنك فى مَسيرك كلّه ونزولك أجمع مُواقِفٌ لعدوّك رأىَ عينٍ تنتظرُ حملاتهم، وتتخوّف كَرّاتهم، مُعِدّا أقوى مكايدك، وأرهبَ عتادك، وأنكأ جِدّك، وأجدّ تشميرك؛ معظّما أمر عدوّك لأعظمَ مما بلغك، حَذِرا يكاد يُفرِط : لتُعِدّ له من الاحتراس عظيما، ومن المكيدة قويّا؛ من غير أن يَفْثَأك(٢) ذلك عن إحكام أُمورك، وتدبير رأيك، وإصدار رويّتك، والتأهّب لما يحزُبك؛ مصغّرا له بعد استشعار الحذر، واضطمار الحزم، وإعمال الرويّة، وإعداد الأُهبة . فإن ألفيتَ عدوّك كليلَ الحدّ، وَقْمَ(٣) الحزم، نَضيضَ(٤) الوَفْر، لم يضرُرْك ما اعتددتَ له من قوة وأخذت له من حزم، ولم يزدك ذلك إلا جُرأةً عليه، وتسرّعا إلى لقائه . وإن ألفيتَه متوقّدَ الحرب، مُستكثِف الجمع، قوىَّ التبَع، مُستعلِىَ سَورة الجهل، معه من أعوان الفتنة وتبَع إبليس من يُوقد لهبَ الفتنة مُسَعِّرا، ويتقدّم إلى لقاء أبطالها متسرّعا، كنت لأخذك بالحزم، واستعدادك بالقوة، غيرَ مُهين الجند، ولا مفرّط فى الرأى، ولا متلهّف على إضاعة تدبير، ولا محتاج إلى الإعداد وعجلة التأهّب مبادرةً تدهَشك، وخوفًا يُقلقك . ومتى تغترَّ بترقيق المرقّقين، وتأخذ بالهُوَينا فى أمر عدوّك لتصغير المصغّرين، ينتشر عليك رأيُك، ويكون فيه انتقاضُ أمرك ووهْنُ تدبيرك، وإهمالٌ للحزم فى جندك،

(١) تشزن للأمر : استعدّ له .

(٢) يفثأك (بالفاء والثاء المثلثة) أى يكسرك ويؤخرك .

(٣) كذا فى صبح الأعشى . ولعلها موقوم الحزم أى مقهورة أو لعلها محرفة عن كلمة أخرى بمعنى الضعف أو القلة .

(٤) نضيض : قليل . والوفر : المال .

وتضييعٌ له وهو مُمكِن الإصحار، رَحْب المَطْلَب، قوِىّ العصمة، فسيحُ المضْطَرب، مع ما يَدْخُل رعيّتك من الاغترار والغفلة عن إحكام أحراسهم، وضبْط مراكزهم، لما يرون فيه من آستنامتك الى الغِرّة، وركُونك الى الأمن، وتهاوُنك بالتدبير؛ فيعود ذلك عليك فى آنتشار الأطراف، وضَياعِ الأحكام، ودخول الوهن بما لايُستقال محذوره، ولا يُدفع مخُـــوفُه.

إحفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتُونك به من أخبار عدوّك. وإيّاك ومعاقبةَ أحدٍ منهم على خَبَرٍ إن أتاك به آتّهمته فيه أو سُؤتَ به ظنّاً وأتاك غيرُه بخلافه، أو أن تكذّبه فيه فتردّه عليـه، ولعلّه أن يكون قد مَحَضَك النصيحةَ وصدَقَك الخبرَ وكذَبَك الأوّلُ، أو خرج جاسُوسُك الأوّل متقدّما قبل وصول هذا من عند عدوّك، وقد أبرموا لك أمرا، وحاولوا لك مكيدة وأرادوا منك غِرّة فازدَلفوا إليك فى الأُهْبة، ثم آنتقض بهم رأيُهـم وآختلف عنه جماعتُهـم، فأرادوا رأيا، وأحدثوا مكيـدة، وأظهروا قوّة، وضربوا موعِدا، وأمّوا مَسلَكا لمَدَدٍ أتاهم، أو قوّةٍ حدثَت لهم، أو بصيرةٍ فى ضَلالةٍ شغلتهم؛ فالأحوالُ بهم متنقّلة فى الســاعات، وطوارِق الحادثات. ولكن آلبَسْهم جميعا على الآنتصاح، وآرضَخْ لهم بالمطامع، فإنّك لن تستعبِدَهم بمثلها. وعِدْهُم جزَالة المثَاوِب، فى غير ما آستِنامةٍ منـك إلى ترقيقهم أمْرَ عدوّك، والاغترارِ إلى ما يأتُونك به دون أن تُعمِل رويّتك فى الأخذ بالحزم، والاستكثار من العُـدّة. وآجعلهم أوثَق من تَقْدِر عليـه، وآمَنَ من تسكُن إلى ناحيته، ليكون ما يُبرِم عدوّك فى كل يوم وليلة عنـدك إن آستطعتَ ذلك، فتنقُضَ عليهم برأيك وتدبيرك ما أبرموا، وتأتيَهم من حيث أمِنُوا، وتأخذَ لهم أهبة ما عليه أقدموا، وتستعدَّ لهم بمثل ما حَذِروا.

وآعلم أن جواسيسَك وعيونك ربما صدَقُوك وربما غشُّوك، وربما كانوا لك وعليك: فنصَحُوا لك وغشّوا عدوّك، وغشّوك ونصحوا عدوّك؛ وكثيرا مايصدُقُونك ويصدُقُونه. فلا تَبْدُرَنّ منك فَرْطة عقوبةٍ إلى أحد منهـم، ولا تعجَل بسوء الظن إلى من آتّهمتَه على

ذلك، وآستنزل نصائحهم بالمياحة(١) والمنالة، وآبسط من آمالهم فيك من غير أن يرى أحدٌ منهم أنك أخذتَ من قوله أخْذَ العامل به والمتّبِع له، أو عملتَ على رأيه عَمَلَ الصادر عنه، أو رددتَه عليه ردَّ المكذِّب به، المتهم له، المستخِفّ بما أتاك منه، فتُفسِدَ بذلك نصيحتَه، وتَستدعِي غِشَّه، وتجترّ عداوتَه. وآحذرْ أن يُعرَفوا فى عسكرك أو يُشار إليهم بالأصابع. وليكن منزِلُهم على كاتبِ رسائِلك وأمينِ سِرِّك، ويكون هو الموجِّه لهم، والمُدخِل عليك من أردتَ مشافهتَه منهم.

وآعلمْ أن لعدوّك فى عسكرك عُيونًا راصدة، وجواسيسَ متجسِّسة(٢)، وأنه لن يقع رأيُه(٣) عن مكيدتك بمثل ما تُكايده به، وسيحتال لك كآحتيالك له، ويُعدّ لك كاءعدادك فيما تُزاوِله منه، ويُحاوِلُك كمحاولتك إيّاه فيما تقارِعه عنه؛ فآحذرْ أن يُشهَر رجلٌ من جواسيسك فى عسكرك فيبلُغَ ذلك عدوَّك ويعرِف موضعَه، فيُعِدّ له المَراصد، ويحتال له بالمكايد. فإن ظَفِر به فأظهر عقوبتَه، كَسَر ذلك ثِقاتِ عيُونك، وخذَلهم عن تطلُّب الأخبار من معادنِها، وآستِقصائها من عيونها، وآستِعْذاب آجتنائها من ينابيعها، حتى يصيروا إلى أخذها ممّا عَرَض من غير الثّقة ولا المُعاينة، لَقطًا لها بالأخبار الكاذبة، والأحاديث المُرْجِفة. وآحذرْ أن يعرِف بعضُ عيونك بعضا: فإنّك لا تأمَن تواطُؤَهم عليك، ومُمالأتَهم عدوَّك، وآجتماعَهم على غِشّك، وتطابُقَهم على كذبك، وإصفاقَهم(٤) على خيانتك، وأن يورِّط بعضُهم بعضا عند عدوّك. فأحْكِم أمرَهم فإنهم رأسُ مكيدتك، وقِوامُ تدبيرك، وعليهم مَدار حرْبك، وهو أوّل ظفرك. فاعمَل على حَسَب ذلك وحيث رجاؤك به، تَنَلْ أملَك من عدوّك، وقوّتَك على قتاله، وآحتيالَك لإصابة غِرّاته وآنتهازِ فُرَصه، إن شاء الله.

فإذا أحكمتَ ذلك وتقدّمتَ فى إتقانه، وآستظهرت بالله وعونه، فولِّ شُرْطتَك وأمرَ عسكرِك أوثقَ قوّادك عندك، وأظهرَهم نصيحةً لك، وأنفذَهم بصيرةً فى طاعتك، وأقواهم

(١) المياحة: الإعطاء.

(٢) فى مفتاح الأفكار ورسائل البلغاء: «كامنة». (٣) فى رسائل البلغاء: «وأن رأيه فى مكيدتك مثل ما تكايده به». (٤) إصفاقهم: اجتماعهم.

شكيمةً فى أمرك، وأمضاهم صَرِيمةً(١)، وأصدقهم عفافا، وأجزأهم غَناء، وأكفاهم أمانةً، وأصحّهم ضميرا، وأرضاهم فى العامّة دِينًا، وأحمدهم عند الجماعة خُلُقًا، وأعطفهم على كافّتهم رأفةً، وأحسنهم لهم نَظرا، وأشدّهم فى دِين الله وحقّه صلابةً. ثم فوّض إليــه مُقَوِّيا له، وابسُط من أمله مُظهِرا عنــه الرضا، حامدًا منه الابتــلاء. وليكن عالمــا بمراكِز الجنود، بصــيرا بتقدّم المنازل، مجرّبا، ذا رأى وحزم فى المكيــدة؛ له نباهةٌ فى الذّكر، وصِيتٌ فى الوِلاية؛ معروفَ البيت، مشهورَ الحسب. وتقــدّم إليه فى ضبْط مُعَسكره، وإذكاءِ أحراسه فى آناء ليله ونهارِه؛ ثم حذّره أن يكون منه إذنٌ لجنوده فى الانتشار والاضطراب، والتقــدّم لطلائعك، فتُصابَ لهم غِرّة يجترِئ بهــا عدوُّك عليــك، ويُسرِع إقداما إليك، ويَكسِر من إيادِ(٢) جندك ويوهِن من قوّتهم: فإن الصوتَ(٣) فى إصابة عدوّك الرجلَ الواحد من جندك أو عبيدهم مُطمِعٌ لهم فيك، مُقَوٍّ لهم على تَحْذ أتباعهم عليك وتصغيرهم أمْرك، وتوهِينهم تدبيرَك. فحذّره ذلك وتقدّمْ إليه فيه؛ ولا يكوننّ منه إفراطٌ فى التضييق عليهم، والحَصْر لهم، فيعمّهم أزْلُه(٤)، ويشملَهم ضَنْكه، وتسوءَ عليهم حالُه، وتشتدّ به المؤونةُ عليهم، وتخبُث له ظنونهم. وليكن موضعُ إنزالِه إيّاهم ضاماً لجمــاعتهم، مستديرًا بهم جامعًا لهم؛ ولا يكونُ منبسِطا منتشرا متبدِّدا، فيَشُقّ ذلك على أصحاب الأحراس، وتكون فيــه النُّهزة للعدوّ، والبُعد من المــادّة(٥) إن طرَق طارِقٌ فى بَغَتَات الليل وبَغَتاته. وأوْعِز إليه فى أحراسه، وتقدّمْ إليــه فيهم كأشَدّ التقدّم وأبلَغ الإيعاز. ومُرْه فليُولّ عليهم رجلا ركينا مجرّبا جرىء الإقدام، ذاكِىَ الصّرامة، جَلْد الجوارح، بصــيرًا بمواضِع أحراسه، غيرَ مُصانِع ولا مشفّع للناس فى التنحّى إلى الرّفاهية والسّعة، وتقدُّمِ العسكر والتأخّر عنه، فإن ذلك ممــا يُضعِف الوالىَ ويُوهِنه لاستنامته إلى من ولّاه ذلك وأمنه به على جيشه.

واعلمْ أن مواضعَ الأحراس من معسكرك، ومكانَها من جنــدك، بحيث الغنــاءُ عنهم والردّ عليهم، والحفظُ لهم، والكِلاءَة لمن بغتهم طارِقا، أو أرادهم خاتِلا؛ ومراصِدُها المُتَسَلّ

(١) الصريمة: العزيمة. (٢) فى مفتاح الأفكار وغيره: «أفئدة». وإياد كل شىء: ما يقوى به من جانبيه ومنه إيادا العسكر وهما ميمنته وميسرته. (٣) الصوت: كالصيت والصات: الذكر والشهرة. (٤) الأزل: الضيق والشدّة. (٥) المادة: كل مدد تستعين به فى حرب أو غيره.

منها وَالآبِق من أَرِقائهم وأَعْبُدهم، وحِفظُها من العيون والجواسيس من عدوّهم. وآحذر أن تضرِبَ على يديه أو تشكُمه عن الصَّرامة بمؤامَرتك فى كلّ أمرٍ حادثٍ وطارئٍ إلا فى المهمّ النازل والحَدَث العام: فإنك إذا فعلتَ ذلك به، دعوته إلى نُصْحك، وآستوليتَ على محصول ضميره فى طاعتك؛ وأجهَدَ نفسه فى ترتيبك، وأعمَل رأيَه فى بلوغ موافقتك وإعانتك؛ وكان ثِقتَك ورِدْأك وقوّتك ودِعامتك، وتفرغْتَ أنت لمكايَدة عدوّك، مُرِيحا لنفسك من همّ ذلك والعناية به، مُلْقِيا عنك مؤونةً باهظة وكُلْفة فادِحة.

وآعلم أن القضاء من الله بمكانٍ ليس به شىءٌ من الأحكام، ولا بمثل محلّه أحدٌ من الوُلاة: لما يجرى على يديه من مَغاليظ الأحكام ومجارِى الحدود. فليكن من تُولّيه القضاء فى عسكرك [من ذوى] (١) الخير والقناعة والعفاف والنّزاهة والفهم والوقار والعِصمة والوَرَع، والبصر بوجوه القضايا ومواقِعِها، قد حنّكته السّنّ وأيّدته التجربة وأحكمته الأمور، ممن لا يتصنّع للولاية ويستعِدّ للنُّهْزة، ويحترئ على المُحاباة فى الحكم، والمُداهنة فى القضاء، عَدْلَ الأمانة، عفيفَ الطُّعمة (٢)، حَسَن الإنصاف، فَهِم القلب، وَرِع الضمير، متخشّع السَّمْت، بادِى الوقار، محتَسِبا للخير. ثم أَجْرِ عليه ما يكفيه ويَسَعه ويُصلحه؛ وفرّغه لما حمّلته، وأعِنْه على ما ولّيته: فإنك قد عرّضتَه لهَلَكة الدنيا وبَوار الآخرة، أو شَرَف الدنيا وحُظْوة الآجلة، إن حسُنت نيّتُه، وصدَقت رويّته، وصحّت سريرتُه، وسلِّط حكمَ الله على رعيّته، مُطلِقا عِنانه، منفِّذا قضاءَ الله فى خلقه، عامِلا بسنّته فى شرائعه، آخذا بحدوده وفرائضه.

وآعلم أنه من جندك بحيث ولايتُك (٣)، الجاريةُ أحكامُه عليهم، النافذةُ أقْضيتُه فيهم؛ فاعْرِف من تولّيه ذلك وتُسنِده إليه. ثم تقدّم فى طلائعك فإنها أوّلُ مكيدتك، ورأسُ حربك، ودِعامة أمرِك، فآنتخِب لها من كلّ قادةٍ وصحابةٍ رجالا ذوى نجدة وبأس، وصرامة وخِبرة، حُماةً كُفاة، قد صلَوْا بالحرب وذاقوا سِجالَها، وشرِبوا مِرارَ كؤوسها، وتجرّعوا

---

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٠) وغيره. (٢) الطعمة بالضم والكسر وجه الكسب، الطيب أو الخبيث. (٣) فى مفتاح الأفكار وغيره: «بحيث ولايتك وفى الموضع الجارية» الخ.

غُصَص دِرّتهما، وزبّتهم بتكرار عواطفها، وحملتهم على أصعب مراكبها، وذلّلتهم بثقاف أوَدِها . ثم أنتقِهِمْ على عينك، وأعْرِض كُراعهم بنفسك، وتوخّ فى أنتقائك ظهورَ الجَلَد، وشهامة الخُلُق، وكمال الآلة . وإيّاك أن تقبل من دوابّهم إلا الإناث من الخيل المَهْلُوبة[1]، فإنهنّ أسرعُ طلبا، وأنجى مهربا، وألين مَعْطفا، وأبعـدُ فى اللُّحُوق غاية، وأصبرُ فى معترَك الأبطال إقداما . وخُذْهم من السّلاح بأبدان الدّروع، ماذيّة[2] الحديد، شاكّة النّسج، متقاربة الحِلَق، متلاحمة المسامير وأسْوُق الحديد، مموّهة الركب، مُحْكَمة الطّبْع خفيفة الصّوْغ؛ وسـواعدَ طبعُها هندىّ، وصَوْغُها فارسىّ؛ رِقاقِ المعاطِف بأكفّ واقية وعمـلٍ محكم . ويلْمَقِ[3] البَيْض مُذْهَبة ومجرّدة، فارسيّة الصّوْغ، خالِصة الجوهر، سابغة المَلْبس، واقيـة الجُنَن، مستديرة الطّبْع، مُبْهَمة السّرْد، وافيـة الوزن كتَرِيك[4] النعام فى الصّنعة واستدارة التّقبيب، واستواءِ الصّوْغ، مُعْلَمة بأصناف الحرير وألوان الصّبْغ؛ فإنها أهْيَبُ لعدوّهم، وأفَتُّ لأعضاد مَنْ لقيهم، والمُعْلَمُ مُخْشِىٌّ محذور، له بديهةٌ رادِعة، وهيبة هائلة؛ معهم السّيوف الهِنـدية، وذُكور البِيض اليمـانية؛ رِقاقُ الشّفَرات، مسنُونةُ الشّحْذ، مشَطّبة[5] الضرائب، معتدِلة الجواهر، صافيـة الصّفائح؛ لم يَدْخُلها وَهْن الطبْع، ولا عابها أمْتُ[6] الصوغ، ولا شانهـا خِفّة الوزْن، ولا فَدَح حامِلَها بهُورُ الثّقـل؛ قد أشرعوا لُدْن القَنا، طِوالَ الهوادى، مُقوّمات الأَوَد، زُرْق الأسِـنّة، مستَوِية الثّعالب[7]؛ وبيضُها متوقّد، وسِـنْخُها[8] متلهّب، معاقِص[9] عُقَدها منحوتة، ووصُومُ أوَدها مقوّمة، وأجناسُها مختلفة، وكُعوبها جَعْدة، وعُقَدُها حبِكة؛ شَطْبة الأسنان، مُموّهة الأطراف، مستحدّة الجَنَبات، دِقاقُ الأطراف، ليس فيهـا ٱلتواءُ أوَد، ولا أمْتُ وَصْم، ولا بها مَسْقَط عيب، ولا عنها

---

(١) المهلوبة : المنتوفة الهلب، وهو شعر الذنب أو الشعر كله . (٢) أى خالصة وجيدته .

(٣) اليلمق : القباء المحشو . (٤) التريك : بيضة النعام خاصة، ومنه قوله :

* وتلق بها بيض النعام ترائكا *

(٥) سيف شطب : ذو شطب وهى طرائقه التى فى متنه . (٦) الأمت : العوج والاختلاف .

(٧) الثعلب : طرف الرمح الداخل فى جبة السنان . (٨) فى مفتاح الأفكار وغيره : «وشحذها متلهب» وسنخ النصل : الحديدة التى تدخل فى رأس السهم . (٩) المعاقص : السهام المعوجة .

وقوع أمنية، مُسْتَخفِي كنائنِ النَّبل وقِسِيّ الشَّوحط(١) والنَّبع؛ أعرابيَّة التعقيب، رُوميَّة النُّصول، مسمومة الصَّوغ؛ ولتكن سهامها على خمس قبضات سوى النُّصول، فإنها أبلغ فى الغاية، وأنفذ فى الدروع، وأشكّ فى الحديد؛ سامِطين حقائبهم على متون خيولهم، مُسْتَخِفِّين من الآلة والأمتعة والزاد، [إلا ما لا غَنَاء بهم عنه](٢) .

وآحذر أن تكل مباشرة عَرْضهم وآنتخابهم إلى أحد من أعوانك وكُتّابك : فإنّك إن وكلته إليهم أضعتَ مواضع الحزم، وفرّطت حيث الرأى، ووقفتَ دون عزم الرويّة، ودخل عملَك ضَياعُ الوَهْن، وخلَص إليك عيبُ المحاباة، وناله فسادُ المُداهنة، وغلَب عليه من لا يصلُح أن يكون طليعة للسلمين ولا عُدّة ولا حِصنا يَدّرِئون به، ويكتنفون بموضعه. والطلائعُ حصون المسلمين وعيونُهم، وهم أوّل مكيدتِك، وعُروةُ أمرك، وزِمامُ حربك. فليكن آعتناؤك بهم، وآنتقاؤك إيّاهم بحيث هم من مُهِمّ عملك، ومكيدةِ حربك؛ ثم آنتخِبْ للوِلاية عليهم رجلا بعيدَ الصوت، مشهورَ الاسم، طاهرَ الفضل، نبيه الذِّكر؛ له فى العدوّ وَقَعات معروفات، وأيّامٌ طِوال وصَوْلاتٌ متقدّمات؛ قد عُرِفت نكايتُه، وحُذِرت شوكته، وهِيبَ صوتُه، وتُنُكِّب لقاؤه؛ أمينَ السريرة، ناصحَ الجَيْب(٣)؛ قد بلوتَ منه ما يُسَكِّنك إلى ناحيته : من لِين الطّاعة، وخالِص المودّة، ورَكانة الصرامة، وغُلُوب الشّهامة، وآستجماع القوّة، وحَصافَة التدبير. ثم تقدّمْ إليه فى حسن سياستهم، وآستنزال طاعتهم، وآجتلابِ مَودّاتهم وآستِعذاب ضمائرهم؛ وأجْرِ عليهم وعليه أرزاقا تَسَعُهم، وتُمِدّ من أطماعهم سوى أرزاقهم فى العامّة، فإن ذلك من القوّة لك عليهم، والآستنامةِ إلى ما قِبلَهم .

وآعلمْ أنهم فى أهمّ الأماكن لك، وأعظمِها غَناءً عنك وعمّن معك، وأقمعها كَبْتا لمُحادّك، وأشجاها غَيْظا لعدوّك : ومَنْ يكن فى الثّقة، والجَلَد، والبأس، والطاعة، والقوّة، والنصيحة والعُدّة، والنّجدة حيث وصف لك أميرُ المؤمنين وأمَرك به، يضَعْ عنك مؤونة الهمّ، ويُرِحْ

---

(١) الشوحط : شجر تتخذ منه القسيّ .
(٢) الزيادة عن مفتاح الأفكار(ص ٢٥١) .
(٣) يقال : فلان ناصح الجيب يراد بذلك قلبه وصدره أى أمين .

من خناقك روع الخوف ، وتلتجئ إلى أمر منيع ، وظهر قوى ، ورأى حازم ، تأمن به بغتات عدوك ، وغرات بغتاتهم ، وطوارق أحداثهم ، ويصير إليك علم أحوالهم ، ومتقدمات خيولهم ، فآتخبهم رأى عين ، وقوهم بما يصلحهم من المنالات والأطماع والأرزاق ، وآجعلهم منك بالمنزل الذى هم به من محارز علاقتك ، وحصانة كهوفتك ، وقوة سيارة عسكرك .
وإياك أن تدخل فيهم أحدا بشفاعة ، أو تحتمله على هوادة ، أو تقدمه لأثرة ، أو أن يكون مع أحد منهم بغل نفل[1] ، أو فضل من الظهر ، أو ثقل[2] فادح ، فتشتد عليهم مؤونة أنفسهم ، ويدخلهم كلال السآمة فيما يعالجون من أثقالهم ، ويشتغلون به عن عدوهم إن دهمهم منه رائع ، أو بغتهم منه طليعة . فتفقد ذلك محكما له ، وتقدم فيه آخذا بالحزم فى إمضائه ؛ أرشدك الله لإصابة الحظ ، ووفقك ليمن التدبير ، وقصد بك لأسهل الرأى وأعوده نفعا فى العاجل والآجل ، وأكبته لعدوك وأشجاه لهم ، وأردعه لعاديتهم .
ول دراجة عسكرك وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم رجلا من أهل بيوتات الشرف ، محمود الخبرة ، معروفا بالنجدة ، ذا سن وتجربة ، لين الطاعة ، قديم النصيحة ، مأمون السريرة ، له بصيرة بالحق نافذة تقدمه ، ونية صادقة عن الإدهان[3] تحجزه . وآضمم إليه عدة نفر من ثقات جندك وذوى أسنانهم يكونون شرطة معه ؛ ثم تقدم إليه فى إخراج المصاف ، وإقامة الأحراس وإذكاء العيون ، وحفظ الأطراف ، وشدة الحذر ؛ ومره فليضع القواد بأنفسهم مع أصحابهم فى مصافهم ، كل قائد بإزاء مكانه ، وحيث منزله ، قد سد ما بينه وبين صاحبه بالرماح شارعة ، والترسة موضونة[4] ، والرجال راصدة ، ذاكية الأحراس ، وجلة الروع ، خائفة طوارق العدو وبياته . ثم مره فليخرج كل ليلة قائدا فى أصحابه أو عدة منهم إن كانوا كثيرا ، على غلوة أو آثنتين من عسكرك ، متنبذا عنك محيطا بمنزلك ، ذاكية أحراسه ، قلقة التردد ، مفرطة الحذر ، معدة للروع ، متأهبة للقتال ، آخذة على أطراف المعسكر ونواحيه ، متفرقين فى آختلافهم كردوسا كردوسا[5] ، يستقبل بعضهم بعضا

(١) النفل محركة : الغنيمة والهبة . (٢) الثقل : متاع المسافر . (٣) الإدهان : المداهنة وهى أن يظهر الانسان خلاف ما يبطن . (٤) الترسة موضونة ، أى منسوجة حلقتين حلقتين . (٥) أى كتيبة كتيبة .

[فى الاختلاف][1] ويكسع تال متقدّما فى التردد ، واجعل ذلك بين قوّادك وأهل عسكرك نُوَبا معروفة، وحِصَصا مفروضة، لا تُعْرِ منها مُزْدَلِفا منك بمودّة، ولا تحامل فيه على أحد بمَوْجِدة . إن شاء الله تعالى .

فوِّض إلى أمراء أجنادك وقوّاد خيلك أمورَ أصحابهم ، والأخذَ على قافية أيديهم ، رياضةً منك لهم على السّمع والطاعة لأمرائهم ، والاتّباع لأمرهم ، والوقوف عند نهيهم ؛ وتقـدّمْ إلى أمراء الأجناد فى النوائب التى ألزمتهم إيّاها ، والأعمال التى استنجدتهم لها ، والأسلحةِ والكُرَاع التى كتبْتَها عليهم ؛ واحذر اعتلالَ أحدٍ من قوادك عليك بما يحُول بينك وبينَ تأديب جندك، وتقويمهم لطاعتك، وقمْعهم عن الإخلال بمَرَاكزهم لشىء مما وكلوا به من أعمالهم؛ فإن ذلك مَفْسدة للجند، مَفْثَاةٌ[2] للقوّاد عن الجدّ والإيثار للناصحة، والتقدّم فى الأحكام .

واعلم أنّ فى استخفافهم بقوّادهم وتضييعهم أمْرَ رؤسائهم دُخولا للضَّياع على أعمالك، واستخفافا بأمرك الذى يأتمرون به ورأيك الذى ترتئى . وأوعِزْ إلى القوّاد ألّا يُقْدِم أحدٌ منهم على عقوبةِ أحدٍ من أصحابه ، إلا عقوبةَ تأديبٍ فى تقويم مَيَل، وتثقيف أَوَد ؛ فأما عقوبةٌ تبلُغ تَلَف المُهجة، وإقامةُ حدٍّ فى قطع، أو إفراطٌ فى ضرْب ، أو أخذُ مال ، أو عقوبةٌ فى شَعَر ، فلا يَلِيَنّ ذلك من جنـدك أحدٌ غيرُك ، أو صاحبُ شُرْطتك بأمرك وعن رأيك وإذنك؛ ومتى لم تُذَلّل الجنـدَ لقوّادهم ، وتُضْرِعهـم لأمرائهم ؛ تُوجبْ لهم عليـك الحجّةَ بتضييع — إن كان منهـم — لأمْرك ، أو خلَل — إن تهاونوا به — من عَمَلك، أو عجز — إن فرط منهم — فى شىء ممـا وكّلتهم به أو أسـندته إليهم ؛ ولا تجد إلى الإقدام عليهم باللّوم وعَضّ العقوبة عليهـم مجازًا تصـل به إلى تعنيفهم ، بتفريطك فى تذليل أصحابهم لهم ، وإفسادك إيّاهم عليك وعليهم . فانظر فى ذلك نظرا مُحْكما، وتقدّم

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٢) . (٢) أى يقعد بهم عن الجد الخ .

فيه بِرِفْقك تقدّما بليغا؛ وإيّاك أن يدخل حزمَك وهْنٌ، أو يشوبَ عَزمَك إيثار، أو يخالط رأيَك ضَيَاع؛ واللهَ يستودعُ أميرُ المؤمنين نفسَك ودينَك .

إذا كنت من عدوِّك على مسافةٍ دانية وسَنَن لقاءٍ مختصَر، وكان من عسكرك مُقترِباً قد شامتْ طلائعُك مقدّماتِ ضَلالته وحُماةَ فِتنته، فتأهب أُهبة المُناجِز، وخُذ اعتدادَ الحَذِر، وكَتِّبْ[1] خيولَك، وعَبِّ جندك . وإيّاك والمسيرَ إلا في مقدّمة ومَيْمنة ومَيْسَرة وساقةٍ ، قد شَهَروا الأسلحةَ، ونَشَروا البنودَ والأعلام . وعرِّف جندَك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم قد أخذوا أهبة القتال، واستعدُّوا للّقاء؛ ملتجئين إلى مَواقفِهم، عارفين بمواضِعهم في مَسيرهم ومُعَسْكرهم . وليكن ترحُّلُهم وتنزُّلُهم على راياتهم وأعلامهم وفي مراكِزهم، قد عَرَّف كلُّ قائد منهم أصحابَه مَواقفهم : من الميمنة والميسرة والقلب والساقةِ والطّليعة ، لازمين لها ، غيرَ مُخلّين بما استُنجِدوا له ، ولا مُتهاونين فيما أُهيب بهم إليه؛ حتى تكون عساكرُك في مَنْهَلٍ تصل إليه ، ومسافةٍ تختارها، كأنها عسكرٌ واحد في اجتماعها على العدوّ، وأخذها بالحزم، ومسيرِها على راياتها ، ونزولِها في مراكِزها ، ومعرِفتها بمواضِعها : إن ضلّت دابّةٌ من موضِعها، عرف أهلُ العسكر من أيّ المراكز هي، ومَنْ صاحبُها، وفي أي المحلّ حلولُه منها، فرُدّت إليه، هداية معروفة بِسَمْت صاحبِ قيادتها؛ فانّ تقدُّمك في ذلك وإحكامَك له طارحٌ عن جندك مؤونةَ الطلب، وعنايةَ المعرفة ، وابتغاءَ الضالّة .

ثم اجعلْ على سَاقتك أوثقَ أهل عسكرك في نفسك صرامةً ونَفَاذا ورِضًا في العامّة، وإنصافًا من نفسه للرعية، وأخذًا بالحق في المَعْدِلة، مستشعرًا تقوى الله وطاعتَه ؛ آخذا بهَدْيِك وأدبِك، واقفًا عند أمرِك ونهيك، معترمًا على مناصحتك وتزيينك، نظيرًا لك في الحال، وشبيها بك في الشرف، وعديلا في الموضع، ومقارِبا في النسب[2]؛ ثم أكْنِفْ معه الجمع، وأيِّده بالقوة، وقوِّه بالظَّهْر، وأعِنه بالأموال، واعمِدْه بالسلاح، ومُرْه بالتعطُّف على ذوي الضعف من جندك ومَنْ أزحفتْ به دابّتُه وأصابته نكبة : من مرضٍ أو رُجْلة[3] أوآفة،

---

(١) كتب الجيش أو الخيل : جعلها كتائب . (٢) في مفتاح الأفكار وغيره : « في الصيت» .

(٣) الرجلة بالضم : أن يشكو رجله وقد رجل كفرح أصابه في رجله ما يكره .

من غير أن يأذن لأحدٍ منهم فى التنحّى عن عسكره، أو التخلّف بعد ترحّله، إلا لمجهودٍ سقما، أو لمطروقٍ بآفةٍ جائحةٍ . ثم تقدّم إليه محذّرا، ومُره زاجرا، وأنهِهُ مُغلظا فى الشدّة على من مرّ به منصرفًا عن معسكرك من جنـدك بغير جوازك، شادًّا لهم أسرًا، ومُوقرَهم حديدا، ومُعاقِبَهم مُوجِعا، وموجِّهَهم إليك فتنهكَهم عقوبةً، وتجعلهم لغيرهم من جندك عِظة .

وآعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه واثقًا بنصيحته قد بلوتَ منه أمانةً تُسكّنك إليـه، وصرامةً تؤمّنك مهانتَه، ونفـاذًا فى أمرك يُرْخى عنك خِنـاقَ الخوف فى إضاعته — لم يأمَنْ أميرُ المؤمنين تسلّلَ الجند عنك لِواذًا[(١)]، ورَفْضَهم مراكزَهم، وإخلالَهم بمواضِعِهم، وتخلّفَهم عن أعمالهم، آمِنين تغييرَ ذلك عليهم، والشدّةَ على من آجترمه منهم، فأوشك ذلك فى وَهْنك، وخَذَل من قوّتك، وقلّل من كثرتك .

اِجعلْ خلف ساقتك رجلا من وجوه قوّادك، جليدًا، ماضيًا، عفيفًا، صارمًا، شهمَ الرأى، شديدَ الحَـذَر، شكِيمَ القوّة، غيرَ مُداهِنٍ فى عقوبة، ولا مَهِينٍ فى قوّة، فى خمسين فارسا يحشُر إليك جندَك، ويُلحق بك من تخلّف عنك بعد الإبلاغ فى عقوبتهم، والنَّهْك لهم، والتنكيلِ بهم . وليكن بعَقْوتك[(٢)] فى المنزل الذى ترحَل عنه، والمنهل الذى تتقوّض منه، مُفرِطًا فى النَّفْض له، والتتبّع لمن تخلّف عنك به، مشتدًّا فى أهل المنزل وساكِنِيه بالتقدّم، موعِزًا اليهم فى إزعاج الجند عن منازلهم، وإخراجِهم عن مكامِنِهم، وإيعادِ العقوبة الموجعة والنَّكال المُبْسِل فى الأشعار والأبشار، وآستِصفاءِ الأموالِ وهدم العَقَار لمن آوى منهم أحدًا أو ستَر موضِـعَه، أو أخفى محلّه . وحَذِّره عقوبتَـك إيّاه فى الترخيص لأحدٍ، والمحاباةِ لذِى قَرابة، والآختِصاص بذلك لذِى أثرة وهَوادة . ولتكن فوسانُه منتخَبِين فى القـوّة، معروفين بالنجدة؛ عليهم سوابِـغُ الدروع دونها شِعارُ الحشو وجُبَبُ الاستجنان؛ متقلّدين سيوفَهم، سامِطِين[(٣)] كنائنَهم، مستعِدين لِهَيْج إن بَدَهَهم [أو كَمِينٍ إن يظْهَرْ لهم][(٤)] . وإياك

---

(١) لواذا : مراوغة أى مستخفين يستتر بعضهم ببعض . (٢) العقوة : ما حول الدار أو ساحته .

(٣) سامطين : معلقين . (٤) الزيادة عن مفتاح الأفكار وغيره .

أن تقبـل منهم فى دوابهم إلا فرسا قويا أو بِرذَونًا وَثِيجا[1] : فإن ذلك من أقوى القوة لهم ، وأعون الظَّهرِىّ على عدوّهم، إن شاء الله .

ليكن رحيلك إبَّانًا واحدا، ووقتًا معلوما : لتخفّ المؤونة بذلك على جندك، ويعلموا أوان رحيلهم، فيقدّموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم، وأعلافِ دوابِّهم، وتسكُن قلوبهم الى الوقت الذى وَقَفوا عليـه ، ويَطْمئِنّ ذَوُو الرأى الى إبّان الرحيل. ومتى يكن رحيلك مختلِفًا، تَعْظُم المؤونة عليـك وعلى جندك ولا يزال ذوو السَّفَه [والنَّزَق] يترحّلون بالإرجاف ويتزلُون بالتوهُّم ، حتى لا ينتفع ذَوو رأيٍ بنوم ولا طُمَأْنِينة .

إيّاك أن تُظهر آستِقلالًا ، أو تُنَادى برحيل من منزل تكون فيه، حتى تأمرَ صاحب تَعْبِئَتك بالوقوف بأصحابه على مُعسكرك آخِذًا بجَنَبَتَى فوهته، بأسلحتِهم عدّة لأمرٍ إن حضر أو مفاجاةٍ من طليعـة للعدوّ إن رأت منكم نُهْـزة ، أو لَمَحَتْ عندكم غِرّة . ثم مُرِ الناسَ بالرحيل وخيلُك واقفة ، وأُهْبَتك مُعَدّة، وجُنّتُك واقيـة، حتى اذا آستقللتم من معسكركم، وتوجّهتم من منازِلكم ، سِرتم على تعبئتكم بسكون رِيح، وهـدوّ حَمْلة ، وحُسن دَعَة . فاذا آنتهيتَ الى مَنْهل أردتَ نزولَه أو همَمت بالمعسكر به، فإيّاك ونزولَه إلا بعـد العِلم بأهله ، والمعرِفة بمَرَافِقه ، ومُرْ صاحب طليعتِك أن يعرِف لك أحوالَه ، ويستثيرَ لك علمَ دفِينه، ويستبطِنَ علم أموره ثم يُنهيها اليك على ما صارت اليه : لتعلم كيف احتمالُه لعسكرك،وكيف ماؤه وأعلافه وموضِعُ مُعَسكرِك منه، وهل لك ـــ إن أردتَ مُقامًا به، أو مطاولةَ عدوّك أو مكايدتَه فيه ـــ قوةٌ تحملك ومَدَدٌ يأتيه[2] ؛ فإنك إن لم تفعلْ ذلك ، لم تأمَنْ أن تهجُمَ على منزل يُعجِزك ويزعِجك عنه ضِيقُ مكانه، وقِلّةُ مياهه، وآنقطاعُ موادّه، إن أردتَ بعدوّك مكيدةً، أو آحتجتَ من أمورهم الى مطاولة ، فإن ارتحلتَ منـه كنتَ غَرَضًا لعدوّك ، ولم تجـدْ الى المحاربة والإخطار سبيلا ؛ وإن أقمتَ به أقمتَ على مشـقّة وحَصْر وفى أزْل

(١) برذونا وثيجا : كثير اللحم .

(٢) كذا فى صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٢٦) ولعل فيه تحريفا صوابه : قوة تصلك ومدد يأتيك .

وضيق ، فآعرِف ذلك وتقدّمْ فيه . فإن أردتَ نزولًا أمرتَ صاحبَ الخيل التى وكّلت بالناس فوقفت خيلُه متنحيةً من معسكرك،عُدّةً لأمرٍ إن غالك،ومَفْزَعًا لبديهة إن راعتْك، فقد أمِنتَ بحمد الله وقوته لجِاَةَ عدوّك، وعرفتَ موقعَها من حِرْزك، حتى يأخذ النـاس منازلَهم ، وتُوضَعَ الأثقالُ مواضِعَها ، ويأتيَك خبر طلائعك، وتُخرج دبّابتك من معسكرك دزاجةً ودبّابا مُحيطين بعسكرك، وعُدّةً إن آحتجتَ اليها . ولتكن دبّابات جندك أهلَ جَلَدٍ وقوة، قائدًا أو اثنين أو ثلاثةً بأصحابهم، فى كل ليلةٍ ويومٍ نُوَبًا بينهم. فاذا غَربت الشمس ووَجَبَ[1] نورُها ، أخرِج اليهم صاحبُ تعبيتك أبدالَهم، عَسَسًا بالليل فى أقربَ من مواضـع دبّابِى النهارِ، يتعاوَرُ ذلك قوّادُك جميعا بلا محاباةٍ لأحدٍ فيه ولا إدهان .

إياك وأن يكونَ مـنزلك إلا فى خَنْـدق وحِصْن تأمن به بيَات عدوّك وتستنيمُ فيـه الى الحزم من مكيدتك . اذا وُضِعت الأثقـالُ وحطّت أبنيـةُ أهل العسكر، لم يُمْدَدْ طُنُبٌ، ولم يُرفَع خِباء، ولم يُنْصَب بناء حتى تقطَعَ لكل قائد ذَرعًا معلومًا من الأرض بقدر أصحابه، فيحفِروه عليهم خنـدقا يُطيفونَه بعد ذلك بخنادق الحَسَك[2]، طارحين لهـا دون آشتجار الرماح، ونَصْب التِّرَسَة، لها بابانِ قد وكّلتَ بحفظ كل باب منهما رجلًا من قوّادك فى مِائة رجلٍ من أصحابه ؛ فإذا فُرِغ من الخندق كان ذانِك الرجلانِ القائدانِ بمن معهما من أصحابهما أهلَ ذلك المركز، وموضِـعَ تلك الخيـل، وكانوا هم البوّابين والأحراس لذينك الموضعين، قد كَفَوْهما وضبطوهما وأعفَوا من أعمال العسكر ومكروهه غيرَهما .

وآعلم أنك إذا كنت فى خندق، أمِنتَ بإذن الله وقوته طوارِقَ عدوّك وبَغَتَاتِهم ، فإن راموا تلك منك ، كنتَ قد أحكمتَ ذلك وأخذتَ بالحزم فيه، وتقدّمتَ فى الإعدادِ له، ورَتَقتَ مخوفَ الفتق منه، وإن تكنِ العافيـةُ آستحققتَ حمدَ الله عليها، وآرتبطتَ شكرَه بهـا، ولم يَضْرُرْك أخْذُك بالحزم : لأن كل كُلفـة ونَصَبٍ ومؤونةِ إنفاق ومشقّةِ عمل مع

---

(١) أى ذهب وغاب . (٢) الحسك : أسلاك كالشوك تعمل من الحديد تلق حول المعسكر لتنشب فى رجل من يدوسها من الخيل والناس الطارقين له ، وهى المعروفة الآن : « بالاسلاك الشائكة » .

السلامة غُنْمٌ وغير خَطَر بالعاقبـة، إن شاء الله . فإن ٱبتُليتَ ببيات عدوّك أو طَرَقك رائعا في ليلك، فليُلْفِك حذِراً مشمّرا عن ساقك، حاسراً عن ذراعك، متشَزِّناً[1] لحربك؛ قد تقدّمتْ دَرَاجتُك إلى مواضِعها على ما وصفه لك أمير المؤمنين، ودبّابتك في أوقاتهـا التي قدّر لك، وطلائعك حيث أمرتَك، وجندك على ما عبّأ لك، قد خَطَرتَ عليهم بنفسك، وتقدّمتَ إلى جندك، إن طرقهم طارق أو فاجأهم عدوّ، ألا يتكلم منهـم أحد رافعا صوتَه بالتكبير مُغرِقا في الإجلاب، مُعلِنا بالإرهاب لأهل الناحية التي يقع بها العدوّ طارقا، وليشرعوا رماحَهم ناشبين بها في وجوههم، ويرشقوهم بالنبل مكتنّين بتِرَسِهـم، لازِمين لمراكزهم، غير مُزيلي قدم عن موضِعها، ولا متجاوِزين إلى غير مراكزهم، وليكبِّروا ثلاثَ تكبيرات متواليات وسائرُ الجنـد هادون، لتعرِف موضِع عدوّك من معسكرك، فتُمدّ أهلَ تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشرطتك، ومن ٱنتخبتَ قبل ذلك عدّةً للشدائد بحضرتك، وتدُسّ إليهم النشّاب والرماح .

وإياك وأن يشهَروا سـيفًا يتجالدون به، وتقدّمْ إليهم ألا يكون قتالُهم في تِلك المواضع لمن طرقهم إلا بالرماح مُسنِدين لها إلى صدورهم، والنُشّاب راشقين به وجوهَهم؛ قد ألبَدوا بالأترِسة، وٱستجنُّوا بالبَيْض، وألقَوْا عليهم سوابِغَ الدروع وجِبابَ الحَشْو . فإن صدّ العـدوّ عنهم حاملين على جهةٍ أخرى، كبّر أهلُ تلك الناحيـة التي يقع فيها كفعل الناحيةِ الأولى، وبقيّةُ العسـكر سكوتٌ والناحيةُ التي صدّ عنها العدوّ لازمةٌ مراكِزَهم منتطقةُ الهدو ساكنةُ الريح، ثم عَمِلتَ في تقويتهم وإمدادهم بمثل صنيعِك في إخوانهم .

وإياك أن تُخمِدَ نار رُواقك، وإذا وقع العدوّ في معسكرك فأجّجها ساعِرًا لهـا وأوقِدْها حطَبًا جَزْلا يعرِف به أهـلُ العسكر مكانَك وموضعَ رِواقك، فيسكن نافِرُ قلوبهم، ويقوى واهِي قوّتِهـم، ويشتدّ منخذِلُ ظهورهم، ولا يرجُمون بك الظنونَ، ويجعلون لك آراء

(١) متشزنا : متجهزا .

السوء، ويُرْجِفون بك آناء الخوف؛ وذلك من فِعلك رادٌّ عدوَّك بغيظه لم يستقلِلْ منك ظَفَرا، ولم يبلُغْ من نِكايتك سرورا . وإن انصرف عنك عدوُّك ونَكَل عن الإصابة من جندك وكانت بخيلك قوةٌ على طلبه أو كانت لك من فرسانك خيلٌ معدَّةٌ وكتيبة منتخبَة، [و] قدرت على أن تَرْكَبَ بهم أكساءَهم(١)، وتحمِلَهم على سَنَنِهم؛ فأتبِعهم جريدةَ خيل عليها الثِّقاتُ من فُرسانك وأولو النجدة من حماتك ؛ فإنك تَرْهَقُ(٢) عدوَّك وقد أمِن من بياتك، وشُغِل بكَلَاله عن التحرُّز منك والأخذ بأبواب معسكره والضبط لمحارسه عليك، مُوهَنَةً حُماتُهم لغَيبةِ أبطالهم : لما ألفَوْكم عليه من التشمير والجِدّ، قد عقَر الله فيهم، وأصاب منهم، وجرح من مقاتِلتهم، وكسَر من أمانى ضلالهم، وردّ من مستعلِي جِماحهم .

وتقدَّمْ إلى من تُوَجِّهه فى طلبهم، وتُتْبِعه أكساءَهم : فى سكونِ الريح ، وقِلة الرَّفَث ، وكثرة التسبيح والتهليل، واستِنصار اللهِ عز وجل بألسِنتهم وقلوبِهم سِراً وجهرا، بلا لجَبٍ ضجّة، ولا ارتفاعِ ضوضاء ، دون أن يرِدُوا على مطلبهم ، وينتهِزوا فُرصتَهم . ثم ليشهَروا السلاح، وينتضُوا السيوفَ، فإن لها هيبةً رائعة، وبديهة مخوفةً، لا يقوم لها فى بُهمة الليل وحِنْدِسه إلا البطلُ المحارِب، وذو البصيرة المحامِى، والمستميتُ المقاتل، وقليل ماهم عند تلك الحمِيّة وفى ذلك الموضع .

ليكن أوّلَ ما تتقدّم به فى التهيؤ لعدوّك، والاستعدادِ للقائه ، انتخابُك من فرسان عسكرك وحُماة جندك ذوِى البأس والحُنْكة والجَلَد والصَّرامة، ممن قد اعتاد طِرادَ الكُماة، وكشَّر عن ناجذه فى الحرب ، وقام على ساقٍ فى منازلة الأقران، ثقِفَ الفروسية ، مجتمِعَ القوة، مستحصِدَ المرِيرة ، صبوراً على هول الليل، عارفا بمناهزة الفُرَص، لم تَمْهَنْه الحُنْكة ضعفًا ، ولا بلغت به السنّ كَلالا ، ولا أسكرته غِرّةُ الحَدَاثة جهلا، ولا أبطرته نجدةُ الأغمار صَلَفا ، جرِيئا على مخاطرةِ التلَف، مُقْدِما على ادّراع الموت، مكابِرا لمَهِيب الهول، متقحِّما مخشِيَّ الحتوف، خائضا غمراتِ المَهالك ؛ برأى يؤيِّده الحزم، ونيّة لا يخالِجها الشك ،

(١) الأكساء : الأدبار، واحدها كسء . (٢) ترهق عدوّك : تغشاه .

وأهواء مجتمعة، وقلوب مؤتلفة؛ عارفين بفضل الطاعة وعزها وشرفها، وحيث محل أهلها من التأييد والظفر والتمكين؛ ثم اعرضهم رأى عين على كراعهم وأسلحتهم . ولتكن دوابهم إناث عتاق الخيل، وأسلحتهم سوابغ الدروع وكمال آلة المحارب، متقلدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجوهر وصافى الحديد، المتخيرة من معادن الأجناس، هندية الحديد يمانية الطبع، رقاق المضارب، مسمومة الشحذ، مشطبة الضريبة؛ ملبدين بالترسة الفارسية، صينية التعقيب، معلمة المقابض بحلق الحديد، أنحاؤها مربعة، ومخارزها بالتجليد مضاعفة، محملها مستخف؛ وكنائن النبل وجعاب القسى قد استحقبوها، وقسى الشريان[1] والنبع أعرابية الصنعة، مختلفة الأجناس، محكمة العمل، مقومة التثقيف؛ ونصول النبل مسمومة، وعملها مصيصى، وتركيبها عراقى، وتريشها بدوى؛ مختلفة الصوغ فى الطبع، شتى الأعمال فى التشطيب والتجنيح والاستدارة . ولتكن الفارسية مقلوبة المقابض، منبسطة السية، سهلة الانعطاف، مقربة الانحناء، ممكنة المرمى، واسعة الأسهم؛ فرضها سهلة الورود، ومعاطفها غير مقتربة المواتاة . ثم ول على كل مائة رجل منهم رجلا من أهل خاصتك وثقاتك ونصحائك، له صيت فى الرياسة، وقدم فى السابقة، وأولية فى المشايعة . وتقدم إليه فى ضبطهم، وكف معرتهم، واستنزال نصائحهم، واستعداد طاعتهم، واستخلاص ضمائرهم، وتعاهد كراعهم وأسلحتهم : معفيا لهم من النوائب التى تلزم أهل عسكرك وعامة جندك؛ واجعلهم عدة لأمر إن حزبك، أو طارق إن أتاك؛ ومرهم أن يكونوا على أهبة معدة، وحذر ناف لسنة الغفلة عنهم؛ فإنك لا تدرى أى الساعات من ليلك ونهارك تكون إليهم حاجتك . فليكونوا كرجل واحد فى التشمير والترادف وسرعة الإجابة؛ فإنك عسيت ألا تجد عند جماعة جندك فى مثل تلك الروعة والمباغتة — إن احتجت إلى ذلك منهم — معونة كافية، ولا أهبة معدة . بل ذلك كذلك فليكن هؤلاء القوم الذين تنتخب عدتك وقوتك، بعوثا قد وظفتها على القواد الذين وليتهم أمورهم، فسميت أولا وثانيا وثالثا ورابعا وخامسا وسادسا؛ فإن اكتفيت فيما يطرقك ويسدهك

(١) الشريان بفتح الشين وكسرها : شجر من عضاه الجبال تعمل من القسى .

ببعث واحد، كان معدًّا لم تحتج إلى آنتخابهم فى ساعتك تلك، فقطع البحث عليهم عند ما يرهقك . وإن آحتجت إلى آثنين أو ثلاثة ، وجهت منهم إرادتك أو ما ترى قوتك ، إن شاء الله .

وكّل بخزائنك ودواوينك رجلًا ناصحا أمينا، ذا ورع حاجز، ودين فاصل، وطاعة خالصة، وأمانة صادقة، وآجعل معه خيلًا يكون مسيرها ومنزلها ومرحلها مع خزائنك وحولها . وتقدّم إليه فى حفظها، والتوقّى عليها، وآتّهام كلّ من تُسند إليه شيئا منها على إضاعته والتهاون به، والشدّة على من دنا منها فى مسير، أو ضامّها فى منزل ، أو خالطها فى منهل . وليكن عامة الجند والجيش — إلا من آستخلصت للسير معها — متنحين عنها ، مجانبين لها فى المسير والمنزل، فانه ربما كانت الجولة وحدثت الفزعة، فان لم يكن للخزائن ممن يوكّل بها أهل حفظ لها وذبّ عنها، وحياطة دونها، وقوة على من أراد آنتهابها، أسرع الجند إليها وتداعوا نحوها، حتى يكاد يترامى ذلك بهم إلى آنتهاب العسكر وآضطراب الفتنة، فإن أهل الفتن وسوء السيرة كثير، وإنما همّتهم الشرّ، فإيّاك أن يكون لأحد فى خزائنك ودواوينك وبيوت أموالك مطمع، أو يجد سبيلا إلى آغتيالها ومرزأتها .

واعلم أن أحسن مكيدتك أثرًا فى العامة، وأبعدها صيتًا فى حسن القالة، مانلت الظفر فيه بحزم الروية، وحسن السيرة، ولطف الحيلة . فلتكن رويّتك فى ذلك وحرصك على إصابته بالحيل لا بالقتال وأخطار التالف، وآدسس إلى عدوك، وكاتب رؤساءهم وقادتهم وعدهم المنالات، ومنّهم الولايات، وسوّغهم التراث، وضع عنهم الإحن، وآقطع أعناقهم بالمطامع، وآستدعهم بالمثاوب، وآملأ قلوبهم بالترهيب إن أمكنتك منهم الدوائر، وأصارتهم إليك الرواجع ، وآدعهم إلى الوثوب بصاحبهم أو آعتزاله إن لم يكن لهم بالوثوب عليه طاقة ، ولا عليك أن تطرح إلى بعضهم كتبًا كأنها جواب كتب لهم إليك ، وتكتب على ألسنتهم كتبا إليك تدفعها إليهم وتحمل بها صاحبهم عليهم ، وتنزلهم عنده بمنزلة التهمة ومحلّ

(١) الزيادة من رسائل البلغاء .

الظِّنة ؛ فلعل مَكيدتَك فى ذلك أن يكون فيها افتراقُ كلمتهم ، وتشتيتُ جماعتِهم ، وإحَنُ قلوبِهـم، وسوءُ الظن مِن واليهم بهـم، فيوحشهم منه خوفُهم إيَّاه على أنفسِهم إذا أيقنوا باتّهامه إياهم ؛ فان بَسَط يدَه فقتلهم ، وأولغ سـيفَه فى دِمائهم ، وأسرع الوثوبَ بهـم ، أشعرَهم جميعا الخوف ، وشَمِلهم الرُّعب ، ودعاهم إليك الهَرَب ، فتهافتُوا نحوَك بالنصيحة وأمُّوك بالطلب . وإن كان متأنِّيا محتمِلًا رجوتَ أن يستميل إليك بعضهم ، ويستدعى الطمع ذوِى الشَرَه منهم، وتنالَ بذلك ما تُحِب من أخبارهم، إن شاء الله .

إذا تَدَانى الصـفَّان، وتواقَفَ الجمْعان، وآحتضَرَت الحرب ، وعبّأتَ أصحابك لقتال عدوّهم ؛فأكْثِرْ من قول : لاحول ولا قوة إلا بالله،والتوكُّلِ على الله عز وجل والتفويض إليه ، ومسألتِه توفيقَك وإرشادَك ، وأن يَعزِم لك على الرُّشد المُنْجِى، والعِصمة الكالئة ، والحِياطةِ الشاملة . ومُرْ جنـدَك بالصّمت وقلّة التلفُّت عنـد المُصاوَلَة ، وكثرةِ التكبـير فى أنفسِهم والتسبيح بضمائرِهم، ولا يُظهِروا تكبيرًا إلا فى الكَرَّات والحَمَلات، وعنـد كل زُلْفةٍ يزدلِفونها ؛ فأمّا وهم وقوفٌ فان ذلك من الفشل والجبن ؛ وليذكروا الله فى أنفسِهـم ويسألوه نصرَهم وإعزازَهم، وليُكثِروا من قول : "لاحول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم آنصُرنا على عدوّك وعدوّنا الباغى، وآكفِنا شوكتَه المستحِدّة، وأيِّدْنا بملائكتِك الغالبين، وآعصِمنا بعونك من الفشل والعجز إنك أرحم الراحمين" .

وليكن فى معسكرك المكبِّرون فى الليل والنهار قبل المُواقعة ، وقومٌ موقوفون يُحضِّضونهم على القتال ويحرِّضونهـم على عدوّهم، ويَصِفون لهم منازلَ الشهداء وثوابَهم، ويذكِّرونهـم الجنةَ ودرجاتِها، ونعيمَ أهلِها وسكّانِها، ويقولون : آذكروا الله يذكركم ،وآستنصِروه ينصركم، وآلتجِئوا إليه يمنعْكم . وإن آستطعتَ أن تكون أنت المباشرَ لتعبية جندك ووضعِهم مواضِعَهم من رأيك ، ومعك رجالٌ من ثِقات فرسانك ذَوُو سنٍّ وتجرِبة ونَجْـدة على التعبية التى أمير المؤمنين واصفُها لك فى آخر كتابك فافعل، إن شاء الله تعالى .

أيّدك الله بالنصر، وغلب لك على القــوّة ، وأعانكَ على الرُّشد، وعَصَمك من الزيغ، وأوجب لمن آستَشْهد معــك ثوابَ الشهداء ومنازِلَ الأصفياء، والسلام عليــك ورحمة الله وبركاته .

وكتب سنَة تسع وعشرين ومائة .

٧ — رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد الرسالة التى أوصى فيها الكتّاب(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، حَفِظكم اللهُ يا أهل صِناعة الكتابة ، وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم، فإن الله عز وجل جعل الناسَ بعد الأنبياء والمرسلين صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين، ومِن بَعْد الملوك المكرّمين أصنافا ، وإن كانوا فى الحقيقة سواءً، وصرّفهم فى صُنُوف الصناعات، وضُروب المحاولات ، الى أسـباب معاشِهم ، وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشرَ الكُتّاب فى أشْرَف الجهات ، أهــل الأدَب والمُرُوءات والعِــلْم والرَّزانة ؛ بكم تنتظِم للخلافة محاسنُها ، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يُصْلِــحُ اللهُ للخلق سلطانَهم ، وتَعْمُر بلْدانُهم ؛ لا يَسْتَغْنى المَلك عنكم، ولا يُوجَد كاف إلّا منكم ؛ فموْقعُكم من المُلوك مَوْقعُ أسْماعهم التى بها يَسْمَعون ، وأبْصارهم التى بها يُبْصرون، وألسنتهم التى بها يَنطِقون، وأيدِيهم التى بها يَبْطِشون ؛ فأمتعكم اللهُ بما خَصّكم من فَضْل صِناعتكم ، ولا نَزَعَ عنكم ما أضْفاه(٢) من النِّعْمَة عليكم ؛ وليس أحدٌ من أهل الصِناعات كلّها أحْوجَ الى آجتماع خِلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم . أيّها الكتّاب اذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صِفتكم ، فإنّ الكاتب يحْتاج فى نفسه، ويَحتاج منــه صاحِبُه الذى يثق به فى مُهمّات أُموره، أن يكون حليما فى موضع الحِلْم، فهيما فى موضع الحُكْم، مِقْداما فى موضع الإقْدام، مِحْجاما فى موضع الإحْجام، مُؤْثِرا

---

(١) هذه الرسالة من مقدّمة ابن خلدون (ص ٢٠٦ طبعة بلاق) . (٢) أضفاه : أتمه .

للعفاف والعدل والإنصاف، كتوما للأسرار، وفيًّا عند الشدائد، عالمـا بما يأتى من النوازل؛ يضع الأمور مواضعها، والطوارق فى أماكنها؛ قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه، وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به؛ يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره؛ فيعد لكل أمر عدته وعتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته. فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب، وتفقهوا فى الدين، وابدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسمو اليه هممكم، ولا تضيعوا النظر فى الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها، وسفساف الأمور ومحاقرها؛ فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب، ونزهوا صناعتكم عن الدناءة، واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات.

وإياكم والكبر والسخف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة؛ وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم، وتواصوا عليها بالذى هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم؛ وإن نبا[(1)] الزمان برجل منكم، فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله، ويثوب اليه أمره، وإن أقعد أحدا منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه، واستظهروا بفضل تجربته، وقديم معرفته؛ وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه أحوط منه على ولده وأخيه، فإن عرضت فى الشغل محمدة فلا يصرفها إلا الى صاحبه، وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه؛ وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال، فإن العيب اليكم معشر الكتاب أسرع منه الى القراء، وهو لكم أفسد منه لها؛ فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل له من نفسه، ما يجب له عليه من حقه، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره، واحتماله ونصيحته، وكتمان سره وتدبير أمره،

---

(١) نبا: تجافى وتباعد.

ما هو جزاءٌ لحقّه، ويصدّق ذلك فعلُه عند الحاجة اليه، والاضطرار الى ما لديه؛ فاستشعروا ذلك — وفقكم الله — من أنفسكم فى حالة الرّخاء، والشدّة والحرمان والمُواساة والإحسان والسّراء والضّراء؛ فنعمت الشيمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة؛ واذا وَلِىَ الرجلُ منكم أو صُيِّر اليه من أمرِ خلقِ الله وعيالِ أمرٌ، فليُراقب الله عز وجل وليُؤْثِر طاعتَه، وليكُن على الضعيف رفيقا، وللمظلوم مُنْصفا؛ فإنّ الخلْق عيالُ الله، وأحبُّهم اليه أرفقُهم بعياله؛ ثم ليكُنْ بالعَــدْل حاكما، وللأشراف مُكرما، وللفَىء مُوَفِّرا، وللبلاد عامرا، وللرّعيّة مُتألِّفا، وعن أذاهم متخلفا؛ وليكن فى مجلسه متواضعا حليما، وفى سجلات خراجه واستقضاء حقوقه دقيقا؛ واذا صحِبَ أحدُكم رجلا فليَختبر خلائقَه، فاذا عَرَف حَسَنَها وقبيحَها أعانه على مايوافقه من الحَسَن، واحتال على صَرْفه عمّا يَهْواه من القبيح بألطف حيلة وأجمل وسيلة.

وقد علمتم أن سائس البَهيمة اذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفةَ أخلاقها، فإن كانت رَمُوحا لم يَهِجْها اذا ركبَها، وإن كانت شَبوبا اتّقاها من بين يديها، وإن خاف منها شُرودا توقّاها من ناحية رأسها، وإن كانت حَرُونا قَمَع برفقٍ هَواها فى طُرُقها، فإن استمرّت عطَفَها يسيرا، فيَسْلس له قيادُها، وفى هذا الوصف من السياسة دلائلُ لمَن ساسَ الناس وعامَلَهم وجرّبهم وداخَلَهم.

والكاتب لفَضْل أدَبه وشريف صنعته ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناظره، ويَفْهم عنه أو يَخاف سَطْوتَه، أوْلَى بالرِّفْق لصاحبه ومُداراته وتقويم أوَده، من سائس البهيمة التى لا تُحير جوابا، ولا تَعرف صوابا، ولا تَفْهم خطابا، إلّا بقدر ما يُصَيِّرها اليه صاحبُها الراكب عليها؛ ألا فارْفُقوا رحمكم اللهُ فى النظر، وأعْملوا ما أمكنكم فيه من الرّويّة والفكر، تأمَنوا بإذن الله ممّن صحِبْتُموه النَّبوةَ والاستثقال والجَفْوة؛ ويصير منكم الى الموافقة، وتصيروا منه الى المُؤاخاة والشفقة، إن شاء اللهُ؛ ولا يُجاوِزَنّ الرجلُ منكم فى هيئة مجلسه، ومَلْبسه ومَرْكَبه، ومَطْعمه ومَشْربه وخَدَمه، وغير ذلك من فنون أمْره قَدْر حقّه؛ فإنكم مع ما فضّلكم اللهُ به من شَرَف صَنْعتكم، خَدَمةٌ لا تُحْمَلون فى خدمتكم على التقصير، وحَفَظَةٌ

لاتُحتَمل منكم أفعالُ التَّضييع والتبذير،وآستعينوا على أفعالكم بالقَصْد فى كل ماذكرْتُه لكم، وقَصَصْتُه عليكم، وآحذَروا مَتالف السَّرَف، وسوءَ عاقبة التَّرَف، فإنهما يُعْقبان الفقر، ويُذِلّان الرِّقابَ ويَفْضَحان أهلَهما، ولا سيما الكُتّاب وأرباب الآداب . وللأمور أشباه وبعضُها دليل على بعض، فاستَدِلّوا على مُؤْتَنَف أعمالكم، بما سبقت اليه تجربتُكم، ثم آسْلُكوا من مَسالك التدبير أوضَحَها مَحَجّة، وأصدَقَها حُجّة، وأحْمَدها عاقبة .

وآعلموا أن للتدبير آفةً مُتلفة،وهو الوَصْف الشاغل لصاحبه،عن إنْفاذ علْمه ورَوِيّته؛ فليَقْصد الرجل منكم فى مجلسه، قَصْد الكافى فى مَنطقه، وليُوجِز فى آبتدائه وجوابه، وليأخُذ بمَجامع حُجَجه؛ فإن ذلك مصلحة لفعْله، ومَدْفَعة للشاغل من إكثاره؛ وليَضْرَع الى الله فى صلة توفيقه، وإمْداده بتسديده، مَخافة وُقوعه فى الغَلَط المُضرّ ببدنه، وعقْله وأدبه،فإنه إنْ ظَنّ منكم ظانٌّ أو قال قائل: إنّ الذى بَرَّز من جميل صَنْعته وقوّة حركته، إنما هو بفَضل حيلته وحُسْن تدبيره؛ فقد تعرّض بحُسْن ظنّه أو مَقالته الى أن يَكلَه اللهُ عز وجل الى نفسه، فيصير منها الى غير كاف، وذلك على مَن تأمّله غيرُ خاف؛ ولا يَقُلْ أحدٌ منكم إنه أبْصَر بالأمور، وأحْمَل لأعْباء التدبير، من مُرافقه فى صناعته، ومُصاحبه فى خدمته؛ فإنّ أعْقل الرجُلين عند ذَوى الألباب مَن رَمَى بالعُجْب وراءَ ظهره، ورأى أنّ أصحابَه أعْقَلُ منه وأجمَلُ فى طريقته؛ وعلى كل واحد من الفريقين أن يَعْرف فضْلَ نعَم الله جلّ ثناؤه من غير آغترار برأيه، ولا تزكية لنفسه؛ ولا يُكاثر على أخيه أو نظيره، وصاحبه وعَشيره؛ وحمدُ الله واجبٌ على الجميع .

وذلك بالتواضع لعظمته، والتذلُّل لعزّته، والتّحدّث بنعمته، وأنا أقول فى كتابى هذا ما سَبق به المَثَل : "مَن تلْزَمه النصيحة يَلْزَمه العَمَل" وهو جوهر هذا الكتاب وغُرّة كلامه، بعد الذى فيه من ذكْر الله عز وجل، فلذلك جعلْتُه آخرَه وتَمّمْتُه به . تولّانا الله وإيّاكم يامعشر الطَّلَبة والكَتَبة بما يتولّى به مَن سَبَق علْمُه بإسْعاده وإرْشاده، فإن ذلك اليه وبيده . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

٨ — رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد رسالة فى الشطرنج[١] :

أما بعد ، فإن الله شَرَع دِينَه بإنهاج سُبُله ، وإيضاح مَعَالِمه بإظهار فرائضه ، وبعث رسلَه الى خلقه دلالةً لهم على ربوبيّته ، وآحتجاجًا عليهم برسالاته ، ومقدّما اليهم بإنذاره ووعيده ، ليهلِكَ من هَلَكَ عن بيِّنة ، ويحيا من حَىّ عن بينة ؛ ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وسلم وحيَه ، وقفّى به رسله ، وآبتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضيًا له على حين انطمست الأعلامُ[٢] مختفية ، وتشتّتت السبل متفرّقة ، وعَفَتْ آثارُ الدين دارسة ، وسطَع رَهَج الفِتَن ، وآعتلى قتَامُ الظُّلْم ، وآستَنْهد الشِّرْكُ ، وأسدف[٣] الكفرُ ، وظَهَر أولياءُ الشيطان لطموس الأعلام ، ونطق زعيمُ الباطل بسكتة الحق ، وآستُطْرِق الجور وآستُنْكِح الصُّدوف عن الحق ، وآقمطرّ[٤] سَلْهَبُ الفتنة ، وآستضرِم لِقَاحُها ، وطَبّقت الأرضَ ظلمة كفرٍ وغَيَاية[٥] فساد ؛ فصدَعَ بالحق مأمورا ، وأبلغ الرسالةَ معصوما ، ونصح الإسلامَ وأهلَه ، دالًّا لهم على المَرَاشد ، وقائدًا لهم الى الهداية ، ومنيرًا لهم أعلامَ الحق ضاحية ، مرشدًا لهم الى آستفتاح باب الرحمة وإعلاق[٦] عُرْوة النّجاة ؛ مُوضِحا لهم سُبُلَ الغَوَاية ، زاجرًا لهم عن طريق الضَّلالة ، محذِّرا لهم الهلكة ، مُوعِزا اليهم فى التقدمة ، ضاربًا لهم الحدود على ما يتّقون من الأمور ويخشَوْن ، وما إليه يسارعون ويطلبون ؛ صابرًا نفسَه على الأذى والتكذيب ، داعيًا لهم بالترغيب والترهيب ، حريصا عليهم ، متحنّنا على كافّتهم ،

---

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المنظوم والمنثور » لأبى طيفور المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٨١ أدب) ومراجعة على نسخة أخرى منه محفوظة برقم (١٨٦٠ أدب) .

(٢) وردت هذه الجملة فى رسائل البلغاء هكذا : « على حين انطمست له الأعلام ... » بزيادة "له" وليس لها محل من السياق فلعلها من زيادات النساخ .

(٣) أسدف الكفر : أظلم وعم النواحى والأرجاء كالليل . (٤) اقمطر : اشتد .

(٥) الغياية : ما أظل الإنسان من فوق كالسحابة والغبرة ونحوهما .

(٦) فى رسائل البلغاء « وإعلان » بالنون بدل القاف ، وهو تحريف .

عزيزا عليه عَنَتُهم ، رءوفًا بهم رحيما ، تقدمه شفقته عليهم وعنايته برشدهم الى تجريد الطلب الى ربه فيما فيه بقاءُ النعمة عليهم ، وسلامةُ أديانهم ، وتخفيفُ آصار (١) الأوزار عنهم ، حتى قبضه الله اليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناصحا متنصّحا ، أمينا مأمونا ، قد بلّغ الرسالة ، وأدّى النصيحةَ ، وقام بالحق ، وعدّل عمودَ الدين ، حتى اعتدل ميلُه ، وأذلّ الشركَ وأهلَه ، وأنجز الله له وعدَه ، وأراه صدقَ أنبائه (٢) في إكماله للمسلمين دينَه ، وٱستقامة سنّته فيهم ، وظهور شرائعه عليهم . قد أبان لهم مُوبِقات الأعمال ، ومفظعات الذنوب ، ومهبطات الأوزار ، وظلم الشبهات ، وما يدعو اليه نقصان الأديان ، وتستهويهم به الغوايات ؛ وأوضح لهم أعلام الحق ، ومنازلَ المراشد ، وطُرَقَ الهدى ، وأبوابَ النجاة ، ومعالق العصمة ، غيرَ مدّخرٍ لهم نصحا ولا مبتغٍ في إرشادهم غُنْما . فكان مما قدّم اليهم فيه نهيَه ، وأعلمهم سوءَ عاقبته ، وحذّرهم إصْرَه ، وأوعز اليهم ناهيًا وواعظًا وزاجرًا ، الاعتكافُ على هذه التماثيل من الشِّطْرَنْج والمواصلةُ عليها ، لما في ذلك من عظيم الإثم ، ومُوبِق الوِزْر ، مع مَشْغلتها عن طلب المَعَاش ، وإضرارها بالعقول ، ومَنْعها من حضور الصلوات في مَوَاقيتها مع جميع المسلمين .

وقد بلغ أميرَ المؤمنين أن ناسا ، ممن قِبَلَك من أهل الإسلام ، قد ألهجهم الشيطان بها ، وجَمَعهم عليها ، وألّف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لَدُنْ صُبْحِهم الى مُمْساهم ، مُلهيةً لهم عن الصلوات ، شاغلةً لهم عما أُمِرُوا به من القيام بسُنَن دينهم ، وٱفتُرِضَ عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعبتهم فيها ، وسوءِ لفظهم عليها . وإن ذلك من فعلهم ظاهرٌ في الأندية والمجالس ، غيرُ منكَرٍ ولا مَعِيب ولا مُستفظَع عند أهل الفقه ، وذوى الورع والأديان والأسنان منهم ؛ فأكبر أميرُ المؤمنين ذلك وأعظَمَه ، وكرِهه

(١) آصار : جمع إصر وهو الثقل . وفي رسائل البلغاء واختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور « أواصر » بدل آصار ، وهو تحريف .

(٢) في رسائل البلغاء واختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور « أسبابه » وهو تحريف .

وآستكبره ، وعلم أن الشيطان عنـدما يئس منه من بلوغ إرادته فى معاصى الله عز وجل ، بمصر المسلمين وتجمّعهـم صُرَاحًا وجهارا ، أقدم بهـم على شُبهة مُهلكة ، وزيّن لهم وَرْطَة مُوبقة ، وغرّهم بمكيدة حِيـله ، إرادةً لآستهوائهم بالخُدَع ، وآجتيالهم[1] بالشُّبَه والمراصـد الخفيّة المشكلة . وكلُّ مقيمٌ على معصية الله ، صغُرت أو كبُرت ، مستحلًّا لها مُشيدا بها ، مظهرًا لآرتكابه إيّاها ، غيرَ حَذِرٍ من عقاب الله عز وجل عليها ، ولا خائف مكروهًا فيها ، ولا راعبٍ من حلول سَطْوته عليهـا ، حتى تلحَقه المنيـة ، فتختلجه وهو مُصِرّ عليها ، غير تائب الى الله منهـا ، ولا مسـتغفر من آرتكابه إيّاها ؛ فكم من أقام على مُوبِقات الآثام وكبائر الذنوب ، حتى مدّته وتحرّم أيامه .

وقد أحبّ أميرُ المؤمنين أن يتقدّم اليهم ، فيما بلغه عنهم ، وأن يُنذرهم ويُوعزَ اليهم ، ويُعلمهم ما فى أعناقهم عليها ، وما لهم فى قبول ذلك من الحظ ، وعليهم فى تركه من الوِزْر ، فآذِن[2] بذلك فيهم ، وأَشِده[3] فى أسواقهم وجميع أنديتهم ، وأوعز اليهم فيه . وتقدّمْ الى عامل شُرطتك فى إنهاك العقوبة لمن رُفع اليـه : من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للّعب بها ، وإطالةِ حبسه فى ضيق وضَنْك ، وطَرحِ اسمه من ديوان أمير المؤمنين . وآفطمهم عما لَهِجُوا به من ذلك . وآلتمسْ بشـدّتك عليهم فيـه وإنهاكك بالعقوبة عليـه ، ثوابَ الله وجزاءه ، وآتباعَ أميرِ المؤمنين ورأيه . ولايجدَنّ أحد عندك هوادةً فى التقصير فى حق الله عز وجل ، والتعـدّى لأحكامه ، فتُحِلّ بنفسـك ما يسوءك عاقبةُ مَغَبّتـه ، وتتعرّض به لغـير الله عز وجل ونكاله . وآكتبِ الى أمير المؤمنـين ما يكون منك ، إن شاء الله والسـلام .

---

(١) اجتيالهم : حوّلهم عن طريق قصدهم ويحتمل أن يكون : واحتبالهم ، والاحتبال : الاصطياد .

(٢) آذنه الأمر وبه : أعلمه .

رسـالة رابعة لعبـد الحميد الكاتب

٩ — ومن رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التى وصف بها الصيد[١] :

أطال الله بقاءَ أمير المؤمنين مؤيَّدا بالعز، مخصوصا بالكرامة، ممتَّعا بالنعمة، إنه لم يُلْق[٢] أحدٌ من المقتنِصين ، ولا مُنِـح متطرِّفٌ من المتصـيِّدين، إلا دون ما لَقَّانا[٣] اللهُ به من اليمن والبركة ، ومَنَحنا من الظفَر والسعادة فى مسيرنا من كثرة الصيد، وحُسن المقتنَص ، وتمكين الحاسة[٤] ، وقُربِ الغاية، وسهولة المورد، وعموم القُدورة[٥]، إلا ما كان من محـاولة الطلب، وشدة النَّصَب ، لنافر الصيد ، وقائد الطريدة التى أمعنَّا فى الطلب لهـا ، وأعجزَنا البُهْرُ عن اللَّحاق بها، لتفاوت سبقها ، ومنقطع هربها، ومتفرّق سُبُلها ، ثم آل بنا ذلك الى حُسن الظفَر، وتناوِ الأرب ، ونهـايةِ الطرب .

وإنى أخبر أمير المؤمنين أنّا خرجنـا الى الصيد بأعدَى الجوارح، وأثقفِ الضوارى؛ أكرمها أجنـاسا، وأعظمها أجساما، وأحسنها ألوانا ، وأحدّها أطرافا، وأطولها أعضاءً، قد ثُقِّفَتْ بحُسن الأدب، وعُوِّدت شدّة الطلب، وسَبَرت أعلامَ المواقف ، وخبَرت المجاثم ، مجبولةً على ما عُوِّدت، ومقصورةً على ما أُدِّبتْ . ومعنا من نفائس الخيل المخبورةِ الفَراهة[٦] ، من الشِّهْرِيَّةِ[٧] الموصوفةِ بالنجابة، والجرى والصلابة. فلم نزل بأخفض سير، وأثقفِ طلب، وقد أمطرتنا السماء مطرا متداركا، فرَبَتْ منه الأرض، وزَهَر البقل ، وسكن القتامُ من مَثار[٨] السنابك، ومتشعِّباتِ[٩] الأعاصير، مُهلةَ أن سِرْنا غَلَواتٍ، ثم برزت الشمسُ طالعة ، وآنكشفت [من] السحاب مسفرة، فتلألأت الأشجار، وضحك النوّار، وآنجلت الأبصار، فلم نر منظَرا أحسنَ حُسنا ، ولا مرموقا أشبهَ شكلا، من آبتسام نور الشمس عن آخضرار

---

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المنظوم والمنثور » لابن طيفور .

(٢) فى الأصل : "يلف" . (٣) فى الأصل : "الفانا" . (٤) كذا فى الأصل ولعلها محرفة عن الحبالة . (٥) القدورة : القدرة، وفى الأصل : "المقدورة" . (٦) الفراهة : النشاط فى السير . (٧) الشهرية : البراذين . (٨) فى الأصل : هكذا "سما" . (٩) فى الأصل "متسمات" .

زهرة الرياض . والخيلُ تمرحُ بنـا نشاطا ، وتجتذبُنَا أعنّتَهَا انبساطا ؛ ثم لم نلبث أن علتنا ضبابةٌ تَقصُر[1] طرفَ النـاظر ، وتُخفِي[2] سُبُلَ السلام ، تغشانا تارةً وتتكشف أخرى ، ونحن بأرض دمِثةِ التراب ، أَشِبةِ[3] الأطراف ، مُغدِقةِ الفِجاج ، مملوءةٍ صيدا من الظباء والثعالب والأرانب ؛ فأدّانا المسيرُ الى غابةٍ دونها مألفُ الصيد ، ومجتمَعُ الوحش ، ونهاية الطلب ، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون ، وبكلّ حَرَّة[4] جَونَة[5] متفرّقون ، فرجع بنا العودُ على البدء ، وقد انجلت الضبابة ، وامتدّ البصر ، وأمكن النظر ، فاذا نحن برِعْلَةٍ[6] من ظِباء ، وخِلْقةِ آرامٍ يرتَعن آنسات ، قد أحالتهنّ الضبابةُ عن شخصنا ، وأذهلَهنّ أنيُق الرياض عن استماع حِسّنا ، فلم تَعُجْ[7] إلا والضوارى لائحةٌ لهنّ من بُعدِ الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص ؛ ثم مَدّت الجوارحُ أجنحتَها ، واجتذبت الضوارى مَقاوِدَها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بحُضرِها ، وسُرعة الجوارح فى طلبها ، فمرّت تحُفُّ حفيفَ الريح عنـد هُبوبها ، تُسِفّ الأرضَ سفّا ، كاشفةً عن آثارِها ، طالبةً لخيارِها ، حارشةً بأظفارها ، قد مزّقتْها تمزيقَ الريح الجراد ؛ فمن صائح بها وناعر ، وهاتف بهـا وناعق ، يدعو الكلبَ باسمه ، ويفدّيه بأبيه وأمّه ؛ وراكِض تحت مُفرِه ، وخافقٍ يطلبه الرمح ، وطامح يمنعه ، وسانح قد عارضه بارح ، قد حيّرتنا الكثرة ، وألهجتنا القُدرة ، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد ، والله المنعم الوهّاب .

ثمّ مِلنا يا أمير المؤمنين بهدايةِ دليـلٍ قد أحكمَته التجارِب ، وخَبَرَ أعلامَ المَذانب ، الى غديرٍ أفيح ، وروضةٍ خَضِرة ، مستأجمةٍ بتلاوين الشجر ، ملتفّةٍ بصُنُوف الخَمَر[8] ، مملوءةٍ من أنواع الطير ، لم يَذْعَرهنّ صائد ، ولا اقتنصهنّ قانص ، نَخَفَقَ لهـا بطبول ، وصُفر بنفير الحتف ، فثار منها ما ملأ الأُفُقَ كثرتُها ، وراعت الجوارحَ خَفَقاتُ أجنحتها ؛ ثم انبرت البُزاةُ

(١) فى الأصل : "تقتصر" . (٢) فى الأصل : "ويحيى" .

(٣) الأشبة : الملتفة الشجر . وفى الأصل «آسنه» . (٤) الحرة : أرض ذات حجارة نخرة سود ، وفى الأصل «حر» . (٥) الجونة : السوداء ، وفى الأصل هكذا : «حونه» . (٦) رعلة : جماعة متفرقة . (٧) فى الأصل : «يعج» . (٨) الخمر : الشجر .

لها صائدة، والصقورُ كاسرة، والشواهينُ ضارية، يرفعن الطلب لها، ويخفضن الظفر بها، حتى سئمنا من الذبح، وآمتلأنا من النضيح[(١)]، كأنا كتيبةٌ ظفرت ببغيتها، وسريةٌ نُصرت على عدوّها، وألحقت ضعيفها بقويّها، وغلّبت[(٢)] محسنها بمسيئها، لا نملك أنفسنا مرحا، ولا نستفيق من الجذل بها فرحا، بقيّة يومنا، والله المنعم الوهّاب .

ثمّ غدونا يا أمير المؤمنين الى أرض وُصف لنا صيدُها بالكثرة، ورياضُها بالنزهة، فزلّ واصفُها عن الطريقة، وآعتمدَ بنا على غير الحقيقة، فأتيناها فلم نر صيدا ولا عُشبا، ولا نزهةً ولا حسنا، فجعلنا نسلُك منها حُزونا ووُعورا، وجُدوبا وقفرا، حتى قصّر بنا اليأسُ عن الطلب، وقطَعَ بنا عن الطمع النَّصَب . فبينا نحن كذلك، إذ بدا لنا جأبٌ[(٣)] قد أوفى بنا على حائلٍ دلّ على غابة من ورائها حَميرُ وحشٍ كثيرةٌ، فأمّمناها[(٤)]، فلمّا تطرّفنا مشيا[(٥)] وتقريبا الى عاناته[(٦)]، توالى نهيقُه، وكثُر شهيقُه، فآلتفتن اليه، فرمقن بأعينهنّ منّا ما آستكثرن شخصه، وآستهولن أمره، حتى اذا كنّا بمرأى ومسمع آنجذبن مُولّيات، وهربن مسبّيات، فأجهدنا الركضَ فى طلبهنّ، نتبع آثارهنّ، ونَستشِفُّ بلاءً بين أحفارٍ[(٧)] ودكادكَ[(٨)] وخناذيذَ[(٩)]، حتّى أشفى بنا الطلبُ لها على وادٍ هائلٍ سائل، بجَنبتيه غابةٌ أشِبَةٌ قد سبقنَ اليها، وآستخفين فيها، فنظّمناها بالخيل نَظْمَ الخرز، ثم أوغلتْ عِدّةُ فُرسانٍ فى نفضها ومعرفة أحوالها، والطبولُ خافقةٌ، والأصواتُ شاهقةٌ، فكان وكان، والحمد لله على كل حال .

---

(١) النضيح : العرق .

(٢) فى الأصل : "قلب" . (٣) الجأب : الغليظ من حمر الوحش . (٤) فى الأصل : "مسيسا" . (٥) التقريب : ضرب من العدو . (٦) العانة : القطيع من حمر الوحش .

(٧) الأحفار جمع حفر وهو التراب المخرج من المحفور . (٨) الدكادك : جمع دكدك ودكداك وهو أرض فيها غلظ . (٩) الخناذيذ : جمع خنذيذ وهو رأس الجبل المشرف ، والذى يتفق والسياق "أخاديد"، وهى جمع أخدود : الحفرة المستطيلة فى الأرض .

باب المنظـــوم

الغـــزل

ذكرنا فى المجلد الأول حالة الغزل فى العصر الأموىّ، وكثرة مانجد فيه من لواعج الحب ولفحاته، وشكايات الصب وأناته، وزفرات العاشق وعبراته. وبينّا أنواعه المتباينة التى قسمناها الى أربعة أقسام :

(ا) غزل إباحىّ : ويصح لنا أن نتخذ من عمر بن أبى ربيعة زعيما لهذا النوع الذى يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معانىَ العبث والاستمتاع باللذة المادّية مما ينفر منه الأدب الجاهلىّ، ومما حظّره عليه الكثيرون من خلفاء الاسلام وأئمته . وقد كانت مكة والمدينة مسرحا لهذا النوع فى العصر الأموىّ . وقد شرحنا سبب ذلك فى المجلد الأول فراجعه ثمة .

(ب) غزل عذرىّ : وهو غزل الحب الصادق، والعواطف المتأججة، والنفس المتألمة المعنّاة، تلك النفس التى تجد لذتها فى الكلف بمن تحب والتعلق بها والشعور بالسعادة فى الفناء فى حبها، حبًّا يملك عليه لبّه ويعذب روحه ويُفنى جسمه، كغزل جميل زعيم هذا النوع . وليس أدل على صدق حبه مما أثبتناه عن كتاب الأغانى اذ حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحاجّه فى ذلك أجمل مُحاجّة، فكان من جميل ما كان مما تجده مفصّلا فى هذا الباب .

(ج) غزل صناعىّ : بين هذا وذاك، همُّه الإجادة فى الشعر من حيث هو شعر، لا فى الحب من حيث هو حبّ، ولنا فى كثيِّر عزة زعيم لهذا النوع الثالث .

(د) غزل قصصىّ : خلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى الغزل والى حياة القصف وما يتبع حياة القصف، فنظموا قصائد نحلوها لشعراء لا نستطيع أن نحتمل تبعة

القول بوجودهم فى الحياة، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة، أو زادوا من عندهم مقطّعات نسبوها لهم وأضافوها الى شـعرهم . وزعيما هذا النوع : قيْس بن الملوَّح وليلاه، وقيْس بن ذَرِيح ولُبْناه .

وإيفاء بمـا وعدناك به نذكر زعيم كل نوع من هذه الأنواع مع ذكر ترجمته والمختار من شعره .

(ا) الغـــزل الاباحىّ

عمـــر بن أبى ربيعة (١)

« راقَ عمرُ بن أبى رَبيعة النـاسَ وفاقَ نُظَراءَه وبَرَعَهم بسهولة الشعر وشدّة الأسْر، وحُسْن الوَصْف، ودقّة المعنى، وصواب المَصْدر، والقَصْد للحاجة، وآستنطاق الرَّبْع، وإنطاق

---

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبـد الله بن أبى ربيعـة القرشى المخزومى، أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليـه ، وكانت أمه نصرانيـة ، وكان أبوه تاجرا موسرا ، وعاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الثلاثة من بعده ، فشب فى نعيم وترف ، وقال الشعر صـغيرا ، وسلك فيـه طريق الغزل ، ووصف أحوال النساء وتزاورهنّ ومداعبـة بعضهن لبعض ، وما يعتدن قوله من الكلام ، مما يتوقر الشعراء الفحول عن الخوض فيه ، ولذلك لم يحفلوا بشعره وعدّوه من هذيان حلماء المدينة ، فما زال يعالج الشـعر والشعر ينقاد له ، حتى ملك ناصيته ، وقبض على زمامه ، وبزّ الشعراء ، وقال رائيته المشهورة على طريقته المبتكرة وهى التى أولها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر * غداة غد أم رائح فمهجـر

والتى قال فيها جرير حين سمعها : ما زال هذا القرشىّ يهذى حتى قال الشعر .

ثم اسـتطار شرّه فى التشبيب بالنساء : من يعرفها ومن لا يعرفها ، وتعرض للحصنات المتعففات من نساء قومه ومن غيرهن ، فوقعن منـه فى بلاء عظيم وصرن يخفن الخروج الى الحج لأنه كان يتلقاهن بمكة ، ويترقب خروجهن للطواف والسعى ويصفهن وهن محرمات . وحملت عليه رجالات قريش لمكانة نسبه منهم ولترقب توبته وإقلاعه ، فلما تمادى فى أمره وشبب ببنات السادات والخلفاء ، غضب عليه عمر بن عبد العزيز ونفاه الى دهلك : (وهى جزيرة أمام مدينة مصوّع) ، ثم رأى ابن أبى ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالتوبة والجهاد فغزا فى البحر فاحترقت السـفينة التى كان فيهـا واحترق هو أيضا سـنة ٩٣ هـ وقد اقتبسنا تصدير بحثنا عنـه عن أبى الفرج الأصفهانى وتجد ترجمته مطوّلة فى الأغانى ج ١ ص ٦١ — ٢٤٨ (طبعة دار الكتب المصرية) والشعر والشعراء ص ٣٤٨ وابن خلكان (ج ١ ص ٣٧٨) والدميرى (ج ١ ص ٣٢٦) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١٣٢) وله ديوان مطبوع فى ليبزج سنة ١٨٩٣ وفى مصر سنة ١٣١١ ومنه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية .

القلب، وحسن العَزاء، ومخاطبة النساءِ، وعفّة المقال، وقلّة الانتقال، وإثبات الحُجّة، وترجيح الشك فى موضع اليقين، وطُلاوة الاعتذار، وفتح الغزل، ونَهْج العِلل، وعَطْف المَسَاءةِ على العُذّال، وحسن التفجّع، وبُخْل المنازل، واختصار الخَبَر، وصِدْق الصَّفاء؛ إن قَدَح أَوْرَى، وإن اعتذر أَبْرَا، وإن تشكّى أشْجَى، وأَقْدم عن خِبْرة، ولم يعتذر بغِرّة، وأَسَر النوم، وغمَّ الطير، وأَغَذَّ السير، وحيَّر ماءَ الشّباب، وسهَّل وقوَّل، وقاس الهوى فأَرْبى، وعَصَى وأَخْلى، وحالف بِسَمْعِه وطَرْفِهِ، وأَبْرم نعتَ الرُّسُل وحذَّر، وأعلن الحبّ وأسرّ، وبطن به وأظهر، وألحّ وأسفّ، وأنكح النوم، وجنَى الحديث وضرب ظهره لبطنِه، وأذلّ صَعْبه، وقنّع بالرجاء من الوفاء، وأَعْلى قاتلَه، واستبكى عاذِلَه، ونفّض النوم، وأغلق رَهْنَ مِنّى وأهْدَر قَتْلاه؛ وكان بعد هذا كلّه فَصِيحا .

فمن سُهُولة شعرِه وشدّة أَسْرِه[(١)] قولُه :

فلما تواقَفْنا وسلّمتُ أَشْرقَتْ * وُجوهٌ زَهَاها الحسنُ أن تتقنّعا

تَبَالَهْنَ بالعِرْفان لما رَأَيْنَنِي * وقُلْن امرؤٌ باغٍ أَكَلَّ وأَوْضَعا[(٢)]

ومن حُسْن وصفه قولُه :

لها من الرِّيمِ[(٣)] عيناه ولَفْتَتُه * ونَخْوةُ السابِقِ المُخْتالِ إذ صَهَلا

ومن دقّة معناه وصوابِ مَصْدره قولُه :

عُوجا[(٤)] نُحَيّ الطَّلَلَ المُحْوِلا[(٥)] * والرَّبْعَ مِن أسماءَ والمنزلا

بسابِغ البَوْباةِ[(٦)] لم يَعْدُه * تقادُمُ العهدِ بأن يُؤْهَلا

---

(١) المراد من شدّة الأسر هنا إحكام النسج ومتانة التركيب . (٢) أكلّ : أعيا وأوضع : أسرع فى السير . (٣) الرئم : الظبى . (٤) عوجا : قفا . (٥) المحول والمحيل : الذى أتت عليه أحوال كثيرة فغيرته . (٦) البوباة : الفلاة واسم لصحراء بأرض تهامة اذا خرجت من أعالى وادى النخلة اليمانية وهى بلاد بنى سعد بن بكر بن هوازن . (معجم البلدان لياقوت) .

ومن قَصْدِه للحاجة قولُه :

أيها المُنكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيلًا[١] * عَمْـرَكَ اللهَ كيف يلتقيانِ

هى شاميّةٌ اذا ما استقلّتْ * وسُهَيلٌ اذا آسـتقلّ يمانِى

ومن آستِنطاقِه الربعَ قولُه :

سـائلا الرَّبعِ بالبُـلىّ[٢] وقولا * هِجتَ شوقًا لىَ الغداةَ طويلا

أين حىّ حلُّوكَ إذ أنت محفو * فٌ بهم آهلٌ أراكَ جميـــلا

قال ساروا فأمعَنوا وآسـتقلّوا[٣] * وبرُغْمِى ولو وجدتُ سبيلا

سَئِمُـونا وما سَئِمْنا جِـوَارًا * وأحبُّـوا دَمَاثَةً[٤] وسُـــهولا

قال إسحاق : أُنْشِدَ جريرٌ هذه الأبياتَ فقال : إن هذا الذى كنا نَدورُ عليه فأخطأناه .

ومن إنطاقه القلبَ قولُه :

قال لى فيهـا عَتِيقٌ مقـالا * فجـرتْ ممـا يقولُ الدموعُ

قال لى ودِّعْ سُلَيْمى ودَعْهـا * فأجاب القلبُ : لا أسـتطيعُ

ومن حسن عَزَائه قولُه :

أألحقُّ إنْ دارُ الرَّبابِ تباعدتْ * أو آنبتَّ[٥] حبلٌ أنّ قلبَـك طائرُ

أفِقْ قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ * ـهوى وآستمـرّتْ بالرِّجال المرائرُ[٦]

زَعِ[٧] النفسَ واستبقِ الحياءَ فإنّما * تُباعِد أو تُدنِى الرَّبابَ المَقادِرُ

أَمِتْ حبَّها وآجعلْ قديمَ وِصالِها * وعِشْرَتِها كمثـلِ مَن لا تُعاشِرُ

---

(١) هى الثريا آبنة عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس بن عبد مناف الأموية . تزوجها سهيل ابن عبد الرحمن بن عوف الزهرى رضى الله عنه ونقلها الى مصر فقال عمر هذا الشعر . (٢) البلىّ — بضم وفتح و ياء مشدّدة — : تل قصير أسفل حاذة بينها و بين ذات عرق (ياقوت) . (٣) استقلوا : واصلوا السير وجدّوا فى الارتحال . (٤) يقال : دمثت الأرض دماثة : سهلت ولانت . (٥) انبت : انقطع . (٦) المراد أن الرجال قد أفاقوا واستحكمت عزائمهم وهو يريد أن يسلو سلوّهم .

(٧) زع النفس ، أى آزجرها وكفها عن هواها .

وهَبْهـا كشىء لم يكن أو كنازح * به الدارُ أو من غَيَّبَتْه المَقَـابِرُ
وكالناس عُلِّقتَ الرَّبابَ فلا تكنْ * أحاديثَ من يَبْدُو[1] ومن هو حاضِرُ

وهذه الأبيات يرويها بعض أهل الحجاز لكُثيِّر، ويرويها الكوفيون للكُمَيت بن معروف الأَسَدِىّ ، وذكر بعضَها الزُّبَير بن بَكّار عن آبن عُبَيدة لكُثيِّر فى أخباره .

ومن حسن غَزَله فى مخاطبة النساء — قال مُصْعب الزُّبَيرىّ : وقد أجمع أهلُ بلدنا ممَّن له علمٌ بالشعر أن هذه الأبيات أغزلُ ما سَمِعوا — قولُه :

تقولُ غَـداةَ ٱلتقَينا الرَّبابُ * أيا ذا أفَلْتَ أُفُـولَ السِّماكِ
وكفَّتْ سـوابقَ من عَبْرةٍ * كما ٱرْفَضَّ نظمُ ضعيفُ السِّلاكِ
فقلتُ لها مَنْ يُطِعْ فى الصَّديـ ـق أعداءَه يَجتنِبْـه كذاكِ
أغرَّكِ أنّى عصَيتُ المَـلَا * مَ فيكِ وأنْ هوانا هواكِ
وأنْ لا أرى لَذّةً فى الحياة * تَقَرُّ بها العينُ حتى أراكِ
فكان من الذنبِ لى عندكم * مُكَارَمتِى وآتِّبـاعِى رِضَـاكِ
فليتَ الذى لَامَ فى حُبّكم * وفى أن تُزارِى بقَرنٍ[2] وَقَاكِ
همـومَ الحيـاة وأسقامَهـا * وإن كان حَتْفٌ جَهِيزٌ[3] فَداكِ

ومن عِفّة مقاله قولُه :

طال لَيْـلِى وآعتادنِى اليومَ سُقْمُ * وأصابتْ مَقَـاتِلَ القلبِ نُعْمُ
حُرّةُ الوجـهِ والشَّمائل والجَـو * هرِ تكليمُها لمن نال غُـنْمُ
وحـديث بمثـله تُنْزَل العُصْـ * ـمُ[4] رَخِـيمٌ يَشُوب ذلكَ حِـلْمُ
هـكذا وَصْفُ ما بدا لِىَ منهـا * ليس لى بالذى تغيَّب عِـلْمُ
إنْ تَجُودِى أو تَبْخَلِى فبحَمْدٍ * لستِ يا نُعْـمُ فيهما مَنْ يُذَمُّ

(١) أى من يقيم فى البـدو والحضر . (٢) المراد به قرن المنازل، وكثيرا ما يذكره فى شعره .
(٣) جهيز : سريع . (٤) العصم : جمع أعصم وهو من الظباء والوعول مافى ذراعيه بياض ، وهى تعتصم غالبا بقنن الجبال .

ومن قلة انتقاله قوله :

أيها القائل غير الصواب * أمسك النصح وأقلل عتابي
واجتنبني واعلمن أن ستعصى * ولخير لك طول اجتنابي
إن تقل نصحا فمن ظهر غش * دائم الغمر(١) بعيد الذهاب
ليس بي عي بما قلت إني * عالم أفقه رجع الجواب
إنما قرة عيني هواها * فدع اللوم وكلني لما بي
لا تلمني في الرباب وأمست * عدلت(٢) للنفس برد الشراب
هي والله الذي هو ربي * صادقا أحلف غير الكذاب
أكرم الأحياء طرا علينا * عند قرب منهم واجتناب
خاطبتني ساعة وهي تبكي * ثم عزت(٣) خلتي في الخطاب
وكفى بي مدرها لخصوم * لسواها عند حد تباب(٤)

ومن إثباته الحجة قوله :

خليلي بعض اللوم لا ترحلا(٥) به * رفيقكما حتى تقولا على علم
خليلي من يكلف بآخر كالذي * كلفت به يدمل(٦) فؤادا على سقم
خليلي ما كانت تصاب مقاتلي * ولا غرتي حتى وقعت على نعم
خليلي حتى لف حبلي(٧) بخادع * موق إذا يرمى صيود إذا يرمي
خليلي لو يرقى خليل من الهوى * رقيت بما يدني النوار(٨) من العصم
خليلي إن باعدت لانت وإن ألن * تباعد فلم أنبل(٩) بحرب ولا سلم

---

(١) الغمر (بكسر الغين) : الحقد والغل . والغمر (بفتح الغين) : الماء الكثير، وكلا المعنيين يحتمله البيت .
(٢) عدلت : ساوت . (٣) أي طلبتي صديقتي في الخطاب قال تعالى : (وعزني في الخطاب) .
(٤) يريد : حسبي غالبا لكل خصم سواها الى حد هلاكه . (٥) يقال : رحل فلان فلانا بما يكره، والمراد أنه يثقله باسماعه إياه . (٦) يدمل : يطوي . قال في اللسان : ويقال : أدمل القوم، أي أطوهم على ما فيهم . (٧) يكني بهذا عن الوقوع في شركها . (٨) النوار : النافرة من الظباء .
(٩) لم أنبل : لم أصب، أو لم أحسن الرمي .

ومن ترجيحه الشك فى موضع اليقين قولُه :

نظـرتُ إليها بالمُحَصَّب من مِنًى * ولى نظـرٌ لـولا التحـرُّج عَارِمُ[1]

فقلت : أشمسٌ أم مَصَابيـحُ بِيعَةٍ * بدتْ لك خَلْفَ السِّجْفِ[2] أم أنت حالمُ

بعيـدةُ مَهْوَى القُـرْطِ[3] إمّا لنوفلٍ * أبـوها وإما عبـدُ شمْسٍ وهاشمُ

ومدّ عليهـا السِّجفَ يـومَ لقيتُهـا * على عَجَـلٍ تُبَّاعُهـا والخَـوَادمُ

فـلم أستطعْها غيرَ أنْ قد بدا لنا * عشيّةَ راحتْ وجهُها والمَعَاصِمُ

معاصمُ لم تَضْرِب على البَهْمِ[4] بالضُّحَى * عَصَـاها ووجـهٌ لم تَلُحْه[5] السَّمائمُ

نُضَـارٌ تَرَى فيـه أَسَارِيـعَ[6] مائه * صَبِيحٌ تُغَاديه الأكُفُّ النَّـوَاعِمُ

إذا مادعتْ أترابَهـا فاكتنفْنَهـا * تمـايَلْنَ أو مالتْ بهنّ المآكِمُ[7]

طلبْنَ الصِّبـا حتى إذا ما أصَبْنَه * نَزَعْنَ وهنّ المسلِمـاتُ الظـوالمُ

ومن طُلَاوة اعتذاره قولُه :

عاوَدَ القلبَ بعضُ ما قد شجَاه * من حبيبٍ أَمْسَى هوانا هَوَاهُ

يالَقَومى فكيف أصـبرُ عمّنْ * لاتَرَى النفسُ طيبَ عيشٍ سِواهُ

أرسلتْ إذ رأتْ بِعَـادىَ ألّا * يَقْبلَنْ بى مُحرِّشًا[8] إن أتاه

دونَ أن يسمع المقـالَةَ منّـا * وليُطِعْنِى فإنّ عنـدى رِضَاه

لاتُطِعْ بى فَدَتْكَ نفسِى عدوًّا * لِحَـديثٍ على هواه افـتراه

لاتُطِعْ بى من لو رآنى وإيّا * كِ أسِـيرىْ ضرورةٍ ما عَنَـاه

ما ضِرَارِى نفسى بهَجْرِىَ من ليـ * ـسَ مُسِيئًا ولا بعيـدًا ثَرَاهُ[9]

واجتنابى بيتَ الحبيب وما الخُلْـ * ـدُ بأشهى إلىّ من أن أراه

---

(١) عارم : حادّ . (٢) السجف : الستر . (٣) كناية عن طول العنق ، وبه فسر فى المثل السائر (طبعة بولاق ص ٣٨٣) . (٤) البهم : جمع بهمة ، وهى الصغير من أولاد الضأن والمعز والبقر . (٥) لم تلحه : لم تغيره . (٦) أساريع الماء : طرائقه . والمراد أنه يترقرق فيه ماء الشباب . (٧) المآكم : جمع مأكمة وهى العجيزة . (٨) المحرّش : المغرى ، من التحريش وهو الاغراء والافساد . (٩) الثرى : الخير .

ومن نَهْجه العِلَلَ قولُه :

وآيـــةُ ذلك أن تَسْمَعِي * إذا جئتُـــكم ناشدًا يَنْشُـــدُ

فرُحْنا سِراعًا وراح الهـــوى * دليـــلًا إليها بنـــا يَقْصِـــدُ

فلمـا دنـــوْنا لِجَـــرْسِ النُّبَا[1] * ح والصوتِ، والحيُّ لم يَرْقُدوا

بعثنا لهـا باغيًا ناشــدا * وفى الحيِّ بُغْية من يَنْشُدُ

ومن فتحه الغزلَ قولُه :

إذا أنتَ لم تعشَقْ ولم تدرِ ما الهوى * فكُنْ حجرًا من يابس الصَّخْرِ جَلْمَدَا

ومن عَطْفِه المَسَاءة على العُذَّال قولُه :

لا تَلُمْنِي عَتِيقُ حَسْبِي الذى بى * إنّ بى ياعَتِيقُ ما قد كَفَـانِي

لا تَلُمْـــنِي وأنت زيّنتَهـا لى * أنت مثـلُ الشيطانِ للإنسان

ومن حُسْن تفجّعه قولُه :

هجـرتَ الحبيبَ اليومَ من غيرِ ما اجْترمْ * وقطّعتَ من ذى وُدِّكَ الحبـلَ فانصرمْ

أطعتَ الوُشَاةَ الكاشحين ومن يُطِعْ * مقالةَ واشٍ يَقْـــرَعِ السِّنَّ مِن نَدَمْ

أتانى رســـولٌ كنتُ أحسَب أنه * شَـفيقٌ علينـا ناصحٌ كالذى زعم

فلمّـا تَبَاثثْنـا[2] الحـديثَ وصرّحتْ * سَرائرُه عن بعضِ ما كان قـد كَتَمْ

تبيّن لى أن المُحَـرِّشَ[3] كاذبٌ * فعنـــدى لكِ العُتْبَى على رَغْمِ من رَغَمْ

فَـلَلآنَ لُمْتُ النفسَ بعـد الذى مَضَى * وبعـدَ الذى آلتْ وآليتُ مِن قَسَم

ظلمتَ ولم تُعْتِبْ وكان رسـولُها * إليـــك سريعًا بالرضا لكَ إذ ظَـلَمْ

---

(١) الجرس : الصوت . (٢) بث الحديث : إفشاؤه . (٣) المحرش : المغرى، يقال : حرّش بين القوم : أفسد بينهم .

ومن تخيله المنازلَ قولُه :

أَلم تسألِ الأطــلالَ والمتربَّعــا * ببطنِ حُلَيَّاتٍ(١) دَوارسَ بَلْقعــا

إلى السَّرْحِ(٢) من وادى المغمَّسِ(٣) بُدِّلَتْ * معالمُهــا وَبْلًا ونَكْبَاءَ(٤) زَعْزَعا(٥)

فيبخَلْن أو يُخْبِرنَ بالعلم بعــد ما * نَكَأْنَ(٦) فؤادًا كان قِــدْمًا مفجَّعا

ومن اختصاره الخبرَ قولُه :

أَمِن آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبكِــرُ * غَــداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهجِّــرُ

بحاجةِ نفسٍ لم تَقُلْ فى جوابها * فتُبلِغَ عذرًا والمقــالةُ تُعــذِرُ

أشارت بمِدْراها(٧) وقالت لتِرْبِها * أهذا المُغِيرىُّ الذى كان يُذْكَرُ

لئن كان إياه لقد حال بعدَنا * عن العهد والإنسانُ قد يتغيَّرُ

قال الزُّبير حدّثنى إسحاق المَوْصلىّ قال : قلتُ لأعرابىّ : ما معنى قولِ ابن أبى ربيعة :

بحاجة نفسٍ لم تَقُلْ فى جوابها(٨) * فتبلِغَ عذرًا والمقــالة تُعْــذِرُ

فقال : قام كما جلَس .

ومن صِدْقه الصفاءَ قولُه :

كلُّ وصلٍ أمسى لديكَ لأُنثَى * غــيرِها وصلُها إليهــا أداءُ

كلُّ أنثَى وإن دنتْ لِوصــالٍ * أو نأتْ فَهْىَ للرَّباب الفِداءُ

---

(١) حليات (بضم الحاء المهملة وفتح اللام وتشديد الياء) : اسم موضــع ذكره البكرى و ياقوت ولم يبيناه ، ولعله موضع قرب مكة بقرينة ذكره مع المغمس الوارد فى البيت بعــده . (٢) السرح : موضع .

(٣) المغمس (بتشديد الميم وفتحها كما فى ياقوت ، وضبطه البكرى فى معجمه بكسر الميم وتشديدها) : موضع قرب مكة فى طريق الطائف ، مات فيه أبو رغال وقبره يرجم لأنه كان دليل أبرهة صاحب الفيل . (٤) النكباء : الريح التى تنكب عن مهاب الرياح . (٥) يقال : ريح زعزع ، أى شديدة ، وكذلك زعزاع وزعزوع .

(٦) يقال : نكأ الجرح : قشره قبل أن يلتئم . (٧) المدرى والمدراة : حديدة يحك بها الرأس .

(٨) أى هى فى غاية من السرّ لا يجاب عليها إذا سئل عنها ، والإعذار : نفى العذر .

وقولُه :

أُحِبُّ لحبِّـكِ مَن لم يكُنْ * صفِيًّا لنفسى ولا صاحِبَـا
وأبذُلُ مالِى لمَرضاتِكـم * وأُعْتِبُ[1] من جاءكم عاتِبَـا
وأرغبُ فى وُدِّ من لم أكن * إلى وُدِّه قبلَكـم راغبَـا
ولو سَلَكَ الناسُ فى جانبٍ * من الأرضِ وآعتزلتُ جانبًا
ليمَّمْتُ طِيَّتَها[2] إنَّـنى * أرى قُربَها العَجبَ العاجِبَا

ومما قَدَحَ فيه فأوْرَى قولُه .

طالَ لَيْـلِى وتعنَّانِى[3] الطَّـرَبْ[4] * وآعترانى طولُ هَمٍّ ووَصَبْ
أرسلَتْ أسماءُ فى مَعْتَبةٍ * عَتَبَتْها وهى أحلى مَن عَتَبْ
أنْ أتَى منها رسولٌ مَوْهِنًا[5] * وجَـدَ الحَىَّ نيـاما فآنقلبْ
ضربَ البـابَ فلم يَشعُرْ به * أحدٌ يفتـح بابا إذ ضَرَبْ
قال : أيقاظٌ، ولكن حاجةٌ * عَرَضتْ تُكتَمُ منّا فآحتجبْ
ولَعَمْدًا ردَّنِى، فاجتهـدَتْ * بيمينٍ حَلْفَةً عنـد الغضبْ
يشهَد الرحمنُ لا يجمعُنا * سقفُ بيتٍ رجَبا بعد رجبْ
قلتُ حِلًّا فاقبلِـى مَعْـذِرَتِى * ما كذا يَجزِى مُحِبٌّ من أحبّْ
إنّ كفِّى لكِ رَهْنٌ بالرضـا * فاقبلِى ياهند، قالت قدوجَبْ

قالوا : ومن شعره الذى آعتذَرَ فيه فأبرأَ قولُه :

فآلتقينا فرحَّبَتْ حين سلَّمْـ * ـتُ وكفَّتْ دمعًا من العينِ مارَا[6]
ثم قالت عند العِتابِ رَأَيْنـا * منـك عنَّا تجـلُّدا وآزْوِرارَا[7]

---

(١) يقال : أعتبه إذا أعطاه العتبى وأرضاه . (٢) طيتها : ناحيتها وقصدها . (٣) تعنانى : أوقعنى فى العناء . (٤) الطرب : خفة تعترى الانسان عند شدّة الفرح أوالحزن والهم . (٥) الموهن : نحو من نصف الليل . (٦) مار : جرى وسال . (٧) الازورار : الإعراض .

قلتُ كلَّا لاهِ(١) آبنُ عمِّك بل خِفـ * ـنا أمورًا كنَّا بها أغمارا(٢)

فجعلنا الصدودَ لمَّا خشينا * قالةَ الناسِ للهوى أستارا

ليس كالعهدِ إذ عَهِدْتِ(٣) ولكن * أوقدَ الناسُ بالنميمة نارا

فلذاكِ الإعراضُ عنكِ وما آ * ثرَ قلبي عليكِ أخرى آختيارا

ما أبالِي إذا النَّوى قرَّبتْكم * فدنوتُم مَن حلَّ أو مَنْ سارا

فالليالى إذا نأيتِ طِوالٌ * وأراها إذا قَرُبْتِ قِصارا

ومن تَشَكِّيه الذى أشجى فيه قولُه :

لعَمْرُكَ ما جاورتُ غُمْدانَ(٤) طائعًا * وقصرَ شَعُوبٍ(٥) أن أكونَ به صَبَّا

ولكنَّ حُمَّى أضرعتْنِي(٦) ثلاثةً * مُجَرَّمةً(٧) ثم آستمرّت بنا غِبَّا(٨)

وحتى لوَ آنَّ الخُلْدَ يَعرِضُ إن مشتْ * إلى البابِ رِجْلِي ما نقلتُ لها إرْبَا(٩)

فإنكِ لو أبصرتِ يومَ سُوَيْقَةٍ(١٠) * مُنَاخِى وحَبْسِى العِيسَ دامِيةً حُدْبَا(١١)

ومَصْرَعَ إخوانٍ كأنَّ أنينَهم * أنينُ مَكَاكِىٍّ(١٢) فارقتْ بلدًا خِصْبا

إذًا لاقشعرَّ الجِلدُ منكِ صَبابةً * ولاستفرغتْ عيناكِ من عبرةٍ سَكْبا

ومن إقدامِه عن خِبْرة ولم يعتذر بغِرَّةٍ قولُه :

صَرَمتُ وواصلتُ حتى عرفـ * ـتُ أينَ المصادرُ والمَوْرِدُ

وجرَّبتُ من ذاك حتى عرفـ * ـتُ ما أتوقَّى وما أعمِـد

---

(١) لاه بمعنى لله . (٢) الغمر (بضم الغين وفتحها مع سكون الميم ، وفتحتين ، وبفتح فكسر) : الغر الجاهل الذى لم يجرّب الأمور . (٣) أى ليس الأمر كما تعهدين من قبل .

(٤) غمدان : قصر باليمن بناه « يشرح بن يحصب » . (٥) قصر شعوب : قصر عال مرتفع باليمن .

(٦) أضرعتنى : أضعفتنى وأذلتنى . (٧) مجرّمة كمعظمة : تامة ، يريد ثلاثة أحوال كاملة .

(٨) الغب من الحمى : ما تأخذ يوما وتدع يوما . (٩) أى ما حرّكت له عضوا . (١٠) سويقة : موضع . (١١) حدبا جمع حدباء ، وأصل الحدب : ما آرتفع من الأرض ، يريد أنه أعياها السير فهى دامية متقوسة الظهور هزالا . (١٢) المكاكىّ : جمع مكّاء ، وهو طير يشبه القبرة إلا أن فى جناحيه بلقا ، وهو حسن الصوت فى تغريده .

ومن أسره النومَ قولَه :

نام صَحبي وبات نومي أسيرا * أرقُب النجمَ مَوْهِنا أن يغورا

ومن غَمّه الطيرَ قولُه :

فَرُحْنَا وقلنا للغلام اقضِ حاجةً * لنا ثم أدرِكْنا ولا تتغبَّرِ

سِراعاً نغُمُّ(١) الطيرَ إن سَنَحَتْ لنا * وإن تَلْقَنا الرُّكبانُ لا تَتَخَبَّرِ(٢)

نتغبر من قولهم : غبرَ فلان، أى لبِث .

ومن إغْذاذِه(٣) السيرَ قولُه :

قلتُ سِيرًا ولا تقيما ببُصْرى(٤) * وحَفِيرٍ(٥) فما أُحب حَفِيرًا

وإذا ما مررتما بمَعَانٍ(٦) * فأقِلَّا به الثَّواءَ وسِيرًا

إنما قصرُنا(٧) إذا حَسَرَ(٨) السيـ * ـرُ بعيرًا أن نَستجِدَّ بعيرًا

ومن تحييره ماءَ الشباب قولُه :

أبرَزُوها مثلَ المَهاةِ تَهادَى * بين خَمْسٍ كَوَاعِبٍ أَتْرابِ

ثم قالوا تحبُّها قلتُ بَهْرًا * عددَ القَطْرِ والحَصَى والترابِ

وهى مكنونةٌ تحيَّر منها * فى أَدِيم الخَدَّينِ ماءُ الشبابِ

ومن تَقْوِيله وتَسْهِيله قولُه :

قالتْ على رِقْبةٍ يوما لجارتِها * ما تأمُرِينَ فإن القلبَ قد تُبِلَا(٩)

وهل لىَ اليومَ مِنْ أختٍ مُوَاخِيةٍ * منكنّ أشكُو إليها بعضَ ما فَعَلا

(١) لعله يريد : نحزنها بالسبق، أو نبهرها ونغلبها، من قولهم : غمّ القمر النجوم : بهرها وكاد يستر ضوءها .

(٢) التخبر : السؤال عن الخبر . (٣) أغذ السير وأغذ فيه : أسرع . (٤) بصرى : بلد بالشأم .

(٥) حفير : نهر بالأردن ببلاد الشأم . (٦) معان : مدينة فى طرف بادية الشأم تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء . (٧) قصرنا، أى قصارانا وغايتنا . (٨) حسر السير بعيرا : أجهده وأعياه .

(٩) المتبول : من أسقمه الهوى وغلبه الحب على أمره .

فراجعتها حصانٌ[1] غيرُ فاحشةٍ * برَجْع قولٍ ولُبٌّ لم يكن خَطِلا[2]

لا تذكُرِى حبَّه حتى أُراجعه * إنى سأَكْفيكِه إنْ لم أمُتْ عَجِلا

فاقْنَىْ[3] حياءَكِ فى سِترٍ وفى كَرَمٍ * فلستِ أوّلَ أنثى عُلِّقتْ رجُلا

وأما ما قاس فيه الهوى فقولُه :

وقرَبْنَ أسبابَ الهوى لمتيَّمٍ * يَقيسُ ذِراعاً كلّما قِسْنَ إصبعاً

ومن عِصيانه وإخلائه قولُه :

وأنُصُّ[4] المَطِىَّ يَتْبَعْنَ بالرَّكْـ * ـبِ سِرَاعاً نَوَاعِمَ الأَظْعَانِ

فنَصِيدُ الغَرِيرَ[5] من بقر الوحـ * ـشِ ونَلْهُو بلذّة الفِتْيانِ

فى زمانٍ لو كنتِ فيه ضَجِيعِى * غيرَ شكٍّ عرفتِ لى عِصْيانِى

وتقلّبتِ فى الفِراش ولا تَدْ * رِينَ إلا الظُّنونَ أين مكانى

ومن مخالفته بسمعه وطرفه قولُه :

سَمْعِى وطَرْفِى حَليفاها على جسدى * فكيف أصبِرُ عن سَمْعِى وعن بَصَرِى

لـو طاوعانى على ألّا أكلّمها * إذًا لقضّيتُ من أوْطارِها وَطَرِى

ومن إبرامه نعتَ الرسلِ قولُه :

فبعثتُ كاتمةَ الحـديـ * ـثِ رَفِيقةً بجوابِها

وحشـيّةً إنسـيّةً * خَرَّاجةً من بابِها

فَرَقَتْ فسهّلتِ المَعَا * رِضُ من سبيل نِقابِها

ومن تحذيره قولُه :

لقـد أرسلتُ جاريتى * وقلت لها خُذِى حَذَرَكْ

وقُولِى فى مُلاطَفَـةٍ * لزينبَ نَوِّلِى عُمَـرَكْ

(١) حصان : عفيفة . (٢) الخطل : الفاسد المضطرب . (٣) اقنى حياءك : الزميه .

(٤) نص المطىّ : استخراج أقصى ماعندها من السير . (٥) الغرير : الغافل .

فإن داويتِ ذا سَقَمٍ * فأخزى اللهُ من كَفَرَكْ
فهـزّتْ رأسها عجبًا * وقالتْ مَنْ بذا أمرَكْ
أهـذا يحسُرك النّسْوا * نَ، قد خبّرْتني خبرَكْ
وقُلْنَ إذا قضى وَطَرًا * وأدركَ حاجةً هجَـرَكْ

ومن إعلانه الحبّ وإسراره قولُه :

شكوتُ اليها الحبَّ أُعلِنُ بعضَه * وأخفيتُ منـه فى الفؤاد غَلِيلَا

ومما أبطن فيه وأظهر قولُه :

حُبُّكم يا آلَ لَيْـلَى قاتِلِى * ظهرَ الحبُّ بجسمى وبَطَنْ
ليس حبٌّ فوقَ ما أحببتُكمْ * غيرَ أنْ أقتلَ نفسى أو أُجَنّْ

ومما أَلَحّ فيه وأسَفّ قولُه :

ليت حَظِّى كطَرْفة العين منها * وكثيرٌ منهـا القليلُ المُهَنّـا
أو حديثٌ على خَلَاءٍ يُسَـلِّى * ما يُجِنُّ الفؤادُ منها ومِنّا
كَبُرَتْ رَبِّ نعمةً منكَ يومًا * أنْ أراها قبل المماتِ ومَنّا

ومن إنكاحه النومَ قولُه :

حتّى اذا ما الليلُ جَنّ ظلامُه * ونظرتُ غَفْلَةَ كاشحٍ أن يَعْقِلَا
واستَنْكَحَ النومُ الذين نَخافُهم * وسَقَى الكَرَى بوّابَهُمْ فاسْتُثْقِلَا(١)
خرجتْ تَأَطَّرُ فى الثياب كأنها * أَيْمٌ يَسِيبُ على كَثِيبٍ أَهْيَلَا(٢)

ومن جَنْيِه الحديثَ قولُه :

وجوارٍ مُسَاعِفَا * تٍ على اللهـ * ـو مُسِرّاتِ باطنِ الأضـغانِ
صُـيّدٍ للرجال يَرْشُقْن بالطّرْ * فِ حِسَانٍ كخُـذّلِ الغِزْلَانِ(٣)

---

(١) يقال : أثقله النوم فهو مستثقل بصيغة المفعول . (٢) تأطر أصله تتأطر فحذفت إحدى تاءيه ومعناه تنثنى . والأيم : الأفعى . ويسيب : يمشى . والكثيب الأهيل : الرمل المنهال . (٣) الخذل : جمع خاذل وهى الظبية تخلف عن صواحباتها أو أولادها .

قـد دَعَانِي وقد دَعَاهُنَّ للهـ * ـو شُجُونٌ مُهِمَّـةُ(١) الأَشْجَـانِ
فَاجتنينا من الحديث ثِمَـارًا * ما جَنَى مثلَها لعمرُكَ جَانِي

ومن ضربِه الحديث ظهرَه لبطنه قولُه :

فى خَلَاءٍ من الأُنيسِ وأَمْنٍ * فَبَثَثْنَا غَلِيلَنَـا وَاشْـتَفَيْنَا
وضربْنا الحديثَ ظهرًا لبطن * وأتينا من أمرِنا ما اشتهيْنا
فمكثنا بذاك عشرَ ليـالٍ * فقضينا ديوننـا واقتضَيْنا

ومن إذلاله صعبَ الحديث قولُه :

فلمـا أَفَضْنَا فى الهوى نستبينُه * وعاد لنا صعبُ الحديثِ ذَلُولَا
شكوتُ اليها الحبَّ أُظْهِرُ بعضَه * وأخفيتُ منـه فى الفؤاد غليلا

ومن قَنَاعتِه بالرجاء من الوفاء قولُه :

فعِدِى نائلًا وإن لم تُنِيلِي * إنه ينفع المحبَّ الرجاءُ

قال الزبير : هذا أحسن من قول كثيِّر :

ولست براضٍ من خليلٍ بنائلٍ * قليـلٍ ولا أرضَى له بقليلِ

ومن إعلائه قاتلَه قولُه :

فبعثتُ جاريتِي وقلتُ لها اذهبِي * فاشْكِي اليهـا ما علمتِ وسلِّمِي
قُولِي يقولُ تحـرَّجِى(٢) فى عاشـقٍ * كَلِفٍ بكم حتى الممـاتِ مُتَيَّمِ
ويقـول إنكِ قد علمتِ بأنكمْ * أصبحتُمُ يا بِشْرُ أَوجَهَ(٣) ذى دمِ
فُكِّى رَهِينَتَه فإن لم تفعـلى * فاعْلِى على قتلِ ابنِ عمِّك واسْلَمِي
فتضاحكتْ عَجَبًا وقالت حقُّـه * ألّا يعـلِّمَنا بمـا لم نَعْـلَمِ

(١) أى مثيرة الأشجان . (٢) أى كفى عن الحرج والاثم
(٣) أى أحق إنسان آخذ منه بدمى .

علمى به والله يغفرَ ذنبَــه * فيما بدا لى ذو هــوى متقسِم
طَرِفٌ(١) ينازعُه الى الأدنَى الهوى * ويَبُتُّ خُلَّة ذى الوِصَالِ الأَقْدَمِ

ومن تنفيضه النومَ قولُه :

فلما فَقَدْتُ الصوتَ منهم وأُطفئتْ * مَصَابيحُ شُبَّتْ بالعِشَاء وأَنْوُرُ
وغاب قُمَــيْرٌ كنتُ أرجو غيوبَه * وروّحَ رُعْيانٌ ونَوَّم سُمَّــرُ(٢)
ونَفَّضْتُ عنِّى النومَ أقبلْتُ مِشْيَةَ الـ * ـحُبَاب ورُكْنِى خَشيةَ القوم أَزْوَرُ(٣)

ومن إغلاقه رهنَ مِنًى وإهداره قتلاه قولُه :

فكم من قَتِيــلٍ ما يُبَاءُ(٤) به دمٌ * ومن غَــلِقٍ(٥) رَهْنًا إذا لَفَّــه مِنَى
ومن مالئٍ عينيه من شىءِ غيره * اذا راح نحو الجَمْرة البِيضُ كالدُّمى(٦)

وكان بعد هذا كلِّه فصيحًا شاعرا مِقْوَلًا(٧) .

ومن شعره المشهور قولُه :

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمُبْكِرُ * غداةَ غَــدٍ أم رائحٌ فمهجِّــرُ
لحاجةِ نفسٍ لم تَقُــلْ فى جَوَابِها * فتُبْلِغَ عُــذرًا والمقالةُ تُعْــذِرُ
أشارتْ بمِدْرَاها وقالت لأختِهــا * أهــذا المُغِيرِىُّ الذى كان يُذْكَرُ
فقالتْ نعمْ لا شــكَّ غــيَّر لونَه * سُرَى الليــلِ يَطْوِى نَصَّه(٨) والتهجُّرُ
رأتْ رجلًا أمّا إذا الشمسُ عارضتْ * فيَضْــحَى وأمّا بالعشِىّ فيَخْصَرُ

(١) الطرف : من لا يثبت على امرأة ولا صاحب. (٢) روّح من الرواح وهو وقت العشىّ . والرعيان : جمع راع كالرعاة والرعاء والرعاء . ونوّم الرجل تنويما : مبالغة فى نام . (٣) الحباب : الحية . وأزور كأحسن : مائل من زور يزور إذا مال . (٤) يقال : أباء القاتل بالقتيل : قتله به ، والمراد هنا : فكم من قتيل يطل دمه ولا يؤخذ له بثأر . (٥) يقال : غلق الرهن فى يد المرتهن يغلق علقا : لم يقــدر الراهن على افتكاكه فى الوقت المشروط . يريد : وكم من قلوب أسيرة لا يقدر أصحابها على افتكاكها .
(٦) الدمى : جمع دمية وهى الصورة المنقشة من العاج ونحوه . (٧) المقول : الحسن القول المفصح المبين .
(٨) نص السرى : إسراعه ، وأصله حث الدابة واستخراج أقصى ما عندها من السير .

أخا سفرٍ جوّابَ أرضٍ تقاذفتْ * به فَلَوَاتٌ فهْوَ أشْعَثُ أغْبرُ
قليلًا على ظَهرِ المطيّةِ ظِلُّه * سوى ما نَفَى عنه الرداءُ المُحبَّرُ (١)
وأعجبها من عيشها ظِلُّ غُرفةٍ * وريّانُ مُلتفُّ الحدائقِ أخضَرُ
ووالٍ كفاها كلَّ شيءٍ يهمُّها * فليستْ لشيءٍ آخرَ الليلِ تَسهرُ
وليلةَ ذى دَوْرانَ (٢) جَشَّمْتِنِى السُّرى (٣) * وقد يَجْشَمُ الهولَ المحبُّ المغرَّرُ

ومن شعره قولُه فى فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية :

تَشُطُّ (٤) غدًا دارُ جيرانِنا * وللدّارُ بعدَ غدٍ أبعدُ
إذا سلكتْ غَمْرَ ذِى كِنْدَةٍ (٥) * مع الرَّكْبِ (٦) قَصْدٌ لها الفرقدُ (٧)
وحثَّ الحُداةُ بها عِيرَها * سِراعًا إذا ما وَنَتْ تُطْرَدُ (٨)
هنالكَ إمّا تُعَزِّى الفؤاد * وإمّا على إثرِها تَكْمَدُ
وليستْ بِبِدْعٍ إذا دارُها * نأتْ والعَزاءُ إذًا أجْلَدُ
صَرَمْتُ وواصلتُ حتى علمـ * ـتُ أينَ المصادرُ والمَوْرِدُ
وجَرّبْتُ من ذاك حتى عرفـ * ـتُ ما أتوقّى وما أحمَدُ
فلما دَنَوْنا لِجَرْسِ (٩) النُّبا * حِ والضوءِ والحىُّ لم يَرْقُدوا
نأيْنا عن الحَىِّ حتى إذا * تودّعَ (١٠) من نارِها الموقِدُ
وناموا بعثْنا لها ناشِدًا * وفى الحىِّ بُغْيةُ مَنْ يَنْشُدُ

(١) المحبر : المزين المحسن . (٢) ذو دوران — بفتح أوله وبعد الواو راء مهملة وآخره نون — : موضع بين قديد والجحفة (ياقوت) . (٣) أى كلفتنى السير ليلا . (٤) تشط : تبعد . (٥) غمر ذى كندة : موضع وراء وجرة بينه وبين مكة مسيرة يومين . (٦) كذا فى ديوانه ، وفى الأغانى « الصبح » . (٧) الفرقد : نجمان فى السماء من نجوم الدب الأصغر وهى فى الشمال ، ويقال لهما : الفرقد بالإفراد ، والفرقدان بالتثنية . ولعله يريد أنها تسير جهته ، لأن العراق التى تقصده فى الشمال الشرقىّ من مكة . (٨) الحداة : جمع حاد وأصله المغنى للابل لتنشط فى السير ، وقد يراد به الزاجر والسائق . والعير : الإبل ، ولا واحد له من لفظه . وونت : ضعفت وتباطأت . وتطرد : تساق . (٩) الجرس : الصوت . (١٠) تودع : سكنت ناره وانطفأت .

أَتَتْنَا تَهَادَى(١) على رِقْبَةٍ(٢) * من الخوف أحشاؤها تُرْعَدُ

تقول وتُظهِر وَجْدًا(٣) بنا * ووَجْدِي وإن أظهرتْ أوجدُ

لِمَا شَفَّنِي تعلَّقتكم * وقد كان لي عنكمُ مَقْعَدُ(٤)

وكَفّت سَوَابِقَ من عَبْرةٍ * على الخدِّ جالَ بها الإثمدُ(٥)

فإنّ التي شيَّعَتْنَا الغداةَ * مع الفجر قلبي بها مُقْصَدُ(٦)

وشَبَّبَ عمرُ بن أبي ربيعة بزينبَ بنتِ موسى الجُمَحيّة في قصيدته التي يقول فيها :

يا خليليَّ من مَلامٍ دَعَانِي * وأَلِمَّا الغَدَاةَ بالأظعانِ

لا تلوما في آلِ زينبَ إنّ الـ * ـقلبَ رَهْنٌ بآلِ زينبَ عانِي

ما أَرَى ما بقيتُ أن أذكُرَ المو * قفَ منها بالخَيْفِ(٧) إلّا شجاني

لم تَدَعْ للنساءِ عندِيَ حظًّا * غيرَ ما قلتُ مازِحًا بلساني

هي أهلُ الصَّفاء والوُدِّ منّي * وإليها الهَوَى فلا تَعْذُلاني

حين قالت لأختها ولأخرى * من قَطِينٍ(٨) مُوَلَّدٍ : حَدِّثاني

كيفَ لي اليومَ أن أرى عُمَرَ المُرْ * سِلَ سِرًّا في القول أن يَلْقاني

قالَتا : نَبْتَغِي رسولًا إليه * ونُمِيتُ الحديثَ بالكِتمانِ

إنّ قلبي بعدَ الذي نِلْتُ منها * كالمُعَنَّى(٩) عن سائر النِّسوانِ

(١) تهادى : تمشى فى تمايل وسكون . (٢) الرقبة : التحفظ والفرق . (٣) الوجد : الشغف والشوق الشديد . (٤) المراد : قد كان لى غنى عن حبكم . (٥) الإثمد : حجر للكحل وأجوده بأصبهان
(٦) أقصده : رماه بسهم فقتله . (٧) الخيف : ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل قال ابن سيدة : وخيف مكة موضع فيها عند منى ، سمى بذلك لانحداره عن الغلظ وارتفاعه عن السيل .
(٨) القطين : الخدم والأتباع والحشم ، والمولد من العبيد والإماء : من ولد بين العرب ونشأ مع أولادهم
(٩) كذا فى الأغانى . وفى ديوانه "كالمعنى" أى المأسور المحبوس عن غيرها .

وكان سببُ ذكره لها أنّ آبنَ أبى عتيق ذكَرها عندَه يوما فأطْراها ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغَل قلبَ عُمرَ وأماله اليها ، فقال فيها الشعرَ وشبّب بها ، فبلغ ذلك آبنَ أبى عَتيقٍ ، فلامه فيه وقال له : أتَنطِقُ الشعرَ فى آبنةِ عمّى؟ فقال عمرُ :

لا تَلُمْنى عتيقُ حَسبِى الذى بى * إنّ بى يا عتيقُ ما قد كفانِى

لا تَلُمْـــنِى وأنتَ زيّنتَهـا لى * أنتَ مثلُ الشيطانِ للإنسـانِ

إنّ بى داخلًا من الحبّ قد أبْـ * ـلَى عِظَامِى مكنونُهُ وبرَانِى

لو بعينيـــكَ يا عتيقُ نظَرْنا * ليـلةَ السّفحِ قرّتِ العينانِ

إذ بدا الكَشْحُ والوِشاحُ من الدُّ * ـرّ وفَصْـــلٌ فيه من المَرْجانِ (١)

وقَلَى قلبِىَ النسـاءَ ســواها * بعـد ما كان مُغرمًا بالغـوانى

لم تَدَعْ للنسـاء عندى نصيبًا * غـيرَ ما قلتُ مازحًا بلسـانى

وأنشد آبنُ أبى عَتيق قولَ عمرَ :

مَنْ (٢) لسَـقيمٍ يكتُمُ النـاسَ ما به * لزينبَ نَجْوَى صـدرِه والوَسَاوِسُ

أقولُ لمن يبْغِى الشّـفاء متى تَجِئْ * بزينبَ تُدرِكْ بعضَ ما أنتَ لامِسُ

فإنكَ إن لم تَشْفِ من سَقمِى بها * فإنّى من طِبّ الأطبّاء آيِسُ

ولستُ بناسٍ ليـلةَ الدار مجلسـا * لزينبَ حتى يَعْـلُوَ الرأسَ رَامِسُ (٣)

خَلاءً بدَتْ قمْراؤُه وتكشّفَتْ * دُجُنّتُه وغابَ من هو حارِسُ

وما نلتُ منهـا محْرَما غـيرَ أننـا * كلانا من الثوبِ المـورّدِ (٤) لابِسُ

نَجِيّيْنِ نَقْضِى اللهوَ فى غيرِ مأثَمٍ * وإن رَغِمَتْ مِ الكاشِحِينَ المَعَاطِسُ

(١) الكشح : ما بين الجنبة — وهى رأس الورك الذى يشرف على الخاصرة — إلى الإبط . والوشاح : شبه قلادة ينسج من أديم عريض يرصع بالجواهر تشدّه المرأة بين عاتقيها .

(٢) هذا البيت دخل عليه الخرم وهو حذف الفاء من فعولن . (٣) الرامس : الدافن فى الرمس وهو القبر .

(٤) المورّد : الذى صبغ على لون الورد .

قال : فقال ابن أبي عتيق : أمِنّا يسخر ابن أبي ربيعة ؟ فأيُّ محرَّمٍ بقي ! ثم أتى عمر فقال له : يا عمرُ، ألم تخبرني أنك ما أتيتَ حرامًا قطُّ ؟ قال : بلى، قال : فأخبرني عن قولك :

* كِلانا من الثوبِ المورَّدِ لابسُ *

ما معناه؟ قال : والله لأخبرنَّك : خرجتُ أريد المسجدَ وخرجتْ زينبُ تريده ، فالتقينا فاتّعدْنا لبعض الشِّعاب، فلما توسّطْنا الشِّعبَ أخذتْنا السماءُ، فكرِهتُ أن يُرى بثيابها بَلَلُ المطر ، فيقال لها : ألا استترتِ بسقائفِ المسجد إن كنتِ فيه ! فأمرتُ غِلْماني فستَرُونا بكساء خزٍّ كان عليّ، فذلك حين أقول :

* كلانا من أثوابِ المطارِفِ لابسُ *

فقال له ابنُ أبي عتيق : يا عاهرُ ! هذا البيت يحتاج الى حاضنة ! .

ومن جيد شعره قوله في زينب بنت موسى :

يا مَنْ لقلبٍ متيَّمٍ كَلِفٍ * يَهْذِي بخَوْدٍ(1) مَرِيضةِ النَّظَرِ
تمشي الهُوَيْنَا إذا مشتْ فُضُلًا(2) * وهي كمِثْلِ العُسْلوجِ(3) في الشَّجرِ
ما زال طَرْفي يَحَارُ إذ بَرَزَتْ * حتى رأيتُ النقصانَ في بَصَرِي
أبصرتُها ليلةً ونِسوتَها * يَمْشِينَ بين المَقَامِ والحَجَرِ
ما إن طَمِعْنَا بها ولا طَمِعَتْ * حتى التقينا ليلًا على قَدَرِ(4)
بِيضًا حِسَانًا خَرائدًا قُطُفًا(5) * يَمْشِينَ هَوْنًا كمِشْيَةِ البَقَرِ
قد فُزْنَ بالحسن والجمال معًا * وفُزْنَ رِسْلًا(6) بالدَّلِّ والخَفَرِ

(١) الخود : الفتاة الحسنة الخلق الشابة ما لم تصر نصفا ، والنصف : المرأة بين الحدثة والمسنة .

(٢) الفضل بضمتين : المختالة التي تفضل من ذيلها . ويروى : «قطفا» والمراد به تقارب الخطو .

(٣) العسلوج : الغصن اللين الأخضر . (٤) على قدر : على غير موعد . والوجه فيه أن التقاءهما كأنه مقدّر في الأزل لا علم له به ولا سعي إليه كما قيل :

جاء الخلافة أو كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

(٥) جمع قطوف وهي البطيئة في السير . (٦) الرسل بالكسر : الرفق والتؤدة . والخفر : شدّة الاستحياء .

يُنْصِتْنَ يومًا لها إذا نطقتْ * كَيْما يُشَرِّفْنَها على البَشَر
قالت لِتِرْبٍ لها تُحدّثها * لَنُفْسِدَنَّ الطَّوافَ فى عُمر
قُومِى تَصَدَّىْ له ليعرفَنا * ثم اغمِزِيه يا أخت فى خَفَرِ
قالت لها قد غمزتُه فأبى * ثم اسْبَطَرَّتْ(١) تسعَى على أثرى
من يُسْقَ بعد المنام ريقتَها * يُسْقَ بمسك وباردٍ خَصِر(٢)

وقولُه فيها أيضا :

أَلِمْ بزينبَ إن البَيْنَ قد أَفِدَا(٣) * قَلَّ الثَّوَاءُ لَئِنْ كان الرَّحيلُ غَدَا
قد حلَفَتْ ليلةَ الصَّوْرَيْنِ(٤) جاهدةً * وما على المرء إلا الحَلْفُ مجتهِدَا
لأختها ولأخرى من مَنَاصِفِها(٥) * لقد وجَدتُ به فوقَ الذى وجَدَا
لو جُمِّعَ الناسُ ثم اختير صَفْوُهُمُ * شخصًا من الناس لم أعدِلْ به أحدَا

ومن شعر عمر فى تشوّقه الى مكة بعد أن خرج منها الى اليمن قولُه :

هيهاتَ من أمة الوَهّابِ منزِلُنا * اذا حللنا بسِيفِ(٦) البحر من عَدَنِ
واحتلَّ أهلُكِ أَجْيادًا(٧) وليس لنا * إلا التذكُّرُ أو حظٌّ من الحَزَنِ
لو أنها أبصرتْ بالجَزْع عَبْرَتَه * من أن يُغَرِّدَ قُمْرِىٌّ على فَنَنِ
اذًا رأت غيرَ ما ظنّت بصاحبها * وأيقنتْ أن لَحْجًا ليس من وَطَنِى
ما أَنْسَ لا أَنْسَ يومَ الخَيْفِ(٨) موقفَها * وموقفى وكلانا ثَمَّ ذو شَجَنِ
وقولَها للثُّرَيّا وهى باكيةٌ * والدمعُ منها على الخدّين ذو سَنَنِ(٩)

(١) اسبطرت : أسرعت . (٢) الخصر : البارد . (٣) أفد كفرح : عجل وأسرع .
(٤) الصوران : موضع بالمدينة بالبقيع ، وقد ذكره ياقوت واستشهد بالبيت . (٥) المنصف كمنبر ومقعد : الخادم ، والأنثى بالهاء ، جمعه مناصف .
(٦) سيف البحر : ساحله . (٧) أجياد : موضع بمكة ، سمى بذلك لأن تبعا لما قدم مكة ربط خيله فيه فسمى بذلك ، وهما موضعان : أجياد الكبير وأجياد الصغير . (٨) الخيف : موضع بمنى وبه سمى مسجد الخيف . (٩) ذو سنن : ذو طرائق .

بالله قولى له فى غير معتبة * ماذا أردت بطول المكث فى اليمن
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها * فما أخذت بترك الحج من ثمن

وقال أيضا :

خليلىّ ما بال المطايا كأنما * نراها على الأدبار بالقوم تنكص (١)
وقد قطعت أعناقهن صبابة * فأنفسنا مما يلاقين شخص
وقد أتعب الحادى سراهن وانتحى * بهن فما يألو عجول مقلص (٢)
يزدن بنا قربا فيزداد شوقنا * إذا زاد طول العهد والبعد ينقص

ومن شعره قوله :

جرى ناصح بالود بينى وبينها * فقربنى يوم الحصاب (٣) إلى قتلى
فطارت بحظ من فؤادى وقارنت * قرينتها حبل الصفاء إلى حبلى
فلما تواقفنا عرفت الذى بها * كمثل الذى بى حذوك النعل بالنعل
فقلن لها هذا عشاء وأهلنا * قريب ألما تسأمى مركب البغل
فقالت فما شئتن قلن لها انزلى * فللأرض خير من وقوف على رحل
نجوم دراري (٤) تكنفن صورة * من البدر وافت غير هوج (٥) ولا عجل
فسلمت واستأنست خيفة أن يرى * عدو مقامى أو يرى كاشح فعلى
فقالت وأرخت جانب الستر إنما * معى فتكلم غير ذى رقبة أهلى
فقلت لها ما بى لهم من ترقب * ولكن سرى ليس يحمله مثلى
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا * وهن طبيبات بحاجة ذى الشكل
عرفن الذى تهوى فقلن ائذنى لنا * نطف ساعة فى برد ليل وفى سهل

(١) تنكص : ترجع وتولى وتحجم . (٢) مقلص : مشمر جاد فى السير . (٣) الحصاد كالمحصب : موضع رمى الجمار . (٤) درارى ممنوعة من الصرف ونونت لضرورة الشعر . (٥) هوج جمع هوجاء وهى المتعجلة فى السير كأن بها هوجا وحمقا .

فقالتْ فلا تلبثْن قُلْن تحدّثي * أتيناكِ، وانْسَبْن انسيابَ مَهَا الرَّمْلِ
فقمنَ وقد أفهمْنَ ذا اللُّبِّ أنما * أتَيْنَ الذى يأتينَ من ذاك من أجْلى

وقد كان عمر حين أسَنَّ حلف ألّا يقولَ بيتَ شعر إلّا أعتق رقبةً، فانصرف عمرُ الى منزله يحدِّث نفسَه، فجعلتْ جاريةٌ له تكلِّمه فلا يردّ عليها جوابا، فقالت له : إن لك لأمرا، وأراك تريد أن تقول شعرا، فقال :

تقولُ وليدتى لما رأتْنى * طَرِبْتُ وكنتُ قد أقصرتُ حِينَا
أراكَ اليومَ قد أحدثتَ شوقًا * وهاج لك الهوى داءً دَفِينَا
وكنتَ زعمتَ أنك ذو عَزَاء * إذا ما شئتَ فارقتَ القَرِينَا
بربِّكَ هل أتاك لها رسولٌ * فشاقك أم لقيتَ لها خَدِينَا(١)
فقلتُ شكا إلىّ أخٌ محِبٌّ * ض زماننا إذ تعلَمينا
فقصّ علىّ ما يلقَى بهند * فذكَّر بعضَ ما كنّا نَسِينَا
وذو الشَّوقِ القديم وإن تعزَّى * مَشُوقٌ حين يلقَى العاشقينَا
وكم من خُلّةٍ(٢) أعرضتُ عنها * لغير قِلًى وكنتُ بها ضَنِينَا
أردت بِعادَها فصدَدْتُ عنها * ولو جُنّ الفؤادُ بها جنونَا

ثم دعا تسعةً من رقيقه فأعتقهم بكلّ بيتٍ واحدًا .

وله :

يقولون : إنى لستُ أصدُقُكِ الهوى * وإنّى لا أرعاكِ حين أغيبُ
فما بالُ طَرْفى عَفَّ عما تَسَاقطتْ * له أعينٌ من مَعْشَرٍ وقُلوبُ
عشيَّةَ لا يَسْتَنْكِفُ القومُ أن يَرَوْا * سَفَاهَ امرئٍ ممن يقال لبيبُ

(١) الخدين : الصديق الذى يخادنك فيكون معك فى كل أمر ظاهر وباطن، ومنه خدن الجارية : محدثها، وكان العرب فى الجاهلية لا يمتنعون من خدن يحدث الجارية فجاء الاسلام بهدمه . وفى التنزيل العزيز : (اليوم أحل لكم الطيبات) الى قوله : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) الآية .   (٢) الخلة : الخليلة .

ولا فتنةٍ من ناسكٍ أومضتْ له[1] * بعين الصبا كَسْلَى القيامِ لَعُوبُ
تروّح يرجو أن تُحَطَّ ذنوبُه * فآبَ وقد زِيدتْ عليه ذنوبُ
وما النُّسْكُ أسلاني ولكنّ للهوى * على العين منّي والفؤادِ رقيبُ

وله :

ألم تسألِ المنزل المُقْفِرا * بيانًا فيكتُمَ أو يُخْبِرَا
ذكرتَ به بعض ما قد شجاكَ * وحقٌّ لذى الشَّجْو أن يَذْكُرَا
مَبِيتَ الحبيبين قد ظاهرا[2] * كِسَاءً وبردين أن يُمْطَرَا
ومَمْشَى الثلاثِ به مَوْهِنًا * خرجن إلى زائرٍ زُوّرا
إلى مجلسٍ من وراء القِبَا * بِ سَهْلِ الرُّبَى طيّبٍ أعفرا[3]
غفلْنَ عن الليل حتى بدتْ * تباشيرُ من واضحٍ أسفرا
فقمْنَ يُعَفِّينَ آثارنا * بأكسية الخَزّ أن تُقْفَرا[4]
مهاتانِ شيّعتا جُؤْذُرًا[5] * أسيلًا مُقَلَّدُهُ[6] أحورا
وقُمْنَ وقُلْنَ لو انّ النها * رَ مُدَّ له الليلُ فاستأخرا
قضينا به بعضَ أشجاننا * وكان الحديثُ به أجْدَرا

وله :

أفى رَسْمِ دارٍ دمعُك المترقرق[7] * سفاهًا ! وما آستنطاقُ ما ليس ينطِقُ !
بحيثُ آلتقى "جَمْعٌ"[8] وأقصى "مُحَسِّرٍ"[9] * معالِمُه كادت على العهد تَخْلَقُ
ذكرتُ به ما قد مضى من زماننا * وذكرُكَ رَسْمَ الدارِ ممّا يُشَوِّقُ

(١) أومضت له : سارقته النظر .

(٢) يقال : ظاهر بين الثوبين إذا لبس أحدهما على الآخر . (٣) أعفر : ذى رمل أحمر .

(٤) يقال : قفر الاثر قفرا : اقتفاه وتبعه . (٥) الجؤذر (بضم أوّله وضم الذال وفتحها) : ولد البقرة . والربرب : القطيع من بقر الوحش وقيل من الظباء، ولا واحد له من لفظه . (٦) المقلد : موضع القلادة ويراد به الجيد . (٧) ترقرق الدمع : سال . (٨) جمع، هى المزدلفة . (٩) محسر : موضع بين منى والمزدلفة .

لياليَ من دهرٍ إذ الحيُّ جيرةٌ * وإذ هو مأهولُ الخميلة مؤنِقُ
مَقامًا لنا عند العِشاء ومجلسا * به لم يُكدِّره علينا مُعَوِّقُ (١)
ومَمْشَى فتاةٍ بالكساء تُكِنُّنا * به تحت عَيْنٍ (٢) برقُها يتألّقُ
يبُلُّ أعالى الثوبِ قَطْرٌ وتحتَه * شُعاعٌ بدا يُعْشِى العيونَ ويُشْرِقُ
فأحسنُ شيء بَدْءُ أوّلِ ليلنا * وآخرُه حُزْنٌ إذا نتفرّقُ

وروى أن ليلى كانتْ جالسةً فى المسجد الحرام، فرأتْ عمرَ بن أبى ربيعة فوجّهتْ إليه مَوْلًى لها بخاءها به، فقالت له : يابْنَ أبى ربيعة، حتّى متى لا تزال سادرًا (٣) فى حَرَم الله تُشبِّبُ بالنساء وتُشِيد بذكرهنّ ! أما تخاف الله ! قال : دعينى من ذاكِ واسْمعى ما قلتُ، قالت : وما قلتَ؟ فأنشدها الأبياتَ المذكورة، فقالت له القول الذى تقدّم أنها أجابتْه به. قال : وقال لها : اسْمَعِى أيضا ما قلتُ فيكِ، ثم أنشدها قولَه :

أمِنَ الرسم وأطلالِ الدِّمَنْ * عاد لى وَجْدِى وعاودتُ الحَزَنْ
إن حيَّ آلَ ليلَى قاتلى * ظهر الحبُّ بجسمى وبطَنْ
يا أبا الحارث قلبى طائرٌ * فأْتَمِرْ أمرَ رشيدٍ مؤتَمنْ
اِلتمِسْ للقلب وصلًا عندها * إنّ خيرَ الوَصْل ما ليس يُمَنّ (٤)
عَلِقَ القلبُ، وقد كان صحَا، * من بنى بكرٍ غزالًا قد شَدَنْ (٥)
أحورَ المُقْلةِ كالبدر، إذا * قُلِّدَ الدرَّ فقلبى مُمتحَنْ (٦)
ليس حُبٌّ فوقَ ما أحببْتُكم * غيرَ أن أَقْتُلَ نفسى أو أُجَنّ
خُلِقَتْ للقلب منّى فِتنةً * هكذا يُخْلَق معروضُ الفِتَنْ

(١) معوّق : عائق ومانع . (٢) العين : السحاب .
(٣) السادر : الذى لا يهتم ولا يبالى ما صنع .
(٤) كذا فى الديوان ، ومعناه ما ليس يقطع ، ومنه قوله تعالى : (وإنّ لك لأجرا غير ممنون) .
(٥) شدن : شب وترعرع . (٦) ممتحن : واقع فى محنة .

وفيها يقول :

إنّ ليــلَى وقــد بلغتُ المَشيبا * لم تدعْ للنساء عنــدى نصيبا

هاجرٌ بيتَهـا لأنــفِيَ عنهـا * قولَ ذى العيب إن أرادَ عيوبا

وله فى النَّوار وقد شغلت قلبه :

عَلِق النَّــوَارَ فــؤادُهُ جَهْلَا * وصَــبا فلم تترك له عقــلا

وتعرّضت لى فى المَســيرِ فمـا * أمسَى الفؤادُ يرَى لهـا مِثـلا

ما نعجةٌ من وحش ذِى بَقَــرٍ[1] * تغذُو بسَقْط صَريمَـــةِ[2] طِفْلا

بألذّ منهـا إذ تقــول لنـا * وأردتُ كشفَ قِناعها مَهْــلا

دَعْنـا فإنك لا مُكـارمـةً * تجزِى ولسْتَ بواصـلٍ حَبْلا

وطِلابُكَ مَنْ تَبَــلَ الفؤادَ وإن * أمسَى لقلبـك ذكرُه شُــغْلا

فأجبتُها إنَّ المحبّ مكلَّفٌ[3] * فدَعِى العتـابَ وأحدِثِى بَذْلا

اِجتمع نسوةٌ من أهل المدينــة من أهل الشرف فتذاكَرْنَ عمر بن أبى ربيعة وشعرَه وظَرفَه وحسنَ حديثه فتشوّقنَ اليه وتمنّيْنَه ، فقالت سُكَينةُ بنت الحُسَين عليهما السلام : أنا لكنّ به ، فأرسلتْ اليــه رسولا وواعدتْه الصّورَيْنِ ، وسمّتْ له الليلةَ والوقتَ وواعدتْ صواحباتها ، فوافاهنّ عمرُ على راحلته ، فحدّثهنّ حتى أضاء الفجر وحان انصرافهنّ ، فقال لهنّ : والله إنى لمحتاج الى زيارة قبر رســول الله صلى الله عليه وســلم والصلاة فى مسجده ولكن لا أُخلِط بزيارتكنّ شيئا ، ثم انصرف الى مكة وقال :

---

(١) ذو بقر : موضع . (٢) سقط الصريمة : منتهاها . والصريمة : الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر. (٣) مكلف : لهج بالحب ، يقال : كاف بالشى كافا ، أى لهج به فهو كاف ومكلف ، والأبيـات من الكامل الأحذ ، وهو ما حذف من عروضه وضربه الوتد المجموع «علن» من «متفاعلن» . وقد جاء عروض هذا البيت تاما على خلاف بقية الأبيات ، وظاهر أن حذف الوتد فى اصطلاح علماء العروض علة ، والعلة إذا لحقت بعروض أو ضرب لزم استعمالها فى سائر الأبيـات ولو قال : * فأجبتها إنى بكم كلف * لخلت القصيدة من هـــذا العيب .

قالت سُكينةُ والدموعُ ذَوارِفٌ * منها على الخدّين والجلباب (١)
ليت المُغِيريَّ الذي لم أجزِه * فيما أطال تصيُّدى وطِلابى
كانت تردُّ لنا المُنَى أيامنا * إذ لا نُلامُ على هوًى وتَصابى
خُبِّرتُ ما قالتْ فبتُّ كأنما * رُمِىَ الحشا بنوافذ النُّشّابِ (٢)
أسُكَيْنَ ما ماءُ الفراتِ وطيبُه * منِّى على ظمإٍ وفَقْد شَرابِ
بألذَّ منك وإن نأيتِ وقلَّما * ترعى النساءُ أمانةَ الغُيَّاب

وقال فيها :

أُحِبُّ لحبِّك من لم يكن * صَفيًّا لنفسى ولا صاحبًا
وأبذُلُ نفسى لمَرْضاتكم * وأُعتِبُ من جاءكم عاتبا (٣)
وأرغَبُ فى وُدِّ من لم أكن * الى وده قبلكم راغبا
ولو سلك الناسُ فى جانبٍ * من الأرض واعتزلتُ جانبا
ليَمَّمْتُ طِيَّتَها ، إننى * أرى قربَها العَجَب العاجبا
فما ظبيةٌ من ظباء الأرا * ك تَقْرُو دَميثَ الرُّبَى عاشبا (٤) (٥)
بأحسنَ منها غَداةَ الغَميم * وقد أبدت الخدَّ والحاجبا (٦)
غداةَ تقولُ على رِقْبة * لخادمها : يا احْبِسى الراكبا (٧)
فقالت لها : فيمَ هذا الكلامُ * وأبدتْ لها عابسًا قاطبا (٨)
فقالت كريمٌ أتى زائرًا * يمُرُّ بكم هكذا جانبا
شريفٌ أتى ربعَنا زائرا * فأكرهُ رجعتَه خائبا

(١) الجلباب : القميص أو هو الخمار، وهو ما تغطى به المرأة رأسها . (٢) النشاب : النبل .
(٣) أعتب : أزال سبب العتب ، فالهمزة للسلب . والمعنى أعذر . (٤) قراه يقروه : تتبعه .
(٥) دميث الربى : سهلها ولينها . (٦) الغميم كأمير : موضع بين مكة والمدينة . (٧) الخادم : واحد الخدم غلاما كان أو جارية . (٨) قاطبا من القطوب : وهو تزوى ما بين العينين من العبوس .

وقال فى جاريته بَغُوم :

صرَمَتْ حَبْلَك البغومُ وصَدَّتْ * عنكَ فى غير ريبةٍ أسماءُ

والغَوانى اذا رأينك كهلًا * كان فيهنّ عن هواكَ آلتواءُ

حَبَّذَا أنتِ يا بَغُومُ وأسما * ءُ وعِيصٌ يكنّنا وخَلَاءُ

ولقد قلتُ ليلةَ الجزْلِ لمّا * أخضلتْ رَيطَتى علىّ السماءُ[(1)]

ليتَ شعْرى ـ وهل يَرُدَّنَّ لَيْتٌ ـ * هل لهذا عند الرَّبَابِ جزاءُ

كلُّ وَصْلٍ أمْسَى لدىّ لأنثى * غيرِها وَصْلُها إليها أداءُ

كل خَلْقٍ وإن دنا لوِصَالٍ * أو نأى فهو للرَّبَاب الفداءُ

فِعِدِى نائلا وإن لم تُنيلى * إنما يَنْفَعُ المحبَّ الرجاءُ

وكان يهوَى حميدةَ جاريةَ آبنِ تُفَّاحةَ، وفيها يقول :

حُمِّلَ القلبُ من حميدةَ ثِقْلَا * إن فى ذاك للفؤاد لشُغْلَا

إن فعلتُ الذى سألت فقُولى * حَمْدُ خيرًا وأتْبعى القولَ فعلَا

وصِلِينى وأُشْهِدُ اللهَ أنّى * لستُ أُصْفى سواكِ ماعشتُ وَصْلَا

وفيها يقول :

ياقلبُ هل لك عن حميدةَ زاجرُ * أم أنت مُدَّكِرُ الحياء فصابرُ

فالقلبُ من ذكْرَى حميدةَ مُوجَعٌ * والدمعُ منحدرٌ وعَظْمِى فاترُ

قدكنت أحسَب أننى قبلَ الذى * فعلتْ على ما عند حَمْدَةَ قادرُ

حتى بَدَا لى من حميدةَ خُلّقى * بينٌ وكنتُ من الفراق أُحاذرُ

(1) الجزل : موضع قرب مكة . وأخضل : بل . والريطة : ملاءة كلها نسج واحد وقطعة

وله فى هند :

أَرِبْتُ(١) الى هنـــد وتِرْبين مرةً * لهـا إذ تواقفنا بفَرْع المُقَطَّع
لِتَعريج يوم أو لِتَعريس(٢) ليـلةٍ * علينا بجمع الشَّمْل قبلَ التصدُّع
فقُلْنَ لهـا لولا آرتقابُ صَحَابة * لنـا خَلْفنا عُجْنا ولم نتـــورَّع
فقالت فتاةٌ كنتُ أحسَبُ أنها * مُغَفَّـــلةٌ فى مِتْرَو لم تُدرَّع(٣)
لهنّ ــ وماشاوَرْنَهاــ ليس ماأرى * بحُسْن جزاءٍ للحبيب المودِّع
فقلن لها لا شَبَّ(٤) قَرْنُك فافتحى * لنا بابَ(٥) ما يَخْفَى من الأمر نَسْمَع

(١) يقـال : أرب بكذا : كلف به، وأرب الى كذا : احتاج اليه . ولعل المراد : دعانى الشوق اليهنّ .
(٢) التعريس : قيل هو نزول القوم فى السفر آخر الليل يستريحون قليلا ثم يرحلون مع الصبح . وقيل : هو النزول أوّل الليل . وقيـل : النزول فى أى وقت كان من ليل أو نهـار . والمراد هنا : لإقامة يوم أو لإقامة ليـلة .
(٣) لم تدرّع : لم تلبس الدرع ، يقال : درّعت الصبية اذا ألبست الدرع، والدرع : جبة مشقوقة المقـدّم .
(٤) قال الأصمعى : يقال أشـبه الله وأشب الله قرنه بمعنى واحد (وهو الدعاء له بأن يشب و يكبر) ، والقرن زيادة فى الكلام اه . والقرن : الضفيرة . والمراد التعجب من حديثها كما يقال فى هـذا المقام : قاتلك الله .
(٥) البابة : الوجه والطريق، قال تميم بن مقبل :

بنى عامر ما تأمرون بشـاعر * تخيّر بابات الكتّاب هجائيـا

أى تخيّر هجائى من وجوه الكتّاب ، كما فسره صاحب اللسان . وللبابة معان أخرى لا بأس من إيرادها وهى : القبيل والنوع ــ كما قال الجاحظ فى « كتاب الحيوان » ج ٢ ص ٤٥ : « فليس الديك من بابة الكلب لأنه إن ساوره قتله قتلا ذريعا » وقال أيضا فى ح ٧ ص ٤٣ : « وقد أيقنا أنهما ليسا من بابته » . وقال فى كتاب البخلاء ص ٤٥، ١٤٣ : « وأنت من ذى البابة ... وأما سائر حديث هـذا الرجل فهو من هذه البابة » . ومثل ذلك فى نفح الطيب ج ١ ص ٥٥٩ طبع ليدن، ج ١ ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٧٩ هـ قول القاضى محمد بن بشير الأندلسى :

إنمـا أزرى بقدرى أننى * لست من بابة أهل البلد

واذا قال الناس : « من بابتى » فمعناه من الوجه الذى أريده و يصلح لى .

والشرط ــــ ومثله ما فى « تاج العروس » : هذا بابته أى شرطه .

والغاية ــــ ويستعمل ذلك فى الحساب والحـــدود . وفى « شفاء الغليل » أنهم يقولون للعب خيال الظل بابة فيقولون : بابات خيال الظل ، وعلى ذلك قول آبن إياس المؤرخ المصرى : فكانوا مثل بابات خيال الظل فشىء يجىء وشىء يروح (بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ٣٤٧) .

ويجوز أن يسمى به كل فصل من فصول التمثيل المسماة الآن فصول الرواية . (انظر كتاب التاج للجاحظ ص ٣٨ و ٣٩) .

ليتَ هندًا أنجزتنا ما تَعِد * وشفَتْ أنفسنا مما تَجِد[(١)]

واستبدَّتْ مرّةً واحدةً * إنما العاجزُ من لا يستبِدّ

ولقد قالتْ لجاراتٍ لها * ذاتَ يومٍ وتعرّتْ تبترِد[(٢)]

أكما ينْعتُني تُبصرنني * عمرَكُنَّ اللهَ أم لا يقتصِد

فتهانفن[(٣)] وقد قُلْنَ لها * حَسَنٌ فى كلِّ عينٍ من تَوَدّ

حسدًا حُمّلنَه من أجْلِها * وقديمًا كان فى الناسِ الحَسَدْ

وله :

يامَنْ لقلبٍ دَنِفٍ مُغرَمٍ * هامَ[(٤)] الى هِنْدٍ ولم يَظْلِمِ

هامَ الى رِيمٍ[(٥)] هَضيمِ الحَشَى * عَذْبِ الثّنايا طيِّبِ المَبْسِمِ

لم أحْسِبِ الشمسَ بليلٍ بَدَتْ[(٦)] * قبلى لِذى لَحْمٍ ولا ذى دمِ

(١) وجد به يجد وجدا : أحبه حبا شديدا، ووجد عليه يوجد وجدا : حزن . (٢) تبترد : تغتسل بالماء البارد . (٣) كذا فى الكامل للبرد طبع ليبزج ص ٤ ٩ ٥ وهى رواية جيدة . والتهانف كالاهناف والمهانفة : ضحك فيه فتور كضحك المستهزئ . وفى الأغانى والديوان : «فتضاحكن» . وقد رجحنا الرواية الأولى لأنها تؤدّى تمام المعنى المراد . (٤) هام تتعدّى بالباء وقد ضمنت هنا معنى صبا ولهذا تعدّت بالى . (٥) كذا فى الأغانى، وفى ديوانه : «رئم» بالهمز . والرئم : الظبى الأبيض الخالص البياض، وقيل ولد الظبى، يهمز ولا يهمز . (٦) كذا فى الأغانى، وبين هذا البيت والذى قبله فى ديوانه :

كالشمس بالأسعد إذ أشرقت * فى يوم دجن بارد مقتم

يريد بالأسعد هنا سعود النجوم، وهى عشرة : أربعة منها فى برج الجدى والدلو ينزلها القمر وهى سعد الذابح وسعد بلع وسعد الأخبية وسعد السعود وهو كوكب منفرد نير . وأما الستة التى ليست من المنازل فسعد ناشرة وسعد الملك وسعد البهام وسعد الهمام وسعد البارع وسعد مطر . وكل سعد من هذه الستة كوكبان بين كل كوكبين فى رأى العين قدر ذراع وهى متناسقة . وأما سعد الأخبية فثلاثة أنجم كأنها أثافىّ ورابع تحت واحد منهن . أنظر المرتضى والمقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية للامام العينى المطبوع بهامش الخزانة ج ١ ص ٨ ٥ فى الكلام على البيت :

اذا دبران منك يوما لقيته * أؤمّل أن ألقاك غدوا بأسعد

وقال فى اللسان فى مادة «سعد» بعد أن ذكر هذه السعود : فأحسن ما تكون الشمس والقمر والنجوم فى أيامها لأنك لا ترى فيها غبرة، وقد ذكرها النابغة الذبيانى فقال :

قامت تراءى بين سجفى كلة * كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

وقد ضبط خطأ فى اللسان بفتح العين . وقال :

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها * لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار

قالتِ ألَا إنكَ ذو مَلّةٍ * يَصرِفُكَ الأدنى عن الأقدمِ
قلتُ لها بل أنتِ معتلّةٌ * فى الوَصْلِ ياهندُ لكى تَصْرِمِى

بينا عمرُ بن أبى ربيعة يَطُوف بالبيت إذ رأى عائشةَ بنتَ طَلْحَةَ بنِ عبيد الله ، وكانت من أجمل أهلِ دهرها ، وهى تريد الرُّكْنَ تستلمُه ، فبُهِتَ لمّا رآها ورأته ، وعلمتْ أنها قد وقعتْ فى نفسه ، فبعثتْ إليه بجارية لها وقالت: قولى له : اتَّقِ الله ولا تَقُلْ هُجْرًا ، فإنّ هذا مَقَامٌ لا بدّ فيه مما رأيتَ ؛ فقال للجارية : أقرئيها السلامَ وقولى لها : ابنُ عمّك لا يقول إلا خيرا ، وقال فيها :

لعائشةَ ابنةِ التَّيمىّ عندى * حِمًى فى القلبِ، لا يُرْعَى حِمَاها
يُذَكِّرُنى ابنةَ التَّيمىّ ظبىٌ * يَرُودُ بروضةٍ سَهْلٍ رُبَاها
فقلتُ له وكاد يُرَاعُ قلبى * فلم أرَ قطُّ كاليوم اشتِبَاها
سِوَى حَمْشٍ[1] بساقِكَ مستبِينٍ * وأنّ شَوَاكَ[2] لم يُشْبِهْ شَوَاها
وأنك عاطلٌ عارٍ وليست * بعاريةٍ ولا عُطُلٍ يدَاها
وأنكَ غيرُ أفْرعَ[3] وهى تُدْلِى * على المَتْنَيْنِ أسْحَمَ[4] قد كَسَاها
ولو قعدَتْ ولم تَكَلّف بوُدٍّ * سِوَى ما قد كَلِفتُ به كَفَاها
أَظَلُّ إذا أُكَلِّمُها كأنّى * أُكَلِّمُ حيةً غَلَبَتْ رُقَاها
تَبِيتُ إلىّ بعدَ النوم تَسْرِى * وقد أمسيتُ لا أخشَى سُرَاها

ولـه :

إنّى وأوّلَ ما كَلِفتُ بحبِّها * عَجَبٌ وهل فى الحبِّ من متعجَّبِ
نعتَ النساءُ فقلتُ لستُ بمُبْصِرٍ * شَبَهًا لها أبدًا ولا بمُقَرَّبِ

---

(١) الحمش : دقة الساقين . (٢) الشوى : الأطراف . (٣) الأفرع : طويل شعر الرأس .
(٤) الأسحم : الأسود، يريد به الشعر .

فمكثن حيناً ثم قلن توجهت * للحج، موعدها لقاء الأخشب[1]
أقبلت أنظر ما زعمن وقلن لى * والقلب بين مصدق ومكذب
فلقيتها تمشى بها بغلاتها * ترمى الجمار عشية فى موكب
غراء يعشى الناظرين بياضها * حوراء فى غلواء عيش معجب[2]
إن التى من أرضها وسمائها * جلبت لحينك ليتها لم تجلب

وكان عمر بن أبى ربيعة يهوى كلثم بنت سعد المخزومية، فأرسل إليها رسولا فضربتها وحلقتها وأحلفتها ألا تعاود، ثم أعادها ثانية ففعلت بها مثل ذلك، فتحاماها رسله، فابتاع أمة سوداء لطيفة رقيقة وأتى بها منزله فأحسن اليها وكساها وآنسها وعرفها خبره وقال لها: إن أوصلت لى رقعة الى كلثم فقرأتها فانت حرة ولك معيشتك ما بقيت، فقالت: اكتب لى مكاتبة[3] واكتب حاجتك فى آخرها، ففعل ذلك، فأخذتها ومضت بها الى باب كلثم فاستأذنت فخرجت إليها أمة لها فسألتها عن أمرها، فقالت: مكاتبة لبعض أهل مولاتك جئت أستعينها فى مكاتبتى، وحادثتها وناشدتها حتى ملأت قلبها، فدخلت الى كلثم وقالت: إن بالباب مكاتبة لم أر قط أجمل منها ولا أكمل ولا آدب، فقالت: ائذنى لها، فدخلت، فقالت: من كاتبك؟ قالت: عمر بن أبى ربيعة الفاسق! فاقرئى مكاتبتى، فمدت يدها لتأخذها فقالت لها: لى عليك عهد الله أن تقرئيها، فإن كان منك الىّ شىء مما أحبه وإلا لم يلحقنى منك مكروه، فعاهدتها وفطنت وأعطتها الكتاب، فإذا أوله:

من عاشق صب يسر الهوى * قد شفه الوجد الى كلثم
رأتك عينى فدعانى الهوى * إليك للحين ولم أعلم

(١) الأخشب: مفرد الأخشبين وهما جبلان بمكة أحدهما أبوقبيس والآخر قعيقعان، ويقال: هما أبوقبيس والجبل الأحمر المشرف هنالك، وقد تفرد هذه التثنية فيقال لكل واحد منهما: الأخشب، قال ساعدة بن جؤية.
ومقامهن إذا حبسن بمأزم * ضيق ألف وصدهن الأخشب

(٢) فى غلواء عيش: فى أنضره وأرغده. (٣) المكاتبة: أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منجما (مقسطا) فإذا أداه صار حرا، وسميت كذلك لأنه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه، ومولاه يكتب له عليه عتقه.

قَتَلْتِنا ، يا حبَّذا أنتمُ * فى غيرِ ما جُرْمٍ ولا مأثَمِ
واللهُ قد أنزلَ فى وَحْيِه * مُبيَّنا فى آيِهِ المُحْكَمِ
من يقتُلِ النفسَ كذا ظالمًا * ولم يُقِدْها نفسَه يَظْلِمِ
وأنتِ ثأرِى فتلافَىْ دَمِى * ثم اجعليه نعمةً تُنْعِمِى
وحَكِّمِى عدلًا يَكُنْ بيننا * أو أنتِ فيما بيننا فاحْكُمِى
وجالِسِينى مجلسًا واحدا * من غيرِ ما عارٍ ولا مَحْرَمِ
وخبِّرِينى ما الذى عندكم * باللهِ فى قتلِ امرئٍ مُسْلِمِ

فلما قرأتِ الشعرَ قالت لها : إنه خدَّاعٌ مَلِقٌ وليس لما شكَاه أصلٌ ؛ قالت : يامولاتى ، فما عليكِ مِن امتحانه؟ قالت : قد أذِنْتُ له وما زال حتى ظَفِرَ ببُغْيَتِه! فقولى له : إذا كان المَسَاءُ فليَجْلِسْ فى موضع كذا وكذا حتى يأتيَه رسولى ؛ فانصرفتِ الجاريةُ فأخبرتْه فتأهَّب لها ، فلما جاءه رسولُها مضَى معه حتى دخل إليها وقد تهيأتْ أجملَ هيئة ، وزيَّنتْ نفسَها ومجلسَها وجلَسَتْ له من وراء سِتْرٍ ، فسلَّم وجلَسَ ، فتركتْه حتى سكَن ثم قالت له : أخبرْنِى عنكَ يافاسق! ألستَ القائل :

هلّا ارْعَوَيْتِ فترْحَمِى صَبَّا * صَدْيانَ لم تدَعِى له قلْبا
جَشِمَ الزيارةَ فى مودّتكم * وأراد ألّا تُرْهِقِى ذَنْبا
ورجَا مُصَالَحَةً فكان لكم * سَلْمًا وكنت تَرَيْنَه حَرْبا
يا أيها المُصْفِى مودّتَه * مَنْ لا يَرَاكَ مُسامِيًا خِطْبا[1]
لا تجعلَنْ أحدًا عليكَ اذا * أحببتَه وهَوِيتَه رَبّا
وصِلِ الحبيبَ إذا شُغِفْتَ به * واطْوِ الزيارةَ دونَه غِبّا
فلَذاكَ أحسنُ من مُواظَبةٍ * ليستْ تَزِيدُكَ عنده قُرْبا
لا بل يَمَلُّكَ عند دَعْوته * فيقولُ هاه[2] وطالمَا لَبَّى

(١) الخطب : الخاطب . (٢) وهاه : كلمة وعيد ، وحرّك لضرورة الشعر وقد روى البيت فى ديوانه :

لا بل يملك ثم تدعو باسمه * فيقول هاه وطالما لبى

ورأى عمرُ لُبَابةَ بنتَ عبدِ الله بن العباس آمرأةَ الوليدِ بن عُتْبةَ بن أبى سفيان تَطُوف بالبيت فرأى احسنَ خَلْق الله ، فكاد عقلُه يذهبُ ، فسأل عنها فأخبر بنسبها ، فنسَب بها وقال فيهـا :

وَدِّعْ لُبَـابَةَ قبـلَ أن تترحَّلا * وٱسْأَلْ فإنَّ قُلَالَهُ[1] أن تَسْأَلَا
ٱلبَثْ بِعَمْرِك ساعةً وتأنَّهـا * فلعلَّ ما بَخِلَتْ به أن يُبْـذَلَا
قال ٱئْتَمِرْ[2] ما شئتَ غيرَ مُخَالَفٍ * فيما هَوِيتَ فإننا لن نَعْجَلَا
لَسْنا نُبَالِي حين تَقْضِى حاجةً * ما باتَ أو ظَلَّ المَطِىّ مُعَقَّلَا
حتى إذا ما الليلُ جَنَّ ظَلَامُهُ * ورَقَبْتُ غفلةَ كاشِحٍ أن يُحْلَا
خرجتْ تَأَطَّرُ[3] فى الثياب كأنّها * أَيْمٌ[4] يَسِيبُ على كَثِيبٍ أَهْيَلَا
رحَّبتُ حينَ رأيتُها فتبسَّمَتْ * لتحيّتِى لَمّـا رأتْنِى مُقْبِـلَا
وجَلَا القِنَاعُ سَحَـابةً مشهورةً * غَرَّاءَ تُعْشِى الطَّرْفَ أن يتأمَّلَا
فلبثْتُ أَرْقِيها بمـا لو عَاقِـلٌ[5] * يُرْقَى به ما ٱسْطَاعَ ألّا يَنْزِلَا

وحَجَّتْ رَمْلَةُ بنتُ عبد الله بنِ خَلَفٍ الخُزَاعِيَّةُ فقال فيها :

أَصْبحَ القلبُ فى الحِبَال رَهِينَا * مُقْصَـدًا يومَ فَارَقَ الظَّاعِنِينَا
عَجِلَتْ حُمَّـةُ الفـراقِ علينـا * برَحِيلٍ ولم نَخَفْ أن تَبِينَا
لم يَرُعْـنى إلّا الفتـاةُ وإلّا * دمعُهـا فى الرداءِ سَحًّا سَـنِينَا
ولقـد قلتُ يومَ مكةَ سِرًّا * قبـلَ وَشْكٍ من بَيْنِكم نَوِّلِينَا
أنتِ أهوَى العبـادِ قُرْبًا ودلًّا * لو تُنِيلِين عاشـقًا محزونَا
قاده الطَّرْفُ يومَ مَرَّ إلى الحيـ * ـنِ جِهاراً ولم يَخَفْ أن يَحِينَا

(١) القلال كغراب وسحاب : القليل . (٢) ائتمر ما شئت : افعل ما شئت فإننا لا نعصى لك أمرا .
(٣) تأطر : محذوفة إحدى تاءيه ، أى تنثنى . (٤) الأيم : الحية . (٥) يقال : عقل الوعل يعقل عقولا : امتنع فى الجبل ، وبه سمى الوعل عاقلا على حدّ التسمية بالصفة ، ومنه المثل : « إنما هو كبارح الأروى قليلا ما يرى » . والأروى : جمع أروية وهى تيوس الجبل البرية .

فاذا نسجةٌ تـراعى نِعـاجًا * ومَهَـا يُهْـجَ المنـاظرِ عِينَـا
قلتُ مَنْ أنتمُ فصَدَّت وقالتْ * أَمُبِـدٌّ[1] سـؤالك العالمينـا
قلتُ بالله ذى الجـلالة لمـا * أن تَبلتِ الفؤادَ أن تَصْدُقينا
أىّ من تجمـعُ المواسم قولى * وأبِينى لنـا ولا تَكْتُمينا
نحن من ساكنى العِرَاق وكُنَّا * قبـلَه قاطنين مكة حِينَا
قد صدَقْناكَ إذ سألتَ فمن أنـ * ـت عسى أن يَجُرَّ شأنٌ شُؤونا
ونَرى أننـا عَرَفْنَـاك بالنَّعـ * ـتِ بظَنٍّ وما قَتَلْنَا يَقِينَـا
بسَـوَادِ الثَّنِيَّتَيْن ونَعْتٍ * قـد نَرَاه لناظـرٍ مُسْتَبِينَا

وقال فى الثريا وقد صَرَمته .

مَنْ رَسُولى إلى الثريا فإنّى * ضِقْتُ ذَرْعًا بهَجْرِها والكِتَابِ
سلبتْنى مُجَاجَةُ[2] المِسْكِ عقـلى * فَسَلُوها ماذا أَحَلَّ آغتصابى
وهى مَكْنُونَةٌ تحيَّرَ منهـا * فى أدِيم الخَدَّينِ ماءُ الشبابِ
بَرَزُوها مثلَ المَهَاةِ تَهَادَى[3] * بين خَمْسٍ كَوَاعِبٍ أتْرَابِ
ثم قالوا تُحبُّهـا قلتُ بَهْـراً * عددَ القَطْرِ والحَصَى والترابِ
أزْهَقَتْ أُمُّ نَوفلٍ إذ دَعَتْهـا * مُهجَتى[4] ، ما لِقَاتِلِى مِنْ مَتَابِ
حين قالتْ لها أجِيبى فقالتْ * مَنْ دعانِى قالت أبو الخَطَّابِ
فاستجابتْ عنـد الدعاء كما لـ * ـبَّى رجالٌ يَرْجُون حسنَ الثواب

---

(١) قال فى اللسان مادة بدد بعد أن أورد هذا الشطر : «معناه أمقسم أنت سؤالك على الناس واحدا واحدا حتى تعمّهم» . من البداد وهو أن يبدّ المال القوم فيقسم بينهم ، وأبدّهم المال والعطاء : فرقه فيهم ، والمراد : لماذا تسألنا ! ألك حق السؤال على جميع الناس ! . أو معناه : «أأنت ملزم سؤالك الناس ، من قولهم : مالك منه بدّ» ، والمراد : أأنت ملزمنا الإجابة عن سؤالك ! إنّا لا نجيبك . (٢) مجاجة المسك ، يريد بذلك وصفها بطيب ريقها وبأنه كالمسك . (٣) تهادى ، يريد يهدى بعضها بعضا فى مشيتها (الكامل للبرد طبع ليبزج ص ٣٧٩) . (٤) فى الكامل للبرد طبع ليبزج ص ٣٧٩ : أزهقت : أبطلت وأذهبت قال الله عز وجل : (فيدمغه فاذا هو زاهق) اهـ . يريد : أذهبت أم نوفل نفسى إذ دعت الثريا لوصالى فلم تجبها .

ومن شعره :

كتبتُ إليكِ من بلدى * كتابَ مُـولَّه كَمِـدِ
كئيبٍ وَاكِفِ العينيـ * ـن بالحَسَرات منفـردِ (١)
يؤرِّقُه لهيبُ الشـو * قِ بين السَّحْرِ والكَبِدِ (٢)
فيُمْسِك قلبَـه بيـدٍ * ويَمْسَحُ عينَـه بيـدِ

لما تزوّج سُهَيلُ بنُ عبد العزيز الثُّرَيا ونقلها الى الشام، بلَغ عمرَ بنَ أبى ربيعةَ الخبرُ، فأتى المنزلَ الذى كانت الثريا تنزِلُه، فوجَدها قد رحَلتْ منه يومئذٍ، فخرَج فى أثَرِها فلَحِقَها على مَرْحَلتين، وكانت قبل ذلك مُهاجِرَتَه لأمرٍ أنكرتْه عليه، فلما أدركهم نزَلَ عن فرسه ودفَعه الى غلامه ومشَى متنكِّرا حتى مَرَّ بالخَيْمة، فعرَفَتْه الثريا وأثبتتْ (٣) حركتَه ومِشْيتَه، فقالت لحاضنتها (٤) : كلِّميه، فسلَّمتْ عليه وسألتْه عن حاله وعاتبتْه على ما بلَغ الثريا عنه، فاعتذر وبكَى، فبكتِ الثريا، فقالت : ليس هذا وقتَ العِتاب مع وَشْك الرَّحيل، فحادثها الى وقت طلوع الفجر ثم ودّعها وبَكَيَا طويلًا، وقام فركِب فرسَه ووقَف ينظُر اليهم وهم يَرْحَلون (٥)، ثم أتْبَعهم بصرَه حتى غابوا، وأنشأ يقول :

يا صاحبيّ قِفَا نَسْـتَخبِرِ الطَّلَلَا * عن حالِ مَنْ حَلَّه بالأمسِ ما فعَلَا
فقال لى الرَّبْعُ لما أنْ وقَفتُ به * إنّ الخَلِيطَ أجَـدَّ البَيْنَ (٦) فاحتملَا (٧)
وخادَعتْـكَ النَّوى حتى رأيتَهُـمُ * فى الفَجْر يَحْتَثُّ حادِى عِيسِهم زَجِلَا (٨)

(١) يقال : وكفت العين : سالت دموعها . (٢) السحر : الرئة .
(٣) أى عرفتهما حق المعرفة . (٤) لحاضنتها : لمربيتها . (٥) يرحلون يشدّون على إبلهم الرحال . (٦) أجدّ البين : اعتزمه . (٧) احتمل : ارتحل . (٨) النوى : الفراق والبعد . ويحتث : يسوق . وزجلا : رافعا صوته فى حداء الإبل لتسرع فى السير، وأصل الزجل الجلبة ورفع الصوت وخص به التطريب، وأنشد سيبويه فى وصف حمار وحش :

له زجل كأنه صوت حاد * اذا طلب الوسيقة أو زمير

وذكره فى باب ما يحتمل الشعر من استباحة الضرورة، وهى هنا حذف الواو المبينة لحركة الهاء فى قوله : كأنه . والوسيقة : أنثاه التى يضمها ويجمعها، من وسقت الشىء : جمعته .

لمـا وَقَفْنا نُحَيِّيهم وقـــد صَرَخَتْ * هَوَاتِفُ البَيْنِ وٱستولتْ بهم أُصُـلَا[(١)]

صَـــدّتْ بِعَـادًا وقالتْ للتى معها * باللهِ لُومِيـــهِ فى بعضِ الذى فعَـــلَا

وحَدِّثيـــه بمـا حُدِّثْتِ وٱسْتَمِعِى * ما ذا يقـــولُ ولا تَعْيَيْ[(٢)] به جَـــدَلَا

حـــتى يرَى أنّ ما قال الوُشَاةُ له * فينـا لَدَيْه إلينـا كلُّه نُقِـــلَا

وعَرِّفيـــهِ به كالهَزْلِ وٱحتَفِظِى * فى بعضِ مَعْتَبَـــةٍ أن تُغضِبى الرجُلَا

فإنّ عَهْدِى به واللهُ يَحْفَظُـــه * وإن أتَى الذنبَ ممن يكْرَه العَـــذَلَا

لو عنـــدنا ٱغْتِيبَ أو نِيلَتْ نقيصتُه * ما آبَ مُغتـابُه من عنـــدِنا جَذِلَا

قلتُ ٱسمَعِى فلقـــد أبلغتِ فى لَطَفٍ[(٣)] * وليس يَخْفَى على ذى اللُّبِّ من هزَلَا

هـــذا أرادتْ به بُخْلًا لأعـــذِرَها * وقـــد أرَى أنهـا لن تَعْـــدَمَ العِلَلَا

ما سُمِّى القلبُ إلّا من تَقَلُّبِـــه * ولا الفؤاد فؤادًا غيرَ أنْ عَقَـــلَا[(٤)]

أما الحـــديث الذى قالت أُتِيتَ به * فـا عَبَأْتُ به إذ جاءنى حِـــوَلا

ما إن أَطَعْتُ بهـا بالغَيْبِ قد عَلِمتْ * مقـالةَ الكاشحِ الواشى إذا مُحِـــلَا

إنى لأَرْجِعُـــه فيهـا بسَخْطَتِـــه * وقـــد يَرَى أنـــه قد غرّنى زللا

وهى قصيدة طويلة مذكورة فى شعره .

(١) فى ديوانه :

لمـا وقفنا نحييـــم وقـــد شحطت * نعامة البين فاســـتولت بهم آصلا

وشحطت نعامة البين : ارتحلوا وفرّقهم البين ، وفى اللسان مادة نعم وشال : يقال للقوم إذا ارتحلوا عن منزلهم أو تفرّقوا : قد حفت نعامتهم وشالت نعامتهم ، .والأصل : جمع أصيل وهو العشىّ وقيل هو مفرد ، أنشد ثعلب :

وتمـــذرت نفسى لذاك ولم أزل * بدلا نهارى كله حتى الأصـــل

فقوله : بدلا نهارى كله ، يدل على أن الأصل هاهنا واحد . (٢) لا تعيى به جدلا : لا تعجزى فى مجادلته .

(٣) اللطف لغـة فى اللطف . (٤) قال فى اللسان : والتفؤد : التوقد ، والفؤاد : القلب لتفؤده وتوقده . وقال فى القاموس وشرحه : والتفؤد : التحرق والتوقد ، ومنه الفؤاد للقلب ، لأنّ عقل الفؤاد للعلومات نتيجة اشتغاله وتوقده وتحركه وجولته فيها حتى يمحصها ، ويميز الصحيح من الفاسد والحق من الباطل .

وله :

هل تَعرِف الدارَ والأطلالَ والدِّمَنا * زِدْنَ الفؤادَ على عِلاّتِهِ(1) حَزَنا
دارٌ لأسماءَ قد كانت تَحُلُّ بها * وأنتَ إذ ذاك قد كانت لكم وَطَنا
لم يُحبِب القلبُ شيئاً مِثلَ حُبِّكُم * ولم تَرَ العينُ شيئاً بعدكم حَسَنا
ما إنْ أُبالِي أدام اللهُ قُربَكُمُ * مَنْ كان شَطَّ من الأحياء أو ظَعَنا
فإن نأيتُمْ أصاب القلبَ نأيُكمُ * وإن دَنَتْ داركم كنتم لنا سَكَنا
إن تَبْخَلِي لا يُسَلِّ القلبَ بُخْلُكم * وإن تَجُودِي فقد عَنَّيْتِنِي زَمَنا
أمسى الفؤادُ بكم ياهِنْدُ مُرْتَهَنا * وأنتِ كُنْتِ الهوى والهَمَّ والوَسَنا
إذ تَسْتَبِيكَ بمَصْقولٍ عَوارِضُه * ومُقْلَتَيْ جُؤْذَرٍ لم يَعْدُ أن شَدَنا

وقال :

أَعَبْدَةُ ما يَنْسَى مَوَدَّتَكِ القَلْبُ * ولا هُوَ يُسْلِيهِ رَخاءٌ ولا كَرْبُ
ولا قَولُ واشٍ كاشِحٍ ذي عداوة * ولا بُعْدُ دارٍ إن نأيتِ ولا قُرْبُ
وما ذاكِ من نُعمَى لَدَيْكِ أصابها * ولكنَّ حُبّاً ما يُقاربه حُبُّ
فإن تَقْبَلِي ياعَبْدَ تَوْبَةَ تائبٍ * يَتُبْ ثُمَّ لا يُوجَدْ له أبداً ذَنْبُ
أذِلُّ لكم ياعَبْدَ فيما هَوِيتُمُ * وإنّي إذا ما رامني غيرُكم صَعْبُ
وأَعْذُلُ نفسي في الهوى فَتَعُوقُنِي * ويَأْصِرُنِي قلبٌ بكم كَلِفٌ صَبُّ
وفي الصبرِ عَمَّنْ لا يُؤاتيك راحةٌ * ولكنّه لا صَبْرَ عندي ولا لُبُّ
وعَبْدَةُ بيضاءُ المَحاجِرِ طَفْلَةٌ * مُنَعَّمَةٌ تُصْبِي الحليمَ وما تَصْبُو
قَطُوفٌ من الحُورِ الأوانسِ بالضحى * مَتَى تَمْشِ قِيسَ الباعِ من بُهْرِها تَرْبُو
فلَسْتُ بِناسٍ يومَ قالت لأربعٍ * نَواعِمَ غُرٍّ كُلُّهُنَّ لها تِرْبُ
ألا لَيْتَ شِعْري فِيمَ كان صُدُودُه * أَعُلِّقَ أخرى ! أم عَلَيَّ به

(1) كذا في ديوانه وفي الأغاني ج 1 ص 279 « على ما عنده » .

وقال :

إنَّ طَيْفَ الخيَالِ حِينَ أَلَمَّا * هاجَ لى ذُكْرَةً وأحْدَثَ هَمَّا

جَدِّدِي الوَصْلَ ياسُكَيْنِ وجُودِي * لِمُحِبٍّ رَحِيلُهُ قَدْ أَحَمَّا

ليسَ بين الحياةِ والموتِ إلّا * أَنْ يَرُدُّوا جِمَالَهُمْ فَتُزَمَّا

ولقد قلتُ مُخْفِيًا لِغَرِيضٍ * هَلْ تَرَى ذلكَ الغَزَالَ الأَحَمَّا

هَلْ تَرَى فوقَهُ من الناس شَخْصًا * أَحْسَنَ اليومَ صُورةً وأَتَمَّا

إن تُنِيلِي أَعِشْ بخيرٍ وإنْ لَمْ * تَبْذُلِى الوُدَّ مُتُّ بالهَمِّ غَمَّا

وله أيضا :

أيا مَنْ كانَ لى بَصَرًا وسَمْعًا * وكيفَ الصَّبْرُ عن بَصَرِى وسَمْعِى

وعَمَّنْ حِينَ يَذْكُرُهُ فُؤادى * يَفِيضُ كما يَفِيضُ الغَرْبُ دَمْعِي

يقولُ العاذِلُونَ نَأَتْ فَدَعْها * وذلكَ حِينَ تَهْيَامِي وَوَلْعِي

أَأَهْجُرُها فأَقْعُدُ لا أَراها * وأَقْطَعُها وما هَمَّتْ بقَطْعِي

وأَصْرِمُ حَبْلَها لِمَقَالِ وَاشٍ * وأَفْجَعُها وما هَمَّتْ بفَجْعِي

وأُقْسِمُ لَوْ خَلَوْتُ بهَجْرِ هِنْدٍ * لَضَاقَ بهَجْرِها فى النَّومِ ذَرْعِي

وهو القائل :

ما كُنْتُ أَشْعُرُ إلّا مُذْ عَرَفْتُكُمُ * أَنَّ المَضاجِعَ تُمْسِى تُنْبِتُ الإِبَرَا

لَقَدْ شَقِيتُ وكانَ الحَيْنُ(١) لى سَبَبًا * أن عُلِّقَ القَلْبُ قَلْبًا يُشْبِهُ الحَجَرا

قَدْ لُمْتُ قَلْبِي فأَعْيانِي بواحدةٍ * وقالَ لِي لا تَلُمْنِي وادْفَعِ القَدَرَا

إنِّى أُكْرِهُ الطَّرْفَ يَحْسُدُونَ غَيْرَكُمُ * ولَسْتُ أُحْسِنُ إلّا نَحْوَكِ النَّظَرا

قالوا صَبَوْتَ فلم أُكْذِبْ مَقالَتَهُمْ * وليسَ يَنْسَى الصِّبَا إنْ وَالِهٌ كَبِرَا

---

(١) الحين : المحنة .

وقال أيضا :

ألا لَيْتَ قَبْرِى يوم تُقْضَى مَنِيّتى * بتلك التى مِنْ بَيْن عَيْنَيْك والفمِ

ولَيْتَ طَهُورِى كان رِيقَكِ كُلّه * وليت حَنُوطِى من مُشَاشِكِ والدّمِ

ألا لَيْتَ أمّ الفضْل كانت قَرِينتى * هُنَا أو هُنَا فى جَنّةٍ أو جَهَنّمِ

نظر عمرُ بن أبى ربيعةَ فى الطّوَاف الى امرأةٍ شريفةٍ فرأى أحسنَ خَلْق الله صورةً، فذَهَب عقلُه عليها وكلّمها فلم تُجِبْه؛ فقال فيها :

الريحُ تَسحب أذْيالا وتَنشُرها * يا ليتنى كنتُ ممّن تَسحَب الريحُ

كَيْما تَجُرُّ[1] بنا ذَيْلًا فتَطْرَحَنا * على التى دونَها مُغْبرّةٌ[2] سُوحُ[3]

أنّى بقُرْبِكمُ أم كيف لى بِكُمُ * هيْهاتَ ذلكَ ما أَمْسَتْ لنا رُوحُ

فليت ضِعْفَ الذى ألْقَى يكونُ بها * بل ليت ضِعْفَ الذى ألْقَى تَبَارِيحُ[4]

إحْدَى بُنَيّاتِ عَمّى دون منزلها * أرضٌ بِقِيعَاتِها القَيْصُومُ[5] والشّيحُ

فبلَغها شعرُه فجَزِعتْ منه، فقيل لها : اذكرِيه لزوجِك، فإنه سيُنْكِر عليه قولَه، فقالت : كلّا واللهِ لا أشكوه إلا إلى الله؛ ثم قالت : اللهم إن كان نَوّه باسْمِى ظالمًا فاجعلْه طعامًا للريح، فضَرَب الدهرُ مِنْ ضَرْبه؛ ثم إنه غدا يومًا على فرس فهبّتْ ريحٌ فنزَل فاستتر بسَلَمةٍ، فعصَفَتِ الريحُ فخدَشَه غُصْنٌ منها، فدَمِىَ وورِمَ به ومات من ذلك .

(١) هذا أحد الوجهين فى الفعل الواقع بعد كيما : الرفع على أن ما كافة لها عن العمل، والنصب على أن ما زائدة وكى عاملة فيما بعدها، وقد روى بالوجهين :

إذا أنت لم تنفع فضرّ فإنما * يرجى الفتى كيما يضرّ وينفع

(٢) مغبرة، يريد بها الفلاة المجدبة . (٣) سوح : جمع ساحة وهى الفضاء . (٤) تباريح الشوق : توهجه، قال السيد محمد مرتضى : قال شيخنا وهو من الجموع التى لا مفرد لها وقيل : مفرده تبريح واستعمله المحدثون وليس بثبت . (٥) قال فى اللسان : القيصوم : ما طال من العشب، ثم قال : والقيصوم من نبات السهل قال أبو حنيفة : القيصوم من الذكور ومن الأمرار وهو طيب الرائحة من رياحين البر وورقه هدب وله نورة صفراء وهى تنهض على ساق وتطول .

(ب) الغـــزل العـــذرى

جميـــــل (١)

قال نُصَيب مولى عبد العزيز بن مروان: قدِمتُ المدينة فسألتُ عن أعلم أهلها بالشعر، فقيل لى: الوَليد بن سَعيد الأشجعى، فوجدته بشِعْب سَلْع مع عبد الرحمن بن حسّان وعبد الرحمن بن أزهر، فإنّا لجلوسٌ إذ طلع علينا رجل طويلُ بينِ المنكِبين يقود راحلةً

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر من عذرة، وكان شاعرا فصيحا مقدّما جامعا للشعر والرواية. اشتهر بحبه بثينة ابنة عمه، ولذلك عرف بجميل بثينة، وكانا يقيمان فى وادى القرى، وكان أول عهده بها وهى صغيرة. ومن أوائل نظمه فيها قوله:

وأوّل ما قاد المودّة بيننا * بوادى بغيض يا بثين سباب

وقلت لها قولا فجاءت بمثله * لكل كلام يا بثين جواب

ولم يكن يراها حتى صارت شابة، فأخذ ينظم القصائد فيها حتى اشتهر أمره. واتفق مرة أن توبة بن الحمير صاحب ليلى من بنى عذرة فرأته بثينة فجعلت تنظر إليه وجميل حاضر فثارت الغيرة فى قلب جميل، فقال لتوبة: من أنت؟ قال: أنا توبة بن الحمير، قال: هل لك فى الصراع: قال: ذلك إليك؛ فأعطته بثينة ملاءة حمراء فأتزر بها، ثم صارعه فصرعه جميل. ثم قال: هل لك فى النضال؟ قال: نعم، فناضله فنضله جميل. ثم قال: هل لك فى السباق؟ قال: نعم. فسابقه فسبقه جميل. فقال له توبة: يا هذا، إنما تفعل ذلك بريح الجالسة، ولكن اهبط بنا الوادى، فهبط، فصرعه توبة ونضله وسبقه.

وكان عند بثينة مثل ما عند جميل، ولما رأت مناضلته عنها زادت شغفا به، ولكنهما لم يكونا يجتمعان إلا خلسة على موعد. ولم يكن جميل يخلو من الرقباء، لكنهم لم يستطيعوا رميه بريبة. وأخباره معها كثيرة لا يسعها هذا المقام. ولم يزل يجتمع بها سرا عن أهلها، فألحوا بالشكوى منه إلى العامل، ففر إلى اليمن حتى عزل العامل. وانتجع أهل بثينة الشام، فرحل جميل اليهم، فترصدوه وشكوه إلى عشيرته، فعنفه أهله وهددوه، فانقطع عنها، وأخيرا لجأ إلى مصر، وعاملها عبد العزيز بن مروان، فأحسن وفادته، ومرض هناك ومات. وكان طويل القامة عريض بين المنكبين جميل الخلقة حسن البزة، توفى سنة ٨٢ هـ.

ولجميل ديوان شعر كبير كان مشهورا فى أيام ابن خلكان ولم نقف على خبره، ولكن منه أشعارا مجموعة فى كتاب منه نسخة خطية فى مكتبة برلين.

أنظر الكلام على جميل فى الأغانى ج ٧ ص ٧٧ وج ١ ص ٨٠ وابن خلكان ج ١ ص ١١٥ وخزانة الأدب ج ١ ص ١٩١ والشعر والشعراء ص ٢٦٠

عليها بِزّةٌ حسنة، فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهر : يا أبا جَبْرَة هذا جميل فادعُه لعله يُنشدنا، فصاح به عبد الرحمن : هَيَا جميلُ، فالتفتَ فقال : من هذا ؟ فقال : أنا عبد الرحمن بن أزهر، فقال : قد علمتُ أنه لا يجترئ عليّ إلا مثلك، فأتاه، فقال له : أنشدنا، فأنشدهم :

ونحن منعنا يوم أوْلٍ نساءَنا * ويوم أُفَيٍّ والأسنّة ترعُفُ (١)

يُحبّ الغوانى البيضُ ظِلَّ لوائنا * اذا ما أتانا الصارخُ المتلهّف

نسير أمام الناس والناسُ خلفنا * فإن نحن أومأْنا الى الناس وقّفوا

فأىّ معدّ كان فَىْءُ رماحه * كما قد أفأْنا والمفاخر يُنصف

وكنا اذا ما معشرٌ نصبوا لنا * ومرّتْ جوارى طيرِهم وتعيّفوا (٢)

وضعنا لهم صاعَ القِصاص رهينةً * بما سوف نُوفيها اذا الناسُ طفّفوا (٣)

اذا استبق الأقوامُ مجدًا وجدتَنا * لنا مَغرَفا مجدٍ وللناس مَغرَف

ثم قال له : أنشِدْنا هَزَجًا، قال : وما الهزج ؟ لعله القصير! قال : نعم، فأنشده :

رسمُ دارٍ وقفتُ فى طَلَله * كِدتُ أقضى الحياة من جَلَلِه (٤)

مُوحِشًا ما ترى به أحدًا * تنسج الريحُ تربَ معتدِلِه

وصريعًا بين الثُّمام ترَقَّى * عازفاتُ المدبّ فى أسله

بين عَلْياء رائش فبُلَىٍّ * فالغَمِيم الذى الى جَبَله

واقفًا فى ديار أم جُسَيرٍ * من ضُحَى يومه الى أُصُله

يا خليلىّ إنّ أمّ جُسَيرٍ * حين يدنو الضجيعُ من غُلَلِه (٥)

روضةٌ ذاتُ حَنْوةٍ وخُزَامَى * جاد فيها الربيعُ من سَبَله (٦)

بينما نحن بالأراك معًا * اذ بدا راكبٌ على جَمَله

(١) ترعف : تقطر دما . (٢) تعيفوا : من العيافة، وهى زجر الطير والاعتبار بأسمائها ومساقطها وأصواتها، فيتسعد أو يتشاءم . (٣) التطفف : نقص الكيل . (٤) من أجله .
(٥) الغلل : جمع غلة، وهى ما يتوارى فيه أو شعار تحت الثوب . (٦) السبل : المطر .

فتأطّرتْ[1] ثم قلتُ لها * أكرميه حُيّيتِ فى نزله
فظلِلْنا بنعمةٍ واتّكأنا * وشربنا الحلالَ من قُلَلِه
قد أصونُ الحديثَ دون أخٍ * لا أخافُ الأذاةَ من قِبَله
غيرَ بغضٍ له ولا ملقٍ * غير أنى أشحُّ[2] من وَجَله
وخليلٍ صافيتُ مرتضيا * وخليلٍ فارقتُ من مَلَله

ثم اقتاد راحلته موليا ؛ فقال ابن الأزهر : هذا أشعر أهل الإسلام ؛ فقال ابن حسان : نعم والله وأشعرُ أهل الجاهلية ، والله ما لأحد منهم مثلُ هجائه ولا نسيبه ؛ فقال عبد الرحمن ابن الأزهر : صدقت .

قال محمد بن سَلّام : كان لكُثيِّرٍ فى النسيب حظٌّ وافر ، وجميلٌ مقدّم عليه وعلى أصحاب النسيب فى النسيب ، وكان جميلٌ صادق الصّبابة والعشق ، ولم يكن كُثيِّرٌ بعاشق ولكنه كان يتقوّل ، وكان الناس يستحسنون بيت كثيّرٍ فى النسيب ، وهو :

أُريد لأنسى ذكرَها فكأنما * تمثَّلُ لى ليلى بكل سبيلِ

ورأيت من يفضِّل عليه بيتَ جميل :

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما * قتيلًا بكى من حبِّ قاتله قبلى

قيل إن بثينة واعدتْ جميلا أن يلتقيا فى بعض المواضع ، فأتى لوعدها ، وجاء أعرابى يستضيف القوم ، فأنزلوه وقَرَوْه ، فقال لهم : قد رأيتُ فى بطن هذا الوادى ثلاثة نفر متفرّقين متوارين فى الشجر وأنا خائفٌ عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم ، فعرفوا أنه جميل وصاحباه ، فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده ، فلما أسفر له الصبح انصرف كئيبا سيِّئ الظن بها ورجع الى أهله ؛ فجعل نساء الحىّ يقرّعْنه بذلك ويقلن له : انما حصلت منها على الباطل والكذب والغدر ، وغيرُها أولى بوصلك منها ، كما أن غيرك يحظَى بها ؛ فقال فى ذلك :

(١) تأطرت : ملت (٢) أشاح : حذر وخاف

فأجبتُها بالقول بعد تستّرٍ * حبّي بُثَينةَ عن وِصالك شاغلي
أبُثَين إنك قد مَلَكتِ فأسجِحى (١) * وخُذى بحظّك من كريم واصلِ
فلربّ عارضةٍ علينا وصلَها * بالجِدّ تخلِطه بقول الهازل
لو كان فى صدرى كقَدْرِ قُلامةٍ * فضلًا وصلتُكِ أو أتتك رسائلى
ويقلن إنك قد رضيتَ بباطلٍ * منها فهل لك فى اجتناب الباطل
ليُزِلْنَ عنك هواى ثم يَصِلْنَنى * وإذا هَوِيتُ فما هواى بزائل
صادت فؤادى يا بُثَين حبالُكم * يوم الحُجُون وأخطأتك حبائلى
مَنَّيْتِنى فلَوَيتِ ما منّيتِنى * وجعلتِ عاجلَ ما وعدتِ كآجل
وتثاقلتْ لما رأت كَلَفى بها * أَحْبِبْ الىّ بذاك من متثاقل
وأطعتِ فىّ عواذلًا فهجرتِنى * وعَصَيْتُ فيكِ وقد جَهَدنَ عواذلى
حاولْنَنى لأبُتَّ حبلَ وصالكم * منّى ولستُ وإن جهَدنَ بفاعل
فرددتُهنّ وقد سَعَيْنَ بهجركم * لما سعين له بأفوقَ ناصلِ (٢)
يَعْضَضْن من غيظٍ علىّ أناملًا * ووَدِدتُ لو يعضَضْنَ صُمّ جَنادِلِ
ويقلن إنكِ يا بُثَين بخيلةٌ * نفسى فداؤكِ من ضنينٍ باخل

وقال جميل فى وعد بثينة بالتلاقى وتأخرها قصيدةً أولها :

يا صاحِ عن بعض الملامة أقصِرِ * إن المُنَى لِلقاءُ أمّ المِسْوَرِ

ومنها :

وكأنّ طارقَها على عَلَلِ الكَرَى * والنجمُ وَهْنًا قد دنا لتغوُّرِ
يَسْتافُ (٣) ريحَ مُدامةٍ معجونةٍ * بذكىّ مسكٍ أو سَحِيقِ العنبرِ

(١) أسجحى : أحسنى العفو . (٢) الأفوق : السهم الذى كسر فوقه ، وهو مشقّ رأس السهم يقع الوتر . وناصل : لا نصل فيه . (٣) يستاف : يشم .

ومنها :

إنى لأحفظ غيبكم ويسرنى * اذ تذكرين بصالح أن تذكرى
ويكون يومٌ لا أرى لكِ مرسلًا * أو نلتقى فيه علىّ كأشهر
يا ليتنى ألقى المنيّة بغتةً * إن كان يومُ لقائكم لم يُقْدَرِ
أو أستطيع تجلدًا عن ذكركم * فيُفيق بعض صبابتى وتفكُّرى

وفيه يقول :

لو قد تُجَنّ كما أُجنّ من الهوى * لعذرتَ أو لظلمتَ إن لم تعذر
والله ما للقلب من علمٍ بها * غيرُ الظنون وغيرُ قول المخبر
لا تحسبى أنّى هجرتُكِ طائعًا * حَدَثٌ لعمرُكِ رائعٌ أن تُهْجَرِى
فلتبكينّ الباكياتُ وإن أبُحْ * يوما بسرّك مُعلِنًا لم أُعْذَرِ
يهواك ما عشتُ الفؤادُ فإن أمت * يتبعْ صَدَاى صداكِ بين الأقبُرِ
إنى اليكِ بما وعدتِ لناظرٌ * نَظَرَ الفقيرِ الى الغنىّ المُكْثِرِ
يعد الديونَ وليس يُنجز موعدًا * هذا الغريمُ لنا وليس بمُعْسِرِ
ما أنتِ والوعدَ الذى تَعِدينَنى * إلا كبرقِ سحابةٍ لم تُمطِر
قلبى نصحتُ له فردّ نصيحتى * فمتى هجرتيه فمنه تكثرى

وقال فى إخلافها إيّاه هذا الموعد :

ألا ليت ريعانَ الشبابِ جديدُ * ودهرًا تولّى يا بُثَين يعودُ
فنغنَى كما كنا نكون وأنتمُ * قريبٌ واذ ما تبذُلين زهيدُ
وما أنسَ مِلأشياءِ لا أنسَ قولَها * وقد قربت نِضْوِى[1] أمصرَ تريد
ولا قولَها لولا العيونُ التى ترى * أتيتُكَ فاعذِرْنى فدتْكَ جدودُ
خليلَىّ ما أُخفِى من الوجد ظاهرٌ * ودمعى بما قلتُ الغداةَ شهيد

(١) النضو : المهزول من الابل وغيرها .

ألَا قد أرى والله أنْ ربّ عَبْرةٍ * اذا الدار شطّت بيننا ستزيد
اذا قلتُ مابي يا بثينةُ قاتلي * من الحبّ قالت ثابتٌ ويزيد
وإن قلت رُدّي بعضَ عقلي أعِشْ به * مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالبًا * ولا حُبّها فيما يَبيدُ يبيدُ
جزتك الجوازى يا بثين ملامةً * اذا ما خليلٌ بانَ وهو حميد
وقلتُ لها بيني وبينك فاعلمى * من الله ميثاقٌ له وعهود
وقد كان حُبّيكم طريفًا وتالدًا * وما الحبُّ إلا طارفٌ وتليد
وإن عَرُوضَ(١) الوَصْل بيني وبينها * وإن سَهّلته بالمنى لَصَعود
فأفنيتُ عيشي بانتظارى نوالَها * وأبليتُ ذاك الدهرَ وهو جديد
فليت وُشاةَ الناس بيني وبينها * يدوفُ(٢) لهم سُمًّا طماطمُ سُود
وليت لهم فى كل مُمْسَى وشارقٍ * تضاعفُ أكبالٌ لهم وقيود
ويحسب نسوانٌ من الجهل أنني * اذا جئتُ إيّاهن كنتُ أريد
فأقسِم طَرْفي بينهن فيستوِى * وفى الصدر بَوْنٌ بينهن بعيد
ألا ليت شعرى هل أبيتَنّ ليلةً * بوادى القُرَى إنّى إذًا لسعيد
وهل أهبِطَنْ أرضًا تظَلّ رياحُها * لها بالثنايا القاويات(٣) وئيد(٤)
وهل ألقَيَنْ سُعْدَى من الدهر مرةً * وما رَثّ من حبل الصفاء جديد
وقد تلتقِى الأهواءُ من بعد يأسةٍ * وقد تُطلَبُ الحاجاتُ وهى بعيد
وهل أزجُرَنْ حَرْفًا(٥) عَلاةً شِمِلّةً * بخَرْقٍ تُباريها سَوَاهمُ قُود
على ظهر مرهوبٍ كأنّ نشوزَه * اذا جاز هُلّاكُ الطريق رُقود

---

(١) العروض : الطريق فى عرض الجبل فى مضيق ؛ يريد الطريق الى وصلها . (٢) يدوف يخلط . وطماطم : جمع طمطم وهو من فى لسانه عجمة ، وأراد بالطماطم هنا : الموالى . (٣) القاويات الخاليات . (٤) الوئيد : الصوت العالى الشديد . (٥) الحرف : الناقة الضامرة الصلبة . والعلاة المشرفة الصلبة . والشملة : السريعة . والخرق : الأرض الواسعة . والساهمة : الناقة الضامرة .

سبتني بعيني جؤذرٍ وسطِ رَبْرَبٍ * وصدرٍ كفاثور[(١)] اللُّجَيْنِ وجيد[(٢)]

تزيف[(٣)] كما زافت الى سِلفاتها * مُباهيةً طَيّا الوِشاحِ مَيُود

اذا جئتُها يوماً من الدهر زائراً * تَعَرّض منقوضُ اليدينِ صَدُود

يَصُدّ ويُغضِى عن هواى ويجتنى * ذُنوبًا عليها إنه لعَنُود

فأصرِمُها خوفًا كأنى مُجانبٌ * ويغفُل عنا مرةً فنعود

فمن يُعْطَ فى الدنيا قرينًا كمثلها * فذلك فى عيش الحياة رشيد

يموتُ الهوى منّى اذا ما لَقِيتُها * ويَحيا اذا فارقتُها فيعود

يقولون جاهِدْ يا جميلُ بغزوةٍ * وأىَّ جهادٍ غيرَهن أريد

لكل حديثٍ بينهن بشاشةٌ * وكلُّ قتيلٍ بينهن شهيد

ومن كان فى حبِّ بُثَيْنةَ يمترِى * فبَرْقاءُ ذى ضالٍ علىَّ شهيد

ألم تعلمى يا أمَّ ذى الوَدْعِ أننى * أُضاحك ذكراكم وأنتِ صَلُود

بعثت أَمَةٌ لبثينة الى أبيها وأخيها وقالت لهما: إن جميلا عندها الليلة، فأتياها مشتملَين على سيفين، فرأياه جالسا منها حَجْرةً[(٤)] يحدِّثها ويشكو لها بَثَّه، ثم قال لها: يا بثينة، أرأيتِ ودّى إياك وشَغَفى بك ألا تَجزِينَنِيه؟ قالت: بماذا؟ قال: بما يكون من المتحابين، فقالت له: يا جميل، أهذا تبغى! والله لقد كنتَ عندى بعيدًا منه، ولئن عاودت تعريضا بريبةٍ لا رأيتَ وجهى أبدا! فضحك وقال: والله ما قلتُ لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه، ولو علمتُ أنك تجيبيننى لعلمتُ أنك تحبين غيرى، ولو رأيتُ منك مساعدةً لضربتُك بسيفى ما استمسك فى يدى، ولو أطاعتنى نفسى لهجرتُك هجرةَ الأبد، أو ما سمعتِ قولى:

وإنى لأرضَى من بُثَينةَ بالذى * لو ابصَرَه الواشى لَقَرّتْ بلابِلُهْ

بلا وبألا أستطيعَ وبالمُنَى * وبالأملِ المرجوّ قد خاب آملُه

وبالنَّظْرة العَجْلَى وبالحول ينقضِى * أواخرُه لا نلتقى وأوائلُه

(١) الفاثور: الخوان من رخام أو فضة أو ذهب. (٢) فى البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروى بالرفع والكسر. (٣) زاف: تبختر. (٤) أى ناحية.

فقال أبوها لأخيها : قم بنا، فما ينبغى لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها، فانصرفا وتركاهما .

ومن قول جميل :

إنّ المنازلَ هيّجتْ أطرابى * واستعجمَتْ آياتُها بجوابى
قفرًا تلوحُ بذى اللُّجينِ كأنّها * أنضاءُ رسمٍ أو سطورُ كتابِ
لما وقفتُ بها القَلُوصَ تبادرتْ * منى الدموعُ لفُرقة الأحباب
وذكرتُ عصرا يا بثينةُ شاقنى * وذكرتُ أيامى وشَرْخَ شبابى

لما نذر أهلُ بثينة دمَ جميل وأهدره لهم السلطان ضاقت الدنيا بجميل ، فكان يصعَد بالليل على قَوْز(١) رمل يتنسّم الريحَ من نحو حىّ بثينة ويقول :

أيا ريحَ الشَّمالِ أما تَرَيْنِى * أهيمُ وأننى بادِى النحولِ
هَبِى لى نَسْمةً من ريحِ بَثْنٍ * ومُنِّى بالهبُوب الى جميلِ
وقولى يا بثينةُ حَسْبُ نفسى * قليلُكِ أو أقلُّ من القليل

ومن قوله :

يَقيك جميلٌ كلَّ سوءٍ أما له * لديك حديثٌ أو اليك رسولُ
وقد قلتُ فى حُبِّى لكم وصَبابتى * محاسنَ شعرٍ ذكرُهن يطولُ
فان لم يكن قولى رضاك فعلّمِى * هبوبَ الصَّبا يابثْنُ كيف أقول
فما غاب عن عينى خيالُك لحظةً * ولا زال عنها والخيالُ يزول

ومنه :

خليلىّ عُوجَا اليومَ حتى تُسَلِّما * على عَذْبة الأنيابِ طيِّبةِ النَّشرِ
أَلِمَّا بها ثم اشفَعَا لى وسلِّما * عليها سَقَاها الله من سائغ القَطْرِ

(١) القوز : المستدير من الرمل ، وقال الأزهرى : إنه الكثيب المشرف

اذا ما دنتْ زِدتُ اشتياقًا وان نأتْ جَزِعتَ لنأى الدار منها وللبعد
أبى القلب إلا حبَّ بثنة لم يرد سواها وحبّ القلب بثنة لايجدى

وفيها يقول :

سلى الركبَ هل عُجْنا لَمغناكِ مرّةً صدورَ المطايا وهى مُوقَرةٌ تَخْدى (١)
وهل فاضتِ العينُ الشَّرُوقُ بمائها مِنَ اَجلكِ حتى اَخضَلَّ من دمعها بُرْدِى
وإنى لأَسْتجرِى لكِ الطيرَ جاهدًا لتَجْرِى بِيُمْنٍ من لقائِك أو سَعْدِ
وإنى لأستبكى اذا الركبُ غَرَّدوا بذكراك أن يحيا بك الركب إذ يَخْدى
فهل تجزِينِّى أمُّ عمرو بودّها فانّ الذى أُخفى بها فوق ما أُبدى
وكلّ محبٍّ لم يَزِدْ فوق عهده وقد زدتُها فى الحبّ منى على العهد

ومن قوله فيها :

لها فى سواد القلب حبٌّ ومنعةٌ هى الموتُ أو كادت على الموت تُشرِفُ
وما ذكرتْكِ النفسُ يا بَثْنُ مرة من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وإلا اعترتنى زَفْرةٌ واستكانةٌ وجاد لها سَجْلٌ من العين يَذْرِف
وما استطرفتْ نفسى أُسَرُّ به إلا حديثُك أَطْرَفُ

وأوّل هذه القصيدة :

منزِلٌ قَفْرٌ تعفّتْ شَمَالٌ تُغاديه ونكباءُ حَرْجَفُ (٢)
فأصبح قفرًا بعد ما كان آهلًا وجُمْلُ المُنَى تشتُو به وتُصَيِّف
ظَلِلتُ ومُسْتَنٌّ من الدمع هاملٌ من العين لما عُجْتُ بالدار ينزف
امنصفى جُمْلٌ فتَعدِلَ بيننا اذا حكمتْ والحاكم العدلُ يُنصف
تَعلقتُها والجسمُ منى مصحَّحٌ * فما زال يَنْمِى حبُّ جملٍ وأضعُفُ

(١) موقرة : محملة الوقر وهو الحمل . وخدى البعير يخدى : أسرع وزج بقوائمه .

(٢) الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .

الى اليوم حتى سُـلَّ جسمى وشَفَّنى * وأنكرتُ من نفسى الذى كنتُ أعرف
قَنَـاةٌ من المُرّان ما فوق حَقْوِها (١) * وما تحتــه منهـا نَقًـا يتقصَّــف (٢)
لهـا مُقلتا رِيم وجيـــدُ جَــدايةٍ (٣) * وكَشْحٌ كطىّ السابريّـــة أهيَفُ
ولستُ بناسٍ أهلَها حين أقبلوا * وجالُوا علينـا بالسيوف وطَوَّفوا
وقالوا جميـلٌ بات فى الحىّ عنـدها * وقد جَــرَّدوا أسـيافهم ثم وَقّفوا
وفى البيت ليثُ الغابِ لولا مخافةٌ * على نفس جمـــلٍ والإلهِ لأُرعِفوا
هَمَمتُ وقــد كادت مرارًا تطلّعتْ * الى حربهم نفسى وفى الكفّ مُرْهَفُ
وما سرّنى غيرُ الذى كان منهمُ * ومنى وقـــد جاءوا الىّ وأوجفوا
فـكم مُرْتَجٍ أمرا أُتيح له الرّدَى * ومن خائف لم ينتقِصْه التخوُّف

ومنهــا :

ألأن هَتَفتْ ورقاءُ ظِلْتَ سفاهةً * تُبَـكّى على جمـــلٍ لورقاء تهتِفُ
فلو كان لى بالصَّرْم ياصاحِ طاقةٌ * صَرَمتُ ولكنى عن الصرم أضعفُ

قيل : إن مروان طلب الى جميــل أن ينزل فيرجز به (٤)، وهو يريد أن يمدحه، فنزل جميل فقــال :

أنا جميلٌ فى السَّـنامِ الأعْظمِ * الفارعِ الناس الأعزِّ الأكرمِ
أحمِى ذِمَارى ووجدتُ أَقْرُمى (٥) * كانوا على غاربِ طَوْدٍ خِضْرِمِ (٦)
* أعيـا على الناس فلم يُهَـدّم *

فقال : عَدِّ عن هذا، فقال جميل :

لهفا على البيت المَعَـدّى لهفَا * من بعـد ماكان قد استكفّا
ولو دعا اللهَ ومـدَّ الكفا * لرَجَفت منـه البـلادُ رجفا

(١) الحقو : الخصر . (٢) يتقصف : يتميل و يتقطع بعضه عن بعض . (٣) الجداية : الغزالة . والسابرى : ثوب من أجود الثياب منسوب الى سابور على غير قياس . (٤) يرجز به : ينشده أرجوزة . (٥) أقرم : جمع قرم (بالفتح) وهو السيد العظيم . (٦) خضرم : عظيم .

وطلبَ ذلكَ اليه الوليد فقالَ :

أنا جميل فى السَّنام من مَعَدّْ * فى الذروة العلياء والركن الأشدّْ

والبيت من سعد بن زيد والعَدَدْ * ما يبتغى الأعداءُ منى، ولقد

أضرِىَ بالشّتم لسانِى ومَرَدْ * أقودُ من شئتُ وصَعْبٌ لم أُقَدْ

فقال له الوليد : اِركبْ لاحملك الله! وما مدح جميل أحدا قط .

ومن قول جميل فى مُراجزة جَوّاس بن قُطْبَة، وكان ذلك بوادى القُرَى :

يا أمّ عبد المَلِكِ اصرِمينى * فبيّنِى صرمِىَ أو صِلِينى

أبكى وما يُدريكِ ما يُبكينى * أبكى حِذارَ أن تُفارقينى

وتجعلى أبعدَ منّى دونى * إن بنى عمّك أوعدونى

أن يقطعوا رأسى اذا لَقُونى * ويقتلونى ثم لا يَدُونى[1]

كلا وربِّ البيت لو لَقُونى * شفعًا ووترًا لتَوَاكلونى[2]

قد علم الأعداء أنّ دونى * ضربًا كايزاغ[3] المَخاض الجُونِ

ألا أسبّ القومَ إذ سبُّونى * بَلَى وما مَرّ على دفين

وسابحاتٍ بِلِوَى الحَجُونِ * قد جرّبونى ثم جرّبونى

حتى اذا شابوا وشيّبونى * أخزاهمُ الله ولا يَخزُونى

أشباه أعيارٍ على مَعِينِ * أحسسنَ حِس أسدٍ حَرونِ

فهنّ يَضرِطنَ من اليقينِ * أنا جميل فتعرّفونى

وما تقنّعتُ فتنكرونى * وما أُعنّيكم لتسألونى

(١) يدونى : من الدية وهى مايعطى لولىّ القتيل من المال بدل النفس . (٢) تواكلونى : تركونى

(٣) أوزغت الناقة ببولها : رمت به دفعة دفعة . ومنه الطعنة توزغ بالدم أى ترمى به كذلك .

أَنَّى الى عادِيَةٍ طَحُونِ * يَنشقُّ عنها السيلُ ذو الشؤونِ
غَمْرٍ يُزِفُّ(١) رُجَحَ السَّفينِ * ذو حَدَبٍ(٢) اذا يُرَى جَجُونِ(٣)
* تحلّ أحقادُ الرجال دونى *

ومن قوله يمدح أخواله من جُذام :

جُذامُ سيوفُ الله فى كلّ مَوْطن * اذا أَزِمت(٤) يوم اللقاء أَزامِ
هُمُ منعوا ما بين مِصر فذى القُرَى * الى الشأم من حِلٍّ به وحَرامِ
بضَرْبٍ يُزيل الهامَ عن سَكَناته * وطَعْنٍ كإيزاغ المخاض تُؤَام
اذا قصُرَتْ يوما أكُفُّ قبيلةٍ * عن المجد نالتْهُ أكفُّ جُذامِ

اِجتمع جميل وعمر بن أبى ربيعة بالأبطح، فأنشده جميل قصيدتَه :

لقد فَرِحَ الواشُون أن صَرَمتْ حَبْلِى * بُثَيْنَةُ أو أَبْدَتْ لنا جانبَ البُخل
يقولون مَهْلًا ياجَميل وإننى * لَأُقسِم ما بى عن بُثَيْنَةَ مِن مَهْلِ
أَحِلْمًا فقَبْلَ اليوم كان أوانُهُ * أمَ اخْشَى فقبل اليومَ أُوعِدْتُ بالقتل
لقد أنكحوا حَرْبى نُبَيْهًا ظَعِينة * لطيفةَ طىّ البطن ذات شَوًى جَزْل
وكم قد رأينا ساعيًا بنميمةٍ * لآخر لم يَعمِد بكفٍّ ولا رجلِ
اذا ما تَراجَعْنا الذى كان بيْننا * جَرَى الدمعُ من عَيْنَىْ بثينة بالكُحْل
كِلانا بَكَى أو كاد يَبْكِى صَبابةً * الى إلفِه واسْتَعْجَلتْ عَبْرَةٌ قبلى
فلو تركتْ عقلى معى ما طلبتُها * ولكن طِلَابِيها لِمَا فاتَ من عقلى
فَيَاوَيْحَ نَفْسى حَسْبُ نفسى الذى بها * ويا ويحَ أهلى ما أُصِيبَ به أهلى
وقالتْ لأترابٍ لها لا زَعانف * قِصارٍ ولا كُسٍّ(٥) الثنايا ولا ثُعْلِ

(١) يزف : يجعلها تسرع . (٢) ذو حدب : ذو موج . (٣) ججون : معوج
(٤) أزمت : اشتدت . (٥) الكسس محركة : قصر الأسنان أو صغرها أو لصوقها بسنوخها
ونعلت سنه ولثته فهى ثعلاء : تراكبت أسنانها .

اذا حَمِيتْ شمسُ النهار ٱتقينَها * بأكسية الديباج والخَزِّ ذى الخَمْلِ
تداعَيْن فاسْتَعْجمن مَشياً بذى الغَضَى * دَبِيبَ القَطَا الكُدْرِىّ فى الدَّمثِ السهل
اذا ٱرتعنَ أو فُزِّعن قُمْنَ حَوَالَهَا * قيامَ بنات الماء[1] فى جانب الضَّحْل[2]
أجِدَّك لا ألْقَى بُثَيْنَةَ مرّةً * مِن الدّهر إلا خائفا أو على رِجْل
خليلىّ فيما عِشْتُمَا هل رأيتما * قتيلاً بكى من حبّ قاتِله قبْلى
أبِيتُ مع الهُلّاك[3] ضَيفًا لِأهلها * وأهلى قريب مُوسِعون ذَوُو فضل
ألا أيها البيْتُ الذى حِيل دونه * بِنَا أنتَ من بيْتٍ وأهلُكَ من أهلى
ثلاثةُ أبياتٍ فبيتٌ أُحبّه * وبيْتان ليسا من هَوَاى ولا شَكْلى

وقال فى هِجرةٍ هجرته إياها بثينة :

ألم تَسْأل الرَّبْعَ القَوَاء فينطِقُ * وهل تُخْبِرَنْك اليومَ بيْداءُ سَمْلَقُ[4]
وقفتُ بها حتى تجلّت عَمايَتِى * ومَلّ الوقوفَ الأرْحَبِىُّ[5] المُنَوَّق
تَعَزّ وإن كانت عليك كريمةً * لعلّك من رِقّ لبَثْنَةَ تُعْتَق
لَعَمْرُكم إن البِعادَ لَشائِقِى * وبعضُ بعادِ البيْن والنأى أشوق
لعلّك محزونٌ ومُبْدٍ صبابةً * ومُظْهِرُ شكوى من أُناسٍ تفرّقوا
وبِيضٍ غَرِيراتٍ تُثَنَّى خصورَها * اذا قُمْن أعجازٌ ثِقالٌ وأسْوُق
غَرائِرُ لم يلقَيْن بُؤسَ معيشة * يُجَنّ بِهنّ الناظرُ المتنوّق
وغلغلتُ من وجد إليهنّ بعد ما * سَرَيْتُ وأحشائى من الخوف تَخْفُق
معى صارمٌ قد أخلَص القَيْنُ صَقْلَه * له حين أُغشِيه الضَّرِيبةَ رَوْنق
فلولا ٱحتيالى ضِقْن ذَرْعًا بزائرٍ * به من صَبابات إليهن أوْلَق[6]

(١) بنات الماء : ما يألف الماء من السمك والطير والضفادع (أنظر المضاف والمضاف اليه) .

(٢) الضحل : الماء القليل على الأرض لا عمق له . (٣) الهلاك : الصعاليك . (٤) السملق القاع الصفصف . (٥) الأرحبي : الفحل النجيب نسبة الى أرحب وهى قبيلة من همدان تنسب اليها النجائب الأرحبية . والمتوق : المحسن المزين . (٦) أولق : جنون .

تَسُوكُ بقُضبان الأراكِ مُقَلّجا * يُشَعْشَعُ فيه الفارسىّ المُرَوّق

أبثنة للوصل الذى كان بيننا * نضا مثل ما ينضو الخضاب فيَخْلُق

أبثنة ما تنأين إلا كأنّنى * بنجم الثريا ما نأيتِ مُعَلَّق

قال الرشيدُ لإسحاق الموصلىّ : أنشدنى أحسنَ ما تحبّ فى عتاب مُحِبّ وهو ظالم متعتِّب ، فأنشده قولَ جميل :

رِدِ الماءَ ما جادَتْ بصَفْوٍ ذَنَائبُه * ودَعْه اذا خِيضَتْ بطَرْقٍ[1] مَشارِبُه

اعاتِبُ من يحلُو لدىّ عتابُه * وأترُكُ من لا أشتهى وأُجانِبُه

ومن لذّةِ الدنيا وإن كنتَ ظالمًا * عناقُك مظلومًا وأنتَ تعاتِبُه

ومن قوله فى زيارة له :

زُورَا بثينةَ فالحبيبُ مَزُورُ * إن الزيارة للمحبّ يسيرُ

إن الترحّل أن تلبّس أمرُنا * وأعتاقنا قدَرٌ أحَمُّ بكُور

إنى عشيّةَ رُحْتُ وهى حزينةٌ * تشكو الىّ صبابةً لصَبُور

وتقول بِتْ عندى فديتُك ليلةً * أشكو اليك فإن ذاك يَسير

غَرّاءُ مِبْسامٌ كأنّ حديثها * دُرٌّ تَحَدّر نَظْمُه منثور

مَخطُوطةُ المَتنَين[2] مُضمَرةُ الحَشَى * رَيّا الروادِف خَلْقُها مَمْكُور

لا حُسْنها حُسْنٌ ولا كدلالها * دَلٌّ ولا كوقارها توقير

إن اللسانَ بذكرها لَمُوَكَّلٌ * والقلبُ صادٍ والخواطِرُ صُور

ولئن جَزَيْتِ الودَّ منّى مثلَه * إنى بذلك يا بُثَين جَدير

وعذله فيها ابن عمه رَوْق ، فقال :

لقد لامنى فيها أخٌ ذو قَرَابةٍ * حبيبٌ إليه فى مَلامته رُشْدى

وقال أفِقْ حتى متى أنتَ هائمٌ * ببثنة فيها قد تُعيد وقد تُبْدى

(١) الطرق : الماء الذى خوضته الابل وبولت فيه وبعرت .

(٢) مخطوطة المتنين : ممدودتهما . والممكورة : المطوية الخلق .

فقلتُ له فيهـا قضى اللهُ ما ترى * عليّ وهـل فيما قضى اللهُ من رَدّ
فإن يَكُ رُشْـدًا حبّها أو غَوايةً * فقد جئتُه، ما كان منّى على عَمْد
لقد لجّ ميثاقٌ من الله بيننا * وليس لمن لم يُوفِ لله من عَهْد
فلا وأبيها الخَيْرِ ما خنتُ عهدَها * ولا لِيَ عِلمٌ بالذى فعلتْ بعـدى
وما زادها الواشُـون إلا كرامةً * عليّ وما زالت مَودّتُها عنـدى
أفى الناس أمثالى أحَبَّ فحَالُهم * كحالى أم أحْبَبْتُ من بينهم وحدى
وهل هكذا يَلْقى المحبّون مثل ما * لَقِيتُ بها أم لم يَجِد أحدٌ وجدى

وقال فيهـا :

خليـلىّ عُوجا اليومَ حتى تُسَـلّما * على عَذْبة الأنيابِ طيّبَـةِ النَّشْر
ألِمّـا بها ثم اشْـفعا لِى وسَلّمـا * عليها سَـقَاها اللهُ من سائغ القَطْر
وبُوحا بذكرى عنـد بثنة وانظُرا * أترتاح يومًا أم تَهَشّ الى ذكرى
فإن تك لم تقطع قُوَى الودّ بيننا * ولم تَنْس ما أسلفتُ فى سالف الدّهر
فكيف(١) يُرَى منها اشتياقٌ ولوعـةٌ * ببَيْنٍ وغَرْبٌ من مدامعها يجرى
وإن تَكُ قد حالَت عن العهد بعدَنا * وأصغتْ الى القول المؤنِّب والمُزْرى
فسوف يُرَى منها صُدودٌ ولم تكن * ـ بنَفْسىَ ـ من أهل الخيانة والغدر
أعوذُ بك اللّهُمّ أن تَشحَط النّوى * ببثنة فى أدنى حياتى ولا حَشْرى
وجَاوِرْ اذا ما مِتُّ بينى و بينهـا * فيا حبّذا مَوْتِى اذا جاوَرتْ قبرى
عدِمتُكَ من حبٍّ أمَا منك راحةٌ * وما بك عنّى من تَوانٍ ولا فَتْرِ
ألا أيها الحبُّ المبرّحُ هل ترى * أخا كَلَفٍ يُغْرِى بحبٍّ كما أُغْرِى
أجِدّكَ لا تَبْلَى وقد بَلِى الهوى * ولا ينتهى حبّى بثينةَ للزّجْر

(١) هكذا وردت «فكيف» ولعلها فسوف ليستقيم بها السياق

ومن قوله فيها :

قِفى تَسْلُ عنك النفسُ بالخُطّة التى * تُطيلين تخويفى بها ووعيـدى
فقد طالمـا من غير شكوى قبيحةٍ * رَضينا بحكم منك غيرِ سَـديد

ومنــه :

بُثَـيْنَ سَـلِينى بعضَ مالى فإنما * يُبيَّنُ عند المـال كلُّ بخيل
فإنى وتَكْرارَ الزيارة نحوكم * لَبَيْنَ يَدَىْ هَجْـرٍ بُثَيْنَ طويل
فياليت شعرى هل تقولين بعدنا * اذا نحن أزْمعنا غدًا لرحيل
ألا ليْت أياما مَضَيْن رواجِعٌ * وليت النّوى قد ساعدت بجميل

ومنــه :

أتعْجَبُ أن طرِبْتُ لصوتِ حَادِ * حدا بُزْلًا يَسِرْن ببَطْنِ واد
فلا تعجبْ فإن الحبَّ امسى * لبثنة فى السّواد من الفؤاد

ومنــه :

خليلىّ عوجَا بالمحَلّة من جُمْـل * وأتْرابها بين الأُصَيفر والخبل
نقِفْ بمغـانٍ قد محا رسمَها البِلى * تُعاقِبُهـا الأيامُ بالرّيح والوبْـل
فلو دَرَجَ النملُ الصِغارُ بِجِـلدها * لأندَبَ أعلى جلدها مَدْرَجُ النمل
وأحْسَنُ خَلْق الله جِيدًا ومُقْلةً * تُشَبَّه فى النّسوان بالشّادِن الطّفْل (١)

ومن قوله :

أمِنْكِ سرى يا بَثْنَ طَيفٌ تأوّبا * هُدُوًّا فهاج القلبَ شـوْقًا وأنْصَبا
عجِبتُ له أن زارَ فى النوم مَضْجَعِى * ولو زارنى مُسْتَيقِظًا كان أعجبا

لمـا قدِم جميـل من الشأم بلغ بثينةَ خبرُه ، فرَاسلته مع بعض نساء الحىّ تذْكُرُ شوقَها اليه ووجدَها به ، وطَلَبها للحيـلةَ فى لقائه ، وواعَدَته لموْضِعٍ يلتقيان فيه ، فسار إليها وحدّثها

(١) الطفل : الرخص الناعم من كل شيء .

طويلًا وأخبرها خبره بعدها ، وقد كان أهلُها رَصَدوها ، فلما فقَدوها تَبِعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما ، فوثَب جميلٌ فانتَضى سيفَه وشدّ عليهما ، فاتّقَياه بالحرب ، وناشدَتْه بثينة اللهَ إلّا انصرفَ ، وقالت له : إن أقمْتَ فضحتنى ، ولعلّ الحىَّ يلحقونك ، فأبى وقال : أنا مقيم وامضى أنتِ وليصنعوا ما أحبّوا ، فلم تزل تناشِده حتى انصرف وقال فى ذلك ، وقد هجرته وانقطع التلاقى بينهما مدّة :

هى البدرُ حُسْنًا والنساءُ كواكبٌ * وشتّان ما بين الكواكب والبدر

لقد فُضّلتْ حسناً على الناس مثل ما * على ألف شَهْرٍ فُضّلت ليلةُ القَدْر

وقال :

لقد خِفتُ أن يغتالنى الموتُ عَنْوَةً * وفى النفس حَاجاتٌ اليك كما هِيَا

وإنى لتُثْنِينى الحفِيظةُ كلّما * لقيتُك يوما أن أبُثَّك ما بِيَا

ألم تعلمى ياعذْبَةَ الرِّيق أننى * أظَلّ اذا لم أُسْقَ ريقَك صَادِيا

ورحل الى مصر فادركته بها منيّتُه ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاةُ :

صَدَع النَّعِيُّ وما كَنَى بجميل * وثوى بمصر ثَوَاءَ غيرِ قُفُولِ

ولقد أجُرّ الذيْلَ فى وادى القُرى * نَشْوانَ بين مَزارع ونخيل

قومى بثينة فاندُبى بعَوِيل * وابكى خليلَكِ دون كلّ خليل

ولما أنشِدت بثينةُ قولَ جميلٍ قالت :

وإن سُلُوّى عن جميلٍ لساعةٌ * من الدّهر ماحانت ولا حان حِينُها

سَواءٌ علينا يا جميلُ بن مَعْمَرٍ * اذا متّ بأْسَاءُ الحياةِ ولِينُها

وقال :

رحَلَ الخلِيطُ بجِمالهم بسُواد * وحَدَا على أثَرِ البخِيلة حادى

ما إن شَعَرتُ ولا سَمِعتُ ببَيْنِهم * حتى سمعت به الغرابَ ينادى

لمّا رأيتُ البَينَ قلتُ لصاحبي * صَدَعَتْ مُصَدِّعةُ القلوبِ فؤادى
بانوا وغُودِرَ فى الديار مُتَيَّمٌ * كَلِفٌ بذكركِ يا بُثَيْنةُ صادى

وقال أيضا :

خليليَّ هل فى نظرة بعد توبةٍ * أُداوِى بها قلبى علَىَّ فُجُورُ
إلى رُجَّحِ الأكفالِ هِيفٍ خُصورُها * عِذابِ الثَّنايا رِيقُهُنَّ طَهُورُ
تذكَّرتَ مَن أضحَتْ قُرَى اللُّدِّ(١) دونَه * وهَضْبٌ لِتَيْمَا والهِضابُ وعُورُ
فظَلَّتْ لِعَيْنَيْكَ الْجُوجَيْنِ عَبْرةٌ * يُهَيِّجُها بَرْحُ الهَوَى فتَمُورُ
على أنى بالبَرْق من نحو أرضها * إذا قَصُرَتْ عنه العيون بَصِيرُ
وإنى إذا ما الريحُ يوما تَنَسَّمَتْ * شآمِيَّةً عادَ العِظامَ فُتُورُ
ألا يا غُرابَ البَيْنِ لَوْنُك شاحبٌ * وأنتَ بِرَوْعاتِ الفراق جَدِيرُ
فإن كان حقًّا ما تقول فأصبحت * همومُك شتَّى والجَناحُ كَسِير
ودُرْتَ بأعداء حَبِيبك فيهم * كما قد تَرانى بالحبيب أدُورُ
وكيف بأعداء كأنّ عيونهم * إذا حان إتيانى بُثَينة عُور
فإنى وإن أصبحت بالحبِّ عالما * على ما بعَيْنِي من قَذًى لَخَبير

وله أيضا :

فلو أرسلتْ يوما بثينةُ تَبْتَغِى * يمينى ولو عَزَّت علىَّ يمينى
لأَعْطَيْتُها ما جاء يَبْغِى رسولُها * وقلت لها بعد اليمين سَلِينِى
سَلِينِى مالى يا بُثَيْنَ فإنما * يُبَيَّنُ عند المال كلُّ ضَنِين
فما لكِ لَمَّا خَبَّر الناسُ أننى * أسأتُ بظَهْر الغيب لم تَسَلِينِى
فأُبْلِيَ عُذْرا أو أجىءَ بشاهد * من الناس عَدْلٍ أنهم ظلمونى
ولستُ وإن عَزَّت علىَّ بقائل * لها بعد صرمٍ يا بثين صِلِينِى

(١) اللد بالضم والتشديد : قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين .

وَنُبِّئْتُ قوما فيك قد نَذَرُوا دَمِى * فليتَ الرجال المُوعِدين لَقُونى
إذا ما رَأَوْنِى مُقْبِلًا عن جَنابةٍ * يقولون مَنْ هذا وقد عَرَفُونى

وله أيضا :

تَنَادى آلُ بَثْنَــة بالرَّواح * وقد تَرَكُوا فؤادَك غيرَ صَاحِ
فيالَكَ مَنْظَرًا ومَسِيرَ رَكْبٍ * شَجَانى حين أَمْعَن فى الفَيَاح
ويالَكِ خُلّةً ظَفِرتْ بعقلى * كما ظَفِرَ المُقَامِر بالقِــداح
أريد صـلاحها وتريد قتلى * فَشَتَّى بين قَتْلِى والصلاح
لَعَمْرُ أبيكِ لا تَجِدِين عَهْدى * كَعَهْدِك فى المَوَدّة والسَّماح
ولو أرسلتِ تستهدين نفسى * أتاكِ بها رَسُولُكِ فى سَرَاح

وله أيضا :

فإن يَكُ جُثْمانِى بأرض ســواكم * فإنّ فؤادى عنـدكِ الدَّهْرَ أجمعُ
إذا قلت هذا حِينَ أسلو وأَجْتَرِى * على صرمها ظَلّت لها النَّفْسُ تَشْفع
وإنْ رُمْتُ نفسى كيف آتِى لِصَرْمها * ورُمْتُ صدودا ظَلّت العينُ تَدْمَعُ

وله أيضا :

ألم تعلمى يا عــذْبة المــاء أننى * أَظَلُّ إذا لم أُسْقَ ماءكِ صاديا
وما زلتِ بى يا بَثْنُ حتى لَوَ انّنى * من الوجد أَسْتَبْكِى الحَمامَ بَكَى ليا
ودِدْتُ على حُبِّ الحيــاةِ لوَ انّها * يُزَاد لها فى عمرها من حياتيا

وله أيضا :

وقلتُ لهــا ٱعتَلَلْتِ بغير ذنب * وشَرُّ الناس ذو ٱلعلل البخيلُ
فَفَاتِينى إلى حَكَم من ٱهلى * وأَهْلِكِ لا يَحِيف ولا يميــل
فقالت أَبْتغى حَكَمًا من ٱهــلى * ولا يَدْرِى بنا ٱلواشى المَحُول
فَوَلَّيْنــا الحُكومةَ ذا سُجوف * أخا دُنْيا له طَرْفٌ كليل

فقلنا ما قَضَيْتَ به رَضِينا * وأنت بما قَضَيْتَ به كفيل
قضاؤك نافذ فاحكم علينا * بما تَهْوَى ورأيك لا يَفيل
فقلت له قُتِلْتُ بغير جُرْمٍ * وغِبُّ الظلم مَرْتَعُه وَبِيل
فَسَلْ هذِى متى تَقْضِى دُيونى * وهل يقضيك ذو العِلَلِ المطُول
فقالت إن ذا كَذِبٌ وبُطْلٌ * وشَرٌّ من خُصومَته طويل
أأقتلُه ومالى من سلاح * وما بى لو أُقاتِله حَوِيل (١)
ولم آخُذْ له مالا فَيُلْفَى * له دَيْنٌ عَلَيَّ كما يقول
وعند أميرنا حُكْمٌ وعدل * ورَأْىٌ بعد ذلكمُ أصيل
فقال أميرُنا هاتوا شهودا * فقلت شهيدُنا الملك الجليل
فقال يَمِينَها وبذاك أَقْضِى * وكلُّ قضائه حَسَنٌ جميل
فَبَتَّتْ حَلْفَةً ما لى لديها * نَقِير أدَّعيه ولا فَتِيل
فقلتُ لها وقد غُلِبَ التَّعزِّى * أما يُقْضَى لنا يا بَثْن سُول
فقالت ثم زَجَّتْ حاجبيها * أطَلْتَ ولستَ فى شىء تُطيل
فلا يَجِدَنَّك الأعداءُ عندى * فَتَثْكَلَنِى وإياك الثَّكُول

وله أيضا :

حَلَفْتُ يمينًا يا بُثَينةُ صادقا * فإن كنتُ فيها كاذبا فَعَمِيتُ
إذا كان جِلْدٌ غير جِلْدِك مَسَّنِى * وباشَرَنى دُونَ الشِّعار شَرِيتُ (٢)
ولو أن راقِى الموت يَرْقِى جَنازتى * بمَنْطِقِها فى الناطقين حَيِيت

وقال أيضا :

فقد لانَ أيامُ الصِّبا ثُمَّ لم يَكَدْ * مِن الدهر شىءٌ بعدهنّ يَلِينُ
ظعائن ما فى قُرْبِهِنَّ لذى هَوًى * من الناس إلا شِقْوَةٌ وفُتُونُ

(١) الحويل : القوة والحذق والقدرة على التصرف . (٢) يقال : شرى جلده : خرج عليه الشرى ، وهو بثور صغار حمر حكاكة مكربة تحدث دفعة واحدة غالبا وتشتد ليلا لبخار حارّ يثور فى البدن دفعة .

وواكَلْنَه والهَــمَّ ثم تركنَه * وفى القلب مِن وَجْدٍ بهنّ رَهِين
فَوَاحَسْرتا إن حِيلَ بينى وبينها * ويا حَيْنَ نفسى كيف فيك تَحِين
فَشَيَّب رَوْعاتُ الفِراق مَفارِقى * وأَنشَزْن نفسى فوقَ حيثُ تكون
شَهِدْت بأنّى لم تَغَـيّرْ مودّتى * وأنى بكم حتّى المماتِ ضَنِين
وأنّ فؤادِى لا يلين الى هَـوًى * سِواكِ وإن قالوا بَلَى سَيَلِين
وإنى لأسْتَغْشِى وما بى نَعْسةٌ * لعَـلّ لِقاءً فى المنام يكون
ولمّا علَوْتُ اللّابتَين تَشَـوّقت * قلوب الى وادى القرى وعيون
كأنّ دموع العـين يومَ تَحمّلَتْ * بُثَيْنةُ يَسقِيها الرَّشاشَ مَعِين
ورُحْنَ وقد ودَّعْنَ عندى لُبانةً * لِبَثْنةَ سِـرٌّ فى الفـؤاد كَمِين
كَسِرٍّ الثَّرَى لم يعلِم الناسُ أنّه * ثَوَى فى قرار الأرض وهْوَ دَفِين
فإنْ دام هذا الصرمُ منكِ فإنّنِى * لأَغْبَرُ هارِى الجانبين رَهِين
لكيما يقول الناس مات ولم أهُنْ * عليكِ ولم تَنْبَتّ منـكِ قُرون

(ج) الغــــزل الصناعى

(١)
كثيِّر

قال أبو الفرج قال محمد بن عبد العزيز : ما قَصّد القصيدَ ولا نَعَت الملوكَ مثل كُثَيِّر. وقال إبراهيم بن سعد : إنى لأَروِى لكثيِّر ثلاثين قصيدة لو رُقِىَ بها مجنونٌ لأفاق ، وكان بعضُ أصحابِ الحديث يأتونه ، وهو خبيث النفس ، فيسألونه عن شعر كثيِّر فتطيبُ نفسُه ويحدّثهم . وقال عبد الله بن أبى عُبَيْدَة : من لم يجمع من شعر كثيِّر ثلاثين لاميّةً فلم يجمع شعره . وكان ابن أبى عبيدة يُمْلِى شعره بثلاثين دينارا . وسُئِل مُصْعَب : مَنْ أشعر الناس؟ فقال : كثيِّر بن أبى جُمْعَة ، وقال : هو أشعر من جرير والفرزدق والرّاعى وعامّتهم ، يعنى الشعراء . ولم يُدرك أحدٌ فى مديح الملوك ما أدرك كثيِّر . وقال محمد بن سلّام : كان كثيِّر شاعرَ أهل الحجاز ، وهو شاعرٌ فحل ولكنّه منقوصٌ حظُّه بالعراق . وقال يونس النحوىّ : كثيِّر أشعر

(١) هو كثير بن عبد الرحمن من خزاعة ، ويعرف بكثير عزة ، نسبة إلى عشيقته التى كان يشبب بها . وكان يدخل على عبد الملك وينشده ، وكان رافضيا شديد التعصب لآل أبى طالب ، وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا ينكره ، فاذا أراد أن يصدقه بشىء حلفه بعلىّ . وكان له صديق اسمه خندق الأسدىّ ، شديد التشيع مثله ، وبلغ من جرأة خندق هذا أنه وقف مرة فى الموسم والناس مزدحمون وقال : «أيها الناس ، إنكم على غير حق ، قد تركتم بيت نبيكم والحق لهم وهم الأئمة» فوثب عليه الناس ، فضربوه ورموه حتى قتلوه ، ودفن حندق بقنونا ، فقال إذ ذاك كثير يرثيه .

أصادرة حجاج كعب ومالك * على كل عجلى ضامر البطن محنق

بمرثيـــة فيها ثناء محبر * لأزهر من أولاد مرة معرق

والقصيدة طويلة . أما معشوقته عزة فهى بنت حميد بن وقاص من ضمرة ، وكانت من أجمل النساء وآدبهن وأعقلهن . ويقال إنه لم يرلها وجها إلا أنه استهيم بها قلبه لما ذكر له عنها . وعاتبه بعض أهلها فقالوا : «قد شهرت نفسك وشهرت صاحبتنا فاكفف نفسك» فقال : «إنى لا أذكرها بما تكرهون» .

واتفق خروجهم الى مصر فى عام الجلاء ، فتبعهم على راحلته فرجروه فأبى إلا أن يلحقهم ، فتربص له بعضهم فى بعض الطريق وقبضوا عليه وجعلوه فى جيفة حمار وربطوها عليه فمر به صديقه حندق فأطلقه وألحقه ببلاده . وكان كثير دميما قليلا أحمر أفيشر عظيم الهامة قبيحا . وأكثر أشعاره فى عزة هذه . توفى سنة ١٠٥ هـ ، وأخباره كثيرة تجدها فى الأغانى (ج ١١ ص ٤٦) و(ج ٨ ص ٢٧) و(ج ٧ ص ٧٨) والشعر والشعراء (ص ٣١٦) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٣) والعقد الفريد (ج ١ ص ١١٥ و٢٠٣) وخزانة الأدب (ج ٢ ص ٣٨١) وله ديوان شرحه أبو عبد الله الرشيدى منه نسخة خطية فى الاسكوريال .

أهل الإسلام،وكان ابن أبى حفصة يعجبه مذهبُه فى المديح جدا،ويقول: كان يستقصى المديحَ ، وكان فيه مع جودة شعره خَطَل وعُجب. وقال المِسْوَر بن عبد الملك: ما ضرّ من يروى شعر كثيّر وجَميل ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان .

وكان قصيرا، قال الوَقّاصى : رأيتُ كثيّرا يطوف بالبيت،فمن حدّثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذّبه . وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروانَ يقول : طَأْطِىء رأسَك لا يُصبه السّقف . وقال كثيّر : فى أى شىء أعطى هؤلاء الأحْوَصَ عشرةَ آلاف دينار ؟ قالوا : فى قوله فيهم :

وما كان مالى طارِفًا من تجارةٍ * وما كان ميراثا من المال مُتْلَدَا

ولكن عطايا من إمامٍ مبارَكٍ * مَلَا الأرضَ معروفا وجُودا وسُوددا

فقال كثيّر : إنه لضَرِعٌ قَبحه الله! ألا قال كما قلت :

دع عنك سَلْمَى إذ فات مَطْلبُها * واذكر خَلِيلَيْك من بنى الحَكَمِ

ما أعطيانى ولا سألتُهما * ألّا وإنّى لحَاجزى كَرَمى

إنى متى لا يكن نوالُهما * عندى بما قد فعلتُ أحتَشِم

مُبْدِى الرِّضا عنهما ومنصرِفٌ * عن بعض ما لو فعلتُ لم أُلَمِ

لا أَنْزُر النائلَ الخليلَ اذا[(1)] * ما اعتلّ نَزْر الظُّؤُور لم تَرِم

وطلب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أرضًا له يقال لها : غُرّب، وقدّم بين يدىْ طلبِه تلك الأبياتَ :

جَزَتْك الجوازى عن صديقك نَضْرةً * وأدناك ربّى فى الرفيق المقرَّب

فإنك لا يُعطَى عليك ظُلامةً * عدوٌ ولا تنأى عن المتقرِّب

وإنك ما تمنَعْ فإنك مانِعٌ * بحقّ وما أعطيتَ لم تتعقّب

فقال له : أترْغَب غُرَّبا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، قال : اكتبوها له ، ففعلوا .

---

(١) يقول : لا ألح عليه بالمسألة ؛ يقال : نزرته أنزره اذا ألحت عليه . والظؤور : العاطفة على أولاد غيرها . ولم ترم : لم ترأم .

ونُسِبَ كثيِّر لكثرة نسيبه بعزّة الضَّمْريّة اليها، وعُرِف بها فقيل : كثيِّر عزة، وهى عزّة ٱبنة حميد بن وقّاص. وكان ٱبتداء عشقه إياها أنه مر بنسوة من بنى ضَمْرة ومعه جَلَب غنم، فأرسلن اليه عزّة وهى صغيرة، فقالت : يقلن لك النسوةُ : بِعْنا كَبْشًا من هذه الغنم وأنسِئنا بثمنه الى أن ترجع، فأعطاها كبشا، وأعجبته، فلما رجع جاءته امرأة منهنّ بدراهمه؛ فقال : وأين الصَّبِيَّة التى أخذت منى الكبش ؟ قالت : وما تصنع بها وهذه دراهِمُك ؟ قال : لا آخذ دراهمى إلا ممن دفعتُ الكبش اليها، وخرج وهو يقول :

قَضَى كلُّ ذى دين فوفّى غَريمَه * وعزّةُ ممطولٌ مُعَــنًّى غريمُهـا

فكان أوّل لقائه إياها . ثم قال فيها :

نظـرتُ اليهـا نظــرةً وهى عاتِقٌ * على حين أن شَبّت وبان نُهُودُها
وقد دَرّعوها وهى ذات مُؤَصَّــدٍ[(١)] * مَجُوبٍ ولمّـا يلبَس الدِّرْعَ رِيدُها
من الخَفِـرات البِيض ودّ جَليسُها * اذا ما ٱنقضت أُحْدُوثةٌ لو تُعِيــدها
نَظـــرتُ اليها نظـــرة ما يسرُّنى * بها حُمْــرُ أنعام البــلاد وسُــودها
وكنتُ اذا ما جئتُ سُعدى بأرضها * أرى الأرضَ تطْوَى لى ويدنو بعيدها

ثم أحبّته بعد ذلك عزّة أشدّ من حبّه إياها .

قال محمد بن صالح الأسْلَمِىّ : دخلت عزّة على عبد الملك بن مروان وقد عَجَزَت ؛ فقال لها : أ أنتِ عزّة كثيِّر؟ فقالت : أنا عزّة بنت حميد؛ قال : أنت التى يقول لك كثيِّر:

لعَــزّة نارٌ ما تبوخ[(٢)] كأنهـا * اذا مارَمَقناها من البعد كَوْكَبُ

فما الذى أعجبه منك ؟ قالت : كلا يا أمير المؤمنين، لقد كنتُ فى عهده أحسن من النار فى الليــلة القَرّة . ويُروى أنها قالت له : أعجبَه منى ما أعجب المسلمين منــك حين صيّروك خليفةً، وكانت له سِنٌّ سوداء يخفيها، فضحك حتى بدت، فقالت له : هذا الذى أردتُ أن أبديه؛ فقال لها : هل تَرْوِين قوله :

(١) مؤصد : ٱلبس الأصدة (بالضم) وهى قميص صغير يلبس تحت الثوب . والمجوب : القميص ذو الجيب والرِّئد (يهمز ولا يهمز) : الترب . (٢) تبوخ : تخمد .

وقد زَعَمتْ أنى تغيّرت بعدها * ومن ذا الذى يا عزّ لا يتغيّر
تغيّر جسمى والخليقةُ كالتى * عهدتِ ولم يُخبَر بسرك مُخبَر

قالت : لا أروى هذا، ولكنى أروى قولَه :

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضَتْ * من الصُّم لو تمشى بها العُصْمُ زَلّت
صَفُوحًا فما تلقاك إلا بخيلةً * فمن مَلّ منها ذلك الوصلَ مَلّت

فأمر بها، فأُدخلت على عَاتِكة بنت يزيد، فقالت لها : أرأيت قول كثيّر :

قضى كلّ ذى دَيْن فوفّى غريمَه * وعَزّة ممطولٌ مُعنّى غريمُها

ما هذا الذى ذكره؟ قالت : قُبْلَة وعدتُه إياها، قالت : أنجزيها وعلىّ إثمُها .

ومما قال فيها

خليلىّ هذا رَسْمُ عزّة فاعقِلا * قَلُوصَيكما ثم ابكيا حيث حلّت
وما كنتُ أدرى قبل عزّة ما البكا * ولا مُوجِعاتِ القلب حتى تولّت
فقد حَلَفتْ جَهْدًا بما نَحرتْ له * قريشٌ غداةَ المَأْزِمَيْن (١) وصلّت
أُناديك ما حجّ الحجيجُ وكبّرت * بفَيْفا (٢) غزالٍ رُفقةٌ وأهلّت
وكانت لقَطْعِ الحبل بينى وبينها * كناذرة نَذْرًا وفَتْ فأحلّت
فقلت لها يا عزّ كل مصيبة * اذا وُطّنت يوما لها النفسُ ذلّت
ولم يَلْق إنسانٌ من الحبّ مَيْعةً * تَعُمّ ولا غَمّاء إلا تجلّت
كأنى أُنادى صخرةً حين أعرضتْ * من الصُّمّ لو تمشى بها العُصْمُ زَلّت
صَفُوحا (٣) فما تلقاك إلا بخيلةً * فمن مَلّ منها ذلك الوصلَ مَلّت
أباحت حِمًى لم يَرْعَه الناسُ قبلها * وحلّت تِلاعا لم تكن قبلُ حُلّت

(١) المأزمان : بين عرفة والمزدلفة . (٢) فيفا غزال : بمكة حيث ينزل الناس فيها الى الأبطح . وأناديك : أجالسك، مأخوذ من النّدىّ والنادى جميعا وهما المجلس .

(٣) الصفوح : المعرضة .

فليتَ قَلُوصى عند عزّة قُيِّدَت * بحبل ضعيف عُزّ منها فضلّت
وغُودِر فى الحَىّ المقيمين رَحْلُها * وكان لها باغٍ سواى فَبَلّت (١)
وكنت كذى رِجلَين رِجلٍ صحيحةٍ * ورجلٍ رَمى فيها الزمانُ فشَلّت
وكنتُ كذات الظَّلع لما تحامَلَت * على ظَلْعها بعد العِثار آستقلّت
أريد الثَّواءَ عندها وأظنّها * اذا ما أطَلْنا عندها المُكْثَ ملّت
فما أنصفَتْ، أمّا النساء فبغّضَتْ * الىّ وأمّا بالنوال فضَنّت
يُكَلّفها الغَيْرانُ شَتْمى وما بها * هَوانى ولكن لِلمليك آستذلّت
هَنيئًا مريئًا غيرَ داء مُخامِرٍ * لعزّة من أعراضنا ما آستحلّت
فوالله ما قاربْتُ إلّا تَباعَدَتْ * بصُرْمٍ ولا أكثرتُ إلا أقلّت
فإن تكن العُتْبى (٢) فأهلًا ومرحبا * وحقّت لها العتبى لدينا وقلّت
وإن تكن الأُخرى فإن وراءنا * منادِحَ (٣) لو سارت بها العيسُ كلّت
خليلىّ إن الحاجبيّة طَلّحَتْ (٤) * قَلُوصَيْكما وناقتى قد أكلّت
فلا يَبْعَدَنْ وصْلٌ لعزّة أصبحت * بعاقبةٍ أسبابُه قد تولّت
أسيئى بنا أو أحسنى لا مَلُومة * لدينا ولا مَقْلِيّة إن تقلّت
ولكن أنيلى وآذكرى من مودّة * لنا خُلّةً كانت لديكم فَطُلّت (٥)
فإنى وإن صَدّت لَمُثْنٍ وصادقٌ * عليها بما كانت إلينا أزلّت (٦)
فما أنا بالداعى لعزّة بالجوى * ولا شامتٌ إن نَعْلُ عزّة زلّت
فلا يحسب الواشون أنّ صَبابتى * بعزّة كانت غَمْرةً فتجلّت
فأصبحتُ قد أبْلَلْتُ (٧) من دَنَفٍ بها * كما أُدْنِفَتْ هَيْماءُ ثم آستبلّت

(١) بلت : ذهبت . (٢) العتبى : الإعتاب، يقال : عاتبنى فلان فأعتبته اذا نزعت عما عاتبك عليه، والعتبى الاسم والإعتاب المصدر (٣) المنادح : المفاوز . (٤) الطليح : المعى الذى سقط من الأعياء . (٥) طلت : هدرت . (٦) أزلت : اصطنعت . (٧) يقال : بل من مرضه وأبل واستبل اذا برأ . والهيماء : التى أصابها داء الهيام، وهو داء يصيب الإبل من ماء تشربه مستنقعا فتهيم فى الأرض لا ترعى .

فــوالله ثم الله ما حَــلّ قبلهــا * ولا بعــدها من خُلّة حيث حَلّت
وما مَرّ من يوم علىّ كيومها * وإن عظُمَتْ أيامُ أخرى وجلّت
وأضحت بأعلى شاهقٍ من فـؤاده * فلا القلبُ يسْلاها ولا العين مَلّت
فياعَجَبا للقلب كيف اعترافُه (١) * وللنفس لما وُطِّنَتْ كيف ذَلّت
وإنى وتَهْيامِى بعــزة بعد ما * تخلّيت مما بيننا وتخلّت
لكالمُرْتجِى ظِـلَّ الغَمامة كلما * تَبَــوّأ منها للمَقِيــل اضمحلّت
كأنى وإياها سَحَابة مُمْحِـل * رَجَاها فلما جاوَزَته استهلّت
فإن سأل الوَاشُــون فِيم هَجَرْتَها * فَقُــل نَفْسُ حُرٌّ سُلِّيَتْ فَتَسلّت

قال ابنُ سَلّام : كان كثيّر مدّعيا ولم يكن عاشقا، وكان جميلٌ صادق الصبابة والعشق. واختبرته عزة ذات مرّة فوجدت علامة ذلك، وكانت متنقبة فأسفرت، فأبلَس (٢) ولم ينطق وبُهِت، فلما مضت أنشأ يقول :

ألا ليتنى قبل الذى قلت شِيبَ لى * من السم خَضْخاض بماء الذّرارح (٣)
فمت ولم تعــلم علىّ خيــانةً * وكم طــالب للربح ليس برابح
أبُوءُ بذنبى ، إننى قد ظلمتُهــا * وإنى ببــاقى سرّهــا غير بائح

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز :

وَلِيتَ فلم تَشْــتُم عَلِيّاً ولم تُخِف * بَرِيّاً ولم تَتْبَع مقــالةَ مُجْــرِمِ
وقلتَ فصدّقت الذى قلتَ بالذى * فعلتَ فأضحى راضيــاً كلُّ مُسْــلِمِ
ألا إنمــا يَكْفِى الفتى بعد زَيْغِــه * من الأَوَد البــاقى ثِقافُ المقــوّمِ
لقــد لبستْ لِبْسَ الهَلُوك ببابهــا * تَراءَى لك الدّنيا بكَفٍّ ومِعْصَم
وتُومِضُ أحيــانا بعينٍ مريضــةٍ * وتَبْسِم عن مثــل الجُمــان المُنَظَّم

(١) اعترافه : اصطباره، يقال : نزلت به مصيبة فوجد عروفا ، أى صبورا .

(٢) أبلس : انكسر و رن . (٣) الذراح : دويبة حمراء منقطة بسواد تطير ، وهى من السموم القاتلة ، والذرارح جمعه . والخضخاض : نفط أسود لا خثورة فيه تهنأ به الإبل الجرب .

فأعرضتَ عنها مُشْمَئِزًا كأنما * سَقتكَ مَدُوفًا[1] من سِمامٍ وعلقمِ
وقد كنتَ من أجبالها فى مُمَنَّعٍ * ومن بحرها فى مُزْبِدِ الجَوْدِ مُفْعَمِ
وما زلتَ سبَّاقًا إلى كل غايةٍ * صَعِدتَ بها أعلى البِناءِ المقدَّمِ
فلما أتاك المُلْكُ عفوًا ولم يكن * لطالب دنيا بعده من تكلُّمِ
تركت الذى يَفْنَى وإن كان مُونِقًا * وآثرتَ ما يَبْقَى برأىٍ مُصَمِّمِ
فأضررتَ بالفانى وشمَّرتَ للذى * أمامك فى يوم من الهول مظلمِ
ومالك أن كنتَ الخليفة مانعٌ * سوى الله من مال رغيب ولا دمِ
سما لك همٌّ فى الفؤاد مؤرِّقٌ * صعِدتَ به أعلى المعالى بِسُلَّمِ
فما بين شرق الأرض والغرب كلها * مُنادٍ ينادى من فصيح وأعجمِ
يقولُ أميرَ المؤمنين ظلمتنى * بأخذٍ لدينار وأخذٍ لدرهمِ
ولا بسطِ كفٍّ لامرىء ظالم له * ولا السفكِ منه ظالمًا ملءَ مِحجمِ
فلو يستطيع المسلمون تقسَّموا * لك الشَّطر من أعمارهم غيرَ نُدَّمِ
فعِشتَ به ما حجَّ لله راكبٌ * مُغِذٌّ[2] مُطيفٌ بالمقام وزمزمِ
فأرْبِحْ بها من صفقةٍ لِمُبايعٍ * وأعظِمْ بها أعْظِمْ بها ثم أعْظِمِ

ومن نسيبه بعزّة لما أُخرِجتْ إلى مصر :

لعزّة من أيام ذى الغصن شاقنى * بِضاحى قرار الرَّوضتين رُسُومُ
هى الدار وَحْشًا غير أن قد يَحُلّها * ويَغْنَى بها شخص علىَّ كريمُ
فما بِرسوم الدار لو كنت عالما * ولا بالتِّلاع المُقْوِيات[3] أَهيمُ
سألت حَكِيمًا[4] أين شَطّت بها النّوى * فخبّرنى ما لا أُحِبّ حكيمُ
أجَدُّوا فأما آلُ عزّة غُدْوَةً * فبانوا وأما واسط فمقيمُ
لعمرى لئن كان الفؤادُ من الهوى * بَغَى سَقَمًا إنى إذا لَسَقيمُ

(١) مدوفا : مخلوطا ، داف الدواء والزعفران يدوفه : خلطه . (٢) مغذ : مسرع
(٣) أقوت الدار : خلت من ساكنها . (٤) هو أبو السائب بن حكيم .

ومنها :

ولستُ براءٍ نحو مصر سحابةً * وإن بَعُدَتْ إلا قعدتُ أشيم
فقد يَقْعُدُ النِّكْسُ الدَّنِيُّ عن الهوى * عَزُوفًا ويصبو المرءُ وهو كريم
وقال خليلى ما لها إذ لقيتَها * غداةَ السَّنا فيها عليك وُجُوم (١)
فقلتُ له إن المودّة بيننا * على غير فُحْشٍ والصفاءُ قديم
وإنى وإن أعرضتُ عنها تجلّدا * على العهد فيما بيننا لمقيم
وإن زمانا فرّق الدهرُ بيننا * وبينكُمُ فى صَرْفه لَمَشُوم
أفى الحقّ هذا أن قلبَكِ سالم * صحيحٌ وقلبى فى هواكِ سقيم
وأن بجسمى منك داءً مُخامِرا * وجسمك موفور عليك سليم
لَعَمْرُكِ ما أنصفتِنى فى مودّتى * ولكننى يا عزّ عنك حليم
فإما تَرَيْنى اليوم أُبدى جَلادةً * فإنى لعمرى تحت ذاك كليم
ولستُ ابنةَ الضَّمْرىّ منك بناقم * ذنوبَ العدى إنى إذًا لَظَلوم
وإنى لذو وجدٍ اذا عاد وصلُها * وإنى على ربّى إذًا لكريم

ومن نسيبه بها :

لعزّة أطلالٌ أبت أن تكلّما * تهيج مغانيها الفؤادَ المُكَلَّما
وكنتُ اذا ما جئتُ أجْلَلْنَ مجلسى * وأظْهَرْنَ منى هيبةً لا تَجَهُّما
يُحاذِرْن منى غَيْرَةً قد عرفنها * قديمًا فما يَضْحَكْن إلا تبسُّما

ومنه :

خليلىَّ عوجا منكما ساعةً معى * على الرَّبْع نقض ساعةً ونودِّع
ولا تُعجلانى أن أُلِمَّ بِدِمْنَة * لعزّة لاحت لى ببيداء بلْقع
وقولا لقلبٍ قد سَلا راجِعِ الهوى * وللعين أذْرِى من دموعك أودَعِى
فلا عيش إلا مثل عيشٍ مضى لنا * مَصيفًا أقمنا فيه من بعد مَرْبع

(١) وجم : سكت على غيظ

ومنه :

بليلى وجارات لليلى كأنها * نِعَاجُ الفلا تُحْدَى بهن الأباعرُ
أَمُنْقَطِعٌ ياعزّ ما كان بيننا * وشاجرنى ياعزّ فيك الشواجر
اذا قيل هذا بيتُ عزّة قادنى * اليه الهوى وآستعجلتنى البوادر
أَصُدّ وبى مثل الجنون لكى يَرى * رُواةُ الخَنَا أنى لبيتك هاجر
ألا ليت حظّى منك ياعزّ أننى * اذا بِنْتِ باع الصبرَ لى عنك تاجر

وما زلتُ من ليلى لَدُنْ طَرّ شاربى * الى اليوم أُخفى حبّها وأُداجنُ
وأحمل فى ليلى ضغائنَ مَعْشَر * وتُحْمَل فى ليلى علىّ الضغائن

ومنه :

وإنى لأرعى قومَها من جلالها * وان أظهروا غِشًّا نصَحْتُ لهم جَهْدى
ولو حاربوا قومى لكنتُ لقومها * صديقًا ولم أحمل على حربها حقدى

ومنه :

هلّا سألتَ معَالمَ الأطلال * بالجزع من حُرُض[1] وهنّ بوال
سَقْيًا لعزّة خُلّةً سَقْيًا لها * اذ نحن بالهَضَبات من أَمْلال[2]
إذ لا تكلّمنا وكان كلامُها * نَفَلًا نؤمّله من الأنفال

ومنه :

ألا حيّيا ليلى أجدّ رَحيلِي * وآذنَ أصحابى غدًا بقُفُول[3]
تبدّت له ليلى لتُذهِب عقله * وشاقتك أُمّ الصّلت بعد ذُهُول
أُريد لأنسى ذِكرَها فكأنما * تَمَثّلُ لى ليلى بكل سبيل
إذا ذُكِرَتْ ليلى تَغَشّتك عَبْرَةٌ * تُعَلّ بها العَيْنان بعد نُهُول

(١) حرض : واد من وادى قناة، من المدينة على ميلين .

(٢) أراد ملل، وهو منزل على طريق المدينة من مكة . (٣) قفول : رجوع

وكم من خليل قال لى هل سألتها * فقلت له ليلى أضنّ خليل

وأبعده نيلًا وأوشكه (١) قِلًى * وإن سُئلتْ عُرفًا فشرّ مَسُول

حلفتُ بربّ الرّاقصات (٢) الى منًى * خِلالَ الملا يَمْدُدْنَ كلّ جَديل

تراها رِفاقًا بينهنّ تفاوتٌ * ويَمْدُدْن بالإهلالِ كلّ أصيل (٣)

تَوَاهَقْنَ (٤) بالحُجّاج من بطن نَخْلة * ومن عَزْوَرٍ والخَبْتِ خَبْتِ طَفيل

بكل حَرام خاشِع مُتَوَجّه * إلى الله يَدْعُوه بكلّ نَقيل (٥)

على كلّ مِذْعانِ (٦) الرّواح مُعيدةٍ * ومَخْشِيّة ألا تُعِيد هَزيل

شوامِذَ (٧) قد أرتَجْنَ دون أجنّة * وهُوجٍ تبَارى فى الأزِمّة حُول

يمين امرئٍ مُسْتَغْلِظ من أليّةٍ (٨) * ليُكْذِبَ قيلا قد ألحّ بقيل

لقد كذَب الواشون ما بُحتُ عندهم * بليلى ولا أرسلتُهم برسول

فإن جاءكِ الواشون عنى بكَذْبة * فَرَوْها (٩) ولم يأتوا لها بحَويل

فلا تعجلى ياليل أن تتفهّمى * بنصح أتى الواشون أم بِحُبُول (١٠)

فإن طِبْتِ نفسا بالعطاء فأجْزِلى * وخيرُ العطا ياليل كلُّ جزيل

وإلا فإجمالٌ إلىّ فإننى * أُحِبّ من الأخلاق كلّ جميل

وإن تَبْذُلى لى منك يوما مودّة * فقِدْما تخِذْتُ القرْضَ عند بَذُول

وإن تبخلى ياليل عنى فإننى * تُوَكّلُنى نفسى بكل بخيل

ولستُ براضٍ من خليل بنائلٍ * قليل ولا راضٍ له بقليل

(١) أوشكه : أسرعه . والقلى : البغض . (٢) الراقصات : الابل، والملا : الصحراء، والجديل زمام مجدول أى مضفور . (٣) الأصيل : العشىّ . (٤) تواهقن : تبارين ، وبطن نخلة بستان بنى عامر ، وعزور : ثنية الجحفة . والخبت ، المطمئن من الأرض . وطفيل : موضع (٥) النقيل : الطريق . (٦) المذعان : المذللة . ومعيدة : قد عاودت السفر . (٧) الشوامذ الشائلات الأذناب، وأرتجن : أغلقن أرحامهن على أولادهن . والحول : جمع حائل وهى التى لا تلقح . (٨) الألية : اليمين . (٩) فروها من "فرية" يقال فرى يفرى . والحويل : المحاولة . (١٠) الحبول : الدواهى .

وليس خليلى بالملول ولا الذى * اذا غِبْتُ عنه باعنى بخليل

ولكن خليلى من يُديم وِصالَه * ويحفظ سرى عند كل دَخيل (١)

ولم أرَ من ليلى نوالا أعُدُّه * ألا ربما طالبت غيرَ مُنيل

يلومك فى ليلى وعَقْلُك عندها * رِجالٌ ولم تَذْهَب لهم بعقول

يقولون ودِّع عنك ليلى ولا تَهِمْ * بقاطعة الأقران ذات حَليل

فما نَقَعَت نفسى بما أمروا به (٢) * ولا عُجْتُ من أقوالهم بفَتِيل

تذكّرت أترابا (٣) لعزّة كالمَهَا * حُبِينَ بِليط ناعم وقَبُول

وكنتُ اذا لاقيتُهن كأننى * مُخالِطَةٌ عقلى سُلافُ شَمُول

تأطّرن (٤) حتى قلتُ لَسْنَ بَوارحا * رجاءَ الأمانى أن يَقِلْن مَقيلى

فأبدَيْن لى من بينهن تجهُّما * وأخلفن ظنّى إذ ظننت وقِيلى

فَلأْيًا (٥) بِلأْيٍ ما قَضَيْنَ لُبانةً * من الدار وآستقللن بَعْدَ طويل

فلما رأى وآستيقن البينَ صاحبى * دعا دعوةً يا حَبْتَرَ بْنَ سَلُول

فقلتُ وأسْرَرْتُ الندامة ليتنى * وكنتُ آمرأً أغتَش كل عَذُول

سلكتُ سبيلَ الرائحات عشيّةً * مَخارِمَ (٦) نِضْعٍ أو سَلَكن سبيلى

فأسْعدت نفسا بالهوى قبل أن أرى * عَوادِىَ (٧) نأْيٍ بيننا وشُغُول

نَدِمْتُ على ما فاتنى يوم بِنْتُمُ * فيا حَسْرتا ألا يَرَيْنَ عَويلى

كأن دموع العين واهِيةُ الكُلَى (٨) * وعَتْ ماءَ غَرْب يوم ذاك سَجيل

(١) الدخيل : الذى ينتسب الى قوم وليس منهم . (٢) أى ما رويت . (٣) الأتراب : الأقران . والليط : اللون وهو الجلد أيضا . (٤) تأطرن : تلبثن، وأصل التأطر : التعطف . (٥) اللاى : البطء . واللبانة : الحاجة .

(٦) المخارم : جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل . ونضع : جبل أسود بين الصفراء وينبع . (٧) العوادى : الصوارف . (٨) الكلى : جمع كلية وهى الرقعة تكون فى أصل عروة المزاد . والغرب : الدلو العظيمة . وسجيل : ضخم .

تكنّفها خُرْقٌ تَوَاكَلْنَ خَرْزَها * فأبْجَلْنَه والسّيرُ غيرُ بَجِيلِ (١)

أقيمى فإن الغَوْرَ ياعزّ بعدكم * الىّ اذا ما بِنْتِ غير جَميل

كفى حَزَنًا للعين أن رَدّ طرفَها * لعزّة عِيرٌ آذنَتْ برحيل

وقالوا نَأَتْ فاخْتَرْ من الصّبر والبُكا * فقلت البكا أشفى إذًا لغَليلى

تولّيت محزونا وقلت لصاحبى * أقاتلى ليلى بغير قَتيل

لَعزّةَ اذ يَحْتَلّ بالخَيْف أهلُها * فأوْحَش منها الخيفُ بعد حُلول

وبَدّل منها بعد طول إقامة * تَبَعُّثُ نَكْباء العَشىّ جَفُول (٢)

لقد أكثر الواشون فينا وفيكمُ * ومال بنا الواشون كل مَميل

وما زلتُ من ليلى لَدُنْ طَرّ شاربى (٣) * الى اليوم كالمُقْصَى بكل سبيل

ولـه :

إذا ما أرادَ الغزوَ لم تَثْنِ هَمَّه * حَصَان عليها نَظْمُ دُرٍّ يَزِينُها

نَهَتْهُ فلمّا لم تَرَ النَّهْىَ عاقه * بَكَتْ فبَكَى مِمّا شَجاها قَطِينُها (٤)

ولم يَثْنِهِ يَوْمَ الصّبابة بَثُّها * غَداةَ اسْتَهَلَّتْ بالدموع شُؤونُها

ولكنْ مَضَى ذو مِرّةٍ مُتَثبِّتٌ * بِسُنّةِ حقٍّ واضحٍ مُسْتَبِينُها

وله فى مدح عبد الملك بن مروان :

أحاطتْ يداه بالخلافةِ بَعْدَ ما * أراد رجالٌ آخرون اغْتِيالَها

فما أسْلَمُوها عَنْوَةً عن مودّةٍ * ولكنْ بِحَدّ المَشْرَفىّ استقالَها

وكنتَ إذا نابَتْكَ يومًا مُلِمّةٌ * نَبَلْتَ (٥) لها أبا الوليد نبالَها

سَمَوْتَ فأدركْتَ العَلاءَ وإنّما * يُلَقَّى عَلِيّاتِ العُلا مَنْ سَما لَها

وصَلْتَ فنالت كفُّكَ المجدَ كله * ولم تَبْلُغِ الأيْدى السَّوامى مَصالَها

(١) حرق : جمع حرقاء وهى التى لا تحسن العمل . وأبجلنه : أوسعنه . والبجيل العليظ . يريد أنهن أعلطن الإشفى وأدققن السير .   (٢) النكباء : الريح التى تهب بين مهبى ريحين . والجفول : التى تذهب التراب .

(٣) طرور الشارب : نباته .   (٤) القطين : الخدم .   (٥) نبلت : أعددت

وله أيضـا :

أهاجَكَ برقٌ آخرَ الليلِ واصِبُ * تضمَّنَهُ فَرْشُ الجَبـا فالمَسارِبُ
يَجُــرُّ ويَسْــتأنِى نَشاصًا[1] كأنَّه * بغَيقَةَ حادٍ جَلْجَلُ الصَّوْتِ جالِبُ
تألَّق واحْمَــومَى وخَــيَّم بالرُّبا * أحَمُّ الذُّرى ذو هَيْدَبٍ مُتَراكِبُ
اذا حَرّكتــه الريحُ أرْزَمَ[2] جانبٌ * بلا هَزِقٍ[3] منــه وأومَضَ جانبُ
كما أومَضتْ بالعَيْنِ ثم تَبَسَّمَتْ * خَرِيعٌ[4] بدا منهـا جَبِينٌ وحاجب
يمجُّ النّـدى لا يذكُر السيرَ أهله * ولا يرجع المـاشى به وهو جادِب

وله أيضـا :

سَيَهْلِكُ فى الدنيـا شَـفيقٌ عليكُمُ * اذا غالَهُ مِن حادثِ الدهرِ غائلُه
ويُخفِى لكم حُبًّا شـــديدا ورَهْبةً * وللنـاس أشغال وحُبُّك شاغلُه
وحُبُّكِ يُنْسِينى مِنَ الشيء فى يَدِى * ويُذْهِلُنى عن كل شيءٍ أُزاوِلُه
كَرِيمٌ يُمِيت السِّرَّ حتى كأنه * اذا استَبْحَثُوه عن حَديثِك جاهلُه
يَوَدّ بأن يُمْسِى سَــقِيماً لعلّها * اذا سَمِعَتْ عنه بشَكْوَى تُرَاسِـلُه
ويرتاح للعروف فى طلب العـلا * لِتُحْمَــد يوما عند لَيْلَى شمـائلُه
فلو كُنْتُ فى كَبْلٍ[5] وبُحْتُ بلَوعتى * اليه لأنَّتْ رحمـــةً لى سَلاسِـلُه

وله أيضـا :

أقول لمـاء العَيْنِ أمْعِنْ لَعَلَّه * بما لا يُرَى من غائب الوَجْد يَشْهَدُ
فلم أدر أن العين قبــل فراقها * غَداةَ الشَّبا مِنْ لاعج الوَجْد تجْمُـد
ولم أر مثــل العين ضَنَّتْ بمـائها * عَلَىَّ ولا مثلى على الدمع يُحْسَـــد

(١) النشاص : السحاب المرتفع بعضه فوق بعض . (٢) أرزم : صوّت . (٣) الهزق شدّة صوت الرعد . (٤) خريع : امرأة حسناء . (٥) كبل : قيد شديد .

وله أيضا :

تَسْمَعُ الرعدَ فى المُخِيلة منها * مِثْلَ هَزْمِ القُرُومِ[1] فى الأشْوَالِ[2]

وتَرَى البَرْقَ عارِضًا مُسْتَطِيرا * مَرَحَ البُلْقِ جُلْنَ فى الأجْلال

أو مَصابِيحَ راهبٍ فى يَفاعٍ * سَغَّمَ الزَّيْتَ ساطعاتِ الذُّبال

وله أيضا :

فياعَزَّ إنْ واشٍ وَشَى بِيَ عندكم * فلا تُكْرِميه أنْ تقولى له أهلا

كما لو وشى واشٍ بعزَّة عندنا * لَقُلْنَا تَزَحْزَح لا قَرِيبًا ولا سَهْلا

(١) القروم : الفحول التى أعفيت من الحمل عليها وتركت للفحلة .

(٢) الأشوال : الإبل التى مضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وجف لبنها

(د) الغـــزل القصصى

١ — أخبار قَيْس بن المـلوَّح (المجنون)[١]

قال الأصفهانىّ عن محدِّثيه عن ٱبن دأب قال : قلتُ لرجل من بنى عامر : أتعرِف المجنونَ وتَروِى من شعره شيئا؟ قال : أوقد فرَغنا من شعر العقلاء حتى نَروِىَ أشعار المجانين! إنهم لكثيرٌ! فقلتُ : ليس هؤلاء أعنِى ، إنما أعنِى مجنونَ بنى عامر الشاعرَ الذى قتله العشقُ ، فقال : هيهات! بنو عامر أغلظُ أكباداً من ذالك ، إنما يكون هذا فى هذه اليمانية الضِّعافِ قلوبُها ، السخيفةِ عقولها ، الصَّعْلةِ[٢] رءوسها ، فأما نزارُ فلا .

وقال الرِّياشىُّ سمعت الأصمعىَّ يقول : رجلان ما عُرِفا فى الدنيا قطُّ إلا بالاسم : مجنونُ بنى عامر ، وٱبنُ القِرِّيةِ[٣] ، وإنما وضعهما الرُّواةُ .

وقال المدائنىّ : المجنونُ المشهورُ بالشعر عند الناس صاحبُ لَيْلَى قيس بن مُعَاذ من بنى عامر ، ثم من بنى عُقَيل ، أحد بنى نُمَير بن عامر بن عُقَيل ، قال : ومنهم رجل آخر يقال له : مَهدِىّ بن المُلَوَّح من بنى جَعْدَة بنِ كعب بنِ ربيعةَ بنِ عامر بن صَعْصَعَةَ .

وقال ٱبن الكلبىّ : حُدِّثتُ أن حديثَ المجنونِ وشعرَه وضعه فتًى من بنى أميّةَ كان يهوَى ٱبنةَ عمٍّ له ، وكان يكره أن يظهرَ ما بينه وبينها ، فوضع حديثَ المجنون وقال الأشعارَ التى يَروِيها الناسُ للمجنون ونَسَبها إليه .

---

(١) هو قيس بن الملوح ، ويقال : ٱبن معاذ بن مزاحم من بنى عامر بن صعصعة ، ويعرف بمجنون ليلى ، نسبة الى ليلى التى كان يتعشقها وهو مشهور ، ولكن بعض أهـل النقد من علماء الشعر يرون أن قصته موضوعة ، وضعها رجل من بنى أمية كان يحب ٱبنـة عم له ويكره أن يظهر ما بينـه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التى يظنها الناس للجنون ، وقد زاد الناس فيه بعدئذ . ويؤيد ذلك أن كثيرا مما ينسب اليه من الأشعار رويت لغيره ، فقصته اذا من قبيل الشعر التمثيلى (درام) الذى يراد به تمثيل بعض الفضائل . وهى تمثل العشق مع التعفف ، أو لعل لها أصلا قليلا وزاد فيه الرواة كما فعلوا بقصة عنترة التى تمثل الشجاعة والعشق ، وعلى كل حال فان بين الأشعار المنسوبة الى المجنون طائفة تمثـل شعائر المحبين كما هى على طبيعتها . وأخبار المجنون فى الأغانى (ج ١ ص ١٦٧) والشعر والشعراء (ص ٣٥٥) وخزانة الأدب (ج ٢ ص ١٧٠) . (٢) الصعلة : صغر الرأس . (٣) هو أيوب ابن زيد بن قيس والقرية أمه قتله الحجاج لاتهامه بالميل لابن الأشعث .

وعن حمّاد بن طالوت بن عَبّاد : أنه سأل الأصمعىّ عنه، فقال : لم يكن مجنونا، بل كانت به لُوثةٌ أحدثها العشقُ فيه، كان يهوى امرأة من قومه يقال لها ليلى، واسمه قيسُ ابن مُعاذ .

وذكر عَمْرو بن أبى عَمْرو الشَّيْبانىّ عن أبيه أنّ اسمه قيسُ بن مُعَاذ .

وذكر شُعَيبُ بن السَّكَن عن يُونُس النَّحْوِىّ أن اسمه قيسُ بن الملوّح، قال أبو عمرو الشَّيْبانىّ : وحدّثنى رجل من أهل اليمن أنه رآه ولقِيَه وسأله عن اسمه ونسبه، فذكر أنه قيسُ بن الملوّح .

وذكر هشام بن محمد الكَلْبىّ أنه قيسُ بن الملوّح، وحدّث أن أباه مات قبل اختلاطه[1]، فعقرَ على قبره ناقتَه وقال فى ذلك :

عقــرتُ على قــبر الملوّح ناقتى * بذى السَّرْح[2] لمـا أن جفاه الأقاربُ
وقلتُ لهـا كُونِى عَقِــيرًا[3] فإننى * غدًا راجلٌ أمشى وبالأمسِ راكبُ
فــلا يُبعِدَنْكَ اللهُ يابنَ مُزَاحِمٍ * فكلٌّ بكأس الموت لاشكّ شارِبُ

وقال الأصمعىّ : سألتُ أعرابيّا من بنى عامر بن صَعْصَعَة عن المجنون العامرىّ فقال : عن أيّهم تسألُنى ؟ فقد كان فينا جماعةٌ رُمُوا بالجنون، فعن أيّهم تسألُ ؟ فقلت : عن الذى كان يُشَبّب بلَيْــلَى، فقال : كلُّهم كان يُشبّب بلَيْــلَى، قلتُ : فأنشِدْنى لبعضهم، فأنشَدَنى لمُزَاحِم بن الحارث المجنون :

ألا أيُّهـا القلبُ الذى لَجَّ هائمًـا * بلَيْــلى وليــدًا لم تُقَطَّعْ تمـائمُهْ
أَفِقْ قد أفاق العاشقون وقد أَنَى[4] * لكَ اليومَ أن تَلْقَ طبيبا تُلائمُــهْ
أجِدّكَ لا تُنسِيكَ لَيْــلَى مُلِمّــةٌ * تُلِمُّ ولا عهــدٌ يَطُولُ تَقَادُمُـــهْ

---

(١) يقال : اختلط عقله اذا تغير وفسد .   (٢) ذو السرح : واد بأرض نجد .
(٣) عقيرا، أى معقورة، وأصل العقر : قطع القوائم ثم أطلق بمعنى النحر . قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى أى ينحرونها و يقولون : إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته فنكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته . وانما أطلق العقر على النحر لأنهم كانوا اذا أرادوا نحر البعير عقروه لئلا يشرد عند النحر اﻫ من اللسان مادة عقر .   (٤) أنى : حان وقرب .

قلت : فأنشِدْنى لغيره منهم، فأنشَدَنى لمُعَاذ بن كُليبٍ المجنون :

ألا طَالمَا لاعَبْتُ لَيْلَى وقادَنى * إلى اللّهو قلبٌ للحِسَانِ تبوع

وطال آمْتِرَاءُ[1] الشّوقِ عينِيَ كلّما * نَزَفْتُ دُمُوعا تَسْتَجِدُّ دُموعُ

فقد طال إمساكِى على الكَبِد التى * بها مِن هَوَى لَيْلَى الغَدَاةَ صُدُوعُ

قلتُ : فأنشِدْنى لغير هذين ممن ذكرتَ، فأنشَدَنى لمَهْدِىّ بن المُلَوّح :

لو آنّ لك الدنيا وما عُدِلَتْ به * سِوَاهَا وليلى بائنٌ عنكَ بَيْنُها[2]

لكنتَ إلى ليلى فقيرا وإنما * يقود إليها وُدَّ نفسِك حَيْنُها

قلتُ له : فأنشِدْنى لمن بقِىَ من هؤلاء ، فقال : حَسبك ! فوالله إنّ فى واحد من هؤلاء لمن يُوزَنُ بعقلائكم اليومَ .

وقال الجاحظُ : ما ترك الناسُ شعرا مجهولَ القائل قِيل فى لَيْلَى إلا نَسَبوه إلى المجنون، ولا شعرا هذه سبيلُه قيل فى لُبْنَى إلا نَسَبوه إلى قَيْس بن ذَرِيح .

قال أبو الفرج : وأنا أذكر مما وقع إلىّ من أخباره جُمَلًا مستحسنةً، مُتبرِّئا من العُهدة فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورةِ فى أخباره ينسُبُها بعضُ الرُّواة إلى غيره وينسُبُها مَنْ حُكِيَتْ عنه إليه، وإذا قدّمتُ هذه الشريطةَ برئتُ من عيبِ طاعنٍ ومُتَتَبِّعٍ للعيوب .

أخبرنى بخبره فى شَغَفِه بليلى جماعةٌ من الرُّواة ، ونسختُ ما لم أسمعه من الروايات وجمعتُ ذلك فى سِياقة خبره ما آتّسق ولم يختلِف ، فاذا آختلفَ نسبتُ كلَّ رواية الى راويها .

فمن أخبرنى بخبره أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ وحبيبُ بن نصر المهلّبىّ ، قالا : حدّثنا عمرُ بن شَبّة عن رجاله وإبراهيمُ بن أيّوبَ عن آبن قُتَيبة ، ونسختُ أخبارَه من رواية خالد بن كُلْثوم وأبى عمرو الشّيبانىّ وآبن دَأْبٍ وهشام بن محمد الكلبِىّ وإسحاق بنِ الجَصّاص وغيرِهم من الرُّواة .

(١) الامتراء : الاستدرار . (٢) بينها هنا معناه وصلها لأنه من أسماء الأضداد ، يطلق على الوصل والفراق.

قال أبو عمرو الشيبانيّ وأبو عُبَيدةَ : كان المجنون يهوَى ليلى بنتَ مَهْدِيّ بن سعد بن مهديّ بن ربيعة بن الحَرِيش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتُكنَى أُمّ مالك ، وهما حينئذ صبيّان ، فعَلِق كلّ واحد منهما صاحبَه وهما يرعَيانِ مواشِيَ أهلِهما ، فلم يزالا كذلك حتى كَبِرا فحُجِبت عنه ، قال : ويدل على ذلك قولُه :

تَعلّقتُ لَيْلَى وهي ذاتُ ذُؤَابةٍ(١) * ولم يَبْدُ للأتراب من ثَدْيِها حجمُ
صغيرَيْن نرعَى البَهْمَ يا ليتَ أننا * إلى اليوم لم نَكْبَرْ ولم تَكْبَرِ البَهْمُ

وقال ابن الكلبيّ : كان سببُ عشقِ المجنون لَيلى ، أنه أقبل ذاتَ يوم على ناقة له كريمةٍ وعليه حُلّتان من حُلَل الملوك ، فمرّ بامرأة من قومه يقال لها : كريمةُ ، وعندها جماعةُ نسوةٍ يتحدّثنَ ، فيهنّ ليلى ، فأعجبهنّ جمالُه وكمالُه ، فدعَوْنه الى النزول والحديثِ ، فنزل وجعل يُحدّثهنّ وأمر عبدًا له كان معه فعقرَ لهنّ ناقته ، وظلّ يحدّثهن بقيةَ يومه ، فبينا هو كذلك ، إذ طلع عليهم فتًى عليه بُرْدةٌ من بُرَدِ الأعراب يقال له : "مُنَازِل" يسوق مِعْزًى له ، فلما رأينَه أقبلنَ عليه وتركن المجنونَ ، فغضب وخرج من عندهنّ وأنشأ يقول :

أأعقِرُ مِنْ جرّا(٢) كَرِيمةَ ناقتِي * ووَصْلِيَ مَفْروشٌ لِوَصْلِ مُنَازِلِ
إذا جاء قَعْقَعنَ الحُلِيّ ولم أكُنْ * إذا جئتُ أرضَى صوتَ تلكَ الخلاخِلِ
متى ما انتضَلْنا(٣) بالسِّهام نضَلْتُه * وإن نَرْمِ رَشْقًا(٤) عندها فهو ناضِلي

قال : فلما أصبح لبِس حلّتَه وركب ناقة له أخرى ومضى متعرّضا لهنّ ، فألفى ليلى قاعدةً بفِناء بيتها وقد عَلِق حبُّه بقلبها وهوِيَتْه ، وعندها جُوَيرياتٌ يتحدّثن معها ، فوقفَ بهنّ وسلم ، فدعوْنه إلى النزول وقلن له : هل لك فى مُحادثةِ من لا يَشغَلُه عنك مُنازِلٌ ولا غيرُه؟ فقال:

(١) الذؤابة : شعر الناصية .

(٢) أى من أجل ، يقال : فعلت ذلك من جرّاك أى من أجلك ومما أُنشِدَ على هذا :

أمن جرّا بنى أسد غضبتم * ولو شئتم لكان لكم جوار

(٣) أى ترامينا بالسهام ، ونضلته : غلبته .

(٤) الرشق : رمى أهل النضال ما معهم من السهام فى جهة واحدة .

إى لعَمْرِى، فنزل وفعل مثلَ ما فعله بالأمس، فأرادتْ أن تعلم، هل لها عنده مثلُ ما له عندها، فجعلتْ تُعرِض عن حديثه ساعةً بعد ساعةٍ وتُحدِّث غيرَه، وقد كان علِق بقلبه مثلُ حبِّها إياه وشغَفته وٱستملحها، فبينا هى تُحدِّثه، إذ أقبل فتًى من الحىّ فدعته وسارّته سرارا طويلا، ثم قالت له: انصرف، ونظرت إلى وجه المجنون قد تغيّر وٱنتُقِع لونه وشَقّ عليه فعلُها، فأنشأت تقول:

كِلانا مُظهِرٌ للناس بغضًا ＊ وكلٌّ عند صاحبه مَكِينُ
تُبلِّغنا العيونُ بما أردنا ＊ وفى القلبين ثَمَّ هوًى دَفِين

فلما سمع البيتين شَهَق شَهْقةً شديدة وأُغمِىَ عليه، فمكث على ذلك ساعةً، ونضَحوا الماء على وجهه حتى أفاق وتمكّن حبُّ كل واحد منهما فى قلب صاحبه حتى بلغ منه كلَّ مَبلغ.

وعن أبى الهيثم العقيلىّ قال: لما شُهِر أمرُ المجنون وليلى وتناشد الناسُ شعرَه فيها، خطَبها وبذَل لها خمسين ناقة حمراء، وخطبها وَرْدُ بن محمد العُقَيلىّ وبذل لها عَشرًا من الإبل وراعِيَها، فقال أهلُها: نحن مخيِّروها بينكما، فمنِ ٱختارتْ تزوّجتْه، ودخلوا إليها فقالوا: واللهِ لئن لم تختارِى وَرْدًا لنُمثِّلنّ بك، فقال المجنون:

ألا يا لَيلَ إن مُلِّكْتِ فينا ＊ خِيارَكِ فانظُرِى لِمَنِ الخِيارُ
ولا تَستبدِلى منّى دَنِيًّا ＊ ولا بَرَمًا[1] إذا حُثَّ القُتارُ[2]
يُهَرْوِل فى الصغير إذا رآه ＊ وتُعجِزُه مُلِمّاتٌ كِبَارُ
فمثلُ تأيُّمٍ منه نِكاحٌ ＊ ومثلُ تَموُّلٍ منه ٱفتِقارُ

فاختارَتْ وَرْدًا فتزوّجتْه على كُرْهٍ منها.

وقال:

أيا وَيْحَ مَنْ أمسى تُخُلِّسَ[3] عقلُه ＊ فأصبح مذهوبًا به كلَّ مذهب
خليًّا من الخِلّانِ إلا مُعَذِّرًا[4] ＊ يُضاحِكُنى مَنْ كان يهوَى تَجَنُّبى

(١) البرم: الثقيل. (٢) القتار: ريح اللحم المشوى. (٣) تخلس: سلب.
(٤) هو المقصر الذى لا عذر له ولكنه يتكلف العذر، ومنه قوله تعالى: (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم).

إذا ذُكرتْ ليلى عَقَلتُ وراجعَتْ * روائعُ[1] عقلى من هوًى مُتشَعِّبِ
وقالوا صحيحٌ ما به طيفُ جِنّةٍ * ولا الهمُّ إلا بافتراء التكذُّبِ
وشاهِدُ وجْدِى دمعُ عينى وحُبُّها * بَرَى اللحمَ عن أحناءِ[2] عظمى ومنكبى
تجنّبتَ ليلى أن يَلِجَّ بكَ الهوى * وهيهاتَ كان الحبُّ قبل التجنُّبِ
ألا إنّما غادرْتِ يا أمّ مالكٍ * صَدًى[3] أينما تَذهبْ به الريحُ يَذهبِ
فلم أرَ ليلَى بعد مَوْقِفِ ساعةٍ * بخَيْفِ مِنًى تَرمِى جِمارَ المحصَّبِ
ويُبْدِى الحصَى منها إذا قذفتْ به * من البُرْدِ أطرافَ البَنانِ المُخضَّبِ
فأصبحتُ من لَيْلَى الغَداةَ كناظرٍ * مع الصبح فى أعقابِ نجمٍ مُغرِّبِ

قال أبو الفرج : أنشدنى الأخفَش عن أبى سعيد السُّكرىّ عن محمد بن حبيب للمجنون :

فواللهِ ثم اللهِ إنّى لدائبٌ * أُفكّر ما ذنبِى إليها وأعجَبُ
وواللهِ ما أدرِى عَلامَ قتلتِنى * وأىَّ أمورى فيك ياليلَ أركبُ
أأقطَعُ حبلَ الوصلِ فالموتُ دونه * أمَ اشربُ رَنْقا منكمُ ليس يُشرَبُ
أمَ اهرُبُ حتى لا أرَى لى مجاورا * أمَ اصنعُ ماذا أم أبوح فأُغلَبُ
فأيّهما ياليلَ ما ترتضِينَه * فإنّى لمظلومٌ وإنّى لَمُعتَبُ

وقال :

عَرَضتُ على قلبِى العَزاءَ فقال لى * من الآنَ فايأسْ لا أعزَّكَ مِن صَبْرِ
إذا بان مَنْ تهوَى وأصبح نائيًا * فلا شىءَ أجدَى من حُلُولِكَ فى القبرِ

(١) الروائع : جمع رائعة ، أى مرتاعة . (٢) الأحناء : جمع حنو وهو كل شىء فيه اعوجاج كعظم الحجاج (العظم الذى ينبت عليه الحاجب) واللحى والضلع . (٣) الصدى : الجسد من الآدمىّ بعد موته ، ويطلق على الرجل النحيف الجسد ، كما أنه يطلق على الصوت الذى يسمعه المصوّت عقب صياحه راجعا اليه من نحو الجبل والبناء المرتفع .

وداعٍ دعا إذ نحن بالخَيْفِ مِن منًى * فهيّـــجَ أطرابَ[١] الفؤادِ وما يدرِى

دعا باسم ليـــلى غيرَها فكأنّمـا * أطارَ بليلى طائرا كان فى صـدرِى

دعا باسم ليـــلى ضلّلَ اللهُ ســعيَه * وليـــلَى بأرضٍ عنـه نازحةٍ قفر

وقال :

أيا جبَـلَىْ نعمانَ باللهِ خَلِّيَـا * سبيلَ الصَّبا يَخْلُصْ إلىّ نَسيمُها

أجِدْ بردَها أو تَشْفِ منّى حرارةً * على كَبِدٍ لم يبقَ إلا صَميمُها[٢]

فانّ الصَّبا ريحٌ إذا ما تنسَّمَتْ * على نَفْسِ محزونٍ تجلّتْ همُومُها

وقال :

أيا حَرَجَاتِ[٣] الحىّ حيث تحمّلوا * بذِى سَـــلَمٍ[٤] لا جادَكُنَّ رَبيعُ

وخَيماتُكِ اللاتى بمُنعَرَجِ اللّوَى * بَلِينَ بِلًى لم تَبلَهنّ رُبُـــوعُ

نَدِمتُ على ما كان منّى ندامةً * كما يَندَمُ المغبونُ حين يبيعُ

فَقَدتُكِ من نفسٍ شَعَاعٍ[٥] فإنّنى * نهيتُكِ عن هـــذا وأنتِ جميعُ[٦]

فقرّبتِ لى غيرَ القريب وأشرفتْ[٧] * إليـــكِ ثَنايا[٨] ما لهنّ طُلُوعُ

وله :

يا صاحِبىّ ألِمَّـا بِى بمـــنزلةٍ * قد مرّ حينٌ عليهـا أيَّمـا حينِ

إنى أرى رَجَعاتِ الحبّ تقتُلُنى * وكان فى بَدْئها ما كان يَكْفِينى

لا خيرَ فى الحبّ ليستْ فيه قارِعةٌ * كأنّ صاحبَها فى نَزْعِ مَوتونِ[٩]

(١) الأطراب : جمع طرب وهو خفة تعترى الشخص من شدّة الفرح أو الحزن . (٢) صميمها : أصلها .

(٣) الحرجات : جمع حرجة وهى الغيضة ، وسميت بذلك لضيقها ، وقيل : الشـجر الملتف ، وهى أيضا الشجرة تكون بين الأشجار لا تصـل اليها الآكلة وهى ما رعى من المـال . (٤) ذو سـلم : موضع بالحجاز .

(٥) يقال : نفس شـعاع اذا انتشر رأيها فلم تتجه لأمر جزم . (٦) الجميع : ضـدّ المتفرّق .

(٧) أشرفت : ظهرت وارتفعت . (٨) الثنايا : جمع ثنية وهى الطريقة فى الجبل ، وقيل : هى العقبة ، وقيل : هى الطريق العالى فيه ، يريد أن الوصول الى ليلى صعب لا يستطيعه . (٩) الموتون : المضروب على الوتين ، وهو عرق معلق بنياط القلب .

إن قال عُذّالُهُ مَهْـلًا فَلَانَ لهم * قال الهوى غيرُ هذا القولِ يَعْنِينى
أَلْقَ من اليأسِ تاراتٍ فتقتلُنى * ولِلـرجاء بشاشاتٌ فتُحْيِينى

وله

أَمُسْتَقْبِلِى نَفْحُ الصَّبَا ثم شائقى * بِبَرْدِ ثَنَايا أُمّ حَسَّانَ شائِق
كأنّ على أنيابها الخمرَ شجَّها[1] * بماء الندى من آخرِ الليلِ عاتِقُ[2]
وما شِمْتُـه إلا بعينى تَفَرُّسًا * كما شِيم فى أعلى السَّحابةِ بارِقُ

وروى الأصمعىّ له قولَه :

أخذَتْ محاسنَ كلِّ ما * ضَنَّتْ محاسنُه بحُسْنِهْ
كاد الغـزالُ يكونُها * لولا الشَّوَى ونُشُوزُ قَرْنِهْ

قال : وهو القائل :

ولم أرَ ليلَى بعـد موقِفِ ساعةٍ * بخَيْفِ مِنًى تَرمِى جِمارَ المحصَّبِ
ويُبْدِى الحصى منها إذا قَذَفَتْ به * من البُرْدِ أطرافَ البَنَانِ المخضَّبِ
فأصبحتُ مِن لَيْلَى الغـداةَ كناظرٍ * مع الصبح فى أعقابِ نجمٍ مُغَرِّبِ
ألا إنّما غادَرْتِ يا أُمَّ مالكٍ * صَدًى أينما تَذْهَبْ به الريحُ يذهَبِ

وقال :

يقول أناسٌ عَلَّ مجنونَ عامرٍ * يرومُ سُلُوًّا قلتُ أنَّى لِمَا بِيَا
وقد لامنى فى حُبِّ ليـلى أقاربى * أخى وابنُ عمِّى وابنُ خالِى وخالِيَا
يقولون ليلَى أهلُ بيتِ عَدَاوةٍ * بنفسىَ ليـلى مِن عَدُوٍّ وماليَا
ولو كان فى ليلى شَذًا من خصومةٍ * لَلَوَّيتُ أعناقَ المَطِىِّ المَلاوِيَا[3]

(١) شجها : مزجها . (٢) العاتق : البكر التى لم تبن عن أهلها ، والظاهر أنها ليست مرادة هنا وأن كلمة «عاتق» محرّفة عن «عابق» وهو الساقى فى الغبوق أى العشىّ .

(٣) الملاوى : جمع ملوى وهو مصدر ميمىّ من لوى بمعنى خلف .

وقال :

ألا ما لِليلَى لا تُرَى عند مَضجَعِى * بليلٍ ولا يَجْرِى بذلكَ طائرُ
بَلَى إنّ عُجْمَ الطيرِ تَجرِى إذا جَرَتْ * بليلَى ولكن ليس للطيرِ زاجرُ
أزالَتْ عن العهد الذى كان بيننا * بِذِى الأَثْلِ أم قد غيّرتْها المقادرُ
فواللهِ مافى القرب لى منكِ راحةٌ * ولا البعدُ يُسْليِنى ولا أنا صابرُ
وواللهِ ما أدرِى بأيّةِ حِيلَةٍ * وأىِّ مَرامٍ أو خِطارٍ[1] أُخاطِرُ
وتاللهِ إنّ الدهرَ فى ذاتِ بيننا * علىّ لها فى كلِّ حالٍ لجائرُ
فلو كنت إذ أزمعتِ هَجرِى تركتِنِى * جَميعَ[2] القُوَى والعقلُ منّى وافرُ
ولكنّ أيامى بِحَقْلِ[3] عُنيزةٍ * وبالرَّضْمِ أيامٌ جناها التّجاوُرُ
وقد أصبحَ الوُدُّ الذى كان بيننا * أمانِىَّ نفسٍ والمؤمَّلُ حائرُ
لَعَمْرِى لقد رنّقْتِ[4] يا أمّ مالكٍ * حياتِى وساقَتْنِى إليكِ المقادرُ

وقال :

يا لَلرِّجالِ لِهَمٍّ باتَ يَعْرونِى * مُستطْرَفٍ وقديمٍ كان يَعْنِينِى
على غَرِيمٍ مَلِىءٍ[5] غيرِ ذِى عُدُمٍ[6] * يأبَى فيمْطُلُنِى دَيْنِى ويَلْوِينِى[7]
لا يذكُرُ البعضَ مِن دَيْنِى فيُنكِرَه * ولا يُحَدِّثُنِى أنْ سوف يقْضِينِى
وما كَشُكْرِىَ شُكْرٌ لو يُوافِقُنِى * ولا مُنًى كَمُناهُ إذ يُمَنّينِى

(١) الخطار : مصدر من خاطر بمعنى راهن .

(٢) جميع : مجتمع . (٣) الحقل : المزرعة و يطلق على الموضع البكر الذى لم يزرع فيه قط . وعنيزة : موضع بين البصرة ومكة . والرضم : موضع على ستة أميال من زُبَالَة ، وزبالة : منزل معروف بطريق مكة من الكوفة . (٤) رنقت : كدرت ، والترنيق كما يطلق على التكدير يطلق على ضدّه الذى هو التصفية .

(٥) ملىء بالهمز أى ثقة غنىّ . قال صاحب اللسان : وقد أولع فيه الناس بترك الهمز وتشديد الياء .

(٦) عدم أى فقر ومثله العدم بضم العين وسكون الدال . قال صاحب اللسان : اذا ضممت أوله خففت فقلت : العدم واذا فتحت أوله ثقلت فقلت : العدم . (٧) يلوينى : يمطلنى ، يقال : لواه دينه وبدينه : مطله .

أطعتُه وعَصَيتُ النـاسَ كُلَّهـمُ * فى أمره ثم يأبَى فهـو يَعصِينِى
خَيرِى لمن يبتغى خيرى ويأمُلُه * من دون شَرِّى وشَرِّى غيرُ مأمونِ
وما أشارِكُ فى رأيِى أخا ضَعِفٍ[1] * ولا أقولُ أخِى مَنْ لا يُوَاتِينِى[2]

وله :

ألا أيُّها البيتُ الذى لا أزُوره * وإن حَلَه شخصٌ إلى حبيبُ
هجرتُكَ إشـفاقا وزرتُك خائفا * وفيكَ علىّ الدهـرَ منكَ رقيبُ
سأستعتِبُ الأيامَ فيـكَ لعلّهـا * بيومِ سُرورٍ فى الزمانِ تؤوبُ

وبلغ المجنون أن أهل ليلى يريدون نقلَها إلى الثَّقفىّ فقال :

كأنّ القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغدَى * بلَيْـلَى العـامِرِيّةِ أو يُرَاحُ
قَطَـاةٌ عَزّها شَرَكٌ فباتَتْ * تُجاذِبُه وقـد عَلِقَ الجَنـاحُ

فلما نَقِلت ليلى إلى الثقفىّ قال :

طربتَ وشاقتكَ الحُمُـولُ[3] الدّوافعُ * غَداة دعا بالبينِ أسْـفَعُ[4] نازعُ
شَحَـا[5] فَاهُ نعبـا[6] بالفراق كـأنه * حَرِيبٌ[7] سَلِيبٌ نازحُ الدار جازِعُ
فقلتُ ألا قد بيّنَ[8] الأمرَ فانصرِف * فقـد راعَنا بالبينِ قبلكَ رائعُ
سُقِيتَ سُمُـوما من غراب فإنّنى * تبيّنتُ ما خـبّرتَ مـذ أنتَ واقعُ

---

(١) الضعف هكذا بالتحريك : لغـة فى الضعف بالفتح والسكون . ويستعمل فى ضعف الرأى والعقل، وأنشد عليه ابن الأعرابىّ هذا البيت . ويستعمل فى ضعف الجسم وأنشد عليه :

ومن يلق خيرا يغمز الدهر عظمه * على ضعف من حاله وفتـور

(٢) يواتينى : يساعدنى .

(٣) الحمول فى الأصل : الهوادج واحدها حمل ثم اتسع فيها وصارت تستعمل فى الإبل التى عليها الهوادج . والدوافع : المندفعة فى السير . (٤) كذا فى أغلب النسخ وتز يين الأسـواق . وفى ب، سـ : «أسحم» والأسفع والأسحم معناهما واحد وهو الأسود . والنازع : المسرع . والمراد بالأسفع النازع «الغراب» .

(٥) شحاه يشحوه ويشحاه : فتحه . (٦) نعبا : صياحا وتصويتا . (٧) الحريب : من سلب حريبته وهى ماله الذى يقوم به أمره . (٨) بين بمعنى تبين، ومنه المثل : «قد بين الصبح لذى عينين» .

ألم تَرَ أنّى لا مُحِبٌّ ألومُه * ولا بِبَديلٍ بعدهم أنا قانع
ألم تر دارَ الحىّ فى رونقِ الضحى * بحيثُ انحنتْ للهَضْبتين(1) الأَجَارعُ
وقد يتناءى الإلْفُ من بعد أُلْفةٍ * ويصدَعُ ما بين الخليطين صادعُ
وكم من هوًى(2) أو جِيرةٍ قد ألِفتُهم * زمانا فلم يمنعهمُ البينَ مانعُ
كأنّى غداةَ البينِ مَيتٌ جَوبةٍ(3) * أخو ظمإ سُدّتْ عليه المشارعُ
تَخَلَّس(4) من أوشال(5) ماءٍ صُبَابةً * فلا الشُّربُ مبذولٌ ولا هو ناقِعُ(6)
وبيضٍ تَطَلَّى بالعَبِير كأنها * نِعاجُ المَلَا(7) جِيبَتْ(8) عليها البراقعَ
تَحمّلْنَ من وادى الأَراكِ(9) فأومَضَت * لهنّ بأطراف العيون المدامعُ
فما رِمْنَ(10) ربعَ الدار حتى تشابهتْ * هجائنُها(11) والجُونُ منها الخواضعُ(12)
وحتى حَمَلْنَ الحُورَ(13) من كلّ جانب * وخاضت سُدُولَ(14) الرَّقْمِ منها الأكارعُ(15)

(1) الهضبتان : مثنى هضبة وهى الرابية أو الجبل المنبسط على الأرض أو الجبل المخلوق من صخرة واحدة ، والأجارع : جمع أجرع ، والأجرع كالجرعاء : الأرض ذات الحزونة تشا كل الرمل أو الرملة السهلة المستوية أو القطعة من الرمل لا تنبت شيئا (انظر اللسان فى مادّتى هضب وجرع) . (٢) الهوى بمعنى المهوىّ وهو المحبوب، ومنه قول الشاعر :

هَوَاىَ مع الركب اليَمَانِين مُصْعِدٌ * جنيبٌ وجُثْمانى بمكة مُوثَقُ

(٣) الجوبة : فضاء أملس سهل بين أرضين . (٤) تخلس الشيء : انتهبه وأخذه خلسة .
(٥) الأوشال : جمع وشل وهو الماء القليل . والصبابة : بقية الماء تبقى فى الاناء والسقاء . (٦) هو من نقع بمعنى روى . (٧) الملا : الصحراء . (٨) أى قطعت . (٩) هو واد قرب مكة .
(١٠) معناه ما برحن . يقال : ما رام المكان أى ما برحه . (١١) الهجائن : الابل البيضاء الكريمة واحدها هجان . والجون : جمع جون بفتح الجيم وهو الأسود المشرب بحمرة ، ويطلق على الأسود اليحمومى وعلى الأبيض فهو من أسماء الأضداد . (١٢) الخواضع : الابل وإنما يقال لها خواضع لأنها تخضع أعناقها حين يجدّ بها السير، قال جرير :

ولقد ذكرتك والمطىّ خواضع * وكأنهنّ قطًا فلاة مُجْهَلِ

(١٣) الحور : جمع حوراء وهى البيضاء أو من فى عينها حور وهو شدّة سواد المقلة فى شدّة بياضها .
(١٤) السدول : جمع سديل وهو ما يجلل به الهودج من الثياب . (١٥) الأكارع : جمع أكرع والأكرع جمع كراع، أو الأكارع كما يقول سيبويه جمع كراع على غير قياس . والكراع من الانسان : ما دون الركبة الى الكعب ، ومن الدابة قوائمها مطلقا .

فلما استوت تحت الخدور وقد جرى * عَبيرٌ ومسكٌ بالعرانين رادعُ[1]
أشرنَ بأن حُثُّوا الجمالَ فقد بدا * من الصيف يومٌ لافحُ الحرّ ماتعُ[2]
فلمّا لحقنا بالحُمول تباشرَتْ * بنا مُقصِراتٌ[3] غاب عنها المطامعُ
يُعرّضنَ بالدلّ المليح وإن يُرِدْ * جَنَاهنّ مشغوفٌ فهنّ موانعُ
فقلتُ لأصحابى ودمعِى مُسْبَلٌ * وقد صدّعَ الشملَ المشتّتَ صادعُ
أليلَى بأبواب الخُدورِ تعرّضَتْ * لِعَينِيَ أم قرنٌ من الشمس طالعُ

وروى أنّ أبا المجنون حجّ به ليدعوَ الله عزّ وجلّ فى الموقف أن يُعافيَه، فسار ومعه ابنُ عمه زيادُ بنُ كعب بن مُزاحِم، فمرّ بحمامة تدعو[4] على أيكة فوقف يبكى، فقال له زياد: أىّ شيء هذا؟ ما يُبكيك أيضا؟ سر بنا نلحقِ الرُّفقةَ، فقال:

أأن هتفَتْ يوما بوادٍ حمامةٌ * بكيتَ ولم يَعذِرك بالجهل عاذرُ
دعتْ ساقَ حرٍّ[5] بعد ماعلَت الضُّحى * فهاج لكَ الأحزانَ أن ناحَ طائرُ
تغنّى الضحى والصبح فى مُرْجَحِنّة[6] * كثاف الأعالِى تحتها الماءُ حائرُ[7]
كأن لم يكن بالغَيْل[8] أو بطنِ أيكةٍ[9] * أو الجزعِ[10] من تول الأشاءة[11] حاضرُ

(١) المراد بالرادع هنا المردوع به الجسد أو الثوب وهو العبير والمسك . وأصل الردع اللطخ بالطيب والزعفران، يقال: قميص رادع ومردوع أى فيه أثر الطيب والزعفران. وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما: « لم ينه عن شيء من الأدوية الا عن المزعفرة التى تردع الجلد» أى تنفض صبغها عليه . (٢) الماتع: الطويل . (٣) مقصرات: جمع مقصِرة أى داخلة فى القصر وهو العشىّ، يقال: أتيته قصرا أى عشيا، وأقصرنا أى دخلنا فى قصر العشى، كما تقول أمسينا من المساء. من أعصرتِ الجارية اذا بلغت عصر شبابها، أو من أعصرت أى دخلت فى العصر (انظر لسان العرب مادة قصر) .

(٤) تدعو: تصوّت وتنوح . (٥) ساق حرّ: أصله صوت القمارى ويطلق على الذكر من القمارى تسمية له باسم صوته وهو المراد هنا (انظر اللسان مادتى سوق وحرّ) . (٦) المرجحنة: المهتزة المتمايلة . (٧) حائر: متردّد . (٨) الغيل: اسم لعدّة مواضع والظاهر أنّ المراد هنا واد لبنى جعدة وهم قوم المجنون . (٩) الأيكة: الغيضة الملتفة الأشجار ولم نجد فى الكتب التى بأيدينا «أيكة» ولا «بطن أيكة» اسما لموضع خاص كما هو المناسب للسياق . (١٠) الجزع: منعطف الوادى ولعله هنا اسم لموضع خاص وقد يكون جزع بنى جماز وهو واد باليمامة . (١١) الأشاءة: موضع باليمامة فيه نخيل . ولعل كلمة «تول» محرّفة عن «تال» والتال: صغار النخل واحدته تالة .

يقول زيادٌ إذ رأى الحىَّ هَجَّرُوا[١] * أرى الحىَّ قد ساروا فهل أنتَ سائرُ
وإنّى وإن غَالَ[٢] التقادمُ حاجتى * مُلِمٌّ على أوطان لَيْلَى فناظرُ

كان المجنونُ وليلَى وهما صَبيّانِ يرعيانِ غنما لأهلهما عند جبلٍ فى بلادهما يقال له التوباد[٣]، فلما ذهب عقله وتوحّش، كان يجىء إلى ذلك الجبلِ فيقيمُ به، فإذا تذكر أيام كان يُطيف هو وليلى به جزِع جزعا شديدا واستوحش فهام على وجهه حتى يأتى نواحى الشأم، فإذا ثاب إليه عقله رأى بلدا لا يعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم : بأبى أنتم، أين التوباد من أرض بنى عامر ؟ فيقال له : وأين أنت من أرض بنى عامر ! أنت بالشأم عليك بنجم كذا فأَمَّه، فيمضى على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن، فيرى بلادا يُنكِرها وقوما لا يعرِفهم فيسألهم عن التوباد وأرض بنى عامر، فيقولون : وأين أنت من أرض بنى عامر ! عليك بنجم كذا وكذا ، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوبادِ ، فإذا رآه قال فى ذلك :

وأجهَشْتُ[٤] للتَّوبادِ حين رأيتُه * وكَبَّرَ للرحمن حينَ رآنِى
وأذرَيتُ دمعَ العين لمّا عرفتُه * ونادى بأعلى صوته فدعانِى
فقلتُ له قد كان حولكَ جيرةٌ * وعهدِى بذاكَ الصّرم منذ زمانِ
فقال مَضَوْا وآستودَعُونِى بلادَهم * ومَنْ ذا الذى يبقَى على الحدَثانِ
وإنى لأبكِى اليومَ من حَذَرِى غدًا * فِراقَكَ والحيَّانِ مُجْتَمِعَانِ
سِجَالًا وتَهْتَانًا[٥] ووَبْلًا وديمَةً * وسحًّا وتَسْجَامًا[٦] الى هَمَلَانِ[٧]

(١) هجروا : ساروا فى وقت الهاجرة . (٢) غال الشىءَ : ذهب به . (٣) التوباد (بالدال المهملة) وهو الموافق لما فى معجم ما آستعجم للبكرى إذ قال فى ضبطه : هو بفتح أوله و باء معجمة بواحدة ودال مهملة وأنشد عليه : * وأجهشت للتوباد حين رأيته * البيت .
وضبطه ياقوت بالذال المعجمة فقال فى معجمه : « توباذ » بالفتح ثم السكون والباء موحدة وآخره ذال معجمة : جبل بنجد . (٤) أجهشت : تهيأت للبكاء . (٥) يقال : هتنت السماء تهتن هتنا وتهتانا أى صبت .
(٦) يقال : سجمت السحابة مطرها تسجيما وتسجاما اذا صبته . (٧) الهملان : فيض العين بالدموع .

وكان المجنون يسير مع أصحابه فسمع صائحا يصيح : يا ليلى فى ليلة ظلماء أو توهم ذلك، فقال لبعض من معه : أما تسمع هذا الصوتَ ؟ فقال : ما سمِعت شيئا، قال : بلى ، والله هاتف يهتِف بليلى، ثم أنشأ يقول :

أقولُ لأدنَى صاحِبيَّ كُلَيمةً * أُسِرّتْ من الأقصى أجِبْ ذا المناديَا
إذا سِرْتُ فى الأرضِ الفَضاءِ رأيتُنِى * أُصانِعُ رَحْلِى(١) أن يَميلَ حِيالِيَا
يمينًا إذا كانت يمينًا وإن تكن * شِمالًا يُنازِعْنِى الهوَى عن شِمَالِيَا

خطب ليلَى صاحبةَ المجنون جماعةٌ من قومها فكرِهَتْهم ، فخطبها رجلٌ من ثَقِيف مُوسِرٌ فرضيتْه ، وكان جميلا فتزوّجها وخرج بها، فقال المجنونُ فى ذلك :

ألا إنّ ليلى كالمَنِيحةِ(٢) أصبحَتْ * تَقَطَّعُ إلا من ثقيف حِبالُها
فقد حبسوها مَحْبَسَ البُدْنِ وٱبتغَى * بها الربحَ أقوامٌ تَساحَتْ(٣) ما لُها
خليلَىّ هل مِنْ حيلةٍ تعلمانِها * يُدَنِّى لنا تكليمَ ليلَى ٱحتيالُها
فإن أنتما لم تَعلَمَاها فلستُما * بأوّلِ باغٍ حاجةً لا ينالُها
كأنّ مع الركب الذين ٱغتدَوْا بها * غمامةَ صيفٍ زعزعَتْها شَمَالُها
نظرتُ بمُفْضَى سَيْلِ جَوْشَنَ(٤) إذ غَدَوْا * تَخُبُّ بأطراف المَخَارِمِ(٥) آلُها
بشافيةِ الأحزانِ هيّج شوقَها * مُجَامَعةُ الألاف ثم زِيالُها
إذا ٱلتفتتْ من خَلْفِها وهى تغتلى * بها العِيسُ جَلّى عَبْرَةَ العينِ حَالُها

(١) الرحل : ما يوضع على البعير للركوب ثم يعبر به عن البعير .

(٢) المنيحة فى الأصل : الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلا يشرب لبنها ثم يردّها اذا انقطع اللبن، ثم كثر استعمالها فى كل موهوب . (٣) يقال أسحت ماله : استأصله وأفسده ، ومال مسحوت ومسحت أى مذهب . وأسحتت تجارته : خبثت وحرمت ، ولم نجد فى كتب اللغة « تساحت » على وزن تفاعل من هذه المادة

(٤) لم نجد فى بلاد العرب ما يسمى جوشن الا جبلا فى غربىّ حلب . (٥) المحارم (بالراء المهملة) : جمع مخرم وهو الطريق فى الجبل أو الرمل .

وله :

وأَحْبِسُ عنكِ النفسَ والنفسُ صَبَّةٌ * بِذِكْراكِ والمَمْشَى إليـكِ قـريبُ

مخافةَ أن تسعى الوُشَاةُ بِظِنَّـةٍ * وأَحْرُسُكم أن يسـتريبَ مُرِيبُ

فقد جعلتْ نفسي ـ وأنتِ اجترمتِهِ * وكنتِ أعزَّ الناسِ ـ عنكِ تَطِيبُ

فلو شئتِ لم أَغضَبْ عليكِ ولم يزلْ * لكِ الدهرَ منِّي ما حييتُ نصيبُ

أمَا والذي يَبْـلُو السرائرَ كلَّهـا * ويعـلَمُ ما تُبْـدِي به وتَغِيبُ

لقد كنتِ ممن تَصْطَفِي النفسُ خُلَّةً * لهـا دون خُلَّانِ الصَّـفاء حُجُوبُ

٢ — قيس بن ذريح(١)

من شعر قيس :

يقولونَ لُبْنَى فتنـةٌ كنت قبلهـا * بخـيرٍ فلا تنـدَمْ عليهـا وطَلِّقِ

فطاوعتُ أعدائي وعاصَيْتُ ناصحي * وأقـررتُ عينَ الشامت المتخلّق

وَدِدْتُ وبيتِ الله أني عَصَـيْتُهم * وحُمِّلْتُ في رِضْوانهـا كلَّ مُوبِقِ

وكُلِّفتُ خوضَ البحر والبحرُ زاخرٌ * أبيتُ على أثبـاج مَوج مغـرِّق

(١) هو قيس بن ذريح الكنانى من ليث بن بكر كان منزل قومه بظاهر المدينة . مر لبعض حاجته بخيام بنى كعب بن خزاعة فرأى لبنى بنت الحباب الكعبية ، وكانت فتاة جميلة ، فعلقها ، فطلبها من أبيه فمنعه إياها لمكانه من الثروة ، وكان يريد أن يزوجه من بنات عمومته حتى يحفظ تراثه فى أهله ، فطار لب قيس وتقسمت نفسه وذهب ، فاستشفع بأخيه من الرضاع ، الحسين بن على ، فوجد ما أحب وتزوجها ومكثا زمنا ولم يعقبا ، وشغل قيسا حب لبنى عن مواساة أمه فاضطغنت على زوجه وسعت بها عند أبيه متخذة عدم الولد سلما ترقى به الى شرها ، فطلب اليه أبوه أن يطلقها فأبى ، فما زال به بالوعد والوعيد حتى أجابه الى طلبته ، وكان فى ذلك القضاء الأخير على ما لقيس من حظ وعقل فى هذه الحياة ولم ينتفع بتزويجه غيرها ، وطارت نفسه شعاعا وذهب على وجهه يتنسم أخبار لبنى ويمرغ خده فى آثارها ، وبقى طول حياته يساقط من نفسه على شعره غير عابئ بشقاء بدنه وإهدار دمه حتى لفظ النفس الأخير . وأخبار قيس كثيرة فى الأغانى (ج ٨ ص ١١٢) والشعر والشعراء (ص ٣٩٩) وله ديوان مشروح ، ومنه نسخة فى مكتبة الاسكوريال وغيرها فى برلين .

كأنى أرى الناسَ المحبّين بعدها * عُصارةَ ماءِ الحنظل المتفلّق
فتنكر عينى بعدها كلَّ منظرٍ * ويكره سمعى بعدها كلَّ منطِقِ

وخرج قيس فى فِتْية من قومه واعتلّ على أبيه بالصيد ، فأتى بلادَ لُبْنَى ، فجعل يتوقع أن يراها أو يرى من يُرْسِل اليها ، فآشتغل الفتيانُ بالصيد ، فلما قضَوْا وَطَرهم منه رجعوا اليه وهو واقف ، فقالوا له : قد عَرَفْنا ما أردتَ بإخراجنا معك وأنك لم تُرِد الصيد وإنما أردتَ لقاء لبنى وقد تعذّر عليك ، فانصرف الآن ؛ فقال :

وما حائماتٌ حُمْنَ يومًا وليلةً * على الماء يَغْشَيْنَ العِصِيَّ حَوَانى
عَوَافٍ لا يصدُرنَ عنه لوجهةٍ * ولا هنّ من بَرْد الحِياض دَوَانى
يَرَيْنَ حَبَابَ الماء والموتُ دونه * فهن لأصوات السُّقاة رَوَانى
بأجهدَ منى حَرَّ شوقٍ ولوعةٍ * عليك ولكنّ العدوّ عدانى
خليلَىّ إنى ميّتٌ أو مكلَّمٌ * لُبَيْنَى بسرّى فامضيا وذَرَانى
أَنَلْ حاجتى وحدى ويارُبّ حاجةٍ * قضيتُ على هولٍ وخوفِ جَنان
فإنّى أحقُّ الناسِ ألّا تُحاوِرَا * وتَطّرِحا من لو يشاء شفانى
ومن قادنى للموت حتى اذا صفتْ * مشاربه السُّمَّ الذُّعاف سقانى

فأقاموا معه حتى لقيها .

لما ألحّ ذَرِيح على آبنه قيس فى طلاق لبنى فأبى ذلك قيس ، طَرَح ذريح نفسه فى الرَّمْضاء وقال : لا والله لا أَرِيمُ هذا الموضعَ حتى أموتَ أو يُخَلِّيَها ، فجاءه قومه من كل ناحية فعظّموا عليه الأمر وذكّروه بالله وقالوا : أتفعل هذا بأبيك وأمك! إن مات شيخك على هذه الحال كنت مُعينا عليه وشريكا فى قتله ، ففارق لبنى على رغم أنفه وقلّة صبره وبكاءٍ منه حتى بكى لهما من حضرهما ؛ وأنشأ يقول :

أقولُ لِخُلَّتِى فى غير جُرْمٍ * ألَا بِينِى ، بنفسىَ أنتِ ، بِينى
فوآلله العظيم لَنَزْعُ نفسى * وقطعُ الرِّجل منى واليمينِ

أحبُّ إلىّ يا لُبنَى فِراقًا * فبكّى للفراق وأسعدينى

ظلمتُكِ بالطّلاق بغير جُرمٍ * فقد أذهبتِ آخرتى ودِينى

قال : فلما سمعت بذلك لبنى بكت بكاء شديدا، وأنشأت تقول :

رحَلتُ اليه من بلدى وأهلى * فجازانى جـزاءَ الخائنينا

فَمَنْ رآنى فلا يغترّ بعـدى * بحُلْو القـول أو يَبْلُو الدّفينا

فلما انقضت عِدّتها وأرادت الشخوصَ الى أهلها أُتِيتْ براحلة لتُحمَلَ عليها ، فلمـا رأى ذلك قيسٌ داخله أمر عظيم واشتدّ لهفه، وأنشأ يقول :

بانتْ لُبينى فأنت اليـوم متبولُ * وإنك اليومَ بعـد الحزم مخبـولُ

فأصبحتْ عنك لبنى اليومَ نازحةً * ودَلُّ لبنى ـ لها الخيراتُ ـ معسولُ

هـل ترجِعنّ نَوَى لبنى بعاقبـةٍ * كما عهدتُ ليالى العشـقُ مقبول

وقـد أرانى بلبنى حقَّ مقتنِعٍ * والشملُ مجتمعٌ والحبلُ موصـول

فصِرتُ من حبّ لبنى حين أذكرها * القلبُ مرتَهَنٌ والعـقلُ مدخول

أصبحت من حبّ لبنى بل تذكّرها * فى كُربةٍ ففؤادى اليومَ مشـغولُ

والجسم مـنّىَ منهوكٌ لفرقتهـا * يَبْرِيه طولُ سَـقَامٍ فهو منحولُ

كأننى يومَ وَلّتْ ما تكـلّمنى * أخو هُيَامٍ مصابُ القلب مسلولُ

أسـتودع اللهَ لبنى اذ تُفـارقنى * عن غير طوعٍ وأمرُ الشيخ مفعولُ

ثم ارتحلت لبنى، فجعل قيس يقبّـل موضع رجليها من الأرض وحول خِبائها ، فلمـا رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعَذْل واللوم، فقال ذَرِيح لمـا رأى حاله تلك : قد جنَيتُ عليك يابُنىّ؛ فقال له قيس : قد كنتُ أخبرك أنى مجنون بهـا فلم ترضَ إلا بقتـلى ، فالله حسبُك وحسبُ أمّى . وأقبل قومه يعذُلونه فى تقبيل التراب، فأنشأ يقول :

فمـا حُبّى لِطيبِ تراب أرضٍ * ولكن حبّ من وَطِئ الترابا

فهـذا فعـل شيخَيْنا جميعًا * أرادا لى البليّـة والعَـذابا

وله قصيدة طويلة فى تطليقه لبنى يقول فيها :

فَوَاكبِدِى وعاودنى رُدَاعِى (١) * وكان فِراقُ لبنى كالْخِدَاعِ (٢)

تكنّفنى الوُشاةُ فأزعجونى * فيالَلّهِ للواشى المُطَاعِ

فأصبحتُ الغَداةَ ألومُ نفسى * على شىء وليس بمستطاع

كمغبونٍ يعضُّ على يديه * تَبَيّن غَبْنَهُ بعد البياع

بدار مَضِيعةٍ تركتُكَ لُبْنى * كذاك الحَيْنُ يُهْدى للضاع

وقد عشنا نَلَذّ العيشَ حيناً * لو آنّ الدهرَ للإنسان واعى

ولكنّ الجميعَ الى آفتراقٍ * وأسباب الحتوف لها دَوَاعى

واجتمع إليه نسوة فأطَلْنَ الجلوسَ عنده وحادثنَه وهو ساهٍ عنهنّ، ثم نادى : يا لبنى، فقلن له : ما لك ويحك ؟ فقال : خَدِرتْ رجلى « ويقال : إن دعاء الانسان باسم أحبّ الناس اليه يُذهِب خَدَرَ الرجل، فناديتها لذلك . وقال :

اذا خَدِرَتْ رجلى تذكّرتُ من لها * فناديتُ لُبنى باسمها ودعَوْتُ

دعوت التى لو أنّ نفسى تُطيعنى * لفارقتُها من حبّها وقضيتُ

بَرَتْ نبلَها للصيد لُبْنَى وريّشتْ * وريّشتُ أخرى مثلَها وبَرَيْتُ

فلمّا رمتنى أقْصَدتنِى بسهمها * وأخطأتُها بالسهم حين رميتُ

وفارقتُ لُبنى ضَلّةً فكأننى * قُرِنْتُ الى العَيُّوق (٣) ثم هَوَيْتُ

فياليتَ أنى متُّ قبلَ فراقها * وهل ترجِعنْ فوتَ القضيّة لَيْتُ

فصرتُ وشيخى كالذى عَثَرتْ به * غداةَ الوغى بين العُداة كُمَيْتُ

فقامتْ ولم تضرر هُنَالِا سَوِيّة * وفارسُها تحت السّنابك ميْتُ

فان يك تَهْيامى بلُبنى غَوايةً * فقد يا ذَرِيحُ بنَ الحباب غَوَيتُ

(١) الرداع : النكس، وهو رجوع المرض . (٢) الجداع : الموت . (٣) هو نجم أحمر مضيء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها .

فلا أنت ما أمّلتَ فيّ رأيته * ولا أنا لبنى والحياة حويتُ
فوطّنْ لهلكى منك نفسًا فإنني * كأنك بي قد يا ذريحُ قضيتُ

ومرض قيسٌ، فسأل أبوه فتياتِ الحيّ أن يعُدْنه ويحدّثنه أو يعلّق بعضهن، ففعلن ذلك، ودخل اليه طبيب ليداويه والفتيات معه، فلما اجتمعن عنده جعل يحادثنه وأطلن السؤالَ عن سبب علته، فقال :

تعلّق رُوحي روحها قبل خلقنا * ومن بعد ما كنا نطافًا وفى المهدِ
فزاد كما زِدنا فأصبح ناميًا * وليس اذا متنا بمُنْصرِمِ العهدِ
ولكنه باقٍ على كل حادثٍ * وزائرنا فى ظلمة القبر واللحدِ

فقال له الطبيب : إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوى والمعايب، فإنّ النفس تنبو حينئذ وتسلو ويخفّ ما بها .

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة فلعله يسلو بها عن لبنى، فدعاه الى ذلك فأباه وقال :

لقد خِفتُ ألّا تقنعَ النفسُ بعدها * بشيء من الدنيا وإن كان مقنعًا
وأزجر عنها النفس اذ حيل دونها * وتأبَى اليها النفسُ إلّا تطلُّعا

ولما تزوجت لبنى بآخر أتى موضعَ خبائها فنزل عن راحلته وجعل يتمعّك[1] موضعها ويمرّغ خدّه على ترابها ويبكى أحرّ بكاء ثم قال :

إلى الله أشكو فقدَ لُبنى كما شكا * الى الله فَقْدَ الوالدين يتيمُ
يتيمٌ جفاه الأقربون لجسمه * نحولٌ وعهد الوالدين قديمُ
بكتْ دارُهم من نأيهم فتهلّلت * دموعى فأىَّ الجازعينِ ألومُ
أمستعبرٌ يبكى من الشوق والهوى * أمَ آخرُ يبكى شجوَه ويهيمُ
تهيّضنى من حبّ لُبنَى علائقٌ * وأصنافُ حبٍّ هَوْلُهنّ عظيمُ

(١) يتمعك : يتمرّغ فى التراب

ومن يتعلّق حبُّ لُبنى فؤادَه * يمتْ أو يعشْ ما عاش وهو كليمُ
فإنّى وإن أجمعتُ عنك تجلُّدا * على العهد فيما بيننا لمقيمُ
وإن زمانا شتّت الشملَ بيننا * وبينكُمُ فيه العدا لمشومُ
أفى الحقّ هذا أنّ قلبَك فارغٌ * صحيحٌ وقلبي فى هواكِ سقيمُ

وقال فى رحيل لُبنَى عن وطنها وآنتقالها الى زوجها بالمدينة وهو مقيم فى حيّها :

بانت لُبينَى فهاج القلبَ من بانا * وكان ما وعدتْ مَطلا وليّانا(١)
وأخلفتك مُنًى قد كنتَ تأمُلُها * فأصبح القلبُ بعد البين حيرانا
الله يدرى وما يدرى به أحدٌ * ماذا أُجَمجِم من ذكراكِ أحيانا
يا أكمل الناسِ من قَرْنٍ الى قدمٍ * وأحسنَ الناس ذا ثوب وعُريانا
نعم الضجيع بعَيد النوم تجلبه * اليك ممتلئا نوما ويقظانا
لا بارك اللهُ فيمن كان يحسَبكم * إلا على العهد حتى كان ما كانا
حتى آستفقت أخيرا بعد ما نُكحتْ * فبتّ للشوق أُذرِى الدمعَ تهتانا
إن تصرِمى الحبلَ أو تُمسى مفارِقةً * فالدهرُ يُحدث للإنسان ألوانا
وما أرى مثلَكم فى الناس من بَشرٍ * فقد رأيتُ به حيًّا ونسوانا

وشكا أبو لبنى لمعاوية تعرّض قيس لأبنته بعد طلاقها، فكتب معاوية الى الأمير يُهدِر دمه إن ألمّ بها، وأن يشتدّ فى ذلك؛ فكتب مروان فى ذلك الى صاحب الماء الذى ينزله أبو لبنى كتابا وكيدا، ووجّهتْ لبنى رسولا الى قيس تُعلمه ما جرى وتحذّره؛ وبلغ أباه الخبر، فعاتبه وتجهّمه، وقال له : انتهى بك الأمر الى أن يهدِر السلطان دمك؛ فقال :

فان يحجبوها أو يَحُلْ دون وصلها * مقالةُ واشٍ أو وعيدُ أميرِ
فلن يمنعوا عينىّ من دائم البكا * ولن يُذهِبوا ما قد أجَنّ ضميرى
الى الله أشكو ما أُلاقِى من الهوى * ومن حَرقٍ تعتادنى وزفيرِ

(١) اللياّن : اللىّ والمطل، قال أبو الهيثم : لم يجئ من المصادر على فعلان إلا ليان .

ومن حُرقٍ للحبّ فى باطن الحشى * وليــلٍ طويلِ الحزن غيرِ قصيرِ
سأبكى على نفسى بعينٍ غزيرةٍ * بكاءَ حزينٍ فى الوثاق أسيرِ
وكنا جميعاً قبل أن يَظهر الهوى * بأنعم حالَىْ غِبطــةٍ وســرورِ
فما بَرِح الواشون حتى بدتْ لهم * بطونُ الهوى مقلوبةً لظهورِ
لقد كنتِ حَسْبَ النفس لودام وصلُنا * ولكنما الدنيا متاعُ غرورِ

وقال فى إهدار معاوية دمه إن هو زارها :

إن تك لُبنى قد أتى دون قربها * حجابٌ منيعٌ ما اليــه سبيــلُ
فإن نسيمَ الجوّ يجمع بيننا * ونُبصر قَرنَ الشمس حين تزولُ
وأرواحُنا بالليل فى الحىّ تلتقى * ونعلَم أنّا بالنهار نَقيــلُ
وتجمعنا الأرضُ القَرار وفوقنا * سماءٌ نرى فيها النجومَ تجولُ
الى أن يعودَ الدهرُ سَلْماً وتنقضى * تِراتٌ بغاها عندنا وذُحولُ (١)

ولما انصرف الناس من الحج مرض قيس مرضا شديدا فلم يأته رسولها عائدا، فقال:

ألُبنى لقد جلّتْ عليك مصيبتى * غداةَ غدٍ إذ حلّ ما أتوقّعُ
تُمنّيننى نَيْلاً وتَلْويننى قِلَى * فنفسىَ شوقاً كلَّ يومٍ تَقطّعُ
وقلبُك قطُّ لا يلين لما يَرى * فوا كبِدى قد طال هذا التضرّعُ
ألومُك فى شأنى وأنتِ مُليمةٌ * لعمرى وأجفَى للمحب وأقطعُ
أُخُبِّرتِ أنى فيك ميتٌ حسرتى * فما فاض من عينيك للوجد مدمعُ
ولكن لعمرى قد بكيتُك جاهدا * وإن كان دائى كلُّه منك أجمعُ
صبيحةَ جاء العائداتُ يعُدْنَنى * فظلّتْ علىّ العائداتُ تَفَجّعُ
فقائلةٌ جئنا اليه وقد قضى * وقائلةٌ لا بل تركناه ينزِعُ
فما غَشِيتْ عينيك من ذاك عَبرةٌ * وعينى على ما بى بذكراكِ تدمعُ
اذا أنتِ لم تبكى علىّ جنازة * لديك فلا تبكى غدا حين أُرفعُ

(١) ذحول : جمع ذحل وهو الثأر .

ومن شعره قوله :

أتبكى على لُبنى وأنت تركتَها * وكنت عليها بالملا(١) أنت أقدرُ
فإن تكن الدنيا بلُبنى تقلّبتْ * علىّ فللدنيا بطونٌ وأظهرُ
لقد كان فيها للأمانة موضعٌ * وللكفّ مُرْتادٌ وللعين منظرُ
وللحائم العطشانِ رِىّ بريقها * وللمَرِح المختال خمرٌ ومُسْكِرُ
كأنى لها أرجوحةٌ بين أحبُلٍ * اذا ذُكرةٌ منها على القلبِ تَخْطُرُ

وقوله :

لقد عذّبتَنى ياحب لبنى * فقعْ إمّا بموتٍ أو حياةِ
فانّ الموتَ أروحُ من حياة * تدوم على التباعُدِ والشتاتِ
وقال الأقربون تَعَزَّ عنها * فقلتُ لهم اذا حانتْ وَفَاتى

وقالت له لبنى : أنشدنى ما قلت فى علتك، فأنشدها قولَه :

أُعالج من نفسى بقايا حُشاشةٍ * على رَمَقٍ والعائداتُ تَعودُ
فان ذُكِرتْ لبنى هَشَشتُ لذكرها * كما هَشّ للثّدْى الدّرور وليدُ
أُجيب بلبنى من دعانى تجلُّدًا * وبى زَفَراتٌ تنجلى وتعود
تُعيد الى رُوحى الحياةَ وإنى * بنفسىَ لو عاينتنى لأجود

وفيها يقول :

ألا ليت أيامًا مَضينَ تعود * فإن عُدْنَ يومًا إننى لسعيدُ
سقى دارَ لبنى حيث حَلّتْ وخيّمت * من الأرض مُنْهَلُّ الغمام رعيدُ
على كل حالٍ إن دنتْ أو تباعدتْ * فإن تدنُ منّا فالدنوّ مَزيدُ
فلا اليأسُ يُسلينى ولا القربُ نافعِى * ولبنى مَنُوعٌ ما تكاد تجودُ
كأنىَ من لبنى سليمٌ مسهّدٌ * يظَلّ على أيدى الرجال يَميدُ
رمتنى لُبينى فى الفؤاد بسهمها * وسهم لبينى للفؤاد صَيُودُ

(١) الملا : موضع .

سلا كلّ ذى شجوٍ علمت مكانه * وقلبى للبنى ما حييتَ ودود
وقائلةٍ قد مات أو هو ميت * وللنفس منى أن تفيضَ رصيدُ

وعاتبته على تزوّجه، فحلف أنه لم ينظر اليها ملء عينيه، ثم قال :

ولقد أردتُ الصبرَ عنك فعاقنى * عَلَقٌ بقلبى من هواكِ قديمُ
يبقى على حَدَثِ الزمان ورَيْبه * وعلى جفائك إنه لكريم
فصَرَمْته وصَحَحْتِ وهو بدائه * شتّان بين مصحَّح وسقيم
وأريته زَمَنًا فعاذَ بحلمه * إن المحبّ عن الحبيب حليم

فلم يزل معها يحدّثها ويشكو اليها حتى أمسى، فانصرفت ووعدته الرجوع اليه من غد فلم ترجع، وشاع خبره، فلم ترسل اليه رسولا، فكتب هذين البيتين :

بنفسىَ مَنْ قلبى له الدهرَ ذاكرٌ * ومَنْ هو عنّى مُعرِضُ القلبِ صابرُ
ومَنْ حبُّه يزداد عندىَ جِدّةً * وحُبّى لديه مُخلِقُ العهدِ داثرُ

وقال ابن أبى عتيق لقيس يوما : أنشدنى أحرّ ما قلتَ فى لبنى؛ فأنشده :

وإنّى لأهوى النومَ فى غيرِ حينِه * لعلّ لقاءً فى المنامِ يكونُ
تحدّثنى الأحلام أنّى أراكُمُ * فياليتَ أحلام المنام يقينُ
شهِدْتُ بأنى لم أحُلْ عن مودّة * وأنى بكم لو تعلمين ضنينُ
وأن فؤادى لا يلينُ الى هوًى * سواكِ وإن قالوا بلَى سَيلينُ

وقال عبد الملك بن عبد العزيز : أنشدتُ أبا السائب المخزومىّ قول قيس :

أُحبُّكِ أصنافًا من الحبّ لم أجِدْ * لها مَثَلًا فى سائر الناس يوصفُ
فمنهن حبٌّ للحبيب ورحمةٌ * بمعرفتى منه بما يتكلّفُ
ومنهن ألّا يَعرِضَ الدهرَ ذكرُها * على القلب إلا كادت النفس تتلفُ
وحبٌّ بدا بالجسم واللون ظاهرٌ * وحبٌّ لدى نفسى من الروح ألطفُ

وقصيدة[1] قيس العينية من جيد شعره وهى

عفَا سَرِفٌ من أهله فسُرَاوِعُ * فجَنْبَا أَرِيكٍ فالتِّلاعُ الدوافعُ[2]

فَغَيْقَةُ فالأخيافُ أخيافُ ظَبْيَةٍ * بها من لبينى مَخْرَفٌ ومَرَابعُ[3]

لعلّ لُبينَى أن يُحَمَّ لقاؤها * ببعض البلادِ إن ما حُمَّ واقعُ[4]

بجِزْعٍ[5] من الوادى خلاء أنيسُه * عَفَا وتخطَّته العيونُ الخوادعُ

ولما بَدَا منها الفِراقُ كما بَدَا * بظَهْرِ الصَّفَا الصَّلْد الشقوقُ الشوائعُ[6]

تمنَّيتَ أن تَلْقَى لبيناكَ ، والمُنَى * تُعاصيك أحيانًا وحينًا تُطاوع

وما من حبيبٍ وامقٍ لحَبيبه * ولا ذى هوًى إلا له الدهر فاجعُ

وطار غرابُ البين وانشقّت العصا[7] * ببينٍ كما شَقَّ الأديمَ الصوانعُ

ألا يا غرابَ البينِ قد طِرتَ بالذى * أُحاذر من لبنى فهل أنت واقعُ

وإنك لو أبلغتَها قِيلَك اسلمِى * طوتْ حَزَنًا وارفَضّ[8] منها المدامعُ

أتبكى على لبنى وأنت تركتها * وكنتَ كآتٍ غَيَّه وهو طائعُ

فلا تبكِيَنْ فى إثر شىء ندامةً * اذا نزعتْه من يديك النوازع

فليس لأمرٍ حاول الله جَمْعَه * مُشِتٌّ[9] ولا ما فرّق اللهُ جامعُ

كأنك لم تَقْنَعْ اذا لم تُلاقِها * وإن تلقها فالقلبُ راضٍ وقانعُ

(١) وردت هذه القصيدة برمتها فى كتاب الأمالى لأبى على القالى (ج ٢ ص ٣١٤ — ٣١٨ طبعة دار الكتب المصرية) (٢) سرف وسراوع وأريك : . والتلاع : . وهى ما ارتفع من الأرض الى بطن الوادى . والدوافع : جمع دافعة وهى التى تدفع الماء . (٣) أخياف ظبية : موضع . والمخرف : المنزل الذى يقام فيه فى الخريف . والمرابع : جمع مربع وهو الموضع الذى يقام فيه فى الربيع . (٤) حم : قدر . (٥) جزع الوادى : منعطفه . وعفا : درس . والخوادع واحدها خادعة وهى التى لا تنام ، يقال : خدعت عينه تخدع اذا لم تنم ، وأتيناهم بعد ما خدعت العين . (٦) الصفا : الصخر . والصلد : الصلب الذى اذا أصابه شىء صلد أى صوّت . والشوائع : جمع شائعة وهى الظاهرة . (٧) أى تفرقت الجماعة . (٨) ارفض : سال ولا يكون إلا سيالا مع تفرق . (٩) مشت : مفرق .

فياقلبُ خبّرنى، اذا شَطّتِ النوى * بلُبْنى وصدّت عنك، ما أنت صانع

أتصبر للبين المشتّ مع الجَوَى * أم أنت آمرؤ ناسِى الحياء بجازعُ

فما أنا إن بانت لُبينى بهاجعٍ * اذا ما آستقلّت بالنِّيام المَضَاجعُ

وكيف ينام المرءُ مستشعِرَ الجوى * ضجيعَ الأَسى فيه نِكَاسٌ رَوَادعُ (٢)

فلا خير فى الدنيا اذا لم تُوَاتِنا * لُبَينى ولم يجمعْ لنا الشَّمْلَ جامعُ

أليست لبينى تحت سَقْفٍ يُكنّها * وإيایَ هذا إن نأت لىَ نافع

ويَلبَسُنا الليل البهيمُ اذا دَجَا (٣) * ونُبصرُ ضوءَ الصبح والفجرُ ساطع

تَطَأُ تحت رجليها بِساطًا (٤) وبعضُه * أَطَاهُ برِجْلِى ليس يَطويه مانع

وأفرح إن تُمسى بخيرٍ وإن يكن * بها الحَدَثُ العادِى تَرُعْنى (٥) الروائع

كأنكِ بِدْعٌ لم ترَ الناسُ قبلها * ولم يَطّلِعْك الدهرُ فيمن يطالع

فقد كنتُ أبكى والنوى مطمئنةٌ * بنا وبكم من علمِ ما البينُ صانعُ

وأهجرُكم هجرَ البَغِيض وحبُّكم * على كبدى منه كُلومٌ صوادعُ

وأعجَل للإشفاق حتى يَشُفَّنى * مخافةُ شحطِ الدار والشملُ جامعُ

وأعمِد للأرض التى من ورائكم * ليَرجِعَنى يومًا عليك الرواجعُ

فيا قلبُ صبرًا وآعترافًا (٦) لما ترى * ويا حبّها قَعْ بالذى أنت واقعُ

لعمرى لَمَنْ أمسىَ وأنتِ ضجيعُه * من الناس ما اختيرتْ عليه المضاجعُ

ألَا تلك لُبنى قد تَرَاخَى مَزارُها * وللبين غمٌّ ما يزال ينازعُ

اذا لم يكن إلا الجَوَى فكَفَى به * جَوَى حُرَقٍ قد ضُمِّنَتْها الأضالع

أبائنةٌ لبنى ولم تقطع المَدَى * بوصلٍ ولا صرمٍ فييأسَ طامعُ

(١) شطت : بعدت . (٢) المستشعر : الذى لبس الشعار وهو الثوب الذى يلى الجسد . والجوى : الهوى الباطن . والأسى : الحزن . ونكاس : جمع نكس بالضم . وروادع . جمع رادعة وهى التى تردعه عن الحركة والتصرّف . (٣) دجا : ألبس بظلمته كل شىء . (٤) البساط : ما بسط من الفرش .

(٥) ترعى : تفزعنى . (٦) اعترف : ذل وانقاد .

يظل نهارَ الوالهين نهارَه ... وتهدِئُه[(١)] فى النائمين المضاجعُ
سواى فليلى من نهارى وإنما ... تُقسَّمُ بين الهالكين المصارعُ
ولولا رجاءُ القلبِ أن تعطِفَ النوى ... لما حملته بينهن الأضالع
له وجبات[(٢)] إثرَ لبنى كأنها ... شقائقُ برقٍ فى السحاب لوامع
نهارى نهارُ الناس حتى اذا دجا ... لِىَ الليلُ هزّتنى اليك المضاجع
أُقضّى نهارى بالحديث وبالمنى ... ويجمعنى بالليل والهمّ جامع
وقد نشأتْ فى القلب منك مودةٌ ... كما نشأتْ فى الراحتين الأصابع
أبى الله أن يَلْقَى الرشادَ متيمٌ ... ألَا كلُّ أمرٍ حُمّ لا بد واقع
هما برّحا بى مُعْوِلَين كلاهما ... فؤادٌ وعينٌ مأقُها[(٣)] الدهرَ دامع
اذا نحن أنفدنا البكاءَ عشيةً ... فموعدُنا قرنٌ من الشمس طالع
وللحب آياتٌ تبيّنُ بالفتى ... شُحوبٌ وتعرى من يديه الأشاجع[(٤)]
وما كلّ ما منّتك نفسُك خاليًا ... تلاقى ولا كلّ الهوى أنت تابع
تداعتْ له الأحزانُ من كل وِجهةٍ ... فحنّ كما حنّ الظُؤارُ[(٥)] السواجع
وجانبَ قربَ الناس يخلو بهمّه ... وعاوده فيها هُيامٌ مُراجِعُ
أراكَ اجتنبتَ الحىّ من غير بِغضةٍ ... ولو شئتَ لم تجنح اليك الأصابع
كأنّ بلادَ الله ما لم تكن بها ... وإن كان فيها الخلقُ قفرٌ بلاقع
ألا إنما أبكى لما هو واقعٌ ... وهل جزَعٌ من وشك بينِك نافع
أحال علىّ الدهرُ من كل جانبٍ * ودامت ولم تُقلِع علىّ الفواجع
فمن كان محزونا غدًا لفراقنا ... فِلآن فليبكى لما هو واقع

(١) تهدئه : تسكنه . (٢) وجبات : خفقات . (٣) المأق من العين : الجانب الذى يلى الأنف . (٤) الأشاجع : عروق ظاهر الكف . (٥) الظؤار : جمع ظئر وهى التى عطفت على ولد غيرها . والسواجع : جمع ساجعة وهى التى تمد حنينها على جهة واحدة .

الشعر السياسى

أوضحنا لك فى المجلد الأوّل ما لاستعمال الشعر من أثر فى كثير من الحركات السياسية وآستحثاث العزمات وإنهاض الهمم فى الانقلابات الاجتماعية، وبيّنا ميّزة آستعمال الشعر فى الأغراض السياسية فى عصر الدولة الأموية، وذكرنا عدّة أمثلة تبيّن ما وصل إليه هذا النوع الطريف، ووعدناك بذكر قصيدة النعمان بن بشير فى هذا الباب . وها هى ذى :

النُّعمانُ بن بَشِير (١)

قال أبو الفَرَج الأصْفهانىّ :

لمـا كثر الهجاءُ بين عبد الرحمن بن حَسّان وعبد الرحمن بن الحَكَم بن أبى العاصى وتفاحَشا، كتب مُعَاوِيَةُ الى سَعِيد بن العَاصى، وهو عامِلُه على المدينة، أن يَجلِدَ كلَّ واحد منهما مائة سوط، وكان آبنُ حسّان صديقًا لسعيد وما مدَح أحدًا غيرَه قطّ، فكرِه أن يضربَه أو يضرب آبن عمّه، فأمسك عنهما، ثم ولِىَ مروانُ، فلما قدِم أخذ آبنَ حسّان فضربه مائة سَوْط ولم يضرب أخاه، فكتب آبنُ حسان الى النّعمان بن بشير وهو بالشأم، وكان كبيرًا أثيرًا (٢) مكِينًا عند معاوية، قال :

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد الأنصارى، من الخزرج أهل يثرب، لكنه ساير معاوية، فكان معه فى واقعة صفين، ولم يكن مع معاوية فى تلك الواقعة من الأنصار سواه . وقد اجتذبه بسخائه ودهائه وكان يراعى جانبه، وكثيرا ما سمع توسطه للأنصار عنده . وعاش النعمان المذكور الى خلافة مروان بن الحكم، وكان يتولى حمص، فلما أفضت الخلافة الى مروان دعا الى ابن الزبير وخالف على مروان بعد قتل الضحاك، فلم يجبه أهل حمص الى ذلك، فهرب منهم فتبعوه وأدركوه وقتلوه . وكان على مسايرته بنى أمية شديد التعصب للانصار، ولذلك عند ما علم بقصيدة الأخطل فى الطعن عليهم رد عليه . والنعمان بن بشير من العريقين فى الشعر خلفا عن سلف فان جده وأباه وعمه وأولاده وأحفاده كلهم شعراء . وهو أوّل مولود ولد فى الاسلام من الأنصار، وآخر من ولى الكوفة لمعاوية بن أبى سفيان . وله ديوان مطبوع فى الهند . توفى سنة ٦٥ هـ . وترى أخبار النعمان بن بشير فى الأغانى (ج ١٤ ص ١١٩) وأمالى القالى (ج ٣ ص ٨) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) وفى سيرة ابن هشام وابن خلكان وابن الأثير وغيرها . (٢) أثيرا : مكرّما .

ليت شِعْرى أغائبٌ أنت بالشا * م خَليلى أم راقدٌ نَعْمانُ
أيَّةً ما يكن فقد يَرجع الغا * ئبُ يوما ويُوقَظ الوَسْنَانُ
إن عَمْرًا وعامرًا أبوينا * وحَراماً قِدْمًا على العهد كانوا
أفَهُمْ مانِعوك أم قلّةُ الكُتّا * ب أم أنتَ عاتب غضبان
أمْ جَفاءٌ أمْ أعْوزَتْك القَراطيـ * ـسُ أم أمرى به عليك هَوان
يوم أُنبِئْتَ أن ساقِىَ رُضَّتْ * وأتتكم بذلك الرُّكبان
ثم قالوا إن آبن عمّك فى بَلْـ * ـوى أمورٍ أتى بها الحَدَثان
فنسيتَ الأرحامَ والوُدَّ والصُّحْـ * ـبَة فيما أتت به الأزمان
إنما الرمحُ فاعلمن قَنَاةٌ * أوكبعض العِيدان لولا السِّنان

قال أبو الفرج الأصبهانى :

دخل النعمانُ بن بَشِير على مُعَاوِية لما هجا الأخطلُ الأنصارَ ، فلما مَثَلَ بين يديه أنشأ يقول :

مُعَاوِىَ إلّا تُعْطِنا الحقَّ تَعترف * لِحَى الأزْد مَشدودًا عليها العَمائمُ
أيَشْتُمُنا عبدُ الأراقم[1] ضَلّةً * وماذا الذى تُجدى عليك الأراقم
فما لِىَ ثأرٌ دُون قطع لِسانه * فدُونك من يُرضيه عنك الدراهم
وَراعِ رُوَيدًا لا تَسُمْنا دَنيّةً * لعلّك فى غِبِّ الحوادث نادم
متى تَلْقَ منا عُصْبةً خَزْرَجِيّةً * أو الأوْسَ يوماً تَخْتَرِمْك المَخارم
وتلقاك خَيْلٌ كالقَطا مُسْتَطِيرةٌ * شَمَاطِيطُ[2] أرْسَالٌ عليها الشَّكائم[3]
يُسَوّمُها العَمْران : عمرو بن عامرٍ * وعِمْرانُ حتى تُستباحَ المحارم
ويبدو من الخَود العَزيزَةِ حِجْلُها * وتَبْيَضّ من هَوْل السيوف المَقَادم
فتَطْلُبَ شَعْبَ الصَّدْع بعدَ التئامه * فتُفْرِيَه فالآن والأمرُ سالم

(١) الأراقم : حىٌّ من بنى تغلب . (٢) شماطيط : متفرقة . (٣) الشكائم : جمع شكيمة وهى الحديدة المعترضة فى فم الفرس .

وإلا فثوبى لأمّــةٌ تُبَّعِيّــةٌ * تــوارِيثُ آبائى وأبيضُ صارم
وأسمَــرُ خَطِّيٌّ كأن كُعُوبَهُ * نَوى القَسْب فيهـا لَهْذَمِيٌّ خُذَارِم
فإن كنتَ لم تَشْهَد بِبَدرٍ وقيعةً * أذلَّتْ قُرَيْشًا والأُنوفُ رواغِم
فَسَائِلْ بِنا حَيَّيْ لُؤَىّ بن غَالِبٍ * وأنتَ بما يَخْفَى من الأمرِ عالم
ألم تَتَبدَّر يومَ بَدْر سيوفُنا * ولَيْلُكَ عمّا ناب قومَــك قاتم
ضَرَبْناكُمُ حتى تفرّق جمعكم * وطارت أكُفٌّ منكمُ وجماجم
وعاذَتْ على البيْت الحرام عَرَائسٌ * وأنت على خوفٍ عليك التمائم
وعَضّت قريشٌ بالأنامل بِغضةً * ومِنْ قَبْلُ ماعضّتْ عليك الأداهم
فكنّا لها فى كلّ أمرٍ تَكِيده * مكانَ الشَّجَا والأمرُ فيــه تَفَاقُم
فما إن رَمَى رَامٍ فأوْهَى صَفَاتَنا * ولا ضامَنَا يومًا من الدهرِ ضائم
وإنّى لأُغضِى عن أمــورٍ كثيرة * سَتَرْقَى بها يومًا إليك السلالم
أُصَانِع فيها عبدَ شَمْس وإنّنى * لِتلك التى فى النفس منى أُكاتم
فما أنتَ والأمرَ الذى لستَ أهله * ولكن وَلِىُّ الحق والأمرِ هاشم
إليهم يَصير الأمرُ بعد شَتَاتِه * فَمَنْ لك بالأمرِ الذى هو لازِم
بِهم شَرَعَ اللهُ الهدى فاهتدى بهم * ومنهم له هادٍ إمامٌ وخاتم

فلما بلغت القصيدةُ معاويةَ أمر بدفع الأخطل اليه ليقطعَ لسانَه، فاستجار بيزيد ابن معاوية، فمنعه منه، وأرضى النعمانَ حتى كفّ عنه .

وقال عمرو بن أبى عمرو الشَّيْبانىّ عن أبيه : لما ضرب مَرْوانُ بن الحَكَم عبدَ الرحمن ابن حسّان الحَدَّ ، ولم يضرب أخاه حين تَهاجَيا وتقاذفا ، كتب عبدُ الرحمن الى النعمان ابن بشير يشكو اليه ، فدخل الى معاوية، وأنشأ يقول :

يابنَ أبى سُــفْيَانَ ما مِثْلُنا * جارَ عليــه مَلِكٌ أو أ
أُذكُرْ بنا مُقْــدَمَ أفراسِنا * بالخِنْو إذ أنتَ الينا فقير

واذكر غَداةَ الساعِدىّ الذى * آثركم بالأمر فيها بَشِرْ
فاحذَرْ عليهم مثلَ بدرٍ وقد * مرّ بكم يومٌ به
إنّ ابن حسّان له ثائر * فاعْطِه الحقّ تصِحّ الصدور
ومثل أيامٍ لنا شتّتَتْ * مُلْكا لكم أمرُكَ فيها صغير
أما ترى الأزْدَ وأشياعَها * تجول خُزْرًا كاظِماتٍ تَزِير
يصُول حَوْلى منهم معْشَرٌ * إن صُلْتُ صالوا وهُمُ لى نَصير
يأبى لنا الضَّيمَ فلا يُعْتَلى * عِزٌّ منيع وعديدٌ كثير
وعُنْصُرٌ فى عِزّ جُرْثومةٍ * عادِيّةٍ تنقلُ عنها الصّخور

مُلحَق
الكتاب الثانى

باب المنثور

شرحنا لك فى المجلد الأوّل ما كانت عليه الكتّابة فى عصر العباسيّين من جَودة اللفظ، ومتانة الأسلوب، وجَلاء المعنى، ووضوح القصد وبساطته . ووعدناك بذكر طُرَف من رسائل القوم فى ذلك العصر الزاهى الزاهر؛ وإليك ما وعدناك به :

١ ــ مُشَاوَرَةُ المهدىّ لأهلِ بيته فى حرب خُراسان

قال ٱبنُ عبد ربّه فى العِقْد الفريد :

هذا ما تراجعَ فيه المهدىّ ووزراؤه وما دار بينهم من تدبير الرأى فى حرب خُرَاسان أيامَ تحامَلَتْ عليهم العمالُ وأعنفتْ، فحملتهم الدَّالّة وماتقدّم لهم من المكانة على أن نَكَثوا بَيْعَتَهم، ونقضوا مَوْثِقهم، وطردوا العمال، وٱلتوَوْا بما عليهم من الخَرَاج؛ وحمل المهدىّ مايُحِبّ من مصلحتهم ويكره من عَنَتهم على أن أقال عَثْرَتَهم، وٱغتفر زلّتهم، وٱحتمل دالّتهم، تطوّلا بالفضل وٱتّساعا بالعفو، وأَخْذًا بالحُجّة ورِفقا بالسياسة؛ ولذلك لم يزل مُذْ حمّله الله أعباءَ الخلافة وقلّده أمورَ الرعيّة رفيقا بمَدار سلطانه، بصيرا بأهل زمانه، باسطًا للمَعْدِلَة فى رَعِيّته، تسكن الى كَنَفه وتأنَس بعفوه وتثِق بحِلمه ؛ فإذا وقعت الأَقْضِيَةُ اللازمةُ والحقوقُ الواجبة، فليس عنده

هَوَادة ولا إغضاء ولا مُداهَنة ، أثَرَةً للحق وقياما بالعدل وأَخْذاً بالحزم ؛ فدعا أهلَ خراسان الاغترارُ بحلمه والثِّقة بعفوه أن كَسروا[1] الخراج وطَرَدوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحقّ ، ثم خلطوا احتجاجا باعتذار ، وخصومةً بإقرار ، وتَنَصُّلا باعتلال ؛ فلما انتهى ذلك الى المهدىّ خرج الى مجلس خَلَائه وبعث الى نَفَرٍ من لُحْمَته ووزرائه ، فأعلمهم الحالَ واستنصحهم للرعيّة ، ثم أمر المَوالى بالابتداء ، وقال للعباس بن محمد : أى عَمِّ ! تَعَقَّبْ قولَنا وكن حَكَماً بيننا ، وأرسل الى وَلَدَيْه موسى وهارون ، فأحضرهما الأمرَ وشاركَهُما فى الرأى ، وأمر محمدَ بن اللَّيث[2] بحفظ مراجعتهم ، وإثبات مقالتهم فى كتاب .

فقال سلّام[3] صاحبُ المظالم :

أيها المهدىّ ، إنّ فى كل أمر غاية ، ولكل قوم صِناعة ، استفرغَتْ رأيَهم ، واستغرقت أشغالَهم ، واستنفدت أعمارَهم ، وذهبوا بها وذهبت بهم ، وعُرِفوا بها وعُرِفت بهم ؛ ولهذه الأمور التى جعلتنا فيها غاية ، وطلبت معونتَنا عليها أقوامٌ من أبناء الحرب وساسَةِ الأمور وقادةِ الجنود وفُرسانِ الهَزاهِز[4] وإخوانِ التجارِب ، وأبطالِ الوقائع ؛ الذين رَشَّحتهم سِجَالها ، وفَيَّأتهم ظلالُها ، وعضّتهم شدائدُها ، وقَرَمتهم نواجذُها ؛ فلو عَجَمتَ ما قِبَلهم ، وكشفتَ ما عندهم ؛ لوجدتَ نظائرَ تؤيِّد أمْرَك ، وتجارِبَ توافِق نَظَرَك ، وأحاديثَ تقوِّى قلبَك ؛ فأما نحن معاشِرَ عُمّالك ، وأصحاب دواوينك ، فحَسَنٌ بنا وكثيرٌ منا أن نقوم بثقل ما حمّلتنا من عملك ، واستودعتنا من أمانتك ، وشغلتنا به من إمضاء عَدْلك ، وإنفاذ حُكْمك ، وإظهار حقّك .

فأجابه المهدىّ : إنّ فى كل قوم حكمة ، ولكل زمان سياسة ، وفى كل حال تدبيرا يبطل الآخِرُ الأوّلَ ، ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا .

---

(١) كسروا الخراج أى كفوا عن أدائه . (٢) هو ابن الليث بن نصر بن سيار . وكان أرسل المهدىّ أباه الليث لمحاربة المقنع فلم يتمكن منه . وكان ابنه محمد هذا من كتاب المهدى ولم تعرف سنة وفاته .

(٣) هو سلام بن الأبرش ، استعمله المنصور ثم تولى العقوبات فى أيام المهدى . (٤) الهزاهز : تحريك البلايا والحروب فى الناس .

قال : نعم أيها المهدىّ ، أنت مُتَّبع الرأى ، وَثِيق العُقْدة ، قَوِىّ المُنَّـة (١) ، بليغ الفِطْنة ، معصوم النيّـة ، مَحْضور الروِيّة ، مؤيَّد البديهة ، موفَّق العزيمة ، مُعَانٌ بالظَّفَر ، مَهْدِىّ الى الخير ، إن هممتَ نَفَى عزمُك مواقِـعَ الظنّ ، وإن آجتمعت صَدَع فعلُك مُلْتَبِس الشك ؛ فاعْزِم يَهْـدِ اللهُ الى الصواب قلبَك ، وقُلْ يُنْطِق اللهُ بالحقّ لسانك ؛ فإنّ جنودك جَمّـة ، وخزائنك عامرة ، ونفسك سخيّة ، وأمرك نافذ .

فأجابه المهـدىّ : إنّ المُشاورة والمنـاظرة بابَا رحمة ، ومِفْتاحا بركة ؛ لا يَهْلِك عليهما رأىٌ ، ولا يَتَغيّل (٢) معهما حزم ، فأشيروا برأيكم ، وقولوا بما يحضُركم ؛ فإنى من ورائكم ، وتوفيقُ الله من وراء ذلك .

قال الربيـــع :

أيهـا المهدىّ ، إنّ تصاريف وُجُوه الرأى كثيرة ، وإنّ الإشارة ببعض مَعَـاريض (٣) القول يسيرة ؛ ولكن خراسان أرضٌ بعيدة المسافة ، مُتَراخِية الشُّقّة ، مُتَفاوِتة السبيل ؛ فإذا آرتأيْت من مُحْكَم التدبير ، ومُبْرَم التقدير ، ولُباب الصواب ، رأْيًا قد أحكمه نَظَرُك ، وقلّبه تدبيرك ، فليس وراءَه مَذْهبٌ طاعن ، ولا دُونه مَعْـلَقٌ لخصومةِ عائب ؛ ثم أَجْبَتَ البُرُدَ به ، وآنطوتْ الرسلُ عليه ، كان بالحَرَى ألّا يصل اليهم مُحكَمُه إلا وقد حدث منهم ماينقُضه ؛ فمـا أيْسَر أن ترجع اليك الرسل ، وتردّ عليك الكتب بحقائق أخبارهم ، وشوارد آثارهم ، ومصادر أمورهم ؛ فتُحْدِث رأيا غيره وتَبْتَدِع تدبيرًا سواه ؛ وقد آنفرجت الحِلَق ، وتحلّلت العُقَـد ، وآسترخى الحِقاب (٤) ، وآمتدّ الزمانُ ، ثم لعلّمـا مَوْقع الآخرة كَمَصْدر الأُولى ؛ ولكن الرأى لك أيها المهدىّ — وفّقك الله — أن تَصْرِف إجالةَ النّظر ، وتقليبَ الفِكَر ، فيما جمَعْتنا له ، وآستشرْتَنا فيه من التدبير لحربهم ، والحِيَل فى أمرهم ، الى الطلب لرجلٍ ذى دِين

(١) المنـة : القوة . (٢) لا يتغيل : لا يضعف (٣) معاريض الكلام ما عرّض به ولم يصرّح وهى التورية بالشىء عن الشىء . (٤) الحِقاب شىء تتخذه المرأة تعلق به معاليق الحلىّ تشدّه على وسطها .

فاضل، وعقــل كامل، وورَع واسع، ليس موصوفًا بهوًى فى سِواك ، ولا متّهما فى أثَرة عليك ، ولا ظَنِينًا[(١)] على دُخْلَةٍ مكروهة، ولا منسوبا الى بدعة محذورة؛ فيَقْدَحَ فى مُلْكك، ويُرَبِّضَ[(٢)] الأمورَ لغيرك ؛ ثم تُسنِد اليــه أمورَهم، وتفوض اليه حربهم ، وتأمُره فى عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك مالَزِمه الحزمُ، وخلافِ نَهْيك اذا خالَفه الرأىُ عندآستحالة الأمور، وآشتدادِ الأحوال التى يُنْقَضُ أمرِ الغائبِ عنها ، ويَثْبُتُ رأىُ الشاهد لهــا ؛ فإنه اذا فعل ذلك فوَاثب أمرَهم من قريب، وسقَط عنه مايأتى من بعيد، تّمت الحيلةُ وقَوِيت المكيدةُ، ونَفَذ العمل وأُحِدّ النظر، إن شاء الله .

قال الفضل بن العباس :

أيها المهدىّ ، إن وَلِىَّ الأمورِ وسائس الحروب ربما نَحّى جنودَه، وفرّق أموالَه فى غير ماضِيقِ أمرٍ حَزَبه، ولا ضَغْطَةِ حال آضطرته؛ فيَقْعد عند الحاجة إليها ، وبعد التّفرقة لهــا عَدِيما منها فاقدا لها ، لا يثِق بقوّة، ولا يصول بعُدّة، ولا يفزَع الى ثقة ؛ فالرأىُ لك أيها المهدى — وفقــك الله — أن تُعفِى خزائنَك من الإنفاق للاموال ، وجنودَك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتغريرِ القتال، ولا تُسْرِع للقوم فى الإجابة الى ما يطلبون ، والعطاءِ لمــا يسألون؛ فَيفسُد عليــك أدبُهم ، وتُجرِئَ من رعيّتــك غيرَهم؛ ولكن آغْزُهُم بالحيــلة، وقاتِلهم بالمكيدة، وصارِعهم باللّين، وخاتِلهم بالرِّفق، وأَبْرِق[(٣)] لهم بالقول، وأَرْعِد نحوهم بالفعل، وآبعث البُعُوثَ[(٤)]، وجنِّد الجنود، وكتِّب الكتائب، وآعقِد الألوية، وآنصب الرايات، وأظهِر أنك موجِّه اليهم الجيوش مع أحْنَق قوادك عليهم، وأسوَئِهم أثرًا فيهــم ؛ ثم آدْسُس الرُّسُل، وآبثُث الكتب، وضَعْ بعضَهم على طَمَع من وعدك ، وبعضًا على خوف

(١) ظنينا : متهما . ودخلة مكروهة : أى نية سيئة . (٢) ربضه أى أثبته .

(٣) أبرق وأرعد بمعنى تهدّد وتوعد . (٤) البعوث : الجيوش .

من وعيدك ، وأوقد بذلك وأشباهه نيرانَ التحاسد فيهم ، وأغرِس أشجار التنافس بينهم، حتى تُملأَ القلوبُ من الوحشة ، وتنطوى الصدورُ على البِغْضة ، ويدخل كلًّا من كلٍّ الحذرُ والهيبةُ ، فإنّ مرام الظَّفر بالغِيلة ، والقتالَ بالحيلة ، والمُناصبة بالكتب ، والمكايَدة بالرُّسل ، والمقارعةَ بالكلام اللطيف المُدْخَل فى القلوب ، القوىَّ المَوْقِع من النفوس ، المعقودِ بالحُجَج ، الموصولِ بالحيل ، المبنىِّ على اللّين الذى يستميل القلوبَ ، ويَسْتَرِق العقولَ والآراء ، ويستميل الأهواءَ ، ويستدعِى المُواتاة ، أنفــذُ من القتال بظُبَات السيوف وأسنّة الرماح ؛ كما أنّ الوالىَ الذى يَسْتَنزِل طاعةَ رعيّته بالحيل ، ويفرّق كلمة عدوّه بالمكايدة ، أحكمُ عملًا وألطفُ منظرًا وأحسن سياســة من الذى لا ينــال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال والتغرير والخِطار (١)

ولْيَعْلم المهــدىُّ أنه إن وجّه لقتالهم رجلا لم يَسِرْ لقتالهم إلا بجنود كثيفة ، تخرج عن حال شديدة ، وتُقْــدِم على أسفار ضيّقة ، وأموال متفرّقة ، وقوّاد غَشَشَةٍ ؛ إن آئتمنهم آستنفدوا مالَه ، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له .

قال المهدىّ : هذا رأىٌ قد أسفر نورُه ، وأبرق ضَوءُه ، وتمثّل صوابُه للعيون ، ومجدُ (كذا) حقّه فى القلوب ، ولكن فوق كلّ ذى علم عليم ؛ ثم نظر الى آبنه علىّ فقال : ما تقول ؟

قال على :

أيهــا المهدىّ ، إنّ أهل خراسان لم يَخْلَعوا عن طاعتك ، ولم يَنْصِبوا من دونك أحدًا يَقْدَح فى تغييــر مُلكك ، ويُرَبِّض الأمورَ لفساد دولتك ؛ ولو فعلوا لكان الخَطْب أيسر ، والشأن أصغر والحال أذلّ ، لأنّ الله مع حقّه الذى لا يَخْذُله ، وعند موعده الذى لا يُخلفُه ، ولكنهم قومٌ من رعيّتك ، وطائفة من شِيعَتك الذين جعلك الله عليهم والِيًا ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكمًا ، طلبوا حقًّا ، وسألوا إنصافًا ، فإن أجبْتَ الى دعوتهم ونفَّستَ (٢) عن

(١) الخطار : الاشراف على هلكة

(٢) نفست عنهم : فرجت عنهم .

قبل أن يَتلاحَم منهم حال، أو يحدُث من عندهم فَتْقٌ، أطعتَ أمر الربِّ، وأطفأت ثائرة[1] الحـرب، ووفَّرتَ خزائنَ المـال، وطرحت تغريرَ القتال، و مَن النـاسُ تحمَّل ذلك على طبيعة جُودك، وسجيّة حلمك، وإسْجَاح[2] خليقتك، ومَعْدَلة نظرك، فأمِنتَ أن تُنْسَب الى ضَعْف، وأن يكون ذلك فيما بَقِى دُرْبَة؛ وإن مَنَعْتَهـم ما طلبوا ولم تُجبهـم الى ما سألوا، اعتدلَتْ بك وبهم الحال، وساويتهـم فى مَيْدان الخِطَاب؛ فما أَرَبُ المهدىّ أن يعمِد الى طائفة من رعيّتـه ، مقرِّين بمملكته، مُذْعِنين لطاعته ، لا يُخْرِجون أنفسهم عن قدرته ، ولا يُبرِئونها من عُبُوديّته، فيُمَلِّكَهُم أنفسَهم ويخلَع نفسَه عنهم، ويقِفَ على الحِيَل معهم، ثم يجازِيهم السوءَ فى حدّ المنازعة ومِضمار المخاطرة؛ أيريد المهدىّ — وفّقه الله — الأموالَ؟ فلعمرى لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر منها ، ممـا يطلب منهم وأضعاف ما يدّعى قبلهم، ولو نالها لَحُمِلت اليه، أو وُضِعت بخرائطها[3] بين يديه، ثم تجافَى لهم عنها وطال عليهم بها، لكان ممـا اليه يُنْسَب وبه يُعْرف من الجود الذى طبعه الله عليه ، وجعل قُرّة عينـه ونَهْمَة نفسه فيه؛ فإن قال المهدىّ : هذا رأى مستقيم سديد فى أهل الخَرَاج الذين شكَوْا ظُلْم عمّالنا، وتحامُلَ وُلَاتنـا؛ فأما الجنودُ الذين نقَضُوا مواثيق العهود، وأنطَقوا لسانَ الإرجاف[4] وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغى لهم أن أجعلهم نَكَالا لغيرهم وعِظَةً لسواهم؛ فيعلمَ المهدىّ أنه لو أُتِىَ بهـم مغلولين فى الجديد، مقرَّنين فى الأَصْفاد، ثم اتّسع لِحَقْن دمائهم عَفْوُه، ولإقالة عثرتهم صَفْحُه، واستبقاهم لمـا هم فيه من حَرْبه، أو لمن بإزائهـم من عَدُوّه، لَمـا كان بِدْعا من رأيه، ولا مُسْتَنْكَرًا من نظره، لقـد عَلِمت العربُ أنه أعظم الخلفاء والملوك عفوًا، وأشدُّها وَقْعا، وأصدقها صوْلة ؛ وأنه لا يَتَعاظَمه عفوٌ،

(١) ثائرة الحرب : ما اشتعل واتقد منها .

(٢) الإسجاح : مصدر أسجح الوالى . اذا أحسن العفو .

(٣) الخريطة : وعاء من أدم وغيره .

(٤) الارجاف : مصدر أرجف القوم اذا خاضوا فى أخبار الفتن على أن يوقعوا فى الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شىء .

ولا يَتَكاءَدَه صفح، وإن عظم الذنب وجلّ الخطب، فالرأى للمهدىّ — وفّقه الله تعالى — أن يَحُلّ عُقْدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله فى العفو عنهم، وأن يذكر أُولَى حالاتهم وضَيْعة عِيالاتهم، بِرًّا بهم وتوسُّعًا لهم؛ فإنهم إخوان دولته، وأركان دعوته، وأساس حقّه الذين بعزّتهم يصول، وبحجّتهم يقول؛ وإنما مَثَلُهم فيما دخلوا فيه من مَسَاخطه، وتعرّضوا له من معاصيه، وٱنطوَوْا فيــه عن إجابته، ومَثَلُه فى قلّة ما غيّر ذلك من رأيه فيهم، أو نُقِل من حاله لهم، أو تغيّر من نعمته بهـم، كَمَثَل رَجُلَيْن أَخَوَيْن متناصِرَين متآزِرَيْن، أصاب أحدَهما خَبَــلٌ عارضٌ، ولَهْوٌ حادث، فنهض الى أخيه بالأذى، وتحامَل عليــه بالمكروه، فلم يَزْدَد أخوه إلا رِقّة له ولُطْفًا به، وٱحتيالا لمُداواة مرضه ومراجعةِ حاله؛ عَطْفًا عليــه وبِرًّا به ومرحمةً له

فقال المهــدىّ : أما علىّ فقد كوى سَمْتَ اللَّبَان، وفَضَّ القلوبَ فى أهل خراسان، ولكل نَبَأ مُسْتَقَرّ، ثم قال : ما ترى يا أبا محمد؟ يعنى موسى ٱبنه .

فقال موسى :

أيها المهدىّ، لا تَسْكُن الى حَلاوة ما يَجرى من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماءَ تسيل من خَلَل فعلهم؛ الحَالُ من القوم ينادى بمُضْمَرة شرّ، وخَفِيّة حقد؛ قد جعلوا المعاذير عليها سِــتْرا، وٱتخذوا العِللَ من دونها حِجَابا؛ رَجَاءَ أن يُدافِعوا الأيامَ بالتأخير، والأمورَ بالتطويل؛ فيكسِروا حيــل المهدىّ فيهم، ويُفْنُوا جنودَه عنهـم حتى يَتلاحَم أمرُهم، وتتلاحق مادّتُهم، وتستفحل حربهم، وتستمر الأمور بهم؛ والمهــدىّ من قولهم فى حال غِرّةٍ ولباس أَمَنَــةٍ، قد فَترَلهـا وأنِس بها وسكَن اليها؛ ولولا ما ٱجتَمَعت به قلوبُهــم، وبَردتْ عليه جلودُهم من المُنَاصَبة بالقتال، والإضمار للقِراع عن داعِيَة ضَلالٍ، أو شيطان فسادٍ، لَرَهبوا عواقبَ أخبار الوُلاة، وَغِبَّ سكون الأمور؛ فلْيَشْدُد المهدىّ — وفّقه الله —

لا يتكاءده : لا يشق عليه .

أَزْرَه لهم ويَكْتُب كتائبَه نحوهم ، وليضَع الأمر على أشـدّ ما يحضُره فيهم ، وليُوقِن أنه لا يعطيهم خُطّةً يريد بهـا صلاحَهم إلا كانت دُرْبَةً الى فسادهم ، وقوّةً على معصيتهم ، وداعيـة الى عودتهم ؛ وسببًا لفساد من بحَضْرَته من الجنود ، ومن ببابه من الوفود ، الذين إن أقرّهم وتلك العادة ، وأجْراهُم على ذلك الأرب ، ولم يَبْرَح فى فَتْقٍ حادثٍ وخِلافٍ حَاضِر ؛ لا يصلُح عليه دِين ، ولا تستقيم به دنيا ؛ وإن طَلَب تغييره بعد آستحكام العادة ، وآستمرار الدُّربةِ ، لم يصل الى ذلك إلّا بالعقوبة المفرِطَـة ، والمؤونة الشـديدة ، والرأى للمهـدىّ وفّقـه الله — ألّا يُقِيـل عثرتَهم ، ولا يقبـل مَعْذِرتهم ، حتى تطَأَهم الجيوش ، وتأخذهم السيوف ، ويَسْتَحِرّ[1] بهم القتل ، ويُحْدِق بهم الموت ، ويُحيط بهم البـلاء ، ويُطْبِق عليهم الذلّ ؛ فإن فعل المهدىّ بهم ذلك ، كان مَقْطَعَة لكل عادة سُوءٍ فيهم ، وهزيمةً لكل بادرة شرٍّ منهـم ، وآحتمالُ المهدىّ مؤونة غَزْوَتهم هـذه يَضَعُ عنـه غزواتٍ كثيرة ، ونفقاتٍ عظيمـــة .

قال المهدىّ : قد قال القوم فآحكم يا أبا الفضل .

فقال العباس بن محمد :

أيها المهـدىّ :

أما المَوَالى فأخَذُوا بفُـروع الرأى ، وسلَكوا جَنَبات الصواب ، وتَعَدّوا أمورا قصَّر بنظرهم عنها أنه لم تأتِ تجاربُهم عليها .

وأما الفضـل فأشار بالأموال ألّا تُنْفَـق ، والجنـود ألّا تفرّق ، وبألا يعطى القـوم ما طلبوا ، ولا يبذَل لهم ما سألوا ، وجاء بأمرٍ بَيْن ذلك آستصغارًا لأمرهم وآستهانة بحربهم ؛ وإنمـا يَهِيج جَسِيمات الأمور صغارُها .

---

(١) يستحرّ : يشتدّ ويقوى .

وأما علىّ فأشار باللّين وإفراط الرّفق، وإذا جرّد الوالى لمن غمط أمره[1] وسفه حقّه، اللّينَ بحتًا والخير محضًا، لم يخلطهما بشدّة تعطف القلوبَ عن لينه، ولا بشرّ يحبسهم الى خيره، فقد ملّكهم الخلَع لعُذُرهم[2] ووسّع لهم الفُرجة لثَنْى أعناقهم؛ فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطرهم ولا شدّة، فَنَزوةٌ[3] فى رءوسهم يستدعون بها البلاءَ الى أنفسهم، ويستصرخون بها رأى المهدىّ فيهم؛ وإن لم يقبلوا دعوته ويُسرعوا لإجابته باللّين المحض والخير الصّراح، فذلك ما عليه الظنّ بهم والرأى فيهم، وما قد يُشْبه أن يكون من مثلهم، لأن الله تعالى خَلق الجنّة وجعل فيها من النعيم المقيم والمُلك الكبير ما لا يخطُر على قلب بشر ولا تدركه الفِكَر ولا تعلمه نفس، ثم دعا الناس إليها ورغّبهم فيها، فلولا أنه خلق نارا جعلها لهم رحمة يسوقهم بها الى الجنّة، لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما موسى فأشار بأن يُعصَبوا[4] بشدّة لا لينَ فيها، وأن يُرمَوْا بشرّ لا خير معه، وإذا أضمر الوالى لمن فارق طاعته، وخالف جماعته، الخوفَ مُفْردًا، والشرّ مجرّدًا، ليس معهما طمع ولا لين يثنيهم، اشتدّت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم الى أحد أمرين : إما أن تدخُلَهم الحَمِيّة من الشدّة، والأنَفَةُ من الذّلة، والامتعاضُ من القَهْر، فيدعوهم ذلك الى التمادى فى الخلاف، والاستبسالِ فى القتال، والاستسلامِ للموت؛ وإما أن ينقادُوا بالكُره، ويُذْعِنوا بالقهر على بِغْضَةٍ لازمة، وعداوة باقية، تُورِث النِّفاق وتُعقِب الشِّقاق؛ فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويَتْ لهم حال؛ عاد أمرهم الى أصعب وأغلظ وأشدّ مما كان .

(١) غمط الأمر : ازدراه . وسفه حقه : امتهنه وبخسه

(٢) العذر جمع عذار .

(٣) النزوة : الوثوب الى الشرّ .

(٤) عصب الشىء : لواه وشدّه .

وقال فى قول الفضل :

أيها المهدىّ ، أكفَى دليل ، وأوضح برهان ، وأبْيَنُ خبرٍ بان ؛ قد أجمع رأيُه وحَزُم نظرُه على الإرشاد ببِعْثَة الجيوش اليهم ، وتوجِيه البُعُوث نحوهم ، مع إعطائهم ماسألوا من الحقّ ، وإجابتهم الى ما سألوه من العدل .

قال المهدىّ : ذلك رأىٌ .

قال هارون :

ما خُلِطتْ الشدّةُ أيها المهدىّ باللّين ، وآنتظم أمر الدنيا بالدين ، فصارت الشدّة أمرَ فِطامٍ[1] لمـا تكره ، وعاد اللين أهدى قائد الى ما تُحِبّ ؛ ولكن أرى غير ذلك .

قال المهدىّ :

لقد قلتَ قولا بديعًا ، خالفتَ فيه أهل بيتك جميعا ؛ والمرءُ مؤتَمَن بمـا قال ، وظَنِين[2] بما آدّعى حتى يأتى ببيّنة عادلة ، وحجّة ظاهرة ، فآخرج عما قلتَ .

قال هارون :

أيها المهدىّ ، إن الحرب خُدْعة ، والأعاجمَ قَوْمٌ مَكَرَة ؛ وربما آعتدلت الحـالُ بهم ، وآتفقت الأهواءُ منهم ؛ فكان باطن ما يُسِرّون على ظاهر ما يُعْلِنون ، وربما آفترقت الحالَان ، وخالَف القلبُ اللسان ، فآنطوى القلب على مَحْجُوبةٍ تُبْطَن ، وآستَتَر بمدخُولةٍ لا تُعْلَن ؛ والطبيبُ الرفيقُ بِطبّه ، البصيرِ بأمره ، العالم بمقدَّم يده وموضِع مِيسَمه[3] ؛ لا يتعجّل بالدواء ، حتى يقع على معرفة الداء ، فالرأىُ للمهدىّ — وفّقه الله — أن يَفُرّ باطنَ أمرهم فَرّ المُسِنّة[4] ، ويَمْخَض ظاهر حالهم مَخْضَ السِّقاء بمتابعة الكتب ، ومظاهرة الرسل ، ومُوَالاة

(١) الفطام هنا : القطع والاستئصال .

(٢) ظنين بما ادعى : متهم بدعواه .

(٣) الميسم : المكواة يوسم بها الحيوان .

(٤) فرّ الدابة : فتح فاها وكشف عن أسنانها ليعلم ما سنها . والمسنّ من الدواب ما دخل فى الثامنة

العيون ، حتى تُهتَك حجبُ عيونهم ، وتُكشف أغطِية أمورهم ؛ فإن انفرجَتِ الحال، وأفضَتِ الأمور به الى تغيير حال أو داعيةِ ضَلال ، اشتملت الأهواءُ عليه ، وانقاد الرجال اليه، وامتدّت الأعناقُ نحوه بدين يعتقدونه، والإثم يَستحِلّونه، عَصَبهم بشدّة لا لِينَ فيها، ورماهم بعقوبة لا عفو معها، وإن انفرجت العيون، واهتُصِرت الستور، ورُفِعت الحُجُب، والحالُ فيهم مَريِعة، والأمورُ بهم معتدِلة فى أرزاقٍ يطلبُونها، وأعمال يُنكرونها، وظُلامات يدّعونها، وحقوقٍ يَسْألونها، بمَـاتّة[1] سابقتهم، ودالّة مُناصحتهم ؛ فالرأى للمهدىّ — وفّقه الله — أن يتّسع لهم بمـا طلبوا، ويتَجافى لهم عما كرهوا، ويَشْعَب من أمرهم ما صدَعوا، ويرتِق من فَتْقِهم ما قطعوا ، ويولّى عليهــم من أحبّوا ؛ ويداوى بذلك مرض قلوبهم ، وفساد أمورهم؛ فإنما المهدىّ وأمّته ، وسَواد أهل مملكته، بمنزلة الطّبيب الرفيق، والوالد الشفيق، والراعى المجرّب الذى يحتال لمرابض غنمه، وضَوالّ رعيّته ، حتى يُبرِئَ المريضــةَ من داء علّتها ويردّ الصحيحةَ الى أُنس جماعتها؛ ثم إنّ خراسان بخاصّةِ الدين لهم دالّةٌ محمولةٌ، وماتّةٌ مقبولة، ووسيلة معروفة، وحقوقٌ واجبة؛ لأنهم أيدى دولتــه، وسيوف دعوته، وأنصار حقّــه ، وأعوان عدله؛ فليس من شأن المهدى الاضْطِغَانُ عليهم، ولا المؤاخَذَةُ لهم، ولا التوغير[2] بهم، ولا المكافأةُ بإساءتهم، لأنّ مبادرةَ حَسْم الأمور ضعيفةً قبـل أن تقْوَى، ومحاولةَ قَطْع الأصول ضئيلةً قبـل أن تغلُظ، أحزمُ فى الرأى ، وأصحُّ فى التدبير من التأخير لهـا والتهاون بها ، حتى يَلْتَئم قليلُها بكثيرها، وتجتمع أطرافُها الى جُمْهورها .

قال المهدىّ : ما زال هارونُ يقع وقع الحَيَـا حتى خرج خروج القِـدْح من المـاء ، وانسلّ انسلال السيف فيما ادّعى، فَدَعُوا ما سبق موسى فيــه أنّه هو الرأى، وثنّى بعــده هارونُ ، ولكن من لأَعِنّــة الخيل وسياسةِ الحرب وقادةِ النــاس إن أمعن بهم اللّجــاجُ ، وأفرطتْ بهم الدالّة ؟ .

(١) المـاتّة : الحرمة والوسيلة .

(٢) التوغير بهم : التشديد عليهم .

قال صالح :

لسنا نبلغُ أيها المهديّ بدوام البحث وطول الفكر أدنى فراسةِ رأيك، وبعضَ لحظات نظرك ؛ وليس ينقضّ عنك من بيوتات العرب ورجال العجم ذو دِين فاضل ، ورأى كامل، وتدبيرٍ قوىّ، تقلّده حربَك، وتستودِعه جندك، ممن يحتمل الأمانةَ العظيمة، ويضطلع بالأعباء الثقيلة ؛ وأنت بحمد الله ميمونُ النقيبة[1]، مبارك العزيمةِ، مخبور التجارب، محمود العواقب، معصوم العزم؛ فليس يقع اختيارُك، ولا يقف نظرُك على أحدٍ تولّيه أمرك، وتُسند اليه ثغرك، إلّا أراك اللهُ ما تحبّ، وجمع لك منه ما تريد .

قال المهديّ : إنى لأرجو ذلك لقديمِ عادةِ الله فيه، وحسنِ معونته عليه؛ ولكن أُحِبّ الموافقة على الرأى، والاعتبار للشاورة فى الأمر المهم .

قال محمد بن اللّيث :

أهلُ خراسان أيها المهديّ، قوم ذَوُو عزّة ومَنَعة، وشياطين خَدَعة؛ زُرُوع الحَميّة فيهم نابتة، وملابِس الأَنَفَة عليهم ظاهرة؛ فالروِيّة عنهم عازِبة[2]، والعَجَلة فيهم حاضرة؛ تسبق سيولُهم مطرَهم، وسيوفُهم عَذَلَهم[3]؛ لأنهم بين سِفْلة لا يعدو مَبْلَغُ عقولهم مَنْظَرَ عيونهم، وبين رؤساء لا يُلْجَمُون إلا بشدّة، ولا يفطَمُون إلا بالمرّ؛ وإن ولّى المهديّ عليهم وضِيعا لم تنقَد له العظماءُ، وإن ولّى أمرَهم شريفاً تحامل على الضعفاء؛ وإن أخّر المهديّ أمرَهم، ودافع حربَهم، حتى يُصيب لنفسه من حَشَمه ومواليه ، أو بَنى عمّه أو بنى أبيه؛ ناصحا يتّفق عليه أمرُهم، وثِقَةً تجتمع له أملاؤهم بلا أنَفَة تلزمهم، ولا حميّة تدخلهم، ولا مصيبة تنفّرهم؛ تنفّست الأيامُ بهم، وتراحتْ الحالُ بأمرهم؛ فدخل بذلك من الفساد الكبير، والضّياع العظيم، ما لا يتلافاه صاحِبُ هذه الصِّفة وإن جَدّ، ولا يستصلحه وإن جَهَد .

---

(١) ميمون النقيبة : أى مبارك النفس ينجح فيما يحاول . ومخبور التجارب : حميدها .

(٢) العازب : الغائب .

(٣) العذل : اسم مصادر من العذل بمعنى اللوم ومنه المثل "سبق السيف العذل" يضرب لما قد فات .

إلا بعد دهر طويل وشر كبير؛ وليس المهدىّ — وفقه الله — فاطنًا عاداتهم، ولا قارئا صَفَاتهم، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ، ولا عِدْلَ فى ذلك بهما :

أحدُهما لسانٌ ناطق موصولٌ بسمعك، ويدٌ ممثلة لعينك، وصخرةٌ لا تُزَعْزَع، وبُهْمة لا يُثْنَى، وبازلٌ لا يُفْزِعه صوتُ الجُلْجُل، نقِىّ العِرض، نزيه النفس، جليل الخطر، قد اتّضعت الدنيا عن قَدْره ، وسما نحو الآخرة بهمّته، فجعل الغرضَ الأقصى لعينه نُصْباً ، والغرضَ الأدنى لقَدَمه مَوْطِئا؛ فليس يقبَل عملا ، ولا يتعدّى أملا؛ وهو رأس مَوَاليك، وأنصح بنى أبيك؛ رجل قد غُذِّى بلطيف كرامتك، ونبَتَ فى ظل دولتك، ونَشَأَ على قوائم أدبك؛ فإن قلّدته أمرهم، وحمّلتـه ثِقَلهم، وأسندت اليه ثغرهم؛ كان قُفْلا فتَحَه أمْرُك، وبابا أغلقه نَهْيُك؛ فجعل العدلَ عليه وعليهم أميرا، والإنصافَ بينه وبينهم حاكما؛ وإذا حَكَّم النَّصَفَة وسلَك المَعْدَلة ، فأعطاهم مالهم وأخذ منهم ما عليهم، غرَس فى الذى لك بين صدورهم، وأسكنَ لك فى السويداء داخل قلوبهم، طاعةً راسخةَ العروق، باسِقةَ الفروع، متمايِلةً فى حواشى عوامِّهم، متمكّنة من قلوب خواصّهم ؛ فلا يبقى فيهم ريب إلا نفَوْه، ولا يلزمهم حقٌّ إلا أدَّوْه؛ وهذا أحدهما .

والآخر عُودٌ من غَيْضَتك ، ونَبْعَة من أَرومَتك ، فَتِىُّ السّن كهل الحِلم راجحُ العقل محمودُ الصَّرامة مأمونُ الخلاف؛ يجرِّد فيهم سيفَه، ويبسُط عليهم خيره بقدر ما يستحقّون، وعلى حَسَب ما يستوجِبُون؛ وهو فلان أيها المهدىّ، فسلِّطه — أعزك الله — عليهم ، ووجِّهه بالجيوش اليهم ، ولا تمنعك ضَرَاعة[1] سنه ، وحداثة مولِده؛ فإن الحلم والثقة مع الحداثة، خير من الشك والجهل مع الكهولة؛ وإنما أحداثُكم أهل البيْت فيما طبعكم الله عليه ، وآختصّكم به من مكارم الأخلاق، ومحامد الفعال، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير، وصرامة الأنفس؛ كفراخ عِتَاق[2] الطير المُحْكَمَة لأخذ الصيد بلا تدريب، والعارفة

(١) ضراعة سنه : شبابه وحداثة سنه

(٢) عتاق الطير : كرام الطير .

لوجوه النّفع بلا تأديب ؛ فالحلمُ والعلم والعزم والحزم والجود والتؤدة والرفق ثابت فى صدوركم، مزروعٌ فى قلوبكم، مستحكمٌ لكم، متكاملٌ عندكم، بطبائعَ لازمة، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله :

أفتاء أهل بيتك أيها المهدىّ فى الحلم على ما ذكر . وأهلُ خراسان فى حال عزٍّ على ما وُصِف، ولكن إن ولّى المهدىُّ عليهم رجلا ليس بقديم الذكر فى الجنود، ولا بنبيه الصّوْت فى الحروب، ولا بطويل التّجربة للأمور، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة فى الأعداء، دخل ذلك أمران عظيمان وخَطَرانِ مَهُولان، أحدهما : أن الأعداء يَغْتَمِزونها منه ويَحْتَقِرونها فيه ، ويجترئون بها عليه فى النهوض به والمقارعة له ، والخلاف عليه، قبل الاختبار لأمره، والتكشّف لحاله والعلم بطباعه . والأمرُ الآخر : أن الجنودَ التى يقود والجيوشَ التى يَسُوس اذا لم يَخْتَبِروا منه البأسَ والنجدةَ، ولم يعرفوه بالصّيت والهيبة ، آنكسرت شجاعتُهم، وماتت نجدتهم ، وآستأخرت طاعتهم الى حين آختبارهم، ووقوع معرفتهم، وربما وقَع البَوار قبل الاختبار، وبباب المهدىّ — وفّقه الله — رجلٌ مَهيب نَبِيه حَنِيك صَيِّتٌ، له نسب زَاكٍ وصوتٌ عالٍ، قد قاد الجيوشَ وساس الحروبَ، وتألّف أهلَ خراسان، وآجتمعوا عليه بالمِقَة، ووثِقوا به كل الثقة ؛ فلو ولّاه المهدىّ أمرَهم، لكفاه الله شرّهم .

قال المهدىّ : جانَبْتَ قَصْد الرّمِيّة، وأبَيْتَ إلا عَصَبيّة، إذ رأْىُ الحَدَث من أهل بيتنا، كرأى عشرة حُلَماء من غيرنا؛ ولكن أين تركتم ولىّ العهد .

قالـــوا :

لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جَدّه، ونسيجَ وَحْده، ومن الدّين وأهله ، بحيث يقصُر القولُ عن أدنى فضله ؛ ولكن وجدنا الله عزّ وجل حَجَب عن خلقه، وستَر من دون عباده عِلْمَ ما تختلف به الأيام، ومعرفة ما تجرى عليه المقادير، من حوادث الأمور ورَيْب المَنون

المُخْتَرِمة لخَوالى القرون ومواضىَ الملوك ، فكَرِهنا شُسُوعه[١] عن محَلّة المُلك ودار السلطان ومقرّ الإمامة والوِلاية وموضع المدائن والخزائن ، ومستقرّ الجنود ومَعْدن الجود، ومجْمَع الأموال التى جعلها الله قُطْباً لدار الملك ومِصْيَدة لقلوب الناس ومَثابة لإخوان الطمع وثُوّار الفتن ، ودواعى البِدَع وفرسان الضّلال وأبناء الموت . وقُلْنا : إن وجّه المهدىُّ ولِىَّ عهده فحَدَث فى جيوشه وجنوده ما قد حدث بجنود الرُّسل من قبله ، لم يستطع المهدىّ أن يُعْقِبهم بغيره إلا أن يَنْهَد اليهم بنفسه ، وهذا خَطر عظيم وهول شديد ، إن تنفّست الأيام بمَقامه ، وٱستدارت الحال بإمامه ، حتى يَقَعَ عِوَضٌ لا يُسْتَغْنَى عنه ، أو يحدُثَ أمر لا بدّ منه ، صار ما بعده مما هو أعظم هَوْلا وأجَلّ خطرا له تَبَعاً وبه مُتّصِلا .

قال المهدىّ :

الخَطْب أَيسَرُ مما تذهبون إليه ، وعلى غير ما تَصِفون الأمر عليه ؛ نحن أهلَ البيت نَجْرِى من أسباب القضايا ومواقع الأمور ، على سابقٍ من العلم ومحتومٍ من الأمر ؛ قد أنبأت به الكتب ، ونبأت عليه الرّسُل ؛ وقد تَنَاهى ذلك بأجمعه الينا ، وتكامل بحذافيره عندنا ؛ فبه نُدبِّر وعلى الله نتوكّل . إنّه لا بدّ لولىّ عهدى وولىّ عهد عَقِبى بعدى أن يقود الى خراسان البُعُوث ، ويتوجّه نحوها بالجنود .

أما الأوّل فإنه يُقدِّم اليهم رسله ، ويُعمِل فيهم حِيَله ؛ ثم يخرج نَشِطًا اليهم حَنِقًا عليهم ، يريد ألا يَدَعَ أحدا من إخوان الفتن ودواعى البِدَع وفرسان الضّلال ، إلا تَوَطّأه بحَرّ القتل ، وألبسه قِناع القَهْر ، وقلّده طوق الذلّ ؛ ولا أحَدًا من الذين عملوا فى قصّ جَناح الفتنة ، وإخماد نار البدعة ، ونُصْرة وُلاةِ الحقّ ، إلا أجرى عليهم دِيَم فضله ، وجداول نَيْله ؛ فإذا خرج مُزْمِعًا به مُجْمِعا عليه ، لم يَسِرْ إلا قليلا حتى تأتيَه أن قد عَمِلتْ حِيَلُه ، وكَدَحت[٢] كُتُبه ونفَذَت مكايِدُه ، فهدأَتْ نافِرةُ القلوب ، ووَقَعتْ[٣] طائرةُ الأهواء ، وٱجتمع

(١) شسوعه : ابتعاده .

(٢) سعت ودأبت حتى أثرت .

(٣) وقعت طائرة الأهواء : خمد غضبها وسكن روعها

عليه المختلفون بالرضا ، فيميل نظرا لهم ، وبرا بهم ، وتعطفا عليهم ، الى عدو قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقهم ، ومنع حجاجهم بيت الله الحرام ، وسلب تجارهم رزق الله الحلال .

وأما الآخر فانه يوجه اليهم ، ثم تعتقد له الحجة عليهم ، بإعطاء ما يطلبون ، وبذل ما يسألون ، فاذا سمحت الفرق بقراباتها له ، وجنح أهل النواحى بأعناقهم نحوه ، فأصغت اليه الأفئدة ، واجتمعت له الكلمة ، وقدمت عليه الوفود قصد لأول ناحية نجعت بطاعتها وألقت بأزمتها ، فألبسها جناح نعمته ، وأنزلها ظل كرامته ، وخصها بعظيم حبائه ، ثم عم الجماعة بالمعدلة ، وتعطف عليهم بالرحمة ، فلا تبقى فيهم ناحية دانية ولا فرقة قاصية ، إلا دخلت عليها بركته ، ووصلت اليها منفعته ، فأغنى فقيرها ، وجبر كسيرها ، ورفع وضيعها ، وزاد رفيعها ماخلا ناحيتين ، ناحية يغلب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فتستخف بدعوته ، وتبطئ عن إجابته ، وتتثاقل عن حقه ، فتكون آخر من يبعث وأبطأ من يوجه ، فيضطلى عليها موجدة ويبتغى لها علة ، لا يلبث أن يجد بحق يلزمهم وأمر يجب عليهم ، فتستلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحر بهم القتل ، ويحيط بهم الأسر ، ويفنيهم التتبع ، حتى يخرب البلاد ، ويوتم الأولاد ، وناحية لا يبسط لهم أمانا ، ولا يقبل لهم عهدا ولا يجعل لهم ذمة ، لأنهم أول من فتح باب الفرقة ، وتدرع جلباب الفتنة ، وربض فى شق العصا ، ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوادهم ، ويطلب هرابهم فى لجج البحار ، وقلل الجبال ، وخمل الأودية ، وبطون الأرض ، تقتيلا وتغليلا وتنكيلا ، حتى يدع الديار خرابا ، والنساء أيامى ، وهذا أمر لا نعرف له فى كتبنا وقتا ، ولا نصحح منه غير ما قلنا تفسيرا .

وأما موسى ولى عهدى فهذا أوان توجهه الى خراسان ، وحلوله بجرجان ، وما قضى الله له من الشخوص اليها ، والمقام فيها ، خير للسلمين مغبة ، وله بإذن الله عاقبة من المقام ، بحيث يغمر فى لجج بحورنا ، ومدافع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ، فيتصاغر عظيم فضله ،

وَيَتَذَأَّبُ[1] مشرق نوره، ويتقلل كثير ما هو كائن منه؛ فمن يَصْحَبه من الوزراء ويختار له من الناس

قال محمد بن الليث :

أيها المهديّ : إنّ وليّ عهدك أصبح لأُمّتك وأهل ملّتك علَمًا ، قد تَثَنّت نحوه أعناقُها، ومَدّت سَمْتَه أبصارَها؛ وقد كان لقرب داره منك، ومحل جِواره لك، عُطْلَ الحال غُفْلَ الأمر واسِعَ العُذْر؛ فأما اذا آنفرد بنفسه وخلا بنظره وصار الى تدبيره، فإن من شأن العامة أن تتفقّد مَخَارج[2] رأيه، وتَستَنْصِت لمواقع آثاره، وتسألَ عن حوادث أحواله في بِرّه ومرحمته وإقساطه ومَعْدَلته وتدبيره وسياسته ووزرائه وأصحابه؛ ثم يكون ما سِيق اليهم أغلب الأشياء عليهم وأَمْلَكَ[3] الأمور بهم وألزمها لقلوبهم، وأشدها آستمالةً لرأيهم وعطفًا لأهوائهم؛ فلا يفتأ المهديّ — وفّقه الله — ناظرا له فيما يقوّى عُمُدَ مملكته، ويُسَدّد أركان ولايته، ويستجمع رِضَا أمته بأمرٍ هو أزْيَن لحاله وأظهرُ لجماله، وأفضل مَغَبّةً لأمره، وأجَلّ موقعًا في قلوب رعيّته، وأحمد حالا في نفوس أهل مِلّته؛ ولا أدفع مع ذلك بآستجماع الأهواء له، وأبلَغ في آستعطاف القلوب عليه، من مرحمة تظهرُ من فعله، ومَعْدلة تنتشر عن أثَره ومحبّة للخير وأهله، وأن يختار المهدي — وفّقه الله — من خِيار أهل كل بَلْدة، وفُقهاءِ أهل كل مِصْر، أقواما تَسْكُن اليهم العامة اذا ذُكِروا، وتأنس الرعيّةُ بهم اذا وُصِفوا، ثم تُسهّل لهم عِمارة سُبُل الإحسان وفَتْح باب المعروف، كما قد كان فُتِح له وسُهِّل عليه

قال المهديّ : صدقت ونصحت، ثم بعث في آبنه موسى فقال :

أيْ بُنَيّ، إنك قد أصبحت [4]ت وجوه العامة نَصْبًا، ولِمَثْنَى أعطاف الرعيّة غاية؛ فحسنتك شاملة، وإساءتك نائية، وأمرك ظاهر؛ فعليك بتقوى الله وطاعته، فاحتمل

(١) يتذأّب: يخبث . (٢) تتفقد مخارج رأيه : أى تفحص عن وجوه رأيه وتدبيره . (٣) أملك الأمور: أضبطها . (٤) السمت . المذهب والقصد (٥) الأعطاف : جمع عطف وهو الجانب .

تَحفظ الناس فيهما، ولا تطلب رضاهم بخلافهما؛ فإن الله عزّ وجل كافيك مَن أسخطه عليك إيثارُك رضاه، وليس بكافيك من يُسخطه عليك إيثارُك رِضَا مَنْ سواه. ثم أعلم أن لله تعالى فى كل زمانٍ فَترةً من رُسُله، وبقايا من صَفوةِ خَلْقه وخبايا لنُصْرة حقه، يجدّد حبل الإسلام بدعواهم، ويَشِّيد أركان الدين بنصرتهم، ويتخذ لأولياء دينه أنصارا، وعلى إقامة عدله أعوانا؛ يَسُدّون الخَلَلَ ويقيمون المَيَلَ، ويدفعون عن الأرض الفساد؛ وإنّ أهل خراسان أصبحوا أَيْدِى دولتنا، وسيوف دعوتنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونَستَصْرِف نزول العظائم بمُناصحتهم، ونُدافِع رَيْبَ الزمان بعزائمهم، ونُزاحم ركن الدّهر ببصائرهم؛ فهم عِماد الأرض اذا أُرْجِفَت كُنُفُها[1]، وخوفُ الأعداء إذا برزت صَفْحتها، وحصونُ الرعيّة اذا تضايقت الحال بها؛ قد مَضَتْ لهم وقائعُ صادقات، ومواطِنُ صالِحات؛ أَخمَدتْ نيرانَ الفتن، وقَسمت دواعِى البدع، وأذلّت رقاب الجبّارين ولم ينفكّوا كذلك ما جَرَوْا مع ريح دولتنا، وأقاموا فى ظلّ دعوتنا، وآعتصموا بحبل طاعتنا؛ التى أعزّ الله بها ذِلّتهم ورفع بها ضَعَتَهم، وجعلهم بها أربابا فى أقطار الأرض، وملوكا على رقاب العالمين بعد لِبَاس الذلّ، وقِناع الخوف، وإطباق البلاء ومحالفة الأسى، وجَهْد البأس والضُّر؛ فظاهِرْ عليهم لباس كرامتك، وأنزلهم فى حدائق نعمتك؛ ثم آعْرِف لهم حقّ طاعتهم، ووسيلةَ دالّتهم، وماتّةَ سابِقتهم، وحُرْمة مناصحتهم؛ بالإحسان اليهم، والتّوسعة عليهم، والإثابة لمُحسِنهم، والإقالة لمُسيئهم.

أى بُنىّ، ثم عليك العامّة فآسْتَدْعِ رضاها بالعدل عليها، وآستجْلِب مودّتها بالإنصاف لها؛ وتَحسّن بذلك لربّك، وتوثّق به فى عين رعيّتك، وآجعل عمّال العُذْر وولاة الحُجَج مقدّمة بين عملك، ونَصَفَة منك لرعيّتك، وذلك أن تأمر قاضىَ كلّ بلد، وخيار أهل كل مِصْر، أن يختاروا لأنفسهم رجلا تولّيه أمرهم، وتجعل العدل حاكما بينه وبينهم؛ فإن أحسن حُمدتَ، وإن أساء عُذِرتَ. هؤلاء عمال العُذْر وولاة الحُجَج، فلا يَسقُطَنّ عليك

(١) الكنف: جمع كنف وهو الجانب. وأرجفت: زلزلت

ما فى ذلك اذا آنتشر فى الآفاق ، وسبق الى الأسماع ، من آنعقاد ألسِنة المُرجِفين ، وكَبْت قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ، ولا يَنفكّنّ فى ظِـلّ كرامتـك نازلا ، وبِعُرَا حبلك متعلِّقا رَجُلان : أحدهما كريمة[1] من كرائم رِجَالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف ، له أدبٌ فاضـل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآخر له دين غير مغموز[2] ، وموضِع غير مدخول ، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأى وأنحاء العرب ووضع الكتب ، عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب ، يضع آدابا نافعة وآثارا باقية ، من محاسـنك وتحسين أمرك وتَحْلية ذكرك ؛ فتستشيرُه فى حربك ، وتُدْخِله فى أمرك ؛ فرَجُلٌ أصبتَه كذلك فهو يأوى الى مَحَلّتى ، ويَرْعى فى خُضْرة جِنانى ؛ ولا تَدَعْ أن تختـار لك من فقهاء البُـلدان ، وخيار الأمصار ، أقواما يكونون جيرانك وسُمّارك ، وأهلَ مُشاوَرتك فيما تُورِد ، وأصحابَ مناظَرتك فيما تُصْدِر . فَسِر على بَرَكة الله ، أصحبـك الله من عونه وتوفيقه دليلا يَهْدى الى الصواب قلبَك ، وهاديا يَنْطِق بالخير لسانك . وكُتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد .

(١) الكريمة : صاحب الكرم . وكرائم الرجال : أخاير رجال العرب وأحاسنهم . (٢) غير مغموز : مطعون : وغير مدخول : لا يداخله فساد .

٢ — رسالة أبى الرَّبيع محمد بن اللَّيث التى كتبها للرشيد الى قُسْطَنْطِين ملك الروم

من عبد الله هارونَ أميرِ المؤمنين الى قسطنطينَ عظيم اروم: سلامٌ على من اتبع الهدى. فإنى أحمد الله الذى لا شريك معه، ولا ولد له، ولا إلهَ غيرُه، الذى تعالى عن شبه المحدودِين بعظمته، واحتجب دون المخلوقين بعزّته، فليست الأبصار بمُدْرِكة له، ولا الأوهام بواقعةٍ عليه، انفرادًا عن الأشياء أن يُشْبِهها، وتعاليًا أن يشبهه شىءٌ منها، وهو الواحد القهّار، الذى ارتفع عن مَبالغ صفات القائلين، ومذاهب لُغَات العالمين، وفِكَرِ الملائكةِ المقرّبين، فليس كمِثْلِه شىءٌ، وله كلُّ شىء، وهو على كلّ شىء قدير.

أما بعد، فإن الله جلّ شاؤه وتباركت أسماؤه، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل من آيات الوحى اليه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. فرأى أميرُ المؤمنين من أحسنِ قوله وأفضلِ فعله، أن يكون الى سبيل ربّه داعيا، وبرسوله صلى الله عليه وسلم متأسّيا، ولقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ موافِقا. وكنتَ من كتبِ الله المنزّلة، وآياته المفسّرة، وخَلْقِه الكثير بحيثُ رجا أميرُ المؤمنين استماعَك لمَوْعِظَتِه، وانتفاعُك بمُجادلتِه انتفاعُ بَشَرٍ كثيرٍ وخَلْق عظيم قد بُؤْتَ بأوزارِهم مع وِزْرِك، واحتملتَ من آثامهم الى إثمك، فأَحَبَّ أن يدعُوك ومَنْ رجا أن ينتفع بدعوته معك، الى كلمةٍ سَوَاء بيننا وبينكم ألَّا نعبُدَ إلّا اللهَ ولا نُشرِكَ به شيئا ولا يتَّخذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون الله؛ فإن تولّيتم عن ذلك رغبةً عنه، أو تركتُموه زَهَادَةً فيه، فاشهدوا بأنّا مسلمون. واستمعوا ما أميرُ المؤمنين واصفٌ لكم، ومحتجّ به إن شاء الله عليكم، بقلوبٍ شاهدة وآذانٍ واعية، ثم اتّبِعُوا أحسنَ ما تستمعون. ولا قوّة إلا بالله.

قال الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه واقتص على عباده : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. إن الله تبارك اسمه وتعالى جدُّه، وصف فيما أنزل من آياته، وشرح من بيّناته، الأمم الماضية، والقرون الخالية، والملل المتفرقة، الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى لا برهان لهم بها، ولا حجة لهم فيها، فقال : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ .

قالت العربُ الذين يعبدون الملائكةَ وأهلُ الكتاب الذين يقولون ثالثُ ثلاثةٍ بأيّما آيةٍ يا محمدُ تزعم أن الله إله واحد ، فأنزل الله عزّ وجل فى ذلك آيةً تشهد لها العقول، وتؤمن بها القلوب ، وتعرفها الألباب، فلا تستطيع لها ردًا ، ولا تُطيق لها تجحُّدا ، ذكر فيها اتصالَ خلقه واتفاقَ صُنْعه، ليُوقِنَ الجاهلون من العرب، والضالُّون من أهل الكتاب، أن الله السماء والأرض ، وما بينهما من الهواء والخَلْق، واحدٌ لا شريكَ له ، خالقٌ لا شىء معه، فقال : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ . فتفكَّرْ فى تفسير هذه الآية من كلام الربّ عز وجل، وما أوضح فيها من بيان الخَلْق، فإنه ما مِنْ مفكرٍ ينظر فيما ذكر اللهُ فيها مما بين السماء والأرض، إلّا رأى من اتصال بعض ذلك ببعض، مثلَ ما رأى فى تدبيره نفسه . وعرَف من اتصالِ خلْقه، فيما بينَ ذَوَائبِ شؤون رأسه الى أطراف أنامل قَدَمِه . وفى ذلك أوضحُ آية وأبينُ دلالة، على أن الذى خلَقه وصنَعه إلهٌ واحد لا إله معه، ولا من شىءٍ ابتدعه . ولا على مثالٍ صَنعه . قد ترَوْن بعيونكم وتعلمون بعقولكم ، أن الله عز وجل خلق للأنام الأرضَ ، وجعلها موصولةً بالخَلْق، فليس يَدْحُوها إلا لهم، ولا يُديمها إلا معهم، وجعل ذلك الخلقَ متصلا

بالنَّبت، لا يقوم إلا به، ولا يصلُح إلا عليه . وجعل ذلك النبتَ الذى جعله متاعًا لكم وَمعَاشا لأنعامكم، متصلًا بالماء الذى ينزل من السماء بقَدَرٍ معلوم، لمعاشٍ مقسوم؛ فليس يَنجُم النبتُ إلا به ولا يَحيا إلا عنه . وجعل السحابَ الذى يبسُطه كيف يشاء متصلا بالريح المسخَّرة فى جوّ السماء تُثيره من حيث لا تعلمون ، وتَسُوقه وأنتم تنظرون، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ الى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ ووصلَ الرياح التى يصرِّفها فى جوّ السماء بما يؤثِّر فى خَلْق الهواء من الأزمنة التى لا تثبُت الهَوَاجرُ إلا بثباتها، ولا يزول عنه بَرْدٌ إلا بزوالها؛ ولولا ذلك لظلَّ راكدا بالحرّ المميت، أو ماثلا(1) بالبرد القاتل . ووصل الأزمنةَ التى جعلها متصرفة متلوِّنة بَمسير الشمس والقمر الدائبَيْن لكم المختلفين بالليل والنهار عليكم . وجعل مَسيرَهما الذى لا تعرفون عدَد السنينَ إلا به ، ولا مواقعَ الحساب إلا من قِبَله ، متصلًا بدَوران الفَلَكِ الذى فيه يَسْبَحان ، وبه يأْفُلان؛ ووصل مسيرَ الفَلَك بالسماء للناظرين سواء . فهذا خَلْقُ الله عز وجل ، ما فيه تبايُنٌ ولا تزايُلٌ ولا تفاوت ؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ . ولو كان لله شريكٌ أو معه ظَهير عليه ، يُمْسِك منه ما يُرْسِل، ويرسِل منه ما يمسك ، أو يؤخِّر شيئا من ذلك عن وقت زمانه، أو يعجِّله قبل مَجيء إبَّانه، لتفاوت الخلقُ، ولتباين الصُّنع ، ولفسدت السموات والأرض، ولذهب كل إله بما خلَق، كما قال عز وجل — وكذَّب المبطلين — : ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

والعجَبُ : كيف يَصِفُ مخلوقٌ ربَّه، أو يجعل معه إلٰها غيرَه، وهو يرى فيما ذكر الله من هذه الأشياء صنعةً ظاهرة، وحكمةً بالغة ، وتأليفا متفقا ، وتدبيرا متصلا ، من السماء والأرض ، لا يقوم بعضه إلا ببعض ، مُتَجلِّيًا بين يديه ، ماثلًا نُصْبَ عينيه ، يناديه الى صانعه، ويدلُّه على خالقه، ويشهد له على وَحْدانيته ، ويهديه الى رُبوبيَّته، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ

(1) فى الأصل : «مايلا» .

عمّا يُشرِكُونَ أَيُشرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ» . حقًّا ما كرّر هؤلاء الجاهلون بربهم الضالّون عن أنفسهم ، فى خلق الله النظر ، ولا رجّعوا كما قال الله عز وجل الفكر . ولو أعملوا فكرَهم وأجهدوا نظرَهم ، فيما تسمع آذانُهم وترى أبصارُهم ، من حوادثِ حالاتِ الخَلْق ، وعجائبِ طبقات الصُّنع ، لوجدوا فى أقرب ما يرَون بأعينهم: من التأليف لتركيب خلقهم ، والأثرِ فى التدبير بصُنعهم ، ما يدلُّهم على توحيد ربهم ، ويقف بهم على انفراده بخَلْقهم . فانهم يرَون فى أنفسهم بأعينهم ويجدون بقلوبهم ، أنها مخلوقة صَنْعَةً بعد صنعة ، ومحوَّلةٌ طبقةً عن طبقةٍ ، ومنقولةٌ حالًا الى حال : سُلَالَةً من طين ، ثم نُطْفةً من ماء مَهِين ، ثم عَلَقة ، ثم مُضْغة ، ثم عَظْمًا ، كساه الله عز وجل لحمًا ، ونفخ فيه رُوحًا ، فإذا هو خَلْقٌ آخر ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين ، الذى خلَق فى قَرَارٍ مَكِينٍ ، من ماءٍ قليل ضعيف ذليلٍ ، خَلْقًا صوّره بتخطيط ، وقدَّره بتركيب ، وألَّفه بأجزاءٍ متفقة ، وأعضاءٍ متصلة ، من قَدَمٍ الى ساق الى فخذ الى ما فوقَ ذلك : من مَفَاصل ما يُعْلِن أو عجائب ما يُبْطِن ، ليعلم الجاهلون ويُوقِن الجاحدون ، أن الذى صنع ذلك وخلقه ودبَّره وقدّره وهيَّأ ظاهرَه وباطنَه إلهٌ واحد لاشريك معه . فلا يَذْهبنّ ذِكْرُ هذا صفحًا عنكم ، ولا تسقُطْ حكمتُه جهلًا به عليكم ؛ وفكِّروا فى آيات الرسل وبيِّنات النُّذُر ، فإن فى ذلك فكرًا للمُبْصِرين ، وبَصَرا للمعتبِرين ، وذِكْرَى للعابدين ، والحمد لله رب العالمين .

وأميرُ المؤمنين واصفٌ لكم ، ومقتصٌّ من ذلك إن شاء الله عليكم ، مافيه شَهَاداتٌ واضحات ، وعلامات بيِّناتٌ ؛ ومبتدئٌ بذكر آياتِ نبينا صلى الله عليه وسلم فيما أنزل الله منها فى الوَحْى اليه ، فإنه ما أحدٌ يقرَع بآيات النبوّة قلبَه ، ويحصِّن ببيِّنات الهدى عقلَه ، إلا قادته حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لا يجد الى إنكار ما جاء به من الحق سبيلا . فأردتُ أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقةٍ من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وحقِّه ، وما أُنْزِل اليه من ربِّه عز وجل . فأَحْضِرْ كتابَ أمير المؤمنين فَهْمَك ، وأَلْقِ الى ما هو واصفٌ إن شاء الله سمعَك . إن الله عز وجل اصطفى الإسلامَ لنفسه ، واختار له رُسُلا من خَلْقه ، وابتعث كلَّ رسول بلسان قومه ، ليبيِّن لهم ما يتَّبِعون ، ويعلِّمهم ما يَجْهلون : من توحيد

الرب وشرائع الحق ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ . فلم تزل رسلُ الله قائمةً بأمره ، متواليةً على حقِّه ، فى مَوَاضِى الدُّهور ، وخَوَالِى القُرون ، وطبقاتِ الزَّمان ، يصدِّق آخرُهم بنبوّة أوّلهم ، ويصدِّق أوّلُهم قولَ آخرهم ؛ ومقَاتِحُ دعوتِهم واحدةٌ لا تختلف ، ومجَامِعُ ملَّتِهم ملتئمةٌ لا تفترق ، حتى تناهت الولايةُ والوراثة التى بَنَى عيسى عليه السلام عليها و بشَّر بها ، الى النبيّ الأُمّىّ الذى انتخبه الله لوَحْيه ، وآختاره بعلمه ؛ فلم يزل ينقلُه بالآباء الأَخَاير ، والأمَّهات الطَّوَاهر ، أمّةً فأمّة ، وقَرنا فقرنا ، حتى استخرجه الله فى خيرِ أوان ، وأفضل زمان ، من أثبتِ مَحَاتِد(١) أُرُوماتِ(٢) البريّة أصلا ، وأعلى ذوائب نَبِعاتِ(٣) العربِ فَرْعا ، وأطيبِ مَنَابتِ أعْيَاصِ(٤) قُرَيش مَغْرِسا ، وأرفعِ ذُرَى مجد بنى هاشم سَمْكا : محمدٍ صلى الله عليه وسلم خيرِها عند الله وخلقِه نَفْسا ، على حينَ أَوْحشتِ الأرضُ من أهل الإسلام والإيمان ، وآمتلأت الآفاقُ من عَبَدةِ الأصنام والأوثان ، وآشتعلت البِدَعُ فى الدين ، وأطْبقت الظُّلَم على الناس أجمعين ؛ وصار الحق رَسْما عَافيا ، خَلَقا بَاليا ، ميتا وسط أموات ، ما إن يُحِسُّون للهدى صوتًا يسمعونه ، ولا للدين أثرا يتَّبعونه . فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائمـا بأمر الله الذى أُنْزِل إليه ، يدعوهم الى توحيد الرب عز وجل ، ويُحذِّرهم عقوباتِ الشِّرْك ، ويجادلُهم بنور البرهان ، وآيات القرآن ، وعلامات الإسـلام ، صابرا على الأذى ، محتملا للمكروه ؛ قد ألهمه الله عز وجل أنه مظهرُ دينِه ، ومُعِزُّ تمكينِه ، وعاصمُه ومستخلِفُه فى الأرض ، فليس يَثْنِيه رَيْب ، ولا يَلْوِيه هَيْب ، ولا يَعْنِيه أذى ؛ حتى اذا قهرت البيِّناتُ ألبَابهم ، وبَهرتِ الآياتُ أبصارَهم ، وخَصَم نورُ الحقِّ حُجَّتَهم(٥) ، فلم تمتنع القلوبُ من المعرفةِ بدون صِدْقِه ، ولم تجد العقول سبيلا الى دفع حقِّه . وهم على ذلك مكذِّبون بأفواههم ، وجاحدون بأقوالهم ؛ كما قال الله عز وجل العَلِيمُ بمـا يُسرُّون ، الخابر بما يُعْلِنُون : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ بغْيا وعداوة ، وحَسَدا ولجَاجة ، افترض

(١) محاتد : جمع محتد ، وهو الأصـل . (٢) اروماتِ : جمع أرومة ، وهى الاصـل .
(٣) نبعات : أصول كريمة . (٤) أعياص قريش : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر ، وهم : العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص . (٥) فى الأصل : "فلا

الله عليه قتالهم ، وأمره أن يجرد السيف لهم ، وهم فى عصابة يسيرة ، وعدة قليلة ، مستضعفين مستذلين ، يخافون أن يتخطفهم العرب ، وتداعى[١] عليهم الأمم ، وتستحملهم[٢] الحروب ، فآواهم فى كنفه ، وأيدهم بنصره ، وأنذرهم بمقدمة من الرعب ، ومشغلة من الحق ، وجنود من الملائكة ، حتى هزم كثيرا من المشركين بقلتهم ، وغلب قوة الجنود بضعفهم ، إنجازا لوعده ، وتصديقا لقوله : ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فأحسن النظر وقلب الفكر فى حالات النبى صلى الله عليه وسلم من الوحى قائما لله ، لتجد لمذاهب فكرك وتصاريف نظرك ، مضطربا واسعا ، ومعتمدا نافعا ، وشعوبا جمة ، كلها خير يدعوك الى نفسه ، وبيان ينكشف لك عن محضه . وأخبر أمير المؤمنين ما كنت قائلا لو لم تكن البعثة للنبى — صلى الله عليه وسلم — بلغتك ، ولم تكن الأنباء بأموره تقررت قبلك ، ثم قامت الحجة بالاجتماع عندك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : إنه نجم بين ظهرانى مثل هذه الضلالات المستأصلة ، والجماعات المستأسدة[٣] ، التى ذكر أمير المؤمنين : من قبائل العرب ، وجماهير الأمم ، وصناديد الملوك ، ناجم قد نصب لها وغرى بها ، يجهل أحلامها ، ويكفر أسلافها ، ويفرق ألافها ، ويلعن آباءها ، ويضلل أديانها ، وينادى بشهاب الحق بينها ، ويجهر بكلمة الإخلاص الى من تراخى عنها ، حتى حميت العرب ، وأنفت العجم ، وغضبت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه اليه ، وحيدا فريدا ، لا يحفل بهم غضبا ، ولا يرهب عنتا ، يقول الله عز وجل : ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أكنت تقول فيما تجرى الأقاويل به وتقع الآراء عليه ، إلا أنه أحد رجلين : إما كاذب يجهل ما يفعل ويعمى عما يقول ، وقد دعا الحتف الى نفسه ، وأذن الله لقومه فى قتله ، فليست الأيام بمادة ولا الحال بثابتة له إلا ريثما تستلحمه[٤] أسبابهم ، وينهض به حلماؤهم ، غضبا لربهم ، وأنفة لدينهم ، وحمية لأصنامهم ، وحسدا من عند أنفسهم . وإما صادق

(١) أصله تتداعى فحذفت إحدى تاءيه ، ومعناه يجتمعون عليهم ويتألبون بالعداوة .

(٢) تستحملهم : تلقى عليهم حملها وعبأها . (٣) المستأسدة : القوية . (٤) تستلحمه : تعلق به وتنشب .

بصير بموضع قدمه ومَرْمَى نَبْله ، قد تكفّل الله عز وجل بحفظه ، وحبيه بعزّه ، وجعله في حِرْزه ، وعصمه من الخلق ، فليست الوحشةُ بواصلةٍ مع صحبة الله اليه ، ولا الهيبة بداخلة مع عصمة الله عليه ، ولا سيوفُ الأعداء بمأذونٍ لها فيه . ثم ان آيتكم (١) يا أهلَ الكتاب لو قيل لكم : إن الرجل الذى يدّعى العِصْمة وينتحل المَنَعة ، قد نجمت الأمُور به على ما قال ، وسَلِمتِ الحالُ له فيما آدّعى ، حتى نصَب لعمارات (٢) العرب ، وجماعات الأمم ، يقاتل بمن طاوعه مَنْ خالفه ، وبمن تابعه من عانده ، جادًا مشمّرا ، محتسبا واثقًا بموعود الله ونصره ، لا تأخذُه لومةُ لائم في ربه ، ولا يوجد لَدَيْه غَمِيزةٌ (٣) في دينه ، ولا يلفته خِذْلان خاذلٍ عن حقّه ، حتى أعزّ الله دينَه ، وأظهر تمكينَه ، وآنقادتْ الأهواء له ، وآجتمعت الفِرَقُ عليه ، ألم يكن ذلك يزيد حقّه يقيناً عندكم ، ودعوتَه ثبوتًا فيكم ، حتى تقول الجماعة من حُلَمائكم وأهلُ الحُنْكة من ذوى آرائكم : ما كان الرجل ، اذ كان وحيدًا فريدا قليلا ضعيفا ذليلا معروفا بالعقل منسوبا الى الفضل ، ليجترئَ أن يقول : إن الله عز وجل أوْحى اليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يَعْصِمه من العرب جميعا ويمنَعه من الأمم طُرّا ، حتى يبلِّغ رسالاتِ ربّه ، ويُظْهِرَه على الدين كلّه ، ويَدْخُل الناسُ أفواجًا في دينه ، إلّا وهو على ثقة من أمره ، ويقين من حاله .

فسبحان الله ! يا أهلَ الكتاب ما أَبْين حقّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمن طلبه ، وأسْهله لمن قصَد له . وآستعمِلُوا في طلبه ألبابَكم ، وآرفَعُوا ... (٤) أبصارَكم ، تنظُروا بعَوْن الله اليه ، وتقِفُوا ان شاء الله عليه ؛ فإن علاماتِ نبوّته وآياتِ رسالتِه ، ظاهرةٌ لاتَخْفى على من طلبها ، جمّةٌ لايُحْصَى عددُها ، منها خواصُّ تعرِفها العربُ ، وعوامٌّ لا تدفعها الأمم ، فأما الخواصّ المعروفة لدينا ، المعلومةُ عندنا ، التى أخذتْها الأبناءُ عن الآباء ، وقبِلها الأتباعُ عن الأسْلاف ، فأمور قد كثرت البيناتُ فيها ، وتداولت الشهادات عليها ، وثبتت الحجج بها ، وتراخت الأيام ببعضها ، حتى رأيناه عِيَانا ، وقبِلْناه إيقانا ؛ فهى أظْهر فينا من الشمس ،

(١) كذا في الأصل . (٢) عمارات العرب : أحياؤها العظيمة . (٣) غميزة : مطعن
(٤) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

وأبين لدينا من النهار؛ ولكن غيّبت الأزمانُ عنكم أمرَها، ولم ينقــل الآباءُ اليكم علمَها ، وما لا يُدْرَك إلا بالسمع موضوعُ الحجــة عن العقل ، فليس أميرُ المؤمنين محاجٌّ لكم ، ولا قاصــدٍ اليكم من قِبلها . وأما الآياتُ العــوامّ والدلالات الظاهرة فى آفاق الأرَضين، القاطعةُ لحُجج المُبْطلين، التى لا تنكر عقولُ الأمم وجوبَ حقّها، ولا تدفع ألبابُ الأعداء صحةَ أمرها ، فسَيُوبلُجها أميرُ المؤمنــين مسالكَ أسماعكم ، ويُعيــد بها حجةَ الله فى أعناقكم، من وجوهٍ جمّة وأبوابٍ كثيرة، إن شاء الله : منها أنه لم تزل الشياطينُ، فيما خلا من فترات الرسل وندَرات النُّذُر، تصعَدُ الى سماء الدنيا، وتُنْصِت للملأ الأعلى فتسترق السمعَ وتحتفظ العلمَ ، وتنزل به الى كلّ أفّاكٍ أثيم ، يَبْنُون أكاذيبَهم على واضح صدقِه، ويُنَفِّقون أباطيلَهم بحسب حقّــه ، خلطًا للباطل فيه ، وسوسها(1) للعباد عليه . فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وســلم وأنزل آياتِ القرآن اليه، حُرِست السماءُ بالنجوم، ورُميت الشياطينُ بالشُّهُب، وانقطعت الأباطيــلُ، واضمحلّت الأكاذيب، وخلَص الوحىُ، فبطَلتِ الكُهّان، وضلّت السُّحّار، وكَذَبتِ الأحلام، وتحيّرت الشياطين، فكانت آيةً بينةً، وعلامةً واضحة، وحجةً بالغة، تبهر قرائحَ العــقول، وتخرِق حُجُب الغيوب، فلا يقوم مع ضيائها ظُلْمة، ولا يثبُت عند مُحكَمها شُبْهة ، ولا يُقيم معها فى محمد صلى الله عليه وســلم شكٌّ ، لا من أصحابه خاصــةً ولا ممّن جاء بعده عامة . وإنما جعلها الله عز وجل آيةً باقيةً فى الغابِرين ، وحِراسةً ثابتــة من الشياطين ، لأن الله جل وعلا جعل نبينا صلى الله عليه وسلم آخرَ النبيين؛ فليس باعثًا بعده نبيًا يكذّب أقاويلَ الكَهَنة، ويقطَع أخابيرَ الجنّة .

وستقول، فيما يذهب اليه الظنّ ويقع عليه الرأى، أنت ومن عقَل من أمتك وأهــل ملتك : هذه آيةٌ حاسمــةٌ وحجة قاطعــة بينة قائمة ، مستعليةٌ لأمرها ، مســتغنيةٌ بنفسها، لا تحتاج الى ما قبلها، ولا يُتَّكل على ما بعــدها، إن أقرت العقول بمــا تقول، أو قامت البينة على ما تدّعى ، بلى؛ ثم تقول: وأنّى لك بالبينة، ولسنا نُقر بكتابك، ولا نؤمن برسولك،

---

(1) كذا فى الأصل .

ولا تقبَل قولَك فيما قد سبقَنا وإيّاك زمانُه، وحجبتِ الغُيوبُ عنّا وعنك علمَه؛ فأرجعُ اليكم إن قلتم ذلك؛ فإن وُجْدانَ القضاة قبل طَلَب البينات .

وليس يجعَل أميرُ المؤمنين فيما يُنازِعُك ويُحَاجُّك فيه حاكما غيرَ عقلك، ولاقاضيا سوى نفسك؛ ولكنه يذكّرك اللهَ الذى اليه مَعَادك وعليه حِسَابك، لمّا جعلتَ التفهُّم لمسألته من بالك، وركبتَ حدودَها فى جوابك، عادلا بالقِسْط، قاضيا بالحق، قائلا بالصدق ولو على نفسك، ناظرا بالأَثَرَة لدينك؛ فلقد وفّق الله لك آيةً، وأهْدى اليك بينةً، لا تستطيع دفعَها لحَجْبها عن عقلك، ولا حِجَابا لنُورها دون بَصَرك، فلا تدفَع الآيةَ بقولك، والبينةَ بلسانك، جحْدا بقَطْع وصولِ الحُجَج اليك، ويد تُغْلق[1] أبوابَ الفهم عنك؛ فإن اللسان لك مُدَاوَلٌ حيث شئت، ومنقادٌ تَصَرُّفه فيما هَوِيت؛ ولكن انصِبْ نفسك للفهم وأنت شهيد، وأَرِدِ الحقَّ وقبولَه فيما تريد . فاذا تصوّرتَ البيناتِ مجسَّدة فى قلبك، وتبيَّنْتَ الحُجَج ممثَّلة لنظَرك، قد أضاء صوابُها لك وقرَع حقُّها قلبَك، فاجعل القولَ بها شِعارًا للسانِ به متّصلا . وافْهم المسئلة فهّمَك الله الحقَّ، وجنَّبك الجحدَ، ما تقول أنت ومَنْ قِبَلك فى رجلٍ كان يتيماً ضعيفًا أجيراً ساهيا لاهيا عائلا خاملا، لم[2] يتل كتابا، ولم يتعلم خطا، ولم يَكُ فى مَحَلّة علم، ولا إرثِ مُلْك، ولا مَعْدن أدب، ولا بيتِ نبوّة، فترافَتِ الأيامُ به، واتصلتِ الحالُ بأمره، حتى نَحرج الى العرب عامة والقبائل كافة، وحيدا طَرِيدا شَرِيدا، مخذولا مجهولا، مجفُوّا مرميًّا بالعقوق لآلهتهم، مقذوفا بالكذب على أصنامِهم، منسوبا الى الهُجْر لأديانهم، وهم مُجْمِعُون على دَعْوة العصبية، وحَمِيَّة الجاهلية، مُتَعادُون مُتَبَاغُون، مختلفةٌ أهواؤهم، متفرقة أَمْلاؤهم، يتسافَكُون الدماء، ويتناوَحُون النساء، ويستحِلُّون الحُرَم، لا تمنعهم أُلْفَة، ولا تَعصِمُهم دَعْوة، [ولا] يَحْجِزُهم بِرّ، فألَّف قلوبَها، وجمَع شَتِيتَها، حتى تناصرت القلوب، وتواصلت النفوس، وترَافدت الأيدى؛ ثم اجتمعت الكلمة، واتّفقت الافئدة، حتى صار غايةً لمُلْقَى رِحالهم، ونهايةً لمُنْتَجع

---

(١) لعله : ولا تغلق . (٢) فى الأصل : لا .

أسْفارِهم، وصاروا له حِزْبًا متفقين، وجندًا مُطيعين، بلا دُنْيا بَسطها لهم، ولا أموالٍ أفاضها بينهم، ولا سلطانٍ له عليهم، ولا مُلْكٍ سلَف لآبائه فيهم، ولا نباهةٍ كانت له بين ظَهْرانَيْهم. أتقول إنه [ما]قال ذلك كلَّه إلا بوَحْيٍ عظيمٍ، وتنزيلٍ كريم، وحكمةٍ بالغة! فإن قلت ذلك فقد أقررت أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسولٌ، وتركت ما كنت تقولُ إنه لم يُدْرِكه ولم يبلغه إلا بعقل سَديد، ونظر بعيد، ورِفْقٍ لطيف، ورأيٍ وَثِيق، استَبَى به عقولَ الرجال، واستمال عليه أفئدةَ العوام. فإن قلتم ذلك فأنا سائلكم بالحكم الذى تعبدون، ودِينِكم الذى تنتحلون، لَمّا صدَقْتُم أنفسَكم وتجنَّبتم الهوى عنكم: أتؤمن قلوبُكم، وتُقِرّ عقولُكم، ويحتمل نظركم، أن محمدا صلى الله عليه وسلم الذى وصفتمُوه بكمال العقل، وبيان الفضل، ورِفْق التدبير، كان يقول لرِجَالاتِ العرب، وجماعاتِ الأمم، [و] دُهَاةِ قريش: إن من آيات نبوّتى، ودِلَالاتِ رسالتى، وعلاماتِ زمانى، أن الشياطين تُرْمَى بنجوم السماء، ولم تَكُ تُرْمَى بها فيما خَلَا، ثم يجعَل ذلك كتابًا يُقرأ، وقرآنا يُتْلى، وهو كاذب فيما تَلَا، ومُبْطِلٌ فيما ادّعى، إبطالا تدرِكه عيون الناظرين، وكذبا يظهَر لجميع العالَمين! سبحان الله! أرأيتم أنْ لو كان فيما قال من الكاذبين، وعلى ما ادعى من الآثمين، ثم حاول إبعادَ القلوب، وإنْغالَ الصدور، وإنفار النفوس، وتفريق الجموع، أكان يزيد على ذلك!

فيا أهلَ الكتاب لا يحملنَّكم الإلْفُ لدينكم على اللعب بتوحيدكم! فلعَمْرُ اللهِ لئن تداركْتم أنفسَكم وناصحتُم نظركم لَتَعْلَمُنَّ أن محمدا صلى الله عليه وسلم لو حاول الكذبَ أو رام الإفْكَ، لما كان يترُك جميعَ الأرض، وما يغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض، ويقصد للسماء المتصلة بالبصر، البارزة للنظر، التى لا تخفى على بشر، ولا تغيب عن أحد، فيدّعى فيها كذبا ظاهرًا، وإفكا بارزا مكشوفا، لا يبقى صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى، إلا عرف أنه إفك وزور، وكذب وغرور، ولا سيَّما اذا كان يُلْقى ذلك الى أقوام أكثرهم أعراب، ليس بينهم وبين السماء حِجابٌ، إنما يُراعُون الكواكب ويتفقّدون الغيوم، فأبعدُ عهدِ آخرِهم بها تفقّده لها ونظره اليها، ساعةً أو ساعتين، أو ليلة أو ليلتين.

لعَمْرُ الله لو عثَرت العربُ من أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم على كذبٍ لكان أوّل من يُوَاثِبه به ويُجَادِله فيه أعداؤه من قريش عامة، وحُسّاده من جيرته خاصة، ونظراؤه من أهل بيته دِنْيَةً (١) الذين كانوا يستعيرونه لكلّ طريق، ويقعدون له على كل سبيل، ويتساءلون من أمره عن كل ذى حادثٍ، فيتعلّقون بالحروف المُشْكِلة، والآيات المُشْتَبِهة، جَدَلًا وخصومة بها، وطعنًا وإلحادًا ومنازعة فيها، حتى لقد وصفهم الله بفعلهم، وأخبر عن ذلك من أمرهم، فقال عز وجل: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ وما كان الله عز وجل ليقولَ ذلك ولا لأحد أن يقوله على الله فى أمرهم إلا عن خصومةٍ شديدة، ومنازعة بليغة، ومجادلة معروفة. فأَحسِنِ النظرَ لنفسك، ولا تَهْلِكَن شفقةً على مُلْكك؛ فَايْمُ اللهِ لئن قلتَ إن النجوم شىء كانت العرب تراه بعيونها وتعرفه بقلوبها، فما كان محمد صلى الله عليه وسلم، وهو عارف بها غير جاهل لها، ليقولَ فيها إلا حقًّا، وينتحل فيها إلا صدقا، لقد ثبتت فروع كلامك فيها على أُسِّه، ووصلتَ آخرَ قولك له بأوّله، ثبوتا على ما ذكرتَ من عَقْده، ولزوما لما قرّطتَ من نظره، ولكنك لا تجد مع الإقرار بذلك بُدًّا من التصديق برسالته، ولا مذهبا عن الإيمان بنبوّته.

ولئن زعمتَ أنه ادّعى أمر النجوم كذبا وانتحلها باطلا، عارفا كان بها أم جاهلا، لقد نسبتَه من الخطأ الذى لا يَعْمَى عن بصره الى ما يخطئ فيه بَشَرٌ، فأكْذبت نفسَك، وتركت قولَك: إنه لم يكن التأليفُ لقلوب العرب والجمعُ لشَتِيت القبائل، إلا برأى سديد، وعقلٍ أَصيل، ورفق بالغ، الى أحد أمرين لا تجد لكلامك وجها تذهب اليه غيرَهما، ولا مَحْمِلا تضعُه عليه سواهما: إما أن تقول: إنه ألّف قلوبَ العرب، وفرّق جُموعَ الأمم بتنزيل الوحى، فتؤمن أنه نبيّ؛ وإما أن تقول: فعل ذلك بجهل؛ وهذا قول لا يُقْبل. كيف يصفه أحد من الجاحدين به المكذّبين له بغباوة، أو يرمونه بجهالة، وهم يحُوزون به حدود الأنبياء، ويرفعونه فوق أمور العلماء، ويتخطّون به مراتبَ الحكماء، ومنازل الناس

---

(١) كذا فى الأصل.

تكثيرًا لعلمه، وتسديدًا لعقله، وتثبيتًا لفضله، فيما لا يقدر الخلقُ عليه ولا تهتدى الألسنُ اليه؛ حتى لقد نَحَلُوه فعلَ الربّ الذى لا يقدر عليه الخلق فى وجوه كثيرة وأنحاء جمة: من ذلك أنه اذا قالت البقايا من أمتنا: كان محمد صلى الله عليه وسلم يُخبِرنا بالغُيُوب قبل ظهورها، ويَصِفُ الأمورَ قبل حُلُولها، ويتجاوز [ما يكون] فى زمانه من ذلك الى ما يكون فى زماننا غيبًا أطلعه الله عز وجل عليه، أضافوا ذلك علمًا اليه، فقالوا: كان أعلم الناس بمواقع النجوم، وأبصرَهم بمنازل البُرُوج، وأنظرَهم فى دقائق الحساب. كيف ولم يكن الحجاز دارَ نجوم ولا محلَّ حساب ولا معدن أدَب! بل كيف والمنجِّم يقيس ويخطئ، ويشك فيما يدّعى، وهو أخو صواب لا شك فيه، وفارس صدق لا قياس معه.

ومن ذلك أنه اذا قالت العلماء من المسلمين: كان نبينا صلى الله عليه وسلم [عليما] بباطن أخبار النبيين، وخَفِيّ قِصَص القرون الأولين، قالوا: كان أحيا الناسِ قلبًا، وأوسعَهم سَربا، وأسرَعهم أخذا، يتتبّع ذلك ويحبه، وقد رواه وعُلِّمه. سبحان الله! أولا يعلمون أن المتعلّم معروفُ المعلِّم، متفاوتُ الحالات، متنقلّ الطبقات، وأنه ما أحدٌ يؤدَّب صغيرًا أو يطلب العلم كبيرا، إلا وله درجاتٌ فى علمه، وتاراتٌ فى أخذه، ومنازلُ فى تعلُّمه، تارة تلميذ، وتارة مُقارِبٌ، وأخرى حاذق؛ وبكل ذلك موصوفٌ من أهله، معروفٌ عند قومه، ظاهرٌ لجيرته، مستفيضٌ فى عشيرته، لا يجهَل أمرُه، ولا يخفَى ذكرُه، ولا يُنْسَى عند مواضع الحاجة اليه، وتارات الاحتجاج به عليه. ولو كان ذلك معروفًا فيهم، أو موجودا لديهم، أو ظاهرا عندهم، لما أمره الله عز وجل أن يحتجّ عليهم ويقول فى ذلك لهم: لقد لَبِثتُ فيكم عُمُرًا من قبله، لا أتلو قرآنا، ولا أدّعِى وحيا، أفلا تعقلون!

وآيم الله! لو كانوا يعقلون أو ينظرون، لعلموا أن معلِّمه على غير الملة التى يعرفون، لأنه لهم من المخالفين، وعليهم من الطاعنين، يذكر فَضَائحَ قولهم، ومَعَايبَ أمرهم، ومَخَازِىَ أسلافهم، وعوائر أديانهم؛ وإنه لو كان معلّمه نصرانيًا لدعاه الى النصرانية، أو يهوديًا

لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسيًّا لدعاه الى المجوسية . ولو لم يكن له معلّمٌ لَمَا وقع على الحقيقة هدايةً من تلقاء نفسه ومعرفةً بقوة عقله . ولو كان معلمه الشيطانَ لَمَا دعاه الى عبادة الرحمن ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر الأصنام ، وصلة الأرحام ، والإصلاح فى الأرض؛ كيف [و] كان الشيطان يصُدّ الناسَ عن سبيله ، ويُزهّدهم فى دينه ، وينهاهم عن طاعته ، ويخرجهم من عبادته ، ويُدخلهم فى مَسَاخطه ، ويحملهم على معَاصيه! إنه اذًا لرحيمٌ بهم ، ناظرٌ لهم ، شفيقٌ عليهم ، كأنه هو المبعوثُ اليهم؛ كلا ! ما كان لِيُنقِذَهم من حَبَائله ، ويُخلّصهم من مَصَايده ، ويُخرِجَهم من ولايته وطاعته وسلطانه وخُدَعه وفتنته وحزبه ، الى غير ذلك من أمره . وما كان لينهى العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتناوحوا حُرَمهم ، ويُؤذُوا ذرِّيتهم ، ولا ليقولَ لهم : لم تعبدون نَحِيتَ الحجارة التى جعلها الله لكم عارا ، وتَذَرُون عبادةَ الربّ الذى خلقكم أطوارا ! هيهاتَ ! لقد ذهبتم بالشيطان الرجيم الى صراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولا تُنكِره العقول ، وتدفَعه القلوب ، وتستوحش منه النفوس . ألَا تسمعون الى قول الله عز وجل : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ فما كان الشيطان ليرضى للعرب باللعنة والبَكَم والعمى والصمم؛ فاتّقِ الله ولا تكن من الجاحدين .

ومنها أنه اذا قالت الفقهاء والحكماء : أتانا محمد — صلى الله عليه وسلم — بكلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولم تقع القلوبُ على لُغته ، له رَونَقٌ كحَبَاب الماء ، وزِبرِجٌ يعلو ولا يُعلَى وعجائب لا تَبلَى ولا تفنَى ، وجِدّةٌ لا تتغيّر ، [قالوا] : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — أبلغَهم قولا ، وأحسنهم وصفا . فيا سبحان الله ! ألا يعلمون أن لو كان القرآن كلاما للعباد لما أقرّت الأعداءُ من ... ...[1] بفضله ، ولا عَجَزتْ القبائل طُرًّا عن مثله ، وهو يناديهم فى الكتاب ويتحدّاهم فى الوحى ، بصوت رفيع ، ونداء سميع ، فيقول : هاتُوا سورةً مِنْ مِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وهم فرسان الكلام ، وإخوان البلاغة ، وأبناء الخُطَب ، وأهلُ عداوةٍ له وبغى

(١) بياض فى الأصل بمقدار كلمة

عليه ، فتستحسر الأبصار ، وتثقُل الأسماع ، وتنعقِد الألسُن ، وتَخرَس الخطباء، وتعجِز البلغاء، وتَحار الشعراء، وتستسلم الكُهّان. ثم لقد قايستِ البُصَراءُ بالكلام والعلماءُ بالمنطق، بين ما بأيدينا من كلام النبي — صلى الله عليه وسلم — وما جاء به من كلام الوحى، فاذا بينهما بون بعيد وتفاوت شـديد، ليس بشـبه له ولا مدانٍ ولا قريب . وكذلك ينبغى لكلام الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألا يشبه قولَ العباد فى تأليفه وأحاديثـه ومعانيه وجميع ما فيـه ؛ لأن الله عز وجل لا يشبهه شىء من ذلك أنه اذا قال المسلمون : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — يُرِى ماضِيَ أسلافنا وصُلّح آبائنا من العجائب العظام ، والآيات الكبار، ما هو جديدٌ عندنا، بينٌ قِبَلَنا فلم يَعْفُ أثرُه، ولم يَدْرُسْ خبرُه، ولم يتقادمْ عهـدُه : من شجرةٍ ناداها فأقبلتْ ثم أمرها فرجعتْ، ومن نحو بعيرٍ تَظَلَّمَ، وذئبٍ تكلم، وأشـباهٍ لذلك كثيرة، ونظائرَ له عجيبة، قالوا : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — كاهنا حاذقًا ، وساحرا ماهرا ، يُشَبِّه بالخيال، ويأخذ بالأبصار . كيف والجموعُ الكثيرةُ تصدُرُ عن الأطعمةِ اليسيرةِ والمياهِ القليلةِ ، شِباعاً رِوَاء، أيكون ذلك والسحر سواءً! والأخذُ بالعيون لا يجرى فى البطون! ولو كانوا ينظرون لِدينهـم ويُنْصِفون من أنفسهم، لعلموا أن أمر الساحر يدور على إفكٍ وغُرور ، وأن لمحمد — صلى الله عليه وسلم — آثارًا قائمة، ومنافعَ دائمة . ثم لو كانت الكِهانةُ والسحرُ يبلُغان مثل هـذا من الأمر، لبطَلَتْ آياتُ الكُتُب، وعلامات الرسل، ولَعَلَتِ الشُّبْهة، وسَقَطت الحجّة، وكَذَبَتِ النبوّة، ولَبَطَل ما كان [يفعله](١) عيسى عليه السلام : من إبرائه الأكمَهَ والأبرصَ وإحيائه الموتى. فلا يكونن التقليدُ للرجال مبلغَ علمك، ولا القبولُ لدعواهم بلا بيِّنة .

ومن ذلك [أنه] اذا قالت البُصَراء من أمتنا والعلماء بملتنـا : كان النبيّ — صـلى الله عليه وسلم — أُمّيًّا لا يُحسن الكتّابَ وحافظا لا ينسى القرآن ، وقلما يجتمع العقل السـديد والحفظ السريع والنسيان البطىء ، قالوا : كان أخطّ الناس يدًا ، وأذكاهم حفظًا ، كان يكتب بالنهار، ويدرُس بالليل .

(١) زيادة يقتضيها السياق

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون ، لما خفيت الصحف له ، ولا اكتتمت الدراسةُ عليه ، ولَمَا كان يُطيق سَترها عن أهله ، ولا حجابها دون قومه . وكيف تؤمن القلوب وتُقِرّ العقول أنّ رجلا كبيرا حَمَل علما كثيرا وحِكَماً جَمّاء : من آيات متشابهة ، وسُوَرٍ متوالية ، وهو صاحب أسفار مترامية[1] ، وأخو حربٍ دائمة ، لا يبطئ لفظه ، ولا يسقط حفظه ! لولا[2] أن الله عز وجل كَفَاه أن يُحَرِّكَ به لسانه ، وضَمِن له جَمْعَه وقُرْآنَه ، فقال عز وجل : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ فلم يكن يُسقط واواً ولا ألفا ، ولا ينسى كلمةً ولا حرفا . ما أبينَ هذا وأعجبَه ! وأعجبُ منه المنكِرُ له .

وأما قولهم فى الخطّ وإنكارهم فى الكتاب ، فإن الله عز وجل جعله أُمّيًّا ليُثبت حجته ، ويصدِّق مقالته ، ولئلا يَشُكّ المبطلون فى أمره ، ويقولون : تعلّمه من غيره ؛ فإنه قد قال ذلك بطائنُ من مُنافقة العرب وطوائفُ من كَفَرة العجم ، فنطقت [به] الأعداء من جيرته ، والحسدة من عشيرته ، الذين بلغوا [ما بلغوا][3] من مجادلة حقه ، ومخاصمة ربه ، كفاة لمن قَرُب ، ووكلاءَ لمن بَعُد ، فيما لم تكن العرب واقعةً عليه ، ولا الأممُ مهتديةً إليه ؛ لأنهم[4] قد أحاطوا من علم خَبَره ، وخَفِيِّ أثَرِه ، بما كان عن غيرهم محتجبا ، ومن سواهم مكتتما . وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلّم من بشر أو يختلف إلى أحد ، لما خفى عنا ولسقط علينا[5] . وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلّم من بشرٍ كبيرا ، لعَرَف ذلك أترابُه المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك من حوله من جيرته نصرة ، ولا مَنْ معه من أهل بيته دِنية ، الذين عليهم يورِد ومن قِبَلهم يُصْدِر ، ولكان شائعًا عند حشَم معلِّمه وجيرة موضعه الذين كان يختلف إليهم ، ويتأدّب بين ظَهْرانَيْهم . ولو كانوا بذلك عالمين ، أو فيه من أمره شاكّين ، ثم بلَغهم وتقرّر قِبَلَهم أنه يقول : إنّ الله عز وجل أوحى إليه ، فيما أنزل من الكتاب عليه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ لخاصمه منهم من كفر ،

(١) فى الأصل : «متراخية» . (٢) فى الأصل : « ... ولا يسقط حقه ولولا أن ... الخ» .
(٣) زيادة يتطلبها الكلام . (٤) فى الأصل : « إلا أنهم ... » . (٥) فى الأصل "ولاسقط" .

ولكفر به منهم من آمن . ثم يدّعى ذلك قرآنا ، وينتحله وحيا ؟ أمَا كان يرهَبُ أن ينتشرَ فى الأقربين، ويخرَج الى الأبعدِين، فتبطُلَ حجتُه، وتنتقضَ دعوتُه، وتسقُطَ نبوّته، وينفِرَ أصحابُه الذين لم يَصْبِروا(١) معه فى المجاهدةِ أنفسَهم، ويذلوا عند الشدائد مُهَجهم، ويُنفقوا فيه على الحاجة أموالَهم ، مُناصِبين لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم ، وهم قليلون مُستضعَفون عائلون جائعون ، لا طلباً لدنيا ولا طَمَعًا فى منال، إلا لما تعقّبوا من قوله ، وعَرَفوا من صدقه . ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقيصرلهم، فصدّقوا بقوله ، وآمنوا بوعده ، حتى قَوِيت البصائر، وصَرُمتَ العزائم ، وقويت النيات، فنَشِطت النفوس، وشَجُعت القلوب، وحملت الأبدان، لمَا وَقَع لهم طمعٌ فيه، ولا ذهب لهم وَهَلٌ(٢) اليه . فكن من ذلك على يقين لا يخلِجه شكّ ، ومعرفةٍ لا يخلِطها ريب، إن شاء الله .

ومن ذلك أنه اذا قال المسلمون : ما من فَعَالٍ محمود ، ولا مقالٍ معروف، ولا خُلُق كريم، ولا أدب فاضل، إلا وقد أدّب الله عز وجل به محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزله فى الكتاب اليه، فكان يأمر بالمكارم، ويحضّ على المحامد، ويعمل بالمحاسن التى ليس فيها مَدخل لشبهةِ طاعنٍ، ولا مَعْلَقٌ لحجة قائل، ولا مغمزٌ لبصيرة عائب، ولا موضعٌ لذم بشر، فى وعد أو عهد، أو حلّ أو عقد، أو مقال أو فِعال، أو غير ذلك من الأمور — قالوا : أمور حَمَلَ عليها نفسَه ، ودعاه اليها عقلُه ، وصَبرَ عليها ، لِمَا أمّل ورجا فيها . سبحان الله! وما أمّل بها وارتجى منها؟ إن قالوا : الدنيا ، فلقد أكذبهم إدبارُه عنها ، حيث أمكنته القدرةُ منها، واعترته الحال عليها . وإن قالوا : حبّ الأَثَرة ، فقد جعل نفسَه للسلمين أُسوةً : فى سِهامهم وقِصاصهم، وحُدودهم وحقوقهم، وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : المُلْك ، فلقد كان أشدّ الناس لربه تواضُعًا، وأعظمَهم فى جَنْبه تصاغُرا، ما إن أكل متكئاً قط إلا مرة، ثم قعد كهيئة الفَزِع لها النادمِ عليها ، فقال :

(١) صبر نفسه : حبسها (٢) وهل : فزع

"اللهم إنى عبدك ورسولك" . وإن قالوا : النعيم ، فمن كان أيبس منه معاشا ، وأخشن رياشا ، وأغلظ مأكلا ! وكيف يذوق العيش أو يجد لذيذ النعيم ، من حرم السكر والخمر ، ونهى عن الديباج والقز ، وكان أكثر دهره صائما ، وأطول ليله قائما ! فإن قالوا : طلب الصوت[1] ورغب فى الدين ، فذلك ما لم يطلبه أحد فى حب الصوت والتماس الحمد لما صبر مغاضب قومه ، وملاوم أهله ، وشتائم العرب وتوعد العجم ، واستهزاء قريش ؛ يرمونه بالعقوق ، ويقذفونه بالجنون ، ويبهتونه بالسحر ، وليس يدرى ما يهجم به الأمر[2] .

أم يقولون طلب تأثيل الملك لقومه ، وأراد توطئة الولاية لأقاربه فكيف يطلب لقومه ما قد زهد فيه لنفسه ! أم كيف يطلب لهم عز الملك وقد أوطأهم الذل ثم القتل . لعمر الله أن لو أراد الملك لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لذوى رحمه ، لوكد لهم عقدا لا يحل ، ولأبرم لهم أمرا لا ينقض ، ولأثل لهم فى عنفوان أمره ملكا لا يخرج من أيديهم ، ولا يبرح[3] أبدا فيهم ، امتثالا لصنيعكم واحتذاء على مثالكم ؛ مع أقاويل جمة ونظائر كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمدا صلى الله عليه وسلم غلب العرب وقهر العجم ؛ أو قال فى أمر السلطان والنجوم بكذب .

فان قلتم إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان فى قوة عقله وبيان فضله ، على ما قلنا وقلتم وصدقنا به نحن وأنتم ، ولكن هفت العلماء وزلت الحكماء وأخطأت القلوب ؛ فقد يعلم أمير المؤمنين — وأنتم بذلك من العالمين — أن خطأ قلوب العلماء تخطأ دائرة الرحا ، ليست العلماء بخطئة إلا المرة والثنتين ، كما لا تخطئ الرحا إلا الحبة والحبتين . ومثل الذى نسبتم الى النبى صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل فى أنفسكم ، كثير لا يحصيه أحد ، ولا يبلغه عدد . وأمير المؤمنين واصف بعضه لكم ، ومورد ما حضر كتابه إن شاء الله لكم . وايم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هبوا محمدا صلى الله عليه وسلم كان

(١) الصوت : الذكر الحسن كالصيت . (٢) كذا وردت هذه الجملة فى الأصل وهى مضطربة
(٣) فى الأصل : "ولا ينوح ..." .

فى أمر النجوم من المخطئين، فكيف أخطأتِ العربُ وهفَت الأمم فى ترك مجادلته ورفض منازعته، وكيف لم تقل العلماء من إفنائه والحكماء من حكمائهم (١)، توبيخاً منهم له، وتعييراً لمن آمن معه: هذا أمرٌ من أوضح الأكاذيب وأبطل الأباطيل؛ فلا يثبُتُ مع قولهم إيمانٌ، ولا يُقيم على شرحهم إنسان. فإن قلتَ: فلعل ذلك قد كان، ولكنه دَرَج على طول الأزمان، فكيف إذًا صدّقت العربُ بنبوّته، ولم تكفُرِ القبائلُ برسالته، وهم يسمعون كذبًا لا ينفع معه صدقٌ كان قبلَه، وباطلًا لا يَنعِم معه حقٌّ حَدَثَ بعده. وإن قلتم: أدخلهم بالقهر وضَبَطهم بالقتل وأكرههم بالسيف، فما بالُ القليلِ من المسلمين الذين قَهَرهم الكثير من المشركين، ما بالهم آمنوا وصدّقوا، وصَبَروا وصابَرُوا، وجَدُّوا وجاهدوا، كيف لم تنكسرْ عزائمهم، وتَهِنْ بصائرهم، ويَرجِعُوا الى دِينهم، ويهرُبُوا عن توحيدهم! كلا! لو كان الأمر على ما تقول، لارفضّ القومُ عن الرسول، ولكان صلى الله عليه وسلم أوّلَ مقتولٍ أو مخذول. فأحسِنِ النظرَ فيما تذهب الأهواء برأيك اليه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم. وإن جَمَحت الدعوى بكم، فقائل: قد مالت به الأهواء فى الباطل، فقال: إنه إلا يكن الأنبياء ذكرتِ النجومَ فى صُحُفها بينت الحكماء منها ذكرًا فى كُتُبها، فجعلت المنقضَّ من الكواكب بين الأعوام، دليلًا على أمر يحدُثُ تلك الأيامَ، ولا ما هذا الاختلاق يلطّ به الجاهل للفساق. ما ان وضعت الحكماءُ ذلك فى الكتب (٢)، إلا ليالى ملئت السماء من الشهب. وبالله لو ادّعيتم غير ذلك فكان حقًّا، وكانت القالةُ منكم صدقا، لما كانتِ الدعوى بناقضةٍ لآية النجوم حجة، ولا مدخلة على أحدٍ فيها شُبْهة؛ لأن رميا يقع قَوْطَ السنين من الكواكب، لا يُبْطل رَجْماً قد ملأ السماء من كل جانب. ثم لو لم تكن النجوم آية دامغة (٣)، وحجة بالغة، ودلالة قاهرة، وعلامة باهرة، وأمارة ظاهرة، وشهادة قاطعة، وبينة عادلة، وداعية قائمة، تُبْطِل أظانين المشركين، وتَرْدَع أقاويلَ المنافقين، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم لِيُعظِّم أمرَها، ولا ليكرّر فى آى القرآن ذكرَها، رهبةً

(١) كذا فى الأصل. (٢) فى هذا الموضع اضطراب. (٣) فى الأصل "دافعة ..."

لمناهضة أحياء العرب، ومعرفةً بمجادلة إخوان الكتب، الذين لو وَجدوا فيما كَتَبَ به اليك أميرُ المؤمنين من أمرِ النجوم واحتجّ [به] عليك من ذكر الرجوم، موقعًا لظن أو مَعْلَما بطعن أو مَغمَزًا لقول، لناصبُوه اذا بالمجـادلة، وكاشفُوه بالمنـازعة، وجاهَرُوه بالقول الذى لا يستطيع له ردّا، ولا يطيق له جَحْدا، ولكنها آيةٌ ملأت الأقطارَ كثرةً، وحَسَرت الأبصارَ قوة، قد وجِلت العقولَ، وولَّهت القلوبَ، وملأت النفوسَ جَزَعا ووجعا، وفَزَعًا شَغلهم عن الأولاد، وأذهلهم عن البـلاد، حتى بلغ أميرَ المؤمنـين وتقرّر عنـد فقهاء المسلمين أن الله عزّ وجل، لمـا ملأ السماءَ حَرَسًا، وأحدث لها رَصَدًا، وخلق فيها شُهُبًا، ذكرت العقلاءُ من العـرب، وقعَات الله عز وجل فى الكتب، بقوم نُوحٍ وعادٍ وثَمُودَ، وأشـباهِهم من مؤلِّفى تلك الجنود، الذين كانوا أشـدَّ بَطْشا، وأكثرَ جَمْعًا، فانفَرجتْ أيديهم عن كرائِمِ أموالهم، وأرسلت أنفسُهم مَتَائِنَ عُقَدِهم. وإن أهلَ الطائف لمـا فعلوا ذلك بأموالهم، وأجمعوا فيه الخروجَ الى قفرائهم، قام فيهم رجلٌ منهم ذو سِنٍّ وعقل فقال:

يامَعشرَ العرب، لاتُهلِكُوا أنفسكم قبل أن تَهلِكُوا، ولا تُخرِجوا من أموالكم قبل أن تُخرَجوا، تفقّدوا مواقعَ نجوم السماء، وكواكبَ بدورِ الدُّجَى، فان كانت النجومُ التى حدث الرمىُ بهـا والنجومُ التى أخليتُمُ الأموالَ لهـا(١)، هى لبُرُوج الشمس والقمر ومسالِ الحيوان والشجر، فهى جوائحُ الاستئصال، المُتلِفةُ الأنفسِ والأموال؛ وإن كانت النجوم التى حدث القذف بها، إنمـا هى نجومٌ خُلقت اليوم، فليست المعرفة بواقعـة على مُبتَدَاها، ولا الأبصارُ بلاحقةٍ منتهاها، فأمسكوا العُقَدَ(٢) عليكم والأموال، فإنه أمر يحدُث فى إحدى هذه الليال.

فإن قلت: وكيف وقعت الأمورُ فى هذا الرجل كالعِيَان، وصارت المقالةُ منه كوَعْيِ الآذان، أنبأك أميرُ المؤمنين أن أوعيةَ الفقه من المسلمين، الذين حمَلوا الينا سُنَنَ الدين، هم

(١) كذا فى الأصل. (٢) العقد: جمع عقدة وهى الضيعة أو العقار الذى اقتناه صاحبه.

أدَّوا ذلك الينا، وأبقوه فخراً ...[1] علينا، فما إن ينفكُّ منهم مفتخرٌ يقول : أبونا الذى حبس على العرب الأموالَ والعقد، فما إن يدفع القول فى ذلك منَّا أحد . هيهات ما كانت العربُ لتُقرَّ عند الفخار ، إلا بطَوْلٍ هو أبينُ فيها من ضوءِ النهار . فافهمْ ما كتب به أميرُ المؤمنين فى هذا اليك ، ولا يكن التعللُ فيها بالشُّبُهاتِ أوثقَ ما لديك ؛ فإنه قلَّ حجَّةٌ إلا وإلى جنبها شبهةٌ تخيَّل للعقول، وتعرَّض للقلوب، وتجلْجَلُ فى الصدور؛ فلا يثبت مع تخيُّلها، ولا يُقيم لتعرُّضها بَشَرٌ إلا من وزَنَ الحقَّ والباطلَ بميزان عادل ، لا يميـل الى تفـريط ، ولا يحطّ فى تقصـير . وقد جعـل الله عزّ وجلّ العقولَ موازينَ للأمور ، فزِنُوا ما سمعتم من حجج كلام الرب عزّ وجلّ بما تنفُون به الشبهةَ عن الحق ، ولا تُميلُوا اللسانَ، فتخسَرُوا الميزان. وسيعلِّل أميرُ المؤمنين إن شاء الله بمـا جاء عن ذكر ما كتب به اليكم من أمر النجوم والرُّجوم والشُّهب فى القرآن والرِّواية والكُتُب؛ فالْطِفُوا النظرَ فى صحة معانيه، ونحُّوا الهوى عن شبهةٍ ما وقعتْ فيه[2] : قال الله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ وقال : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ وقال : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ . وإن شطب عن الحق شاطب، أو ذهب الى الباطل ذاهب، لا يعرِف مذاهبَ كلام العرب ، ولا وجوهَ معانى الكتب ، ولا تفسـيرَ آيِ القرآن ، فقال : إنمـا جُعلت الكواكبُ والمصابيح حفظًا من الله عز وجل للسماء ، ورُجُوما للشياطين من قبل أن يبعثَ الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالدين .

فإن فى آيات القرآن ما فيـه بيانٌ ممـا يُبطِل دعواه التى لا بينةَ عليها ، ويكذِّب مقالته التى لا شُهُود لهـا ؛ فقالت الجن ـــ فجعَلَ الله تبارك وتعالى قولهَا وَحْيا ـــ وبه منها صِدْقا : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ . ألا ترون أنها كانت الجن لمست السماء فلم تجـدها ملئت حرسا شـديدا وشهبا، وقعدت الشياطينُ منها مقاعدَ للسمع

(١) بياض بالأصل بمقدار كلمة . (٢) فى الأصل « عن شبهة انما الخ

فلم تجد شُهُبا ولا رَصَدا ، أو[1] لايسمعون الى مايحقّق ذلك ويسدّده ويصدّقه ويشهد له من قول الله تعالى : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ مع قولِ الجنّ أيام حُرِست السماءُ ورُمِيت الشياطينُ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾. فاذا أعملتمْ فى ذلك فكرَكم، وقلّبتم فيه نظرَكم، فكنتم على برهانٍ يَقِين، ونورٍ مستبين، من آستطاعةِ الجنّ للاستماع ، وقدرةِ الشياطين على الاستراقِ، وإمكان السماءِ للقعود فى تلك الحال الأولى، ففكّروا فى الحال الأخرى حيث حرست الآياتُ أن تعارِض باطلاً بحق ، ومُنعت الشياطينُ أن تَنزِل بصدق ، وآمتنعت السماء أن يصعَد اليها شيطان ، فقال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ . قَالَتِ الجنُّ : ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ إن فى قولهم الآن لأعظمَ نور وبيان . وأبينُ من ذلك لكم وأصحُّ لمَنْ عقَل إن شاء الله منكم ، إخبارُ الله عز وجل حين جُعلت الكواكبُ حفظًا من كل شيطان مارد، أنهم ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ مع إخباره فى الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعُدون ويتزلون ويستطيعون ويتلُون على مُلْكِ سليمانَ، فكن لهذا من الحافظين، وفيه من المفكّرين .

ومن آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه لمـا نفَرت القبائلُ من أعلام الشرك بجموعها، وتَدَاعتِ القادةُ من صَنَاديدِ الكفر بأتباعها حَذَرًا على عِيرٍ لهـا أقبلت من الشـام بصنوف رَغَائبِ أموالٍ عِظَامٍ ، فكانت العِيرُ والنَّفِيرُ طائفتين : طائفــةٌ ذاتَ عُدّة كثيرة وشوكة شديدة ، وطائفةٌ ذات أموال رَغِيبة ورجالٍ قليلة وفرصــةٍ ممكنة ، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وســلم ووعَده ومَنْ معــه من المسلمين إحداهما ، فكرِه المؤمنون جموع المشركين ، وأراد الله عز وجل أن يقطعَ دابرَ الكافرين ، ويشيِّد بذلك أركانَ الدين ، فلما تراءتِ الفئتان، وتناوشت الفُرْسان، وتلاقى الناس، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل:

(١) كذا وردت هذه الجملة فى الأصل وهى غير واضحة .

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قبض النبيّ صلى الله عليه وسلم قبضةً [من تراب] حثاها فى وجوههم ، فلم يتناه دون مناخرهم وعيونهم ، فانصرفوا منهزمين بلا كثيرِ قتالٍ من المسلمين . يا أهل الكتاب ، فأيُّما آيةٍ أعظم حجةً وأوضح بيّنة وأقهر غلبةً من هذه التى لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها ، لانفضّت الجموع من المسلمين كفارا بها . أبشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقربين ، وهزيمة نفير المشركين ، التى نجمت الأمور عليها ، وتناهت الحال بهم اليها . أم قبضةٌ من تراب يسيرٍ ، ما ملأ المناخرَ من عَدد كثير .

فإن قلتم : إن هذه آيات بيّنات ، وعلامات واضحات ، ولكنّا [لا] نقرّ لكم بها ولا نؤمن بقولكم فيها .

أفتؤمنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع مانسبتموه من الفضل اليه ، كان يختلقها كذبا من تلقاء نفسه ، ثم يدّعيها وحيًا من عند ربه ، وهو لايدرى لعل الأمور [تقع] بخلاف مايقول ، فيظهر كذبُه ، ويَرْفَض تبعه . وإن تزعم (١) أن أصحابه كانوا كثيراً أقوياء ، نِشاطًا جُلَداء ، فكان على معرفةٍ بقوتهم ويقينٍ من غَلَبتهم ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِى الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ . ولم يكن الرسول ولا غيره ليُخْبِر أصحابَه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ، ثم يدّعى ذلك تنزيلًا من ربهم . هذا لا تقبله الآراء ، ولا تُقِرّ به الحكماء ، ولا يحدّه النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم ببشارته لهم وإخبارِه (٢) ما أخبرهم من هزيمة الله عدوَّهم ، أن يشجّع جُبنَهم ويُقوِّىَ ضعفهم ، فكيف اذا لم يبق لما كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم ، وضعف المسلمين وقلتهم ، بظهور الأنباء على خلاف قوله ، وأن (٢) محال الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر يكذب نبوّته ، ويقطع حجته ، ويكون له ما بعده ! وكيف اذا لم ينسب الأمرَ الى نفسه ويُنَحّى الخبرَ عن ربه ، ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر ، إن جرت الأقدارُ بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره . ولكنه أثبته فى كتاب

(١) فى الأصل « ويرعم أن أصحابه ... » والكلام عليه غير واضح . (٢) هكذا فى الأصل

مسطور، ورَقٍّ منشور . فِعْلٌ لعمر الله يدلّ على النبوّة التى كان بها واثقا، ويهدِى الى الوحى الذى كان اليه ساكنا .

وإن عَرَض لنظَرك، أو وقع فى خَلَدك، أن الله عز وجل عوّد محمدا صلى الله عليه وسلم الغَلَبَة وأجراه على المَنَعة ، فكان يجرِى على عادةٍ قد عَرَفها، ويسلُك جادّةً قد خَبَرها؛ فلقد كانت الهزيمة فى أوّل وَقْعةٍ أوقعها الله، ثم لقد دالت الحربُ فيما بعدُ (١) سِجَالاً فيما بينه وبينهم : تارةً عليــه لهم ، وأخرى له عليهم . فناصِحُوا اللهَ عز وجل فى نَظَركم ، وقلِّبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكركم . فلعَمْرُ الله ما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقول للملوك المشركين : إن الله هَزَمكم برَمْيــةٍ من تراب وهو يعلم أنه عنــده من الكاذبين . فأحضِر كتابى هــذا فهمَك، وآصبِرْ له وإن خَصَمك؛ فإن هذه آية عظيمة، وحجة بليغة، وبيِّنة عجيبة، فى غَلَبة العرب.

وأعجب من هذه وألطف، وأكثر منها وأعظم، الآية فى غلبة العجم. وآستمِعْ : أمَرَ الله نبيّــه — صلى الله عليه وسلم — أن يقول للؤمنين — وكانوا كما قال الله عز وجل قليــلا مستضعفين — : إن قبائل العرب ستتحزّب عليكم، وإن الله سيهزِمُهم لكم ، وحيًا أنزله فى الكتاب، فقال : ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ ﴾ ؛ فكان أصحاب رســول الله صلى الله عليــه وسلم بعد مانزل هــذا القول عليه بدهور طويلة وســنين كثيرة ، محبوسين محصورين فى حومة الموت وعسكر الخوف وخندق القهر وذل الحصر، ســوادُهم الأعمّ وجلُّهم الأعظم حُفَــاةٌ عُراة عالَةٌ ، إخوان دير، وأصحــاب وَبَر، لا قوّة بهــم ، ولا مَنَعة لهم ، ولا أسلحةَ عندهم ، ولا عدّة معهم ، قد أحدقت العربُ بعسكرهم وأحاطت القبائل بخَندقهم، وسالت الأحزابُ تصديقا لحتم الله عليهم، تريد أن تزلزل أقدامَهم وتُهريق دماءهم؛ فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من ســوء الحال ، وضيق المآل ، وشدّة الكِظَاظ (٢)؛ فإن الله قد وصف لهم حالهم ، وأذكرهم فعلهم؛ ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله ما يجهــلون ، ولا ليذكرهم من أمره ما لا يعرفون ؛ حِذارًا أن تنكسر

(١) فى الأصل : " فيما بعد ... " . (٢) الكظاظ : التعب والشدّة

عزائمهم وتتغيَّر بصائرُهم ، فتنهزِمَ أفئدتُهم وتموتَ نجدتُهم ، وتختلفَ كلمتهم ، فقال الله عز وجل : ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا . يقول الله تعالى : ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ . فبيناهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم فى الجبال ، وتقسيمهم بالقِدَاح ، وأخْذِهم بالأيدى ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما ينَبِّئهم به من علم الغُيوبُ ، ويبشِّرهم به من أمر الفُتوح : " إن الله سينصرُكم على جمع الروم ويغلبُ لكم جنودَ فارس فيهزِمُ لكم جنودَهم ويُورثكم قصورَهم ويستخلفُكم فى الأرض من بعدهم ويبدِّلُكم من بعد خوفكم أمْنًا" . وَعْدًا صدَّقه الكتابُ ، وبِشارةً نطق بها الوحى ، فقال : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ . فقال أقوامٌ وأناسٌ ارتابوا حين تضايقت الحال، وتزلزلت الأقدام، وطارت القلوب ، ودارت العيون ، وأشرف الموت : مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا أيَعِدُنا هزيمةَ جموعِ الأحزاب، وفَتْحَ قصورِ الشأم ، وغَلَبةَ جنودِ كِسْرَى ، وقد سالتِ القبائلُ علينا من كل جانب، وأحدقَ الموتُ بنا من كل مكان، فبقينا فى مَسْغبةٍ من الجوع ، ومَجْهَدةٍ من الخوف ، وضَنْكٍ من الحال، مقهورين مَقْموعين [1] . وقالت الخاصة من المؤمنين حين عاينوا الجموعَ من المشركين ، وذكروا ما خبّرهم الله من تحزبهم عليهم ومسيرِهم اليهم : ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ . فبينا أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مضايق تلك الحال ، وشدّة ذلك الخصال [2] ، وعمومِ تلك البلايا الباهظة، والأمورِ الفادحة، التى قد أخَذَ بأنفاسهم غمُّها، وبلغ

(١) مقموعين : مقهورين مدللين . (٢) الخصال : النصال .

مجهودَهم كربُها، رافعين الى الله عز وجل أيديَهم، يقلّبون فى السماء أعيُنَهم، إذ أرسل الله على تلك الجنودِ الكثيفة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة، ريحًا من الأرض وجنودًا من السماء، فقطعتِ الأبنيةَ، وطيّرت الأمتعةَ، وسفَتِ الترابَ فى العيون، وقذفتِ الرُّعبَ فى القلوب، فولّوْا مُدْبرين، وخرجوا منهزمين، لا يَلْوِى والدٌ على ولَد، ولا مولودٌ على أحد . أمرٌ صدّق الله فيه قولَه، وأنجز به وعْدَه، وهزم الأحزابَ وحدَه، وذكّر المؤمنين نعمتَه فيهم، وعرّفهم منّته بهم، فقال : ﴿ أُذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَاءَتْكُمْ جُنودٌ فَأرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإذْ زَاغَتِ الأبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ ما كان الله عز وجل ليقتصّ على المسلمين فى أنفسهم، إلا ما قد رأوه بأعينهم .

لولا أن هذا ما لا يُنكره عقلك ولا يدفَعه نظرُك، لما جادلتُك بالكِتاب، ولا نازعتُك بالتنزيل . وإنى لأتركُ من آيات النبىّ صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحى، ماهو أعظمُ من هذا وأبين وأجلّ وأوضح . ولكن ليس لى أن أحاجّك من آيات القرآن، إلا بما عليه شاهدٌ من بُرهان، ومخبر من بيان ؛ لا يستطيع عقلُك ردًّا له ولا قلبُك جحْدًا له . وكيف ينبسط لسانُك أو يجترئ قلبك أن يقول : إن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابَه بالكذب وهم يعلمون، فاقتصّ عليهم من أمورهم ما لا يعرِفون! لا! ما يسوغُ لك ولا يَجْمُل بك، ولا يُقْبَل منك أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه ؛ كيف ! أمَا كان يخافُ أن يكذِّبه أصحابُه، وتنتقلَ أحوالُه، وتنتقِضَ أمورُه! لعمرُ الله لو وصفتَ بهذا مَنْ لا يُعْرَف بفضل ولا يُنْسَب الى عقل، لما كان سائغًا لك ولا جائزًا منك، فكيف تصف به من يُرْفَعُ عن الناس قدرُه، ويفضُلُ عليهم عقلُه ! وتُقِرُّ أنك لم تر فى الدنيا أحدًا صنَع [ما صنع] وبلغ ما بلغ ! فأيّتما آيةٍ فيما اقتص عليك أميرُ المؤمنين أعظم أو بينةٍ أعجب : أمَا كان يُتْلَى على المؤمنين فى الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بجنود عظيمة قبل اجتماعهم بسنين

كثيرة ، أم ما كانَ[1] يُنَادِى به القرآن من الهزيمة لهم وينطق به الوحى من الفتح عليهم، أم قول النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " إن الله عز وجل يُؤَمِّنُ خوفكم ويُعِزّ نصركم على الأمم " وهو على تلك الحال ثم تجمّت الأمور على ما قال، أم عسكران مطابقان وجيشان متقابلان ، باتت الريح تحوس[2] أحدَهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها فى عافية وغفلة حتى أصبحوا ؟ فأحسنْ النظرَ فى أمرك، والتّثبّتَ فى دينك إن شاء الله .

وآعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات، على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وحقه، وأن ليس يتقوّل شيئا من تلقاء نفسه ، أنه قال فى عُنْفوان أمره : " إنّ الله عز وجل سَيُظْهِرُ دينى على الدّين كلّه " وجاء مع ذلك بأثَرَة عن ربّه ، فى كتاب محطوط وتنزيل محفوظ . فأىّ أمرَيه[3] لك أدلّ، أو أيّهما عندك أعجب، إذ كنت بنبوّته مصدّقا، ولرسالته محققا : الخبرُ الذى أخبره، أم الفعلُ الذى صَدّقه؟ لئن نظرت بعقلك وقلت فى نفسك : كيف تَرَقّتْ الى هذا نيته وآرتفعت نحوَه هِمّتُه، أم كيف آمتدّتْ اليه طِمْنته وقَوِيتْ عليه رَوِيّته؟ بل كيف دعته اليه نفسه، وشجّعه عليه قلبه، ودخل فيه طَمَعه، وطاوعه فيه لسانُه ، وهو يذكر جنود كسرى، وجموعَ الروم، وملوكَ الترك، وملوك الشرك ، وقُيُولَ اليمن، وصناديدَ الأمم؟ إن هذا لعَجَبٌ، ولا سيما اذا لم يكن فى إرث مُلْكٍ قاهر، ولا كَنَف عزٍّ غالب، ولا معدِنِ علمٍ سالف .

ولئن أعدتَ النظرَ وكررت، فقلت : كيف وافق خبرُه أثرَه، وكيف صَدّق فعلُه قولَه، حتى غَلَب الشرقَ والغربَ! إن هذا لعجبٌ! وأعجب من هذا أمرٌ يدلّك أمير المؤمنين عليه، ويهديك إن شاء الله اليه : لو قلتَ لأهل مملكتك ومن قِبَلك من أمتك : هل بَلَغكم أو تقرّر قِبَلكم، أنه كان فى الدهر الأوّل، والعصر الخالى، أحد مثل محمد — صلى الله عليه وسلم — بدأتِ الأمورُ به مثلَ حاله من الوَحْدة والضّعف والذّلة والقلّة ،وصَدَرت الحالُ به كفعاله فى الغَلَبة والمَنَعة، والقهر والظهور، وغير ذلك؟ لقالوا لا .

(١) فى الأصل : « أما كان ... » .

(٢) تحوس أحدهما : تغشاه وتهيه . وفى الأصل : « تحوش ... » بالشين المعجمة وهو تحريف

(٣) فى الأصل : « فأىّ أمر بذلك ... » .

ثم أنت لا تؤمن بمقالته، ولا تقر برسالته، إلفًا لدينك، وضنًا بملكك، وطمعًا فى قليل من الدنيا قد نعاه الله اليك، ورغبةً فى صبابةِ عيشٍ غيرِ باقية فى يديك؛ فهـذا عجبٌ . وأعجبُ من هـذا أمرٌ يقفك أميرُ المؤمنين على نور حقـه، ويوضح لك إن شاء الله بيانَ أمره : أصبحت العربُ طرًّا والأممُ جميعـا فى محمد صلى الله عليـه وسلم ثلاثةً لا رابعَ لهم ولا مخرجَ للحق من بينهم : رجلٌ مصدّقٌ به من المؤمنين، ورجلٌ مكذّبٌ به من الكافرين، ورجلٌ شاكٌّ فيه من المنافقين .

فأما الشاكُّ فلمّا قيل له : أخرجتَ نفسَك من الحق، وأبرأتَها من الصواب، وأقررتَ عليها بالخطأ ، لقولك : لا بدّ أن يكون الحقُّ فى التصديق أو التكذيب ، ولستَ على واحدٍ منهما، اعتزل عنها .

وأما المكذّب فلمّا قيـل له : أنت مُنكِر والمنكر ليس بمدّع، ومن لم يَدّع لم يَلزَمه بيّنةٌ ولا يسأل عن حجة، اتبع صاحبه . وآيمُ الله على ذلك ، لو سُئل هـذا المدّعى عن بيّنتـه وكَشْفِ حُجته، فقيل له : من أين عَرَف قلبُك، وأيقنتْ نفسُك إيقانًا لا يخالجه شـكٌّ، ومعرِفةً لا يشوبُها ريبٌ ولا ينازعها شُبْهة، أن محمدا صلى الله عليـه وسلم ليس برسول، لمـّا دَرَى ما يقول، لأنه لا يستطيع أن يتقوّل على الرسل ، ولا أن يَتكذّب على الكتب ، فيقول : قد أخبر اللهُ فيها أنه لا يبعَث نبيًا، ولا يُنزِل وحيًا فى كتاب مسطور، بعد التوراة والإنجيـل والزبور . بل قد يجد أهلُ الكتاب فى أقاويل رسلهم وأخابير كُتبهم ، أن الله تبارك وتعالى يُنزل كتابًا جديدا أو كلامًا حديثا، بعـد خراب بيت المقدس فى آخر الزمان، ولم يُنزِل بعد ذلك كتابًا إلا القرآن .

وأما الرجل المصدّق بمحمد صلى الله عليـه وسلم فقيل له : أمّا أنت فقـد ادّعيتَ ، والمدّعى يُسأل عن الحجة ويُقبل منـه البيّنةُ، فمـا بيّنتُك ومن يشهد لك؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحقّ لا يخرُج من بيننا ، ولا بد أن يكونَ مع بعضنا ؟ قالوا بلى ! قال : فأيّة بيّنـةٍ أحقّ وأعدل، وأى شهودٍ أزكى وأفضـلُ من شهادتكم بسقوط صاحبَىَّ وثبوت

الحق من بعدهما فى يَدَى"؟ قالوا : إن الأمرَ لَكَمَا تقول، ولكنّ البيِّنةَ أشفَى للصدور؛ فأقام بينةً من الكتاب، وشهودًا من الوحى، وآياتٍ سوى ذلك عِظامًا، و بيّناتٍ عَوَامَّ، من كلامٍ لا يَقْدِر عليه الخَلْق ، وصِدْقٍ لا يكون إلا من قِبَل الرب ، شبيهاً بما أورده أميرُ المؤمنين عليكم، وكَتَبَ به فى صَدْر كتابه هذا اليكم ، مما قد تشهَدُ له قلوبُ الأمم ، ويُزَكِّيه فِعالُ العرب .

فلمّا أقام بيِّنَتَه ، وثبتتْ حجّتُه ، ووَجَب حقُّه ، وقُضِىَ به له ، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك ، وضاقت المقالة لك ، أن تقول : إن الله لا يبعث نبيا بعد محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا وحيا ينزل غير القرآن، فأبطلت الكتب المحدَثَة، وأكذبت الوثيقة ، ولم تترك وحيا غير القرآن ، ولم يجز للنصارى أن تقول : لا نبىّ بعد عيسى عليه السلام ، ولا كتاب خلف الإنجيل ؛ وعن ذلك من أخبار الكتب ماقلنا كل متنبئ بعد نبينا كذاب ، فشاعت وجازت الحجة ، ووضح العذر[1] . وأما النصارى فيجدون فى أواخر كتبهم ، وأقاويل رسلهم، أن الله عز وجل، يبعث نبيا حديثا، وينزل كتابا جديدا ، فليس لهم أن يكذبوا نبينا — صلى الله عليه وسلم — ولا أن يردّوا كتابنا .

فهؤلاء الثلاثة . أما الشاك فسقط، وأما المنكر فبطل ، وأما المصدّق فثبت ثبوتا ليس فيه مدخل شبهة ، ولا موضع لحجة ، ولا معلق لمنازعة . وذلك أن المنكر لوجوب حقه، والشاك فى ثبوت صدقه، لا يجد بدا من أن يُنَحِّى الصدق عن الخلق، ويخلى الدنيا من الحق ، وهذا قول المكذبين بربهم ، الشاكين فى بعثهم ، فأحسن النظر فى معانيه ينكشف لك عما فيه، إن شاء الله .

ومن أبينِ آياته وأدلِّ علاماته — صلى الله عليه وسلم — ووسع له فيما صدر اليه : أنه لما أخبرتِ النصارى واليهودُ أنهم لم يَجِدوا محمدا — صلى الله عليه وسلم — فى التوراة والانجيل موصوفًا مكتوبًا، تجمّعتِ العلماءُ منهم، وتدارست الكُتُبَ فيما بينهم؛ فلمّا نظروا

(١) فى هذه الجملة غموض لم نوفق الى كشف سببه وان كان المراد منها واضحا .

الى اسمه وعاينوه بنعته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويستفتحون بذكره على من سواهم، [كفرت] طائفةٌ حسـدًا من عند أنفسها، وجحدًا من بعد ما تبيّن لها، وآمنت طائفةٌ، تصديقًا بكتابها، وخوفًا من ربّها .

فلعَمْرُ الله لو [لا] أن الذين آمنوا بحقه وصدّقوا بأمره، رأوا صفته عِيانًا، وقبِلُوا نعته إيقانًا ، لمـا فارقوا أديانَهم، ولا جادلوا إخوانَهم، حتى وقفوهم على اسمه ونَسَبه، وصفته وعلامتـه، وهم علماءُ بنى إسرائيل، وحملةُ الإنجيـل : من أهل الكتاب الذين احتجّ الله عز وجل بهـم على العرب ، فقال عز وجل : ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَـاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ . ولعمرُ الله إنها لآيةٌ عظيمةٌ ، وحجّـةٌ بليغة، ذكرها الله فى كتابه، وجعلها على العرب من بيّناته، فقال لهم : ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْـلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِـمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ . يقولون : وَعَدنا أن يُرسل رسولا ، فقد أرسـله ، وحقّق قوله ، وصدّق وَعْده . واحتجّ النبى صلى الله عليه وسـلم بذلك وذَكَره . ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ليُجادِلَ ويحتجّ فى أمرهم بكذبٍ وباطل، ولم يكن ليقول للنصـارى واليهود، فيما ذكر الله من صدق الموعود : إنه فى التوراة والإنجيـل مكتوبٌ موجود ، إلا وهو من ذلك على حقّ يقينٍ، ونورٍ مُستبين . وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكذب، ويتقوّل عليهم الباطل، مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعِى به إيمَـان أحياءِ العرب . أَمَا كان يعلم أنه اذا قال لهم : إنه موجود فى مَثَانِى كتبهم، وسُمِّىَ على أفواه رُسُلهم، فلم يجدوا خبره يقينا، ولا وصــفه مستبينا، أنهم سـيُدْبرون عنه إدبارا ، تزداد به العرب نِفارا ، إلا أن يقولوا خطأ من علمه، وهواء من خبره، فكيف لم يخط إذًا فى كتبهم حرفا غيره، ولم يخالف منها شيئا سواه، سبحان الله ! لقـد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم، فأنتم إن تنكر ما يقولون لكم ، ممـا ليس لذى لب أن يأذن له أن يؤمن به ، ولا أن ينبذ اليه

سمعه، يقولون : إن أنبياء الله ورسله، المبعوثين بالرحمة الى خلقه، لطفت النبوّة منهم، ووقعت الأخبار المنزلة عليهم، على صغائر الأمور، وغوامض الخطوب، فسار الناس عليها، وأشاروا لهم الى طلبها، فهى مكررة فى مثانى كتبهم، وبطون صحفهم، وأقاويل رسلهم، وتركوا من كلام الله النبأ العظيم، والأمر الكبير، والذكر الحكيم، الذى ملك آفاقَ الأرضين، وآستفاض على جميع العالمين، لم يذكروه بخير يأمرون به، ولا بشرّ ينتهون عنه؛ كلا! ما ترك الله على هذا خَلْقَه، ولا بهذا وَصَفَ تبارك وتعالى نفسَه؛ إنه لأرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين .

ولئن رجعت الى قلبك، لتقولَنّ فى نفسك : لعمرُ الله لو كان هذا الأمرُ الذى طلع طلوعَ الشمس، وآمتدّ آمتدادَ النهار فبلَغ مشارقَ الأرض ومغاربَها، وسُهُول الآفاق وحُزونَتها، حقًّا وصدقًا وعدلًا، لَبَشّرت الكتبُ به، وتنبأت الرسل عليه، ودَعَتِ النُّذُر اليه، تزيينا له وترغيبا فيه، وأمرا به . ولو كان ضَلالةً وجهالة وعَمَايةً، لتقدّموا فى التحذير منه، والترهيد فيه، والتثبيط عنه؛ فيدعو ذلك الى أن تنظروا[2] الى كتب الأنبياء وأقاويل الرسل . فأيمُ الله لئن طلبتَ لتجِدَنّ، ولئن آجتهدتَ لَتُوَفَّقَنّ . وما الصواب بممنوع، ولا الخيرُ بمحظور . ولقد كانت العلماء بالكتب والبصراءُ بالتأويل تجده، ولكنها كانت تكتُمُه بتحريف كلامِ الكتب عن مواضعه، وصَرف تأويل الحكم الى أشباهه، حَسَدًا من عند أنفسهم وبَغْيًا بعد ما تبيّن لهم . ثم لقد آقتديتم بهم وجَرَيتم معهم وأخذتم عنهم، بلا حجة لكم، ولا قوة معكم إلا الآقتداء بالآباء والاتّباع للآثار . فآتقِ اللهَ فى نفسك، وآتّهِمْ الرجالَ على دِينك، ولا تجعَلِ النظرَ الى غيرك من ذوى الشك فى القلوب، والفسخ فى ...[3] والتُّهَم فى التعطيل، الذين لعلهم يَعْرِض لآرائهم ويقع فى أوهامهم أن يقولوا : فلعلّ ما يتلو عليكم أميرُ المؤمنين من آيات القرآن، ويقرع لكم من حجج الوحى شىءٌ زِيدَ

(١) هكذا فى الأصل . (٢) فى الأصل «أن ينظروا ...» بياء الغيبة . (٣) كذا فى الأصل وظاهر أن كلمة بعد «فى» سقطت من الناسخ سهوا .

فى المصاحف بعد النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوى، وذاك الشاك فى شهادات الرجال، متفقة من بلدان وأمصار مختلفة، وشعوب وقبائل متفرقة، ليس يدعوهم الى ماشهدوا دين، ولا يحملهم على ما اتفقوا عليه دنيا، لا يستقيم له أن يؤمن[1] بما لم تدركه جوارحه وتحيط به حواسه، لإسقاطه حجة الإجماع وإبطاله شهادة العوام. واتفاق المختلفين دلالة واضحة . فهو سائلكم عن الحجة فى الإنجيل والبينة على التوراة ، شكا فى الرب وتكذيبا بالرسل، فما كنت قائله له أو مجيبه به فى كتابكم، فأجبه بمثله فى كتابنا وإن كانت الأحوال منهما غير معتدلة ولا مؤتلفة ولا مرتفقة ولا واحدة ، تعتدل حالاهما، ويتفق أمرهما، من كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشافه المسيح به أصحابه باللسان، إنما كان فعلا أثبت من بعده، ولم يكن الفعال موضوعا بعده[2] . وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا اليكم شكا فيه ، ولا يورده عليكم مرية به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كتب الله عز وجل محفوظة، وأن حججه مخزونة، لا يزاد فيها على تقادم عهد، ولا ينتقص منها على تقارب دهر، وأن ذلك ثبت فى الإنجيل من بعد عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن اجتمع اليه من الحواريين : "بالوحى أكلمكم ، والأمثال أضرب لكم". فأمثاله المضروبة كلام، وكلامه الرائع وحى . ولكن ما بال الشك ينفى عن كتابكم ، بحجة الاجتماع عليه عندكم ، وهو على ما وصف أمير المؤمنين لكم، وسيان فى تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه، إما ما قربا[2] من عهده ومعاينة وحيه واجتماع على حفظه، هذا حكم مختلف .

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التى تعرفون وقوها[3] بطبقات الرجال الذين يتهمون .

فإن قالوا : أما طبقات الرجال التابعين ، وحالات زمان أمير المؤمنين ، فذلك ما لا يسوغ الأقاويل فيه ، ولا تدخل الشبهة عليه، لانتشار القرآن وامتداد الزمان،

---

(١) فى الأصل : «ولا يستقيم له أن يؤمن له بما ...» . بزيادة "له" . وهى قلقة فى موضعها فلعلها زيدت من الناسخ . (٢) فى هذا الموضع اضطراب فى الكلمات، والمراد واضح . (٣) كذا فى الأصل .

وكثرةِ الحَمَلة لآياته فيهم، والحَفَظَة للسانه منهم ؛ ولكن الدين الذى نزل به القرآن، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم . وكيف بوقوع تهمة أو دخول شبهة، على أقوام [لبث] النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حِجّةً فيهم يتلو كتابَ الله عز وجل فى كل عام عليهم، حتى حَمَلوه فى صدورهم، وحَفِظوه فى قلوبهم، وكُرِّر فى آذانهم مسموعا، وأُمِرّ على أبصارهم مكتوبا، وجَرَى على ألسنتهم متلوًّا، وجَمَعه كثيرٌ منهم محفوظا؛ ثم تَوَارَثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم، حتى أدّوه الينا، وأوفوا به عندنا، من مواضع متفاوتة، وأصناف وأجناس متباينة، على كلمة واحدة ! .

فإن قالوا : اتّفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنت الحالُ من الحمل عليه، فليعلموا أن المؤمنين المخاصين ليسوا فى الزيادة متهمين، وأن المنافقين الملحدين ليسوا على ذلك بقادرين . وكيف يقدر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من المؤمنين، بعد ما حَفِظَتْه قلوبهم، ووَعَتْه أسماعُهم، ثم تُكْتَم القدرةُ لهم وتُستَتر الزيادةُ منهم ! هذا ما لايقدِر عليه منافق، ولا يطيقه مُشرك ولا فاسق . وآيمُ الله أن لو قَدَرتِ اليهودُ على الزيادة فى الإنجيل، لأفسدوا كتابكم وغيّروا دينكم ؛ ولو جعل الله المنافقين على الزيادة فى كتابه قادرين، لَبدّلوا دينَنا وغيّروا حالَنا . ولو كانوا لذلك مُقْرِنِين وعلى ذلك مقتدرين، لكان الذى كَتَب به أميرُ المؤمنين اليكم، وأورده من حجج الله عليكم، أولى ما تلقون، ورأس ما تقترفون. فلا تُلْقِيَنّ الى ما قاله [المضل] سمعَك، ولا تُنصِتِ الدهرَ اليه ذهنَك، فإنه آتّخذ الشكَّ فى كتابنا ذَرِيعةً الى الإخلال بكتابك، وسُلّمًا الى الشكّ فى دينِك[(1)] وعلّةً فى الطعن على مِلّتك ؛ ولكن قل ياولىَّ الشيطان : أنّى وَقَع لك إيمان بأنك من ولد فلان ؟ أتقول : شَهِدت الجيرةُ، وآجتمعت العَشيرة، وآتّفق المختلفون، فذهب الشك، وزال الريب، ووقع الإيقان، من غير العيان؟ صَدَقتَ . فما بالُ الشكِّ فيما آجتمعَت العامّة على القول به، وآتّفقت الجماعةُ[(2)] فى الشهادة عليه من آيات الكتب وبيِّنات الرسل ! وإن ذهب بهذا عن أمره، وباعده

(١) فى الأصل " فى دينه ... " . (٢) كذا بالأصل

عن شبهه ، فتؤمن أنه من نطفة خُلق ، ومن رَحِم خَرَج ، فإن جحدوا بى ألا يؤمن بما لا يرى ، فقل : أرأيتَ لو كنت سميعًا أعمى ، أكنتَ تُؤمن بشىء مما فى الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سبع ، أو أرض أو جبل ، أو شبه ذلك مما لم يدركه العِيان ولم يقبله إلا عن الناس؟ فإن قال نعم ، فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالرب[1] ، وما لدائه دواء غير الصلب . فاتقِ الله إذ كنتَ إمامًا وقائدًا لأهل ملكك ، لا تقدهم الى النار فتحمل أوزارهم مع وزرك .

فإن من أبين آيات الوحى ، وأدلّ علامات النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه لا يبتدع فى الدين أمرًا من تلقاء نفسه ، ولا يتقدّم فى الأمور بين يَدَىْ ربّه . والله أظهرَ فيما أنزل من الكتاب أمورًا كان يحسبها صلى الله عليه وسلم مستورة ، فقال تأديبًا له ، وإخبارًا لمن آمن من بعده : [2] ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ . وقال : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ . وقال تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ . وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس الى البلد الحرام حين سكنت القلوبُ اليها ، وأنِسَت النفوس بها : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ . وكانت القبلةَ التى صرفه الله اليها وأمَرَه بها عظيمةً على المنافقين واقعةً بخلاف الكافرين ، كبيرةً[3] إلا على الذين هَدى الله من المؤمنين ؛ فإنهم قالوا : اذا اختلفت القبلتان وافترقت الجهتان ، كانت الطاعةُ فيهما واحدة لا آختلافَ فيها ولا آفتراقَ عليها . وكيف تختلف الطاعة من رجلٍ بَنَى بأمر الله عز وجل ثم هَدَمَ بوحى الله .

(١) كذا فى الأصل (٢) فى الأصل : "لمن آمن من بعده إذ يقول ..." وظاهر أن كلمة "إذ يقول" غير مفيدة هنا ، فلعلها زيدت سهوا من الناسخ . (٣) فى الأصل : "كثيرة ..." .

فإن قلتَ : إن الله حَوّله عن أفضل القبلتين وأقوم الجهتين، فلا سواء فى الفضل البيّن والخير السرّ : قبلة سلّط الله عليها الكافرين ولم يمنعْها من الظالمين، وقبلة مَنَعها بجنودٍ من عنده، وعَصَمَها بغير ما حَوْلٍ من خَلْقه ولا حرمةٍ يَدّعِيها أحدٌ ممن فيها ؛ فأرسل طيراً أبابيل تَرْمِى الأعداءَ بحجارةٍ من سِجِّيلٍ، فجعلهم كعَصْفٍ مأكول . فإن تقلْ : هذا خَبَرٌ نُنْكِره، وقول لا نعرفه ؛ فبأىّ حديثٍ بعدَ هذا تؤمن ، وتَشْهد لله عز وجل أنه من قِبَلِه ، وأنتم تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورةَ الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فإن قلت : إن محمدا صلى الله عليه وسلم خَبّرهم بما عاينوه وأدركوا خلافه ، تقلْ : إنه أراد أن يفرّقهم عنه ويوحشهم منه ، وأحب أن يرموه بالكذب، ويقذفوه بالحمق ، ويصموه بالجنون، ويظنّون[1] به الظنون، كلا ! ما كان نبي ولا غير نبي ليجاهد أقواما بخلاف ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم ، فيخبرهم بخلاف ما شهدوا، وتكذيب ما عاينوا . فلا تكونن فى هذا من الممترين، ولا بأمر الفيل من المكذّبين .

فلعمرُ الله لو كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما تُلْحِد أنت وقومُك اليه لما قام معه رجلان ولا آختلف فيه سيفان . وإن فيما صنَعَ الله عز وجل بالفيل وأتباعه ، دلالةً على قبلة الله وأنبيائه . فآتق الله ! فقد شرح أميرُ المؤمنين علاماتِ النبي صلى الله عليه وسلم وكَشَفَ الأغطيةَ لك عن النُّور بآيات الوحى . فإن مالت الأهواءُ بك ، وغَلَبت الأساقفةُ عليك ، وحضرك الرؤساءُ الذين يجعلون مع الله آلهةً أُخرى بلا حجّةٍ عندهم، ولا سلطانٍ أتاهم فقل : أنبؤنى عما آجتمعت عليه النّصْرانية وذهبتْ اليه بهم المعانى من تشقيق الكلام وتصريف الكتب : أحروفٌ تتعسّفونها، أم لغةٌ تعرِفونها ؟ فإن قالوا : إنهم بغير لغةٍ يتكلّمون ، فهم إذًا قوم يلعبون . وإن قالوا : إنهم يتكلّمون بلغة معروفة ومعانٍ معلومة، فقل : أخبرونى عن قولكم : أب وآبن، أهما ما تعترف العقول من المنطق ويقع فى القلوب من المعنى أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذى

(١) كذا بالأصل .

تذهب أوهام العباد اليه، ولا بالذى تقع الحقائق فى الآباء والأبناء عليه، إنما هو كقول الله عز وجل فى التوراة لإسرائيل: "بكرى" لا يعنى بولادة الرحم؛ وكقول المسيح عليه السلام للحواريين: "أنتم إخوتى" لا يعنى أُخوّة النسب. فذلك قولٌ لا يجدون معه بدًّا من أن ينسبوا عيسى عليه السـلام عبدًا . وإن قالوا : بل هو ماتجرى به ألسن العباد ، ويقع فى قلوب الخلق من الولادة المعـروفة والأبوة المعـلومة ، فليخبرونا متى كان الأب والدا ، والابنُ مولودا : أقبـل الولادة أم بعدها ؟ فإن قالوا : قبلها ، رجعوا عن القول الأوّل بتثبيت الأبوة . إلا أنـ ذلك ليس بالشىء الذى تذهب إليـه الأوهام ، ولا بالمعنى الذى يقع فى قلوب الأنام .

ولا بدّ اذا سقطت الولادةُ المعـروفة وبطَلت الأبوة الموجودة، أن يقولوا : إن الأب والابن اسمان عُلِّقا على غير معنى، ونَسَبانِ أُضيفا الى غير حق؛ فيقرّون أن عيسى عليه السلام خُلِقَ مثلَهم، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحدٍ منهم .

وإن قالوا : إنمـا كان الابن مولودا والأب والدا بعد الولادة، فقد أقرّوا بأن الابن حَدَث مخلوق وعبـد مربوب، لقولهم إنه لم يكن حتى وُلِد، ولم يُولد حتى خُلِق . وقل لمن يقول الزورَ العظيم، ويقذِف بالإفك المبين : أليس الأبُ أبًا على حِياله ولم يزل، والابن ابنا نُجِل، وروحُ القدُس كذلك؟ فإن قالوا: نعم، فقد أقرّوا بأنهم ثلاثةٌ متباينةٌ، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة، وتركوا قولَهم : إنهم ثلاثةٌ أصلُهم واحد .

وإن قالوا : الأب والابن وروح القدس واحد، ولكنّ بعضه أبٌ وبعضَه ابن وبعضه روح القدس، فقد دخلوا فى التحديد الذى هو عيب عنـدهم ، وقالوا فى التبعيض بما هو كفرٌ قِبلَهم . وإن قالوا : ليس مُبَعَّضا ، ولا مجزّأً، ولا محدودا، ولا ثلاثة متباينين، فإذًا هم قوم يلعبــون : يقولون : الأبُ ابنٌ ، والابن أب ، والوالد مولود ، والمولود والد ، والكبير صغير، والصغير كبير، والقليل كثير، والكثير قليل . وهذا من أبين المحال وأخلف المقال. وليس من المنطق مالا يوجد فى لغة عرب ولا عجم، ولا لسان أمّة من الأمم. وإنما

أرسل الله عز وجل كل نبيّ بلسان قومه ليبيّن لهم، فيُضلّ الله الظالمين . ولولا ذلك لمّا فَهِمت الأممُ مذاهبَ أقاويلِ الرسل ولا معانىَ أحاديث الكتب . فلا تُطِع الذين يلعبون بأنفسهم ، ويتكلّمون بغير لغتهم، ويقولون : الثلاثةُ واحدٌ ، والواحد ثلاثة؛ وهذا محالٌ فى مَجارى المَقال، ومعانى الفِعال .

لعمرُ الله لئن آتّهمتَ عقولَ الأساقفة على دينك ، وآهتَمَمْتَ بالنظر فى توحيدك ، لَتعلمَنّ أن الواحدَ لايكون ثلاثةً وأن الثلاثةَ لا تكون واحدا، إلا على وجه ماله ثانٍ يقول به، ولا منه مَخْرجٌ تستريح اليه . فألقِ نحوَه سمعَك، وأَنصِتْ اليه فهمَك؛ فإن أميرالمؤمنين واصِفُه لك، وليس واقعًا إلا على المخلوقين، ولا لازمًا غيرَ المحدودين، ولا داخلًا على رب العالمين : وهو أن يكون الشيءُ أصلُه واحد وأجزاؤه كثيرة، من نحو الانسان ، وهو أصل يجمعه اسم ، وله أجزاء تلزمها أسماء؛ فليس الجزءُ بالأصل، ولا الأصلُ بالجزء، ولكن الجزء بعض الأصل . فإذا أردتَ الجزءَ،قلت يد الانسان وسَمْع الانسان . ولولا أنه محدود مخلوق مجزّأ مبعّض لما جاز هذا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه؛ وكذلك الشمس : الأصلُ واحد،وهى شمس، والأجزاء كثيرة وهو عينُ الشمس وضوءُ الشمس وشُعَاع الشمس ودقيقُها وغليظها وحرورها وأعلاها وأسفلها وأشباه ذلك .

فلئن قلت : سمّيتُ كلَّ جزء من الأجزاء على حِياله إنسانًا ، وكلَّ جزء من الشمس دون أصله شمسا ، ونسبتَ فعلَ الأصل الى بعض أجزائه ، وتركتَ أن تنسُب الأصلَ فاعلًا ببعض الأجزاء ، كما تقول : بَسَط الانسانُ بيده، ومَشَى برجله ، ونَظَر بعينه ، ثم ضربتَ ذلك لله عزوجلّ مَثَلا وجعلتَ الله له قياسًا ، فقلت : الأصلُ واحد، وهو الله عز وجل ، والأجزاء كثيرة وهى أب وآبن وروح القدس، وكل جزء منها إلهٌ على حِياله وربٌّ دون غيره، لم تجِدْ بُدًّا أن تُلحِقَ اليدَ والعينَ والنفسَ بالأب والأبن ورُوح القُدُس ، فتُكثِرَ آلهتَك، وتحدِّدَ ربّك، وتتركَ قولك: إن الله ليس محدودًا ولامجزّأ ولا مبعّضا؛ إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول : المعنى واحد، وهو الله عز وجل، والأسماء أبٌ وآبنٌ ورُوح القدس .

فإن كنتَ تقول هذا وكنتَ إنما تعبـد أسماء، فما تجد بدًّا من أن تعبدَ الأسماء كلها وتقول : إنهـا آلهةٌ على حيالها ، حتى تقول باسم ارحمني ، وبثانٍ اغفـر لي . فاتقوا الله يأهل الكتاب ، فإن الله عز وجل ليس بأب ولا ابن ولا اسم، ولكن له الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يُلحدون في أسمائه سيُجزَوْنَ ما كانوا يعملون .

فإن أشارت الأساقفةُ الى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك وقالوا ليس إنساناً، فقل لا ، ولكنه للإنسان ، وقل هو إنسانٌ بكماله . وكذلك إن أشاروا الى بعض الشمس فقالوا : أليس هذا الشمس طالعا، فقل لا ، ولكنه بعضها ، ولو كانت الأسماءُ التي تقع أبصاركم عليها وتشـير أيديكم اليها من الشمس والسماء والهواء شمسا وهواءً وسمـاءً لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر ممـا يبلُغه الإحصاء . ولو قصدتَ بالإجابة لمسالك هـذه الأودية ، لبطَلَتِ الحجج الداحضـة وانقطعت الأقاويلُ المتناقضة . وسـل مَنْ قِبلَك من أساقِف أمّتك وشَمامِسَة أهل مِلّتك الذين يزعمون أن عيسى المسـيح، ويرفعونه أن يكون عبـدًا : على أي شيء وقع اسمُ المسيح من عيسى : على الروح أم الجسد أم على كليهما؟ فإن قالوا : وقع على الروح نفسه ، لأن الروح إلهٌ دون غيره ، فقد أقروا بأن إلههم يأكل ويشرب ، ويمشي ويركب ، لأنهـم يجدون ذلك من فعل عيسى مبينـا قِبلَهم ، موصوفاً عنـدهم . فإن قالوا : وقع اسم المسيح على الجسـد بعينه ، فكان الجسد هو المسيـح اذًا دون غيره، والمسيحُ اذًا مخلوقٌ عنـدهم ، والإله إنسانٌ اذًا مثلهم ، فلِمَ يعبُـدون المخلوقَ ويدعون من خَلَقه وبَرَأه . وإن قالوا : وقع الاسم على الروح والجسد جميعا، فلن يجدوا مَخرَجًا ولا بُدًّا ولا مَحيصًا، اذا أوقعوا الاسمَ عليهما، من أن يُضيفوا الأعمالَ إليهما، فيقولوا : إن الجسد المخلوقَ هو خَلَقَهم ، وإن الرُّوحَ الخالقة قد ماتت قِبَلَهم، وذلك لمـا يجدون من ذكر موتِ عيسى عليه السلام في الكُتُب عنـدهم وفي الإنجيل الذي قِبلَهم. وسل مَنْ قِبلَك عن الأب والابن ، فقـل أيهما أعظم وأيهما أصغر؛ فإن قالوا : الأب أعظم والابن أصغر، فقـد جعلوهما متباينين . وإن قالوا : هما واحدٌ وكلاهما عظيم ، وليس الأب بأعظم من الابن ،

ولا الابن بأصغر من الأب، فقد نقض حينئذ جوابهم ، وأ كذب المسيحُ عليه السلام كلامهم، حيث يقول : " لو كنتم تحبونني لفرحتم حيثُ أذهب الى إلهي فإن إلهي أعظم مني"[1] فلم يَقُل أعظمّ مني، إلا وهو مقرٌّ بأنه أصغرُ منه . وسلهم عن قول المسيح : "أنا أذهب الى إلهي و إلهكم"[2]، فقل : مَنْ هـذا الإلهُ الذي ذهب عيسى اليه صلى الله عليه وسلم : إلهٌ في السماء متباين منه منقطعٌ عنه؟ فهما اذا اثنان متباينان، أم إلهٌ كان به متّصلًا وكانا جميعًا واحدًا؟ فكيف اذًا يجوز له أن يقول اذًا أذهبُ اليه ! إلا أن يقولوا : إن بعضه ذهب الى بعض! وهذا مما لا يجوز عندهم في صفة الربّ عزّ وجل .

وسَلْ مَنْ قِبَلَك : أَخَرَجَ المسيحُ من بطن أمه مريم بكماله حتى كان البطن منه فارغا وكان هو منه بكماله خارجا؟ فإن قالوا : نعم، فقد انكسر قولهم : إن الله بكل مكان . وإن قالوا : لم يخرُج المسيح ولم يخلُ البطن، فقد كَذَبوا اذًا في قولهم : إنه قد خَرَج، وأقرّوا أنه قد وُلِدَ . فتعالى الله عما يَصِفون، وتنزّه عما يُشركون . وسلْهم لِمَ هَبَط عيسى الى بطن مريم، وتجسّد باللحم والدم ؛ فإن قالوا : ليَمْحَقَ الخطايا من الأرض ويربُطَ الشيطان عن الخَلْق[3]، فقل : كيف اذًا لم يربطه عن نفسه! وكيف جلاباه من اليهود بصلبه! ولِمَ سُلِّطَ على أهل دينه يُتَّبَعون في كل شِعْبٍ ويُقْتَلون بكل واد!

وقل للذين يقولون : إن الخالقَ في كل مكانٍ من السماء والأرض وغير ذلك : أيهما أعظم : المحيطُ المشتَمِلُ، أم المُحَاط المشتَمَل عليه كما يقولون؟ تعالى الله عما يشركون . فإن قالوا : إنما التحم ببعضه دون بعض ، فقد حَدُّوا وبعّضوا ونَقَصوا وانتقصوا ، وإمّا قالوا فلن يجدوا بدًّا من أن يقولوا : إن بعض المسيح الذي جعلوه ربهم، وهو إله عندهم ، ميّت بعضه جِيفة، وإن بعضه حيٌّ طيب؛ لأنهم زعموا أنه التحم بجسد حيٍّ فيه

(١) الوارد في إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٨ ج ٣ ص ١٨٦ من الكتاب المقدس طبعة بيروت سنة ١٨٨٢م): «فلو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون بأني ماض الى الأب لأن الأب هو أعظم مني» .

(٢) الوارد في إنجيل يوحنا (فصل ٢٠ آية ١٧ ج ٣ ص ١٩٦ من الكتاب المقدس) : «إني صاعد الى أبي وأبيكم و إلهي و إلهكم» . (٣) كذا بالأصل .

رُوح، فلابدّ اذًا أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفزع والفرح والعطش وأشباه ذلك، وهو عندهم كفر عظيم وإفكٌ مبين . فاتّقِ عقوبةَ الله ربك، ولا تمشِ مُكبًّا على وجهك، ولكن اطلبْ والتمس وابحث، فقد قال عيسى عليه السلام فى الإنجيل : "من سَأَل أُعْطِىَ ومن طَلَب وَجَد ومن استفتح فُتِحَ له"[1] .

اجمَع العلماءَ والبصراءَ [الذين] عندك، والأساقفة والرهبان الذين قِبلَك، فقل : لأى شىء نَسَبتم المسيح إلهًا وجعلتموه ربًا؟ ونجد الله سمّاه فى الكتاب ابنًا ، وقد تجدونه قال : "إنى أذهبُ الى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم أيضا" . وهــذا كلامٌ يحتمل وجهين أحدهما أولَى به، وقولٌ لايحتمِل إلا وجهًا وهو الرُّبُوبيّة . أم كيف تنظرون الى كلامه : "أذهب الى أبى وأبيكم" . فتُفْرِدونها فى نفسه وقد قالها فيه وفى غيره !

فاتّق الله وكن من القائمين بالحق، الموحّدين للرب . إن أمير المؤمنين قد ضَرَب لك أمثالًا جمّةً، وصَرَف اليك مسائلَ كثيرة، وبيّن لك من آيات النبى صلى الله عليه وسلم وعلاماتِ الوحى قليلًا من كثير، واضحا من تفسير، لا تمتنع العقولُ من التصديق به ، ولا القلوبُ من الإقرار به .

وسيذكر لك أميرُ المؤمنين من علامات النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل ، ما يُكتَفَى به، إن شــاء الله، وباليسـير منه ؛ لأن كتب الله عز وجل محفوظة، وحُجَجه محروسة، لا يزاد فيها ولا ينقص منها . واذا وجدتَ فيها كلمةً تدلّك على حق وتَهْديك الى رُشْد ، فلستَ واجدًا أخرى تَصُدُّك عنه وتشكِّكُك فيه، اذا تُلِىَ ذلك بالحق ووُضِع على الصــدق . ولكن ضلّت اليهودُ والنصارى بتحريف تأويل الكلام، وتصريف تفسـير الكُتُب . وأميرُ المؤمنين يسأل الله العِصْمَة والتوفيق .

(١) الوارد فى إنجيل متى (فصل ٥ آية ٤٢ ج ٣ من الكتاب المقدّس) : «من سألك فأعطه . ومن أراد ان يقترض منك فلا تمنعه» . والوارد فى إنجيل لوقا (فصل ١١ آية ١٠ ج ٣ من الكتاب المقدّس) . «من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له» .

من ذلك ما قد شَهِدَ به عيسى عليه السلام عندكم وبيّنه فى الإنجيل لكم ، إذ قال للحَوَارِيّين[١] : "أنا أذهبُ وسيأتيكم البار قليط روح الحق الذى لا يتكلّم من قِبل نفسه إنما يقول كما يُقَال له ، وهو يشهد علىّ وأنتم تشهدون لأنكم معى من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شىء أعدّ الله لكم يخبركم به" . وترجمة البار قليط : أحمد . هذا ما لا شكّ ولا مرية فيه ، وهو الذى يُخبر بما وَعَد الله المؤمنين وصالحى الحَوَارِيّين فى القرآن ، ولستم تجدون ذلك فى التوراة ولا فى الإنجيل .

ومن ذلك قول أشعيا[٢] النبى عليه السلام : "قيل لى : اقم بطارا ما ترى بخبرى[٣]؟ قال : أرى راكبين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها المنحوته[٤]" . ولسنا نعلم نبيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا .

ومن ذلك قول داود عليه السلام[٥] : " اللهم ابعث جاعلَ السُّنّة كى يعلم الناسُ أنهم بشر" يقول : كى يتبيّن الناس أن عيسى عليه السلام إنسان . ولسنا نعلم نبيا وضع سنّةً تُنْسَب اليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فإنه نَصَب سُنّةَ موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حَبقّوق[٦] المتنبىء فى زمان دانيال : " جاء الله من السماء[٧] والقِدّيس من جبال فاران ، وآمتلأت السماء من تحميد أحمد وتقديسه ، ومَسَح الأرضَ بيمينه ، وملَك رقابَ الأمم" . وقال أيضا[٨] : " تضىء لنوره الأرضُ ، ويُحمَل خيلُه فى البحر" . فالى من

(١) راجع إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٦ وفصل ١٥ آية ٢٦ وفصل ١٦ آية ١٣ ج ٣ ص ١٨٨ من الكتاب المقدّس) .

(٢) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٢١ آية ٩ ج ٢ ص ٣٤٨ من الكتاب المقدّس) . (٣) كذا بالأصل ، ولم نوفق الى تصحيحه . (٤) فى الأصل : «المنحرة» وقد استأنسا فى اثبات ما أثبتناه بالكتاب المقدس .

(٥) راجع سفر المزامير (فصل ٩ آية ٢١ ج ٢ ص ٥٢ من الكتاب المقدّس) . (٦) راجع نبوءة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدّس) . (٧) فى الأصل : "من السماء ..." .

(٨) راجع نبوءة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدّس) .

يخو هـذا القول، وإلى أين يُذْهَبُ بهذا المعنى؟ لئن ذُهِبَ به إلى غير الذى [تحمل][1] خيلُه فى البحر، وبدأ من جبال فاران أمره، وغَلَب على الأرض ومسحها[2]، وملّك رقابَ الأمم كلها، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى الزَّبور[3]: " صَدِّقُوا وسَبِّحوا الربَّ تسبيحًا حديثا سَبِّحوا الذى هلَّله[4] الصالحون . ليفرَحْ إسرائيلُ بخالقه ويتوب صِهْيونُ من أجل أن الله اصطفى له أمته ، وأعطاه النصر وسَدّد الصالحين بالكرامة، يسبِّحونه على مَضَاجعهم، ويكبّرون الله بأصواتٍ عالية ، بأيديهم سيوفٌ ذاتُ شَفْرَتين ، لينتقم الله من الأمم الذين لا يعبدونه، ثم يقيِّد ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال" . فأيّتما أُمةٍ يكبِّرون اللهَ بأصواتٍ وأذان الصلوات الدائمة وعلى كل شَرَف وعند كل حرب ، وأيّتما أمةٍ كانت سيوفُها ذاتَ شَفْرتين إلا أُمة محمد صلى الله عليه وسلم !

ومن ذلك قول أشَعيَا[5] : " سَبِّحوا الربَّ تسبيحًا حديثا، ويسبّحه من آفاق الأرض فرح[6] يكون فى بنى فيار" . وبنو فيار قريش أهل فاران الذى نزل فيه القرآن . وأيّتما أُمةٍ تسبِّح من آفاق الأرض إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم . عمدى أكدى[7] .

ومن ذلك قول أشعيا[8] : " عبدى الذى وجب به حبّى الذى بشرت به نفسى أُفيض عليه رُوحى، يُوصِى الأممَ بالوصايا، لا يضحَك ولا يُسْمع صوتُه فى الأسواق، ويفتح العيون العُور، ويُسمِع الآذانَ الصُّمّ، ويُحيى القلوبَ الغُلْف، وما أُعطيه لا أُعطى غيرَه، أحمد يحمد اللهَ حمدًا حديثا ، تهليلُه يأتى من أقصى الأرض ، يجوز الماءَ بشدة أمواجه[9]، ويفرح وكورها، سكانها يحمدون الله على كل شَرَف ، ويكبِّرونه على كل رابية " .

---

(١) زيادة يدل عليها ما قبلها . (٢) فى الأصل : "ومسحها ..." . (٣) راجع سفر المزامير (فصل ١٤٩ آية ١ — ٩ ج ٢ ص ١٥٧ من الكتاب المقدّس) . (٤) فى الأصل "هلكه الصالحون..." (٥) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس) . (٦) كذا فى الأصل، ولعله محرف عن «فوح» . والفوح : الجماعة من الناس . (٧) كذا بالأصل، ولم ندر لهاتين الكلمتين ولا لذكرهما معنى . (٨) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١ — ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدّس) . (٩) كذا بالأصل .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى المزمور الخامس والأربعين[1][2]، يقول الله عز وجل لمحمد فى الزبور : "انصبّت رحمتى على شفتيك من أجل ذلك باركتك الدهرَ[3]، تقلّد السيف على الأمم ، أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسباء بهاك وحمدك أحمد على البر منك كلمة الحق وذللت لك الأشياء سيفك محسمه يمينك ونبالك مسمومة و سقط عند الأمم" . فأى نبى كان على الأمم جبارا ولهم بإذن الله قتالا إلا نبينا صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك فى آخر التوراة[4] : "جاء الله تبارك وتعالى من سيناء وأشرف من ساعير واستبان واستعلن من جبال فَارَان ، وجاء عن يمينه ربوات القِدّيسين" . وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى فى طُورِسيناء ، وأنزل الإنجيلَ على عيسى عليه السلام فى جبل ساعير وهو جبل بالشام، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فى جبال فَارَان وهى بلاد مكة . وأنتم تجدون ذلك فى كتبكم مكرّرا وتعرفونه جميعا بلغتكم .

ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام[5] «سأُقِيمُ لهم من إخوتهم مثلَكَ أجعلُ كلامى على فهمه ولا يتكلّم إلا بما آمرُه به» . فمَنْ إخوة بنى اسرائيل إلا بنو إسماعيل ! أَمَا تعلم أن لو كان الله عزّ وجل يعنى أحدًا منهم لقال لهم: أُقيم لكم نبيا منكم ! .

فإن قلتم إنما قال من إخوتكم، وهو يريد من أنفسكم، فهَبْ أميرَ المؤمنين قَبِلَ هذا الخُلْفَ منكم ووَسّعَ فى هذا المجال لكم، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل فى التوراة : "مثلُ موسى فى بنى إسرائيل لايقوم" فهل تجدون من هذا مَخْرجًا. ومن الإيمان أن المعنى وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدًّا .

---

(١) راجع سفر المزامير (فصل ٤٤ « وفى بعض النسخ ٤٥ » آية ٣ — ٨ ج ٢ ص ٧٩ من الكتاب المقدّس) .

(٢) فى الأصل : « فى خمسة وأربعين مزمورا » .

(٣) فى الأصل : « من أجل ذلك ماركل الدهر . واستعنا فى تصحيحها بالكتاب المقدس الذى وردت فيه الجملة هكذا : « وقد انسكبت النعمة على شفتيك فلذلك باركك الله الى الأبد » . أما الباقى فلم نوفق الى تصحيحه فأثبتناه كما وردت بالأصل .

(٤) راجع سفر تثنية الاشتراع (فصل ٣٣ آية ٢ ج ١ ص ٤٤٣ من الكتاب المقدّس) .

(٥) راجع سفر تثنية الاشتراع (فصل ١٨ آية ١٥ ج ١ ص ٣١٨ من الكتاب المقدس) .

ألا تسمع قول الله عز وجل : "أجعَلُ كلامى على فمه كى يُغْنَى به ، أُمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب" .

أوليس قد أمر عيسى عليه السلام حَوَاريِّيه أن يقولوا فى صَلَوَاتهم[1] : «ياأبانا الذى فى السماء تقدس اسمك» . كيف صار عيسى دونهم ابنا ، وصار له دونهم أبا[2] ، وهم يقولون : ياأبانا ! أم كيف لم يُجْعَل سليمانُ بن داود إلهاً وقد قال الله عز وجل لداود : "يُولَد لك غلامٌ يُسَمَّى لى وأُسَمَّى له" ! ولِمَ لايجعلون إسرائيلَ إلها وقد قال الله عز وجل له : "أنت بِكْرى" ! بل لِمَ لا يُسَمُّون المؤمنين عامّةً والحواريّين خاصة [آلهة] ، وقد قال المسيح للحواريين : أنتم إخوتى ، وقد قال فى الانجيل[3] : "أَعطِ كلَّ من آمن بى سلطانًا يُدْعَى له" . وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح إخوة أفلا تجعلونهم كلهم آلهة ! وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله ، وهو يقول فى مواضع جمّة وأماكن كثيرة إنه ابن الانسان ! فكيف يكون ابنُ الانسان ابنَ الله ؟ ومتى كان ذلك ؟ لئن قالوا : إن عيسى لم يزل ابنَ الانسان ، لقد جعلوا مع الله إنسانًا قديمًا وجعلوا الله إنسانا حديثا ، وجعلوا المسيحَ ابنَ الله لم يَزَلْ ، وابنَ الإنسان فيما حَدَث . وهذه أمورٌ متناقضة ، وحجج داحضة ، وأقاويل فاحشة .

فإن قالوا : إنما نعبد المسيحَ لأنه رُفِعَ الى السماء ، فليعبدوا الملائكةَ فإنهم فى السماء قبله ، وإدريسَ فقد رفعه الله وغيرَه . وإن كانوا يعبدون المسيح لأنه لم يُخْلَق من ذكر ، فآدمُ وحوّاء لم يُخْلَقا من ذكر ولا أنثى ، ولم يَقَعَا من غمّ الرحم وضِيق البطن وحال الصِّبا فيما [وقع] فيه المسيح .

وإن قالوا : إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى ، فما أحيا حزقيل[4] أكثر ، وما كان من اليَسَع تلميذ إلياس أعجب ؛ لأنه أحيا الموتى بعد مئين من السنين . وإن طلبتم ذلك فى سِيَر الملوك عند قصة اليسع أصبتموه ، إن شاء الله .

---

(١) راجع إنجيل متى (فصل ٦ آية ٩ ج ٣ ص ١٠ من الكتاب المقدس) . (٢) فى الأصل : «وصار دونه أبا ... » . (٣) لم نجد هذا فى الإنجيل . (٤) حزقيل نبىّ بعثه الله تعالى الى بنى اسرائيل ، وهو الذى أحيا الله القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدعوته . وهو ما يشير اليه قوله تعالى : (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) الآية .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيحَ من أجل الأسقام التى أبرأ والعجائبِ التى أرَى ، فعجائبُ موسى أعجب وآياته أعظم . أين ما ذكرت لك من [عجائب] عيسى من عجائب موسى : من انقلاب البحر له ، وسلوكِ الجيش معه! أم أين ذلك من حجرٍ يضرب به فيتفجّر بعيون الماء، ويحمله معه حيث شاء! بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس يُوشَعَ الشمسَ[1] ثلاثَ ساعات! وكلُّ ماصنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره وقضائه . فاتّقِ الله وكن من القائلين بالحق ، الموحِّدين للرب ، ولا تقل على عيسى ما لم يَقُل ؛ فإنكم لاتجدونه قال لكم فى شىء من كتبكم : اعبدونى فإنى ربكم . تعالى الله عما يقول الظالمون، ويذهب اليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحبّ أن ينصح لك ، فى أَوْلَى دارَيْك بك وأهمِّ شأنَيْك لك ، فدعاك الى الإسلام وأمرك بالإيمان الذى به تدخل الجنة وتنجو من النار . فإن قبلتَ فحَظَّك أصبتَ، ونفسَك أحرزت ، ولك ما للسلمين ، وعليك ما عليهم . وإن رددتَ نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الحظُّ فى آخرتك، فإن أميرَ المؤمنين ينصَح لك فيما فيه الصلاحُ فى عاجلتك : من إعطاء الجزيةِ التى يحقِن الله بها دماءَكم ويحرِّم بها سباءَكم، ويجعلها قِوَامًا لمَعاشكم، وصَلاحًا لبلادكم ، وتوفيرًا لأموالكم، وأمنًا لجنابكم ، وسعةً لِسِرْبكم[2]، وبركةً على نقرائكم، وغِنًى لأهل الحاجة والفاقة والمَسْكَنة منكم .

وان يذكر أمير المؤمنين فى الجزية لكم من حلول الأمن فيكم، وعموم العافية إياكم، واستقامة البركة عليكم ، وكَفِّ أيدى المسلمين عنكم ، وبَسْطِها على الأعداء منكم، شيئا إلا وفى قليلِ ما كان من أشباه ذلك أيام تلك الفدية التى كان الله أجرى نعمتَها لكم على يده ، وفَتح بركتَها عليكم من قِبَله ، ما يدلُّكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهَدُ له على حقّه فيما يقول ان شاء الله . فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طَرَف من أطرافكم ،

---

(١) إشارة الى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس ؛ فقد روى أن يوشع قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ، فدعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم .   (٢) السرب : الطريق .

وصنف من أصنافكم، بتلك الفدية، أمورًا عظيمة البركة، واسعة المنفعة، فى أمور غير واحدة :

منها : أن قادة جنودكم وساسة حربكم، كانوا بعد وقوع أمرها واستحكام عقدها، فراغًا لمحاربة أعدائكم ومناصبة من ناوأكم، بين أن يستعجموهم(١) فى بلادهم وينزلوا عليهم فى ديارهم، ولا يرهبون تعقب بشر إن ساروا فى أرضهم، ولا يتخوفون طرادًا إن اجتمعوا لقتالهم أن يقيموا فى خفض ودعة، وأمن وسعة، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمحال، وهم اليوم يترقبون الجيوش من كل شعب ويتخوفون الحتوف فى كل وقت، لا يهدأ لهم جاش(٢)، ولا يسكن لهم فزع، ولا ينام لهم ليل، ولا يأمن فيهم حال، قد قطعت الهموم دابرهم، وأصمرت المخاوف جنوبهم، واستأصلت الجنود أموالهم .

ومنها : أن أهل الحراثة وإخوان العمارة، فى بلادك وأطراف أرضك، كانوا سراعًا الى عمارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم، فيما لا قوام لهم ولا لمعاشهم إلا به، ولا بقاء لدينهم إلا معه، قد أمنوا الجيوش ومعرتها، والجنود وبادرتها، وانتشروا للعمارة، وابتكروا فى الزراعة، فارقوا رءوس الجبال وإكام الغياض، وراحوا فى أوساط أوطانهم وظلال محالهم، يشققون الأنهار، ويغرسون الأشجار، ويفجرون العيون، حتى نمت الأموال، واخضرت الحال، وأخصب الجناب، وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممسكين، وللحراثة تاركين، وبغيرها مشتغلين فى إصلاح آلات الحرب، وإحراز العيال فى الحصون، ورم القلاع للجلاء، وتحريش الحصون للبلاء، قد انتقلوا عن منابت البر وكرائم الأرض، ومجارى المياه، الى أوشال الجبال، وأشجار الغياض، وبطون الأودية، فليس يبلغون من عمارة بلادهم، ولزوم أوطانهم، [و] من تناول ثمارهم وقوام معاشهم مثل ما كانوا يبلغون، ولا ينالون من خفض العيش وطيب الأمن ولذة الدعة، قريبًا مما كانوا ينالون .

---

(١) كذا فى الأصل . (٢) فى الأصل : «لا سكن لهم الخ» .

ومنها : أن إخوان التجارات، وأصحاب الأموال وأهل الظِّلْف والحافر، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم من أسواقنا[١]، فينفِّقون تجاراتهم ويُغْلون بضائعهم، فتعظُم الأرباح وتضعف الأثمان . وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من الذميين، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم، فعمّت البركة وسَهُلت المنفعة، حتى نالت الرعاءَ فى جبالها وامالها[٢] ، والنساءَ فى غزولهن وعمل أيديهن فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومَنْ قِبَلك من ذوى العبادة والزهادة والتألُّه والنسك والنيات ، كنتم على عافيـة من أيام الرضا بالحرب، وسلامةٍ من أوزار الحضِّ على قتال الحوف؛ قد تَحوّبتم من معصية المسيح فى الدنيا التى نهاكم عنها، والأمور التى أمركم بها، من نحو قوله[٣] : "مَنْ لَطَم خدّك الأيمن فأمكِنْه من الأيسر، ومَنْ انتزع قميصَك فأعطِه كساءَك ، ومن لَطَمك فاغفرْ له، ومن شتمك فأعرِضْ عنه" .

ومنها : أن من بأقاصى بلادك ونواحى حوزتك، قد ذاقوا تلك الأيامَ من لذة الخفض، ودعة الحال، وحلاوة الأمن، ورَفَاهِيَة العيش، وسَعَةِ العافية من سِبَاء أزواجهم، وهَيْض أولادهم، وحطم معاشهم، وأسر رجالهم، وغنيمة بقرهم وغنمهم، وإفساد شجرهم وثمارهم، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم. ما لم يكن لهم رأىٌ يعرِفه ، ولا ظنٌّ يبلُغه ، ولا طَمَعٌ يُقاربه ، ولا أملٌ يذهب اليـه . وما قد عرفت الخاصّةُ من بطارقتكم ، والعامةُ من أهل ملتكم به : من رأفتكم بهم ، ورحمتِكم لهم، وشَفَقتِكم عليهم، وأَثَرتِكم إياهم، وبركةِ ولايتكم ملكَهم ، ومنفعةِ سياستكم أمرَهم، ما قد ازدادوا لكم به محبةً، وفى بقائكم رغبةً، ولأمركم طاعة، وعلى ملككم شفقةً، وفيما نابكم نصيحةً؛ مع ما قد ازددتم بذلك من الهيبة فى صدور الأعداء ، والشرف فى قلوب النظراء ، والعظم فى عيون الأمم ، حتى أقروا لكم بقوّة عزائم العقول ، وفضل سياسة الأمور ، وصحة تدبير الملك ، وصـدق النية ، ولطف الحيلة التى

(١) فى الأصـل : "من بلادهم ..." . (٢) كذا فى الأصل . (٣) راجع انجيل متى (فصل ٥ آية ٣٩ ح ٣ ص ٩ من الكتاب المقدّس) .

جعلوا نسبة عملكم بها ، وعمل رأيكم فيها ، على أنكم نظرتم لضعفائكم حتى قووا ، ولفقرائكم حتى استغنوا ، ولقرائكم حتى سوا وحيو ووووا المسلمين[1] من أيام الحروب وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأبعدين وجيرتكم الأقربين ، حتى كنتم من فراغكم لهم ، واشتغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر بحر[1] القتل ، وذل الأسر وغلبة القهر ، والإذعان والاستسلام . وإما كفيتموهم بالصلح ، واستوثقتم منهم بالرهن .

فاذا ذكرتَ ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله فى الفدية ، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم فى الجزية ، فلا يكونن لك رأىٌ غيرها ولا أمر سواها ؛ فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب من أمركم ، وأطال تقليب الفكرة فى بعضكم ، فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه الى خلافه مما أصبحتم عليه من انتظار وقعات الحروب ، وصولات الجنود وأكل الحدود ، وتوقع الجلاء والسباء والقتل ، والأسر والحصر ، شيئا اختدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيدًا استدرككم به لما علم من قلوبكم .

ألا إن أعجبَ عذركم وأفظعه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتُكم على الله عز وجل فى نقض عهده ، واستخفافُكم بحقه فى خَفْر ذمته ، وتهاونُكم بما كان منكم ، وأنتم تعلمون أن مواثيق العهود ونذور الأيمان الذى وضعه الله عز وجل حَرَمًا بين ظهرانَىْ خَلْقه ، وأمانًا أفاضه فى عباده ، لتسكُنَ اليه نفوسُهم ، وتطمئنّ به قلوبهم ، وليتعاملوا به فيما بينهم ، ويقيموا به من دنياهم ودينهم ؛ فما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم ، تبيح حِمَى الله عز وجل ، تهاونا به وجرأة عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأنزل عليهم عذابا من السماء . وقد رجا أمير المؤمنين أن يُجرى الله نقمته منكم بأيدى المسلمين ، بعد إذ كان اعتقد عهدكم ، وأخذ ميثاقكم بالأيمان المغلّظة ، والعهود الموكّدة ، التى قد اعتقدها فى رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فأشهدتم اللهَ بها على أنفسكم ، وتسامعَ بها مَنْ حولكم ، وحكم بها بطارقتكم وأساقفتكم . فلا الله اتقيتم ، ولا من الناس استحييتم ، نكثًا للعهد ، وبغضا للمسلمين ،

(١) كذا فى الأصل .

وختراً بالأمانة، وإباحةً للحمى . فتوقعوا العقوبة، وانتظروا الغيب؛ فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حالٌ إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم ، ما قد أزمع أمير المؤمنين وعزم عليه ، وقذف الله فى قلبه : من الإرادة والنية والرغبة فى إيطاء الجيوش بلادكم، واستباء المقاتلة أرضكم، والتفرّغ لكم من كل شغل، والإيثار لجهادكم على كل عمل، حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون ، وتؤدّوا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون . فكونوا على عدة من الجزية، ويقين من الانتجاع الذى لاطاقة لكم إن شاء الله به، ولا صبر لكم بإذن الله عليه؛ فان جنود أمير المؤمنين فارغة كثيرة ، وخزائنه عامرة وافرة، ونفسه سخية بالإنفاق، ويده مطلقة بالبذل ، والمسلمون نِشَاط اليكم، منقلبون عليكم، قد عوّدهم الله فى لقائكم عادة يرجون انتظار مثلها، وأبلاهم فى قتالكم بلاء من أمثالها، إن شاء الله .

وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدى جنوده ، ومُقدّمه إن شاء الله من جيوشه، إلا أن تؤدّوا الجزية عن التى دعاك أمير المؤمنين اليها ، وحداك ومن قِبَلك عليها، رحمةً للضعفاء الذين لا ترحمهم، وتوجعا للمساكين مما لا تَوَجّع منه لهم من الجلاء والسباء والقتل والأسر والقهر، وقساوة من قلوبكم ، وأثرة لأنفسكم ، واعتصاما بخواصكم ، وإجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لا تمنعونهم بقوة، ولا تدفعون عنهم بحيلة، ولا تراقبون فى الرحمة لهم والتعطّف عليهم ، أدبَ المسيح إياكم، وقولَه فى الكتاب[1] لكم : " طوبى للذين يرحمون الناس ؛ فإن أولئك أصفياء الله ونور بنى آدم" .

وايم الله لو يعلم مَنْ قِبَلك من المساكين والزراعين والفقراء والضعفاء والعَمَلة بأيديهم، ما لهم عند أمير المؤمنين لتحدّروا عليه وأقبلوا اليه، من إيوائهم، وإنزالهم الأرض الواسعة، وإمكانهم من مسايل المياه السائحة، والعدل عليهم بما لا تبلغه أنت ولا تقار به، رفقا بهم ونظرا لهم وإحسانا اليهم ، مع تخليته إياهم وأديانَهم، لا يُكرههم على خِلافها ولا يجبرهم على

(١) راجع إنجيل متى (فصل ٥ آية ٧ ح ٣ ص ٧ من الكتاب المقدّس)

غيرها ، لاختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك ، وجواره على جوارك ، ولأنقذوا (١) أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم ، مما يحل بهم فى كل عام ويلقون من كل غزاة . فاتق الله واقبل ما عُرِض عليك من الجزية ، ولا يمنعنك ما فيه الحظ (٢) لك ولأهل مملكتك . ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الوراثة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخل عليكم فى الإذعان [لهم] وأداء الجزية اليهم حميةٌ ولا نقيصة ولا عار ، والذين يَفُون لكم بما يعقدون ، ويتبعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة والإقساط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، نظرًا لدينه وخوفا من ربه ، ولما قذف الله فى قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، واتفاق الأفئدة ، والنصائح فى السر والعلانية ، وما عوّده الله ممن نصب له بمجاذبة ورماه بمكايدة ، وعراه بحيلة : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر المبين . فابْذُل من الجزية ما شئت ، وسمِّ منها ما هَوِيت . واعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به اليها ولا للسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سببا لما يريد أن يجرى فيما بينه وبينكم . وإنه إنما كان قبول المهدى — رحمه الله — الفدية منكم ، بطلبة أمير المؤمنين كانت اليه ، والحاجة كانت فيها عليه (٣) ، ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة اليها ، ولا استعظام لها ، ولقد كان يعطى فى المجلس الواحد مرارا أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم . فأما اليوم اذ استبان له غدرُكم ونقضكم ونكثكم واستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم : إلا الاسلام أو الحرب المجلية ، ان شاء الله . ولا حول بأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ؛ عليه يتوكل وبه يثق وإياه يستعين . والسلام على من اتبع الهدى .

---

(١) فى الأصل : "ولأبتذلوا ..." . (٢) كذا فى الأصل وهو غير واضح ولعل أصل الجملة "ولا يمنعك الشيطان مما فيه ... الخ" فسقط هذا أو نحوه سهوا من الناسخ . (٣) كذا فى الأصل .

٣ — رسالة يحيي بن زِياد فى تقريظ الرشيد

أما بعدُ، فإنى أسألُ الله لأمير المؤمنين فى غابِر أموره، أحسنَ ما عوّده فى سالفها من السلامةِ التى حرَسه بها من المكاره، والعزّ الذى قهر له به الأعداءَ، والنصرِ الذى مكّن له فى البلاد، والهدى الذى وهب له به المحبّةَ، والرِّفقِ الذى أدرّ له به الحَلَبَ، والاستصلاح الذى اتّسقتْ له به الرعيّةُ، حتى يكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مُستقبِلٌ به منه، أبعدَ خُلَفائه فى الخير ذِكْرًا، وأبقاهم فى العدل أثرًا، وأطولَهم فى العمر مدّةً، وأحسنَهم فى المَعَاد مُنْقَلَبًا.

ثم نحمَدُ الله الذى جعل نعمتَه على أمير المؤمنين شَواهِدَ منه على منْزِلَتِه منه ومكانِه عنده، لا يحتاج معها الى شهادات المُثْنِين، ولا صفاتِ المقرِّظين، ثم جعل ذكرَ نعمتِه على أمير المؤمنين ومُناصحَتَها والمجاهدةَ لمن كادها فريضةً أوجَبَها على العِباد، ومحبّةً امتحنَهم بها، وفُرقانًا مَيّز به بينهم، فمن أصبح من رعيّته أكثرُ شغلِه أن يستعمِلَ لسانَه فى صِفَتِه، وذِكْرِ محاسنه وفضائله، ووجوبِ حقّه وطاعته، فقد أصبح آثرًا أَوْلى الأمور وأحسنَها مَغَبّةً فى دنياه ودينه، ومن بدّل ذلك عن قدرةٍ عليه، ودفَعه بعد معرفة، فلم يَدَعه إلا عن خِذْلان حاقَ به، أو بِدْعةٍ استمالته، كانت حُجّةُ الله لأمير المؤمنين عليه هى الكافية لمؤونته. وقد كان علماءُ الناس وجُهّالُهم يُسَوّون فى عامّ المعرفة بفضل أمير المؤمنين، فأما الخاصّ فلأهل الفضل فيه فَضْلُهم، غير أنه مهما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم فيه على مَنازل ثلاث: حاسدٌ حَجَب الحسدُ بصرَه عن مَواقع الصّواب أن يراه، والنعمةِ أن يشكرها، والحقّ أن يُؤَدّيَه، وكانت معرفتُه عليه وَبَالا، وحسدُه الى الضر(١) به قائدا. أو ذُو هَوًى قاده الهوى الى البدعة وأخرجتْه الضّلالةُ من الجماعة، فهو عُرْضَةٌ لسُوء الأدب أو سيف النَّكال، لم يُوحِش اللهُ أحدًا بفقده، ولم يُعزّز أحدا بمُوالاته. وموفَّقٌ معصوم استنقذه(٢) [الله]

(١) فى الأصل: «العير». (٢) فى الأصل

بمُوَالاة أمير المؤمنين من غِلّ الحسد وبِدَع الآراء وجبَلَه على صحّة الهوى، فهو إن نظَر فبعينه ينظر، وإن قال فبلسانه يقول، لا يأمَنُ حتى يعلم أنّ أمير المؤمنين قد آستوطأ مِهادَ الخفض، ولا يزال له طليعةُ رأيٍ تُوفى على خُطّة حزم وغامض فِطنة، تَغلغَلُ الى لطيف منفعته و[تكون] سهم مكيدة نحو عرِوة[(١)]، قدعلِم أنّ يومَ أمير المؤمنين يومُه، وأن غدَه غدُه، فهو وإن تعرّض لأداء الحقّ فى نصيحته ينظر لنفسه نظرَ من لا يأمُل السلامةَ إلا بسلامته، ولا البقاءَ إلا ببقائه.
وقد رجوتُ بالقرابة التى جعلها الله لى به، والواجبِ الذى عرَفتُه من حقه، والعظيم الذى حمَلتُه من معروفه، ألّا يكونَ أحدٌ ينظر اليه بعين الإشفاق أقوم ما جعله الله أهلَه منّى، فإن أبلُغ الذى أردتُ فبتوفيق الله، وإن أُقصّر فمَن مثلِ ما حاولتُ قصّر المجتهدُ.

فأوّلُ ما أنا ذاكِرُه من فضله: أنّ الله قدّم له الصُّنعَ فى سابِق علمه، بجعل مَحْتِدَه خيرَ المحاتد عُنْصراً، ثم آختار له أباً فأباً لا ينقله من أبٍ الى أبٍ إلا نقَل معه وإليه فضيلةَ العنصرُ الذى هو منه حتى صيّره بعدَ فضائلِ آبائه الى أفضــل بَدَنة، فكان خيرَ خَلَفٍ من خير سَلَفٍ، وأفضلَ ولد من أفضل أُبُوّةٍ، وأرضَى إمامٍ من أزكَى أئمةٍ؛ ثم آختار له مكارمَ الأخلاق، وألبسَه جمالَ الصُّورة، فلا نعلم نحن ولا آباؤنا خليفةً أبعــدَ فى حِلْمه من ذُلّ، ولا فى هَيْبته من تجبُّر، ولا فى شِــدّته من عُنْف، ولا فى لِينه من وَهْن، ولا فى أناته من غَفْلة، ولا فى آقتصاده من بُخْل، ولا فى بَذْله من إضاعة، ولا أرقّ وجهًا عنــد لِقاء، ولا أحسن بِشْرا عنــد تحيّة، ولا أغزرَ دمعًا عند مَوعظَة، ولا ألينَ قِيادًا عند تذكيرٍ بالله

أفضتْ اليه الخلافةَ وفى المــال ما فيه من القِلّة، وفى الناس ما فيهم من الإحراجِ[(٢)]، فما دفَع عن مال يعطيه عن قلّة، ولا قطع عادةَ تَوسِعَةٍ على رعيّته؛ ثم آستدرّ الحَلَبَ برِفقه، فكلّما درّ له منه شُخْب[(٣)] فوّقه[(٤)] طائفةً من جُنْــده حتى سقاهم بعد التفويق رِيّاً، وبعد النَّهَل

(١) فى الأصل: "عورة". (٢) الاحراج: الصيق وفى الأصل. "الاستخراج".
(٣) الشحب (بالصم): ما خرج من تحت يد الحالب عد كل عمزة وعصرة للصرع. (٤) فوقه الشىء: أعطاه إياه قليلا قليلا.

عَلَلا، ثم ساس رعيَّتـه بألين السياسة فعفا عن مذنبها ولو شاء لعاقبَ، وآمَنَ خائفَها ولو طلب لأدركَ، ودفع بالحسنة السيئةَ ولو كافأ لقَدَر، فما بَرِحَ صُنْعُ الله له يَفُضّ جُمُوعَ الضَّلالة بلاقِتال، ويُعِزّ له النَّصرَ بلا مُكاثرة، حتى فرَغ بشُغْله من كان لا يَفْرُغ من الوزراء، ونام بسهره من كان لا ينام من العامّة، واطمأنّتْ بِمَا آتَه[1] للأسفار دارُ من كان لا ينال الخَفْض من الجنود حتى استوطَـئوا مَرْكَبَ الأمن فكلّهم ضَنِينٌ بمفارقته. أما ذُو النيّة فركَن الى النَّقض. وأما من لا يبدله ففعل ما كان يُؤخَذ به من الاستكراه . وأما الحَشْر من الجند والرَّعاع فغلبت عليهم عادةُ الهُوَيْنا، حتى لو رأيناه يجذبُه الأمرُ فما يَجِد له الأمرُ غَنَاءً عنده ولا نشاطا ولا حدا إن وكَلَه الى قوته، وقوّاه بماله[2] .

فلما رأى ما رأى من تخاذُلِ العامّة، وتواكُلِ الجنود، وتُزُورِ الفيء، وجُمُودِ الحَلْب، واستكلابِ العُمّال على الخيانة، وجُرْأة الرعيّة على منع الحق، ومال الفراغُ بكثير من الناس عن القَصْـد، فتحركت الأهواءُ، واستَعَرتْ نِيرانُ العصبيّة، وجاشَتْ صدورُ الحَسَـدة وأشياعِهم بالأمانى، وظنّوا أن لا شدّةَ معه، وأنّ عفوَه لا نكيرَ بعده، وأميرُ المؤمنين يرمُقُهم بعينٍ بصيرةٍ، وأُذُنٍ مُصِيخة، وقلْبٍ يَقْظان؛ وقد وَقُر الحِلْمُ أن يَخِفّ لأول بوادر السفهاء، فهو ينتظر بالمُدْبر أن يُقبل، وبالمـائد أن يَعْتَدِل، وبالمغلوب على رأيه أن يتذكّر فيُبصِر، شمّرَ فى إثرهم تشميرَ من قَدَّم الرَّوِيَّةَ قبـل العجَلة، والعفوَ قبل العقوبة، والتثبّتَ قبـل الإقدام، فاتّخذ روابطَ أنتجها على الجَـلَد والنّشاط، ليست لهم سوابِقُ تدعوهم الى الإدلال، وتسمو بهم الى كثير لم ينالوه؛ إنما هَمُّهم أن يتفاضلوا فى النجدة، ويستوجبوا بالغَناء، ثم فرّقهم على خَوَاصّ خَدَمه، فإذا أراد أن يتناولَ بهم فرصةً ممكنةً، أو عَدوًّا غاط[3]. أو راتقَ فَتْقٍ قبل الساعة، يغمس يديه الى أيّهم أراده، فينفّذُ لأمره ولم يَشْرَكه فيه مُشِير، ولم يخرج به توقيع، ولم يخصّ فيه عامّة، ولم يُطّلَع منه على مكيدة، فلم نعلم أننا رأينا جُنْدا

(١) فى الأصل : « بمما آته » . (٢) فى الأصل : « إن وكله إلى قوته ولا نشاطا ولا حدا وقواه بماله » . (٣) غاط : دخل .

أسرع نهضةً اذا مرّوا ، وأحسن إجابةً اذا دُعوا ، وأفضلَ غَناء اذا آستكفُوا من جُنده ، ثم قَصَدَ بنفسه حتى مَثَل بين النواحى الى اهمّها له فسادًا فى البَيْضة ، وآنتقاصًا من الأطراف ، فأتى ناحيةَ الشأم فوطئها وطأة جمع الله بها لهم شَتاتَ الفُرقة ، وأخمد بها بينهم نار الفتنة .

وأما الجزيرةُ فإنه ألفاها وهى كالجُرح النَغِل ، فاستأصل اللهُ به منها شأفةَ الداء ، وأطفأ به عنها بوادرَ السفهاء ؛ وخُيّرَ أمير المؤمنين من منزله الذى هو به منزلا جمع من بَسْطته فى الموضع ، ورَفاهيته فى المعاش ، أنه حاملٌ لجنود ، جامعٌ للرافق ، فباشر أمْره أمرًا أمرًا ، حتى اذا آستُدبِر له منها مُبرمٌ ، آستُقبِل بعده جُسامٌ مُنتَقِضٌ ؛ واذا أشحن من ثغوره ثغرًا لم يرْض حتى يفتتحَ من حصون أعدائه حصنا ، واذا قضى اللهُ عنه حِجّةً ، وصل خَطْوَه منها عِزّا ؛ ثم رأينا ما عزَم اللهُ به عليه من ترْك الصّوائف[1] مُراقِبًا للذى كان من غُموط أهل الشأم لما كانوا فيه من النِّعمة ، فلم نتشكّك فى أنه توفيقٌ من الله له وافق سُخطًا عليهم حتى آستباحوا الحُرَم ، وتسافكوا الدماءَ ، ونقضُوا ما بينهم من مُبْرَم حَبْلِ الإسلام .

ومن ذلك أن أرْمينيَةَ كانت فيها جنودٌ تُخرَجُ عليهم أطماعٌ تحمل اليها ، بعد آعترافهم بإخراجهم الأموال من كُوَر الشأم ، فلما رأى ذلك فعلَ كذا وكذا ، فلم يتوكّل على الله فى أمْرِ فوكَلَه الى نفسه ، ولم يكْتَفِ به فى حفظ طَرَفٍ أو قاصيةِ ثغرٍ إلا كَفَاه مؤونتَه ، وعَلِم أن ما يحل مُتَن أضعاف العافية من عَوارض العِلَل ، إنما هو بتقدير من الله لا يُمتنع بعذر ، ولا يُستطاع دفعُه بحيلة ، يصيبُ فيه أقوامًا بالبلايا والتمحيص ، ويَقسِم فيه لأقوامٍ الأجرَ والجهادَ والسعادةَ ، فرأى أن فى عاجل ما يَرفع عن أهل أرْمينيَةَ من ضرر مؤونتهم وغَمْطِهم نفعًا للرعية ، وإجمالًا لِلفَىء ، ورِفقًا بالعامّة مع آقتصاده فى الأبواب على أكْفاف سجيّتها ، وفى سائر أرمينية على المُقاتِلة من أهلها ، ولم يزل منذ أراه اللهُ ذلك ، يكفيه مؤونةَ ذاك الثغرِ ، ويَكُفّ عنه بوائقَه ، حتى كأنه فى هُدُوء الأحداث عنه ، وسُكون الأفئدة من

(١) الصوائف : جمع صائفة وهى الغزوة فى الصيف .

رَوْعاته مِصْرٌ من الأمصار، واسِطُ المحلّة مأمُون الثائرة . فلما اغتنم خاقانُ ما اغتنم، وانتهز الفرصةَ مُبادِرًا ، لِمَا قد ايقن من معالجة المؤمنين إيّاه ، فكأنّه حين بلّغه ذلك من إعظامه إياه بسببه له ،وما أنصب فيه من بدَنه، وأسهر فيه من ليله ، وأنصب فيه من نهاره،لم يعلم الذى يكون من اشتباهه فى الأزمنة الماضية قبلَه ، وأنه بذلك بِجَدُّ عالم، غير أن حَمِيّته للإسلام وشفقته عليه وامتعاضه من أن يُتَناول شئٌ من أطرافه، قد زاد ذلك عنده قَدْرا فى العِظَم ، وتفاقُمًا فى الخَطْب ، حتى أكمل البَعْثَ بأكثر العدد، وأكملِ العُدّة ، واستقلّ أهل الكُوَر والأمصار ، وندَب له من أهل بيته مَنْ لم يَتْرك بعده نهايةً فى التَّخيُّر، وكان قد صرَف بالَه الى هذين الثَّغرَيْن من الخزَر والروم، والى هذين العدوَّيْن المحاربيْن له من المارِقَة المتعصِّبَة .

فلما بَلَغ اللهُ فى إحكام أمرِهما ما بلَغ ، لم يَسْتَغْنِ عن إعادة النظرِ فى أمر غيرِهما من نواحيه ليَسْتَبْرِئَ به ،وإرادته فى أقوامٍ يُدَافع ظنونَهم به فى أُخرى، وعلّم غيرَهُما أنّ ما شَمِلَ مَنْ بمدينة السلام من الأَمْن والفَرَاغ نتيجةٌ مكروهةٌ، فشَخَصَ عنها لتحقيق ذلك مُؤْثِرًا لأبغض وَطَنيه على أحبهما وأخشن عَيْشَيْه على أَلْيَنهما؛ فلما ظهرتْ له العَوْرَةُ أقدمَ إقدامَ ذى الحُجّة، فلم يرمثلها نارًا خَبَتْ، وسحابةً أقشعت ، لم يَسْفك بها دمَ امرئٍ مُسْلِمٍ صَبْرًا ، ولم يَنْتَهك فيها حُرْمةَ مُحَرَّم إباحةً .

وذلك أنه بَسَط يَدَه بَسْطَ من يُريد الاستصلاحَ لا من يريد الانتقامَ ، فلم يلبَث الظالعُ أن رَجَع عن ظَلْعه، والناطِقُ أن صَمَتَ عن بِدْعَته، والناكثُ أنْ رَجَع الى قَصْده، وازداد البرىء على البراءة فرحا ، والسالم بالسلامة اغتباطًا ، ولم نَرَ مثلَه فيما أفضى اللهُ به اليه من خلافته ، وحَمَّله من أمور عباده ؛ أما لَيْلُه بمُنَاجَاة ربِّه فيها واستعانتِه إيّاه عليها فساهر؛ وأما نَهارُه فى حَلْب فَيْئِها وإحكام أمورها فتَعِبٌ ؛ وأما صدَقاتُه على فقرائها وأهلِ الحاجة بجارِيَةٌ؛ وأما مجلِسُه من فُقهائها وصُلحائها ففَاضٌ؛ وأما غِلْظَتُه على ظالمها فمتيدة؛ وأما أفضالُه لمظلومها فَمَبسُوطةٌ ؛ ولئن كان الحقُّ ألزَمَ أقواماً استوجَبوا فى أَنْفُسهم وأموالهم ،

إنّا لنعلم أنّ ما ترك أكثر، وأنه لولا ما خفّف من الوطأة على أقوام لحمّل الواحد منهم مثل الذى حمّله الجميع ، ولكنه رضى بالعفو، وسخا نفسًا عن الاستقصاء، فأوجب أن يبسط يدًا بغلظة ويتبعها أخرى بلين؛ فكان من ذلك نظره فى هذه البقايا التى هى فىء المسلمين ومال الله ، غير أن الله جعله قيّمه فيه ، وفى أخذه وصرفه فى وجوهه؛ فلما رأى ضراوة[1] العمّال بها ومصانعتهم دونها ، وأن قد صارت كالسنّة اللازمة لا يدعها عفيفهم تورّعًا ، ولا شريفهم تنزّهًا، أحبّ مع توفيره للمسلمين فيئهم، أن يحدث لهم[2] أدبًا يفطم به عنهم أهل الضراوة، ويعرف به ذوو الاستخفاف بالأمانة، والأمر للتبعة، أنّ عليهم من تفقّده وأدبه عينًا ترمق، ويدًا تقبض، ولو أنّه حين همّ بأخذ تلك البقايا حمل على الموسر بقدر يساره، وأخذ المعسر بطاعته، كان قد أنصف، كلّا! ولكنه أحبّ أن يستبقى قوّة، ولا يبلغ من المكثر جهدًا، واقتصر بهم على العشر من ذلك، كرمًا فى القدرة حين رأى موضع الرفق ، وتجافى عن العلّة حين عرف مكان العذر؛ فأىّ نعمة أعظم، وأىّ بلاء أحسن من هذه البقايا! كانت فى أيديهم جمامًا، فلما اطّلع طلعها، وأخذ ما أخذ، وترك ما ترك، محلًّا مع ما جعل الله فى ذلك من [كلمات][3] المقصّر من العمال المؤدية التى لم تكن تعدو أفواههم ، فليس منهم أحد إلا وكان منه له واعظ ألا يكسر شيئًا من الخراج تضييعًا ، أو يأخذه غلولًا[4] أو ينفقه إسرافًا، أو يتركه إرهابًا .

فلما تفرّغ من علاج الداء المخوف واستأصله ، ومن الفىء المتفرّق بجمعه، ومن الأمور المعطّلة فأحكمها ، استخلف على القيام بذلك من يحويه عقله عن حذر، ولا إضاعة عن حفظ، ولا لين عن تشدّد، ولا يستحل الأكف عن نقض ما أبرم، ولا مزاولة ما أحكم، ولا فتح ما أغلق، ولا إغلاق ما فتح ، فلان خيرة أبويه، ومخّ بيضته، وجوهر أرومته، الفائت سبقًا ، البيّن عدوًا ، الراسخ عرقًا ، المنفجر بحرًا ، المحمود أمرًا ، القائل فصلًا ،

(١) الضراوة : اللهج بالشىء والإغراء به . (٢) فى الأصل : «لم» والسياق يقتضى ما أثبتناه

(٣) وضعنا هذه الكلمة لأنها تتفق والسياق، ومكانها فى الأصل بياض . (٤) الغلول : الطعام أو الشر الذى يدخل فى الجوف .

الحاكم عدلا، ثم انصرف بما أفاده الله من الأجر إلى جناحه الذى كان مدّه على من خلف من الأهل والأموال والرعايا والجنود، فلان سليلة صُلبه، وثمرة قلبه، المحتنك مع فتاء سنه عقلا، والمأمون مع شِدّة شكيمته حملا، والمحصد مع لينه وتعطفه أمرًا، الشبيه بأمير المؤمنين إن نطق نُطقا، وإن نظر لحظًا، وإن سُئل جُودا، وإن اهتصر عُودا، وإن ساس رِفقًا، وإن غضب حِلمًا، وإن وصف عِلما، وإن كُلّم فهما، وإن قدر عفوًا، وإن لَقِىَ بِشرًا، وإن نازع فَلْجا، وإن قارع ظَفَرا؛ فكان عند ظنّه به، رِعايةً للحُرمة، وحزمًا فى المكيدة، وحَلَبًا للفيْء، وحِياطةً للغائب، ومباشرةً للشاهد؛ هذا قليلٌ من كثير. مما جعلك اللهُ أهلَه، وإنما اقتصرتُ عليه لأنى رأيتُ المتكلّمين من الخطباء تركُوه، وأن ما سمعت من الكتب المقروءة لم تنظمه، فأحببتُ أن يعلَم أميرُ المؤمنين أن له فى كلّ أمرٍ عمِل به فى رعيته حجةً واضحةً، وعذرًا معروفا، إن قام به متكلّمٌ فى خاصّةٍ حَسُن مَوْقِعُه، وإن قُرِئَ به كتابٌ فى عامّة، قويت به حجّتُه.

والحمدُ لله الذى جعله وذريّتَه أولياءَ هذه النِّعم، والمخصوصين بهذه الفضائل، ونسأله أن يُبْقِيَه وإياهم للدِّين الذى سدّ بهم عَوْرته، والحقِّ الذى أقرّ بهم جادّته، والعدلِ الذى أوضح بهم أعلامَه، حتى يكونوا وَرَثةَ هذه الأمة وخلفاءَها فى غابر الدهر، وباقيات الأيام؛ مستقلّين بالعدل، موفَّقين للسَّداد، معصومين من الشُّبهات، مُستوجبين مع فضائل الدنيا لأفضل كرامات المَعاد. والسلام (١).

(١) هذه الرسالة ورسالة أبى الربيع محمد بن الليث السابقة من كتاب اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور.

كتب الرشيد

١ — كتاب عهد البيعة[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا كتابٌ لعبـد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمدُ بن هارون أمير المؤمنين فى صحّةٍ من عقـله ، وجوازٍ من أمره ، طائعًا غير مُكْرَه ؛ إن أميرَ المؤمنـين ولّانى العهدَ من بعـده ، وصيّر البيعـةَ لى فى رقاب المسـلمين جميعا ، وولّى عبـدَ الله بن هارون أمير المؤمنين العهدَ والخلافةَ ، وجميعَ أمور المسلمين بعدى ، برضًا منّى وتسليم ، طائعًا غير مُكْرَه . وولّاه خُراسانَ وثغورَها ، وكُورَها وحَرْبَها ، وجندَها وخَراجَها ، وطِرازَها وبَريدَها ، وبيوتَ أموالها وصَدَقاتها ، وعُشْرَها وعُشُورها ، وجميعَ أعمالها فى حياته وبعده ؛ وشَرَطْتُ لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، برضا منى وطِيب نفس ، أنّ لأخى عبد الله بن هارون علىَّ الوفاءَ بما عقَدَ له هارونُ أميرُ المؤمنين : من العَهْد والوِلاية والخلافة ، وأمورِ المسلمين جميعا بعدى ، وتسليمِ ذلك له وما جُعِل له من ولاية خُراسان وأعمالِها كلِّها ، وما أقطعَه أميرُ المؤمنين من قَطِيعة ، أو جعَل له من عُقْـدةٍ أو ضَيْعَةٍ من ضِياعه ، أو ابتاع من الضِّياع والعُقَد ، وما أعطاه فى حياته وصحّتـه من مال ، أو حُلِيٍّ أو جَوْهر ، أو مَتـاع أو كُسْوة ، أو منزِلٍ أو دَوابّ ، أو قليلٍ أو كثير ؛ فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، مُوَفَّرًا عليه مسلَّما له . وقد عَرَفتُ ذلك كلَّه شيئا شيئا ، فإن حَدَث بأمير المؤمنين حَدَثُ الموت ، وأفضت الخـلافة الى محمـد ابن أمير المؤمنين ، فعلى محمـد إنفاذُ ما أمَرَه به هارون أمير المؤمنين ، فى تَوْلِيَة عبـدِ الله بن هارون أمير المؤمنين خُراسانَ وثغورَها ، ومن ضُمّ اليـه من أهـل بيت أمير المؤمنين بقَرْماسِين[٢] ، وأن يَمْضِى عبدُ الله ابن أمير المؤمنين الى خراسان والرَّىّ ، والكُوَر

(١) هذا العهد ورد فى تاريخ اليعقوبى (ج ٢ ص ٥٠٢ طبعة ليدن) وفيـه عبارات تخالف ما أثبتناه هنا عن الطبرى . (٢) قرماسين : موضع بين الزبيدية ومكة .

التى سمّاها أميرُالمؤمنين حيث كان عبد الله آبن أميرالمؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره، من سلطان أمير المؤمنين، وجميع مَن ضَمّ اليه أمير المؤمنين حيث أحبّ من لَدُن الرّى الى أقصى عمل خُراسان، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحوّل عنه قائدًا ولا مَقُودًا ولا رجلا واحدًا ممن ضُمّ اليه من أصحابه الذين ضمّهم اليه أميرُ المؤمنين؛ ولا يحوّل عبدَ الله آبن أميرالمؤمنين عن ولايته التى ولّاه إياها هارون أمير المؤمنين : من ثغور خُراسان وأعمالها كلّها، ما بين عمل الرّى مما يلى هَمَذان الى أقصى خراسان، وثغورها وبلادها، وما هو منسوب اليها ولا تَشخصه اليه؛ ولا يفرق أحدًا من أصحابه وقوّاده عنه، ولا يُوَلّى عليه أحدًا، ولايبعث عليه ولا على أحد من عمّاله وَوُلاةِ أموره بُنْدارًا[1] ولا محاسبًا ولا عاملا، ولا يُدْخل عليه فى صغيرٍ من أمره ولا كبير ضررًا، ولا يحُول بينه و بين العمل فى ذلك كلّه برأيه وتدبيره، ولا يَعْرِض لأحد ممن ضَمّ اليه أميرُ المؤمنين من أهل بيته وصَحَابته، وقُضَاته وعُمّاله، وكُتّابه وقوّاده، وخَدَمه ومَوَاليه وجنده، بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم فى أنفسهم، ولا قَرَاباتهم ولا مَواليهم، ولا أحد يَتَنَسّل منهم. ولا فى دمائهم ولا فى أموالهم، ولا فى ضِياعهم ودُورهم، ورِباعهم وأمتعتهم، ورَقيقهم ودوابّهم، شيئا من ذلك صغيرًا ولا كبيرًا؛ ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، و بترخيص له فى ذلك، و إدهان منه فيه لأحد من ولَد آدم، ولا يحكُمُ فى أمرهم، ولا أحدٌ من قُضَاته ومن عمّاله، وممّن كان بسبب منه، بغير حكم عبد الله آبن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قُضَاته؛ و إن نَزَع اليه أحدٌ ممّن ضَمّ أميرُ المؤمنين الى عبد الله آبن أمير المؤمنين، من أهل بيت أمير المؤمنين وصَحابته، وقُوّاده وعمّاله وكُتّابه وخَدَمه، ومواليه وجنده، ورفَضَ آسمَه ومكْتَبَه ومكانَه مع عبد الله آبن أمير المؤمنين، عاصيا له، أو مخالفا عليه، فعلى محمد آبن أمير المؤمنين ردّه الى عبد الله آبن أمير المؤمنين، بصغرٍ له وقَمَاءٍ[2]، حتى يُنفِذ فيه رأيَه وأمْرَه؛ فإن أراد محمد آبن أمير المؤمنين خَلْعَ عبد الله آبن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بَعْده، أو عزْل عبد الله آبن أمير المؤمنين

(١) البندار

عن ولاية خراسان ، وثغورها وأعمالها ، والذى مِن حَدّ عملها مما يَلِى همذان ، والكُوَر التى سمّاها أميرُ المؤمنين فى كتابه هذا ، أو صَرْف أحدٍ من قواده الذين ضمّهم أميرُ المؤمنين اليه ، ممن قَدِم قرْمَاسِين ، أو أن يَنْتَقِصه قليلا أو كثيرا ، مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه من الوجوه ، أو بحيلةٍ من الحِيَل ، صَغُرتْ أو كَبُرتْ ، فَلِعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافةُ بعد أمير المؤمنين ، وهو المُقَدَّم على محمد ٱبن أمير المؤمنين ، وهو وَلِيُّ الأمر من بعد أمير المؤمنين ، والطّاعةُ من جميع قوّاد أمير المؤمنين هارون ، من أهل خراسان وأهل العَطَاء ؛ وجميع المسلمين فى جميع الأجناد والأمصار لعبد الله بن أمير المؤمنين والقيامُ معه ، والمُجَاهدةُ لمن خالفَه ، والنَّصرُ له والذَّبُّ عنه ، ما كانت الحياةُ فى أبدانهم ؛ وليس لأحدٍ منهم جميعا من كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ولا يَعصيه ، ولا يخرج من طاعته ؛ ولا يطيع محمدَ ٱبن أمير المؤمنين فى خَلْع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، وصَرْفِ العهد عنه من بعده إلى غيره ، أو تنقصه شيئا مما جعله له أميرُ المؤمنين هارون ، فى حياته وصحّته ؛ وٱشترط فى كتابه الذى كَتَبه عليه فى البيت الحرام ، وفى هذا الكتاب ؛ وعبدُ الله ٱبن أمير المؤمنين المصدَّق فى قوله ، وأنتم فى حِلّ من البَيْعة التى فى أعناقكم لمحمد ٱبن أمير المؤمنين هارون ، إنْ نَقَص شيئا مما جعله له أميرُ المؤمنين هارون ، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقادَ لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ، ويُسْلِم له الخلافةَ ؛ وليس لمحمد ٱبن أمير المؤمنين هارون ، ولا لعبد الله ٱبن أمير المؤمنين ، أن يَخْلَعا القاسمَ ٱبن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدِّما عليه أحدًا من أولادهما وقَرَاباتهما ، ولا غيرهم من جميع البريّة ؛ فإذا أفضت الخلافةُ إلى عبد الله ٱبن أمير المؤمنين ، فالأمْرُ إليه فى إمضاء ما جعلَه أميرُ المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صَرْف ذلك عنه إلى مَنْ رَأَى من ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقدِّم قَبْلَه ، وتَصْيِير القاسم بن أمير المؤمنين بعد من يقدّم قبله ، يحكم فى ذلك بما أحبَّ ورَأَى ؛ فعليكم مَعْشَرَ المسلمين إنفاذُ ما كتَب به أميرُ المؤمنين فى كتابه هذا ، وشَرَط عليهم وأمر به ؛ وعليكم السمعُ والطاعةُ لأمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجَبَ عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين ؛

وعهدُ الله وذمّته وذمّة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمم المسلمين ، والعهود والمواثيق التى أخذ اللهُ على الملائكة المُقرّبين والنبيّين والمرسلين ، ووكّدها فى أعناق المؤمنين والمسلمين ، لَتَفُنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمّى ، ولمحمد وعبد الله والقاسم بَنِى أمير المؤمنين بما سمّى ، وكتَب فى كتابه هذا واشترط عليكم ، وأقررتم به على أنفسكم ؛ فإن أنتم بدّلتم من ذلك شيئا ، أو غيّرتم أو نكثتم ، أو خالفتم ما أمركم به أميرُ المؤمنين ، واشترط عليكم فى كتابه هذا ، فَبَرِئَتْ منكم ذمّة الله ، وذمّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمم المؤمنين والمسلمين ، وكلُّ مالٍ هو اليوم لكل رجل منكم ، أو يَسْتَفيده إلى خمسين سنة فهو صَدَقةٌ على المساكين ، وعلى كلّ رجل منكم المَشْىُ الى بيت الله الحرام الذى بمكّة خمسين حجّة ، نَذْرا واجبا ، لا يقبل الله منه إلّا الوفاءَ بذلك ؛ وكلُّ مملوك لأحد منكم ، أو يملكه فيما يُسْتَقبَل الى خمسين سنة حُرّ ؛ وكلّ امرأة له فهى طالق ثلاثا البتّة ، طلاق الحَرَج لا مَثْنوِيّة فيها ، والله عليكم بذلك كفيلٌ وراعٍ ، وكفى بالله حسيبا .

٢ — نسخةُ الشّرط الذى كتَب عبدُ الله بن أمير المؤمنين بخطّ يده فى الكعبة

هـذا كتابٌ لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتَبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، فى صحّةٍ من عقله ، وجَوازٍ من أمره ، وصِدْق نيّة فيما كتب فى كتابه هـذا ، ومعرفةٍ بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعةِ المسلمين .

إنّ أمير المؤمنين هارون ولّانى العهدَ والخلافة ، وجميعَ أمور المسلمين فى سلطانه ، بعد أخى محمد بن هارون ؛ وولّانى فى حياته ثُغورَ خُراسان وكُورها وجميعَ أعمالها ، وشَرط على محمد بن هارون الوفاءَ بما عَقَد لى من الخلافة ، وولايةِ أمور العباد والبلاد بعده ، وولايةِ خراسان وجميعِ أعمالها ، ولا يَعْرِض لى فى شىء مما أقْطَعنى أميرُ المؤمنين ، وابتاع لى من الضِّياع والعُقَد والرِّباع ، وابتعتُ منه من ذلك ، وما أعطانى أميرُ المؤمنين من الأموال ، والجوهر والكِساء ، والمتاع والدوابّ ، والرقيق وغير ذلك ؛ ولا يَعْرِض لى ولا لأحدٍ من

عمّالى وكُتّابى بسبب محاسبة، ولا يتّبع لى فى ذلك، ولا لأحدٍ منهم أبدا؛ ولا يُدْخِل علىّ ولا عليهم، ولا على من كان معى؛ ومن آستعنتُ به من جميع الناس مكروهًا فى نفس ولا دَمٍ ولا شَعْرٍ ولا بَشَرٍ ولا مال، ولا صغيرٍ من الأمور ولا كبير، فأجابه الى ذلك وأقرّ به، وكتب له كتابا أكّد فيه على نفسه، ورَضِى به أميرُ المؤمنين هارون، وقَبِله وعَرَف صدقَ نيّته فيه؛ فشَرَطْتُ لأمير المؤمنين، وجعلتُ له على نفسى أن أسمع لمحمد، وأُطيع ولا أعصيه؛ وأنصحه ولا أغشّه، وأُوفى ببيعته وولايته، ولا أغدر ولا أنْكُث، وأُنَفِّذ كُتُبَه وأمورَه، وأُحْسِن مُؤَازرته وجِهادَ عدوّه فى ناحيتى؛ ما وفَّى لى بما شَرَط لأمير المؤمنين فى أمرى، وسَمّى فى الكتاب الذى كتبه لأمير المؤمنين، ورضى به أمير المؤمنين، ولم يتتبّعنى بشىء من ذلك، ولم يَنْقُض أمرًا من الأمور التى شرَطها أمير المؤمنين لى عليه؛ فإن آحتاج محمد آبنُ أمير المؤمنين إلى جُنْدٍ، وكتب إلىّ يأمرنى بإشخاصه إليه، أو إلى ناحيةٍ من النّواحى، أو إلى عدوّ من أعدائه خالَفه، أو أراد نَقْص شىء من سلطانه أو سلطانى الذى أسْنَده أميرُ المؤمنين إلينا، وولّانا إياه، فعلىّ أن أُنَفِّذ أمرَه، ولا أخالفه ولا أُقصّر فى شىء كتب به إلىّ؛ وإن أراد محمد أن يولّى رجلا من ولده العهدَ والخلافَة من بعدى، فذلك له ما وَفّى لى بما جعله أميرُ المؤمنين إلىّ، وآشترَطه لى عليه، وشرَط على نفسه فى أمرى؛ وعلىّ إنفاذُ ذلك والوفاءُ له به لا أنقُص من ذلك ولا أغيّره ولا أبدّله ولا أقدّم قَبْلَه أحدًا من ولدى ولا قريبا ولا بعيدا من الناس أجمعين؛ إلا أن يولّى أميرُ المؤمنين هارونُ أحدًا من ولده العهدَ من بعدى، فيُلْزِمنى ومحمدًا الوفاءَ له، وجعلتُ لأمير المؤمنين ومحمد علىّ الوفاءَ بما شرطتُ وسمّيت فى كتابى هذا، ما وفّى لى محمد بجميع ما اشترط لى أميرُ المؤمنين عليه فى نفسى، وما أعطانى أميرُ المؤمنين من جميع الأشياء المُسَمّاة فى هذا الكتاب الذى كتبه لى؛ وعلىّ عهدُ الله وميثاقه، وذمّةُ أمير المؤمنين وذمّتى، وذمم آبائى وذمم المؤمنين؛ وأشدّ ما أخذ اللهُ على النبيّين والمرسلين من خَلْقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمانُ المؤكّدة التى أمر اللهُ بالوفاء بها، ونَهى عن نقضها وتبديلها؛ فإن أنا نَقَضْتُ شيئا مما شرطت

وسمّيت فى كتابى هذا، أو غيّرت أو بدّلت أو نكثتُ أو غدرت، فبرئتُ من الله عزّ وجلّ، ومن ولايته ودينه، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيتُ الله يوم القيامة كافرا مشركا؛ وكلّ امرأة هى لى اليومَ، أو أتزوّجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثا البتّة، طلاقَ الحَرَج؛ وكلّ مملوك هو لى اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله؛ وعلىّ المشىُ إلى بيت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين حجّة، نذرا واجبا علىّ فى عُنُقى، حافيًا راجلا لا يقبلُ الله منّى إلّا الوفاء بذلك؛ وكلّ مال لى أو أملكه إلى ثلاثين سنة هَدْىٌ بالغُ الكعبة، وكلّ ما جعلتُ لأمير المؤمنين، وشرطتُ فى كتابى هذا لازمٌ لى، لا أُضمِر غيرَه، ولا أنوى غيرَه. وشَهِد سليمانُ بن أمير المؤمنين، وفلان وفلان. وكُتِبَ فى ذى الحِجّة سنة ست وثمانين ومائة.

٣ — نسخة كتاب الرشيد الى العمّال

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإنّ الله وَلِىُّ أمير المؤمنين وولىّ ماولّاه، والحافظ لما استرعاه، وأكرمَه به من خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدّم وأخّر من أموره، والمنعم عليه بالنصر والتأييد فى مشارق الأرض ومغاربها، والكالئ والحافظ والكافى من جميع خَلْقه، وهو المحمود على جميع آلائه، المسئول تمامَ حُسْن ما أمضى من قضائه لأمير المؤمنين وعادته الجميلة عنده، وإلهامَ ما يَرضى به ويُوجب له عليه أحسنَ المزيد من فضله؛ وقد كان من نعمة الله عزّ وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عَوام المسلمين ما تولّى اللهُ من محمد وعبد الله ابنَىْ أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسنَ ما أمّلت الأمةُ ومدّت اليه أعناقَها، وقذَف اللهُ لهما فى قلوب العامّة من المحبّة والمودّة والسكون اليهما والثقة بهما لِعماد دينهم وقِوام أمورهم وجَمْع أُلفتهم وصلاح دَهْمائهم ودفْع المحذور والمكروه من الشّتات والفرقة عنهم حتى ألقوا اليهما أزِمّتهم، وأعطوهما بيعتهم، وصفقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلّظة عليهم؛ أراده اللهُ فلم يكن له مردٌّ، وأمضاه فلم يقدِر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته، ولا صَرْفٍ له عن محبّته ومشيئته، وما سبق فى علمه منه؛ وأميرُ المؤمنين يرجو تمامَ النعمة

عليه وعليهما فى ذلك، وعلى الأمة كافّة لاعاقِبَ لأمر الله ولارادَّ لقضائه ولا معقِّبَ لحكمه؛ ولم يزل أميرُ المؤمنين منذ اجتمعت الأُمّةُ على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين، ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين يُعْمِل فكرَه ورأيَه ونظره وروِيّته، فيما فيه الصلاحُ لهما ولجميع الرعيّة؛ والجمعُ للكلمة، واللّم للشّعَث، والدّفعُ للشّتات والفرقة، والحسمُ لكَيْد أعداء النّعم من أهل الكفر والنّفاق، والغِلّ والشّقاق، والقطع لآمالهم من كلّ فرصة يرجون إدراكَها وانتهازَها منهما بانتقاص حقّهما، ويَسْتَخِير اللهَ أميرُ المؤمنين فى ذلك ويسأله العزيمةَ له على مافيه الخِيرَة لهما، ولجميع الأمة والقوّة فى أمر الله وحقّه وائتلاف أهوائهما، وصلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كيد أعداء النّعم، وردّ حَسَدهم ومكرهم وبَغْيهم وسعيهم بالفساد بينهما، فعزَم اللهُ لأمير المؤمنين على الشُّخُوص بهما الى بيت الله وأخذ البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسّمع والطّاعة والإنفاذ لأمره، واكتتاب الشّرْط على كلّ واحد منهما لأمير المؤمنين ولهما بأشدّ المواثيق والعهود، وأغْلَظ الأيمان والتوكيد، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتهما ومودّتهما وتَواصُلهما ومُؤَازرتهما ومكَاتَفتهما على حسن النظر لأنفسهما، ولرعيّة أمير المؤمنين التى استرعاهما، والجماعة لدين الله عزّ وجل وكِتابه وسُنَن نبيّه صلّى الله عليه وسلم، والجهاد لعدوّ المسلمين مَن كانوا وحيث كانوا وقَطْع طَمَع كلّ عدوّ مُظْهِر للعداوة ومُسِرّ لها، وكلّ منافق ومارق، وأهلِ الأهواء الضّالة المضلّة من فُرْقة تَكِيد بكَيْد توقعه بينهما، وبدَحْس[1] يُدْحَس به لهما، وما يلتمس أعداءُ الله وأعداء النّعم وأعداءُ دينه من الضّرب بين الأمّة والسعى بالفساد فى الأرض، والدعاءِ الى البدع والضلالة، نظراً من أمير المؤمنين لدِينه ورعيّته، وأمّةِ نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، ومناصحةً لله ولجميع المسلمين، وذَبّا عن سلطان الله الذى قدّره وتوحّد فيه للذى حمّله إيّاه؛ والاجتهاد فى كلّ ما فيه قُرْبةٌ الى الله، وما يُنَال به رضوانُه والوسيلة عنده.

---

(١) الدحس: الفساد.

فلما قَدِم مكّةَ أظهر لمحمد وعبد الله رأيَه فى ذلك وما نَظَر فيه لهما، فقَبِلا كلَّ مادعاهما اليه من التوكيد على أنفسهما بقَبوله، وكَتَبا لأمير المؤمنين فى بَطْن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما بمَحْضر ممن شَهِد المَوْسِمَ من أهل بيت أمير المؤمنين وقوّاده، وصَحَابته وقُضَاته، وحَجَبة الكعبة وشهاداتهم عليهما، كتابَيْن آستودعهما أميرُ المؤمنين الحَجَبَةَ، وأمر بتعليقهما فى داخل الكعبة؛ فلما فرَغ أميرُ المؤمنين من ذلك كلّه فى داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة؛ أمر قُضَاتَه الذين شهدوا عليهما وحضَروا كتابهما أن يُعْلِموا جميعَ مَن حضَر الموسم من الحاجّ والعُمّار ووفود الأمصار، ما شهدوا عليه من شَرْطهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهم، ليُفَهَّموه ويَعُوه ويعرفوه ويحفظوه ويؤدّوه الى إخوانهم وأهلِ بلدانهم وأمْصَارهم، ففعلوا ذلك، وقُرِئ عليهم الشرطان جميعا فى المسجد الحرام؛ فانصرفوا وقد آشتهر ذلك عندهم، وأثبتوا الشَّهادة عليه، وعرَفوا نَظَرَ أمير المؤمنين وعنايتَه بصلاحهم، وحقْن دمائهم ولَمّ شَعَثهم، وإطْفَاء جَمْرة أعداء الله وأعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم، وأظهروا الدُّعاء لأمير المؤمنين والشكرَ لما كان منه فى ذلك، وقد نَسَخ لك أميرُ المؤمنين ذَيْنِكَ الشرطَيْن اللذين كتبهما لأمير المؤمنين آبناه محمد وعبد الله فى بطن الكعبة فى أسفل كتابه هذا؛ فاحمَد الله عزّ وجل على ما صنع لمحمد وعبد الله وليَّيْ عهد المسلمين حَمْدا كثيرا، وآشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليّيْ عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمّة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا؛ وآقرأ كتاب أمير المؤمنين على مَن قِبَلك من المسلمين وأفهِمْهم إيّاه، وقُمْ به بينهم وأثبته فى الديوان قِبَلك، وقِبَل قوّاد أمير المؤمنين ورعيّته قِبَلك، وآكتُب الى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك، إن شاء الله. وحسبنا الله ونعم الوكيل، وبه الحَوْلُ والقوّة والطَّوْلُ. كَتَبه اسماعيل بن صَبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرّم سنة ست وثمانين ومائة.

باب المنظـــوم

صوّرنا لك بالمجلد الأوّل حالة الشعر فى صدر الدولة العباسية وذكرنا لك بجملة صالحة من شعراء ذلك العصر ووعدناك بذكر مختارات من شعرهم، وإليك ماوعدناك به .

١ — بَشَّارُ بن بُرْد العُقَيْلِىّ(١)

سأله المهدىّ لما دخل عليه فقال له : فيمن تُعْتَدّ يابشّار؟ فقال : أمّا اللّسان والزّىّ فعربيّان، وأما الأصل فعجمىّ، كما قلتُ فى شعرى يا أمير المؤمنين :

ونبّئتُ قـومًا بهـم جِنّـــةٌ * يقولون مَنْ ذا وكنتُ العَلَمْ

ألا أيّهـا السـائلى جاهـدًا * ليعـرفنى أنا أنفُ

(١) هو أبو معاذ بشار المرعث بن برد ، أشعر مخضرمى الدولتين ، ورأس الشعراء المحدثين ، وممهد طريق الاختراع ، والبديع للمفتنين ، وأحد البلغاء المكفوفين . وأصله من فرس طخارستان من سبى المهلب بن أبى صفرة ، ووقع ملك أبويه لبنى عقيل بن كعب ، فنشأ بشار فيهم وتربى فى منازلهم ، واختلف الى الأعراب الضاربين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه فى الفصاحة والشعر . وكان أكمه مجدور الوجه ، قبيح المنظر ، مفرط الطول ، ضخم الجثة ، متوقد الذكاء ، صادق الحس ، لطيف الدراية ، شديد المجون والاستخفاف بالناس ، كثير الاستهتار بالدين ، قليل المبالاة للوقوع فيه ، متهما بالزندقة شعوبيا ، متعصبا على العرب ، شديد التبرم بالناس ، نهاشا لأعراضهم ، لا يسلم من لسانه خليفة ولا سوقة ، وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشارا ولا بشار يعرفه ، فانه إن لم يصبه فى عرضه أصابه فى ماله . وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ، وما بلغ الحلم إلا وهو مخشىّ معرّة لسانه .

وقد أجمع رواة الشعر ونقدته على أن بشارا هو رأس المحدثين وأسبقهم الى معاطاة البديع ، وطرق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضرى والهجاء المقذع .

وأنه أوّل من جمع فى شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين ، وفتق عن المعانى الدقيقة ، والأخيلة اللطيفة ، حتى عدّ شعره برزخا بين الشعر القديم والحديث ، ومجازا يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة الى مقاصير الحضارة .

وقد طرق كل باب من أبواب الشعر التى عرفت قبله وأربى عليها ، وغلب عليه الهجاء ، والتشبيب بالنساء ، والخروج به عن الحد المألوف عند أهل زمنه ، حتى أنكره عليه العلماء والمتورعون لما رأوا من سوء أثره فى شبان البصرة .

وقــد نهاه المهدى عن التشبيب ، فكان اذا مالت له نفسه يذكر منه ما يشاء و يقول : إن الخليفة منعه من كذا وكذا وأنه له مطيع .

وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة ، فلم يزد على أن حرمه الجائزة ، وشجعه على ذلك وزيره يعقوب بن داود ، وكان متورعا ، فهجاهما ، فكان ذلك الى زندقته سبب قتله . توفى سنة ١٦٧ ﻫ وقد نيف على التسعين . وتجد ترجمته فى الأغانى (ج ٣ ص ١٩ وج ٦ ص ٧) وابن خلكان (ج ١ ص ٨٨) والشعر والشعراء (ص ٤٧٦) والفهرست (ص ١٥٩) .

نمَتْ فى الكرام بنى عامرٍ * فروعى وأصْلِى قريشُ العجَم
فإنى لأُغنى مقام الفتى * وأُصبى الفتاةَ فما تعتصِم

وكان أبو دُلَامة حاضرًا، فقال: كلّا! لَوَجْهُكَ أقبح من ذلك، ووجهى مع وجهك، فقال بشّار: كلّا! والله ما رأيتُ رجلا أصدقَ على نفسه وأكذبَ على جليسه منك، والله إنى لطويلُ القامة، عظيمُ الهامة، تامُّ الألواح، أسجَحُ الخدّين، ولربّ مُستَرْخى المزورين للعيْن فيه مُرَاد. ثم قال له المهدىّ: من أىّ العجم أصلك؟ فقال: من أكثرها فى الفُرسان وأشدّها على الأقران، أهل طَخارِسْتان؛ فقال بعض القوم: أولئك الصُّغْد، فقال: لا! الصّغد تجار؛ فلم يَرْدُدْ ذلك المهدىّ.

وكان بشار كثيرَ التلوّن فى وَلَائه، شديدَ التشيُّع والتعصّب للعجم، مرّةً يقول يفتخر بولائه فى قَيْس:

أمِنْتُ مَضَرّةَ الفُحشاء إنى * أرى قَيْسا تُشَبُّ(١) ولا تُضَارُ
كأن الناس حين تغيبُ عنهم * نباتُ الأرض أخطأه القِطَار
وقد كانت بِتَدْمُرَ خَيْلُ قيس * فكان لتَدْمُرٍ فيها دَمَار
بحىٍّ من بَنِى عَيْلان شُوسٍ * يسير الموتُ حيث يقال ساروا
وما نلقاهم إلا صَدَرنا * بِرِىٍّ منهمُ وهم حِرَار

ومرة يتبرأ من ولاء العرب فيقول:

أصبحتُ مولى ذى الجَلالِ وبعضُهم * مولَى العُرَيْب فخُذْ بفضلك فافخرِ
مولاك أكرمُ من تَميم كلِّها * أهلِ الفعال ومن قُرَيْش المَشْعَر
فارجع الى مولاك غيرَ مُدَافَع * سبحان مولاك الأجلّ الأكبر

وقال يفتخر بولاء بنى عُقَيْل:

إنَّنى من بنى عقيل بن كَعْبٍ * موضِعُ السيف من طُلَى الأعناق

(١) تشب: تزداد وترتفع.

ووُلد بشار أعمى، فما نظر إلى الدنيا قط، وكان يشبّه الأشياءَ بعضها ببعض فى شعره، فيأتى بمـا لا يقدِرُ البُصَراء أن يأتوا بمثله، فقيل له يوما وقد أنشد قوله :

كأن مُثارَ النَّقع فوق رءوسنا * وأسيافَنا ليـلٌ تهاوَى كواكبُه

ما قال أحد أحسنَ من هذا التشبيه، فمن أين لك هـذا ولم ترَ الدنيا قطّ ولا شيئا فيها؟ فقال : إن عدم النظر يقوّى ذكاءَ القلب ويقطع عنه الشغلَ بمـا ينظر اليه من الأشياء، فيتوفّر حسُّه وتذكو قريحتُه، ثم أنشدهم قوله :

عَمِيتُ جنينا والذكاءُ من العمى * فجئتُ عجيبَ الظنّ للعـلم موْئِلا
وغَاضَ ضِياءُ العينِ للعلم رافدا * بقلبٍ اذا ما ضَيّع الناسُ حَصّلا
وشعرٍ كنَوْر الروض لاءَمْتُ بينه * بقول اذا ما أحْزَنَ الشـعرُ أسْهَلا

وكان من أشـدّ الناس تبرّمًا بالناس . وكان يقول : الحمـد لله الذى ذهب ببصرى . فقيل له : ولم يا أبا مُعاذ؟ قال : لئلا أرى ما أُبْغِض .

قال الأصمعى : بشّارُ خاتمة الشعراء، واللهِ لولا أن أيامه تأخرتْ لفضّلتُه على كثير منهم .

وقيل لأبى عُبَيْدة : أمَرْوَان أشعر أم بشّار؟ فقال : حَكَمَ بشّارٌ لنفسه بالاستِظْهار، إنه قال ثلاثةَ عشرَ ألف بيْت جيّـد، ولا يكون عددُ الجيّـد من شعر شعراء الجاهليـة والإسلام هذا العدد، وما أحسبهم برّزُوا فى مثلها، ومروان أمدحُ للملوك .

وسئل الأصمعىُّ عن بشار ومروان أيهما أشْعَر؟ فقال : بشّار، فَسُئل عن السبب لذلك؛ فقال : لأن مروان سلَك طريقًا كثُر من يسلُكه، فلم يَلْحَق بمن تقدّمه وشرِكه فيه من كان فى عصره، وبشّار سلَك طريقا لم يُسْـلَك وأحسنَ فيه وتفرّد به، وهو أكثر تصرّفًا وفنون شعرٍ، وأغزرُ وأوسع بَديعًا، ومروان لم يتجاوز مَذْهبَ الأوائل .

وقيل لبشّارٍ : ليس لأحد من شعراء العرب شعرٌ إلا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم وشُكّ فيه، وإنه ليس فى شعرك ما يُشَكّ فيه؛ قال : ومن أين يأتينى الخطأ؟ ووُلِدتُ هَا هُنا، ونشأتُ فى حُجُور ثمانين شيخا من فُصَحاء بنى عُقَيل ما فيهم أحد يعرف كلمةً

من الخطأ، وان دخلتُ الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم، وأيفعتُ فأبْدِيتُ(١) الى أن أدركتُ، فمن أين يأتينى الخطأ ؟ .

كان جَرِير بن المُنذِرِ السَّدُوسِيّ يفاخر بشّارا، فقال فيه بشار :

أمثـــل بنى مُضَرٍ وائِلٌ * فَقَـدْتُك من فاخرٍ ما أجَنّْ

أفى النوم هـذا أبا منـذرٍ * فخيرًا رأيتَ وخيرا يُكَنّْ

رأيتُـك والفخرَ فى مثلها * كعاجِنة غير ما تَطْحن

كان بشار يهوَى آمرأةً من أهل البصرة، فراسلها يسألهـا زيارته، فوعَدَته بذلك ثم أخلَفته، وجعل ينتظرها ليلته حتى أصبح، فلما لم تأته أرسل اليها ليعاتبها فاعتذرت بمرض أصابها، فكتب اليها بهذه الأبيات :

يا ليـلتى تزدادُ نُكْرا * من حُبّ من أحببتُ بِكْرا

حوراء ان نظرتْ اليـ * ـك سَقَتْك بالعينين خَمْرا

وكأنَّ رَجْعَ حـديثها * قِطَعُ الرياض كُسِينَ زَهْرَا

وكأنَّ تحت لسانها * هاروتَ ينفُث فيـه سِحْرا

وتخـالُ ما جُمِعَتْ عليـ * ـه ثيـابُها ذَهَبـا وعِطْرا

وكأنّهـا بَـرْدُ الشَّرا * ب صَفَا وصادَفَ منك فِطْرا

ذاك أجلّ أمْرا

وكفاك أنى لم أحِطْ * بشَكاة من أحببتُ خُبْرا

إلا مقـالةَ زائـرٍ * نثرتْ لى الأحزانَ نَثْرا

متحسّـعا تحت الهـوى * عَشْرا و...

وكان إسحاق الموصلىّ لا يعتدّ ببشار ويقول : هو كثير التخليط فى شعره، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا، أليس هو القائل :

---

(١) أبديت أى أخرجت الى البادية .

إنما عَظْمُ سُليمى حُبّتى * قَصَبُ السُّكَّرِ لا عَظْمُ الجَمَل
وإذا أدنيْتَ منها بَصَلًا * غلَبَ المِسْكُ على ريح البصل

لو قال : كلّ شيء جيّد ثم أضيف إليه هذا لزيّفه . وكان يُقدّم عليه مروانَ ويقول : هو أشدُّ آستواءَ شعرٍ منه، وكلامُه ومذهبُه أشبه بكلام العرب ومذاهبها، وكان لا يعدّ أبانُواس البتّة ولا يرى فيه خيرا .

قال الجاحظُ : كان بشّار خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسَجْع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والآختراع ، المتفنّنين فى الشعر ، القائلين فى أكثر أجناسه وضُروبه . وقال الشعرَ فى حياة جرير وتعرّض له ، وحكى أنه قال : هجوتُ جريرًا فأعرض عنّى ، ولو هاجانى لكنتُ أشعر الناس ، وكان يَدين بالرَّجْعة ، ويكفّر جميعَ الأئمة ، ويصوِّب رأىَ إبليس فى تقديم النار على الطين، وذكَر مثلَ ذلك فى شعره فقال :

الأرضُ مُظلمةٌ والنار مُشْرِقةٌ * والنارُ معبودةٌ مُذْ كانت النارُ

وقال بعضُ الرُّواة لأبى عمرو : مَنْ أبدع الناس بيتا؟ قال الذى يقول :

لم يَطُلْ لَيْلى ولكن لم أنَمْ * ونَفَى عَنّى الكرى طيفٌ أَلَمّ
وإذا قلتُ لهـا جُودى لنـا * خرجتْ بالصَّمْت عن لا ونَعَم
رَوِّحى يا عَبْدَ عنّى وآعلمى * أننى يا عبد من لحم ودَم
إن فى بُرْدَىَّ جسما ناحلا * لو توكأت عليه لآنْهَدَم

وهذه الأبياتُ لبشار .

قال : فمن أمدح الناس؟ قال الذى يقول :

لَمَسْتُ بكفّى كفّه أبتغى الغِنَى * ولم أدرِ أن الجُودَ من كفّه يُعْدِى
فلا أنا منه ما أفاد ذَوُو الغنى * أفدتُ وأعدانى فأتلفتُ ما عندى

وهذه الأبيات لبشار .

ودخل بشّارٌ على إبراهيم بن عبد الله بن حسن، فأنشده قصيدةً يهجو فيها المنصورَ ويُشير عليه برأى يستعمله فى أمره، فلما قُتِل إبراهيم خاف بشار، فقلَب الكُنْية وأظهر أنه كان قالها فى أبى مُسْلم، وحذَف منها أبياتا، وأوّلُها :

أبا جَعْفـرٍ ما طولُ عيْش بدائِم * ولا سالِمٌ عمّا قليـلٍ بسالِمِ

قلَب هذا البيت فقال : أبا مسلم :

عـلى الملك الجبّار يَقْتحِم الردى * ويَصْرَعه فى المَـآزِق المُتَـلاحِمِ

كأنك لم تسـمعْ بقتـلِ مُتَوَّجٍ * عظيمٍ ولم تسمع بفَتْـكِ الأعاجمِ

تَقَسّم كسرى رهطُه بسـيوفهم * وأمسى أبو العباس أحلامَ نائمِ

يعنى الوليد بن يزيد

وقد كان لا يَخشى ٱنقلابَ مكيدةٍ * عليـه ولا جَرْىَ النُّحوس الأشائمِ

مُقِيمًا عـلى اللذات حتى بدت له * وجُوهُ المنـايا حاسِراتِ العمائمِ

وقـد تَرِدُ الأيامُ غُرًّا وربمـا * وَرَدْنَ كُلُوحًا باديات الشّكائمِ

ومَرْوانُ قد دارت على رأسه الرَّحا * وكان لِمَـا أجْرَمْتَ نَزْرَ الجـرائمِ

فأصبحتَ تجرى سَادِرا فى طريقهم * ولا تَتَّـقِى أشْباه تلك النَّقـائمِ

تجـرَّدتَ للإسـلام تعفو سبيلَه * وتُعْرِى مَطَـاه[1] لِليوث الضّراغمِ

فما زِلتَ حتى ٱستنصر الدِّينُ أهلَه * عليـك فعاذُوا بالسيوف الصّوارمِ

فَرُمْ وَزَرًا يُنْجِيـك يا بنَ سَـلَامة * فلستَ بِنَـاجٍ من مَضِيمٍ وضـائمِ

جعل موضع "يابن سلامة" "يابن وشيكة" وهى أمّ أبى مسلم

لَحَـا اللهُ قـوما رَأّسُوك عليهـمُ * وما زلتَ مرءوسا خبيثَ المَطاعِمِ

أقـول لِبَسّامٍ عليـه جلالةٌ * غدا أرْيَحِيًّـا عاشِقـا للمكارمِ

من الفاطِمِيِّين الدُّعاة الى الهـدى * جِهارا ومن يَهْديك مثلُ ٱبنُ فاطِمِ

(١) مطاه : ظهره .

هذا البيتُ حذفه بشّار من الأبيات :

سِراجٌ لعينِ المُستَضِىء وتارَةً * يكون ظلاما للعدوّ المُزَاحم
اذا بلغ الرأىُ المشورةَ فاستَعِن * برأى نَصِيحٍ أو نصيحةِ حازم
ولا تجعلِ الشُّورى عليك غَضَاضةً[1] * فإن الخَوافى[2] قوّةٌ للقوادم
وما خيرُ كفٍّ أمسك الغُلّ أختَها[3] * وما خيرُ سيفٍ لم يُؤَيَّد بقائم
وخَلِّ الهُوَيْنا للضعيف ولا تكن * نَؤُوما فإن الحزم ليس بنائم
وحارِبْ اذا لم تُعطَ إلا ظُلَامة * شَبَا[4] الحربِ خيرٌ من قَبول المظالم
وأدْنِ على القُرْبى المقرِّبَ نفسَه * ولا تُشْهِدِ الشّورى آمرأً غيرَ كاتم
فإنك لا تَستَطرِدُ الهمَّ بالمُنى * ولا تبلُغُ العَليا بغير المكارم
اذا كنتَ فَرْدا هرّك القومُ مُقبِلا * وإن كنتَ أدنى لم تَفُزْ بالعزائم
وما قَرَعَ الأقوامَ مثلُ مُشَيَّعٍ[5] * أريبٍ ولا جَلّى العَمَى مثلُ عالم

قال أبو عبيدة : ميميّةُ بشّار هذه أحبّ إلى من ميميّىْ جرير والفرزدق . وقال الأصمعى لبشار: يا أبا معاذ، إن الناس يُعَجَبون من أبياتك فى المشورة؛ فقال له : يا أبا سَعيد، إن المُشَاوِر بين صواب يفوز بثمرته، أو خطأ يُشَارك فى مكروهه؛ فقال له : أنتَ فى قولك هذا أشعر منك فى شعرك .

تُوُفّى آبنٌ لبشّار فجزع عليه ، فقيل له : أجْرٌ قدّمتَه ، وفَرَط آفترطتَه، وذُخْر أحرزته ؛ فقال : ولَدٌ دفنتُه، وثُكلٌ تعجّلتُه، وغيبٌ وُعِدْتُه فآنتظرته، والله لئن لم أجزع للنّقص لا أفرح للزيادة . وقال يرثيه :

(١) الغضاضة : المنقصة . (٢) الخوافى : الريشات الصغيرات التى فى جناح الطائر اذا ضمها خفيت، واحدتها خافية ضدّ القوادم . (٣) الغل بالضم : الحديدة التى تجمع بين يد الأسير وعنقه وتسمى الجامعة . (٤) الشبا بالفتح جمع شباة وهى من كل شىء حده . (٥) المشيع : الشجاع .

أجارتنا لا تجزعى وأنيبى * أتانى من الموت المطلّ نصيبى
بنىّ على رغمى وسخطى رزئته * وبدّل أحجارا وجال[1] قليب
وكان كريحان العروس تخاله * ذوى بعد إشراق يسرّ وطيب
أصبت به فى حين أورق غصنه * وألقى علىّ الهمّ كلّ قريب
عجبت لإسراع المنية نحوه * وما كان لو ملّيته بعجيب

قيل لبشار : إنك لتجىء بالشىء الهجين المتفاوت ؛ قال : وما ذاك؟ قيل : بينما تقول شعرا يثير النقع وتخلع به القلوب مثل قولك :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية * هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
اذا ما أعرنا سيدا من قبيلة * ذرى منبر صلّى علينا وسلّما

تقول :

ربابة ربة البيت * تصبّ الخلّ فى الزيت
لها عشر دجاجات * وديك حسن الصوت

فقال : لكلّ وجه ، فالقول الأوّل جدّ ، وهذا قلته فى ربابة جاريتى ، وأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهى تجمع لى البيض ، فهذا عندها أحسن من «قفانبك» عندك . وسألته جارية مغنية لبعض ولد سليمان بن على ، وكانت محسنة بارعة الظّرف ، أن يذكرها فى قصيدة ولا يذكر فيها آسمها ولا آسم سيدها ويكتب بها اليها ، فآنصرف وكتب اليها :

وذات دلّ كأن البدر صورتها * باتت تغنّى عميد القلب سكرانا
« إن العيون التى فى طرفها حور * قتلننا ثم لم يحيين قتلانا »
فقلت أحسنت ياسؤلى ويا أملى * فأسمعينى جزاك الله إحسانا
« ياحبّذا جبل الريّان من جبل * وحبّذا ساكن الريان من كانا »
قالت فهلّا فدتك النفس أحسن من * هذا لمن كان صبّ القلب حيرانا

---

(١) الجال : حافة القبر ونواحيه .

« يا قوم أُذْنِى لبعض الحىّ عاشقةٌ * والأذنُ تعشَقُ قبل العين أحيانا »
فقلتُ أحسنتِ أنت الشمسُ طالعةً * أضْرَمْتِ فى القلب والأحشاء نيرانا
فأسمعينِى صوتاً مُطْرِبا هَزَجاً * يَزِيد صَباً محبًّا فيك أشجانا
يا ليتنى كنتُ تُفّاحاً مفلّجَةً * أو كنتُ من قُضُبِ الريْحان ريحانا
حتى إذا وجَدَتْ رِيحِى فأعجبها * ونحن فى خَلْوَةٍ مثّلتُ إنسانا
فحرّكَتْ عُودَها ثم آنثنتْ طَرَبا * تَشْدُو به ثم لا تُخْفِيه كِتْمانا
« أصبحتُ أطوعَ خَلْقِ اللهِ كلِّهم * لأكْثرِ الخَلْق لى فى الحبِّ عِصْيانا »
فقلتُ أطْرَبْتِنَا يازَيْنَ مجلسنا * فهاتِ إنّك بالإحسان أوْلانا
لو كنتُ أعلم أنّ الحب يقتُلُنى * أعددتُ لى قبل أن ألقاك أكفانا
فغنّت الشَّرْبَ صوتًا مونقا رَمَلا * يُذْكى السرور ويُبْكِى العين ألوانا
« لا يقتل اللهُ من دامتْ مودتُه * واللهُ يقتل أهلَ الغدر أحيانا »

كان الزُّوّارُ يُسَمَّوْن فى قديم الدهر الى أيام خالد بن بَرْمك السُّؤّالَ، فقال خالد : هذا والله آسم أستثقِله لطلّاب الخير، وأرفَعُ قَدْرَ الكرم عن أن يُسَمَّى به أمثالُ هؤلاء المؤمنين، لأن فيهم الأشرافَ والأحرار وأبناء النعيم ، ومن لعلّه خيرٌ مِمّن يقصِد وأفضل أدبا، ولكننا نسمّيهم الزوّار ، فقال بشّار يمدحه بذلك :

حَذَا خالد فى فعله حَذْوَ برمك * فَمَجْدٌ له مُسْتَطْرَفٌ وأصِيلُ
وكان ذَوُو الآمالِ يُدْعَوْن قبله * بلفظ على الإعدام فيه دليل
يسمَّوْن بالسؤّال فى كل موطنٍ * وإن كان فيهم نابهٌ وجليل
فسمّاهمُ الزوّارَ سَتْرا عليهمُ * فأستاره فى المهتدين سُدُول

وقال بشّار هذا الشعرَ فى مجلس خالد فى الساعة التى تكلّم خالد بهذا فى أمر الزوّار ، فأعطاه لكل بيت ألف درهم .

دخل بشّار على عُقْبَة بن سَلْم فأنشده بعض مدائحه فيه، وعنده عُقْبَة بن رُؤْبَة ينشده رجَزا يمدحُه به ، فسمعه بشار وجعل يستحسن ما قاله الى أن فرَغ ، ثم أقبل على بشّار فقال : هذا طِراز لا تُحسِنه أنت يا أبا مُعاذ، فقال بشّار : أَلِي يقال هذا! أنا والله أرجَزُ منك ومن أبيك وجدّك، فقال له : عقبةُ أنا وأبي فتَحْنا للناس بابَ الغريب وباب الرّجَز، وإنى لخليقٌ أن أسُدّه عليهم، فقال بشّار : ٱرحمْهم رحِمَك الله، ولمّا كان من غَدٍ غدا على عقبة ٱبن سلم وعنده عقبة بن رؤبة، فأنشده أُرْجُوزته التي مدحه فيها :

يا طَلَلَ الحيِّ بذات الصمْدِ * بالله خَبِّرْ كيف كنتَ بعدى
أَوحشت من دَعْدٍ وتِرْب دعد * سَقْيًا لأسماء ٱبنة الأشَدّ
قامت تَراءَى إذ رأتنى وحدى * كالشمس تحت الزِّبْرِجِ[1] المنقَدّ
صدَّتْ بخَدٍّ وجلَتْ عن خَدّ * ثم انثنتْ كالنَّفَس المُرْتَدّ
عَهْدِى بها سَقْيًا له من عَهْد * تُخلِف وعدا وتَفى بوعد
فنحن من جَهْد الهوى فى جهد * وزاهرٍ من سَبِط وجَعْد
أهْدَى له الدهرُ ولم يَسْتَهْدِ * أفواقَ نَوْر الحِبَرِ المُجَدّ
يلقى الضّحى ريحانه بسَجْد * بُدِّلتُ من ذاك بُكًى لا يُجدى
وافق حظًّا من سَعَى بجِدّ * ما ضرّ أهلَ النوْك ضَعْفُ الجَدّ
الحُرّ يُلْحَى والعصا للعبد * وليس للمُلْحِف مثلُ الرّدّ
والنَّصْفُ يكفيك من التعدّى * وصاحبٍ كالدُّمّلِ المُمِدّ
حملتُه فى رقعة من جِلْدى * أرقُبُ منه مثلَ يوم الوِرْد
حتى مضى غيرَ فقيدِ الفَقْد * وما دَرَى ما رغبتى من زُهد
إسْلَم وحيِّيت أبا المُلِدّ * مفتاح باب الحدث المُنْسَدّ
مُشْتَرَكَ النَّيْلِ وَرِيّ الزَّنْد * أغرّ لبّاسَ ثياب الحمد

---

(١) الزبرج : الزينة من وشى أو جوهر .

ما كان منّى لك غــيرُ الــودّ * ثم ثنــاءٌ مثـــلُ ريح الوَرْد

نَسَــجتُه فى مُحكَمات النَّـــدّ * فالبَس طِرازى غيرَ مُسْـــترَدّ

لله أيامــك فى مَعَـــدّ * وفى بَنِى قَحْطان غــيرِ عَدّ

يومًا بذى طِخْفَة(١) عند الحــدّ * ومثله أودَعْتَ أرض الهنــد

بالمُرهَفات والحــديد السَّرْد * والمُقْرَبات(٢) المبعدات الجُرْد

اذا الحيا أكْدى بها لا تُكدِى * تَلْحَم أمرًا وأمورا تُسْـــدِى

وابن حكيم إن أتاك يَرْدِى * أصمّ لا يسـمع صوتَ الرّعد

حيّيتَـــه بتحفـــةِ المُعِـــدّ * فانهَدّ مثـــل الجبـــل المنهَدّ

كلّ امرئ رَهْنٌ بمـــا يؤدّى * وربّ ذى تاج كريم الجَـــدّ

كآل كسرى وكآل بُرْد * أنكب جافٍ عن سبيل القصد

* فَصَلْتَه عن ماله والوُلْد *

فطرِب عقبةُ بن سلم وأجزَل صِلَته، وقام عقبةُ بن رؤبة فخرج عن المجلس يخزِى وهرب من تحت ليلته فلم يعُد اليه .

قال الجاحظ : فانظر الى سُوء أدب عقبة بن رؤبة وقد أجمَل بشّارٌ مَحْضَره وعشرته، فقابَله بهذه المقابلة القبيحة، وكان أبوه أعلمَ خلق الله به، لأنه قال له وقد فاخَره بشعره : أنت يابنىّ ذهبان الشعر، اذا مِتّ مات شعرُك معك، فلم يُوجد من يَرْويه بعدك ، فكان كما قال له، ما يُعرَف له بيتٌ واحد ولا خبرٌ غير هذا الخبر القبيح الإخبار عنه، الدالّ على سُخْفه وسقوطه وسوء أدبه .

وقال بشّار فى هَوًى له كانت بالبصرة، ثم خرجتْ مع زوجها الى عُمَان :

هوى صاحِبى ريحَ الشَّمال اذا جرَتْ * وأشْـــفَى لقلبى أن تَهُبّ جَنُــوب

وما ذاك إلا أنهـا حين تنتهى * تَنَاهَى وفيهـا من عُبَيْـدة طِيب

(١) طخفة : موضع بعد النباج وبعد إمرة فى طريق البصرة الى مكة ، ومنه يوم طخفة لبنى يربوع على قابوس ابن المنذر بن ماء السماء . (٢) المقربات : الخيل التى يقرب مربطها ومعلفها لكرامتها .

عَذيرى من العُذّال إذ يَعْذِلُوننى * سَفَاهًا وما فى العاذلين لبيب
يقولون لو عَزّيت قلبَك لارعوى * فقلتُ وهل للعاشقين قلوب
اذا نطَق القومُ الجلوسُ فإننى * مُكِبٌّ كأنى فى الجميع غريب

جاء أبو الشَّمَقْمَق الى بشّار يشكو اليه الضيقَة ويحلِف له أنه ما عنده شىء ، فقال له بشّار : والله ما عندى ما يغنيك، ولكن قُمْ معى الى عُقْبَة بن سَلْم، فقام معه ، فذكر له أبا الشمقمق وقال : هو شاعر وله شكرٌ وثناء، فأمر له بخمسمائة درهم، فقال له بشّار :

ياواحدَ العربِ الذى * أمسى وليس له نَظِير
لوكان مثلُك آخرًا * ماكان فى الدنيا فقير

فأمر لبشّار بألفى درهم ، فقال أبو الشمقمق : نَفَعْتنا ونفعناك يا أبا معاذ، فجعل بشّار يضحك .

دخل يزيدُ بن منصور الحِمْيَرىّ على المهدىّ وبشّار بين يديه يُنشِده قصيدةً آمتدحه بها، فلما فرَغ منها أقبل عليه يزيدُ، وكانت فيه غَفْلةٌ، فقال : ياشيخ، ماصِناَعتُك؟ فقال: أثقُبُ اللؤلؤَ ، فضحك المهدىّ، ثم قال لبشّار : أُغْرُبْ ويلك ! أتتَنَادر على خالى ؟ فقال له : وما أصنع به ؟ يرى شيخا أعمى يُنشِد الخليفةَ شعراً ويسأله عن صناعته .

وقف على بشّار بعض المُجّان، وهو ينشِد شعرا، فقال له : آسْتُرْ شعرَك هذا كما تستر عَوْرَتك، فصفّق بشّار بيديه وغضِب ثم قال له : ومن أنت؟ ويلك ! قال : أنا — أعزّك الله — رجل من بَاهِلَة ، وأخوالى سَلُول، وأصهارى عُكْل، وآسمى كَلْب ، ومولدى بأُضَاخ[1] ، ومنزلى بظفر بلال، فضحك بشّار، ثم قال : آذهب ويلك! فأنت عتيقُ لؤمك، قد علم الله أنك آستترتَ منّى بحصون من حديد .

مرّ بشّار برجل قد رَمَحَتْه بغلةٌ وهو يقول: الحمد لله شكرا، فقال له : بشّار آستزِدْه يَزِدْك . ومرّ به قومٌ يحملون جنازة وهم يُسرعون المشى بها، فقال : مالهم مسرعين ؟ أتراهم سرَقوه فهم يخافون أن يُلْحَقوا فيؤخذ منهم .

رفع غلامُ بشّار إليه فى حساب نفقته جِلاءَ مِرآةٍ عشرةَ دراهم، فصاح به بشار وقال: والله ما فى الدنيا أعجب من جِلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم، والله لو صَدِئَتْ عينُ الشمس حتى يبقى العَالَم فى ظُلْمة ما بلغتْ أجرةُ من يجلوها عشرة دراهم .

قال قُدامةُ بن نُوح : كان بشّارٌ يحشو شعرَه إذا أعوزته القافيــةُ والمعنى بالأشيـاء التى لا حقيقةَ لها، فمن ذلك أنه أنشد يوما شعرًا له فقال فيه : « غنّى للغريض يا بن قنان » فقيل له : من ٱبن قنان هذا ؟ لسنا نعرفه من مُغَنّى البصرة، قال : وما عليكم منه؟ ألَكُم قِبَله دَيْن فتطالبوه به، أو ثأرٌ تريدون أن تُدركوه، أو كَفَلْتُ لكم به، فاذا غاب طالبتمونى بإحضاره؛ قالوا : ليس بيننا و بينه شىء من هذا، وإنما أردنا أن نعرفه، فقال : هو رجل يغنّى لى ولا يخرج من بيتى، فقالوا له : إلى متى؟ فقال : مذ يوم وُلِد و إلى أن يموت . وذكر أيضــا فى هذه القصيدة « البردان» فقيل له : يا أبا معاذ، أين البردان هــذا ؟ لسنا نعرفه بالبصرة، فقال : هو بيت فى بيتى سمّيته بالبردان، أفعليكم من تَسْمِيتى دارى و بيوتَها شىء تسألونى عنه ؟ .

قالت ٱمرأةٌ لبشّار : أىّ رجل أنت لو كنتَ أسود اللّحية والرأس، قال : أما علِمتِ أن بِيض البُزَاة أشهر من سودِ الغِربان ؟ فقالت له : أما قولُك فحسن فى السمع، ومن لك بأن يَحسُن شَيْبك فى العين كما حسن قولُك فى السمع؟ فكان بشّار يقول : ما ألْحَمَنى قطّ غير هذه المــرأة .

دعاه رجل إلى منزله فأكل وشرب، ولما أراد الآنصرافَ قامت جاريةٌ للرجل وأخذت بيده، فلما صار بالصَّحْن أومأ اليها ليُقبِّلَها، فأرسَلتْ يدَها من يده، فجعل يجول فى العَرْصة وخرج مَوْلى الجارية فقال : مالك يا أبا معاذ؟ فقال : أذنبتُ ذَنْباً ولا أبرح أو أقول شعرا، فقــال :

أتُوبُ اليك من السَّيِّئات * وأستغفرُ الله من فَعْلَتى
تناولتُ ما لم أُرِدْ نَيْــله * على جهل أمرى وفى سَكْرَتى

ووالله والله ما جئته * لِعَمْدٍ ولا كان من هِمّتى
وإلا فَمِتُّ إذًا ضائعا * وعذّبنى اللهُ فى مِيتتى
فمن نال خيرًا على قُبْلةٍ * فلا بارك اللهُ فى قُبلتى

لما كثر آستهتارُ نساء البصرة وشبّانِها بشعر بشار، وقال سوّار بن عبد الله ومالكُ بن دينار: ما شىء أدعى لأهل هذه المدينة الى الفِسْق من أشعار هذا الأعمى، وما زالا يعظّانه وكان واصِلُ بن عطاء يقول: إن من أخْدَع حبائل الشيطان وأغواها لَكَلِمَاتِ هذا الأعمى المُلْحِد، فلما كثر ذلك وآنتهى خبرُه إلى المهدىّ نَهَاه عن ذِكْر النساء وقول التشبيب، وكان المهدىّ من أشد الناس غَيْرة، فقال فى ذلك:

يا منظرًا حسنا رأيتُه * فى وجه جارية فَدَيْتُه
بعثت إلىّ تسومنى * ثوبَ الشباب وقد طويتُه
والله ربِّ محمدٍ * ما إن غَدَرتُ ولا نويتُه
أمسكتُ عنك وربما * عَرَض البلاءُ وما آبتغيتُه
إن الخليفة قد أبَى * واذا أبى شيئًا أبَيْتُه
ومُخَضَّبٍ رَخْصِ البنا * ن بكَى علىّ وما بكيتُه
ويشوقنى بيتُ الحبيـ * ـب اذا آدّكرتُ وأين بيْته
قام الخليفةُ دونَه * فصبَرتُ عنه وما قَلَيْتُه
ونَهانِىَ الملكُ الهما * مُ عن النساء وما عصيتُه
لا بل وفيتُ فلم أضِع * عهدا ولا رأيا رأيتُه
وأنا المُطِلّ على العِدا * واذا غلا الحمدُ آشتريتُه
أُصفِى الخليلَ إذا دنا * واذا نأى عنى نأيتُه
وأميلُ فى أُنْسِ النديـ * ـم من الحَياء وما آشتهيتُه

وكان الخليل بن أحمد ينشد هذه الأبيات ويستحسنها ويعجب بها .

وكان لبشار خمسة نُدَماء، فمات منهم أربعة وبقي واحد يقال له : البراء، فركب في زورق يُريد عبور دِجلة العَوراء فغَرِق، فكان بشّار يقول : ماخير في الدنيا بعد الأصدقاء؛ ثم رثى أصدقاءه بقوله :

يا بن موسى ماذا يقول الإمامُ * في فتاة بالقلب منها أُوَامُ
بتُّ من حبها أُوَقَّرُ بالكأ * س ويهفو على فؤادي الهُيام
لم يكن بينها وبيني إلّا * كُتُبُ العاشقين والأحلام
يابن موسى اسقني ودَعْ عنك سَلْمى * إن سلمى حِمًى وفي احتِشام
ربّ كأس كالسلسبيل تعلّل * تُ بها والعيونُ عني نيام
حُبِست للشُّراة في بَيْت رأسٍ[1] * عَتَقَتْ عانِسًا عليها الختام
نفَحَتْ نفحةً فَهَزّت نديمي * بنسيم وانشقّ عنها الزُّكام
وكأن المَغلول منها إذا را * ح شَجٍ في لسانه بِرْسام[2]
صَدَمتْه الشَّمولُ حتى بعينيـ * ـه انكسارٌ وفي المفاصل خَام
وهو باقي الأطراف حيّتْ[3] به الكأ * سُ وماتت أوصالُه والكلام
وفتى يشرَبُ المُدامةَ بالما * ل ويمشي يروم ما لا يُرام
أنفدَتْ كأسُه الدنانيرَ حتى * ذَهَب العَيْنُ واستمر السَّوام
تركته الصهباءُ يرنو بعين * نام إنسانُها وليست تَنام
جُنّ من شَرْبة تُعَلّ بأخرى * وبكى حين سار فيه المُدام
كان لي صاحبًا فأودى به الدهـ * ـرُ وفارقْتُه عليه السلام
بَقِيَ الناسُ بعد هُلْك نَدامَا * ىَ وُقُوعا لم يشعروا ما الكلام
بجَزُور الأَيْسَار[4] لا كَبِدٌ فيهـ * ـا لِبَاغٍ ولا عليها سَنَام

(١) بيت رأس : قرية بالشأم من قرى حلب ينسب اليها الخمر . (٢) البرسام : علة يهذى فيها وهو ورم حاد يعرض للحجاب الذى بين الكبد والأمعاء ثم يتصل الى الدماغ . (٣) حيت بالإدغام لغة فى حيى . (٤) الأيسار : جمع يسر، وهو اللاعب بالقداح .

يابن موسى فَقْدُ الحبيب على العيـ * ـن قَذَاةٌ وفى الفؤاد سَقام
كيف يصفو لى النعيمَ وحيدًا * والأخِلّاءُ فى المقابر هام
نَفِسَتهم[١] علىّ أمُّ المنايا * فأنامتهم بعُنْفٍ فناموا
لا يَغيض انسِجَامُ عينى عليهم * إنما غايةُ الحزين السِّجَامُ

وقال فى نَهْى الخليفة إياه عن ذِكْر النساء :

والله لولا رِضا الخليفة ما * أعطيْتُ ضَيْمًا علىّ فى شَجَن
وربما خيرَ لابن آدم فى الـ * ـكُرْه وشَقّ الهوى على البدن
فاشربْ على أُبْنَةِ الزمان فما * تلقى زمانًا صفا من الأُبَن
الله يُعطيك من فواضله * والمرء يُغْضى عَيْنًا على الكُمَن[٢]
قد عِشتُ بين الرَّيْحان والرّاح والزّ * هر فى ظِلّ مجلسٍ حَسَن
وقد ملأْتُ البلاد ما بين يغبـ * ـور الى القَيْروان فاليمن
شِعْرًا تُصلِّى له العواتِقُ والشّـ * ـيبُ صلاةَ الغُواة للوَثَن
ثم نهانى المهدىُّ فانصرفَتْ * نفسى صنيعَ الموفَّق اللَّقِن
فالحمدُ لله لا شريكَ له * ليس بباقٍ شيءٌ على الزمن

وأنشد المهدىَّ قصيدته التى أولها :

تجاللْتُ عن فِهْرٍ وعن جارتَىْ فهر * وودَّعتُ نُعْمًا بالسلام وبالبِشر
وقالت سُلَيْمى فيك عنّا جَلادة * محلّك دانٍ والزيارةُ عن عُفْرِ[٣]
أخى فى الهوى مالى أراك جَفَوْتنا * وقد كنتَ تَقْفُونا على العُسْر واليُسر
تثاقلتَ إلا عن يَدٍ أستفيدُها * وزَوْرة أملاكٍ أشُدّ بها أَزْرى
وأخرجنى من وِزْرِ خمسين حِجّة * فتًى هاشمىٌّ يَقْشعِرّ من الوِزر

(١) نفستهم : حسدتهم . (٢) الكمن واحدها كمنة وهى جرب وحمرة تبقى فى العين من رمد يساء علاجه .
(٣) العفر : قلة الزيارة ، يقال : ما تأتينا الا

دَفَنْتَ الهوى حيّا فلستَ بزائرٍ * سليمى ولا صفراء ما قرقر القمرى

ومُصْفَرَّة بالزعفران جلودُها * اذا اجْتُلِيَتْ مثل المفرطحة الصفر

فربّ تقال الرِّدْفِ هبّتْ تلومنى * ولو شَهِدت قبرى لَصَلّت على قبرى

تركتُ لمهدىّ الأنام وِصَالها * ووراعيتُ عهدا بيننا ليس بالخَتْر

ولولا أميرُ المؤمنين محمّدٌ * لقبّلتُ فاها أو لكان بها فِطْرى

لعمرى لقد أوْقرتُ نفسى خطيئةً * فما أنا بالمُزداد وقْرا على وقر

تَسلّى عن الأحباب صَرّامُ خُلّة * وَوصّال أُخرى ما يُقيم على أمْر

وركّاض أفراس الصّبابة والهوى * جرت حِجَجًا ثم استقرّتْ فلا تَجْرى

فأصبحن ما يُرْكَبْنَ إلا الى الوغى * وأصبحتُ لا يُزْرَى علىّ ولا أُزْرى

فهذا وإنى قد شرَعْتُ مع التّقى * ومانت همومى الطّارقات فما تَسْرى

ثم قال يصف السفينة :

وعذراء لا تجرى بلحم ولا دَم * قليلة شكوى الأيْن مُلْجَمة الدُّبْر

اذا ظَعنَتْ فيها الفُلُول تَشَخّصتْ * بفُرسانها لا فى وُعُوثٍ ولا وَعْر

وإن قصدَتْ زلّت على متنصب * ذليل القوى لا شىء يَفْرى كما تَفْرى

تُلاعِبُ تَيّارَ[1] البحور وربما * رأيتَ نفوسَ القوم من جَرْيها تجرى

الى مَلِك من هاشم فى نُبُوّةٍ * ومن حِمْيَرٍ فى المُلْك والعدد الدَّثْر[2]

من المُشتَرين الحمدَ تَنْدى من النّدى * يداه ويَنْدَى عارِضَاه من العِطْر

فألزمتُ حَبْلى حبل من لا تُغِبّه * عُفَاةُ النّدى من حيث يدرى ولا يدرى

بنى لك عبدُ الله بيتَ خلافة * نزلتَ بها بين الفَرَاقد والنَّسْر

وعندك عهدٌ من وَصَاةِ محمد * فَرَعْتَ به الأملاكَ من ولد النّضْر

(١) كان قد قال : نينان البحور، فعابه بذلك سيبويه ، فجعله تيار البحور .

(٢) الدثر : الكثير .

ولما أنشد الوليد بن يزيد قول بشار :

أيها السّاقيان صُبّا شرابى * واسقيانى من ريق بيضاء رُودِ[1]

إن دائى الظّما وإن دوائى * شَربةٌ من رُضاب ثغرٍ برُود

ولها مَضحك كغُرّ الأقاحى * وحديثٌ كالوَشْى وَشْىِ البُرود

نزلتْ فى السّواد من حَبّة القلـ * ـب ونالتْ زيادةَ المُستزيد

ثم قالت نلقاك بعد ليالٍ * والليالى يُبْلين كلَّ جديد

عندها الصبرُ عن لقائى وعندى * زَفراتٌ يأكُلْن قلبَ الحديد

طَرِب الوليدُ وقال : من لى بمزج كأسى هذه من رِيق سَلمَى ، فيَروى ظمئى ، وتَطفأ غُلّتى ، ثم بكى حتى مزج كأسَه بدمعه ، وقال : إن فاتنا ذاك فهذا .

مدَح بشار خالدَ بن بَرمَك فقال فيه :

لعمرى لقد أجدى علىّ ابنُ برمك * وما كلُّ من كان الغنى عنده يُجْدى

حلبتُ بشعرى راحتيْه فَدَرّتا * سَماحًا كما دَرّ السّحابُ مع الرّعْد

إذا جئتَه للحمد أشرَق وجهُه * اليك وأعطاك الكرامةَ بالحمد

له نِعمٌ فى القوم لا يَستثيبها * جَزاءً وكَيْلَ التّاجر المُدّ بالمُدّ

مُفيدٌ ومِتْلافٌ سبيلُ تُراثه * اذا ما غدا أو راح كالجَزْر والمَدّ

أخالدُ إن الحمدَ يبقى لأهله * جَمالا ولا تبقى الكنوزُ على الكَدّ

فأطعِمْ وكُلْ من عَارةٍ مُستَرَدّةٍ * ولا تُبْقِها إن العَوارِىَ للردّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألفَ درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه فى كل وِفادة خمسة آلاف درهم ، وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان فى صدر مجلسه الذى كان يجلس فيه ، وقال ابنه يحيى ابن خالد : آخرُ ما أوصانى به أبى العملُ بهذين البيتين .

(١) الرود : الشابة الحسنة الناعمة

وكان إسحاق الموصلي يطعن على شعر بشار ويضع منه، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضُه بعضا، فقيل له : أتقول هذا لمن يقول :

إذا كنتَ فى كلّ الأمور مُعَاتِبًا * صديقَك لم تَلْقَ الذى لا تعاتبُهْ

فَعِش واحدًا أوصِلْ أخاك فإنه * مُقَارِفُ[1] ذنبٍ مرّة ومُجَانِبُهْ

إذا أنتَ لم تشربْ مِرارًا على القَذَى[2] * ظَمِئتَ وأىُّ الناس تصفو مَشاربه

وهى من غُرَرِ قصائده، مدح بها عمر بن هُبَيْرة، ومنها قوله :

يخاف المنايا إن ترحّلتُ صاحبى * كأن المنايا فى المُقَام تُنَاسِبه

فقلت له إن العراقَ مُقَامُه * وخِيمٌ إذا هبّتْ عليك جَنَائبُه

لألْقَ بَنِى عَيْلان إن فَعالهم * تزيد على كل الفَعال مراتبه

أولاك الأُلَى شَقّوا العَمى بسيوفهم * عن العين حتى أبصر الحقّ طالبه

وجيشٍ كجُنح الليل يَزْحَف بالحصا * وبالشّوك والخَطِّىّ حُمْرًا تغالبه

غدَوْنا له والشمسُ فى خِدْر أمّها * تطالِعُنا والطّلُّ لم يَجْرِ ذائبُه

بضَرْبٍ يذوق الموتَ من ذاق طعمَه * وتُدرِك من نَجّى الفِرارُ مَثَالِبُه

كأنّ مُثَارَ النقع فوق رءوسنا * وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبه

بعثنا لهم موتَ الفُجَاءة إننا * بنو الموتِ خَفّاقٌ علينا سَبائبُهْ[3]

فراحوا فريقٌ فى الإسَارِ ومثلُه * قتيلٌ ومثلٌ لاذَ بالبحر هاربُه

ومنها :

إذا الملك الجبّارُ صَعّر خدَّه * مشَيْنا إليه بالسيوف نعاتبُه

رُوَيدًا تَصَاهل بالعراق جِيادُنا * كأنك بالضّحّاك قد قام نادِبُه

وسامٍ لمَرْوانٍ ومن دونه الشَّجَا * وهولٌ كلُجّ البحر جاشت غوارِبُه

(١) مقارف ذنب : مخالطه ومرتكبه من قارف الخطيئة اذا خالطها . (٢) القذى : ما يسقط فى الشراب من ذباب أو غيره . (٣) السبائب : جمع سبيبة ، وهى شقة من الكتان رقيقة يريد بها الألوية .

أحلّتْ به أمُّ المنايا بناتِها * بأسيافنا إنا ردَى مَن نحاربه

وكنّا إذا دبّ العدوُّ لسخطنا * وراقبنا فى ظاهرٍ لا نراقبُه

ركبنا له جَهْرا بكل مُثقَّفٍ * وأبيضَ تستسقى الدماءَ مضارِبُه

ومنها :

فلما تولّى الحىّ واعتصر الثرى * لَظَى الصّيف من نجمٍ توقّد لاهبُه

وطارت عصافيرُ الشّقائق واكتسى * من الآل أمثالَ المجَرَّة ناضبه

غدت عانةٌ[1] تشكو بأبصارها الصّدى * الى الجأب إلا أنها لا تخاطبه

ومن حسن شعره :

لو كنت تلقَيْنَ ما نلقى قسَمْتِ لنا * يوما نعيش به منكم ونبتهجُ

لا خير فى العيش إن كنّا كذا أبدا * ما فى التلاقى ولا فى قُبْلَة حَرَج

مَنْ رَاقبَ الناسَ لم يظفَرْ بحاجته * وفاز بالطيّبات الفاتِكُ اللَّهِج

أشكو إلى الله همًّا ما يفارقنى * وشُرَّعًا فى فؤادى الدهرَ تعتلج

وقال يهجو عبيد الله بن قزعة :

خليلَىَّ من كَعْبٍ أعِينا أخاكما * على دهره إن الكريمَ مُعِينُ

كأن عبيد الله لم يلْقَ ماجدا * مخافةَ أن يرجو نداه حزين

ولا تَبْخلا بُخْلَ ابن قزعة إنه * ولم يَدْر أن المكرمات تكون

فقل لأبى يحيى متى تُدْرِكُ العلا * وفى كل معروف عليك يمين

اذا جئتَه فى حاجةٍ سَدّ بابه * فلم تلقَه إلّا وأنت كمين

وفد على خالد بن برمك فأنشده :

أخالدُ لم أخبِطْ[2] اليك بذمّة * سوى أننى عافٍ وأنت جَوادُ

أخالدُ بين الأجرِ والحمد حاجتى * فأيهما تأتى فأنت عِمادُ

---

(١) العانة : القطعة من الحمير . والجأب : ذكرها ، ومعنى شكواها الصدى بأبصارها أن العطش قد تبين فى أحداقها مفارت ، وهذا من أحسن ما وصف به الحمار والأتن . (٢) أى لم اطلب معروفك متوسلا اليك بعهد أو قرابة .

فإن تُعطنى أُفرِغ عليك مدائحى * وإن تأب لم يُضرب علىّ سِداد
ركابى على حَرْف[1] وقلبى مشيَّعٌ * ومالى بأرض الباخلين بلاد
اذا أنكرتنى بلدةٌ أو نكِرتُها * خَرجت مع البازى علَىّ سَواد

فدعا خالد بأربعة آلاف دينار فى أربعة أكياس، فوضع واحدا عن يمينه، وواحدا عن شماله، وآخر بين يديه، وآخر خلفه، وقال : يا أبا معاذ، هل آستقلّ العِماد؟ فلمس الأكياسَ ثم قال: استقلّ والله أيها الأمير .

قال أبَان بن عبد الحميد : نزل فى ظاهر البصرة قوم من أعراب قَيْس بن عَيْلان ، وكان فيهم بيان وفصاحة، فكان بشّار يأتيهم وينشدهم أشعارَه التى يمدح بها قيسا، فيجلّونه لذلك ويعظّمونه، وكان نساؤهم يجلسن معه ويتحدثن اليه وينشدهن أشعارَه فى الغزل، وكنت كثيرا ما آتى فى ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم، فأتيتُهم يوما فاذا هم آرتحلوا، فجئتُ الى بشّار فقلت : يا أبا معاذ: أعلِمتَ أن القوم قد آرتحلوا؟ قال: لا، فقلتُ: فاعلم، قال: قد علمت لا علمتَ، ومضيتُ، فلما كان بعد ذلك بأيام سمعتُ الناسَ ينشدون :

دعا بفراق من تَهْوَى أبَانُ * ففاض الدمعُ وآحترق الجَنانُ
كأن شرارةً وقَعت بقلبى * لها فى مقلتى ودَمى آستِنَانُ
اذا أنْشَدْتُ أو نَسَمَتْ عليها * رِياحُ الصّيف هَاج لها دُخَانُ

فعلمت أنها لبشّار، فأتيتُه فقلت : يا أبا معاذ، ما ذنبى اليك ؟ قال: ذنبُ غراب البيْن، فقلت : هل ذكرتنى بغيرهذا ؟ قال : لا ، فقلتُ : أُنْشِدك اللهَ ألّا تزيد ، فقال : آمض لشأنك فقد تركتُك .

مدح بشّار المهدىَّ فلم يُعْطه شيئا ، فقيل له : لم يَسْتَجِدْ شعرَك ، فقال : والله لقد قلتُ فيه شعراً لوقيل فى الدهر لم يُخْشَ صَرْفُه على أحدٍ، ولكنّا نكذب فى القول فيكذب فى الأمل .

(١) الحرف : الناقة المهزولة

مدح بشار سليمانَ بن هشام بن عبد الملك ، وكان مقيما بحرّان وخرج اليه، فأنشده قوله فيـه :

نأتك على طول التجاوُرِ زينبُ * وماشعرتْ أنالنوى سوف تَشْعَبُ
يرى الناسُ ماتلق بزينب إذ نأتْ * عجيبـا وما تُخفِى بزينب أعْجَب
وقائلةٍ لى حين جدّ رحيلُنـا * وأجفانُ عينيها تجـودُ وتسكُبُ
أغادٍ الى حرّان فى غير شيعةٍ * وذلك شأوٌ عن هواهـا مُغَرِّب
فقلتُ لهـا كلفتِنى طلبَ الغنى * وليس وراء ابن الخليفة مَذْهَب
سيكفِى فتىً من سَعْيه حدُّ سيفه * وكَوْرٌ عِلافِىٌّ[(١)] ووجنـاء ذِعْلِب[(٢)]
اذا اسْتَوْغَرتْ دارٌ عليه رمَى بها * بناتَ الصُّوَى منها رَكُوبٌ ومُصْعَب
فَعـدِّى الى يوم ارتحلت وسائلى * بزَوْرك والرحّالُ من جاء يَضْرِب
لعلّك أن تَسْتيقنى أن زَوْرتى * سليمانَ من سير الهواجر تُعْقِب
أغرّ هشامىّ القنـاةِ اذا انتمى * نَمَتْــه بُدُورٌ ليس فيهنّ كوكب
وما قَصَدتْ يومًا لخيلين خيلُه * فتُصْرَف إلا عن دماء تَصَبَّبُ

فوصلـه سليمان بخمسة آلاف درهم، وكان يُبَخّل، فلم يرضَها وانصرف عنـه مُغْضَباً، فقال :

إن أمس منقبض اليدين عن الندى * وعن العـدو مخيّس الشيطان
فلقـد أروح على اللئام مسلّطًا * ثَلِج المقيـل منعّم النّـدْمان
فى ظل عيش عشـيرة محمـودة * تَنْـدَى يدى ويُخَاف فَرْط لسانى
أزمان خيّبنى الشـبابُ مطاوع * وإذ الأمـيرُ علىّ من حرّان
ريم بأحْـوِيَة العـراق اذا بدا * برقت عليـه أكِـلّةُ المَرْجان
فاكحَـلْ بِعَبْدة مقلتيك من القَذَى * وبِوَشْـك رؤيتهـا من الهَمَلان
فلقــربُ من تهْـوى وأنت متيمٌ * أشـفَى لداِئك من بنى مروان

(٢)

قدِم بشّار على المهدىّ بالرصافة فدخل عليه فى البستان، فأنشده مديحا فيه تشبيب حسن، فنهاه عن التشبيب لِغَيْرة شديدة كانت فيه، فأنشده مديحا يقول فيه :

كأنما جئته أبشّره * ولم أجئ راغبا ومحتلبا
يزين المنبر الأشمّ بعطفيه * وأقواله إذا خطبا
تُشَمّ نَعلاه فى النّدِىّ كما * يُشَمّ ماءُ الريحان منتهَبا

قال : وقد طلب منه أن يُنشده شيئا من غَزَله :

وقائلٍ هات شَوِّقْنا فقلتُ له * أنائمٌ أنتَ ياعمرو بن سَمْعان
أما سمعتَ بما قد شاع فى مُضَرٍ * وفى الحليفَيْن من بكرٍ وقحطان
قال الخليفةُ لا تَنْسِبْ بجارية * إيّاك إيّاك أن تَشْقَى بعصيان

وقال له المهدىّ : قل فى الحب شعرا ولا تُطل، وآجعل الحبّ قاضيا بين المحبّين لا تُسَمّ أحدا، فقال :

آجعل الحبَّ بين حِبّى وبينى * قاضِيا إننى به اليوم راضِ
فاجتمعنا فقلت يا حِبَّ نفسى * إن عينى قليلةُ الإغماض
أنتَ عذّبتنى وأنحلت جسمى * فآرحم اليوم دائمَ الأمراض
قال لى لا يَحِلّ حكمى عليها * أنتَ أولى بالسّقم والإعراض
قلتُ لما أجابنى بهواها * شَمِلَ الجورُ فى الهوى كل قاض

فبعث اليه المهدىّ : حكمتَ علينا ووافقنا ذلك، فأمر له بألف دينار .

وقال بشّار فى عشق السَّمْع :

يا قومُ أُذْنى لبعض الحى عاشقةٌ * والأذنُ تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمَنْ لا تَرى تَهْذِى فقلتُ لهم * الأذنُ كالعين تُوفِى القلبَ ما كانا
هل من دواء لمشغوفٍ بجارية * يَلْقى بلُقيانها رَوْحا وريحانا

وقال فى مثل ذلك :

قالت عُقَيْلُ بن كعب إذ تعلقها * قلبى فأضحى به من حبها أثرُ

أنّى ولم ترها تهـذى فقلتُ لهم * إن الفـؤاد يَرى مالا يرى البصرُ

أصبحتُ كالحائم الحيران مجتنباً * لم يقض وِرداً ولا يُرجَى له صَدَر

وقال :

يزهّدُنى فى حبّ عَبدة مَعشَرٌ * قلوبُهم فيها مخالفةٌ قلبى

فقلتُ دعوا قلبى وما اختار وارتضى * فبالقلبِ لا بالعين يُبصرذُو الحبّ

فما تبصر العينان فى موضع الهوى * ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

وما الحسنُ إلا كلّ حسن دعا الصبا * وألّف بين العشق والعاشق الصبّ

وقال :

يا قلب مالى أراك لا تقِـرُ * إيّاك أعنى وعنـدك الخبَرُ

أذعت بعد الألى مضوا حُرَقاً * ما ضاع ما استودَعُوك إذ بكَروا

وقال :

إن سُلَيمى واللهُ يكلؤها * كالسُّكر يزداد على السُّكْر

بلّغتُ عنها شكلا فأعجبنى * والسَّمعُ يكفيك غَيْبةَ البَصَر

وقال وقد مدح المهدىَّ فحرمه :

خليلىّ إن العُسْرَ سوف يُفيق * وإن يسارا فى غد لخليق

وما كنتُ إلا كالزمان اذا صحا * صحوتُ وإن ماق(١) الزمان أموق

أأدْمَاء لا أسطيع فى قلّة الثرا * خُزُوزاً ووَشْياً والقليل محيق

خذى من يدى ما قل إن زماننا * شَمُوسٌ ومعروفُ الرجال رقيق

لقد كنتُ لا أرضى بأدنى معيشةٍ * ولا يشتكى بخلاً علىّ رفيق

(١) ماق : حمق فى غباوة

خليلىّ إن المال ليس بنافع * اذا لم ينل منه أخٌ وصديق
وكنتُ اذا ضاقت علىّ مَحَلَّة[1] * تيممتُ أخرى ما علىّ تضيق
وما خاب بين الله والناس عامل * له فى التقى أو فى المحامد سُوق
ولا ضاق فضلُ الله عن متعفّف * ولكن أخلاقَ الرجال تَضيق

هجا بشّار يعقوب بن داود وزير المهدىّ فقال :

بنى أميّةَ هُبّوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داوُد[2]
ضاعَتْ خلافتُكم ياقوم فالتمسوا * خليفةَ الله بين النّاى والعُود

فاتهمه عند المهدىّ بالزندقة وقال : إنّه قد هجا المهدىّ ، فأمر ، فضُربَ بالسياط حتى مات

(١) المحلة : منزل القوم . (٢) أصله من الموالى ، وقد استوزره الخليفة المهدى وسلمه الأمور كلها واشتغل هو باللهو .

٢ ــ حماد عجرد[١]

«ولو أنى أحببتُ أن أشخص حمادا[٢] لوصفتُه قبل كل شىء بحدّة الطبع، وسُوءِ الخُلُق، وحب الانتقام، والإسراع إليه، ثم بالصراحة فى القول، والملاءمة بينه وبين العمل، وبكُرهِ النفاق والانصرافِ عنه، لا يَعنِيه أرَضِى الناسُ عنه أم سخِطوا عليه، ثم بحدّةِ اللسانِ ومُضيِّه وإقذاعه وكَلَفِه بفاحش القول وبحثِه عن أسوئِه وأقبَحِه، ثم بالسُّخرِيَة من الناس وازدرائهم، لا على أنه يتخذُ ذلك فلسفةً وأصلًا من أصول الحياة كالوليد ومُطِيع وأبى نُوَاس، بل على أنه يتخذُ ذلك وسيلةً من وسائل الشعراء يتخلّص بها كلّما ضاقتْ عليه المذاهبُ وأخذَتْ عليه، أو دعتْه إلى ذلك حاجةٌ. لم يكن حمادٌ يحفِلُ بما يحفِلُ به الناسُ من الوفاء والانصرافِ عن التناقُضِ، وإنما كان صديقًا مُخلِصا حتى تبدو له حاجة أو تَسنَح له فرصةٌ أو تضطّره ضرورةٌ، فإذا صَداقتُهُ قد استحالتْ إلى عَداء، وإذا هو ليس أقلّ صِدقًا وإخلاصًا فى العَداء منه فى المودة والحُبّ: فقد مدح يحيى بن زياد واتّخذه صديقًا ونال جَوائِزَه، ثم كان الخِلافُ فهجاه. وصادَق بشّارا وصافاه، ثم اختصما فلم يعرِفا فى الخصومة رحمة ولا رِفقًا. وصافَى مُطيعًا وأحبَّه ومَدحَه وأكثر فى الثناء عليه، ثم اختَصَما فى امرأةٍ مَرّةً وفى غلامٍ مرّةً أخرى، فهَجاه وأقذَع فى هجائه. وكان على هذا كلّه يؤثر شعره وضروراته على البِرّ بالناس فى معاملتهم: هجا ذاتَ يومٍ رجلا يقال له حُشَيْشٌ وجعل اسمَه قافيةً لهذا الشعر وأراد أن يبالغ فى ذَمّه فشبَّهه بحُبَيْش، وكان حُبَيشٌ هذا رجلًا من أهل البَصْرة

(١) هو حماد بن يحيى بن عمرو مولى عامر بن صعصعة. نشأ فى الكوفة ثم واسط. وعاصر الدولتين، لكنه نبغ فى الدولة العباسية بعد أن نادم الوليد بن يزيد الأموى. وجاء بغداد أيام المهدى ومعه مطيع بن إياس ويحيى بن زياد، وكلهم من المتهمين فى دينهم. وحماد من الشعراء المجيدين، وكان ماجنا ظريفا خليعا متهما فى دينه مرميا بالزندقة. وأدرك بشار بن برد وله معه أهاج فاحشة، ولم يكن يهاب كبيرا ولا صغيرا، عالما كان أو خليفة. توفى سنة ١٦١ هـ. وتجد ترجمته فى الأغانى (ج ١٣ ص ٧٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١٦٥) والشعر والشعراء (ص ٤٩٠) والفهرست (ص ٩١).

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وادِعًا لا يعرِف حمّادًا ولا يعرفه حمّادٌ، فلما قرأ الرجلُ هذا الشعرَ جزِع له وسافر من البصرة حتى بلغ الكوفةَ فعاتَب حمّادًا، فقال له حماد ضاحِكًا معتذِرًا: لا بأسَ عليك فإن هذا من آثام القافية ولن أعود إليه».

وكان السبب فى مُهاجاةِ حمّاد وبشّار أن حمّادًا كان نديمًا لنافِع بن عُقْبة، فسألَه بشّار تنجيزَ حاجة له من نافع فأبطأ عنها، فقال بشّارٌ فيه:

مَوَاعِيـدُ حمّادٍ سَماءٌ مُخيلةٌ * تكشَّفُ عن رَعْدٍ ولكن ستبرُقُ
اذا جئته يوما أحالَ على غَدٍ * كما وعَدَ الكمّون ماليس يَصْدُق
وفى نافع عنّى جَفاءٌ وإنّنى * لأُطْرِقُ أحيانًا وذو اللبّ يُطرِق
ولِلنَّقرى[1] قومٌ فلو كنتُ منهمُ * دُعيتُ ولكن دُونِىَ البابُ مُغْلَق
ومازلت أستأنيك حتى حَسَرْتَنى * بوَعْدٍ كجارى الآلِ يَخفَى ويَخْفق

فغضِب حمّادٌ وأنشَد نافعًا الشعرَ فمنع بشارا، فقال بشّار:

أبا عُمَرٍ مافى طِلابِيكَ حَاجةٌ * ولا فى الذى منّيْتنَا ثم أضْجَرا
وعَدتَ فلم تَصْدُق وقلتَ غدًا غدًا * كما وعَد الكمّون شربًا مؤخّرا

فكان ذلك سببَ التهاجى بين بشّار وحمّاد . وكان بشّارٌ يرمى حمادًا بالزندقة، وفى ذلك

ابن نِهْيٍ رأسٌ علىّ ثقيلٌ * واحتمالُ الرءوس خطبٌ جليلُ
أُدْعُ غيرى إلى عِبَادةِ الاثنيـ * ـن فإنى بواحدٍ مشغولُ
يابنَ نِهْيٍ بَرِئتُ منك إلى الله * جِهارًا وذاك منّى قليل

فأشاع حمّادٌ هذه الأبيات لبشّار، وجعل فيها مكان: « فإنى بواحدٍ مشغول » « فإنى عن واحد مشغول » ليصحّ عليه الزندقة والكفر بالله تعالى . فما زالت الأبياتُ تدور فى الناس حتى انتهتْ الى بشّار، فاضطرب منها وجزِع وقال: أشاط ابنُ الفاعِلةِ بدَمِى، واللهِ ما قلتُ إلا « فإنى بواحد مشغول » فغيّرها حتى شُهِرتْ فى الناس .

(١) النقرى: الدعوة الخاصة

كان رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حمّاد وبشار على آتفاقٍ منهما وَرِعًا بأن ينقُل الى كل واحد منهما وعنه الشعرَ، فدخَل يومًا الى بشّار فقال له : إيه يا فلانُ، ما قال آبن الفاعلة؟ فأنشَدَه :

إن تَاه بشّارٌ عليكم فقد * أمكنتُ بشّارًا من التِّيهِ

فقال بشّار : بأىّ شىءٍ ويحك؟ فقال :

وذاك إذ سمّيتُه باسمه * ولم يكن حُرًّا نُسَمِّيه

قال : سَخِنَتْ عينُه، فبأىّ شىء كنتُ أُعْرَف! إيه، فقال :

فصار إنسانًا بِذِكرى له * ما يبتغى من بعد ذِكْرِيه!

فقال : ما صَنَع شيئًا، إيه ويحك! فقال :

لم أهْجُ بشّارًا ولكنّنى * هجوتُ نفسى بِهِجَائِيه

فقال : على هذا المعنى دار وحوله حام . وتمامُ الأبيات :

لم آتِ شيئًا قطّ فيما مضى * ولستُ فيما عشتُ آتيه
أسوأ لى فى الناس أُحْدُوثَةً * من خَطَأ أخطأتُه فيه
فأصبح اليومَ لِسَبِّى له * أعظمَ شأنًا من مَوَالِيه

وقال بشّارٌ لراويةِ حمّاد : ما هجانى به اليومَ حمّاد؟ فأنشده :

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عنّى الـ * ـذى والِدُه بُرْدُ

فقال : صَدق آبنُ الفاعلة فما يكون ؟ فقال :

إذا ما نُسِبَ الناسُ * فلا قَبْلٌ ولا بَعْدُ

فقال : كذَب، أين هذه العَرَصاتُ من عُقَيْلٍ! فما يكون؟ فقال :

وأعمَى قَلْطَبَانٌ[1] ما * على قاذِفه حَدُّ

(١) القلطبان : الذى لا يغار.

فقال : كذب، بل عليه ثمانون جَلْدَةً، هيه، فقال :

وأعمى يُشْـبِهُ القِرْدَ * إذا ما عَمِيَ القِـرْدُ

فقال : والله ما أخطأ حين شبهني بِقِردٍ ، حَسْبُكَ حَسْبُكَ ! ثم صفق بيديه وقال ما حيلتي ! يراني فيُشَبّهني ولا أراه فأُشبّهه . وتمامُ الأبيات :

دَنِيٌّ لم يَـرُحْ يومًا * الى مَجْـدٍ ولم يَغْـدُ
ولم يَحْضُر مع الحُضّا * رِ في خَيْرٍ ولم يَبْـدُ
ولم يُخْشَ لـه ذَمٌّ * ولم يُـرْجَ له
جرى بالنَّحْس مُذْ كان * ولم يَجْـرِ له سَـعْد
هو الكلبُ اذا مات * فلم يُـوجَد له فَقْـد

وقال عليّ بن مَهْدِيّ : أجمعَ علماء البصرة أنه ليس في هِجاءِ حمّاد عَجْرد لبَشّار إلا أربعون بيتًا معدودة، ولبشّار فيه من الهجاء أكثرُ من ألف بيتٍ جيّد . وكلُّ واحدٍ منهما هو الذى هتّك صاحبَه بالزّندقة وأظْهَرها عليه، وكانا يجتمعان عليها، فسقَط حمّادٌ وهُتِك بفضل بلاغة بشّار وجَوْدة معانيه، وبَقِي بشّار على حاله لم يسقُط، حتى عُرِف مذهبُه في الزندقة فقُتِل به .

ومن أغلَظ ما هجا به حمّادٌ بشّارًا :

نَهَـارُه أخبثُ من ليـله * ويومُه أخبثُ من أمْسِه
وليس بالمُقْلِـعِ عن غَيِّه * حتى يُوارَى في ثرَى رَمْسِه

كان حمّادٌ صديقا ليحيي بن زِياد ، فأظهر يحيي تورُّعًا وقراءةً ونُزُوعًا عمّا كان فيه وهجر حمادًا وأشباهَه، فكان اذا ذُكِر عنده ثَلَبَه وذكَر تهتُّكه ومُجونه، فبلَغ ذلك حمادًا فكتبَ اليه :

هَلْ تذكُرنْ دَلجي اليـ * ـك على المُضَمَّرَةِ القِلَاصِ
أيامَ تُعطِيـني وتأ * خُذُ من أباريق الرَّصاصِ
إن كان نُسْكُكَ لا يَتِـ * ـمُّ بغير شَتْمِي وانتقاصي
أو كنتَ لستَ بغيرِ ذا * ك تنَـال منزلةَ الخَلاصِ

فعليــك فاشتُم آمِنًـا * كلّ الأمان من القِصَاص
واقعُــد وقُم بى ما بدا * لك فى الأدانى والأقاصى
فلطـالمـا زَكَّيْتَنِى * وأنا المقيـمُ على المعاصى
أيامَ أنتَ اذا ذُكِـر * تُ مُناضِلٌ عـنّى مُنَاصى (١)
وأنا وأنتَ عـلى ارتكا * بِ الموبِقات من الحِراص
وبِنـا مَوَاطِنُ ما بنا * فى البِرّ آهِـلَةُ العِـرَاص

فاتّصل هذا الشعرُ بيحيى بن زِياد، فنَسَب حمّادا الى الزندقة ورماه بالخروج عن الإسلام؛ فقال حمّاد فيه :

لا مُؤمِنٌ يُعْـرَفُ إيمانُه * وليس يحيى بالفتى الكافِرِ
منـافقٌ ظاهِرُه ناسِـكٌ * مخالِفُ الباطِنِ للظاهِر

كان حمّادٌ صَدِيقا لحُرَيْث بن أبى الصَّلْت الثَّقَفِى، وكان يَعيبُه بالبخل، وفيه يقول :

حُرَيْثُ أبو الفَضلِ ذو خِبْرةٍ * بما يُصْلِـحُ المَعِدَ الفاسده
تَخَوَّفَ تُخْمَـةَ أضيـافِه * فعوّدهمْ أكْلَةً واحـده

ومن قوله :

ألا قُل لعبد الله إنّك واحِـدٌ * ومثلُك فى هذا الزمان كثيرُ
قطعتَ إخائى ظالِمًا وهجَرْتَنى * وليس أخى من فى الإخاء يَجور
أُديم لأهـل الوُدّ وُدّى وإنّنى * لمن رام هَجْرِى ظالِمًا لَمَجُـور
ولو أن بَعْضِى رَابَنى لقطعتُـه * وإنى بِقَطْع الرائبين جَـدِير
فلا تَحْسَبَنْ مَنْحِى لك الودَّ خالِصا * لعِـزٍّ ولا أنّى إليـك فقـير
ودونَك حَظّى منك لستُ أُرِيده * طَوَالَ الليـالى ما أقام ثَبِـير (٢)

(١) مناص : مدافع، من قولهم ناصاه مناصاة : أخذ كل بناصية صاحبه . (٢) ثبير : اسم جبل

كان حمّادٌ صديقا لحفص بن أبى بُردة ، وكان حفصٌ أعمش أفطس أعضب مُقبح الوجه، فاجتمعوا يوماً على شرابٍ وجعلوا يتناشدون ويتحدّثون ، فأخذ حفصٌ يطعن على مُرقّش ويعيبُ شعره ويُلحّنه، فقال له حمّاد :

لقد كان فى عينيك يا حفصُ شاغلٌ * وأنفٍ كثيلِ(١) العَوْدِ عما تتبّعُ
تتبّعُ لحنًا فى كلام مُرقّش * ووجهك مبنىٌّ على اللحن أجمع
فأذناك إقواءٌ وأنفك مُكفأٌ * وعيناك إيطاءٌ فأنت المُرقّعُ

ومن قوله :

إنّى أحبّك فاعلمى * إن لم تكونى تعلمينا
حبًّا أقلّ قليله * بجميع حبّ العالمينا

وأنشد بشّارٌ قولَ حمّاد عجرد :

أخى كُفّ عن لومى فإنّك لا تدرى * بما فعل الحبُّ المبرّح فى صدرى
أخى أنتَ تلحانى وقلبك فارغٌ وقلبىَ مشغولُ الجوانح بالفِ
دوائى ودائى عند من لو رأيته يقلّبُ عينيه لأقصرت عن زجرى
فأقسم لو أصبحتَ فى لوعة الهوى * لأقصرتَ عن لومى وأطنبتَ فى عُذرى
ولكن بلائى منك أنّك ناصحٌ * وأنك لا تدرى بأنّك لا تدرى

فطرب بشّارٌ ثم قال: ويلكم أحسن والله! مَنْ هذا؟ قالوا: حماد عجرد، قال: أوّه وكتمتمونى والله بقيّة يومى لهمٌّ طويل ، والله لا أطعمُ بقيّة يومى طعاما، ولأصومنّ غمًّا بما يقول النّبطىّ مثل هذا .

قال محمدُ بن الفضل السَّلولىّ: لقيتُ حماد عجرد بواسط وهو يمشى وأنا راكبٌ، فقلتُ له : انطلق بنا الى المنزل،فإنى الساعةَ فارغٌ لنتحدّث، وحبستُ عليه الدابّة، فقطع شُغلٌ عرض لى لم أقدر على تركه، فمضيتُ وأنسيتُه، فلما بلغتُ المنزل خفتُ شرّه فكتبتُ اليه :

(١) الثيل : وعاء قضيب البعير، و

أبا عُمَــرَ اغْفِرْها هُـدِيتَ فإنّنى * قـد أذنَبْتُ ذَنْبًا مخطئًا غيرَ عامِد
فلا تَجِدَنْ فيــه علىّ فإنّنى * أُقِرّ بإجْـرامى ولستُ بعائد
وهَبْــه لنا تفْـديك نفسى فإنّنى * أرى نِعْمَةً أن كنتَ لستَ بواجِد
وعُدْ منك بالفضل الذى أنتَ أهلُه * فإنك ذو فضــلٍ طَريفٍ وتَالد

فأجابنى عن الأبيات :

محمّدُ يا أبا الفضــلِ يا ذا المحامِدِ * ويا بهجةَ النادى وزَيْنَ المَشاهد
وحقّك ما أذنبتَ منذ عرفتَنى * على خطأ يوما ولا عَمْدِ عامد
ولو كانَ ما ألفيتنى متسرّعا[1] * اليك به يومًا تَسَرَّعَ واجِــد
ولو كان ذو فضلٍ يُسَمّى لفضله * بغير اسمــه سُمّيتَ أمّ القلائد

فبينا رقعتُه فى يدى وأنا أقرؤها اذ جاءنى رسولُه برقعة فيها :

قد غفَرْنا الذنبَ يا ابنَ الـ * ـفضــلِ والذنبُ عظيمُ
ومُسِيءٌ أنتَ يا ابن الـ * ـفضــلِ فى ذاك مُليمُ
حين تخشانى على الذن * ـبِ كما يُخْشَى اللئيمُ
ليس لى إن كان ما خِفْـ * ـتَ من الأمرِ حريمُ
أنا واللهِ ولا أفـ * ـخَرُ للغيظ كَظُوم
وبأصحابى ولا ريـ * ـبَــةَ بَرٌّ ورحــيم
وبما يُرْضِــيهمُ عنّـ * ـى ويُرضِينى علــيم

كان عثمان بن شَيْبَةَ مُبَخَّلا وكان حمّاد يهجوه ، فجاء رجل كان يقول الشعرَ الى حماد فقــال له :

أُغنّى من غِنَاك ببيْت شِـعْرٍ * على فقرى لعثمان بن شــيبه

فقــال :

فإنك إن رَضِيتَ به خليــلًا * ملأتَ يديْك من فقر وخَيْبه

(١) أى لو كان لك ذنب ما صادفتنى مسرعا اليك بالمكافأة

فقــال له الرجل : جزاك اللهُ خيرا فقــد عرّفتنى من أخلاقه ما قطعنى عن مدحه وصنت وجهى عنه .

لمـا مات محمدُ بن أبى العباس طلب محمد بن سليمان حمادَ عجرد لمـا كان يقوله فى أخته زينب من الشعر ، فعلم أنه لا مُقامَ له معه بالبصرة ، فاستجار بقبر أبيه سليمان بن على وقال فيه :

مِنْ مُقِرٍّ بالذنب لم يُوجِب الله * ـهُ عليه بِسَيِّئٍ إقرارا
ليس إلا بفضل حلمك يعتـ * ـدّ بلاءً وما يعُـدّ اغترارا
يا ابنَ بنتِ النبيّ أحمدَ لا أجـ * ـعَلُ إلا اليـك منـك الفِرارا
غيرَ أنى جعلتُ قبرَ أبى أيو * بَ لى من حوادث الدهر جارا
وحَرِىٌّ من استجار بذاك الـ * ـقبرِ أن يأمَنَ الردى والعِثارا
لم أجِد لى من العِباد مُجِيرا * فاستجرتُ الترابَ والأحجارا
لستُ أعتاضُ منك فى بُغْيَةِ العـزّة قحطانَ كلَّها أو نِزارا
فأنا اليومَ جارُ من ليس فى الأر * ضِ مُجيرٌ أعزُّ منه جِوارا
يا ابنَ بنتِ النبيّ يا خيرَ من حطّـ * ـتْ اليه الغواربُ الأكوارا
إن أكن مذنِبًا فأنتَ ابنُ من كا * نَ لمن كان مذنِبًا غفّارا
فاعْفُ عنّى فقد قدَرْتَ وخيرُ الـ * ـعفو ما قلتَ : كُن ، فكانَ اقتِدارا
لو يُطيـلُ الأعمـارَ جارٌ لعزٍّ * كان جارى يُطوّل الأعمارا

فقـال : والله لأُبلّنّ قبرَ أبى من دمه ، فهرب حمّاد إلى بغـداد ، فعاذ بجعفر بن المنصـور فأجاره ، وقال : لا أرضى أو تهجوَ محمد بن سليمان ، فقال يهجوه :

قل لوَجْه الخَصِىّ ذى العار إنى * سوف أُهدى لزينبَ الأشعارا
قد لَعَمْرِى فررتُ من شدّة الخو * فِ وأنكرتُ صاحِبىَّ نهارا
وظننتُ القبورَ تمنـع جارًا * فاستجرتُ الترابَ والأحجارا

كنتُ عند آستجارتى بابى أيّو ... ب أبغى ضلالةً وخسارا
لم يُجِرْنى ولم أجِد فيه حظًّا ... أضرم اللهُ ذلك القبر نارا

فبلغ هجاؤه محمدَ بن سليمان فقال : والله لا يُفلِتُنى أبدا ، وإنما يزداد حَتْفًا بلسانه! ولا والله لا أعفو عنه ولا أتغافل أبدا .

ومن قوله :

إن الكريمَ ليُخْفِى عنك عُسْرَته ... حتى تراه غنِيًّا وهو مجهود
وللبخيلِ على أمواله عِلَلٌ ... زُرْقُ العيون عليها أوجُهٌ سُود
إذا تكرّمتَ أن تُعطى القليلَ ولم ... تَقدِر على سَعَةٍ لم يَظهَرِ الجُود
أَبْرِقْ بخير تُرَجَّى للنوال فما ... تُرجَى الثمارُ إذا لم يُورِقِ العُود
بُثَّ النوالَ ولا تَمنَعْك قِلَّتُه ... فكُلُّ ما سَدّ فقرًا فهو محمود

وقال أيضا

كَمْ من أخٍ لك لستَ تُنكِرُه ... ما دمتَ من دنياك فى يُسْر
مُتَصنِّعٍ لك فى مَوَدَّته ... يلقاك بالترحيب والبِشْر
يُطرِى الوفاءَ وذا الوفاء ويَلْ ... حَى الغَدْر مجتهدا وذا الغدر
فإذا عدا ، والدهرُ ذو غِيَرٍ ، ... دهرٌ عليك عدَا مع الدهر
فارفُضْ بإجمالٍ مودّةَ مَنْ ... يَقْلِى المُقِلَّ ويَعشَقُ المُثرِى
وعليك مَنْ حالاه واحدةٌ ... فى العُسر إمّا كنت واليسر
لا تَخلِطَنَّهمُ بغيرهمُ ... مَنْ يَخلِطُ العِقيانَ بالصُّفْر!

وهو القائل فى محمد بن طلحة :

زرتُ امرأً فى بيته مرّةً ... له حياءٌ وله خِيرُ
يكره أن يُتْخِمَ إخوانَه ... إنّ أذى التُّخْمةِ محذور
ويشتهى أن يُؤْجَروا عنده ... بالصَّوم والصائمُ مأجورُ
يا ابنَ أبى شُهْدةَ أنتَ امرؤٌ ... بصحّةِ الأبدان مسرور

وهو القائل فى محمد بن أبى العباس السفاح :

أرجوك بعد أبى العباس إذ بانا * يا أكرمَ الناس أعراقا وأغصانا
لو مجّ عودٌ على قــوم عُصارتَه * لمجّ عودُك فينا المِسك والبـانا

قيل : إن حمادا مضى الى الأهواز ، فأقام هناك مُستترا ، وبلغ محمدا خبرُه فأرسل مولى له الى الأهواز، فلم يزل يطلبُه حتى ظفِر به فقتلَه غِيلةً . وقيل : إنه خرج من الأهواز يريد البصرة، فمر بشيراز فى طريقه، فمرض بها، فاضطُر الى المقام بسبب علته، فاشتد مرضُه فمات هناك ودُفِن على تَلعـة . وكان بشارٌ بلغه أن حمادًا عليـلٌ ، ثم نُعِيَ اليه قبل موته ، فقال بشــار :

لو عاش حمّــاد لَهَوْنا به * لكنّه صار الى النّــار

فبلغ هذا البيتُ حمادًا قبل أن يموت وهو فى السِّياق(١)، فقال يردّ عليه :

نُبئتُ بشّارًا نعَــانى ولد * سوءٍ برآنى الخالقُ البارى
يا ليتَنى مِتُّ ولم أهْجُــه * نَعَم ولو صِرتُ الى النّــار
وأى خزى هو أخزى من أن * يُقَــال لى يا سِبَّ(٢) بشّــار

فلما قتل المهدىّ بشارًا بالبَطِيحَة اتّفق أن حُمِل الى منزله ميّتا ، فدُفِن مع حمّاد على تلك التّلعَــة ، فمر بها أبو هِشام الباهِلىّ الشــاعر البصرى الذى كان يُهاجى بشارًا ، فوقف على قبريهما فقــال :

قد تَبِـع الأعمى قفا عجـردٍ * فأصبحا جارَيْــن فى دار
قالت بِقاعُ الأرض لا مَرْحبًا * بقُــرْبِ حمّــادٍ وبشّار
تَجَـاوَرا بَعْــد تَنائيهما * ما أبغضَ الجارَ الى الجار
صــارا جميعا فى يَدَىْ مالِك * فى النارِ والكافرُ فى النار

(١) السياق : الاحتضار . (٢) السب : الكثير السباب .

٣ — مَرْوان بن أبى حَفْصة [١]

« لم يكن مَرْوانُ [٢] متصرِّفا فى فنون الشعر، ولعله لم يَعْدُ منها فنّاً أو فنَّين؛ فلسنا نعرِف له غَزَلا إلا هـذا الغزل الذى تعوّد الشعراءُ أن يبدءوا به مدائحَهم؛ ولسنا نعرف له هجاءً إلا هذا النحوَ من الهجاء الذى يضطر اليه الشعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم . على أنّ موقف مروان كان فى هذا دقيقا جدا، فهو لم يكن ينصُر بنى العباس على بنى أميّة فيبلغُ منهم ما يريد، ويهجوهم فى حُرّية؛ وإنمـا كان السيف هو الذى آنتصر للعباسيين من بنى أمية، وكان العباسيون فى حاجة الى مَن ينصرهم على العَلَويّين وأتباعهم من بنى هاشم، ولم يكن هجاء العلويّين يسـيرا ! كان الدّين يأباه فى ذلك الوقت، وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضا، فالعلويُّون من بنى هاشم وهجاؤهم هجاءٌ للعباسيين؛ ومن هنا سلك مَرْوان وأمثالُه من الشعراء السياسيين الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين مسلكَ الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقَذْف، فكان دفاعهم أبلغ، وكانت مناظراتهـم أحسنَ وقعًا من هجـاء أولئك الشتّامين المسرفين فى الشتم؛ ثم لا نعرف

(١) هو من الشعراء الموالى أصل جده من سبي اصطخر، وكان غلاما اشتراه عثمان بن عفان ووهبه لمروان بن الحكم، وأقام بعدئذ باليمامة، وقد اختلفوا فى حقيقة نسبه . شب مروان على كره الشيعة لأنه من موالى بنى أمية وقد حارب معهم ، وكان شجاعا مجربا ، فلما نبغ فى الشعر قدم بغداد ومدح المهدى ثم الرشـيد ، وكان يتقرب اليه بهجاء العلويين ، وهو من الفحول المقـدّمين ، أوّل من شهره ونوّه به معن بن زائدة الجواد المشهور بقصـيدة نونية مدحه بها ، مطلعها :

معن بن زائدة الذى زيدت به * شرفا على شرف بنو شيبان

ولكنه اشتهر على الخصوص بقصيدة لامية مدح بها معنا مطلعها :

بـــو مطر يوم اللقاء كأنهم * أسود هم فى بطن حفان أشبل

فأجازه عليها بمـال كثير، فكان كلما زاده معن عطاء زاده مروان مدحا . توفى سنة ١٨١ هـ . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٩ ص ٣٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٠) والشعر والشعراء (ص ٤٨١) وخزانة الأدب (ج ١ ص ٤٤٧) والفهرست لأبن النديم (ص ١٦٠) .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لمروان مُجوناً ولا عَبثاً، فلم يكن كما قلنا ماجناً ولا عابثاً وإنما كان بخيلا، والبخل والعبث شيئان لا يتفقان، ومن ضنّ على نفسه باللحم وطيِّبات الطعام لم يستبح لنفسه خمراً ولا ما تستتبعه الخمر. ثم لا نعرف لمروان فخراً وما نحسب أنه فاخر أو مال الى الفخر، فقد كان رجلا عمليًا يَعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة وكان يضنّ بوقته وجُهْده على الفخر الذى لا يفيد. لم يعرِض إذنْ إلا لفنّين اثنين: المدح والرِّثاء، وهو فى المدح أشعر منه فى الرثاء وهذا طَبَعىّ، فهو راغبٌ حين يَمدح، يطلب المال ويحرِص على أن يظفَر به، فمعقولٌ أن يُجيد وأن يبلُغ من الإجادة حظًّا عظيماً؛ أما فى الرثاء فهو لا يرغَب ولا يطلب مالا وإنما يَفِى بعهد ويشكر صنيعة. ومعقولٌ أن موقفه هذا لا يدفعه الى الإجادة إلّا أن يكون حسّاساً دقيقَ الشعور رقيقَ النفس، ولم يكن مروان من هذا كله فى شىء، وإنما كان كما قلتُ لك رجلا عمليّا يريد المال. على أن رثاءه لمَعْنٍ ليس بالردىء وكذلك رثاؤه للهدىّ، وهل نستطيع أن نَعُدّ رثاءه للهدى رثاء! هو مدح لأنه عَزاء للخليفة الجديد، ففيه ذِكر للخليفة الراحل، والثناء على وارثه، وفيه المَثُوبة والعطاء. فهو الى المدح أقرب منه الى الرثاء.

أما مَدْح مروان فمن آيات المدح العربىّ، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرّقات قليلة ولكنها تكفى لنحكم أن مروان كان قد أتقنَ المدح وبَرَع فيه، بل نحسب أنه برّز فى هذا الفنّ على غيره من المعاصرين، ولكنّ مَدْح مروان ينقسم الى قسمين متمايزين:

أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف، وهو موجّه لمعن بن زائدة، فهو يَفْتَنّ فى وصف مَعْن بالجود والكرم والشجاعة والحبّ، ثم يفتنّ فى مدح بنى شَيْبان الذين ينتمى اليهم معن، وهو لا يخرج فى مدحه هذا عن سُنّة الشعراء من قبله، ولكنه جيّد المعانى مُنتقاها، حَسَن الألفاظ صافيها.

وأما القسم الثانى فهو هذا المدح السياسىّ الذى كان يُنْشِده الخلفاءَ من بنى العباس، وهو مدح إن شئتَ ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا النضال السياسىّ

الذى كان يحتاج الى مَهارة وفِطنة ودقّة وخفّة ، والذى كان يضطر صاحبه الى أن يقهر العلويّين دون أن يؤذيهم ، والى أن ينصُر العباسيّين دون أن يزدرى خصومَهم ، وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويّين لا لأنه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد ، بل لأنه كان خصما قويّا عنيدا ماهرا فى الخصام .

ثم هناك شيئان لا بدّ من الإشارة اليهما ليكمُل رأينا فى مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معلّلا إن صحّ هذا التعبير :

الأول : أنّ مروان لم يكن عِراقيّا ولم يرض الإقامة فى العراق ولم يُطِل عِشْرة العراقيّين من أهل المُجون والعَبَث ، وإنما كان من أهل اليمامة أقامَ فيها لا يَبْرَحها إلا وافدا على أمير أو وزير أو خليفة ، فاذا أنشد قصيدته وظَفِر بجائزته عاد الى اليَمامة وأقامَ فيها عَامَهُ ثم آستأنف الرحلة . ولهذا أثرُه فى شعر مروان ، فهو أقربُ الى شعر الجاهليّين والإسلاميّين منه الى شعر المُحْدَثين من شعراء الحضارة العباسيّة ، تقرؤه فتجد عليه هذه المَسْحة التى تخلو أو تكاد تخلو من الدُّعابة والخِفّة ، وتمتاز بشىء من الجلال والرصانة ، يُمثِّل البادية تمثيلا صحيحا ، ولهذا أثرُه من وجهة أخرى ، فقد رضِى علماء اللغة جميعا عن مروان وأحبّوه من هذه الناحية ، وما أشكّ أنا فى أنهم كانوا يودّون لو آستطاعوا إيثاره على بَشّار وأبى نُوَاس ، لأنه كان أقرب منهما الى الأسلوب البدوىّ القديم ، ولكن أنّى لهم ذلك ! وقد سلّط الله عليهم لسان بشار وأبى نواس فاضطروا الى أن يحابُوا هذين الشاعرين ويتملّقوهما ، وأجمعوا أو كادوا يُجمعون على تقديم بشار وإيثاره على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين اذا آتخذنا وِجْهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التى كان يُعْنَى بها علماءُ اللغة وهى وجهة المتانة والرصانة فى اللفظ والأسلوب ، لا يُقَاس الى مروان فى هذا أحدٌ من شعراء العراق ، أما اذا آتخذنا وِجْهةً أخرى للنقد ، اذا آتخذنا آختلافَ الفنون التى طَرَقها الشاعر ، وقُربَ المأخذ ، والدنوَّ من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس الى بَشّار ولا الى أبى نُوَاس بنوع خاص ؛ على أنّ من علماء اللغة من آستطاع أن يكون شجاعا شريفا فى فنّه لا يخاف

ولا يهاب فصَدَقَ نفسَه وصَدَقَ الناسَ، وآثر مروانُ على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالمُ اللغوىّ هو ابن الأعرابىّ الذى ختم الشعر بمروان وأبى أن يدوّن لأحد من المحْدَثين بعده، والذى كان يُنشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيّدة من شعر مروان، وهى :

بنُو مَطَرٍ يومَ اللقاءِ كأنهم * أُسودٌ لها فى بَطْنِ خَفَّانَ أَشْبُلُ

همُ يَمنعون الجار حتى كأنما * لِجارِهمُ بين السِّماكَيْنِ مَنزِلُ

لَهَامِيمُ[1] فى الإسلام سادُوا ولم يكن * كأوّلهم فى الجاهليّة أوّلُ

هُمُ القومُ إنْ قالوا أصابوا وإنْ دُعُوا * اجابُوا وإنْ أَعْطَوْا أَطابُوا وأَجْزَلُوا

ولا يستطيع الفاعلون فَعَالَهم - وإنْ أحسنوا فى النائبات وأجملوا

وكان ابن الأعرابىّ يقول : لو أنّ مَعْنًا أعطى مروان كلّ ما يملك بهذه الأبيات لَمَا بلغ حقه

الثانى : أنّ مروان لم يكن سريعا فى الشعر ولا متعجّلا ولا مسترسلا مع الطبع وإنما كان بطيئا متمهّلا . كان يجيد الشعر لأنه كان يُجَوِّده . كان يسلُك هذه الطريقة التى يزعُم الرُّواة أنّ زُهيرا كان يسلكها فى هذه القصائد التى يُسَمُّونها الحَوْليّات، كان يُنْفق أَشْهُرًا فى إنشاء القصيدة وأشهرا فى إصلاحها وأشهرا فى عَرْضها حتى اذا آستقام له هذا كلُّه أنشد قصيدته لممدوحه خليفةً كان أو وزيرا أو أميرا، فليس عجيبا مع هذه الأَناة أن يخلو شعره مما يُسْتَنكَر وأن يبرأ من الضعف والوحشيّة معا . ولقد يُحَدِّثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء الذين كان يَعْرِض عليهم شعرَه قبل أن يُنْشِده الخلفاءَ . ولستُ أُشير إلّا إلى سيرته مع بَشّار فلها معناها . كان مروان يعرض القصيدة على بشّار ويسأله رأيه فيها فلا يجيبه بشار بأنها جَيِّدة أو بأنها رديئة، بل يُقَدِّر له قيمة القصيدة ماليًّا، فيقول : سيعطونك عليها كذا وكذا ... وقد صدق بشار مرّتين فاظهر له مروانُ العَجَبَ من ذلك، فقال بشار : ألم أقل لك إنى أعلم الغيب! ولم يكن يعلم الغيب،

(١) لهاميم واحدها لهموم، وهو العظيم الكثير الخير .

وإنما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم الميول السياسية التى كان من شأنها أن تُجْزِل حظَّ مروان من العطاء .

كان مروان متناقضا ولكنه تناقُضٌ مفهوم، كان شديدَ الحِرص على الإجادة، فكان يشكّ فى شعره، ويستشير فيه الشعراء والنُّحاة، ولكنّه كان مع ذلك مُعجَبا بنفسه لا يقدِّم عليها أحدا بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجرير . وأسمعْ رأيه فيهم وفى نفسه، فقد عقَدَه شعرا ليَثْبُتَ كما يقول :

ذَهَبَ الفَرَزْدَقُ بالفَخَار وإنَّما * حُلْوُ القَرِيض ومُرُّهُ لِجَرِيرِ
ولقد هَجَا فأمضَّ أخطلُ تَغْلِبٍ * وحَوَى اللُّهَى ببيانه المشهور
كُلُّ الثلاثة قد أجادَ فمدحُه * وهِجاؤه قد سارَ كلَّ مَسِير
ولقد جَرَيتُ فَفُتُّ غير مهلَّل * بجِرَاءٍ لا قَرِفٍ ولا مبهور
إنى لآنف أنْ أُحبِّر مِدْحة * أبدًا لغير خليفة ووزير
ما ضرّنى حَسَدُ اللئام ولم يَزَل * ذو الفضل يَحْسُده ذوو التقصير

أما رأىُ مروان فى النقد فبديع، كان يُنشِد الشعر لامرئ القيس ويقول : هو أشعرُ الناس، ثم ينشد شعر الأعشى ويقول : هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر زهير ويقول : هو أشعر الناس، حتى اذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء، فرآهم جميعا أشعرَ الناس ، قال ضاحكا : الناس أشعر الناس ! ولست أعرف رأيا كهذا الرأى يمثِّل الشك فى نقد الناقدين المعاصرين والسخرية بهذا النقد» .

وننتقل من ذلك الوصف الرائع الى ذكر نبذة صالحة من أخباره وأشعاره .

دخل مروان بن أبى حَفْصة على المهدىّ بعد وفاة مَعْن، فأنشده مديحا فيه، فقال له المهدى : ألستَ القائل :

أقَمْنا باليمامة بعدَ مَعْنٍ * مُقاما لا نُرِيدُ به زَوالَا
وقلنا أين نَرْحلُ بعد مَعْنٍ * وقد ذهب النوالُ فلا نَوالَا

قد ذهب النوال فيما زعمتَ، فلِمَ جئتَ تطلب نوالنا؟ لا شيء لك عندنا . فلما كان من العام المقبل تلطّف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة، فمَثَل بين يديه، وأنشد — بعد رابع أو خامس من الشعراء — :

طَرقَتْكَ زائرةً فحيِّ خيالَها * بيضاءُ تخلِط بالجمال دَلالها
قادتْ فؤادَكَ فاستقادَ ومثلُها * قادَ القلوب الى الصِّبا فأمالها
فكأنّما طَرَقتْ بنفحة رَوْضةٍ * سَحَّت بها دِيَمُ الربيع طِلالَها
باتتْ تسائل فى المنام مُعرِّسًا بالبيدِ أشعث لا يمل سؤالها
فى فِتيةٍ هجعوا غِرارا بعد ما سئموا مُراعَشة السُّرى ومطالها
فكأنَّ حَشْوَ ثيابهم هنديَّةٌ نَحَلتْ وأغفلتِ القُيونُ صِقالَها
وضعوا الخدود لدى سواهم جنَّحٍ تشكو كُلوم صِفاحها وكَلالَها
طَلَبتْ أميرَ المؤمنين فواصلتْ بعد السُّرى بِغُدُوِّها آصالَها
نزعت اليك صواديا فتقاذفتْ تطوِى الفلاةَ حزُونَها ورمالَها
يتبعن ناجيةً يهُزّ مِراحُها * بعد النحول تَلِيلَها(1) وقَذالها
هوجاءَ تَدَّرِع الرُّبا وتَشُقّها * شقّ الشُّموس إذا تُراع جلالَها
تخِدُ(2) إذا دَفَع القَطِيعُ كما نجتْ * خَرجاءُ(3) بادرت الظلامَ رِئالها(4)
كالقوس ساهمةً أتتك وقد تُرى * كالبُرْجِ تملأ رَحْلها وحِبالها

ومنها

أحيا أميرُ المؤمنين محمدٌ * سُننَ النبيّ حرامَها وحلالَها
ملك تَفرّع نبعةً من هاشم * مدّ الإلٰهُ على الأنام ظِلالَها
جَبَلٌ لأمته تلوذ بركنهِ * رَادَى جبالَ عدوّها فأزالَها

(١) التليل : العنق . (٢) تخو : تسرع (٣) الخرجاء : النعامة . (٤) الرئال : فراخ

لم يَغْشَها مما يَخاف عظيمةٌ * إلا أجال لهـا الأمورَ مُجالَهـا
حتى يُفرِّجها أغرُّ مهذّب * ألفَى أباه مُفـرِّجا أمثالَهـا
ثَبْتٌ على زَلَل الحوادث راكبٌ * من صَرْفهنّ لكل حالٍ حالَهـا
كِلتا يديك جَعلتَ فضلَ نوالِها * للمسلمين وللعــدوّ وَبالَهـا
وقعَتْ مواقعها بعفوك أنفسٌ * أذهبتَ بعـد مخافة أوجالَهـا
ونصبت نفسك خيرَ نفس دونَها * وجعلت مالك واقياً أموالَهـا
هـل تعلمون خليفةً مِنْ قبله * أجرى لغايته التى أجرى لَهـا
طلع الدر را عن ساقه بالخيـل مُنْصلِتا يُجِدّ نعالَهـا
قُودٌ تَريع إلى أغرّ لوجهـه * نورٌ يُضيء أمامهـا وخِلالَهـا
قصُرتْ حمائله عليه فقلّصت * ولقـد تحفّظ قَيْنُها فأطالَهـا
حتى إذا وردتْ أوائلُ خيله جَيْحَانَ بثّ على العـدوّ رِعالَهَا[1]
أحمى بلادَ المسلمين عليهـمُ * وأباح سهلَ بلادهم وجبالَهـا
أدمتْ دوابرَ خيله وشكيمَها * غاراتُهن وألحقتْ آطالَهـا
م يبَق بعـد مَغارها وطِرادها * إلا نحائزُهـا[2] وإلا آلهـا
ـ الخليفةَ ناظرىّ ورا، بيـد مباركة شكرتُ نَوالَهـا
وحُسِدتُ حتى قيل أصبح باغيا * فى المشى مُترَف شِيبةٍ مختالَهَا
ولقد حذوتَ لمن أطاع ومن عصى * نعلا ورثتَ عن النبيّ مثالَهـا

فزحَف المهدىّ من صدر مُصلّاه حتى صار على البِساط إعجابا بما سمِـع ، ثم قال : كم هى؟ قال : مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانتْ أول مائة ألف درهم أعطيَها شاعر فى أيام بنى العباس ، وهكذا فعل معه الرشيد لمـا أنشده قصيدته التى يقول فيها :

لعمرك أنسى غَداة المُحَصَّب * إشـارة سَلْمَى بالبنان المُخَضَّب
وقد ـدَر الحُجّاجُ إلّا أقلّهم * مصادرَ شتى مَوْكبا بعد مَوْكب

(١) الرعال : القطع من الخيل واحدها رعلة . (٢) النحائز : الانساع

قال مروان : دخلتَ على المهـدى فى قصر السلام، فلما سلمت عليه وذلك بِعقِب سُخْطه على يعقوب بن داود، فقلت :"يا أمـير المؤمنين، إن يعقوب رجل رَافِضىّ، وإنه سمعنى أقول فى الوِراثة :

أنّى يكونُ وليس ذاك بكائنٍ * لِبَنِى البناتِ وِراثةُ الأعمـامِ

فذلك الذى حمله على عداوتى؛ ثم أنشدته :

كأنّ أمير المؤمنين محمدا * لرأفتـه بالنـاس للناس والدُ

فقال له المهدىّ: والله ما أُعطيك إلا من صُلْب مالى، فاعذِرنى، وأمر لى بثلاثين ألف درهم وكسانى جُبّة ومُطْرَفا، وفرض لى على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفا أخرى .

لمـا قدِم مَعْن من اليمن دخل عليه مروان والمجلس غاصٌّ بأهله، فأخذ بعِضادتَى الباب وأنشأ يقول :

أرى القلبَ أمسى بالأوانس مولَعًا * وإن كان من عهد الصِّبا قد تمتّعا

ويقول فيها :

ولمـا سَرَى الهم الغـريب قريتُـه * قِرَى من ازال الشكَّ عنـه وأزمعا
عزمتُ فعجّلتُ الرحيل ولم أكن * كذِى لُوثة لا يطلع الهـمّ مطلعا
فأمت ركابى أرضَ مَعْنٍ ولم تزل * الى أرض مَعْنٍ حيثما كان نُزّعا
نجائب لولا أنهـا سُخّـرت لنـا * أبتْ عِزّةً من جهلهـا أن تورّعا
كسونا رِحال المَيْس[1] منهـا غواربًا * تَدَارَك فيهـا النَّىُّ[2] صَـيْفا ومَرْبعا
فمـا بلغَتْ صَنْعاءَ حتى تواضعتْ * ذُراها وزال الجهـلُ عنها وأقلعا

الى أن قال :

وما الغيثُ اذ عمّ البـلادَ بصَوْبه * على الناس مِنْ معروف مَعْنٍ بأوسعا
تَدارك مَعْنٌ قبـةَ الدِّين بعـدَ ما * خَشِينا على أوتادها أن تُنَزّعا

(١) الميس : شجر عظيم تتخذ منه الرحال . (٢) النىّ : الشحم .

أقام على الثغــر المخوف وهاشمٌ * تُساقى سِماما بالأسنة مُنقعـا
مُقامَ امرئٍ يأبى سوى الخُطّة التى * تكون لدى غِبّ الأحاديث أنفعا
وما أحجم الأعداءُ عنـكَ بقيـةً * عليكَ ولكنْ لم يَرَوْا فيكَ مَطْمعا
رأَوا مُخْدِرًا قد جرّبوه وعاينـوا * لَدَى غِيلـه منهـم مَجَرًّا ومَصْرَعا
وليس بثانيـه اذا شـدّ أن يَرَى * لدى نحـره زُرْقَ الأسنّة شُرّعا
له راحتان الغيثُ والحتفُ فيهما * أبَى الله إلا أنْ تضُرّا وتنفعـا
لقد دوّخ الأعداءَ مَعْنٌ فأصبحوا * وأمنعُهم لا يدفع الذلَّ مَدْفَعـا
نجيبُ مناجيبٍ وسـيّدُ سادةٍ * ذُرى المجـد من فَرْعَىْ نِزارٍ تفرّعا
لبانتْ خِصال الخير فيه وأَكْملتْ * وما كُملتْ خمسا سِـنُوه وأربعـا
لقد أصبحتْ فى كلّ شرقٍ ومغربٍ * بسـيفك أعناقُ المُريبين خُضَّعا
وطِئتَ خدود الحضرميّين وطأةً * لها هُدّ ركنٌ منهمُ فتَضَعْضَعا
فأقعوا على الأذناب إقعاء مَعْشرٍ * يرون لزوم السِّلْم أبقَى وأَوْدعا
فلو مُدّت الأيدى إلى الحرب كلها * لكفّوا وما مدّوا الى الحرب أصبعا

فقال له مَعْن : احتكم، قال : عشرة آلاف درهم، فقال مَعْن : رَبِحنا عليك تسعين ألفا، قال : أقلنى، قال : لا أقال الله من يُقيلُك .

لما مات المهدىّ وفدت العرب على موسى الهادى يُهنئونَه بالخلافة ويُعزّونه عن المهدىّ، فدخل مروان فأخذ بعضادتَى الباب وقال :

لقد أصبحتْ تختال فى كل بلدةٍ * بقبر أمير المؤمنين المقابرُ
ولو لم تُسَكّن بآبنه فى مكانه * لما بَرِحتْ تبكى عليه المنابرُ

مرض عمرو بن مَسْعدة فدخل عليه مروان وقد أبَلّ من مرضه، فأنشأ يقول :

لك التمحيص والأجر

قال موسى بن يحيى : أوصلنا الى مروان بن أبى حفصة فى وقت من الأوقات سبعين ألف درهم ، وجمع اليها مالا حتى تمت مائةَ ألف وخمسين ألف درهم وأودعها يزيد بن مَزْيَد ، فبينا نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مَزْيَد ، وكانت فيه دُعابة ، فقال : يا أبا علىّ ، أودعنى مروان خمسين ومائة ألف درهم ، وهو يشترى الخبز من البقّال ؛ فغضب يحيى ثم قال : علىّ بمروان ، فأُتى به ، فقال له : قد أخبرنى أبو خالد بما أودعتَه من المـال وما تبتاعه من البقّال ، والله لَمـا يُرَى من أثر البخل عليـك أضرّ من الفقر لو كان بك . ويُروى أنه قال له : والله لَلبخل أسوأ عليك أثرا من الفقر لو صِرْتَ اليه فلا تبخل . وقال عمر بن شَبَّة قال مروان : ما فرِحتُ بشىء قطُّ فرحى بمائة ألف وهبها لِى أمير المؤمنين المهدىّ ، فوزنتها فزادت درهما ، فاشـتريت به لحما . وقال جَهْم بن خَلَف : أتينا اليمـامة فنزلنا على مروان بن أبى حفصة فأطعمنا تمرا وأرسـل غلامَه بفَلْس وسُكُرّجة ليشترىَ زيتـا ، فلما جاء بالزيت قال لغلامه : خُنتَنى ؛ قال : من فَلْس ! كيف أخونك ؟ قال : أخذتَ الفَلْس لنفسك وآستوهبت الزيت . وقال التَّوَّزِىّ : مرّ مروان بن أبى حفصة فى بعض سفراته وهو يريد مَعْنى آمرأة من العرب ، فأضافتـه ؛ فقـال : لله علىّ إنْ وهب لى الأمير مائةَ ألف أنْ أهَب لك دِرْهما ؛ فأعطاه ستين ألف درهم ، فأعطاها أربعة دَوانق . وقال أبو دعامة : آشترى مروان لحما بنصف درهم فلما وضعه فى القدر وكاد ينضَج دعاه صديق له ، فردّه على القَصّاب بنقصان دانق ، فشكاه القصّاب وجعل ينادى هذا لحم مروان ، وظنّ أنّه يأنَف لذلك ؛ فبلغ الرشيد ذلك فقال : ويلك ! ما هذا ؟ فقال : أكره الإسراف .

دخل مروان على موسى الهادى فأنشده قوله فيه :

تَشَابه يومَا بأسِــه ونوالِه * فما أحــدٌ يدرِى لأيِّهما الفضلُ

فقال له الهادى : أيّما أحبّ اليك ؟ أثلاثون ألفا معجّلة ، أم مائةُ ألف تدوّن فى الدواوين ؟ فقال له . يا أمير المؤمنين ، أنت تُحسِن ما هو خير من هذا ، ولكنّك أُنْسِيتَه ، أفتأذن لى أن أذكِّرك ؟ قال : نعم ؛ قال : تُعجِّل لى الثلاثين ألفا وتُدوّن المـائة ألف فى الدواوين ، فضحك وقال : بل يُعجّلان جميعا ، فحُمِل اليه المـال أجمع .

قال محمد النّوفلى : اجتاز مروان برجل من باهلة من أهل اليمامة، وهو يُنشِد قوما كان جالسا اليهم شعرا مدح به مروانَ بن محمد، وأنه قُتِل قبل أن يلقاه ويُنشِده إياه، أوله :

مروانُ يابن محمّد أنتَ الذى * زِيدتْ به شرفا بنو مروانِ

فأعجبته القصيدة، فأمهل الباهلىّ حتى قام من مجلسه، ثم أتاه فى منزله فقال له : إنى سمعت قصيدتك وأعجبتنى، ومروان قد مضى ومضى أهلُه، وفاتك ما قدَّرتَ عنده. أفتبيعُنى القصيدة حتى أنتحلها، فإنه خير لك من أن تبقى عليك وأنت فقير؟ قال : نعم، قال : بكم؟ قال : بثلثمائة درهم، قال : قد ابتعتُها، فأعطاه الدراهم وحلّفه بالطلاق ثلاثا وبالأيمان المُحْرِجة ألّا ينتحلَها أبدا، ولا يَنسُبَها الى نفسه ولا يُنشِدَها، وانصرف بها الى منزله فغيّر منها أبياتا وزاد فيها وجعلها فى مَعْن، وقال فى ذلك البيت :

مَعْنُ بن زائدة الذى زِيدتْ به * شرفا على شرف بنو شَيْبانِ

ووفد بها الى معن حتى أثرى واتسعتْ حاله، فكان معن أول من رفع ذكره ونوّه به، وله فيه مدائحُ بعد ذلك شريفة ومراثٍ حسنة. قال مروان : كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلبا شديدا وجعل فيه مالا، فحدثنى معن باليمن أنه اضطر لشدة الطلب الى أن قام فى الشمس حتى لوَحَتْ وجهَه، وخفّف عارِضيه ولحيته، ولبِس جُبّة صوف غليظة، وركب جملا من الجمال النّقالة يمضى الى البادية فيقيم بها، وكان قد أبلى فى حرب يزيد ابن عمر بن هُبَيْرة بلاء حسنا غاظ المنصور وجَدّ فى طلبه، قال معن : فلمّا خرجتُ من باب حرب تبِعنى أسودُ متقلّدا سيفا حتى اذا غبتُ عن الحرس قبض على خِطَام جملى فأناخه وقبض علىّ، فقلت له : مالك؟ قال : أنت طَلِبة أمير المؤمنين، قلت : ومن أنا حتى يَطلُبنى أمير المؤمنين؟ قال : معن ابن زائدة، قلت : يا هذا، اتّق الله، وأين أنا من معن؟ قال : دع هذا عنك، فأنا والله أعرفُ بك منك، فقلت له : فإن كانت القصّة كما تقول، فهذا جوهر حملتُه معى يَفِى بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بى، فخذه ولا تسفِك دمى، قال: هاته، فأخرجته اليه، فنظر اليه ساعةً وقال : صدقتَ فى قيمته، ولستُ قابلَه حتى أسألك

عن شىء، فإن صدقتنى أطلقتك، فقلت : قل، قال : إن النـاس قد وصفوك بالجود فأخبرنى، هل وهبتَ قطُّ مالك كلّه؟ قلت : لا، قال : فنصفَه؟ قلت : لا، قال : فثلثه؟ قلت : لا، حتى بلغ العشر، فاستحييتُ، فقلت : أظن أنى قد فعلت هذا، فقال : ما أراك فعلتَه، أنا والله راجل ورزقى من أبى جعفر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير وقد وهبتُه لك، ووهبتـك لنفسك ولجودك المأثور عنك بين الناس، ولتعلم أن فى الدنيا أجودَ منك فلا تعجبك نفسُك، ولتُحقِّر بعد هذا كلّ شىء تفعله ولا تتوقّف عن مكرمة؛ ثم رمى بالعِقد فى حِجرى وخلّى خِطام البعير وانصرف؛ فقلت : ياهذا، قد والله فضحتنى ولَسفكُ دمى أهون علىّ ممـا فعلت، فخذ ما دفعتُه اليـك فإنى غنىّ عنه، فضحك وقال : أردتَ أن تكذّبنى فى مقامى هذا، والله لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثمنا أبدا ومضى؛ فو الله لقد طلبته بعـد أن أمنت وبذلت لمن جاءنى به ما شاء، فما عرفت له خبرا وكأن الأرض ابتلعته. وكان سبب رضا المنصور عن معن أنه لم يزل مستترا حتى كان يوم الهاشمية[1]، فلمّا وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه، وثب معن وهو متلثّم فانتضى سيفه وقاتل فأبلى بلاء حسنا وذبّ القوم عنه حتى نجا وهم يحاربونه بعد؛ ثم جاء والمنصور راكب على بغلة ولجامها بيد الربيع فقال له : تنحّ فإنى أحقّ باللجام منك فى هذا الوقت وأعظم فيه غَناء؛ فقال له المنصور : صدق فادفعه اليه؛ فأخذه ولم يزل يقاتل حتى انكشفت تلك الحال، فقال له المنصور : من أنت؟ لله أبوك! قال : أنا طَلِبتك يا أمير المؤمنين معنُ بن زائدة؛ قال : قد أمّنك الله على نفسـك ومالك ومثلك يُصْطَنَع، ثم أخذه معه وخلع عليـه وحبَاه وزيّنه. ثم دعا به يوما فقال له : إنى قد أمّلتُك لأمر فكيف تكون فيه؟ قال : كما يُحبّ أميرُ المؤمنين؛ قال : قد ولّيتك اليمنَ فابسُط السيفَ فيهم حتى يُنْقَضَ حِلْف ربيعة واليمن، وآبلُغ من ذلك ما يحبّ أمير المؤمنين. فولّاه اليمنَ وتوجّه اليها فبسَط السيف فيهـم حتى

(١) مدينة بناها السفاح بالكوفة وذلك أنه لمـا ولى الخلافة نزل بقصر ابن هبيرة واستتم بناءه وجعله مدينـة وسماها الهاشمية. فكان الناس ينسبونهـا الى ابن هبيرة على العادة، فقال : ما أرى ذكر ابن هبيرة يسقط عنهـا، فرفضها وبنى حياله مدينة سماها الهاشمية وبرها

أسرف ، قال مروان : وقدِم معن بعقب ذلك فدخل على المنصور ، فقال له بعد كلام طويل : قد بلغ أمير المؤمنين عنـك شىء لولا مكانُك عنـده ورأيه فيك لغَضِب عليك ؛ قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال : إعطاؤك مروان بن أبى حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معنُ بنُ زائدة الذى زِيدتْ به * شرفًا علىٰ شرف بنو شـيبانِ
إن عُدّ أيام الفعال فإنمـا * يوماه يومُ نَدى ويومُ طِعان

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيتُه ما بَلَغَك لهذا الشعر ، وإنما أعطيته لقوله :

ما زِلتَ يومَ الهـاشميّة مُعلِنًا * بالسيف دونَ خليفةِ الرحمن
فمنعتَ حَوزَتَه وكنت وِقاءَه * مِنْ وقع كلّ مهنّدٍ وسِـنان

فاستحيا المنصور وقال : إنمـا أعطيتَه ما أعطيتَه لهذا القول؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، والله لولا مخافة الشُنْعة لأمكنتُه من مفاتيح بيوت الأموال وأبحتُه إيّاها ؛ فقال له المنصور : لله دَرّك من أعرابىّ ! ما أهونَ عليك ما يعِزّ على الرجال وأهل الحزم !

وأختم هذه الترجمـة بموت مروان يَقُصُّه قاتلُه . روى صاحب الأغانى عن رجل يقال له صالح بن عطيّة الأَضْجَم أنه قال :

لمـا قال مروان :

أنّى يكونُ وليس ذاكَ بكائنٍ * لبنى البنات وِراثةُ الأعمـامِ

لَزِمتُه وعاهدت الله أن أغتاله فأقتله أىّ وقتٍ أمكننى ، وما زلت أُلاطِفه وأَبَرّه ، وأكتب أشعاره حتى خُصِصْت به فأنِس بى جدا ، وعرفتْ ذلك بنو حفصة جميعا فأنِسـوا بى ، ولم أزل أطلب غِرّة حتى مرِض من حُمّى أصابته ، فلم أزل أُظهر له الجزع عليه وأُلازمه وألاطفه حتى خلا لى البيت يوما ، فوثبتُ عليه وأخذت بحَلْقه فما فارقته حتى مات ، فخرجت وتركته فخرج اليـه أهله بعد ساعة فوجدوه ميّتـا وآرتفعت الصَّيْحة ، فحضرتُ وتباكيتُ وأظهرت الجزع عليه حتى دُفن وما فَطِن لمـا فعلت أحد ولا آتهمنى به .

٤ — أبو دُلَامَة (١)

كان أوّلُ ماحُفظ من شعره وأُسنيت الجوائزُله به، قصيدةً مَدح بها أبا جعفر المنصور وذكر قتْلَه أبا مُسْلِم يقول فيها :

أبا مسلم خوّفتنى القتلَ فانتحَى (٢) * عليك بما خوّفتنى الأسد الوَرْدُ

أبا مسلم ما غيّر الله نعمةً * على عبده حتى يُغَيِّرَها العبد

أنشدها المنصورَ فى مَحْفِل من الناس فقال له : ٱحتكم، فطلب عشرة آلاف درهم، فأمر له بها، فلما خلا قال له : إيه، أمَا والله لو تعدّيتَها لقتلتك .

أمر أبو جعفر أصحابَه بلُبْس السواد وقلانِسَ طِوالٍ تُدعَم بعيدان من داخلها، وأن يُعلّقوا السيوف فى المناطق ويكتبوا على ظهورهم : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فقال أبو دلامة :

وكنّا نُرجّى من إمامٍ زيادةً * فجاد (٣) بطُولٍ زادَه فى القلانس

تَراها على هامِ الرجال كأنها * دِنانُ يهودٍ جُلّلت بالبَرانس

ودخل الى المنصور مرّة فأنشده :

إن الخَليط أجَدّ البَيْنَ فانتجعوا * وزَوّدوك خَبالا، بِئْسَما صَنَعوا

والله يعلم أنْ كادتْ لِبَيْنِهِمُ * يومَ الفِراق حَصَاةُ القلب تَنصَدِع

عَجِبتُ من صِبْيَتِي يوما وأُمِّهِم * أُمِّ الدُّلامة لمّا هاجها الجَزَع

(١) هو زند بن الجون، وسمى أبا دلامة نسبة إلى ابنه دلامة، وهو كوفى المنشأ أسود اللون مولى لبنى أسد، وكان أبوه عبدا لرجل منهم فأعتقه . أدرك أبو دلامة أواخر الدولة الأموية، ولكنه نبغ فى الدولة العباسية، وانقطع إلى أبى العباس السفاح والمنصور والمهدى، وكانوا يقدّمونه ويصلونه ويستطيبون محاسنه ونوادره، وفيه دعابة وظرف، لا يخلو حديثه من نكتة أو ملحة، وكان مع ذلك معدودا فى جملة المتهمين بالزندقة وفساد الدين، وكان يشرب الخمر ولا يحضر صلاة ولا فروضا . توفى سنة ١٦١ هـ . وأخباره فى الأغانى (ج ٩ ص ١٢٠) وابن خلكان طبع بلاق (ج ١ ص ٢٦٧) والشعر والشعراء (ص ٤٨٧) والدميرى (ج ١ ص ١٣٢) والمستطرف (ج ٢ ص ٤٣) . (٢) فى الشعر والشعراء : "أبا مجرم" . (٣) فى الطبرى ج ٢ ص ٣٧١ طبع أوربا "فزاد الامام المصطفى" .

لا بارك الله فيها من مُنبِّهةٍ * هبّت تلوم عيالى بعد ما هجعوا
ونحن مُشْتَبِهو الألوان أوْجُهُنا * سُودٌ قباحٌ وفى أسمائنا شَنَع
إذا تَشَكَّت إلىّ الجُوعَ قلتُ لها * ما هاجَ جوعَكِ إلّا الرِّىُّ والشِّبَع
لا والّذى يا أميرَ المؤمنين قَضَى * لك الخِلافةَ فى أسبابها الرُّفَع
ما زلتُ أُخلِصها كَسْبِى فتأكُلُه * دُونِى ودونَ عِيالى ثم تَضطجِع
شَوْهاءُ مَشْنَأةٌ فى بطنها بَجَرٌ[1] * وفى المفاصل من أوصالِها قَدَع
ذَكَّرتُها بكتاب الله حُرْمَتَنا * ولم تكن بكتاب الله تَنتفِع
فَاْخرَنْطَمَتْ[2] ثم قالت وهى مُغْضَبَةٌ * أأنت تتلو كتابَ الله يا لُكَع
أُخْرُجْ لِتَبْغِ لنا مالًا ومَزْرَعَةً * كما لجِيرانِنا مالٌ ومُزْدَرَع
واْخدَعْ خليفتَنا عنّا بمسألة * إن الخليفة للسُّؤال يَنخدِع

فضحك أبو جعفر وكتب له بضيعة .

كان واقفا بين يَدَى السَّفّاح فقال له : سلنى حاجتَك، قال : كلب أتصيّد به، قال : أعطوه إيّاه، قال : ودابّةٌ أتصيّد عليها، قال : أعطوه دابّةً، قال : وغلام يَصيد بالكلب ويقُودُه ، قال : أعطوه غلاما، قال : وجارية تُصلِح لنا الصَّيْد وتُطعمنا منه، قال : أعطوه جارية، قال : هؤلاء يا أميرَ المؤمنين عبيدُك، فلا بدّ لهم من دارٍ يسكنونها، قال : أعطوهم دارًا تجمعهم، قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال : قد أعطيتك مائة جَرِيب عامرة، ومائة جَرِيب غامرة، قال : وما الغامرة؟ قال ما لا نباتَ فيه، فقال : قد أقطعتُك يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جَرِيب غامرة من فَيافِى بنى أَسَد ، فضَحِكَ وقال : اجعلوها عامرة ، قال : فأذَنْ لى أن أُقبِّل يدَك ، قال : أما هذه فدَعْها، قال : والله ما منعتَ عيالى شيئا أقلّ ضررا عليهم منها، قال الجاحظ : فانظر الى حِذْقه بالمسألة ولُطْفه فيها، ابتدأ

(١) البجر : خروج السرة ونتوءها وغلظ أصلها . والقدع : اعوجاج فى الكف والقدم الى إنسيها .
(٢) أى غضبت .

بكلب فسهّل القصة به وجعل يأتى بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله بديهة لما وصل اليه .

قال علىّ بن سلّام : كنت أسق أبا دلامة والسِّنْدِىّ إذ خرجت بِنْتٌ لأبى دلامةَ، فقال فيها أبو دلامة :

فما وَلَدَتْكِ مريمُ أمُّ عيسى * ولا رَبّاكِ لقمانُ الحكيم

أجز يا أبا عطاء، فقال :

ولكنْ قد تَضُمُّك أمُّ سوءٍ * الى لَبّاتها وأبٌ لئيم

فضحك لذلك، ثم غدا أبو دلامةَ الى المنصور فالقاه فى الرَّحَبَة يُصلِح فيها شيئا يريده، فأخبره بقصة ابنته وأنشده البيتين، ثم اندفع فأنشده بعدهما :

لو كان يَقْعُدُ فوقَ الشمس من كَرَمٍ * قومٌ لَقِيل اقعدوا يا آلَ عبّاس

ثم ارتقُوا فى شُعاع الشمس كلُّكمُ * الى السماء فأنتم أطهرُ الناس

وقدِّموا القائمَ المنصورَ رأسَكمُ * فالعينُ والأنف والأُذْنان فى الراس

فاستحسنها وقال : بأىّ شىء تحبُّ أن أُعِينَك على قُبْح ابنتك هذه ؟ فأخرجَ خريطة كان قد خاطها من الليل، فقال : تملأ لى هذه دراهمَ، فمُلئتْ فوسِعت أربعةَ آلاف درهم .

لما تُوفِّىَ أبو العباس السفّاح دخل أبو دُلامةَ على المنصور والناسُ عنده يعزّونه، فأنشأ أبو دلامة يقول :

أمسيتَ بالأنبار يا ابنَ محمدٍ * لم تستطِع عن عُقْرِها تحويلا

ويْلى عليك وويلَ أهلى كلِّهم * وَيْلًا وعَوْلًا فى الحياة طويلا

فلتبكِيَنَّ لك النساءُ بعَبْرةٍ * وليبكِيَنَّ لك الرجال عَويلا

مات النَّدَى إذ مُتَّ يا ابنَ محمدٍ * فجعلته لك فى التراب عَديلا

إنى سألتُ الناسَ بعدك كلَّهمُ * فوجدتُ أسمحَ من سألتُ بخيلا

ألِشِقْوَتى أُخِّرتُ بعدك للتى * تَدَعُ العزيزَ من الرجال ذليلا

فلأحلِفَنّ يمينَ حقٍّ بَرَّةً * بالله ما أُعطيتُ بعدك سُولا

فأبكى الناسَ قولُه ، فغضب المنصور غضبا شـديدا وقال : لئن سمعتك تُنْشِد هذه القصيدة لأقطعنّ لسانَك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أبا العباس أميرَ المؤمنين كان لى مُكرِما ، وهو الذى جاء بى من البَدْو كما جاء الله بإخوة يوسفَ اليه فقل كما قال يوسف لإخوته : ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فسُرِّىَ عن المنصور وقال : قد أقلْناك يا أبا دلامة ، فسل حاجتَك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمرَ لى بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض ، ولم أقبِضها . فقال المنصور : ومن يعرف هذا؟ فقال : هؤلاء ، وأشار الى جماعة ممّن حَضَر ، فوثب سليمان بن خالد وأبو الجَهْم فقـالا : صدق أبو دلامةَ نحن نعلم ذلك ، فقال المنصور لأبى أيّوبَ الخازن وهو مَغِيظ : ياسليمان ، ادفعها اليه وسيِّره الى هذا الطاغية « يعنى عبد الله بن على » وقد كان خرج بناحيـة الشام وأظهر الخِـلاف ، فوثَب أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين إنّى أعيذك بالله أن أخرج معهم ، فوالله انى لمشئوم ، فقال المنصور : امضِ ، فإن يُمْنِى يَغلِب شؤمَك فاْخرُج ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أُحبّ لك أن تجرّب ذلك منّى على مثل هذا العسكر ، فإنّى لا أدرى أيّهما يَغلِب ، أيُمْنُك أم شؤمى ، إلا أنى بنفسى أوْثق وأعْرَف وأطْوَل تجرِبةً ، قال : دعنى من هذا فمالَك من الخروج بُدٌّ ، فقال : إنى أصْدُقك الآن ، شهدت والله تسعة عشر عسكرا كلُّها هُزِمت وكنتُ سببَها ، فإن شئتَ الآن على بصـيرة أن يكون عسكرُك العشرين فافعل ، فاستَغْرَبَ أبو جعفر ضحكا وأمره أن يتخلّف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

قال أبو دلامة : أُتِىَ بى المنصورُ أو المهدىّ وأنا سكرانُ ، فحلف ليُخرجنّى فى بَعْث حرب ، فأخرجنى مع رَوْح بن حاتم المُهَلّبى لقتال الشُّراة ، فلما التقى الجَمْعان قلت لِرَوْح : أمَا والله لو أنّ تحتى فرسَك ومعى سلاحَك لأثَّرتُ فى عدوّك اليوم أثَرا تَرتضيه ، فضحك وقال : والله العظيم لأدفعنّ ذلك إليك ولآخذنّك بالوفاء بشَرْطك ، ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إلى ودعا بغيرهما فاستبدَل بهما ، فلما حصل ذلك فى يدى وزالت عنى حلاوة الطَّمَع قلت له : أيها الأمير هذا مُقام العائذ بك ، وقد قلت أبياتا فاْسمعْها ، قال : هات ، فأنشدتُه :

إنى ٱستجرتُك أن أُقدَّمَ فى الوَغَى * لِتَطَاعُنٍ وَتَنَازُلٍ وِحِرَاب (١)

فَهَبِ السُّيوفَ رأيتُها مشهورةً * فتركتُها ومضيتُ فى الهُرَّاب

ماذا تقول لِمـا يجىء وما يُرَى * من واردات الموت فى النُّشَّاب .

فقال : دَعْ عنكَ هذا وسَتَعْلَمْ ، و برز رجل من الخوارج يدعو للبارزة : فقال : اخرج اليه يا أبا دلامة ، فقلت : أَنْشُدك اللهَ أيها الأمير فى دَمِى ، قال : والله لتخرُجَنّ ، فقلت : أيها الأمير فإنه أوّلُ يوم من أيّام الآخرة وآخرُ يوم من أيّام الدنيا وأنا والله جائع ما شَبِعَت منّى جارحةٌ من الجوع ، فمُرْ لى بشىء آكلُه ثم أخرُج ، فأمر لى برغيفين ودَجَاجة ، فأخذتُ ذلك و برزتُ عن الصفّ ، فلما رآنى الشَّارى أقبل نحوى وعليه فَرْو قد أصابه المطر فٱبتلّ وأصابته الشمس فٱنفعل (٢) وعيناه تَقِدَان ، فأسرع إلىّ ، فقلت له : على رِسْلِك ياهذا ، كما أنت ، فوقف ، فقلت : أتقتل من لا يقاتلك؟ قال : لا ، قلت : أتقتل رجلا على دِينك؟ قال : لا ، قلت : أفتستحلّ ذلك قبل أن تدعو مَن تقاتله الى دينـك ؟ قال : لا ، فاذهب عنى الى لعنة الله ، قلت : لا أفعل أو تسمعَ منى ، قال : قُلْ ، قلت : هل كانت بيننا قطُّ عداوةٌ أو تِرَةٌ أو تَعرِفنى بحال تُحفِظُك علىّ أو تعلم بينى و بين أهلك وِتْرا ، قال : لا والله ، قلت : ولا أنا والله أُضمِر لك إلا جميل الرأى ، وإنّى لأهواك وأنتحل مذهبك ، وأدِين دينك ، وأريد السوء لمن أرادَه لك ، قال : ياهـذا جزاكَ الله خيرا فٱنصرِف ، قلت : إن معى زادًا أحبّ أن آكُلَه معك وأحبّ موا كلتكَ لتتأ كّدَ المودّةُ بيننا ويرى أهلُ العسكر هَوَانَهم علينا ، قال : فافعل ، فتقدّمت اليه حتى ٱختلفت أعناقُ دوابّنا ، وجمعنا أرْجُلَنا على مَعارفها والناس قد غُلِبوا ضَحِكا ، فلمـا ٱستوفينا ودّعَنى ، ثم قلت له : إن هذا الجاهل إن أقمتَ على طلب المبارزة ندبنى اليـك فتُتعِبنى وتتعب نفسك ، فإن رأيتَ ألّا تبرُز اليوم فٱفعل ، قال : قد فعلت ، ثم ٱنصرف وٱنصرفت فقلت لرَوْح : أما أنا فقد كَفيتُك قِرْنى ، فقل لغيرى أن يكفيَك قرنَه كما كفيتك ، فأمسك ، وخرج آخر يدعو الى البِراز ، فقال لى : اخرج اليه ، فقلت :

(١) الحراب بمعنى المحاربة وفى الأغانى « ضراب » .

(٢) هكذا بالأصل ولعلها : اقفعل ، من قولهم اقفعلت يده : تقبضت .

إنّى أعــوذ بِرَوْحٍ أن يقدّمنى * الى البِراز فتخزَى بِى بنو أَسَـد
إنّ البِراز الى الأقران أعلمُه * ممـا يفرّق بين الروح والجسـد
قد حالفتك المنايا إن صَمَدْتَ لها * وأصبحتْ لجميع الخلق بالرَّصَد
إن المُهَلّب حبَّ الموت أورَثَكم * وما وَرِثْتُ اختيارَ الموت عن أحَد
لو أن لى مُهجةً أخرى لجُدتُ بها * لكنّها خُلقتْ فردا فلم أَجِد

فضحك وأعفانى .

قال أبو أيّوب الموريانى لأبى جعفر وكان يشنأ أبا دلامة : إن أبا دُلامة مُعتكِفٌ على الخمر، فما يَحْضُرُ صلاةً ولامسجدا وقد أفسد فِتيانَ العسكر، فلو أمرتَه بالصلاة معك لأُجِرْتَ فيه وفى غيره من فتيان عسكرك بقَطْعِه عنهم، فلما دخل عليه أبو دلامة قال له : ماهذا المُجُون الذى يَبلُغُنى عنك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا والمُجُون وقد شارفتُ بابَ قبرى ! ، قال : دَعْنى من استكانتك وتضَرُّعك ، و إيّاك أن تفوتَك الظهر والعصر فى مسجدى ، فلئن فاتتاك لأُحسنَنّ أدبَك ولأُطِيلَنّ حبسكَ ، فوقع فى شرٍّ ولزم المسجد أياما ، ثم كتب قصــة ودفعها الى المهدى فأوصلها الى أبيه وكان فيها :

ألم تعلما أن الخليفة لزّنى[1] * بمسجده والقصرِ، مالى ولِلقصر
أُصلِّ به الأُولى جميعا وعصرَها * فويلى من الأولى وويلى من العصر
أصليهما بالكُره فى غير مسجدى * فمالىَ فى الأولى ولا العصرِ من أجْر
لقد كان فى قومى مساجدُ جمّةٌ * ولم ينشرح يوما لغشيانها صدرى
يكلّفنى من بعد ما شِبتُ خُطّة * يُحَطّ بها عنّى الثقيلُ من الوِزْر
وما ضرّه والله يغفر ذنبه * لو انّ ذنوب العالمين على ظهرى

فقال : صدق، ما يَضُرّنى ذلك، والله لا يصلّى هذا أبدا، فدعوه يعمَل ما يشاء .

(١) لزه بالشئ : ألزمه إياه .

وقال الهيثم فى خبره : قد أعفيناك من هذا الحال ، ولكن على ألّا تدعَ القيامَ معنا فى ليالى شهر رمضان فقد أظلّ ، فقال : أفعل ، قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمتُ ذلك والله لئن فعلتَ لأحُدّنّك ، فقال أبو دلامة : البليّة فى شهر أخفّ منها فى طول الدهر ، سمعًا وطاعةً ، فلما حضر شهرُ رمضانَ لزِم المسجدَ ، وكان المهدىّ يبعث اليه فى كل ليلة حَرَسِيًا يجىء به ، فشقّ ذلك عليه وفَزِع الى الخيزُران والى أبى عبيد الله وكلّ من يلوذ بالمهدىّ ليشفعوا له فى الإعفاء من القيام ، فلم يجبهم ، فقال له أبو عبيد الله : الدالّ على الخير كفاعله ، فكيف شُكرُك؟ قال : أتمّ شكر ، قال : عليك برَيْطة فإنه لا يخالفها ، قال : صدقت ، ثم رفع اليها رُقْعة يقول فيها :

أبلغا رَيْطـــةَ أنّى * كنت عبدا لأبيها
فمضى يرحمــه اللـ * ـه وأوصى بى اليها
وأراها نَسِــيَتْنى * مثل نِسْيانِ أخيها
جاء شهر الصوم يمشى * مِشْيةً ما اشــتهيها
قائدًا لى ليــلةَ القد * ر كأنّى أبتغيها
تَنطَح القِبْــلةَ شهرا * جَبْهــتى لا تأتليها
ولقــد عشتُ زمانا * فى فَيــافٍ وجيها
فى ليــالٍ من شــتاء * كنت شيخا أصطليها
قاعدًا أُوقِــد نارا * لِضباب أشْــتَوِيها
وصَبُوح وغَبُــوق * فى عِلاب أَحتسيها
ما أبالى ليلةَ القــد * ر ولا تُسْــمِعنيها
فاطلبى لى فَــرَجًا منـ * ـها وأجرى لكِ فيها

فلما قرأتِ الرُّقعة ضحِكتْ وأرسلتْ اليه : اصطبِر حتى تمضى ليلةُ القدر ، فكتب اليها : إنى لم أسألكِ أن تكلّميه فى إعفائى عاما قابلا ، وإذا مضتْ ليلة القدر فقد فَنِيَ الشهر ، وكتب تحتها أبياتا :

خافِى إلهَكَ فى نفس قد ٱحتُضِرت * قامت قيامتُها بين المُصَلّينا
ما ليلة القَدْر من هَمِّى فأطلبها * إنى أخاف المنايا قبل عشرينا
ياليلةَ القدرِ قد كسّرت أرجلَنا * ياليلةَ القدر حقا ما تُمَنّينا
لا بارك الله فى خير أؤمّله * فى ليلةٍ بعد ما قمنا ثلاثينا

فلما قرأتِ الرُّقعة ضحِكتْ ودخلتْ الى المهدىّ فشَفَعتْ له اليه وأنشدته الأبيات ، فضَحِك حتى ٱستلق ودعا به ورَيْطةُ معه فى الحَجَلَة ، فدخل ، فأخرج رأسه اليه وقال : قد شَفّعْنا رَيْطةَ فيك وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم ، فقال : أما شفاعة سيدتى فىّ حتى أعفيتنى فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فما أعجَبنى ما فعلتَه إما أن تُتمّها بثلاثة آلاف فتصير عشرة أو تُنقصنى منها ألفين فتصير خمسة آلاف ، فإنى لا أُحسن حساب السبعة ، فقال : قد جعلتُها خمسة ، فقال : أُعيذك بالله أن تختار أدنى الحالَيْن وأنت أنت ، فعبِث به المهدىّ ساعة ، ثم تكلمت فيه رَيطة ، فأتمّها له عشرة آلاف درهم .

شرب أبو دلامة فى بعض الحانات فسكر وٱنصرف وهو يميل ، فلقيَه العَسَس ، فأخذوه وقالوا له : من أنت ، وما دينك؟ فقال :

دِينى علَى دِينِ بَنِى العبّاس * ما خُتِمَ الطينُ على القرطاس
انى ٱصطَحَبْتُ أربعًا بالكاس * فقد أدار شُرْبُها براسى
* فهل بما قُلْتُ لكم من باسِ *

فأخذوه ومضَوْا وخرّقوا ثيابَه وسَاجَه[1] ، وأُتِىَ به أبو جعفر ، وكان يُؤتَى بكلّ من أخذه العَسَسُ ، فحبَسه مع الدَّجاج فى بيت ، فلما أفاق جعَل ينادى غلامَه مرّة وجاريتَه مرّة ، فلم يُجِبْه أحد ، وبينا هو فى ذلك إذ سمع صوت الدَّجاج وزُقَاء الدُّيُوك ، فلما أكثر قال له السجّان : ما شأنك؟ قال : ويلَك من أنت؟ وأين أنا؟ قال : فى الحبس وأنا فلان

(١) الساج : الطيلسان الأخضر، وقيل الأسود .

السجّان، قال: من حبَسَنى؟ قال: أميرُ المؤمنين، قال: ومن خَرّقَ طَيْلسانِى؟ قال: الحَرَس، فطلب منه أن يأتيه بدواةٍ وقرطاس، ففعل، فكتب الى أبى جعفر:

أميرَ المؤمنين فدتك نفسى * علامَ حَبَستنى وخَرَقتَ ساجى
أمن صفراءَ صافيةِ المِزاج * كأن شُعاعها لَهَبُ السِّراج
وقد طُبِخت بنار الله حتى * لقدصارت من النُّطَف النِّضاج
تَهَشّ لها القلوبُ وتشتهيها * اذا برزت تَرَقرقُ فى الزّجاج
أُقاد الى السجون بغير جُرمٍ * كأنّى بعضُ عُمّال الخَراج
ولو معهم حُبست لكان سهلًا * ولكنّى حُبست مع الدّجاج

فدعا به وقال: أين حُبست يا أبا دلامة؟ قال: مع الدجّاج، قال: فما كنت تصنع؟ قال: أُقَوق معهن حتى أصبحتُ، فضحك وخلّى سبيلَه وأمر له بجائزة، فلما خرج قال له الربيع: إنه شرب الخمر يا أميرَ المؤمنين، أما سمعت قوله: وقد طُبخت بنار الله، يعنى الشمس؟ فأمر بردّه، ثم قال: ياخبيث، شَرِبتَ الخمر؟ قال: لا، قال: أفلم تقل: طُبِخَتْ مس؟ قال: لا والله ما عَنَيْتَ إلا نار الله المُوقَدة التى تطّلِع على فؤاد الرّبيع، فضحك وقال: خذها ياربيع ولا تُعاوِد.

صام الناس فى سنة شديدة الحَرّ على عهد المهدىّ، وكان أبو دلامة يَتَنَجّزُ جائزةً أمر له المهدىُّ بها، فكتب اليه أبو دلامة رقعة يشكو فيها أذى الحَرّ والصَّوْم، وهى:

أَدعوك بالرّحِمِ التى قد جَمّعتْ * فى القرب بين قَرِيبنا والأبْعَد
إلاسمعتَ وأنتَ أكرم من مشَى * من مُنشِدٍ يرجو جَزاءَ المنشَد
جاء الصِّيامُ فصُمْتُه متعبّدا * أرجو رَجاءَ الصائم المتعبّد
ولَقِيتُ من أمر الصِّيام وحَرّه * أمرين قِيسَا بالعذاب المُوصَدِ
وسجَدتُ حتى جَبْهتى مشجُوجةٌ * مما يُناطحنى الحصا فى المسجد
فامنُنْ بتسريحى بمَطْلك بالذى * أسْلَفتَنِيه من البلاء المُرصَد

فلما قرأ المهدىُّ رُقعته غضب وقال : أىّ قرابة بينى و بينك؟ قال : رحمُ آدمَ وحوّاء، أَنَسِيتَهما يا أميرَ المؤمنين! فضحك وقال : لا والله ما نَسِيتُهما ، وأمر بتعجيل ما أجازه به وزاد فيه، وأنشده أيضا فى ذم الصّوم :

هَلْ فى البلاد لرزق الله مُفترِش * أم لا ففى جِلْدِه من خُشْنةٍ بَرَش[1]

أضْحَى الصيام مُنيخًا وسط عَرْصتنا * ليت الصيام بأرض دونها جُرَشُ

إن صمتُ أوجعنى بطنى وأقلقنى * بين الجوانح مَسُّ الجوع والعطش

وإن خرجت بليلٍ نحو مَسجدهم * أضرّنى بَصَر قد خانَه العَمَش

دخل أبو دلامة على سعيد بن دَعْلَج مولى بنى تميم فقال :

إذا جئتَ الأميرَ فقل سلامٌ * عليك ورحمةُ الله الرحيم

وأما بعد ذاك فلى غريمٌ * من الأعراب قُبِّح من غريم

غريم لازمٌ بفِناء بيتى * لزومَ الكلب أصحابَ الرَّقيم

له مائة علىّ ونِصفُ أُخْرَى * ونِصف النِّصف فى صَكّ قديم

دراهمُ ما انتفعتُ بها ولكن * وصلتُ بها شيوخَ بنى تميم

أَتَوْنِى بالعشيرة يسألونى * ولم أكُ فى العشيرة باللئيم

فأمر له بمائتين وخمسة وسبعين درهما وقال : ما أساء مَن أنصفَ، وقد كافأتُك عن قومك وزدتُك مائة .

دخل أبو دلامة على المهدى فأنشده قصيدتَه فى بَغلته المشهورة :

أتانى، بغلةً يَسْتام منّى، * عَرِيقٌ فى الخَسارة والضَّلال

فقال تَبيعها قلت ٱرْتبطْها * بحُكْمك إنّ بيعى غيرُ غال

فأقبل ضاحكا نحوى سرورا * وقال أراك سَمْحًا ذا جَمال

هلمّ إلىّ يخلو بى خِداعا * وما يدرى الشقىّ لمن يُخالى

(١) فى الجلد .

فقلتُ بأربعين، فقال أحسِنْ * إلىّ فإن مثلك ذو جمال
فأترك خمســـة منهـا لعلمى * بما فيه يصيـــرُ من الخَبال

فقال المهدى : لقد أفلتَّ من بلاء عظيم، قال : والله ياأمير المؤمنين لقد مكثت شهرا أتوقع صاحبها أن يردها، ثم أنشده :

فأبدلنى بهـا يا ربّ طِــرْفًا * يكون جمالُ مَرْكَبِه جمالى

فقال لصاحب دوابّه: خَيِّره من الإصطبل بين مركبين، قال: يا أمير المؤمنين إن كان الأختيارُ لى وقعتُ فى شرّ من البغلة، ولكن مُرْه أن يختار لى، فاختار له .

خاصم رجل أبا دلامة فى داره فارتفعا الى عافيةَ القاضى، فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقـــد خاصَمَتْنى دُهاةُ الرجال * وخاصمـــتُها سَـــنَةً وافيـــه
فمـا أدحَضَ الله لى حجّـــةً * ولا خيّبَ الله لى قافيـــه
ومن خِفت من جَوْره فى القضاء * فلست أخافكَ يا عافيــــه

فقال له عافيــة : والله لأشكونّك الى أمير المؤمنــين ، ولأعلمنّه أنك هجوتنى ، قال : إذًا يَعزِلك ، قال : ولِمَــه؟ قال :لأنك لا تعرف المديح من الهِجاء، فبلغ ذلك المنصور فضحك وأمر لأبى دلامة بجائزة .

دخل أبو دلامة على المهدىّ وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعباس ابن محمد ومحمد بن محمد بن ابراهيم الإمام وجماعة من بنى هاشم فقال له : أنا اعطى الله عهدا لئن لم تَهْجُ واحدا ممن فى البيت لأقطعنّ لسانك ، فنظر اليه القوم، فكلما نظر الى واحد منهم غمزه بأن عليه رِضاه، قال أبو دلامة :فعلمت أنى قد وقعت وأنها عَزْمة من عزَمَاته لابد منها؛ فلم أر أحدا أحقّ بالهِجاء منّى، ولا أَدْعَى الى السلامة من هجاء نفسى؛ فقلت :

ألا أَبْلِــغ لديك أبا دلامــه * فليس من الكِرام ولا كرامه
إذا لبس العمامة كان قِــردا * وخِنْزيرا إذا نَزَع العمامه

جمعتَ دَمَامَة وجمعتَ لؤما * كذاك اللؤم تتبعـه الدَّمَامه
فإن تك قد أصبتَ نعيمَ دنيا * فلا تَفرح فقـد دنَتِ القيامه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه .

خرج المهدىّ وعلىّ بن سليمان الى الصيد، فسَنَح لهما قَطِيع من الظّباء، فأُرسلت الكلاب وأُجرِيَت الخيل، فرمى المهدىّ ظبيا بسَهم فصرعه، ورمى علىّ بن سليمان، فأصاب بعض الكلاب فقتله، فقال أبو دلامة :

قد رَمَى المهدىّ ظبيا * شَكّ بالسّهم فؤادَه
وعلىّ بن سليما * ن رَمَى كلبا فصَاده
فهنيئا لهما كـ * ـلُّ آمرئ يأكل زاده

فضحك المهدىّ حتى كاد يسقط عن سرجه وقال : صدق والله أبو دلامة، وأمر له بجائزة سَنِيّة، فلُقّب علىّ بن سليمان صائدَ الكلب، وعَلِق به .

أنشد أبو دلامة المنصورَ يوما :

هاتيك والدتى عجوزٌ همـةٌ[1] * مثل البليّة دِرعها فى المِشْجب[2]
مهزولةُ اللَّحيَيْن من يرها يَقُـل * أبصرتُ غُولا أوخيالَ القُطْرُب[3]
ما إن تركت لها ولا لابنٍ لهـا * مالًا يؤمّـل غير بَـكْرٍ أجْرَبِ
ودَجائجًا خَمْسا يَرُحْن اليهـمُ * لمّـا يَبِضْنَ وغير عَنْزٍ مُغْـرِب[4]
كتبوا الىّ صحيفـة مطبوعة * جعلوا عليها طِينـة كالعَقْرَبِ
فعلمت أن الشرّ عند فِكاكها * ففككتُها عن مثل ريح الجَوْرَب
واذا شـبيه بالأفاعى رُقِّشت * يُوعِدْنَنى بتلَمُّظ وتَشَـوُّبِ
يشكون أن الجوع أهلك بعضهم * لَرُبّا فهـل لك فى عِيال لُزَّب

---

(١) همة : هرمة . (٢) المشجب : خشبات موثقة منصوبة توضع عليها الثياب وتنشر .
(٣) القطرب : ذكر الغيلان . (٤) المغرب : الأبيض من كل شىء .

لا يسألونك غيرَ طَـلّ سَحابةٍ * تَغشاهمُ من سَـيلك المُتحلِّب

يا باذلَ الخيرات يابنَ بَذُولهـا * وآبنَ الكِرام وكلِّ قَرمٍ مُنجِب

أنتم بنو العباس يُعلَمَ أنكم * قِدمًا فوارسُ كل يوم أشْهَب

أحْلاس[1] خيل الله وهى مُغيرة * يَخرُجْنَ من خَلَل الغُبارِ الأكْهَب

فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم، وكانت الدار قريبـة من قصره، فأمر أن تزاد فى قصره بعد ذلك لحاجة دعته اليها، فدخل عليه أبو دلامة فأنشده قولَه :

يابن عمّ النـبىّ دعوةَ شـيخٍ * قـد دنا هَـــدْمُ دارِه ودَمَارُهْ

فهو كالماخض التى آعتادها الطَلْـ * ـقُ فقــرّتْ وما يَقِــرّ قراره

إن تُحَز عُسْرةٌ بكفّيـك يوما * فبكفّيــك عُسْره ويَســاره

أو تَدَعْـه فللبَـوار وأنّى * ولمــاذا وأنتَ حىٌّ بَوَاره

هل يخاف الهلاكَ شاعرُ قومٍ * قُدِّمتْ فى مَديحهم أشعاره

لكم الأرض كلُّهـا فأعيروا * شيخَكم ما آحتوى عليه جِداره

فكأنْ قد مضى وخلّف فيكم * ما أعرتم وأقفَرتْ منه داره

فاستعبر المنصورُ وأمر بتعويضه دارا خيرا منها ووصله .

دخل على المهـدىّ يوما وعنده مُحْرِز ومُقاتِل آبنا ذُؤال يعاتبانه على تقريبـه أبا دلامة ويَعيبانه عنده فقال :

ألا أيها المهدىّ هل أنت مُخبِرى * وإن انت لم تفعل فهل أنت سائِلى

ألم ترحم اللّحيينِ من لِحيتَيهما * وكلتاهمــا فى طولهـا غيرطائل

وإذ أنت لم تفعل فهل أنت مُكرِمى * بحلقهما من مُحْرِزٍ ومُقَــاتِل

فان يأذن المهدىّ لى فيهما أقُلْ * مقالا كوقع السيف بين المَقَاتل

وإلّا تَدَعْنِى والهمـــومُ تنوبُنى * وقلبى من العِلْجَيْن جمُّ البَـلابل

(١) يقال : فلان من أحلاس الخيل، أى من راضتها وساستها والملازمين ظهورها .

فقال : أوآخذ لك منهما عشرة آلاف درهم يَفْديان بهما أعراضهما منك ، قال : ذلك الى أمير المؤمنين ، فأخذها له منهما وأمسك عنهما .

دخل على أم عبيدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع اليها رُقْعة قد كتبها الى الخَيْزُرَان فيها :

أبلغِى سيّدتى بالله * ـهِ يا أمَّ عَبيده
أنها أرشدها الله * ـه وإن كانت رشيده
وعدتنى قبل أن تخـ * ـرج للحج وليده
فتأنيت وارسلـ * ـت بعشرين قصيده
كلّما أَخْلَقْنَ أخلفـ * ـت لها أخرى جديده
ليس فى بيتى لتمهيـ * ـد فِراشى من قعيده
غيرُ عَجْفاءَ عَجوزٍ * ساقُها مثل القديده
وجهها أقبح من حُو * ت طرىّ فى عصيده
ما حياةٌ مع أنثى * مثل عُرْسى بسعيده

فلما قُرِئت عليها الأبيات ضحكت وآستعادتها منه لقوله : «حُوت طَرِىّ فى عصيدة» وجعلت تضحك ووهبت له جارية .

دخل يوما على المهدىّ فحادثه ساعةً وهو يضحك وقال له : هل بَقِىَ أحد من أهلى لم يَصلك؟ قال : إن أمّنتنى أخبرتك وإن أعفيْتَنى فهو أحبُّ إلىّ ، قال : بل تُخبِرنى وأنت آمن ، قال : كلهم قد وصلنى إلا حاتم بنى العبّاس ، قال : ومن هو؟ قال : عمُّك العبّاس ابن محمد ، فالتفت الى خادم على رأسه وقال : جأْ عُنُقَه ، فلما دنا منه صاح به أبو دلامة : نحّ يا عبدَ السُّوء لا تُحْنِثْ مولاك وتُنْكِثْه عهدَه وأمانَه ، فضحك المهدىّ وأمر الخادم فتَنَحَّى عنه ، ثم قال لأبى دلامة : ويلَك! والله عمّى أبخلُ الناس ، فقال أبو دلامة : بل هو أسْخَى الناس ، فقال له المهدىّ : والله لو مُتّ ما أعطاك شيئا ، قال : فإن أنا أتيته

فأجازني؟ قال: لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم، فانصرف أبو دلامة فخبر للعباس قصيدةً، ثم غدا بها عليه وأنشده:

قِفْ بالديار وأيّ الدهر لم تَقِف * على المنازل بين الظَّهْرِ والنَّجَف
وما وقوفك في أطلال منزلة * لولا الذي اسْتَدرجتْ من قلبك الكَلِف
ان كنت أصبحت مشغوفا بساكنها * فلا وربك لا تُشفيك من شَغَف
دَعْ ذا وقُلْ في الذي قد فاز من مُضَر * بالمكرُمات وعِزٍّ غيرِ مُقْتَرَف
هذى رسالة شيخ من بني أسد * يُهدِي السلام الى العباس في الصُّحُف
تَخُطها من جَوارى المصر كاتبةٌ * قد طالما ضَرَبتْ في اللام والألف
وطالما اختلفتْ صَيْفا وشاتِيَةً * الى مُعلِّمها باللّوح والكَتِف (١)
حتى اذا نَهَدَ الثَّديان وامتلا * منها وخيفت على الإسراف والقَرَف
صِينت سنين ما تَرى أحدا * كما يصون تِجارٌ دُرّةَ الصَّدَف
فبينما الشيخ يهوى نحو مجلسه * مُبادِرا لصلاة الصبح بالسَّدَف (٢)
حانت له لَمحةٌ منها فأبصَرَها * مُطِلّةً بين سِجْفَيها من الغُرَف
نَخَرٌ والله ما يدرى غداتئذ * أخَرَّ مُنْحَسِفًا أم عير.
وجاءه الناس أفواجا بمائهم * ليَغسِلوا الرجل المَغشِيّ بالنُّطف
ووسوسوا بقُرانٍ في مسامعه * مخافة الجنّ والإنسانُ لم يَخَف
شيئا ولكنه من حبّ جارية * أمسى وأصبح موقوفا على التَّلَف
قالوا لك الويلُ ما أبصرتَ قلت لهم * تطلّعتْ من أعالى القصر ذى الشُّرَف
فقلت أيُّكمُ والله يأجُره * يُعين قوته فيها على ضعف
فقام شيخ بَهِيٌّ من رجالهمُ * قد طالما خدَع الأقوام بالحَلِف
فابتاعها لى بألفَىْ دِرهَمٍ فأتى * بها إلىّ فألقاها على كَتِفي

(١) الكتف: عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس.
(٢) السدف: الضوء وإقبال الصبح.

فبَيْن ذاك كذا إذ جاء صاحبُها * يَبْغِى الدراهم بالميزان ذى الكِفَف
وذِكْرَ حقٍّ على زَيْدٍ وصاحبه * والحقُّ فى طَرَف والطِّين فى طَرَف
وبين ذاك شهودٌ لا يضرّهم * أكنتُ معترِفًا أم غيرَ معترِف
فإن يكن منك شىء فهو حقُّهم * أوْ لَا فإنّىَ مدفوع الى التَّلَف

فضحك العباس وقال : ويحك! أصادقٌ أنت ؟ قال : نعم والله، قال : ياغلام آدفع اليه ألفَىْ درهم ثمنها، فأخذها ثم دخل على المهدىّ فأخبره القصّة وما آحتال له، فأمر له المهدىّ بستة آلاف درهم، وقال له المهدىّ : كيف لايضرّهم ذلك؟ قال : لأنى مُعْدِم لا شىءَ عندى .

دخل على إسحاق الأزرق يعودُه، وكان إسحاق قد مرِض مَرضا شديدا ثم تعافَى منه وأفاق، فكان من ذلك ضعيفا وعند إسحاق طبيب يصف له أدوية تُقَوِّى بدنَه، فقال أبودلامة للطبيب : أتَصِف هذه الأدوية لرجل أضعفه المرض؟ ما أردتَ والله إلا قتلَه، ثم آلتفت الى إسحاق فقال : اسمع أيها الأمير منّى، قال : هاتِ ما عندك يا أبا دلامة، فأنشأ يقول :

نَحِّ عنك الطبيب وآسمع لِنَعْتى * إننى ناصحٌ من النُّصّاح
ذوتجاريبَ قد تقلّبتُ فى الصحّـ * ـة دهرا وفى السَّقام المُتاح
غادِ هذا الكِبَابَ كلَّ صباح * من مُتُون الفَتِيّة السِّحاح
فاذا ما عطِشتَ فاشرب ثلاثا * من عتيق فى الشَّمّ كالتُّفّاح
ثم عند المَساء فآعكُف على ذا * وتَوَقَّ ذا بأعظم الأقداح
فَتُقَوِّى ذا الضَّعف منك وتَنْقى * عن ليال أصحّ هذى الصِّحاح

فضحك إسحق وعُوّاده وأمر لأبى دلامة بخمسمائة درهم، وكان الطبيب نصرانيًّا فقال : أعوذ بالله من شرّك يا ركين، يريد يارجل، وقال الطبيب : اقبل منّى أصلحك الله

ولا تسألنى عن شىء قُدّامه، فقال أبو دلامة : أمّا وقد أخذتُ أجرة صَفْقتى وقضيت الحقّ فى نُصْح صديق فانعتْ له الآن أنت ما أحببت .

دخل على المهدىّ وبين يديه سَلَمَة الوَصيف واقفا، فقال : إنى أهديت اليك يا أمير المؤمنين مُهْرًا ليس لأحد مثله ، فان رأيتَ أن تُشرّفنى بقبوله ، فأمر بإدخاله اليـه ، فخرج وأدخل اليـه دابّته التى كانت تحته ، فاذا بِرْذَوْن محطّمٌ أعجفُ هَرِم ، فقال له المهدىّ : أىّ شىء هذا؟ ألم تزعُم أنه مُهْر ؟ قال له : أو ليس هذا سلمة الوصيف بين يديك قائمـا ، تسمّيه الوصيف وله ثمانون سنة ، وهو عندك وصيف ؟ فاذا كان سلمة وصيفا فهذا مُهْر ، فجعل سلمةُ يَشْتُمه والمهدىّ يضحك ، ثم قال المهدىّ لسلمة : ويلك! إن لهـذه منه أخَوَات ، وإن أتى بها فى مَحْفِل فَضَحك ، فقال أبو دلامة : والله لأفضحنّه يا أمير المؤمنين ، فليس من مَواليك أحد إلا وقد وصلنى غيرُه ، فانى ما شربت له المـاء قطُّ ، قال : فقد حكمت عليه أن يشترىَ نفسَـه منك بألف درهم حتى يتخلّص من يدك ، قال : قد فعلت على ألّا يعاود ، فقال له : ما ترى؟ قال : أفعـل ، فلولا أنّى ما أخذت منه شيئا قطُّ ما فعلت معه مثل هذه ، فمضى سلمة فحملها اليه .

أبان بن عبد الحميد اللاحقى(١)

ذكرنا فى المجلد الأول أن أبَانَ كان صديقًا للبرامكة متصلا بهم أشدّ اتصال، يستشيرونه ويعتمدون عليه فى تدبير أمورهم، جدّها وهزلها، صعبها وهيّنها. وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمى، وبالغوا فى ذلك حتى جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصِّلات. فغضب الشعراء لذلك، وكان أشدّهم غضبا أبو نواس الذى كان يكره البرامكة كرها شديدا، وكانت بينه وبين أبان مهاجاةٌ ذكرها صاحب الأغانى.

وكان أبان صديقا للمعذّل بن غَيْلان، وكانا مع صداقتهما يتعابثان بالهجاء، فيهجوه المعذّل بالكفر وينسُبه الى الشؤم. ويهجوه أبان وينسُبه الى الفُسَاء الذى تُهْجَى به عبد القيس وبالقِصَر، وكان المعذل قصيرا. فسعى فى الإصلاح بينهما أبو عُيَينة المهلّبى، فقال له أخوه عبد الله وهو أسنّ منه: يا أخى إن فى هذين شرًّا كثيرا ولا بد من أن يُخرجاه، فدعهما ليكون شرّهما بينهما وإلّا فرّقاه على الناس.

ومن قوله يهجو أبا النضير:

اذا قامت بواكيك * وقد هتّكن أستارك
أيُثْنِين على قبرِ * كَ أم يلعَنَّ أحجارَكْ
وما تترك فى الدنيا * اذا زرتَ غدًا نارك
ترى فى سَقَرَ المَثْوَى * وإبليسَ غدًا جارَك
بلى تترك باكيك * ودنياكَ وأوتارَك
وخمسًا من بنات الليـ * ـل قد أُلْبِسنَ أطمارَك
تعالى الله ما أقبـ * ـح إذ وَلَّيتَ أدبارَك

(١) تجد ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٢٩ وقد ذكرناه هنا لمناسبة ذكر ما عثرنا عليه من منظومته لكتاب كليلة ودمنة. وقد أضفنا هنا ما لم نذكره فى ترجمته هناك.

خرج أبان من البصرة طالبا للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائبا فقصده ، فأقام ببابه مدّة مديدة لا يصل اليه ، فتوسّل الى من وصّل له شعرا اليه ، وقال له :

يا عزيزَ النّدى ويا جوهرَ الجو * هرِ من آل هاشمٍ بالبِطَاحِ
إنّ ظنّى ، وليس يُخلِفُ ظنّى * بك فى حاجتى سبيلَ النّجاحِ
إنّ من دونها لَمُصمَتَ بابٍ * أنت من دون قُفْلِه مِفتاحى
تاقت النفسُ يا خليلَ السّماحِ * نحو بحر النّدَى مَجارِى الرياحِ
ثم فكّرتُ كيف لى واستخرتُ الـ * ـلّهَ عند الإمساء والإصباحِ
وامتدحتُ الأميرَ أصلحه الـ * ـلّهُ بشعرٍ مُشَهَّرِ الأوضاحِ

فقال : هات مديحك ؛ فأعطاه شعرا فى هذا الوزن وقافيته ، ترى فيه أن الرجل مُعْجَب بنفسه ، مدلٌّ بعلمه وأدبه ، تيّاه لا حدّ لتيهه وغروره :

أنا من بغية الأمير وكنزٌ * من كنوز الأمير ذو أرباحِ
كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديبٌ * ناصحٌ زائدٌ على النُّصّاحِ
شاعرٌ مُفْلِقٌ أخفّ من الريـ * ـشة مما يكون عند الجَنَاحِ

وهى طويلة ذكرناها فى المجلد الأوّل .

وكان أبانُ شديدَ الحرص على المال يُضَحّى فى سبيله بأشياء كثيرة ، منها العقيدةُ والرأى . وكانَ يحسُد مَرْوانَ بن أبى حَفْصة لمكانه من الرشيد ولظَفَره بالصِّلات الضخمة والجوائز السنية ؛ فقد انتهى الأمر ببنى العبّاس مع مروان بن أبى حَفْصة الى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألفَ درهم ، فغاظ ذلك أبانَ وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مَرْوان ، فعاتَبَ أبانُ البرامكةَ على تركهم إيصالَه للرشيد وإيصالَ مديحه اليه ؛ فقالوا له : ما تريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظَى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ؛ فقالوا : إنّ لذلك مذهبا فى هجاء آل أبى طالب وذمّهم ، به يَحْظى وعليه يُعْطَى ، فاسلكه حتى نفعل ؛ قال : لا أستحلّ ذلك ؛ قالوا : فما تصنع ، لا يجيء طلب الدنيا إلا بما لا يحلّ ؛ فقال أبان :

نَشَدتُ بحقِّ الله مَنْ كان مُسْلِمًا * أَعمَّ بمـا قد قُلْتُـهُ العُجْمَ والعَـرَبْ
أَعَمُّ رسـولِ اللهِ أَقْربُ زُلْفَـةً * لَدَيهِ أم ٱبْنُ العَمِّ فى رُتْبَـةِ النَّسَبْ
وأَيُّهمـا أَوْلَى بـه وبِعَهْـدِه * ومَنْ ذَا لَهُ حَقُّ التُّرَاثِ بمـا وَجَبْ
فإن كانَ عَبَّاسٌ أحقَّ بتلكُمُ * وكانَ علىٌّ بعـد ذاك على سَبَبْ
فأبنـاءُ عبّـاسٍ هُـمُ يَرِثُونَهُ * كما العَمُّ لأبنِ العَمِّ فى الإرْثِ قد حَجَبْ

وهى طويلة .

فقال الفضل : ما يَرِدُ على أمير المؤمنين اليومَ شىء أَعْجَبُ من أبياتك . فركِبَ فأنشدها الرشيدَ ، فأمَرَ لأبان بعشرين ألف درهم . ثم اتّصلَ مدحُه للرشيد بعد ذلك وخُصَّ به .

وكان أبَان هَجّاء قبيح اللسان ، وكان مع هـذا شِرّيرًا قاسيًا يُؤثِر الشرّ ويجـدُ فيه لذّة . وقد رَوَى له أبو الفرج قصّـة تُمثّل نصيبه من القسوة وحبّ الشرّ . كما أنها تعطينا صورة من شعره ومن الحياة فى عصره . قالوا : كان يُقيم بالقُرب من أبان رَجُلٌ ثَقَفِىٌّ يقال له : محمد ابن خالد ، وكان عَدُوّا لأبَان ، فتزوّج محمدٌ هذا ثَقَفِيّةً معروفةً هى عمّارة بنت عبد الوهاب ، وكانت عمارة غَنِيّـة موفورة الثروة ، فاغتاظ أبان لهـذا الزواج ، وقال هـذه القصيدة التى بلغت عمارة فأفسدت زواجها :

لمـا رأتُ الـبزَّ والشـارَهْ * والفَرْشَ قد ضاقتْ به الحارَهْ
واللوز وا ... مى به * من فَوْق ذى الدار وذى الدارَهْ
وأحضَرُوا المُلْهِينَ لم يتركوا * طبـلا ولا صاحب زَمّارَهْ
قلتَ : لمـاذا قيل : أُعجوبةٌ ... عمـاره
ما ذا رأتْ فيه وما ذا رَجَتْ * وهى من النِّسْوان مُختـارَهْ
أَسْوَدُ كالسَّفُّود يُنْسَى لدى الـ * ـتَنّور بل مِحْـرَاكُ قَيّارَهْ (1)
على اولادِ ... :عصـه ... طمارة

وأهـلُهُ فى الأرض من خوفه * إن أفرطوا فى الأكل سيّارهْ
ويحك فِرّى واعصى ذا به * فهـذه أختُـك فـرّارهْ
اذا غفا بالليـل فاستيقظى * ثم اطفِـرى (١) إنك طفّارهْ
فصعِدتْ نائـلةً سُلّمـا * تخاف أن تصعَدَه الفارهْ
"سرورُ" غرّتْها فلا أفلحتْ * فإنهـا الخنـاء غـرّارهْ
لو نلت ما أبعدت من ريقها * إن لهـا نَفْثَـةَ سحّارهْ

فلما بلغت هذه القصيدة عمّارة هَرَبت، فحُرِم من جهتها مالا عظيما. والثلاثة الأبيات الأخيرة التى أولها * فصعدت نائلة سلما * زادها فى القصيدة بعد أن هربت .

جلس أبان ليلة فى قوم فثَلَبَ أبا عُبَيْدة فقال : يقدح فى الأنساب ولا نسب له . فبلغ ذلك أبا عبيـدة فقال فى مجلسـه : لقد أغفل السلطان كل شىء حين أغفل أخذ الجزية من أبان اللاحق ، وهو وأهـله يهود، وهـذه منازلهم فيها أسفار التوراة وليس فيها مصحف ، وأوضحُ الدِّلالة على يهـوديتهم أن أكثرهم يدّعِى حفـظَ التـوراة ولا يحفَظ من القرآن ما يصلّى به . فبلغ ذلك أبان فقال :

لا تَنِمَّنْ عن صديقٍ حديثا * واستعِذْ من تسرُّر النمّامِ
واخفِضِ الصوتَ إن نطقتَ بليلٍ * والتفِتْ بالنهار قبـلَ الكلامِ

قال عيسى بن اسماعيل: كنا فى مجلس أبى زيد الأنصارى فذكروا أبان بن عبد الحميد، فقالوا: كان كافرا، فغضب أبو زيد وقال : كان جارى فما فقدت قراءته فى ليلة قط .

⁂

وكان أبان يفوق الشعراء فى شىء نحسب أنه هو الذى سَبَق اليه، فقد ابتكر فى الأدب العربى "فنّا لم يتعاطَه أحد من قبله، وهو فنّ الشعر التعليمى"، طَرَق فيه فنونا مختلفة من العلم والحكمة والدين. وقد تحدّث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كليلة ودمنة» ليسهُل عليهم

حفظُه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف واكتفى جعفرٌ بأن يكون راويَته . وروى أبو الفرج أبياتا أربعة من هذا النظم ، وقد عثرنا على قطعة من كتاب مخطوط يوجد فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٩٤) تاريخ ، وهو كتاب «الأوراق» للصُّولى . وفى هذا الكتاب قطعةٌ صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة ، فرأينا أن نثبتها هنا ، لأن المنظومة ضاعت ولم يبق منها إلا الأبيات الأربعة التى رواها أبو الفرج . وها هى ذى :

هـذا كتابُ كَذِب ومِحْنَـهْ * وَهُوَ الذى يُدْعَى كَليلَه دِمْنَـهْ
دَلَالاتٌ وفيـهِ رُشْـدُ * وهو كتابٌ وَضَعَتْهُ الهنـدُ
فَوَصَـفُوا آدابَ كُلِّ عَالَمِ * حِكَايَةً أَلْسُنِ البهائِمِ
فالحكماءُ يَعرِفون فَضْـ * والسخفاءَ يشتهون هَزْلَهُ
وهْـوَ على ذاكَ يَسِـيرُ الحِفْظِ * لَذٌّ على اللسانِ عِنْـدَ اللفظِ
يا نفس لا تشاركى الجهّالا * فى حبّ مذمومٍ كأنْ قد زالا
يا نفسُ لا تشْـقَىْ ولا تَعَـنَّىْ * فى طلب الدنيا ولا تمـنَّىْ
ما لم ينَـلْه أحـدٌ إلا نَدِمْ * اذا تولّى ذاك عنـه وسَـدِمْ(١)
دنياكِ بالأحباب والإخوانِ * كثـيرة الآلام والأحزانِ
وهى وإن نِيل بها السـرورُ * آفاتُها وغمُّهـا كثيرُ
يا نفس لا يحمِـلْك حبُّ أهلِكِ * ولا أَدانيـك على أن تَهلِكِى
فى جمـع ما يرصِـيهمُ فإنه * يضرب من أمثال ذاك الدُّخْنَـهْ(٢)
ينـال قوم عَرْفَها وتحـترقْ * رأىٌ به يرضى أخو الرأى الحَمِقْ
وجدتُ ذا النُّسْكِ الذى قد فكّرا * فـزاده تفكيرُه توقُّـرا
وقـلَّ لمّـا رضِىَ اهتمامُـهُ * وتمّ من سـروره تمـامُهُ

(١) ندم وحزن . (٢) الدخنة : نحو يدخن به الثياب أو البيت وفى الأصل : «الدحنة» بالجيم وهو تحريف

وترك الدنيا لمن يشقى بها * ومن يقاسى الكدّ من أنصابها
فعندها نجا من الشرور * ونال أقصى غاية
ثم سخت عن كلّ فانٍ نفسهُ * فلقى السعدَ وغاب
وأبصر الثوابَ فى القيامهْ * فأمن الحسرةَ والندامهْ
ومثلُ الدنيا كبرقِ الخُلّبِ * من يه رمنه بسَقْيٍ يُكذَبِ
وهو قياسا مثلُ نوم النائمِ تُفرِحهُ أضغاثُ حُلْمِ الحالِمِ
حتى اذا آستيقظ صار همًا * ما كان فى النوم به ألمّا
فكيف بالصبر على أيّام * عمّا قليل هُنّ لأنصرامِ
يف والدنيا بلاءٌ كلّها * لا يأمن الآفاتِ فيها أهلُها
اسبه الله فردٌ واحدُ * أقرّ أو أنكرَ ذاك جاحدُ
ليس له كفوا ولا نِدًّا أحدْ * لم يَلِدِ اللهُ ولا له ولدْ
وإنى بما عملت مرتهَنْ * ما كان منه من قبيحٍ وحسَنْ

من باب الأسد والثور

وإنّ من كان دنىَّ النفسِ * يرضَى من الأرفع بالأخسّ
كمَثلِ الكلب الشقىّ البائسِ * يفرحُ بالعظم العتيق اليابسِ
وإن أهلَ الفضلِ لا يُرضيهمُ * شىءٌ اذا ما كان لا يَعنيهمُ
كالأسد الذى يصيد الأرنبا * ثم الى العَيْر[1] المجدّ هربا
فيرسل الأرنبَ من أظفارِهِ * ويتبع العيرَ على أدبارِهِ
والكلب من رقته تُرضيه * بلقمةٍ تَقْذِفها فى فيه
يعش ما عاش غير خامل * له سرورٌ دائمٌ ونائلُ
فهو وإن كان * أطولُ عمرا من حليفِ فقرِ
ومن يعش فى وحشةٍ وضِيقِ * وقلّة المعروف فى الصديقِ

(١) فى الأصل "ثم للعير" والعير : الحمار

فهـو وإن عَمّـر طول دهرِهِ * ليس بمغبـوط بطولِ عمـرِهِ
وقيـل أيضا إنه قـد ينبغى * للرجل الفاضـل فيما يبتغى
ألّا يُرى إلا مـع الأملاكِ[1] * أو يعبُـد اللهَ مـع النُّسّـاكِ
كالفيل لا يصلحُ إلا مَرْكبا * لملـك أو راعيًا مسيّبا
قال له السبعُ لقـد سمعتُ * وكلّ ما تقول قـد فهمتُ
لكننى لستُ أظنّ ما تظنّ * بالثور من غشٍّ بلى ظنٌّ حسن[2]
قال له دمنـةُ من ثمّ أُتِى * وهـذه مَنْ حالُهُ هى التى
رفعتَـه حتى تعـدّى طورَه * وكان هـذا لك منـه شكره
وتلك أخلاق اللئيم الفاجرِ * الكافرِ المغـرورِ غيرِ الشاكر
يزال ناصحا نفّاعا * حتى يرى حاله آرتفاعا
فعنـدها يسمو الى ما فوقَـها * الى التى لا تسـتطيع أوقـها[3]
وربما كان هلاكَ الشـجرِ * فى حُسُنِ الغصن وطيب الثمَـرِ
وذنب الطـاووس فهـوَ زَيْنُهُ * كذاك أحيانا وفيـه حَيْنُـهُ
وباذل النصح لمن لم يشكرْهْ * كطارحٍ فى سَبَخ ما يبـذُرُهْ
لا خيرَ للعاقل فى ذى المَنْظَرهْ * إن هـو لم يَحْمَدْهُ عنـد المَخْبَرهْ
وليس فى الصديق ذى الصفاءِ * خـيرٌ اذا لم يك ذا وفاءِ
الرجلُ العاقلُ من لا تُسْكِرُهْ * كأسُ سموٍّ وآقتـدار يُبطِـرُه[4]
فالجبـلُ الثابتُ فى أصولهِ * لا تقـدِر لريحُ على تحـويلهِ
والناقصُ العقلِ الذى لا رأىَ لَهْ * يطغى إذا ما نال أدنى منزلَهْ
مثـلُ الحشيش أيّما ريحٍ جرتْ * مالت بـه فأقبلتْ وأدبرتْ
الأهـل والإخوان والأعوانُ * عنـد ذوى الأموال حيث كانوا

(١) الأملاك : الملوك (٢) هـ ـ ـ له : «بل الظن الحسن» .
(٣) أوقها : ثقلها . (٤) فى الأصل هكذا "سطر"

والمال هادى الرأى والمروّه * وهو على كل الأمور قوّه
والمالُ فيه العزُّ والجمالُ * والذلُّ حيث لا يكون المالُ
وربما دعا الفقيرَ فقرُه * الى التى يُحبَط فيها أجرُه
فيخسر الدينَ كما كان خسِرْ * دنياه والخسران ما لا ينجبِرْ
وليس من شىء يكون مَدْحا * لذى الغنى إلا يكون بَرْحا
على الفقير ويكون ذمّا * كذاك يُدْعَى وبه يُسمّى
فإن يكن نَجْدًا يقولوا أهوجُ[1] * كذاك عند الحرب لا يعرّجُ
وهو إذا كان جوادًا سيّدا * سُمّى للفقرِ مُضيعًا مُفسِدَا
أويك ذا حِلمٍ يُقَلْ ضعيفُ * أويك بسّاما يُقَلْ سخيفُ
الرجلُ العاقلُ فيما يُسدِى * مغتبطٌ بكسبه للحمدِ
لأنه باع قليلا فانيا * وأعتاض من ذاك كثيرا باقيا
فأغبطُ الناسِ الكثيرُ نائلُهْ * ومدركُ النجح لديه سائلُهْ
فلا تعُدَّنْ ذا غنى غنيّا * حتى يكونَ ماجدا سريّا
وأعلم بأن الملِكَ المشاورا * ذا العقل فيما نابه المؤازرا
فإنه يُعضَدُ بالتأييد * يَغْنَى به عن كثرة الجنودِ
والحازمُ التابع أمرَ الحَزَمَهْ * النصحاءِ غيرِ أهل التُّهَمَهْ
يزيد في غير يديه علمَا * زيادةَ البحر إذا ما مُدّا
بالماء فيه من أنهارِه * حتى يهيجَ الموجُ من تيّارِهِ
والموتُ من مات كريما صابرا * خيرٌ من العيش ذليلا صاغرا

ولم ينقل لنا الصّولىّ فى كتابه إلا هذه القطعة . ويعدّ أبان فى هذا ناظما لكتاب معروف، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومة ، فنظم قصيدة طويلة فى الصوم والزكاة، روى منها الصولىّ طرفا .

(١) أهوج : أحمق . وفى الأصل : «هوج» بلا لام وهو تحريف .

فقيل لأبان بعد أن نظم كليلة ودمنة : ألا تعمل شعرا فى الزهد ؟ فعمل قصيدة مزدوجة فى الصيام والزكاة . وترجمتها :

"قصيدة الصيام والزكاة * نقلُ أبان من فم الرواة"

وها هى ذى القصيدة :

هذا كتابُ الصوم وهو جامعُ * لكلّ ما قامت به الشرائعُ
من ذلك المُنْزَلُ فى القرآنِ * فضلا على من كان ذا بيانِ
ومنه ما جاء عن النبىّ * من عهده المتّبَع المرضىّ
صلّى الإلهُ وعليه سلّما * كما هدَى اللهُ به وعلّما
وبعضُه على اختلاف الناسِ * من أثرٍ ماضٍ ومن قياسِ
والجامعُ الذى اليه صاروا * رأى أبى يوسف مما اختاروا
قال أبو يوسف أمّا المفترَضْ * فرمضانُ صومُه اذا عرَضْ
والصومُ فى كفّارة الأيمانِ * من حيثُ ما يجرى على اللسانِ
ومعَهُ الحجّ وفى الظِّهارِ[1] * الصومُ لا يُدفَع بالإنكارِ
وخطأ القتل وحلْق المُحرِمِ * لرأسه فيه الصيامُ فافهمِ
فرمضانُ شهرُه معروفُ * وصومُه مفترَض موصوفُ[2]
والصوم فى الظهار ان لم يقدِرِ * مظاهِرٌ يوما على محرِّرِ
والقتلُ إن لم يكُ عمْدا قتلُهُ * فإنّ ذاك فى الصيام مثلُهُ
شهران فى العِدّةِ كاملانِ * متّصلان لا مفرّقانِ
والحِنْثُ فى روايةٍ مقبولهْ * ثلاثةٌ أيامُها موصولهْ
ومثلُها فى عدّة الأيامِ * للمحرِم الحالِق فى الإحرامِ
ثلاثةٌ يصومها ا ، حلقا * لا بأس إن تابعها أو فرّقا

(١) الظهار مصدر ظاهر الرجل من امرأته اذا قال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، وكنى بالظهر عن البطن تأدبا
(٢) فى الأصل : "موطوف" .

والصومُ فى المُتعة ان لم يجدِ * هَدْيًا وكان بالصيام يفتدى
صيامُ أيامٍ مؤقتاتِ * ثلاثةٍ فى الحج مفروضاتِ
وبعد ما يرجع صومُ سبعه * عشرةٌ كاملة فى المتعه
أمّا الثلاثةُ التى فى الحجّ * فكان مَنْ أدركتُ من محتجّ
أو غيرِه ممن يَرَى أن يرويَهْ * يقول يوما قبل يوم التّروِيَهْ
ويومها وصوم يومِ عرفَهْ * مؤتلفاتِ الصوم لا مختلفَهْ
قالوا وإن أحبّ أن يُفرّقا * فذاك ما ليس عليه ضيّقا
إن كان ذاك الصوم منه بعدما * يكون فى عُمرَتِهِ قد أحرما
ولو أراد الصومَ فى شوّالِ * من بعد أن يوجب بالهلالِ
عمرتَه لكان ذاك مُجزيا * بذاك يُفتَى من أتى مستفتيا

وهى طويلة جدّا

ونحسب أن مكانه من البرامكة هو الذى حمله على اختراع هذا الفن؛ فقد كان مكانه منهم مكان المؤدّب لصبيانهم وشبابهم، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسهيلا . وليس من شك فى أن هذه الأموال التى أصابها من البرامكة حينما نظم كليلة ودمنة قد أطمعته، فنظم القصائد الأخرى ليصيب مثل ما أصاب .

أخبار حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان ومختار من شعره

قال أبو بكر الصّولى: حدّثنى محمد بن زياد قال: كانت فى عبد الصمد بن المعذّل عربدة اذا سكر، فعربد يوما فى مجلس فيه حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان، وكان أَيِّدًا[1]، فقال لهم: كِلُوه إلىّ وحدى، وأخذه وكتفه وجعله فى بيت وأغلق بابه، وقال: اذا أصبحتم فأطلقوه، وٱنصرف؛ فبلغه أن عبد الصمد حلف ليهجونّه سنة، فقال حمدان يهجوه :

قل لعبد الصمد الأحـ * ـمق لا تغضبْ عليَّهْ
وعلى أمّك فاغضـبْ * وٱكوِها فى الجَنْ كيَّهْ
أمك العـفلاء جاءتـ * ـنى بسلمى ورُقيَّـهْ
وهى ساقت ليـلةً فا * طمةً أخرى ٱليَّـهْ
فقضـينا فيهـم الحقّ * وقلَبنـا السـويّهْ

وقد ذكر الصولى فى كتابه الأوراق ما اختاره من قصيدة حمدان بن أبان بن عبدالحميد ابن أبان فى وصف الحب وأهله وهى طويلة، قال :

ما بالُ أهـلِ الأدبِ * منا وأهـلِ الكتب
قـد وضـعوا الآدابا * وأتعبـوا الكتّابا
لكلّ فنٍّ دفـترُ * منقّـطُ محـبّرُ
ففُـرِّقتْ أجناسـا * وعلّمـوها الناسـا
بالحِيَـل الرقيقـه * والفِطَن الدقيقه
فأرشـدوا الضُّـلّالا * وعلّمـوا الجُهّـالا
سِوى المحبينَ فلَمْ[1] * يرعَوا لهم حقّ الذِّمَمْ
فى عِلم ما قد جَهِـلوا * وما به قد ٱبتُـلُوا
قد غَلقتْ رُهونُهُ واسـ ـهم
وحالفـوا السّهَـادا * وخالفـوا الرّقَـادا
فليلُهـم طـويلُ * ونومُهـم قليـلُ
أبدانُهـم نحيـلَهْ * مُتعَبَـةٌ عليـلَهْ
نفوسُهـم حزينَـهْ * مشـغوفةٌ رزينَـهْ
ظاهرةٌ غمومُهـمْ * باطنـةٌ كلومُهـمْ

---

(١) فى الأصل : "فكم" .

بيوتهم * قريحةٌ جفونُهم
إن ظَلموا لم يَظلِموا * وإن شكَوْا لم يُرحَموا
أحبابُهم فى تَعبٍ * وفى دوام الطرَبِ
صافيةٌ ألوانُهم * ضاحكةٌ أسنانُهم
قد سكَنوا القُصورا * وقارَنوا السُّرورا
تفرَّغوا للهَجْرِ * وللنَّوى والغدْرِ
بعاشقٍ يهواهُمُ * بالله ما أقسى أهُمُ
وَعْدهُمُ وَعِيدُ * إقرارهُمْ جُحودُ
بؤسى لأهلِ العشقِ * أهلِ الضَّنا والرِّقِّ
ليس لهم وسيلَهْ * ولا وجوهُ حيلَهْ
رأيتُ لمَّا خُذلُوا * وفى هواهمُ وَحِلُوا
أنْ أُرشِدَ المغفَّلا * الجاهلَ المضلَّلا
الى الطريقِ الواضحِ * عند البلاءِ الفادحِ
وأبتدى كتابا * للوصفِ بابا بابا (١)
يا أيها الناسُ فعوا * وصيَّتى واستمِعُوا
ففى صِفاتى عجَبُ * وفى كتابى أدب
قصيدتى مقوَّمَهْ * ألفاظُها منظَّمَهْ
فيها هوَى العُشَّاقِ * ومُنيَةُ المشتاق
وصفتُ أهلَ العشقِ * ولم أمِلْ عن حقِّ
فاسمعْ مقالا صادقا * يا من يبيتُ عاشقا
للحبِّ خلَّتانِ * هُما هُما اللّتانِ
الصبرُ والرفقُ معَا * يومًا اذا ما اجتمَعا

---

(١) فى الأصل : * نوصف باب بابا *

فى عاشـــقٍ مهجورِ * مبـاعَدٍ مغــرُورِ
قَضَى قريبـا وطَـرَا * وبلّغـاهُ الوطَــرا
ما الحسنُ والإحسانُ * والملكُ والسلطانُ
يعدِلُ وصــلَ الإلفِ * وكَسرَهُ للطّـرْف
ما حَسَنٌ فى العيْنِ * أحسنُ منْ إلفيْنِ
يوما اذا ما آلتقيـا * فى مجلسٍ فاشــتفيا
مُداوِمَيْنِ للنظَـرْ * قد أمِنا كلَّ حَذرْ
يبادران الخَـلوَهْ * ويُظهران الصـــبوَهْ
مساعدَيْن آتفقا * باتا ولم يفــترِقا
هواهمـا مخزونُ * سرُّهمـا مدفونُ
مداريَيْن أصبحا * للنـاس لم يفتضِحا
مَنْ جرّبَ الحبَّ عَرَفْ * ما بين ملكٍ وأسفْ
لن يبلغَ الصبُّ المُنَى * الا بصــبرٍ وعَنـا
إن الهــوى ضُروبُ * وأمره عجيــبُ
وأهــلُه أطــوارُ * فيــه لهم أوطارُ
للعاقلِ الشــريف * والأحمــقِ السخيف
فنهُـــمُ مرزوقُ * محبَّبٌ معشــوقُ
على آضطرابِ الخلْقِ * منه وسوءِ الخُلْقِ
تُقضَى له الأوطارُ * وتُعملُ الأشــمارُ
مقــرّبٌ ما يُقصَى * مطاوَعٌ ما يُعصَى
ومنهُـمُ محـرومُ * مُحارَفٌ[1] مَشــئوم

---

١) محارف : محروم محدود اذا طلب لا يرزق

على جمالِ هيئتِه * وحسنِهِ وبهجتِه
ومنهُمُ من يُبتدا * ينالُ عيشًا رَغَدا
من غير سعى وطَلَبْ * وغيرِ كدٍّ ونَصَبْ
فَجَدُّ ذاك الأسعدُ * والبختُ منه أجوَدُ
إذ فاز باللذّاتِ * ودَرَكِ الحاجاتِ
ومنهُمُ من يتعَبُ * فى حبِّهِ ويدأبُ
أسقمه طولُ الهوى * وشفَّه وجدُ الجوى
فذاك صبٌّ قد شَقِى * بؤسَى له ما ذا لَقِى
ومنهُمُ البصيرُ * العاقلُ النحّريرُ
يحتمل الهجرانا * ويحمِلُ الأحزانا
فلا يزال مبتَلَى * حتى ينالَ أملا
ومنهم العميدُ * الجاهلُ البليدُ
يُحِبُّ بالتضجُّرِ * والجهلِ والتكبُّرِ
يَلقَى الحبيبَ باهتا * فلا يزالُ ساكتا
ومنهُمُ مَن يهوَى * بالغيب يأتى عفوا
فيزرَعُ الهُمُوما * مستجلبًا هُموما
فذاك حبُّ الغيبِ * ليس به من عيبِ
من دونه حجابُ * ودونه أبوابُ
فما لذاك لَبثُ * وليس منه مُكثُ
حتى يُرَى مقهورا * فى حبِّه محسورا
ومنهُمُ جَبّارُ * فى حبِّه آزورارُ
زهى اذا ما عشِقا * ورهنُهُ قد علقا

يلــــتزم الّلجاجَــــهْ * فليس يُبدي الحاجَه
فذاك حبُّ الفَوتِ * وفيــــه كَربُ الموت
ومنهُــمُ من للنظَرْ * يهوَى ولم يَعْدُ البصَرْ
اذا رأى خليـــلَه * داوَى به غليـــلَه
يڪتمُ ما يقـاسِى * من أعين الجُـــلّاسِ
ومنهمُ من اقتصرْ * على الحديث والنظـرْ
غايتُـــه السّــلامُ * واللحــظُ والكلامُ
مدافعٌ عن حبّــهِ * يكتُمُ وجدَ قلبِــهِ
يَنفِي الهوى وينـكرهْ * وبالتّـبرّى يســترُهْ
فذاك حبُّ العاقــلِ * حبُّ أديبٍ كامــلِ
وبعضُهم لا يُقنِعُـــهْ * إلا عمودٌ يودِعُــــهْ
قــد طلَبَ الحراما * والتمَــسَ الأثاما
فذاك حبُّ النّهِــيمِ * المـاجنِ المغتــلِمِ
حقّ له الحرمانُ * والمنعُ والخذلانُ
وبعضُهــم مَــذّاقُ * معـانقٌ مَــلّاقُ
مستعمِلٌ للكــذبِ * مُحَــرِّفٌ فى الكُتُبِ
فــذاك حبُّ الزُّورِ * يلسَـــعُ كالزُّنبــورِ
وبعضُهــمْ عميــدُ * غايةُ ما يــريد
خَلوةُ من يهــواهُ * فى مشهــدٍ يلقـاهُ
لحظتُــهُ مُســارَقه * مَبِيتُــهُ مُعانقَــهْ
مكاتمٌ لحبِّــهِ * فى بُعـــده وقُـربه
فــذاك حبّ يَكمــدَ سيرانه لا تخمد

ومنهم من يهيِف * بالحبّ حين يشغف

دا الحواء صدا * ولم ينله ودّا

تاه عليه وحَرِقْ[1] * وصدّ عنه وحمِق

وقال فى آخرها :

قد تمّ منى وصفُ * ولم يُخْفَ الرّصفُ

وانقضتِ القصيدهْ محبوبه

والحمدَ للرحمن * ذى العزّ والسلطانِ

الذمّ للشيطان * ذى العَرِم[2] والطّغيانِ

(١) حرق : ضن عليه وبخل .

(٢) العرم : الشدّة والشراسة . وفى الأصل : « العزم » .

٦ — منصور ى

كان ذا حيلة سياسية ، فأدرك أن الرشيد يسرُّه أن يُمدح بنفى الإمامة عن علىّ والطعن عليه ، لما كان يراه من تقديم مروان بن أبى حفصة بسبب ذلك ، فسلك مذهبه ونحا نحوه — والشعراء يومئذ انما يطلبون الكسب — لكنه لم يصرّح بالهجاء والسبّ كما فعل مروان ؛ ومن قوله فيه قصيدة مطلعها :

أميرَ المؤمنين اليكِ خُضْنا * غِمارَ الهَوْل من بَلَدٍ شَطِير

بخُوصٍ كالأهِلّة خافقاتٍ * تَلين على السُّرى وعلى الهَجِير

حَمَلْن اليك أحمالا ثِقالا * ومثلَ الصخرة الدُّرّ النثير

فقد وَقَف المَديح بمُنْتَهاه * وغايَتِه وصار الى المصير

الى من لا تُشير الى رسولٍ * اذا ذُكِر النَّدى كفُّ المُشير

وذكر فى القصيدة يحيى بن عبد الله بن حسن فقال :

يذلّل من رقاب بنى علىّ * ومنٌّ ليس بالمنّ الصغير

مننتَ عَلَى ابن عبد الله يَحْيَى * وكان من الحُتوف على شَفِير

(١) هو منصور بن الزبرقان بن سلمة النمرى الربعى ، من النمر بن قاسط ، ثم من ربيعة بن نزار . شاعر من شعراء الدولة العباسية . من أهل الجزيرة ، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابى وراويته ، عنه أخذ ، ومن بحره استقى ، وبمذهبه تشبه . وصفه العتابى للفضل بن يحيى بن خالد وقرظه عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحبه ، ثم وصله بالرشيد وجرت بعد ذلك بينه وبين العتابى وحشة حتى تهاجرا وتناقضا وسعى كل واحد منهما فى هلاك صاحبه ؛ وكان النمرى قد مدح الفضل بقصيدة وهو مقيم بالجزيرة ، فأوصلها العتابى اليه واستزاده له وسأله استصحابه ، فأذن له فى القدوم ، فحظى عنده ، وعرف مذهب الرشيد فى الشعر وإرادته أن يصل مدحه إياه بنفى الإمامة عن ولد على بن أبى طالب عليهم السلام والطعن عليهم وعلم مغزاه فى ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبى حفصة وتفضيله إياه على الشعراء فى الجوائز ، فسلك مذهب مروان فى ذلك ونحا نحوه . ولم يصرح بالهجاء والسبّ كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأومأ ولم يحقق ، لأنه كان يتشيع ، وكان مروان شديد العداوة لآل أبى طالب وكان ينطق عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا فلا يبقى ولا يذر . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٢ ص ١٦ وج ١٧ ص ٣٢ و ١٤١) .

ولقد تخلص الى شيء ليس عليه فيه شيء وهو قوله :

فإن شكروا فقد أنعمتَ فيهم * وإلّا فالنَّدامة للكفور

وإن قالوا بنــو بنت لحقٌّ * وردّوا ما يناسب للذُّكور

وما لبنى بنــات من تُراثٍ * مع الأعمام فى ورَق الزَّبُور

ومنهــا :

بنى حَسَن ورَهْطَ بَنِى حُسَينٍ * عليكم بالسَّداد من الأمور

فقــد ذُقتم قِرَاع بنى أبيكم * غَداةَ الرَّوع بالبِيض الذُّكور

أحين شَــفَوْكُمُ من كل وِتْر * وضَمُّــوكم الى كَنَف وَثِير

وجادُوكم على ظمأ شــديدٍ * سُــقيتم من نَوالهِم الغــزير

فمــا كان العقوق لهم جزاءً * بفعلهـــم وآدى للشُّــور

وإنك حين تُبلغهم أذاةً * وإن ظَلَموا لمحزونُ الضَّمير

فقال له : صدقت وإلا فعليّ وعليّ ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وأنشد الرشيدَ يوما قصيدتَه التى أوّلها :

ما تنقضى حَسْرَةٌ منّى ولا جَزَعُ * اذا ذكرتُ شَبَابا ليس يُرْتَجَعُ

بانَ الشبابُ وفاتنى بِلَذَّتِه * صُرُوفُ دَهْرٍ وأيامٌ لها خِدَعُ

ما كنت أُوفِى شبابى كُنْهَ غُرَّتِه * حتى ٱنقضَى فاذا الدنيا له تَبَعُ

فقال الرشيد : أحسن ! والله لا يَتَهنَّى أحد بعَيْش حتى يَخْطِرَ فى رِداء الشباب

ومن قوله فيها يمدح الرشيد :

أىّ ٱمرئٍ باتَ من هارونَ فى سَخَطٍ * فليس بالصلوات الخمْس يَنْتَفِـعُ

إنّ المكارم والمعــروفَ أَوْدِيةٌ * أَحلَّك اللهُ منها حيث تَجْتَمِـعُ (١)

---

(١) رواية الأغانى : "تتسع" .

اذا رَفعتَ آمرءًا فاللهُ يرفَعُـه * ومَنْ وَضَعتَ من الأقوام مُتَّضِعُ
نَفْسِى فِداؤك والأبطالُ مُعْلمة * يومَ الوَغَى والمنـايا صابُها فزِع

ومن قوله يمدح الرشيد :

يامَنزِلَ الحى ذا المَغانى * إنعمْ صَبَاحًا على بِلاكا
هارونُ ياخيرَ من يُرَجَّى * لم يُطِـعِ اللهَ مَنْ عصاكا
فى خيرِ دِينٍ وخيرِ دنيا * من آتقى اللهَ وآتقـاكا

وناهيك بقصيدته التى رفعت السيفَ عن ربيعةَ بنَصِيبِين بعد أن جرده فيها الرشـيد وهى التى يقول فيها :

وقـد علم العُدْوانُ والجَوْرُ والخَنا * بأنك عَيّاف لهن مُزايِـلُ
ولو عملوا فينـا بأمرك لم يكن * يَنـال بَرِيًا بالأذى مُتَناوِلُ
لنـا منك أرحامٌ ونعتـدّ طاعةً * وبأسا إذا آصطكّ القَنا والقنابل(١)
وما يَحْفَظ الإحسانَ مثلك حافظٌ * ولا يَصِلُ الأرحامَ مثلك واصل
جعلناك فامنَعْنا مَعـاذًا ومَفزَعًا * لنا حين عضّتنا الخطوبُ الجلائلُ
لأنت إذا عاذت بوجهك عُوَّذٌ * تَطامَنَ خوف وآسـتقرّت بلابل

اجتمع جماعة من الشعراء ببَغْداد وفيهم منصور النمرى، وكانوا على نَبيذ، فأبى منصور أن يشرب معهم، فقالوا له : إنمـا تعاف الشَّراب لأنك رافِضِىّ، وتَسـمع وتُصغى الى الغِناء، وليس تَرْكُكَ النَّبيذ من ورع، فقال :

خلا بين نَدْمانَىَّ موضـعُ مَجْلسى * ولم يبق عندى للوِصال نَصيب
ورُدّتْ على الساقى تَفِيض وربّما * رددتُ عليه الكأسَ وهو سَليب
وأىّ آمرئٍ لايَستهِش اذا جرتْ * عليه بَنـانٌ كَفُّهن خَضيب

(١) مفرده قنبل بفتح فسكون ثم فتح : الطائفة من الناس .

قال النمرى : كنت واقفا على جِسْرِ بَغداد أنا وعبيد الله بن هشام ، وقد وَخَطَنِي الشيبُ يومئذ ، وعبد الله شابٌ حديثُ السِّنّ ، فاذا أنا بقَصْرِيَّةٍ ظريفة قد وقفتْ ، فجعلت أنظر اليها وهى تنظر الى عبيد الله ثم انصرفتْ ، وقلت فيها :

لمـا رأيتِ سَـوَامَ الشَّيب منتشرًا * فى لِمَّـتى وعبيـدَ الله لم يَشِب

سَلَّتِ سهمين من عينيك فانتضلا * على سـبيَّةَ ذى الأذيال والطرب

كذا الغـوانى نرى منهنّ قاصدة * الى الفروع مُعَـرَّاة عن الخشب

لا أنتِ أصبحت تعقدْ بيننا أربًا[1] * ولا وعيشك ما أصبحت من أربى

إحدى وخمسين قد أنضيت جِدّتها * تحـول بينى و بين اللّهـو واللّعِب

لاتحسبيني وإن أغضَيْتِ عن بصَرى * غفَلتُ عنكِ ولا عن شأنك العجَب

غضب الرشيد على منصور النمرى لمـا أُنشِد قصيدتَه فى مدح العلويين وأوّلها :

شاءٌ من الناس راتِـعٌ هامِلْ * يعـللون النفوسَ بالباطلْ

وفيها يقول :

ألَّا مَسَاعيرُ[2] يغضبون لهـا * بسَلّة البِيض والقَنَا الذابلْ

فغضب من ذلك غضَبا شديدا وقال للفضل بن الربيع : أحضِرْه الساعةَ ، فبعث الفضل فى ذلك ، فوجده قد تُوُفِّىَ ، فأمر بنبشه ليُحرِقه ، فلم يزلِ الفضل يُلطِفُ له حتى كَفّ عنه .

واليك قصيدتَه فى مدح العلويين نقلا عن الشعر والشعراء لابن قتيبة ، لأن صاحب الأغانى أغفلها ولم يذكر منها إلا البيتين السابقين :

شاءٌ من النـاس راتِـعٌ هامِلْ * يُعَلّلون النفـوسَ بالبـاطلْ

تُقتَـل ذُرّية النبىّ ويَرْ * جون جِنانَ الخُـلود للقاتلْ

وَيْلَك يا قاتلَ الحسين لقـد * نُؤْتَ بحِمْـل ينُـوءُ با لحامل

(١) كذا فى الأصل ولعله : * لا أنت أصبحت يعقد بيننا أرب * بتسكين الفعل يعقد للضرورة وتسكين الفعل فى الضرورة وارد ومنه قول امرئ القيس : فاليوم أشرب غير مستحقب * اثما من الله ولا واغل

(٢) فى الشعر والشعراء "مصاليت" .

أىّ حِباءٍ حَبَوْتَ أحمدَ فى * حُفْرَته من حَرارة الثاكلِ
بأىّ وجه تلْقَى النبىَّ وقد * دَخَلْتَ فى قتله مع الداخلِ
هَلُمّ فاطلُبْ غدًا شفاعتَه * أولا فَرِدْ حَوْضَه مع الناهلِ
ما الشكّ عندى فى حال قاتله * لكننى أشُكّ فى الخاذلِ
نفسى فداء الحسين حين غدا * إلى المنايا غُدُوّ لا قافِلِ
ذلك يومٌ أنحى بشَفرته * على سَنام الإسلام والكاهِلِ
حتى متَى أنتِ تَعْجَبِين ألا * تنزِلُ بالقوم نِقْمةُ العاجِلِ
لا يَعْجَلُ الله إن عَجِلْتِ وما * ربُّك عما يريد بالغافلِ
وعاذلى أننى أحبّ بَنِى * أحمدَ فالتُّرب فى فمِ العاذِلِ
قد ذُقْتُ ما دينُكم عليه فما * وَصَلْتُ من دينكم إلى طائلِ
دينكُم جَفْوَة النبىّ وما الـ * ـجافى لآل النبىّ كالواصلِ
مظلومة والنبىّ والدها * تُدِيرُ أرْجاءِ مُقْلةٍ حافِلِ
ألّا مَصاليتُ يَغْضَبُون لها * بسَلّة البِيض والقَنا الذابِلِ

وقال أيضا :

آل النبى * يتطامنون مخافة القتـ ـل
أمِنوا النصارى واليهودَ وهم * من أمّة التوحيد فى أزْلِ (١)

وأُنشِدَ الرشيدُ هذا بعد موته فقال : لقد هَمَمْتُ أن أنْبُشَه ثم أحرقه .

ومن جيد شعره قوله فى الرشيد :

يا زائرَينا من الخيامِ * حيّاكما الله بالسلامِ
يُحْزِنُنِى أن أطَقْتُمانى * ولم تنالا سِوَى الكلامِ

(١) الأزل : الضيق والشدة

حلم تطرقاني وبي جزاك * إلى حلال ولا حرام
هيهات للهو والتصابي * وللغواني وللمدام
أقصر جهلي وثاب حلمي * ونهنه الشيب من غرامي (١)
عجبر أيها لقد تولت * سالمة الخد من عذامي (٢)
لله حي وترب حي * ليلة أعياهما مرامي
آذيتاني بطول هجر * وغرتاني مع السوام
وأنطوتا لي على ملام * والشيب شر من الملام
بورك هارون من إمام * بطاعة الله ذي اعتصام
له الى ذي الجلال قربى * ليست لعدل ولا إمام
يسعى على أمة تمنى * أن لو تقيه من الحمام
لو استطاعت لقاسمته * أعمارها قسمة السهام
يا خير ماض وخير باق * بعد النبيين في الأنام
ما استودع الدين من إمام * حامى عليه كما تحامي
يؤنس من رأيه برأى * أصدق من سلة الحسام

وقال :

أعمير كيف لحاجة * طلبت الى صم الصخور
لله در عداتكم * كيف انتسبن الى الغرور
او . الليالي ضمنني * ووسمتني سمة الكبير
أطفأن نور شبيبتي * وفرشنني كنف القبور
ولقد تبيت أناملي * يجنين رمان النحور

(١) الغرام : الحدة . (٢) العذم الشمة كالعض بالأسنان .

٧ — السيّد الحميرىّ[1] [2]

« لم يكن السيّد الحِميَرِىّ من أنصار الحسَن والحُسَين ، أو بعبارة أصحّ لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين ؛ وإنما كان من الكَيْسانيّة الذين كانوا ينصرون الابنَ الثالث من أبناء علىّ : محمدَ بن خَوْلة الحنفيّة ، والذين كانوا يَدِينون بأنه لم يمت وإنما تغيَّب عن الناس واحتجب عنهم حينًا وسيعود فيملأ الأرض عدلًا كما مُلئت جَوْرا ، فلم يكن على السيد الحميرىّ بأسٌ أن يمدح بنى العباس ويتقرب منهم ما دام صاحبُه محمدُ بنُ الحنفيّة لم يَعُد من غيبته بعدُ . ثم نستطيع أن نُميِّز هذا الشاعر بخَصْلة لم نرها فى شاعر من الذين تحدّثنا عنهم ، وهى أنه كان سخيفًا ضعيفَ العقل شديدَ الإيمان بالخرافات والأوهام ، ويظهر أن هذه الخصلةَ جاءته من مذهبه نفسِه فى الرجعة ، فقد أسرف فى هذا المذهب كما أسرف فى مدح العَلَويِّين والإيمان بهم حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يُقبل وما لا يُقبل ؛ فكان كلّ خير يمكن أن يُنسَب إلى العلويِّين ، رضيه العقلُ أم لم يرضه ، وكان كل شرٍّ يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين ، رضيه العقل أم لم يرضه ، وكان يكفِى أن يسمع رجلا من أهل القَصَص ورُواةِ الأساطير يروِى كرامة من الكرامات يُضيفها إلى أحد العلويين حتى ينظِم فيها قصيدة طويلة جيِّدة ، ويتخذ هذه القصيدة وسيلةً إلى ذمّ السلَف والنعى عليه .

(١) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحميرى والسيد لقبه ويكنى أبا هاشم ، كان شاعرا متقدما مطبوعا ، يقال إن أكثر الناس شعرا فى الجاهلية والاسلام ثلاثة : بشار وأبو العتاهية والسيد ، فانه لا يعلم أن أحدا قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع ، وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه فى شعره ويستعمله فى قذفهم والطعن عليهم فتحومى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تخوّفا وترقبا ، وله طراز من الشعر ومذهب قلما يلحق فيه أو يقارب ، ولا يعرف له من الشعر كثير ، وليس يخلو من مدح بنى هاشم أو ذم غيرهم ممن هو عنده ضد لهم . توفى سنة ١٧٣ هـ . وتجد ترجمته وأخباره فى الأغانى (ج ٧ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ١ ص ١٩) .

(٢) - من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

وخَصْلة أخرى تقرّبه من الزنادقة الذين عاصروه ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفةً واهيةً فى الوقت نفسه .

وهى أنه كان يستبيح ضروبا من اللهو والمنكر، ويُسرف فى شرب الخمر وغير ذلك من ألوان العبث، لا لأنه كان يجحد الدين أو يزدريه بل لأنه كان يدلّ على صاحب الدين؛ كان يحبّ النبىّ صلى الله عليه وسلم وآله ويمنحهم مودّته ونَصْره، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك وسيشفعون له فى ذنوبه وآثامه لِمَا قدّم بين يديه من مَدْح العلويين ونَصْرهم على خصومهم؛ وكان بنو هاشم وبنو علىّ خاصّة يُطْمِعُونه فى ذلك ويعترفون له به، فإذا ذُكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر قالوا : وأىّ ذَنْب يعظُم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت ! بل قال أحدهم : إنّ مَنْ أحبَّ آلَ علىٍّ لم تزلّ له قَدَمٌ إلا ثبتت له أخرى؛ وعلى هذا كان السيّد الحميرىّ يلهو آمنا فى دينه ودُنياه، يعتمد فى دينه على العلويّين، ويعتمد فى دنياه على العباسيين، يقدِّر أنّ العلويين سيشفعون له عند الله، ويعلم أنّ العباسيين يتّقون شرّه ويُؤْثرون مدحه على هجائه ؛ وكان من مُعاصِريه مَنْ يكره ذلك ويمْقُتُه كلّ المقت، ويُضمر للسيّد عِداءً وحِقدا لايَعْدِلها عِداءٌ ولا حِقْد؛ ومن هؤلاء سَوّار بن عبد الله العَنْبَرى قاضى البصرة للمنصور . فقد كان العداءُ بينه وبين السيد شديدا ، وكان قد أجمع ألّا يَقْبل للسيّد شهادة، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غَيْرَ مرّة ؛ وكان السيّد قد هجاه فأسرف فى هجائه، فشكا ذلك إلى المنصور فنهاه المنصورُ عنه وأمره أن يذهب الى القاضى فيعتذرَ اليه، وأبى القاضى أن يقبل معذرته، فاستأنف السيد الهجاء وألحّ فيه . ويقال إنّ سوّارا أعدّ شهودا يشهدون على السيد بالسرقة ليقطع يده، فعلم السيد ذلك بجَزِع وفزع إلى المنصور ، فعزل المنصور سوّارا من القضاء للسيد أو عليه ، ولم يلبث سوّار أن مات فتبعه السيد بعدائه وبُغْضه وهجائه » .

قال أبو جعفر الأَعْرَج : كان السيّد أسمر تامَّ القامة، أشنبَ ذا وَفْرة، حسنَ الألفاظ جميلَ الخطاب، اذا تحدّث فى مجلس قوم أعطى كلّ رجل فى المجلس نصيبَه من حديثه ؛

وقال الفرزدق : إنّ ههنا لرجلين لو أخذا فى معنى الناس لما كنّا معهما فى شىء: السيد الحميرى وعمران بن حطّان السّدوسىّ، ولكنّ الله عزّ وجلّ قد شغل كلّ واحد منهما بالقول فى مذهبه؛ وقال الأصمعىّ لمّا أنشد شيئا من شعره: ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه، ولولا ما فى شعره ما قدّمت عليه أحدا من طبقته؛ وكان أبو عبيدة يقول : أشعر المحدثين السيّد الحميرىّ وبشّار .

وكان السيّد يذهب مذهب الكيسانيّة ويقول بإمامة محمد بن الحنفيّة ، وله فى ذلك شعر كثير .

وقف السيّد على بشّار وهو ينشد الشعر، فأقبل عليه وقال :

أيها المادح العباد ليُعطَى * إنّ لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم * وآرجُ نفعَ المنزِّل العوّاد
لا تقُل فى الجوّاد ما ليس فيه * وتُسمّى البخيلَ باسم الجَوّاد

قال بشّار : مَنْ هذا؟ فعرفه، فقال : لولا أنّ هذا الرجل قد شُغل عنّا بمدح بنى هاشم لشَغَلنا، ولو شاركنا فى مذهبنا لتَعِبْنا .

ومن قول السيّد :

أتعرِفُ رَسْمًا بالثّويّيْن قد دَثَرْ * عفَتْه أهاضيبُ السحائب والمطَرْ
وجرّتْ به الأذيالَ ريحانِ خِلْفةً * صَبًا ودَبور بالعشيّات والبُكَرْ
منازلُ قد كانتْ تكونُ بجوّها * هَضيمُ الحَشى ريّا الشّوَى سِحْرُها النّظَرْ
قَطوفُ الخُطَا خُمْصانةٌ بَخْتَرِيّةٌ * كأنّ مُحيّاها سَنَا دارةِ القَمَرْ
رمَتْنى ببُعدٍ بعد قُرْبٍ بها النّوى * فبانتْ ولمّا أقضِ من عَبْدةَ الوَطَرْ
ولمّا رأتنى خَشْيَةَ البَيْن مُوجَعًا * أُكفكِفُ منى أدمُعا بيضها دُرَرْ
أشارتْ بأطرافٍ إلىّ ودَمْعُها * كنظمِ جُمانٍ خانَهُ السِّلْكُ فانتثرْ
وقد كنتُ مما أحدثَ البَيْنُ حاذرا * فلم يُغنِ عنّى منه خوْفِىَ والحَذَرْ

لمـا استقام الأمر لبنى العباس قام السيّد الى أبى العباس السفّاح حين نزل عن المنبر فقال:

دُونَكُمُوها يا بنى هاشم * فجدّدوا من عهدها الدارسا
دونكموها لا علا كَعْبُ مَن * كانَ عليكم مُلْكها نافسا
دونكموها فالبسوا تاجَهـا * لا تَعْدَموا منكم له لابسا
او خُيِّر المنـبرُ فُرسانَهُ * ما اختارَ إلّا منكمُ فارسا
قد ساسهـا قبلكُم ساسـةٌ * لم يتركوا رَطْباً ولا يابسا
ولستُ من أن تملكوها الى * مَهْبَط عيسى فيكم آيسـا

وبعث بهذه الأبيات إلى المهدى يسأله ألّا يعطى آل بكر وعمر من مال الدولة :

قل لابن عبّـاسٍ سَمِيِّ محمّـد * لا تُعْطِيَنَّ بنى عدىٍّ درهمـا
احرِمْ بنى تَيْم بن مُرّة إنهـم * شرّ الـبرية آخرا ومُقـدّما
إن تعطهم لن يشكروا لك نعمةً * ويكافئوك بأن تُذَمّ وتُشْتَما
وإن ائتمنتهـمُ أو استعملتهـم * خانوك واتخذوا خَرَاجك مَغْنَما
ولئن منعتهمُ لقـد بدءوكُمُ * بالمنـع إذ مَلَكوا وكانوا أظلما
مَنَعُوا تُرَاثَ محمـــد أعمامَـه * وبَنِيهِ وابنتـه عَدِيلةَ مَرْيَمـا
وتأمّروا من غير أن يُسْتَخْلَفُوا * وكَفَى بمـا فَعَلُوا هنالك مأثمـا
لم يشكروا لمحمد إنعـامَهُ * أفيشكرون لغـيره إنْ أنعمَا
والله مَنَّ عليهـمُو بمحمّـد * وهداهم وكسا الجنوب وأطعما
ثم انـبروا لوصيّه ووليّـه * بالمنكرات فجرّعوه العلقما

أنشد السيّد جعفر بن محمد هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

أُمْرُرْ على جَدَث الحُسَيـ * ـن فقُـلْ لأعظُمِهِ الزكيّهْ
آأعظُمًا لا زِلْتِ مِنْ * وَطْفَـاءَ ساكبةٍ رَوِيّهْ
واذا مَرَرْتَ بقـــبره * فأَطِلْ به وَقْفَ المطيّـهْ

وَأَبــكِ المُطَهــرَ للطـ * ـهرِ والمُطَهــرَة النَّقِيــهْ
كبكاءِ مُعْــوِلَةٍ أَتتْ * يوماً لواحدها المنيَّــهْ

فانحــدرتْ دموعُ جعفر على خدّيه وآرتفع الصراخُ والبكاء من داره حتى أمره بالإمساك فأمسك .

ومن قول السيد فى إمامة ابن الحنفية :

أَلَا يا أيُّهـا الجَـدِلُ المعنَّى * لَنَـا ما نحنُ وَيْحَكَ والعَنَاءُ
أَتُبْصِرُ ما تقولُ وأنتَ كَهْلٌ * تراكَ عليـك من وَرَعٍ رِدَاءُ
أَلَا إنَّ الأئمـةَ من قُرَيشٍ * وُلَاةُ الحقِّ أربعــةٌ سـواءُ
علىٌّ والثــلاثةُ من بَنِيـهِ(١) * هُمُ أســباطُهُ والأوصياءُ
فأنَّى فى وصيّتــهِ اليهـم * يكونُ الشكُّ منّا والمِرَاءُ
بهــمْ أوصاهُمُ ودعا اليـه * الخَلْقِ لَوْ سُمِـع الدعاء
فَسِبْطٌ سِـبْطُ إِيمَانٍ وحِلْمٍ * وسِـبْطٌ غَيَّبَتْـهُ كَرْبَلَاءُ
سـقى جدثًا تضمنه مليكٌ * هَتوفُ الرعد مُرْتَجِزٌ رَوَاء
تَظَـلّ مُظِلّةً منهـا عزالٍ(٢) * عليـه وتغتدى أخرى مِلاء
وسبطٌ لا يذوق الموت حتى * يقود الخيـل يقدمها اللواء
من البيت المحجّبِ فى سُراةٍ * شُرَاةٍ لَفَّ بينهـم الإخا
عَصائبُ ليس دون أغرّ أجلى * بمكة قائم لهم انتهاء

وأنشد العتبىّ قصيدته اللامية التى أولها :

هل عندَ مَنْ أَحببتَ تَنْوِيلُ * أَمْ لا فإنَّ اللومَ تَضْــليلُ
أم فى الحَشَى منكَ جَوًى باطلٌ * ليس تُداوِيهِ الأَبَاطيــلُ

(١) هم الحسن والحسين ومحمد . (٢) العزلاء : . لماء من الراوية ونحوها ، ويقال : انزلت سماء عزاليها إشارة الى شدة وقوع المطر على التشبيه بنزوله من أفواه المزاد

عَلِقتَ يامغـرورُ خَدّاعةً * بالوعد منهـا لكَ تخييــل
رَيَّا رَدَاح النَّـوم خُمْصـانةٌ * كأنّهـا أَدْمَاء عُطْبُول
يَشْفيكَ منهـا حين تخلوبها * ضَمٌّ الى النحر وتَقْبيــل
وذَوْقُ رِيـقٍ طيِّبٍ طعمُه * كأنّه بالمسـك مَعْلول
فى نسوةٍ مثـــل المهـا خُرَّدٍ * تَضيق عنهُنّ الخلاخيــل

يقول فيها :

أُقسِم بالله وآلائـــه * والمرءُ عمّا قال مسئول
إن عليّ بن أبي طالبٍ * على التُّقَى والبرّ مجْبول

فقال : أحسنَ والله ما شاء، هذا والله الشعرُ الذى يهجُم على القلب بلا حجاب .

قيل للسّيد : مالكَ لا تستعملُ فى شِعْرك من الغريب ما تُسأل عنه كما يفعل الشعراء؟
قال : لأَنْ أقولَ شـعرا قريبا من القلوب يَلَذّه مَنْ سمعــه، خيرٌ من أن أقول شيئا مُعَقّدا تَضِلّ فيه الأوهام .

تقدّم السـيِّد الى سَوّار القاضى ليَشْهد عنــده، فلم يرضَ به، فقام مُغْضَبا من مجلسه، وكتب رُقعة يقول فيها :

يا أمينَ الله يا منـــ * ـــصورُ يا خيرَ الوُلاةِ
إنّ سَــوّارَ بنَ عبد ا * للهِ من شرّ القُضَاة
نَعْثَــلِيّ جَمَــلِيّ * لكمُ غيرُ مُواتِ
جــدّه سـارقُ عنْزٍ * فَجْرةٌ من فَجَرَاتِ
لِ الله والقـا * ذِفُــهُ بالمُنْكَرَاتِ
وابْنُ مَنْ كان يُنَادِى * مِن وراء الحُجُرَاتِ
ياهَنــاةُ اُخرُجْ الينـا * إننا أهــلُ هَنَـاتِ
مدحنا المدحُ ومَنْ رَ * بُ بالزَّفَرَاتِ
فا كفِنيــه لا كفاهُ ا * للهُ الطـارقات

قيل : فلمّــا قرأها سوّارٌ وثَب من مجلسه وقصد أبا جعفر المنصور، وهو يومئذ نازلٌ بالجسر، فسبقه السّيد اليه فأنشده :

قـــل للإمام الذى يُنْجَى بطاعته * يومَ القيامة من بُحْبُــوحة النــار
لا تَسْتَعِنْ وجزاكَ اللهُ صالحـــةً * ياخيرَ مَن دبَّ فى حُكْمٍ بسَــوّار
لاتستَعِنْ بخبيث الرأى ذى صَلَفٍ * جَمِّ العيـــوب عظيمِ الكِبْرِ جَبّارِ
يُضْحِى الخصومُ لديه مِنْ تَجَـبُّره * لا يرفعون اليـه لَحْظَ أبصار
تيهاً و كِبْراً ولولا ما رَفَعْتَ له * من ضَبْعِه كان عينَ الجائع العارى

ودخل سوّار، فلمّــا رآه المنصور تبسّم وقال : أمَا بلغـك خبرُ إياس بن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق واستزاد فى الشهود ؟ فمــا أَحْوَجَكَ للتعرّض للسـيّد ولسانه ! ثم أمر السيد بمصالحته

دخل السيد على المهدىّ لمّــا بايع لابنيه موسى وهارونَ، فأنشأ يقول :

ما بالُ مَجْرَى دَمْعك الساجِمِ * أمِنْ قَذًى باتَ بهـا لازِمِ
أمْ مِنْ هَوًى أنتَ له ساهـرٌ * صبابَـــةً مِن قلبكَ الهائمِ
آليتُ لا أمـــدح ذا نائلٍ * مِن مَعْشرٍ غيرِ بنى هاشم
أوْليتُهم عنـــدى يدَ المصطفى * ذى الفضل والمَنِّ أبى القاسِمِ
فإنّهــا بيضــاءُ محمـــودةٌ * جـزاؤُها الشكرُ على العــالَم
جزاؤُهــا حِفْظُ أبى جعـــفرٍ * خليفــةِ الرحمن والقــائم
وطــاعةُ المهـــدىّ ثم ابنه * موسى على ذى الإرْبَةِ الحازم
وللرشـــيد الرابــعِ المرتضى * مُفترَضٌ مِن حقّه اللازم
مُلْــكُهم خمسون معدودةٌ * برغم أنف الحاســـد الراغم
ليس علينا ما بَقُـــوا غـيرُهم * فى هــذه الأمّة من حاكم
حتى يردّوهــا الى هــابطٍ * عليــه عيسى منهم ناجــم

ومن شعر السيد :

جرت خَطْرةٌ على القلب منى * فيك إلّا استترتُ عن أصحابى
من دموع تجرى فإن كنتَ وحدى * خاليا أسعدتْ دموعى انتحابى
إنّ حبِّى إياكِ قد سلَّ جسمى * ورمانى بالشيب قبلَ الشباب
اللّقا شفنى بك صبّاً * هائمَ القلب قد ثوى فى التراب

ومما قاله فى الحبس :-

قِف بالديار وحيِّها يا مَرْبعُ * وٱسأل وكيف يُجيب مَنْ لا يسمعُ
إنّ الديار خلَتْ وليس بجوِّها * إلا الضوابحُ والحمامُ الوُقَّع
ولقد تكونُ بها أوانسُ كالدُّمَى * جُمْلٌ وعزّةُ والرَّبابُ وبَرْوَع
حورٌ نواعمُ لا تُرَى فى مثلها * أمثالهُن من الصّيانة أرْبع
فعَرِين بعد تألف وتجمع * والدهر صاح مُشَتِّتٌ ما يَجْمع
لم فإنك قد نزلت بمنزِ الأمير تضرّ فيه وتنفع
تُؤْتَى هواكَ اذا نطقتَ بحاجةٍ * فيه وتَشْفَع عنده فتشفع
قُلْ للأمير اذا ظفِرتَ بخَلْوةٍ * منه ولم يكُ عنده مَنْ يَسْمَع
هَبْ لى الذى أحببتُه فى سيد * وبنيه إنك حاصد ما تزرَع
يَخْتصُّ ... محمد بمحبة * فى الصدر قد طُوِيَتْ عليها الأضلع

وقال يهجو آمرأة وارث موسِر من خلّانه، وكانت تعذِل زوجها على إسرافه :

أقول ياليتَ لَيْلَى فى يَدَىْ حَنِقٍ * من العداوة من أَعْدَى أعاديها
يعلُو بها فوقَ رَعْنٍ[(١)] ثم يَحْدِرها * فى هُوَّةٍ فَتَدَهْدَى يومها فيها
أو لَيْتَها فى عِمارِ البحر قد عصفتْ * فيه الرياحُ فهاجتْ مِنْ أواذيها[(٢)]

---

(١) الرعن : أنف يتقدم الجبل جمعه رعون ورعان . والجبل الطويل ودهدى الحجر فتدهدى ، أى دحرجه فتدحرج . (٢) الأوادى : أمواج البحر مفردها آذى .

أو ليتها قد دنت يوماً الى قربى * قد شُدّ منه الى هاديه هاديها
حتى يُرى لحمها من حُضْرِه زِيَماً[1] * وقد أتي القومَ بعدَ الموت ناعيها
فَمن بكاها فلا جَفَّت مدامعُه * لا أسخنَ اللهُ إلا عينَ باكيها

وقيل : إنّ آخر قصيدة له هى قوله :

أشاقتكَ المنازلُ بعدَ هندٍ * وتربيها وذاتِ الدَّلِّ دعدِ
منازلُ أقفرتْ منهنّ مَحّتْ * معالِمُهنّ مِنْ سيلٍ ورعدِ
وريحٍ حرجفٍ تَستنّ فيها * بسافى التُّرْبِ تُلحِم ما تُسدِّى
ألَمْ يبلغْكَ والأنباءُ تَنْمِى * مقالُ محمدٍ فيما يُؤدِّى
الى ذى علمه الهادى علىٍّ * وخَوْلةَ خادمٍ فى البيت تَرْدى
ألَمْ ترَ أنّ خَوْلةَ سوف تأتى * بوارى الزَّند صافى الخِيم نَجْد
يفوز بكُنْيتى واسمى لأنّى * نحلتُهما هو المهدىّ بعدى
يُغيَّبُ عنهمُ حتّى يقولوا * تضمّنه بِطَيْبة بطنُ لحد
سنينَ وأشهراً ويُرى برَضْوى * بشِعب بين أنمارٍ وأُسْد
مقيمٌ بين آرامٍ وعينٍ * وحُفّانٍ[2] تَروح خِلالَ رُبْد
تُراعيها السباعُ وليس منها * مُلاقيهنّ مُفترِساً بحدّ
أمِنّ به الرّدى فرتَعْن طوراً * بلا خوفٍ لدى مَرْعًى وورْد
حلفتُ بربِّ مكةَ والمُصلّى * وبيتٍ طاهرِ الأركان فرْد
يطوف به الحجيجُ وكلّ عامٍ * يَحُلّ لديه وفدٌ بعدَ وفد
لقد كان ابنُ خَوْلةَ غيرَ شكٍّ * صفاءَ وِلايتى وخلوص وُدّى
فما أحدٌ أحبَّ إلىّ منه * أُسِرُّ وما أبوح به وأُبْدِى
سوى ذى الوَحْى أحمدَ أو علىٍّ * ولا أزكَى وأطيبَ منه عندى

---

(١) الزيم : المتفرق من اللحم . (٢) الحفان : صغار النعام .

ومنَ ذا يابن خولة إذ رمتنى * بأسهمها المنيةُ حينَ وعْدى
يُذبّب عنكمُ ويسُدّ مما * تثلّمَ من حصونكمُ كسَدّى
ومالى أنْ أمرّ به ولكنْ * أؤمّل أنْ يؤخّر يومُ فقدى
فأُدرك دولةً لك لستَ فيها * بجبّارٍ فتوصَفَ بالتعدّى
على قومٍ بغَوا فيكمْ علينا * لتعْدَى منكمُ ياخيرَ مُعْد
لتعْلُ بنا عليهمْ حيث كانوا * بغَورٍ من تهامَةَ أو بنجْد
إذا ما سِرْتَ من بَلَدٍ حرامٍ * الى مَنْ بالمدينة من معَدّ
وماذا عزُّهمْ والخير منهمْ * بأشْوَسَ أعْصَلِ الأنياب وَرْد
وأنتَ لمَنْ بغى وعَدا وأذْكى * عليكَ الحربَ واستَرداك مُرْد

٨ — سلم بن عمرو الخاسر (١)

كان منقطعًا الى البرامكة والى الفضل بن يحيى خصوصًا من بينهم ، وفيه يقول أبو العتاهيــة :

إنمـا الفَضْل لسَـلْمٍ وحدَه * ليس فيه لِسوَى سَلْمٍ دَرَكْ

وكان هذا أحدَ الأسباب الى فساد ما بينه وبين أبى العتاهية . ولسَلْم يقول أبو العتاهية وقد حَجّ مع عُتْبة :

واللهِ واللهِ ما أبالى مـتى * ما متّ يا سَلْمُ بعد ذا السفرِ
أليس قد طُفْتُ حيث طافتْ وقَبـ * ـلتُ الذى قبّلتْ من الحجرِ

وله يقول أبو العتاهية وقد حُبِس ابراهيمُ المَوْصِلىّ :

سَـلْمُ يا سَـلْمُ ليس دونَك سِرّ * حُبِسَ الموصلىُّ فالعيشُ مُرُّ
ما استطاب اللذّاتِ ، مُذْ سكنَ المُطْـ * ـبِقَ رأسُ اللـذاتِ واللهِ ، حُرُّ
تَرَك الموصلىُّ مَنْ خلَق اللـ * ـهُ جميعًا وعيشُهم مُقْشَعِرُّ

(١) هو سلم (ويقال سالم) بن عمرو أحد موالى أبى بكر الصديق ، نشأ فى البصرة ، وكان شاعرا مطبوعا متصرفا فى فنون الشعر ، وكان متظاهرا بالخلاعة والفسوق والمجون ، وزاد شاعرية وتمرسا بالشعر على يد بشار ، لأنه كان راويته وتلميذه ، أخذ عنه واغترف من بحره ونسج على منواله ، وكثيرا ما كان يأخذ أقواله فيسلخها و يمسخها كما مسخ هــذا البيت :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

بجعلــه :

من راقب الناس مات غما * وفاز باللــذة الجسـور

فبلغ بيته بشارا فغضب وأقسم ألا يدخل عليه ولا يعيده مادام حيا ، فاستشفع اليه بكل صديق حتى رضى وو بخه وقنعه بمخصرة كانت بيــده . وكان صديقا لابراهيم الموصلى المغنى المشهور ولأبى العتاهيــة . وكان يمــدح البرامكة وخصوصا الفضل بن يحيى . توفى سـنة ١٨٦ هـ . وتجد ترجمته فى الأغانى ج ٢١ ص ١١٠ وابن خلكان ج ١ ص ١٩٨

لما قال بشارٌ قصيدته الميمية فى عمر بن العلاء وهى التى يقول فيها :

اذا نبّهتك صعابُ الأمور * فنبّهْ لها عُمـرًا ثم نَمْ

فتًى لا يبيتُ على دِمْنَـةٍ (١) * ولا يشرب الماءَ إلا بدمْ

بعث بها مع سلم الى عمر بن العلاء ، فوافاه ، فأنشده إياها ، فأمر لبشار بمائة ألف درهم ، فقال له سلم : ان خادمك — يعنى نفسه — قد قال فى طريقه فيك قصيدةً ، قال : فإنك لهناك ! قال : تسمع ثم تحكم ، قال : هات ، فأنشده :

قد عزّنى الداءُ فما لى دواءْ * مما أُلاقى من حِسان النساءْ

قلبٌ صحيحٌ كنتُ أسطو به * أصبح من سلمى بداء عَياءْ

أنفاسُها مِسْكٌ وفى طَرْفها * سحْرٌ وما لى غيرُها من دواءْ

وعدتنى وعـدًا فأوفِى به * هل تصلُح الخمرةُ إلا بماءْ

ويقول فيها :

كم كُرْبةٍ قد مسّنى ضُرُّها * ناديتُ فيها عُمرَ بنَ العَلاءْ

فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فكانت أول عطية سَنيّة وصلتْ اليه .

ومن قوله يرثى بَاقُونَةَ بنتَ المهدى :

أَوْدَى بباقونةَ ريبُ الزمانْ * مؤنسةِ المهدىِّ والخيزُرانْ

لم تَنْـطوِ الأرضُ على مثلها * مولودةٍ حَنَّ لها الوالدانْ

بَاقُونُ يا بنتَ إمامِ الهـدَى * أصبحتِ من زينة أهلِ الجنانْ

بكتْ لك الأرضُ وسكّانُها * فى كل أُفْقٍ بين إنسٍ وجانْ

دخل سَلْم على الفضل بن يحيى فى يوم نَيروز والهدايا بين يديه ، فأنشد :

أ... ربع تسائلُهُ * وقـد أقوتْ منازلُهُ

بقلبى مِنْ هوَى الأَطْلا * لِ حبٌّ ما يُزايِـلُهُ

(١) الدمنة : الحقد

رُوَيدَكُمُ عن المَشْعو * فِ إن الحبَّ قاتِلُهُ
بَلابِلُ صدرِه تَسْرِى * وقد نامتْ عَوَاذِلُهُ
أحقُّ الناسِ بالتفضيـ * ـلِ من تُرْجَى فواضلُهُ
رأيتُ مكارمَ الأخلا * قِ ما ضَمَّتْ حمائلُهُ
فلستُ أرى فتًى فى النا * سِ إلّا الفضلُ فاضلُهُ
يقولُ لسانُهُ خيرًا * فتفعلُه أناملُهُ
ومهما يُرْجَ من خيرٍ * فإن الفضلَ فاعِلُه

وكان ابراهيمُ المَوْصِلىّ وابنُه إسحاقُ حاضرِيْن، فقال لإبراهيم: كيف ترى وتسمع؟ قال: نَ مرئىٍّ ومسموع، وفضلُ الأمير أكثرُ منه، فقال: خذوا جميعَ ما أُهْدِىَ الىّ اليومَ فاقتسموه بينكم أثلاثًا إلّا ذلك التِّمثالَ، فإنى أريد أن أُهْديَه اليوم الى دَنَانِيرَ، ثم قال: لا والله ما هكذا تفعلُ الأحرار، يقوَّم ويُدْفَع اليهم ثمنُه ثم نُهْدِيه، فقُوِّم بألفَى دينار، فحملها الى القوم من بيتِ ماله واقتسموا جميعَ الهدايا بينهم .

كان المهدىُّ يعطى مَرْوانَ وسَلْمًا الخاسرَ عطيَّةً واحدةً، فكان سَلْمٌ يأتى باب المهدىّ على البِرْذَوْنِ الفَارِهِ، قيمتُه عشرةُ آلاف درهم بسَرْجٍ ولِجَام مفضَّضَيْن ، ولباسُه الخَزُّ والوَشْى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان، ورائحةُ المسكِ والطيب والغاليةِ تفوح منه، ويجيء مروانُ بن أبى حَفْصة عليه فَرْوٌ كَبْلٌ[1] وقميصُ كَرَابيسَ[2] وعمامةُ كَرَابيسَ وخُفَّا كَبْلٍ[3] وكِسَاءٌ غليظٌ، وهو مُنْتِنُ الرائحة، وكان لا يأكل اللحمَ حتى يَقْرَم اليه بُخْلًا، فاذا قَرِمَ أرسل غلامَه فاشترى له رأسًا فأكله، فقال له قائل: أَرَاك لا تأكلُ إلا الرأسَ. قال: نعمْ أعرف سعرَه فآمَنُ خيانةَ الغلام ولا أشترى لحمًا فيطبخُه فيأكلُ منه، والرأس آكُل منه ألوانًا: آكل من عينه لونًا ومن غَلْصَمته[4] لونًا ومن دماغه لونًا .

(٤) الغلصمة

كان سَلْم قد بُلِيَ بالكيمياء، فكان يذهب بكلّ شيء له باطلًا، فلما أراد الله عز وجل أن يصنع له عرّف أن بباب الشام صاحبَ كيمياء عجيبًا، وأنه لا يصل اليه أحد إلا ليلا، فسأل عنه، فدلّوه عليه. قال: فدخلت اليه الى موضع مُعوِر[1]، فدققتُ البابَ فخرج إلىّ، فقال: من أنت عافاك الله؟ فقلت: رجل معجَبٌ بهذا العلم، قال: فلا تُشْهِرني فإني رجل مستورٌ إنما أعمل القوتَ، قلت: إني لا أُشْهِرك إنما أقتبس منك، قال: فاكتُمْ ذلك، وبين يديه كوزُ شَبَهٍ[2] صغيرٌ، فقال لي: اقلَع عُرْوته، فقلعتُها، فقال: اسبُكْها في البَوْتقة[3]، فسبكتُها، فأخرج شيئًا من تحت مصلّاه فقال: ذُرّه عليه، ففعلت، فقال: أفرِغْه، فأفرغتُه، فقال: دَعْه معك، فاذا أصبحتَ فاخرجْ فبِعْه وعُدْ الىّ، فأخرجتُه الى باب الشام فبعتُ المثقالَ بأحد وعشرين درهمًا ورجعتُ اليه فأخبرتُه، فقال: اطلب الآنَ ما شئتَ، قلت: تُفيدُني؟ قال: بخمسمائة درهم على ألا تُعلِّمه أحدا، فأعطيتُه وكتب لى صفةً فامتحنتُها فاذا هى باطلة، فعدتُ اليه، فقيل لى: قد تحوّل وإذا عُروة الكوزِ الشَّبَه من ذهبٍ مركبةٌ عليه، والكوز شَبَهٌ، ولذلك كان يدخُل اليه من يطلبه ليلا ليخفى عليه، فانصرفت وعلمت أن الله عز وجل أراد بى خيرا وأن هذا كلّه باطلٌ.

قال أبو المستهل: دخلت يوما على سلم واذا بين يديه قراطيسُ فيها أشعارٌ يرثى ببعضها أمَّ جعفر، وبعضها جاريةً غيرَ مسمّاة، وببعضها أقواماً لم يَمُوتُوا، وأمُّ جعفرٍ يومئـذ باقية، فقلت له: وَيْحَك ما هذا؟ فقال: تحدُث الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها ويستعجلوننا ولا يَجْمُل بنا أن نقولَ غيرَ الجيد، فنُعِدّ لهم هذا قبلَ كَوْنه، فمتى حدث حادثَ أظهرْنا ما قلناه فيه قديمـا على أنه قيل فى الوقت.

دخل سلمٌ على الرشيد فأنشده: * حَيِّ الأحبّةَ بالسلام * فقال الرشيد: حيّاهم الله بالسلام، فقال سلم: * أعَلَى وَدَاعٍ أم مُقَام * فقال الرشيد: حياهم الله على أىّ ذلك كان، فأنشده:

لم يَبْقَ منك ومنهمُ * غيرُ الجلودِ على العِظَام

---

(١) معور: مخوف. (٢) الشبه: النحاس الأصفر. (٣) البوتقة: الوعاء الذى يذيب فيه الصائغ.

فقال له الرشيد : بَلْ منكَ ، وأمر بإخراجه ، وتطيّر منه ومن قوله ، فلم يسمَع منه باقىَ الشعر ولا أثابه بشىء .

استوهب اسحاقُ المَوْصِلىّ من الرشيد تركةَ سَلْم ، وكان قد مات عن غير وارث ، فوهبها له قبل أن يتسلّمها صاحبُ المواريث ، فحصل منها على خمسين ألف دينار ، ورُوى أنه رُفع الى الرشيد أن سلما قد توفّى وخلّف مما أخذه منه خاصةً ومن زُبَيدة ألفَ ألفِ وخمسمائة ألف درهم سوى ما خلّفه من عقار وغيره مما اعتقده(١) قديما ، فقبَضه الرشيدُ وتظلّمَ اليه مَوَاليه من آل أبى بكر الصّدّيق رضوان الله عليه ، فقال : هذا خادمى ونديمى ، والذى خلّفه من مالى فأنا أحقُّ به ، فلم يُعْطِهم إلا شيئا يسيرا من قديم أملاكه .

---

(١) امتلكه .

٩ — رَبِيعَةُ الرَّقِّيُّ [1]

كان مُنقطعًا عن الحضارة ، بعيـدًا عن مُجالَسة الخلفاء، فأُخمِل ذِكْرُه بسبب ذلك ؛ لكنّهم كانوا يستقدِمونه اليهم . وأوّلُ من فعل ذلك المَهْدِيُّ، فمَدَحه ونال جَوائِزَه، وكان آبنُ المُعتَزِّ يرى ربيعـة أشعرَ غَزَلًا من أبى نُوَاس ، لأن فى غَزَل أبى نُوَاس بَرْدًا كثيرا ، وغَزَلُ هذا سليمٌ عذْب سهْل، ولذلك فإنّ شهرَته بلَغتْ إلى بَلاط الخليفـة . وكان يمدحُ غيرَ الخلفاء ويَنالُ جوائزَهم ويعُود الى بلده ، وإن قصّر أحَدٌ فى إعطائه هجَاه، وله فى ذلك حديثٌ مع العباس بن محمد بن على من أمراء بنى العبّاس .

ومن قوله يمدح يزيد بن حاتم المُهَلّبِي ويهجو يَزيد بن أُسَيْد السُّلَمِيّ :

حَلَفتُ يَمِينًا غيرَ ذِى مَثْنَوِيّةٍ [2] * يمِينَ آمرِئٍ آلَى بهـا غيرَ آثِمِ

لَشَتّانَ ما بَيْن اليَزِيدَيْن فى النّدَى * يَزِيدِ سُـلَيْمٍ والأغرِّ آبن حاتمِ

يزيدُ سُلَيْم سالمُ المـالِ،والفتى * أخو الأَزْدِ [3] للأموال غيرُ مُسالمِ

فَهَمُّ الفتى الأزْدِيّ إتلافُ مالِه * وهَمُّ الفتى القَيْسِيّ جَمْعُ الدّراهمِ

فلا يحسَب التَّمْتامُ أنّى هَجَوْتُه * ولكنّنى فضَّلْتُ أهلَ المكارمِ

قال رجلٌ لربيعة : يا أبا أُسَامَةَ، ما حَمَلَك على أن هَجوتَ رَجُلًا من قومك وفضَّلْتَ عليه رجلا من الأزد؟ فقـال : أُخبِرُك، أمْلَقتُ فلم يَبْق لى إلّا دَارى، فرهنتُها على خمسمائة درهم ، ورحَلْتُ اليه الى أرْمِينِيَة، فأعلمتُه بمكانى ومدحتُه، وأقمتُ عنده حَوْلا، فوهَبَ لى

(١) هو أبو أسامة ربيعة بن ثابت من موالى سليم ، ويكنى أبا شبابة ، وكان ينزل الرقة ، وبها مولده ومنشؤه ، فأشخصه المهدى اليـه ، فمدحه بعـدة قصائد وأثابه عليها ثوابا كبيرا ، وهو من المكثرين المجيـدين ، وكان ضريرا وانما أخمل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء ومع ذلك فما عدم مفضلا مقدما له . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٥ ص ٣٨) وخزانة الأدب للبغدادى (ج ٣ ص ٥٥) .

(٢)

(٣) أخو الازد هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب

خمسمائة درهم، فتحمّلتُ وصرتُ بها الى منزلى، فلم يبق معى كبيرُ شىء، فنزلتُ فى دارٍ بكِراء، فقلتُ : لو أتيتُ يزيدَ بن حاتم، ثم قلتُ : هذا آبن عمّى فعل بى هذا الفعلَ فكيف بغيره! ثم حمَلتُ نفسى على أن آتيــه ، فأُعلم بمكانى، فتركنى أشهرا حتى ضجِرتُ، فأكريتُ نفسى من الحمّالين . وكتبتُ بيتاً فى رُقْعة فألقيتُه فى دِهليزه، والبيتُ :

أرانِى ولا كُفرانَ لله راجعًــا * بخُفَّىْ حُنَيْنٍ من يزيد بن حاتم

فوقعت الرقعــةُ فى يد حاجبــه ، فأوصلها اليــه من غير علمى ولا أمرى ، فبعث خَلْفى، فلما دخلتُ عليه قال : هِيهِ أنْشِدنى ما قلتَ ، فتمنّعتُ، فقال : والله لتُنْشِدَنِّى، فأنشدتُه، فقال : والله لا ترْجع كذلك، ثم قال : آنزِعُوا خُفَّيْه، فنَزعا فحَشاهُمَا دنانيرَ وأمر لى بغِلْمانٍ وجَوار وكُسًى، ألا ترى لى أن أمدَح هذا وأهْجُوَ ذاك ؟ قلتُ : بلى واللهِ، وسار شِعْرى حتى بلغَ المهدىَّ، فكان سببَ دخولى اليه .

قيل لأبى زَيْد النَّحْوىّ : إن الأصمعى قال : لا يقــال شَتَّانَ ما بينهما، وإنما يقال : شتّانَ ما هما، وأنشد قول الأعشى : * شتّان ما يوْمى على كُورِها * فقال: كذَب الأصمعىُّ، يقال : شتّان ما هما وشــتّان ما بينهما، وأنشد لربيعة الرّقى : « لشتّان ما بين اليزيدَيْن » وفى آستشهاد مثلِ أبى زيد على دَفْع قول مثل الأصمعىّ بشعرِ ربيعة كِفَايةٌ له فى تفضيله .

آمتدح ربيعةُ العبّاسَ بن محمــد بن على بقصيدة لم يُسْبَق إليها حُسْنًا ، وهى طويلة ، يقول فيها :

لو قيــل للعبّــاس يآبنَ محمدٍ * قُلْ «لا» وأنتَ مُخلَّدٌ ما قالهَا

ما إن أعُدُّ من المكارم خَصْلةً * إلا وجدتُك عمّها أو خالَهــا

وإذا الملوك تسايَرُوا فى بلدةٍ * كانوا كواكبَها وكنتَ هلالهَا

إن المكارمَ لم تزَلْ معقــولةً * حتى حلَلْتَ براحَتَيْك عِقالهَا

فبعَثَ اليــه بدينارَيْن ، وكان يُقَدِّرُ فيه ألفيْن، فلما نظر الى الدينارين كاد يُجَنّ غَيْظًا وقال للرسول : خُذْ هذين الدينارين فهُما لك على أن تَرُدّ الرّقعــة الىّ من حيث لا يدرى العبّاسُ، ففعل الرسولُ ذلك، فأخذها ربيعةُ وأمر من كتب فى ظهرها :

مدحتُك مِدحةَ السَّيف المحلَّى * لتجرِى فى الكرام كما جرَيْتُ
فهبها مِدحةً ذهبت ضَياعًا * كذبتُ عليك فيها وآفتريتُ
فأنتَ المرءُ ليس له وَفاءٌ * كأنى إن مدحتُك قد زَنَيْتُ

ثم دفعها الى الرسول وقال : ضَعْها فى الموضع الذى أخذتَها منه ، فردّها الرسولُ ؛ فلما كان من الغدِ أخذها العبّاسُ فنظَرَ فيها ، فلما قرأ الأبيات غَضِب وقام من وقته فركِب إلى الرشيد، وكان أثيرًا[1] عنده يُجِلُّه ويقدّمه، وكان قد همّ أن يخطُب اليه آبنتَه، فرأى الكَرَاهَةَ فى وجهه، فقال : ما شأنك؟ فقال : هجانى ربيعة الرّقّىّ، فأُحْضِر، فقال له الرشيدُ : تهجو عمّى وآثَرَ الخلْقِ عندى ؟ لقد هَمَمْتُ أن أضرِب عُنُقَك ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد مدحتُـه بقصيدةٍ ما قال مثلَها أحدٌ من الشعراء فى أحدٍ من الخلفاء ، ولقد بالغتُ فى الثناء وأكثرتُ فى الوصف ،فإن رَأى أميرُ المؤمنين أن يأمُره بإحضارها ! فلما سمِـع الرشيدُ ذلك منه سكن غَضَبُه وأحبَّ أن ينظر الى القصيدة، فأمَر العباسَ بإحضار الرّقعةِ، فتلكّأ عليه العباسُ ، فقال له الرشيدُ : سألتُك بحقّ أمير المؤمنين إلّا أمَرتَ بإحضارها ، فعلم العباسُ أنه قد أخطأ وغَلِط . فأمر بإحضارها ، فأُحْضِرت ، فأخذها الرشـيدُ واذا فيها القصيدةُ بعيْنِها ، فاستحسنها وآستجادها وأُعْجِبَ بها وقال : والله ما قال أحدٌ من الشعراء فى أحدٍ من الخلفاء مثلَها ، لقد صـدَق ربيعةُ وبرّ ؛ ثم قال للعباس : بِمَ أثبْتَه عليها ؟ فسكتَ العباسُ وتغيّر لوْنُه وجَرِض بِرِيقه[2]، فقال ربيعـةُ : أثابَنى عليها يا أميرَ المؤمنين بدينارين ، فتوهّم الرشـيدُ أنه قال ذلك من المَوْجِدةَ على العبّاس، فقال : بحياتى يا رَقّىُّ بكم أثابك ؟ قال : وحياتِك يا أميرَ المؤمنين ما أثابنى عليها إلا بدينارين ، فغضِب الرشيدُ غَضَبًا شـديدا ونظر فى وجه العباس وقال : سَوْءَةً لك ! أىّ حالٍ قعدتْ بك عن إثابته؟ الأموالُ ؟ فوالله لقد موّلتُك جُهْدى ، أم آنقطاعُ المـادّةِ عنك؟ فوالله ما آنقطَعتْ ، أم أصْـلُك ؟ فهو الأصلُ لا يُدانِيـه شىءٌ ، أم نَفْسُـك فعلَتْ ذلك بك حتى فَضَحْتَ آباءَك وأجدادَك وفضحتنى

(١) أثيرا : مكرّما . (٢) جرض بريقه : ابتلعه بالجهد على همّ وحزن .

ونَفْسَك ؟ فنَكَس العبّاسُ رأسَه ولم ينطِق، فقال الرشـيدُ : يا غلامُ، أَعْطِ ربيعةَ ثلاثين ألف درهم وخِلْعةً وٱحْمِله على بغلة؛ فلما حُمِل المـالُ بين يديه وأُلبِس الخِلعةَ قال : بحياتى يارقىّ لا تذكُرْه فى شـعرك لا تعريضًا ولا تصريحًا ، وفَتَر الرشيدُ عمّا كان همّ به أن يتزوّج اليه، وظهر له منه بعد ذلك جفاءٌ كثير وٱطّراحٌ له .

قال أبو بِشر : كنتُ حاضرًا ربيعةَ الرقىّ يوما وجاءته ٱمرأة فقالت : تقول لك فلانة إن بِنْتَ مولاى محمومةٌ فإن كنتَ تعرِفُ لهـا عُوذَةً[1] فٱفعـلْ، فقال ٱكتُبْ لها أبا بِشْر هذه العـوذة :

ثِقُوا ثِقُوا بٱسم إلهى الذى * لا يعرِض السُّقْمَ لمن قد شَفَى

أُعِيـذُ مَوْلاتى ومَوْلاتَهـا * وٱبنتَهـا بِعَـوْذَة المُصْطَفَى

من شرِّ ما يَعْـرِضُ من علّةٍ * فى الصبح والليل اذا أسْدَفا

فقلتُ له : يا أبا ثابت ، لستُ أُحْسِـنُ أن أكتُبَ ثِقُوا ثِقُوا ، فكيف أكتبها ؟ قال ٱنْضَحْ المِـدَاد من رأس القلم فى موضعين حتى يكون كالنَّفْث[2]، وٱدْفَع العوذة اليها فإنها نافعةٌ، ففعلتُ ودفعتُها إليها، فلم تَلْبَث أن جاءت الجاريةُ وهى لا تَمالَكُ ضَحِكًا، فقالت له : يامجنون ما فعلتَ بنا! كِدْنا نفتضح بما صنعتَ ! قال : فما أصنع ! أشاعرٌ أنا أم صاحب تَعَاوِيذ ! .

وٱتّفق للرّقى أيضا مثلُ ذلك مع مَعْنِ بن زائِدَة، وقد لَقِيَه فى بعض قَدَماته إلى العراق، فمدَحه، فلم يَهَشّ له ، فهَجاه بقصيدةٍ مطلعُها :

مَعْنُ يا مَعْـنُ يابنَ زائدة الكَلْـ * ـبِ الذى فى الذّراع لا فى البَنَانِ

لا تُفَاخِرْ إذا فَخَـرْتَ بآبا * ئِك وٱفخَـرْ بعمّـك الحوفزان[3]

(١) العوذة : الرقية يرقى بها الانسان من فزع أو جنون أو مرض . (٢) النفث البصاق اليسير ينفثه الراقى فى العقدة عند الرقية .

(٣) الحوفزان هو الحارث بن شريك الشيبانى، سمى بذلك لأن قيس بن عاصم التميمى حفزه بالرمح حين خاف أن يفوته، وقد فخر بذلك سوّار بن حيان المنقرى فقال :

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة * سقته نجيعا من دم الجوف أشكلا

ومن غَزَلِه أبياتٌ يُغَنَّى بها، وهى :

وتزعم أنى قد تبدلت خُلَّةً * سِوَاها وهذا الباطلُ المُتَقَوَّلُ

لَـا اللهُ من بَاع الصديقَ بغيره * فقالتْ نعم حَاشَاكَ إن تكُ تَفْعَلُ

ستَصْرِمُ إنسانا اذا ما صَرَمْتَني * بحبّك فانظر بعده من تبدَّل

(١) الخلة : الخليلة

١٠ — الرقاشي[1]

كان سهل الشعر مطبوعًا ، وكان منقطعًا إلى آل برمك ، مستغنيًا بهم عن سواهم ، وكانوا يصولون به على الشعراء، ويروون أولادهم أشعاره، ويدونونها القليلَ والكثيرَ منها، تعصبًا له ، وحفظًا لخدمته، وتنويهًا باسمه، وتحريكًا لنشاطه، فحفظ ذلك لهم . فلما نكبوا صار إليهم في حبسهم، فأقام معهم مدة أيامهم ينشدهم ويسامرهم حتى ماتوا ، ثم رثاهم فأكثر من رثائهم؛ فمن ذلك قوله في جعفر :

كم هاتفٍ بك من باكٍ وباكيةٍ * يا طيبَ للضيف إذ تُدعى وللجار
إن يُعدَم القطرُ كنتَ المُزنَ بارقُه * لمعُ الدنانير لا ما خيّل السّاري

وقوله :

لعمرُك ما بالموت عارٌ على الفتى * اذا لم تُصبْه في الحياة المعايرُ[2]
وما أحدٌ حيٌّ وإن كان سالمًا * بأسلمَ ممّا غيّبتْه المقابر
ومَن كان ممّا يُحدِثُ الدهرُ جازعًا * فلا بدّ يومًا أن يُرى وهو صابر
وليس لذى عيشٍ عن الموت مقصرٌ * وليس على الأيام والدهرِ غابر
وكلُّ شبابٍ أو جديدٍ إلى البلى * وكلُّ امرئٍ يومًا الى الله صائر
فلا يُبعِدَنْك اللهُ عنّى جعفرا * بروحى ولو دارتْ علىّ الدوائر
فآليتُ لا أنفكُّ أبكيك ما دعتْ * على فننٍ ورقاءُ أو طارَ طائر

ومن ذلك قولُه لما صُلب الفضلُ بن يحيى واجتاز به الرقاشي وهو مصلوبٌ على الجذع، فوقف يبكي ثم قال :

(١) هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش، وهو من أهل البصرة . توفي سنة ٢٠٠ هـ . وتجد ترجمته في الأغاني (ج ١٥ ص ٣٥) ووفيات الوفيات (ج ٢ ص ١٢٥) والشعر والشعراء (ص ٥١٥) .

(٢) المعاير : المعايب .

أما واللهِ لولا خوفُ واشٍ * وعينٌ للخليفة لا تنامُ
لَطُفْنا حول جِذْعِك واستلمنا * كما للناسِ بالحَجَر استلامُ
فما أبصرتُ قبلَك يابنَ يحيى * حُساماً حتفُهُ السيفُ الحُسام
على اللذاتِ والدنيا جميعاً * ودولةِ آل برمَكَ السلام

فكتب أهلُ الأخبار بذلك الى الرشيد، فأحضَره فقال : ماحملَك على ما قلتَ؟ فقال: ياأميرَ المؤمنين كان إلىَّ مُحسِناً ، فلما رأيتُه على الحال التى هو عليها حرّكنى إحسانُه فما ملكتُ نفسى حتى قلتُ الذى قلتُه؛ قال : وكم كان يُجرى عليك ؟ قال : ألفَ دينارٍ فى كلّ سنةٍ، قال : إنا قد أضعفناها لك .

ومن قوله يَصِفُ جاريةً :

صِفَاتٌ وحُسنٌ أورَثا القلبَ لَوْعَةً * تَضَرَّمُ فى أحشاء قلبٍ مُتَيَّمِ
تُمَثِّلُها نفسى لعينى فأنثنى * عليها بطَرْفِ النَّاظرِ المتيمِّم
يُحمِّلُنى حُبِّى لها فوقَ طاقتى * من الشوق دأبَ الحائرِ المُتَقَسِّمِ

١١ - أبو العتاهية (١)

قال أحمد بن زُهَير : سمعت مُصْعَب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس، فقلت له : بأىّ شىء استحق ذلك عندك ؟ فقال بقوله :

تعلقتُ بآمالٍ * طِوالٍ أىِّ آمال
وأقبلتُ على الدنيا * مُلِحًّا أىّ إقبال
أيا هذا تَجهَّزْ لِـ * فِراق الأهل والمال
فلا بدّ من الموت * على حال من الحال

ثم قال مصعب : هذا كلام سهل حق لا حَشْو فيه ولا نقصان، يعرفه العاقل ويقرّ به الجاهل . وكان الأصمعي يستحسن قوله :

(١) هو أبو إسحاق اسماعيل بن القاسم بن سويد، أطبع أهل زمانه شعرا وأكثرهم قولا وأسهلهم لفظا، وأسرعهم بديهة وارتجالا، وأول من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد فى الدنيا والنهى عن الاغترار بها، وأكثر من الحكمة .

ولد بعين التمر سنة ١٣٠ هـ ونشأ بالكوفة فى عمل أهله . وكانوا باعة جرار، إلا أنه ربأ بنفسه عن عمله وقال الشعر فى صباه وامتزج بلحمه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه «لو شئت أن أجعل كلامى كله شعرا لفعلت» فذاع صيته وسلك طريق خلعاء الكوفة . ثم قدم بغداد ومدح المهدى وتعرف ببعض خدم قصر الخلافة وجواريه فتعشق منهن فتاة تدعى عتبة، ولما يئس منها لها عنها ببعض الشيء . ودرس كثيرا من مذاهب المتكلمين والشيعة والجبرية والزهاد فكان يسلك كل مذهب منها مدة ثم ينتقل عنه إلى الآخر حتى اختار له من كل ذلك عقيدة مختلطة أفضت به إلى العبادة والزهد فى الدنيا قولا ومعيشة على إفراط منه فى حب المال والجمع له والبخل به على الأهل والولد والخدم .

ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على الزهد فى الدنيا والتذكر بالموت وأهواله، وهو فى خلال ذلك يمدح الخليفة وملوك الدولة ويأخذ جوائزهم، ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر البتة حتى حبسه الرشيد لعدم تلبيته ما اقترحه عليه من القول فيه ثم أطلقه بعد أن أجاب طلبه، وعاد إلى قول الشعر على عاداته فيه وترك الغزل والهجاء، وبقى على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون . توفى سنة ٢١١ هـ .

وله ديوان مطبوع فى بيروت سنة ١٨٨٧ وتجد أخباره فى الأغانى ج ٣ ص ١٢٦ وج ٦ ص ١٨٦ وج ٨ ص ٢٤ وابن خلكان ج ١ ص ٧١ وطبقات الشعراء ص ٤٩٧ والفهرست ص ١٦٠ .

أنتَ ما ٱستغنيتَ عن صا * حِبِـــك الدهرَ أخوه
فاد تجتَ إليــه * ساءَهُ مَجُّك فُــوه

وأنشد له سَلْمٌ الخاسر :

سَكَنٌ يَبقى له سَكَنُ * ما بهــذا يُؤذِنُ الزمنُ
نحن فى دار يخــبِّرُنا * بِبَلاها ناطِقٌ لَسِنُ
دارُ سُــوءٍ لم يَدُم فَرَحٌ * لاَمرىءٍ فيها ولا حَزَنُ
فى سبيل الله أنفُسُنا * كلُّنا بالمـوت مُرْتَهَنُ
كلّ نفس عند مَيْتتها * حَظُّها من مالها الكفن
إن مالَ المـرءِ ليس له * منـه إلا ذِكْرُه الحسن

وقال عبد الله بن عبد العزيز العُمَرىّ : أشعرُ الناس أبو العتاهية حيث يقول :

ما ضَرّ من جَعَلَ الترابَ مِهادَه * ألّا ينامَ على الحرير اذا قَنِعْ

وقيل لأبى العتاهيــة : كيف تقول الشعر؟ قال : ما أردتُه قطّ إلا مَثَــل لى، فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول : لو شئتُ أن أجعل كلامى شعرا كلّه لفعلتُ .

حُمّ الرشيد فصار أبو العتاهية الى الفضل بن الربيع برقعة فيها :

لو علم الناسُ كيف أنتَ لهم * ماتوا اذا ما أَلِمْتَ أجمَعُهُمْ
خليفةَ الله أنتَ تَرْجَحُ بالنا * سِ اذا ما وُزِنتَ أنتَ وَهُمْ
قد علم الناس أن وجهك يُغْـ * ـنى اذا ما رآه مُعْــدِمُهم

فأنشدها الفضلُ بن الربيع الرشيدَ، فأمر بإحضار أبى العتاهية، فمـا زال يُسامره ويحدّثه الى أن بَرِئَ؛ ووصل اليه بذلك السبب مالٌ جليــل . وقد حدّث ٱبن الأعرابى بهذا الحديث، فقال له رجل بالمجلس : ما هــذا الشعر بمستحقّ لمـا قلتَ؛ قال : ولِمَ؟ قال : لأنه ضعيف ؛ فقال ابن الأعرابى، وكان أَحَدَّ النـاس ، الضعيفُ والله عقلُك لا شِـعر

أبى العتاهية، ألأبى العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر! فوالله ما رأيتُ شاعرا قطّ أطبعَ ولا أقدَر على بيت منه، وما أحسَب مَذْهَبه إلا ضَرْبا من السِّحر، ثم أنشد له :

قطّعتُ منك حبائل الآمال * وحَطَطْتُ عن ظَهْر المَطىّ رِحالى

ويَئستُ أن أبقى لشىء نِلْتُ ممّـ * ـا فيك يا دنيا وأن يَبْقَى لِى

فوجَدتُ بَرْد اليأس بين جوانحى * وأرَحْتُ من حِلّ ومن تَرْحال

يأيها البَطِر الذى هو من غَدٍ * فى قبره متمزِّق الأوصال

حَذَفَ المُنَى عنه المُشَمِّرُ فى الهدى * وأرى مُناك طويلةَ الأذيال

حِيَلُ ابن آدم فى الأمور كثيرةٌ * والموتُ يقطع حِيلَةَ المحتال

مالى أراك لحُرّ وجهك مُخْلِقًا * أخلقتِ يا دنيا وجُوه رِجال

قِستُ السُّؤال فكان أعظمَ قيمةً * من كلّ عارِفةٍ جَرَتْ بسؤال

فإذا ابْتُلِيتَ ببَذْل وجهك سائلا * فابذُلْه للمُتَكَرِّم المِفْضَال

وإذا خَشِيتَ تَعَذُّرًا فى بلدة * فاشدُدْ يديك بعاجل التَّرحال

واصبِرْ على غِيَر الزمان فإنما * فرَجَ الشدائد مثلُ حَلّ عقال

ثم قال للرجل : هل تعرف أحدا يحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل : يا أبا عبد الله، جعلنى الله فداءك، إنى لم أردُد عليك ما قلت، ولكن الزهد مَذْهَبُ أبى العتاهية، وشعره فى المديح ليس كشعره فى الزهد، فقال: أفليس الذى يقول فى المديح:

وهارونُ ماءُ المُزْن يَشْفِى من الصَّدَى * اذا ما الصَّدِى بالرِّيق غَصّتْ حَنَاجِرُهْ

وأوْسَطُ بيت فى قريش لَبَيْتُه * ل عز فى قريش وا

وزَحْفٌ له تَحْكِى البروقَ سيوفُه * وتحكى الرعودَ القاصفاتِ حوافِرُه

اذا حَمِيَتْ شمسُ النهار تَضاحَكَتْ * إلى الشمس فيه بِيضُه ومَغَافِره

اذا نُكِب الإسلامُ يوما بنَكبة * فهارونُ من بين البَرِيَّة ثائِره

ومَنْ ذا يفوتُ الموتَ والموتُ مُدْرِكٌ * كذا لم يَفُتْ هارونَ ضِدٌّ يُنافِره

فتخلّص الرجل من شرّ ابن الأعرابي بأن قال له : القولُ كما قلتَ ، وما كنتُ سمعتُ له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه .

قال ثمامة بن أشرس أنشدنى أبو العتاهية :

إذا المرء لم يُعتِقْ من المال نفسَه * تملّكه المالُ الذى هو مالكه

ألا إنما مالى الذى أنا مُنفِقٌ * وليس لِيَ المالُ الذى أنا تاركه

اذا كنتَ ذا مال فبادِرْ به الذى * يَحِقّ وإلا استهلكته مَهالكه

فقلت له : من أين قضيت بهذا؟ فقال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "انما لك من مالك ما أكلتَ فأفنيتَ أو لبِستَ فأبليتَ أو تصدّقتَ فأمضيتَ" . فقلت له : أتؤمن بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنّه الحقّ؟ قال : نعم ، قلت : فلِمَ تحبِس عندك سبعا وعشرين بَدْرَةً فى دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكّى ولا تقدّمها ذُخرا ليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال : يا أبا معْن ، والله إنّ ما قلتَ لهو الحقّ ، ولكنى أخاف الفقر والحاجةَ الى الناس ، فقلتُ : وبِمَ تزيد حالُ من افتقر على حالك وأنتَ دائم الحرص ، دائمُ الجمع ، شحيحٌ على نفسك ، لا تشترى اللّحم إلا من عيد الى عيد؟ فترك جواب كلامى كلّه ، ثم قال لى : والله لقد اشتريتُ فى يوم عاشُوراء لحما وتوابِلَه وما يتبعه بخمسة دراهم ؛ فلما قال هذا القول أضحكنى حتى أذهلنى عن جوابه ومُعاتبته ، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شَرح اللهُ صدرَه للإسلام .

زار مرّة عمرو بن مَسْعَدة فحُجِب عنه ، فلَزِم منزله ، فاستبطأه عمرو ، فكتب اليه :

كسّلَنِى اليأسُ عنك فما أر * فع طَرْفى اليك من كَسَلِ

إنى اذا لم يكن أخى ثِقةً * قطعت منه حَبائلَ الأمل

وكتب اليه مرة أخرى

مالَك قد حُلْتَ عن إخائك واسـ * ـتبدلْتَ يا عمرو شيمةً كدِره

إنى اذا الباب تاه * لم يَكُ عندى فى هَجْره نَظِره (١)

---

(١) النظِرة : التأخير والإمهال .

لستم تُرَجَّوْن للحساب ولا * يومٍ تكون السماء مُنْفَطِره
لكن لدنيا كالظلّ بهجتُها * سريعةِ الإنقضاء مُنْشَمِره
قد كان وجهى لديك مَعْرِفَةً * فاليوم أضحى حَرْفاً من النَّكِره

جلس المهدىّ للشعراء يوما فأذِن لهم، وفيهم بشّار وأشْجَع، وكان أشجع يأخذ عن بشّار ويعظّمه، وكان فى القوم غيرَ هذين أبو العتاهية، قال أشجع: فلما سمع بشّار كلام أبى العتاهية قال: يا أخا سُلَيْم، أهذا ذلك الكُوفِىّ المُلَقَّب؟ قلت: نعم، قال: لا جَزَى الله خيرا من جمعنا معه؛ ثم قال له المهدىّ: أنشِد، فقال: ويحك! أو يُستنشد أيضا قَبْلنا؟ فقلتُ: قد ترى؛ فأنشد:

ألَا ما لسيّدتى ما لَها * أدَلًّا فأحْمِلَ إدْلالَها
وإلا ففيمَ تجنّت وما * جنيت سقى الله أطلالها
ألا إن جاريةً للإما * م قد أسكنَ الحسن سِرْبالها
مشَتْ بين حُورٍ قِصارِ الخُطا * تُجاذِب فى المشى أكفالَها
وقد أتعب اللهُ نفسى بها * وأتعَب باللّوم عُذّالها

فقال بشّار لأشجع: ويحك يا أخا سليم! ما أدرى من أىّ أمْرَيْه أعجب، أمن ضعف شعره أم من تشبيبه بجارية الخليفة وهو يسمع ذلك بأُذُنه؟ حتى أتى على قوله:

أتَتْه الخلافةُ مُنْقَادةً * إليه تُجَرِّر أذيالَها
فلم تَكُ تصلُح إلّا له * ولم يك يصلح إلّا لها
ولو رَامَها أحدٌ غيرُه * لزُلْزِلت الأرضُ زِلْزالها
ولو لم تُطِعْه بنات القلوب * لَمَا قَبِل اللهُ أعمالها
وإن الخليفة من بُغْض "لَا" * إليه لَيُبْغِضُ مَنْ قالها

فقال بشار لأشجع وقد اهتزّ طَرَبا: ويحك يا أخا سليم، أترى الخليفة لم يَطِر عن فراشه طربا لما يأتى به هذا الكوفىّ!

ولما اتّهمه منصورُ بن عمّار بالزندقة، لأنه لا يذكر فى شعره الجنّة والنار وإنما يذكر الموت، قال فيه :

يا واعظَ الناس قد أصبحتَ متّهما * إذ عِبْتَ منهم أمورا أنتَ تأتيها
كالمُلبِس الثوبَ من عُرْى وعورتُه * للناس باديةٌ ما إن يُواريها
فأعظمُ الإثم بعد الشّرك نعلمُه * فى كلّ نفس عَماها عن مَساويها
عِرْفانها بعيوب الناس تُبصرها * منهم ولا تبصر العيبَ الذى فيها

وقيل له : زعَم الناس أنك زِنْدِيق، فقال : والله مادِينى إلا التوحيد، فقيل له قل شيئا يُتحدّث به عنك، فقال :

ألا إنّنا كلُّنا بائدُ * وأىّ بَنى آدمٍ خالدُ
وبَدْؤهم كان من ربّهم * وكلٌّ الى ربّه عائد
فياعَجَبًا كيف يَعْصى الإلـــهَ أم كيف يجحَدُه الجاحد
وفى كلّ شىء له آيةٌ * تدُلّ على أنّه واحد

وسمِع الجاحظُ مرّة من ينشد أُرْجُوزة أبى العتاهية التى سمّاها "ذوات الأمثال" حتى أتى على قوله :

يالَلشباب المَرِح التّصابى * روائحُ الجنّة فى الشباب

فقال للنشد : قِف، ثم قال : انظروا الى قوله : «روائح الجنة فى الشباب» فإن له معنًى كمعنى الطرب لايقدِر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وخيرُ المعانى ما كان القلب الى قَبُوله أسرع من اللسان الى وصفه . وهذه الأرجوزة من بدائع أبى العتاهية، ويقال : إن فيها أربعة آلاف مَثَل، منها قولُه :

حَسْبُك مما تبتغيه القُوتُ * ما أكثرَ القوتَ لمن يموت
الفقرُ فيما جاوَز الكَفَافا * مَن اتّقى الله رجَا وخَافا
هى المقاديرُ فلُمْنى أو فَذَرْ * إن كنتُ أخطأتُ فما أخطا القَدَرْ

لكلّ ما يُؤذِى وإن قَلّ أَلَمْ ما أطولَ الليلَ على من لم يَنَمْ

ما انتفع المرءُ بمثل عقلِهِ وخيرُ ذُخْرِ المرءِ فعله

إن الفساد ضِدّه الصّلاحُ ورُبّ جِد سره المُزاحُ

من جعل النّمام عيناً هلكا مُبلِغُك الشّرّ كباغيه لكا

إن الشبابَ والفَراغ والجِدَه مَفْسَدَةٌ للمرء أىّ مَفْسَده

يُغنيك عن كلّ قبيح تركُه يرتهن الرأىَ الأصيلَ شكُّه

ما عيش من آفتُه بقاؤه نغّص عيشاً كلّه فَناؤه

يارُبّ من أسخطنا بجَهْده * سرّنا اللهُ بغير

ما تطلُع الشمسُ ولا تغيبُ إلا لأمرٍ شأنُه عجيبُ

لكل شىء معدن وجوهر وأوسَط وأصغر وأكبرُ

مَنْ لك بالمَحْض وكُلّ مُمتزِجْ وَساوِسٌ فى الصدر منه تعتلِجْ

وكلُّ شىء لاحِقٌ بجوهره أصغَرُه متّصلٌ بأكبَرِه

ما زالت الدنيا لنا دارَ أذى ممزوجةَ الصّفو بألوان القَذَى

الخيرُ والشرّ بها أزواجُ لذا نِتاجٌ ولذا نِتاجُ

مَنْ لك بالمَحْض وليس مَحْضُ يَخْبُث بعضٌ ويطيب بعض

لكلّ إنسان طبيعتانِ ـرّ وهما ضدان

إنك لو تستنشِق الشّحيحا ء ريحا

والخيرُ والشرّ اذا ما عُدّا بينهما بون بعيد جدّا

عجبتُ حتى غمّنى أنّى حائرٌ مبهوتُ

كذا قضَى اللهُ فكيف أصـ الصّمتُ إن ضاق الكلامُ أوسَعُ

ومن قول أبى العتاهية فى الوحدة والتبرُّم بالناس :

بَرِمتُ بالناس وأخلاقِهم * فَصِرتُ أستأنِسُ بالوَحْده
ما أكثَرَ الناسَ لعمرى وما * أقلَّهم فى حاصِـل العِـدّه

قال الأصمعىّ : شِعرُ أبى العتاهية كساحة الملوك، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخَزَف والنَّوى .

كان أبو العتاهيـة لا يفارق الرشيد فى سَفَر ولا حضر إلا فى طريق الحج ، وكان يُجرى عليه فى كلّ سـنة خمسين ألف درهم سوى الجَوائز والمَعَاون، فلما قدِم الرشـيدُ الرَّقَّة لَبِس أبو العتاهية الصُّوفَ وتزهّد، وترَك حضورَ المنادمة والقولَ فى الغزل، وأمر الرشيدُ بحبسه فحُبِس، فكتب إليه من وقته :

أنا اليومَ لِى والحمـدُ لله أشْهُرُ * يَروح علىّ الهم منكم ويَبكُرُ
تذكّر أمينَ اللهِ حقّى وحُرْمتى * وما كنتَ تُولِينى كذلك يُذْكَر
ليالِىَ تُدنى منك بالقرب مجلسى * ووجهُك من ماء البشاشة يقطُر
فمَن لِىَ بالعين التى كنتَ مرّة * إلىّ بها فى سالف الدهر تنظُر

فلما قرأ الرشيد الأبيات قال : قولوا له : لا بأس عليك؛ فكتب اليه :

أرِقتُ وطار عن عينى النُّعاسُ * ونام السامرونــ ولم يُواسُوا
أمينَ الله أَمنُك خيرُ أمنٍ * عليـك من التقى فيـــه لباس
تُساسُ من السماء بكلّ برّ * وأنتَ به تسـوس كما تُساس
كأنّ الخلقَ رُكّب فيـه رُوحٌ * له جسد وأنتَ عليـــه راس
أمينَ الله إن الحبس باس * وقد أرسلتَ : ليس عليك باس

وكتب اليه أيضا فى الحبس :

وكلّفتنى ما حُلْت بينى و بينـه * وقلتُ سأبغى ما تُريد وما تَهْوَى
فلو كان لى قلبان كلّفتُ واحدا * هواك وكلّفت الخَلِىَّ لما يَهْوَى

فأمر باطلاقه .

كان الهادى واجدا على أبى العتاهية لملازمته أخاه هارون فى خلافة المهدى، فلما ولى موسى الخلافة قال أبو العتاهية يمدحه :

يَضْطَرِبُ الخوفُ والرجاءُ اذا * حرّكَ موسى القضيبَ أو فكّرْ
ما أبينَ الفضلَ فى مَغيبِ وما * أوْرَدَ من رأيه وما أصْدَرْ
فكم ترى عَزّ عندذلك من * مَعْشَرِ قومٍ وذَلّ من معشرْ
يُثْمِرُ من مَسّه القضيبُ ولو * يَمَسّـــه غيرُه لما أثْمَـــرْ
مَنْ مِثْلُ موسى ومثلُ والده الـ * ـمهدىّ أو جَدّه أبى جَعْفَر

فرضى عنه . فلما دخل عليه أنشده :

لَهفى على الزمن القَصيرِ * بين الخوَرْنَقِ والسَّــدِيرِ
إذ نحن فى غُرَفِ الجنا * نِ نعوم فى بحر السرور
فى فتيةٍ ملَكوا عِنا * نَ الدهرِ أمثالِ الصُّقُور
ما منهـــمُ إلا الجَسُو * رُ على الهوى غيرِ الحَصُور
يَتَعاوَرون مُدامةً * صَهْباء من حَلَبِ العصير
عــذراءَ ربّاها شُــعا * عُ الشمس فى حَرّ الهجير
لم تدن من نار ولم * يعلق بها وضر القدور
ومُقَرْطَقٍ يمشى أما * مَ القــوم كالرَّشَأ الغرير
بزجاجه تستخرج الـ * ـسر الدفين من الضمير
زهراء مثل الكوكب الـ * ـدُّرّىّ فى كَفّ المُــدِير
تَدَعُ الكريمَ وليس يد * رى ما قَبِيــلٌ من دَبير
ومُخَصّـرات زُرْنَنا * بعد الهدوّ من الخدور
ريّا رَوادفهن يَلْـ * ـبَسْنَ الخواتم فى الخصور
غُرّ الوجوه مُحَجّبا * تٍ قاصرات الطّرْف حُور

مُتنعِّمات في النعـ * ـيم مُضَمَّخات بالعبير
يرفُلْن في حُلَل المحا * سن والمجاسد والحرير
ما إن يرَيْن الشمس إلا * القُرْط من خَلَل الستور
والى أمين الله مَهْـ * ـرَبُنا من الدهر العَثُور
واليه أتعبْنا المطا * يا بالرَّواح وبالبُكور
صُعْرَ الخدود كأنما * جُنِّحْن أجنحةَ النُّسور
مُتَسَرْبِلاتٍ بالظلا * م على السُّهولة والوُعور
حتى وصَلْنَ بنا الى * ربِّ المدائن والقصور
ما زال قبلَ فِطامه * في سِنِّ مُكْتَهِلٍ كبير

استنشده المأمونُ أحسن ما قال في الموت فأنشده :

أنسَاك مَحْياك المَماتا * فطلبتَ في الدنيا الثبَاتا
أوَثِقتَ بالدنيا وأنـ * ـتَ ترى جماعتها شتَاتا
وعزمتَ منك على الحيا * ة وطولِها عَزْما بتَاتَا
يا من رأى أبوَيْه فيـ * ـمن قد رأى كانا فماتا
هـل فيهما لك عِبرةٌ * أم خِلتَ أنّ لك انفِلاتا
ومَن الذي طلب التَّفلُّـ * ـتَ من منيّته فَفَاتا
كلٌّ تُصَبِّحه المنيّـ * ـةُ أو تبيِّته بيَاتا

دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

ما أحسنَ الدنيا وإقبالها * اذا أطاع اللهَ مَنْ نالَها
مَن لم يُواس الناسَ من فضلها * عَرض للإدبار إقبالَها

فقال له المأمون : ما أجودَ البيتَ الأوّل، فأما الثاني فما صنعتَ فيه شيئا، الدنيا تُدْبِر عمّن واسَى منها أوضنّ بها، وإنما تُوجِب السماحةُ بها الأجرَ والضَّنُّ بها الوزرَ ، فقال : صدقتَ

يا أمير المؤمنين، أهلُ الفضل أولى بالفضل وأهل النقص أولى بالنقص، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كم غافلٍ أودى به الموتُ * لم يأخذ الأُهْبَــةَ للفَوْتِ

من لم تزُل نعمته قبلَه * زالَ عن النّعمة بالمــوت

فقال له : أحسنتَ، طيّبت المعنى، وأمر له بعشرين ألف درهم :

كان أبو العتاهية يحُجّ كل سنة، فاذا قدم أهدى الى المأمون بُرْدًا ومُطْرَفًا ونَعْلا سوداء ومَسَاويك أَرَاك، فيبعث اليه بعشرين ألف درهم، فأهدى مرّة له كما كان يهدى كل سنة إذا قدِم، فلم يُثِبْه ولا بعَث اليه بالوظيفة، فكتب اليه أبو العتاهية :

خبّرونى أن من ضَرْب السَّنَهْ * جُدُدًا بِيضا وصُــفرا حَسَنهْ

أُحْدِثتْ لكننى لم أرَهَــا * مثــلَ ما كنتُ أرى كلّ سنه

فأمر المأمون بحمل العشرين الألف وقال : أغفلناه حتى ذكّرنا .

أنشد المأمونُ بيتَ أبى العتاهية يخاطب سلماً الخاسر :

تعالى اللهُ يا ســلم بن عمرو * أذلّ الحِرْصُ أعناق الرّجال

فقال المأمون : إن الحرص لَمُفســد للدين والمروءة ، والله ما عرفت من رجلٍ قطّ حرصًا ولا شَرَها فوجدتُ فيه مُصْطَنَعًا ، فبلغ ذلك سلما فقال : ويلى على الجَرّار الزنديق جَمَع الأموال وكَنَزَها وعبأ البدور فى بيته ثم تزهّد مُرَاءاةً ونِفاقا، فأخذ يَهتِف بى اذا تصدّيتُ للطلب .

كان الرشيدُ مما يعجبه غِناءُ الملّاحِين فى الزلالات اذا ركِبها، وكان يتأذّى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء : يعملوا لهؤلاء شعرا يغنّون فيه، فقيل : ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية وهو فى الحبس، فوجّه اليه الرشيدُ : قل شعرا حتى أسمعه منهم ، ولم يأمر بإطلاقه ، فغاظه ذلك وقال : والله لأقولنّ شعرا يُحزنه ولا يُسَرّ به، فعمِل شعرا ودفعه الى من حفِظه من الملّاحين، فلما ركِب الحَرّاقة سمعه وهو :

خانَك الطَّرفُ الطَّموحُ * أيها القلبُ الجَمُوحُ
لدواعى الخيرِ والشـ * ـرِّ دُنُوٌّ ونُزُوح
هل لمطلوبٍ بذنبٍ * توبةٌ منه نَصُوح
كيف إصلاحُ قلوبٍ * إنما هُنَّ قُروح
أحسن الله بنا * إنّ الخطايا لا تَفُوح
فإذا المستورُ مِنّا * بين ثَوْبَيْه فُضوح
كم رأينا من عزيزٍ * طُوِيَتْ عنه الكُشُوح
صاحَ منه برحيل * صائحُ الدهر الصَّدُوح
موتُ بعضِ الناس فى الأر * ض على قوم فُتُوح
سيصير المرء يوما * جسَدا ما فيه رُوح
بين عَيْنَىْ كلِّ حىّ * عَلَمُ الموت يَلوح
كلُّنا فى غفلة وال * موتُ يغدو ويَرُوح
لِبَنِى الدنيا من الدن * يا غَبُوقٌ وصَبُوح
رُحْنَ فى الوشى وأصبحـ * ـنَ عليهنّ المُسُوح
كلُّ نطّاحٍ من الدهـ * ـرِ له يوماً نَطُوح
نُحْ على نفسك يا مسـ * ـكينُ إن كنتَ تنوح
لَتَمُوتَنّ وإن عُمِّـ * ـرْتَ ما عُمِّرَ نُوح

فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكى وينتحب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعا فى وقت المَوْعِظة ، وأشدّهم عَسْفًا فى وقت الغضب والغِلْظة ؛ فلما رأى الفضلُ بن الربيع كثرة بكائه أومأ الى الملّاحين أن يسكتوا .

لما عقد الرشيد العهد لبنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلتُ عن الرَّبْع المُحِيل قَعُودى * الى ذِى زُحُوفٍ جمّة وجُنُودِ
ورَاعٍ يُراعى الليلَ فى حفظ أمّة * يدافع عنها الشرَّ غير رَقُود

بألوية جبريلُ يَقْــدُمُ * ورايات نَصْــرٍ حوله وبُنُود
تجافى عن الدنيا وأيقن أنهـا * مُفَارِقَةٌ ليست بدار خُلود
وشَدَّ عُرَى الإسلام منه بفتيةٍ * ثلاثة أملاكٍ وُلاة عُهُود
هُمُ خــيرُ أولاد لهم خيرُ والد * له خيرُ آباء مَضَتْ وجُدود
بَنُو المصطفى هارون حول سريره * فخــيرُ قيامٍ حــولَه وقُعُود
تقلّب ألحاظُ المهابة بينهـم * عيونَ ظباء فى قلوب أُسُــود
جُدُودهم شمسٌ أتت فى أهِلَّة * تبَدَّت لِرَاء فى نجوم سُــعُود

فوصله الرشيدُ بِصِلة ما وصل مثلها شاعرًا قطّ .

١٢ — مُسْلِمُ بن الوَلِيد[1]

أحد الشعراء المفلقين والبلغاء المبدعين

قال الشِّعْرَ فى صِباه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء، مكتفِيًا بما يناله من قليل العطاء، ويُنفقــه على ملاذّه مع إخوانه من خُلَعاء الشـعراء، ثم ٱنقطع الى يزيد بن مَزيد الشَّيْبانى قائد الرشـيد، ثم ٱتّصل بالخليفة هارون الرشيد وعُدّ من شعرائه، ومدَحه ومدَح البرامكة وحَسُن رأيهم فيه . ولـما أصبح الحلّ والعقد بيد ذى الرِّيَاستين الفضـلِ بن سَهْل وزير المأمون فى أوّل خلافته قرّبه وأدناه : لأنه كان من خاصّته قبـل وزارته، وولّاه أعمالا بجُرْجَان اكتسب منها ألف ألف درهم ثم لزِم منزلَه الى أن أنفقها فى اللّذات ، وعاد إلى الفضل فقلّده الضياع بأَصْبَهان فاكتسب منها ألف ألف أيضا . ولـما قُتِل الفضل لزم منزلَه ونَسَك ولم يمدح أحدا إلى أن مات بجرجان .

ومسلمٌ أوّل من تكلّف البديع فى شعره وٱستكثر منه فى قوله ، وسبَقَه بشار الى ذلك إلا أنه لم يبلغ شأْوَ مسـلم فيه . وقد عدّ العلماءُ هذا التصنّع والتكلّف إفسادًا للشعر، إذ قد تبعه فى ذلك الشعراءُ مثل البحترىّ وأبى تمام وابن المعتزّ وغيرهم .

(١) هو مسلم بن الوليد مولى الأنصار يلقب صريع الغوانى ، شاعر متقدّم من شعراء الدولة العباسية ، منشؤه ومولده الكوفة . وهو فيما زعموا أوّل من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعة ، وأشهرهم فيه أبو تمـام الطائى ، فانه جعل شعره كله مذهبا واحدا فيه ، ومسلم كان متفننا متصرفا فى شعره . قال محمد بن يزيد : كان مسلم شاعرا حسن النمط ، جيـد القول فى الشراب ، وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس فى هذا المعنى ، وهو أوّل من عقد هذه المعانى الطريفة واستخرجها . وقال القاسم بن مهرويه : أوّل من أفسـد الشعر مسلم بن الوليد ، جاء بهذا الفن الذى سماه الناس البديع ثم جاء الطائى بعده فتفنن فيه . توفى بجرجان سنة ٢٠٨ﻫ وله ديوان مطبوع فى ليدن سنة ١٨٧٥م . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٣ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٢٨) والعقد الفريد (ج ١ ص ١٤٢) .

وقد مزج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمنه المعانى اللطيفة ، وكساه الألفاظ الظريفة، فله جَزالة البدويّين، ورقة الحضريّين .

لقى مسلم أبا نُواس فقال له : ما أعرف لك بيتا إلا فيه سَقَط؛ قال له : فما تحفظ من ذلك؟ قال : قل أنت ماشئت حتى أُرِيَك سَقَطَك فيه؛ فأنشد :

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بسُحْرة فارتاحا * وأمَلَّه ديكُ الصَّباحِ صِياحا

فقال له مسلم : فلِمَ أملّه وهو الذى أذكره وبه آرتاح؟ فقال أبو نواس : فأنشدنى شيئا من شعرك ليس فيه خَلَل؛ فأنشده مسلم :

عَاصَى الشبابَ فَرَاح غير مُفَنَّد * وأقام بين عزيمةٍ وتَجَلُّد

فقال له أبو نواس : قد جعلته رائحا مقيما فى حالة واحدة وبيت واحد ، فتَشَاغَبا وتَسَابّا ساعةً . وكِلا البيتين صحيح المعنى .

آجتمع أصحاب المأمون عنده يوما،فأفاضوا فى ذكر الشعر والشعراء،فقال له بعضهم: أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رثى رجلا :

أرادوا لِيُخْفُوا قبرَه عن عدوّه * فطِيبُ تراب القبر دَلّ على القبر

وحيث مدح رجلا بالشجاعة فقال :

يجود بالنفس إذ ضَنّ الجوادُ بها * والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود

وهجا رجلا بقبح الوجه والأخلاق فقال :

قَبُحَتْ مَنَاظِرُه فحين خَبَرْتَه * حَسُنَتْ مناظره لِقُبْحِ المَخْبَر

وتَغَازل فقال :

هَوًى يجِدّ وحبيبٌ يلعبُ * أنت لَقًى بينهما معذَّبُ

فقال المأمون : هذا أشعر من خضتم اليوم فى ذكره .

قال يزيد بن مَزْيَد : أرسل الىّ الرشيد يوما فى وقت لا يرسل فيه الى مثلى ، فأتيتُه لابسًا سلاحى مستعدًا لأمر إن أراده منّى، فلما رآنى ضحك الىّ ثم قال : يا يزيد، خبّرنى من الذى يقول فيك :

تراه فى الأَمْن فى دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ * لا يأمَنُ الدهرَ أن يُدْعى على عَجَلِ
ضافِى العِنانِ طَموحَ العينِ همّتُـه * فَكّ العُنَاة وأسْرُ الفاتك الخَطِلِ

فقال : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ، فقال : سَوْءَةً لك من سيّد قومٍ يُمدَح بمثل هـذا الشعر ولا يعرف قائلَه ، وقد بلغَ أميرَ المؤمنين فرواه ووَصل قائلَه، وهو مسلم بن الوليد! فانصرفتُ فدعوتُ به ووصلتُه ووليته .

وروى أنه دخل على الرشيد فقال له : يا يزيد، من الذى يقول فيك :

لا يَعْبَق الطِّيبُ خدّيْه ومَفْـرِقَه * ولا يُمَسِّـح عينيه من الكُحُلِ
اذا انْتضى سـيفَه كانت مسالِكُه * مسالكَ الموتِ فى الأبدان والقُلَلِ
وإن خلَتْ بحـديث النفس فِكْرتُه * حَىَّ الرجاءُ ومات الخوف من وجَلِ
كالليث إن هِجْتَـه فالموت راحتُه * لا يسـتريح الى الأيام والدُّوَلِ

فقال : لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين، فقال له هارون : أيقال فيك مثـل هذا الشـعر ولا تعرف قائلَه ! فخرج من عنده خجلا، فلمـا صار الى منزله دعا حاجبه فقـال له : من بالباب من الشعراء؟ قال : مسلم بن الوليد، قال : وكيف حَجَبْتَه عنى، فلم تُعْلِمنى بمكانه ! فقال : أخبرته أنك مُضَيّق، وأنه ليس فى يديك شىء تعطيه إياه، وسألتُه الإمساكَ والمُقام أياما الى أن تتّسع ، فأنكر ذلك وقال : أَدْخِله ، فأدخله اليه، فأنشده قوله فيه :

أُجْرِرْتُ[1] حبلَ خليع فى الصِّبـا غَزِلِ * وشمَّـرتْ هِمَمُ العُـذّال فى عَـذَلى
هاجَ البكاءَ على العينِ الطَّمُوحِ[2] هوًى * مُفَـرَّقٌ بين توديـعٍ ومُحتَمَلِ
كيف السُّـلُوّ لقلبٍ راح مُختَبَلا * يَهْـذِى بصاحب قلبٍ غير مختبَلِ

(١) أجررت فلانا رسنه : تركته وشأنه، والخليع : الذى خلع عذاره فى الصبا . (٢) الطموح : المرتفعة فى النظر الى الأحبة . ومفرق : مقسم .

عَاصَى العـزاءَ غداة البيـن مُنْهِمِلٌ * من الدمـوع جرى فى إثر منهمـل

لولا مُدَارأة دمـع العين لانكشفت * مـنّى سرائرُ لم تظهـر ولم تُخَـل (١)

أما كفى البينَ أن أُرْمَى بأسْهُمِـه * حتى رمانى بلحظ الأعين النُّجُـل

ممـا جنَى لى وإن كانت مُنًى صدَقَت * صَبَابةٌ خُلَسُ التسـليم بالمُقَـل

ماذا على الدهر لو لانت عريكتُه * وردّ فى الرأس مـنّى سَكْرَةَ الغَـزَل

جُرْمُ الحوادث عندى أنها اختلست * مـنّى بناتِ غِذاء الكَرْم والكِلَل (٢)

ورُبَّ يوم من اللـذّات مُحْتَضَرٍ (٣) * قصّرتُـه بلقـاء الراح والخُلَـل

وليـلة خُلِستْ للعين من سِـنَة * هتكتُ فيها الصِّبا عن بَيْضَة الحَجَـل

قد كان دهرى وما بى اليومَ من كِبَرٍ * شُرْبَ المدام وعزفَ القَيْنَـة العُطُل

اذا شكوتُ اليها الحبَّ خَفَّرها (٤) * شكواى فاحمـرّ خدّاها من الخجـل

كم قد قطعتُ وعينُ الدهر راقـدةٌ * أيامَـه بالصِّبا واللهـو والجَـذَل

وطَيِّبِ الفـرع أصفانى مـودّته * كافأتُه بمـديح فيـه مُتَنَخَّـل (٥)

وبـلدةٍ لمطايا الرَّكب مُنْضِـيَةٍ (٦) * أنضيتُها بوَجِيف الأَيْنُـق الذُّلُل

فِيمَ المُقَامُ وهـذا النجم مُعْـتَرِضًا (٧) * دَنا النَّجاء وحان السّـير فارتَحِل

يا مائلَ الرأس إن الليث مُفْـتَرِسٌ * مِيـلَ الجماجم والأعناق فاعتـدِل

حَـذَارِ من أسـدٍ ضِرغامة بَطَـلٍ * لا يُولِغُ السيفَ إلا مهجةَ البَطَـل

لـولا يزيد لأضحى المُلك مُطَّـرِدًا (٨) * أو مَائلَ السَّمْك أو مُسْتَرخِىَ الطُّـوَل

سَلّ الخليفـةُ سيفا من بَنى مَطَـر * أقام قائمَـه من كان ذا مَيَـل

كم صَـائل فى ذَرا تمهيـد مملكة * لـولا يزيدُ بَنى شَيْبان لم يَصُـل

---

(١) أى لم تظن ى . (٢) يريد الخمر والجوارى . (٣) محتضر، أى حضرته اللذات . والخلل جمع خلة وهى الصديقة . (٤) خفرها ، أى ولد عليها الخفر وهو شدّة الحياء . (٥) أى مختار . (٦) منضية : متعبة . والوجيف : ضرب من السير . والذلل : الضامرات . (٧) يريد بالنجم الثريا ، ومعترضا : منتصبا . (٨) مطردا ، أى مخذولا . وضرب السمك والطول مثلا .

نابُ الإمامُ الذى يَفْــترُّ عنــه اذا * ما ٱفترّت الحربُ عن أنيابها العُصُــل
من كان يَخْتِـــل قِرْنا عنـــد موقفه * فإن قِرنــ يزيـــد غيرُ مُخْتَتـــل
سَــدّ الثغور يزيدٌ بعــد ما ٱنفرجت * بقائم الســيف لا بالخَتْل والحِيــل
كم قـــد أذاق حِمامَ الموت من بَطَل * حامى الحقيقـــةِ لا يُؤْتَى من الوَهَـــل
أغرُّ أبيضُ يُغْشِى البِيضَ أبيضَ لا * يرضى لمـــولاه يومَ الرَّوْع بالفَشَـــل
يَغْشَى الوغى وشِهابُ المـــوت فى يده * يرمى الفـــوارسَ والأبطال بالشُّـــعَل
يَفْترّ عنـــد ٱفترار الحـــرب مبتسِماً * اذا تغـــيّر وجه الفـــارِس البطـــل
مُوفٍ عـــلى مُهَج واليـــومُ ذو رَهَج * كأنه أجَـــلٌ يســـعى الى أمـــل
ينـال بالرِّفـــق ما يَعْيَـا الرجالُ بـــه * كالموت مســـتعجِلا يأتى على مَهَـــل
لا يُلْقِـــحُ الحـــربَ إلا رَيْثَ يَنْتِجُها * من هالك وأســـيرٍ غـــيرِ مُخْتَتَـــل
إن شِـــيم بارقُـــه حالت خلائقُـــه * بين العطيّـــة والإمساك والعِلَـــل
يُغْشِى المنايا المنـــايا ثم يَفْـــرِجُها * عن النفوس مُطِلّات على الهَبَـــل(١)
لا يَرحـــل النـــاسُ إلا نحـــوَ حُجْرته * كالبيت يُضْحِى(٢) اليـــه مُلْتَقَى السُّبُل
يَقْـــرِى المنيّةَ أرواحَ الكُماة كما * يَقْرِى الضيوفَ شُحُـــومَ الكُوم(٣) والبُزُل
يكسو الســـيوفَ دماء النا كثين به * ويجعـــل الهامَ تِيجان القَنـــا الذُّبُـــل
يغـــدو فتغـــدو المنـــايا فى أسِنّته * شَوارعا تَتَحـــدّى النـــاسَ بالأجَـــل
إذا طَغَت فئةٌ عن غِبّ طاعتهـــا * عَبّى لهـــا الموتَ بين البِيض والأسَل
قـــد عَوّد الطـــيرَ عاداتٍ وثِقْنَ بها * فهنّ يَتْبَعنه فى كـــلّ مُرْتَحَـــل
تراه فى الأمـــن فى دِرع مُضـــاعَفَة * لا يأمَنُ الدهرَ أن يُدْعَى على عَجَـــل
صافِى العِنـــان طموحَ العينـــ همّتُه * فَكّ العُنـــاة(٤) وأسْرُ الفاتك الخَطِـــل
لا يَعْبَق الطِّيبُ خـــدّيه ومَفْرِقَـــه * ولا يمسح عينيه من الكُحُـــل

---

(١) الهبل : الفقدان . (٢) يعنى البيت الحرام . (٣) الكوم : العظام الأسنمة واحدها كوماء . والبزل : جمع بازل وهو ماله تسعة أعوام . (٤) جمع عان وهو الأسير . والخطل : ذو الخطل وهو الخطأ

اذا آنتضى سـيفَه كانت مسالِكُه * مسالكَ المـوتِ فى الأبدان والقُلَل

وإن خلَت بحـديث النفس فِكْرتُه * حىَّ الرجاء ومات الخوف من وَجَل

كالليث إن هِجْتَه فالمـوت راحتُـه * لا يستريح الى الأيام والدُّوَل

إن الحـوادث لمـا رُمْن هَضْبتَه (١) * أزمعن عن جار شَيْبان بمُنتقَل

فالدهر يَغْبِط أُولاه أواخِـرَه * اذ لم يكن كان فى أعصاره الأُوَل

اذا الشَّرِيكِىّ (٢) لم يفخَـر على أحـد * تكلم الفخـرُ عنه غير مُنتحِل

لا تُكْذَبَنّ فإن الحِـلم مَعْدِنه * ورِاثةٌ فى بنى شيبان لم تَـزَل

سَلّوا السيوف فأغْشَوا من يحار بهـم * خَبْطا بها غـير ما نُكلٍ ولا وُكُل

الزائديُّونَ قـومٌ فى رماحهـمُ * خوفُ المُخيف وأمْنُ الخائف الوَجِل

كبيرُهم لا تقـوم الرّاسياتُ له * حِلما وطفلهمُ فى هَـدْى مُكْتَهِل

اِسْلَم يزيدُ فما فى الدين من أَوَدٍ * اذا سلِمتَ وما فى الملك من خَلَل

أثبتَ سُوق بنى الإسـلام فاطّادَتْ (٣) * يومَ الخليج وقـد قامت على زَلَـل

لولا دفاعُك بأسَ الروم اذ بَكَرَتْ * عن عِتْرةِ (٤) الدين لم تأمن من الثَّكَل

ويوسُفُ البَرْم (٥) قـد صبّحتَ عسكرَه * بعسكر يلفِظ الأقـدارَ ذى زَجَـل

غافصتَه (٦) يوم عَـبْرِ النّهـر مُهْلَتَـه * وكان محتجِزا فى الحرب بالمُهَـل

والمـارقَ آبن طَريف (٧) قـد دَلَفْتَ له * بعسكر للمنايا مُسْـبِل هَطِـل

لمـا رآك مُجِـدّا فى مَنِيّتِـه * وان دَ... ـك لا يُسطـاع بالحيل

شام النِّـزال فأبرقت اللقاءَ لـه * مقـدَّم الخَطْو فيها غـيرَ مُتّكِل

ماتـوا وأنت غليـل فى صـدورهمُ * وكان سـيفُك يَستَشفِى من الغُلَل

(١) هذا مثل، يريد لما رامت الحوادث من استجارته . (٢) نسبة الى شريك، وهو أحد أجداد يزيد .

(٣) هكذا فى الأصل . وعندنا أن الكلمة محرفة عن (اتطدت) أى ثبتت . وهى وزان افتعل من وطد . وكانت اوتطد ثم قلبت فاء الافتعال تاء وأدغم المثل فى المثل . (٤) عترة الدين : جماعة الاسلام .

(٥) أحد الخوارج على الرشيد . (٦) غافصه : فاجأه على غرة . (٧) هو الوليد بن طريف الشارى .

لو أنّ غـير شريكـيّ أطـاف به * فاز الوليدُ بقِـدح الناضل الخَصِـل[1]
وقَتَ بالدين يوم الرَّسّ[2] فاعتدلت * منــه قوائمُ قــد أوفت على ميَـل
ما كان جمعهُـمُ لما لقيتَهـمُ * إلا كمثـل نَعَام رِيـع مُنْجَفِـل
تابوا ولو لم يتوبوا من ذنوبهـمُ * لآبَ جيشُـك بالأسرى وبالنَّفَـل
كم آمِن لك نائى الدار مُمتنـع * أخرجته من حصون المُلك والخَـوَل
يأبى لك الذمّ فى يوميك إن ذُكرا * عَضْبٌ حُسـامٌ وعِرض غير مُبتذَل
وما رقين غُزاة من بيوتهمُ * لا ينكُلون ولا يؤتَـون من نَكَل
خلّفتَ أجسادهم والطيرُ عاكفةٌ * فيهـا وأقفلتَهـم هاما مع القَفَـل
فافخرْ فما لك فى شيبان من مَثَـل * كذاك ما ابـنى شيبان من مَثَـل
كم مشهَـدٍ لك لا تُحصى مآثِرُه * قسّمتَ فيـه كرزق الإنس والخَبَـل
لله من هاشم فى أرضـه جبَـل * وأنت وابنُك رُكنا ذلك الجبـل
قـد أعظَموك فما تُدْعى لِهَيِّنـة * إلا لمُعْضِـلة تَستَنّ بالعَضَـل[3]
يا ربّ مكرمة أصبحت واحدها * أعيت صَـناديدَ رامُوها فلم تُنَـل
تشاغَل النـاسُ بالدنيـا وزُخْرفهـا * وأنت من بذلك المعـروفَ فى شُغُل
أقسمتُ ما ذُبّ عن جدواك طالبُهـا * ولا دفعتَ اعتزام الجِـدّ بالهَـزَل
يأبى لسـانُك منـعَ الجـود سائلَه * فما يُلَجْلِج بين الجـود والبَخَـل
صـدّقتَ ظنّى وصدّقت الظنـونَ به * وحطّ جودُك عَقْدَ الرَّحْل عن جَمَـلى

فقـال له يزيد : قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقبضها واعذر ، فخرج الحاجب فقال لمسلم : قد أمرنى أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم : خمسون ألفا منها لك وخمسون ألفا لنفقته ، فأعطاه إياها . وكتب صاحب الخبر بذلك الى الرشيد ، فأمر ليزيد بمائتى ألف درهم وقال : اِقْبض الخمسين ألفا التى أخذها الشاعر وزِدْه مثلها ، وخُذْ

(١) الناضل : المصيب . والخصل مثله . (٢) الرس : وادى أذربيجان . (٣) تستن بالعضل : تتابع بالعسر . والمعضلة : الداهية .

مائة ألف لنفقتك، فافتك ضَيعته وأعطى مسلما خمسين ألفا أخرى . ولما أنشده : «لا يعبق الطيب» البيت . قال لجاريته : حرّم علينا مسلم الطِّيب .

كان داود بن يزيد بن حاتم المُهَلّبي يجلس للشعراء فى السنة مجلسا واحدا، فيقصدونه لذلك اليوم ويُنشدونه، فوجّه اليه مسلم راويته بقصيدته التى أولها : «لا تدعُ بى الشوق» فقدِم عليه يومَ جلوسه للشعراء ولحقه بعقِب خروجهم عنه ، فتقدّم الى الحاجب وحسَر لثامه عن وجهه، ثم قال له : آستأذن لى على الأمير؛ قال : ومن أنت ؟ قال : شاعر، قال : قد آنصرم وقتُك وآنصرف الشعراء وهو على القيام؛ فقال له : ويحك! إنى قد وفدتُ على الأمير بشعر ما قالت العرب مثلَه، وكان مع الحاجب أدبٌ يفهم به ما يَسمع، فقال : هاتِ حتى أسمع، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك اليه؛ فأنشده بعض القصيدة، فسمع شيئا يقصر عنه الوصف، فدخل على داود فقال له : قدِم على الأمير شاعر بشعر ما قيل فيك مثله؛ فقال : أدخِل قائله؛ فلما مَثَل بين يديه سَلّم وقال : قدمت على الأمير — أعزه الله — بمدح يسمعه فيعلم تقدّمى على غيرى ممّن آمتدحه؛ فقال : هات، فلما آفتتح القصيدة وقال : « لا تدع بى الشوق » آستوى جالسا وأطرق حتى أتى الرجلُ على آخر الشعر، ثم رفع رأسه اليه فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم أيها الأمير؛ قال : فى كم قلته يا فتى؟ قال : فى أربعة أشهر أبقاك الله؛ قال : لو قلته فى ثمانية أشهر لكنت محسنا. وقد اتهمتك، بجودة شعرك وخمول ذكرك، فان كنت قائل هذا الشعر فقد أنظَرتُك أربعة أشهر فى مثله، وأمرت بالإجراء عليك ، فان جئتنا بمثل هذا الشعر وهبتُ لك مائة ألف درهم وإلا حرمتك. فقال : أو الإقالة أعزّ الله الأمير، قال : قد أقلتك ؛ قال : الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره؛ فقال : أنا آبن حاتم، إنك لما آفتتحت شعره فقلت : «لا تدع بى الشوق إنى غير معمود» سمعت كلام مسلم ينادينى، فأجبت نداءه وآستويت جالسا؛ ثم قال : ياغلام، أعطه عشرة آلاف درهم ، وآحمل الساعة الى مسلم مائة ألف درهم . وهذه هى القصيدة :

لا تَدْعُ بي الشوقَ إنى غيرُ معمود * نَهَى النُّهى عن هوى الهِيف الرَّعاديد[1]
لو شئتُ لاشئتُ راجعتُ الصِّبا ومَشَتْ * فِىَّ العيونُ وفاتتنى بمجلود[2]
سَلْ ليلةَ الخَيف هل أمضيتُ آخرها * بالرّاح تحت نسيم الخُرَّد الغِيد
شجَجتُها بلُعاب المُزن فاعتزلت[3] * نَسْجَين من بين محلول ومعقود
كِلا الجديدين قد أُطعمتُ حَبْرَته[4] * لو آلَ حىٌّ الى عُمْرٍ وتخليد
أهلا بوافدة للشيب واحدةٍ * وإن تراءتْ بشخص غير مودود
لا أجمع الحِلمَ والصهباءَ قد سكنتْ * نفسى الى الماء عن ماء العناقيد
لم ينْهَنى فندٌ[5] عنها ولا كِبر * لكن صحوتُ وغُصنى غير مخضود
أوفى بى الحلمُ واقتاد النُّهى طلَقا * شأوى وعِفتُ الصِّبا من غير تفنيد
اذا تجافت بِىَ الهِمات عن بلد * نازعت أرضًا ولم أحفِل بتمهيد
لا تَطَّبِينى[6] المُنَى عن جَهْد مُطَّلَب * ولا أُحول لشىء غير موجود
ومَجهلٍ كاطِّراد السيف مُحتجِزٍ * عن الأدلّاء مسجُور الصَّياخيد
تمشى الرياحُ به حَسْرى مُوَلَّهة * حَيْرَى تلوذ بأطراف الجلاميد
مُوَقَّف المَتْن لا تمضى السَّبيلُ به * إلا التخلُّلَ ريثًا بعد تجهيد
قرَيْتُه الوَخْدَ من خَطّارةٍ سُرُحٍ[7] * تَفْرى الفلاةَ بإرقال وتَوْخيد
اليك بادرتُ إسفارَ الصباح بها * من جُنْح ليل رحيبِ الباع ممدود
وبلدةٍ ذات غَوْلٍ لا سبيل بها * إلا الظُّنونُ وإلّا مَسْرَح السِّيد
كأن أعلامها والآلُ يركبُها * بُدْنٌ توافى بها نُذْرٌ الى عيد

(١) لا تدع بى الشوق، أى لا تدعنى مشتاقا. وسأله دعبل عن معنى ذلك فقال: لا تدعنى صريع الغوانى فلست كذلك، وكان لهذا اللقب كارها. ومعمود: عاشق. والهيف: الضامرات الخصور. (٢) أى ذهبت بجلدى. (٣) اعتزلت: اختلطت، ويريد بالنسجين: ما ولى الماء من الخمر أسرع فيه الماء فحله، وما ولى منها القاع بقى على حاله لم يحله الماء بعد. (٤) الحبرة: النعيم.
(٥) الفند: اللوم. والمخضود: الواهن. (٦) أى لا تدعونى الى نفسها. (٧) الخطارة: الناقة تحرك ذنبها. والسرح: الخفيفة.

كلفتُ أهوالها عَيناً مؤرَّقةً * اليك لولاك لم تكحل بتسهيد

حتى أتتك بىَ الآمالُ مُطَّلِعا * لليُسر عندك فى سربال محسود

من بعد ما ألقتِ الأيامُ لى عَرَضا * مُلقىً رَهِين[1] السيف مَصْفُود

وساوَرتنى بناتُ الدهر فامتحنت * ربعى بمُمحلة[2] شهباء جارود

الى بنى حاتم أدّى ركائبَنا * خَوضُ الدجى وسُرى المَهرِيّة القُود

تَطوِى النهارَ فإنْ ليلٌ تَمخّطَها[3] * باتت تَمخّط هاماتِ القراديد

مِثلَ السُّمام[4] بَعيدات المَقيل اذا * ألقى المجيرُ يَدًا فى كل صَيْخود

حَلّت بِداوُدَ فامتاحتْ وأعجلَها * حَذوَ النّعال على أَيْنٍ وتَحْرِيد[5]

أعطى فافنى المُنى أدنى عَطِيّته * وأرهقَ الوعدَ نُجْحاً غير منكود

واللهُ أطفأ نار الحرب إذ سُعِرت * سرها بموقدها فى الغرب داود

لم يَأْتِ أمرا ولم يَظْهر على حَدَث * إلا أُعِينَ بتوفيق وتسديد

مُوحَّدُ الرأى تَنْشقّ الظنونُ له * عن كل مُلتَبِس منها ومعقود

تُثنَى الأمورُ له من نحو أوْجُهِها * وإن سلكن سبيلا غير مَوْرود

اذا أباحت حِمَى قوم عقوبتُه * غادَى له العفوُ قوماً بالمراصيد

كالليث بل مثله الليثُ الهَصُور اذا * غَنّى الحديدُ غِناءً غير تَغْرِيد

يلقى المنيّةَ فى أمثال عُدّتها * كالسّيل يقذف جُلمودا بجُلمود

إن قصّر الرمحُ لم يَمْشِ الخُطا عددا * أو عَرّد السيف لم يَهْمُم بتَعْرِيد

اذا رَعَى بلدا دَانَى مَناهِلَه * وإن بنين على شحط وتبعيد

جرى فأدرك لم يُعْنَف بمُهلته * واستودع البُهرَ[6] أنفاس المجاويد

---

(١) الرهين : الأسير . والمصفود : الموثق بالحديد . (٢) الممحلة : السنة الجدبة . والجارود المنجردة من النبات . (٣) تمخطها : سال بها . والقراديد : جمع قردد ، وهو المرتفع من الجبال . (٤) السمام : طائر يشبه القطا . والصيخود : شدة الحر . (٥) التحريد من الحرد ، وهو داء يصيب الإبل فى قوائمها . والأين : التعب . (٦) البهر : هو ما يعترى الانسان عند العدو من اللهث وتتابع النفس

آلُ المُهلَّبِ قومٌ لا يزال لهم * رِقّ الصّريح[1] وأسلابُ المَذاوِد
مُظفَّرون تُصيب الحروبُ أنفُسَهم * اذا الفِرارُ تَمطَّى بالمَحاييد[2]
نَجْلٌ مَناجيبَ لم يَعدَم تِلادُهُمُ * فتًى يُرجّى لِنَقْضٍ أو لتوكيد
قومٌ اذا هَدْأةٌ[3] شامَتْ سيوفَهمُ * فإنها عُقُلُ الكُوم المَقاحيد
نفسي فِداؤك يا داود إذ عَلِقت * أيدِي الرّدى بنواصِي الضُّمّر القُود
داويتَ من دائها كِرْمان وانتصفت * بك المنونُ لأقوامٍ مَجاهيد
ملأتَها فَزَعًا أخلى معاقِلَها * من كل أبلخَ[4] سامى الطَّرف صِنديد
لما نزلتَ على أدنى بلادهمُ * ألقى إليك الأقاصى بالمَقاليد
لَمَستَهم بيدٍ للعفو مُتَّصِلٍ * بها الرّدى بين تَلْيينٍ وتشديد
أتيتَهم من وراء الأمن مُطَّلِعا * بالخيل تَرْدِى بأبطالٍ مَناجيد
وطار فى إثر من طار الفِرارُ به * خوفٌ يعارضه فى كل أُخدود
فاتوا الرّدى وظُباتُ الموت تَنشُدهم * وأنتَ نَصْب المنايا غيرُ مَنشود
ولو تلبّث دَيّانٌ لها رَويتْ * منه ولكن شَآها[5] عَدْوَ مَزءود
أحرَزه أجلٌ ما كاد يُحرِزه * فَمَرّ يطوى على أحشاء مَفْئود[6]
ورأسُ مِهران قد ركّبتَ قُلّته * لَدْنًا كَفاه مكانَ اللّيت والجِيد
قد كان فى مَعزِلٍ حتى بعثتَ له * أمَّ المنيّة فى أبنائها الصّيد
أجُنَّ أم أسلمته الفاضحاتُ الى * حَدٍّ من السّيف من يَعلَق به يُود
ألحقتَه صاحبيه فاستمرّ بهم * ضربٌ يفرّق ضَبّاتِ[7] القَماحيد

(١) رق الصريح، أى استعباد الحر. والمذاويد: الانجاد واحده مذود. (٢) المحاييد: الجبناء جمع محياد. (٣) الهدأة: الفترة. (٤) الأبلخ: المتكبر.

(٥) شآها: سبقها. ومزءود: مرعوب. (٦) المفئود: الذى أصيب فؤاده. (٧) الضبات: أوصال الرأس. والقماحيد: جمع قمحودة وهى العظم الناتئ فى مؤخر الرأس بين القفا وأعلى الرأس.

أعْذَرَ(١) مَن فرَّ من حرب صبَرت لها * يوم الحُصَين شِعارٌ غير مجحود
يومَ آستضَبَّتْ سجِسْتانٌ(٢) طوائفها * عليك من طالب وِتْرا ومحقود
ناهضتَهم ذائدَ الإسلام تقرعُهُم * عنه ثُلاثَ ومَثْنَى بالمَواحيد
تجود بالنفس إذ أنتَ الضَّنين بها * والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود
تلك الأزارِق إذ ضَلّ الدليلُ بها * لم يُخطِها القصدُ من أسياف داوُد
كان الحُصَين يُرَجَّى أن يفوز بها * حتى أخذتَ عليه بالأخاديد
ما زال يَعنُفُ بالنُّعمى ويَغمِطها * حتى آستقلّ به عودٌ على عود
ث ترْتاب(٣) الرياحَ به * وتحسُد الطيرَ فيه أضبُعُ البيد
تغدو الضَّوارى فتَرْميه بأعيُنها * تَستنشِق الجوَّ أنفاسًا بتَصْعيد
يتبعن آفياءه طورا ومو ـه * يَلْغَنَ فى عَلَقٍ منه وتجسيد
فكان فارطَ قومٍ حانَ مَكْرَعُهم * بأرض زَادَان شتّى فى المَوارِيد
يومَ جُرَاشَة إذ شيبان مُوجِفَة(٥) * يَنْجُون منك بِشِلو منه مَقْدود
زَاحَفْته بابن سُفيانٍ فكان له * ثناءُ يوم بظَهر الغيب مشهود
نجا قليلا ووافَى زَجْرُ عائفه * بيومه طيرَ منحوسٍ ومسعود
ولَّى وقد جرَعَتْ منه القنا جُرَعا * حَىَّ المخافة مَيْتًا غير مودود
زالت حُشَاشتُه عن صدر مُعتَدِل * دانِى الكعوب بعيد الصَّدر أُملود(٦)
إذا السيوفُ أصابته تقطَّع فى * سُرَادِقٍ بحَوامى الخيل ممدود
يَفْدِى بما نَحَلَتْه من خلافته * حُشاشةَ الرَّكض من جَرداء قَيْدود(٧)
حَلَّ اللِّواء وخَالَ الخِدر عائذَه * فعاذ بالخدر تِربُ الكاعب الرُّود

(١) اعذر : جاء بما يعذر عليه ١) أى عرفت طوائفها . (٣) ترتاب : أى تستنكر .
(٤) الأفياء . جمع فىء وهو الظل آ الحسد : الدم . (٥) موجفة . مسرعة .
(٦) أملود : أملس . ا : قصيرة الشعر . وقيدود . ناقة الطويلة الظهر .

وإن يكن شَبَّها حرباً وقد خمدت * فتائبًا حيث لا هَيْدِ ولا هِيد [1]

كلٌّ مَثَلْت به فى مثل خُطّته * قتلا وأضجعته فى غير ملحود

عافوا رضاك فعاقتهم بعفوتهم [2] * عن الحياة مناياهم لموعود

وأنتَ بالسند اذ هاج الصَّريخُ بها * وآستنفدتْ حربُها كيدَ المكاييد

وآستغزر القوم كأسا من دمائهمُ * وأحدقَ الموت بالكُرّار والحِيد

رددتَ أهمالها [3] القصوى مخيِّسة * وشمت بالبيض عَوْرات المراصيد

كنت المهلّب حتى شكّ عالمهم * ثم انفردتَ ولم تُسبَق بتسويد

لم تقبل السِّلْم إلا بعدَ مقدرة * ولا تألفت إلا بعد تبديد

حتى أجابوك من مستأمِنٍ حذِر * راجٍ ومنتظرٍ حتفا ومَثْمود

أهدى اليك على الشحناء أُلفتَهم * موتٌ تفرّق فى شتى عبَاديد

وفى يديك بقايا من سَراتهمُ * همُ لديك على وعد وتوعيد

إن تعفُ عنهم فأهلُ العفو أنت وإن * تُمضِ العِقاب فأمرٌ غير مردود

اسمع فإنك قد هيّجت ملحمة * وفَدتَ منها بأرواح الصناديد

اقذف أبا مالك فيها يكن بها * ويَنْسعَ فيها بجَدّ منك مجدود

يمضى بعزمك أو يجرى بشأوك أو * يَفْرى بجدّك كلّ غير محدود

لا يعدَمَنْك حمى الإسلام من مَلِكٍ * أقمتَ قُلّته من بعد تأويد

كفيتَ فى المُلك حتى لم يقف أحد * على ضَياع ولم يحزن لمفقود

أعطيتَهم منك نُصْحا لا كِفاء له * وأيّدوك بركن غير مهدود

لم يبعث الدهر يوما بعد ليلته * إلا آنبعثت له بالبأس والجود

أجرى لك اللهُ أيام الحياة على * فعلٍ حميد وجَدّ غير منكود

---

(١) كلمتان يزجر بهما الإبل . (٢) بعقوبهم ، أى بفنائهم . (٣) الأهمال : جمع همل ، وهو النَّعَم المسيب ، ويراد به الصعب . ومخيسة : مذللة .

لا يفقِدِ الدين خيــلا أنت قائدها * يُعْهــدنَ فى كلِ ثغر غير معهــود

محّــلاتٍ اذا آبتْ غنائمَهــا * ومُقْــدَمات عــلى نصر وتأييــد

هناك أنك تَغْــدى كلّ ملتمس * جُودا وأنــك مأوى كل مطــرود

تســتأنف الحمــد فى دهرٍ أوائــلُه * موســومة بفعــال لك محمــود

اذا عزمتَ عــلى أمرٍ بطشتَ به * وإن أنلت فنَيْــلا غيرَ تصريد

عوّدت نفســك عادات خُلقت لهــا * صِــدْقَ الحـديث وإنجازَ المواعيـد

دخل الوليد على الفضل بن سهل لينشده شعرا، فقال له : أيها الكهل ، إنى أجلّك عن الشعر فسل حاجتك، قال : بل تستتم اليد عندى بأن تسمع، فأنشده :

دُموعها من حِذار البين تنسكب * وقلبُها مغـرم من حَرّها يجب

جَــدّ الرحيلُ به عنها ففارقهــا * لبينه اللهو واللــذات والطرب

يهوى المســيرَ الى مَرْو ويحزنه * فراقُها فهو ذو نفسين يرتقب

فقال له الفضل : إنى لأجلك عن الشعر، قال : فأغننى بمــا أحببت من عملك ، فولّاه البريدَ بجُرْجَانَ (١) .

هجا مسلم قريشا ونخر بالأنصار بشعر يمثل لك ناحيــة من نواحى العصبية بين القبائل وهو يعتبر، الى حدّ ما، من الشعر السياسى، فقال :

قل لمن تاه إذ بــا عزّ جهلا * ليس بالتّيه يفخَــر الأحرارُ

فتناهَــوْا وأَقصِرُوا فلقــد جا * رت عن القصد منكمُ الأبصار

أيّكم حاط ذا جِوارٍ بعــزٍّ * قبل أن تحتويه منّا الدار

أو رَجا أن يفــوت قوما بِوِتر * لم تــزل تمتطيهــمُ الأوتار

لم يكن ذاك فيكمُ فدعُوا الفخــ * ـر بمــا لا يسوغ فيــه افتخار

ونِزَارا ففاخِروا تفضُــلُوهم * ودعوا من له عَبيــدٌ نزار

(١) بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين فى جنوب الشرق منه

فبنا عزّ منكمُ الذلُّ والدهـ * ـرُ عليكم بريبه دوّار
حاذِروا دولة الزمان عليكم * إنه بين أهله أطوار
فتُرَدّوا ونحن للحالة الأو * لى وللأوحد الأذلّ الصَّغار
فاخَرَتنا لما بسطنا لها الفخـ * ـر قريش وفخرها مستعار
ذكرتْ عزّها وما كان فيها * قبل أن تستجيرنا مُستجار
إنما كان عزّها فى جبال * ترتقيها كما ترقّى الوِبَار
أيها الفاخرون بالعز والعـ * ـزُّ لقوم سواهمُ والفخار
أخبرونا من الأعزّ أألمنـ * ـصور حتى اعتلى أم الأنصار
فلنا العز قبل عزّ قريش * وقريشٌ تلك الدهورَ تِجار

فانبرى له ابن قنبر يجيبه فقال :

ألا امْثُل أميرَ المؤمنين بمُسْلِم * وأقلق به الأحشاءَ من كل مُجْرِم
ولا ترجِعَنْ عن قتله باستتابة * فما هو عن شتم النبيّ بمُحْرِم
ولا عن مُسَاواة له ولقومه * قريشا بأصداءٍ لِعَادٍ وجُرْهُم
ويفخَر بالأنصار جهلا على الذى * بنُصرته فازوا بحظّ ومَغْنَم
وسُمّوا به الأنصار لا عزّ قائل * أراد قريشا بالمَقام المُذَمّم
ومنهم رسول الله أزكى مَن انتمى * الى نسبٍ زاكٍ ومجد مقدَّم
وما كانت الأنصار قبل اعتصامها * بنصر قريش فى المحلّ المعظَّم
ولا بالأُلى يَعلُون أقدار قومهم * صُداءٍ وخَوْلانٍ ولَخْم وسِلْهِم
ولكنّهم بالله عاذوا ونصرِهم * قريشًا ومن يستعصم الله يَعصِم
فعَزّوا وقد كانوا وفِطْيَوْنُ فيهم * من الذل فى باب من العز مُبْهَم
يسومهم الفِطْيون ما لا يُسامه * كريم ومن لا يُنكر الظلمَ يُظْلَم
وإن قريشا بالمآثر فُضِّلت * على الخلق طرّا من فصيح وأعجم

فما بال هــذا العِلج ضلّ ضلاله * يمُدّ اليهم كفَّ أجذَمَ أعسَم
يُسامى قريشا مسلمٌ وهُمُ هُمُ * بمولى يمانىّ وبيتٍ مُهَدَّم
اذا قام فيه غيرهم لم يكن لهم * مقام به من لؤم مَبْنًى ومَدْعَم
جَماسيسُ[1] أشباه القرود لو آنهم * يباعون ما آبتيعوا جميعا بدرهم
وما مسلم ولاء ولا ألى ولكنه من نَسْل علج مُلَكَّم
تولى زمانا غيرهم ثمت آدّعى * فلم يَكْرُم ولما يُكْرَم
فإن يك منهم فالنّضير ولِفّهم * واليه لا من يدّعى بالترغّم
وإن تَدْعُه الأنصارُ مولى أُسَيْمهم * بقافيه ... تكوه الجلد بالدم
عقابا لهم فى إفكهم وآدّعائهم * لأقلف منقوش الذراع ،
فلا تدّعوه وآنتفوا منه تسلموا * بنفيكموه من مقال ومأثم
وإلّا فغُضّوا الطرف وآنتظروا الرّدى * اذا آختلفت فيكم صَوارِدُ أسهمى
ولم تجدوا عنها مجنّا يجنّكم * اذا آطّلعتْ من كل فجّ ومَعْلَم
وأنتم بنو أذناب من أنتمُ له * ولستم بأبناء السَّنام المُقَدَّم
ولا ببنى الرأس الرفيع محله * فيسمو بكم مولى مُسامٍ وينتمى
فكيف رضيتم أن يُسامى نبيُّكم * ببيتكم الرَّثّ القصير المهدَّم
سأحطِم من سامى النبيَّ تطاوُلا * عليه وأكوى مُنْتَماه بميسَمى
أيُعْدَل بيتُ يَثْرِبىّ بكعبة * ثوتها قريش فى المكان المحرّم
قريشٌ خِيار الله والله خصّهم * بذلك فآتعس أيها العِلج وآرغَم
ومن تدّعى منه الولاء مؤخّر * اذا قيل للجارى الى المجد أقدم

وكان مسلم قال قصيدته فى قريش وكتمها، فوقعت إلى ابن قَنْبَر وأجابه عنها، فاستعلى عليه وهتكه وأغرى به السلطان، فلم يكن عند مسلم فى هذا جواب أكثر من الانتفاء منها.

---

(١) الجماسيس : اللئام فى الخلق والخلق .

ونِسبتها الى ابن قنبر والادّعاء عليه أنه ألصقها به ونسبها اليه ليعرضه للسلطان وخافه، فقال ينتفى من هذه القصيدة :

دعوتَ أمير المؤمنين ولم تكن * هناك ولكن من يَخَفْ يَتجشّم
وإنك إذ تدعو الخليفة ناصِرا * لكالمُترَقى فى السماء بسُلّم
كذاك الصّدى تدعوه من حيث لا ترى * وإن تتوهّمه تَمُتْ فى التوهّم
هجوتَ قريشا عامدا ونَحلتَنى * رُوَيدك يظهر ما تقول فيُعْلم
اذا كان مثلى فى قبيلى فإنه * على ابن لُؤَىّ قَصْرَةً غير مُتّهَم
سيكشِفك التعديل عما قذفتنى * به فتأخّر عارفا أو تقدّم
فإن قريشا لا يُغادر ودُّها * ولا يُستمال عهدُها بالترحّم
مضى سلفٌ منهم وصلّى بِعَقْبهم * لنا سلف فى الأوّل المتقدّم
جروا فجرينا سابقين بسبقهم * كما اتّبعت كفٌّ نَواشرَ مِعصم
وإن الذى يسعى ليقطع بيننا * كُملتمس اليربوع فى جحر أرقم
أضلّك قرعُ الآبدات طريقَها * فأصبحت من عَميائها فى تَهَيُّم
وخانتك عند الجرى لما اتّبعتها * تميمٌ لحاولت العُلا بالتقحّم
فأصبحت ترمينى بسهمى وتتّقى * يدى بيدى أصْلَيْت نارَك فاضرَم

ثم هجاه ابن قنبر بقصيدة أوّلها :

قُل لعبد النِّضير مُسْلِم الوغـ * ـد الدّنِىّ اللئيم سِنْخ النِّصاب
اِخْسَ يا كلب اذ نبحتَ فإنى * لستُ ممن يجيب نبحَ الكلاب
أفأرْضَى ومَنصِبى منصب العـ * ـزّ وبيتى فى ذِروة الأحساب
أن أُحطّ الرفيع من سَمْك بيتى * بمُهاجاة أوْشَبِ الاوشاب
من اذا سِيل من أبُوه بدا منـ * ـه حياءٌ يَحْميه رَجْعَ الجواب

وإذا قيل حين يقبل من أنـ * ـتَ ومن تعتزيه في الأنساب
قلتَ هاجي ابنِ قنبر فتسربلْ * ـتَ بذكري فخراً لدى النُّسّاب

وهي قصيدة طويلة فلم يجبه عنها مسلم بشيء فقال فيه ابن قنبر أيضاً :

لستُ أنفيك إن سواي نفاكا * عن أبيـك الذي له منتماكا
ولمّا اذا أنفيك يابن الوليد * من أبٍ إن ذكرتُه أخزاكا
ولـو انى طلبتُ ألأم منـه * لم أجده إن لم تكن أنت ذاكا
لـو سواه أبوك كان جعلنا * ه اذا الناسُ طاوعونا أباكا
حاكَ دهراً بغير حذق لـبُرد * وتحوكُ الأشعارَ أنت كذاكا

ثم هجاه بشعر أقذع فيه، فمشى اليه قوم من مشايخ الأنصار واستعانوا بمشيخة من قرّاء تميم وذوى الفضل والعلم، فمشوا معهم اليه. فقالوا: ألا تستحي من أن تهجوَ من لا يجيبك! أنت بدأت الرجلَ فأجابك، ثم عدت فكفّ، وتجاوزتَ ذلك الى ذكر أعراض الأنصار التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحميها ويذبّ عنها ويصونها لغير حال أحلّت ذلك منهم. فما زالوا به يعظونه ويقولون له كلّ قول حتى أمسك عن المناقضة لمسلم فانقطعت .

ولمسلم بن الوليد :

وإني وإسماعيل يوم وداعـه * لكالغمد يوم الرَّوع فارقه النَّصلُ
أما والحبالات المُمـرّات بيننا * وسائل أدّتها المـودّة والوصـل
لما خنتُ عهداً من إخاء ولا نأى * بذكرك نأيٌ عن ضميري ولا شغل
وإنّي في مالي وأهـلي كأنني * لنأيك لا مالٌ لديّ ولا أهـل
يذكّرنيك الدينُ والفضل والحجا * وقيلُ الخنا والحلم والعلم والجهل
فألقاك عن مذمومها متنزّهاً * وألقاك في محمودها ولك الفضـل
وأحمـد من أخلاقك البخلَ إنه * بعرضك لا بالمال حاشا لك البخل
أمنتجعاً مَرْواً بأثقـال همّـة * دع الثقل واحمل حاجة ما لها ثقل

ثناءً كعَرف الطيب يُهدى لأهله * وليس له إلا بَنى خالد أهـــل
فإن أغشَ قوما بعدهم أو أزورهم * فكالوحش يَستدْنيه للقنص المَحْل

وله يرثى يزيد بن مزيد :

أحَــقٌّ إنه أودى يزيـــد * تأمّل أيهـا النـاعى المُشِــيدُ
أتدرى من نعَيت فكيف فاهت * به شَفَتاك كان به الصّـــعيد
أحامِي المجدِ والإســلامِ أودى * فمـا للأرض ويحك لا تَميـــد
تأمل هل ترى الاسـلامَ مالت * دعائمُـــه وهل شاب الوليـــد
وهل شِيمتْ ســيوفُ بنى نِزَار * وهل وُضِعت عن الخيل اللُّبود
وهل تَســقِ البلادَ عِشارُ مُزْنٍ * بدِرّتهـا وهــل يَخضرّ عُــود
أما هُـــدّت لمصرعـــه نزار * بلَى وتقـــوّض المجـــد المَشيد
وحلّ ضريحَـــه إذ حلّ فيـــه * طريفُ المجـد والحَسَب التليد
أما واللهِ ما تنفَـــكّ عيـــنى * عليـــك بدمعها أبدا تجـــود
فإن تجمُد دموع لئيم قـــوم * فليس لدمع ذى حسبٍ جمـود
أبَعْـد يزيد تختزن البواكى * دمــوعا أو تُصان لهـا خدود
لِتَبكك قُبّـــةُ الإســـلام لمـا * وهَتْ أطنابُها ووهى العمــود
ويبكك شاعر لم يُبْـــقِ دهرٌ * له نَشَبا وقد كَسَد القصـــيد
فمن يدعــو الإمامُ لكل خَطْب * ينوب وكـل مُعْضِـلة تئُود
ومن يَحمى الخميس اذا تَعايا * بحيـــلة نفســه البطلُ النّجيد
فإن تَهلِك يزيدُ فكلّ حىّ * فريسٌ للمنيّـــة أو طـــريد
ألم تعجَبْ له أن المنايا * فَتكْن بـــه وهنّ له جنـــود
لقـد عزّى ربيعـــةَ أن يوما * عليهـا مثـل يومِك لا يعــود

١٣ — العباس بن الأحنف [1]

قال إبراهيم بن العباس يصفه : كان والله ممن اذا تكلم لم يحبّ سامعَه أن يسكت ، وكان فصيحا جميلا ظريف اللسان، لو شئتَ أن تقول كلامُه كلُّه شعرٌ لقلتَ .

وقال صالح بن عبد الوهاب : كان العباس من عرب خُرَاسان ومنشؤه ببغداد، ولم تزل العلماء تقدّمه على كثير من المُحْدثين ، ولا تزال قد ترَى له الشيءَ البارع جدًا حتى تُلْحِقه بالمحسنين .

وقال الجاحظ : لولا أن العباس بن الأحنف أحذقُ الناس وأشعرُهم ،وأوسعُهم كلاما وخاطرا، ما قدَر أن يُكْثِرَ شعرَه فى مذهبٍ واحد لا يجاوزُه، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسّب ولا يتصرّف، وما نعلم شاعرا لزِم فنّا واحدا لزومه فأحسن فيه وأكثر .

أنشد الحِرْمازِىّ للعباس بن الأحنف :

لا جَزَى اللهُ دمعَ عينىَ خيراً * وجزَى الله كلّ خيرٍ لسانى
نم دمعِى فليس يكتُمُ شيئا . ورأيتُ اللسانَ ذا كِتْمان
نتَ مثل الكتابِ أخفاه طىّ * فاستدلوا عليه بالعنــوانِ

ثم قال : هذا والله طِرَازٌ يطلبُ الشعراءُ مثلَه فلا يقدرون عليه .

---

(١) كان العباس شاعرا غزلا مطبوعا من شعراء الدولة العباسية، وله مذهب حسن، ولديباجة شعره رونق، ولمعانيه عذوبة ولطف، ولم يكن يتجاوز الغزل الى مديح ولا هجاء، ولا يتصرف فى شىء من هذه المعانى . وقدّمه أبو العباس المبرد فى كتاب الروضة على نظرائه وأطنب فى وصفه، وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدّمونه . قال : وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء ، وكان غزلا ولم يكن فاسقا ، وكان ظاهر النعمة ملوكىّ المذهب شديد التظرف ، وذلك بين فى شعره، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلوا مقبولا غزلا غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف فى الغــزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحا . وله ديوان طبع مع ديوان ابن مطروح فى الآستانة سنة ١٢٩٨ هـ وتجد أخباره وأشعاره فى الأغانى (ج ٨ ص ١٥) وابن خلكان (ج ١ ص ٢٤٦) والشعر والشعراء (ص ٥٢٥) .

وكان أبو الهُذَيل العلّاف يُبْغِضه ويلعنهُ لقوله :

اذا أردتُ سُلُوًّا كان ناصرَكم * قلبي وما أنا من قلبي بمنتصِرِ
فأكثِرُوا أو أقِلُّوا من إساءتكم * فكلّ ذلك محمولٌ على القَـدَرِ

فكان أبو الهُذَيل يلعنه ويقول : يَعْقِد الكفرَ والفجورَ فى شعره، فقال العباس — وقال محمد بن يحيى : وأظن أنه يهجو به أبا الهُذَيل وما سمعتُ للعباس هجاءً غيره — :

يامَنْ يكذِّب أخبارَ الرسـول لقد * أخطأتَ فى كلّ ما تأتى وما تَذَرُ
كذّبتَ بالقَدَر الجارى عليك فقد * أتاكَ منّى بمـا لا تَشْتهى القَـدَرُ

قيل للأصمعى : ما أحسنُ ما تحفَظ للمحدَثين؟ قال : قولُ العباس بن الأحنف :

لو كنتِ عاتبةً لسكّن رَوْعتِي * أملِي رِضَاكِ وزُرْتُ غيرَ مُرَاقِبِ
لكن مَلِلْتِ فلم تكن لِيَ حِيـلَةٌ * صَدُّ الملُولِ خلافُ صـدِّ العاتبِ

وممـا أنشده له ابراهيم بن العباس :

قالت ظَلُومُ سَمِيَّةُ الظُّـلْمِ * مالى رأيتُـكَ ناحلَ الجسمِ
يامن رَمى قلبي فأَقْصَـده * أنت العـليمُ بموضع السهمِ

ولشعره الغزَلِىّ وقعٌ فى النفس، فانهم كانوا يغنُّون كثيرا منه كقوله :

لو كنت عاتبــة لسكّن روعتى * أملى رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لى حيـلة * صـدّ الملول خلاف صدّ العاتب

وأنشد له الأصمعى :

أتأذنون لصبٍّ فى زيارتكم * فعندكم شهواتُ السمع والبصر
لايُضْمِر السوءَ إن طال الجلوسُ به * عفّ الضميرِ ولكن فاسق النظر

فقال : ما زال هـذا الفتى يُدْخل يدَه فى جِرَابه فلا يُخْرِج شيئا حتى أدخلها فأخرج هـذا، ومن أدمن طلبَ شيءٍ ظفر ببعضه .

وقال سَعيد بن جُنَيد : ما أعرف أحسنَ من شعر العباس فى إخفاء أمره حيث يقول

أُرِيكِ بالسلام فأتّقيهم * فأعمِدُ بالسلام الى سِوَاكِ
وأُكثِرُ فيهمُ ضحكى ليَخْفَى * فسِنِّى ضاحكٌ والقلبُ باكِ

ومما تمثّل به الواثقُ فى شرّكان بينه وبين بعض جواريه :

عدلٌ من الله أبكانى وأضحكها * فالحمد لله عَدْلٌ كلُّ ما صنَعا
اليومَ أبكى على قلبى وأَنْدُبه * قلبٌ أَلحَّ عليه الحبُّ فانصدَعا

ومما تمثّل به أيضا فى مثل ذلك :

أما تَحْسَبينى أَرَى العاشقين * بلَى ثُمَّ لستُ أرى لى نَظِيرَا
لعلَّ الذى بيدَيْه الامور * سيجعل فى الكُرْه خيراً كثيرَا

وقال الزُّبير : اِبن الأحنف أشعرُ الناس فى قوله :

تعتلُّ بالشغل عنا ما تكلّمنا * الشغلُ للقلب ليس الشغل للبدنِ

ويقول : لا أعلم شيئا من أمور الدنيا خيرِها وشرِّها إلا وهو يصلُح أن يُتمثَّل فيه بهذا النصف الأخير .

وقال إسحاق : لقد ظَرُف ابنُ الأحنف فى قوله — يصف طولَ عهده بالنوم — :

قِفا خبرانى أيها الرجلان * عن النوم إن الهجرَ عنه نهانى
وكيف يكون النومُ أم كيف طعمُه * صِفَا النومَ لى إن كنتُما تَصِفانِ

على قلة إعجابه بمثل هذه الأشعار .

قال أحمد بن ابراهيم : رأيت سَلَمة بن عاصم ومعه شعر العباس بن الأحنف . وقلت مثلك أعزّك الله يحمل هذا! فقال : ألا أحمِلُ شعرَ من يقول :

أسأتُ إذ أحسنتُ ظنّى بكم * والحزمُ سوءُ الظن بالناسِ
يُقلقُنى الشوقُ فآتيكمُ * والقلبُ مملوءٌ من اليأسِ

وقال أحمد بن ابراهيم : أتانى أعرابىٌّ فصيحٌ ظريف ، فجعلتُ أكتب عنه أشياءَ حِساناً ، ثم قال : أنشدْنِى لأصحابكم الحَضَرِيّين ، فأنشدته للعباس بن الأحنف :

ذكرتُكِ بالتُّفّاح لمـا شَمِمْتُه * وبالراح لمـا قابلتْ أوجُهَ الشَّرْبِ

تذكرتُ بالتفاح منكِ ســوالفًا * وبالراح طعمًا من مقبَّلِكِ العَذْبِ

فقال : هذا عندك وأنت تكتب منّى ! لا أنشدك حرفا بعد هذا .

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل : ما أعرف فى العراق أحسن من قول ابن الأحنف :

سبحانَ ربِّ العلا ما كان أغفلنى * عمـا رمتْنِى به الأيامُ والزمنُ

من لم يَذُقْ فرقةَ الأحباب ثم يرى * آثارَهم بعــدهم لم يَدْرِ ما الحَزَنُ

قال حُسَين بن الضحّاك : لوجاء العباس بقولٍ ماقاله فى بيتين فى أبياتٍ لعُذِر ، وهوقوله :

لعَمْرُك ما يســتريح المحبُّ حـتى يبــوحَ بأسرارِهِ

فقد يكتُم المرءُ أسرارَه * فتظهرُ فى بعض أشعارِه

ثم قال : أما قوله فى هذا المعنى الذى لم يتقدّمه فيه أحد فهو :

الحبُّ أملكُ للفؤاد بقهــرِه * من أن يُرَى للسترِ فيه نصيبُ

واذا بدا سرُّ اللبيب فإنه * لم يَبْــدُ إلا والفتى مغلوبُ

وقال أبو العتاهية : ما حسدتُ أحدا إلا العباسَ بن الأحنف فى قوله :

اذا امتنع القريبُ فلم تَنَــلْه * على قربٍ فــذاك هو البعيدُ

وقال الكِنْدِىّ : العباس بن الأحنف مَلِيحٌ ظريف حكيم جَزْلٌ فى شعره ، وكان قليلا ما يُرْضِينى الشعر ، فكان يُنْشِد له كثيرًا :

ألا تَعْجَبُون كما أعجبُ * حبيبٌ يُسِىء ولا يُعْتِبُ

وأبغى رضـاه على سُخْطه * فيأبى علىّ ويستصعِبُ

فياليت حظِّى اذا ما أسا * تَ أنك ترضَى ولا تغضَبُ

وكان ابراهيم الموصلى مشغوفا بشعر العباس فيغنّى فى كثير من شعره، فما غنى فيه :

وقد مُلِئَتْ ماءَ الشباب كأنها * قضيبٌ من الرَّيحان رَيَّان أخضرُ
هم كتَمونى سيرَهم حين أزمعوا * وقالوا اتَّعدْنا للرَّواح وبكَّروا

ومنه :

تمنَّى رجالٌ ما أحبُّوا وإنما * تمنيتُ أن أشكو اليك وتسمعا
أرى كلَّ معشوقَين غيرى وغيرَها * قد آستعذبا طولَ الهوى وتمتَّعا

ومنه :

بكتْ عينى لأنواعِ * من الحزن وأوجاعِ
وانى كلَّ يومٍ عنـ * ـدكم يحظَى بىَ الساعِى
أَعِيش الدهرَ إن عشتُ * بقلب منك مُرْتاعِ
وإن حلَّ بىَ البعد * سينْعَانِى لكِ الناعِى

وقال الواثق لجلسائه : أريد أن أصنعَ لحنًا فى شعر معناه أن الإنسان كاشًا مَنْ كان لا يقدر على الاحتراس من عدوه، فهل تعرفون فى هذا شيئا؟ فأنشدوه ضروبًا من الأشعار، فقال : ما جئتُم بشىء مثل قول العباس بن الأحنف :

قلبى الى ما ضرَّنى داعى * يكثِرُ أسقامِى وأوجاعِى
كيف احتراسِى من عَدُوِّى اذا * كان عدوّى بين أضلاعِى
أسلمنى للحبِّ أشياعى * لما سَعَى بى عندَها الساعى
لقلّما أبقى على كلِّ ذا * يُوشِكُ أن يَنعانىَ النَّاعِى

ومما غنِّى فيه من شعره :

أَبكِى الذين أذاقُونِى مودّتَهم * حتى اذا أيقظُونى للهوى رقَدُوا

وقال ابراهيم بن العباس : ما رأيت كلاما محدَثا أجزلَ فى رقة ، ولا أصعبَ فى سهولة، ولا أبلغ فى إيجاز، من قول العباس بن الأحنف :

تعالَىْ نجدِّدْ دارسَ العهدِ بيننا * كِلانا على طولِ الجَفاءِ مَلومُ

وأنشد ابراهيم بن العباس للأحنف :

إن قال لم يفعلْ وإن سِيلَ لم * يبْــذل وإن عوتب لم يعتِبِ
صبٌّ بعصْــيانى ولو قال لى * لا تشربِ البــاردَ لم أشْربِ
اليك أشــكو ربِّ ما حلّ بى * من صَدّ هذا المذنب المُغْضَبِ

ثم قال : هــذا واللهِ الكلامُ الحسنُ المعنى ، السّهْل الموْرد ، القريب المتناوَل ، المليح اللفظ ، العَذْب المستمَع .

ومما غُنّى فيه من شعره

نام مَنْ أهدَى لىَ الأرَقا * مستريحًا سَامَنِى قَلَقَا
لو يبيت النـاس كلُّهم * بسُهَادِى بَيَّضَ الحَـدَقَا
كان لى قلبٌ أعيشُ به * فاصطَلَى بالحبِّ فاحترقا
أنا لم أُرْزَق مودّتَـكم * إنما للعبــد ما رُزِقَا

وقال ابن المعتزّ : لو قيل : ما أحسن شىء تعرفه لقلت : شعرُ العباس بن الأحنف :

قد سحَب الناسُ أذيالَ الظّنون بنا * وفــرَّق النــاسُ فينا قولَهم فِرَقَا
فكاذبٌ قد رَمى بالحبّ غيرَكُمُ * وصادقٌ ليس يَدْرِى أنه صدَقا

ومما تمثّل به الفضلُ بن الرَّبيع فى أمرٍ كان بينَه وبين إحدى جواريه :

تحمَّلْ عظيمَ الذنب ممن تحبُّــه * وإن كنتَ مظلومًا فقل أنا ظالمُ
فإنك إلّا تغفرِ الذنبَ فى الهوى * يفارقْكَ من تهوى وأنفُك راغمُ

أنشد مَخْلَد المَوْصلىّ قصيدتَه التى يقول فيها :

كلُّ شىء أَقْوَى عليه ولكنْ * ليس لِى بالفراقِ منكِ يدانِ

فجعل يستحسنُه ويردّدُه ، فقال له عبد الله بن رَبِيعة الرَّقّى : أنت الفِدَاءُ لمن ابتدأ هـذا المعنى فأحسنَ فيه حيث يقول — وهو العباس بن الأحنف — :

سلبتْنِي من السرور ثيابا * وكسَتْنِي من الهموم ثيابَاَ
كلما أغلقتْ من الوصلِ باباً * فتحتْ لى الى المنيّة باباَ
عذَّبِتنِي بكل شيء سوى الصدِّ فما ذقتُ كالصُّدود عذاباَ

قال الرِّياشي — وقد ذُكِر عنده العباسُ بن الأحنف — : واللّه لو لم يقل من الشعر إلا هذين البيتين لكفيًا :

أُحْرَم منكم بما أقولُ وقد * نال به العاشقون من عَشِقُوا
صرتُ كأنى ذُبَالةٌ نُصِبتْ * تُضِيء للناس وهي تحتَرِقُ

أَلِف الرشيدُ العباسَ بن الأحنف، فلما خرج الى خُرَاسان طال مقامُه بها، ثم خرج الى أَرْمِينِيَةَ والعباسُ معه، فاشتاق الى بغداد، فعارضه فى طريقه، فأنشده :

قالوا خراسانُ أَقْصَى ما يُراد بنا * ثم القُفُولُ فقد جئنا خراساناَ
ما أَقْدر اللّهَ أن يُدْنِي على شَحَطٍ * سكانَ دِجْلَةَ من سكانِ جَيْحَاناَ
مضى الذى كنتُ أرجوه وآمُلُه * أما الذى كنتُ أَخْشاه فقد كانا
عينُ الزمان أصابتْنا فلا نظرتْ * وعُذِّبتْ بصُنُوفِ الهَجْرِ ألوانا

فقال له الرشيد : قد اشتقتَ يا عباس، وأذنتُ لك خاصة، وأمر له بثلاثين ألفَ درهم .

وقال مُصْعَب الزُّبيرى : العباسُ بن الأحنف وعمر بن أبى ربيعة ما ابتذلا شعرَهما فى رغبة ولا رهبة، ولكن فيما أَحَبَّاه، فلزما فناً واحدا لو لزمه غيرُهما ممن يكثرُ إكثارَهما لضعُف فيه .

١٤ — ابن مُنَاذِر[1]

كان يَنْحُو نَحْوَ عَدِيِّ بن زَيْد في شِعْره، ويميلُ إليه ويقدّمه، وقد مدَح آل بَرْمَك وغيرَهم . ولما نُكِبتْ البَرامِكَةُ وآلَتْ الوِزارةُ إلى عَدُوّهم الفَضْلِ بن الرَّبيع أصبح شعراءُ البرامكة في خَطَرٍ، فأراد ابنُ مُنَاذِرٍ أن يَتقرّب إلى الرشيد طَلَباً للرزق، فاغتنم ذهَابَه إلى الحَجِّ وتقدّم إليه يومَ التَّرْوِيَةِ بقصيدةٍ، فَلاح البِشْرُ في وجه الرشيد، فقال الفضلُ بن الربيع للرشيد : هذا شاعرُ البرامكة ! فعبَسَ الرشيدُ، فقال الفضلُ : مُرْه أن يُنشدَك قولَه فيهم : أتانا بنو الأملاك من آل برمك، فأمره، فاعتذر، فألح عليه، فأنشده هذه القصيدَة التي يُطْرِي بها البرامكةَ :

أتانا بَنُو الأملاك من آل بَرْمكٍ * فَيَاطِيبَ أخبار ويا حُسْنَ مَنْظَرِ

إذا وردوا بَطْحَاءَ مَكّةَ أشرقَتْ * بيَحْيَى وبالفَضْل بن يَحْيَى وجَعْفَر

فتَظْلِمُ بَغْدادُ ويَجْلُو لنا الدُّجى * بمَكّةَ ما حَجُّوا ثلاثةُ أَقْمُر

فما صَلَحَت إلا لجُودٍ أكفُّهم * وأرْجُلُهم إلا لأعْوادِ مِنْبَر

إذا راضَ يحيي الأمرَ ذلّت صِعَابُه * وحَسْبُكَ مِنْ رَاعٍ له ومُدَبِّر

تَرَى النَّاسَ إجلالًا له وكأنّهم * غَرانِيقُ[2] مَاءٍ تحت بَازٍ مُصَرْصِرِ[3]

ولما فَرَغ منها أتبع ذلك قوله : « كانوا أولياءَك يا أمير المؤمنين لما مدحتُهم » فأمَر الرشيدُ أن يُلْطَم، فلطَموه، وأمر أن يسحب، فسحَبوه وخرج لا يَلْوِي على شيء، فلقِيَه

(١) هو محمد بن مناذر، مولى لبني يربوع، ويكنى أبا جعفر، شاعر فصيح، مقدّم في العلم باللغة وإمام فيه . حتى أخذ عنه أكابر أهلها . وكان في أوّل أمره يتعبد ثم عدل عن ذلك، فهجا الناس وتهتك وخلع وقذف أعراض أهل البصرة حتى نفي عنها الى الحجاز، فمات هناك سنة ١٩٨ هـ . وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٧ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٥٣) .

(٢) الغرانيق : جمع غرنوق، وهو طائر مائي أسود وقيل أبيض يشبه الكركي .

(٣) مصرصر : صائح بشده .

أبو نواس فدفع اليه صُرّةً فيها ثلثمائة دينار ، وقال له : اِستعنْ بهذه وٱعذرنى . ولم يَعُد ٱبنُ مناذر يرى خيراً بعد البرامكة .

قال الحسن بن على كنّا عند باب سُفْيان بن عُيَيْنة وقد هَرَب منا وعنده الحسنُ بن على التَّخْتاخ ورجلٌ من أصحاب الرشيد ، فخلا بهم وليس يأْذَن لنا ، فجاء ٱبنُ مناذر فقرُب من الباب ثم رفع صوتَه فقال :

بعمرو وبالزُّهْرِىّ والسَّلَف الأُلى * بهم ثَبَتَتْ رِجْلاك عنـد المقادم
جعلتَ طَـوَالَ الدهرِ يوماً لصالح * ويوما لصَـبَّاح ويوما لحـاتم
وللحسن التَّخْتَـاخ يوما ودونهـم * خَصَصَتَ حسيناً دون أهل المَوَاسم
نظرتُ وطالَ الفِكْرُ فيـك فلم أجِدْ * رَحَاكَ جَرَتْ إلا لأخـذِ الدّراهم

فخرج سفيان وفى يده عصا وصاح : خذوا الفاسقَ ، فهرب ٱبن مناذر منه وأذِن لنا فدخَلْنا .

كان الرشيدُ قد وصَلَ ٱبنَ مناذر مَرّاتٍ صِلَاتٍ سنيّةً ، فلما مات الرشيدُ رثاه بقوله :

من كان يَبْكى للعُـلا * مَلِكًا وللهِمَم الشَّريفـه
فَلْيبكِ هارونَ الخليـ * فةَ للخليفـة لخليفـه

قال علىُّ بن محمد النَّوْفَلِىّ : رأيتُ ٱبنَ مناذر فى الحَجّ سنة ثمان وتسعين ومائة وهو قد كُفَّ بصرُه تقوده جُوَيْرِيَةٌ حرة وهو واقف يشترى ماءَ قِرْبَة ، فرأيتُه وَسِخَ الثوبِ والبدن ، فلما صِرنا الى البصرة أتتنا وفاتُه فى تلك الأيام .

كان يحيى بن زِياد يُرْمَى بالزندقة ، وكان من أظرف النـاس وأنظفهم ، فكان يقال : أظرف من الزِنديق ، وكان الحارِكىّ ، واسمه محمد بن زياد ، يُظْهر الزندقةَ تَظارُفًا ، فقال فيه ابن مناذر :

يا ٱبن زِيادٍ يا أبا جعفـر * أظهرتَ دِينا غير ما تُخْـفى
مُزَنْدَقُ الظاهرِ باللفظ فى * باطنِ إسلامِ فـتًى عَفّ
بزنديق ولكنّما * أردتَ أن تُوسَم بالظـرف

ومن قوله يرثى سفيان بن عيينة :

يجتني من الحكمة نُوَّارَها * ما تشتهى الأنفس ألوانا
يا واحدَ الأمة في علمه * لقيتَ من ذى العرش غُفرانا
راحوا بسفيان على نعشه * والعلم مكسوّين أكفانا
إن الذى غُودِر بالمُنحَنَى * هَدّ من الإسلام أركانا
لا يُبعِدَنْك الله من ميّت * وَرّثنا علماً وأحزانا

خطب أبو أُميّة امرأةً من ثقيف فَرُدَّ عنها، وتصدّى للقاضى أن يُضَمِّنَه مالًا من أموال اليتامى فلم يُجِبْه الى ذلك ولم يثق به، فقال فيه ابنُ مناذر :

أبَا أُميّةَ لا تغضبْ علىّ فما * جَزاءُ ما كان فيما بيننا الغَضَبُ
إن كان رَدّك قومٌ عن فتاتهمُ * ففى كثيرٍ من الخُطّابِ قد رَغِبوا
قالوا عليك ديونٌ ما تقومُ بها * فى كل عامٍ بها تُستحدَثُ الكُتُبُ
وقد تَقَحّم من خمسين غايتَها * مع أنه ذو عِيالٍ بعدُ ما انْشَعبوا
وفى التى فعل القاضى فلا تَجِدَنْ * فليس فى تلك لى ذَنْبٌ ولا ذَنَبُ
أردتَ أموالَ أيتام تُضَمَّنُها * وما يُضَمَّنُ إلا من له نَشَبُ

قال له جعفر بن يحيي قُلْ فِىّ وفى الرشيد شعرا تَصِفُ فيه الألفة بيننا، فقال :

قد تُقطَعُ الرَحِمُ القريبُ وتُكْفَر النّـ * ـعْمَى ولا كتقارُبِ القلبَيْنِ
يُدْنى الهوى هذا ويدنى ذا الهوى * فاذا هُمَا نَفْسٌ تُرَى نَفْسَيْنِ

١٥ — صالح بن عبد القدّوس (١)

كان متهما بالزندقة، فبلغ الى المهدىّ خبرَ زندقته، فبعث اليه يَستقدِمه من دِمَشق، وكان قد رحل اليها وهو شيخ طاعن فى السنّ، فلما جاء بغدادَ ومَثَلَ بين يدى المهدىّ قال له المهدىّ : ألستَ القائل :

والشيخ لا يَتْرُكُ أخلاقَه * حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسه

قال : بلى يا أمير المؤمنين ! قال : وأنت لا تترك أخلاقك حتى تموت، فأَمَرَ به، فقُتِلَ وصُلِب على جِسْر بغداد سنة ١٦٧ هـ . وأكثر شعره فى الحِكَمِ الفلسفية .

ومن أحاسن أقواله القصيدة التى منها ذلك البيت، وهو يقول فيها :

لا يَبْلُغُ الأعداءُ من جاهلٍ * ما يَبْلُغُ الجاهلُ من نَفْسه

والشيخ لا يَتْرُكُ أخلاقَه * حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسه

اذا ارعوى عادَ الى جهله * كذى الضَّنَا عاد الى نُكْسه

وإنّ من أدّبْتَه فى الصِّبَا * كالعُود يُسْقَى الماءَ فى غَرْسه

حتى تراه مُورقا ناضِرًا * بعد الذى أبصرتَ من يُبْسه

وقوله :

لا يُعْجِبَنَّك من يَصُون ثيابَه * حَذَرَ الغُبار وعِرْضُه مَبْذُول

ولربما افتقرَ الفتى فرأيتَه * دَنِس الثِّيابِ وعِرضه مَغسول

(١) هو صالح بن عبد القدّوس بن عبد الله بن عبد القدّوس، من حكماء الشعراء، متهم بالزندقة، قوىّ الحجة، له منزلة سامية عند أهل مذهبه . نشأ فى البصرة، وكان يقص على الناس و يعظهم . توفى سنة ١٦٧ هـ . وتجد أكثر أخباره فى فوات الوفيات (ج ١ ص ١٩١) والدميرى (ج ١ ص ٢٦) .

وكان فيه ميل الى العُزْلة والانقطاع عن الناس شأن الفلاسفة، ومن ذلك قوله

أنِسْتُ بوَحْدَتى ولَزِمتُ بيتى * فتمّ العزُّ لى ونَمَا السرورُ
وأدّبَنى الزمانُ فليت أنّى * هُجِرتُ فلا أُزارُ ولا أَزُور
ولست بقائلٍ ما دمتُ حيًّا * أقامَ الجُنْدُ أم نَزَلَ الأمير

وهو القائل :

اذا لم تستطع شيئا فدعْهُ * وجاوِزْه الى ما تَسْتَطِيع

وله قصيدة حكمية أخلاقية بديعة، وهى التى يقول فيها :

المَرْءُ يجْمَعُ والزمانُ يُفرّق * ويظلّ يَرْقَعُ والخطوبُ تُمَزّقُ
ولأن يُعادِىَ عاقلا خيرٌ له * من أن يكون له صديقٌ أحمَقُ
فارْبأ بنفسك أن تصادق أحمقًا * إن الصديق على الصديق مُصَدّقُ
وَزِنِ الكلامَ اذا نطقتَ فإنما * يُبدِى عقولَ ذوى العقول المَنْطِق
ومن الرجال اذا استوت أخلاقهم * من يُستشار إذا استُشير فيُطْرِقُ
حتى يَحُلَّ بكل واد قلبُه * فيرى ويَعْرِفُ ما يقول فيَنطق
لا أُلفِيَنّك ثاويا فى غربة * إن الغريب بكل سَهْمٍ يُرْشَق

وله منها :

ما الناس إلا عاملان فعامِلٌ * قد مات من عطَشٍ وآخر يَغرق
والناسُ فى طلب المَعاش وإنما * بالجَدّ يُرزق منهمُ من يُرزق
لو يُرْزقون الناسُ حَسْبَ عقولهم * ألفيتَ أكثرَ مَنْ تَرَى يَتَصدق
لكنه فضلُ المليك عليهمُ * هذا عليه موَسّع ومُضَيّق
واذا الجنازةُ والعَروسُ تلاقيا * ورأيتَ دمعَ نوائحٍ يَتَرقرق
سكتَ الذى تبِع العروسَ مُبهّتاً * ورأيتَ من تبِعَ الجنازة ينْطق
بَقِىَ الذين اذا يقولوا يَكذِبوا * ومَضَى الذين اذا يقولوا يَصْدُقُوا

وله من قصيدته المعروفة بالزينبية :

وابدأ عدوك بالتحية ولتكن * منه زمانك خائفا تترقب

واحذره إن لاقيته متبسما * فالليث يبدو نابه إذ يغضب

إن العدو وإن تقادم عهده * فالحقد باق فى الصدور مغيب

وإذا الصديق لقيته متملقا * فهو العدو وحقه يتجنب

لا خير فى ود امرئ متملق * حلو اللسان وقلبه يتلهب

يلقاك يحلف أنه بك واثق * وإذا توارى عنك فهو العقرب

يعطيك من طرف اللسان حلاوة * ويروغ منك كما يروغ الثعلب

وصل الكرام وإن رموك بجفوة * فالصفح عنهم والتجاوز أصوب

واختر قرينك واصطفيه تفاخرا * إن القرين إلى المقارن ينسب

إن الغنى من الرجال مكرم * وتراه يرجى ما لديه ويرهب

ويبش بالترحيب عند قدومه * ويقام عند سلامه ويقرب

والفقر شين للرجال فإنه * حقا يهون به الشريف الأنسب

واخفض جناحك للأقارب كلهم * بتذلل واسمح لهم إن أذنبوا

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا * إن الكذوب يشين حرا يصحب

وزن الكلام إذا نطقت ولا تكن * ثرثارة فى كل ناد تخطب

واحفظ لسانك واحترز من لفظه * فالمرء يسلم باللسان ويعطب

والسر فاكتمه ولا تنطق به * إن الزجاجة كسرها لا يشعب

وكذاك سر ...ء إن لم يطوه * نشرته ألسنة تزيد وتكذب

لا تحرصن فالحرص ليس بزائد * فى الرزق بل يشقى الحريص ويتعب

وَارْعَ الأمانةَ والخيانةَ فاجتنبْ * واعدلْ ولا تَظْلِمْ يَطِبْ لك مَكْسَب

وإذا أصابك نكبة فاصبرْ لها * مَنْ ذا رأيت مُسَلَّما لا يُنْكب

وإذا رُميت من الزّمان بريبةٍ * أو نالك الأمرُ الأشقُّ الأصعَب

فاضرَعْ لربك إنه أدنى لمن * يدعوه من حبلِ الوريد وأقرَب

واحذَرْ مصاحبةَ اللئيم فإنه * يُعدى كما يُعدِى الصَحيحَ الأجْرَب

واحذَرْ من المظلوم سَهْمًا صائبا * واعلَمْ بأن دُعاءَه لا يُحْجَب

ولقد نصحتك إن قَبِلْتَ نصيحتى * والنُّصح أغلى ما يُباع ويُوهب

١٦ — سعِيد بن وهب (١)

كان شاعرًا مطبوعًا ومات فى أيام المأمون، وأكثرُ شعره فى الغَزَل والتشبيب بالمُذَكَّر، وكان مشغوفا بالغِلْمان والشراب، ثم تَنَسَّك وتابَ وحَجَّ راجِلًا على قَدَمَيْـه ومات على تَوْبةٍ وإقلاعٍ ومذهبٍ جميل، ومات وأبو العتاهية حَيٌّ وكان صديقه فرثاه .

أخبرنى علىّ بن سليمان الأخفش عن محمـد بن مَزْيد قال : حُدِّثْتُ عن بعض أصحـاب أبى العتاهية قال : جاء رجلٌ الى أبى العتاهية ونحنُ عنده، فسارّه فى شىء، فبكى أبو العتاهية، فقُلْنا له : ما قال لك هـذا الرجلُ يا أبا إسحاق فأبكاك ؟ فقال — وهو يحدّثنا لا يريد أن يقول شعرا — :

قال لى ماتَ سَعِيدُ بنُ وَهْبِ * رَحِمَ اللهُ سَعِيدَ بنَ وَهْبِ
يا أبا عثمانَ أبكيتَ عَيْـنِى * يا أبا عثمانَ أوجعتَ قلـبِى

قال : فعجبنا من طبعه، وإنه يحدّث فكان حديثه شعرا موزونا .

وكان سـعيدُ بن وهب الشاعرُ البصرىّ مولَى بنى سامة قد تابَ وتزهّـد وترك قولَ الشعر، وكان له عَشَرة من البنين وعَشْر من البنـات، فكان إذا وَجَد شيئا من شعره نحرّقه وأحرقه ، وكان آمرأً صِدْق، كثيرَ الصَّلاة، يزكّى فى كل سنة عن جميع ما عنده، حتى إنه لَيزكّى عن فضّة كانت على آمرأته .

وكان سعيدُ بن وهب يتعشّق غلاما يتشطّر يقال له سعيد، فبلغه أنه تَوَعّده أن يجرحه، فقال فيه :

(١) هو سعيد بن وهب أبو عثمان مولى بنى سامة بن لؤى بن نصر، مولده ومنشؤه بالبصره ثم صار الى بغـداد فأقام بها . وكانت الكتابة صناعته ، فتصرف مع البرامكة فاصطنعوه وتقدّم عندهم . وتجد أخـ ـه فى الأغانى (ج ٢١ ص ١٠٤) .

مَنْ عَذيرِى مِنْ سَمِيّ * مَنْ عَذيرِى مِنْ سَعيد
أنا بالخَم اجاهُ * ويَجَانى بالحَديد (١)

ونظر سعيد بن وهب إلى قوم من كُتّاب السلطان فى أحوال جميلة، فأنشأ يقول :

مَنْ كان فى الدنيا له شارةٌ * فنحنُ من نَظّارة الدنيا
نَرْمُقُها من كَثَبٍ حَسْرَةً * كأننا لَفْظٌ بلا مَعْنَى
يعلو بها الناسُ وأيامُنا * تذهبُ فى الأَرْذَل والأَدْنَى

وحدّث حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كان سعيدُ بن وهب لى صديقا، وكان له آبن يكنى أبا الخطاب من أكيس الصبيان، وأحسنهم وجها وأدبا، فكان لا يكاد يفارقه فى كلّ حال، لشدّة شغفه به ورقّته عليه، فمات وله عَشْر سنين، فجزع عليه جزعا شديدا وآنقطع عن لذّاته، فدخلتُ إليه يوما لأُعاتبه على ذلك وأستعطفَه، فحين رأى ذلك فى وجهى فاضتْ دموعه، ثم آنتحب حتى رحمتُه، وأنشدنى :

عَيْنِ جُودِى على أبى الخطّابِ * إذ تولّى غَضًّا بماءِ الشبابِ
لم يُقارب ذنبًا ولم يَبْلُغِ الحِنْـ * ـثَ مُزَجًّى مُطَهَّرَ الأثواب
فَقَدَتْه عَيني إذا ما سَعَى أَتْـ * ـرابُهُ من جماعة الأتراب
إن غَدَا مُوحِشًا لدارى فقد أصـ * ـبح أُنْسَ الثَّرَى وزَيْنَ التراب
أحمَدُ اللهَ يا حبيبى فإنّى * بكَ راجٍ منه عظيمَ الثواب

ثم ناشدنى ألّا أذاكره بشىء مما جئتُ إليه، فقمتُ ولم أخاطبه بحرف .

دخل سعيدُ بن وهب على الفضل بن يحيى فى يوم قد جلس فيه للشعراء، فجعلوا ينشدونه ويأمر لهم بالجوائز حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت الى سعيد بن وهب كالمستنطق، فقال له : أيها الوزير، إنى ما كنت آستعددتُ لهذه الحال، ولا تقدّمتْ لها عندى مُقدّمةٌ فأعرِفها،

(١) وحاه يوجاه ويجاه : ضربه باليد أو بالسكين . وحقهم الهمزة ها هنا للشعر .

ولكن قد حضرنى بيتان أرجو أن ينوبا عن قصيدة؛ فقال : هاتِهما، فربَّ قليل أبلغ من الكثير؛ فقال سعيد :

مَدَح الفَضْلُ نفسَه بالمَعالِى * فعَلَا عن مَديحنا بالمَقال

أَمَرُونى بمَدْحه قلتُ كلّا * كَبُرَ الفضلُ عن مديح الرجال

قال : فطرب الفضل وقال له : أحسنتَ والله وأجدتَ، ولئن قلّ القول ونَزُر، لقد اتسع المعنى وكثُر، ثم أمر له بمثل ما أعطاه كلَّ مَنْ أنشده مديحا يومئذ، وقال : لا خير فيما يجئ بعد بيتيك، وقام من المجلس، وخرج الناس يومئذ بالبيتين لا يتناشدون سواهما .

وحدّث الخُرَيْمِىّ قال : كان الفضل بن يحيى ينافس أخاه جعفرا وينافسه جعفر، وكان أَنَس بن ابى شيخ خاصًّا بجعفر، ينادمه ويأنس به فى خَلَوَاته، وكان سعيد بن وهب بهذه المنزلة للفضل، فدخلتُ يوما إلى جعفر ودخل إليه سعيد بن وهب فحدّثه وأنشده وتنادر له، وحكى عن المتنادرين وأتى بكلّ ما يسرّ ويُطْرِب ويُضحك، وجعفر ينظر إليه لا يزيد على ذلك، فلما خرج سعيد من عنده تجاهلتُ عليه وقلت له : مَن هذا الرجلُ الكثير الهَذَيان ؟ قال : أَوَما تعرِفُه ؟ قلتُ : لا، قال : هذا سعيد بن وهب صديق أخى أبى العباس وخُلْصانه وعشيقه، قلت : وأىّ شىء رأى فيه ؟ قال : لا شىء والله إلا القَذَر والبَرْد والغَثَاثة، ثم دخلتُ بعد ذلك إلى الفضل، ودخل أنس بن أبى شيخ فحدّث وندّر وحكى عن المُضحكين وأتى بكل طريفة، فكانت قصةُ الفضل معه قصةَ جعفر مع سعيد، فقلت له بعد أن خرج من حضرته : مَن هذا المُبْرِم؟ قال : أَوَلا تعرفُه؟ قلت : لا، قال : هذا أَنس بن أبى شيخ صديق أخى الفضل وعشيقه وخاصّته، قلت : وأى شىء أعجبه فيه؟ قال : لاأدرى والله إلا القَذَر والبَرْد وسوء الاختيار، قال : وأنا والله أَعْرَف بسعيد وأنس من الناس جميعا، ولكنى تجاهلتُ عليهما وساعدتُهما على هواهما .

وحدّث عمرو بن بانة قال : كان فى جِوارى رجلٌ من البرامكة، وكانت له جارية شاعرة ظريفة يقال لها حَسْناء، يدخل إليها الشعراء ويسألونها عن المعانى، فتأتى بكل

مُسْتَحسنٍ من الجواب ، فدخل اليها سعيد بن وهب يوما وجلس اليها فحادثها طويلا ثم قال لها بعد ذلك :

حَاجَيْتُكِ يا حَسْنا * ءُ فى جِنْسٍ من الشِّعْرِ
وفيها طُولُه شِبْرٌ * وقد يُوفِي على الشِّبْرِ
له فى رأسِهِ شَقٌّ * نَطُوفٌ بالنَّدَى يَجْرِى
اذا ما جَفَّ لم يَجْرِ * لَدَى بَرٍّ ولا بَحْرِ
وإنْ بُلَّ أتى بالْعَ * جَبِ العاجِبِ والسِّحْرِ
أجِيبِي لم أرِدْ فُحْشًا * ورَبِّ الشَّفْعِ والوِتْرِ
ولكنْ صُغْتُ أبياتًا * لها حَظٌّ من الزَّجْرِ

قال : فغضب مولاها وتغيّر لونه وقال : أتُفحش على جاريتى تخاطبها بالخَنَى؟ فقالت له : خَفِّضْ عليك ، فما ذَهَبَ الى ما ظَنَنْتَ وإنما يَعْنِي القلم ؛ فسُرِّىَ عنه ، وضحك سعيد وقال : هى أعلمُ منك بما سمعتْ .

١٧ الحسن بن وهب

حدّث ميمون بن هارون : قال : كنا عند الحسن بن وهب فقال لِبَنَان : غَنّينى :

أتأذنونَ لصَبٍّ فى زيارتكم * فعندكم شَهَواتُ السمع والبصرِ
لايُضمِرُ السوءَ إن طال الجلوسُ به * عَفُّ الضميرِ ولكن فاسقُ النظر

قال فضحكت، ثم قالت : فأىّ خيرٍ فيه إن كان كذا أو أىّ معنى ؟ فخجل الحسن من بادرتها عليه، وعجِبنا من حدّة جوابها وفِطْنتها .

وحدّث محمد بن عيسى قال : جاء عبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع إلى الحسن ابن وهب، وعنده بنان جارية محمد بن حمّاد، وهى نائمةٌ سَكْرى وهو يبكى عندها، فقال له : مالَك ؟ قال : قد كنتُ نائماً فجاءتنى فأنبهتنى وقالت : اجلس حتى تشربَ فجلستُ، فوالله ما غنّتْ عشرة أصوات حتى نامت ، وما شربت إلا قليلا . فتذكّرت قولَ أشعر الناس وأظرفهم العبّاس بن الأحنف :

أبكى الذين أذاقونى مودّتَهم * حتى اذا أيقظونى للهوى رَقَدُوا

فأنا أبكى وأنشد هذا البيت .

وحدّث محمد بن موسى بن حمّاد قال : دعا الحسن بن وهب إبراهيم بن العباس فقال له : اركب وأجيئك عشيّاً فلا تنتظرنى بالغداة، فأبطأ عليه، وأسرع الحسن فى شربه فسكِر ونام، وجاء إبراهيم فرآه على تلك الحال، فدعا بدَوَاة وكَتَب :

رُحْنا اليك وقد راحت بك الراحُ * وأسرعت فيك أوتارٌ وأفراح

وحدّث أيضا محمد بن موسى قال : نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب وهو مخمور فقال له :

عيناك قد حكتا ... تك كيف كنت وكيف كا
ولربّ عين قد ... مت صاحبها ع

فأجابه الحسن بن وهب بعشرين بيتا وطالبه بمثلها ، فكتب اليه أربعةَ أبيات وطالبه بأربعين بيتا . وأبيات إبراهيم :

أأبا عليٍّ خـــيرُ قولك ما * حصّلت أنجَحه ومُخْتصَره

ما عندنا فى البيع من غَبَنٍ * للمستقلّ بواحد عشــرَه

أنا أهلُ ذلك غيرُ محتشِمٍ * أرضَى القديمَ وأقتفى أثَرَه

ها نحن وفّيناك أربعــةً * والأربعون لديك منتظرَه

وقال عبيــد الله بن سليمان : لعمــرى ما فى الكُتّاب أشــعرُ من أبى إسحاق وأبى علىّ (يعنى عمّه الحسن بن وهب) .

حدّث علىّ بن يحيى قال: قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلىّ ، وقد جرى ذكرُ أحمد بن يحيى المكىّ : يا أبا محمد ، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكىّ مملوكا كم كان يساوى؟ فقال : أخبرك عن ذلك، انصرفت ليــلةً من دار الواثق، فاجتزتُ بدار الحسن بن وهب فدخلت إليه، فإذا أحمد عنده ، فلما قام لصلاة العشاء الآخرة قال لى الحسن بن وهب : وكم يساوى أحمد لو كان مملوكا؟ قلت : يساوى عشرين ألف دينار . قال : ثم رجع فغنّى صوتا، فقال لى الحسن بن وهب : يا أبا محمد، أضعفها . قال : ثم تغنى صوتا آخر، فقلت للحسن : يا أبا علىّ أَضْعِفْها، ثم أردتُ الانصراف فقلت لأحمد غنِّنى :

لولا الحياءُ وأن الســير من خُلُقى * اذًا قعــدتُ اليــك الدهرَ لم أقُمِ

أليس عنــدك سُكْرٌ للتى جعلت * ما ابيضّ من قادمات الرأس كالحُمَمِ

فغنّاه أحمد بن يحيى المكىّ فأحسن فيــه كلّ الإحسان ، فلــا قمتُ للانصراف قلت للحسن : يا أبا علىّ ، أَضْعِف الجميع ، فقال له أحمد : ما هذا الذى أَسْمَعُكُما تقولانه ولستُ أدرى ما معناه ؟ قال نحن نَبيعُك ونَشتريك منذ الليلة وأنت لا تدرى .

وحدّث محمــد بن موسى قال : كان أبو تمــام يَعشَق غلاما خَزَريّا للحسن بن وهب، وكان الحسن يتعشّق غلاما روميا لأبى تمام ، فرآه أبو تمام يوما يعبث بغلامه ، فقال له :

والله لئن أعنقت[1] الى الروم لتركُضَن الى الخزر؛ فقال له الحسن: لو شئتَ حكّمتنا واحتكمتَ؛ فقال له أبو تمـام : أنا أشبّهك بداود عليه السلام وأشبّه نفسى بخَصْمه؛ فقال الحسن : لو كان هذا منظوما خِفْناه، فأمّا وهو منثورٌ فلا، لأنه عارض لا حقيقةَ له ؛ فقال أبو تمام:

أبا علىٍّ بصَرْفِ الدهرِ والغِـيَرِ * وبالحـوادث والأيام فاعتَـبِرِ[2]

أذكرتَنِي أمرَ داودٍ وكنتُ فـتًى * مصرَّفَ القلبِ فى الأهواء والفِكَرِ

أعندك الشمسُ لم يَحظَ المَغيبُ بها * وأنت مُضطَرِبُ الأحشاءِ للقَمرِ

إن أنت لم تتركِ السيرَ الحَثيثَ الى * جآذِرِ الروم أعنقْنـا الى الخَـزَرِ

إن القَطُوبَ له منّى محـلُّ هوًى * يَحـل منى محـلَّ السمع والبصر

وربّ أمنعَ منـه جانبًـا وحِمًى * أمسى وتكّتُه منّى على خَطَـرِ

جرّدتُ فيه جنودَ العزم فانكشفتْ * عنه غَيابتُه عن جُـرأةٍ هَـدِرِ

سـبحان من سبّحتْه كلُّ جارحةٍ * ما فيك من طمحان العَيْنِ بالنّظَرِ

أنت المقـيمُ فمـا تغـدُو رواحلُهُ * وفعلُه أبدا منـه على سَـفَرِ

وحدّث وهب بن سعيد قال : جاء دِعْبِل الى الحسن بن وهب فى حاجة بعد موت أبى تمام، فقال له رجل فى المجلس : يا أبا علىّ، أنت الذى تطعَن على مَن يقول :

شهدتُ لقد أقوتْ مغانيكُمُ بعدى * ومَحتْ كما مَحتْ وشائعُ من بُرُدِ

وأنجـدتُم من بعد إتهام داركم * فيادمعُ أنجِـدْنى على ساكنى نَجْدِ

فصاح دِعْبِل : أحسن والله! وجعل يردّد :

* فيادمعُ أنجدْنى على سَاكنِي نَجْدِ *

ثم قال : رحمه الله، لو كان ترك لى شيئا من شِعْره لقلتُ : إنه أشعر الناس .

(١) أعنقت : أسرعت . (٢) وردت هذه الأبيات فى الأغانى وفيها بعض ألفاظ تخل بالآداب، فأثبتناها هنا كما وردت فى ديوان أبى تمام .

وحدّث أحمد بن عُبَيد الله بن ناصح قال : قلت لدِعْبِل وقد عَرَض علىّ قصيدة له يمدح بها الحسن بن وهب أولها:

* أعاذِلتِي ليس الهَوَى من هوانيا *

فقلت له : ويحك أتقول فيه هذا بعدَ قولك :

أين محلُّ الحىّ يا حادى * خَبِّرْ سَقَاكَ الرائحُ الغادى

وبعد قولك :

قالت سَلَامةُ أين المالُ قلتُ لها * المال ويحكِ لاقَى الحمدَ فاصطحبا

وبعد قولك :

فعلى أيمانِنا يَجْرِى النَّدَى * وعلى أسيافنا تَجْرِى المُهَجْ

والله إنى أراكَ لو أنشدتَه إيّاها لأمر لك بصَفْع؛ فقال : صدقتَ والله، ولقد نبهتَنى وحذّرتنى، ثُمّ مزّقَها .

وحدّث محمد بن موسى قال : أنشدنى الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك أبياتا يَرْثِى بها سَكْرانة أمّ ابنه عمر، وجعل الحسن يتعجّب من جودتها ويقول :

يقولُ لى الخُلّانُ لو زُرْتَ قبرَها * فقلتُ وهل غيرُ الفؤادِ لها قبرُ
على حين لم أُحْدُثْ فأجهَلَ قدرَها * ولم أبلُغِ السِنَّ التى معها الصبْرُ

وحدّث محمد بن يزيد قال: دامت الأمطار بـ«سُرَّمَن رَأى» ، فتأخر الحسن بن وهب عن محمد بن عبد الملك الزيات، وهو يومئذ وزير والحسن يكتب له ، فاستبطأه محمد ، فكتب اليه الحسن يقول :

أوجب العذرَ فى تراخى اللقاءِ * ما توالَى من هذه الأنواءِ
لستُ أدرى ماذا أقول وأشكو * من سماء تَعُوقُنى عن سماءِ
غيرَ أنى أدعو على تلك بالثُّكْـ * ـلِ وأدعو لهذه بالبقاءِ
فسلامُ الإله أُهديه غَضًّا * لك منى ياسيدَ الوزراءِ

وحدّث محمد بن موسى قال : اعتلّ الحسن بن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك أياماً كثيرة، فلم يأته رسولُه، ولا تعرّف خبرَه، فكتب إليه الحسن قوله :

أيّهذا الوزيرُ أيّدكَ اللّـ * ـه وأبقاكَ لى بقاءً طويلَا
أجميلًا تراه يا أكرم النا * سِ لكيما أراهُ أيضًا جميلا
إننى قد أقمتُ عَشْرا عليلا * ما ترى مُرْسلا إلىّ رسولا
إنْ يكن موجبُ التعمّدِ فى الصـ * ـحّة منّا علىّ منكَ طويلا
فهو أولى ياسيّدَ الناسِ برًّا * وافتقاداً لمَنْ يكونُ عليلا
فلماذا تركتَنى عرضةَ الظّـ * ـنِّ من الحاسدين جيلا فجيلا
ألذنبٍ؟ فما علمت سوى الشكـ * ـرِ قرينًا لنيّتى ودخيلا
أم ملَالٍ؟ فما علمتُك للصّا * حب مثلى على الزمان ملُولا
قد أتى اللهُ بالشفاء فما أعـ * ـرِف ممّا أنكرت إلا قليلا
وأكلتُ الدُّرّاجَ وهو غِذاءٌ * أغلت علّتى عليه أفُولا
بعد ما كنتُ قد حملتُ من العِـ * ـلّةِ عبئًا على الطّباع ثقيلا
ولعلى قدِمتُ قبلك آتيـ * ـك غدا إن وجدتُ فيه سبيلا

فأجابه محمد بن عبد الملك :

دفع اللهُ عنكَ نائبةَ الدهـ * ـر وحاشاكَ أن تكون عليلَا
أشهِدُ اللهَ ما علمتُ وما ذا * كَ من العُذر جائزا مقبولا
ولعمرى أن لو علمتُ فلازمْـ * ـتك حولا لكان عندى قليلا
إنّى أرتجى وإن لم يكن ما * كان ممّا تَقَمتَ إلا جليلا
أن أكونَ الذى إذا أضمر الإخـ * ـلاصَ لم يلتمسْ عليه كفيلا
ثم لا يبذُلُ المودّةَ حتى * يجعلَ الجَهْدَ دونها مبذُولَا
فاذا قال كان ما قال إذ كا * ن بعيدا من طبعه أن يقولا

فاجعلنْ لى إلى التعلُّق بالعُذْ * رِ سبيلا إن لم أجِدْ لى سبيلا

فقديما ما جاد بالصفح والعفـ * ـوِ وما سَامَحَ الخليلُ الخليلا

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الحسن بن وهب وقد تأخر عنه :

قالوا جفاكَ فلا عهدٌ ولا خَبَرٌ * ما ذا تراه دهاه قلتُ أيلولُ

شهرٌ يُجَدُّ حبالُ الوصل فيه فما * عَقْدٌ من الوصل إلا وهو محلولُ

وكان محمد قد ندَبه لأن يخرُجَ فى أمرٍ مهمّ فأجابه الحسن فقال :

إنى بحولِ امرئٍ أعليتَ رتبتَهُ * لحظُّه منك تعظيمٌ وتبجيلُ

وأنت عُدَّتُه فى نَيْل همته * وأنت فى كلّ ما يهواه مأمولُ

ما غالنى عنك أيلولٌ بلذّته * وطيبه ولنعم الشهر أيلولُ

الليلُ لا قِصَرٌ فيه ولا طولُ * والجوُّ صافٍ وظهرُ الكأسِ مَرْحولُ

والعُودُ مُستَنْطَقٌ عن كُلِّ مُعْجِبَةٍ * يضحى بها كُلُّ قلبٍ وهو متبولُ

لكن توقُّعُ وَشْكِ البينِ عن بلدٍ * تحلُّهُ فوكاءُ العينِ محلولُ

ما لى إذا شمرتْ بى عنك مبتكرا * دُهْمُ البغالِ أو الهُوجُ المراسيلُ

إلّا رِعاياتُك اللاتى يعود بها * حدُّ الحوادثِ عنّى وهو مفلولُ

وكان الحَسَن بن وهب يُسايِرِ محمدا على مُسَنّاةٍ(١)، فعدل عن المُسَنّاة لئلا يَضيق لمحمد الطريقُ، فظنّ محمد أنه أشفق على نفسه من المسناة، فعدل عنها ولم يساعده على طريقه، وظن بنفسه أن يُصيبَها ما يُصيبه، فقال له محمد :

قد رأيناك إذ تركتَ المُسَنّا * ةَ وحاذيتَنى يسارَ الطريقِ

ولَعَمْرى ما ذاك منك وقد جَدَّ * بك الجدّ من فِعَال الشفيق

فقال له الحسن :

إنْ يكنْ خوفَ الحتوفَ أرانى * أن ترانى مشبّها بالعَقُوقِ

فلقد جارت الظنونُ على المُشْ * ـفِق والظنُّ مُولَعٌ بالشَّفيق

(١) المسناة : ما يبنى فى وجه السيل .

عـــذر السيّد الأجلّ وقد سا * رعلى الخوف من يمين الطريق
فأخذت الشّمال بُقْيا على السيـــد إذ هالنى سلوك المضـــيق
إن عنـدى مودّةً لك حازتْ * ما حَوَى عاشقٌ من المعشوق
طَودُ عِزّ خُصِصْتُ منه ببِرٍّ * صار قدرى به مع العَيُّـوق
وبنفسى وإخـوتى وأبى الـبرّ وعمّى وأسرتى وصـديق
مَنْ إذا ما رُوِّعْتُ أمَّنَ رَوْعى * وإذا ما شَرِقْتُ سوّغ ريق

وحدّث المبرّد قال : استسقى الحسن بن وهب من محمد بن عبد الملك نبيذا ببلد الروم وهو مع المعتصم، فسقاه وكتب إليه :

لم تلْقَ مثـــل صاحباً * أندى يَدًا وأعمّ جُـودا
يَسقى النـديمَ بقَفرةٍ * لم يَسقِ فيها الماءُ عُودا
صـفراءَ صافيـــةً كأ * نّ بكأسها دُرًّا نَضِــيدا
وأجودُ حين أجود لا * حَصِرًا بذاك ولا بليـدا
وإذا آستقلّ بشـكرها * أوجبتُ بالشكر المَزِيدا
خُذها إليـــك كأنّما * كُسِيتْ زُجاجتُها عُقودا
وآجعل عليك بأن تقو * مَ بشكرها أبدا عُهـودا

ومن جيّد شعره قولُه :

بأبى كرهتُ النارَ لمّا أوقدتْ * فعرَفتُ ما معنـاكَ فى إبعادهَا
هى ضَرّة لكِ بالتمـاع ضـيائها * وبحسن صـورتها لدى إيقادها
وأرى صنيعَكِ بالقلوب صنيعَها * بسَـيَالها وأراكـها وعَرَادها
شَرِكَتْكِ فى كل الأمور بحسنها * وضيائها وصـلاحها وفسادها

ومات الحسن بن وهب فرثاه أخوه سليمان بن وهب :

مضى مذ مضى عزّ المعالى وأصبحتْ * لآلى الحِجا والقـولِ ليس لها نظمُ
وأضحى نجىُّ الفكر بعــدَ فِراقه * إذا همّ بالإفصاح مَنطِقـهُ كَظْم

وكتب الحسن بن وهب يشكر :

مَنْ شكرك على درجةٍ رفعتَه إليها ، أو ثروةٍ أقدرتَه عليهـا ، فإن شكرى لك على مُهْجةٍ أحييتَها ، وحُشاشة أبقيتَها ، ورَمَقٍ أمسكت به ، وقمتَ بين التلف وبينه ؛ فلكلّ نعمة من نعم الدنيا حدٌّ تنتهى إليه ، ومدًى يُوقف عنده ، وغايةٌ من الشكر يسمو إليها الطَّرْف ، خلا هذه النعمة التى فاقت الوصف ، وأطالت الشكرَ وتجاوزتْ قَدْرَه ، وأنت من وراء كلّ غاية ؛ رددتَ عنّا كيدَ العدو ، وأرغمتَ أنفَ الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظلٍّ ظليل ، وكَنَف كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبلغ جُهْدَه المجتهدُ ؟ — .

١٨ — أشجع السلمى[1]

كان متصلا بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة، منها قوله فى يحيى بن خالد وكان قد غاب :

قد غاب يحيَى فما أرى أحدًا * يأنَسُ إلا بذكرِه الحسنِ
أوحشتِ الأرضُ حين فارقها * من الأيادِى العظام والمِنَنِ
لولا رجاءُ الإيابِ لانصدعتْ * قلوبُنا بعدَه من الحزَنِ

وقال أيضا :

رأيتُ بُغاةَ الخيرِ فى كل وِجْهةٍ * لغَيْبةِ يحيى مُشتكِينين خُضَّعا
فإن يُمسِ مَنْ فى الرقّتين مُؤمِّلا * لأوبةِ يحيى نحوَها مُتطلّعا
فما وجهُ يحيى وحدَه غاب عنهمُ * ولكنَّ يحيى غاب بالخير أجمعا

وقال فيه أيضا :

اذا غاب يحيى عن بلادٍ تغيَّرتْ * وتُشرِقُ إن يحتلّها فتطيبُ
وإن فَعالَ الخير فى كل بلدةٍ * إذا لم يكن يحيى بها لغريبُ

وقال فيه حين اعتل :

لقد قرعتْ شَكاةُ أبى علىّ * قلوبَ معاشرٍ كانت صِحَاحَا
فإن يدفعْ لنا الرحمنُ عنه * صروفَ الدهرِ والأجلَ المُتَاحَا

---

(١) هو أشجع بن عمرو من ولد الشريد بن مطرود السلمى، وكان يكنى أبا الوليد، شاعر إسلامىّ عباسىّ، نشأ بالبصرة، وقال الشعر وأجاد فيه حتى عدّ من الفحول؛ وكان الشعر يومئذ فى ربيعة واليمن، ولم يكن لقيس شاعر، فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس. وانقطع الى البرامكة ومدحهم واختص بجعفر واصفاه مدحه، فأعجب به جعفر ووصله الى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضا وأمدّه بالمال فأثرى وحسنت حاله فى أيامه، وتقدم عنده، وله فيه المدائح المختارة، والقصائد السائرة. وتجد أشعاره وأخباره فى الأغانى (ج ١٧ ص ٣٠) والشعر والشعراء (ص ٥٦٢).

فقـد أمسى صـلاحُ أبي عليّ * لأهل الأرض كلّهم صـلاحَا
اذا ما الموت أخطاه فلسْـنَا * نبالي الموتَ حيث غدا وراحَا

وهو القائل ،

ليس للحاجاتِ إلّا * من له وجهٌ وَقاحُ
ولسانٌ طِـرْمِذَارٌ(١) * وغـدوٌ ورَوَاحُ
إن أكنْ أبطأ بالحا * جةُ عـنّى فالنّجاحُ
فعليّ الجهـدُ فيها * وعلى اللهِ النجاحُ

ويستجاد له فى مدح الرشيد :

وصلتْ يداكَ السيفَ يوم تقطّعتْ * أيدى الرجالِ وزَلّتِ الأقـدامُ
وعلى عدوّك يا ابنَ عمّ محمـدٍ * رَصَدَانِ ضـوءُ الصبح والإظلامُ
فإذا تنبّـه رُعتَـه وإذا غَفَـا * سلّتْ عليـه سيوفَك الأحلامُ

ويُستجاد له أيضا قولُه :

غدًا يتفـرّق أهلُ الهـوى * ويكثر باكٍ ومسترجِعُ
وتختلف الأرضُ بالظاعنين * وجوهًا تُشَـذُّ(٢) ولا تُجْمَـعُ
وتَفْنى الطلولُ ويبقى الهوى * ويصنَع ذو الشوقِ ما يصنَعُ
وأنت تُبَـكِّى وهم جـيرةٌ * فكيف يكونـ اذا ودّعوا
أتطمَع فى العيش بعد الفراق * فبئس لَعَمْـرُكَ ما تطمـعُ

وفيها يقول فى جعفر بن يحيى :

بديهتُـه مثـلُ تدبيره * متى هجْتَه فهـو مستجمِعُ
إذا هـمَّ بالأمر لم يَثْنِـه * هُجُوعٌ ولا شادنٌ أفْرَعُ
ففى كفّه للغِنَى مطلَبٌ * وللسـرِّ فى صدره موضعُ

(١) الطرمذار : المتكثر بما لا يفعل . (٢) تفر

وكم قائلٍ إذ رأى بهجتى * وما فى فُضُوبِ الغنَى أصنعُ

غدا فى ظلالِ ندَى جعفرٍ * يجُرّ ثيابَ الغنى أشجعُ

وما خلفَه لامرئٍ مطمعٌ * ولا دونَه لامرئٍ مَقْنعُ

وهو القائل فى محمد بن منصور بن زياد يرثيه :

أنعَى فتَى الجودِ الى الجودِ * ما مثلُ من أنعَى بموجودِ

أنعَى فتًى أصبح معروفُه * منتشرًا فى البيضِ والسودِ

أنعَى فتًى مصّ الثرَى بعدَه * بقيةَ الماء من العودِ

قد ثلَم الدهرُ به ثُلمةً * جانبُها ليس بمسدودِ

أنعَى فتًى كان ومعروفُه * يملأُ ما بين ذُرَى البِيدِ

فأصبحَا بعد تساميهما * قد جُمعا فى بطن ملحودِ

ألآنَ نخشَى عثراتِ الندى * وعَدْوَةَ البخلِ على الجود

ويُستجاد له قولُه فى إبراهيم بن عثمان بن نَهِيك وكان صاحبَ شُرَط الرشد وكان جبارا عَبُوسا :

فى سيف إبراهيمَ خوفٌ واقعٌ * بذوى النِّفاق وفيه أمنُ المسلِمِ

ويبيت يَكْلأُ والعيونُ هواجعٌ * مالَ المُضِيع ومهجةَ المستسلِمِ

جعل الخطامَ بأنف كلّ مخالِف * حتى استقام له الذى لم يُخْطَمِ

لا يُصْلِح السلطانَ إلا شدّةٌ * تَغْشَى البرىّ بفضل ذنبِ المجرم

ومن الوُلَاة مقحَّم لا يتقِى * والسيفُ تَقْطُر شَفْرتاه من الدم

منعتْ مهابتُك النفوسَ حديثَها * بالأمر تكرَهُه وإن لم تعلَمِ

وقال لأخيه :

أبتْ غَفَلاتُ قلبِك أن تَرُوحا * وكأسٌ لا تزايلُها صَبُوحَا

كأنك لا ترَى حسنًا جميلًا * بعينِك يا أخى إلّا قبيحَا

ويُستجاد له قولَه فى الرشيد :

لا زلت تنشُر أعيادًا وتَطوِيها * تَمضِى بها لك أيامٌ وتَثْنِيها

مستقبلًا جِدّة الدنيا وبهجتَها * أيامُها لكَ نظمٌ فى لياليها

العيدُ والعيد والأيام بينهما * موصولةٌ لك لا تَفْنَى وتُفْنِيها

ولْيَهنِك النصرُ والأيامُ مقبلةٌ * إليك بالفتح معقودًا نواصيها

ويستجاد له قوله يمدح اسماعيل بن صبيح :

له نظرٌ لا يَغمُض الأمرُ دونَه * تكاد سُتورُ الغيب عنه تَمزَّقُ

وهو القائل :

وما ترك المُدّاح فيك مقالةً * ولا قال إلّا دون ما فيك قائلُ

وقال أيضا :

مضى ابنُ سعيدٍ حين لم يبق مشرق * ولا مغربٌ إلا له فيه مادحُ

وما كنتُ أدرى ما فواضلُ كفه * على الناسِ حتى غيّبته الصفائحُ[1]

فأصبح فى لحدٍ من الأرض ميّتا * وكانت به حيًّا تضيق الصَّحاصِحُ[2]

سأبكيك مافاضتْ دموعِى فإن تَغِضْ * فحسبُك منّى ما تُجِنّ الجوانحُ[3]

فما أنا من رُزْءٍ وإن جل جازعٌ * ولا بسرورٍ بعد موتك فارحُ

كأن لم يَمُتْ حىٌّ سِواكَ ولم يقُمْ * على أحدٍ إلا عليكَ النوائحُ

لئن حسُنَتْ فيك المراثى وذكرُها * لقد حسنتْ من قبلُ فيك المدائحُ

(١) الصفائح : أحجار عراض تغطى بها القبور . (٢) الصحاصح : جمع صحصح : وهى الأرض الجرداء المستوية الواسعة ذات حصى صغار . (٣) الجوانح : الضلوع .

١٩ — علىّ بن الجَهْم[1]

كان علىّ بن الجهم قد هجا بختيشوع ، فسبّه عند المتوكل فحبسه المتوكل . فقال على بن الجهم فى حبسه عدّة قصائد كتب بها الى المتوكل ، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك الى خُرَاسان . فقال أوّل ما حُبِس قصيدةً كتب بها الى أخيه ، أوّلها قوله :

توكّلْنا على ربّ السماء * وسلّمنا لأسباب القضاء
ووَطّنَّا على غِيَرِ الليالى * نفوسًا سامحتْ بعد الإباء
وأفنيةُ الملوك محجَّباتٌ * وبابُ الله مبذُول الفِناء
هى الأيامُ تَكْلِمُنا وتأسو * وتأتى بالسعادة والشقاء
وما يُجْدِى الثَّراءُ على غَنِيٍّ * إذا ما كان محظورَ العطاء
حَلَبْنَا الدهرَ أشطُرَه ومَرّتْ * بنا عُقَبُ الشدائد والرخاء
وجَرّبنا وجرّب أوّلونا * فلا شىءٌ أعزّ من الوفاء
ولم نَدَعِ الحياءَ لمسّ ضرّ * وبعضُ الضرّ يَذهب بالحياء
ولم نحزنْ على دُنيا تولّتْ * ولم نُسْبَق الى حسن العزاء
تَوَقَّ الناسَ يابنَ أبى وأمّى * فهم تَبَعُ المخافة والرجاء

(١) هو عربى قرشىّ شاعر فصيح مطبوع ، وقد خص بالمتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية اليه بندمائه فكان اذا خلا به عرفه أنهم يعيبونه ويثلبونه ، فيكشف الخليفة عن ذلك فلا يجد له حقيقة ، فنفاه الى خراسان بعد أن حبسه مدّة . وكان مذهبه فى الشعر مذهب مروان بن أبى حفصة فى هجاء آل أبى طالب وذمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة كقوله :

ورافضة تقول بشعب رضوى * إمام ، خاب ذلك من إمام
إمام من له عشرون ألفا * من الأتراك مشرعة السهام

وله أقوال فى الغزل والعتاب وفى الوصف ، توفى سنة ٢٤٩ هـ . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٩ ص ١٠٤) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٩٧) .

ولا يَغْرُرْك من وَغْدٍ إخاءٌ * لأمرٍ مّا غَدَا حَسَنَ الإخاء
ألم تر مُظهِرين عليّ عتبًا * وهم بالأمس إخوانُ الصفاء
فلمّا أن بُليتُ غَدَوْا وراحُوا * عليّ أشدّ أسباب البلاء
أبتْ أخطارُهم أن ينصرونى * بمالٍ أو بجاه أو ثراء
وخافوا أن يقالَ لهم خَذَلتم * صديقًا فادّعَوْا قِدَمَ الجفاء
تَظَافرتِ الروافض والنصارى * وأهل الإعتزال على هِجائى
وعابونى وما ذنبي إليهم * سوى علمى بأولاد الزناء
فبختيشوع يشهد لابن عمرو * وعَزُّونٌ لهارون المُرائى
وما الحَذْماء بنت أبى سَميرٍ * بجذماء اللسان على الخَناء
إذا ما عُدَّ مثلكُمُ رجالًا * فما فضلُ الرجال على النساء
عليكم لعنةُ الله ابتداءً * وعَوْدًا فى الصباح وفى المساء
إذا سُمّيتُمُ للناس قالوا * أولئك شرُّ مَن تحت السماء
أنا المتوكلىّ هَوًى ورأيًا * وما بالواثقيّة من خفاء
وما حَبْسُ الخليفة لى بعارٍ * وليس بمؤيسِنّى منه التّنائى

كان سبب حبس المتوكل علىّ بن الجهم أن جماعة من الخنساء سَعَوْا به اليه وقالوا له : إنه يَحْبش الخدم ويغمزهم، وإنه كثير الطعن عليك والعيب لك والإزراء على أخلاقك، ولم يزالوا به يُوغِرون صدره عليه حتى حَبَسه، ثم أبلغوه عنه أنه هجاه، فنفاه الى خراسان وكتب بأن يُصْلَب اذا وردها يومًا الى الليل، فلما وصل الى الشاذِياخ حبسه طاهر بن عبد الله بن طاهر بها، ثم أُخرج فصُلِب يوما الى الليل مجرّدا ثم أنزل، فقال فى ذلك :

لم يَنْصبوا بالشاذياخ عشيّةَ الإثنين مسبوقًا ولا مجهولا
نَصبُوا بحمد الله مِلْءَ قلوبهم * شرفا ومِلْءَ صدورهم تبجيلا
ما ازداد إلا رفعةً بنكوله * وازدادت الأعداء عنه نُكولا

هل كان إلا الليثَ فارق غِيلَه * فرأيتَــه فى محمل محمـــولا

لا يأمَنُ الأعداءُ من شَـدّاته * شـدًّا يفصّل هامَهم تفصيلا

ما عابه أن بُزَّ عنه لباسُــه * فالسيفُ أهولُ مايُرى مسلولا

إن يُبتَذَلْ فالبدرُ لا يُزْرِى به * ان كان ليلةَ تِمِّـه مبـذولا

أو يَسْلُبوه المـالَ يُحْزِن فقدُه * ضيفا ألمّ وطـارقًا ونزيلا

أو يحبِسوه فليس يُحبَس سائرٌ * من شعره يَدَعُ العزيزَ ذليـلا

إن المصائب ما تعدّت دِينَـه * نِعَمٌ وإن صَعُبتْ عليـه قليلا

واللهُ ليس بغـافلٍ عن أمره * وكفى بربك ناصرًا ووكـيلا

ولَتَعلمنّ إذا القلوب تكشّفت * عنها الأكِنّةُ من أضلُّ سبيلا

وكتب المتوكل الى طاهر بن عبد الله بإطلاق علىّ بن الجهم، فلما أطلقه قال :

أطاهرُ إنى عن خُراسانَ راحلٌ * ومُسْتَخبَرٌ عنها فما أنا قائل

أأصدُقُ أم أكني عن الصدق أيّما * تَخَيّرْتُ أدّته اليـك المحافل

وسارت به الركبانُ واصطفقتْ به * أكُفُّ قِيـانٍ واجتبته القبائل

وإنى بمعالى الحمـد والذم عالمٌ * بما فيهما نامى الرميّة ناضـل

وحقًّا أقولُ الصدقَ إنى لمـائلٌ * اليـك وإن لم يَحْظَ بالودّ مائلُ

ألَا حرمةٌ تُرْعَى ألَا عقـدُ ذمّةٍ * لجارٍ ألَا فِعـلٌ لقـولٍ مُشاكلُ

ألَا منصفٌ إن لم نَجِدْ متفضِّلًا * علينا ألَا قاضٍ من الناس عادلُ

فلا تقطعَنْ غيظًا علىّ أناملًا * فقبلَكَ ما عُضّتْ علىّ الأناملُ

أطاهرُ إن تُحْسِنْ فإنّى محسنٌ * اليك وإن تبخَـلْ فإنّى باخلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيرا، فإنى لا أفعـل بك إلا ما تحب، فوصـله وحمله وكساه .

وقال علىّ بن الجهم للمتوكل :

عفا الله عنك! ألَا حرمةٌ * تجود بعفوك أن أُبْعَدَا
لئن جَلّ ذنبٌ ولم أعتمد * لأنت أجلّ وأعلى يدا
ألم تر عبدًا عَدَا طَوْرَه * ومولًى عفا ورشيدًا هدى
ومُفسِدَ أمرٍ تَلَافيتَه * فعاد فأصلح ما أفسدا
أَقِلْنى أقالك من لم يَزَلْ * يَقِيكَ ويَصْرِف عنك الرّدَى

وأحسن شعر قاله فى الحبس قصيدته التى أوّلها :

قالوا حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرِى * حَبْسِى وأىّ مُهَنَّدٍ لا يُغْمَدُ
أَوَ مَا رأيتَ الليثَ يألف غِيلَه * كِبْرًا وأوباشُ السِّباع تَرَدَّدُ
والشمس لولا أنها محجوبةٌ * عن ناظرَيْكَ لَمَا أضاء الفَرْقَدُ
والبدرُ يُدْرِكه السِّرار فتنجلِى * أيامُه وكأنه متجدّد
والغيثُ يحصُره الغمامُ فما يُرَى * إلّا ورَيِّقُه يراع ويرعُدُ
والزاعبيّةُ لا يُقيم كعوبَها * إلا الثِّقاف وجَذْوةٌ تتوقّدُ
والنارُ فى أحجارها مخبوءةٌ * لا تُصْطَلَى إن لم تُثِرْها الأزنُدُ
والحبس ما لم تَغْشَه لدنيّةٍ * شنعاء نعم المنزلُ المتوَدّد
بيت يجدّد للكريم كرامةً * ويُزَارُ فيه ولا يزور ويُحْمَد
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه * لا يستذلّك بالحجاب الأَعْبُد
كم من عليلٍ قد تخطّاه الردَى * فنجا ومات طبيبُه والعُوَّدُ
يا أحمدُ بنَ أبى دُوَادٍ إنما * تُدْعَى لكل عظيمةٍ يا أحمد
أبلغْ المؤ ودونه * خوضَ الرّدَى ومخاوفٌ لا تَنْفَدُ
أنتم بنو عمّ النبىّ محمدٍ * أولَى بما شَرَعَ النبىّ محمد
ما كان من كرمٍ فأنتم أهلُه * كَرُمتْ مغارسُكم وطاب المحْتِدُ

أمِنَ السَّوِيَّةِ يابن عمِّ محمد * خصم تقربه وآخر تُبْعَدُ
إن الذين سَعَوْا اليك بباطل * ت التى لا تُجْحَدُ
شَهِدُوا وغِبْنَا عنهمُ فتحكَّموا * فينا، وليس كغائبٍ من يشهد
لو يجمع الخُصَماءَ عندك مجلسٌ * يوما لبَانَ لك الطريقُ الأقصد
فبأىّ جُرْمٍ أصبحتْ أعراضُنا * نَهْبا تقسَّمها اللئيمُ الأوغد

خرج علىّ بن الجهم إلى الشأم فى قافلة فخرجت عليهم الأعراب فى خُساف(١)، فهرب مَنْ كان فى القافلة من المُقَاتِلة وثَبَتَ علىّ بن الجهم، فقاتلهم قتالا شديدا وثاب الناس اليه فدفعهم ولم يَحْظَوْا بشىء . فقال فى ذلك :

صَبَرتُ ومثلى صبرُه ليس يُنْكَرُ * وليس على ترك التقحُّم يُعْذَرُ
غريزةُ حرّ لا اختلاقُ تكلُّفٍ * إذا خام(٢) فى يوم الوغى المتصبِّرُ
ولما رأيت الموتَ تهفو بنوده * وبانت علاماتٌ له ليس تنكر
وأقبلتِ الأعرابُ من كل جانبٍ * وثار عَجَاجٌ أسودُ اللون أكدر
بكل مُشِيح(٣) مستميتٍ مشمّر * يجول به طِرْفٌ أقبُّ مشمّر
بأرض خُسافٍ حين لم يك دافعٌ * ولا مانعٌ إلا الصفيحُ المذكَّر
فقلّل فى عينى عظيمَ جموعهم * عزيمةُ قلبٍ فيه ما جَل يصغُرُ
بمعتَرَكٍ فيه المنايا حواسرٌ * ونارُ الوَغَى بالمَشْرَفِيّة تُسْعَرُ
فما صُنْتُ وجهى عن ظُبَاتِ سيوفهم * ولا انحزتُ عنهم والقَنَا تتكسّر
ولم أكُ فى حَرّ الكَرِيهة مُحجِما * إذا لم يكن فى الحرب للوِرْد مَصْدَر
اذا سَاعَدَ الطِّرْفُ الفتى وجَنَانُه * وأسمرُ خَطّىٌّ وأبيضُ مِبْتَر
فذاك وإن كان الكريم بنفسه * إذا اصطلت الأبطالُ فى النقع عسكر

(١) برية بين بالس وحلب . (٢) خام : نكص وجبن .
(٣) المشيح : المانع لما وراء ظهره . والأقب من الخيل : الدقيق الخصر الضامر البطن .

منعتهم من أن ينالوا قُلامةً * وكنتُ شجاهم والأسنّةُ تقطُر
وتلك سجايانا قديمًا وحادثًا * بها عُرِف الماضى وعزّ المؤخَّر
أبتْ لى قرومٌ أنجبتنى أن أرى * وإن جلّ خَطْبٌ خاشعًا أتضجّر
أولئك آلُ الله فهرُ بن مالكٍ * بهم يُجبَرُ العظمُ الكسير ويُكسر
هم المَنكِبُ العالى على كل منكبٍ * سيوفُهمُ تُفنِى وتُغنِى وتُفقِر

كان علىّ بن الجهم يعاشر جماعةً من فتيان بغداد لما أُطلق من حبسه ورُدّ من النفى، وكانوا يتقاينون ببغداد ويلزمون منزل مغنّ بالكرخ يقال له المفضّل، فقال فيه على بن الجهم:

نزلنا بباب الكَرخ أطيبَ منزلٍ * على مُحْسِناتٍ من قِيانِ المفضَّل
فللابن سُرَيجٍ والغَرِيض ومَعْبَدٍ * بدائعُ فى أسماعنا لم تبدّل
أوانس ما للضيف منهنّ حشمةٌ * ولا ربهنّ بالجليل المبجّل
يُسَرّ اذا ما الضيفُ قلّ حياؤه * ويَغْفُل عنه وهو غير مُغفَّل
ويُكثِر من ذمّ الوقار وأهلِه * اذا الضيفُ لم يأنَسْ ولم يتبذّلِ
ولا يدفع الأيدى المريبة غيْرة * اذا نال حظًّا من لَبُوسٍ ومأكل
ويُطرِق إطراقَ الشجاع مهابةً * ليُطلِقَ طَرْفَ الناظر المتأمل
أشِرْ بيَدٍ واغمِزْ بطَرْفٍ ولا تخَفْ * رقيبًا اذا ما كنتَ غير مُبخّل
وأعرِضْ عن المصباح والهجْ بمثله * فإن خمَد المصباح فادنُ وقبِّل
وسَلْ غيرَ ممنوع وقُلْ غيرَ مسكَتٍ * ونَمْ غيرَ مذعور وقم غير مُعْجَلِ
لك البيتُ ما دامتْ هداياك جَمّةً * وكنتَ مَلِيًّا بالنبيذ المعسّل
فبادِرْ بأيام الشباب فإنها * تَقَضَّى وتَفْنَى والغوايةُ تنجلى
ودع عنك قولَ الناس أتلفَ مالَه * فلانٌ فأضحى مُدبِرًا غير مُقبِلِ
هل الدهرُ إلا ليلةٌ طَرحتْ بنا * أواخرُها فى يوم لَهوٍ معجّل
سقى الله بابَ الكرخِ من مُتنزَّهٍ * الى قصر وَضّاح فبِركة زَلزَلِ

مَسَاحب أذيال القِيان ومَسْرح الـ * حسانِ ومثوى كل خِرقٍ معذَّل
لو آنّ آمرأ القيس بن حُجْرٍ يحلّها * لأقصر عن ذكر الدَّخول وحومَل
إذًا لرأى أن يمنح الودّ شادنا * مقصَّر أذيالِ القنا غير مسْبِلِ
إذا الليلُ أدنى مضجَعِى منه لم أقُل * "عقَرتَ بعيرى يا آمرأ القيس فأنزلِ"

دخل علىّ بن الجهم يوما على عبد الله بن طاهر فى غداة من غَدَوات الربيع وفى السماء غيم رقيق، والمطر يجيء قليلا ويسكن قليلا، وقد كان عبد الله عزم على الصبوح فعاضبته حَظِيّة له، فتنغص عليه عزمه وفتر، فخُبّر علىّ بن الجهم بالخبر وقيل له : قل فى هذا المعنى لعله ينشط للصبوح، فدخل عليه فأنشده :

أمَا ترَى اليومَ ما أحلى شمائلَه * صحوٌ وغيمٌ وإبراقٌ وإرعادُ
كأنه أنت يامن لا شبيهَ له * وصلٌ وهجرٌ وتقريب وإبعادُ
فباكرِ الراحَ واشربها معتَّقةً * لم يدَّخر مثلَها كسرى ولا عادُ
واشربْ على الروض إذ لاحتْ زخارفُه * زهرٌ ونَورٌ وأوراقٌ وأورادُ
كأنما يومُنا فعلُ الحبيب بنا * بَذْلٌ وبُخلٌ وإيعادٌ وميعادُ
وليس يذهَبُ عنى كلّ فعلِكُمُ * غَىٌّ ورُشْدٌ وإصلاحٌ وإفساد

فاستحسن الأبياتَ وأمر له بثلثمائة دينار وحَمَله وخلع عليه .

لما أطلق عبد الله بن طاهر علىّ بن الجهم من الحبس أقام معه بالشَّاذياخ مدّة، فخرجوا يوما الى الصيد . واتفق لهم مَرْج كثير الطير والوحش وكانت أيام الزعفران، فاصطادوا صيدا كثيرا حسنا، وأقاموا يشربون على الزعفران، فقال علىّ بن الجهم يصف ذلك :

وطئنا رياضَ الزعفران وأمسكتْ * علينا البُزاةُ البِيضُ حمرَ الدَّرارج[1]
ولم تحمِها الأدغالُ منا وإنما * أبحْنا حِماها بالكلاب البَوارج
بمستَرْوِحاتٍ سابحاتٍ بطونُها * على الأرض أمثال السّهام الزوالج[2]

(١) واحده درّاج (بضم الدال وتشديد الراء) وهو طائر على خلقة القطا إلا أنه ألطف

(٢) الزالج من السهام : الذى يمشى على وجه الأرض ثم يمضى .

ومستشرفات بالهوادى كأنها * وما عُقِفتْ منها رؤوسُ الصَّوَالج
ومن دالعاتٍ ألسُنًا فكأنها * لِحًى من رجال خاضعين كَوَاسِج
فَلَيْنا بها الغِيطانَ قَلْيًا كأنها * أناملُ إحدى الغانيات الحَوَالج
فقل لبُغاةِ الصَّيْد هل من مُفاخِرٍ * بصيدٍ وهل من واصف أو مخارج
قَرَنَّا بُزاةً بالصقور وحَوّمتْ * شواهيننا من بعد صيد الروائج (١)

لما فُلِج آبن أبى دواد شَمِت به علىّ بن الجهم وأظهر ذلك له وقال فيه :

لم يبقَ منك سوى خَيَالك لامعًا * فوق الفِراش ممهّدًا بوِسَاد
فرِحتْ بمَصْرَعك البريّةُ كلّها * مَنْ كان منهم مُوقِنًا بمَعَاد
كم مجلس لله قد عَطَّلتَه * كى لا يُحَدَّث فيه بالإسناد
ولكم مصابيح لنا أطفأتَها * حتى تزول عن الطريق الهادى
ولكم كريمةِ مَعْشرٍ أرملتها * ومحدّث أوثقتَ فى الأقياد
إن الأَسارى فى السجون تفرّجوا * لما أتتك مواكبُ العوّاد
وغدَا لمصرعك الطبيبُ فلم يجد * شيئا لدائك حيلة المرتاد
فذُقِ الهوانَ معجَّلا ومؤجَّلا * والله ربّ العرش بالمرصاد
لا زال فالجُك الذى بك دائبًا * وفُجِعْتَ قبل الموت بالأولاد

ومن جيد شعره قوله :

نطق الهوىَّ بجوى هو الحقّ * وملكتنى فليَهْنِكَ الرِّقُّ
رِفقًا بقلبى يا معذِّبَه * رِفقًا وليس لظالم رفقُ
وإذا رأيتُك لا تُكلِّمُنى * ضاقت علىّ الأرضُ والأُفق

وله أيضا :

يا رحمةً للغريب بالبلد النَّا * زِحِ مَا ذَا بنفسه صَنَعَا
فَارَقَ أحبابَه فما آنتفعوا * بالعيش من بعده وما آنتفعا

(١) الرائج : الملواح الذى يصاد به الصقور ونحوها من جوارح الطير

٢ — على بن جَبَــلَةَ (١)

قال المأمونَ يوما لبعض جلسائه : أقسِم على مَنْ حضر ممّن يحفظ قصيدة علىّ بن جَبَلَةَ الأعمى فى القاسم بن عيسى إلا أنشَـدنيها ؛ فقال له بعض الجلساء : قد أقسم أميرُ المؤمنين ولا بدّ من إبرار قسمه، وما أحفظها ولكنها مكتوبة عنـدى ؛ قال : قم فجئنِي بها، فمضى وأتاه بها وأنشده إياها، وهى :

ذاد ِوْرْدَ الغَىّ عن صَـدَرِهْ * وٱرعَوَى واللهوُ من وَطَـرِهْ

وأبَتْ إلا البكاءَ له * ضَحَكَاتُ الشَّيْب فى شَعَرِهْ

ندمِي أن الشبابَ مضَى * لم أُبلِّغْــه مَـدَى أَشَرِهْ

وٱنقضــتْ أيامُه سَـلَمًا * لم أَجِـدْ حَوْلًا علـى غِـيَرِهْ

حسرتْ عــنّى بشاشــتُه * وذوَى المحمودُ من ثَمَرِهْ

ودمٍ أهـدرتُ من رَشَإٍ * لم يُرِد عَقْـلًا على هَـدَرِهْ

فأتَت دون الصِّبا هَنَـةٌ * قلبتْ فُـوق علـى وَتَـرِهْ

جارتَا ليس الشبابُ لمن * راح مَحنيًّـا علـى كِبَرِهْ

ذهبتْ أشياءُ كنتُ لهـا * صَـارِها (٢) حلمى الى صُـورَه

(١) هو على بن جبلة الأنبارى والعكوك لقبه ، وهو من الموالى أبناء الشيعة الخراسانية من أهل بغداد ، ولد فى الحربية منها ونشأ فيها ، وكان ضريرا منذ ولادته مثل بشار بن برد ، وهو شاعر مطبوع عذب اللفظ جزله ، لطيف المعانى ، مداح حسن التصرف ، وقد استنفد شـعره فى مدح أبى دلف العجلى وأبى غانم حميد بن عبد الحميد الطوسى ، وزاد فى تفضيلهما وتفضيل أبى دلف خاصة حتى فضل ربيعة على مضر ، فاستاء المأمون من ذلك و طمه أبيات قالها العكوك فى أبى دلف منها :

كل من فى الأرض من عرب * بين باديه إلى حضـــره

مستعير منـــك مكرمة * يكتسيها يوم مفتـــخره

توفى سـنة ٢١٣ هـ . وتجد أكثر أخباره فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٠٠) وابن خلكان طبع بولاق (ج ١ ص ٤٩٥) والشعر والشعراء (ص ٥٥٠)

(٢) صارها : أمالها .

دَعْ جَدَا قَحْطان أو مُضر * فى يمانيه وفى مُضَرِه
وامتدحْ من وائلٍ رجلا * عُصُرُ الآفاق فى عُصُرِه
المنايا فى مَنَاقِبِه * والعطايا فى ذَرَا حُجَرِه
ملكٌ تَنْدَى أناملُه * كانبلاج النَّوْء عن مَطَره
مُستهِلٌّ عن مَوَاهبه * كابتسام الروض عن زَهَرِه
جبلٌ عزَّتْ مَنَاكِبه * أمِنتْ عَدْنان فى ثُغَرِه
إنما الدنيا أبو دُلَف * بين مَبْدَاه ومُحْتَضَرِه
فإذا ولّى أبو دلف * ولّت الدنيا على أثَرِه
لستُ أدرى ما أقول له * غير أنّ الأرض فى خَفَره
يادواء الأرض إن فسدتْ * ومديلَ اليُسْر من عُسُره
كل من فى الأرض من عرب * بين باديه الى حَضَره
مستعيرٌ منك مكرمةً * يكتسيها يومَ مُفْتَخَرِه

وفيها يقول :

وزُحُوفٍ فى صَوَاهله * كصياح الحَشْر فى أثره
قُدْتَه والموت مكتمنٌ * فى مَذَاكيه ومُشْتَجَرِه
فرمتْ حَقْوَيهِ منه يدٌ * طَوَتِ المنشورَ من نظره
زرته والخيل عابسةٌ * تحمل البُؤْسَى على عُقُره
خارجاتٍ تحت رايتها * كخروج الطير من وُكُره
وعلى النعمان عُجْت به * عَوْجةً ذادته عن صَدَرِه
غَمَط النعمانُ صَفْوتَها * فرددتَ الصفو فى كَدَره
ولقرقور أدرتَ رحًا * لم تكن ترتدّ فى فِكَرِه

قــد تأنّيتَ البقــاء له * فأبى المحتومُ من قــدره

وطَــغَى حتى رفعتَ له * خُطّةً شنعاءَ من ذِكْرِه

فغضب المأمون واغتاظ، وقال : لست لأبى إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه .

وكان يمدح حُمَيد بن عبد الحميد، فلما سمع حميد هــذا فى أبى دلف قال : أى شىء بقيتَ لنا بعد هذا من مدحك؟ فقال :

إنمــا الدنيا حُمَيدٌ * وأياديه الجِســامُ

فاذا ولّى حميــدٌ * فعلى الدنيا السلامُ

وهو القائل فى حميد :

دِجلةٌ تسـقى وأبو غانم * يُطعِم مَنْ تَسقى من الناس

والناسُ جسمٌ وإمامُ الهدى * رأس وأنت العينُ فى الراس

وقال للحسن بن سهل :

أعطيتَنى يا ولىّ الحقّ مبتدئًا * عطيّةً كافأتْ مدحى ولم تَرَنِى

ما شِمْتُ برقَك حتى نِلتُ رَيِّقَه * كأنما كنتَ بالجَدْوَى تُبادرنى

وهو القائل فى حميد :

إلى أكرم قَحْطانٍ * وصَلْنا السَّهبَ بالسَّهبِ

الى مجتمع النَّيــل * ومُلْقَى أرحُــلِ الرَّكب

حُمَيــدٌ مَفْزَع الأمّـ * ـة فى الشرق وفى الغرب

كأنّ الناسَ جسمٌ وَهْـ * ـو منه موضـعَ القلب

اذا سَــالَمَ أرضــا غـ * ـدَتْ آمنــةَ السِّربِ

وإن حاربها حلّت * بهــا راغيــة السَّـقْب

اذا لاقى رَعِيــلَ المو * ت بالشُّطبَة والشُّطْب .

وبالماذيّة الخُضْــرِ * وبالهنــديّة القُضْب .

دَعْ جَـدًا قحطان أو مُضَرٍ * فى يَمَانيــه وفى مُضَــرِه
وامتدِحْ من وائلٍ رجلًا * عُصُــرُ الآفاق فى عُصُرِه
المنــايا فى مَنَاقِبِــــه * والعطـايا فى ذُرَا حُجَــرِه
مـلكٌ تَنْــدَى أنامــلُه * كانبلاج النَّـوْء عن مَطَره
مُسْـتهِلٌ عن مَوَاهبــه * كابتسام الروض عن زَهَره
جبــلٌ عزَّتْ مَنَاكِبه * أَمِنتْ عَدْنانــ فى ثُغَــرِه
إنمـــا الدنيـــا أبو دُلَفٍ * بين مَبْـــدَاه ومُحْتَضَرِه
فإذا ولَّى أبـــو دلـف * ولَّت الدنيــا عـــلى أَثَرِه
لستُ أدرى ما أقــول له * غير أنّ الأرض فى خَفَــره
يادواء الأرض إن فسـدتْ * ومديلَ اليُسْر من عُسُره
كل من فى الأرض من عربٍ * بين باديه الى حَضَــره
مسـتعيرٌ منك مكرمةً * يكتسيها يومَ مُفْتَخَرِه

وفيها يقول :

وزُحُوفٍ فى صَوَاهــله * كصياح الحَشْر فى أثــره
قُــدْتَه والموت مكتمنٌ * فى مَذَاكيه ومُشْــتَجَرِه
فــرمتْ حَقْوَيهِ منــه يدٌ * طَوَتِ المنشورَ من نظره
زرته والخيــل عابسـةٌ * تحمــل البُؤْسَى على عُقُــره
خارجاتٍ تحت رايتهـا * كخروج الطير من وُكُره
وعلى النعمانِ عُجْت به * عَوْجةً ذادتْه عن صَدَرِه
غَمَط النعمانُ صَـفْوتَها * فــرددتَ الصفو فى كَدَره
ولقــرقور أدرتَ رحًا * لم تكن ترتدّ فى فِـكَرِه

قــد تأبّتَ البقــاءَ له * فأبى المحتومُ من قَـدَرِه
وطَــغَى حتى رفعتَ له * خُطّةً شنعاءَ من ذِكَرِه

فغضب المأمون واغتاظ، وقال : لست لأبى إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه .

وكان يمدح حُمَيد بن عبد الحميد، فلما سمع حميد هـذا فى أبى دلف قال : أى شىء بَقّيتَ لنا بعد هذا من مدحك؟ فقال :

إنمـا الدنيا حُمَيدٌ * وأياديه الجِسـامُ
فاذا ولّى حميـدٌ * فعلى الدنيا السلامُ

وهو القائل فى حميد :

دِجـلةُ تسـقى وأبو غانم * يُطعِم مَنْ تَسقى من الناس
والناسُ جسمٌ وإمامُ الهدى * رأس وأنت العينُ فى الراس

وقال للحسن بن سهل :

أعطيتَنى يا ولىّ الحقّ مبتـدئًا * عطيّةً كافأتْ مدحى ولم تَرَنِى
ما شِمتُ برقَك حتى نِلتُ رَيِّقَه * كأنما كنتَ بالجَدْوَى تُبادرنى

وهو القائل فى حميد :

إلى أكـرم قحطانٍ . وصلْنا السَّهْبَ بالسَّهْبِ
الى مجتمع النَّيــل * ومُلْقَى أرحُــلِ الرَّكب
حُمَيــدٌ مَفـزَع الأُمّـ * ـة فى الشرق وفى الغرب
كأنّ الناسَ جسمٌ وَهْـ * ـو منه موضـعَ القلب
اذا سَـالَمَ أرضـا غـ * ـنِيَتْ آمنـةَ السِّرْبِ
وإن حارَبها حلّت * بهـا راغيـة السَّقْب
اذا لاقَى رَعيـلَ الموْ * تِ بالشَّطبَة والشُّطْب
وبالماذيّة الخُضْــرِ * وبالهنـديّة القُضْب

غـــدا مجتمعَ القلبِ * له جندٌ من الرُّعْبِ
فيـافوزَ الذى وَالَى * ويا بؤسى أخى الذنب
أيا ذا الجود فاسـلَمْ ما * جرتْ حُقُبٌ الى حُقُبِ
فأنت الغيثُ فى السِّـلِم * وأنت الموتُ فى الحرب
وأنت الجـامعُ الفـار * قُ بين البعـد والقرب
بـك الله تلافى النـا * س بعد العثْرِ والنَّكْبِ
وردّ البِيضَ والبِيضَ * الى الأغمـاد والحُجب
بإقدامك فى الحـرب * وإطعـامِك فى اللَّزْب
فكم أمنتَ من خـ ـ ـ * وكم أشغبتَ ٠
وكم أصلحتَ من خَطْ * وكم أيمّتَ من خط
وما تمهَّـــــرها إلا * دِرَاكَ الطَّعن والضرب
تناهتْ بك قحطانٌ * الى الغـاية والحَسَبِ
ففاتتْ شَرَفَ الأحيـا * ء فَوْتَ الرأس للعَجْبِ(١)

ومما أسرف فيه فكفر أو قاربَ الكفرَ قوله فى أبى دلف

الذى تنزل الأيامَ معرها * وتنقلَ الدهرَ من حالٍ الى حال
ومامَدَدتَ مَدَى طَرْفٍ الى أحدٍ * إلا قضيتَ بأرزاق وآجال
تَزورُّ سخطاً فتُمسِي البِيضُ راضيةً * وتستهِلُّ فتبكى أوجُـهُ المـال

وقال فيه :

كأن خيلَك فى آنـ عموتها * أرسالُ قَطرٍ تَهامى فوق أرسال
يخرجن من غمرات الـ امه * نَشْرَ الأنامل من ذى القِرّة الصالى

(١) العجب : اصل الذنب ٠

وقال أيضا :

جــلاء مشــيب نَزَل * وأُنْس شــباب رَحَــلْ
طـوى صـاحبٌ صاحبًا * كذاك اختـلافُ الدُّوَل
أعاذلــتى أقصِــرِى * كفاكِ المشيبُ العَــذَل
بــدا بــدلًا بالشــبا * ب ليت الشبابَ البدل
جــــلالٌ ولكنه * تحاماه حُــورُ المُقَــل

وقد كان حميد ركب يوم عيد فى جيش عظيم لم يُرَ مثلُه ، فقال على بن جبلة يصف ذلك :

غــدا بأمــير المؤمنين ويُمْنــه * أبو غانم غَدْوَ النَّدَى والسحائب
وضاقتْ بِفجاجُ الأرض عن كل موكبٍ * أحاطَ به مســتعلياً للواكب
كأنَّ سمــوَ النَّقع والبِيضَ فوقهم * سماوةُ ليـل قُرِّنتْ بالكواكب
فكان لأهــل العيد عيــدٌ بنسكهم * وكان حُمَيــدٌ عيــدَهم بالمواهب
ولولا حميــد لم تبــلَّجْ عن النَّدَى * يمينٌ ولم يُدرِكْ غِنًى كسبُ كاسب
ولو مَــلَكَ الدنيــا لمــا كان سائــلٌ * ولا اعتامَ فيها صاحبٌ فضلَ صاحب
له ضحكةٌ تستغرق المــالَ بالنَّــدَى * على عَبْسةٍ تُشْــجِى القَنــا بالترائب
ذهبتَ بأيام العُــلا فاردًا بهــا * وصَرَّمتَ عن مَسْعاك شأوَ المطالب
وعدّلت مَيْلَ الأرضِ حتى تعدَّلت * فــلم ينأَ منهــا جانبٌ فــوق جانب
بلغت بأدنى الحــزمِ أبعــدَ قُطْرِهــا * كأنــك منهــا شاهــدٌ كلَّ غائب

شخص على بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر إلى خراسان، وقد مدحه فأجزل صلته، واستأذنه فى الرجوع فسأله أن يقيم، وكان بِرّه يتصل عنــده؛ فلما طال مُقامه اشتاق إلى أهله فدخل إليه فأنشده :

راعه الشَّــيبُ إذ نَزَلْ * وكَفَاه مِنَ العَــذَلْ
وانقضتْ مدة الصِّبَا * وانقضى اللهوُ والغَــزَلْ

قـد لعـمرى دمّلتـه ... بخضاب فما اندمـل
فابكِ للشّـيب إذ بدا ... لا على الرّبـع والطّلل
وصـــل الله للأمـيـ ... ـر عُرى الملك فاتّصل
مـلكٌ عزمُـــه الزما ... نُ وأشبـاله الدول
كسرويٌّ بمجـده ... يضربُ الضاربُ المثل
وإلى ظـــلّ عـــزّه ... يلجأ الخائف الوجل
كلّ خلقٍ سوى الإما ... م لإنعامـه خـــول
ليتـه حين جاد لى ... بالغـنى جاد بالقـفل

فضحك وقال : أبيْتَ إلا أن توحشنا، وأجزل صِلَته وأذن له .

دخل على بن جبلة العكوّك على حُميد الطوسىّ فى أول يوم من شهر رمضان، فأنشده :

جعل الله مدخل الصوم فوزًا ... لحُمَيـد ومُتعـةً فى البقـاء
فهـو شهر الربيـع للقُـرّاء ... وفراقُ النّدمان والصّهباء
وأنا الضامنُ المـليُّ لمن عا ... قَرها مُفطـرًا بطـول الظّماء
وكأنى أرى النّدامى على الخســ ... ـف يرجّون صبحهم بالمساء
قد طوى بعضهم زيارة بعض ... واستعاضوا مصاحفًا بالغنـاء

وفيهـا يقول :

بحُميد — وأين مثل حميد — ... فخـرت طيّءٌ على الأحيـاء
جودُه أظهر السماحة فى الأر ... ض وأغنى المُقوى عن الإقواء
مـلكٌ يأمـل العبـاد نداه ... مثـل ما يأملون قطـر السماء
صاغه الله مَفزعَ الناس فى الأر ... ض وصاغ السحابَ للإسقاء

فأمر له بخمســة آلاف درهم، وقال : استعن بهذه على نفقة صومك، ثم دخل اليـه ثانى شوّال فأنشده :

عللانى بصفو ما فى الدنان * واتركا ما يقوله العاذلان
واسقيا فاجع المنية بالعيـ * ـش فكل على الجديدين فان
عللانى بشربة تذهب الهـ * ـم وتنفى طوارق الأحزان
والقيا فى مسامع سنها الصو * م زُرق الموصل أو دخان
قد أتانا شوال فاقتبل العيـ * ـش وأعدى قسرا على رمضان
نعم عون الفتى على نوب الدهـ * ـر سماع القيان والعيدان
وكؤوس تجرى بماء كروم * ومطى الكؤوس أيدى القيان
من عقار تميت كل احتشام * وتسر الندمان بالندمان
وكأن المزاج يقدح منها * شررا فى سبائك العقيان
فاشرب الراح واعص من لام فيها * إنها نعم عدة الفتيان
واصحب الدهر بارتحال وحل * لا تخف ما يجره الحادثان
حسب مستظهر على الدهر ركنا * بحميد ردءا من الحدثان
ملك يقتنى المكارم كنزا * وتراه من أكرم الفتيان
خلقت راحتاه للجود والبأ * س وأمواله لشكر اللسان
ملكته على العباد معد * وأقرت له بنو قحطان
أريحى الندا جيل المحيا * يده والسماح معتقدان
وجهه مشرق الى معتفيه * ويداه بالغيث تنفجران
جعل الدهر بين يوميه قسميـ * ـن بعرف جزل وحر طعان
فاذا سار بالخميس لحرب * كل عن نص جريه الخافقان
واذا ما هززته لنوال * ضاق عن رحب صدره الأفقان
غيث جدب إذا أقام ربيع * يتغشى بالسيب كل مكان
يا أبا غانم بقيت على الدهـ * ـر وخلدت ما جرى العصران

ما نُبالِي إذا عَدَتْك المنايا * مَنْ أصابتْ بكَلْكَلٍ وجِرَان
قد جئنا اليك بعثَ المطايا * هَرَبًا من زماننا الخوّان
وحملنا الحاجاتِ فوق عِتاقٍ * ضامناتٍ حوائجَ الركبان
ليس جودٌ وراء جودك يُنتا * بُ ولا يَعْتَفِي لغيرك عانى

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال: تلك كانت للصوم خففت وخففتا، وهذه للفطر فقد زدتنا وزدناك .

ولما مات حُمَيد الطوسي رثاه بقصيدته العينية المشهورة التي تُعَدّ من نادر الشعر وبديعه، وهي :

ألِلدهرِ تبكى أم على الدهر تجزَعُ .. وما صاحبُ الأيامِ إلا مُفَجَّعُ
ولو سَهُلت عنك الأَسَى كان فى الأسَى .. عزاءُ معزٍّ للبيب ومَقْنَعُ
تَعَزَّ بما عَزَّيتَ غيرَك إنها . سِهامُ المنايا حائماتٌ ووُقَّعُ
أُصِبْنا بيومٍ فى حُمَيْدٍ لَوَ انّه * أصاب عروشَ الدهرِ ظلّتْ تَضَعضعُ
وأدّبَنا ما أدّب الناسَ قبلَنا * ولكنه لم يبق للصبر موضعُ
ألم تر للأيام كيف تصرّمت * به، وبه كانت تُذادُ وتُدْفَعُ
وكيف التقى مثوًى من الأرض ضيّقٌ * على جبلٍ كانت به الأرضُ تُمْنَعُ
ولما انقضتْ أيامُه انقضت العُلا * وأضحى به أنفُ الندَى وهو أجدعُ
وراحَ عدوّ الدِّين جذلانَ ينتحى . أمانيَّ كانت فى حَشاه تقطّعُ
وكان حُميدٌ مَعقِلًا ركعتْ به * قواعدُ ما كانت على الضيم تركعُ
وكنت أراه كالرزايا رُزِئْتُها . ولم أدر أن الخلقَ تبكيه أجمعُ
حِمَامٌ رَمَاه من مواضعِ أَمْنِه * حِمَامٌ، كذاك الخطب بالخطب يُقْدَعُ
وليس بغَرْوٍ أن تُصيب منيّةٌ .. حِمَى أختها أو أن يَذِلّ المُمَنَّعُ
لقد أدركتْ فينا المنايا بثأرها؛ وحلّتْ بخطبٍ وهيُه ليس يُرْقَعُ

نعاء دَا للسرايا إذا غـ   تذاد بأطـراف الرماح وتُـوزَعُ

ولمُرْهَق المكروبِ ضاقت بأمره * فلم يدر فى حوماتها كيف يصنعُ

وللبيض خلّتها البعـولُ ولم يدع   لهـا غيرَه داعى الصباح المفـزَّعُ

كأنّ حميـدا لم يقُـدْ جيشَ عسكرٍ   إلى عسكر أشياعُـه لا تروَّعُ

ولم يَبْعثِ الخيـلَ المغيرةَ بالضحى   مِراحًا ولم يرجِـعْ بهـا وهى ظُلَّعُ

رواجعَ يحملن النِّهـابَ ولم تكن   كتائبُه إلا علـى النَّهب ترجِـعُ

هوى جبـلُ الدنيـا المنيعُ وغيثُها الـ   ـمَريعُ وحاميهـا الكمىُّ المشيَّعُ

وسيفُ أمير المؤمنين ورمحُـه   ومفتاحُ باب الخطب والخطبُ أفظعُ

فأقنعـه من مُلكه وربا   ونائله قَفْـرٌ من الأرض بَلْقَـعُ

على أى شجوٍ تشتكى النفسُ بعـده   إلى شجـوه أو يذخَرُ الدمعَ مَدْمَـعُ

ألم تر أن الشمس حَالَ ضـياؤها   عليـه وأضحى لونُهـا وهو أسفعُ

وأوحشتِ الدنيـا وأودَى بهاؤها   وأجدبَ مَرْعاها الذى كان يَمْـرَعُ

وقـد كانت الدنيـا به مطمئنـةً   فقـد جعلت أوتادُها تتقلّـعُ

بكى فقـدَه روحُ الحيـاة كما بكى   نَدَاه النـدَى وابنُ السبيل المُـدَفَّعُ

وفارقتِ البيضُ الخـدورَ وأُبْرِزتْ   عواطلَ حَسْرَى بـه ده لا تقَنَّـعُ

وأيقظ أجفانًا وكان لهـا الكرى * ونامت عيونٌ لم تكن قبـل تَهْجَعُ

ولكنه مقـدارَ يومٍ ثـوى به   لكل امرئٍ منـه نهالٌ ومَشْرَعُ

وقـد رأَبَ الله المـلا بمحمـد   وبالأصـل يَنْمى فرعُه المتفـرِّعُ

أغرّ، علـى أسيافه ورماحـه   تُقَسّم أنفالُ الخميس وتُجمَـعُ

حَوَى عن أبيـه بَذْلَ راحتِه النّدَى   وطعنَ الكُلَى والزاعبيّـةُ شرَّعُ

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧/٥٤٩-٢١٥٠)

عصر المأمون



بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦هـ — ١٩٢٧م



فهرس

المجلد الثالث من عصر المأمون

ملحق الكتاب الثالث ـ عصر الأمين والمأمون

باب المنثور : صفحة

رسائل سهل بن هارون :

رسائل عمرو بن مسعدة :

التحاميد :

مُلحَق الكتاب الثالث

باب المنثــور

(ا) نصوص كتب الأمين والمأمون

١ — نص كتاب الأمين الى المأمون، وهو الكتاب الذى أشرنا اليه فى الجزء الأول.

إذا ورد عليك كتابُ أخيك — أعاذه الله من فقدك — عند حلول ما لا مردّ له ولا مَدْفع، مما قد أخلف وتناسخ الأمم الخالية، والقرون الماضية، بما عزّاك اللهُ به. وٱعلم أن الله جلّ ثناؤه، قد ٱختار لأمير المؤمنين أفضلَ الدارين، وأَجْزلَ الحظين، فقبَضه الله طاهرا زاكيا، قد شكَر سعيَه، وغفر ذنبه، إن شاء الله. فقُمْ فى أمرك قيامَ ذى الحزم والعزم، والناظرِ لأخيه ونفسه، وسلطانه وعامة المسلمين. وإيّاك أن يَغلب عليك الجزعُ، فإنه يُحبِط الأجر، ويُعقِب الوزر، وصلوات الله على أمير المؤمنين حيًّا وميّتا. وَإنّا لله وإنّا إليه راجعون. وخُذِ البيعة على مَنْ قِبلَك، من قُوادِك وجُنْدك، وخاصّتك وعامّتك، لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشَّرِيطة التى جعلها لك أميرُ المؤمنين: من نسخها له وإثباتها، فإنك مُقلَّد من ذاك، ما قلَّدك اللهُ وخليفتُه.

واعلِم من قِبلك رأيى فى صلاحهم، وسدّ خَلّتهم، والتوسعة عليهم، فمن أنكرتَه عن بيعته، أو ٱتّهمتَه على طاعته، فابعثْ الىّ برأسه مع خبره. وإياك وإقالتَه، فإنّ النارَ أولى

به . واكتب الى عمال ثغورك، وأمراء أجنادك، بما طرقك من المصيبة بأمير المؤمنين ؛ وأعلمهم أن الله لم يرض الدنيا له ثوابا ، حتى قبضه الى روحه وراحته وجنته ، مغبوطا محمودا، قائدا لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله . ومرهم أن يأخذوا البيعة على أجنادهم، وخواصهم وعوامهم، على مثل ما أمرتك به، من أخذها على من قبلك ؛ وأوعز إليهم فى ضبط ثغورهم، والقوة على عدوهم، إنى متفقد حالاتهم، ولام شعثهم، وموسع عليهم، ولا آن فى تقوية أجنادى وأنصارى . ولتكن كتبك اليهم كتبا عامة لتقرأ عليهم، فإن ذلك ما يسكنهم، ويبسط أملهم . واعمل بما تأمر به لمن حضرك، أو نأى عنك من أجنادك على ب ما ترى ونشاه . فإن أخاك يعرف حسن اختيارك، وصحة رأيك، وبعد نظرك، وهو يستحفظ الله لك، ويسأله أن يشد بك عضده، ويجمع بك أمره، إنه لطيف لما يشاء . وكتب بكر بن المعتمر بين يدى وإملائى فى شوال سنة ١٩٢ هـ

٢ — وهذا كتاب محمد الأمين الى أخيه صالح .

بسم الله الرحمن الرحيم

أذا ورد عليك كتابى هـذا . عند وقوع ما قد سبق فى علم الله، ونفذ من قضائه، فى خلفائه وأوليائه، وجرت به سنته فى الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . فاحمدوا الله على ما صار اليه أمير المؤمنين، من عظيم ثوابه ومرافقة أنبيائه، صلوات الله عليهم، إنا إليه راجعون، وإياه نسأل أن يحسن الخلافة على أمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . وقد كان لهم عصمة وكهفا، وبهم رءوفا رحيما .

فشمر فى أمرك . وإياك أن تلقى بيديك ، فإن أخاك قد اختارك لما استنهضك له . وهو متفقد مواقع فقدانك . فحقق ظنه . ونسأل الله التوفيق . وخذ البيعة على من قبلك ، من ولد أمير المؤمنين . وأهل بيته ومواليه وخاصته وعامته لمحمد أمير المؤمنين ، ثم لعبد الله ابن أمير المؤمنين . ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين ، على الشريطة التى جعلها

أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسخها على القاسم أو إثباتها . فإنّ السعادة واليُمْن فى الأخذ بعهده والمُضِىّ على مناهجه .

وأعلم مَنْ قِبَلَك من الخاصة والعامّة رأيى فى استصلاحهم، وردّ مَظالِمهم ، وتَفقّد حالاتهم ، وأداء أرزاقهم، وأعطياتهم عليهم . فإن شغَب شاغب، أو نَعر ناعِر، فاسْطُ به سَطْوةً تجعله نَكَالا لما بين يدَيْها وما خلْفها ومَوْعظةً للمتقين . وآضْمُم إلى الميمون ابن الميمون الفَضْلِ بن الربيع ولدَ أمير المؤمنين وخدَمه وأهله ، ومُرْه بالمسير معهم فيمن معه ، وجنده ورابطته ؛ وصَيِّر الى عبد الله بن مالك أمرَ العسكر وأحداثه ؛ فإنّه ثِقةٌ على ما يلى، مقبولٌ عند العامّة، وآضْمُم إليه جميع جند الشُّرَط، من الروابط وغيرهم، الى مَنْ معه من جنده، ومُرْه بالجدّ والتيقّظ، وتقديم الحزم فى أمره كلّه، ليلَه ونهارَه . فإنّ أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يَغْتَنِمون مثلَ حلول هذه المصيبة؛ وأقِر حاتم بن هرثمة على ما هو عليه ، ومره بحراسة ما يحفظ به قصور امير المؤمنين ؛ فإنّه ممن لا يُعْرَف إلّا بالطاعة ، ولا يَدين إلا بها ، بمعاقد من الله ، مما قدّم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء، ومُر الخدم بإحضار روابطهم، مَنْ يُسَدّ بهم وبأجنادهم مواضعُ الخلل من عسكرك؛ فإنّهم حدٌّ من حدودك، وصيّر مُقَدّمتك الى أسَد بن يزيد بن مَزْيد، وساقَتك الى يحيى بن مُعاذ، فيمن معه من الجنود ، ومرهما بمناوبتك فى كل ليلة .

وآلزم الطريقَ الأعظم، ولا تَعْدُوَنّ المراحل، فإنّ ذلك أرفق بك، ومر أسد بن يزيد، أن يتخيّر رجلا من أهل بيته أو قوّاده، فيَصيرَ الى مقدّمته، ثم يصير أمامه، لتهيئة المنازل، أو بعض الطريق؛ فإن لم يَحْضُرْك فى عسكرك بعضُ مَنْ سميتُ، فاخترْ لمواضعهم مَنْ تثق بطاعته، ونصيحته وهيبته، عند العوامّ؛ فإنّ ذلك لن يعْوِزَك، من قوادك وأنصارك؛ إن شاء الله .

وإيّاك أن تُنفِذَ رأيا، أو تُبْرِم أمرا ، إلّا برأى شيخك ، وبقية آبائك ، الفضل بن الربيع، وأقِرر جميع الخدم على ما فى أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك،

ولا تُخرِجَنّ أحدا منهم، مِن ضمن ما يلي، الى أن تقدم عليّ . وقد أوصيت بكر بن المُعْتَمِر بما سَيُبلّغكم، واعْمَلْ فى ذلك بقــدر ما تشاهد وترى . وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو رزق فليكن الفضــل بن الربيع المتولى لإعطائهم، على دواوينَ يتّخذها لنفسه، بِحَضْرِ مِن أصحاب الدواوين ؛ فإن الفضل بن الربيع لم يزَل مثلَ ذلك لمهمات الأمور . وأنفِذْ إليّ عند وصول كتابى هــذا إليك إسماعيــلَ بن صَبيح ، وبكرَ بن المُعْتَمِر، على مَرْكَبَيْهما من البريد، ولا يكون لك عُرْجَة ولا مُهْلة، بموضــعك الذى أنت فيــه، حتى تُوَجّه الىّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله . أخوك يَسْتدفع الله عنك، ويسألُه لك حسن التأييد برحمته . وكتب بكر بن المُعْتَمر بين يدىّ وإملائى فى شوّال سنة ١٩٢ هـ .

(ب) القول بخلق القرآن

وهاك مثلًا مما كتبه المأمون إلى وُلاته فى الأخذ بمذهبه فى القول بخلق القرآن، وهو ما أرسله إلى عامله إسحاق بن إبراهيم وما يَرويه لنا الطبرى مما حصل .

أما الكتاب فهو :

أما بعد، فإنّ حقّ الله على أئمة المسلمين وخُلفائهم الاجتهادُ فى إقامة دين الله الذى استحفظهم، ومواريث النبوّة التى أورثَهم، وأثرِ العلم الذى استودعَهم، والعمل بالحق فى رعيتهم، والتشمير لطاعة الله فيهم، والله يسأل أميرُ المؤمنين، أنْ يوفّقه لعزيمة الرُّشد وصريمته، والإقساط فيما ولّاه الله من رعيّته، برحمته ومنّته؛ وقد عرَف أمير المؤمنين أنّ الجُمهور الأعظم، والسوادَ الأكبر، من حشو الرعيّة، وسِفْلَة العامّة، ممن لا نظر له ولا رويّة، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، فى جميع الأقطار والآفاق، أهلُ جهالة بالله وعَمًى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتو[حيده] والإيمان به، ونُكوبٍ عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصورٍ أن يقدُروا الله حقّ قَدْره، ويعرفوه كُنْهَ معرفته، ويفرّقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكر والتذكّر، وذلك أنّهم ساوَوْا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين، واتّفقوا غير متعاجمين، على أنّه قديمٌ أوّل، لم يخلقه الله ويُحدثه ويَخْترعه، وقد قال الله عز وجل فى مُحْكَم كتابه، الذى جعله لما فى الصدور شفاءً، وللمؤمنين رحمةً وهدى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ . فكلّ ما جعله الله فقد خلقه، وقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ . وقال عز وجل : ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ . فأخبر أنه قصصٌ لأمور أحدثه بعدها، وتلا به مُتقدِّمها، وقال : ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ . وكلّ مُحْكَم مُفصَّل، فله مُحكِمٌ مُفصِّل، والله مُحْكِم كتابه ومفصّله، فهو خالقُه ومُبتَدِعه ،

ثم هم الذين جادلوا بالباطل، فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنّة، وفى كلّ فصل من كتاب الله قصصٌ من تلاوته، مُبطل قولهم، ومكذّب دعواهم، يردّ عليهم قولهم ونِحلتهم، ثم أظهروا مع ذلك أنّهم أهل الحق والدين والجماعة، وأنّ مَنْ سواهم أهلُ الباطل والكفر والفُرقة؛ فاستطالوا بذلك على الناس، وغرّوا به الجُهّال، حتى مال قومٌ من أهل السَّمت الكاذب، والتخشّع لغير الله، والتقشّف لغير الدين الى مُوافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيّئ آرائهم، تزيّنًا بذلك عندهم، وتصنّعًا للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحقّ إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم، فقَبِلَتْ بتزكيتهم لهم شهادتُهم، ونفذت أحكام الكتاب بهم، على دَغَل دينهم، ونَغَل أديمهم، وفساد نيّاتهم ويقينهم؛ وكان ذلك غايتهم التى اليها جَرَوْا، وإيّاها طلبوا فى متابعتهم، والكذبِ على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ألّا يقولوا على الله إلّا الحقّ، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمّهم الله، وأعمى أبصارَهم، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ . فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة، ورءوس الضلالة، المَنقوصون من التوحيد حظًا، والمخسوسون من الإيمان نصيبًا، وأوعية الجَهالة وأعلام الكذب، ولسان إبليسَ الناطق فى أوليائه، والهائل على أعدائه، من أهل دين الله، وأحقّ مَن يُتّهَمُ فى صدقه، وتُطْرح شهادتُه، ولا يوثّق بقوله ولا عمله، فإنّه لا عمَلَ إلّا بعد يقينٍ، ولا يقينَ إلّا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص التوحيد؛ ومَنْ عمِي عن رشده وحظّه، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده، كان عمّا سوى ذلك من عمله، والقَصْد فى شهادته، أعمَى وأضلّ سبيلا؛ ولعَمْر أمير المؤمنين أنّ أحجَى الناس بالكذب فى قوله، وتخرّص الباطل فى شهادته مَنْ كذَب على ووحيه، ولم يَعرِف الله حقيقةَ معرفته، وأنّ أولاهم بردّ شهادته، فى حكم الله ودينه مَن رد شهادة الله على كتابه، وبهت حق الله بباطله، فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرا عليهم كتابَ أمير المؤمنين هذا إليك، فابْدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون، فى خلق الله القرآن وإحداثِه، وأعْلِمهم أنّ أمير المؤمنين غيرُ مستعين فى عمله، ولا واثقٍ

فيما قلّده الله، وٱستحفظه من أمور رَعيّتــه بمَن لا يوثق بدينه، وخُلوص نيّته.
فإذا أقرّوا بذلك، ووافقوا أميرَ المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمُرْهم بنصّ مَن يَحضُرهم من الشهود على الناس، ومَسْألتهم عن عِلْمهم فى القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يُقرّ أنّه مخلوق مُحْدَث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده؛ وٱكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك، عن قُضاة أهل عَملك فى مسألتهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أَشرِف عليهــم، وتفقّدْ آثارهم، حتّى لا تُنْفَــذَ أحكامُ الله، إلّا بشهادة أهل البصائر فى الدين، والإخلاص للتوحيد؛ وٱكتب إلى أمير المؤمنين بمــا يكون فى ذلك إن شاء الله . وكتب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ .

وكتب المأمون، الى إسحاق بن ابراهيم، فى إشخاص سبعة نفَر، منهم : محمد بن سعد كاتب الواقدىّ، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون، ويحيى بن مُعين، وزُهــير بن حَرْب أبو خَيْثمَةَ، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبى مسعود، وأحمــد بن الدَّوْرَقِىّ . فأُشخِصوا اليــه، فامتحنهم . وسألهم عن خلق القرآن . فأجابوا جميعا أنّ القرآن مخلوق، فأشخصهم إلى مدينــة السلام . وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم دارَه . فشهَّر أمرهم وقولَهم بحضرة الفقهاء، والمشايخ من أهل الحديث، فأقرّوا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلّى سبيلهم، وكان ما فعَلَ إسحاق بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن ابراهيم :

أما بعد، فإن من حقّ الله على خُلفائه فى أرضه، وأُمنائه على عباده، الذين ٱرتضاهم لإقامة دينه، وحمّلهم رِعايةَ خلقه، وإمضاءَ حُكْمه وسُنَنه، والأئتمــام بعدله فى بريّته، أن يَجْهَدوا لله أنفسَهم، ويَنْصَحوا له فيما ٱستحفظهم وقلدهم، ويَدُلّوا عليــه — تبارك ٱسمُهُ وتعالى — بفضــل العلم الذى أودعهم، والمعرفةِ التى جعلها فيهــم، ويَهْدوا إليه مَن زاغ عنــه، ويردوا مَن أدبَرَ عن أمره، ويَنْهجوا لرعاياهم سَمْتَ نجاتهم، ويَقِفوهم على حدود إيمــانهم، وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويَكْشفوا لهم عن مُغَطَّيات أمورهم، ومشتبِهاتها

عليهم، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعودُ بالضياء والبينة على كافتهم؛ وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم، إذ كان جامعا لفنون مصانعهم، ومنتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم، ويتذكروا أنّ الله مُرْصِدٌ من مساءلتهم عمّا حُمّلوه، ومجازاتهم بما أسلفوه، وقدّموا عنده؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين ، إلا بالله وحده ، وحسبه الله وكفى به . وممّا بيّنه أمير المؤمنين بَروِيّته ، وطالعه بفكره، فتبيّن عظيمَ خطره، وجليلَ مايرجع فى الدين من وَكْفه وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله إماما لهم ، وأثرًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم باقيا لهم، وآشتباهه على كثير منهم، حتّى حسُن عندهم، وتزيّن فى عقولهم، ألّا يكون مخلوقا، فتعرّضوا بذلك لدفع خلق الله، الذى بان به عن خلقه، وتفرد بجلالته من آبتداع الأشياء كلّها بحكمته، وإنشائها بقدرته، والتقدّم عليها بأوّليته، التى لا يُبْلَغ أولاها، ولا يدرك مداها، وكان كلّ شيء دونَه، خلقا من خلقه، وحدَثا هو المُحدِث له، وإن كان القرآن ناطقا به، ودالا عليه، وقاطعا للآختلاف فيه، وضاهَوْا به قول النصارى، فى آدّعائهم فى عيسى بن مريم أنّه ليس بمخلوق، إذ كان كلمةَ الله، والله عز وجل يقول : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ . وتأويل ذلك : إنا خلقناه، كما قال جل جلاله : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ . وقال : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ . ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ . فسوى عز وجل، بين القرآن ، وبين هذه الخلائق ، التى ذكرها فى شِيَة الصنعة ، وأخبر أنّه جاعلُه وحدَه ، فقال : ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ . فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يُحاط إلّا بمخلوق، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ . وقال : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ . وقال : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾. وأخبر عن قوم ذمّهم بكذبهم، أنهم قالوا : ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ . ثم أكذبهم على لسان رسوله ، فقال لرسوله : ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ . فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذِكرًا، وإيمانًا ونورا وهدًى ومباركا وعربيّا

وقصصا، فقال : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ . وقال : ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ . وقال : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ . وقال : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ . بجعل له أوّلا وآخرا، ودلّ عليه، أنّه محدودٌ مخلوق، وقد عظّم هؤلاء الجهلةُ بقولهم فى القرآن، الثلم فى دينهم، والحَرَج فى أمانتهم، وسهّلوا السبيل لعدو الإسلام، وأعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرّفوا، ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التى هى لله وحدَه وشبّهوه به، والإشباه أولى بخلقه. وليس يرى أميرُ المؤمنين، لمن قال بهذه المقالة حظًّا فى الدين، ولا نصيبًا من الإيمان واليقين. ولا يرى أنْ يُحِلّ أحدا منهم محلّ الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة، ولا صِدْقٍ فى قول ولا حكاية، ولا تولية لشىء من أمر الرعية، وإن ظهرَ قصد بعضهم، وعُرِف بالسداد مُسَدّدٌ فيهم، فإنّ الفروع مردودة الى أصولها، ومحمولةٌ فى الحمد والذم عليها. ومَن كان جاهلا بأمر دينه، الذى أمره الله به، مِن وحدانيته، فهو بما سواه أعظم جَهلا، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضى كتابَ أمير المؤمنين، بما كتب به إليك ، وانصصهما عن عِلمهما فى القرآن، وأعلمْهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شىءٍ من أمور المسلمين، إلّا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنّه لا توحيد لمن لم يُقِرّ بأن القرآن مخلوق، فإنْ قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك فتقدّم اليهما فى آمتحان مَن يحضُر مجالسهما، بالشهادات على الحقوق ، ونصّهم عن قولهم فى القرآن، فَمن لم يقل منهم إنّه مخلوق، أبطَلا شهادته، ولم يقطعا حكمًا بقوله، وان ثبت عفافُه بالقصد والسداد فى أمره، وآفعل ذلك بمن فى سائر عملك من القضاة، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة فى بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه، وآكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله .

ثم لننظر ما حصل بعد ذلك مما يرويه لنا الطبرى قال :

فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين، وأحضر أبا حسان الزيادى، وبشر بن الوليد الكندى، وعلى بن أبى مقاتل، والفضل بن غانم، والذيال بن الهيثم، وسجادة، والقواريرى، وأحمد بن حنبل، وقتيبة، وسعدويه الواسطى، وعلى بن الجعد، وإسحاق بن أبى إسرائيل، وابن الهرش، وابن علية الأكبر، ويحيى ابن عبد الرحمن العمرى، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب، كان قاضى الرقة وأبا نصر التمار وأبا معمر القطيعى، ومحمد بن حاتم بن ميمون، ومحمد بن نوح المضروب، وابن الفرخان، وجماعة منهم النضر بن شميل، وابن على بن عاصم، وأبو العوام البزاز، وابن شجاع، وعبدالرحمن بن إسحاق. فأدخلوا جميعا على إسحاق، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين، حتى فهموه، ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول فى القرآن؟ فقال : قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة، قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى، فقال: أقول القرآن كلام الله، قال : لم أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟ قال : الله خالق كل شىء، قال : ما القرآن شىء؟ قال : هو شىء، قال : فمخلوق؟ قال : ليس بخالق، قال : ليس أسألك عن هذا، أمخلوق هو ؟ قال : ما أحسن غير ما قلت لك ، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه؛ وليس عندى غير ما قلت لك ، فأخذ إسحاق بن ابراهيم رقعة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا لم يكن قبله شىء. ولا بعده شىء . ولا يشبهه شىء من خلقه، فى معنى من المعانى، ولا وجه من الوجوه، قال : نعم. وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ؛ فقال للكاتب : اكتب ما قال .

ثم قال لعلى بن أبى مقاتل : ما تقول يا على؟ قال : قد سمعت كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غير مرة ، وما عندى غير ما سمع . فامتحنه بالرقعة، فأقر بما فيها . ثم قال : القرآن مخلوق ؟ قال : القرآن كلام الله . قال : لم أسألك عن هذا . قال : هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشىء سمعنا وأطعنا . فقال للكاتب : اكتب مقالته

ثم قال للذيّال نحوا من مقالته لعلىّ بن أبى مُقاتل ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبى حسّان الزِّيادىّ : ما عنـدك؟ قال : سَلْ عمـا شئت ، فقرأ عليه الرُّقعة، ووقّفه عليها فأقر بما فيها، ثم قال : من لم يقل هـذا القولَ فهو كافر، فقال : القرآن مخلوق هو؟ قال : القرآن كلام الله والله خالقُ كلّ شىء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامُنا وبسببه سِمعنا عامةَ العلم، وقد سِمع ما لم نسمع، وعلِم ما لم نعلم، وقد قلّده الله أمرنا، فصار يُقيم حجّنا وصلاتنا، ونؤدّى اليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معـه، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا ائتمـرنا ، وإن نهانا انتهينا، وإن دعانا أجبنا، قال : القرآن مخلوق هو؟ فأعاد عليه أبو حسّان مقالته، قال : إن هذه مقالةُ أمير المؤمنين، قال : قد تكون مقالةَ أمير المؤمنين ولا يأمُر بهـا الناس ، ولا يدعوهم اليها ، وإن أخبرتنى أنّ أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلتُ ما أمرتنى به، فإنك الثقة، المأمون عليه، فيما أبلغتنى عنه من شىء ، فإن أبلغتنى عنه بشىء صِرتُ اليه، قال : ما أمرنى أن أبلّغك شيئا، قال على بن أبى مقاتل: قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسـلم فى الفرائض والمواريث، ولم يحملوا الناس عليها؛ قال له أبو حسّان: ماعندى إلا السمعُ والطاعة، فمرنى آتمر، قال: ما أمرنى أن آمرك، وإنمـا أمرنى أن أمتحنك .

ثم عاد الى أحمد بن حنبل، فقال له : ما تقول فى القرآن؟ قال : هو كلام الله، قال : أمخـلوق هو؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليهـا ، فامتحنه بمـا فى الرقعة، فلما أتى الى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وأمسك عن لا يُشبهه شىءٌ من خلقه، فى معنى من المعانى، ولا وجه من الوجوه؛ فاعترض عليه ابن البكّاء الأصغر، فقال ـــ أصلحك الله ـــ : إنه يقول: سميع مِن أذنٍ، بصير من عَيْنٍ، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى قوله سميع بصير؟ قال: هو كما وصف نفسه، قال : فما معناه؟ قال: لا أدرى هو كما وصف نفسه؛ ثم دعا بهـم رجلًا رجلًا كلّهم يقول : القرآن كلام الله، إلّا هؤلاء النفر : قتيبة، وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن عُلَيّة الأكبر، وابن البكّاء، وعبـد المنعم بن إدريس

ابن بنت وَهْب بن مُنبّه، والمُظَفَّر ابن مُرَجًّا ، ورجلا ضريرا ليس من أهل الفِقْه ، ولا يُعَرف بشيء منه إلّا أنّه دُسّ فى ذلك الموضع ، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضى الرقة ، وابنَ الأحمر ، فأما ابن البَكاء الأكبر فإنه قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ، والقرآن مُحْدَثٌ لقوله : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ قال له إسحاق : فالمجعول مخلوق؟ قال : نعم ، قال : فالقرآن مخلوق؟ قال : لا أقول مخلوق ولكنّه مجعول ، فكتب مقالته ، فلما فرغ من آمتحان القوم وكتب مقالاتهم آعترض ابن البَكاء الأصغر فقال — أصلحك الله — : إن هذين القاضيين أئمة ، فلو أمرتَهما فأعادا الكلام ! قال له إسحاق : هما مَن يقوم بحجة أمير المؤمنين ، قال : فلو أمرتهما أن يُسمِعانا مقالتهما لِنَحْكِي ذلك عنهما ! قال له إسحاق : إن شهِدتَ عندهما بشَهادة فستعلم مقالتهما إن شاء الله ، فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ووُجِّهت الى المأمون ، فمكث القوم تسعة أيّام ثم دعا بهم . وقد ورد كتاب المأمون ، جوابُ كتاب إسحاق بن إبراهيم فى أمرهم . وهاك هو مانجعله ختاما لكلمتنا .

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك جوابَ كتابه ، كان اليك فيما ذهب إليه مُتَصَنِّعة أهل القبلة ، ومُلتَمِسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة ، من القول فى القرآن ، وأمرك به أميرُ المؤمنين ، من آمتحانهم ، وتكشيف أحوالهم ، وإحلالهم محالّهم ، تذكر إحضارَك جعفرَ بنَ عيسى ، وعبدَ الرحمن بن إسحاق ، عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع من أحضرت ممن كان ينسب الى الفِقْه ، ويُعرَف بالجلوس للحديث ، ويَنصِب نفسَه للفُتْيا بمدينة السلام ، وقراءتك عليهم جميعا كتابَ أمير المؤمنين ، ومسألتَك إياهم عن آعتقادهم فى القرآن ، والدَّلالة لهم على حظهم ، وإطباقهم على نفى التشبيه ، وآختلافهم فى القرآن ، وأمرَك مَن لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى ، فى السرّ والعلانية ، وتقدُّمَك الى السِّنْدىّ ، وعبّاس مولى أمير المؤمنين بما

تقدمتَ به فيهم الى القاضيَيْن بمثل ما مثّل لك أميرُ المؤمنين، من امتحان مَنْ يحضُر مجالسهما من الشهود ، وبثّ الكتب الى القضاة فى النواحى من عملك بالقدوم عليك، لتحملهم وتمتحنهم على ما حده أميرُ المؤمنين، وتثبيتك فى آخر الكتاب أسماءَ مَنْ حضر ومقالاتهم ؛ وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت، وأميرُ المؤمنين يحمد الله كثيرا كما هو أهلُه ، ويسأله أن يصلّى على عبده ورسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم، ويرغب الى الله فى التوفيق لطاعته، وحسن المَعُونة، على صالح نيّته برحمته .

وقد تدبّر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألتَ عن القرآن ، وما رجع اليك فيه كل امرئ منهم ، وما شرحتَ من مقالتهم. فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد فى نفى التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق ، وادّعى من تركه الكلامَ فى ذلك واستعهاده أميرَ المؤمنين ، فقد كذب بشر فى ذلك وكفر ، وقال الزور والمنكر، ولم يكن جَرَى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ، ولا فى غيره، عَهْدٌ ولا نظر أكثر من إخباره أميرَ المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقولَ بأن القرآن مخلوق ، فادعُ به إليك ، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وانصصه عن قوله فى القرآن، واستَتِبْه منه؛ فإن أمير المؤمنين يرى أن تستَتِيب مَن قال بمقالته إذ كانت تلك المقالة الكفرَ الصُّراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين؛ فإن تاب منها فأشهر أمره ، وأمسك عنه ، وإن أصرّ على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده ، فاضرب عنقه ، وابعث الى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله، وكذلك إبراهيم بن المهدىّ فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا ، فإنه كان يقول بقوله ، وقد بلغتْ أميرَ المؤمنين عنه بوالغُ، فإن قال إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره واكشفه ، وإلا فاضرب عنقه ، وابعث الى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وأما علىّ بن أبى مُقاتل فقل له : ألستَ القائلَ لأمير المؤمنين إنك تحلّل وتحرّم والمكلّم له بمثل ما كلّمته به، مما لم يذهب عنه ذكره، وأما الذيّال بن الهيثم، فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الأنبار ، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين

أبى العباس ما يشغَله، وأنّه لو كان مقتفيا آثارَ سَلَفه، وسالكا مناهجَهم، ومُحْتذيا سبيلَهم، لمـا خرج إلى الشرك بعد إيمـانه؛ وأمّا أحمد بن يزيد المعروف بأبى العَـوّام، وقوله إنّه لا يُحْسِن الجواب فى القرآن، فأعلمه أنه صبىٌّ فى عقله، لا فى سنه، جاهل، وأنّه إن كان لا يُحْسِن الجواب فى القرآن فسَيُحْسِـنه، اذا أخذه التأديبُ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء اللهُ .

وأمّا أحمد بن حنبل، وما تكتب عنه، فأعلمْه أنّ أمير المؤمنين قد عرَف فَحْوى تلك المقالة، وسبيلَه فيها، وآستدلّ على جهله، وآفته بها؛ وأما الفضـل بن غانم، فأعلمْه أنّه لم يَخْفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر، وما آكتسب من الأموال فى أقلّ من سنة، وما شَجَر بينه وبين المُطَّلب بن عبد الله فى ذلك، فإنّه مَن كان شأنُه شأنَه، وكانت رغبتُه فى الدينار والدرهم رغبتَه، فليس بمُسْتَنْكَر أنْ يبيع إيمـانَه طمعا فيهما، وإيثارا لعاجل نفعهما. وإنّه مع ذلك القائلُ لعلىّ بن هشام ما قال، والمخالِفُ له فيما خالفه فيه، فما الذى حال به عن ذلك، ونقـله الى غيره؛ وأمّا الزِّيادىّ، فأعلمـه أنّه كان مُنْتَحِلا لأوّلِ دعىٍّ كان فى الإسلام خُولِف فيه حكمُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وكان جديرا أن يسلُك مسلكه. فأنكر أبو حسّان أن يكون مولًى لزياد، أو يكونَ مولًى لأحد من الناس، — وذُكر أنّه إنّما نُسِب الى زياد لأمر من الأمور — وأمّا المعروف بأبى نصر التمّار، فإن أمير المؤمنين شبّه خساسةَ عقـله بخساسة مَتْجَره؛ وأمّا الفضـل بن الفَرُّخان، فأعلمْه أنّه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذَ الودائع التى أودعها إيّاه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره، تربّصا بمن آستودعه. وطمعا فى الاستكثار لمـا صار فى يدهْ، ولا سبيل عليه عن تقادُم عهده، وتطاول الأيام به. فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا، وائتمانك إيّاه، وهو معتقِدٌ للشرك، منسلخ من التوحيد .

وأمّا محمد بن حاتم، وابن نوح، والمعروف بأبى مَعْمَر، فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا، عن الوقوف على التوحيد، وأنّ أمير المؤمنين لو لم يستحلّ محاربتَهم فى الله ومجاهدتَهم،

إلا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم، لأستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا، وصاروا للنصارى مثلا، وأما أحمد بن شجاع، فأعلمه أنك صاحبُه بالأمس، والمستخرج منه ما آستخرجته من المال الذى كان آستحله من مال علىّ بن هشام، وأنه ممن الدينارُ والدرهم دينُه، وأما سَعْدَوَيْه الواسطىّ فقل له : قبّح الله رجلا بلغ به التصنّع للحديث، والتزين به، والحرصُ على طلب الرياسة فيه، أنْ يتمنّى وقت المحنة فيقولَ بالتقرب بها : متى يُمتحنُ فيجلسُ للحديث؛ وأما المعروف بسَجَّادة، وإنكارُه أن يكون سمِع ممن كان يجالس من أهل الحديث، وأهل الفقه، القولَ بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه فى شغله بإعداد النوى، وحكّه لإصلاح سَجّادته، وبالودائع التى دفعها إليه على بن يحيى وغيرُه ما أذهله عن التوحيد وألهاه، ثم سَلْه عما كان يوسف بن أبى يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما؛ وأما القواريرىّ ففيما تكشّف من أحواله، وقبولِه الرُّشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه، وسوء طريقته، وسخافة عقله ودينه، وقد آنتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولّى لجعفر بن عيسى الحسَنىّ مسائله، فتقدَّمْ إلى جعفر بن عيسى فى رفضه، وترك الثقة به، والآستنامة إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العُمَرىّ، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب فجوابه معروف، وأما محمد بن الحسن بن على بن عاصم فإنه لو كان مقتديا بمن مضى من سلفه لم ينتحل النِّحلة التى حَكَيْتَ عنه، وإنه بعدُ صبىّ يحتاج الى تعلّم، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبى مُسْهِر، بعد أن نصّه أميرُ المؤمنين عن مِحنته فى القرآن، فجَمْجَم عنها، وتلجلج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقرّ ذميما، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيما عليه فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله، ومَن لم يرجع عن شركه ممن سمّيتَ لأمير المؤمنين فى كتابك، وذكَره أميرُ المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدى، فآحملهم أجمعين، موثّقين

الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهـم فى طريقهم، حتى يؤديهم الى عسكر أمير المؤمنين، ويُسلّمهم الى من يُؤمَر بتسليمهم اليه ، لينُصّهم أميرُ المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلّا بالله؛ وقد أنفـذ أمير المؤمنين كتابَه هـذا فى خريطة بُنْدارِيّة، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية مُعجّلا به، تقربا الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما اعتمد، وإدراك ما أمل، من جزيل ثواب الله عليه، فأنفِذْ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين، وعجّل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بُنْدارِيّة مفردةٍ عن سائر الخرائط، لتعرّف أميرَ المؤمنين مايعملونه إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ ﻫ .

(ج) عَهْد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور : ولما عَهِد طاهرُ بن الحسين الى عبدالله ابنه هذا العهدَ، تنازعه الناسُ وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره حتى بلغ المأمونَ، فدعا به وقرئ عليه، وقال: ما أبقى أبو الطيب شيئا من الدين والدنيا، والتدبير والرأى، وإصلاح المُلك والرعية، وحفظ البَيْعة، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه، وأوصى به، وتقدم فيه . وأمر أن يُكتبَ بذلك الى جميع العمال فى نواحى الأعمال . ولما كان هذا العهدُ من الوثائق التاريخية التى لها قيمتُها العلميةُ والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره على ما فيه من طول رغبة منّا فى ألا يخلو كتابُنا من هذا الأثر العظيم القيمةِ والخطرِ، وهاكه :

«عليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته ومراقبته ومزايلة سَخَطه ؛ وحفظ رعيّتك، والزَم ما ألبسك الله فى العافية بالذكر لمَعَادك، وما أنت صائر إليه، وموقوف عليه، ومسئول عنه ، والعمل فى ذلك كله بما يَعصمك الله ويُنجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه، فإن الله قد أحسن اليك، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده . وألزمك العدلَ عليهم ، والقيامَ بحقه وحدوده فيهم، والذبّ عنهم . والدفعَ عن حريمهم وبيضتهم، والحقنَ لدمائهم . والأمنَ لسبيلهم ، وإدخالَ الراحة عليهم فى معايشهم . ومُؤاخذُك بما فرض عليك من ذلك، وموقفُكَ عليه، ومُسَائِلُكَ عنه، ومثيبك عليه بما قدّمت وأخّرت، ففرّغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويّتك . ولا يُذهلكَ عنه ذهلٌ ، ولا يَشغَلُكَ عنه شغل ، فإنه رأس أمرك وملاكُ شأنك، وأول ما يوفقك الله به لرشدك، وليكن أوّل ما تُلزم به نفسك وتُنسبَ إليه فعالَكَ ، المواظبةُ على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس قِبَلك فى مواقيتها على سننها فى إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله فيها، وترتل فى قراءتك، وتمكّن فى ركوعك وسجودك وتشهدك، ولتصدق فيها لربك نيّتك ، واحضض عليها جماعة مَن معك وتحت يدك ، وادأب عليها فإنها كما

قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ثم أتبع ذلك الأخذَ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمثابرة على خلائقه، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه، ولزوم ما أنزل الله فى كتابه، من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وائتمام ماجاءت به الآثار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم قُم فيه بما يَحِق لله عليك، ولا تمِل عن العدل فيما أحببت أو كرِهت، لقريب من الناس أو بعيد، وآثِر الفقهَ وأهله، والدين وحَمَلَتَه وكتاب الله والعاملين به ، فان أفضلَ ما تزيّنَ به المرء الفقهُ فى دين الله، والطلب له والحثّ عليه ، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله ، فإنه الدليلُ على الخير كله، والقائد له ، والآمر به ، والناهى عن المعاصى والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العبادُ معرفةً بالله، عز وجل ، وإجلالا له ودَرْكا للدرجات العلى فى المعاد، مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك، والأَنَسَة بك والثقة بعدلك . وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلّها فليس شيء أبينَ نفعا ولا أحضرَ أمنا ولا أجمعَ فضلا من القصد ، والقصد داعيةٌ الى الرشد، والرشدُ دليلٌ على التوفيق، والتوفيق منقادٌ الى السعادة، وقِوامُ الدين والسنن الهادية بالاقتصاد ، فآثره فى دنياك كلها، ولا تُقصّر فى طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ومَعَالم الرشد ، فلا غاية للاستكثار من البر والسعى له ، اذا كان يُطلَبُ به وجهُ الله ومرضاته، ومرافقة أوليائه، فى دار كرامته .

واعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ، ويحصّن من الذنوب وأنك لن تحوط نفسك ومن يليك ، ولا تستصلحُ أمورك، بأفضلَ منه ، فأته ، واهتدِ به تتم أمورك، وتَزِد مقدرتك ، وتصلح خاصّتك وعامّتك ، وأحسِن الظنّ بالله عز وجل، تستقم لك رعيّتُك، والتمس الوسيلةَ اليه فى الأمور كلها، تَسْتدم به النعمةَ عليك، ولا تُهِضْ أحدا من الناس، فيما توليّه من عملك ، قبل تَكَشُّف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثمٌ، واجعل من شأنك ،حسنَ الظن بأصحابك، واطرد عنك سوءَ الظن بهم، وارفُضه عنهم ، يُعِنكَ ذلك على اصطناعهم ورِياضتهم ، ولا يجدنّ عدوُّ الله الشيطانُ فى أمرك مغمزًا،

فإنه انما يكتفى بالقليل من وَهْنِكَ فيدخِلُ عليك من الغم، فى سوء الظن ، ما يُنغّص عليك لذاذةَ عيشك، وآعلم أنك تجد بحسن الظن، قوةً وراحةً، وتَكْفَى به ما أحببتَ كِفايته من أمورك، وتدعو به الناسَ الى محبّتك، والاستقامة فى الأمور كلها لك. ولا يمنعك حسنُ الظن بأصحابك، والرأفة برعيّتك، أن تستعمِلَ المسئلة والبحثَ عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء، والحياطة للرعية، والنظر فيما يُقيمها ويُصلحها، بل لِتكُنِ المباشرةُ لأمور الأولياء، والحياطةُ للرعية، والنظرُ فى حوائجهم، وحمل مؤوناتهم، آثَرَ عندك مما سوى ذلك. فإنه أقومُ للدين، وأحيا للسنة، وأخلِص نيّتكَ فى جميع هذا، وتفرّد بتقويم نفسك، تفرّدَ من يعلم أنه مسئولٌ عما صنع، ومجزيٌّ بما أحسن، فإن الله جعل الدينَ حِرزًا وعزًّا، ورفع من آتبعه وعزّزه، فاسلُك بمن تسوسه وترعاه، نهج الدين، وطريقةَ الهدى، وأقِمْ حدودَ الله فى أصحاب الجرائم على قدر مَنَازلهم، وما آستحقوه، ولا تُعطّل ذلك ولا تَهاون به، ولا تؤخّر عقوبةَ أهل العقوبة، فإن فى تفريطك فى ذلك ، لما يُفسِدُ عليك حسنَ ظنك، واعزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة، وجانِب الشُّبَهَ والبدعات، يسلَمْ لك دينُك، وتَقُمْ لك مروءتك، وإذا عاهدت عهدا فَفِ به، وإذا وعدتَ الخيرَ فأنجِزه، وآقبل الحسنةَ، وآدفع بها، وأغمِضْ عن عيب كل ذى عيب من رعيتك، وآشدُدْ لسانَكَ عن قول الكذب والزور، وأبغِض أهله ، وأقصِ أهلَ النميمة، فإن أول فساد أمرك فى عاجل الأمور وآجلها، تقريبُ الكذوب، والجرأة على الكذب، لأن الكذبَ رأسُ المآثم، والزور والنميمةَ خاتمتُها، لأن النميمةَ لا يسلَمُ صاحبُها، وقائلُها لا يسلم له صاحبٌ ولا يستقيم لمطيعه أمرٌ ، وأحِبَّ أهلَ الصدق والصلاح، وأعن الأشرافَ بالحق، وواصل الضعفاءَ، وصِلِ الرَّحمَ ، وآبتغ بذلك وجهَ الله، وعزة أمره، وآلتمس فيه ثوابه والدارَ الآخرة . وآجتنب سوءَ الأهواء والجورَ، وآصرِفْ عنهما رأيَكَ ، وأظهِر من ذلك لرعيتك، وأنعِمْ بالعدل سياستَهم، وقم بالحق فيهم، وبالمعرفة التى تنتهى بك الى سبيل الهدى، وآملِكْ نفسَكَ عند الغضب، وآثِرِ الوقارَ والحلمَ، وإياك والحِدّةَ والطيش والغرور فيما أنت بسبيله، وإياك أن

تقول : إنى مُسَلَّطٌ أفعل ما أشاء فان ذلك سريعٌ فيك إلى نقص الرأى، وقلة اليقين بالله وحده لاشريك له ، وأخلِصْ لله وحده النية فيه، واليقين به ،وآعلم أن الملكَ لله، يعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء ولن تجدَ تغيرَ النعمة ، وحلولَ النقمة، الى أحدٍ أسرعَ منه ،الى حَمَلة النعمة، من أصحاب السلطان،والمبسوطِ لهم فى الدولة، اذا كفروا بنعم الله وإحسانه وآستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدّخر وتكنِز، البرَّ والتقوى ، والمعدلةَ ، وآستصلاحَ الرعية وعمارةَ بلادهم، والتفقدَ لأمورهم ، والحفظَ لدمائهم، والإغاثة لملهوفهم، وآعلم أن الأموال اذا كثُرت وذُخرت فى الخزائن، لا تثمر، وإذا كانت فى إصلاح الرعية، وإعطاء حقوقهم، وكفِّ المؤونة عنهم، نمت وربَت، وصلَحت به العامّة، وتزيّنت به الولاة، وطاب به الزمان ،وآعتُقد فيه العزّ والمنفعة، فليكن كنْزُ خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله، ووفّر منه على أولياء أمير المؤمنين قِبلَك حقوقَهم، وأوفِ رعيّتك من ذلك حِصَصهم ، وتعهّد بما يصلح أمورَهم ومعايشهم، فإنك اذا فعلتَ ذلك قرّت النعمة عليك ، وآستوجبتَ المزيد من الله ، وكنت بذلك على جِباية خَراجك، وجَمْعِ أموال رعيّتك وعملك أقدر، وكان الجميع لما شمِلهم من عدلك وإحسانك أسلَس لطاعتك . وأطيب نفسا بكل ما أردتَ . فاجهَد نفسَك، فيما حدّدتُ لك فى هذا الباب، وَلْتَعظُمْ حِسْبتُك فيه . فإنما يبقى من المال، ما أُنفِق فى سبيل حقه، وآعرِف للشاكرين شكرَهم ، وأثِبهم عليه، وإياك أن تُنسيك الدنيا وغرورُها هَوْلَ الآخرة ، فتتهاوَن بما يحقّ عليك ، فان التهاون يوجِب التفريط والتفريطَ يورِث البَوارَ، وليكن عملُك لله، وفيه تبارك وتعالى ، وآرْجُ الثواب . فإن الله قد أسبغ عليك نعمته فى الدنيا، وأظهر لديك فضلَه، فاعتصِم بالشكر، وعليه فاعتمد. يَزِدك الله خيرا وإحسانا . فان الله يثيب بقَدْر شكر الشاكرين وسِيرة المحسنين، وقضاء الحقّ فيما حمل من النعم ، وآلبَس من العافية والكرامة، ولا تحتقِرن ذنبًا، ولا تمالئنّ حاسدا، ولا ترحمن فاجرا، ولا تصِلَنّ كفورا، ولا تداهِننّ عدوا ، ولا تصدّقنّ نمّاما ، ولا تأمَنَنّ غدّارا، ولا توالِينّ فاسقا، ولا تتبعنّ غاويًا، ولا تحمدنّ

مرائيـا ، ولا تحقرن إنسانا، ولا تردن سـائلا فقيرا، ولا تجيبن باطلا. ولا تلاحظن مضحكا ، ولا تخلفن وعدا، ولا تذهبن فخرا . ولا تظهرن غضبـا . ولا تأتين بذخا. ولا تمشين مرحا. ولا تركبن سفها. ولا تفرطن في طلب الآخرة، ولا تدفع الأيام عيانا، ولا تغمضن عن الظالم رهبة منه، أو مخافة، ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيـا، وأكثر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم. وخذ عن أهـل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة، ولا تدخلن في مشـورتك أهل الدقة والبخل، ولا تسمعن لهم قولا . فإن ضررهم أكثر من منفعتهـم ، وليس شيء أسرع فسادا لمـا استقبلت في أمر رعيتك من الشح، واعلم أنك اذا كنت حريصا، كنت كثير الأخذ، قليل العطية، واذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليـلا، فان رعيتك انمـا تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم. وترك الجور عليهم، ويدوم صفاء أوليائك لك. بالإفضال عليهم. وحسن العطية لهم. فاجتنب الشـح ، واعلم أنه أول ما عصى به الانسـان ربه ، وان العاصي بمنزلة خزى. وهو قول الله عز وجل، ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فسهل طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظا ونصيبا. وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد . فأعدده لنفسك خلقا . وارض به عملا ومذهبا. وتفقد أمور الجند في دواوينهم . ومكاتبهم ، وأدرر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم في معايشهم. ليذهب بذلك الله فاقتهم. ويقوم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهـم في طاعتك وأمرك . خلوصا وانشراحا . وحسب ذى سلطان من السـعادة، أن يكون على جنده ورعيته. رحمة في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته ،وشفقته وبره وتوسعته . فزايل مكروه إحدى البليتين. باستشعار تكملة لباب الآخر ولزوم العمل به تلق ان شاء الله نجاحا وصلاحا وفلاحا .

واعلم ان القضاء من الله . بالمكان الذى ليس مثله شيء من الأمور. لأنه ميزان الله الذى تعتدل عليه الأحوال في الأرض . وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية. وتؤمن السبل، وينتصف المظلوم. ويأخذ الناس حقوقهـم . وتحسن المعيشـة . ويؤدى حق

الطاعة، ويرزق اللهُ العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجرى السنن والشرائع، وعلى مجاريها يُنتجز الحقّ والعدل فى القضاء. وآشتدّ فى أمر الله وتورّع عن النّطف وآمض لإقامة الحدود، وأقلِل العجلة، وآبعد من الضجر والقلق، وآقنع بالقِسم، ولتَسكُن رِيحُك، ويقرّ جَدّك، وانتفع بتجربتك، وانتبه فى صمتك، واشدد فى منطقك، وأنصف الخصم، وقِف عند الشبهة، وأبلغ فى الحجّة، ولا يأخذك فى أحد من رعيّتك مُحاباة ولا مُجاملة، ولا لوم لائم، وتثبّت وتأنّ، وراقِب وآنظر، وتدبّر وتفكّر، وآعتبر وتواضَع لربك، وارأف بجميع الرعيّة، وسلّط الحقّ على نفسك، ولا تسرعنّ الى سفك دم، فان الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكًا لها بغير حقها، وآنظر هذا الخَراج الذى آستقامت عليه الرعيّة، وجعله الله للإسلام عزًّا ورِفعة، ولأهله سَعَة ومَنَعة، ولعدوّه وعدوّهم كَبْتا وغيظا، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلّا وصَغارا، فوزِّعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية، والعُموم فيه، ولا تَدفعن منه شيئا عن شريف لشرفه، وعن غنىّ لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصّتك، فلا تأخذن منه، فوق الاحتمال له، ولا تكلِّفن أمرا فيه شَطَط، وآحمل الناس كلهم على مُرّ الحق، فان ذلك أجمع لأُلفتهم، وألزَم لِرضى العامة، واعلم أنك جُعلت بولايتك خازنا وحافظا، وراعيا. وانما سمّى أهل عملك رعيّتك، لأنك راعيهم، وقَيِّمهم، تأخذ منهم ما أعطوك، من عفوهم ومقدرتهم. وتُنفقه فى قِوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أوَدهم. واستعمل عليهم فى كُوَر عملك، ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل، والعلم بالسياسة والعَفاف، ووسّع عليهم فى الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلّدت، وأُسنِد اليك، ولا يشغلنك عنه شاغل، ولا يصرِفنّك عنه صارف، فإنك متى آثرته، وقمت فيه بالواجب، آستدْعَيتَ به زيادة النعمة من ربك، وحسن الأُحدوثة فى عملك، وآستجررتَ به المحبة من رعيّتك، وأعنت على الصلاح، فدرّت الخيرات ببلدك، وفَشَت العمارة بناحيتك، وظهر الخصب فى كورك، وكثُر خراجك، وتوفّرت أموالك، وقويتَ بذلك على آرتباط جندك. وإرضاء العامة، بإفاضة العطاء فيهم من

نفسك، وكنتَ محمودَ السياسة ، مَرضىّ العـدل فى ذلك عند عدوّك ، وكنت فى أمورك كلها، ذا عدل وقوة، وآلة وعُدّة، فنافِس فى هذا، ولا تقدّم عليه شيئا، تُحمَد مَغبّة أمرك، ان شاء الله، وآجعـل فى كل كورة من عملك أمينا، يخبرك أخبار عُمّالك ، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمـالهم، حتى كأنك مع كل عامل فى عمله ، مُعَاينٌ لأمره كله؛ وإن أردت أن تأمره بأمر، فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك ؛ فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيـه حسن الدفاع ، والنُّصح والصُّنع فأمْضِه؛ وإلا فتوقّف عنـه، وراجِع أهل البصر والعـلم ، ثم خُذ فيه عُدّته ، فإنه ربمـا نظر الرجل فى أمر من أمره، قد واتاه على ما يهوى، فقوّاه على ذلك وأعجبـه، وان لم ينظر فى عواقبه أهلكه، ونُقِض عليـه أمره؛ فاستعمِل الحزم فى كل ما أردت وباشِره بعـد عَوْن الله بالقوة ، وأكثِر آستخارة ربك ، فى جميع أمورك، وآفرَغ من عمـل يومك، ولا تؤخّره لغـدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغـدٍ أمورا وحوادث تُلهيـك عن عمـل يومك الذى أخّرت ، وآعلم أن اليوم اذا مضى ذهب بمـا فيه ، واذا أخّرت عمله آجتمع عليك أمر يومين، فشغَلَك ذلك حتى تُعرِض عنـه ، فاذا أمضيتَ لكل يوم عمـله ، أرَحتَ نفسـك وبدنك ، وأحكمت أمور سلطانك، وانظُر أحرار الناس وذوى الشرف منهم، ثم آستيقن صَفاء طويّتهم، وتهذيب مودّتهم لك، ومُظَاهرتهم بالنّصح والمحافظـة على أمرك ، فاستخلِصهم، وأحسن اليهم ؛ وتعاهد أهـل البيوتات ممّن قد دخلتْ عليهم الحاجة، فاحتمل مؤونتهم وأصلح حالهم؛ حتى لا يجدوا لخلّتهم مَسّا، وأفرد نفسك للنظر فى أمور الفقراء والمساكين، ومن لا يقـدر على رفع مظلمة إليـك ، والمحتقَر الذى لا علم له بطلب حقـه ؛ فاسأل عنه أخفى مسألة ؛ ووكّل بأمثاله أهلَ الصـلاح من رعيّتك، ومُرْهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، وآجعل لهم أرزاقا من بيت المـال آقتـداء بأمير المؤمنين أعزه الله فى العطف عليهم والصّلة لهم؛ ليُصلِح الله بذلك عيشهم، ويرزقك به بركة وزيادة ، وأجرِ للأضراء من بيت المـال ، وقدّم حَمَـلة

القرآن منهم، والحافظين لأكثره، فى الجراية على غيرهم، وانصب لمرضى المسلمين دورا تؤويهم، وقُوّاما يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم، ما لم يُؤدّ ذلك إلى سَرَف فى بيت المال. واعلم أن الناس اذا أُعْطُوا حقوقهم، وأفضلَ أمانيهم لم يُرضهم ذلك، ولم تطب أنفسهم، دون رَفْع حوائجهم إلى وُلاتهم، طمعا فى نيل الزيادة، وفضل الرفق منهم، وربما بَرِم المتصفّح لأمور الناس لكثرة ما يَرِد عليه، ويشغَل فكره وذهنه، ومنها ما يناله به مؤونة ومشقة، وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره فى العاجل وفضل ثواب الآجل، كالذى يستقبل ما يقربه الى الله، ويلتمس رحمته به، وأكْثِر الإذن للناس عليك، وأبرِز لهم وجهك، وسكّن لهم أحراسك، واخفِض لهم جناحك، وأظهِر لهم بشرك، ولِنْ لهم فى المسألة والمنطق، واعطِف عليهم بجودك وفضلك، وإذا أعطيتَ فأعطِ بسماحة وطيب نفس، والتمس الصنيعة والأجر، غير مكدّر ولا امتنان، فإن العطيّة على ذلك تجارة مُرْبِحة ان شاء الله، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن مضى من قبلك، من أهل السلطان والرياسة، فى القرون الخالية والأمم البائدة، ثم اعتصِم فى أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسنّته وإقامة دينه وكتابه، واجتنب مافارق ذلك وخالفه، ودعا الى سَخَط الله، واعرف ما تجمع عُمّالُك من الأموال، ويُنفقون منها، ولا تجمع حراما، ولا تُنفق إسرافا، وأكْثِر مُجالسة العلماء، ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك اتّباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها، وليكن أكرمُ دُخَلائك وخاصّتك عليك من اذا رأى عيبا فيك لم تمنعه هَيبتُك من إنهاء ذلك اليك، فى سِرّ، وإعلامك ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومُظاهريك، وانظر عمّالك الذين بحضرتك، وكتّابك فوقّت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكُتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمّالك وأمرِ كورك ورعيّتك، ثم فرّغ لما يُورده عليك من ذلك سَمعَك وبصَرك، وفهمك وعقلك، وكرّر النظر اليه والتدبيرله، فما كان موافقا للحزم والحق فامضه واستخر الله فيه، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى التثبّت فيه والمسألة عنه،

ولا تمنُن على رعيّتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه اليهم، ولا تقبَل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعَوْن فى أمور أمير المؤمنين، ولا تَضَعنّ المعروف إلا على ذلك. وتفهّم كتابى اليك، وأكثر النظر فيه، والعمل به. وآستعن بالله على جميع أمورك وآستخره، فإن الله مع الصَّلاح وأهله، وليكن أعظم سِيرتك، وأفضل رغبتك، ما كان لله رِضًا، ولدينه نظاما، ولأهله عزّا وتمكينا، وللذمة والمِلّة عدلا وصلاحا، وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك، ورشدك وكلاءك، وأن ينزل عليك فضلَه ورحمته، بتمام فضله عليك، وكرامته لك، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبا، وأوفرهم حظا، وأسناهم ذكرا وأمرا، وأن يُهلك عدوّك ومن نَاوأك وبَغى عليك، ويرزقك من رعيتك العافيةَ، ويحجُز الشيطان عنك ووساوسه، حتى يستعلى أمرك بالعزّ والقوّة والتوفيق، إنه قريب مجيب.

(د) رسالة الخميس

من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، الى المُبايعين على الحقّ، والناصرين للدّين، من أهل خُراسانَ وغيرهم من أهل الإسلام : سلام عليكم، فإن أمير المؤمنين يحمَد اليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو، ويسأله أن يُصلّى على محمد عبده ورسوله .

أما بعد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذى العِزّ والسلطان، والنور والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمُتقدّم بالمنّ والطَّوْل على أهلهما، قبل آستحقاقهم لمَثُوبته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذى جعل ما أَوْدَع عبادَه من نعمته، دليلا هاديا لهم الى معرفته، بما أفادهم من الألباب، التى يَفْهَمون بها فصلَ الخطاب، حتى آقتنَوْا عِلْمَ موارد الآختبار، وثقفوا مصادر الآعتبار، وحكموا على مابطَن بما ظهَر، وعلى ما غاب بما حضَر، وآستدلّوا بما أراهم من بالغ حكمته، ومُتْقَنِ صَنْعته، وحاجة متزايل خَلْقه ومُتواصلِه، إلى القِوام بمـا يَلُمّه ويُصْلِحُه[1]، على أن له بارئا أنشاه وآبتدأه، ويَسّر بعضه لبعض . فكان من أقرب وجودهم، ما يباشرون به من أنفسهم فى تَصَرُّف أحوالهم، وفُنون آنتقالهم، وما يَظْهرون عليه من العجز عن التأتى لمـا تكاملتْ به قُواهم، وتمّت به أدواتُهم؛ مع أثر تدبير الله عز وجل وتقديره فيهم، حتّى صاروا إلى الخلقة المُحْكمة، والصورة المُعجبة، ليس لهم فى شىء منه، ولا مقصدَ يعتمدونه من أنفسهم ؛ فإنه قال تعالى ذكره: ﴿يٰأَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ . ثم ما يَتفكّرون فيه من خلق السموات، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخّرات، على مسيرٍ لا يَثْبت العالَم إلّا به من تصاريف الأزمنة التى بها صلاح الحَرث والنسل، وإحياء الأرض، ولِقاح النبات والأشجار، وتعاوُر الليل والنهار، ومر الأيام والشهور والسنين التى تُحصى بها الأوقات ؛ ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طَبَقات السقف المرفوع، والمِهاد الموضوع، باختلاف أجزائه وآلتئامها، وخرق الأنهار، وإرساء

(١) القوام كالقيام مصدر قام .

الجبال . ومن البيان الشاهد ما أخبرَ الله عز وجل به من إنشائه الخلقَ ، وحدوثه بعد أنْ لم يكن مترقياً فى النَّماء، وثَباته إلى أجلَه فى البقاء، ثم مَحاره مُنْقضيا الى غاية الفَناء. ولو لم يكن له مُفتَتَحُ عدد ولا مُنْقطَع أمد ، ما آزداد بنشوء ، ولا تَحيَّفه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان؛ لأنّ ما لا حدّ له ولا نهايةَ ، غيرُ ممكن الاحتمال للنقص والزيادة . ثمّ ما يوجد عليه منفعتُه من ثبات بعضِه لبعض، وقِوامِ كلّ شىء منه بما يَسّر له. فى بدء آستمداده إلى منتهى نَفاده، كما آحتج الله عز وجل على خلقه، فقال : ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ . وقال عز وجل : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ . وكلّ ما تقدّم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته فى سمواته التى بَنَى، وأطباقِ الأرض التى دَحا، وآثارِ صُنعه فيما برَأَ وذرَأ، ثابتٌ فى فِطَر العقول، حتى يُسَخِّر أولى الزيغ ما يُدْخِلون على أنفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من الأضداد والأنداد . جلّ عما يُشْركون . ولولا توحّده بالتدبير، عن كلّ مُعين وظهير، لكان الشركاءُ جُدراءَ أنْ تختلف بهم إرادتُهم فيما يَخلُقون، ولم يكن التخلفُ فى إثباته و إزالته ليخلو من أحد وَجهَيْه، وأيّهما كان فيه فالعجز والنقص مما أتاه و بَرأَه . جل البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علوّا كبيرا، كما قال سبحانه : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ . ثمّ من عظيم نعمة الله عز وجل على خَلْقه آفتقادُه إياهم، وأنه يُسدّدهم ويَدُلّهم على منافعهم، ويُجنّبهم مضارَّهم، ويَهديهم لِما فيه صلاحُهم، ويُرغّبهم فى المحافظة على التمسك بدين الله عز وجل، الذى جعله عِصْمةً لهم وحاجزاً بينهم .

ولولا ما تقدّم به من تلافيهم وآستدراكهم بفضل رحمته ، لاجتاحهم التلَف ، لقصور معرفتهم عن التأتّى لأقواتهم ومعايشهم ، ولم يكونوا ليَقْتصروا على حظوظهم وأقسامهم عما بنَوا عليه من الجمع والرغبة، ولتَهالكوا ببغى بعضهم على بعض ، وعدوان قويّهم على ضعيفهم . ولكنّه بعد تعريفه إيّاهم مُلْك قدرته وجلالةَ عزّته، بعث إليهم أنبياءه ورسله مُبشّرين ومُنذرين،

بالآيات التى لا تنالها أيدى المخلوقين؛ فرضوا بما قُسط بينهم، وآرتدعوا عن التباغى والتظالم، لما وُعدوا من الثواب الجسيم وخُوِّفوا من العقاب الأليم؛ ولم يكونوا لِيُطيعوا أمرا لآمر ولا نهيا لناه، إلا بحجة يتبين بها الحقُّ على مَن خالفه من المُبْطلين، وتخويف يتَّقون به مُقارفة ما حُرِّم عليهم، ورجاء يتجشَّمون له مؤونة ما تُعُبِّدوا به. فافتتح الله عز وجل بأبيهم آدمَ عليه السلام، فعلّمه الأسماء كلّها، وأمر الملائكة بالسجود له — كما آقتص فى وحيه المنزل — وكرّم ولده وفضّلهم، فقال جل وعز: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. وجعل ما فَطَرهم عليه من العطف على ذراريهم وأبنائهم سببا لما أراد من بقائهم وتناسلهم، وما آختصّهم به من العلم والفهم حجّة عليهم، ليمتحن طاعتهم، ويبلوَهم أيُّهم أحسنُ عملا. ولم تزل رسل الله عز وجل الى خلقه تترى بالنور الساطع، والبرهان القاطع، لا يجدون لما يُورِدون عليهم من الحق القاهر مَرَدّا ولا مَدْفَعا؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فلم يجد المكذّبون مَساغا الى دفع ما أُقيم عليهم من لازم الحجّة، إلّا المعاندَة والمجاحدَة. وكان أنبياء الله صلوات الله عليهم، يُبْعَثون فى أعصار الحقب، نُذُرا للامم، حتى ختمهم الله عز وجل بالنبيّ الأمىّ محمد صلى الله عليه وسلم، فبعثه فردا وحيدا لا عاضدَ له ولا رافدَ، إلى قوم يعبدون أصناما بُكْما، وحجارة صمّا، فكذّب به القومُ الذين بُعث فيهم أوّلَ ما دعاهم، ورامه ملوكُ أقطار البلاد بتوجيه الأجناد، ومُرافدة القوّة والعتاد وبغى الغوائل، ونصب الحبائلُ، وهو يدعو إلى سبيل ربه بما أمره به، إذ يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ثم جاهد بمن أطاعه مَن عصاه، وبمن آتبعه مَن خالفه، حتى أعزّ الله كلمتَه، وأظهر دعوته، وأكمل لعباده دينهم الذى آرتضى لهم. فلما آختار الله له ما لديه، وآختصّه بما عنده: من النعيم المُقيم، والجزاء الكريم، بعدَ آستقامة الدين

ودخول الناس فيه أفواجا، خلفه، إذ ختم به الأنبياءَ، بالبررة النجباء من أدانيه ولُحْمته، لإقامة الشرائع المُفترضة، وإنفاذ حكم الله المنزّل، واقتفاء السنّة المأثورة وحفظا له فى قرابته ومجيبى دعوته، وإتماما لما أوجب له من الفضيلة، وقريب الوسيلة، وإنجازا لما وعده من إظهار ما بعثه به، من دينه الذى اصطفاه وارتضاه. وكان اختيار أولى الفضل من لُحمته وعصبته لإرث خلافته، ومن عظيم الزُّلَف التى رغب الى الله فيها أنبياؤه، وبما اقتصّ فى مُنْزل وحيه. واختص تبارك وتعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بما أمره به من مسألة أمته تصيير مودّته فى القربى جزاءه ممن تبعه على الرسالة، وهداه من الضلالة؛ فكانت فضيلتهم عزيمةً من الله عز وجل، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألزمه تأديته الى خلقه وألزمهم أداءه، فقال عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾. ودل بما أخبر به وأظهره من تطهيره إياهم وإذهابه الرجس عنهم، على اصطفائه لهم؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وكان مما أوجب لهم به حقّ الوراثة فى محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. ثم قرن طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وأحلّهم من النباهة والصيت بالمحلّ الذى أعلى به أمرهم ورفع به ذكرهم، لما أحب من التبيين فى الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ولو كان الائمة المُقلّدون أمرَ عباده خاملةً أنسابهم، متقطّعةً أسبابُهم، غيرَ مخصوصين بفضيلة يَرَوْنهم بها دون غيرهم، لم تعد طَلِبَتُهم عقدَ الخلافة لهم، وأنْ تكون من المُفترضات على كافّة الأمة، أو على بعض دون بعض، فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوى النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم، فليس فى اجتماع آرائهم مع تفرّقهم واختلافهم طمعٌ آخرَ أيّامِ الدهر. وإن كان الى خاصةٍ دون عامةٍ، فستحتاج العامة من طلب معرفة تلك الخاصة الى مثل ما احتاجوا اليه فى أئمتهم، إذ لم يكن أهل الارتياب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطئوا على اتفاق،

لنفاد آجالهم قبل بلوغهم غايةَ الاجتهاد فى الفحص والتكشيف، وحاجتهم الى اختبار البُلدان، وتمحيص أُولِى الفضائل بالامتحان، وما هو حاق عليهم من الشبه فى اختيارهم، والاختلاف فيمن عَسَوْا أن يجتبوه ويُقدّموه، حتّى تتهالك الرّعيّة بتظالمها بينها، ويتطرّق مَن يليها من الأمم إيّاها؛ إذ لا ذائد عنها ولا مُحامىَ. فإذا ألزمت الأمّةَ الحاجةُ إلى نَصْب الحكّام لإقامة الدين، وتقسيط الحقوق من المسلمين، ومُجاهدةِ عدوّهم من المشركين، لم يكن لهم فى الإمام عليهم مَجازٌ إلى التخاص من حقّه إليهم، ولا ريبَ عند المعرفة برأفة الله ورحمته، ولطفه وحكمه، فى دفعه عن عباده ما لم يجعل فى حيلتهم له وُسْعا، ولا فى حيلتهم له دَرْكا، وكفايته إيّاهم ما يُعْجزهم من البحث والتنقيب عن ولاة أمرهم، بنَصْبه إيّاهم، وما رفعهم إليه من الدرجة التى أعلاها وأسناها، إذ وصَل نسبهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وافترضَ مودّتهم على خلقه، ولم يَشِنهم جهلُهم للغرض الذى لزِمهم له، ولم يَجب عليهم فرضٌ فى معرفة مَن سواهم. ولم يزل سياقُ أئمة الهدى مُطَّردا، ونظامُهم مُتّصلا، يتلقاه كابرٌ عن كابر، ويؤدّيه أوّل الى آخِر، حتّى تناهى الى أمير المؤمنين، وهو حالٌّ دار دعوته، وبين أنصاره من أهل خُراسان، فنظروا به خيرَهم، وعرَفوا ما تصرّفت به أحوالُهم، وظهر لهم من بيان حُجّته على مَن نازعه فى الأمر، وشاهدوا من إبلاغه فى العذر، واستظهاره بالتأنى والصبر، ما أزاح عنهم الشبهَة وكَشَط الحيرة، حتّى استزالوا[1] نهوضَه بحقّه، وخافوا الزيغ على أديانهم فيما أعطَوْه من صَفقة أيمانهم؛ وهو ماضٍ على عادته، مستديمٌ لموادعه، مُتلوّمٌ على المراجعة، بالغ غايةَ ما فى وُسْعه من الرخصة فى دفع الولاية التى نَهَتْه بها الرّعيّة، حتى ضاق عليه فى دينه تركُ القيام بما أنهضه الله به من ثِقلها وقلّده من حَمْلها. وخاف المخلوعُ وانبعث بالشِّرّة والغِرَّة، فتناول أولياءَ الحق باغيا طاغيا، لما أراد الله من تأييدهم عليه بالبيان والحجّة التى يَجِبُ لها قلبُه، ويُفَتُّ بها فى عضده، ويقبل أنه ما شرّفكم به من النصر والغَلبة فيه التى جعلها الله للتقين. فاجتمع

---

(1) كذا فى الأصل.

لكم معشرَ أهل خُراسان فى دولة أمير المؤمنين ثلاث خِلال آختصّكم الله بفضيلتها، و، مراتبها، دون ثلاث شمِلَتكم وغيرَكم .

أما الأولى من اللواتى خصّكم الله بهن، فما تقدّم لأسلافكم من نُصْرة أهل بيت النبى ، والقائمين بميراثه من آباء أمير المؤمنين .

وأما الثانية، فما آثركم الله به من نُصْرته فى دعوته الثانية .

وأما الثالثة ، فما تقدّمتم به من صحة ضمائركم، ومحض مُناصحتكم .

وأمّا الثلاث اللواتى هنّ لكم ولغيركم :

فمنهنّ ما أكّد الله لأمير المؤمنين فى أعناق المسلمين : من العهد الذى أخذ نصره ، وألهمهمُ الوفاء به والتمسّكَ بوثائقِ عصمته، عند محاولة المخلوع ماحاول من الإعلان بالردّة، والتمس من تبـديل معـالم الدين وتَعْفية آثاره ، فلم يُلْف الرعيّة سُدًى مهمَلين، لا جامع لأمرهم، ولا ضامّ لنشرهم .

ومنهنّ ما أفادكم الله وإيّاهم من العِبر، عنـدَ حلول الغِيَر بمَنْ غَدَر وخَتَر، تذكرةً لأولى النُّهى، وحجةً بالغـةً على من أدبر وتولّى، ليهتدى متحيِّرٌ ويتّعظ مُزْدَجِر، ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومنهنّ آجتماع أهل الفضل من المسلمين : ممن لم يكن له نَصْر ولا أَزْر فى الدعوة الأولى على المشايعـة فى الدعوة الثانيـة، فأصبح دُعاة أمير المؤمنين من أهـل الحرمين والمِصْرَين ومدينـة السلام والمشرق والمغرب ممن غارَ أو أنجد من المتمسّكين بذممهم المُوفين بنـذورهم، من إخوانكم ، وإن كان الله قد قدّمكم فى الأمرين جميعـا بتفوقِ حالكم على غيركم، يَعتَدّون من معاضدتكم ومكانفتكم بما جعله الله عز وجل ألفـةً لكم ومودّة بينكم ، يبيد بها ما كان الشيطان يَنْزِغ به بين أهل التبعد فى الأنساب، والتنائى فى الأوطان من إيقاع العداوة والبَغْضاء ، والانطواء على الأحقاد والسخائم، وطلب تقديم الإحن ، وصار أهـل السمو إلى الدرجة العليا والاعتصام بالعُرْوَة الوُثقى من أولياء أمير المؤمنين وشـيعته، منشرحةً صدورُهم بمكانفته، منبسطةً أيديهم بمعاونته على حقـه ،

منفسحة آمالهم فى إذكاء ناره على عدوّه والإثخان فى بلاده وافتتاح ممتنع حصونه، بما جمعهم الله عليه من الألفة، ورفع عنهم من الحميّة والعصبية؛ راجين عودتهم الى أحسن مامضى عليه سلفهم، فى عهد نبيّه صلى الله عليه وسلم، من سلامة الصدور، وصلاح ذات البين، واجتماع القوى على مجاهدة من شاقهم؛ قد أفرد الله عنهم نفرة التحارب والتجاذب، وجعل ما كان يسعى به بعضهم من الإعداد لبعض، زيادة فى ريحهم، وحدّا فى شوكتهم، لائتلافهم فى دولة أمير المؤمنين المجدودة المؤيدة بصدق الضمائر، ونفاذ البصائر. والى الله يرغب أميرُ المؤمنين فى إعانته على صالح نيته، وتبليغه منتهى سُؤْله وغاية همّته، فى اعزاز دينه وإذلالِ مَن صدّ عن سبيله؛ إنه سميع قريب.

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تذكّر ما كانتْ عليه الحال قبلها، فاستديموا الإفاضة فيما رفع الله من خساستكم وأعلى من أقداركم، بنُصْرة أهل بيت نبيّكم صلى الله عليه وسلم، وما أبلاكم اللهُ فى الدعوة الأولى ممّا لايؤدّى حقّه إلا بعون الله وتوفيقه، فإنه ارتاح لهم بلطفه وتوفيقه، فأنالهم رغائب الأقسام وسَنِيَّ الحُظُوات، ورفع درجهم ودرج خلوفهم وأعقابهم من بعدهم، بعدَ إذ هم مُسْتَضْعفون يخافون أن يتخطّفهم الناس، مُذْعِنون بقهر عدوّهم واستئثاره عليهم، ثم لم يلبثوا أن صاروا الى الحال التى يرونهم بها من الغبطة والبَهْجة، إلّا أنّهم أخذوها بحقّها؛ وكانت فى أيدى الظلمة من أهل بيت اللعْنَة وأتباعهم بحُدْه[1] الباطل ومحنة الابتلاء، «وليَعلم اللهُ مَن يَنصُرُه ورُسُلَه بِالغيبِ إنّ اللهَ قوِىّ عزيزٌ». وليس أحد منكم بخارج من المحنة بما أُلبِس من النعمة، وإن كنتم أهلَها الآخذين لها بحقّها، بل الذى يلزمكم استدامتها والقيامُ بحفظها، على حَسَب ما أولاكم الله منها، فربّما كان الذى يُعقِب أهلَها من الغفلة والاغترار ويُلهيهم بها من حبورها وسرورها، أعظمَ إثما وحُوبًا مما يخف على أهل البَطالة والعسر من ضعف العزم وقلّة الصبر، لما تستولى عليهم من استكانة الذّلة، والاغترار بالتقصير، والفزع الى ربهم فى تنفيس كَرْبهم، فإنه

(١) كذا فى الأصل.

تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾. فحاجتكم اذا أنجح الله سعيكم وأظفركم بطلبتكم، الى حياطة ما أودعكم الله من منته و من فضله ، بالشكر المشترى للمزيد .

فتعهدوا معشر شيعة أمير المؤمنين أنفسكم بتذكر ما سهل الله لكم من الحزونة. وذلل لكم من الصعوبة، وحكم لكم به من النصر، على مُرّاق الملة ومخالفي أهل القبلة . وأباحكم من ديارهم وأموالهم ؛ فأصبحتم بمن الله عليكم حماة الدين، وأنصار الأئمة الراشدين، وحصون كافة المسلمين، بعد ما اجتث الله بكم قرون النفاق، وأباد بكم صناديد الضلالة، وشرد من لم تستحمله سيوفكم، وأضرع اليكم من أذعن واستسلم. وقد استشرفكم معشر شيعة أمير المؤمنين أهل الشنآن، ولاحظوكم بأعين الحسد والمنافسة، فبين ذلك مجهر معالن، ومستسر مداهن. وداخلٌ فى عدادكم ، وواجٌ فى سوادكم، يرى أمنه بين ظهوركم . فطعنه عليكم فى دونكم بريبة التمويه وخدع التشبيه ، أيسر عليه كلفة وأعظم فيكم جرحا ونكاية ؛ فتوقوا هذه الطبقة أشد التوقى، فإن أكثر من يلجأ الى استباحة الحيلة، من عجز عن المبادأة والإصحار، وعند ظهور الحازم وغلبته يحترز من لطيف الخدع وخفى الاستدراج .

واحذروا معشر شيعة أمير المؤمنين من استمراء البطر، والركون الى راحة الدعة ما قد رأيتم وباله عاد على أهله، وأورثتهم عواقبه طول الندم والحسرة؛ فإنكم قد كنتم فى حال المراقبة لعدوكم، والخوف لبائقته متيقظين متحفظين لما كان يرومكم به من ختله وحيله، ثم أفضيتم الى الجد وقد جهدكم السعى ومسكم النصب، وسيلقى الشيطان فى أمانيكم أن قد اكتفيتم بسالف ما قاسيتم، ويجد من ضعف العزائم معينا داعيا الى اغتنام الخفض، والإخلاد الى الأرض، ما لم تعتصموا بما عاينتم من الاعتبار ، وتمثلوا مواضع الآثار فيمن سلف من القرون الخالية، وما أفضت به اليه العزة من زوال النعم ووقوع الغير، وإن جميع ما خولكم الله وأفادكم مرتهن بما ألزمكم من حياطته واستنمائه ؛ فقد وجبت عليكم الحجة بما حضكم الله

عليه ، وعظمت عليكم المنّة بما هداكم اليـه ، وأراكم من آياته ومُثُلاته فيمن خلا قبلكم مافيه أبلغُ الإعذار والإنذار لكم . ومن اجتمع له اقتناءُ صواب من تقدّمه الى ما ينبعث من نفسه ، فكأنّه قد اختبر بالتجربة ، مع استمداده بما يستفيد ، ويستزيد ما يفتح لُبّه ورأيه ، وأيقنوا أنكم لن تصلوا الى مَن سواكم ، ممن هو أعسرُ طاعةً عليكم وأعذرُ بمعصيتكم ، حتّى تبدءوا باستصلاح أنفسكم ، وأنّه لن يرجى لكم القوة على مُجاهدة عدوّكم حتّى تقووْا على مجاهدة أهوائكم ، فإنّ على كل امرئ ريبةً من أمره ، وغِطاء من غيبة ، لايكشفه إلا صحّة المعرفة ، والإذعان بالنّصفه ، فهنالك يُؤمَنُ عليه الجهل والمعانده . واذا أُمنت هاتان الخلّتان انسدت بإذن الله ثُلَم الآفات ، وفُتوق المكاره . فإنّه لايُخاف الضـلال على من اهتدى ، ولا اعتماد الجَور على مَن انتصف من هوى .

وليكن أوّلُ ما تتعهّـدون به أنفسكم ، وتُثابرون عليـه من صالح أدبكم تناصُفَ الحقّ بينكم ، بتقـديم أهل الفضائل والآثار المحمودة منكم وتفخيم أمركم ؛ فقـد علمتم أنّ منكم المبرّز الفائت الذى لا يُدرك شأوه ولا يُوازَى بلاؤُه ، حين كشف الإبلاء ضمائرَ القلوب وجلا مُشْتَبِهات الظنون ، فصرّح بالمحاربة بعد التقدّم فى الحُجّة ، وفاءً بمؤكّد العهد وركوبا منـه لهائل الخطر ، غيرَ هائب مع صحُبـة الحقّ ما بَرق لديه الناكثُ المخلوع ورَعد ، ولا مُستوحِش فيما تفرّد به الى من تولى وأدبَر ، حتّى أتى الغاية التى أجرى اليها فى الله عز وجل وفى خليفته ؛ ثم لرؤسائكم من أهل المُشايَعة والمُكانَفة والنُّصرة والحظ الجزيل والأثر المُبين ، ثوابُهـم واجب وحقّهم لازمٌ ؛ ثم منكم من يُحفَظُ لسلفـه وأوله من الآباء الذين يحفظون ولايتهم ، فإن الله عز وجل يقول فى ذكر اليتيمَين : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَـةِ ﴾ الآية . وقال على لسان يعقوبَ لابنـه يوسفَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الآية . وأمير المؤمنين يَرى توريثَ الحكمة والذمامَ سنّةً عليـه فى أخلاقه التى يرعاها ويحافظ عليها ، كما أنّه يرى وِراثة التركة فريضةً واجبـة ، فيخلف السلَف الصالحَ عنـده من المزِيّة والفضل ما يتلون به أهـل الغَناء بأنفسهم ، ثم

يتلوهم من آقتدى [بهم] وآهتدى بَهْديهم . والسابق المتقدّم من آعتد ببلَاء نفسه الى بَلاء سلفه، ثمّ يتبعه بعــدُ المبلِي بنفسه. ثم يتلوهما المُتوَسّل بآبائه. ثم الصاعد به هواه ورأيه، طبقــةً فطبقة ؛ فلْيقصر كلُّ آمرئٍ منكم على المرتبــة التى أحلّه بها سَعيُه . وليَسلك الى الأزدياد فيها بالزيادة من نفســه ؛ فإن من الفُتُوق العظيمــة على أهل الدوَل ما ينزِغ به الشيطان بينهم، ويكثر عندهم ما يكون منه، فيوافق من الحَيْف للأنفس ما يجد به مساغا الى ما يروم من إيقاع الشحناء بينهم، وتثبيت الإحَن فى صدورهم: بعد التآزر والتناصر. ومتى يجمع المرءُ لمزيةِ مَن فوقه، واغتباط مَن دونه كُفِيَ ماتركَ. وإن تخلُص نياتكم . وتسلم ضمائركم، حتّى تَمحَضوا شكرَ ما أُوليِه إخوانكم، وتعتدّوا ما نالهم شاملا لكم، وتُجانبوا طريقة من اقتصر بأُمنيّتــه على خاصّته، وتعتّب فيما أُوثر به أهلُ الفضــل دونه . وكفَى عِظةً فيما نهاكم الله عنه من ذلك ؛ يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية . ولا يَلتمِسنّ أحد مودّته عن سوء نيــة بحسن مداراة فى ظاهر، فإن الله مقلّد كلّ امرئٍ رِبقــة عمله ومُطوِّقه طوقَ سريرته . ولا يغدرنّ فيما يلزمه لإمامه ؛ فإنه إنمــا يغدر فى حظّه ويبخَس قِسْمه، ويَبخس نفسه . ثم لا يقتصرنّ على استصلاحها حتّى يتناولَ مَنْ كانتْ مِنّته عليــه من أقربيه وحسويه[1]: فإن يسيرَ ما هو مُعانٌ من تأديتهــم لا ينشَب أن يتجاوز أدنى المراتب الى أقاصيها، وقريبها الى مُتناهيها . حتّى يستفيض شاملا عامّا، بعد أن بدا محلّلا خاصا .

واعلموا أنّ أمير المؤمنيــن متفقد من تثقيفكــم وتقويمكم على صالح الأدب ومحمود السيرة، ما لا يتفقّد به مَن سِوَاكم ؛ فإنّه إن كان يُوجب على نفسه استصلاحَ الرعيّــة وحملَهم على ما فيه رُشدُهم وقِوامهم : لِمــا يلزمه من فضل العنــاية بالأخصّ والأولى فالأولى ، فإنّ فى أخلائكم من التقديم فى التأديب والتعهد : وجوها من الضرر : منهــا : أنكم أَوْلى بحسن الطاعة وسرعةِ الإجابة، للطف محلّكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين .

(١) كذا فى الأصل .

ومنهـا : أنكم يأنس بكم المؤتمّون ويَقتـدِى بكم التابعـون ؛ فمتى قصّرتم وأخللتم ، اقتفى أثركم مَن نُصِبتم له أعلاما ، ثمّ لم يكن لكم أن تَزروا عليه ، ولا أنْ تأخذوا فوق يده ، بل كان قَمِينا أن يكون يَسومكم الرضا بمثل ما سمِعتموه ، ثمّ تَجرِى هذه العادةُ فى الطبقات ، حتّى يطّرِد السياق ، الى أن يستفيض الفساد فى حَشو النـاس وعامتهم ، فلا تُغـنِي قوّة ولا حزمٌ ولا شدّة ، إلّا العجزَ والاضاعة ؛ ثم يجد الأعداء مَساغا الى الطعن والعيب ، فلا يَملِكون أن يُرْهِقوكم ويَسـتَولِى عليكم الفشلُ ؛ فإن الأيدى إنّمـا تُبْسَط بنفاذ العزائم ، والعزائم إنّما تَنْفُذ بثبات الحجّة ، والحجّة إنمـا تثبت إذا كانت عن الحـق . وإذا أضيع أوّل هذه الرسوم ، التى رسم لكم أميرُ المؤمنين ، تَبِعته تواليه وشَفَعته لواحقُه ، ووجد العدوّ الملاحظُ مَكان العَوْرة ، مَطْمَعا فى إهمال ما كان يُعِدّ له من الغِرّة ، ويَتوفّق به من مناهزة الفُرْصة ، وليكن ما تُفيضون فيه وتعـدّونه ظهيرا على طاعنٍ إن طعَن فى دولتكم ، ما ألهم الله أميرَ المؤمنين : من شُمول رَعيّته بالعدل ، وفرش الأمر فى مضمراتها ومتقلّبها ، ورفع به عنهم من سير الجود ، وبسَط به يده من إثابة أهل البلاء ، وتغمّد الجرائم لأُولى الزَّلل ، والإبلاغ فى دعاء من عانَد وشاقّ الى التوبة والإنابة ، وإقالة العثْرة بعدَ القدرة ، والحَقْن لمُباح الدماء ، فلم تعلموه صَبَر محلا ، ولا هَتَـك لأحد ممّن أظفره الله به سِترا ، ولا وَقَفه على عورة . ثم تولّى الله أميرَ المؤمنين ، فى حروبه شرقا وغربا ، التى أغناه الله عن الإطناب فى وصف صـنع الله لكم فيهـا ، لاسـتفاضة أخبارها فى دَهْمائكم ، مع ما أحبّ من مطالعتـه إيّاكـم ببالغ أدبه وشافى عَطفه ، أن يتنكّب من الإسهاب ، فى غير ما صمَد له ورأى من تقريع أسماعكم وأذهانكم ، لوعى ما التمس أن تَعُوه من تبصيركم حظّكم ، وتنبيهكم على رشدكم . وحَسْبُ أمير المؤمنين فى نفسه وفيكم الله ، وكفى به مبينا .

وإنّ أمير المؤمنين مع ما تقـدّم به اليكم لعَلَى ثقة من حِياطة الله خلافَتـه التى جعلها عزًّا لِدينـه وقِواما لخلقه ، وأنّه ليس بهـا ممن أدبَر عن حقها آ نْتـلالٌ بل من خلع ربقتَها وأضاع حظّه منها ، جلب الخَلّة والحاجة وخَسرانَ الدنيـا والآخرة . وإنمـا أُتِيَ

المُقَصِّرون فى إعظام حقها من ضعف الروية عن بلوغ ما تُفْضى بهم إليه مصادرُ العواقب ، وتُؤديهم إليه رواجعُ ما قدّموا ، فلا يكونون بعملهم غيرَ متجاوزين بهممهم ، وفيهم الذى هم فيه الى ما يمنعه[1] .

وآستديموا معشرَ المسلمين سابغ النعمة بحمد موليها والمتطوّل بها . وقد ترون ما كنتم فيه قبلها وما آلت اليه حالُ مَن سُلبها ، ثم يُعْقِب الندامةَ حين لا مُسْتعتَبٌ ولا نَظِرةٌ يمكن فيها استقالةُ الفارط بتقصيرٍ ولا هَفْوةِ زَالّ . وثقوا من رِعاية أمير المؤمنين محمود آثاركم ، وما مضى من بلاء كلّ آمرئ منكم ، بما تطمئنون اليه وتتوقّعون عادته ، بأسنَى ما ترتفع اليه آمالكم وتسمو اليه هممكم ، الى ما يَدّخر الله لمن تمسّك بهداه ، واعتصم بتقواه ، وجاهد عن حقه ، ووفيا بأمر عهده من جزيل ثوابه وكريم مآبه ، الى الدار التى هى أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلا .

أحبّ أمير المؤمنين أن يتعهّدكم بعظة تنبّهكم على حظّكم ، وتُثبت من بصائركم ، وتقطع من طمع الشيطان وحزبه فيكم ، لِما يجب عليه من إرشادكم ، ويرجو من تأدية حقّ الله عز وجل فيكم ، ولِما يرى من آتصالكم بحبله ، وما يشمله من الصنيع فيما ولّاكم الله به ، وتولّاه لكم .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدعاء تطوّلا ، وتكفّل بالإجابة حتما ، فقال عز وجل : ﴿آدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ، أن يجمع على رضاه أُلفتكم ، وأن يصل ... عه حبلكم ، وأن يُمتّعكم بأحسن ما أودعكم من مننه ، ويوزعكم عليها من شكره ... لكم مزيده ، وأن يكفيكم كيد الكافرين ، وحسد الباغين ، ويحفظ أميرَ المؤمنين فيكم بأفضل ما حُفِظ به أمام هدى فى أوليائه وشيعته ، ويَحمِل عنه ثقَل ما حمّله منكم . وبالله يستعين أميرُ المؤمنين ، على ما ينوى من جزائكم بالحسنى ، وحملكم على الطريقة المُثلَى ، وبه يرضى ناصرا ووليّا ، وكفى بالله وليّا وكفى بالله نصيرا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) كذا فى الأصل .

وللمأمون — لمّا كتبتْ اليه السـيّدة زُبَيدة بعد مَقْتل ولدها الأمين خطابَها الآتى تستعطفه :

كُلُّ ذنب يا أميرَ المؤمنين وإنْ عَظُم صـغيرٌ فى جَنْب عَفْوك . وكُلُّ زَلَل وإن جلَّ حَقِير عند صَفْحك . وذلك الذى عوّدك الله ، فأطال مدّتَك ، وتَمّم نعمتَك ، وأدام بك الخيرَ ،

و وقع ىلت انه

هذه رُقْعة الوَالِه التى ترجوك فى الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذكر . فإنْ رأيتَ أن ترحم ضَعْفى ، وآستكانتى ، وقلّة حيلتى ، وأنْ تَصِلَ رَحِمِى ، وتحتسب فيما جعلك الله له طالبا وفيه راغبا فافعل ، وتذكُّرْ مَنْ لو كان حيًّا لكان شَفِيعى اليك .

فكتب اليها المأمون :

وَصَلَتْ رُقْعتُكِ يا أمّاه ، أحاطكِ اللهُ وتَوَلّاكِ بالرِّعاية ، وَقَفْتُ عليها وساءنى — شهد الله — جميعُ ما أوضحتِ فيها ، لكنّ الأقدارَ نافذةٌ ، والأحكامَ جاريةٌ ، والأمورَ متصرِّفةٌ ، والمخلوقون فى قبضتها ، لايَقْدِرُون على دفاعها ، والدنيا كلّها الى شَتَات ، وكلّ حىّ الى ممات ، والغَدْر والبَغْى حَتْف الإنسان ، والمَكْرُ راجعٌ الى صاحبه . وقد أمرتُ بردّ جميع ما أُخِذَ لك ، ولم تفقدى ممّن مضى إلى رحمة الله إلّا وجهه . وأنا بعد ذلك لك على أكثر مما تختارين ، والسلام .

(هـ) أحمد بن يوسف (١)

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور فى اختيار المنظوم والمنثور وهى :

أما بعد فالحمد لله القاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذى أحاط بكل شىء علما، ونطق به خُبْرا، وأتقنه حكمة وعلما، وألّف بين مختلِفه ومتّفقه، ليدل بقوام بعضه على بعض، على اتصال تدبير مشيئته ومُبتدعه، وانه أحد صمد. لا ضد له ولا ندّ ، إذ قدّر له حاجته ثم شدّها ببلاغها الى الغاية التى جعلها، فقال جل وعز: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وحكى عن نجيّه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ، وقال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ ثم لم يكلّف العباد من شكره كِفاء نعمته، بل رضى منهم باليسير، وقبل منهم العفو، وجعل طاعتهم إياه عائدةً عليهم بجزيل الحظ فى دينهم ودنياهم. لغناه عن عبادتهم، واتّساع قُدرته بالتطوّل عليهم، مُفتتِحا وخاتِما ، وبادئا وعائدا .

الحمد لله الذى اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم . نبيّا لرسالته، وأتمنه على وحيه، وأنزل عليه كتابه العزيز، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فأدّى الى خلقه الرسالة ، واستنقذهم من الضلالة، وصدع بأمر ربه وجاهد فى سبيله ، ونصح لأمته حتى أتاه اليقين من ربه، بعد استنارة الحق، وظهور الحجة. فصلّى الله عليه بشيرا ونذيرا، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا قد تلافى من الهلكة، وجمع الألفة بعد الفُرقة ، وأوضح الهدى بعد الدُّروس ، ومعالم الرشد بعد الطُّموس . وكان بالمؤمنين رحيما .

والحمد لله الذى قفّى على آثار المرسلين ، والأئمة الراشدين ، الهادىَ التقى ، الطاهر الزكىّ ، الإمام المأمون أمير المؤمنين، أعزّ الله نصره، فسدّ ثُلمتهم، ورأب صَدْعهم وقلّده خلافتهم ، وجعله لكافّة المسلمين غِياثا ورحمةً، وجعل ما ألهمه من العدل والإحسان

(١) راجع ما كتبناه عنه فى الفصل العاشر من الكتاب الثالث فى المجلد الأول .

بيهم، مِنّة عليه ورحمةً ذَخَرها له، دون الخلفاء قَبْلَهُ، فيما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة، وسياسة مَنْ تقدَّمه، ومنح الرعيّة من عطفه ونَظَره، ما لا يحمل عنهم أو به ولا يؤدّى عنهم شكره، الا هو لا شريك له؛ وأحسن الله جَزاء أمير المؤمنين ومَثُوبتــه، على صِلَة رَحِم رسول الله صلى الله عليه وسلم، التى هى رَحِمه وقرابته، وآختياره لوِلاية عهده الأمير الرّضى علىّ بن موسى، حفظه الله، حين أحمد سِيرته، ورضى محبته، وعرف آستقلاله، بما قلّده فى هَدْيه، ودينه ووفائه، بما أكّد الله به عليه، من عهد أمير المؤمنين أيّده الله، فى آعْتِيامه من ازره وأَسّاه بمـا شَفَع رأيَه، وأنفذَ تدبيره، حين هَمّ لأستصلاح ما آسترعاه الله، من أمور عباده، لمـا آنتقى القائمَ بدعوته، ورئيسَ شريعتــه، الأميرَ ذا الرِّياستين رحمه الله، فاتّخذه مُكَاتِفا ظهيرا ووزيرا دون من سواه، فاتّبع مِنهاج أمير المؤمنين أيّده الله، وسار بسيرته، شرقا وغربا، وغَوْرا ونجدا، مُوفِيا بعهده، قائما بدعوته، مقتفِيا لأثَره وسُنّته، فحسمَ الله به الأدواءَ، وقمعَ به الأعداء، من عُتاة الأمم، وطَواغيت الشِّرك، وآباد على يده، أهلَ الشّقاق والنِّفاق، فى كل أُفُق وطَرَف، بجِدّ أمير المؤمنين أعزّه الله، وبركة سياسته ودولته، ونُجْح سَعْى من قام بنُصرة من قام بحقّه، وأنار برهانه، حتى توفّاه الله عز وجل، حين بلغَ همّته وغايته، وحُمّ أجلُه، وآنقضت مدّته، سعيدا حميدا، شهيدا فقيدا، عند إمامه أكرمه الله، وعند الخاصّة والعامّة، وكان من إجلال أمير المؤمنين، الحادثُ الذى نزل به، فأحيا آثاره، بوصف محاسنه، فى مَشاهده ومَجامعه، وترحّمه عليــه عند ذكره، وحِفْظه فى لُحْمته، وأهل حُرمته، وفيمن كان يحمد الله على طاعته ونصيحته، ما أتمّ به نعمته، عندنا وعندكم معشر الشّيعة، فقد أصبح أمره بكم متّصلا، وموقِعــه من جماعتكم متمكّنا، يقبِضكم ماقبَضه، ويبسطكم ما بَسَطه من اومة المصيبة، وحسن العُقْبى، وقد علِمتم معشر أهل الحجا والنُّهى، والطاعة لله عز وجل وخليفتــه، وذوى الغَناء والبَلاء فى دعوته من أهل خراسان وغيرهم ممن حضر ممّن آمتحن اللهُ قلبــه بوفاء العهد والاستبصار فى حقّ أمير المؤمنـــين أبقاه الله، والمجاهدة دونه، والصبر على مواطن الصِّدق والّلأوَاء، والذَّبّ عن البَيْضة والحريم،

والمتحمّلين للنَّصَب، والمصائب التي انجلت، حتى كأن لم تكن. ويبقى أجرها على الله عزّ وجلّ. ومحمودٌ ذكرها شائعا في الناس، إن نِعَم الله، قد جلّت ولَطُفت. وخصّت وعمّت، وعلت وسَمَقت، وتمّت ودامت، حتى قصّرنا عن موازينها، والإحاطة بأدائها، فإذا لم يكن لنا معشر إخواننا سببٌ الى مكافأة بَلائه بالعمل، فنحن جُدَراء أن نجتهد في القول. ونُطْنِب في الوصف إن شاء الله جلّ وعزّ، فقد جعل ذكرَ النِّعم من أسباب الشكر، وقد جدّد لنا أميرُ المؤمنين أيّده الله من الحياة والكرامة، وجزيل الحيطة، وسَنِيّ الرتبة التي قُرِئ بها عليكم كتابُه ما يَستغرِق جَهْدنا، ويستفرغ وُسْعنا، فنرغب إلى الله عز وجل، وليّ الرغبة، ومؤتى السُّؤل والطَّلِبة، في إعانتنا على تأدية ما وجب له، فيما منحنا من فوائده ونحله. ثم نسترفدكم ونستعينكم على شكره، وإمدادنا بما بلغته طاقتكم في السّعي له فقد آدنا ثِقْلُ ما حمّلنا، وثِقْل ما طوّقنا، وعظُمت فاقتنا الى استعمال القُوى من الأنفُس والخاصّة، والخاصّة والعامّة، في جزاء ما جلّل أمير المؤمنين فينا من سُنّته، وثمنا من تالد أياديه وطارفها. وقديمها وحديثها، وكيف يُوجَد الى موازاة أمير المؤمنين سبيل ببذل جَهْد، أو بلوغ حَشْد، فإنما نَقتدى بهُداه، ونَعْشُو بنوره في ديننا، وليس عَجْزُنا عن أن نجزى حقّه، بواضعٍ عنّا مؤونة الدُّؤوبِ في التحرّى لتأديته، فإن الله عز وجل، قد أخبر بفضائل الشكر ومناقبه، وجعله من أسمائه، ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾. وقد قال تعالى ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. وقال تعالى ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾. ولولا أن الله عزّ وجل رَضيه لنفسه، لأجللناه عن التسمية إذ كان أكثر ما نستعمله، ونعرفه في مكافأة من منّ وتطوّل. ثم ثنّى بذكر فضله في العباد، فإن الله تبارك وتعالى افتتح أول ما علّم خلقه بالحمد. وجعله بَدْء كتابه، وخاتمة دعوة أهل جنّته، فقال عزّ وجل. ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وخلق الله السموات والأرض، ومن برأ وذرأ في الحياة ليَبْلُو عباده بشكره. وأعدّ الجنة في الآخرة لمن شكره، والنار لمن كفره، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾. وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، بجمل التقوى واقعةً، والشكر مرجُوّا لِيَدل على ارتفاع رتبته، وعلو درجته عنده، وقال لنجيّه موسى عليه السلام: ﴿ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ ﴾ . فلم يكلّفه الا أخذ ما أعطاه، والشكر على ما أتاه، وأخبر بعزّته فى العباد. فقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾، فأيّة نعمة أجلّ قَدرا، وأسنى أمرا. معشرَ الشّيعة من نعمة أمير المؤمنين، أيّده الله، عند الأمير ذى الرّياستين، ومراتبه التى رتّبه بها، فإنه أعطاه رِياسة الحرب. و رِياسة التدبير، وعَقد له على رأسهما عَلَما فى رواية دعوته ، وقلّده سيفهما وخَتَمه بخاتم الخلافة. وخاتم الدولة. وجعل صِلاته بين صاحب حَرَسه، وصاحب شُرْطَته. ومَسيرَه بين أمير المؤمنين و بينهما، أَمامه وخلفه، وصيّرله الجلوسَ على الكرسى بحضرته، فى صدر كل مجلس جلس.ـ الا أن يُؤثِر به من أحَبّ من أبناء الخلفا. وقدّمه فى دخول دار الأمير راكبا الى أقصى مكان ينتهى إليه أحد من بنى هاشم، لأنه منهم. وأعظمهم غَناء عنهم ، فسمّاه صاحب دعوته وسيفه على عدوّه و بابه الذى يدخل اليه منه، وولّاه خرِاجه فى أقطار الأرض. ومُقَدّمته بحضرته، وقلّده من الثغور ما قد علمت. بما أورده فى عهده، الى ما أنفَذه من أمره، فى جميع سلطانه ومُلكه، من مشارق الأرض ومغاربها ، وأين يأتى الوصفُ على ما فضّله به ، وقدّمه وشرّفه على الناس كافّة. ولكنّا نُخطِر بذكره. ثم نَكِل السامعين الى ما يرجعون إليه من المعرفة التى لا تبلغها الصّفة ، ثم لم يكن ما أكرمه به فى حياته بأعلى ممّا أكرمه به فى وفاته، تولّى غسله وتكفينه، ومباشرته بجهازه، إلى حفرته بيده، وقاسى من الغُصَص، و برحاء الحزن، و إذراء العَبْرة، و إراقة الدمعة ماحال بينه و بين الكلام. وكاد يمنعه من القول والدعاء فى صلاته عليه، من الحكم، وحِفْظ أهل الحُرْمة، به رعايةً له فيهم. ووفاءً بعهده من بعده، وأقرّ خاصّته، وقوّاده وعُمّاله . وكتّابه على مراتبهم، وحمِد بحمده، وذمّ بذمّه، وجدّد لجنده، وتل كريته(١)، نَظَرا وعطفا، فلم يَبْق عليه فى إحياء ذكره، وبلوغ كل ما يحبه فى حياته غايةٌ الا أتى من ورائها؛

(١) كذا فى الأصل .

وأمر بقراءة فُتُوحه، كما كانت تُقرأ على عهده، وأضاف كل ما حَدَث من بعده الى ما تقدم من سَعْيه، وأخبر أنه كان سبَبَه، والمفتتحَ به، وولّى محمد بن الحسن خلافته، ونَصّبه مَنْصبه، وأقامه مُقامه الى أن جَدّد العهد لى. فاستخلفتُه على ما وَلِى بحضرته. ثم تتابعت كتبُ أمير المؤمنين، أكرمه الله بعد مصاب الأمير ذى الرياستين، بما لا يقارب التفضيل، والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم به وبلغكم، فلم يكن يرى وراءه مجاراة، ولا فوقه مَصْعَدا، حتى جدّد لنا من كرامته، ما قد قُرِئ عليكم فى كتابه. فبلَغ بنا ما لم تكن الهمم تبلُغه، والأمانى لتُحيط به، لولا ما منحنا الله عز وجل من الترقّى فى الفضل. أى ما تتحسر من دونه الأبصار، وتنقطع دونه الآمال، وإنما اقتصصناه وذكرنا ما أبلانا واصطنع عندنا من بلائه بدعائنا الى الله عز وجل، والى طاعته بالعدل والإحسان الى رعيّته والنظر بالصفح، والأَخْذ بالفضل، والأمرِ بالمعروف، وصِلَة المروءة بالوفاء بالعهد، والشكرِ للمَن، ورِعاية الأخلاق المحمودة، وإحْظاء أهلها، وإقامة سوقها، حتى تنافسوها وتَشاحُّوا فيها، وصارت هى الذّرائع اليه، والوسائل عنده، فلو تأمل متأملُ أهلِ الزُلْفة، والأَثْرة لديه، لوجد الأخصّ فالأخصّ، والأعلى قدرا عنده هو الأفضل دِينا ومروءة. فلو لم يكن فى الحُظْوة عنده إلا إيجابها لصاحبها صحّة المحبة. والنزاهة عن كل ظِنّة. لكان فيها أعظمُ الغبطة. وأعدل الشهادة والدّلالة؛ وسنقُصّ عليكم بما أخبرناكم عنه ما لا سبيل الى جَحْده وإنكاره. بوضوح مَعالمه ومَنائره؛ أوليس المجاهد عن دين الله. والمحامى عن بَيْضة المسلمين. والموافى لأغلظ عدوّهم شوكة، وأخوفهم عداوة، والمُنْجِع فى بلادهم. بمن كان لا يرام. ولا يُحاول لاستصعابه وشِدّة مُقاساته. حتى أذعن جيغويه بالعُبُوديّة له. ثم أباح حريمه حين تمرّد عليه، حتى بلغ السّبى الى ولَده. وحاربونا به. وتغلغلت خيولُه. حتى توصّلت الى قُبّته، ومنتهى عِزّه، أوليس مُسكّن التهيج بالمشرق. حتى خبت النيران فيه. وأذعن رؤساؤها وقادتها. أَوَليس غازى بلادِ بابل حين طَغى أمردا. وبذل ونكث ونقض. حتى اجتُثّت أرومتُه، وأباح حريمه، وأراح المسلمين من معرّته؛ أوليس سادّ الثغور ومُحصّن

عَوراتها . والمباسِر لتدبيرها . والمُسْعَدا لمُكايدة المُنْجَح فيمن أرادها . وفَاكّ العُناة . من رِقّ الإسار . وناشِر الرحمة على فقراء المسلمين وضُعَفائهم وأهل المَسْكَنة . والخَلّة منهم . وقاسِم الصّدقات فى أهلها . وعامِر الموسم ومحصّنه من الآفات حِياطَةً للسلمين فى حجّهم ، وما يتقربون به الى ربهم . وهل آقترن لأحد من الائمة ما آقترن له فى الملك والدّين والعزّ ، والتواضع والسَّعَة . والبَذْل والقدرة . والعفو والغلظة . والأيمان فى مواضعها ، والنُّسك مع الهمّة . والسطوة مع الاقالة . وهل ترك معشرَ الأولياء والاخوان فى الدين غايةً لم يَسْمُ بنا الى شرفها . وعلى مراتبها . ومستزاد الحظّ فى عاجل وآجل ، لم يبلغناه ونختار لنا خاصّ مكرمته ، ومُدّخَر عاقبته . أرشدنا إلى الدين . وسلك بنا سُبُل الجنة ، حاز لنا الملك . فلم يبق وراء ما ملكنا غاية . وورّد بنا الحروبَ وساسَها لنا . فلم يدَع غايةً للتعليم والدّراية . سُلّط علينا بسلطان الله الذى أتاه فلم يدع غاية فى التقلد والفقه . فكم علّمنا الفضائل . ثم فضَّلَنا بها . غلّب لنا الأمم . ثم خوّلناها . علّمنا طرائق الشّرف ، ثم شرّفنا بها . أخبَرنا عن الأنباء فكفانا مؤونة التماسها . وأغنانا بما عنده فيها . أخذ على أيدينا الخير للرعيّة . فوهب لنا شكرَها ، وصدّق مقالتنا عند الشُّبهة ، وأنفذ أمرنا فى التدبير .

فيا أيها الامام المنصور المهدىّ الرشيد حزت فضائل الآباء . وآهتديت بهدى الأنبياء . أنشكرك عن الاسلام . فأنت القائم به الداعى له . والناصر لحقّه ، أم نشكرك عن الأمصار . فأنت المُفتتح لمتسعها عَنْوة . والمتطوّل على أهلها بالرحمة . والمنعطِف عليهم بحسن الفائدة بعد ما هيجت منك سَوْرة الغضب . فأطفأت نارها . وأخمدت لَهَبها ، وعُدت على من سَفِه . وأضاع حظّه . أم نشكرك على المساجد . فأنت الذى أسّستَها على التقوى . وعمّرتها بتلاوة القرآن . وطهّرت المنابر وركبتها . تعلوها صائماً . وتنطق عليها صادقاً . وتدعو الى الرشد عليها ناصحاً . وتختم القرآن قبل أن تبدأها محسناً . وتتلو من قوارعه ، ما تصيخ له الأسماعُ وتلين له القلوب . أم نشكرك على البيت العتيق ، والركن والمقام ، والحِجْر وزمزم ، ومَشَاعر الحج . وأنت ذببتَ عنها ، وأعدت اليها عهدها ، فى مبعث نبيها ،

صلى الله عليه وسلم ، فأمنتَ النازع اليه ، من كلّ فجٍ عميق ، والخالين بها من الركوع والسجود ، أم نشكرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما حفظت فيه من عترته ، بعفوك عن مجرمهم ، ومضاعفتك ثوابَ محسنهم ، وإحيائك من أمرهم ، ما كان قد اندرس وانطمس ، بعد اللقاء بنبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رعيت منه فى قرابته وقرابتك ، وذوى رحمه و رحمك ، ماضيّع الناس ، ووصلْتَ منهم ما كان وصلَه ، إذ كان الله عز وجل ، قد فرَض صِلةَ الأرحام ، فكان أطوع خَلْق الله عز وجل فيما فَرَض عليه . أم نشكرك عن العوام ، فقد ألبست المسلمين ثوبَ الأمن ، وأذقتهم طعم السَّعَة والرفاهة ، وعدلت بينهم بالإنصاف ، وتوليت دونهم النَّصَب ، وآثرتهم الراحةَ . أم نشكرك عن الملوك والقواد والأجناد ، فأنت الذى رفعتَ منازلهم ، ووفّرت عددهم ، فلم يكن فى دهر أحدٍ من الخلفاء أسعدَ ولا أحظى منهم فى سلطانك ، بما بذلتَ لهم من المَعاون ، ووليتهم من الثغور والأمصار ، وأدررتَ عليهم من الأرزاق والخَواصّ ، أم نشكرك عن الأحكام والسُّنَن ، فأنت الذى أنهجتَ سبيلَها ، فأوجبتَ فَرْضها ، ونافستَ فى أهلها ؛ أم نشكرك عن الأعداء فأنتَ الذى بدأتَهم بالحُجّة ، ودعوتَهم الى الفَيْئة والإنابة ، ثم ثنّيتَ معقّبا بالعفو ، ونعشتَهم بعد البؤس ، وآنستَهم من الوَحْشة ؛ أم نشكرك على مكارم الأخلاق ، وأنتَ الذى ثبّتَ وطّأتها ، ونفيتَ عنها أضدَادها ، ولو نَطَقتْ بالفضل ، لنطقت بشكرك ، فى إزالتك إياها عن اللئام ، و إخطائك من اعترى اليها . أم نشكرك عن الثغور ، فأنتَ الذى تمّمتها ، وحصّنت عوراتها ؛ أم نشكرك عن السلَف ، فأنتَ الذى أشدتَ بفعالهم ، وحَفِظْتَهم فى أبنائهم ، أم نشكرك عن بُرْد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن القضيب الذى تخصّص به ، حتى جعلتهما زينتك ، وسموتَ بهما فى أعيادك ، عند حَشْدك ، على الطُّهر والزكاة ، والنّسك والتقوى ؛ أم نشكرك عن المسلمين فى رِعايتك إياهم ، وما نرعيهم من جنابك ، وتحمى عنهم من الآفات ، وتحمى عنهم من جبابرة الكفر ، وتفُضّ من جيوش الشِّرك والنَّكْث ، وتفتح من الحصون المُسْتَصْعَبة ، وتسهّل من الطُّرق الوعرة ، أم نشكرك عن تواضعك لله عزّ وجلّ وبِصَلاح

المسلمين طلبا للرفعة عند الله. أم نشكرك عن الدين وقد جعلت السلطان عبدا وقائدا ومنفذا. وكان مأمورا فجعلته آمرا، وآلة للقوة فجعلت القوة له آلة، فيامن اتصل شكره بشكر الله عز وجل، ونعمته بنعمة الله تعالى وطاعته، بطاعة الله فوهب الله لك شرف المنازل، ورقاك درج الفضائل. وجزاك الله عنا وعن غيرنا، مما شكر من ناطق أو صامت، جزيل الثواب ورفيع الدرجات. وأمتعك ما أتاك وأمتع الأمة ما آتاهم منك، والحمد لله ذى الرغبات، ومتمم الصالحات. شكرا لرب العالمين. فإنه مبلغ طاقتنا، ومنتهى جهدنا، وبه نستعين على تأدية فرائضه، أنه لايعين على ذلك الا هو. أحببتُ أن نشكر اليكم أمير المؤمنين أيده الله، اذ ورد على من أنعامه وافضاله. مالا أبلغه بالفعل، وأن يكون ما اقتصصنا عليكم، داعيا لكم، الى أن تشكروه عنا، وعن أنفسكم، وعن الإسلام والمسلمين، ورجوت بما وفقنا الله له، فيما شرحنا وأوضحنا، من الدلالة والبيان أن يكون مجتمعا ينتفع به من حضرنا، ومن عسى أن يؤدى اليه الخبر عنا، أو حدث بعدنا، وضننت بهذه المكرمة الرائعة، والمأثرة البارعة، التى ادخرها الله لأمير المؤمنين، أعز الله نصره، وأفرده بها، دون الأئمة والخلفاء، أن تمر بالأسماع صفحا، وتجتاز على القلوب سهوا، حتى تؤكد بالشواهد والبرهان، ليبقى ذكرها ونفعها فى الخلوف والأعقاب، ونحن نسأل الله عز وجل الذى جمع بأمير المؤمنين — مد الله فى عمره — ألفتنا، وعلى طاعته أهواءنا وضمائرنا، وأنالنا من الغبطة فى دولته وسلطانه، مالم تحوه شيعة إمام، ولا أنصار خليفة، أن يتم نور أمير المؤمنين، ويعلى كعبه، وتتعنا مقامه، حتى يبلغه سؤله وهمته فى الاستكثار من البر وادخار الأجر،

بمد واسع، وا لتسعت، ويراب به الصدع، ويصلح على بديه الفساد ويرتق به فتوق هده . ويثخن بسياسته ونكايته فى عدوها. ويتابع الفتوح فى بلدانهم حتى يؤتيه من نجح السعى. ورغائب الحظ فى الدنيا، ما يجزل عليه ثوابه فى الآخرة، وأرشد الذين يقول لهم: «فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

ومن توقيعاته نقلا عن كتاب الصولى .

وقع الى عامل ظالم « الحقّ طريق واضح لمن طلبه تهديه محجته ولا تخاف عثرته وتؤمن فى السرّ مغبته فلا تستقلنّ منه ولا تعدلنّ عنه فقد بالغتُ فى مناصحتك فلا تحوجنى الى معاودتك فليس بعد التقدمة اليك إلا سطوةُ الإنكار عليك » .

ووقع فى عناية بإنسان الى بعض العمّال « أنا بفلان تامّ العناية وله شديدُ الرّعاية وكنت احب أن يكون ما أرعيتَه طرفك من أمره فى كتابى مستودعا سمعك من خطابى فلا تعدلنّ بعنايتك الى غيره ولا تمنحنّ بعقدك سواه حتى تنيله إرادته وتجاوز به أمنيته إن شاء الله » .

وفى كتاب ابن طيفور من توقيعات أحمد بن يوسف الشيءُ الكثير فارجع اليه إن شئتَ .

(و) رسـائل سهل بن هارون(١)

من كلامه :

حكى الجاحظ قال : — لقى رجل سهل بن هارون فقال : هب لى ما لا ضَرَرَ به عليك ؛ فقال : وما هو يا أخى ؛ قال : درهم ؛ قال : لقــد هوّنتَ الدرهم وهو طائع الله فى أرضه

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة فى دولتى الرشيد والمأمون ، وقد وضع كتابا حاكى به كتاب كليلة ودمنة وسماه « ثعلة وعفرة » . وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) فى عهد المأمون . ولد سهــل بن هارون فى مدينــة ميسان بيـن واسط والبصرة ، وفى رواية فى دستميسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، فى أواخر النصف الأول من القرن الثانى تقديرا ، ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هرون بن راهيون (راهبون) وكنيته أبو عمرو ، فارسى الجنس ، أهوازى أو حوزى المولد ، عراقىّ المنشأ ، تحوّل الى البصرة فى سنّ لم تعرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم فى الدولة الاسلامية ، بل مدينة العلم فى العالم كله ، أو كما قيل فيها « قبة الإســلام ، وخزانة العرب » حوت مـن العلم الانسانى أصوله وفروعه ، ومن القائمين على تنميته مصاقعــه وفحوله ، فغذى روحه بلبان مجالسها ومجامعها ، واستنار عقله بما اقتبسه من نور معارفها فتخرج بعلمائها ، ولا شك أنهم كانوا طبقة عالية جدا ، فى كل مطلب من مطالب الآداب . وقيل : أن سهل بن هارون كان شيعيا ، وشيعة العراق فى زمنه كانوا على الاطلاق معتزلة ، ولم يؤثر عنه أنه تنقص أحدا مـن الصحابة الكرام ، بل عرف بالأعتدال مع الأموات ، إعتداله مع الأحياء ، وما أثر عنه أنه خاض غمار مباحث الكلام التى كانت على أشد حرارتهـا إذ ذاك ولا سيما فى البصرة ودار السلام بغداد . واتهموه بأنه كان مع الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العجم فضلا ، وإذا صحت هذه التهمة فمن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعوبية ومن يقول بالتشيع ، على المعنى الذى فسر به بعد قرون .

وصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلا فى نفسه ، عتيق الوجه ، حسن الشارة ، بعيدا من الفدامة (العىّ) معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يقضى له بالحكمة ، قبل الخبرة ، وبرقة الذهن ، قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب ، قبل الامتحان ، وبالنبل ، قبل التكشف (الظهور) » . وكان الجاحظ مازجه وثافنه . وقيل للحرانى ولعله ابراهيم بن ذكوان كاتب الهادى ووزيره : بينك وبين سهل بن هارون صداقة فأنعته لنا كى نعرف ، فقال : «هو كاسمه ، وازن العلم ، واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، وإن موزح لم يغضب ، كالغيث أين وقع ، نفع ، وكالشمس حيث أولت ، أحيت ، وكالأرض ما حملتها حملت ، وكالماء طهور للتمسه ، وناقع لغلة من أحرّ إليه ، وكالهواء الذى تقطف منه الحياة بالتنسم ؛ وكالنار التى يعيش بها المقرور ، وكالسماء التى قد حسنت بأصناف النور» ا . هـ . صورتان جميلتان فى وصف سهل صوّرهما مصوّران مبدعان عاشا بقربه ، وفتنهما بخلقه وخلقه .

واتهموا سهل بن هارون بالبخل وأوردوا له قصصا ونوادر ، وربما كان اتهامه بالبخل مبالغا فيــه تراد به النكتة والنادرة ا . هـ . من محاضرة للاستاذ الباحث السيد محمد كرد على ألقاها بالمجمع العلمى العربى بدمشق ونشرها بمجلتى المجمع والمقتطف .

لا يعصى ، وهو عُشر العشرة، والعشرةُ عشر المائة، والمائةُ عشر الألف ، والألف دِية المسلم، ألا ترى الى أين انتهى الدرهم الذى هوّنتـه ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم! فانصرف الرجل، ولولا انصرافه لم يسكت .

وحكى دِعْبِل الخزاعىّ الشاعر قال : أقمنا يوما عند سهل بن هارون، وأطلْنا الحديث حتى أضرّ به الجوع ، فدعا بغـدائه فأُتِيَ بصَحْفة فيها مَرَقٌ تحته ديك هَرِم، فأخذ كسرة وتفقّد ما فى الصحفة فلم يجـد رأس الديك فبـقى مطرقا ، ثم قال للغـلام : أين الرأس؟ قال : رميتُ به ؛ قال : ولِمَ ؟ قال : لم أظنـك تأكله؛ قال : ولِمَ ظننت ذلك ! فوالله إنى لأمقُتُ من يرمِى بِرِجله فكيف برأسـه ! ولو لم أكره ما صـنعتَ الا للطِّـيَرَة والفأل لكَرِهتُه ، أما علمتَ أن الرأس رئيس يُتَفاءل به ، وفيه الحواسّ الخمس. ومنه يَصيح الديك، ولولا صوتُه ما أُرِيد. وفيه فرقه الذى يُتَبَرّك به. وعينُه التى يضرب بصفائها المثل فيقال : شرابٌ كعين الديك، ودماغه عجب لوجع الكُلْيـة، ولم أرَ عَظْمًا قطُّ أهشّ تحت الأسنان منـه، وإن كان بلغ من نُبْلك أنك لا تأكله. فعنـدنا من يأكله، أو ما علمتَ أنه خيرٌ من طرف الجَناح ومن رأس العُنُق! انظر أين رميتَه؛ فقال : والله ما أدرى؛ قال : أنا والله أدرى ! إنك رميتَ به. والله فى بطنك، والله حسيبك .

ومن مؤلّفاته كتابُ البخلاء .

ولمـا صنّف سهلٌ كتابه فى البخل أهداه الى الحسن بن سهل واستماحه . فكتب إليه الحسن : قد مدحتَ ما ذمّه الله، وحسّنت ما قبّحه الله، وما يقوم بفساد معناك صلاحُ لفظك، قد جعلنا ثوابَ مدحك فيه قبولَ قولك، فما نُعطيك شيئا .

واتّهـم سهلُ بن هارون بالبخل واورد له فى ذلك قِصَصٌ ونوادرُ وعدّه الجاحظ من "مُتعاقلى البخلاء وأنْحـاء العلماء" قال : ما علمتُ أن أحدا جرّد فى البخل كتابا إلا سهل بن هارون ، وأبا عبد الرحمن الثورى . والبخل فى الفرس غالب فى الجملة ، غلبة الكرم على

طبائع العرب ، فاقتضى ذلك التفريط الذى رآه سهل فى تبـذير العرب ، أن يُدلى لقومه بآرائه المفرطة فى الاقتصاد والإمساك . وما شُوهد قطّ تفريطٌ آلا و إلى جانبه إفراط .

كتبه وطريقته فى التأليف :

كان سهلُ بن هارون مُنقَطع القرين فى صنوف العلم والآداب، وناهيك بعَـالِم كبير كالجاحظ كان يؤلّف الكتابَ الكثيرَ المعانى، الحسن النَّظْم، فينسُبُه الى نفســه فلا يرى الأسماع تُصْغِى اليه، ولا القلوب تَيَمَّمُ نحوَه ثم يؤلّف كما قال عن نفسه، ما هو أنقصُ منه مرتبةً وأقلّ منه فائدةً، فينحَلُه عبد الله بن المقفّع، أو سهل بن هارون، فيُقبِل الناس عليها، و يسارعون الى نَسْخها .

ويقال إن طريقة سهل فى كِتابته طريقةُ أميرِ المؤمنين علىّ بن أبى طالب لا يتكلّف لكلامه، فلا يُشاهد فيــه الناقدُ أثرَالتعمُّل، بل لا يكلّف بغير إرسال النفس على سجيّتها، فهو وآبنُ المقفّع والجاحظ على غِـرَارٍ واحدٍ .

وقيل إن سهلا كاتبُ سلاطين،والجاحظَ مؤلّفُ دواوين.وكأنّ كلامَه نَغمةٌ مُوسيقيةٌ تعرف آنتهاءَ جُمْلته من رَنّتها بعــد أن ملكتْ عليك مشاعرَك ، لا يَحْفِلُ بالأسجاع إلّا إذا جاءت عفوَ الخاطر، شأن بُلغَاء الصدرِ الأوّل . وكان يقول الشعر وأ كثرُ شعره ممّـا أملاه قلبهُ، فى غرض من أغراض المجتَمع . وعدّه الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطَوال والقِصَار، والكتب الكبار المجلدة، والسِير الحِسان المولّدة، والأخبار المدوّنة . ولقّبــه مرةً بالكاتب ، ولعلّ لقب الكاتب فى شرفه أ كبرُ من عالم . وذ كره آبن النديم فى البلغاء وقال: إنّه شاعرٌ مُقِلٌّ، وعدّه فى الشعراء الكُتّاب . وقال: إنه كان ممن يعمل الأسْمَار والخُرافَات على أَلْسِنة الناس و الطَّيْر والبهائم هو وعبدُ الله بن المقفّع وعلىّ بن داود كاتب زبَيْده . وشعره نحسون ورقةً . أما الدهشة ففى تآليفه ، فله ديوان رسائله ، وكتاب النمر والثعلب، وكتاب اسباسيوس (أسانوس) فى آتحاذ الإخوان ، كتاب أسد بن أسد ، كتاب سَحَرةَ العقل، كتاب تدبير الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن أبَان

فى القضاء، كتاب الفرس، كتاب الغـزالين، كتاب ندود و ودود ولدود. كتاب الرياض، كتاب ثعلة وعفراء، (وفى رواية ثعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمنة، قلده فى أبوابه وأمثاله .

وقال المسعودى : يزيد عليه أى على كليلة ودمنة فى حسن نظمه وقد صنفه للمأمون . ومن تآليفه : كتاب الهزلية والمخزومى ، كتاب الوامق والعـذراء الى غير ذلك من المصنفات التى لم تبق الأيام ويا للأسف على واحد منها فيما علمنا .

دخل سهل على الرشيد وهو يضاحك المأمون، فقال : اللهم زده من الخيرات، وابسط له من البركات، حتى يكون فى كل يوم من أيامه مربيا على أمسه ، مقصرا عن غده، فقال الرشيد : يا سهل، من روى من الشعر أحسنه وأرصنه ، ومن الحديث أفصحه وأوضحه، إذا رام أن يقول لا يعجزه القول؟ فقال سهل : يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن أحدا تقدمنى الى هذا المعنى، قال بل أعشى همدان حيث يقول :

رأيتـك أمس خير بنى لؤى * وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غدا تزيد الخير ضعفا كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقد شهد مقتل البرامكة فى سنة ١٨٧هـ وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال : إن سجاعى الخطب ، ومحبرى القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلام يتصور درا ، ويحيله المنطق السرى جوهرا ، لكان كلامهما، والمنتقى من لفظهما، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد فى بديهته وتوقيعاته فى كتبه، فدمين عيين، وجاهلين اميين، ولقد عمرت معهم، وأدركت طبقة المتكلمين فى أيامهم، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل الا فيهم، ولم تكن مقصورة إلا عليهم، ولا انقادت الا لهم، وأنهم محض الأنام، ولباب الكرام، وملح الأيام، عتق منظر، وجودة مخبر، وجزالة منطق، وسهولة لفظ، ونزاهة نفس، واكتمال خصال، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم، والمأثور

من خصالهم، كثير أيام مِن سواهم من لَدُن آدم أبيهم الى النفخ فى الصور، وأبتعاث أهل القبور، حاشا أنبياء الله المكرّمين، وأهل وَحْيه المرسَلين، لما باهتْ إلا بهم، ولا عوّلتْ فى الفخر إلا عليهم، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم، وكريم أعراقهم، وسعة آفاقهم، ورِفْق ميثاقهم، ومعسولِ مذاقهم، وبهاءِ إشراقهم، ونقاوةِ أعراضهم، وتهذيبِ أغراضهم، وآكتمالِ خِلَالِ الخير فيهم، الى ملء الأرض مثلهم فى جنب محاسن المأمون كالنُّفْثَة (التفلة) فى البحر، والخَرْدَلة فى المَهْمَهِ القَفْر .

قيل : وهذا الكلام على ما فيه من حقيقة فى بيان سجايا البرامكة والرشيد والمأمون لم يختم بالنَّصَفَة الحقّة ، ومال به سهل الى المصانعة ، وخرّجه على نحو مبالغة الفُرْس ، فى الإطراء والمَلَق لولىّ الأمر .

ورَوى بعضُ الرُّواة أن المأمون كان آستقل سهل بن هارون ؛ وقد دخل عليه يوما والناسُ على مراتبهم ، فتكلّم للمأمونُ بكلام ذهب فيه كلّ مَذْهب ، فلما فَرَغ من كلامه أقبل سهل بن هارون على الجَمْع فقال : مالكم تسمعون ولا تَعُون ، وتُشاهدون ولا تَفْقهون ، وتفهمون ولا تتعجبون ، وتتعجبون ولا تُنْصِفون ! والله إنه ليقول ويفعل فى اليوم القصير ما فَعَلَ بنو مَرْوان فى الدهر الطويل ، عَرَبُكم كعَجَمكم ، وعجمُكم كعبيدكم ، ولكن كيف يُعَرَّف بالدواء مَن لا يشعر بالداء . فرجع المأمونُ فيه الى الرأى الأوّل ؛ وعرف أنه الرجل كلّ الرجل ، فقرّبه وأدناه على النحو الذى كان عليه فى عهد والده .

ومن كلام له فى كتابه ثعلة وعفرة :

"اجعلوا أداءَ ما يجبُ عليكم من الحقوق مُقَدَّما قبل الذى تجودون به من تفضلكم ، فإنّ تقديم النافلة مع الإبطاء فى الفريضة شاهدٌ على وَهْن العقيدة ، وتقصيرِ الرَّوِيّة ، ومُضِرٌّ بالتدبير ، ومُخِلٌّ بالآختيار ، وليس فى نفع تحمد به عوض من فساد المروءة ، ولزوم النقيصة " .

وهذا مأخوذ من قوله فى يحيى بن جعفر :

عَدُوٌّ تِلَادِ المالِ فيما يَنُوبُهُ * مَنُوعٌ اذا ما مَنْعُهُ كان أحْزَمَا

مُذَلَّلُ نفسٍ قد أبتْ غيرَ أن تَرَى * مكارِهَ ما تأْتِى من العيش مَغْنَمَا

وكتب الى صديق له أبَلَّ من ضعف :

" بلغنى خبر الفَتْرة فى إلمامها وانحسارها ، والشكاةِ فى حلولها وارتحالها . فكاد يشغل القَلَق بأوّله عن السكون لآخره ، وتَذْهَل الحَيْرةَ فى ابتدائه ، عن المَسَرّة فى انتهائه ، وكان تَغَيُّرِى فى الحالين بقدرهما ارتياعًا للأولى ، وارتياحا للأُخْرى " .

⁂

وكتب فى البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح اللهُ أمرَكم وجمع شَمْلَكم وعلّمكم الخير وجعلكم من أهله . قال الأحنفُ بن قيس : يا معشرَ بنى تميم ، لا تُسْرِعوا الى الفتنة فإنّ أسرع الناس الى القتال أقلُّهم حَياء من الفِرار . وقد كانوا يقولون : اذا أردتَ أن تَرَى العيوب جَمّةً فتأمل عَيّابًا فإنه إنما يَعيب الناس بفضل ما فيه من العَيْب . ومن أعيب العيب أن تَعيب ما ليس بعيب . وقبيحٌ أن تَنْهَى مُرْشِدًا وأن تُغْرِى بمُشْفِقٍ . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإصلاحَ فاسدكم ، وإبقاءَ النعمة عليكم . وما أخطأنا سبيل حُسْن النية فيما بيننا وبينكم . وقد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما اخترناه لكم ، ولأنفسنا قبلكم ، وشُهِرنا به فى الآفاق دونكم ؛ ثم نقول فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : ﴿وَمَا أُرِيدُ أن أُخالِفكم الى ما أنهاكم عنه إن أُريد إلا الإصلاحَ ما استطعتُ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أُنِيبُ﴾ فما كان أحقَّنا منكم فى حُرْمَتِنا بكم أن تَرْعَوْا حقَّ قَصْدِنا بذلك اليكم على ما رَعَيْناه من واجب حقكم ؛ فلا العُذْرَ المبسوط بَلَغتم ولا بواجب الحرمة قُمْتم . ولو كان ذكرُ العيوب يُرادُ به فخرٌ لرأينا فى أنفسنا من ذلك شغلا .

عِبْتُمونى بقولى لخادمى : أجيدى العَجينَ فهو أطْيَب لطَعْمه وأزْيَدُ فى رَيْعه[1] . وقد قال عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه : أَمْلِكوا[2] العجينَ فإنّه أحَدُ الرَّيْعَين .

وعِبْتُمونى حين خَتَمْتُ على ما فيه شىء ثَمين من فاكهةٍ رَطْبَةٍ نَقيّة ومن رَطْبَة غريبة على عَبْد نَهِمٍ وصَبىّ جَشِع وأَمَةٍ لَكْعاء[3] وزوجة مُضيعةٍ .

وعبتمونى بالخَتْم وقد خَتَم بعضُ الأئمّة على مِزْود سَوِيق[4] وعلى كيس فارغ . وقال : طِينَةٌ خيرٌ من ظِنّةٍ، فأمسكتم عمّن ختَم على لا شىء وعِبْتم من خَتَم على شىء .

وعبتمونى أن قلتُ للغلام : اذا زدتَ فى المَرَقِ فزِد فى الإنضاج ليجتمع مع التأدُّمِ باللحم طِيبُ المرق .

وعبتمونى بخَصْف[5] النعل وبتَصْدير[6] القميص وحين زَعَمْتُ أن المخصوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبَه بالنُّسُك وأن الترقيع من الحَزْم والتفريط من التضييع. وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ويُرَقِّع ثوبه ويقول: لو أُهدى الىَّ ذِراعٌ لقَبِلتُ، ولو دُعِيتُ الى كُراعٍ لأجَبْتُ . وقالت الحكماءُ : لا جديدَ لمن لم يَلْبَس الخَلَق . وبعَث زِيادٌ رجلا يَرتاد له مُحدِّثا واشترط عليه أن يكون عاقلا فأتاه به موافِقا فقال له : أكنتَ به ذا معرفة ؟ قال : لا، ولكنى رأيته فى يومٍ قائظ يَلْبَس خَلَقا ويلبس الناس جديدا، فتفرَّستُ فيه العقلَ والأدبَ . وقد علمت أنّ الخَلَق فى موضعه مثل الجديد فى موضعه . وقد جعل اللهُ لكل شىء قَدْرا وسَمّا به مَوْضعا كما جعل لكل زمانٍ رجالا ولكل مقام مَقالا . وقد أحْيا اللهُ بالسّمّ وأمات بالدواء وأغَصّ بالماء . وقد زَعَموا أن الإصلاح أحَدُ الكاسبين كما زعموا أن قِلّة العيال أحد اليَسارَيْن . وقد جَبَر الأحنفُ بن قيس يد عَنْز وأمر مالكُ بن أنس

(١) الريع : النماء والزيادة . (٢) إملاك العجين : إنعام . (٣) اللكعاء : الحمقاء
(٤) المزود : وعاء الزاد . والسويق : طعام يتخذ من الحنطة أو الشعير . (٥) خصف النعل : خرزها
(٦) تصدير القميص : أن يجعل لصدره بطانة .

يفرك النعل . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة . ولبس سالم بن عبد الله جلد أضحية . وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أهدى اليك دجاجة . فقال : إن كان لابد فاجعلها بيوضًا .

وعبتمونى حين قلتُ : من لم يعرف مواضع السرف فى الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد فى الممتنع الغالى . ولقد أُتيتُ بماء للوضوء على مبلغ الكفاية وأشد من الكفاية ، فلما صرت الى تفريق أجزائه على الأعضاء والى التوفير عليها من وضيعة[1] الماء وجدتُ فى الأعضاء فضلا عن الماء ، فعلمتُ أن لو كنتُ سلكتُ الاقتصادَ فى أوائله لخرج آخره على كفاية أوله ولكان نصيبُ الأول كنصيب الآخر . فعبتمونى بذلك وشنعتم علىّ ، وقد قال الحسن وذكر السرف : أما إنه ليكونُ فى الماء والكلأ فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه الكلأ .

وعبتمونى أن قلت : لايغترّن أحدكم بطول عمره وتقويس ظهره ورقة عظمه ووهن قوته وأن يرى نحوه أكثر ذريته ، فيدعوه ذلك الى إخراج ما له من يده وتحويله الى ملك غيره والى تحكيم السرف فيه وتسليط الشهوات عليه ، فلعله يكون معمرا وهو لا يدرى ، وممدودًا له فى السن وهو لايشعر ، ولعله أن يرزق الولد على اليأس ويحدث عليه من آفات الدهر ما لا يخطر على بال ولا يدركه عقل ، فيسترده ممن لا يرده ويظهر الشكوى الى من لا يرحمه أصعب ما كان عليه الطلب وأقبح ما كان به أن يطلب . فعبتمونى بذلك ، وقد قال عمرو بن العاص : "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا"

وعبتمونى بان قلت : ان السرف والتبذير الى مال المواريث وأموال الملوك وان الحفظ للمال المكتسب والغنى المجتلب والى من لا يعرض فيه بذهاب الدين واهتضام لعرض ونصب البدن واهتمام القلب أسرع ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله

(١) الوضيعة هـ : النقد

ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل . ومن لم يعرف للغنى قدره فقد أوذِن بالفقر وطاب نفسًا بالذل .

وعبتمونى بأن قلت : إن كَسْب الحلال يضمن الإنفاق فى الحلال . وإنّ الخَبيث يَنْزِع الى الخبيث ، وإنّ الطّيّب يدعو الى الطيّب ، وإنّ الإنفاق فى الهوى حِجاب دون الهُدى ؛ فعبتم علىّ هـذا القول ، وقد قال معاويةُ : لم أر تبـذيرا قط إلا والى جنبه حقّ مُضَيَّع . وقد قال الحسن : إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجلُ مالَه فانظروا فيماذا يُنفِقُه فإن الخبيث إنما يُنْفَق فى السّرف . وقلت لكم بالشّفقة عليكم وحسن النظر منى لكم وأنتم فى دار الآفات ، والجوائحُ غير مأمونات : فإن أحاطَتْ بمال أحدكم آفَةٌ لم يرجِع إلا الى نفسه . فاحذروا النِّقَمَ باختلاف الأمكنة فإن البَلِيّة لا تجرى فى الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطـاب رضى الله عنه فى العَبْـد والأَمة والشاة والبعير : فرّقوا بين المنـايا . وقال ابن سِيرين لبعض البَحْريّين : كيف تَصْـنَعون بأموالكم ؟ قالوا : نُفَرّقها فى السُّفُن فإن عَطِب بعضٌ سَلِم بعض . ولولا أن السلامة أكثر ماحَملنا أموالَنا فى البحر . قال ابن سِيرين : " تَحْسَبها حَمْقاء وهى صَنَاع "[(١)] .

وعبتمونى بأن قلت لكم عند إشفاق عليكم : إن للغِنى لَسُكرًا وللمـال لَنَزْوَةً[(٢)] فمن لم يحفَظ الغنى من سكره فقد أضاعه ؛ ومن لم يرتبط المـال لخوف الفقر فقد أهمَله .

فعبتمونى بذلك وقد قال زيد بن جَبَلَة : ليس أحد أقصرَ عقلا من غنىّ أمِن الفقرَ ، وسُكْرُ الغِنى أكثر من سكر الخمر . وقد قال الشاعرُ فى يحيى بن خالد بن بَرْمك :

وَهوبُ تِلاد المـال فيما يَنُوبه * مَنُـوعٌ اذا ما مَنْعُه كان أحزما

وعبتمونى حين زعمتم أنى أُقدّم المـال على العلم ، لأن المـال به يُفَاد العـلمُ وبه تقوم النفس قبل ان تعرف فضلَ العلم ، فهو أصل والأصل أحقّ بالتفضيل من الفرع ، فقلتم :

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن به الغفلة وهو فطن يقظ (٢) النزوة : الثورة أو الوثبة

كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأغنياء أفضل أم العلماء؟ قال : العلماء . قيل له : فما بال العلماء يأتون أبوابَ الأغنياء أكثر ما يأتي الأغنياءُ أبوابَ العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال وجَهْل الأغنياء بحق العلم. فقلت : حالُها هي القاضية بينهما . وكيف يستوى شيءٌ حاجةُ العامّة اليه وشيءٌ يَغْنَى فيه بعضُهم عن بعض .

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياءَ باتّخاذ الغَنَم والفقراء باتّخاذ الدّجاج . وقال أبو بكر رضى الله عنه : إنى لأُبغِضُ أهلَ بيْتٍ يُنفقون نفقةَ الأيامِ فى اليوم الواحد. وكان أبو الأسود الدُّؤَلىّ يقول لولَده : اذا بَسَط الله لك الرزقَ فابْسُطْ واذا قبَض فاقبِض .

وعبتمونى حين قلت : فَضْلُ الغنى على القُوت إنما هو كفضل الآلة تكون فى البيت اذا احْتِيج اليها اسْتُعْمِلت وإن اسْتُغْنِيَ عنها كانت عُدّةً . وقد قال الحُصَيْن بن المنذر : وَدِدْتُ أن لى مثل أُحُدٍ ذَهَبًا لا أنتفع منه بشيء . قيل له : فما كنتَ تَصنع به ؟ قال : لكثرة من كان يَخْدُمُنى عليه لأن المال مخدوم . وقد قال بعضُ الحكماء : عليك بطلب الغِنَى فلو لم يكن فيه إلا أنه عِزٌّ فى قلبك وذُلٌّ فى قلب عدوّك لكان الحظ فيه جسيما والنفع فيه عظيما .

ولسنا نَدَعُ سِيرةَ الأنبياء وتعليمَ الخلفاء وتأديبَ الحكماء لأصحاب اللهو . ولستم على تردّون ولا رأيي تُفَنِّدون . فقدِّموا النظرَ قبل العزم وأَدْرِكوا ما لكم قبل أن تُدْرِكوا ما لكم . والسلام عليكم .

وسَهْلٌ هو القائل :

تَقَسَّمني هَمّانِ قد كَسَفَا بالِي ... وقد تَرَكَا قلبي مَحَجَّةَ بَلْبالِ

هما أَذْرَيا دَمْعي ولم تُذْرِ عَبْرَتِي ... رهينةُ خَدٍّ ذاتُ مِيْطٍ وَخَلْخالِ

ولا قَهْوةٌ لم يَبْقَ منها سوى الذى ... عَنِ أن تُحاكِي النورَ فى رأس ذَيّالِ

تحلّل منها جُرْمُها وتماسكتْ * لها نفسُ معدومٍ على الزّمنِ الخَالِي

ولكنما أَبْكِي بعينٍ سَخِيَّـةٍ * على حَـدَثٍ تبْكِي له عينُ أمثالى

فِرَاقُ خليـلٍ لا يقـومُ به الأَسَى * وخَـلَّةُ حُرٍّ لا يقـومُ بها مالى

فَوَاحسرتى حتّى مَتَى القلبُ مُوجَعٌ * لفَقْدِ خليـلٍ أو تعـذُّر إفضال

وما الفضـلُ إلّا أن تجُودَ بنائلٍ * وإلا لِقاء الخِـلِّ ذى الخُلُقِ العَالِي

وهو القائل :

اذا امرؤٌ ضاقَ عنّى لم يَضِق خُلُقِي * من أن يَرانى غَنِيًّا عنـه باليَأسِ

لا أطلبُ المـالَ كى أُغْنَى بفَضْلَتِهِ * ما كانَ مَطْلَبُهُ فَقْـرًا من الناسِ

(ز) عمــرو بن مسعدة

كان كاتبا بليغــا، جَزْلَ العبارة وجيزَها، سديدَ المقاصد، فضـلُه شائع، ونُبلُه ذائع، أشهرُ من أن يُنَبَّــه عليه، أو يُدَلَّ بالوصف اليه، قد وَلِيَ للمأمون الأعمــالَ الجليلةَ، وألحقَ بذوِي المراتبِ النبيلةِ. وسمّاه بعضُ الشعراء وزيراً لِعظَم منزلته لا لأنه كان وزيراً، وهو قوله:

لقد أسعدَ اللهُ الوزيرَ بن مَسْعَدَهْ * وبُثَّ له فى النــاس شُكرٌ ومَحْمَدَهْ

---

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول بن صول . وصول (بضم الصاد) كان رجلا تركيا وكان ملك وأخوه فيروز على جرجان وتمجسا بعد التركية وتشبها بالفرس .

بدأ عمرو بن مسعدة فى خدمة الدولة عاملا من العمال فظهرت كفايته وبلاغته، وبالبلاغة توصل الى الخليفة فعدّ أحد أفراد قلائل فى رجاله ، قال أحمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوما على المأمون وبيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى، ويصعد فيه ويصوّب ، فلما مرت على ذلك مدّة من زمانه التفت الىّ وقال : يا أحمد أراك مفكرا فيما تراه منى ، قلت : نعم، فقال : ان فى هــذا الكتاب كلاما نظير ما سمعت الرشيد يقول فى البلاغة ، زعم أن البلاغة إنما هى التباعد عن الاطالة ، والتقرب من معــنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على ذلك . وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة الينا ، فكتبته واذا فيه : « كتابى الى أمير المؤمنين، ومن قبلى من قواده، ورؤساء أجناده، فى الانقياد والطاعة، على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، واختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه أمورهم » . فلما قرأته قال : ان استحسانى اياك بعثنى أن أمرت للجند قبله بأعطياتهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاته بما يستحقه من حل محله فى صناعته . وفى رواية أن المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أشهر وأنه قال لأحمد بن يوسف : لله در عمرو ما أبلغه ! ألا ترى الى إدماجه المسألة فى الأخبار، وإعفائه سلطانه من الاكثار .

وكان عمــرو بن مسعدة وكنيته أبو الفضل أبيض أحمر لونه ؛ وكان المأمون يسميه الرومى لبياض وجهه وكان يخضب وتوفى بأذنة سنة سبع عشرة ومائتين . ولم نعــرف منشأه ومولده وأساتيذه وثقافته وانما عرفنا أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أبوهم — وكان كاتبا أيضا — تربيتهم كل الإحسان حتى حازت من أحدهم هذه البلاغة النادرة التى كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون ، وكان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه ويخلوان معه ويمازحانه . ولكى يصل الرجل الى هذا المقام مع مثل هــذا الخليفة العصى فى كل شئونه يجب أن يحتوى على صفات عالية يعز مثلها فى الأقران والأتراب .

قال عمرو بن مسعدة : كنت أوقع بين يدى جعفر بن يحيى البرمكى فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه فى رواتبهم فرمى بها الى وقال : أجب عنها فكتبت : « قليل دائم خير من كثير منقطع » فضرب بيده على ظهرى وقال . —

فهو كما كتبَ الحسنُ بنُ سهل الى محمد بن سَمَاعة القاضى وقد احتاجَ الى رجلٍ يُوَلّيه بعضَ الأعمال فقال: إنه يريد رجلا جامعا لخصال الخير، ذا عِفّة ونزاهة طِعمة(١)، قدهذّبته الاداب، وأحكمته التجارب، ليس بظَنِينٍ فى رأيه، ولا بمطعونٍ فى حَسَبه إن أُؤتمن على الأسرار قام بها. وإن قُلّد مُهِمًّا من الأمور أجزأ(٢) فيه، له سنٌّ مع أدب ولسان، تُعقده الرزانة، ويُسكته الحلم، قد فُرّ(٣) عن ذكاء وفِطْنة، وعضّ على قارحة(٤) من الكمال، تكفيه اللحظةُ، وتُرشده السكتة، قد أبصر خدمةَ الملوك وأحكمها، وقام فى أمور فحُمِد فيها، له أناةُ الوزراء، وصَوْلةُ الأمراء، وتواضُع العلماء، وفهمُ الفقهاء، وجوابُ الحكماء، لا يَبيع نصيبَ يومه بحرمان غده، يكاد يَستَرِقّ قلوبَ الرجال بحلاوَة لسانه، وحُسْنِ بيانه، دلائلُ الفضل عليه لائحةٌ، وأماراتُ العلم له شاهدةٌ، مُضطلِعاً بما استنهض، مستقِلّاً بما حمل.

= أى وزير فى جلدك. وقد شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان فى عصره ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه: إنه أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد اذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله فاذا رامه بعد عليه. وهذا كما قيل لأحد البلغاء: ما حد البلاغة؟ فقال: التى اذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فاذا رامها استصعبت عليه.

ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف فى موضوع خاص وأفرد مسألة فى التأليف، وعدّه ابن النديم فى الشعراء الكتّاب ولم يذكر إلا أن له ولأخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر وهى من الضائع أيضا. والغالب أن مهام الدولة لم تترك له وقتا يصرفه فى درس خاص، أو وضع كتاب أو رسالة: وما تلقفه العلماء والأدباء من كلامه، فهو مما صدر عنه بالمناسبات، ورواه له المعجبون به، وما أعظم المفقود منه. والمظنون أن لو كانت جمعت له رسائله على إيجازها لكان منها ديوان كبير، لأن من صرف أعواما طويلة وهو قابض على يراعته يعالج بها الموضوعات السياسية والادارية فى ذاك المجتمع العظيم لا شك أنه تجتمع له صفحات كثيرة مهما كان مقلا معروفا بالايجاز. اهـ من محاضرة للاستاذ الباحث محمد كرد على نشرها بمجلة المجمع العلمى العربى. وفى عمرو بن مسعدة قال محمد البيدق وقد اعتل:

قالوا أبو الفضل معتل فقلت لهم * نفسى الفداء له من كل محذور

يا ليت علته بى غير أن له * أجر العليل وإنى غير مأجور

وتجد ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٨٨) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٥) والوافى بالوفيات للصفدى (ج ٥ ص ٢٠٥ قسم ثالث من الأصل الفتوغرافى المحفوظ بدار الكتب المصرية).

(١) فى الأساس: ومن المجاز فلان طيب الطعمة وخبيث الطعمة (بالكسر) وهى الجهة التى منها يرتزق (بوزن الحرفة). (٢) أجزأنى كذا: كفانى. (٣) فرّ عن ذكاء، وفطنة، أى جرب واختبر فيما. (٤) وعضّ على قارحة، كناية عن بلوغه درجة الكمال.

ومن كلام عمرو بن مسعدة :

أعظمُ الناس أجراً، وأنبههم ذِكْرا ، مَنْ لم يَرْضَ بموت العدل فى دولته ، وظهورِ الجهة فى سلطانه، وإيصال المنافع الى رعيّته فى حياته، وأسعدُ الرعاة مَن دامتْ سعادةُ الحق فى أيامه، وبعد وفاته وانقراضه .

وقال : الخطّ صُوَرُ الكُتُبِ تُرَدّ اليها أرواحُها .

وقال : الخطّ صورةٌ ضئيلةٌ لها معَانٍ جليلة، ورُبّما ضاق عن العيون ، وقد ملأ اخطار الفنون .

وقال : لا تستصحبْ مَن يكون استمتاعُه بمالك وجاهك ، أكثرَ من إمتاعه لك بشكرِ لسانه وفوائد علمه، ومَن كانت غايتُه الاحتيالَ على مالك وإطراءَك فى وجهك. فإن هذا لا يكون إلا ردىء الغيب، سريعاً الى الذم .

وكتب الى الحسن بن سهل :

أما بعد، فإنّك ممّن اذا غَرَسَ سَقَى، واذا أسّس بَنَى،ليستمّ تشييدَ أُسُسه، ويَجتني ثمارَ غَرْسه، وثناؤُك عندى قد شارفَ الدروسَ ، وغرسُك مُشْفِ على اليْبوس . فتداركْ بناء ما أسّستَ، وسقْيَ ما غَرَستَ إن شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه فى شخص يعزّ عليه :

أما بعد، فوصّل كتابى اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يُديرونَنِي عن سالمٍ وأُديرُهم - وجِلدةُ بين العينِ والأَنْفِ سالمْ

أى يَحُلّ منى هذا المحل .

وكتب الى المأمون فى رجل من بنى ضبّةَ يستشفع له بالزيادة فى منزلته وجعل كتابه تعريضا :

أما بعد، فقد استشفع بى فلانٌ يا أمير المؤمنين لتطوّلك علىّ فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمتُه أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين . وفى ابتدائه بذلك تعدّى طاعته والسلام .

فكتب اليه المأمون : "قد عرفنا توطئتك له ، وتعريضك لنفسك ، وأجبناك اليهما ، ووافقناك عليهما" . وقوله : "إن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته" : من الكلام السرى الذى يدل على مبلغ أدبِ عمرو وبُعْدِ غوره في السياسة ووقوفه على روح عصره ونفسية الخلفاء .

قَدِمَ رجل من أبناء دَهَاقِين[1] قريش ، على المأمون لِعِدَة سلفتْ منه ، فطال على الرجل انتظارُ خروج أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : تُوَصِّلُ مني رُقْعةً الى أمير المؤمنين تكون أنت الذى تكتُبها تكن لك علىّ نعمتان . فكتب : "إن رأى أميرُ المؤمنين أن يَفُكَّ أَسْرَ عبيده من رِبْقة المُطْل بقضاء حاجته ، أو يأْذَنَ له بالانصراف الى بلده فعل إن شاء الله" .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمْرا فجعل يَتَعَجّب من حسن لفظها ، وإيجازِ المراد . فقال عمرو : فما نتيجتُها يا أمير المؤمنين؟ قال : الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه ، لئلا يتأخّر فضلُ استحساننا كلامَه ، وبجائزة مائة ألف درهم ، صِلَةً عن دناءة المَطْل . وسَمَاجةِ الإغفال .

وهذا مما يدل على سعة عقل المأمون وولُوعه بالبلاغة وقدره أهلَها حق قَدْرهم ، دع ما هنالك من نفسٍ ما أحبتْ إلا الجُودَ والعطاءَ .

ومن حِكَم عمرو بن مسعدة :

العبوديّة عبوديةُ الإخاء . لا عُبُودية الرِّق . الودّ أعطف من الرَّحِم . إن الكريم لَيَرْعَى من المعرفة ما رعى الوَصْلُ من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زينةٌ في الرخاء ، وعُدَّةٌ للبلاء . مَثَلُ الإخوان مَثَلُ النار ، قليلُها مَتاعٌ ، وكثيرُها بَوار . النفس بالصديق ، آنسُ منها بالعشيق ، وغَزَلُ المودة ، أرقُّ من غَزَل الصبابة . من حقوق المودة ، عفوُ الإخوان ، والإغضاءُ عن تقصيرٍ إن كان . ذكر رجلٌ رجلا فقال : حسبُك أنه خُلِقَ كما تشتهى إخوانُه . المودّةُ قرابةٌ

---

(١) الدهاقين : الزعماء أرباب الأملاك بالسواد ، وأحدهم دهقان (بكسر الدال معرّب) .

مستفادةٌ . ما تواصل اثنان فدام تواصلُهما، الا لفضلهما أو فضل أحدهما . أسرعُ الأشياء انقطاعا مودة الأشرار . المحرومُ من حُرِم صالحى الإخوان . لقاءُ الخليل شفاءُ الغليل . قلّةُ الزيارة، أمانٌ من الملالة . إخوانُ السوءِ كشَجَر النار يُحرق بعضُه بعضا . علامةُ الصديق اذا أراد القطيعةَ أن يُؤخِّر الجوابَ ، ولا يبتدئَ بالكتاب . لا يُفسدَنّك الظنُّ على صديق قد أصلحك اليقينُ له . من لم يُقدِّمِ الامتحانَ قبل الثّقة، والثقةَ قبل الأُنْس، أثمرتْ مودتُه ندَمًا . اذا قدمتَ الحُرمة، تشبّهتَ بالقرابة . العِتابُ حياةُ المودة . ظاهرُ العتاب خيرٌ من باطن الحقد . ما أكثرَ مَن يُعاتب لطلب علّة، ويَبْقَى الوُدُّ ما بَقِيَ العتابُ . كُمُون الحقد فى الفُؤاد ككُمون النار فى الزّناد . القريب بعيدٌ بعداوته ، والبعيد قريبٌ بمودّته . لا تأمنَنّ عدوَّك وإن كان مقهورا، واحذرْه وإن كان مفقودا، فإن حدَّ السيف فيه وإن كان مغمودا؛ لا تتعرّضْ لعدوّك فى دولته، فإنها اذا زالت كفتْك مؤونتَه . نُصح الصديق تأديبٌ، ونصحُ العدو تأنيب .

روى البَيْهَقِيّ قال : أخبرَنا بعضُ أصحابنا قال : شهدتُ المأمون يوما وقد خرج من باب البُستان ببغداد فصاح به رجل بَصْرِيّ : يا أمير المؤمنين إنى تزوجتُ بامرأة من آل زياد وإن أبا الرازىّ فرّق بيننا وقال : هى امرأة من قريش ؟ قال : فأمر عمرو بن مسعدة فكتب الى أبى الرازى :

إنه قد بلغ أميرَ المؤمنين ما كان من الزيادية وخَلْعِك إيّاها إذ كانت من قريش ، فمتى تحاكمت اليك العرب ؟ لا أمّ لك فى أنسابها ، ومتى وكّلتك قريش يابن الخناء بأن تُلصِق بها من ليس منها؟ فخَلِّ بين الرجل وامرأته ، فلئن كان زياد من قريش ، إنه لابنُ سُمَيّةَ بَغِيٍّ عاهرة، لا يُفتخر بقرابتها ولا يُتطاول بولادتها . ولئن كان ابنَ عُبَيد، لقد باء بأمر عظيم، اذ آدّعى الى غير أبيه، لحظ تعجّلَه، ومُلكٍ قهره .

وأمر المأمونُ عمرَو بن مسعدة أن يكتب لرجل به عِنايةٌ الى بعض العمّال فى قضاء حقه، وأن يَختصر كتابَه ما أمكنه، حتى يكونَ ما يكتبُ به فى سطر واحد، لا زيادةَ عليه . فكتب عمرو :

كتابى اليك كتابُ واثقٍ بمَن كتبتُ اليـه ، معْنِىٍّ بمن كُتِب له ، ولن يَضيع بين الثقة والعناية حاملُه .

وكتب الى بعض الرؤساء، وقد تزوّجتْ أُمه فساءَه ذلك ، فلمـا قرأها ذلك الرئيس تَسلّى بها ، وذهب عنه ما كان يَجِده . وقيل : إن هذه الرسالةَ من إنشاء ابن العَميد وهى :

الحمد لله الذى كشَف عنا سِترَ الحَـيْرة ، وهدانا لسَتْرِ العَوْرة . وجَدَعَ بمـا شَرَعَ من الحَلال أَنْفَ الغَيْرة ، ومَنع مَن عَضَل الأمهاتِ، كما مَنع من وَأْدِ البناتِ، استنزالا للنفوس الأبيّة. عن الحَميّة حَمِيّـةِ الجاهليّة ، ثم عَرّض لجزيل الأجر، مَن استسلم لواقع قضائه ، وعوّضَ جليلَ الذخر مَن صبَر على نازل بلائِه، وهنّأكَ الذى شرح للتقوى صـدْرك، ووسّع فى البَـلوى صَبْرَكَ ، وألهمَك من التسليم لمشيئته ، والرِّضا بقضيته ، ما وفّقك له من قضاء الواجب فى أحد أَبوَيْك ، ومَن عَظُم حقّه عليـك، وجعل الله تعـالى جَدُّه ما تجرّعتَه من أَنَف ، وكظمتَه من أَسَف ، معدودا فيما يُعظِّم به أجرك ، ويجزل عليه ذُخْرك ، وقرَن بالحاضر من امتعاضك بفعلها، المُنتظر من ارتماضك بدفنها، فتستوفِى بها المصيبة، وتَستكمل عنها المَثُوبة، فوصل الله لسيدى ما استشعره من الصّبر على عُرْسها، بما يكتسبهُ من الصبر على نفسها، وعوّضه من أَسِرّة فرشها، أعواد نعشها، وجعل تعالى جَدُّه ما ينُعِم به عليه بعدها من نعمة، معرّى من نقمة، وما يوليه بعد قبضها من مِنْحة ، مُبرّأً من مِحْنَةٍ، فأحكام الله تعالى جَدُّه، وتقدّستْ أسماؤه، جاريةٌ على غير مُراد المخلوقين، لكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خيرٌ لهم فى العاجلة، وأبقى لهم فى الآجلة ، اختار الله لك فى قبضها اليـه ، وقُدومها عليه، ما هو أنفعُ لها، وأولى بها، وجعل القبر، كُفُوءاً لها والسلام .

وقال عبد العزيز بن يحيي المكىّ الذى ناظر بِشْر بن غِيَاث المِرِّيسىّ بحضرة أمير المؤمنين فى مسألة خَلْق القرآن :

جاءنى خليفةُ عمرو بن مسعدة ومعه جَمْعٌ من الفرسان والرّجّالة فحملنى مُكْرَماً على دابّته حتى صار الى باب أمير المؤمنين فأوقفنى حتى جاء عمرُو بن مَسْعدة فدخل فجلس فى حُجرته

التي كان يجلس فيها ثم أذن لي بالدخول عليه فدخلت فلما صرت بين يديه أجلسني ثم قال لي : أنت مقيم على ما كنت عليه أو قد رجعت عنه؟ فقلت : بل مقيم على ما كنت وقد ازددت بتوفيق الله تعالى إياي بصيرة في أمري ، فقال لي عمرو بن مسعدة : أيها الرجل ، قد حملت نفسك على أمر عظيم ، و بلغت الغاية في مكروهها . وتعرضت لما لا قوام لك به في مخالفة أمير المؤمنين ، وادعيت بما لا يثبت لك به حجة على مخالفتك ، ولا لأحد غيرك . وليس وراءك بعد الحجة عليك الا السيف ، فانظر لنفسك وبادر أمرك ، قبل أن تقع المناظرة وتظهر عليك الحجة ، فلا تنفعك الندامة ولا يقبل منك معذرة ولا تقال لك عثرة ، فقد رحمتك وأشفقت عليك مما هو نازل بك ، وأنا أستقيل لك أمير المؤمنين وأسأله الصفح عن جرمك ، وعظيم ما كان منك اذا أظهرت الرجوع عنه والندم على ما كان ، وآخذ لك الأمان منه والجائزة ، فان كانت لك ظلامة أزلتها عنك وان كانت لك حاجة قضيتها لك ، فانما جلست رحمة لك مما هو نازل بك بعد ساعة إن أقمت على ما أنت عليه ورجوت أن يخلصك الله تعالى على يدي من عظيم ما أوقعت نفسك فيه .

شـــعره :

نقلنا أمثلة قليلة من نثر عمرو بن مسعدة ، أما شعره فقليل جدا . ذكر المترجمون له أنه كان له فرس أدهم أغر . لم يكن لاحد مثله فراهة وحسنا . فسمع المأمون خبره . وبلغ عمرو ابن مسعدة ذلك . فخاف أن يأمر بقوده اليه فلا يكون له فيه محمدة . فوجه به اليه هدية وكتب معه :

يا إماما لا يدانيـــه اذا عد إمام
فضل الناس كما يفـ ـضل نقصانا تمام
قـد بعثنا بجـــواد مثـــله ليس يرام
فـــرس يزهى به لـ ـحسن سرج وحزام
دونه الخيـــل كما دو نك في الفضل الأنام

وجهُهُ صُبحٌ ولكن : سائرُالجسم ظَـلامُ
والذى يَصْلُح للَـو ـ لَى على العبـدِ حَرَامُ

وعمرو هو القائل :

ومستعذِب للهَجْرِ والوصل أعذَبُ ـ أُكاتِمُه حُـبِّى فَيَنْأَى وأقْرُبُ
اذا جدتُ منى بالرضا جاد بالجَفَا ـ ويَزْعُم أنِّى مُذْنِبٌ وهــو أذنبُ
تعلمتُ ألوانَ الرضا خوفَ هَجْـرِه ـ وعلّمه حُــبِّى له كيف يَغْضَبُ
ولى غيرُ وجه قد عرفتُ طريقَهُ ـ ولكن بلا قلبٍ الى أين أذهبُ

ووقَّع مرّة فى ظهر رُقْعة لرجل :

أَعْزِزْ عَلَىَّ بأمرٍ أنت طَالِبُهُ ـ لم يمكن النُّجْحُ فيه وٱنقضى أَمَدُهْ

ولعمرو بن مسعدة حكاياتٌ منها ما حكاه القاضى التنوخىّ فى كتاب الفرج بعد الشدّة (١) :
قال عمرو بن مســعدة : كنتُ مع المأمون عنـد قدومه من بلاد الروم حتى اذا نزلتُ الرَّقَّة قال : يا عمرو، ما ترى الرُّخَّجِىّ قد احتوى على الأَهْوَاز، وهى سلّة الخير وجميعُ المــال قِبَلَه وطمع فيها. وكُتُبُهُ متّصــلة بحملها، وهو يتعلّل ويتربّص بى الدوائر؟ فقلتُ : أنا أكفى أمير المؤمنين هذا، وأنفذ مَن يضطره الى حَمْل ما عليه، فقال : ما يقنعنى هذا، فقلت : فيأمر أمير المؤمنين بأمره، فقال : فاخرُج اليه بنفسك حتى تُصَفِّده بالحديد، فتحمله الى بغداد وتَقْبض على جميع ما فى يده من أموالنا، وتنظر فى أعمالنا وترتّب لها عُمّالا، فقلتُ : السمع والطاعة، فلما كان فى غدٍ دخلتُ عليــه فقال : ما فعلتَ فيما أمرتك به ؟ قلتُ : أنا على ذلك، قال : أتريد أن تجىء فى غدٍ مُوَدِّعا؟ قلت : السمع والطاعة، فلمــا كان فى غدٍ جئتــه مودّعا، فقال : أريد أنــ تحلف لى أنك لا تقيم ببغداد إلا يوما واحدا، فاضطربتُ من ذلك الى أن حضّنى وٱستحلفنى ألا أقيمَ فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجتُ

(١) راجع (ج ٢ ص ٣٥ طبعة الهلال) . والعقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٢ ص ٢١١ طبعة بولاق)

حتى قدمتَ بغداد ، فلم أقِم بها إلا ثلاثة أيام وٱنحدرتُ فى زَلالىّ أريد البصرة وجُعل لى فى الزلالى خَيش واستكثرتُ من الثلج لشدّة الحرّ .

فلما صرتُ بين جُرْجانَ[1] وجَبُّل سمعتُ صوتا من الشاطئ يصيح : يا ملّاح ، فرفعتُ سَجِف الزّلالىّ واذا بشيخ كبير السنّ جالس حاسِر الرأس حافى القدمين خَلَق القميص ، فقلت للغلام : أجبْه ، فأجابه ، فقال : ياغلام ، أنا شيخ كبير السنّ على هـذه الصورة التى ترى ، وقد أحرقتنى الشمسُ وكادتْ تتلفنى ، وأريد جبل ، فاحملونى معكم فانّ الله يحسن أجر صاحبكم ، قال : فشتمه الملّاح وٱنتهره ، فأدركَتْنى رقّةٌ عليه وقلتُ : خذوه معنا ، فتقدّمنا الشطّ وصِحْنا به وحَمَلناه ، فلما صار معنا فى الزلالىّ وٱنحدَرْنا نتقدّم فدفعتُ اليـه قميصا ومِنْديلا وغَسَلَ وجهه واستراحَ وكأنّه كان ميّتا وعاد الى الدنيا فحضرَ وقتُ الغذاء وتقدّمت وقلتُ للغلام : هاتِه يأكلْ معنا ، فجاء وقعد على الطعام ، فأكل أكلَ أديب نظيف غير أنّ الجوع أثّر فيه ، فلما رُفعتْ المائدةُ أردت أن يقوم ويَغْسل يده ناحية كما تفعل العامة فى مجالس الخاصّـة فلم يفعل ، فغسلتُ يدى وتذمّمتُ أن آمر بقيامه ، فقلتُ : قدّموا له الطشت فغسل يده ، وأردتُ بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل ، فقلتُ : يا شيخ ، أىّ شىء صناعتك؟ قال : حائك أصلحك الله ، فقلتُ فى نفسى : هذه الحياكة علّمته سوءَ الأدب ، فتناومتُ عليه ومددتُ رجلى فقال : قد سألتنى عن صناعتى وأنت أعزّك الله ما صناعتك؟ فأكبرتُ ذلك وقلت : أنا جنيتُ على نفسى هذه الجناية ولا بدّ من جوابه ، تراه الأحمق لا يرى زَلالىّ وغلمانى ونعمتى وأنّ مثلى لا يقال له هذا! فقلتُ : كاتب ، فقال : كاتب كامل أم كاتب ناقص فإنّ الكتّاب خمسـة ، فأيّهم أنت ؟ فورد علىّ قول الحائك موردا عظيما وسمعتُ كلاما أكبرته وكنت متكئا فجلست ، ثم قلت : فصِّل الخمسة قال :

نعم ، كاتبُ خَراج يحتاج أن يكون عالمـا بالشروط والطسوق والحسـاب والمساحة والبثوق والفتـوق والرتوق . وكاتبُ أحكام يحتاج أن يكون عالمـا بالحلال والحرام

---

(١) فى العقد الفريد : « بين ديرهرقل ودير العاقول » .

والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع . وكاتبُ مَعُونة يحتاج أن يكون عالما بالقصاص والحدود والجراحات والمواثبات والسياسات . وكاتبُ جَيْش يحتاج أن يكون عالما بحُلَى الرجال وشِيَات الدوابّ ومُدَاراة الأولياء وشيئا من العلم بالنسب والحساب . وكاتب رسائل يحتاج أن يكون عالما بالصدور والفصول والإطالة والايجاز وحُسْن البلاغة والخط، قال : فقلت : إنى كاتب رسائل، قال : فأسألك عن بعضها ، قلت : قل، فقال لى :

أصلحك الله، لو أنّ رجلا من إخوانك تزوّج أمّك فأردت أن تكاتبه مهنئا فكيف كنتَ تكاتبه ؟ ففكرتُ فى الحال فلم يخطر ببالى شىء، فقلتُ : ما أرى للتهنئة وجها، قال : فكيف تكتب اليه تعزّيه ففكرت فلم يخطر ببالى شىء، فقلت : اعفنى ، قال : قد فعلت، ولكنك لست بكاتب رسائل، قلت : أنا كاتب خَرَاج، قال : لا بأس، لو أنّ أمير المؤمنين ولّاك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقضى حاجة السلطان فيتظلم اليك بعضهم من مسّاحيك وأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك، فحلف المسّاح بالله العظيم لقد أنصفوا وما ظلموا، وحلفتْ الرعيّة بالله إنهم لقد جاروا وظلموا، وقالت الرعيّة : قف معنا على ما مَسَحوه وآنظر مَن الصادق مِنَ الكاذب . فخرجتَ لتقف عليه ، فوقفوا على براح شَكْلُه قاتل قثا ، كيف كنتَ تمسحه؟ قلت : كنت آخذ طوله على آنعراجه وعرضه ثم أضربه فى مثله ، قال : إنّ شكل قاتل قثا أن يكون زاويتاه محدودتين وفى تحديده تقويس ، قلت : فآخذ الوَسَط فأضربه فى العَرْض، قال : إذًا ينثنى عليك العمود، فأسكتنى ، فقلت : ولستُ كاتبَ خراج، قال : فإذًا ما أنت؟ قلت : أنا كاتبُ قاضٍ، قال : أرأيتَ لو أنّ رجلا توفى وخَلّف امرأتين حاملتين إحداهما حُرّة والأخرى سَرِيّة، فولدتْ السريّة غلاما والحرّة جارية، فعَمَدَتْ الحرّة الى ولد السريّة فأخذتْه ، وتركتْ بدله الجارية فاختصما فى ذلك، فكيف الحُكْم بينهما؟ قلتُ : لا أدرى، قال : فلستَ بكاتب قاض، قلتُ : فأنا كاتبُ جيش، فقال : لا بأس ، أرأيتَ لو أنّ رجلين جاءا اليك لتُحَلّيهما وكلّ واحد منهما آسمه وآسم أبيه كآسم الآخر إلا أنّ أحدهما مشقوقُ الشفة العليا، والآخرَ مشقوقُ

الشفة السفلى ؟ كيف كنتَ تحليهما، قال : قلتُ : فلانٌ الأفلح وفلان الأعلم، قال : إنّ رزقهما مختلفان وكلّ واحد منهما يجيء فى دعوة الآخر. قلتُ : لا أدرى، قال : فلستَ بكاتب جَيْش، قلتُ : أنا كاتب مَعُونة، قال : لا تبالى. لو أنّ رجلين رُفِعا اليك قد شجّ أحدُهما الآخر شجّةً مُوضِحَةً[1]، وشجّ الآخرُ شجّةً مأمونة، كيف كنتَ تفصل بينهما؟ قلت: لا أدرى، قال : لستَ إذاً كاتب مَعُونة، اطلب لنفسك أيها الرجل شغلا غير هذا. قال : فصَغُرَتْ الىّ نفسى وغاظنى، فقلت : قد سألتُ عن هذه الأمور ويجوز ألا يكون عندك جوابها كما لم يكن عندى، فإن كنت عالما بالجواب فقل، فقال.

نعم، أما الذى تزوّج أمك فتكتب اليه : أما بعد. فإنّ الأمور تجرى من عند الله بغير محبّة عباده ولااختيارهم. بل هو تعالى يختار لهم ما أحبّ، وقد بلغنى تزويج الوالدة خار الله لك فى قبضها، وإنّ القبور أكرم الأزواج وأستر العيوب والسلام .

وأما براحُ قاتل قثا فتمسح العمود حتى اذا صار عددا فى يدك ضربته فى مثله ومثل ثلثه فما خرج فهو المساحة .

وأما الجاريةُ والغلامُ فيُوزَن ابنَ الاثنتين. فأيهما كان أخفّ فالجارية له .

وأما الجنديان المتفقا الاسمين. فإن كان الشقّ فى الشفة العليا قيل فلان الأعلم، واذا كان فى الشفة السفلى قلتَ فلان الأفلح .

وأما صاحبُ الشجّتين فصاحب الموضحة ثُلثُ الدِّيَة. وصاحب المأمونة نصف الدية، فلما أجاب بهذه المسائل تعجّبتُ منه وامتحنته بأشياء كثيرة غيرها فوجدته ماهرا فى جميعها حاذقا بليغا. فقلتُ : ألستَ زعمتَ أنك حائك. فقال : أنا أصلحك الله حائك كلام ولستُ بحائك نَسّاجة. وأنشأ يقول :

ما مرَّ بؤسٌ ولا نعيمٌ ... إلا وفى فيهما نصيبُ
فذقتُ حُلْوًا وذقتُ مُرًّا ... كذلك عيشُ الفتى ضروبُ
نوائبُ الدهر أدّبتنى ... وإنّما يُوعَظُ الأديبُ

---

(١) الموضحة : الشجة التى تبدى وضح العظم .

قلتُ : فما الذى بك من الحال؟ قال : أنا رجلٌ كاتبٌ دامتْ عُطْلتى، وكَثُرَتْ عَيلتى، وتواصلتْ مِحْنتى، وقَلّت حِيلتى، فخرجتُ أطلبُ تصرُّفا فقُطِع علىّ الطريق فصرتُ كما ترى، فمشيت على وجهى، فلمّا لاحَ لى الزّلّالى استغثتُ بك، قلتُ : فإنى قد خرجتُ الى مُتَصّرف جليل أحتاجُ فيه الى جماعةِ مثلك، وقد أمرتُ لك بخِلْعة حَسَنَة تصلح لمثلك وخمســةِ آلاف درهم تُصلِح بها أمرَك ، وتُنفِذُ منها الى عيالك، وتُقَوّى نفســك بباقيها، وتصــير معى الى عَمَلى فأولّيك أجلّه ، فقال : أحسنَ الله جزاءك إذًا تجدُنى بحيث أسرّك، ولا أقومُ مقامَ معذر اليــك إن شاء الله، وأمرت بتقبيضه ما رَسَمتُ له قَبْضه، وانحدر الى الأهواز معى، فجعلته المناظرَ للرجى والمحاسبَ له بحضرتى، والمستخرجَ لمـا عليــه ، فقام بذلك أحسن قيام وعَظُمت حاله معى، وعادتْ نعمته الى أحسن ما كانت عليه .

وفى عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيُّوب التّيْمى :

أعِــنّى عــلى بارقٍ ناصِبِ * خَــفِيٍّ كوَحْيِك بالحاجبِ
كأنّ تألّقَــه فى السماء * يدا كاتبٍ أو يــدا حاسبِ
فــروّى منازلَ تذْكارُها * يُهَيّــج من شــوقك الغالب
غريبٌ يحِنّ لأوطانه * ويَبْكى على عصــره الذاهب
كفاك أبو الفضل عمرُو النّدَى * مطالعــةَ الأمــلِ الكاذبِ
وصــدقُ الرجاء وحُسْنُ الوفاء * لعمــرو بن مَسْــعَدَة الكاتب
عريضُ الفِنَاء طويلُ البِنَا * ء فى العِــزّ والشّرَف الثاقب
بنى الملك طــودٌ له بيتُــه * وأهــلُ الخــلافةِ من غالب
هــو المرتجَى لصروف الزمان * ومُعْتَصَــمُ الراغبِ الراهب
جــوادٌ بمـا ملكتْ كفُّه * على الضيف والجار والصاحب
بأُدْمِ الرِّكاب ووَشْيِ الثيــا * بِ والطِّرْف والطَّفْلة الكاعب
نؤمِّــلُه لجســامِ الأمــور * ونرجوه للجَلَــلِ الكارب

خَصِيبُ الجناب مَطِيرُ السحاب * بشـيمته لَيِّنُ الجانب
يُرَوِّى القَنَا من نحور العِـدَا * ويُغْرِقُ فى الجُـود كاللاعب
اليـك تبـدّت بأكـوارها * حراجيجُ فى مَهْمَـهٍ لاحب
كأنَّ نعاماً تَبَارَى بنا * بسـوابِلِ من بَرَدٍ عاصب
يَرِدْنَ نَـدَى كفِّك المُرْتَجَى * ويَقْضِينَ من حقـك الواجب
ولله ما أنتَ من خابرٍ * بسَجْلٍ لقـومٍ ومن خارب
فتَسْقِى العـدا بكؤوس الرَّدى * وتسـقِى مسـئلةَ الطالب
وكم راغبٍ نلتـه بالعطـا * وكم نِلتَ بالعَطْـف من هارب
وتلك الخـلائقُ أُعْطِيتَهَـا * وفَضْـلٌ من المانع الواجب
كَسَبتَ الثنـاءَ وكسبُ الثنـ * ـاء أفضـلُ مَكْسبةِ الكاسب
يقينُـك يجلو سـتورَ الدُّجَى * وظنُّـك يُخْـبِر بالغـائب

رسائل الجاحظ

رسالته فى بنى أمية

قال أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ[(١)] : أطال الله بقاءك ، وأتمّ نعمته عليك ، وكرامته لك . اعلم أرشد الله أمرَك ، أنّ هذه الأمةَ قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليتها ، الى طبقاتٍ مُتَفاوتة ، ومنازلَ مختلفة : فالطبقة الأولى عصر النبي صلّى الله عليه وسلم ، وأبى بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، وستٍّ سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاص المحض[(٢)] ، مع الأُلفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولابِدْعة فاحشة ، ولا نزعُ يد من طاعة ، ولاحسدٌ ولا غِلّ ولا تأوّلٌ ، حتى كان الذى كان : من قتل عثمانَ ، رضى الله عنه ، وما آنْتُهِك منه ، ومن خَبْطهم إيّاه بالسلاح ، وبَعْج بطنه بالحِراب ، وفَرْى أَوْداجه بالمَشاقِص ، وشَدْخ

(١) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى صاحب التصانيف الممتعة والرسائل المبدعة . وقد تقدّم الكلام عليه فى المجلد الأوّل من هذا الكتاب (ص ٤٢١) .

ولد حوالى سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة ونشأ بها فتناول كل فن ومارس كل علم عرف فى زمانه مما وضع فى الاسلام أو نقل عن الأمم الأوائل فأصبح له مشاركة فى علم كل ما يقع عليه الحس أو يخطر بالبال فهو راوية . متكلم . فيلسوف . كاتب . مصنف . مترسل . شاعر . مؤرخ . عالم بالحيوان والنبات والموات . وصاف لأحوال الناس ووجوه معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم إلا أنه غلب عليه أمران : الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة والأدب الممزوج بالفلسفة والفكاهة فهو أوّل من ألف الكتب الجامعة لفنونه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرهما .

وكان غاية فى الذكاء ودقة الحسّ وحسن الفراسة إلى دعابة فاشية ، وقلة اعتداد بما يأخذ به الناس أنفسهم وينتحلونه من الرسوم والعادات وأنواع العصبية المذهبية وعدم مبالاة بوقوع المتورّعين فيه . وكان سمحا جوادا كثير المواساة لإخوانه وكان على دمامة خلقه وتناقض خلقه خفيف الروح ، فكه المجلس ، غاية فى الظرف وطيب الفكاهة وحلاوة الكلام وهو على الجملة أحد أفذاذ العالم وأحد حجج اللسان العربى . توفى سنة ٢٥٥ هـ ببغداد بمقبرة الخيزران . وتجد ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٥٦ — ٨٠) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٣) .

(٢) فى الأصل : « المخلص » .

قاتله بالعمد، مع نهيه عن البسط، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبل ذلك : من كم وجهٍ يجوز قتلُ من شهِد الشهادة، وصلّى القبلة، وأكل الذبيحة، ومع ضرب نسائه بحضرته، وإقحام الرجال على حرمته، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة[1] عنه بيدها، حتى أطنّوا[2] إصبعين من أصابعها، وقد كشفت عن قناعها، ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك رادعاً لهم، وكاسراً من غَرْبهم؛ مع وطئهم فى أضلاعه بعد موته، وإلقائهم على المزبلة جسده مجرّداً بعد سحبه، وهى الجزرةُ التى جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كُفْئاً لبناته وأيامَاه وعقائله. بعدَ السبّ والتعطيش والحصرْ الشديد، والمنع من القوت، مع احتجاجه عليهم وإفحامه لهم؛ ومع اجتماعهم على أنّ دمَ الفاسق حرام، كدم المؤمن، إلّا مَن ارتد بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قتل مؤمناً على عَمْد، أو رجلٌ عدا على الناس بسيفه فكان فى امتناعهم منه عطبه؛ ومع اجتماعهم على ألّا يُقتل من هذه الأمة، ولا يُجهز منها على جريح؛ ثم مع ذلك كلّه دَمَروا[3] عليه وعلى أزواجه وحُرَمه وهو جالس فى محرابه ومُصحفه يلوح فى حِجْره، لن يُرى أنّ مُوحِّداً يقدِم على قتل مَن كان فى مثل صفته وحاله.

لاجَرم لقد احتَلَبوا به دمًا لا تطير رغوتُه. ولا تسكُن فورتُه. ولا يموت ثائرُه. ولا يكلّ طالبُه، وكيف يُضيّع اللهُ دم وَليّه، والمنتقم له. وما سمعنا بدم بعد دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، غلا غليانُه، وقُتِل سافحُه، وأُدرك بطائلته. وبعَ كلّ محبته، كدمه رحمة الله عليه.

ولقد كان لهم فى أخذه، وفى إقامته للناس، والاقتصاص منه. وفى بيع ما ظهر من رباعه، وحدائقه، وسائرِ أمواله، وفى حبسه بما بَقِى عليه، وفى طَمْره حتى لا يُحسّ بذكره، ما يُغنيهم عن قتله إذْ كان قد ركب كلّ ما قذفوه به، وادّعَوه عليه. وهذا كلّه بحضرة جِلّة المهاجرين والسلَف المقدَّمين، والأنصار والتابعين.

---

(١) قال فى شرح القاموس : كل ما فى العرب من هذا الاسم «فرافصة» فهو بضم الفاء، إلا فرافصة أبا نائلة فهو بالفتح لا غير. (٢) أطنوا : قطعوا. (٣) حض بعضهم بعضا عليه متهددين.

ولكنّ الناس كانوا على طبقاتٍ مختلفــة ، ومراتبَ متباينــة : من قاتلٍ ومن شادّ على عضده ، ومن خاذل عن نصرته ، والعاجز ناصر بإرادته ، ومطيع بحسن نيته ، وإنّمـا الشك منّا فيــه ، وفى خاذله ، ومن أراد عزله والاســتبدالَ به ؛ فأمّا قاتله ، والمعينُ على دمه ، والمُرِيدُ لذلك منــه ، فضُلّالٌ لاشــكّ فيهم ، ومُرّاقٌ لا امتراء فى حكمهم ؛ على أنّ هــذا لم يَعْــدُ منهم الفجورَ : إمّا على ســوء تأويلٍ ، وإمّا على تعمّد للشّقاءِ ، ثم ما زالت الفتن مُتّصلة ، والحروبُ مترادفةً ، كحرب الجمل ، وكوقائع صِفّين ، وكيوم النّهْروان ، وقبل ذلك يوم الزّابُوقة[1] ، وفيه أُسِر ابن حُنَيف ، وقُتل حَكِيم بن جَبَلة ، الى أن قَتَل أشقاها علىَّ بن أبى طالب رضوان الله عليه ، فأسعده الله بالشهادة ، وأوجب لقاتله النار واللعنة ؛ الى أن كان من اعتزال الحسن عليه السلام الحروبَ وتخْلِيته الأمورَ ، عند انتثار أصحابه ، وما رأى من الخلل فى عسكره ، وما عرَف من اختلافهم على أبيه ، وكثرة تلونهم عليه ؛ فعندها استوى معاويةُ على الملك ، واســتبدّ على بقية الشُّورَى ، وعلى جماعة المسلمين ، من الأنصار والمهاجرين ، فى العام الذى سَمّوْه عامَ الجماعة ، وما كان عامَ جماعةٍ ، بل كان عام فُرقَــةٍ وقهرٍ وجَبَرِيَّةٍ وغَلَبَةٍ ، والعامَ الذى تحوّلت فيــه الإمامة مُلْكا كِسْرِوِيّا ، والخلافةُ غصبا قَيْصَريّا ، ولم يَعْــدُ ذلك أجمعُ الضلالَ والفسقَ ، ثم مازالت معاصيه من جنس ماحكَيْنا ، وعلى منازلِ مارتّبْنا ، حتى رَدّ قضـيةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا مكشوفا ، وجَحَد حكمَه جَحْدا ظاهرا ، فى ولد الفِـرَاش وما يَجب للعَاهِر ، مع اجتماع الأمة انّ سُمَيّــة لم تكن لأبى ســفيان فِراشا ، وأنّه إنمـا كان بها عاهرا ، فخرج بذلك من حُكم الفجّار الى حكم الكفار ، وليس قتل حُجْر بن عَدِىّ ، وإطعامُ عمرو بن العاص خراجَ مِصر ، وبيعةُ يزيد الخَلِيع ، والاستئثارُ بالفىْء ، واختيارُ الوُلاة على الهوى ، وتعطيلُ الحدود بالشفاعة والقرابة ، من جنس جحد الأحكام المنصوصة ، والشرائع المشهورة ، والسُّنَنِ المَنْصوبة ، وسواءٌ فى باب مايستحقّ من الكفار جحدَ الكتاب ، وردّ الســنة اذا كانت الســنة فى شُهْرة الكتاب وظهوره ، إلا أنّ أحدَهما

---

(١) الزابوقة : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل أوّل النهار .

أعظم، وعقابَ الآخرة عليه أشدّ، فهذه أوّل كَفْرَة، كانت من الأمّة. ثم لم تكن إلّا فيمن يَدّعى إمامتها، والخلافة عليها، على أنّ كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره، وقد أَرْبَتْ عليهم نابتةُ عصرنا، ومُبْتَدِعةُ دهرنا، فقالت: لا تَسبّوه، فإنّ له صحبة، وسبّ معاوية بدعة، ومَن يُبْغِضه فقد خالف السنة. فزعمتْ أنّ من السنة ترك البَرَاءة ممن جحَدَ السنة، ثم الذى كان مِن يزيدَ ابنه، ومن عمّاله، وأهل نُصرته، ثم غزو مكّةَ، ورمى الكعبة، واستباحة المدينة، وقتل الحسين عليه السلام، فى أكثر أهل بيته، مصابيح الظلام، وأوتاد الإسلام. بعد الذى أعطى من نفسه، من تفريق أتباعه، والرجوع الى داره وحَرَمه، أو الذهاب فى الأرض، حتّى لا يُحَسّ به أو المُقام حيث أُمِرَ به. فأبوْا إلّا قتله، والنزولَ على حكمهم. وسواءٌ قتل نفسَه بيده، أو أسلَمها الى عدوّه. وخُيّر فيها مَن لا يبرُد غليلُه إلّا بشُرْب دمه. فاحسُبوا قتلَه ليس بكفر، وإباحةَ المدينة، وهتكَ الحُرمة، ليس بحجة، كيف تقولون فى رمْى الكعبة، وهدمِ البيت الحرام، وقبلة المسلمين؟ فإن قلتم ليس ذلك أرادوا بل إنّما أرادوا المتحرّز به، والمتحصّن بحيطانه، أفما كان فى حق البيت وحريمه أن يَحصُروه فيه، الى أنْ يُعطى بيدِه! وأىّ شىءٍ بَقِى من رجل قد أخذت [illegible] إلا موضعَ قدمه! واحسُبوا ماروَوا عليه من الأشعار التى قو[illegible] كفرَ شيئا مصنوعا، كيف تصنع بنقْر القضيب بين ثَنِيَّتَى الحسين [illegible] م، وحمْ[illegible] رسول الله صلّى الله عليه وسلم حواسرَ على الأقتاب العارية، والإبل الصِّعاب، والكشف عن عورة على بن الحسين عند الشكّ فى بلوغه! [illegible] إنْ وجدوه، وقد أنبت قتلوه وانْ لم يكن أنبت حملوه، كما يصنع أميرُ جيش المسلمين بذرارى المشركين، وكيف تقول فى قول عُبَيْد الله بن زياد لإخوته وخاصّته، دعونى أقتلْه، فإنّه بقيّةُ هذا النسل، فأحسِم به هذا القرنَ، وأُميت به هذا الداءَ، وأقطَع به هذه المادّة!

خبّرونا علامَ تُدل هذه القسوةُ، وهذه الغلظة، بعد أنْ شفوْا أنفسهم بقتلهم، ونالوا ما أحبوا فيهم، أتدلّ على نَصْب، وسوء رأي وحِقْد، وبغضاء ونِفاق، وعلى يقينٍ مدخولٍ

وإيمانٍ مخروج ! أم تدلّ على الإخلاص، وعلى حبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، والحفظ له، وعلى براءة الساحة وصحة السريرة ! فإنْ كان على ما وصفنا لا يَعْدو الفسقَ والضلال، وذلك أدنى منازله؛ فالفاسق ملعون، ومَن نَهى عن نهى الملعون فملعون .

وزعمتْ نابتة عصرنا، ومبتدعةُ دهرنا، أنّ سبّ وُلاةِ السوء فِتنةٌ، ولعنَ الجوَرةِ بِدْعَة، وإنْ كانوا يأخذون السّمِيّ بالسّمِيّ، والوليّ بالوليّ، والقريبَ بالقريب، وأخافوا الأولياءَ، وأمّنوا الأعداء، وحكموا بالشفاعة والهوَى، وإظهارِ الغدرة والتهاون بالأمّة، والقَمْع للرّعيّة، وأنّهم في غير مُداراة ولا تقيّة، وإنْ عدا ذلك الى الكفر، وجاوز الضلال الى الجحْد، فذاك أضلّ ممّن كفّ عن شَتْمهم، والبراءةِ منهم، على أنّه ليس مَن استحقّ اسمَ الكفر بالقتل كمَن استحقّه بردّ السنة وهدم الكعبة، وليس مَن استحقّ اسم الكفر بذلك كمن شبّه الله بخلقه، وليس مَن استحقّ الكفر بالتشبيه كمن استحقّه بالتجوير(١)، والنابتة في هذا الوجه أكفرُ من يزيدَ وأبيه، وابن زِياد وأبيه، ولو ثبت أيضا على يزيدَ أنّه تمثل بقول بن الزِّبَعْرَى :

ليتَ اشياخى ببدْرٍ شهِدوا * جزَعَ الخزرَج من وَقْعِ الأَسَلْ
لاستطاروا واستهلّوا فَرَحًا * ثم قالوا يا يزيدُ لا تُشَلّ
قد قتلنا الغُرّ من ساداتهم * وعدلْناهُ ببدرٍ فاعتدَل

كان تجويرُ النابتى لربّه، وتشبيهه بخلقه، أعظمَ من ذلك وأقطع، على أنهم مُجْمعون على أنّه ملعون من قتل مؤمنا، متعمدا أو متأولا؛ فاذا كان القاتل سلطانا جائرا، أو أميرا عاصيا، لم يستحلوا سبّه، ولا خلعه، ولا نفيه، ولا عيبه، وإنْ أخاف الصلحاء، وقتل الفقهاء، وأجاع الفقير، وظلم الضعيف، وعطّل الحدود والثغور، وشرب الخمور، وأظهر الفجور، ثم ما زال الناس يتسكعون مرّة، ويداهنونهم مرّة، ويقاربونهم مرّة، ويشاركونهم مرّة إلّا بقيّةً ممن عصمه الله تعالى ذكرُه، حتى قام عبد الملك بن مرْوان، وابنه الوليد،

(١) نسبه الله الى الجور .

وعاملهما الحجاج بن يوسف ، ومولاه يزيد بن أبى مَسْلِم . فأعادوا على البيت بالهدم . وعلى حَرَم المدينة بالغزْو ، فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحُرْمة ، وحوّلوا قبلة واسط ، وأخّروا صلاة الجمعة ، الى مُغَيْربَانِ الشمس ، فإن قال رجل لأحدهم : اتق الله فقد أخّرت الصلاة عن وقتها ، قتله على هـذا القول جِهارا غير خَتْلٍ ، وعَلانيةً غير سرّ . ولا يُعْـلَم القتل على ذلك إلّا أقبحَ من إنكاره ، فكيف يكفّر العبد بشيء ولا يكفر بأعظم منه !

وقد كان بعض الصالحين ربّما وعظ الجبابرة ، وخوّفهم العواقبَ ، وأراهم أنّ فى الناس بَقِيّة يَنْهَوْن عن الفساد فى الأرض ، حتى قام عبد الملك بن مَرْوان ، والحجاجُ بن يوسف ، فزجرا عن ذلك ، وعاقبا عليه ، وقتلا فيه ، فصاروا لا يَتَناهَوْن عن منكرٍ فعلوه ، فاحسِبْ تحويل القبلة كان غلطا ، وهدم البيت كان تأويلا ، واحسِبْ ما رَوَوْا من كلّ وجه ، أنّهم كانوا يزعمون أنّ خليفة المرء فى أهله[1] أرفعُ عنده من رسوله اليهم ، باطلا ومسموعا مولّدا ، واحسب وَسْمَ أيدى المسلمين ونقشَ أيدى المسلمات ، وردَّهم بعد الهجرة الى قُراهم ، وقتلَ الفقهاء ، وسبَّ أئمة الهُدَى ، والنَّصْب لعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكون كفرا ، كيف تقول فى جمع ثلاث صلوات فيهنّ الجمعة ، ولا يُصَلّون أولاهنّ ، حتى تصير الشمسُ على أعالى الجُدرانِ ، كالمُلاء المُعَصْفَر ، فإن نطقَ مسلمٌ ، خُبِطَ بالسيف ، وأخذتْه العُمُد ، وشُكّ بالرماح ، وإن قال قائل : اتق الله أخذتْه العِزّة بالإثم ، ثم لم يَرْضَ إلا بنثر دماغه على صدره ، وبصلبه حيث تراه عِيالُه . ومما يَدُلّ على أنّ القومَ لم يكونوا إلا فى طريق التمرّد على الله عزّ وجلّ ، والاستخفاف بالدين ، والتهاون بالمسلمين ، والابتذال لأهل الحق ، أكلُ أمرائهم الطعامَ ، وشربُهم الشرابَ على منابرهم أيّام جُمَعهم وجُموعهم ، فَعَلَ ذلك حُبَيْش[2] بن دُلْجة ، وطارق مولى عثمان ، والحجاج بن يوسف ، وغيرهم ، وذلك إن كان كفرا كلّه فلم يبلغ كفرَ نابتة

(١) يشير بذلك الى ما ورد عن الحجاج أنه قال فى كلام له : «ويحكم أخليفة أحدكم فى أهله أكرم عليه أم رسوله اليهم» يريد بذلك تفضيل مقام الخلافة على مقام الرسالة ، ومثل هذا يرمى الحجاج بالكفر وقد عقد ابن عبد ربه فى العقد الفريد فصلا فيمن زعم أن الحجاج كان كافرا (راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣)

(٢) فى الأصل : «حنش» وهو خطأ وصوابه ما أثبتنا كما فى شرح القاموس والطبرى .

عصرنا، وروافض دهرنا، لأنّ جنس كفر هؤلاء غيرُ كفر أولئك. كان اختلاف الناس فى القَدَر على أنّ طائفة تقول كلّ شىء بقضاءٍ وقدر، وتقول طائفة أخرى كل شىء بقضاء وقَدَر إلا المعاصىَ، ولم يكن أحد يقول إنّ الله يعذّب الأبناء ليَغيظَ الآباء، وإنّ الكفر والإيمان مخلوقان فى الإنسان، مثلَ العمى والبصر، وكانت طائفة منهم تقول إنّ الله يرى، لا تزيد على ذلك، فإن خافتْ أن يُظَن بها التشبيهُ قالت يُرَى بلا كيف تَقَزّزًا من التجسيم والتصوير، حتى نبتت هذه النابتة، وتكلّمت هذه الرافضة، فقالت جسيما، وجعلتْ له صورة وحدّا، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير، ثم زعم أكثرهم أنّ كلام الله حسَن وبين وحجةٌ وبرهان، وأنّ التوراة غير الزبور، والزبورَ غيرُ الانجيل، والانجيلَ غيرُ القرآن. والبقرةَ غيرُ آل عِمران، وأن الله تولّى تأليفه، وجعلَه برهانَه على صدق رسوله، وأنّه لو شاء أن يَزيد فيه زاد، ولو شاء أن يَنقُص منه نَقَص، ولو شاء أن يبدّله بدّله، ولو شاء أنْ يَنْسَخَه كلّه بغيره نسخَه، وأنه أنزله تنزيلا، وأنّه فصله تفصيلا، وأنّه بالله كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلّا هو، غيرَ أن الله مع ذلك كله لم يخلقه؛ فأعْطَوْا جميع صفات الخلق، ومنعوا اسم الخلق.

والعجبُ أنّ الخلقَ عند العرب إنّما هو التقدير نفسُه؛ فإذا قالوا: خلَقَ كذا وكذا، ولذلك قال: «أَحْسَنُ الخَالِقِينَ». وقال: «وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا» وقال: «وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ» فقالوا: صنَعه وجعلَه وقدّره، وأنزلَه وفصله وأحدثه، ومنعوا خلقه، وليس تأويلُ خلقه أكثرَ من قدّره. ولو قالوا بدلَ قولهم: قدّره ولم يخلقه خلقه ولم يقدّره ما كانت المسألة عليهم إلّا من وجهٍ واحد؛ والعجب أن الذى منعه بزعمه أن يَزْعُم أنّه مخلوق، أنه لم يسمع ذلك من سَلَفِه، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضا من سلفِه أنه ليس بمخلوق. وليس ذلك بِهِم، ولكنْ لمّا كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف، وعلى جهةِ تقطيع الحروف، وإعمال اللّسان والشفتين، وما كان على غير هذه الصورةِ والصفة فليس بكلام، ولمّا كنا عندهم على غيرهذه الصفة،

وكنا لِكلامنا غيرَ خالقــين ، وجب أنّ الله عز وجل لكلامه غيرُ خالق ، اذ كنا غيرَ خالقين لكلامنا ، فإنّمـا قالوا ذلك ، لأنّهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فرْقا ، وإنْ لم يُقرّوا بذلك بألسنتهم فذلك معناهم وقصدُهم .

وقد كانتْ هذه الأمّةُ لاتجاوز معاصيها الإثمَ والضلالَ ، إلّا ماحكيتُ لك عن بني أمية ، وبني مرْوان ، وعمّالهم ، ومن لم يَدِن بإكفارهم حتّى نجمَت النوابت ، وتابعتْها هذه العوام ، فصار الغالبُ على هذا القرن الكفرَ ، وهو التشبيهُ والجبْر ، فصار كفرهُم أعظمَ مِن كفر مَن مضى في الأعمـال التي هي الفسقُ ، وشركاءُ[(1)] مَن كفر منهم بتولّيهم ، وترك إكفارِهم ، قال الله عز وجل مِن قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وأرجو أن يكونَ اللهُ قد أغاث المُحقّين ، ورحِمهم وقوّى ضعفَهم ، وكثّر قِلّتهم ، حتى صـار وُلاة أمرنا في هـذا الدهرِ الصعبِ والزمن الفاسد أشـدَّ استبصارا في التشبيه من عِلّيتنا ، وأعْلَم بما يلزم فيه منّا ، وأكشفَ للقناع من رؤسائنا ، وصادفوا الناس وقد انتظموا معـان[(2)] الفساد أجمع ، وبلغوا غاياتِ البدع ، ثم قرنوا بذلك العصبيةَ التي هلَك بها عالَمٌ بعد عالم ، والحميةَ التي لا تُبْقي دينا إلّا أفسدتْه ، ولا دنيا إلّا أهلكتها ، وهو ماصدرت اليه العجم من مذهب الشُّعُوبية ، وما قد صار اليه الموالي من الفَخْر على العجمِ والعرب ، وقد نجمَت من الموالي ناجمةٌ ، ونبتتْ منهم نابتــةٌ ، تزعم أن المولى بوَلائه قد صار عربيا ، لقول النبيّ صلّى الله عليه وسلم : «مَوْلَى القوم منهم» ولقوله : « الوَلاء لُحْمَـةٌ كلُحْمَةِ النسب لا يُباع ولا يُوهب .

قال : فقد علِمنا أنّ العجمِ حيـن كان فيهم المُلْك والنبوّة كانوا أشرفَ من العرب . ولمّـا حُوّل ذلك الى العرب صارتِ العربُ أشرفَ منهــم ، قالوا : فنحن معاشرَ الموالي بقديمنا في العجم أشرفُ من العرب ، وبالحديث الذي صار لنا في العرب أشرفُ من العجم ، وللعرب القــديمُ دون الحديث ، ولنـا خصلتان جميعا وافرتان فينا ، وصاحب الخصلتين

---

(1) كذا في الأصل ، ولعله : وصاروا شركاء الخ .　　(2) معان بفتح الميم وعين : المباءة والمنزل .

أفضلُ مِن صاحب الخصْلة ، وقد جعل الله المولى بعـد أن كان عجميا عربيا بوَلائه ، كما جعل حليفَ قُريش من العرب قرشيا بحَلِفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجميا عربيا ولولا قول النبيّ صلّى الله عليه وسلم : « إنّ اسماعيل كان عربيّا » ما كان عندنا الّا أعجميا لأنّ الأعجميّ لايَصير عربيّا ، كما أنّ العربيّ لا يصير أعجميّا ، فإنما عِلمنا أنّ اسماعيل صيّره الله عربيا بعد أن كان أعجميا ، بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حكم قُوله «مولى القوم منهم» وقوله : « والوَلاء لُحْمة » . قالوا : وقد جعل الله إبراهيمَ عليه السـلام أبًا لمَن لم يلِد ، كما جعله أبا لمن وَلَد ، وجعل أزواجَ النبيّ أُمّهات المؤمنين ، ولم يَلِدْن منهم أحدا ، وجعل الجار والد مَن لم يَلِد فى قولٍ غير هذا كثير قد أتينا عليه فى موضعه ، وليس أدعى الى الفساد ، ولا أحلَبَ للشرّ من المفاخرة ، وليس على ظهرها إلّا نَخور (الّا قليل) وأىّ شىءٍ أغيظُ من أنْ يكونَ عبدُك يزعم أنّه أشرفُ منك ، وهو مُقِرّ أنّه صار شريفا بعِتْقِك إيّاه .

وقد كتبتُ ـــ مدّ الله فى عمرك ـــ كُتبا فى مُفاخرة قحطان ، وفى تفضـيل عَدْنان ، وفى ردّ الموالى الى مكانهم من الفضل والنقص ، والى قدر ما جعـل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أنْ يكون عدلًا بينهم ، وداعيـةً الى صلاحهم ، ومَنْبَهَةً عليهم ولهم ؛ وقد أردتُ أن أُرسل بالجزء الأوّل اليك ثم رأيتُ ألّا يكونَ إلّا بعد استئذانك ، واستئمارك ، والانتهاء فى ذلك الى رَغبتك ، فرأيُك فيه موفّق إن شاء الله عز وجل و به الثقة .

وكتب الى بعض إخوانه فى ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حفِظك الله حِفظ من وفّقه للقناعة ، وآستعمله بالطّاعة ؛ كتبتُ اليك وحالى حالُ من كثُفت غمومه ، وأشكلت عليه أموره ، وآشـتبه عليه حالُ دهره ، ومَخرج أمره ، وقَلّ عنده من يثِق بوفائه ، أو يحمَد مغبّة إخائه ، لآستحالة زماننا ، وفساد أيامنا ، ودولة أنذالنا ؛ وعدما كان قدّم الحيـاء على نفسه ، وحكمَ الصدق فى قوله ، وآثر الحق فى اموره ، ونبذ المُشتبهات عليه من شؤونه ، تمّتْ له السلامة ، وفاز بوُفور حظّ العافية ، وحمد مغبّة مكروه

العاقبة ؛ فنظرنا إذ حال عندنا حكمه، وتحولت دولته ؛ فوجدنا الحياء متصلا بالحرمان والصدق آفة على المال، والقصد فى الطلب بترك استعمال القحة، وإخلاق العرض من طريق التوكل دليلا على سخافة الرأى، إذ صارت الحظوة البالغة، والنعمة السابغة، فى لؤم المشيئة، وسناء الرزق من جهة محاشاة الرخاء؛ وملابسة معرة العار؛ ثم نظرنا فى تعقب المتعقب لقولنا، والكاشر لحجتنا؛ فأقمنا له علما واضحا، وشاهدا قائما، ومنارا بينا؛ إذ وجدنا من فيه السفولية الواضحة، والمثالب الفاضحة، والكذب المبرح، والخلف المصرح، والجهالة المفرطة، والركاكة المستخفة، وضعف اليقين والاستثبات، وسرعة الغضب والجراءة. قد استكمل سروره، واعتدلت أموره، وفاز بالسهم الأغلب، والحظ الأوفر، والقدر الرفيع، والجواز الطائع، والأمر النافذ ؛ إن زل قيل حكم، وإن أخطأ قيل أصاب. وإن هذى فى كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة من نسمة مباركة؛ فهذه حجتنا والله على من زعم أن الجهل يخفض، وأن النوك يردى، وأن الكذب يضر، وأن الخلف يزرى ؛ ثم نظرنا فى الوفاء والأمانة والنبل والبلاغة وحسن المذهب وكمال المروءة وسعة الصدر وقلة الغضب وكرم الطبيعة، والفائق فى سعة علمه، والحاكم على نفسه، والغالب لهواه. فوجدنا فلان بن فلان؛ ثم وجدنا الزمان لم ينصفه من حقه، ولا قام له بوظائف فرضه. ووجدنا فضائله القائمة له قاعدةً به ؛ فهذا دليل أن الطلاح أجدى من الصلاح، وأن الفضل قد مضى زمانه. وعفت آثاره، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده ؛ ووجدنا العقل يشقى به قرينه، كما أن الجهل والحمق يحظى به خدينه؛ ووجدنا الشعر ناطقا على الزمان، ومعربا عن الأيام حيث يقول :

تحامق مع الحمقى اذا ما لقيتهم ... ولاقهم بالجهل فعل أخى الجهل

وخلط اذا لاقيت يوما مخلطا ... يخلط فى قول صحيح وفى هزل

فإنى رأيت المرء يشقى بعقله ... كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

فبقيتُ — أبقاكَ الله — مثلَ من أصبح على أوفاز[1]، ومن النُّقلة على جِهاز، لا يسوغ له نعمة، ولا تَطْعَم عينهُ غَمْضة، فى أهاويلَ يباكِره مكروهُها، ويُراوحه عَقابيها؛ فلو أنَّ الدعاء أُجيب، والتضرّع سُمِع، لكانت العِدّة العظمى، والرَّجْفة الكبرى؛ فليتَ أىْ أنجى ما أستبطئه من النَّفخة، ومن فَجْأة الصَّيحة، قُضِى فكانَ، وأُذِن به فكان؛ فوالله ما عُذِّبتْ أمة بَرْجفة، ولا ريحٍ ولا سَخْطة، عذابَ عينى برؤية المُغَايَظة المُدْمنة، والأخبار المهلكة، كأنّ الزمان يُوكَّل بعذابى، أو يُنْصَب بأيامى، فما عيشُ من لا يُسَرّ بأخ شفيق، ولا يَصْطبح فى أوّل نهاره، إلا برؤية من يكرهه، ويَغُمّه بطلعته؛ فقد طالت الغُمّة، وواظبت الكُربة، وادلهمّت الظُّلمة، وخَمَد السراج، وتباطأ الانفراج .

وصف الجاحظ لقريش وبنى هاشم

قد علِم النـاسُ كيف كرمُ قريش وسَخـاؤها ، وكيف عقولها ودَهاؤها ؛ وكيف رأيُها وذكاؤها ، وكيف سياستُها وتدبيرها ؛ وكيف إيجازها وتحسـيرها، وكيف رجاحة أحلامها اذا خَفّ الحليم، وحِدّة أذهانها اذا كلّ الحديد؛ وكيف صَبْرها عند اللقاء، وثباتها فى اللأْواء؛ وكيف وفاؤها اذا استُحْسن الغـدر؛ وكيف جـودها اذا حُبّ المـال ؛ وكيف ذكرها لأحاديث غَدٍ ، وقلّة صـدودها عن جهة القصد ؛ وكيف إقرارها بالحقّ وصـبرها عليه ؛ وكيف وصفها له ودُعاؤها اليه ؛ وكيف سماحة أخلاقها، وصونُها لأعْراقها؛ وكيف وصلوا قديمَهم بحديثهم، وطريفَهم بتليدهم؛ وكيف أشـبه عَلانِيَتَهم سرُّهم، وقولَهم فعلُهم، وهل سلامة صـدر أحدهم إلا على قدر بُعدِ غَديره، وهل غفلته إلا فى وزن صِدق ظنّه، وهل ظنه إلا كيقين غيره .

---

(١) أى على سفر .

وكتب فى الاعتذار :

أما بعد فنعم البَديلُ مِنَ الزّلّة الاعتذار، وبئس العِوَضُ من التوبة الإصرار، وإن أحقّ من عطَفتَ عليه بحلمك من لم يَسْتَشفع إليك بغيرك، وإنى بمعرفتى بمَبلَغ حِلْمك وغايةِ عفوك، ضمِنت لنفسى العفو من زَلّتها عندك، وقد مسّنى من الألم ما لم يَشْفِه غيرُ مُواصلتك .

وله فى الاستعطاف :

ليس عندى أعزّك اللهُ سببٌ ولا أقدُر على شفيع إلا ما طَبَعَك الله عليـه من الكرم والرحمـة والتأميل الذى لا يكون إلا من نِتاج حسن الظن وإثبات الفضـل بحال المأمول وأرجو أن تكون من الشاكرين فتكون خير مُعْتِب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعـام سببا للانقطاع إليكم والكون تحت أجنحتكم؛ فيكون لا أعظم بركة؛ ولا أنْمى بقيّة من ذنب أصبحت فيه، وبمثلك — جُعلتُ فداك — عاد الذنبُ وسيلةً، والسيئة حسنة، ومثلك من آنقلب به الشرّ خيرا والغُرْم غُنْما .

من عاقَب فقد أخذ حظّه؛ وإنمـا الأجر فى الآخرة، وطيب الذكر فى الدنيا، على قَدْر الاحتمال وتَجَرُّع المرائر وأرجو، ألا أَضيع وأَهْلك فيما بين كرمك وعقلك، وما أكثر من يعفو عمّن صَغُر ذنبُه وعظُم حقّه، وإنمـا الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحُرْمة. وإن كان العفو عظيما مُسْتَطْرَفا من غيركم فهو تِلادٌ فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس إلى مخالفة أمركم، فلا أنتم عن ذلك تَنْكُلون، ولا على سالف إحسانكم تندَمون، وما مثلكم إلا كمثـل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يمرّ بمَلإ من بنى إسرائيل إلا أسمعوه شرّا وأسمعهم خيرا، فقال له شمْعُون الصفا : « ما رأيتُ كاليوم كلّمـا أسمعوك شرّا أسمعتهم خيرا فقـال : كلّ آمرئ يُنفِق ممّـا عنده وليس عنـدكم إلا الخير ولا فى أَوعيتكم إلّا الرحمـة » وكلُّ إناءٍ بالذى فيه ينضح » .

وله فى ذمّ الحسد :

الحسد — أبقاك الله — داءٌ يَنهك الجسد، علاجه عسير وصاحبه ضَجِر وهو باب غامض، وما ظَهَر منه فلا يُداوَى وما بَطَن منه فَمُداوِيه فى عَناء، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « دَبَّ اليكم داءُ الأمم من قبلكم : الحسدُ والبغضاء » . الحسد عَقِيد الكفر، وحليف الباطل ، وضدّ الحقّ منه تتولّد العداوةُ وهو سبب كلّ قطيعة ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رَحِم من الأقرباء ومُحْدِث التفرّق بين القرناء، ومُلقِح الشرّ بين الخلفاء .

دفاع الجاحظ عن مؤلفاته :

وقد ذكر الجاحظ جلّ مؤلَّفاته فى كتاب "الحيوان" ودافع عنها بعد أن وصفها فقال[1] : جنّبك الله الشبهة، وعصَمك من الحَيْرة وجعل بينك وبين المعرفة نَسَبا، وبين الصدق سَبَبا، وحبّب اليك التثبّت، وزيّن فى عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عِزّ الحقّ، وأودع صدرك بَرْدَ اليقين، وطرد عنك ذُلّ الطمع، وعرّفك ما فى الباطل من الذّلّة، وما فى الجهل من القِلّة، ولعَمْرِى لقد كان غيرُ هذا الدعاء أصوبَ فى أمرك، وأدلّ على مِقدار وَزْنك، وعلى الحال التى وَضعت نفسك فيها، ووسَمْت عِرْضك بها، ورَضِيتها لدينك حظّا، ولمروءتك شكلا، فقد انتهى الىّ ميلُك على أبى إسحاق، وحَمْلُك علىّ، وطعنُك على معبَد، وتنقّصُك له فى الذى كان جرى بينهما فى مَساوى الديك ومحاسنه، وفى ذكر منافع الكلب ومَضارّه، والذى خرجا اليه من ٱستقصاء ذلك وجمعه، ومِنْ تتبّعه ونظمه، ومن الموازنة بينهما، والحكم فيهما .

ثم عِبْتنى بكتاب حِيَل اللصوص ، وكتاب غِشّ الصناعات، وعبْتنى بكتابِ المُلَح والطُّرَف، وما حَرّ من النوادر وبَرَد، وعاد باردُها حارّا بفرط بردِه، حتّى أمتع بأكثر من ٱمتاع الحارّ، وعِبْتنى بكتاب ٱحتجاجات البُخَلاء، ومناقضتِهم للسُّمحاء، والقولِ فى الفَرْق بين

---

(١) اعتمدنا فى تصحيح هذه الفصول على الأصل الفتوغرافى المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥ آداب، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بمطبعة السعادة بمصر فى غاية التحريف وملأى الأخطاء .

الصدق اذا كان ضارا فى العاجل، والكذب اذا كان نافعا فى الآجل ، ولمَ جعلنا الصدق أبدا محمودا ، والكذب أبدا مذموما ، والفرق بين الغَيْرة وإضاعة الحُرْمة ، وبين الإفراط فى الحَمِيّة والأَنَفَة، وبين التقصير فى حِفْظ حق الحُرْمة، وقِلّة الإكتراث بسوء القالة ؛ وهل الغَيْرة اكتساب وعادة، وبعضُ مايَعْرِض من جهة الديانة ولبعض التزيّد فيه والتحسن به؛ أو يكون ذلك شيئا فى طبع الحرية وحقيقة الجوهريّة ؛ ما كانت العقول سليمةً، والآفات مَنْفِيّة، والأخلاطُ مُعْتدِلة ؛ وعبتنى بكتاب الصُّرحاء والهُجَناء، ومُفاخرةِ السودان والحُمْران، والموازنةِ بين حق الخُؤُولة والعُمُومة؛ وعبتنى بكتاب الزرع والنخل، والزيتون والأعناب، وأقسامِ فضولِ الصناعات، ومراتبِ التجارات ؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفَرْقِ ما بين الذكور والإناث، وفى أىّ موضع يَغْلِبْنَ ويَفْضُلْنَ ، وفى أىّ موضع يكنّ المغلوبات والمَفْضولات، ونصيبُ أيّهما فى الولد أوفر، وفى أىّ موضع يكون حقهنّ أوجبَ، وأىّ عمل هو بهنّ أليقُ، وأىّ صناعة هنّ فيها أبلغُ؛ وعبتنى بكتاب القحطانية وكتاب العَدْنانيّة فى الرد على القحْطانيّة ، وزعمت أنّى تجاوزتُ فيه حدّ الحَمِيّة، الى حدّ العصبية، وأنّى لم أصل الى تفضيل العَدْنانيّة إلا بتنقص القَحْطانيّة؛ وعبتنى بكتاب العرب والمَوَالى، وزعمتَ أنى بَخَسْت الموالىَ حقوقهم، كما أنّى أعطيت العرب ما ليس لهم؛ وعبتنى بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول فى فَرْق ما بين العرب والعجم هو القولُ فى فرق ما بين الموالى والعرب، ونسبتنى الى التَّكْرار والتَّرْداد، والى التكثير والجهل بما فى المُعاد من الخَطَل، وحمْل الناس المُؤَنَ؛ وعبتنى بكتاب الأصنام، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إيّاها، وكيف اختلفا فى جهة العلّة مع اتفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عُبّاد البِـدَدَة[1] والمتمسّكون بعبادة الأوثان المنحوتة ، والأصنام المنجورة ، أشدَّ الناس إلفا لما دانوا به ، وشغفا بما تعبّدوا له ، وأظهرَهم جِدّا، وأشـدَّهم على مَن خالفهم ضِغْنا، وبما دانوا صبابة وعُجْبا، وما الفرق بين البُدّ والوثن، وما الفرق بين الوثن والصنم، وما الفرق

(١) بددة جمع بدّ ، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم نفسه كما قال ابن دريد .

بين الدُّمْية والجُثّـة ، ولم صوّروا فى محاريبهم وبيوت عِبـاداتهم صُوَر عظمائهم ورجالِ دعوتهم، ولم تأنّقوا فى التصوير، وتجرّدوا فى إقامة التركيب، وبالغوا فى التحسين والتفخيم، وكيف كانت أوّلية تلك العبادات، وكيف افترقت تلك النِّحَل، ومن أىّ شىء كانت خُدَعُ تلك السَّدَنة، وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عددا، وكيف شمِل ذلك المذهبُ الأجناس المختلفـــة !

وعبتنى بكتاب المعـادن، والقول فى جواهر الأرض، وفى اختلاف أجناس الفِلِزّ، والإخبار عن ذائبها وجامدها ، ومخلوقها ومصنوعها ، وكيف يُسْرِع الانقلابُ الى بعضها ويُبْطىء عن بعضها ، وكيف صار بعض الألوان يَصْبغ ولا ينصبغ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ، وبعضها يصبغ وينصبغ، وما القول فى الإكسـير والتلطيف ؛ وعبتنى بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس، وبكتاب فرق ما بين الجنّ والإنس، وفرق ما بين الملائكة والجنّ، وكيف القول فى معرفة الهُدْهُد واستطاعة العفريت، وفى الذى كان عنده علم من الكتاب، وما ذلك العـلم، وما تأويل قولهم : كان عنده اسم الله الأعظم؛ وعبتنى بكتاب الأوفاق والرياضات، وما القول فى الأرزاق والإنفاقات، وكيف أسباب التثمير[1] والترقيح وكيف تجتلب التجّار الحُرَفاء، وكيف الاحتيالُ للودائع، وكيف التَّسَبُّبُ إلى الوصايا، وما الذى يوجب لهم التعـديل. ويَصْرِف اليهم بابَ حُسْـن الظنّ، وكيف ذكرنا غشّ الصناعات والتجارات. وكيف التَّسَبُّب الى تَعَـرّف ما قد سَتَرُوا، وكشف ما موّهُوا ، وكيف باب الاحتراس منه والسلامة من أهله ! . وعبتنى برسائلى، وبكلّ ما كتبتُ به الى إخوانى وخُلَطائى من مَزْح وجِدّ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تَغَافُلٍ وتوقيف، ومن هِجاء لا يزال وسْمُهُ باقيـا، ومديح لا يزال أثرُه ناميا، ومن مُلَح، تُضْحِك ، ومواعظَ تبكى؛ وعبتنى برسائلى الهاشميّات . واحتجاجى فيهـا، واستقصائى معانيهَا، وتصويرى لهـا فى أحسن صورة ، وإظهارى لها فى أتمّ حِلْيَة، وزعمتَ أنّى قد خرجتُ بذلك من حد المُعتزِلة الى حدّ الزَّيْديّة،

(١) التثمير والترقيح : نمو المال واصلاحه .

ومن حدّ الاعتدال فى التشيّع والاقتصاد فيه الى حدّ السّرف والإفراط فيه، وزعمت أن مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة . ومقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية . وزعمت أن فى أصل القضيّة ، والذى جرت عليه العادة أنّ كلّ كبير فأوّله صغير . وأن كلّ كثير فإنما هو قليل جُمع الى قليل، وأنشدتَ قول الراجز:

قد يَلْحَق الصغيرُ بالجليل * وإنما القَرْمُ من الأَفِيل[1]

* وسُحُقُ النَّخْلِ من الفَسيل *

وأنشدتَ قول الشاعر :

رُبّ كبيرٍ هاجَه صغيرُ * وفى البحور تَغرق البُحورُ

وقلتَ وقال يزيد بن الحكم :

واعلم بُنَىّ فإنّه * بالعلم يَنْتَفِع العليم

إنّ الأمور دَقيقُها * ممّا يَهِيج له العظيم

وقلت وقال الآخر :

صار جِدّا مامَزَحتُ به * رُبّ جِدّ ساقه اللّعِبُ

وأنشدت قول الآخر وهو عنترة[2] :

ما تَنظرون بحقّ وَرْدَةَ فيكمُ * تُقضى الأمور ورَهْط وردة غُيّبُ

قد يَبعثُ الأمرَ الكبيرَ صغيرُه * حتى تَظَلّ له الدماء تَصَبّبُ

وقالت كَبْشَةُ بنت مَعْديكرب :

جَدَعْتُمْ بِعَبْد الله آنفَ قَوْمِه * بَنِى مازِنٍ أَنْ سُبّ راعِى المُخَزّمِ

وقال الآخر :

أيّةُ نارٍ قدَح القادحُ * وأىّ جِدّ بلغ المازِحُ

---

(١) الأفيل : صغر الإبل .

(٢) والصواب أن البيتين لطرفة وهما من جملة أبيات فى ديوانه .

وتقول العرب : « العَصَى من العُصَيَّة ولا تلِد الحيّة إلّا حُيَيّة » ؛ وعبت كتابى فى خلْق القــرآن ، كما عبت كتابى فى الرّد على المُشَــبِّهة ؛ وعبت كتابى فى أصول الفُتْيا والأحكام ، كما عِبت كتابى فى الاحتجاج لنظْم القرآن ، وغَريب تأليفه ، وبديع تركيبه ؛ وعبت مُعارَضَتى الزَّيدِيّة ، وتفضيلِى الاعتزالَ على كلّ نِحْلة ، كما عبت كتابى فى الوعد والوعيد ، وكتابى على النصارى واليهود ؛ ثم عبت جُمْلة كتبى فى المعرفة ، والتمست تهجينها بكلّ حِيلة ، وصغّرت من شأنها ، وحطَطْت من قدرها ، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها .

وعبت كتاب الجوابات وكتاب الرسائل ، وكتاب الرّد على أصحاب الإلهام ، وكتاب الحُجّة فى تثبيت نُبُوّة النبىّ صــلى الله عليه وســلم ، وكتاب الأخبــار ؛ ثم عبت كتابى إنكارى بَصيرةَ غَنّامٍ المُرتدّ ، وبصيرة كلّ جاحد ومُلْحِد ، وتفريق بين اعتزام الغُمْر[1] وبين استبصار المُحِق ؛ وعبت كتاب الرد على الجَهْمِيّة فى الإدراك ، وفى قولهم فى الجهالات ، وكتاب الفرق ما بين النبىّ والمُتَنَبِّى ، والفرق بين الحيل والمخاريق ، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام القاهرة ؛ ثم قصدت الى كتابى هــذا بالتصغير لقدره ، والتهجين لنَظْمــه ، والاعتراض على لفظه ، والتحقير لمعانيه ، فزَرَيْت على نحتــه وسبكه ، كما زَرَيْت على معناه ولفظه ، ثم طعنت فى الغرض الذى اليه نَزَعنا ، والغايةِ التى اليها أجرينا[2] ، وهنا كتاب معناه أنبه من اسمه ، وحقيقته آنَقُ من لفظه ، هو كتاب يحتاج اليه المتوسّط العامّى ، كما يحتاج اليه العالم الخاصّى ، ويحتاج اليــه الرَّيِّض ، كما يحتاج اليه الحاذق .

أما الرَّيِّض فللتّعلّم والدُّرْبة ، وللترتيب والرياضــة ، وللتمرين وتمكين العادة ، اذ كان جليله يتقدّم دقيقه ، واذ كانت مُقَدّماته مُرَتّبة ، وطبقات معانيه مُنَزّلة ؛ وأما الحاذق فلكفاية المُؤونة ، ولأنّ كلّ مَن التقط كتابا جامعا ، وبابا من أمهات العلم مجموعا كان له غُنْمه ، وعلَى مُؤلّفه غُرْمُه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كَدّه ، مع تعرّضــه لمطاعن البُغاة ، ولاعتراض

---

(١) الغمر مثلثة الغين : من لم يجرب الأمور ، والجاهل الأبله .

(٢) أجرينا : قصدنا .

المنافسين، ومع عَرْضِه عقلَه المَكْدودَ على العقول الفارغة، ومعاناتِه على الجهابذة، وتحكيمه فيه المتأوّلين والحَسَدة، ومتى ظفر بمثله صاحب علم، أو هجم عليه طالب فقه، وهو وادع رافه، ونشيط جام، ومؤلّفه متعب مكدود، فقد كُفِي مؤونةَ جمعه، وخزنه وتتبعه، وطلبه، وأغناه ذلك عن طُول التفكير، واستنفاد العمر، وفَلّ الحدّ، وأدرك أقصى حاجته، وهو مجتمع القوة، وعلى أنّ له عند ذلك أن يجعل هجومَه عليه ضربا من التوفيق، وظفره به بابا من التسديد.

(وهذا كتاب) تستوى فيه رَغْبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا، وإسلاميا جماعيا، فقد أخذ من طُرَف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنّة، وبين وِجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفِتيان كما يشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المجدّ ذو الحزم، ويشتهيه الغُفْل كما يشتهيه الأديب، ويشتهيه الغبيّ كما يشتهيه الفَطِن؛ وعبتنى بحكاية قول العثمانية والضِّرارية وأنت تسمعنى أقول فى أول كتابى: وقالت العثمانية والضِّرارية، وكما سمعتنى أقول: وقالت الرافضة والزَّيْدية، فحكمت علىّ بالنَّصْب لحكايتى قول العثمانية، فهلّا حكمت علىّ بالتشيّع لحكايتى قول الرافضة، وهلّا كنتُ عندك من الغالية لحكايتى حُجج الغالية، كما كنتُ عندك من الناصبة لحكايتى قول الناصبة. وقد حكينا فى كتابنا قول الإباضيّة والصُّفْريّة، كما حكينا أقاويل الأزارقة والنجديّة، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنيت الخارجيّة؛ وكل اسم سواها فإنما هو فرع ونتيجة واشتقاق منها، ومحمول عليها؛ فهلّا كنا عندك من المحكّمة الخارجة، كما صرنا عندك من الضِّراريّة، والناصبة! وكيف رضيت بأن تكون الشيعة الى أعراض الناس أسرع من المارقة! اللهم إلّا أن تكون وجدت حكايتى عن العثمانية والضِّرارية أشبع وأجمع، وأتمّ وأحكم وأجود صَنْعةً، وأبعد غايةً، ورأيتنى قد وَهّنتُ حقّ أوليائك بقدر ما قوّيتُ باطل أعدائك، ولو كان ذلك كذلك لكان شاهدك من الكتاب حاضرا، وبرهانك على ما ادّعيتَ واضحا.

وعبتنى بكتّاب العبّاسيّة فهلّا عبتنى بحكاية مقالة من ادّعى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن ترك الناس سُدًى بلا قيّم أردّ عليهم ، وهَمَلا بلا راعٍ أربح لهم، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل، وغنيمة الآجل،وأنّ تركهم نَشَرا لا نظام لهم أبعد لهم من المفاسد، وأجمع لهم على المراشد! بل ليس ذلك بك، ولكنه لما بهرك ما سمعت ، وملأ صدرك الذى قرأت، وأبعلك وأبطرك فلم تتجه للحُجّة وهى لك مُعرضة ، ولم تعرف المَقاتل وهى لك بادية، ولم تعرف باب المَخرج إذ جهلتَ باب المَدخل، ولم تعرف المصادر اذ جهلت الموارد ، ورأيت أن سَبّ الأولياء أشفى لدائك، وأبلغ فى شفاء سُقْمك، ورأيت أنّ إرسال اللسان أحضرُ لذّة، وأبعدُ من النَّصَب، ومن إطالة الفِكْرة، ومن الاختلاف الى أرباب هذه الصناعة، ولو كنتَ حين فطنت لعجزك وَصَلْت نقصك بتمام غيرك ، واستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك، وحبيسٌ على تقويم أشباهك، كان ذلك أزينَ فى العاجل ، وأحقّ بالمَثُوبة فى الآجل، وكنتَ إن أخطأتك الغنيمة لم تَخْطِئك السلامة ، ولقد سلِم عليك المخالف ، بقدر ما ٱبْتُلى به منك الموافق؛ وعلى أنه لم يُبتل منك إلّا بقدر ما ألزمته من مَؤونة تثقيفك، والتشاغل بتقويمك؛ وهل كنت فى ذلك إلا كما قال العربى : * وهل يضرّ السحابَ نبح الكلاب * ؟ وإلّا كما قال الشاعر :

هل يضرّ البحرَ أمسَى زاخرا * أنْ رَمَى فيه غلامٌ بحجر

وهل حالنا فى ذلك إلا كما قال الأوّل :

ما ضرّ تَغْلِبَ وائلٍ أهَجَوْتَها * أمْ بُلْتَ حيث تَنَاطَحَ البَحْرانِ

وقال حسان :

ما أبالى أَنَبّ بالحَزن تَيْسٌ * أم لَحَانى بظهر غَيْبٍ لئيمُ

وما أشك أنّك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطيّة لك ، ووجّهتَ حِلْمنا عنك الى الخوف منك ، وقد قال زُفَر بن الحارث لبعض مَن لم ير حقّ الصفح بجعل العفو سببا الى سوء القول :

فإنْ عُدْت والله الذى فوقَ عرشه * مَنَحْتُك مَسْـنُونَ الغِرَارَين أزرقا

فإنّ دواء الجهل أن تُضْرَبَ الطُّلَى[١] * وأن يُغْمَسَ العِرِّيضُ[٢] حتى يُغَرّقا

وقال الأوّل :

وما نَفَى عنك قوما أنت خائفُهم * كمِثل وقمِك جُهّالاً بجهّالِ

فاقعس إذا حدِبوا واحْدَبْ إذا قَعِسوا * ووازِن الشرّ مِثقالاً بمثقال

وقال الآخر :

وضغائنٍ داويتها بضغائنٍ * حتى يَمُتْنَ و بالحُقُود حُقُودا

وإنّى وإن لم يكن عندى سِنان زُفَرَ بن الحارث، ولا مُعارضةُ هؤلاء : الشرّ بالشرّ، والجهلَ بالجهل، والحِقْدَ بالحقد. فإن عندى ما قال المسعودىُّ :

فمَسّا تراب الأرض منها خُلِقْتُما * وفيها المَعادُ والمَصيرِ الى الحشْرِ

ولا تَعْجَبَا أنْ تَرْجِعا فتُسَلِّما * فما حُشِي الأقوامُ شرّا من الكِبْر

فلو شئتُ أدْلى فيكما غيرُ واحِدٍ * علانية أو قال عِنْدِىَ فى سِتْرِ

فإنْ أنا لمْ آمر ولم أنْهَ عنكُما * ضَحِكْتُ[٣] له حتى يَلِجّ و يَسْتَشْرِى

وقال النَّمِرُ بن تَوْلَب :

جَزَى الله عنّى حَمْزَةَ بنةَ نَوْفَلٍ * جزاءَ مُغِلّ بالأمانة كاذِبِ

بما خبّرت عنّى الوُشاةَ ليكذبوا * علىّ وقد أوليتُها فى النوائبِ

يقول : أخرجت خبرى الى من يشتهى أن أُعاب عندها .

ولو شئنا لعارضناك من القول بما هو أقبح أثرا، وأبقى وَسْما، وأصدق قيلا، وأعدل شاهدا؛ وليس كل من ترك المعارضة فقد صفح، كما أنّه ليس كل مَن عارض فقد انتصر.

---

(١) الطلى : الأعناق .

(٢) العريض : الذى يتعرض للناس بالشر .

(٣) كذا فى الأصل، وفى اللسان فى مادة لجج : تضاحكت حتى يلج و يستشرى .

وقد قال الشاعر قولاً إنْ فهمته كَفَيْتنا مَؤونة المعارضة ، وكفيت نفسك لُزوم العار ، وهو قوله :

إنْ كُنتَ لا تَرْهَبُ ذَمّى لِما * تَعْرِف من صفحى عن الجاهلِ
فاخْشَ سكوتى آذِنًا مُنْصِتًا * فيك لِمَسْمُوعِ خَنا القائلِ
فالسامعُ الذمَّ شَريكٌ له * كالمُطعِم المأكولَ للآكلِ
مَقالةُ السوء الى أهلها * أسرعُ من مُنْحدِرٍ سائلِ
ومَن دَعى الناس الى ذَمّه * ذمّوه بالحقّ وبالباطلِ
فلا تَهِجْ إنْ كنتَ ذا إرْبةٍ * حَرْبَ أخى التَّجْرِبة العاقلِ
فإنّ ذا العقل إذا هِجْتَه * هِجْتَ به ذا خَبَلٍ خابلِ
تُبْصِر فى عاجلِ شَدّاته * عليك غِبَّ الضررِ الآجلِ

وقد يقال : إنّ العفوَ يُفسدُ من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم ؛ وقد قال الشاعر :

والعفوُ عند لَبيب القومِ مَوْعِظةٌ * وبعضُه لِسَفيه القومِ تَدْريبُ

فإن كنّا قد أسأنا فى هذا التقريع والتوقيف ، فالذى لم يأخذ فينا بحُكْم القرآن ، ولا بأدب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يفزع الى ما فى الفِطَن الصحيحة ، أو الى ما توجبُه المقاييسُ المُطَّرِدة ، والأمثال المضروبةُ ، والأشعارُ السائرة ، أوْلَى بالإساءة ، وأحقّ باللائمة ، قال الله جَلّ ثناؤه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وقد قال النبىّ عليه الصلاه والسلام : "لا تَجْنِ يَمِينُك على شِمَالك" وهذا حُكْم الله جَلّ وعزّ ، وآدابُ رسوله ، والذى أُنْزِل به الكتاب ، ودَلّ عليه ى حُجَج العقول .

أخذ البرىء بذنب المذنب

ثم قال فى أخذ البَرِىء بذَنْب المذنب : فأمّا ما قالوا فى المثل المضروب ، "رَمَتْنِى بدائها وانْسَلّت" . وأمّا قولُ الشعراء وذمُّ الخطباء لمن أخذ إنسانا بذَنْب غيره ، وما ضربوا فى ذلك مِن الأمثال ، كقول النابغة حيث يقول فى شعره :

وكَلَّفْتَنِى ذنبَ آمرئٍ وتركتَه * كَذِى العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهو راتِعُ

وكانوا إذا أصاب إبلَهم العُرُّ كووْا السليم ليذهب العُرُّ عن السقيم فأسقموا الصحيحَ من غير أن يُبرِئوا السقيم، وكانوا إذا كثُرتْ إبلُ أحدهم فبلغت الألفَ فقئوا عينَ الفحل. فإن زادت الإبلُ على الألف فقئوا عينه الأخرى، فذلك المُفقّأ والمُعمّى اللذان سمعتَ بهما قال الفرزدق:

غلبتُك بالمفقّأ[1] والمعمّى * وبيتِ المحتبِي[2] والخافقاتِ

وكانوا يزعمون أن المفقّأ يَطْرُد عنها العينَ والسُّواف[3] والغارة فقال الأول:

فَقَأْتُ لها عينَ الفحيل تَعيُّفًا * وفيهنّ رَعْلاءُ المسامع والحامِ

الرَّعْلاءُ: التي تُشَقّ أذنها وتترك مُدَلّاةً لكرمها.

وكانوا يقولون في موضع الكفّارة والأُمنيّة، كقول الرجل إذا بلغتْ إبلي كذا وكذا، وكذلك غنمي ذبحتُ عند الأوثان كذا وكذا عَتيرةً، والعَتيرةُ: من نُسك الرَّجَبيّة، والجمع عتائر، والعتائر من الشاء، فإذا بلغت إبلُ أحدهم أو غنمُه ذلك العددَ استعمل التأويلَ وقال: إنما قلتُ: إني أذبح كذا وكذا شاةً، والظباء: شاء. كما أن الغنمَ شاءٌ، فجعل ذلك القُرْبانَ كلَّه مما يَصيده من الظباء، فلذلك يقول الحارث بن حِلِّزةَ اليَشكُريّ:

عَنَتًا باطلًا وظُلْمًا[4] كما تُعْـ * ـتَرُ عن حُجرةِ الرَّبيضِ الظباءُ

بعد أن قال:

أم علينا جُناحُ كندةَ أن يَغْـ * ـنَمَ غازيهمُ ومنّا الجزاءُ

وكانوا إذا أوردوا البقرَ فلم تشرب، إمّا لكدَرِ الماء وإمّا لقلّة العطش، ضربوا الثورَ ليقتحم الماءَ لأنّ البقرَ تتبعه كما تتبع الشَّوْلُ الفحلَ، وكما تتبع أُتُنُ الوحش الحمارَ، فقال في ذلك عوف بن الخَرِع:

تمنّتْ طيِّءٌ جهلًا وجُبنًا * وقد خاليتُهم فأبوا خلائي

هَجَوْني أن هجوتُ جبالَ سَلْمَى * كضربِ الثَّوْرِ للبقرِ الظِّماءِ

---

(١) في اللسان مادة «فقأ»: «المعنّى». (٢) كذا في الأصل وفي اللسان «المحتبي» بالحاء المهملة. (٣) السواف: مرض الإبل. (٤) كذا في الأصل وفي اللسان مادة «عتر»: «وظلمًا».

وقال فى ذلك أنس بن مُدْرِكة فى قتله سُليكَ بن السُّلَكَة :

إنّى وقتلى سُليكا ثمّ أعقله * كالثور يُضرَبُ لما عافتِ البقرُ
أنِفت[1] للمرءِ إذ تُغشَى حليلتُه * وإذ يُشَدُّ[2] على وجعائها الثَّفَرُ[3]

وقال الهيّبان الفهمى :

كما ضُرِبَ اليعسوبُ أنْ عاف باقرٌ * وما ذنبه أن عافت الماءَ باقرُ

ولما كانَ الثورُ أمير البقر، وهى تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب سماه بآسم أمير النحـــل .

وكانوا يزعمون أن الجنّ هى التى تصدّ الثيرانَ عن الماء حتى تُمْسِك البقرُ عن الشرب حتّى تَهْلك ؛ وقال فى ذلك الأعشى :

وإنّى وإن كلفتمونى وربِّكم * لأعلمُ مَن أمسَى أحقَّ وأحوبا
لكالثّور والجنّيُّ يضرِبُ ظهرَه * وما ذنبه أنْ عافت الماء مَشْربا
وما ذنبُه أن عافت الماءَ باقرٌ * وما إن تعافُ الماء إلّا لِتُضرَبا

كأنه قال : إذ كان يُضرَبُ أبدا لأنها عافت الماء، فكأنها إنّما عافت الماءَ ليضربَ ؛ وقال يحيى بن منصور الذُّهْلىّ فى ذلك :

لكالثور والجنىُّ يضرب وجهَهُ * وما ذنبُه إن كانت الجنُّ ظالمهْ

وقال نهشل بن حَرِّىّ :

أتُترَكُ عارضٌ وبنو عدىّ * وتَغرَمُ دارمٌ وهُمُ بُراءُ
كدأب الثور يُضرِبُ بالهَرَاوى * اذا ما عافت البقرُ الظِّماءُ
وكيف تكلِّفُ الشِّعرَى سُهَيْلا * وبينهما الكواكبُ والسماءُ

---

(١) فى اللسان : « عضبت » . (٢) فى الأصل "وإن" والتصويب عن اللسان .
(٣) الثفر : السير الذى فى مؤخر السرج .

وقال أبو نُوَيْرة بن حُصَين حين أخذه الحَكَمُ بنُ أيوبَ بذنب العطَرّق :

أبا يوسف لو كنتَ تعلم طاعتى * ونُصحى إذا ما بعتَنى بالمُخلّق

ولا ساق سرّاق العُرافة صالحٌ * بَنِيَّ ولا كُلّفتُ ذنبَ العَطرّقِ

وقال خَداش بن زُهَير حين أُخذ بدماء بنى مُحارِب :

أُكلَّفُ قتلَى معشرٍ لستُ منهمُ * ولا دارهم دارى ولا نصرهم نَصرى

أُكلَّفُ قتلَ العِيص عِيص شُواحطٍ * وذلك أمرٌ لم تُثقَّف له قِدرى

وقال الآخر :

اذا عَرَكتْ عِجلٌ بنا ذنبَ طيّءٍ * عرِكْنا بتَيْم اللاتِ ذنبَ بنى عِجْلِ

ولما وجد اليهودىُّ أخا حِنْبِص الضَّبابىَّ فى منزله فخصاه فمات، وأخذ حِنْبِص بنى عبس بجناية اليهودىّ قال قيس بن زهير : أتاخذنا بذنب غيرنا، وتسألنا العَقْل، والقاتلُ يهودىّ من أهل تَيماء؟ قال : والله لو قتله هَيْفُ الريح لوَديتموه، فقال قيس لبنى عبس : الموتُ فى بنى ذُبيان خيرٌ لكم من الحياة فى بنى عامر، ثم أنشأ يقول :

أُكلَّفُ ذا الخُصيَيْن إنْ كان ظالمًا * وإن كنتُ مظلومًا وإن كنتُ شاطِنا

خَصاه امرؤ من أهل تَيماء طابِن * ولا يَعْدَم الإنسىُّ والجنُّ طابنا

فهلَّا بنى ذُبيان أمُّك هابلٌ * رَهَنْتَ بِهَيف الريح إنْ كنتَ راهنا

اذا قلتُ قد أفنتُ من شرِّ حِنْبِص * أتانى بأخرى شرُّه مُتَباطِنا

فقد جَعَلتْ أكبادُنا تَجْتَويكم * كما تَجْتَوى سُوقُ العِضاهِ الكرازِنا

ولمّا قتل لقمان بن عاد ابنته وهى صُحْرُ بنت لقمان قال حين قتلها : ألستِ امرأة ؟ وذلك أنه تزوج عِدّة نساء وكلّهن خُنّه فى أنفسهن، فلما قتل أُخراهن ونزل من الجبل كان أوّلَ من تلقاه صُحر ابنته، فوثب عليها فقتلها، وقال وأنتِ أيضا امرأة، وكان قد ابتُلى أيضا بأن أخته كانت مُحمَّقة، وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان : هذه ليلة طُهرى

وهى ليلتك، فدعينى أنم فى مضجعك، فإن لقمانَ رجلٌ مُنْجِبٌ، فعسى أن يقع علىّ فأُنجِب، فوقع على أخته فحملت بلُقَيم وفى ذلك قول النمر بن تولب :

لقيمُ بنُ لقمانَ مِن أختـهِ * فكان ٱبنَ أختٍ له وابنَما
ليالىَ حمقَ فاستحصنتْ * عليـه فغُـرَّ بها مُظلِما
فأحبلهـا رجلٌ محـكمٌ[1] * فجاءت به رجلا محْـكما

فضربت العربُ فى ذلك المثلَ بقتل لقمانَ بنتَه صُحْرا فقال خُفَاف بن نَدْبة فى ذلك :

وعبّاسٌ يُدِبّ لى المنـايا * وما أذنبتُ إلا ذنبَ صُحْرِ

وقال فى ذلك ٱبن أُذَيْنَة :

أتجمعُ تهيـاما بليـلَى اذا نأتْ * وهِجْرانها ظُلْمًا كما ظُلِمتْ صُحْرُ

وقال الحارث بن عُبَاد :

قَـرِّبا مَرْبَط النعـامةِ منّى * لقحتْ حَرْبُ وائلٍ عن حِيالِ
لم أكن من جُناتها علم الله * ه وإنى بحرّها اليــومَ صالى

وقال الشاعر وأظنّه ٱبن المقفع :

فلا تلمِ المـرءَ فى شأنهِ .. فربّ ملومٍ ولم يُذْنبِ

وقال آخر :

لعلّ له عذرا وأنتَ تلومُ * وكم لائم قد لام وهو مُليمُ

وقال بعض العرب فى قتل بعض الملوك سِنِمّار الرومىّ: فإنّه لمـا علا الخورنَق، ورأى بُنْيانا لم يرمثلَه، ورأى ذلك المستشرَف، وخاف إنْ هو ٱستبقاه أن يموت فيبنىَ مثل ذلك البُنْيانِ لمَلِك آخر، فأمر به فرُمِىَ من فوق القصر، فقال فى ذلك الكلبى فى شئ كان بينه وبين بعض الملوك :

(١) وروى : تائه .

جزاني جزاه الله شرّ جزائه * جزاءَ سِنمّار وما كان ذا ذنبِ
سوى رَصّه البُنيانَ سبعينَ حجّةً .. يُعلّى عليه بالقراميد والسّكب
فلما رأى البُنيان تمّ سُحُوقُه .. وآض كَمثل الطود ذي الباذخ الصعب
فظنّ سِنمّارٌ به كلّ حَبوةٍ * وفاز لديه بالمودّة والقُرب
فقال اقذفوا بالعِلج من رأس شاهقٍ * فذاك لعَمْر الله من أعظم الخَطْب

وجاء المسلمون يَروي خَلَفٌ عن سلَف، وتابعٌ عن سابق، وآخِرٌ عن أوّل، أنّهم لم يختلفوا فى عيب قول الحجّاج : لآخُذنّ، السميّ بالسميّ والوليّ بالوليّ، والجارَ بالجار، ولم يختلفوا عن لعن شاعرهم حيث يقول :

اذا أُخِذَ البريء بغير جُرمٍ * تجنّب ما يُحاذِره السقيمُ

قال : وقيل لعمرو بن عُبَيد إنّ فلانا لمّا قدّم رجُلا ليضرب عُنُقَه فقيل له : إنّه مجنون، قال : لولا أنّ المجنون يلد عاقلا لخلّيتُ سبيله، قال فقال عمرو : وما خلق الله النار إلّا بالحقّ .

ولمّا قالت التغلبيّة للجحّاف بن حكيم فى وقعة البِشر: فضّ الله عِمادَك، وأطال سُهادَك، وأقلّ رمادَك، فوالله إن قتلت إلّا نساء أسافلهن دُميً، وأعاليهن ثُدِيّ، فقال لمن حوله : لولا أن تلد هذه مثلها لخلّيت سبيلها، فبلغ ذلك الحسنَ فقال : إنّ الجحّاف جُذوة من نار جهنم .
قال وذمّ رجلٌ عند الأحنف بن قيس الكَمأة بالسّمن، فقال عند ذلك الأحنف : رُبّ ملومٍ لا ذنب له . فبهذه السيرة سرتَ فينا . وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن ابن حسّان :

وإنّ امرأً يمسي ويصبح سالماً * من الناس إلّا ما جَنى لَسعيدُ

وقلتَ : وما بالُ أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعِبَر، وأرباب النِّحَل، والعلماء بمخارج المِلَل، وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظُّرفاء والمُلحاء، وكتب الفُرّاغ والخُلَعاء، وكُتُبَ الملاهي والفكاهات، وكتبَ أصحاب الخصومات والمِراء، وكُتُبَ

أصحاب العصبيّة، وحَمِيّة الجاهليّة، حتى كأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يُوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفُّحَ العلماء، ولا لائمة الأدباء وشَنَف الأكفاء، ومَساءة الجُلساء، فهلّا أمسكتَ رحمك الله عن عينا، والطعن علينا، وعن المَشورة والموعظة، وعن تخويف ما فيه سوء العاقبة الى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء.

أقسام البيان

وبعد أن تكلم فى تقسيم العالَم الى ثلاثة أقسام، وذكر أقسام الحيوان، قال فى أقسام البَيان:

ووجدْنا الحكمة على ضربين: شيءٌ جُعِلَ حِكمةً وهو لا يعقِل الحِكْمةَ ولا عاقبةَ الحِكمة، وشيءٌ جُعِلَ حِكمةً وهو يعقِل الحكمةَ وعاقبةَ الحكمة، فاستوَى بَدَن الشيء العاقل وغير العاقل فى جهة الدّلالة على أنّه حِكمة، وآختلفا من جهة أنّ أحدَهما دليلٌ لا يَسْتدِلّ، والآخَر دليلٌ يَسْتدِلّ، فكلُّ مُسْتدِلّ دليلٌ، وليس كلُّ دليل مستَدِلّا، فشارك كلّ الحيوان سوَى الإنسان جميعَ الجماد فى الدّلالة وفى عدم الاستدلال، واجتمع للانسان بأن كان دليلا مُستَدِلّا، ثم جُعِلَ للستدِلّ سبَبٌ يَدُلُّ به على وجوه آستدلاله، ووجوهِ ما نتج له الاستدلالُ، وسَمّوْا ذلك بيانا، وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام: لفظٍ وخطّ وعقْد وإشارة، وجعل بيان الدليل الذى لايَستدِلّ تمكينَه المُستدِلّ من نفسه واقتياده كلّ مَن فكّر فيه الى معرفة ما استُخْزِن من البرهان، وحُشِي من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة؛ فالأجسامُ الخُرْسُ الصامتةُ ناطقة من جهة الدلالة، ومُعرِبةٌ من جهة صحة الشهادة، على أنّ الذى فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن آستخبرهما، وينطقان لمن آستنطقهما كما يخبِر الْمُزال وكمود اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السِّمَنُ والنّضْرةَ عن حسنِ الحال، وقد قال الشاعر:

فعاجوا فأثنوْا بالذى أنت أهْله * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ

وقال آخر:

متى تكُ فى عدوٍّ أو صديقٍ * تخبِّرْك العيونُ عن القلوبِ

وقد قال العُكْلِيّ فى صدق شمه الذئب، وفى شدة حسه واسترواحه :

يستخبر الريحَ اذا لم يَسْمَعِ * بمثل مِقراع الصفا الموَقَّعِ

وقال عنترة وهو يصف نعيبَ غرابَ :

حَرِق الجناح كأن لَحْيَىْ رأْسِهِ * جَلَمان بالأخبار هَشٌّ مُولَعُ

وقال الفضل بن عيسى بن أبان فى قَصَصه : سل الأرض فقل : مَن شقَّ أنهارَكِ، وغَرس أشجارَكِ، وجَنَى ثِمارَكِ؛ فإن لم تجبْكِ حِوارا، أجابتْكَ اعتبارا. فموضوع الجسم ونِصْبته دليلٌ على ما فيه، وداعيةٌ اليه ومَنَبِّهة عليه. فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه قد شارك فى البيان الإنسانَ الحيَّ الناطقَ؛ فمن جعل أقسامَ البيان خمسةً فقد ذهب أيضا مذهبا له جوازٌ فى اللغة، وشاهدٌ فى العقل. فهذا أحدُ قِسمَى الحكمة، وأحدُ معنيَيْ ما آستخزنها الله تعالى من الوديعة.

القسمة الأُخرى ما أُودع صدورَ صُنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف، وفطرها على غريب الهدايات، وسخّر حناجرَها له بضروب النغم الموزونة، والأصوات الملحّنة، والمخارج الشجيّة، والأغانى المُطْرِبة. فقد يقال : إن جميعَ أصواتها معدّلة، وموزونة موقَّعة. ثم الذى مهّنها من الرفق العجيب فى الصنعة مما ذلّله الله تعالى لمناقيرها وأكفّها. وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيّأ لها من الآلة. وكيف أعطى كثيرا منها من الحسّ اللطيف، والصنعة البديعة من غير تأديب وتثقيف، ومن غير تقويم وتلقين، ومن غير تدريج وتمرين، فبلغت بعفوها ومقدارِ قُوَى فِطرتها من البديهة والارتجال، ومن الابتداء والاقتضاب، ما لا يقدر عليه حُذّاق رجال الرأى، وفلاسفةُ علماء البشر بيدٍ ولا آلة، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملُهم خِصالا، وأتمُّهم خِلالا، من جهة الارتجال والاقتضاب ولا من جهة التعسف والاقتدار، ولا من جهة التقدم فيه، والتأتّى له، والترتيب لمقدّماته، وتمكين الأسباب المُعينة عليه. فصار جهولُ الإنسان الذى أعطى الحسّ، الجامعَ القوى، المتصرّفَ فى الوجوه، متقدّما فى أمور، عجز عن عفو كثير منه، وينظر الى طير

الى ضروب ما يجىء منهـا كما أُعطِيَت العنكبوت ، وكما أُعطِيَت السُّرْفَةُ ، وكما عُلِّمَ النحلُ ، بل عرَّف التَّنَوطُ من بديع المعرفة ، ومن غريب الصنعة فى غير ذلك من أصناف الخَلْق ثم لم يوجدهم العجْزَ فى أنفسهم فى أكثر ذلك إلا عما قوِى عليـه الهَمَجَ والخَشَاش وصِغارَ الحشرات ، ثُمَّ جعل الإنسانَ ذا العقلِ والتمكين ، والأستطاعة والتصريف ، وذا التكاف والتجرِبة ، وذا التأتى والمُنافسة ، وصاحبَ الادخار والمتفقد لشأن العاقبة متى أحسن شيئا كان كلُّ شىء دونه فى الغموض عليه أسهلَ ، وجَعَل سائر الحيوان و إن كان يُحسِن أحدُها ما لا يُحسن أحذقُ الناس متى أحسن شيئا عجيبا لم يمكنه أن يُحسن ماهو أقربُ منـه فى الظنّ ، وأسهلُ منه فى الرأى ، بل لايحسن ما هو أقرب منه فى الحقيقة ؛ فلا الإنسان جَعَلَ نفسَه كذلك ، ولا شىءٌ من الحيوان آختار ذلك ، فأحْسَنَت هذه الأجناس بلا تعلُّم ما يمتنع على الإنسان ، و إن تعلم فصار لا يحاوله اذ كان لا يطمَع فيه ، ولا يحسُدها اذ كان لا يَأملُ اللَّحاق بها ، ثم جعل تعالى وعزّ هاتين الحِكْمَتين إزاءَ عيون الناظرين ، وتُجاه أسماع المعتبرين ، ثم حثّ على التفكير والأعتبار ، وعلى الأتعاظ والأزدجار ، وعلى التعرّف والتبيّن ، وعلى التوقّف والتذكّر ، فجعلها مُذكِّرةً منبهّةً ، وجعلَ الفطر تنشىء الخواطر ، وتجول بأهلها فى المذاهب ، ذلك ربّ العالمين ، سبحان الله ربِّ العالمين .

وهـذا كتاب موعظة وتعريف ، وتفقُّه وتنبيه ، وأراك قد عِبْتَـه قبل أن تقِف على حدوده ، وتتفكرَّ فى فصوله ، وتتذكّر آخرَه بأوّله ، ومصادرَه بموارده ، وقـد غلَّطك فيـه بعضُ ما رأيتَ فى أثنائه من مزح لم تعرف معانيـه ، ومن بَطالةٍ لم تدرك غَوْرها ، ولم تدرِ لمَ آجتُلِبتْ ولأىّ علة تكلِّفَتْ ، وأىّ معنًى أريغ بهـا ، ولأى جِدٍّ آحتُمِلَ ذلك الهزْلُ ، ولأيّة رياضة تُجشِّمَتْ تلك البَطَالةُ ، ولم تدر أن المُزاح جِد اذا آجتُلبَ لأن يكون عِلّةً للجِدّ ، وأن البَطالةَ وقارٌ وزمانةٌ اذا تُكلِّفَتْ لتلك العاقبة ، ولمـّا قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحدٌ من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلّم ما لا يحتاج اليـه ؛ قال أبو شِمْر : اذا كان لايصل الى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج اليه فقد صار ما لا يحتاج اليه يَحتاج اليه ؛ وذلك

مثل كتابنا هذا، لأنّا إن حملنا جميع مَن يتكلّف قراءة هذا الكتاب على مُرّ الحقّ، وصُعوبة الحدّ، وثِقل المؤونة وحقيقة الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلّا من قد تجرّد للعلم وفهم معناه، وذاق من ثَمَرته، واستشعر من عزّه، ونال من سروره على حسَب مايورث الطول من الكدّ، والكثرةُ من السآمة، وما أكثر مَن يُقاد الى حظّه بالسواجير، وبالسَّوْق العنيف، وبالإخافة الشديدة.

مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حِساناً فى مدح الكتب فقال :

ثم لم أرك رضيتَ بالطعن على كلّ كتاب لى بعينه، حتى تجاوزت ذلك، الى أن عِبْت وضع الكتب كيفما دارت بها الحال، وكيف تصرّفت بها الوجوه، وقد كنت أعجب من عيبك البعضَ بلا عِلم، حتّى عِبت الكلّ بلا علم، ثم تجاوزتَ ذلك الى التشنيع، ثم تجاوزت التشنيع الى نُصْب الحرب، فعبت الكتاب ونعم الذخرُ والعُدة. ونعم الجليس والعُمدة، ونعم النُّشْوة والنزهة، ونعم المشتغَل والحِرْفة، ونعم الأنيسُ ساعة الوَحْدة، ونعم المعرفةُ ببلاد الغُرْبة، ونعم القرين والدخيلُ، ونعم الوزير والنزيلُ. والكتاب وِعاءٌ مُلِئَ علما، وظَرْفٌ حُشِى ظَرْفا. وإناءٌ شُحِنَ مُزاحا وجِدّا. إن شئتَ كان أبينَ من سَحبانِ وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضَحكتَ من بوادره. وإن شئت عجِبتَ من غرائب فوائده، وإن شئت ألهتك نوادره. وإن شئت شجتك مواعظه. ومَن لك بواعِظ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغْرٍ، وبناسكٍ فاتك، وبناطقٍ أخرسَ، وببارِدٍ حارٍّ، وفى البارد الحارّ يقول الحسن بن هانئ :

قُلْ لزهيرٍ اذا آنتحى وشدا ✲ أقلِل أو أكثِرْ فأنتَ مِهذارْ
سخُنتَ من شدّة البرُودة حتّى صرتَ عندى كأنّك النارْ
لايعجبِ السامعونَ من صفتى ✲ كذلك الثلجُ باردٌ حارْ

ومَن لك بطبيب أعرابى[1] ، وبرومى هندى ، وبفارسى يونانى ، وبقديم مولّد ، وبميّت مُمتِع ، ومن لك بشىء يجمع لك الأوّلَ والآخر ، والناقصَ والوافر ، والخفىَّ والظاهر ، والشاهدَ والغائب ، والرفيعَ والوضيعَ ، والغثَّ والسمينَ ، والشكلَ وخلافه ، والجنسَ وضِدَّه .

وبعد : فمتى رأيت بستانا يُحمَلُ فى رُدْن ، أو روضةً تتقلّبُ فى حِجْر ، وناطقا ينطق عن الموتَى ، ويُترجِم كلام الأحياء ، ومَن لك بمؤنِسٍ لاينام إلّا بنَومك ، ولا ينطِق إلا بما تهوى . آمن من الأرض ، وأكتمَ للسرِّ من صاحب السرّ ، وأضبط للوَديعة من أرباب الوَديعة ، وأحفظَ لما ٱستُحفظ من الأُمّيّين ، ومن الأعراب المعرَّبين ، بل من الصِّبيان قبل ٱعتراض الأشغال ، ومن العُميان قبل التمتّع بتمييز الأشخاص ، حين العنايةُ تامّة لم تنقص ، والاذهانُ فارغة لم تُقتَسم ، والإرادةُ وافرة لم تستعِب ، والطينةُ ليّنة فهى أقبل ماتكون للطابع ، والقضيب رطبٌ فهو أقرب ما يكون من العلوق ، حين هذه الخصالُ لم يَبْلَ جديدُها ، ولم يُفَلّ غَرْبُها ، ولم تتفرّق قُواها ، وكانت كما قال الشاعر :

أتانِى هواها قبلَ أنْ أعرِفَ الهوَى * فصادف قلبا فارغا فتمكّنا

وقال عبدَةُ[2] بن الطبيب :

لا تأمَنُوا قوما يَشِبّ صبيُّهم * بين القوابل بالعَداوةِ يُنْشَع

هذا مع قولهم : التعلّم فى الصغر كالنقش فى الحجر ، وقال جِران العَوْد :

تُركن بِرِجْلةِ الرَوْحاء حتى * تَنكّرتْ الديارُ على البصير
كوحيٍ فى الحجارة أو وُشُومٍ * بأيدى الرّوم باقيةِ النَؤورِ

النُّؤور : شىء كان يُعمل فى الجاهلية مثل الحصرة اليوم .

وقال آخر وهو صالح بن عبد القدوس :

وإنّ مَن أدّبته فى الصبا * كالعُود يُسقَى الماءَ فى غَرسه
حتى تراه مُورِقا أخضرا * بعد الذى أبصرتَ من يُبسه

(١) كذا فى الاصل ، ولعلها : «نبطى» .

(٢) فى الأصل : «تميرة» وهو خطأ صوابه ما أثبتناه عن الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وقال آخر :

يقوِّم من مَيل الغلام المؤدبُ * ولا ينفع التأديبُ والرأس أشيبُ

وقال آخر :

أدبتُ عِرسى بعد ما هرِمتْ * ومن العناء رياضةُ الهرِم

وقد قال ذو الرمّة لعيسى بن عمر : اكْتُبْ شِعرى فالكتابُ أعجب إلىّ من الحفظ ، إن الأعرابىَّ ينسى الكلمةَ قد سهرت فى طلبها ليلة ، فيضع فى موضعها كلمةً فى وزنها ثم يُنشدها الناس ، والكتاب لا يَنسى ، ولا يُبدِل كلاماً بكلام .

وعبت الكتابَ ولا أعلم جارا أبرّ ، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما أخضع ، ولا صاحبا أظهر كفايةً ، ولا أقلّ جناية ، ولا أقل إملالا وإبراما ، ولا أقلّ خلافا وإجراما ، ولا أقلّ غيبةً ، ولا أبعدَ من عَضيهةٍ ، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرّفا ، ولا أقلّ صلَفا وتكلُّفا ، ولا أبعدَ من مِراء ، ولا أتركَ شَغَبٍ ، ولا أزهدَ فى جدالٍ ، ولا أكفَّ عن قتالٍ ، من كتاب ، ولا أعلم قرينا أحسنَ مواتاة ، ولا أعجلَ مكافأة ، ولا أحضرَ مَعُونة ، ولا أخفَّ مَؤونة ، ولا شجرة أطولَ عُمْرا ، ولا أجمعَ أمرا ، ولا أطيبَ ثمرة ، ولا أقربَ مُجتَنًى ، ولا أسرعَ إدراكا ، ولا أوجدَ فى كلِّ إبَّانٍ من كتاب ، ولا أعلم نتاجا فى حَداثةِ سنّه ، وقُرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكانِ وُجودِه ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحِكَم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارِب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتراخية ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب .

وقد قال الله عز وجل لنبيّه عليه الصلاة والسلام : « اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ » وصف نفسَه تبارك وتعالى حده بأن علّم بالقلم ، كما وصفَ نفسَه بالكرم ، واعتدّ ذلك فى نِعَمه العِظام ، وفى أياديه الجسام . وقد قالت : القلم أحدُ اللسانين . وقالوا : كل مَنْ عرَف فَضْل النعمة فى بيان اللسان كان بفضل النعمة فى بيان القلم

أعرف ؛ ثم جَعَـل هذا الأمر قرآنا ، ثمّ جعـله فى أوّل التنزيل ، ومُسْتفتح الكتاب ، ثم اعلم — يرحمك الله تعالى — انّ حاجة بعض النـاس الى بعض صـفةٌ لازمة لطَبائعهم ، وخلقةٌ قائمة فى جواهرهم ، وثابتـة لا تزايلهم ، ومحيطة بجماعتهـم ، مشتملة على أدانيهم وأقاصيهم ، وحاجتهم الى ما غاب عنهم ، مما يُعيشهم ويُحْييهم ، ويأخذ بأزْماقهم ، ويُصْلح بالهم ، ويجمع شملهـم ، والى التعاون على دَرَك ذلك ، والتوازر عليـه كحاجتهم الى التعاون على معـرفة ما بحضرتهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق فى أمورهم التى لم تغب عنهم ، لحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد ، لاحتياج الأدنَى الى معرفة الأقصَى ، واختِلال الأدنَى الى معونة الأقصى ؛ معانٍ متضمّنة ، وأسبابٌ متّصلة ، وحبالٌ مُتقيدة ، وجعـل حاجتنا الى معرفة أخبار من كان قبلنَا كحاجة من كان قبلنا الى أخبار مَن كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعـدنا الى أخبارنا ، ولذلك تقـدّمت فى الكتب البشارات بالرسل ، ولم يُسخّر لهم جميع خلقـه إلّا وهم يحتاجون الى الارتفاق بجميع خلقـه ، وجعل الحاجة حاجتَـيْن : إحداهمـا قوَام وقوت ، والأخرى لذّة وإمتاع ، وازدياد فى الآلة ، وفى كل ما أجذَل النفوس ، وجمع لهم العتاد ، وذلك المقدار من جميع الصنْفَيْن وَفْق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم ، وعلى قدر اتساع مَعْرفتهـم ، وبعدِ غَوْرِهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشريّة ، وفِطْـرة الإنسانية ، ثم لم يَقْطع الزيادةَ عنهم الّا لعجز خَلْقهم عن احتمالهـا ، ولم يَجُز أن يفترق بينهم وبين العجز إلّا بعـدم الأعيان ، اذا كان العجز صفةً من صفات الخلق ، ونَعْتا من نُعوت العبيد ، ولم يَخلقِ الله تعـالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض مَن سُخّر له ، فأدناهم مُسخّر لأقصاهم ، وأجلّهـم مُيسّر لأدقّهم ، وعلى ذلك أحوَجَ الملوك الى السوقة فى باب ، وأحوج السوقة الى الملوك فى باب ، وكذلك الغنىّ والفقيرُ ، والعبد وسيّده .

ثمّ جعل الله تعالى كلّ شىء للانسان خَوَلا وفى يده مُذالّا مُيسّرا ، إما بالاحتيال له ، والتلطف فى إراغته واستمالته ، إمّا بالصولة عليه والفَتْك به ، وامّا أن يأتيه سَهْوا ورَهْوا ، وعلى أن الإنسان لولا حاجته اليها لمـا احتال لها ، ولمـا صال عليها ، إلّا انّ الحاجة تفترق

فى الجنس والجهة، وفى الحظ والتقدير، ثم تعبّد الإنسانَ بالفكر فيها، والنظر فى أمورها،
وبالاعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحِكَم الشريفة، وتلك الحاجات
اللازمة بالنظر والتفكير، والتنقب والتنقير، والتثبت، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع
حاجاتهم اليها، وتشاعرهم بمواضع الحِكَم فيها بالبيان عنها، وهو البيان الذى جعله الله تعالى
سببا فيما بينهم، ومُعبّرا عن حقائق حاجاتهم، ومُعرّفا لمواضع سدّ الخلّة، ودفع الشبهة،
ومُداواة الحَيْرة؛ ولأنّ أكثر الناس عن الناس أفهمُ منهم عن الأشباح الماثلة، والأجسام
الجامدة، والأجرام الساكنة التى لا يُتعرّف ما فيها من دفائن الحكم وكنوز الأدب،
وينابيع العلم، إلّا بالعقل اللطيف الثاقب، وبالنظر التام النافذ، وبالأداة الكاملة،
وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفِكْر، والاحتراس من وجوه الخُدَع، والتحفظ من
دواعى الهوى، ولأنّ الشكل أفهم عن شكله وأسكن اليه وأصب به، وذلك موجود
فى أجناس البهائم وضروب السِّباع، والصبيّ عن الصبيّ أفهم وله آلف، واليه أنزع،
وكذلك العالِم والعالِم، والجاهل والجاهل، وقال الله عزّ وجلّ لنبيه عليه الصلاة والسلام :
﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأنّ الإنسان عن الإنسان أفهمَ، وطباعَه بطباعه آنس،
وعلى قدر ذلك يكون مَوْقع ما يسمع منه، ثم لم يرض من البيان لهم بصنف واحد، بل جمع
ذلك ولم يفرّق، وكثّر ولم يُقلّل، وأظهر ولم يُخف، فجعل أصناف البيان التى بها يتعارفون
معانيهم، والترجُمانَ الذى اليه يرجعون عند اختلافهم فى أربعة أشياء وفى خَصْلة خامسة،
وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة فى جهاتها، فقد تكى بجنسه الذى وضع له،
وصرف اليـــه.

وهـذه الخصال الأربع : هى اللفظ والخط والإشارة والعَقْد، والخَصْلة الخامسة :
ما أوجد من صِحّة الدَّلالة، وصدق الشَّهادة، ووضوح البرهان فى الأجرام الجامدة الصامتة،
والساكنة الثَّابتة، التى لا تبين ولا تفهم، ولا تحس وتتحرك إلّا بداخل دخل عليها، أو عند
ممسك خلّى عنها بعد تقييده كان لها، ثم قسم الأقسام، ورتّب المحسوسات، وحصّل

الموجودات ، بجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرك بين الناظر واللامس ، فى معرفة العَقْد إلاّ بمـا فضّل الله به نصيب الناظر فى ذلك على نصيب اللامس، وجعـل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه ، وسببا مَوْصولا بينه وبين أعوانه ، وجعله خازنا لمـا لا يأْمن نسيانه ممّـا قد أحصاه وحفِظه، وأتقنه وجمعــه، وتكلف الإحاطة به، ولم يجعل للشام والذائق فى ذلك نصيبا .

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثيرُ البسيط ، ولبَطَلت معرفة التضاعيف ، ولَعدِموا الإحاطة بالباورات، وباورات الباورات، ولو أدركوا ذلك لمـا أدركوه ألا بعـد أن تغلُظ المَؤونة، وتنتقص المُنّة، ولصاروا الى حال مَعْجَـزة وحُسور، والى حال مضيعة وكلال حدّ، مع التشاغل بأمور لولا فَقْد هـذه الآلة لكانـ أربحَ لهم، وأردّ عليهم أن يصرفوا ذلك الشغل فى أبواب منافع الدِّين والدنيا؛ ونفع الحساب معلوم،والخَلّة فى موضع فَقْده معروفة، قال الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ وبالبيان عرَف النـاس القرآن ، قال الله تبارك وتعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فأجرَى الحسابَ مَجْرى البيانِ وألحق البيان بالقرآن، وبِحُسْبان منازل القمر عرَفنا حالاتِ المَدّ والجَزْر،وكيف تكون الزيادة فى الأهلّة وأنصافِ الشهور، وكيف يكون النُّقصان فى خلال ذلك، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار .

ولولا الكُتُب المدوّنة، والاخبار المُخلّدة، والحِكَم المخطوطة التى تَحْصُر الحسابَ وغير الحساب، لَبطَل أكثر العِـلْم ، ولغلب سلطانُ النِّسيان سلطانَ الذكر ، ولمـا كان للناس مَفْزَع الى موضع آسـتذكار ، ولو تم ذلك لَحُرِمْنا أكثر النفع، اذ كنا قد علِمنا ان مقدار حِفْظ الناس لعواجل حاجاتهم وأواجلها لا يبلغ من ذلك مبلغا مذكورا، ولا يغنى فيه غَناء محمودا ، ولو كُلِّف عامّة مَن يطلب العِـلْم ، ويَصْطَنِـع الكتب، ألّا يزالَ حافِظا لفِهْرِس كُتُبه لأعجزه ذلك، ولَكُلِّف شَـطَطا، ولَشَغَله ذلك عن كثير ممـا هو أوْلَى به ؛ ففهمك

لمعانى كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجرداً. وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك، والمعاون لك ما كان صياحاً صرفاً، وصوتاً مصمتاً، ونداء خالصاً. ولا يكون مع ذلك إلا وهو بعيد من المفاهمة. وعلى من المذلة، فجعل الله جل وعز اللفظ لأقرب الحاجات، والصوت لأنفس من ذلك قليلا، والكتاب للنازح من الحاجات.

فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب، وكسر الأجفان، وليّ الشفاه، وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه. وأبعدها أن تلوى بثوب على مقطع جبل تجاه عين الناظر، ثم ينقطع عملها، ويدرس أثرها، ويموت ذكرها. ونصير بعد كل شيء فصل عن انتهاء مدة الصوت، ومنتهى الطرف في الحاجة، إلى التفاهم بخطوط الكتب. فأي نفع أعظم، وأي مرفق أعون من الخط، والحال فيه كما ذكرنا!

وليس للعقد حظ الإشارة في بعد الغاية، ولا للإشارة حظ الخط في بعد الغاية. فلذلك وضع الله عز وجل القلم في المكان الرفيع، ونوه بذكره في المنصب الشريف حين قال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم بالقلم كما أقسم بما يخط بالقلم؛ إذ كان اللسان لا يتعاطى شأوه، ولا يشق غباره، ولا يجرى في حلبته، ولا يتكلف بعد غايته. ولكن لما كانت حاجات الناس بالحضرة أكثر من حاجاتهم في سائر الأماكن، وكانت الحاجة إلى بيان اللسان حاجة دائمة راكدة، وراهنة ثابتة، وكانت الحاجة إلى بيان القلم أمراً يكون في الغيبة وعند النائبة، إلا ما خصت به الدواوين، فإن لسان القلم هناك أبسط، وأثره أعم، فلذلك قدموا اللسان على القلم، فاللسان الآن ثم هو في منافع اليد ومرافقها التي فيها والحاجات التي تبلغها، فمن ذلك حظها وقسطها من منافع الإشارة، ثم نصيبها في تقويم القلم، ثم حظها في التصوير، ثم حظها في الصناعات، ثم حظها في العقد، ثم حظها في الدفع عن النفس، ثم حظها في إيصال الطعام والشراب إلى الفم، ثم التوضؤ والامتساح، ثم انتتاف المناخير والمداعم، ثم لبس الثياب، وفي الدفع عن النفس أصناف الرمي، وأصناف الضرب، وأصناف الطعن، ثم الضرب المتقن بالعود وتحريك الوتر، ولولا ذلك لبطل الطرب كله أو عامته، وكيف

لا تكون كذلك ولمـا ضرب الطـبل والدُّفّ وتحريك الصفاقتين، وتحريكُ مخارق خروق المزامير، وما فى ذلك من الإطلاق والحبس؛ ولو لم يكن فى اليد آلا إمساك العِنان والزمام والخطام، لكان ذلك من أعظم الحظوظ .

وقد آضطربوا فى الحكم بين العَقْـد والإشارة،-ولولا انّ مَغزانا فى هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أُحبّ أن يَعرفه إخواننا وخلطاؤنا، ولا ينبغى لنا أيضا أن نأخذ فى هـذا الباب من الكلام آلا بعـد الفراغ ممـا هو أولَى بنا منـه، إذ كنتَ لم تنازعني، ولم تعب كُتُبي من طريق فضل ما بين العَقْد والإشارة، ولا فى تميز مابين اللفظ و بينَهما؛ وانّمـا قَصَدْنا بكلامنا الى الإخبار عن فضل الكتب .

والكتاب هو الذى قيّد على الناس كُتُبَ عِلْمِ الدين، وحسابَ الدواوين، مع خِفّـة ثقله، وصِغر حجْمه، صامت ما أسْكَتّه، وبليغٌ إذا آستنطقته، ومَن لك بمُسامر لا يبتدئُك فى حال شُغْلك، ويدعوك فى أوقات نشاطك، ولا يحوجُك الى التجمل له، والتذمم منه؛ ومَن لك بزائر انْ شئتَ جعل زيارته غِبًّا، ووُروده خمْسا، وانْ شِئت لزمك لزوم ظِلّك، فكان منك مكان بعضك .

والقلم مُكْتَفٍ بنفسه ولا يحتاج الى ماعند غيره، ولا بد لبيان اللسان من أمور، منها: إشارة اليد، ولولا الاشارة لمـا فهِموا عنك خاصّ الخاصّ، اذا كان أخصّ الخاصّ قـد يدخل فى باب العامّ، إلّا أنّه أدنَى طبقاته، وليس يكتفِي خاصّ الخاصّ باللفظ عمّا أدّاه، كاكتفاء عامّ العامّ، والطبَقاتِ التى بينه و بين أخصّ الخاصّ .

والكتاب هو الجليس الذى لا يُطْرِيك، والصـديقُ الذى لا يُغْريك، والرفيقُ الذى لا يُمِلّك، والمَستميح الذى لا يَسْتَرِيدك، والجار الذى لا يَستبطئك، والصاحب الذى لا يريد آستخراج ما عندك بالملَق، ولا يعاملك بالمكْر، ولا يخدعُك بالنِّفاق، ولا يحتال لك بالكذب .

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوّد بيانك، وفخم ألفاظك، وبجح نفسك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام، وصداقة الملوك، وعرفت به فى شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال فى دهر، مع السلامة من الغرم، ومن كدّ الطلب، ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم، وبالجلوس بين يدى من أنت أفضل منه خلقا، وأكرم عرقا، ومع السلامة من مجالسة البغضاء، ومقارنة الأغبياء.

والكتاب هو الذى يطيعك بالليل كطاعته بالنهار، ويطيعك فى السفر كطاعته فى الحضر، ولا يعتل بنوم، ولا يعتريه كلال السهر، وهو المعلم الذى إن افتقرت إليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك، ومتى كنت منه متعلقا بسبب، أو معتصما بأدنى حبل، لم تضطرك معه وحشة الوحدة الى جليس السوء، ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلا منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر الى المارة بك، مع ما فى ذلك من التعرض للحقوق التى تلزم، ومن فضول النظر، ومن عادة الخوض فيما لا يعنيك، ومن ملابسة صغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الردية، وجهالاتهم المذمومة، لكان فى ذلك السلامة ثم الغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع. ولو لم يكن فى ذلك إلا أن يشغلك عن سخف المنى، وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكل ما أشبه اللعب، لقد كان فى ذلك على صاحبه أسبغ النعمة، وأعظم المنة، وقد علمنا أن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم، وأصحاب الفكاهات ساعات ليلهم، هو الشىء الذى لا ترى له فيهم مع النيل أثرا فى ازدياد فى تجربة ولا فى عقل، ولا فى مروءة ولا فى صون عرض، ولا فى إصلاح دين، ولا فى تثمير مال، ولا فى تربية صنيعة، ولا فى ابتداء بإنعام.

قال أبو عبيدة قال المهلب لبنيه فى وصيته: يا بنىّ لا تقفوا فى الأسواق إلا على زرّاد أو ورّاق.

وحدّثنى صديق لى قال : قرأت على شيخ شامىّ كتابا فيه مآثرُ غَطفان، فقـال لى : ذهبت المَكارم إلا مِن الكتب ؛ وسمعت الحسن اللؤلؤى يقـول : غَبرت أربعين عاما ما قِلْت ولا بِت ولا اتّكأت إلّا والكتاب موضوع على صدرى؛ وقال ابن الجَهْم : اذا غَشِيَنى النعاس فى غير وقت نوم و بئس الشىْء النوْم الفاضل عن الحاجة ، تناولت كتابا من كتب الحِكَم فاجد اهتزازى للفوائد ، والأَرْيَحِيّـةِ التى تعترينى عنـد الظفَر ببعض الحـاجة ، والذى يَغْشَى قلبى من سرور الاستبانة ، وعِزّ التبيّن، أشـدّ إيقاظا من نَهيق الحمير، وهَدّة الهَـــدْم .

وقال ابن الجَهْم : اذا استحسنتُ الكتاب واستجدْته ، ورجَوْت منه الفائدة، ورأيت ذلك فيه، فلو تَرَوْننى وأنا ساعةً بعْد ساعةٍ أبصُرُكَمْ بَقِىَ مِن ورقه مخافةَ استنفاده ، وانقطاع المـادّة من قِبله، وإن كان المُصْحف فى عظيم الحَجْم، وكان الورق كثير العدد، لرأيتم كيف تمّ عَيْشى، وكَمُل سُرورى .

وذكر القَنْبى كتابا لبعض القـدماء فقال : لولا طوله ، وكثرة ورقه ، لنسخته، قال ابن الجَهْم : لكنّنى ما رغّبنى فيه إلّا الشىء الذى زهّدك فيـه ، وما قرأت كتابا قطّ كبيرا فأخلانى من فائدة، وما أُحْصِى كم قرأتُ من صِغار الكُتُب فخرجت منها كما دخلت .

وقال القَنْبى ذاتَ يوم لابن الجَهْـم : ألَا تَتَعجّب مِن فُلانٍ! نظر فى كتاب الإقليدس مع جاريةِ سَلْمَوَيْه فى يوم واحدٍ وساعةٍ واحدة ، فقـد فرغَت الجارية من الكتاب وهو بعدُ لم يُحكِم مقالةً واحدة، على أنه حرّ مخيـرّ وتلك أَمَة مَقْصورة، وهو أحرص على قراءة الكتُب مِن سَلْمَوَيْه على تعليم جاريته؛ قال ابن الجَهْم : قد كنتُ أظنّ أنه لا يفهم منه شكلّا واحدا، وأراك تزعم أنه قد فرغ من مَقالة؛ قال القَنْبى : وكيف ظنَنت به هذا الظن كُلّه وهو رجل ذو لسان وادب؟ قال : لأنّى سمِعتَه يقول لابنه : كم انفقت على كتاب كذا وكذا؟ قال : أنفقت كذا وكذا . قال : إنما رغّبنى فى العلم أنّى ظننت أنّى أُنفِق قليـلا وأكتسب كثيرا، فأما إذ صِرتُ أُنْفِق الكثير وليس فى يدى منه إلّا المواعيدُ فإنّى لا أريد

العلم بشىء . والإنسان لا يعلم حتى يكثُر سماعُه ، ولا بُدّ من أن تصير كتبُهُ أكثرَ من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذّ عنده من الإنفاق من مال عدوّه ، ومَن لم تكن نفقته التى تخرج فى الكُتُب ألذّ عنـده من عشاق القِيان ، والمستهترين بالبُنْيان ، لم يبلغ فى العلم مَبلغا رَضِيّا . وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر لَذّة اتخاذ الكتب إيثار الأعرابىّ فرَسه باللَّبن على عياله ، وحتّى يؤمِّل فى العلم مالا يؤمِّل الأعرابىّ فى فرسه .

وقال إبراهيم بن السِّنْدىّ مرّةً : وددْت أنّ الزنادقة لم يكونوا حُرَصاء على المغالاة بالورق النقىّ الأبيض ، ولا على تخيُّر الحبر الأسود البرّاق ، ولا على استجادة الخطّ والإرغاب لمن يخطّ ، فإنى لم أر كورق كتبهم ورقا ، ولا كالخطوط التى فيها خطّا . وإنّى غرِمت مالا عظيما مع حبّى للمال وبغضى للغرم ؛ لأنّ سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليلٌ على شرَف النفس وعلى السلامة من سُكْر الآفات . وقلت لإبراهيم : إنّ إنفـاق الزنادقة على الكتب كإنفاق النصـارَى على البِيَع . ولو كانت كتب الزنادقة كُتُبَ حِكْـة ، وكتبَ فلسـفة ، وكانت مقاييسَ تبيينٍ ، أو لو كانت كتبهـم كتبا تعرّف النـاس أبواب الصناعات . أو سبُلَ التكسُّب والتجارات ، أو كتب إرفاق ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه النـاس من الفِطَن والأدب . أو كان ذلك لا يُقرِّب من غنًى ، ولا يباعد من مأثم ، لكانوا ممّن قـد يجوز أن يُظَنّ بهـم تعظيم البيان والرغبـة فى التبيين ، ولكنّهم ذهبوا فيها مذهبَ الديانة على طريق تعظيم المِلّة . فإنّما إنفاقهم فى ذلك كإنفاق المجوس على بيت النار ، وكإنفاق النصارَى على صُلْبان الذهب . أو كإنفاق الهند على سَدَنة البِدَدة . ولو كانوا العلمَ أرادوا لكان العلمُ لهم معرضا ، وكتبُ الحكمة لهم مبذولة ، والطُرُق إليها سهلة معروفة . فما بالهم لا يصنعون ذلك إلّا بكتب دياناتهم كما يُزخرف النصارَى بيوت عباداتهم . ولو كان هذا المعنى مُستحسنا عند المسلمين . وكانوا يروْن أنّ ذلك داعية إلى العبادة وباعثـةٌ على الخشوع ، لَبلغوا فى ذلك بعَفْوِهم ما لا يبلغه النصارَى بغاية الجَهْد .

وقد رأيتم مَسْجد دِمشق حين استجاز هذه السبيلَ ملِكٌ من ملوكنا ، ومن رآه فقد علِم أنّ أحدا لا يرومه ، وأنّ الروم لا تسخو أنفسُهم به ؛ فلما قام عمر بنُ عبد العزيز جلّله بالجِلال ، وغطّاه بالكَرابيس(١) ، وطَبَخ سلاسل القناديل حتى ذهَب عنها ذلك التلألؤ والبَريق ، وذهب الى أنّ ذلك الصنيعَ مجانِب لسُنّة الاسلام ، وأنّ ذلك الحُسْن الرائع والمحاسن الدِّقاق مَذْهَلة للقلوب ، مشغلة دون الخشوع ، وأنّ البال لا يكون مُجْتمعا وهناك شيء يُفرّقه ويَعترض عليه .

والذى يدلّنا على ما قلنا أنّه ليس فى كتبهم مثلٌ سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعةُ أدب ، ولا حِكْمة غريزية ولا فلسفية ، ولا مسئلة كلامية ، ولا تَعْريف صِناعة ، ولا استخراجُ آلة ، ولا تعليم فِلاحة ، ولا تدبير حَرْب ، ولا مُقارَعة عن دِين ، ولا مُناضلة عن نِحْلَة ؛ وجُلُّه ذكر النور والظُّلْمَة ، وتناكُح الشياطين ، وتسافُد العفاريت ، وذِكرُ الصِّنْديد والتهويلُ بعمود السنخ ، والاخبار عن شقلون وعن الهامّة والهامة ، وهَذْرٌ وعِيٌّ ودعوى وخُرافة وسخف وتكذُّب ، لا ترى فيه موعظة حَسَنة ، ولا حديثا مُونِقًا ، ولا تدبيرَ معاش ولا سياسةَ عامّة ، ولا ترتيب خاصّة ؛ فأىّ كتاب أجهَلُ ، وأى تدبير أفسد من كتاب يُوجب على الناس الطاعة والخُضُوع بالديانة على جهة الاستبصار والمحبّة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دِين ، والناس لا يحبون إلّا دينا أو دُنيا .

فأمّا الدنيا فاقامة سُوقها وإحضارُ نفعِها . وأما الدِّين فأقلّ ما يُطمع فى استجابة العامة واستمالة الخاصّة ، أن يصوّر فى صورة مُغلّطة ، ويُموّه تمويه الدينار البهرج والدرهم الزائف الذى يَغلَط فيه الكثير ويعرف حقيقته القليل . فليس اتفاقُهم عليها من حيث ظننت . وكل دِين يكون أظهر اختلالا وأكثر فسادا يحتاج من الترقيع والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه الى أكثر من غيره .

---

(١) الكرابيس جمع كرباس . ثوب من القطن الأبيض وقيل : الثوب الخشن ، فارسى معرّب .

وقد علمت أن النصرانية أشدُّ انتشارا من اليهودية تعبُّدا، فعلَى حسبِ ذلك يكون تزيُّدهم فى توكيده، واحتفالهم فى إظهار تعظيمه .

وقال بعضهم : كنتُ عند بعض العلماء فكنتُ أكتبُ عنه بعضًا وأدع بعضًا، فقال لى : اكتبْ كلّ ما تسمع، فانّ أخس ما تسمع خير من مكانه أبيض . وقال الخليل بنُ أحمد : تكثّر من العلمِ لِتعرِف، وتقلّل منه لِتحفَظ . وقال أبو إسحاق : القليلُ والكثير للكُتُب، والقليلُ وحْدَه للصدر، وأنشد قول ابن يَسير :

أمَا لو أَعِى كلّ ما أَسمَعُ * وأَحْفَظ مِن ذاكَ ما أَجْمَعُ
ولم أستَفِد غيْر ما قدْ جمعْــــتُ لقيلَ هو العالِمُ المُقْنِعُ
ولكنّ نَفْسِى الى كُلِّ نو * عٍ من العِـلْمِ تَسْمَعُهُ تَنْزِع
أشاهَدُ بالعىّ فى مَجْلِسى * وعِلْمى فى البيت مُسْتَوْدَعُ
فلا أنَا أحْفَــظُ ما قد جمعْــتُ ولا أنا مِنْ جَمْعِه أشبَعُ
ومَنْ يَكُ فى عِلْمِه هكذَا * يكُنْ دهرَه القَهْقَرى يَرْجِعُ
اذا لَمْ تكُنْ حافِظا واعِيًا * فجَمْعُكَ لِلعِلْمِ لا يَنْفَعُ

قال أبو اسحاق : كلف ابن يَسير الكتبَ ما ليس عليها، إنّ الكتب لا تُحيِى الموتى، ولا تُحوّل الأحمق عاقلا، ولا البليدَ ذكيا، وذلك أنّ الطبيعة اذا كان فيها أدنى قبول فالكتبُ تَشْحَذ وتَفْتُق وتُرْهِف وتَشفِي . ومن أراد أن يعلم كلّ شيء فينْبَغى لأهله أن يداووه، فان ذلك انّما تصوّر له لشيء اعتراه . فمَن كان عاقلا ذكيًّا حافظًا فليَقْصِد الى شيئين أو ثلاثة أشياء : فلا يَنْزِع عن الدرس والمطارحة، ولا يَدَع أن يَمرّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف فيكون عالما بخواصّ و يكون غيرَ غُفْل من سائر ما يجرى فيه الناس ويخوضون فيه ؛ ومَن كان مع الدرس لا يحفَظ شيئا إلّا نَسِى أكثر منه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعدُ .

وحدثنى موسى بنُ يحيى قال : ما كان فى خِزانة كتب يحيى وفى بيت مدرسه كتاب إلّا وله فيه ثلاثُ نُسَخ .

وقال أبو عمرو بنُ العـلاء : ما دخلت على رجل قطُّ ولا مررت ببابه فرأيتــه ينظر فى دفتر وجليسُه فارغ اليد إلّا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل .

قال أبو عمرو وقيل لنا يومًا : إنّ فى دار فلانٍ ناسا قد اشْتَملوا على سوءة، وهم جلوسٌ على خُمَيْرة لهم وعندهم طُنْبور، قال: فَذَمَرْنا عليهم فى جماعة من رجال الحىّ، فاذا فتًى جالسٌ فى وَسط الدار وإذا أصحابه حولَه، واذا هم بيضُ اللِّحَى، واذا هو يقرأ عليهم كتاب شـعر، فقال الذى كان سعى بهم : السَّوْءة فى ذلك البيت ، وإن دخلتموه عَثَرْتم بها ؛ قال قلتُ : والله لا أكشِف فتًى أصحابُه شيوخ وفى يده دفترعِلْم ولو كان فى ثوبه دَمُ يحيَى بنِ زكرياء .

قال وأنشد رجل يونُس النَّحوِىّ قوله :

أَسْتودِعَ العِـلْمُ قِرْطاسا فَضَيّعه * فبِئْس مُسْتَوْدَعُ العِلْمِ القراطيسُ

قال فقـال يونس : قاتله الله، ما أشـدّ صبابته بالعلم وأحسنَ صِيانَته له ! إنّ عِلْمك من رُوحِك، ومالك مِن بدنك، فضعه منك بمكانِ الرُّوحِ، وضَعْ مالك بمكان البدن .

وقيـل لابن دَاحَة وأخرج كتاب أبِى الشَّـمَقْمَق واذا هو فى جُلود كوفيّة ودفّتيْن طائفيتين وبخطّ عجيب، فقيل له : لقد ضيّع دِرهمه مَن تجوّد لشعر أبى الشمقمق؛ قال : لا جَرَمَ والله إنّ العـلم ليُعْطِيكم على حساب ما[1] تُعْطُونَه، ولو استطعتُ أنْ أودِعَه سُـوَيداء قلبى وأجعله مخطوطا على ناظرىّ لفعلت .

ولقد دخلت على إسحاق بنِ سليمانَ فى إمْرته، فرأيت السماطين بين يديه والرجال مُثُولًا كأنّ على رءوسهم الطير، ورأيت فِرْشَته[2] وبِزّته ، ثم دخلت عليــه وهو معزول، واذا هو فى بيت كتبه وحواليْه الأسـفاط والرقوف والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر، فـا رأيتــه قطُّ أفخمَ ولا أنبَـل ولا أهْيَب ولا أجزل منـه فى ذلك اليوم ، إلا أنّه جمـع مع المَهابة المَحبة، ومع الفَخامة الحلاوَة، ومع السُّودَد الحِكْمة .

(١) كذا فى الأصل، ولعلها زائدة . (٢) الفرشة : الهيئة .

وقال ابن داحة : كان عبد الله بنُ عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يُجالس الناس ، ونزل مَقْبرة من المقابر ، وكان لا يكاد يُرَى إلّا وفى يده كتاب يقرؤه ، فسُئل عن ذلك وعن نزوله المَقْبُرَة ، فقال : لم أرَ أوعظَ من قبر ، ولا أمتع من كتاب ، ولا أسلَم من الوَحْدة ؛ فقيل له : فقد جاء فى الوَحْدة ما قد جاء ، قال : ما أفسدَها للجاهل وأصلحها للعاقل !

وضروب من الخُطوط بعد ذلك تَدُلّ على قدر مَنْفعة الخطّ ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وقال الله عز وجل : ﴿فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ وقال : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وقال : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ وقال : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ .

الترغيب فى اصطناع الكتب

(وبعد أنْ تكلّم عن الخطّ فى الأرض عند التفكّر وما قيل فى ذلك من الأشعار، وذكَر الخطّ ومِقْدار الحاجة اليه ، وتاريخَ الشعر قبل الإسلام، وبيان أنّ فضيلته مقصورة على العرب، استطرد القولَ بالترغيب فى اصطناع الكُتُب) فقال :

« إنّ على مَن شكر المعرفة بمَغاوِى الناس ومَراشِدهم ومَضارِّهم ومَنافِعهم ، أنْ يحتمل ثِقَل مَؤونتهم فى معرفتهم ، وأنْ يتوخّى إرشادَهم وإنْ جهِلوا فضل ما يُسْدَى اليهم ، ولن يُصان العِلْم بمثل بذله ، ولن تُسْتَبقَ النعمة فيه بمثل نشره ، على أنّ قراءة الكتب أبلغُ فى إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاقى يشتدّ التصنع ، ويكثُر التظالُم ، وتُفرِط العَصَبية ، وتقوَى الحَمِيّة ، وعند المُواجهة والمُقابلة يشتدّ حُبّ الغَلَبة ، وشهوة المُباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع ، والأنفةِ من الخُضوع ، وعن جميع ذلك تحدُث الضغائن ويظهر التباين ؛ فإذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة ، امتنعت من التعرف ، وعَمِيت عن موضع الدَّلالة ؛ وليست للكتب عِلّة تمنع من دَرَك البُغْيَة ، واصابة الحُجّة ؛ لأن المتوحّد بدرسها والمنفرِدَ

بفَهْم معانيها ، لا يُباهِى نفسه ، ولا يُغالبُ عقلَه ، وقد عدم من له يباهى، ومن أجله يغالب؛ والكتاب قد يفضل صاحبَه ويتقدم مؤلّفَه، ويرجح قلمُه على لسانه بأمور :

منها، أنّ الكتاب يُقرأ بكلّ مكان، ويَظْهر ما فيه على كلّ لسانٍ، ويوجد مع كلّ زمان على تفاوت ما بين الأعصار، وتَبَاعُد ما بين الأمصار، وذلك أمر يستحيل فى واضع الكتاب، والمنازع بالمسألة والجواب ؛ ومُناقلة اللسان وهدايتُه لا تجوزان مَجْلِسَ صاحبه ، ومَبلَغَ صوته ؛ وقد يذهب الحكيم وتبقَى كُتبُه ، ويفنَى العقلُ ويبقَى أثرُه . ولولا ما تَسَمّت لنا الأوائلُ فى كتبها ، وخلّدت من عجيب حِكَمها، ودوّنت من أنواع سِيَرها، حتّى شاهَدْنا بها ما غاب عنّا ، وفتحنا بها كلّ مُسْتغلَقٍ كان علينا ، بجمعنا الى قليلنا كثيرَهم ، وأدركنا مالم نكن نُدْركُه إلّا بهم ، لقد خسّ حظّنا من الحكمة ، وضعف سببُنا الى المعرفة ؛ ولو أُلْجئنا الى قدر قوّتنا ، ومبلغ خواطرنا ، ومنتهى تجْرِبتنا لِما تُدْركه حواسُّنا وتشاهده نفوسُنا ، لقد قلّت المعرفة ، وقَصُرت الهِمّة ، وانتقَضَت المُنّة ، وعاد الرأى عقيما ، والخاطر فاسدا ، ولكَلّ الحدُّ ، وتبلّد العقلُ . وأ كثرُ مِن كتبهم نفعًا ، وأشرفُ منها خطَرا ، وأحسنُ موْقِعا ، كُتُب الله تعالى التى فيها الهُدَى والرحمة . والإخبار عن كل عِبرة ، وتعريفُ كلّ سيّئة وحَسنة . وما زالت كتب الله تعالى فى الألواح والصحف والمَهارِق[1] والمصاحف . فقد قال الله عزّ وجلّ : ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وقال : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ ويقال لأهل التوراة والإنجيل : أهل الكتاب . وينبغى أن يكون سبيلُنا لمن بعدَنا كسبيل مَن كان قبلَنا فينا . على أنّا قد وجدْنا من العِبْرة أكثرَ مما وجدوا ، كما أنّ مَن بعدَنا يجد من العِبْرة أكثرَ مما وجدْنا ، فما ينتظِر العالِم بإظهار ما عِنْده ، وما يمنع الناصرَ للحق مِن القيام بما يلزمُه ، وقد أمكن القولُ ، وصلُح الدهر ، وهوَى نجمُ التقيّة ، وهبت ريحُ العلماء ، وكسَد العِيّ والجهل ، وقامت سوق البيان والعِلْم . والإنسان ليس يجد فى كلّ حالٍ إنسانا

(١) المهارق جمع مهراق ، وهو ثوب حرير أبيض يسق بالصمغ و يصقل ثم يكتب فيه ، فارسىّ معرّب .

يدرسه ومقوما يثقفه، والصبر على إفهام الرّيّض شديد. وصرف النفس عن مغالبة العالِم أشدّ منه همّا .

والمتعلم يجد فى كلّ مكان الكتاب عتيدًا، وبما يحتاج اليه قائما . وما أكثر من فرّط فى التعلّم أيّامَ خمول ذكره وأيّام حداثة سنّه . ولولا جياد الكتب وحسنها، ومبيّنها ومختصرها، ثم تحرّكت همم هؤلاء لطلب العلم، ونازعت الى حبّ الأدب، وأنفت من حال الجهل وأنْ تكون فى غمار الحشو لدخل على هؤلاء من الضرر والمضرّة والجهل وسوء الحال ما عسى ألّا يمكن الإخبار عن مقداره إلّا بالكلام الكثير .

ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : تفقّهوا قبل أنْ تُسوَّدوا . وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين سنة، ولا يعدّ فقيها ولا يجعل قاضيا، وما هو إلّا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتّى تمرّ ببابه فتظنّ أنه باب بعض العمال؛ وبالحرى ألّا يمرّ عليه من الأيّام إلّا اليسيرُ حتّى يصيرَ حاكما على مصرٍ من الأمصار، أو بلدة من البلدان .

وينبغى لمن كتب كتابا ألّا يكتبه إلّا على أنّ الناس كلّهم له أعداء . وكلّهم عالِم بالأمور، وكلّهم متفرّغ له، ثمّ لا يرضى بذلك حتّى يدعَ كتابه يغبّ ويختمر، ولا يثق بالرأى الفطير، فإن لابتداء الكتاب فتنةً وعُجبًا . فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرةً، أعاد النظر فيه وتوقّف عند فصوله توقّفَ مَن يكون وزنُ طمعه فى السلامة أنقصَ من وزن خوفه من العيب، ويتفهّم معنى قول الشاعر :

إنّ الحديثَ تغرُّ القومَ خلوتُه ⁂ حتّى يكونَ لهم عِيٌّ وإكثارُ

ويقف عند قولهم فى المثل : "كلُّ مُجْرٍ فى الخلاء يُسَرّ". فيخاف أن يعتريه ما يعترى من أجرى فرسه وحده، أو خلا بقلمه عند فقد خصومه وأهل المزية من أهل صناعته، وليعلم أنّ صاحبَ القلم يعتريه ما يعترى المؤدِّب عند ضربه وعقابه، فما أكثرَ من يعزم على

عشرة أسواط فيَضْرِبُ مائة، لأنه ابتـدأ الضرب وهو ساكنُ الطباع فأراه السكونُ أنّ الصواب فى الإقلال ، فلمّا ضرب تحرّك دمُه فأشاع فيـه الحرارةَ وزاد فى غضبه، فأراه الغضب أنّ الرأى فى الإكثار، وكذلك صاحب القلم، فما أكثرَ مَن يبتدئ الكتّاب وهو يُريد مِقْـدار سَطرَيْن فيكتب عشرة . والحفظ مع الإقلال أمكنُ ، وهو مع الإكثار أبعـد .

وآعلم أنّ العاقل إنْ لم يكن بالمشبع فكثيرًا ما يُغَرّ من ولده ويَحْسُن فى عينه منه القبيح فى عين غيره ، فليعلم أنّ لفظه أقرب اليه نسبا من ابنه ، وحَرَكته أمسّ به رَحِما من ولده، لأنّ حركته شيءٌ أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصلت، ومن نفسه كانت، وانّما الولد كالمَخْطَة يَتَمخطها، وكالنُّخامة يقذفها ، ولا سواءٌ إخراجك من نفسك شيئا لم يكن منك ، واظهارُك حركةً لم تكن حتى كانت منك ؛ ولذلك نجد فِتْنَة الرجل بشِعره وفِتْنته بكلامه وكتبِه، فوق فِتْنته بجميع نِعْمَتِه .

وليس الكتّاب الى شىء أحْوَجَ منه الى إفهام معانيه حتّى لا يحتاجَ السامع بما فيه الى الروية فيه . ويحتاجُ من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السِّفلة والحَشْو، ويَحُطّه عن غريب الأعراب ، وَوَحْشِىّ الكلام . وليس له أن يُهـذّبه جِدّا ويُنَقّحه ويصفّيه ويُرَوّقه حتّى لا ينطقَ إلّا باللبّ وبالسِّرّ، وباللفظ الذى قد حذف فُضُوله وتعرّقَ زوائده، حتّى عاد خالصا لا شَوْب فيه، فإنه إن فعل ذلك لم يُفْهم عنه إلّا بأن يُجَدّد لهم إفهاما وتكْرارا، لأنّ الناس كلّهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارتْ أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلّا بأنْ تُعْطَس عليها وتُؤْخذ بها ؛ ألا تَرَى أنّ كتاب المَنْطق الذى قد وُسِم بهذا الأسم لو قرأتَه على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعْراب لما فهموا أكثره ؛ وفى كتاب إقليدس، كلام يدور وهو عربى وقد صُفّىَ، ولو سمِعه بعض الخطباء لَما فهمه، إلا بأن يُفَهّمَه مَن يريد تعليمه ؛ لأنه يحتاج الى أن يكون قد عَرَف جِهَة الأمر، وتعوّد اللفظ المَنْطِق الذى استُخْرج من جميع الكلام .

وقد قال معاوية بن أبى سُفيان رضى الله تعالى عنهما لصُحَار العَبْدى : ما الإيجاز ؟ قال أنْ تجيب فلا تُبْطِئ ، وتقولَ فلا تُخطِئ؛ قال معاوية : أوكذلك تقول . قال صُحَارٌ : أقلني يا أمير المؤمنين، لا تُخطِئ ولا تُبْطِئ . فلو أنّ سائلا سألك عن الإيجاز فقلتَ :لا تُخطِئ ولا تُبْطِئ وبحضرتك خالد ابنُ صفوان لمَا عرَف بالبديهة وعند أوّل وَهْلة أنّ قولك لا تُخطِئ مُضمّن بالقول، وقولَك لا تُبْطِئ مضمّن بالجواب . وهذا حديث — كما ترى — قد ارتضوْه ورووْه ؛ ولو أنّ قائلا قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟ لظننتُ أنه كان سيقول الاختصار والإيجاز ، ليس يعني به قِلّة عدد الحروف واللفظ . وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يَسَعُ بطن طُومار[1] فقد أوجز، وكذلك الإطالة . وإنما ينبغى أن يحذف بقدر مالا يكون سببا لإغلاقه ولا يُرَدّد وهو يُكْتَفَى فى الإفهام بشطره، فما فَضَل عن المِقدار فهو الخطَل .

وقلت لأبى الحسن الأخفَش : أنت أعلم الناس بالنحو، فلِمَ لا تجعل كتبَك مَفْهومةً كلّها؟ وما بالنا نفهم بعضَها ولا نفهم أكثرَها،وما بالك تُقَدّم بعض العويص وتُؤخّر بعض المفهوم؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هى من كتب الدِّين، ولو وضعتُها هذا الوضع الذى تدعونى اليه قلّت حاجاتُهم إلىّ فيه . وإنما غايتى المَنالة . فإذًا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعُوَهُم حلاوةُ ما فهموا الى التماس فهم ما لم يَفهموا . وأنا قد كَسَبتُ فى هذا التدبير اذ كنتُ الى التكسُّب ذَهبتُ . ولكن ما بالُ ابراهيم النظّام وفلان وفلانٍ يكتبون الكتب لله بزعمهم، ثمّ يأخذُها مِثلى فى موافقته وحسن نظره وشِدّة عِنايته، فلا يفهم أكثرَها ؟

وأقول لو أنّ يوسف السَّمْتيّ كتب هذه الشروطَ أيّامَ جلَس سَلْمان بن ربيعة شهرَيْن للقضاء فلم يتقدّم اليه رجُلان والقلوبُ سليمةٌ والحقوق على أهلها مُوَفّرة . لكان ذلك خَطَلا ولَغْوا ، ولو كتب فى دهرنا شروطُ دهر سَلْمان لكان ذلك غَرارَة ونقصا ،

(١) الطومار : الصحيفة .

وجَهْلا بالسياسة وما يَصْلُح لكلّ دهر، ووجدنا النـاس اذا خَطَبُوا فى صُلْح بين العشائر أطالوا ، واذا أنْشَدوا الشـعر بين السِّماطَيْن فى مدح الملوك أطالوا ؛ فللإطالة مَوْضِعٌ وليس ذلك بخَطَل، وللإقلال موضعٌ وليس ذلك مِن عجز .

ولو لا أنى أتكل على أنّك لا تَمَلّ باب القول فى البعير حتّى تخرُج الى الفيل،وفى الذّرّة حتّى تخرُج الى البَعوضة ، وفى العقرب حتّى تخرُج الى الحيّـة، وفى الرجُل حتّى تخرُج الى المرأة، وفى الذّبّان والنّحْل حتّى تخرُج الى الغِرْبان والعِقْبان ، وفى الكَلْب حتى تخرُج الى الديك، وفى الذّئب حتّى تخرُج الى الضَّبُع، وفى الظِّلْف حتّى تخرُج الى الحافر، وفى الحافِر حتّى تخـرُج الى الخُفّ ، وفى الخُفّ حتّى تخرُج الى البُرْثُن ، وفى البُرْثُن حتّى تخرُج الى المِخْلب، وكذلك القولُ فى الطـير وعامّة الأصـناف ، لَرأيتَ أنّ ذلك يُوجب المَلال، ويُعْقِب الفَتْرة المـانعة من البلوغ فى الفهم، وتَعَرُّف ما يُحتاج منه الى التعرُّف، فرأيت أن جُملة الكِتاب و إنْ كثُر عدد ورقه،أنّ ذلك ليس مِمّـا تَمَلّ من كثرة قراءته أبدا وتَعتدّ علىّ فيـه بالإطالة ، لأنه و إنْ كان كتابا واحدا فانّه كُتُب كثيرة، وكلّ مصحف منهـا أمّ علىَ حِدَة . فانْ أراد قراءة الجميع لم يطُل عليه الباب الأوّلُ حتّى يهجُم على الثـانى ، ولا الثانى حتّى يهجُم على الثالث ، فهو أبدا مُستفيد ومُسْتَطْرِف ، و بعضه يكونُ جَماما لبعض ، ولا يزال نشاطُه زائدا ، ومتَى خرَج من آى القـرآن صار الى أثَر ، ومتى خرَج من أثَر صار الى خبر، ثم يخرُج من الخبر الى شـعر، ومن الشعر الى نوادِرَ، ومن النوادِر الى حِكَم عقليّة ومقاييس سِدادٍ ، ثمّ لا يترك هذا الباب فلعلّه أن يكون أثقل، والملالُ اليه أسرعَ، حتّى يُفْضَى به الى مَزْح وفُكاهـة والى سُخْف وخُرَافة . ولست أراه سخفًا إذ كنت إنّمـا استعملت سِيرَة الحكماء ومأدُبَة العلمـاء ، ورأينا الله تبارك وتعـالى اذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مُخرج الإشارة والوَحْى والحَـذْف ، واذا خاطب بنى إسرائيـل أو حَكَى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلم . فأصوب العمل اتّباع آثار العلماء والاحتذاءُ

على مِثال القدماء ، والأخذُ بما عليه الجماعة . وقال ابن يَسِير فى صفة الكُتُب فى كلمة له :

أقبلتُ أهرُب لا آلو مُباعَدَةً * فى الأرض منهم فلم يُحْصِنِّى الهَرَبُ
بِقَصْر أَوْسٍ فما والَتْ خَنادِقُهُ * الى النّواويسِ فالماخُورُ فالخَرِبُ
فأيُّما مَوْئِلٍ منها اعتصمتُ به * فمِنْ ورائِى حَثِيثًا مِنْهُمُ الطَّلَبُ
لمّا رأيتُ بأنِّى غَيْرُ مُعْجِزِهِمْ * فَوْتًا ولا هَرَبًا قَرَّبت احْتَجِبُ
وصِرْتُ فى البيت مَسْرورًا به جَذِلًا * جارًا لِبَوْءة لا شَكْوَى ولا شَغَبُ
فَرْدًا تُحَدِّثنِى المَوْتَى وتَنْطِق لِى * عن عِلْمِ ما غاب عَنِّى مِنْهُمُ الكُتُبُ
هم مُؤْنِسُونَ وأُلّافٌ غَنِيتُ بِهِمْ * فليس لى فى أنيسٍ غَيْرِهم أَرَبُ
لله من جُلَساءٍ لا جَلِيسُهُمُو * ولا عَشِيرُهُمُو لِلسُّوءِ مُرْتَقِبُ
لا بادِراتِ الأذَى يَخْشَى رفيقُهُمُ * ولا يُلاقِيهِ مِنْهُمْ مَنْطِقٌ ذَرِبُ
أبقَوْا لنا حِكَمًا تَبْقَى منافِعُها * أُخْرَى اللّيالِى على الأيّام وانْشَعَبوا
فأيُّما أَدَبٍ مِنْهُمْ مَدَدتُ يَدِى * يَوْمًا إليه فَدانٍ مِنْ يَدِى كَثَبُ
إنْ شِئتُ مِنْ مُحْكَمِ الآثارِ يَرْفَعُها * الى النبىّ ثِقاتٌ بَرَرَةٌ نُجُبُ
أو شِئْتُ مِن عَرَبٍ عِلْمًا بأوّلها * فى الجاهليّة أنبَتْنِى به العَرَبُ
أو شئتُ من سِيَرِ الأَمْلاكِ مِنْ عَجَمٍ * تُنْبِى وتُخْبِر كَيفَ الرَّأْىُ والأَدَبُ
حتّى كأنِّى قد شاهَدْتُ عَصْرَهُمُو * وقد مضَتْ دونَهُ مِن دَهْرِهِم حِقَبُ
يا قائلًا قَصُرَتْ فى العِلْمِ نُهْيَتُهُ * أمسَى الى الجَهْلِ فيما قال يَنْتَسِبُ
إنّ الأوائلَ قد بانوا بعِلْمِهِمُ * خِلافَ قولك قد ماتوا وقد ذهبوا
ما مات مِنّا امْرُؤٌ أبقَى لنا أدبًا * يكونُ منه اذا ما مات يُكْتَسَبُ

وقال أبو وجْزَة وهو يَصف صحيفة كُتِبَ له فيها بستّين وَسْقا :

راحتْ بستّين وَسْـقا فى حَقيبتها * ماحُمّلتْ حِمْلَها الأدنى ولا السّدَدا
ولا رأيتُ قلوصًـا قبْلَها حمَلَتْ * سِـتّين وَسْـقًا ولا جابتْ بها بلَدَا

وقال الراجز :

تَعلَمنْ أنّ الدواةَ والقلَمْ * تَبقَى ويُفْنِى حادثُ الدّهرِ الغَنَمْ

يقول كتابُك الذى تَكْتُبُه علىّ يبقَى فتأخُذُنِى به وتذهب غَنَمِى فيما يذْهَب . وممـا يَدُلّ على نفع الكتّاب أنّه لولا الكتّاب لم يَجُزْ أنْ يعلَم أهل الرَّقّة والمَوْصِلِ وبَغْدَادَ وواسطَ ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة فى بياض يوم، فتكون الحادثة بالكوفة غُدْوَةً فيعلمُها أهل البصرة قبل المَساء .

وذلك مشهور فى الحَمَـام الهُدَّى : اذا جُعِلت بُرُدا قال الله جلّ وعزّ ، وذكر سُلَيمانَ ومُلْكَه الذى لم يُؤتِ أحدًا مِثلَه ، فقال : ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَا أَرَى الْهُـدْهُدَ﴾ إلى قوله : ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَـأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ . فلم يلبَث أن قال الهُدهد : ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَـا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ . قال سليمان : ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِى هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ وقد كان عنده من يُبلّغ الرسالة على تمامها من عِفْريت ومن بعض مَن عنـده عِلْم من الكتاب فرأى أنّ الكتّاب أبهَى وأنبَلُ وأكرم وأفخم من الرسالة عن ظهر لسان وإنْ أحاط بجميع ما فى الكتّاب . وقالت ملِكة سبأ : ﴿يَأَيُّهَـا الْمَـلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ فهذا ممّـا يدُل على قدر آختيار الكُتُب وقد يريد بعض الجِلّة الكبار وبعضُ الأدباء والحكماء أن يدعو بعضَ مَن يجرى مجراه فى سلطان أو أدب الى مأْدبة أو نِدام أو خروج الى مُتنَزَّه أو بعض ما يُشبه ذلك، فلو شاء أنْ يُبَلّغه الرسول إرادته ومعنـاه لأصاب مَن يحسن الأداء ويَصْدُق فى الإبلاغ فيرَى أنّ الكتّاب فى ذلك أسرَى وأنبه وأبلغ ولو شاء النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ألّا يكتب الكُتُب الى كِسرَى وقَيْصر والنجاشىّ

والمُقَوقِس و إلى بنى الجَلَندى و إلى العَباهلَة من حِمْيَر و إلى هَوْذَة بن على و إلى الملوك العظماء والسادة النُّجباء لفعل ولوجَد المُبلِّغ المعصومَ من الخطإ والتبـديل، ولكنّه عليه السلام علم أنّ الكتاب أشـبه بتلك الحال، وأليـق بتلك المراتب، وأبلغ فى تعظيم ما حواه الكتاب، ولو شاء الله أن يجعـل البشارات على الألسـنة بالمرسلين ولم يودعْها الكتب لفعل ولكنّه تعـالى وعزّ علِم أنّ ذلك أتمّ وأكمل، وأجمـع وأنبل؛ وقد يكتُب بعض من له مرتبـة فى سلطان أو دِيانة الى بعض مَن يشاكله أو يجرى مجراه فلا يرضَى بالكتاب حتّى يخزمـه ويختمه، وربّمـا لم يرضَ بذلك حتّى يُعَنونه ويُعظِّمه .

قال الله جل وعز : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى﴾ فذكر صُحُف موسى الموجودة وصُحُف إبراهيم البائدة المعـدومة ليُعرِّف النـاس مِقدار النفع والمصلحة فى الكتب . قالوا : وكانت فلاسفة اليونانيّة تُورِّث البناتِ العينَ وتورِّث البنين الدَّيْن؛ وكانت تصل العجز بالكفاية والمؤُونة بالكُلفة وكانت تقول : لا تورِّثوا الأبن من المـال إلّا مايكون عَوْنا له على طلب المـال، وآغذوه بحلاوة العِلْم وآطبعوه على تعظيم الحِكْمة ليصير جمعُ العِلْم أغلبَ عليه من جمع المـال، وليَرَى أنّه العدّة والعَتادُ، وأنّه أكرم مُستَفاد، وكانوا يقولون : لا تُورِّثوا الأبن من المـال إلّا ما يَسُد الخَلّة، ويكون له عونا على درْك الفضول إنْ كان لا بدّ من الفضول، فإنّه إنْ كان فاسدا زادت تلك الفضولُ فى فساده، وإنْ كان صالحا كان فيما أورثتموه من العِلْم، و بقّيتم له من الكفاية ما يَكْسِبه الحال، فإنّ الحال أفضل من المـال، ولأنّ المـال لم يزل تابعا للحال، وقد لايتّبع الحالُ المـال، وصاحب الفضول بعَرَض فسادٍ وعلى شَـفا إضاعة مع تمـام الحُنْكة وآجتماع القوة؛ فمـا ظنّكم بها مع غَرارة الحـداثة وسوء الأعتبار وقِلّة التّجرِبة ! وكانوا يقولون : خير ميراث ما كسبك الأركان الأربعـة، وأحاط بأصول المَنْفعة وعجّل لك حلاوة المحبّة، و بقّى لك الأُحدوثة الحسَنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره و باطنه؛ وليس يجمع ذلك إلّا كرام الكتب النفيسة المُشتملة على ينابيع العِلْم، والجامعة لكنوز الأدب ومعرفة الصـناعات وفوائد الإرْفاق؛

وحجج الدّين الذى بصحّته وعنـد وضوح برهانه تسكن النفوس وتثلج الصـدور ، ويعود القلب معمـورا ، والعزّ راسخا ، والأصـل فسيحا ؛ وهذه الكتب هى التى تزيد فى العقل وتشحذه ، وتداويه وتصلحه ، وتهذّبه وتنفى الخبث عنـه ، وتفيدك العلم وتصادق بينـك وبين الحجّة ، وتعوّدك الأخذ بالثقة وتجلب الحال وتكسب المـال . ووراثة الكتب الشريفة والأبواب الرفيعة مَنْبَهة للمورِّث وكنز عند الوارث ، إلّا أنّه كنز لا تجب فيه الزكاة ولا حقّ السلطان ، وإذا كانت الكنوز جامدة ينقصها ما أُخذ منهـا كان ذلك الكنز مائعا يزيده ما أخذ منـه ، ولا يزال بها المُوَرِّث مذكورا فى الحكماء ومُنَوِّها باسمه فى الأسمـاء ، وإماما متبوعا ، وعَلَما منصوبا ، ولا يزال الوارث محفوظا ، ومن أجله محبوبا ممنوعا ؛ ولا تزال تلك المحبّة نامية ما كانت تلك الفوائد قائمة ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة ، ولن يزال من تعظيمها فى القلوب أثر ما كان من فوائدها على الناس أثر .

وقالوا : متى وَرَّثتَه كتابا وأودعتَه علما فقد ورّثتَه ما يُغِلّ ولا يَستَغِلّ ، وقد ورّثتَه الضيعة التى لا تحتاج الى إثارة ، ولا الى سقى ، ولا الى إسجال بإيغار ، ولا الى شرط ولا تحتاج الى أكّار ولا الى أن يثار ، وليس عليهـا عُشر ولا للسلطان عليها خَرج ، وسواء أفدته علمـا أو ورّثتَه آلة علم ، وسواء دفعتك اليه الكِفاية أو ما يجلب الكِفاية ، وانّمـا تجرى الأمور وتتصرّف الأفعال على قدر الإمكان ، فمن لم يقدِر إلا على دفع السبب لم يجب عليه إحضار المُسبّب ، فكتب الآباء تحبيب للأحياء ، ومحيا لذكر الموتى .

وقالوا : ومتى كان الأب جامعا بارعا وكانت مواريثه كتبا بارعة ، وآدابا جامعة ، كان الولد أجدر أن يرى التعلّم حظّا وأجدر أن يُسرع التعليم إليه ويرى تركه خطأ ، وأجدر أن يجرى من الأدب على طريق قد أُنهج له ، ومنهاج قد وُطّئ له ، وأجدر أن يَسرى اليه عِرق مَن نَجَله وسَقى من غرسه ، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكتب النظرَ فى الكتب ، فلا يأتى عليـه من الأيام مِقدار الشغل بجمع الكتب ، والاختلاف فى سماع العـلم ، إلا وقد بلغ بالكفاية غايةَ الحاجة وإنّمـا تُفسِد الكفاية مَن تمت آدابه ، وتوافت اليه أسـبابه ، فأمّا

الحَدَث الغَرير، والمَنقوص الفقير. فخير مواريثه الكِفاية الى أنْ يبلغَ التمام، ويكمُل للطّلب. فخير ميراث وُرِّث كتبٌ وعلم، وخير المُوَرِّثين من أوْرث ما يجمع ولا يُفرِّق، ويُبصِّر ولا يُعمي، ويُعطي ولا يأخذ، ويجود بالكلّ دون البعض، ويدع لك الكنز الذى ليس للسلطان فيه حق، والرِّكازَ الذى ليس للفقراء فيه نصيب، والنِّعمة التى ليس للحاسد فيها حيلة، ولا للصوص فيها رغبة، وليس لخصم عليك فيه حجّة، ولا على الجار فيه مَؤونة.

وأمّا ديمقراط فإنّه قال: ينبغي أن يَعرِف أنّه لا بدّ من أنْ يكون لكلّ كتاب علمٍ وضعه أحدٌ من الحكماء ثمانيةُ أوجه، منها الهِمّة والمَنفعة، والنِّسبة والصحّة، والصِّنف والتأليف، والإسناد والتدبير. فأوّلها أن تكون لصاحبه هِمّة. وأن يكون فيما وضع مَنفعةٌ، وأن يكون له نِسبة يُنسب اليها، وأن يكون صحيحا، وأن يكون على صِنف من أصناف الكتب معروفا به. وأن يكون مُؤتلفا من أجزاء خمسة. وأن يكون مُسندا الى وجه من وجوه الحِكمة، وأن يكون له تدبير موصوف. فذكر أن أَبِقْراط قد جمع هذه ثمانية الأوجه فى هذا الكتاب وهو كتابه الذى يُسمّى «أفوريسموا» تفسيره: كتاب الفصول. وقولك وما بلغ من قدر الكلب مع لُؤم أصله، وخُبث طبعه، وسُقوط قدره، ومَهانة نفسه. ومع قِلّة خيره وكثرة شرّه، واجتماع الأمم كلّها على استسقاطه واستسفاله. ومع ضربهم المَثَل فى ذلك كلّه به. ومع حاله التى يُعرَف بها من العَجز عن صَولة السباع، واقتدارها. ومن تمنّعها وتشرُّفها وتوحُّشها. وقِلّة إسماحها، وعن مسالمة البهائم وموادعتها، والتمكين من إقامة مصلحتها. والانتفاع بها. إذ لم يكن فى طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الاحتيال لمعاشها. ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المَخوفة. ولأنّ الكلب ليس بسَبُعٍ تامّ ولا بهيمة تامّة حتى كأنّه من الخَلْق المُركَّب. والطبائع المُلفّقة. والأخلاط المُجتلبة. كالبغل المتلوّن فى أخلاقه الكثير العيوب المتولّدة عن مِزاجه. وشرّ الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادّة والأخلاق المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالرّاعِبيّ من الحَمام الذى ذهبت عنه هِداية الحَمام. وشكل هديره وسرعة طيرانه. وبطَل عنه عُمر الوَرَشان. وقوّة جُناحه. وشدّة عصبه. وحسن

صوتِه، وشجا حلقِه، وشكْل لحونِه وشدّة إطرابه، وٱحتمالُه لوقع البنادق، وجرح المَخالب. وفى الراعبيّ أنه مُسَرْوَل مُنقّل، وحدَث له عِظَم بدن وثِقَل وزن لم يكن لأبيــه ولا لأمّه.

وكذلك البغل خرَج من بين حيوانَيْن يَلِدان حيوانا مثلهما ويعيش نتاجُهما ويبقَى بقاءَهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعَقيم، ولا يبقَى للبغلة ولد وليست بعاقر؛ فلو كان البغل عقيما والبغلة عاقرا لكان ذلك أزيدَ فى قوتهما وأتمّ لشدّتهما، فمع البغل من الشبَق والنعْظ ما ليس مع أبيه، ومع البغلة من الشوَس وطلب السِّفاد ما ليس مع أمّها؛ وذلك كلّه قدح فى القوّة ونقص فى البِنْية، وخرج غُرْمولُه أعظمَ من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبههما ونزع الى شيء ليس له فى الأرض أصــل، وخرج أطولَ عُمْرا من أبويه وٱصبرَ على الأثقال من أبويه؛ أو كابن المذكّرة من النساء، والمؤنّث من الرجال، فإنّه يكون أخبث نتاجا من البغل وأفسدَ أعراقا من السِّمْع[1]، وأكثر عيوبا من العِسْبار[2]، ومن كلّ خَلْق خُلِق اذا تركب من ضد، ومن كلّ شجرة مُطْعمة بخلاف؛ وليس يَعترِى مثل ذلك الخِلاسيّ[3] من الدّجاج، ولا الوَرْدانيّ[4] من الحَمَام؛ وكلّ ضَعْف دخل على الخِلْقة، وكلّ رِقة عرَضت للحيوان، فعلى قدر جنسه وعلى وزن مِقداره وتمكّنه يظهر العَجْز والعيب. وزعم الأصمعيّ أنه لم يسبِق الحَلْبة فرس أهضَم قطّ. وقال محمد بن سلّام لم يسبق الحَلْبة أبلقُ قطّ ولا بَلْقاء.

والهداية فى الحَمَام والقوّة على بعد الغاية إنّمـا هى للمُصْمَتة من الخُضْر. وزعمـوا أنّ الشِّيات كلّها ضَعْف ونقْص، والشِّيَة: كلّ لون دخل على لون. وقال الله جلّ وعزّ: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾. وزعم عثمان ٱبن الحكم أنّ ٱبن المذكّرة من المؤنّث يأخذ أسوأ خِصال أبيــه وأردأ خِصال أمّه فتجتمع

(١) السمع بكسر السين و إسكان الميم و بالعين المهملة: ولد الذئب من الضبع وهو سبع مركب فيه شدّة الضبع وقوّتها وجراءة الذئب وخفته (راجع حياة الحيوان للدميرى ج ٢ ص ٣٢). (٢) العسبار بكسر العين وبالسين الساكنة والأنثى عسبارة: ولد الضبع من الذئب وجمعه عسابر (راجع حياة الحيوان للدميرى ج ٢ ص ١٣٩). (٣) الخلاسى: الولد بين أبوين أبيض وأسود، والديك بين دجاجتين هندية وفارسية. (٤) الورداني بالراء المهملة طائر متولد بين الورشان والحمام وله غرابة لون وظرافة قدّ.

فيـه عِظام الدواهي وأعيان المساوى، وأنّه اذا خرج كذلك لم يُنجِـع فيه أدب ولا يَطمع في علاجه طبيب، وأنّه رأى في دور ثقيف فتًى اجتمعت فيه هـذه الخصال . فما كان في الأرض يوم إلّا وهم يتحدّثون عنه بشيء يَصغُر في جنبه أكبرُ ذنب كان يُنسب اليه .

وزعمت أنّ الكلب في ذلك كالخُنثَى الذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخَصِيّ الذي لمّا قُطِع منه ما صار به الذكر فحلًا خرج من حدّ كمال الذكر بفقْدان الذكَر، ولم يكمل لأن يصير أنثى للغَريزة الأصليّة وبقيّة الجَوْهريّة . وزعمتَ أنّه يصير كالنبيذ الذي يُفسِده إفراط الحرّ، فيُخرِجه من حدّ الخلّ، ولا يُدخِله في حدّ النبيذ . وقال مِرْداس بن خِذام :

سَقَيْنا عِقالًا بالثَّوِيّة شَـرْبةً * فمالتْ بلُبِّ الكاهليّ عِقـالِ
فقلتُ اصْطَبِحْها يا عِقالُ فإنّما * هي الخمـرُ خَيَّلْنا لها بخيـالِ
رَمَيْتُ بأمّ الخَلّ حبّةَ قلبِـه * فلم يَنتعِش منها ثلاثَ ليـالِ

فجعل الخمر أمّ الخلّ قد يتولّد عنها، وقد يتـولّد عن الخلّ اذا كان خمرًا مرّةً الخمرُ .

وقال سَعيد بن وَهْب

هلّا وأنتَ بمـاء وجهك تُشتَهَى * رُودُ الشباب قليلُ شَعْر العارِضِ
فالآن حين بدَتْ بخدّك لِحيـةٌ * ذهبتْ بمِلْحك ملءَ كفّ القابِضِ
مثلَ السُّلافة عاد خمرُ عصيرِها * بعدَ اللَّذاذة خَلَّ خمـرٍ حامضِ

ويصير أيضًا كالشِّعر الوسَط والغناء الوسط . والنـادرة الفاترة التي لم تخرج من الحرّ الى البَرْد فتُضحكَ السنّ ولم تخرج من البَرْد الى الحرّ فتُضحِكَ السنَّ .

باب الرسائل

١ — الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة فى كل فن[(١)]

كتب رجل الى صديق له :

إن آباءك شادوا أكارمهم بالفضائل التى كانت فيهم ، وإنك قد كنت أخذت فى مَدْرجتهم فأوفيتَ على غايتهم، ثم آختلجك الهوى ببعض جَدِيلتك[(٢)] وجودك، من لباس فضلك الذى كنتَ تطُول به على أكفائك، وتملِك به أعنّة كافّة جندك، وألقيت مالك على شرّ عواقبه عليك لا لك إن زلت مكاره بوادره عنك .

فصل — قيل : إن مروءة الرجل فى نفسه نَسَبٌ لقوم آخرين، فإنه اذا فعل الخير عُرِف له ، وبَقِى فى الأعقاب والأصحاب، ولَقِيَه يوم الحساب .

فصل — إن حقّ الله على المسلمين أن ينظروا فى دينهم بالنّصيحةِ لأئمتهم ، فإن الأئمة اذا صلَحوا بُدّل الهوى بالتقوى فى قلوبهم ، وماتت سَوْرة الغضب فيهم لأحلامهم، وسكنت العامّة الى عدلهم وذلّت لإنصافهم . واذا كان للمحسن من الحق ما يُقنعه، وللظالم من النّكير ما يَقمَعه ، بذَل المحسنُ الحقّ عليه رغبةً، وذَلّ المسىء بالحق عليه رهبةً . فأوّل ما آمرك به رَجاء الله وتقواه . فأما رجاؤه فأن تُحسِن به فى الصُّنع اذا آطلعتَه . ويكون لك وِقاية اذا آثرته مطمئنا . وأما تقواه فأن تكون له فيما أَمَرك به ونَهاك عنه مُراقبا ؛ فإن تَقِيّة المؤمن تزيد فى آنشراح صدره، وإن شدّة خوفه تَرُدّ هواه على عقله .

---

(١) نقلا عن اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور .

(٢) الجديلة : الناحية والحالة والطريقة .

فصـــل — تنبّه اذا نُبّهت، واذكر اذا ذُكّرت. وانتفع فقد وُعظت، واسمع فقد نُوديت، نبّهك الوعيدُ، وحذرك الزاجر، وأمرك ونهاك الكتاب. ونعتك آثارُ الموت، ودعاك الى الجنة مَلِيء جواد، فالجدّ الجدّ. فقبل المهجرة يُريح المُدْلج .

فصـــل — ما نظرتُ فى معروف عنـد أحَد، فوجدتُه قصُر عن أمله وكان يمكننى أن يكون أكثر منه، إلا عددتُه سيئةً لى عنده ، لأنى ذوّقتُه ما أحبّ ، ثم منعتُـه إياه ، وكأنى قصدتُ لإشخاص قلبه . ولا نظرت فى معروف عند أحد فوجدته قد تناهى عند تناهى أمله وكان يمكننى أن يكون أكثر منه، إلا رأيتُنى فى ذلك وترًا لنفسى. لأنه كفى عَيبا لهـا وإزراء بها ، أن أقنع ... (١) فضل تخذه بمثل ما أقنع رجلا من فضل يتخذه عليـــه .

فصـــل — ما أنتَ ممن يعلم مِنْ جَهْل به ، ولا تُخشى منه بادرة زَلّة ، ولا يقابل بين أمرين إلا عرَف خيرَهما فآثره، وشرَّهما فاجتنبه. وقد رأيتَ ما سافت اليـك الطاعة من حظّ العاجلة، فلا تتعرض لزوال ما أنت فيه ، فتخسر الحظّين ، وتندم فى الدارين، فقـد رأيت من عانَد الحقّ كيف صَرعه الله وبسـط يدَ وَليّـه على سـفك دمه، وإحلال النّقمة به، فصار بعد أن كان فى الأُمنيّة مثلا . وجميع الخلق غاية وأمثالا ، فكرةً فى الاعتبار، وعظـةً للأبصار . فلا يُبعـد الله إلا من ظَلَم وحَتر، وذهب عن الحقّ وأدبر. وأنت اليوم مُحكّم فى أمرك، مخـيّر فى رأيك، تُدعى الى حظّك بالحظ الجزيل بتدلّل . فاهتبل ما قـد هَدَف لك وهو مُمكن ليـدك . فإنك إن أهملت وتراخيت ، لم يكن بالحقّ ووليّـه وحشة اليك ، ومضتْ أحكام الله فى نصرها وتأييدها عن أذلالها (٢) . وصَفِرت يدُك بما لا يُشرف لك بمثله . وأخطرتَ بدمك وأسـلته أخبث مَسـيل وأضلّ سبيل . حيث لا تبكى عليك السماءُ والأرض .

---

(١) بياض فى الأصل . ولعله : أن أقنع نفسى بفضل أتخذه بمثل ما أقنع رجلا ح .

(٢) عن أذلالها : على وجوهها وطرقها .

فصـــل — الناس رجلان : عالمٌ لا غِنًى به عن الازدياد، وجاهلٌ به أعظم الحاجة الى التعلم ، وليس فى كل حال يكون العالم لما يَبُدَهُه من الأمور مُعِدًّا ، ولا المتعلّم على ما يستفيد منه قادِرا وفِيًّا .

فصـــل — إن أنت عَطّلتنا من أمورك ، وأعفَيْت ظهورنا من أثقالك ومؤونتك ، وتركتنا أَغْفَالا فى وِلايتك من تنبيهك وتحريكك ، فقد أنزلتنا منزلةَ من لا خير عنده، وجعلت نفسك أُسْوةَ من لا مُعين له ، وكفى بذلك ظلما .

فصـــل — إن إعلامى إياك ...[1] غير محـدِّد شيئا ، ولكنه أقـرب من الجميـل فى معرفة عذر المعتذر، وأحمل للأئمة على المسيء المقصّر .

فصـــل — الذى آعتمدنا عليه من رأيك، ونثِق به من جميل نظرك، قد خلطَنى بأهل صنائعك، والخاصّة من ثِقاتِك، وبَسَط أملى فيك الى غاية خير يُرتجى، أو جزيل حظّ يُؤمّــل .

فصـــل — ليس يَسُوغ لأحد فى الأمير أمَل، ولا يتوجّه اليه منه رغبة، ولا يلزمه فى قضاء حقه، ودنانة[2] مؤونته إلّا وفضلُه مستغرِق لها .

فصـــل — من أحمَـد الأمور وأجمل المذاهب، ما كان آخِرُه موصولا بأوله ، ومؤديًّا بَدْؤه الى حَمْد عاقبته ؛ فحافظ على الأمور التى حَسُن فيها عنـد أمير المؤمنين أثرُك ، مستقِلًّا فيها لكثير ما يكون منك ، مُعْتَدًّا بها فى النعم عندك، والإحسان الواصل اليـك ، فيما يوفقك الله له منها ويخصّك به من الفضل فى آختيارها ، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك، ويستمتعه فى النعمة فيك .

فصـــل — قد كان يجب أنْ تجعلنا بمتابعَة النّعم علينا فى خاصّـة الشاكرين لفضلك، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات الينا فى عامّة الشاكين لك .

(١) بياض فى الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «بحاجتى» . والظاهر أن كلمة «محدّد» محرّفة عن كلمة «مجد» .

(٢) كذا بالأصل .

فصـــل — علمي بما بنى الله عليه أخلاق الأمير أكرمه الله، وجعل عليه رأيه فى بسط العدل على رعيته، وبثّ الفضل على ملتمسى فضله. يبعثنى على الكتاب فى مثل ما كتبتُ إليه فيه، من ظُلامة مظلوم يستعيذ فيها بعدله، وحاجة ملهوف يرجع فيها الى فضله؛ فأجمعُ الى ما ألتمس من الثواب فى ذلك موافقةَ رأى الأمير، وإذكارَه ما يجب أن يذكَّر به؛ فزاد الله الأمير من نعمه، وأوزعه من الشكر عليها ما يُوجب له تتابُعَها عنده، وترادفَها له .

فصـــل — أنت والحمد لله ممن احتمل الصنيعة . وقبل الأدب . وصدق المخيلة وخلص على المحنة وحسّن الظن؛ فاستقامت طريقتُه وقدمه جميلُ مذهبه وآثاره . وجرت على قصد السبيل طاعتُه، واشتدّت على السريرة والعلانية مُناصحتُه ، فأصبح أمير المؤمنين لا يتناهى فى برّك وتكرمتك، إلا رآك مستحقًّا لها ولما فوقها . ولا يرفعك الى درجة إلا رآك أهلا لأشرف منها، صُنعا من الله لك بما وفّقك له من طاعته . ووهب لك من جميل مراتبه، والمكانِ منه والأُثْرة عنده .

فصـــل — فضلُ مشاركتنا إياك فى محبوب الأمور ومكروهها يحملنا فى السرور بالنعمة عندك — جدّدها الله لك — ويوجب الشكر بما يكون حقّها قاضيا . وللمزيد فيها موجبا .

سَعيد بن حُمَيد — شُغُلك يقطعنا عن مطالبتك بالحقّ فى جوابات كُتُبنا إليك، وصدقُ مودّتنا لك يمنعنا من التقصّى فى الحجة عليك . ومن يكُن فى رأيك فإنه لا يبقى بك إلا لك : صلةَ إخوانك والتعاهد لهم من برّك، بما يُشبه فضلك والنعمةَ عليهم فيك .

وفلان بينى وبينه مودّة أقدمه بها على الأُخوة ؛ لأنك تعلم قربَ ما بين المودّة والقرابة . وقد بلوته على الحالات كلها . فلم يزدنى اختبارُه إلا اختيارا له . ولا أعلم بالعسكر جليلا إلا وهو لى صديق ، يَشكُر بشكره ويُوجب على نفسه المِنّة فى ما أتى إليه . فأمّا من بين إخوانه فلست أعدِل عن قضاء حقّه . ولا أتأخّر عن معروف أُسدى إليه . فإن رأيت أن

تُحِلّه بالمحل الذى يستحقه بنفسه وسَلَفه، فوالله ما رأيتُ سُوق الاحرار أنفق منها عندكم أهلَ البيت، أبقى الله تبارك وتعالى باقيَكم ورحِم ماضيَكم .

فصـــل — إنّ أحدا ليس بمستخلِص شيئا من غَضَارة عيش إلّا من بين خِلال مَكارِه، فمن آنتظر بعاجل الدَّرك آجِلَ الآستقصاء سَلَبته الأيام فُرْصته ، لأن مِن صِناعتها السَّلْبَ، ومن شَرْط الزمان الإفاتة .

فصـــل — إنّ الأمير قد جَلّ فضلُه عن أن يُحيط به وصف، أو يأتىَ على تَعْداده اجتهاد، فلو كان شىء أكثر من الشكر لكان الأميرُ يستحقه علينا، ويَستوجِبه مِنّا .

فصـــل — قد أصبح المختلفون مجتمعين على تقريظه ومدْحه، حتى إنّ العـدوّ يقول آضطرارا ما يقوله الوَلِىّ آختيارا، والبعيـد يثِق من إنعامه علينا بمـا يثِق به القريبُ خاصّـا .

فصـــل — المـآملون اليه بين نِعَم مُكتنِفة من تالدٍ به يَستدِيمونه، وطارِف منـه يَستعيدونه، ومواهبَ متجدِّدة، وفوائد مُتُرادفة، هى مبسوطة به الى بركة أيّامه، وعُلوّ حظّ[1] مَن آتصل به، فزاده اللهُ من فضله، وزاد أولياءَه به و ببركة دولتَه .

فصـــل — آعتمدتُ أخًا لا يُذَمّ إخاؤه، ولا تُنكر أحواله، على بعد الدار وقُربها، وآتصال المكاتبة وآنقطاعها، تجده مُتَصرِّفا معك فى الخطوب التى يَطْرُق بها الزمانُ، ويَدًا لك فى الأمور التى يُمتَحن فيها الإخوان .

فصـــل — أسأل الله أن يجعـل ما تَطَوّل به فيه من الجلالة فى القلوب والعيون عند الوَلِىّ والعدو موصولا بالإنساء فى مُدّته، والإدامةِ لعزّه وسلامته، والأعلاء ليده وكلمته .

أحمد بن يوسف — عندى فلان وفلان، فإن كنّا من شأنك فقد آذنّاك .

فى صفة حَرْب — كانت لكم الكَرّة، وعليهم الدَّبْرَة، فحملوا حَمْلةً كاذبة، أتبعناها بأخرى صادقةً .

(١) فى الأصل : «حظه» والسياق يقتضى ما أثبتناه .

فصل في هَدِيّة — قد أهديتُ اليك من فنون كلامي وعيونِ مَقالي، دفترا ظريف المعاني، شريفَ المباني، فصيحَ الألفاظ، يَلَذّ بأفواه الناطقين، ويلين على أسماع الصّامتين.

فصل في شَفَاعة — لفلان قِبَلك حاجة، ليس يحتاج فيها الى مَعْدلتك وتصفّحك المبسوطتين لمن لا يتوسّل بخُلْطتك ومعرفتك، ولكنّه يريد ما في ذلك العدل والإنصاف من الرفق والإحسان المَذْخورين للخاصّة والإخوان.

فصل لرجل تميميّ — ضَعْف حالي يدعوني الى كثرة الطلب، ومَعْرفتي بجميل رأيك تحجزُني عن الإلحاح عليك، خوفًا أن أكون جاهلا بعنايتك، وحسن نظرك. والكرم يستحي بعضُه لبعض، ويبعَثُ بعضُه بعضًا، ودين حيلته الغير على العقود. بعثه كرمه للنهوض، أو دعاه هواه الى المنع، بخاه عقله على البذل. وحالي جامحة لدى فضلك ونعمة الله عليك من سدّ خَلَّتها، ومداواةِ عِلّتها بجاهك الواسع، ورِفْدك النافع.

أحمد بن يوسف — قد بذلتَ لنا من نفسك أعزَّ مبذول وأنفسه. وللمودّة التي كلما يُحْمد من صاحبها. فهو لنا نافع. وثقتُنا بك واستنامتُنا الى ناحيتك، على أحسن ما أكّد الله بيننا وبينك. وإن كان مدى اللقاء بيننا لم يَطُلْ فأقلّ منه ما يرعاه أهلُ الوفاء والمُخالصة، ويقصّر في المحافظة عليه وعلى أكثر منه، من دَخِلَتْ نيّته، وضَعُفت خُلّتُه.

فصـــل — قد أصبحتَ لخاصّة عُدّة، وللعامّة عِصْمة، وللأنام ثقة في [illegible].

فصل في الصفح لأبي علي — [illegible] لدى فَرَطَ منك. وإن تجوزَ عني ما أرضاه لك، لم يبلغ ما يُغضبني عليك. وحيث انتهى ما يخالفني من قولك وفعلك. فإن وراءه تغمّدًا منّي لإساءتك وصَفْحًا عن زلّتك. فإن تأمَنَّا لا نَخُنْك. وإن يسؤْ ظنُّك فإنما نحتاج الى إصلاحه منك.

أحمد بن يوسف — الى ابرهيم بن المهدي في هَدِيّة استقلّها :

بلغني استقلالُك لما ألطفتُك. والذي نحن عليه من الأنس مهّل علينا قلّة الحشمة لك في البر، فأهدينا هَدِيّةَ مَنْ لا يَحْتَشِم الى مَنْ لا يَغْتَنِم.

كتب عَقّال بن شَبَّة — الى خالد بن عبد الله فى شفاعة :

إنّ الله انتجبك من جوهرة كرم ومَنْبِت شرف، وقَسَم لك خَطَرًا شَهَرته العرب وتحدّثت به الحاضرةُ والبادية، وأعان خَطَرك بقُــدرة مبسوطة، ومَنْزِلة ملحوظة؛ بجميع أكفائك من جماهير العرب، يعرف فضلك، ويسرّه ما خارَ الله لك، وليس كلّهم أدالَه الزمان ولا ساعده الحظّ؛ وأنت أحقّ من تَعَطّف على أهل البيوتات، وعادَ لهم بما يُبقى له ذِكرَه ويُحسن به نَشرَه مثلُك . وقد وَجّهتُ اليك فلانا، وهو من دِنية قرابتى، وذوى الهيئة من أسرتى، وعرف معروفك؛ وأحببتُ أن تُلبسه نِعمتك وتصرِفَه الىّ وقد أودعتنى وإيّاه ما تجده باقيًا على النّشر، جميلا فى الغِبّ .

فصـــل فى التـــوديع

أســتودعُ اللهَ الأميرَ بأحسنِ وَدَاعه، وأساله أن يجعــلَه فى كَنَفه وحِرْزه، فقد أكرم المثوَى، وأحسن الابتغاء؛ فأطال الله له البقاء، وأدام عليه النَّعماء .

فى الصـــفح

بلغنى كتابك، تذكر كتابى اليــك بوضعى عنك مَوْجِدتى، وردّى لك الى أحسن ما عَهِدتَ من منزلتك عِندى، وقد حَلَلتَ منّا المَحَلّ الذى خلطناك فيه بأنفسنا، وأدخلناك منــه مداخلَ أهل ثِقتنا، ولستَ تُؤتى من جهالة بما أنت فيه، ولبعض ما أنت عليه من التجارِب تُستفاد بمثلها العِبَر، ويُنْتفع بها فى عطف الأمور .

جواب فى فتح

كتب سالم بن هشام الى يوسف بن عمر حين قَتَل زيد بن علىّ رحمة الله عليه :

قد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك بما أبلَى الله فى مِذْره الســوء، وأنّه لمــا عضّتهم الحــرب، وآلمهم الحديد، عادوا بالمسجد الجامع، قد أكذَب الله ظنونهم، وخَذَل مَخرجهم، وقتل إمام ضلالتهم، وحفِظ لأمير المؤمنين ما ضيّعوا من حقّه، وحاط له ما أباحوا من الغــدر فيه، وقد رأى أمير المؤمنين أن يجعل من شكر الله على نِعَمه، الصفحَ عنهم، وتغمّد حَرَبِهم

وأن يعمّهم من عدله، بما يردّ به الجاهلَ عن جهله، والغوىّ عن غَوايته، ويعلمون مكانه من الله، واستجابتَه لعزّه ونَصْره، وأنه الخليفة المُتّقِى، والإمامُ المُتألف، وأنه يُقــدّم العفو فى الطاعة، على الحُجّة فى العُقوبة، والحِسْبَة فى الاستصلاح، على القوّة فى التأييد، فأمسك عنهم بيدك، فإنّ أمير المؤمنين قد وهب ذلك كلّه لله، ورجا به ما ليس ضائعا عنده من ثوابــه .

فى الصفح عن الجفاء

لو كان من نازع الى الغدر، قلّدناه عِنان الهجر، لم يكن أقرب منا الى الذنْب، ونحن نردّ عليك من نفسك، ونأخذ لنفسك منك، حتى يكون تركنا إياك، وعذرُنا فيه وافرا .

فصـــل — الحمد لله على البليّة التى طال أمدها، وبعُد ما بين طَرَفَيها .

آخــــر — اَقتفرتَ فى التثبّت أناة ذوى الحِجَى، وقدّمتَ المقــدّم من الأناة على العجلة، وأطعتَ فى أمرك النِظرةَ، وانتهيتَ الى العُــذْرة والمعرفة، فملكتَ ما مَلّكك، وحكمت على الذى حكم عليك، فأخذتَ مثل الذى أعطيت .

فصـــل — بدءُ أســباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها، والخِيرة بعــد الله عزّ وجـــلّ .

فصـــل اعتـــذار

لو كان الناس يَقضون الحقوق التى تجب عليهم، ويحافظون على الأمور التى تلزمهم، لقلّت اللائمــة، وخلصت المودّة، وارتفعت أسباب العتاب، ولكنّهم عجزة منقوصون، يضعُفون عن العلم، بأكثرَ ما تدركه عقولهم، وتعوقهم عن ذلك أشغال لا يجب بها العذر، ولا تســتحقّ الإيثار، ولم أزل عاتبــا على نفسى فيما ضيّعت من مكاتبتك، مع معرفتى بفضلك، وموقع ذلك عنــدك، وما اعتذارى اليك، سوءُ ظنّ بك، ولا مخافةً للائمتك، ولئن فعلتُ ما ظَلمتُ، غير أنّى أحببتُ أن أكفيَك المؤونة، فيما عسيْتَ أن تنقبض عنــه من مقايستى ومعاتبتى، وأنا أحب أن تقبل العذر، وتعينَ على مستقبل البرّ .

فصـــل — أنت فى زمان إن لم تغالط أهله ، وتختلهم على ما فى أيديهم ، وتصبرْ على مكاره الأمور بعد المطالبة ، لم تصل الى شىء ، ولم تجد أحدا ما على فضل منك وإن عرّفه فيك ، ولم يفتــه من محاسنك شىء ، إلّا رأى فى مساوئ غيرك عِوَضا منــه ؛ فكان بذلك أثلج ، واليه أسكن ؛ فعليك بالصبر ، فإنّ غايتــه الى خير ، وأقل ما فيه أنّ صاحبه لا يلوم نفسه ، ولا يلومه أحد ، ولعلّ يظفَر أو يدلّل .

الى المأمون من عامل

قلّ مَن يسارع إلى بذل الحق من نفسه ، إذا كان الحق مُضرّا به ، وقلّ من يدع الاستعانة بالباطل ، إذا كان فيه صلاح معاشه ، وسببُ مكتسبه ؛ واذا تفرّق الحقُّ فى أيدى جماعة فطولبتْ به ، تشابهت فى الكُرْه لبذله ، وتعاونتْ على دفعه ومنعه ، بالحيـل وبالشُّبَه قولا وفعـلا ؛ واحتاج المُبْتلَى باستخراج ذلك الحق من أيديها ، الى استعمال مجاهدتها ومصابرتها على الحيلة فى مدافعتها .

ابن الكلبىّ

كان خبر ما أبلاك الله فى فلان بعـد أمانه ما عزمتَ عليـه من الأمان ، خَبَرا عظم مكانُه من أمير المؤمنين ، وحسُن موقعُه من الدِّين ؛ ثم ردَف خبرَك بإذعانه عنـد ما عضّه من بأسك ، ومسّه من مُؤْلم إيقاعك للاستسلام ، وطلبِ عقـد الأمان ؛ وإنّك بذلتَ له ما طلب لا لِرهبـة بقِيَت فى ناحيتك ، إلّا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه ؛ فكان إباؤه ما عرضتَ عليـه فى أوّل أمره ذخيرة حظّ فيما كشفتَ عنه البلوى من محمود أثرك ، واجتمع لك فى ذلك حظان : الظفَر آخرا ، والدرْك لمـا حاولتَه أوّلا ، فلا زلت على نصيبك من الحظ ، مؤيّدا بالنصر والمَعُونة ، والحمد لله على ما حقّق من الظن ... [1] من هذه النعمة على يديك وبسعيك .

---

(١) بياض فى الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «ورَّثَ» .

ابراهيم بن اسماعيل بن داود الى ذى الرياستين

وصل الىّ كتابك بخطّ يدك المباركة، فلم أر قليلا أجمع، ولا إيجازا أكفأ من إطناب، ولا اختصارا أبلغَ فى معرفة وفهمٍ منــه ؛ وما رأيت كتابا على وَجازته، أحاط بمـا أحاط، وضربتُ ظنّى فى فلان فعظّم ذلك سرورى ، وقد يُسْتعطَف الظالم ، ويُستعتب المُتَجَنّى؛ وفى رفقك وعِلْمك بالأمور ما يُصْلح الفاسد، ويُذَلّل الصعب. ويُقْبِل المدبِرَ ولا يمنعنّك جور من جار عليــك ، من الاعتقاد فى الحُجّة عليه، والأخذ بالثقة فى أمره، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل عليك فى ذلك مَنْقَصة ولا غَضاضة، بل فيه الإعذار والإنذارُ والاستبصار، وقضاءُ حاجة النفس، مع التأدية الى السلامة، والأمنِ من الندامة .

فصـــــل — أنا فى حال عافية، تجاوز الى حال نِعْمة، والحمدلله حتّى يرضى، فقد أرضى؛ فامّا ما أشرتَ به، وخبّرتَ من إمضاء رأيكَ فيه، والإمساك عنه، فتلك جعــل لمن نصحه شَركاء فى كلّ أمره، ولم يجعل رأيَه فَرْضا لبعضــه أن يتعدى[1]، وذكرت أدب فلانَةٍ ، وعنــدنا لفلانة الطمع المستقبَل معَ الإنعام المتقــدّم ، مع أنّه لا شىء لهـا عندنا قلّ ولا جلّ، ولوكان ما استحللنا حبسه صَفْقةَ كفّ، ولا تغميضَ طرْف؛ وذكرتَ أنّه لا يستغنِى مثلنا عن مثلِها ، وأبدال الله كثيرة عتيدة، وما بان علينا فَقْد أحد ممّن كان قبلها فى دارنا، لحال بيننا وبينه حائل، ولا اختللنا له مع نظر الله تبارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد هذا فأحسن الله جزاءك ، وحاط لى فيك ما أُحبّ منك، وكفاك المُهِمّ وكفانيه بك، فمـا تقوم نفس لو كانتْ لى أخرى مقامَك فى نصيحتى و بِرّى، والاهتمامِ لى، بما أنا عنه ساهية لاهية من أمرى، لا أَعْدمنيك الله ولا النصيحةَ منك .

فصـــــل — قال أبو جعفر الكِرْمانى للحسن بن سَهْل ووعَده شيئا فأبطأ عليه :

أنا أعرِف تكامل الثقة فيك، ورجاحة الفضل بك، وأعلم أنّ فعلك يُربِى على قولك، وأنّ إنجازك أكثر من وعدك ؛ فقدّم لى من كرمك ، ما أُثمّره إلى أن[1] يلحقه المتأخر

---

(١) بياض فى الأصل، وما وضعناه يناسب المقام .

عنه ، وإلا فَدُلّنى على ما أقول اذا سألنى مَن بعثته على شكرك ، عما بلغه من الحفظ على نيتك .
فقال الحسن : تقول ما يَنْبغى . فقال : فافعل ما يَنْبغى أقله .

عمــرو بن مَسْعَدة

وصل الى كتابك ، على ظمإ منّى اليه ، وتطلّع شديد ، وبُعْدَ عهد بعيد ، ولوم منّى على ما مستنى به ، من جفائك ، على كثرة ما تابعتُ من الكتب ، وعدمتُ من الجواب ، فكان أوّل ما سبق الىّ من كتابك السرور بالنظر اليه أُنْسا بما تجدّد لى من رأيك ، فى المُواصلة بالمكاتبة ، ثمّ تضاعُف المَسرّة ، بخبر السلامة ، وعلم الحال فى الهيئة ؛ ورأيتك بما تظاهرتَ من الاحتجاج ، فى ترك الكتاب ، سالكا سبيل التخلّص مما أنا مُخلِّصك منه ، بالإغضاء عن إلزامك الحجة ، فى ترك الابتداء والإجابة . وذكرتَ شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكنة ، لا أُجشّمك متابعة الكتب ، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب ؛ ويُقْنعنى منك فى كل شهر كتاب ، ولن [تُلْزم](١) من نفسك فى البرّ قليلا ، إلّا ألزمتُ نفسى عنه كثيرا ، وإن كنتُ لا أستكثر شيئا منك . أدام الله مَوَدّتك وثبّت إخاءك ، وأسمح لى منك ؛ فرأيك فى مُتابعة الكتب ومحادثتى فيها بخبرك مُوَفّقا إن شاء الله .

عيسى بن واضح الى الفضل بن الربيع

قد أكد الله من حُرْمتى بك ، ووصل من الشُّعَب بينى و بينك ماجعله ذخيرة ليوم الحاجة ، وعُدّة عند مُلِمّ النازلة .

جبل بن يزيد

أما بعد فإن مَن صحب الدنيا لم يخلُ مِن تصرّف أحوالها ، وكثرة مَعاريض فجائعها ، فى اخترام الأنفس فى خواصها ، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يَهُدّها ، ويفر من الأشياء عليها ؛ وكان ذلك لا سبيل الى دفعه ، ولا حيلة يُستعان بها عند نزوله ، إلّا الرضا عن الله عزّ وجلّ فيما قضى ، والتسليم لأمره فى كلّ ما أتى ، والسكون الى الأُسْـوة التى نَهج الله سبُلها ، وخفف

(١) السياق يقتضى وضع هذه الكلمة ، وهى متروكة فى الأصل .

بها مواقعَ المصيبات على أهلها، ثم الرجاء بعد ذلك لحُسْن ثواب الله، [وقد] جعله الله لمن لزِم أمره وأجشمَ نفسَه مكروهها فى مواطن الصبر على المصيبة، والشكر فى حال العافية .

وله فى المطـــر

قد كنتُ كتبتُ الى أمير المؤمنين أُعلمُه المَطْرَةَ التى أصابتنا، وما أنزل الله بها من رحمته ثم عادتْ لنا بعدها من الله عائدةُ رحمةٍ، بوَلِيّ مَطَرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر وابلا جَوْدا، لا يفتر غزيره ولا يَرْعوِى جَوْدُه، إلّا الى دِيمة عن دِيمة، يتراخى اليها يسيرا ريثما تعود، فأقامت علينا سمـاؤه مُستهلة بذلك وكذلك الى غروب الشمس، ثم انقطع مطرها بسكون من الريح، وُدُور من القَتر، وفضل من الله عظيم، يَنشُر به رحمته، ويَبْسُط به رزقه، فأسبغ النعمة، وأوسع البركة، وأوبَق بحمد الله معارف الخِصْب والحمى. والله محمود على آلائه ومشكورٌ على بَلائه، وما أنزل الله من سُـقياه و رحمته، بعـد الذى أقبلتْ به السنة البرية والقحطِ وعدم الإمطار، وشدّة ما بلغ الناس من القنوط وسوء الظنون .

وله الى بعض إخوانه

أما بعد، فإنّ أعظم الأمور فيما بين الناس حقا أمران: منهما الإخاء فى الدين، فهو سبب وصيّة الله بين عباده بالأُلْفة والمحبّة التى اقطعت بها قرائنُ القلوب من بعضهم الى بعض، فاتّصلت بحبائلهم مَرائِرُ حبلها، وتقطّعت فيما بينهم عاطفاتُ وصلها؛ ومنهما مجاملة جميل الأعداء، وحفظُ ما يحِق لأهل حسن البلاء؛ ثم الصَّنائع بعد ذلك فى مواقعها فضائل بقدر ما جرتْ به أسبابُها ولطُفت مداخلها .

فصـــل — الصناعة ليست يزيدها الأخلاقُ الجميـلة ، ويزيد فى أسبابها أَواصر المودّة؛ وقد جعلك الله فى صناعتك مُقدّما، وفى مودّتك مُتفضّلا؛ فلا زالت عنك نعم الله، ولا برِحتَ سكنًا لإخوانك، وأُنْسا وموضعا لمـا تَسْتميحون من معروفك، ويَسْتَميرون من يدبّـــرك .

فصل — إنّ لك من قلبي لموضعا معمورا بالمودّة والثّقة، والاسترسال والأَنَسة، فلا تُخرج فلانا من سعة جميل برّك، الى عُقْبى استحقاقه .

آخر

قد طالتِ الصبابة اليك، وللدهر عُقَبٌ عائدة بالنفع والصنع، ولا سيّما لمن كان على مثل شاكلتك فى أدبك وفضلك و إنصافك إخوانَك وبِرّك بهم، وما توجبه على نفسك لهم مما يُقصّرون عن شأوك فيه .

الكلبيّ

كان أسلافنا تقارضوا دُيونا من الصفاء يَستأْدِيها كل عَقِب من صاحبه، وقد أورثونا مودّة لا نَعجزُ عن اكتساب مثلها .

ابن أَعْيَن كاتب الخَيْزُران

ليس يكون منك شيء و إن حسُن، إلا وحُسْن ظنى بك يَبلغُه، فاستتِمّ أحسنَ ما كان منكَ، يتمّ لك أحسَنُ ماتُحِب منّى. ولا يَمنعنك الاكتفاءُ بحالك اليومَ من طلب الزيادة فى غد، فأنّه لقَلّ شيءٌ لا يزيد إلّا نقَص، والزمان يمحق الكثير، كما يربو على الزيادة القليلُ .

ابن الكلبيّ

أنت مَن أطُول بمكانه وأثِق بجميل رأيه، وأعتمد على رِفده، وأرجو دَرْك كلّ فضيلة به، ومما أُحب علمَه مَقرّ نعم الله عز وجل لديك .

علىّ بن عبيدة الى ابن الكلبيّ

وصل الله أيّام عُمْرى باتباع موافقتك، ولولا موعد أخذ علىّ، لأطعتك فيما أمرتَ به، مُتّبعا مع إجابتك سرورَ نفسى برؤيتك فى السلامة .

أما بعد، فإنى أصبحتُ وقد استفرغ الأميرُ منّى كلّ مودّة ونصيحة، ومبلغ جهد وطاقةٍ فيما عرفتُ له فيه موافقة .

فصـــل — فإنّ الذى شعّب الله بيننا من التواصل والتكاتب، يدعونى الى متابعة الكتب اليـك فى تعهّد حقك ، وإن كان الخبر عن ظاهر الحال قلّمـا يُغْنى، فإنّ له من الأُنْس والموقع فى الكتب ما ليس لمُسْتَعرضات الأخبار .

فصـــل — قد كنتُ أعلمت الأمير انقطاع بنى فلان الى فلان ، بأهوائهم وبصائرهم وشراء ما قِبَـله بغيره، (١) وما كان وصل الينا فى ذلك من الأمور التى حملوا إصْرها، وبَقِى لنـا أجرُها وذكرها ونافلتها وسابقتُها ، فنحن عدد الأمير وخَباياه وذخائرُه، ومَن يأمل يومَه وغده، ولا مُتَخطّى له عنه ولا مقتصر دونه .

عُمـارة

بلغنى كتابُك يصف كذا . فإن رأيتَ ألّا تعتمِـد على ما لصقت [به] من عذرك. وأطعتَ فيه الهوى من قبول عفوك، وتجعلنى أحدَ مَن يُسرّ بسرورك، وتُشركه فى مُهمّات أمورك، فإنى أحدُهم وأوسطهم عِناية بمـا عَناك وتوسّطا لمـا عراك، فعلتَ .

فصـــل — والدنوّ من دارك إذ الدار جامعةٌ والحبل مُتّصِلٌ، إذ نحن فى الاستيفاء بالخبر والعـلم بدِخْلَة الحال، بمنزلة من كأنّه يُعانى مَن يشتاق اليـه ويصبو به فى كل يوم، حتى نأتْ النوى، وأنتَ فى اللقاء والإنظار فى كلّ أمر وعلى كلّ حال مَن لا يُشَكّ فى صفاء غيبه، وصدق إخائه .

فصـــل — مُشاركتنا إيّاك فى محبوب الأمور ومكروهها يحلّنـا محلّك فى السرور بالنعمة يجـدّدها الله لك ، ويُوجب من الشكر علينا (٢) مثل الذى يوجب عليك . فوَصَلَ اللهُ كل نعمة يَهَبُها لك من الشكر بما يكون لحقّها قاضيا، وللمزيد فيها موجباً .

سعيد بن عبد الملك

كتبت على شُغْل فى قِطَع من القِرطاس، ولم يقطع بى حسنُ الظنّ بك فى قبولك العذر، وتحسينك ما أنت أهلٌ لتحسينه؛ فإنك تقبل دون حقك، وتَهَب الذنب فيه، فيكون شكرُك

(١) فى الأصل : « ... وسراء ماقبله ... » : (٢) فى الأصل «عليها ... » وهو لا يؤدّى الغرض المراد .

جاريا على سبيلين، كلاهما يُبين لكَ عن فضلك، ويوجب لك مالا يَقْصُر معه إلّا مغبونُ الحظ خسيسُ النصيب .

فصـــل — وقد ظهر من أمير المؤمنين فى فلان بعد وَفاته، ماهو أعدلُ شاهدٍ على حسن مُنْقَلَبِه ، ورَدّ اليك من رأيه وتفقّده ما أرجو أن يكون فيــه أعظمُ العِوَض . والله أسأل أن يتولّى لك أمورك فى السرّاء والضرّاء، والشدّة والرخاء، والشكر وحسن العزاء .

جبل بن يزيد الى بعض إخوانه

تمّم الله علينا وعليك النعم ، وأجْزَل لنا(١) ولك محاسن صالح القِسَم . إن الله تبارك وتعالى أجرى بيننا و بينــك لطيف مَوَدّة، وخاصّ أُخوّة ، غيرَ أنّ المعرفة قد تُحمد بعــد الخبرة ، والثقةَ إنمــا تعرف بعد التجرِبة، وقد أحببتُ أن يعلم مَن قِبَلك(٢) الذى أحدث الله لك مِن حال دولتك ، وأنْ يُعْلَمَ هلْ أبقتْ لنا منك النعمةُ سَعةً، أم تركتْ لنا منك صَفْحةً نعرِف بها عهــدك ونأمُلُ بها وصلك؟ فإنّ أصحاب السلطان ، بحال بَلْوَى فى التغيُّر والانتقــال ، إلا من نالته من الله تبــارك وتعالى عصمة . فإنْ كنتَ على ما رجَوْنا من الوفاء، وحسنِ الحفظ للودّة والإخاء ، فمثلُك لم يرض لنفسه إلّا بأجمل الأخلاق وأوفقِها للســداد . وإن حجزك عن ذلك ما تأتى به الأقدارُ فى مُتَصرَّف الليــل والنهار ، نَعذرْك بمــا نَعذر به أهلَ السلطان، اذا غيّرتهم الحالُ، وتنكرت شمائلُهم بين الإخوان .

وله الى بعض إخوانه أيضا :

اِعلم أنى اليك مشوق، وأنّ صِــلةَ الإخوان كرَمٌ ، وخيرَ الصِّلات ما لم يكن لها وجه إلّا الرجاءُ والحفظُ وتجــديدُ المودة وتصحيحُ الإخاء ؛ فإنّ الذى يكاتب إخوانه على حال الرغبــة يكفى القائلَ كتابه حيث شاء ، إن أحب مال به الى الصحة ، وإن شاء وضعه للرغبة، والرغبة أملكهما(٣) به . والذى يكاتب إخوانه على حال الضرورة، فقد يستقطع الصِّلةَ

(١) فى الأصل : «وأجزلنا ...» . (٢) فى الأصل : «ما قبلك» .

(٣) فى الاصل : «وأملكها ...» .

عنـد الحَدَث مخافةَ الملامة[1] من الناس على القطيعة الشّنعاء المشهورة لإخوانه ؛ فإنّ الذى لا مَودّة له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء .

والكِتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهدٌ على أن ذلك ليس إلا صِحّة الإخاء والشوْق الى المحـادثة بالكِتاب ، حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البـلاء تلك اللائمة على التقصـير، ولا يُوضع منك الرغبـة فى الإطماع . إيّاك أن تعتلّ بالأشغال أن كنت فى خاصة نفسك، فإن أداء الحق وصِلةَ الإخوان أعظم الخاصّة بك خاصة. وانما أمرنا فى كل هذا كأمرك فى الذى يَسـتغنِي مِن خاصّتك تلك التى لنا، فإن لنا ما لك، وهذه التى لنا لك ؛ أليس ماسرّنا سَرّك وما سلبناه حظا لك، فهذه كذلك وذلك كهذى . والله يوفّقنا و إيّاك . وأنت أبا يوسف . هكذا حال ما بيننا و بينـك ما وصفتُ لأبى سـعيد ، غير أنّه سألنـا أمرا لم يسألناه قطُّ، فله فضـل السبق علينا فى المسألة ، ولنا فضـلُ المنزلة عليك فى اللائمة . ولن أَدَعَك والفعلَ ، دون أن تَشْفَعه بالعمل الذى هو صلة القول . وسلام عليك ورحمة الله، وقضى الله عز وجل بالحُسنَى لنا ولك .

فصـــل — أتانى كتابُك، فأنعمتُ أن يَسرّنى بسلامتك، وما حاق فيه كرمُ بِرّك، ولطيفُ عِنايتك، مالم أفقِد فى حالةٍ مِن حالاتك، فكان الكِتاب مُصدّقا لمـا سلف، مُبشّرا بما يستأنف، مُذكّرا منك عهدا موصو[2] مثاله طرفى وقلبى، مُلْصقا ذكرُه بلسانى وقلبى . فلا عِدمتُك، بل أمتعنى الله بك فأطال، وكثّرنى ببقائك .

فصـــل — أتانى كتابك فطامن قلبى وطرفى، بعد ما كان شاخصا اليه. مُتشوّقا الى رؤيته، ثم ملأنى سرورا ما رأيتُ فيـه من آثار بِرّك وكريم تفقّدك . وأفضل ما عندى منك قِبَله ، مما إنْ ذكرتُه، فللاستراحة[3] الى الذكر، وإن أمسكتُ: فللعجز عن الشكر. فأمّا الضمير فمبنىّ على الإقرار بفضلك، والنيّةُ خالصة بشكرك . وقليـل ذلك لك: فأعطاك الله فأطاب، ووهب فأجزل .

---

(١) فى الاصل : «مخافة السلامة من الناس...» . (٢) فى الاصل بياض . (٣) فى الأصل : "فالاستراحة..." .

فصـــل — وصل الىّ كتابك فخُيِّل لى حين نظرت الى أثر يدك تجرى قلمك فى بطن صحيفتك، أنك ماثل بين عينىّ: أنظُر الى شخصك وأسمع من لفظك، فابتعث ذلك منى طربا شائقا، وصبابةً هيّجت الأحزان وذكّرت الإخوان. وكنتَ من إخوانى الذين أتخفَّر بسلامتهم للوُدّ الذى أجرَى الله بيننا وبينك، فتواصلنا بحرمته، وتعاطفنا بوصله.

فصـــل — إنّ الله جعل عاقبة كلّ نعمة وإن عظُمت، تبعا لأوّلها، وجعل الشكر عليها سببا لتمـامها ومُوجبا لأحسن الزيادة منها.

فصل فى شكر — فإنّ الله جعلك للخير معْدِنا، وللفضل موضِعا، فيما حمّلته نفسك من ثقل أعباء المُرُوءة، وحَمَلتها عليه من عِظام المكارم، حتى صِرْت بما أنعم الله به عليك، مُنتهَى كلّ أمل وغايةَ كلّ رغبــة. ثم ألبَسْتَ النعمةَ لباسَ التواضع، وناسبت فى الأخلاق مَنْ سبقت به عليك الأمور، حتى كأنهم فى النعمة لك شركاءُ. وتحنّنت على الأقربيــن والمُتقرّبين من الاخوان والأكفاء، حتى كأنهم لك ولدٌ، وأجبرت نفســك حين ساعدك الدهر، على طبيعة التقرّب الى العامة؛ فكلّهم يُدلِى اليك بدَلْو رغبته، ويمتاح منك مَتَّاحة فضــل؛ فلا عَدِمتُ ألّا تزالَ تُنعِش سَقْطة، وتُقيل عَثْرة، وتَسُدّ خللا، وتُنِيل أملا؛ ولا عدِم مَن شهِد ذلك منك. أن يَسْتَتِمّ هذه النعمةَ عليك وعلى نفسه؛ فإنّ من سعادة العامة أن يجعَل سادَّها عنــد خِيارها. ومن البلاء العظيم عليها المُوجِــع لهـا. أنْ يخُصّ شرارُها بموضع رغباتها.

فاسـلَم كلأك اللهُ بهذه النعمة. غيرَ مُنَغَّص بهـا، ولا مُكدّر عليــك صفوُها[1]، حتى تُسلّمك النعمةُ العاجلةُ الى النعمة الباقية؛ فإنّا وإن علِمنا أنّ من شأن الدهر الغَدْران فى العواقب فقد علِمنا أنّك فيما أهدى الله اليــك من النعمة، قد أدّيتَ حق الله عز وجل ثمّ حقّ إخوانك فيهـا. فكنتُ أخرَمَن نال فضلك، كرما فى السناء، ورِضا فى الأَثَرة، غيرَ مُتَطاوِل لِمـا تأمل، ولا مُتَضعضِع لمـا تحذر؛ فإنّا نجزى شكرَ المـاضى منك، ورجاءَ الباقى،

(١) فى الأصل: "ولا مكدر عليها صفوها ...".

فنرى تضييعا منا فى عَقْد الرأى، وإزراء بنا فى وثائق الأمور، ألّا نمنحك من أنفسنا مَودّة الولد ورقّة الوالد. وإذا أعطاك امرؤ ثمرة فؤاده، فقد فرّغ اليك من جميع حقّك، لأن ذات يد امرئ فى البذل أهون عليه من ذات نفسه فى الشكر. وكفى لامرئ من امرئ أن يستولِىَ عليه حتى لا يدَعَ لغيره فيه فضلا. وكفى بك لنا من غيرك. وكثير منّا أن نقوى على أداء أدنَى صنوف حقّك، غير أن أوثق أمورنا فيك عند أنفسنا ألّا نسأمَ النظر الى فِنائك بهَجِين بك إن بَرزتَ، وعاذرين لك إن شُغِلت.

فصــــل — إنّ الهدى والضلالة يقتسمان دُوَل الأزمنة، لغير كرامة للباطل، ولا هوان للحق. وأهل الحقّ كيف تصرّفت أحوالهم فى كرامة من الله عز وجل، ونعمة بين دولة تكون لهم، يَقومون لله فيها بحقّه ويُظْهِرون هداه ودينه، ودولة تكون للباطل، يكونون فيها كُهُوفا للخيرات، ومَعْدِنا للحسنات، يستكنّ الحق فى صدورهم، ويأوِى البرّ والصدق اليهم؛ فهم بين يومَىْ صبر وشكر، ليس أحدهما دون صاحبه فى الفضل.

وأهل الباطل كيف تصرّفت أمورهم بين سُخْط الله وعقوبته، لأنّ الله تعالى لم يجعل فى الباطل فَرجا لأهله، وإن كانت لهم دولة كانتْ إملاءً واستدراجا، وكانوا فيها على مَدْرَجَة هَلَكة وسبيل نِقمة؛ وإن كانت الدولة لأهل الحق، كانوا فيهـا بين ذل وضيم، وخوف وجزع، وقد سدّت عليهم المطالع، وضاقت عليهم الأرض بمـا رَحُبَت. ففى أىّ يومَيْهم مستراحهم: أيوم دولتهـم، وهم لايشكرون النعمــة ولا يقطعون أسباب النقمة؟ أم يوم علو الحق عليهـم، وهم لا يَصبِرون على المِحنة ولا يُبْصرون من العمى؟ وأهـل الحق بين حالَىْ غِبْطة وحسبة، وأهل الباطل بين حالَى إمْلاء ونِقمة.

فصل فى صفة الجند — إنّ الغالب على أهواء جمـاعة من فِئام أوليـاء الأمير وجنــده إعظام الأمير ومعرفة فضله، والتقرّب الى الله بمَحبّتــه ومُناصحته وطاعته، ومُعاداة عدوّه؛ وتلك نعمة يَعتَدّونها ويتقربون الى الله بها، ويتوسّلون الى الأمير بجَزْى قوم حالفوا.

فصـــل — حل بين فلان وبين التشريد بهم والاجتياح لهم ، فإنّ ذلك أرضى لربك ، وأجمع للأُلفة ، وأقومُ لعمود الخلافة الذى سدّد الله دعائم الإسلام وأسّ الدين به . واعلم أنّ مَن حاط الله دينَه ، ورمتْ عن فُوقه الجماعة ، وعادى أهلَ النقض لها ، ابتعثه الله آمنـا من هول الحساب وضيق المَحشر ، والله بنصره أحقُّ وأولى . وكن لله بحيث افترض عليك ، فإنّه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ .

كتب جعفر بن محمد بن الأشعث الى رجل لم يكاتبه

لست بما صرَفتَ الىّ من معروفك بأسرّ منى ، بما أهديتَ الىّ من قضاء الحق عنك ، وقلّة ذوى الحُرْمة بك ، لأنكَ قد تصِل مَنْ لا يثِق ولا يأنس الّا بمن يَعْتمِد عليه .

كتب الفضل بن يحيي الى رجل يُشاوره فى أمر حَدَث

ليس كلّ امرئ وإن كان ذا عَزِيمةٍ فى رأيه ، وأَصالة فى عقله ، بمستغنٍ عن مُكاشَفة أهل الرأى ؛ لتوزيع الله عزّ وجلّ ، أقسامَ الفضل فى خلقه ، وإشراكه إيّاهم ، فى عطاياه ؛ فرأيَك فى كذا .

ركِب ابراهيم بن المهدىّ الى أحمد بن يوسف ، فكتب أحمد الى إسحاق بن ابراهيم الموصلىّ

عندى مَن أنا عبدُه ، وحُجّتنا عليك ، إعلامُنا إيّاك .

توسّـــل

توسّل رجل الى رجل بمحمّد بن عبد الملك وادّعى قرابتَه منه ، وبلغ ذلك محمّدا فكتب الى المُتوَسل اليه :

بلغنى أنّ رجلا ادّعى قرابتى ، وأورد عليك كتابا ذكر أنّه منّى ؛ وما أُنكِر أن ينتفِـع بى مَن توَسّل بنسبى ، إلّا أنّه مَن ادّعى قرابةً ، ولا قرابةَ له ، كان استعمال الشفاعة فى أمره أَوْلَى .

كتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سَهل

أسعدك الله بمحاربتك، التى بذلتَ فيها مُهجتَك، ومُهجَ مَن هو موصولٌ بك منّا .

محمد بن الجَهْم

وليس فى جميع الناس أعدى لك : مِن صديق مؤمّل، أو حميم راجٍ، إن منعتَهما شتماك وبَهتاك، وإنْ أعتَّهما الناهه[1] اغتالاك .

محمد بن مُسْعَر

قال : كنتُ أنا ويحيى بنُ أكْثم عند سُفْيان، فبكى سُفيان، فقال له يحيى : ما يُبكيك يا أبا محمّد؟ قال :

بعد مُجالستى مَن جالس أصحابَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ٱبتُليتُ بمجالستكم ؛ فقال له يحيى : فمُصيبةُ مَن جالستَ منهم بمجالستهم إيّاك بعــدَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ من مُصيبتك بنا ؛ فقال : ياغلامُ، أظنّ السلطانَ سيحتاج اليك .

دخل ميمون بن مِهْران على بعض خلفاء بنى أُميّه — وأحسَبه عمرَ بنَ عبد العزيز — فقال له وقد قعد فى أُخريات مجلسه : عِظنى، فقال له : إنّك لمن خير أهلك إنْ وقيْتَ ثلاثا، قال : ماهنّ؟ قال : السلطانُ وقدرته، والشباب وغِرّته، والمــال وفِتنته، فقال : أنت أولى بمكانى منّى فارتفع الىّ؛ فأجلسه معه على سريره .

ابن وَهْب فى الاعتذار

لو لم تَعذركَ لم نعذر أنفسنا بقطيعتك، فكن لنا فى لائمة نفسك، كما كُنّا لك فى عذرك .

وفى مثله

ليس فى الإساءة فضلٌ عن الاعتذار، وفى عائدتك فضل عن إساءتنا، فمن أين يسقط بين فضلك والاعتذار !

---

(١) هكذا وردت فى الأصل .

آخر

فلان من حملة المعروف، يكثر عندهم قليله فى شكرهم، ويقل لهم كثيره فى عظيم حقوقهم .

فصل — لئن عميتُ عن الرأى فيك، لقد أبصرتُه بك .

فصل — تغيب فأشتاق، ونلتق فلا أشتفى .

٢ — فصول من رَسائل مختارةٍ فى كل فنّ

وهى مُثُل مما كتب به الكتّاب فى أبواب لا نظير لها

فمن ذلك ما كُتِب به فى التحميد لله عزّ وجلّ فى أوائل الفتوح وأواخرها وأوائل الكُتُب التى فيها تحميد الله عزّ وجلّ .

التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحّد بالسلطان والربوبيّة، والمتفرّد بالبقاء والقدرة، والمتجبّر بالكبرياء والعظمة، ذى الجلال والإكرام، والإفضال والإنعام، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والمَثَل الأعلى، الأوّل بلا غاية، والآخر بلا نهاية، الذى لا يحيط به وصف الواصفين، ولا تبلغ مَدَى عظمته أوهامُ المتوهّمين، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، لا يؤودُه حفظ كبير، ولا يَعزُب عنه علم صغير، يعلم خائنة الأعين وما تُخفِى الصدور، وما تَسْقُط من ورقة إلّا يَعلمها، ولا حبّةٍ فى ظُلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلّا فى كتاب مُبين .

التحميد الثانى

الحمد لله الذى خلَق الأشياء على غير مِثال ولا رُسوم، وأنشأها على غير حُدود، ودبّر الأمور بلا مُشير، وقضى فى الدهور بلا ظَهير، وسمك السماء بقدرته، وبناها على إرادته، وأسكنها ملائكتَه الذين آصطفاهم لمجاورته، وجبلَهم على طاعته، ونزّههم عن مَعْصيته،

وجعلهم حملة عرشه، وسكّان سماواته، ورسله الى أنبيائه، يُسبّحون الليل والنهار لا يفترون؛ ودحا الأرض وبسطها لكافّة خلقه، وقسّم بينهم الأرزاق. وقدر لهم الأقوات، فهم فى قبضته يتقلّبون وعلى أقضيته يجرون، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وصدر تحميد مفرد

الحمد لله العلىّ مكانُه، المنير برهانُه، التامة كلماتُه، الشافية آياتُه؛ والحمد لله ولىّ أوليائه وعدوّ أعدائه.

وصدر تحميد

الحمد لله الغالب الذى لا يُغلَب، والمُقتدِر الذى لا يُعان، والمُنجِز وعدَه، والمُؤيِّد أولياءَه، والخاتم بالفَلَج(١) والظهور لهم، والمُدِيل من أعدائه، ومُحيط دائرة السَّوْء بهم.

ولكاتب خُزَيْمة بن خازم فى فتح الصَّنّارِيَّة تحميد مختار

أما بعد، فالحمد لله ذى المَلَكوت والقُدْرة، والجَبَروت والعِزّة، والسلطان والقوة؛ أهلِ المحامد كلِّها، ومدبّر الأمور ووَلِيّها، وخالق الخلائق وبارئها، ومميتها ومحييها، وباعثها ووارثها؛ الذى أوْجَب على نفسه بما نفَذ من مشيئته، وسبق مِن علمه، وثبت فى اللَّوح المحفوظ عنده إعزاز دينه، وإظهار حقه، وإعلاء كلمته، وإبلاج حجّته، وإزهاقَ باطل أعدائه؛ الصارفين عن طاعته، والجاحدِين لربوبيته، المكذِّبين بكتبه ورُسُله؛ بلَغ بذلك أمرُه، ونطق به كتابُه؛ فإنّه يقول تبارك اسمه فى المُنَزّل من فرقانه: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ».

وتحميد لأحمد بن يوسف الى الوُلاة عن الخليفة

أما بعد، فالحمد لله ذى المِنَن الظاهرة، والحُجج القاهرة؛ الذى قطَع بينه وبين عباده المَعْذرة، وأردف عليهم البيّنة، ومُهْلَة النَّظِرَة؛ وجعل ما أتاهم من حظوظ الدنيا بالقَسْم

---

(١) الفلج: الغلب والظفر، يقال فلج فلان على خصمه، أى غلب وظفر.

المكتوب، وما ذَخَر لهم من ثواب الآخرة بالنُّجْح المطلوب؛ فهم فى العاجلة شركاءُ فى النعمة، وفى الآجلة شتّى فى الرحمة؛ يختص بها أهلها المتفعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحالِ بعـد الحال؛ المبادِرين بأعمالهم الى انقضاء مَدَدِ آجالهم، قبل حلول مايُتوقَّع، وفوت ما لا يُرتَجع .

وتحميد لابراهيم بن العباس فى فتح اسحاق بن اسماعيل

الحمد لله مُعزِّ الحقّ ومُديلِه، وقامِـع الباطل ومُزيلِه ، الطالبِ فلا يفوته مَن طلب ، والغالب فلا يُعْجِزه مَن غلب؛ مُؤيّد خليفته وعبده، وناصرِ أوليائه وحزبه؛ الذين أقام بهم دعوتَه ، وأعلى بهم كلمتَه ، وأظهر بهم دِينه ، وأدال بهم حقَّه، وجاهد بهم أعداءَه، وأنار بهم سبيلَه؛ حمدًا يتقبّله ويرضاه، ويُوجِب أفضلَ عواقب نصره، وسوابغَ نَعْمائه .

التحميد الثـانى

الحمد لله الغالبِ ذى القُدْرة، والقاهرِ ذى العِزّة؛ الذى لم يقابل بالحقّ باطلا فى مَوْطِنٍ من مَواطن التحاكم بين عباده، إلّا جعل أولياءَ الحق منهم حِزْبه وجُندَه، وجعل الباطل بهم فلًّا منكوبا، ودَحيضا زَهُوقا؛ إن نَهَض به أولياؤُه كانتْ مراصدُ عواقبه مُفرِّقةً ما جُمِـع، ومُبْتِرةً ما أُعِدّ، وقائدة باشياعه الى مَصْرع الظالمين، حتّى يكون الحقُّ الطالبَ الأعزّ، والباطلُ المطلوبَ الأذلّ، وأولياءُ الحقّ الأعْلَيْن يدا وأيدا، وأشياعُ الضلال الأخْسرين أعمالا وكيدا؛ قضاءُ الله وسُنّته، وعادة الله وإرادتُه، فى الفِئَة المنصورة أن تعزّ فلا تُرام، وأن يُمكَّن لهـا فى الأرض كما مكّن للذين من قبلها؛ وفى الفِئَة الناكبين عنه، أن تَزِلّ فتكونَ كلمتُها السُّفلى، وكلمة الله هى العليا، والله عزيز حكيمٌ .

وتحميد له مبتدأ مقام بين يدَى خليفة

أما بعد، فالحمد لله الأول بلا أَبَدٍ يُحصَى، والآخر بلا أَمَدٍ يَفْنَى؛ الظاهرِ لخلقه بعزّته، العزيزِ فى سلطانه بعظمتِه، الفَرْد فى وَحدانيّته بقدرته، المدبّرِ فى ملكه بجبروته؛ الذى نأى عن الأشياء أن يكون فيها مَحْوِيًّا، واتصل بها فلم يكُ من علمها خَلِيًّا؛ وهو فيها غيرُ مُسْتكِنّ،

ومعها غيرُ مُماسّ فى لجج البحار، ومفاوز القِفار، وشَواغ الجبال، وكُثبان الرمال؛ مع كلّ خَلْق، وفى كلّ أُفق، وعلى كلّ شَرَف ومكان، وفى كلّ وقت وأوان، موجود إذا طُلِب، وقريبٌ حيث نُدِب؛ عالمُ خَفيّات الغيوب، وخطَرات القلوب، وما فى السموات وما فى الأرض، ما يكون من نَجْوى ثلاثةٍ الاهو رابعُهم، ولا خمسةٍ الاهو سادسُهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ الّا هو معهم؛ وما تسقط من ورقة الّا يعلمها ولا حبّة فى ظُلُمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابس الّا فى كتاب مبين .

وتحميد ثانٍ يتلو الأوّل

الحمد لله المُتعالِي عن تشبيه الجاهلين، وتحديدِ الواصفين، وتكييف الناعتين؛ يُوصفُ لا بالعَرْض والطول، ويُنْعَت بغير الشبح المَثُول، ويُحدّ لا بالخَلْق المعدود، والجسم الموجود؛ بل يُتناهى من وصفه، الى ما دلّ عليه من صُنعه، ويُوقَف عليه من نعته، على ما أَخْبَر به عن نفسه؛ وكيف يُوصف مَن لم يَرَه أحد، ويُحدّ من لم يَحُدّه بلد؛ أو يُشبه غيرَ ذى أعضاء، أو يُكيّف غيرُ ذى أجزاء؛ أوْ رُئِيَ لَوُصِف، ولو وُصِف لَمُثِّل، ولو مُثِّل لكان له نظيرٌ؛ سبحانه وتعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرا. لا تُجِنّه الأقطار. ولا يحويه قَرار؛ ولا تُدرِكُه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير؛ لا يوصف أُولاه. ولا يُدْرك أُخراه، ولا يُعرَف مُنتهاه؛ عَظُم أن يَحصره وَهْم، وجلّ أن يُدرِكه فَهْم، وامتنع من أن يخاله عِلم، ولا يُغيّره ليل ولا يومٌ؛ ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلّا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يُحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيّه السموات والأرضَ ولا يؤوده حفظُهما، وهُوَ العليّ العظيم .

وتحميد ثالث

الحمد لله الذى ألهمنا من الإقرار بربوبيته، والإيمان بوحدانيّته، وأنّه غيرُ ذى صاحبة يسكنُ اليها من وَحْشَة، ولا ولدٍ يتكثّر به من ضعف قِلّة، ولا شريك يعاونه من عجز قُدْرة، ولا ظهير يكانفه لملال فَتْرة؛ ما جعل لنا به أوثق الأسباب لَدَيْه، وأرجى الوسائل

اليـه ، إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به يصـير بجحْد ما أخنعنا الاعترافُ فيه ، الى أليم عقوبته بالمعصية التى استحكمت السُّخطة على أهلها ، وحلّت النِّقمة بمن فارقها ؛ ثمّ جعلنـا تبعَ إشراف كثير على أنفسنا فى مشيئة منه ، بَسط اليها آمالنا وأحسن عليها أطماعنا بكرم عفوه ، وعظيم حِلْمه ، وسعة رحمته ، التى وعد أهل الإيمـان بها ؛ إذ صار مَن فارقهم فى ذلك بمـا استهوت عليهم ، بتزيينـه لهم شياطينُهم ، ورانت على أفئدتهم ...(١) وما ظلّمتـه قُرباؤهم الى النـاس من كل طمع يُجدى وخبر يُنجى ؛ جزاءً بمـا أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا ، إنّ الله لا يَغفر أن يشرك به ، ويَغفِر ما دونَ ذلك لمن يشاء ، ومَنْ يُشرِك بالله فقد حبِط عملُه ، وهُوَ فى الآخرة من الخاسرين .

وتحميـد يتلو الثالث فى هـذا المقام

الحمد لله الذى ابتدع لا مِن شىءٍ ما أنشأ ، وابتدأ على غير مِثال ما ابتدأ ؛ فجعل كثيرا من لطائف تقـديره ، وصُنوف تدبيره ، وتصاريف أُموره ، حُججا واضحة ، وآياتٍ بيّنـة ، وعِبرًا شافيـة ؛ تَشهد له بعزّة القـدرة ، ونفاذ الحول والقُوّة ؛ فخلق مدبّرا بلا مَشُورَة أحد ، سـبعًا دَحاهنّ على المـاء على غير سَـنَد ، مبسوطات فى تكاثف أجزائهنّ ، على مَعِـين ماء مسخّر من تحتهن ، فجّر خلالهنّ أنهـارا ، وقدّر فيهنّ من المعاش أقواتا ، وجعـل لهنّ من الجبـال أوتادا ، ثم آستوَى الى السماء وهى دُخَانٌ ، فقال لها وللأرض آئتيا طوعا أو كَرْها قالتا آتينا طائعين . ففَطَر من الدُّخَان فى خِفته على الهواء سَبعا ، جعل بينهنّ من الجوّ مُتّسعا ، سـبعَ سموات طِباقا مُرْتَفِعات ، بلا دعائمَ قِبَلها ولا عِلاقات ، يُمْسِكهنّ بقدرة أن يَرْتفعنَ فوق ما حبسهنّ عليـه ، وأن يَهْوِين الى قرار دون ما رفعهنّ اليـه ؛ فأتقن صنعَها ، وأوحى فى كلّ سماء أمرَها ، وزيّن السماء الدنيا بالمصابيح النيّرة ، والشُّهُب الثاقبة ، والنجوم الواضحة ؛ وسخّر الشمس والقمر عَلمـا للمهتدين ، وسِراجا للبصِيرين ، ورُجوما للشياطيـن ، وأوقاتا لاختلاف السنين ، ومعـرفة لكل حين ؛ لا الشمسُ يَنبغِى لهـا أن تدرك القمر ولا الليل

---

(١) فى الاصل بياض . وفى العبارة اضطراب ظاهر .

سابق النهار وكلٌّ فى فَلك يَسبحون ؛ فقضاهنّ سبع سموات فى يومَين ، ولو شاء خلقها فى أسرعَ من طَرْف العين ؛ إنّما أمرُه إذا أراد شيئا أن يقولَ له كُنْ فيكون؛ بلا مُعاناة لقول ، ولا ضَعْف من حَوْل ؛ ثم أسكنهنّ من خلقه ملائكةً اصطفاهم لعبادته، واجتباهم لتبليغ رسالته ، مَعصومين من أن يُشْرِكوا بالله، ما لم يُنزّل به سلطانا، وأن يقولوا على الله إفكا وبُهْتانا؛ يُسَبّحونه بالليل والنهار لا يفتُرون ولا يَسأمون من عبادته، ولا يَستحسرون عن طاعته؛ يخافون رَبّهم من فوقهم ويَفعلون ما يُؤمرون .

وتحميد فى فتح لابن العباس

أما بعد، فالحمد لله الذى حمد نفسَه، وفرَض حمدَه على خلقه، وأعزّ دينَه وأكرم بطاعته أولياءه، وأكرم طاعته بأوليائه، فجعل جندَه منهم المنصورين، وحزبه منهم الغالبين؛ نهجَ بهم سبيله، وأقام بهم حُجّته ، وجاهد بهم أعداءه، وأظهر بهم حقه، وقمَع بهمُ الباطل وأهلَه، وأعلَى كلمتهم ، وأيّد نصرَهم، وألّف لهم وبهم، ومكّن لهم فى الأرض، فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

والحمد لله المُعزّ لدينه ، المُظهِر لحقه، الناصر لخلفائه ، المُمكّن لحزبه، المُنتقم بهم ممّن صدف عنه، مؤيّدا دينَه بالنصر، ليُظهرَه على الأديان، وحَقّه بالعزّ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه ، وجنودَه بالفَلج فهم الأعلون إن استُنْصربهم، والأَعزُّون إن كادبهم، والأقربون منه إخلاصا وعملا ، حمدا يُوازى نعمه، ويَمْترى بمثله فواضله ومزيده .

وله فى فتح ابن البَعيث لمّا ظفِر به

أما بعد، فالحمدُ لله ناصرِ أنبيائه وخاتمائه،وهادى أوليائه،أولياء الحقّ وحزب الهُدى؛ الذين أقام بهم سُبلَ الرشاد ، ونصَب بهم مناهجَ الدين ، فأظهره على الدين كُلّه ولو كره المُشركون .

وله صدر كتاب الخميس فى تحميد الله وتمجيده

أما بعـد ، فالحمـدُ لله الذى جلّت نِعمه ، وتظاهرتْ مِننُه ، وتتابعتْ أياديه ، وعمّ إحسانُه ؛ إلهِ كلّ شىء وخالقِه ، وبارئه ومصوّره ؛ والكائنِ قَبْـلَه ، والباقى بعدَه ، كما قال فى كتابه : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . العالى فى مشيئته والقاهرِ فَوْق عباده ، المُتعالِى عن شَـبَه خلقِه ، ليس كمثله شىءٌ وهو السميع البصيرُ ، خلق العباد بُقدرته ، وهداهم برحمته ، وأوضحَ لهم السبيلَ الى معرفته بمـا نصَب لهم من دلائله ، وأراهم مِن عِبره ، وصرّفهم فيه مِن صُنعه ، كما قال جلّ جلاله : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ .

وذلك كلّه مِن خَلْقــه إيّاهم بتمثيله ما مثّـل لهم من الدلائل التى نصبها لهم ، والأعلامِ التى جعلها إزاء قلوبهـم ، وأسماعِهـم وأبصارهم ، ويسّر لهم خواطرهم وفِكَرهم ، والهيئةِ التى هيأهم لها لِيقع الأمرُ والنهى عليهم ؛ فلا يُكلّفهم فوق طاقتهم ، ولا يُجشّمهم ما يَقْصُر عنه وسْعُهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ورحمةً بهم ؛ ليؤمنوا به ويعبـدوه ، فيَستحِقُّوا به رحمتـه ورِضوانه ، والخلودَ فى النعيم المُقيم ، والظلِّ المَديد ، والعيش الدائم ؛ كما قال تعـالى ذكره : ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ . وكان من نظره ورأفتـه بهم أن بَعَث فيهم أنبياءه ورُسُلَه ، يدعُونهم الى طاعته ، ويبيّنون لهم هُداه ، ويُوضّحون لهم سَبِيله ؛ ويَهدُونهـم الى رحمتــه ، ويَعِدُونهم ثوابَه ، ويُنذرونهم عِقابه ، ويَبْسطُون لهم توبته ، ويُحذّرونهـم سُخْطه ، ويبيّنون لهم سنّته وشرائعَــه ، ويَكشفون لهم مَواعظه ، ويعلّمونهم كتابَه وحِكمته ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . وكان من رأفته بهم ، ونظره لهم ، أن بعثهم اليهم بالحُجج الظاهرة ، والأعلامِ البيّنة ، والشواهد الناطقـة ، التى أظهر بهـا صدْقهم ، وأقام بها برهانَهم ، وأوضح

بها دليلَهم ، وأثابهم عَمَلَ سواهم ، ليكون أدعَى لهم الى تصديقهم ، والقبول عنهم ، وأَوْكَدَ للحجّة على مَن أبَى ذلك منهم .

وتحميد أحمد بن يوسف فى صدر رسالة الخميس التى كانت تقرأ بخُراسان

أما بعد ، فالحمد لله القادرِ القاهرِ ، الباعث الوارث ، ذى العز والسلطان ، والنورِ والبُرهان ، فاطر السماءِ والأرض وما بينهما ، والمتقدّم بالمَنّ والطَّوْل على أهلهما ، قبل استحقاقهم لمَثُوبته ، بالمحافظة على شرائع طاعته ، الذى جعل ما أَوْدَعَ عباده من نِعمته ، دليلا هاديا لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب ، التى يَفْهمون بها فصل الخطاب ، حتى آقتنوا علم مواردِ الاختبار ، وثقِفوا مصادر الاعتبار ، وحكَموا على ما بطَن بما ظهرَ ، وعلى ما غاب بما حضر ، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومُتْقَن صنعته ، وحاجة مُتَزايِل خلقه ومُتَواصله ، الى القِوام بما يَلُمُّه ويُصْلِحه ، على أنّ له بارئا هو أنشأه وابتدأه ، ويَسّر بعضَه لبعض ، فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم ، فى تصرّف أحوالهم ، وفنونِ انتقالها ، وما يُظْهِرون عليه من العجز عن التأتّى لما تكاملت به قُواهم ، وتمّت به أدواتُهم ، مع أثَرِ التدبير والتقدير فيهم ، حتى صاروا الى الخلْقة المُحْكَمَة ، والصورة المُعْجِبة ، ليس لهم فى شىء منها تلطّفٌ يَتيمّمونه ، ولا مَقْصِدٌ يعتَمدونه من أنفسهم ، فإنّه قال تعالى ذكرُه : ﴿يَأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ . وما يتفكّرون فيه من خَلْق السماء ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر ، والنجومِ مُسَخّراتٍ على مَسيرٍ لا يثبت العالَم إلّا به ، من تصاريف الأزمنة ، التى بها صلاحُ الحَرْث والنّسْل ، وإحياءِ الأرض ، ولِقاح النبات والأشجار ، وتعاورِ الليل والنهار ، ومَمَرّ الشهور والأيام ، والسنين التى تُحصى بها الأوقات ؛ ثم ما يوجد من دليل التركيب ، فى طبقات السقْف المرفوع ، والمِهاد الموضوع ، باختلاف أجزائه والتئامها ، وخَرْق الانهار ، وإرساء الجبال ، ومن التئام الشاهد على ما أخبر الله به من إنشائه الخلق وحدوثِه بعد أن لم يكن ، مُترقيّا فى النّماء ، وثباته الى أجله فى البقاء ، ثم مَحاره مُنْقضيا الى آخر الفناء ؛ ولم يكن له

مُفْتتحُ عدد ، ولا مُنْقطعُ أمد، وما ازداد بنشوء، ولا تَحَيَّفه نُقصان ، ولا تفاوت على الأزمان، لأنّ مالا حد له ولا نهاية، غير ممكِن الاحتمال للنقص والزيادة؛ ثم أَجرَى فيما ذكر من خلق الله وخلق الإنسان الى ذكر ماتفضّل الله به على عباده الأنبياء ، وما اختصهم به من مَبْعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، الى ذكر الخُلَفاء أوّلا، ثم الى ذكر المأمون ودولته .

وتحميد للعبّاس فى مقام له بين يَدَىْ المأمون

الحمـد لله على نعمه علينا ، وإحسـانِه إلينا، بالأرض المَبْسـوطة، والسماءِ المرْفوعة، والرِّياح المُسـخّرة ، والأمطارِ النازلة ، والأوقات القائمة ، والمَنافع الداعة؛ والدين المبين، والأدب القويم ؛ حمدًا يكون اليه صاعدا ، ولَدَيْه ناميا، ولملَكوته مالئا ؛ والحمـد لله حمدا يُثْبِت رضوانَه ، ويورث إحسانَه ، ويُوجِب مزيدَه؛ فهو المنعم المحمود، والمُتَطوِّل المشكور، لا إله إلّا هو لا شريك له ،كما شهِد الله وملائكتُه قائمـا بالقِسْـط لا إله إلّا هو العزيزُ الحكيمُ .

وتحميد لعبد الحميد فى أبى العلاء الحَرُورىّ

الحمد لله الناصر لدينه، وأوليائِه وخُلفائه، المُظْهِر للحق وأهلِه ، والمُذِلّ لأعدائه وأهـل البِدْعة والضلالةِ ؛ الذى لم يجمع بين حقّ وباطل، وأهلِ طاعةٍ ومَعْصيةٍ، إلّا جعل النُّصْرة والفَلَج والعاقبـةَ لأهل حقّه وطاعته ، وجعـل الخِزْىَ والذِّلّةَ والصَّغار، على أهل الباطل والخِلاف والمَعْصية ؛ حمـدا يتقبلّه ويرضاه ، ويوجِب به لأمير المؤمنين وأهلِ طاعتـه الزيادةَ التى وعد مَن شكرَه ؛ والحمـد لله على ما يَتَـوَلّى من إعزاز أمير المؤمنين ونَصْره وإفلاجِه وإظهارِ حقّـه، على ما وقع بأعدائه وأهلِ مَعْصيتَه والخلاف عليه من سَطَوَاته ونَقِماته وبأسه، فيما وَلِىَ أميرُ المؤمنين مِن مُوالاة مَن والاه، وعداوة مَن بَغَى عليه وعاداه ؛ لا يَكلُه فى شىء من الأمور الى نفسه، ولا الى حوْله وقوّته ومكيدته، فإنّه لا حولَ ولا قوّةَ لأمير المؤمنين إلا به .

وتحميد فى آخر فتح

الحمد لله المُعزّ لدينه ، المُظْهِر لحقّه ، الناصرِ لأوليائه ، المنتقم من أعدائه أهلِ الكفر ، المُنْزِل بهم من بأسه ، ونَقْمته وجَوائحه ، الذى لم يجمع بين أهل حقّه ، و باطل عدوه ، فى مَوْطِنٍ من مواطنِ التحاكم ، إلّا جعل فيه لأوليائه الظفَر ، وأفرَغ عليهم الصبر ، ومنحهم النصر ، وجعـل الدائرة وسوء العاقبةَ على عدوه ، وأهل الكفر ، حمـدا كثيرا يرضاه من الشكر ، ويحْسُن به المزيدُ .

وتحميد فى فتح الى أمير لقيامة

الحمد لله الفتّاح العليم ، الذى خَصّ الأمير بأفضل الكرامة وأتمّ النعمة ، وأَحْسَنِ الوِلاية ، وأعظم الكفاية ، وحِفظ ما استرعاه ، وأعزّ أولياءه ، وقمَع بالمَذَلّة أعداءه ، وجعل حسن العـاقبة له ولأهل طاعتـه ، ودائرة السوء على أهل معاندته ، حمـدا يحسُن به القضاءُ ، وتزيد به النَّعماءُ .

وصدر تحميد لغسان بن عبد الحميد فى خطبة موجزة

الحمد لله الذى لا يُدْرَك خيرٌ إلّا برحمته ، ولا يُنـال الفضلُ إلّا بنعمته ، ولِىّ التسديد للحسناتِ ، والعصمة مِن السيئات .

تحميد لعبد الحميـد فى فتـح

الحمد لله العلىّ مكانُه ، المنيرِ برهانُه ، العزيزِ سلطانُه ، الثابتةِ كلماتُه ، الشافيةِ آياتُه ، النافذ قضاؤُه ، الصادقِ وعدُه ، الذى قدر على خلقه بمُلْكه ، وعزّ فى سماواته بعظمته ، ودبّر الأمور بعلمه ، وقدرها بحلمه ، على ما يشاء مِن عَزْمه ، مُبتدِعا لها بإنشائه إيّاها ، وقدرته عليهـا ، واستصغاره عظيمَها ، نافذة إرادتُه فيها ، لا تجْرِى إلّا على تقديره ، ولا تنتهى إلّا الى تأجيله ، ولا تقَع إلّا على سبق مِن حَتْمه ، على كلّ ذلك بلطفه وقُدْرته ، وتصريف وَحْيه ، لا مَعْدل لهـا عنـه ، ولا سبيل لها غيرُه ، ولا عِلم أحدٌ بخفاياها ومعادِها إلّا هو ، فإنّه يقول فى كتابه الصادق : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ... ...﴾ الى آخر الآية .

وتحميـــد ثانٍ

الحمد لله الذى علا بالحُجُب التى آستتر بها عن جميع خَلْقه، وآستغنى بها عنهم لمـا توحّد به دونهم من عبادة الذين فطرهم على المعرفة، رءوفا عليهم بمنّه ومُتطوّلا وهو فيما يُمضِى من أقداره، مفضلا لهم بابتدائه خَلْقهم فى أحسن تقويم، وإعطائه إيّاهم عاجل كل خير مقسوم، وتسخيره لهم جميـع ما فى السموات والأرض، وبَسْـطه لهم فى معايشهم أوسعَ الرزق، وإسباغه عليهم فيها أفضلَ النعم التى لطُفت فبطنت، وعظُمت فظهرت، ولبِستْ فعمّت، وانتشرت فجَلّت، وكثُرت فلا يحصيها عاد، وجزُلت فلا يؤدّى حق ما آفترض منها شاكر، فإنّه يقول: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

والحمد لله الذى لم يقتَصِر بهم فى إكرامه وتفضيله إيّاهم على عاجل، فإنّه مُضْمَحِلّ زائل مما أعطاهم إيّاه ولم يَكِلْهم فى معرفة خالقِهم تبارك وتعالى، ومُتَولّى النعم عليهم، والاحسان اليهم، والارتياش لهم، ولا فى مُبْتَغَى سبيلِ طاعته، وأداءِ حقه، وشكرِ نِعمته، واستيجاب غِبْطة المعاد اليه الى أن يعُوا ذلك بعقولهم، والنظر فيه بألبابهم، والتصريف له على أهوائهم؛ فإنّه لو ألجأ ذلك اليهم، وأفردهم فيه الى أنفسهم، ووكلهم فيما أمرهم به الى مقدرتهم، لحارت عنه منهم الأبصار، ولتاهت فيه منهم العقول، ولأضلّهم عن قصده العمَى، ولمـال بهم الى غيره الهوَى، ولاستحكم عليهم شرك الردى؛ ولكنّه بعث فيها أنبياءه الهـادِين، يدعونهـم الى الصراط المستقيم، بنوره المُضىء، ودينه القويم، وآياته البيّنة، وكُتُبه الفارقة التى بيّن فيها مَحابّه ومَكْروهه، وطاعته ومعصيَته، وثوابَ الفريقَيْن فى ذلك من عباده ليحذروا ما حذّرهم فيه من سُخْطه، ونزل بهم فيه من نِقمته، وليسارعوا فيما جعل لأهله به الى أفضل المثوبة، وأحسنِ العاقبة فى الدنيا والآخرة، وكَشَف لهم الجَهَالةَ، وهدَى من الضـلالة، وبصّرهم سبيلَ الحق، وبيّن لهم معالمَ الإسـلام، ليرجِعَ جائرٌ، ويَقْصِـدَ زائغٌ، ويعرِفَ جاهل، وليعبدَ الربَّ بما وحّد به نفسَه، وليستبين العلمَ، ويستضىءَ الحق، وليبتغىَ من الله الثواب بلزوم دينه الذى شرع، وأداءِ فرائضه التى فَرَض، وإيثار طاعته التى أوجب، وليكون لله

الحجةَ البالغة على عباده فيما تركوا من ذلك وسفّهوا بعد استبانته لهم، واستفاضته فيهم وإعذاره اليهم، فانه يقول: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ويقول ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

لأنس بن أبي شيخ

الحمد لله الذى بالقلوب معرفتُه، وبالعقول حُجّتُه، الذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أمينا فوقَى له، ومُبلِّغا فأدّى عنه فحجّ به المُنكِر، وتألّف به المُدبِر، وثبّت به المستبصرَ، الى أن توفّاه على مِنهاج طاعته، وشريعةِ دينه، ثم أورثكم عهدَه وخصّكم بكلمة التقوى، وجعلكم الأمةَ الوُسطى.

ولعبد الحميد فى فتح

يُعظِّم فيه أمرَ الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم

أما بعد، فالحمد لله الذى آصطفى الإسلام دِينًا رَضِى شرائعَه، وبيّن أحكامه ونوّر هُداه، ثم كَنفَه بالعزّ المؤيَّد، وأيّده بالظفر القاهر، وآزره بالسعادة المُنتَجبَة، وجعل مَن قام به داعيا اليه من جُنْده الغالبين، وأنصاره المسلّطين، كلّما قهرَ بهم مناوئا أورثهم رِباعَهم المأمولة، وأموالهم المُثْرِية، وداَرهم الفسيحة، ودولتَهم المطولة، أمرا حتمه على نفسه؛ ثم جعل مَن عاندهم وآبتغى غيرَ سبيلهم مُسلَمًا قد آستهوته ذِلَّةُ الكُفر بظُلَمِها، وحَيْرَةُ الجَهالة بجوارِها، وتيه الشقاء بمغاويه، وكلّما ازدادُوا لدعوة الحق إباءً، ازداد الحقُّ اليهم آزدلافا، وعليهم عُكُوفًا، وفيهم إقامة، الى أن يَحلّ بهم عِزّ الغلبة، ونَجاةُ المتجاوز، راغبين فيما شوّقهم اليه، مُحافظين على مَاندبهم له، قد بذَلُوا فى طاعة الله دماءَهم، وقبِلوا المَعرِضَ عليهم فى مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجَنة. محمودٌ صبرُهم، مسهّل بهم عزمُهم، الى خير الدنيا والآخرة.

والحمد لله الذى أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بما حَفِظ له من أمور أُمّته، أن اختار لمواريث نبوّته ما أصار الى أمير المؤمنين من تطويقه ما حَمل بحسن نُهوض به وتمّ عليه، ومُنافسةٍ فيه. أن فعل وفعل. والحمد لله الذى تمّ وعده لرسوله وخليفته فى أمة نبيّه مسدّدا

له فيما اعتزم عليه . والحمد لله المعزّ لدينه، المتولّى نصر أمته بنبيّه المتخلّى ممن عاداهم وناوأهم، حمداً يزيد به من رضى شكره ، وحمدا يعلو حمدَ الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نِعَمُه فلا توصف، وجلّت أياديه فلا تُحصى، الذى حمّلنا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه، وبالله يستعينُ أمير المؤمنين على ذلك، واليه يرغب، إنه على كل شىء قدير .

ولعبـــد الحميـــد أيضــا

أما بعد، فالحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه، وارتضاه دِينًا لملائكته، وأهلِ طاعته من عباده ، وجعله رحمةً وكرامةً ونجاةً وسعادةً لمن هدَى به مِن خلقه ، وأكرمهم وفضّلهم وجعلهم بما أنعم عليهم منه أولياءَه المقرَّبين، وحزبَه الغالبين، وجندَه المنصورين، وتوكّل لهم بالظهور والفَلَج، وقضى لهم بالعلوّ والتمكين، وجعـل مَن خالفه وعزَبَ عنــه وابتغى سبيلَ غيره أعداءَه الأقلّين، وأولياءَ الشيطان الأخسرين، وأهل الضَّلَالة الأسفلين ، مع ما عليهم في دنياهم من الذُّل والصَّغار، وما عَجّل لهم فيها من الخِذلان والانتقام، إلى ما أعَدّ لهم فى آخرتهم من الخزى والهوانِ المُقيم، والعذابِ الأليم، إنه عزيزٌ ذُو انتقام .

وفى ذكر الإسلام وأهله وما فضّلهم الله تعـالى به

أما بعد، فالحمد لله الذى عظّم الإسلام تعظيما،وفضّله تفضيلا، فلم يَبقَ مَلِك مقرّب، ولا نبىٌّ مُرسل ، ولا إمامٌ لأهل حقّ مهتدٍ إلا دَانَ به، واتّصل الى ولاية الله بما هداه له منــه ، وليس فى دين الله الذى ارتضى ، وخيرته من أهلِ الإسلام الذين اصطفى، تغاشُمٌ ولا تَظَالمٌ، ولا تحاســدٌ، ولا تقاطعٌ ولا تدابرٌ، ولكنهم كما وصفهــم اللهُ عزّ وجلّ بالتبارّ والتراحمِ، والتوادّ والتناصُف ، قلوبهم متفِقةٌ، وأهواؤُهم مؤتلِفة، وأيديهم على أهل معصيته مبسوطةٌ، أعوانا على الحق، وإخوانا فى الدِّين، ألّف الله بينهم، وجعل الإسلام نسبَهم، فقال فى كتابه : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ...﴾ الى آخر الآية . فهذه صفة الله أهلَ دينه فيما بينهم ، وكذلك كان أســلافُ الحقّ قبلَهم، فى توادّ وتبـارّهم، وتواصُلهم وتعاوُنهم ، و بذلك دَانَ أهلُ السماء، فلم يختلفوا فيه، ولم يرغَبُوا عنه، ولم يحتذوا مثالا غيرَه، و به يَدِينُ

لله الباقون من خلقه، المتمسكون بحقه الى يوم القيامة ، سنةٌ مسنونةٌ، وشريعةٌ متبوعةٌ ، لا يبتغون بها بدَلا، ولا يريدون عنها حِوَلا، فأهل طاعة الله أهل سلامةٍ فى دنياهم، وإخوان كما قال الله عزّ وجلّ فى آخرتهم، لم تنقطع الولايةُ فيما بينهم، لانقطاع الدنيا عنهم، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم، بجمعهم فى داره وجِواره، كما ألّف فى الدنيا بين قلوبهم، وعصم بالإسلام أُلفتهم .

تحميد

الحمد لله المُثيب على حمده وهو ابتداؤُه، والمنعِم بشكره وعليه جزاؤُه، والمثنى بالإيمان وهو عطاؤُه .

ولقمامه

الحمد لله الذى أكرم الإسلام وفضّله ، وشرّفه وعظّمه ، وأعلى منزلته ، وجعل أهلَه القائمين به، والحامدين عليه، أولياءه وحزبه الذين قضى لهم بالتمكين، والظهور على الدّين كله ولو كرِه المشركون .

ولزيد بن على رحمةُ الله عليه خطبة

الحمد لله الواصل النِّعم بالشكر، والشكر بالمَزِيد، حمدَ مَنْ يعلم أن الحمد فريضةٌ واجبةٌ، وأنّ تركَه خطيئةٌ مُهلِكةٌ، وأومن بالله إيماناً نفى إخلاصُه الشِّركَ، ويقينُه الشّكَّ، وأتوكّل عليه توكُّلَ الواثِق به ثقةَ أهلِ الرجاءِ، ومَفْزَع أهل التوكّل .

تحميد فى الإسلام

الحمد لله الذى اختار الاسلامَ ديناً لنفسه، وأنبيائه ورُسُله، وشرّفه وعظّمه ، وأناره، وأظهره، ونزّهه وأعزّه ومنعَهُ، ولم يقبَل غيرَه، ولم يجعل حُسْنَ الجزاء إلا لأهـلِه ، الذين كتبَ لمن أسعده بالوَلِيجة فيه منهم الرِّضوان والمَغفرة والرأفةِ، وعلى مَن خالفه وابتغى غيرَ سبيله الحَسْرَةَ والندامةَ، والذِّلة والصَّغار فى الآخرة والأولى ، والممات والمَحيا ، إذ يقول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

والحمد لله الذى اجتبى محمدا صلى الله عليه وسلم بما اصطفاه من نبوّته ، واختاره له من رسالته ، وحَبَاه بفضيلته ، واجتباه من أفضـــل عمائرِ العرب ، وأشرفِها مَنْصبًا ، وأعرقها حَسَـــبًا ، وأكرمِها نَسَبًا ، وأوراها زِنادًا ، وأرفعِها عِمَادًا ، فبعثه بالنور ساطعا ، وبالحق صادعًا ، وبالهدى آمرا ، وعن الكفر زاجرا ، وعلى النبيين مُهيمنا ، وإلى سبيل ربّه داعيا ، وبالكتاب عاملا ، فبلَّغ عن الله الرسالة ، وهَدى من الضَّـــلالة ، وانتاش من الهَلَكة ، وأنهج معالمَ الدِّين وأدّى فرائضَه ، وبيّن شرائعَه ، وأوضح سُنَنَهُ ، ونَصح لأمته ، وجاهد فى سبيل الله حقَّ جِهَاده حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

تحميد لأبى عُبَيْد الله

الحمد لله الذى شرع لاظهار حقّه وإنفاذِ سابِق قضائه فيمن ذَرأ وبَرأ من عباده ، بإدخال من أراد أن يُدخلَ فى رحمته ، وإنجازِ ما حقّ له من العبـــادة على خَلْقه ، بابتـــدائه خلقَهم ، ومظاهرته الآلاءَ عليهم ، وإحسانه البلاءَ عندهم ، وإبلاغِه فى الحجج إلى عامتهم ، دينـــا رَضِيه لنفســـه وملائِكَتِه الذين أسكَنَ سماواتِه ورُسُلِه ، فأتمن على وجه من لم يَرْضَ إلا به ، ولم يقبل إلّا إياه ، ثم كان ما أعزّ به نفسَه ، وأظهر به نورَه ، وأراد أن يبـــلو به عبادَه ، تحقيقا لـــا سَبَق بِهِ علمُه ، وإنفاذًا لـــا جَرت به مقاديرُه ، أن بعثَ لِـــا شرَعَ من دينـــه ، واصطفى لتسبيحه وتقديســـه من ملائكته المقرَّبين ، مَنْ ارتضَى واختار من أنبيائه ورُسله المُجتَبين ، لتبليغ رسالته وإظهارِ حقّه ، واستِشلاءِ[1] من أراد سعادته من خلقه بالرحمة التى أطلعتْ عليهم وعمّتهم ، ليعبدَ مُخلصا له ، محمودا بما استحمد به إلى خَلْقه ، مشهودا له بما أشهد به من كلمة الحقّ ، فكان منهم التبليغُ لِـــا أُرسِلوا به ، والنصيحة لمن أُرسِلوا إليه ، غيرَ مختلفين فيما بُعثوا له ، ولا متفرِّقين فيما استعملوا فيـــه ، يدعوهم آخر إلى ما دعاهم إليه أوّل ، فيصدِّق بذلك بعضهـــم بعضا ، ويَهدُون إلى الحق وإلى طريق مســـتقيم ، فمضت رسل الله وأنبياؤه على ذلك سالكين منهاجَ الحق وسبيله ، والدُّعاءَ إلى الله عز وجل وإلى

(١) الاستشلاء : الانقاذ .

طاعته، هادين مَهْدِيين غيرَ مبخوسين شيئا مما كانوا أهلَه فى المنزلة عند الله، والقُرْبة منه، والوسيلة إليه، هم ومَن آمن بهم وعزّزهم، واتبع النورَ الذى أُنزل معهم، حتى تقضت بهم الأعمارُ، وتقطعتْ بهم الآثارُ، وتخرمتهم الآجال .

وكذا لأبى عُبَيد الله

الحمد لله الذى جعل الإسلام رحمةً قدّمها لعباده قبل خلقه إياهم، واستيجابهم إياها منه، فاصطفاه لنفسه وشرَعه لهم دِينا يَدِينون به، ثم جعل تجديدَ وحيه ومتابعةَ رُسله رحمةً تلافاهم بها بعدَ تقديمها، ومِنّةً ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها، تطوُّلا على العباد بالنّعماء، وإعذارا اليهم بالحجج، وتقْدِمَةً بالوعد، وإنذارًا إليهم عواقبَ سخطه فى المَعاد .

والحمد لله الذى ابتعث محمدا صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقِّه على فَتْرةٍ من الرسل، وطُموس من معالم الحق، ودروسٍ من سبُل الهُدَى، عند الوقت الذى بلغ فى سابق علمه ومقاديره، أن يجتبَى لدينــه الأصفياءَ، ويختارَ له الأولياءَ، الظاهرين بحقه، القاهرين لمن ابتغى سبيلا غير سـبيله، فعظّم حرمته، ووسّع حَوْزتَه، وصدَع بأمره، وجاهدَ عن حقه فى حَوْمات الضّلالة وظُلُمات الكفر، بالحق المبين، والسراج المُنير، ثم جعلَه مصدِّقا لمن سبَقه من الرُّسـل ومُجدِّدا لِمَــا بُعِثوا له وهدًى ورحمةً ؛ ثم جعل لدينه وظائف وظفها على أهله، وشرائعَ شَرَعها لهم لا يَكْمُلُ دينُهم إلا بها، وجعل أداءها إليه، واعتصامهم بها إماما لدينه، ونظاما لنوره، وقِوَاما لحقه، واستيجابا لمــا وَعَد عليه من ثوابه، وأَمْنا لمــا أوعدَ مَن خالفه من عقابه ؛ فليس يسع أهلَ الإيمان بالله الذين أكرمهم به وأجزل لهم فضلَه وأجرَه، وجعــل لهم عِزّه وعُلُوّه، واختار لهم الغلبة والعاقبة على من فارقهم فيه إلا معرفتُها، وأداؤها بما يُستكمل به حدودُها، ومما لها من كذا وكذا .

إبراهيم بن المهدى — صدر رسالة له فى الخميس

الحمد لله الذى اختار الإسلام دينا لنفسه، ورَضِى أن يَعبُدَه مَن فى سمواته من الملائكة المقرَّبين، ومَنْ فى أرضه من النبيِّين والمُرْسَلين، ومَن آمن بالنور الذى هداهم لهمن الثّقَلَيْن،

واختار لرسالته فى سابق علمـه ، والذكر الحكيم عنده ، محمـداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه كتابَه وجعل طاعتَه وطاعة نبيِّه صلى الله عليه وسـلم موصولةً بكذا فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ .

تحميـــد

الحمد لله المتكبر فى جبروته المتعزِّز بسلطانه ، المتعالى فى سمواته ، المحتجب عَن خَلْقه ، فلا تُدْركه فى الدنيا أبصارُ الناظريـن ، ولا تُحيط به أوهامُ المتوهِّمين ، ولا تبلُغه صفاتُ الواصفيـن ، الذى لا يؤوده عظيم ، ولا يفوته مطلوب ، ولا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم .

تحميـــد آخر

الحمد لله الحكيم العدلِ ، الذى فَصَل بيـن الحقِّ والباطل ، فنفذ قضاؤُه فى خَلْقه ، وحكم فيهم بمجرى حكمُه على إرادته ، يَقْضى بالنصر والتأييـد ، والعزِّ والفَلَج ، والتمكين للحق وأهله ، وبالذل والوَقْم والخزْى والصَّغَارِ للباطل وأهله ، وجعل ذلك من فضله وحُكْمه عادَةً جاريةً باقيةً ، وسُنَّةً ماضيةً ، لا رادَّ فيما قضى منه لقضائه .

والحمد لله الذى اختص محمدا صلى الله عليه بكراماته ، واصطنعه لرسالاته ، وأنزَل عليه كتابه العـزيز الَّذِى لا يَأْتِيــه الباطلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه وَلَا مِنْ خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيــدٍ ، بما أحلّ وحرّم ، ورَضِى وسخط ، وأَمَرَ به ونَهَى عنه ، وجعله خَاتَمَ النبيين والمُهَيْمِنَ عليهم ، وكتابه الذى أنزل ، آخرَ الكُتبِ المصدّق بها النبى صلى الله عليه وسلم .

تحميد فى الإسلام وما امتن به على أهله من مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى صدر الجهاد

أما بعد ، فإنّ لِدين الله الذى ارتضاه لنفسه ، ولِمَن اصطفاه من خَلْقه ، واجتباه مِن عباده وجعلَه مَعْلَما بين الهُدَى والضلالة ، وفُرْقانا بين الحقّ والباطل ، وحاجزا بين الكُفْر والإيمان ، وظائفَ وَظفَها على أهلها ، وشرائع شَرَعها لهم ، فجعل أداءها إليه ومَعْرفتَها له ، ومحافظتَهم عليها ،

واعتصامَهم بها قِواما لِدينه، ونظاما لنوره وثَبَاتا لِحقّه، واسْتِيجابا لِمـا وعَد من ثوابه، وأَمْنا لِمـا أَوْعَد من عقابه؛ فليس يَسَعُ أهل الإيمـانِ بالله والإقامةِ على حقّه من المسلمين الذين سمّاهم المسلمين بالإسلام، وأحرَز لهم فضلَه وعزّه، وأصار لهم الغَلَبة علىَ مَن خالفهم وفارقهم بما رَكَنوا إليه من الصدود عن سبيله، والتكذيبِ بكتبه ورسـلِه، ودلّتهم فيه قُرَباؤهم، وقادتْهم إليه أهواؤهم، مِن المِلَل الضالة، والأديان المجموعة، التى لم يَنْزِل بها مِن الله سُلطانٌ، ولا كتابٌ ولا برهان، إلّا معرفتُها وأداؤُها بمـا يُستكمَل مِن حُدودها ومَعالمها .

تحميد فى الجهاد وما بعث به النبى صلى الله عليه وسلم

أما بعد، فإنّ الله خالق الخلائقَ بقدرته، وقدّر الأمورَ بعلمه، وأنفذ على ما مضَى من مشيئته، من غير أنْ يكون له ظهيرٌ فى ملكه، أو مُعينٌ على ما يُرَى من عجائب خلقه، واحتذاء منه على سابقٍ مِن صنعة غيرِه، فوحّد نفسَه بما تفرّد به دون غيره من خَلْقه، ليُعْبد مُخْلصا مُبرّأ من الأنداد، إتماما لنوره، وتعزيزا لتوحيده، وتأييدا لِدينه، وإعلاءً لمن اعتصم به، وإقلالا لمَن خالفـه وعَنَد عنه وعبَد غيرَه، وإحقاقا لكلمتـه، فإنه يقول : ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ الآية؛ بذلك أنزَل كُتُبه، وأرسل رُسُلَه ، واحتجّ بهم وبما أنزَل إليهم على مَن مضى من القرون السالفة، والأمم الخالية، يدعو آخرهم إلى ما سبق إليه أوّلُهم، من عِبادته وتوحيده ، لا يستوحشون مِن قِلّة ، ولا يؤتون من كثرة ؛ يُعِزّهم الله بقوّته، ويُؤيدهم بجنده، ويَنصُرهم وينصُر بهم إلى أن بَعَث الله محمّدا صلّى الله عليه وسلّم بما خصّهم به، وجعله مُصَدّقا لهم، ومُهيمنا عليهم، وخاتمَ النبيين بعدهم؛ يمضى لأمر الله، ويجاهـد مَن لم يُجبه إلى الدخول فى دين الله ، فأظهره الله وأنار حقّه، وأرهق عدوّه، وأنجز له ما وعَده وأتمّ بذلك النّعمة عليه وعلى من اتبَعه، فإنّه يقول : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ .

تحميـــد فى فتح

الحمد لله الفتّاح العليم، الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم، الذى أعزّ الإســلام بقُدْرته، وأيّده بنصره؛ فلم يُلحِد فيــه مُلحِدٌ، ويَسْعَ فى تشتيت الكلمة وشَقّ العصا ساعٍ، ويُوضِع

فى الكفر والمعصية مُوضِعٌ ، ويمتنعْ من قضائه وإرادته مُمْتنعٌ إلّا أذلّه الله وقصمه ، وأضرع خدّه ، وأتعس جَدّه ، وضلّل سعيَه ، وعجّل بَوارَه واستئصالَه ؛ حمدا دائما لا انقطاع له ، ولا نفاد لمدّته .

تحميد ثان

والحمد لله الذى اختار الإسلام وشرّفه ، وكرّمه وطهّره ، وأظهَره وأعزّه ، وفطّر عليه ملائكته ، وبَعث به أنبياءه ورُسُلَه ، واختار له خِيرتَه مِن خلقه محمّدا صلّى الله عليه ، فبعثه برسالته ، وأكرمه بوَحيه ، واصطفاه على خَلقه ؛ يُبشّر بالجنّة مَن أطاعه ، ويُنْذِر بالنار مَن عصاه ؛ وجعله دِينه القيّم الذى لا يَقبل دينا غيرَه ولا يُثيب أحدا إلّا عليه .

تحميد فى فتح

الحمد لله العزيز فى مَلَكوته القاهرِ فوق بَرِيّته ، الذى خلَق الخلق بقُدرته ، وأنفَذ فيهم إرادته ومَشيئته ، وقدّر كلّ شىء وأتقنه وأحكمه ، وأحاط عِلما به ؛ فلا يعزب عنه مِثقال ذَرّة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبينٍ .

صدر تحميد فى فتح

الحمد لله الذى ابتدع الخلَق لا من شىء ، وجعل الليل والنهار كَهفا ومُستَجَنّا لكل حىّ ؛ بقُدرته تَجرت البِحار ، وجرتْ لمواقيتِها الأنهارُ ؛ فدار وتطارد الليلُ والنهار ، لا إله إلّا هو ربُّ العرش العظيم .

والحمد لله الذى فات بعظمته أبصارَ المرتئين ، وعلا بمجده عن خَطَرات الحاسبين ، واحتجب بأستار جَبَروته عن مواقع فكر المحصلين المُتعمّقِين ؛ فلم تَحوه الكَمّيّة ، ولم يقع عليه أدوات التحصيل والكَيفيّة ، ولا أدركه هاجِس تبعيض ولا كُلّية ، ولم يُنْسَب إلى زيادة فى حين ، ولا إلى تقصير فى شهور ولا سنين ، فكلّ أمره — عزّ جلاله — تمامٌ ودوام ، وكلّ صفات صنعه اعتدال وكمالٌ ؛ وكلّ ما دونه يحتكم فيه الفَناء والزوالُ ، ليس كمثله شىءٌ وهو السميعُ البصير .

والحمد لله الذى عرّفنا ربوبيّتة إلهاما، ونهج لنا سُبُل طاعته منّا وإكراما، وتعبّدنا بفرضه تقويما وتعليما وآمتنانا؛ فقامت علينا وعلى الخلق حُجّتُه، بالصادع بأمره، والمبلّغ لرسالته، والمجاهد فيه حقّ جهاده، محمد صلى الله عليه وسلم. والحمد لله الذى أعزّ دينه، وأظهر تمكينه، ونصر وليّه، وخذل عدوّه، وأوقع بأسه ونقمته بمحلّ الفرية، وجُرثومة الضلالة، ومناخ الشرك، ومركز الكفر؛ بعد طول الإملاء، والاعتداء فى سفك الدماء، والمُثلة بالأسرى، وقلّة المراقبة والارعواء.

تحميـــــد

الحمد لله حمدا يكون رضاه منتهاه، والمزيدُ من فضله جزاءه. والحمد لله حمدا اليه يتناهى حمد الحامدين، وشكرُ الشاكرين. والحمد لله الذى لا تُحصَى نعماؤُه، ولا تُجزَى آلاؤه، ولا يُكافأ بلاؤه، ولا يُبلَغ شكرُه إلّا بمنّه وتوفيقه؛ حمدا يرضاه ويتقبّله، ويزكو لديه، ويوجب ما تأذّن للشاكرين من يده.

تحميد على فتح

أمّا بعد، فالحمد لله الواحد القهّار، العزيز الجبّار، ذى المنّ والإنعام، والجلال والاكرام؛ الذى آصطفى الإسلام دينا، وآصطفى له من عباده أهلا هداهم له، وأكرمهم به وبيّن لهم مايأتون، ولم يتركهم فى رَيب من أمرهم، ولا شُبهة من دينهم؛ فله الحجّة البالغة ليهلك مَن هلك عن بينة، ويحيا مَن حىّ عن بينة، وإنّ الله لسميع عليمٌ.

والحمد لله الذى ختم بمحمّد صلى الله عليه وسلم النبوّة، وآنتجبه لتبليغ الرسالة، وبعثه إلى خلقه كافة، فبلّغ رسالته، وصدع بأمره، وقام فيما بعثه له بحقّه، ثم أنجز له وعده، وأتمّ له كلمته، وأظهر دين الإسلام به على الدّين كلّه ولو كره المشركون.

تحميد فى فتح

أمّا بعـد، فالحمـد لله الأوّل الآخر، الظاهر الباطن، الولى الحميد، القوىّ العزيز؛ الذى لا يقدُر العبادُ قدرَه، ولا يُحصون نعمه، ولا يبلغون شكرَه؛ المحيط بكلّ شىء علما،

والمُحصى كلّ شيء عــددا؛ فلا يُعجزه كبير، ولا يعزب عنه صغير، والأرضُ جميعا قبضتُه يوم القيامة، والسموات مطويّات بيمينه، سبحانه وتعالى عمّا يشركون .

تحميـــد

الحمد لله المتوحِّد بالخلق والأمر، قادرا قاهرا أحاط بكلّ شيء علما، وأحصى كلّ شيء عددا، وملأه عظمةً، ووسعه عدْلا، وأتقنه صُنْعا. والحمد لله الذى أعزّ بالحق مَن أطاعه، وأذلّ بالباطل مَن عصاه، وجعل الطاعة والجماعة حِرْزا حَرِيزا، وموئلا مُنِيفا؛ فلم يجمع بين أهل كفرٍ وإيمانٍ، وطاعةٍ وعِصْيان، إلّا توحّد بالصنع لأهل طاعته، وأنجح سَعْيهم، وأعلَى كلمتهـم، وأفلَج حُجّتهـم، وأنزل بأهل الكفر المُعاندين عنه، الرادّين لأمره الذّلّة والصَّغار فى عاجلهم وآجلهم؛ حمدا يكون لِمَزيده موجِبا، ولحقّه مؤدّيا .

تحميد فى فتح لسعيد بن حُمَيْد عن وصيف

أمّا بعد، فالحمـد لله الحميد المجيـد، الفعّال لمـا يريد؛ الذى خلق الخلق بقدرته، وأمضاه على مشيئته، ودبّره بعلمه، وأظهر فيه آثار حكمته التى تدعو العقولَ إلى معرفته، وتشهَد لذوى الألباب بربوبيّته، وتدُلّ على وحدانيته؛ لم يكن له شريكٌ فى ملكه فينازعَه، ولا معينٌ على ماخلق فتلزمَه الحاجة إليه؛ فليس يتصرّف عباده فى حال إلّا كانت دليـلا عليه، ولا تقَع الأبصار على شيء إلّا كان شاهدا له، بما رسم فيه مِن آثار صُنْعه، وأبان فيه من دلائلِ تدبيره، إعذارا بحجته، وتطوّلا بنعمته، وهداية إلى حقّه، وإرشادا إلى سبيل طاعته، وهو الذى يَبْدأ الخلق ثم يُعيده، وهو أهون عليه؛ وله المَثَلُ الأعلى فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم .

والحمـد لله العزيز القهّار، الملك الجبّار، الذى آصطفى الإسـلام وآختاره، وآرتضاه وطهّره، وأعلاه وأظهره؛ بجعله حُجّة أهله على مَن شاقّهم، ووسيلتهم إلى النصر على[مَن] عَنَد فى حقهم، وآبتغى غير سبيلهم؛ وبعث به رُسُلَه يدعون إلى حقّه، ويهدون إلى سبيله،

بالآيات التى يبيّنون بها عن المخلوقين، ويوجبون بها الحجّة على المخالفين؛ حتى انتهتْ كرامة الله إلى خاتم أنبيائه، وحامل كتابه، ومفتاح رحمته صلى الله عليه وسلم؛ على حين فترة من الرسل، واختلاف من المِلَل، ودثور من اعلام الحق، واستعلاء من الباطل، والناس عاندون عن سبيل ربهم، يتسافكون دماءهم، ويحلّون ماحرّم الله عليهم، ويعبدون من دون الله مالا يضرّهم ولا ينفعهم؛ وأيّده بالبرهان الواضح، والحجج القواطع، والآيات الشواهد؛ وأنزل عليه كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد؛ وجعل فيه أوضح الدليل على رسالته، وأعدلَ الشواهد على نُبوّته؛ إذ عجز المخلوقون عن أن يأتوا بمثله على مرّ الأيام، وكثرة الأعداء والمنازعين؛ يتحدّاهم به فى المواسم، ويقصدهم بحجّته فى المحافل؛ ولا يزدادون عنه إلّا حُسورا وعجزا، ولا تزداد حجّة الله عليهم إلّا تظاهرا وعلوّا؛ ثم أيّده بالنصر بأنصارٍ ألّف بينهم بطاعته، وجمعهم على حقّه، ولمّ شعثهم بنُصْرة دينه، بعد الشّقاق المتّصل بينهم، والحربِ المُفرّقة لجماعتهم؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾. وقدّم اليه وعْده بالنُّصرة والتمكين، بجعله بُشرى للمؤمنين، وحجّة على الكافرين، ودليلا على ما بعثه به من الدّين؛ فهزم بالقليل من عددهم الكثير من عدد أعدائهم، وغلب بضُعفائهم أهلَ القوّة ممّن ناوأهم؛ ففلّ به حدّهم، وفضّ جموعهم، وافتتح حصونهم، وحريزَ معاقلهم؛ وأظهر بحجّته ونَصْره عليهم، وأنجز سابق وعده لهم وفيهم، والله لا يُخلف الميعاد.

تحميد لابن المقفع

الحمد لله ذى العَظَمة القاهرة، والآلاءِ الظاهرة؛ الذى لا يُعجِزُه شىء ولا يمتنع منه، ولا يُدفع قضاؤه ولا أمرُه؛ ﴿وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. والحمد لله الذى خلق الخلق بعلمه، ودبّر الأمور بحُكمه، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمَه؛ بقدرة منه عليها، وملَكةٍ منه لها، لا مُعقّب لحُكْمه، ولا شريك له فى شىء من الأمور، يخلق ما يشاء ويختار، ما كان للناس الخِيَرة فى شىء من أمورهم. سبحان الله وتعالى عمّا يشركون.

والحمد لله الذى جعل صَفْوَة ما اختار من الأمور دينَه الذى ارتضى لنفسه ولمن أراد كرامتـه من عباده، فقام به ملائكتُه المقربون، يُعظمون جلاله، ويُقدّسون أسمـاءه، ويذكرون آلاءه، لا يَستحسرون عن عبادته ولا يسـتكبرون، يُسبّحون الليـلَ والنهارَ لا يَفترون؛ وقام به مَن اختار من أنبيائه وخُلَفائه وأوليائه فى أرضه، يُطيعون أمرَه، ويَذُبُّون عن محارمه، ويُصدِّقون بوعْده، ويُوفون بعهده، ويأخذون بحقه، ويُجاهدون عدوَّه؛ وكان لهم عند ما وعدَهم مِن تصديقه قولَهم وإفلاجِه حجّتَهم، وإعزازِه دينَهم، وإظهارِه حقَّهم، وتمكينه لهم؛ وكان لعدوّه وعدوّهم عنـد ما أوْعدهم من خِزْيه، وإحلالِه بأسَهم، وانتقامه منهـم، وغضبه عليهم، مضَى على ذلك أمرُه، ونفذ فيـه قضاؤه فيما مضَى، وهو ممضيه ومنفّذُه على ذلك فيما بَقِى، ليتم نورَه ولو كَرِه الكافرون؛ وليُحِقّ الحقّ ويُبْطلَ الباطل ولو كَرِه المجرمون .

والحمد لله الذى لا يَقضى فى الأمور ولا يُدَبِّرها غيرُه، ابتدأها بعِلْمه، وأمضاها بقُدْرته، وهو وليّها ومنتهاها، وولىّ الخِيرَة فيها، والإمضاء لمـا أحبّ أن يُمْضِىَ منها، يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخِيرَة سبحان الله وتعالى عمّا يُشْرِكون .

والحمد لله الفتاح العليم، العزيز الحكيم، ذى المَنّ والطوْل، والقدرة والحَوْل، الذى لا مُمسك لمـا فتح لأوليائه من رحمته، ولا دافع لمـا أنزل بأعدائه من نقْمته، ولا راد لأمره فى ذلك وقضائه يفعلُ ما يشاء، ويَحكم ما يُريد .

والحمــد لله المُثيبِ بحمده ومنه ابتــداؤه، والمُنْعِم بشكره وعليه جزاؤه، والمُثْنى بالإيمـان وهو عطاؤه .

لآخــــر

الحمد لله الذى يَتَطوّل بالنعم مُبْتدئا، ويُعْطى الخير مَنْ يشاء ويُثيبُ عليه .

تحميد لغسّان بن عبد الحميـد

كاتب جعفر بن سليمان فى المطر :

الحمد لله الذى نشَر رحمته فى بلاده، وبسَط سِعَته على عباده، الذى لا يَزال العبادُ منه فى رزق يَقْتسمونه، وفضلٍ يَنْتظرونه، لا ينْقُضُه ما قبْله، ولا ينْقَضِى ما بعدَه .

لأحمد بن يوسف فى فتح السِّند

الحمدلله وَلِىّ الحمد، وأهلِ الثناء والمجد، خالقِ الخَلْق، ومُدَبِّرِ الأمر، المسبِغ على عباده والمُوجِبِ عليهم حُجّته، فليسوا يرجون إلّا سِعَة فَضْـله ، ولا يَحْذرون إلّا ما آجترحوا من مَعْصيته ، لمـا سبق من جَزيل إحسانه، وتظاهر من آمتنانه، وتقدّم به الإعذارُ والإنذارُ اللذان لا يَستخِفّ بما عظُم منهما إلّا مَن آستحوذ عليه الشيطان، وآستولَى عليه الخذْلان، وقاده الحَيْن الى موارد الهَلَكة .

التحميد الثـانى

الحمـد لله الذى آصطفَى الإسلام دِينا فطَهّره وأَسْناه ، وأظهره وأعلاه، وزيّنه بكلّ حَسَنة، ونَفَى عنه كلّ سيّئة، وجعله الى مَذْخور كرامته سببا واصلا ، وسبيلا نَهْجًا ، وبعث به محمدا صلى الله عليه وسلم ليَهْدىَ مَن كان حيّا، ويَحِقّ القولُ على الكافرين .

تقريظـه فى الخليفــة

الحمد لله الذى آصطفَى أمير المؤمنين لخلافته، وتلافَى الأمة بسُلْطانه، بجعله القائم فيهم بقسطه، والمُسْتفرِغَ فى آلتماس مصلحتهم هَمّه .

لأحمـــد بن يوسف

عن ذى الرياستين الى ابراهيم بن إسماعيل بن داود صدر فتح :

أما بعد ، فالحمد لله الذى حفِظ من دينه ما ضَيّع الملحدون، ورَأَب منه ما [فرقتـه](1) الصدْعة، وأعاد من حبله ماحاولوا نقضَه، حتّى أعاد لعباده أحسن أُلْفتهم، وردّ اليهم أجمل

(١) بياض فى الأصل . وما أثبتناه يناسب المقام .

عَوْدهم، من الاستشلاء بعد التردّى فى قُحَم المعاطب، والاستنقاذِ بعد التوريط فى المهالك؛ وبلّغ خليفته القائم بحقّــه، المُؤتمّ بكتابه، الذائد عن حَريم الدِّين، وميراث النبيين، أجزلَ ما بلّغ الخُلَفاء الراشدين المهديِّين، مِن إعلاء الكَلِمة، وغَلَبة الأعداء، والفوز بالعاقبة التى وعَدَها المتقين؛ وفرغه لمـا أشعَر قلبه، وشرَح له صدرَه، من إمضاء حُكْم الفرائض المُوجَبَة، واقتفاءِ السنن الهادية، حيث سلك به مِن المناهج؛ حمدا يوازى نِعمه، ويبلغ أداء شكره، ويوجِب مزيده.

والحمد لله على ما خصّنا به من إعلاء الدرجة، وإسناء الرتبة، فى مشايعة أمير المؤمنين — أيّده الله — والمجاهدةِ عن حقّه، والوفاءِ لله بما عقَده له؛ لانريد بما كان منّا إلّا وجهَه، ولا نسعَى فيه إلّا لرضاه؛ حمدا لايُحصَى عدده، ولا ينْقطع أمدُه.

تحميد لأبى عبيد الله

أمّا بعد، فالحمد لله ذى الآلاء والقُدْرة، والطوْل والعزّة؛ الذى أصطفَى الإسلام دِينا لنفسه، وملائكته وأنبيائه ومن كَرُم عليه مِن خلقه، فبعَث به محمدا صلّى الله عليه وسلم اختصاصا له فى ذلك بكَراماته، وأصطفاءً له به على عباده؛ فأعزّه ومنعه، وكفاه وحاطه، وتوكّل لأهله بالعلم والتمكين، والظهور والتأييد؛ فلم يُلْحد فيه ملحِد، ولم يَزِغ عن قبول حقّه زائغ، بعد إعذار الله إليه، وإعادةِ الحُجّة لله عليه، إلّا أُنْزِل به من الذلّ والصَّغار والاجتياح والاستئصال ما يجعل له فيه قمعا؛ حمدا كثيرا دائما مُرْضيا له، مؤمّنا من غيره، موجبا لأفضل مزيد ثوابه.

تحميد لسعيد بن حُمَيد فى فتح

أما بعــد، فالحمد لله المُنْعم فلا يبلغ أحد شُكرَ نعمته، والقادرِ فلا يُعارَض فى قدرته، والعزيزِ فلا يُغالب فى أمره، والحكم العدْل فلا يُرَدّ حكمُه، والناصر فلا يكون نصره إلا للحقّ وأهلِه، والمـالكِ لكل شيء فلا يَخرج أحد عن سلطانه، والهادِى إلى سـبيل رحمته فلا يَضلّ من آنقاد لطاعته، والمُقدِّمِ إعذارَه ليُظاهِر به حُجّته؛ الذى جعل دِينه لعباده رحمة، وخلافته عصمة، وطاعةَ خُلفائه فرضا واجبا على كافّة الأمم؛ فهم المُستحفَظون فى أرضه

على ما بعث به رُسله ، وأمناؤه على خلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والحاملون لهم على مناهج حقّه ، لئلا تُشعّب بهم الطرق المخالفةُ لسبيله ، والهادون لهم إلى صراطه ليجمعهم على الجادّة التى ندب إليها عباده ، بهم حُمِى الدين من البُغاة الطاغين ، وحُفظت معالم الحق من الغواة المخالفين ، مُحتجّين على الأمم بكتاب الله عزّ وجلّ الذى آستعملهم به ، ورُعاةً للأمر بحق الله الذى آختارهم له ؛ إنْ جادلوا كانت حُجّة الله معهم ، وإنْ حاربوا فالنصر لهم ، وإنْ جاهدوا كان فى طاعة الله نصرُهم ، وإنْ بناهم عدُوّ كانت نِكاية الله حائلةً دونهم ، ومَعْقِلالهم ، وإنْ كادهم كائد فالله فى عونهم ؛ نصبهم الله لإعزاز دينه ، فمن عاداهم فإنما عادى الذين عزّبهم وحُرِس بهم حقّه ، ومَن ناوأهم فإنّما طعن على الحقّ الذى تكلؤه حراستُهم ، جيوشُهم بالرعْب منصورة ، وكتائبُهم بسلطان الله من عدوّهم محوطة ، وأيديهم بذَبّها عن دين الله عالية ، وأشياعُهم بتَناصرهم غالبةٌ ، وأحزابُ أعدائهم ببغيهم مَقْموعةٌ ، وحُجَتهم عند الله وخَلْقه داحضةٌ ، ووسائلهم إلى النصر مردودةٌ ، وأحكامُ الله بخذلانهم واقعةٌ ، وأقدارُه بإسلامهم إلى أوليائه جارية ، وعادتُه فيهم وفى الأمم السالفة والقُرون الخالية ماضيةٌ ، ليكون أهل الحق على ثِقَة من إنجاز سابق الوعد ، وأعداؤه محجوجين بما قدّم إليهم من الإنذار ، مُعَجّلة لهم نِقْمة الله بأيدى أوليائه ، مُعدّا لهم العذاب عند ردّهم إليه خزْيا موصولا بنواصيهم فى دُنْياهم ، وعذابُ الآخرة من ورائهم وما الله بظلّام للعبيد . وصلّى الله على محمد أمينه المصطفَى ، ورسولِه المرتضَى ، والمُنقذ من الضلالة والعَمى ، صلاةً نامية بركاتُها ، دائما آتصالُها ، وسلّم تسليما .

والحمد لله تواضعًا لعظمته ، والحمد لله إقرارًا بربوبيته ، والحمد لله اعترافًا بقصور أقصى منازل الشكر عن أدنى منزلة من منازل كرامته .

فيما يُقَرّظ به الخليفة

والحمد لله الذى حاز لأمير المؤمنين وِرَاثته ، وساق اليه خِلافَته ، بالحاجة منها إليه ، والرغبة منه عنها ، وآستخلص من خَلْقه مَن جعله ظَهيرا للحوادث ، وعُدّة للنوازل ؛ فلما

أفضتْ الخلافة إليه حسر أمامه أحاجلته[1]، وكشف قِناعه لمحاربته؛ فالحمد لله الذى اختص أمير المؤمنين بخلافته، وآرتضاه لولاية أمرِ أمّة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والقيامِ بحقّه، والذبّ عن حُرُماته؛ وحاط له ما آسترعاه من ذلك، وقلّده بحسن الولاية والكفاية، وتوكّل له بالحفظ والتأييد، والنصر والغلبة والظهور على مَن عنَد عن طاعته، وصدَف عن حقّه، وآبتغى غيرَ سبيله؛ كرامة من الله تطوّل بها عليه، ومِنّة منه توحّد بها له .

والحمـد لله الذى جعل نيّة أمير المؤمنين عَزيمته، وفِكْره ورَوِيّته، منـذ أفضى الله بالخلافة إليه، وجعله القائم بإرث نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم وآستحفظه من عباده وبلاده فيما فيه عِز الدين، ونِظام أمر المسلمين وترهينُ الشـكر، وإذلالُ الأعداء، وإشجاؤهم ووقْمهم، وتحصين البَيْضة، وإثخانُ الثغور، ولمُّ المُنْتشر، وضمّ الأطراف؛ لا يَفْتَأه عن ذلك فاثئ، ولا يَذْهَـله عن تفقّد كبير أمره وصغيره ومقابلتِه ذاهلٌ؛ يستقِل كثيرَ ما يُنْفِق من الأموال فى سَدّ الثغور، وتحصينها وحراستها، لمـا يرجو فيه من جسيم الحظّ، وجَزِيل الذُّخر، وكثير الأجر؛ تقرّبا الى الله وآحتسابا له فى جنْب ثوابه، وكريم مآبه؛ حتى رأب به الصدْع، ورتَق به الفتْق، وأمّن به السبُل، وأقام به العِوج، وأفلج به الحُجج، وأعلى به الدرَج، وأزهق به الباطل، وأحيا به الحق، وأشام به سيوف أهـل الضلالة والفِتْنة؛ لا تأخذه فى القيام بحقّ الله والانتصار لدينـه، والانتِصاح لأمة نبيّـه محمد صلى الله عليـه وسـلم، والذّبّ عن حوزتهم، والرمى من ورائهم، ودفع بَائقة أهـل الشّقاق والنفاق والخلاف والمَعصية عنهم فَترةٌ ولا سآمةٌ؛ توفيقا من الله، وتَسديدا لحُرْمته، وتأييدا لعزْمه، إذ كان لله شاكرا، ولِدِينه ناصرا، وبحقّه قائمـا؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلّا بالله وحدَه، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون .

والحمد لله الذى لم يزل منذ أفضى الى أمير المؤمنين بخلافته، وحيّاه بكرامته، يَختصّه بالخيرَة فى كل ما أمضى من أمره، ويتولّاه بالتوفيق فى كلّ ما أبرَم من تدبيره، ويَحمِل عنه

(١) هكذا وردت فى الأصل . ولم نوفق الى تحقيقها .

أعباء ما حمّله، ويُعينه بتأييده على ما قلّده، ويحوطُه بجميل الصنع فيما ولاه واستحفظه، ويُلهمه جهاد عدوه، ويحبوه بنصره؛ حمدا قاضيا لحقّ نِعمته، مُوجبا أفضل مزيده .

والحمد لله الذى أورث أمير المؤمنين مواريثَ نُبوّته، وصيّر اليه مقاليد خلافته، وأوجب ذلك له بالقرابة برسوله صلى الله عليه وسلم، والوِراثةِ لوراثته من عُصْبته وأَوْلى الناس به؛ ثم أعزّ نصره، وأعلى كَلِمته، وأفلج حُجّته، وأظهر على المشركين والمنافقين، ومن حادّه وعانده من الناكثين والمارقين، والباغين والملحدين، فأتعس جدودهم وفعل وفعل .

والحمد لله الذى عَرّف أميرَ المؤمنين منذ استخلفه فى أرضه، وآئتمنه على خَلْقه، من عظيم نِعمه، ولطيف صُنْعه، وجميلِ بلائه، واعزازِ نصره، واعلاء يده وكلمته، وإفلاج حُجّتِه على مَن ضاده وحادّه، إنّ الله بعظيم طَوْله ومَنّه آرتضَى أميرَ المؤمنين لدينه، واصطنعه لخلافته، فخلاه سِرْبالها، وردّاه بهاءَها وجمالها، فاستعمله بالكتاب والسنة والحقّ والعدل فيها؛ فأيّده بقوّته، وأعزّه بنَصْره، وحاطه بكفايته، وتولّى الصُّنع له فى جميع أموره؛ فلم يَكِده كائد، ويُعانده مُعاند، ويَمْرُق عن طاعته الواجبة مارِق، ويُلْحِد فى إمامَته مُلحد، ممّن يعالِن بمعصيةٍ وشِقاق، أو يَنْطوِى على غِلّ ونِفاق، إلّا أوهَن الله كيده، وأتعس جَدّه، وعاجل المُبادئَ بعداوته، الشاهرَ على الدّين والمسلمين سيفه، باصطلام وبوَار، وأمكن منه بذِلّة وصَغار، وقتل المسرّ غيره، المُنْطَوِى على غِلّه بغَيْظه وغَمّه، وأماته بدائه وحَسْرته؛ إنجازا منه جلّ ثناؤه لوعده، وإتماما لكَلِمته فيما وعد الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات من آستخلافهم فى أرضه، والتّمكين فى دِينه؛ وله الحمد دائما، والشكرُ خالصا، كما هو أهلُه وكما يَنبغِى أن يُحمد ويُشْكر، لا إله إلّا هو الواحد القهار .

والحمد لله الذى لم يُبق لأمير المؤمنين عدوّا من الناكثين والجاحدين، والمشركين والمنافقين، حاولَ نقضا لإمامَته التى صيّرها الله اليه، وقلّده إيّاها؛ أو صاول جيشا من جيوشه التى أعدّها للُحاماة عن دِين الله ومَحارمه، وإقامة سننه ومَعالمه، إلّا أحلّ به النّقمة، وأصاره الى الصَّغار والذّلة، والبوار والهَلَكة، وعجّله الى ناره وعذابه .

والحمـد لله الذى لم يزل يتولّى أمير المؤمنين بحياطتـه ، ويتوحّد له من إعزاز نصره وإعلاءِ كلمته، وإفلاج حُجّته ، وتأييد أوليائه وأنصار حقّه ؛ وأنزل البأس والنّقمة والمُثُلات والسطوة بمن عانده، والذّبّ عن حريم المسلمين وأهلِه ؛ بما يُبيّن به عن مكانه منه، ومنزلته عنـده ؛ حميدا ربّنا بذلك كما هو أهلُه ومستحقُّه، مشكورا بعظيم منّه فيه وطَوْله، مسؤلا لتمـام أحسن عائدته وماضِى سـنّته ؛ فإنّ الله المحمودَ على نعمه ، المشكورَ بآلائه، لم يزل مايتوحّد به لأمير المؤمنين بسلطانه من التعزيز، وفى أوليائه من التأييد بنصره، عادة يَتَبيّن بها برهانه، ويُفْلج بها حُجّته، ويَدُلّ بها على كرامته عليه ، ويُخبر بها عن منزلته عنده؛ ويجعل ما نزل بأعدائه المتولّين عنـه ، الراغبين إلى غيره، المُلْحدين فى حقّه ، عِظَة لمن قسا قلبُـه ، وران عليه سوءُ عمله ، ليكون مايُعطيه من البسط فى مُلْكه ، والتمهيد فيما خوّلَه له ، ويُوفّقه من السطوة بعدوّه، والتنكيل بمن خالفه، حُجّتين متظاهرتَين، وعبرتين (1) سن ؛ فيعتصِم مُعْتصم، وينجو ناجٍ، وليشْجُبَ [شاجب] (2) ويَهْلك هالك، وقد مضتْ من الله المشيئة، ووضح منه الإعذارُ، وكان الله بعباده عليما، وبأعمالهم خبيرا .

والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بخلافته : وجعله وارث وَحْيه، وقَيِّمَه بكتابه فى عباده، وأكرم هذه الأمة التى جعلها خير أمة أُخرِجت للنـاس به ؛ فهو الميمون فى تدبيره المنجح حَويلُه، الميمونُ النـّقيبة ، المُوَفّق الرأى والسياسة ؛ فإنّ الله عز وجل خلق الخـلائق بقدرته، وآختارهم بعلمه ، فاختار أمير المؤمنين لخلافته ، وآصطنعه للقيام فى العباد والبلاد بأمره وقِسْطه، وألهمه إقامة أحكامه وفرائضه، والعملَ بحقّه وعدله ، وأبلَى أهل الشرك به، وأخّرها الى أيام دولته، وحظَرها عمّن كان قَبْله ؛ حتّى حاز له أجرها، وأبقَى له سَناءها وذِكرها ، ونشر عنه أُحدوثتَها وسماعها ؛ وفتح عليه البُلدان القاصية، والمدائن المُتنائية، التى لم تكن تُرام من أهلها ، ولا يُطمَع فى زوالها ،وذلّت له الملوك القديم عُتُوُّها وعنادُها ، والأممُ المُسْتصعبُ مراسها وجهادها ، الحاميةُ فى آباد الدهور حِماها ؛ فأنفذ فيهم مَكيدتَه ، وأنجح

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها بالغتين . (٢) كذا فى الأصل ، ولعلها وليشجب .

سَعيَه، ورماهم بالتخويف، وملأ قلوبهم رُعْبا منه ؛ فأذعن مُذْعِنوهم بطاعته ، وآنقادوا لأمره، وصاروا يدا وأعوانا لأوليائه على أعدائه .

أما بعد، فإن أعظم النعم قَدْرا، وأجلَّها أمرا، وأسرّها مَوْقعا، وأوجبها شُكْرا، ما عمّ الإسلامَ والمسلمين نَفْعُها ، وعادتْ عليهم عائدتُها ، وجعل الله فيه عزّ الدين ، وذُلّ المشركين ؛ وقد جعل الله ذلك في خِلافة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بيمنه وبركاته ، وما أخلص الله من نيّته وطاعته، وتأدية حقّه فيما استحفظه من أمر دينه وعباده، وفرغ له نفسَه، وأنصب فيه بدنَه، وأسهر فيه ليلَه ، من حِياطة حريم الإسلام، والزيادة في حدودها مُتّصلا مُتَتابعا، والنعم متظاهرة ومُتوافرة، فسهّل الصعب، وذلّل له العزيز، وقصَم عُتاة الأعداء ومتكبّريهم ، والمستعصين والمستصعبين منهم ، في آباد الدهور على من رامهم؛ وفتح عليهم حصون مدائنهم ، وممتنع قلاعهم، وأنفذ مكيدته فيهم؛ فبيْن مقتول ومأسور، وشريد طريد عن محلّته ، وموضع عزّه ومَنَعته، مُستسلِم مُعْطٍ قِيادَه باخع بطاعته. وكذا فإنّ الله بمنّه وطَوْله قد أوصل لأمير المؤمنين من صُنْعه له فيما قلّده من خلافته، وحِياطته إيّاها فيما يَحوطه من دِينه، وعرّفه من كِفايته فيما قام به من حقّه ، وأيّده من نَصْره فيما جاهد عنه في سبيله ، ما قد جعل النِّعمة به عامة، والشكرَ به لازما، والمِنّة به واجبة، والصُّنعَ عظيما؛ فالحمد لله على نِعمه في ذلك كثيرا .

والحمد لله الذي جعل آجتهاد أمير المؤمنين ومُقامَ أمره وتدبيره، في آناء الليل ونهاره ، فيما فيه صلاحُ عباده، وإعزازُ دينه وإقامةُ حقّه .

تحميد

الحمد لله الذي لمّا آفترض من الطاعة لِوُلاة الأمر من خُلفائه جعل أوائلها ناطقةً عن فضل أواخرها، وبوادئها مُخبِرةً عن حميد عواقبها، ومواردَها مُبَشِّرةً بالعلوّ في مصادرها، بما يَعقُبه أهلَها من السعادة في الماضين من أوليائها القائمين بحقّها؛ وعاد من الشِّقوة على مُفارِقي المَعصية المُلْحدين اليها ؛ حين أقبلت بهم هوادِي الفِتن ، وكشفت لهم تَواليها عن البَوار

والمَلَكة ؛ مُعْتذرين حين لا عذر ولا حُجّة، طالبين للمَهارِب بعد أن كانت منازلُ السلامة بهم مُطمَئِنّة، وخائفين وقد كانت سُبُل الأمن لهم واضحةً ؛ قد جعلتهم النِّقمة الواقعةُ بهم أمثالا سائرةً، وفرّقت بينهم وبين النِّعم الشاملة، وحصّلت السعادة لمن آتعظ بهم باقيةً، سنّة من الله فيهم ماضيةٌ، وعادة جاريةٌ، ولن تجد لِسنّة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا.

والحمـد لله الذى آختار أمير المؤمنين لخلافته فحرس به دِينه من البُغاة الناكثين عنه، وآختصّه بأعلاء رُتب كرامتـه، وآفترض طاعتَه على عباده، وجعلها بمواقعها فى دِينه نِظاما لسائر فرائضه، فتاركها مُفارق لِعصْمة حقّه، خارجٌ من جملة الأمّة التى سبقت لها رحمتُه؛ يستنصر أشياعَ الباطل والله خاذلُه، ويُغالب الحقّ والله غالبُه، ويَطلب مالا سبيل له اليه والله طالبُه؛ حتّى يَخلِجه أجلُه عن أمله، وأقدارُ الله فيه عن تقديره، ونفوذُ قضاء الله فيه عن نفوذ حِيَله؛ فضلًا مِن الله على أوليائه وقضاءً منه عدْلا فى أعدائه، والله ذو الفضل العظيم.

والحمـد لله الذى آختار أمير المؤمنين لِرعاية عباده، وحِفْظ بلادِه، وتنفيذ أحكامِه، وإقامةِ حدودِه؛ بجمع به الأُلْفة، وكفّ به بَوائق الفِتْنة، وأصلح به أمور الأمّة، وسكّن به الدهماء، ودفع به عظيم البلاء، وأنقذ به من الجُهْد واللّأْواء؛ وجدّد لرَعِيّتـه العبرَ الشافية، والعِظَة الناهية، وجعل همّه السعيَ لربّه، وطلبَ الحق الذى أوجبه له من خِلافته، ليؤدّىَ فرضه فى الأمانة التى حمَلَها؛ فيُوجب له بذلك مالا يَزول ولا ينْقطع من ثوابه، فأَعمَلَ رأيه فى الرأفة بمن ولّاه أمره، والحِياطة له، والعِناية بصلاحهم؛ فأعطاه لِين الموعظة فى وقت التأنى، والنفوذَ لإقامة الحُجّة والبيِّنة، وشِدّةَ السطْوةَ على مَن غمَط النعمة وعَنَد به الإضرار عن النُّزوع والفَيْئة؛ مَنًّا من الله وتفضلا، وإحسانًا وتطَوُّلا، والله ذو فضل عظيم.

ويسأل الله أميرُ المؤمنين مُبتدِئا ومُعقِّبا، وأوّلا وآخرا، وقبـل كلّ مسئلة، وأمام كلّ رغبة، ومُقدِّمةَ كلّ طَلِبة، أن يُصلِّىَ على صفوته من عباده، وخِيرته وخاتَمِ أنبيائه ورُسله، محمّدٍ عبـده ورسوله، أفضلَ صلواته؛ ويُباركَ أكثرَ بركاته، وأنْ يُديم له كرامته، ويُجرىَ عنده أجمل عاداته، ويُتمّ له ما آختصه به من إحسانه؛ حتّى يملأ الأرض عَدْلا وقِسطا،

والإسلامَ تأييدا وعِزّا، والشِّرْك ذُلّا وقَمْعا؛ إنه وليّ كلّ نِعمة، ومنتهى كلّ رَغبة، وغايةُ كلّ حاجة .

ولم يزل أمير المؤمنين منذ الوقت الذى أفضى الله اليه بخلافته ، وأكرمَه بردّ حقّه من إرث نبُوّته، يتلقّ عظيم النعمة فى ذلك بالإخلاص للنيّة والطّويّة فى الصفح عن كلّ زَلّة ، والإقالة لكلّ عَثْرة، والتعمد للهَفْوة وقبول الفَيْئة ، والإنابة ممن عظُم جرمُه، وجلّ ذنبُه ، وظنّ أن لا توبةَ له ؛ وكلما جدّد الله له نعمة ، جدّد له فى ذلك نيّة حَسَنة ، شكرا لله عزّ وجلّ على ما ابتدأه به، وارتهانا لِنعَمه عنده، واستزادةً من جميل مَواهبه، وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رَعيّته، وآستقامةُ أمورها ، وحِياطتُها والذّبُّ عنها. وكَفُّ الأذى والمكروه عن الدانى والقاصى منها ؛ ويتخلّص إلى ذلك بكلّ ما يجد اليه السبيلَ ويجتهدُ فيه، ويعمَلُ لكثرة أوقات دهره فى كلّ مابلّغه محبّته نظرا لها ، وحَدَبا على كافّتها ، وإشفاقا من سوء حالها ؛ إذ كان لها والدا برّا، وراعيا كالِئا، وناظرا لطيفا ؛ ويستعمل كلّ ما يرجو ائتلافَها ، والإبقاءَ على أحوالها ، والسلامةَ لها فى دِينها ودُنياها ؛ وينصَب لذلك ليله ونهارَه، ويُذيبُ فيه نفسه، ويجعله شُغلَه دون غيره .

والحمد لله الذى آصطفى أمير المؤمنين بخلافته ، وأكرمه بإرث نُبُوّته ، وجعل خلافتـه خلافة يُمْن وبركة ، ولطف وسعادة ؛ انتاش بها أولياءَه من موارد الهَلَكة فرفع منزلتهم ، وشرّف درجتهم ، وأعلى كلِمتهم، وأذلّ بها أعداءَهم، وجذّ دوابرهم ؛ وردّ دائرة السوء عليهم؛ وحباه مَزيّة نَصْره وتمكينه، وإعزازِه وتأييده، وإظهارِه على من ناوأه وعَنَد عن حقّه ، وصدَف عن طاعته ، فإنّ الله لمّا اختار أمير المؤمنين لخلافته فأيّده بها ، جعل الحقّ نِيّتَه ، وإعزازَ الدّين بُغيَته ، ومجاهدَة أعداء الله شرقا وغربا وبرا وبحرا نَهْمَته وإرادته ؛ ثم يسره فى ذلك لِما أحسن به عونه ، على من آستحفظه وقلّده ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

والحمد لله الذى كان لسابق علمه وسالف قضائه ، الذى لا يستطيع الناسُ ردّه ، ولا مَنْعه ولا صَرْفه ، مَا وَلّى أميرَ المؤمنين من خلافته ، وما آبتعثه له من النصر لدينه ، والطلب لحقّه ، والجهادِ لأعدائه ، وأحسن فى ذلك عَوْنَه فيـه وبلاءَه ، وأيّده فى نفسه ، لم يَنْقُصه خِذْلان خاذل ، ولا مخالفة مَن خالف ، ولم يزد أمرُه فى شىء من ذلك إلّا تماما وإحكاما ؛ حتّى أظهر حقّه ، وأفلج حُجّتـه ، ومحق باطل أعدائه ، وأدحض حججهم ؛ وجعـل أهل طاعته حزبه الغالبين ، وجُنْده المنصورين ؛ وجعل عدوّه وعدوّكم حزب الشيطان الخاسرين ، وأولياءَه الأذلّين ؛ بغير حـول من أمير المؤمنين فى شىء ممـا ولّاه وأبلاه ، ولا قوّة إلّا بالله العلىّ العظيم .

لأبى عبيـــد الله

والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بما أصار اليـه من الخلافة وإرثِ النُّبُوّة ، وجعله القائم بأمر عباده وبلادِه ، والمحيىَ لسننه ، والذّابَّ عن دِينه وحقّه ، والمُناصبَ لأهل الشرك والجُحود به ؛ ثم نصره وأظهر فضـل أيامه ودَوْلَته ، ومكّن له فى بلاد عدوّه ، وجعل كَلِمته العُليا وأنصارَه الغالبين ، ومَن ناوأه من أهل الخلاف الأذلّين المقهورين ؛ وعرّفه من نعمته فى ذلك ومِنّته وجميلِ صُنْعه وعاداتِه ، أحسنَ ما عوّد أحدا من أوليائه الذابّين عن الإسلام وأهلِه ؛ حمدا مُتَتابعا لا آنقطاع له ولا آنصرام ، دون بلوغ حقّه ، وقد كان كذا وكذا .

ما يكتب به فى المخالفين فى وقت الهزيمة

نَكَصوا على أدبارهم مَنكوبين مَهزومين ، قد ضرب الله وجوهَهم ، وفَتّ فى أعضادهم ، ومنح الأولياء أكتافَهم ؛ فقتلوهم فى كلّ فجّ ، وعلى رأس كلّ تَلْعة ومَهْرب ومَسْلك ؛ أباد الله خَضْراءَهم وغَضْراءَهم ، وحصَـد شوكتهم ، وفلّ حدّهم ، وأباخ[(١)] نيران ضلالتهـم وكفرهم ، وشفَى منهم الصدور ، وأدرك منهم الإِحَن ؛ ونَفّل المسلمين أموالَهم وذراريهم ، وجعلهم لهم خَوَلا وعبيدا ، وأورثهم أرضهم وديارهم ، وأحلّ الله بهم من البأس والنقمة والجائحة

(١) أباخ النار : أطفأها .

والظهور والغَلَبة جزاءً من الله لمن أخلد إلى المعصـية وٱبتغى غيرَ سبيله المسلوكة . وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين، ويستدرجهم من حيث لايعلمون، إن الله لايخلف الميعاد . ثم أنزل الله عزّ وجلّ من صار إلى الأمصار منهم هَرَبا، وٱعتصم بالحصون، وتعوّذ بالجبال، ولاذ بالقِلَاع، ولجأ إلى الأودية، من صَيَاصِيهم، وأمكن من نواصيهم: وٱستخرجهم من أوزارهم ومعاقلهـم ومتعوّذهم، وأُخذ أسيرا ذليلا منكوبا خائفا قد نخب الوجَلُ قلبـه وملأ الرُعب صدره، متوقّعا أن يُنزل الله به من النّقمات والمُثُلات مالا مردّ له عن مثله من القوم الظالمين، وفشَتْ فى الكَفَرة الجِرَاحات، وعضّتهم السيوف، وشُرعت فيهم القَنَا، وهرّتهم نار الحرب، وغالهم النِّزال، ومارسهم الأبطال، وٱستحرّ فيهم القتل،فصبرلهم الأولياء أحسن صبر، فلم يُطيقوا بالموت مَرَاما ولا على الحرب مُقاما .

فى صفة الخالعين

الناصبين لدين الله، المكذّبين بآياته، الجاحدين رسله، الجاعلين معه إلها، لا إله إلا هو، لطول مدّتهم، وشـدة شوكتهم، وصعوبة مرامهم. وقطعهم السُّبُل وٱنتهاكهم المحارم وسفكهم الدماء التى أوجب الله على مَنْ سفكها بغـير حِلّها وٱقترف وٱحتمل وِزْرها، أليمَ العـذاب وشـديد العقاب، فأبَوا إلا تماديًا فى ضَلَالتهم، وعُتُوّا فى طُغيانهـم، وثبوتًا على عصيانهم، ومُقاما على كفرهم، لأحداثه السالفة، وغوائله المتقدمة، وبوائقه المُشْجية، فوقف مميلا بين ثكل التقـدّم وحقيقة الأصـطلام فى التأخر. دعاهم إلى الفَيْئة والمراجعة والإنابة وقبول الأمان والدخول فى الطاعة، ٱسـتظهارا بالحجة عليهـم، ورجاءً لصنع الله فيهم . فلما بلغهم نزولى فيمن معى، جمع أصحابه، وضمّ جنده، وتحرز فى معسكره، وخندق على منزله، وٱحترس بجُهده، فأقمت مُعَسْكرى، وأنا مع ذلك فى كل يوم أوجّه رُسُلى وأدعوه إلى حظّه، من طاعة أمير المؤمنين والدخول فى أمانه، وأعلمه أن له نظراءَ ممن غَمَط الطاعة، وسـفِه الجمـاعة، وقد ركضوا فى الفتنة عمـرَهم وسَـعَوْا فيه دهرَهم، فٱنتشر خبرهم، وكـثر تبعهم، وكَبُرَ وِزْرهم، وثقـل وَقْرهم، ثم أذعنوا لطاعتهم، وٱستقلوا

ناهضين من عثْرتهم ، ومنتعشين من زلّتهم ، فغُفِرتْ ذنوبهم ، وقُبلت توبتهـم ، وفُسِح لهم فى أمانهم ، وشَرُفت منزلتهـم ، وآستبدلوا بالخوف أمنا وبالذل عزّا ؛ فأبى به ميل الهوى ، وغَلَبة الشِّقوة ، ومستعلى الغَواية ، والقدر المحارِب ، والقضاء المحتوم . وتقدّمتُ فى موافقتهم وترغيبهم ، والأخذ بالمخنق منهم ، من غير قتال ، ولا تناول سلاح ، ولا تناوش صِيال[1] ، وعرضتُ عليهم التوبة ، ودعوتهم الى الإنابة ، وأعطيتهم الأمان ، وأعلمتهم أنهم إن قبلوا حِمدتهـم وأخمدتُ نار الحـرب بينى وبينهم ، وإن أبوْا إلا تماديا فى غيّهـم ونكوصا على شقائهم ، وَلِيتُ مناجزتهم وعرفتُ من الله الخيَرة فى محاربتهم ، وآستعنته عليهم وآستكفيتُه أمرهم ، ورجوت حسن عادته عند أمير المؤمنيـن فى أمثالهم . ثم وجّهت الأولياء فنفذوا نحو عسكرهم ليلا وهم متفرّقون فى رحالهم ، مغترّون فى أوطانهم ، قد أَمِنوا خدعَ الحـروب ومكرها ومكيدتها ، ووقعــةَ البَيات وهَوْلهـا ، إلا طائفة منهـم أهل عدد وعُدّة ، وبأس فى أنفسهم وقوة ، اتخذوا الليـل جملا ، وسَرَوْا نحوَنا يرجون غِرّتنا ويأمُلون غفلتنا ، فوقف جندنا بمكانهم آخذين أُهبتهم ، متمسكين بالطاعة فيما به إمْرتهم ، فأسرعتْ إليهم من أعدائهم طائفةٌ فدفعوهم عن أنفسهم ، ونالوهم بجِراحات مع قتلى منهم عند تناوشهم ، ثم نكصوا على أدبارهم ، ورجعوا القهقرَى على أعقابهـم إلى الباقين من سريّتهم ، فاسـتجاشوهم فجاءهم بالمكانفة والمؤازرة ، وأقبلوا بجمّيتهم وحَنَقهم حتى حملوا حملةَ رجلٍ واحد ، وضاق الفضاء وطارت أفئدة جندنا رُعبا من حَمْلتهم ، وبلغت القلوبُ الحناجرَ منهم ، إلا طائفة قليلة من لوائح الحـرب ومواضى رواسخها وأشبال لِبْدتهـا ، تزيّنوا بالطاعة فأمّوا حسن العاقبـة ، ونصروا الدين ، فوثقوا بالتمكين ، آنتدبوا إليهم ، ووقفوا لهم ، وآزدادوا بصيرة فى أمرهم ، ونفاذا وجِدّا فى آجتهادهم ومجاهدتهم ، فثبتوا قائمين بالقسط فى أحوالهم ، قائليـن بالعدل فى أملائهم ، يسألونهم الكرّة بعد الكرّة ، ويَعِدونهم الغَلَبة ، ويُمنّونهم السلامةَ ، ويضمنون لهم الغنيمة ؛ ففاءوا إليهـم ، ورجعوا إلى الحق لله عز وجل عليهم ، فشافعوا ساعة بالقنى

---

(١) الصيال مصدر صال على قرنه : سطا عليه .

بعد ترامیهم إرشاقا . بالسهام فلما رأى أعداء الله جِدّهم ،وعرفوا صدقهم ، وخافوا حدّهم ، نكصوا على أعقابهم ، يريدون اللّحاق بمعسكرهم ، وتحرّك أصحابنا فى طلبهم ، ورجَوا سوء الصَّباح لهم ، فأمعنوا فى أثرهم ؛ فلما أحسوا الفساق أعطوهم الضمة وولّوا إلى ديارهم لا يلوى قريب على قريب ، ولا ذو رحم على حبيب ؛ ونالتهم القَنِى فسرتهم ، وعضّت هامَهم السيوف فكلّمتهم ، وحِيلَ بينهم وبين الدخول من باب عسكرهم ، فأخذوا فى غير طريقه منهزمين ، قد فل الله حَدّهم ، وقلّل كثرتهم ، وقتل عامّتهم ؛ ورجع أصحابنا إلى معسكر أعدائهم بعد التشريد والتفريق بجماعتهم ، فأحاطوا بهم فى آخر ليلتهم ، فلما رأوا غفلتهم ، وأمنوا غِرّتهم ، وانتهزوا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون ، فازون غافلون متفرقون ، فوضعوا السلاح فيهم ، ضربا بالسيوف ، وطعنا بالرماح ، وضربا بالأعمدة ، وذبحا بالشِّفار ، لا يشوون من جرحوا ، ولا يُبقون من كلموا ، غير مدفوعين ولا ممنوعين ، حتى انثلت السيوف ، وتحطمت القَنِى وأندقّت الأعمدة ، وكلّت الشِّفار ، وبقيت منهم عدّة يسيرة وشرذمة قليلة ممن لم ينله القتل ، فأخذوا أسرى ، وأُوثِقوا حديدا ، وكُبِّلوا قيودا . وكان أوّل رأس أتانى بخبره[1] بتسيرهم وأسرع به إلىّ ذو المعرفة منهم رأس[2] عدوّ الله المارق الباغى ، الشاقّ لعصا المسلمين ، مالأى رئيس ضلالتهم ، وقائد جهالتهم ، ومستغوى جماعتهم ، فعرفته بحليته ونعته وصفته فى عدد كثير من رءوس قوّاده وأهل الفتنة وأئمة البِدعة ، فلم يلبثوا إلا ريثما تصدّعوا فى كل جبل وخَمَر ، منهزمين هاربين ، لا يستطيعون لما أتاهم من عذاب الله دفعا ولا منعا بأيد ولا قوة ؛ ولا يلجئون إلى ركن وعصمة ، قد تشتت بهم نظامهم ، وفارقهم وجوههم وأعلامُهم . فأخذهم أسرا قَسْرا قدمنهم النصب ، وملأ قلوبَهم الرعب وتخرّمتهم الوقائع ، ونجّبتهم الهزائم ، وتحيفهم القتل ، وغلب الله عزّ وجلّ لأمير المؤمنين على حصنه الذى كان مُناف عزّه ، وموضع مَنَعَته فى نفسه ، ومجتمع عدّته ، ومادّة قوّته ، فقوّضوا عساكرهم ، وأُقتِلعوا عن حصنهم يتّبع آخرهم أولهم ، متحيرين متلدّدين .

---

(١) فى الأصل : «بخبرهم» . (٢) فى الأصل «برأس عدوّ الله» .

أذلة خاسرين، فتفرقوا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم . فلما آستحرّ القتل فيهم، وفَشَت الجِرَاحات فى عامتهـم، وطحنتهم الحرب بكَلْكلها، وألموا وقع حديد أنيابها ومساعرها، قذف الله الرّعب فى قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم، فولّوا منهزمين مغلولين، وركِب المسلمون أكتافهم، يقتلونهم فى رءوس جبالهم، وخلال غِياضهم، وبطون أوديتهم، ومقاصى تِلاعهم، وفى كل ناحية من نواحيهم، حتى عجز الليل دونهم، وأعجزوهم هربا فى معاقلهم.

وفى العصـاة

حتى إذا ظن أن قد عزّ بضلاله، وتحصن بمعاقله، وآسـتكمل قُواه، وكَثُف تدبيره، ولجأ إلى مانع منـه ودافع عنه، عطفت عليـه عواطفُ الحق بأولياء الحق وأنصـاره، ناقضين ما أبرم، ومتداولين ما سدّ، ومتوغّلين إلى غيّه ببصائرهم، وإلى باطله بحقهم، فاستُنزِل عن موضع عزّه قسرا، وأمكن الله أولياءه أسرا، سنة الله فيمن عَنَـدَ عن سبيله، وألحد فى دينه، ومَرَق عن الطاعة ووثائقها، وآستبدل بالحق ومنهاجه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا، ولن تجد من دونه مُلتَحَدا ولا نصيرا ؛ حتى إذا تراءى الجمعان تبرأ الشيطان من حزبه، وأرهق الله باطلهم بحقه، وجعل الفلَج والظفرَ لأولى الحزبين به، بذلك جرت سنة الله فى الماضين من خلقه، وذلك ما وَعَد من تمسّك بأمره وطاعته .

وفى مدح قوّاد الجيوش وصفة الأولياء فى أحوالهم

لما بَلَا من طاعتـه، وآختبر من نصيحته، ويُمْن نقيبته، وشـدّة شكيمته، وصحـة عزيمته، وصدق نيته، وثِقَل وطأته على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين، وعلمه بمراوضة الحروب وممارستها، ومكايدة الأعداء ومواقفتهم فيها، فشمّر تشمير أهل الحِسْبة وحسن الظن بالله من غير ونيـة ولا فترة ولا بقاء جدّ ولا آجتهاد، راجيا أن يُنجح الله سـعيه، ويُفْلج حجته، ويظهره على عدوّه من الأستقلال الذى حمله، والاضطلاع بما أسند إليه، والامتثال لسيرته، والانتهاء إلى أمره، والقبول لأدبه، والخفوف بما يستنهضه له من حروبه وأموره مثل الذى جعل عند فلان : يفضُلهم بطوله، ويطولُهم بمحاسنه، ويتقدّمهم بحسن بلائه وغَنائه،

ومواقفه ومساعيه، لم يختبره أمير المؤمنين فى جميع خصاله إلا وجده عند الأختبار والتحصيل سالكا لمناهجه، قابلا لأمره، متبعا لأثره، ساميا بهمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عند أمير المؤمنين مقدما فى القدر والرتبة، مخصوصا بالمنزلة والرفعة، يرى ذلك قليلا فى كثير ما وجب بطاعته ونصيحته، فبارك الله عليه وليا ظهيرا . فأقدموا متوكلين على الله مسلمين لأمره صابرين على ما نالهم من اللأواء والجهد والتعب وكلب الشتاء وحمارة القيظ، وصعوبة المرام من أعداء الله الكفرة، يرجون نصر الله وتنجز ماوعد الصابرين والمجاهدين فى سبيله من الظفر والنصر والغلبة على عدوهم، توحد به من نصرهم وإعزازهم أن كان الله عز وجل تكفل لأوليائه بالنصر والعز والحيطة، وجعل حسن العاقبة لهم، وكبت من حادهم وأخلد الى المعصية والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظة ونكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هى العليا وكلمةُ الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم؛ أعظمهم غَنَاء، وأحسنهم بلاء، وأشدهم صولة، وأقساهم نِكاية، وآمنهم سريرة، وأمضاهم عزيمة، وأربطهم جأشا، وأصدقهم بأسا، وأملأهم للأقران، وأرعاهم لوثائق الإيمان، وأشدهم تحدبا على السلطان، فآزره بهم، وحصن أطراف خلافته بأيديهم، فكفوه المهم وقاموا دونه بالملم ، غير مستطيلين بغناء ، ولا متعرضين لطلب جزاء ، قد تعبدهم الوفاء، وغنوا بقربة الولاء؛ فإن الله جعل آباءه أعلاما فى الطاعة يهدون اليها وأوليته قادة الى سبيل النصيحة يتمسك المناصحون بآثارهم فيها ، باقيا على كر الأيام ذكر مساعيهم، وزائدة على تصرف الأيام حقوقهم، وباديا للعيون حميد أفعالهم، لا تنصرم الأخبار عن سالف لهم إلا وصلوه بحادث، ولا يتقادم لهم من بلائهم أول إلا أتبعه آخر. ففلان يجرى فى أمره على منهاج قد أوضحوه له ، ويسلك فى الطاعة طريقا قد سهلوا له مذاهبه ، ويتمسك بعرًا وثيقة قد رأى آثارها على من تقدمه، والله محمود . ولم يزل الله يعرف أمير المؤمنين فى كل ما أسنده الى فلان من أعماله وقلده من أموره، المبالغة فى قضاء الحق عليه ويُمن النقيبة فيما يتولاه، والأجتهاد فى كل ما قربه من الله وخليفته . وأمير المؤمنين يحمد الله على ما يخصه

به من نعمتـه، وإياه يستعين على قضاء حقّه، إنه سميع قريب . فإن كتابك ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلّع اليه منك ويؤمّله عندك، ويرجو أن يوفّقك الله فيه لرشدك، ويُؤْثِرك منـه بحظّك ، للذى كان يبلغـه وينتهى اليـه من خبرك، فى أحوالك وتصرّفك فى خصال الخير، وتنقّلك فى درجتها ، مساميا لاهـل الفضل فى مراتبهم، متزيّنا بصالح أفعال الملوك فى قصد سيرتهم، وحسـن طريقتهم، ولين أكنافهم . فحقّق الله ظنه بك، وأجاب دعاءه لك ، وبلّغ بك أمنيته، وأعطاه فيك رغبته . وكنت فيما هُديتَ له بانقيادك إليه راغبا، ودخولك فيه محتسبا، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة، وأفضلها ذخيرة، وأعلاها درجة، وخيرها عاقبـة، وأعمّها سلامة ، وأمنعها كهفا، وأبقاها شرفا، وأعدلهـا حكما، وأطولها سلما، مستحقا بذلك على الله عز وجل زيادة المُلك فيها، وبهاء الثروة، وآنبساط القدرة، وآتساع المملكة، وظهور الغَلَبـة وعزّ التمكين، والنُصْرة فى الدار التى حُييت فيها بقليل ما ترجو أن تصير اليـه من ثواب الله عز وجل وحسن مجازاته بالنعيم المقيم فى دار الأَمَد، ومحلّ الأبد، بمـا لا يَبلغه إحصاء، ولا يكون له آنتهـاء، وملأه فرحا وآبتهاجا، وسرورا وجذلا ، ورجاء لك من الله عز وجل حسن عونه وتوفيقـه أن يغلب لك على حظّك، وأن يأخذ إلى تقواه بقلبك ويجعل فيما عنده رغبتك ، والى ذلك سموّك وهمّتك . وليس ينفكّ أمير المومنين مقتفرا فيك أثرا يَحمده ، ومتصفّحا بخبر يَبْهجه ، ومستحدثا نعمةً من الله عز وجل يرجو آتصالها وآتساقها لديه بك، حتى يتناهى الى الدرجة العليا، والغاية القصوى، فيما [يبتغيه] (١) من آجتثاث أُرومة الفَسَقة وقطع دابرهم . وبالله الثقة والحول والقوة، متعرّفا من الله فيما فارقه من جهاد عدوّه أتمّ مصادق وعد القائمين بحقه، الصابرين فى جنبه، وأحسن ما أبلى، ذائدا عن حريم، ومحصّنا لبيضـة، ومدافعا عن ملة ، فشـمر شاريا لله نفسه، طارحا عنه لباس الغفلة ، متجافيا عن مِهاد الوطْأة ، وليس تدخله الخلّة والوحشة على من كنت قريبا منه، ولا يمتنع لأمير المؤمنين طَرَف أنت فيـه ، ولا أمر يُعين عليـه ويتمسك بسبب من أسبابه .

---

(١) بياض فى الأصل والسياق يقتضى ما أثبتناه .

وصف الأولياء فى الكتب

وصار أهل السُّمُوّ الى الدرجة العليا ، والاعتصام بالعروة الوُثْقى ، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته ، مُنْشرحةً صدورُهم بمكانفته ، مُنْبسطةً أيديهم بمعاونته ؛ وقسم لأمير المؤمنين من أولياء دينه وأنصاره ، قومٌ آزرهم بالنصر ، وكَنَفَهم باليقين ، وألّف بصائرهم على الحق ، وأيّدهم بمُؤَيِّدات التقوى ؛ فلمّا أمرَهم أطاعوا أمرَه ، ولمّا فرَضوا فى ذات الله طاعتَه ، فرض الله نصرهم وتمكينَهم ، بجاهد مُجاهدُهم مُسْتَبْصِرًا مُحْتَسِبا ، وقام قائمُهم بالحق عليه مُخْلِصا مُجْتَهِدا ؛ وقادتْهم طلائعُ الدين ودواعيه أرسالا قُدُما ، فاتّبعوا سبيله لا ناكلين عن إقدام ، ولا مُتَوَقِّفين عن ارتياب ، ولا مُتَهَيِّبين ، مع دخائلهم وبصائرهم ، عدوا ولا عنادا ؛ طالبين بثأر الدين بُغاتَه ، وبطوائل الإسلام عداتَه : من صنوف أمم الكفر ومَرَدة النفاق وأئمة المُلْحدين ؛ متقلّدين للحق ونُصرته ، ولئن نُمِّم الحقّ بهم ومضى ، ولِيّن مع الحق مَن نَكَث عنه بألسنتهم وأيديهم ، حتّى فتح الله عزّ وجلّ لأمير المؤمنين معاقلَ الشِّرْك وأئمّة ، وأناخ الباطل وأركانَه ، وأعلامَ البِدَع وأتباعها ، فَضْلًا من الله ونِعْمةً ، والله عليمٌ حكيم ؛ إن هززْتهم قطعوا قَطع الحُسام ، وإن أجريتهم فى عظيمةٍ وقعوا وقعَ الجياد ، وإن استغنيت ودام الغناء لك عن جميع العاملين ، كانوا رصدًا لك فوق أعناق الحاسدين .

ما يُقرّظ به أميرُ المؤمنين فى أواخر الكتب

لِيعرِفوا موقعَ نعم الله عند أمير المؤمنين ، يَحوطه به فى أوليائه ، من النصر والتمكين ، وعلى أعدائه من الوَقْم[1] والتوْهين ، ويشكر الله على النعمة فى ذلك ، إن الشكر مُحَصِّن للنعم ، وأمان من الغِيَر ، لِتخلُوَ مواقعُ النعمة عليهم ، فيما يجمع الله بأمير المؤمنين من كلمتهم ، ويَحُوط من حَرِيمهم ، ويُحِلّ من بأسه ونقمته بمن صدف عن سبيله وحاول تشتيت جماعتهم وتوهين حقّهم ، ويقابلون ذلك بما تُرْتَبط به نعمُه ، ويُسْتَدرّ مَزِيدُه .

---

(١) الوقم : القهر والذلة .

سعيد بن حُمَيْد

ليشكروا الله على ما منح خليفته من هؤلاء المُرّاقِ الخارجين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للمزيد .

٣ ــ التحاميد فى أواخر الكتب

تحميد لسعيد بن نصر فى آخر كتاب فتح له

الحمد لله المعز لدينه، المُظهر لحقه، المؤيد لأوليائه، الصانع للإسلام وأهله، الناصر لخليفته، الحافظ لما استحفظه، المتوحد بالنعمة عليه فيما حمله .

تحميد لإبراهيم بن العباس فى آخر كتاب فتح

فالحمد لله المُزيل لما يمهّد المبطلون، ويمكر به الماكرون، ويكيد به الملحدون، تمكينا لعبده وخليفته، وذَبًّا عن دينه وحقه، وإظهارا لأوليائه وحزبه، وإمضاءً لعزائمه وقدرته، منعما قادرا، ومُمْليا ممهلا، عدلا اذا استدرج، متفضّلا اذا أنعم، حمدا يُستنزَلُ به نصرُه، ويُبْلَغ به رضوانه، ويُمتَرَى بمثله فواضل مَزيده .

تحميد فى فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع مَحامده التى حُمد بها، على جميع آلائه وجميل بلائه، فيما ولى به خليفته، ونصر به دينه، وأقام به حقه، وأعزّ به وليّه، وقمع به من ألحدَ عن سبيله، حمدا يؤدّى حق نعمته، ويوجب به أفضل مزيده بمنه وطَوْله .

تحميد لأبى عبيد الله فى آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأمير المؤمنين فى دولته وسلطانه، ولعامة المسلمين من صنعه وكراماته، فى جسيم الأمور ولطيفها، وخاصها وعامها، بما يجعله للنعمة تماما، وعلى ما يحل بعدوه من بأسه وقوارعه، ويوقع بهم من جوائحه واستئصاله، ما يكون لموعوده إنجازا، حمدا يبلغ رضاه ويستوجب مزيده .

تحميد آخر

الحمد لله الذى تمّم لأمير المؤمنين نعمته، وأكمل دعوته، وجعل العاقبة فيه لمن آختاره لخلافته، وردّ اليه من شذّ عنه من رعيته، وأتى أمير المؤمنين بصنعه على حدّ نيته وقدر أمنيته، ولم يُفِلْ رأيه ولم يُخلف ظنه، حمدا كثيرا دائما بما يزكو عنده فيتقبله، ويرفع اليه فيبلغ رضاه؛ حمدا يكون لأسبغ نعمه جزاء، ولأفضل إحسانه كِفاء، وللمزيد من فضله وإحسانه موجبا، والى أعلى الدرجات عنده مؤدّيا، وللخلود فى جنته وسيلة وسببا .

آخـــر :

الحمـد لله الذى جمع لأمير المؤمنين ما حَبَاه بمزية نصره وتمكينه وإعزازه وتأييده، وإظهاره على من ناوأه وصدّ عن حقه، وصـدف عن طاعته، ووفّقه لآختصاص فلان بما وكّله اليه وعصبه به من أعباء أموره وجلائل أعمـاله، وأجرى بفلان وعلى يديه وبركته وسعادة جَدّه ويُمْن طائره، من تتابع الفتوح، وتواتر النصر، وإقبال الصنع، وإعلاء الحق وإنارته، وإزالة البـاطل وإبادته، حمـدا يؤدّى حقه، ويرى عزه، ويمير من أحسن (١) مزيده، بكرمه وجوده .

آخـــر :

الحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بالخلافة، وخصّه بالإمامة، وقلّده من أمور عباده وبلاده ما تولّاه بكفايته وكلاءته وتأييده وحِياطته. حمدا يوجب المزيد من فضله .

ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذى أنجز وعده، ونصر عبده، وأيّد جنده، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا وغربا مشـفوعة بين اقامة حق وإدالة باطل وإزالة عائد وإبادة عائد وإقالة (١) مستقيل، ويسأل الله أمير المؤمنين، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة اليه متذللا له أن يصلّى أفضل صلواته عنده على أكرم أنبيائه .

(١) سقطت فى الأصل كلمات فاثبتنا ما يقوم مقامها .

دعاء أمير المؤمنين فى الكتب والدعاء له

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليّه : أن يكنفه فيما حبّاه وآستحفظه عليه بأفضل تأييده وأعزّ نصره، وأن يهب له مع كل نعمة يجددها له حارسا من شكرها، يتابع به أفضل مزيده، فإن النعمة منه، والشكر بتوفيقه، والمزيد لمن شكره .

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه وربكم وولىّ النعم عليه وعليكم، أن يُلهمه وإياكم أداء حقّه وشكر نعمته وحمده عليها، ويطوّقه وإياكم أفضل الأعمال وأرضاها عنده وأشدّها آستيجابا لما وعد الشاكرين من مزيده؛ إنه سميع قريب .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى ولّاه خلافته وأعلاه بها، أن يطوّقه ما حمله، ويلهمه العدل بين رعيته، ويلهمهم نصيحته وطاعته، ويُصلح أمرهم به فى ولايته وخلافته . ويرغب الى الله الذى أيّده بنصره ومكن له بغير حول منه ولا قوة، أن يلهمه وإياكم شكره وذكره وخشيته، ويشمله وإياكم بطاعته ومَرْضاته ومحبته، وأن يعرّفه وإياكم الزيادة فى نعمه والنصر على عدوّه والتمكين فى بلاده؛ إنه ذو فضل عظيم .

والى الله يرغب أمير المؤمنين فى إعانته على نيته وتبليغه منتهى سؤله وغاية همته وإعزاز دينه وإذلال من صدّ عن سبيله؛ إنه سميع قريب . وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدعاء تطولا وتكفّل بالإجابة حتما، فقال : ﴿ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أن يجمع على رضاه أُلفتكم وأن يصل على الطاعة حبلكم، وأن يمتعكم بأحسن ما عوّدكم من منّته، ويُوزِعكم عليها من شكره ما يواصل لكم به مزيده، وأن يكفيكم كيد الكائدين، وحسد الباغين؛ ويحفَظ أمير المؤمنين فيكم، أفضلَ ما حفِظ به إمام هدًى فى أوليائه وشيعته؛ ويحمل عنه ثِقلَ ما حمّله من أمركم؛ وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوى من جزائكم بالحسنى، وحَمْليكم على الطريقة المُثلَى، وبه يرضى لكم ناصرا ووليّا، وكفَى بالله وليّا وكفى بالله نصيرا .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين، أن يُحْسِن على صلاح نيته عونه، وأن يتولّاه فيما آسترعاه، ولايةً جامعة، لصلاح ما قلّده، إنّه سميع قريب .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين الذى بيده مفاتيح مقاديره وفواضله ، أن يُصلّى أفضل صلواته على أفضل أنبيائه ، وأنْ يجعل ما اذخر لأمير المؤمنين الى دولته وخلافته ، وحباه به من وسائل الخير عنده ، أن يجمع الى أحسن توفيقه لما يرضى من شكره وحسن معونته على ما أصلح له ربه ، فإنّه شاكر يحبّ من شكره ويوجب لمن وُفّق لشكره مزيدا بمنه وطَوْله وفضله وإنعامه ، إنّه جواد كريم .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين مُبْتدِئا ومُعَقِّبا وأوّلا وآخرا ، وقبل كلّ مسألة ، وأمام كلّ رغبة ومُقدِّمةَ كلّ طِلْبة ، أن يصلّى على صفوته من عباده وخير خلقه وخاتم أنبيائه ورسله ، محمد عبده ورسوله ، أفضلَ صلواته ، ويباركَ عليه أكثرَ بركاته ، وأن يديم له كرامته ، ويجرى عنده على أجمل عاداته ، وأن يتمّ له ما آختصّه به من إحسانه ، حتى يملأ الأرض عَدْلا وقِسْطا ، والإسلام تأييدا وعزا ، والشرك ذُلّا وقمْعا ، إنّه ولىّ نِعْمته ومُنْتهى كلّ رغبة ، وغايةُ كلّ حاجة ، وهو على كلّ شىء قدير .

وأمير المؤمنين يقول : الحمد لله طاعةً لأمره ، وآعتصاما من الفتنة بشكره ، وآستدامةً لنِعَمه المتزايدة (١) عنده ، إنّه سميع قريب .

وأمير المؤمنين ، يسأل الله السامعَ كلام مَن جهرَ ، والعالمَ بغيب من أسرّ ، المطّلع على ضمائر العباد ووسوستهم ، والمُسْتَنقِذَ مَن يشاء برحمته ، والمُمْتَنّ على من يشاء بقدرته ، أن يجمع على الحقّ أهواءكم وينصركم على أعدائكم ويُصْلِحَ ذاتَ بينكم ولا يَكِلَكم فى مَوْطن من مواطن اللقاء ، والتحاكم والتناجز ، إلى أنفسكم ، ويكفيكم ويكفىَ بكم إنّه سميع قريب .

الدعاء لأمير المؤمنين فى أواخر الكتب

ونسأل الله أن يهنأ أميرَ المؤمنين ما صنع له ، ويُعينَه على شكر ما أولاه ، إنّه ولىّ ذلك وإنّا اليه فيه راغبون والسلام .

(١) فى الأصل المتازلة . وما أثبتناه صحيح .

ولــــه :

ونسأل الله أن يهنّئ أمير المؤمنين الكراماتُ التى يُتابعها ، والنعمُ التى يظاهرها عليـه ، والفتوحَ التى جعلها فى خِلافته، وولايته ودولته، ويهَب له من المعرفة بحقّه فى ذلك والشكر له بحسن بلائه فيــه، ما يبلغ أعظم رغبة وأقصى أمنية، من ذخائر الخير وفضيلة الأجر وحسن الثواب فى الدنيا والآخرة .

أسأل الله لأمير المؤمنين فى غابر أموره ، أحسنَ ما عوّده فى سالفها، من السلامة التى حرسه بهـا من المكاره، والعزِّ الذى قهر له به الأعداء، والنصرِ الذى مكّن له فى البــلاد، والهــدى الذى وهب له به المحبّــة، والرفقِ الذى أدرّ له به الحلَب ، والاستصلاحِ الذى آتسقت له به الرغبة، حتّى يكونَ بمـا أعطاه من ذلك، وما هو مُستقبَل به، أبعدَ خلفائه ذِكرا، وأبقاهم فى العدل أثرا، وأطولَهم فى العمر مُدّة، وأحسنَهم فى المَعاد مُنقلَبا .

أسأل الله لأمير المؤمنين نِعْمة لا تزول ، وكرامةً لا تنفَد ، وعزّا لا يضام ، ونصرا لا يغلب، وكفايةً ينتظم بها جميع الصلاح، حتّى لا يكون بأوّلَ من ذلك أسعدَ منه بآخر، ولا بماض أسرَّ منه بمستقبَل .

أسأل الله لأمير المؤمنين فى عاقبة كلّ نِعمة أفضلَ ما وهب له فى عاجلها، حتّى يجعل كلّ نعمة أنعم بها عليه، وكرامةٍ حازها له، موصولةً بالتمام، محوطةً بالحفظ، مكلوءةً من الغِيَر، ممــدودةً الى طول غايات البقاء؛ لا يشوب صفوَها كدر، ولا سلامتَها غيَر، ولا سرورها تنغيص؛ وهنّأ الله أميرَ المؤمنيــن الظفَر، وأدام له عادةَ النصر والتمكين الموضحَ، وحُجّتــه المُدْحِضَة لحجــة أعدائه، والغَلَبة المُظْهِرة لحقّه ، المُجتاحةَ لمن خالفه؛ ثم لا برِحت نعمة الله راهنة بمثله فى الأولياء نصْرا، و فى الأعداء إباحة، وفى الناكثين تنكيلا .

سر الله أميرَ المؤمنين بمــا أهدَى له من كِفايته ، وحاطه به من منَعته، وأيده به من نصره، وجمله وما استرعاه من دِينه وسُلطانه، فى كَنَفه الذى لا يُسْتَباح وتحت يده المــانعة وجَناحه المحفوظ .

أدام الله لأمير المؤمنين السرور بمـا يُقْذِى به عيون أعدائه فى تمكينه وتوهينهم، وتَصيره وخِذْلانهم، وإعزازه والمجاهدة لهم؛ ولا زالت نِعمَة الله تَزيده فى قوّة الظفَر، وعزّة النصر، وتَفِـد من آفاق الأرض بالبشارات والفتوح، حتّى تملأ له ما بين طرفَىْ مُلكه أمْنا وعزا، ويملأ به قلوب أعدائه خوْفا ورعبا، ويَعدْهم على خلافه سطوة وتنكيلا .

أحمـــــد بن يوسف

وهَنأ الله أمير المؤمنين نِعَمه، ومَلأه كرامته، وأوْلى له فُتوحه، وأدام إعزازه، وتولّى حِياطته وكِفايته، فيما دَنا منه وما غاب عنه، وأطال بقاءه والامتناع به .

مختار ما كتب من باب التهانى فى كلّ فن

تهنئة خليفة بظفَر

الحمد لله الذى جمع لأمير المؤمنين مع الغَلَبة الحُجّة، ومع الظفَر المعذرَة، وجمـع لعدوّه مع الذل السـطْوَة، ومع دُحوض الحُجّـة النَّكال؛ فلم يجمعـه والناكثين مَوْطِنٌ من مواطن الصبر، إلّا جعل الحُجّة عليهم فيه، ولسانَ العذر فيه معه، ويَدَ الظهور فيه له؛ ثم وهب له عند الظفَر من الشكر، وعند الفلَج من التواضع، وعند القدرة من العفو، ما جعله مُسْتَوجِبا لمـا أَصْفاه به، مُعترفا بأنّ العذر مُنْقطع ممن نكبه، وأنّ مُسْتَراد الحُجّة ومَطْلب السـلامة، فى التمسك بطاعته ومناصحته، والمُجاهدة دُونه .

وفى مثـــله :

أدام الله لأمير المؤمنين السرور بمـا يُقْذِى به عيون أعدائه .

وكتب ابراهيم بن المهدىّ الى المعتصم يهنّئه بخروجه عن أرض الروم بعـــد فتح عمُّـــوريّه

الحمد لله الذى تمّم لأمير المؤمنين غَزْوته، فأذلّ بها رقاب المشركين وشفَى بها صــدور قوم مؤمنين؛ ثم سهّل الله له الأَوْبة سالمـا غانما، وكذا وكذا؛ وليَهْنِئه ما كتب الله له، مما

أحصاه فلا ينساه، ليقفه به موقفا يرضاه، فإنه عز وجل يقول: ﴿إنّ اللهَ اشترَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ﴾ الآية ، فطَوى الله لأمير المؤمنين نازح البُعْد برّا وبحرا، ووقاه وَصَب السفر سهلا ووَعْرا، وحاطه بحراسته كالئا، ودافع عنه بحِفْظه راعيا؛ حتّى يُؤدّيه الى المحلّ من داره، والوطن من قراره، وجزاه عن الإسلام خاصّة، وعن رَعيّته كافّة، بتخيّره مُسْتخلَفا عليهم، وقائما مُقامه فيهم هرونُ ابنُ أمير المؤمنين؛ فقد آستخلفه رَفيقا شَفيقا، حليما وَقُورا، يقظانَ ساكنا؛ لم يُشَذِّب عليه أمر، ولم ينْتشر عليه طرْف، ولم يَضِع معه سبيل، ولم يُسْخِط وليّا مُكانفا، ولاعدوّا مخالفا، بلا سيف أشرعه، ولاسور أقرع به؛ فمثّل جزاء أمير المؤمنين فى تخيّره إيّاه، لجزاه الله على ما حفِظ من وَصاته، على محمود مُقامه، إنّه مجيب الداعى .

وكتب أحمد بن يوسف الى عبد الله بن طاهر يهنّئه بظفَر

بلغنى — فتح الله عليك — خروجُ آبن السرىّ اليك، فالحمد لله الناصر لدينه المُعِزّ لوليّه وخليفتِه على عباده، المُذِلّ لمن صد عن حقّه ورَغِب عن طاعته ؛ ونسأل اللهَ أن يُظاهر النِّعَم ويفتحَ بُلدان الشِّرْك به؛ والحمد لله على ما وَالاك منذ ظعنتَ لوجهك، فإنّا نتذاكر سِيرَتك فى حَرْبك وسِلْمك، ونُكثِرُ التعجُّبَ لما وُفّقتَ له، من وَضْع الشدة واللّيان بموضعهما، ولا نعلم سائر جُنْد ولا رَعيّة عُدل بينهم عدلك، ولا عفا بعد القدرة عمّن آسفه وأضغنه عفوك .

تهنئة خليفة بحجّ

أصلح الله أميرَ المؤمنين وأراه من الزِّيادة فى نِعَمه، ما يكون تماما لما ابتدأه به من فضله، والحمد لله على ما خَصّ به أميرَ المؤمنين من كرامته، وأعطاه من الفضل فى نيّته، وجعله يستعين على دِينه ، بما بَسَط له فى دنياه، ويَحمِل على بدنه النَّصَبَ فيما يتقرّب به اليه؛ فيجْفُو عن دَعَتِه علَى لِينها، ويشخَصُ عن طُمأنينته على فضلها، إيثارا لآخرته، وأداء لحقّ ربّه؛ بادر له بذلك ليُكْرمه به ، ثم يستعمِل فيه نفسه، تقرّبا اليه، فيسعده بالإذن

فى ذلك حين كان منّ الله له ، وبالعمل فيه حين كان لله منه ؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له ، دليلا على قبوله الخير عنه حين يعمل لربّه ؛ وكان من ذلك ما أذن الله لأمير المؤمنين فى زيارة نبيّه صلى الله عليه وسلم العامّ ، وموافاة مشاعره العظام ، فى وقتها من الأيام ، التى لا توافَى إلّا معها ، ولا تكون مناسكه إلّا فيها ؛ فكتب الله له فى ذلك الآثار الصالحة والأعمال المبرورة ، فدخل فى الإحرام له بتعظيم حقّه ، وخرج منه بقضاء نُسُكه ، أجرا عَقَدَه الله عليه فى ابتدائه ، ثم أتمّه له باستيفائه .

ولمحمد بن مكرم تهنئةٌ لحاجّ

بلّغكَ الله الرِّضا فى أَملك من نُجح كلّ حاجة وإبلاغ كلّ أُمنيَة ، وتقبّل كلّ دعوة خَصَصْتَ بها نفسك أو عَممت بها أحدا من أهلك ، فى مجامع وفوده ، ومُعْتَرَل قراره ، فكنت شافعَ مَنْ شاهدك ، ووافِدَ مَنْ غاب عنك ، يَسْتفتح بدعائك ، ويُرَجّى بركةَ مَحْضَرك ، والقُرْبة الى الله عزّ وجلّ بفضل جاهك .

تهنئة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية ، لنا خاصّا وإلينا واصلا .

آخر :

ولم تَتخطّنى النعمةُ إذ أصابتك ، ولم تتعدّنى إذ دَخَلَتْ بك ، ولم أَخْلُ من لازم شُكْرها ، وما يَنْفَلُّك الله منها ، إذ قُلِّدتها ، اعتدادا بكل ما طُوِّقتُ من المِنَن ، وإيجابا على نفسى ما حملت من الشكر .

ولسعيد بن حُمَيد الى بعض إخوانه

سرّك الله بتتابُع نِعَمه ، وترادُف إحسانه ، وزادَك من فواضل أقسامه . بلغنى ــ أكرمك الله ــ ما وهب الله لك من سُلطانك ، فقوّاك الله على ما استرعاك . ورزقك الشكر على ما أولاك .

وفى مثل ذلك :

أكمل الله لك السعادة ، وزادك فى الكرامة ، وخصّــك بدوام النعمة . بلغنى ما وهب الله لك من سلطانك ، فسُررت به ، وسألتُ الله إتمام نِعَمه عليك فيه بتأييدك ، وتوفيقك للعدل فى سيرتك ، وغَرْس المحبّة لك فى قلوب رعيّتك ، وأن يُعينك عليه ، ويرزقك السلامة فى الدين والدنيا .

وله فى مثله :

أنَا أُهَنِّئُ بك العمل الذى وُلِّيته ، ولا أهنّئك به ، لأنّ الله أصاره الى مَن يُورده موارد الصواب ، ويصــدره مصادر الحجة ، ويَصُونه من كل خَلَل وتقصير ، ويُمضيه بالرأى الأَصــيل ، والمعرفة الكاملة ، قرن الله لك كل نعمة بشكرها ، وَأَوْجب لك بطَوْله المَزِيدَ منها ، وأوزعك من المعرفة بها ما يَصُونها من الفِتَن ، ويَحُوطها من النقص .

آخـــر :

قد وُلِّيتَ من العمل ما أسأل اللهَ عزّ وجل أن يرزقك بركةَ بدئه وعاقبتــه ، ويُعطيك الرضا ممن وَلِيت له وعليه .

آخـــر :

هَنَأَكَ اللهُ هذه النعمةَ المقبلة ، الدالّ أوّلها على تمامها ، وأوزعك شكرها .

آخـــر :

أســعدكَ اللهُ بهذه الولاية وجعلها مباركة ، تنتقل بظلّ السلامة منها ، ونَيْل الكفاية فيها الى أَمَلك بنهايته ورجائك بغايته ، ورزقك السلامة ممن وَلِيتَ له وعليه .

آخـــر :

سرّك الله بما جدّد لك من هذه المنزلة ، ونَفَعك بهذه الولاية ، وأرضى عنك من وَلِيتَ له ومن وَلِيتَ عليه .

وكتب محمد بن مكرم الى أحمد بن دِينَار :

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاض من جميل أَثَرِك فيما تَلِي من أعمالك، وزَمِّك إياها بحَزْمك وعَزمك، وانتياشك أهلها[1] من جَوْر مَنْ وليهم قَبْلك، وسرورهم بتطاوُل أيامك والكَوْن فى ظلّ يدك وجَنَاحك، فى إعانة مَنْ تَخُصّه وتعمّه نعمتك، وتحول به الحِوَلُ حيث حالت بك ؛ فالحمد لله الذى جعل العاقبة لك، ولم يرُدّ علينا آمالنا فيك منكوسة، كما ردّها على غيرنا فى غيرك . ولَوَدِدْتُ أنّ أباك كان عاين آثارك هذه ومناقبك، وإن كان الافتراق لم يقع بينكما حتى علم أنك خَلَفُه، وألقى اليك بأمره ومعاقد ثقته، وجعلك مَوْضع اختصاصه وأَثَرَته، وصَرَف ذلك عمّن كان لا يستحقّه، وذمّ سالف رأيه فيك وفيه وحَمِدَ آخره، ثم نعمة اتصلت لك بما قَبْلها، انتظمت بها أمورُك فاعتدلت، وتلاحمتْ عليها واتّسقت ، ما منحت فى كاتبك، ومُستقرّ ثقتك، وحامل أعبائك، من الكفاية والنصيحة، ووضعه عن قلبك مؤونة التهمة والقصّ لأَثَرِه، وإدخاله راحة الطُّمأنينة اليه وروح الثقة به، لا كما ابتُلِىَ أخوك، فإنّه صحبه مَخلط عليه أمره، وأفشى أسراره الى صاحب بَرِيده، فأنغل ذلك بينهم، وقَطّع حِبالهم، حتى هُجِّنت آثاره مع حُسْنها ووضوحها، وصَفِرتْ يده من حظّ عمله، ولَزِمه الذمّ من أهله ؛ فهذه كُتُبه إلىّ، فى اطّراح نصيحة له كانت فيه، ويسألنى أن أُشخص اليه كاتبا يَحمل ثِقَلَه، ويفتح له ما ارتجه من أمره . وهذا من سعادة جَدِّك، ويُمْن طائرك، وإقبال الأمور اليك، وسَعْيها على طريق مُوَافقتك، وهنيئا هَنَأكَ الله نِعَمَه خاصّها وعامّها، وأوزَعك شكرها، وأوجب لك بالشكر أحسنَ المَزِيد فيها .

تهنئة بعزل

كَتَب رجلٌ الى مالك بن طوق لمّا عُزِل عن عمله :

أصبحتَ والله فاضحا مُتْعِبا : أما فاضحا فلكلّ والٍ قَبْلَك بحسن سِيرتك ؛ وأما مُتعِبا فلكلّ والٍ بعدَك أن يلحقك .

---

(١) انتياشك أهلها : استنقاذهم .

فصــــل

سواء علينا أُولِيت أم صُرفت، إنّا لنشهد بك الولاية ، بمـا بَسط الله من يدك ببذل العُرْف ، ونهنّئك بالعَرْف بما يلحقك من ثناء ما أسلفت من الجميـل ؛ ولا نخاف عليك أن تفارق عمـلا وأنت محلٌّ له ، ولا أن تَصْحبه وليس به فاقةٌ اليـك . فهنّأك الله النعمة ، وأعانك على الشكر، وأيّدك بالمزيد .

تهنئة بعـــزل عامل عن عمـله

بلغنى صَرْفُك، فخارَ الله لك، وهَنّاك لطيفَ نظره وجليـلَ إحسانه، فإنى أرى الرجلَ عند خروجه من العمل سالمـا نقيّا من مأثمه ودَنَســه، أَوْلَى بالتهنئة منه عند دخوله فيه ، وأرى الدعاء له عند بدء تَلَبُّســه به بالخلاص منه مَعْصوما بَرِيئا من تَبِعَاته ورواجع آثامه، أولى بمن عُنِيَ به وأحبّ صلاحه، ولذلك قدّمتُ تهنئتك .

ولسَعِيد بن حُمَيد فى مثله الى بعض إخوانه :

حَفِظك الله بحفظه، وأسبغَ عليك كرامته، وأدامَ اليك إحسانه . إنّ سرورى بصرفك، أكثرُ من سرور أهلِ عَمَلك بما خُصّوا به من ولايتــك . وقد كنتَ ــ أعزّك الله ــ فيما يُرْبأ بك عنه ، بما أنت عليه فى قَدْرك وآستئهالك؛ ولكنّا رَجَوْنا أن يكون سببا لك الى ما تستحق، فطِبْنا نفسا بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سلّمك منه، ونسأله تمامَ نِعَمِه عليك وعلينا فيـك، بتبليغك أَمَلَك وآمالَنا فيـك، وشـفاع ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب؛ ثم خصّك الله بجميل الصُّنع، وبلّغك غاية المؤمِّلين . إنّ من سعادة الوالى ــ حفظك الله ــ وأعظم ما يُخَصّ به فى عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم، ونوائب الدنيا وشرّها، والعاقبة ممـا يُخَاف منهـا؛ وقد خصّــك الله منهـا بمنّه وطَوْله ما نرجو أن يكون ســببا لك الى نَيْل ما تستحِقّ من المراتب . والله نسأل إيزاعك شُكرما منّ به عليك، وتبليغَك غايةَ أملك فى جميع أمورك، برحمته وفضله .

آخــــر :

ما أحسنَ ما كَشَفَتْ عنك الولاية، وأجمَل ما أبرز منك العمل . قد كسبك الله حَمْد ولايتك وعَزَل عنك لائمتها، بما آنتشر عنك من عَدْلك، وظَهَر من معروفك ، فاذا ساءك هذا فَلْيَسْرُرْك .

وكتب محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر :

الحمــد لله رب العالمين حَمْدا يَحُوز حمد الحامدين ، الذى جعل قضاءه خِيْرة لك ؛ فإن زادك نعمة وَفَّقك لشكرها ، وإن آمتحنك ببلْوَى من نَفْث حاسـد أو كَيْـد كائد ، أنار برهانك وأفلج حُجَّتـك وجمع بين وليِّك وعدوّك فى الشهادة لك؛ وإن نَقَل أمرا عن يدك ، فربّما يَرْجعه اليك مختلّا لفقدك . هذا الى ما جعل عندك من خواصّ النعم التى إن ذكرناها فأطنبنـا أو تجوّزنا فقصّرنا، كان غايتنا الى الحُسُور دون مَدَى غايتك . وقد زادك الله بهذا الحادث فضــلا عظيما: لمـا ظهر من وَلَهِ العامة اليـك وتطلُّعها الى ما كانت فيه: من لِين إنصافك وكريم أخلاقك ، ووَحْشــةِ الخاصة لمَـا فَقَدَتْ من حُسن مُعاملتك وكثير تفضّـلك . وأيقنَ أهلُ الرأى والتأمّل لصفّحات الأمور ، أنّ كلّ ما خَرَج عنـك فعـائد اليـك ومتصل به غيرُه، حتى تستقرّ فى يدك عُرَا الأمور ومعاقدها ، وتُفتح برأيك وتدبيرك أبوابُها ومغالقُها، فَلْيَهْنِكَ أنّ كلّ ما زاد غيرك نقصا زادك فضلا، وكلّ ما نقص من الرجال وحطّها ألحقَ بك شرفا . فزادك الله وزادنا منـك، وجعلنا ممن يَقْبلُه رأيك، ويقدّمه آختيارُك، ويَقَعُ من الأمور بموافقتك، ويجرى منها على سبيل طاعتك .

وكتب سعيد بن حميد الى بعض إخوانه :

جعلنى الله من السوء والمكروه فِداءك ، وأطال فى الخـير والسرور بقاءك ، وأتم نِعَمه عليك ، وأحسنَ منها مَزِيدَك ، وبلّغك أقصى أُمنيّتك ، وقدّمنى أمامك ، وقد بلغنى ما آختار الله لك ، فسُررتُ من حيث يغتمّ لك مَنْ لا يعرف قدرَ النعمة عليك ، ولا يراك بعين آستحقاقك .

ولئن ساءنى ما ساء إخوانَكَ من عَزْلك، لقد سرّنى ما يَسّر الله لك . والحمد لله الذى جعل انصرافك محمودا، وقضى لك فى عاقبتك الحُسْنَى، وأقول :

لِيَهْنِك أنْ أصبحتَ مُجتمعَ الحمد * ورَاعِى المعالى والمُحَامِى عن المجدِ
وأنك صُنتَ الأمرَ فيما وَلِيتَـه * ففرقتَ ما بين الغَوَاية والرُّشـد
فلا يَحْسَبِ الباغونَ عَزْلَك مَغْنما * فإنّ الى الإصـدار عاقبةَ الوِرْد
وما كنتَ إلّا السيفَ جُرِّد للوَغَى * فأحْمَدَ فيهـا ثم رُدّ الى الغِمْـد

وقد قال الأوّل :

فمن يكنْ بورود العَزْل مُكتئبا * فإننى بورود العَـزْلِ مسرورُ
بعدَ الولاية عَزْلٌ يستبين به * طَوْلُ الوُلاة وبعدَ العَزْلِ تأمير

أما ما عنـدى مع تصوّر العاقبـة لك فى نفسى ، فيَمَسّنى فى أمرك فى حال المحنـة ما يخصّنى منه فى وقت تجدّد النعمة . وبحسب ضميرك الشاهد على ما عندى ما أجده لك فى نفسى . فلا زلتَ فى نِعَمٍ متتابعة متجدّدة، ولا عَدِمتَ الثروة والزيادة، وبلّغك الله أقصى أملك ، وأمل أخيـك لك ، وكَبَتَ أعداءك ، وجعلنى وِقاءك المقدّم عنـك . أحبّ أن تشرح لى صـورة الأمر إلامَ تأدّتْ ، وكيف كان الأبتـداء، فإنى لا أشـكّ أنها حيلة ونيّة من عزّ الصاحب الجليل القدر، ولها عاقبةٌ منه إن شاء الله محمودة، وتُفضى من ذلك الى ما تسكن اليه نفسى، إن شاء الله .

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

بطائر اليُمْن فليكُنْ هذا البِناء، وبأسباب السعادة فليتصّل عِقدُ هذا الأجتماع، وبكلّ ذكاء الولد، وثَرْوة العدد، فَلْتَجْر لك الأقدار، وفى أطول غايات البقاء فلتدُمْ هذه الغِبطة والسرور.

تهنئـة بتزويج

بلغنى تزوّجُك من فلانة، فبالرفاء والبنين، تهنئةَ السّلَف الصالحين، ومبلغ سُنّة المجتهدين المتبحرين، وتَقُولُ على يُمْن الطائر، وسعادة الجَدّ، ونَمَـاء العَدَد، وآتفاق الهوى، وطِيب

المناسمة، وٱجتماع الشَّمْل، وثبات الرَّبع، وتَملِّ النِّعَم . أسأل الله الذى قضاها أن يجعلها لك سَكَنًا ويجعلك لها شَجَنًا، وأن يُؤَخِّر حِمَامها الى ٱنتهاء نَفَسك عنها، وجعلك جائزا تُربها، وَوَلِيتَ المال وهناءة العيش وملاهاة الغوانى بعدها .

تهنئة لغسّان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغنى جَمْعُ الأمير أهلَه على الحال التى جمعهم عليها من نعمة الله عليه . فالحمدُ لله على كل ما يرى الأمير فيما له فيه نعمة . فأسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك مَيْمونا، والشَّمْلَ مجتمعا، والبركةَ عظيمة، والأُمورَ سليمة؛ وكذلك فقد عَظَّم الله القَسْم منه لزَوْجه، جَعَلَ الأمير سَكَنًا لها، وأجرى المودّة والرحمة بينهما، فإنه يقول عزّ وجلّ : ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ . فلما كان الأميرُ هو المنظور اليه، وهى المنظور اليها، ٱختارها الأمير لنفسه وٱختار نفسه لها، وأراد الله عزّ وجل أن يزيدها مع فَضْلها فى نفسها فَضْلا باختيار الأمير إيّاها، وباختصاص الله لها بالأمير دون غيرها؛ فكان ذلك فضلا من الله زَيّنه بفضل، وكرامةً من الله وَصَلَ بعْضَها ببعض. فنرغب الى الله عزّ وجل فى أن يزيد الأمير فى كلّ سَعَة مبسوطة، ونعمة مقسومة، ويعطيه فى ذلك شكرا يكون لرضاه مُوجِبا، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبا؛ ثم يُمَلِّيَ الأميرَ ذلك بأحسن ما مَلّى أحدًا من خَلْقه كرامةً اصطنعها عنده .

تهنئــــة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبي الى المأمون يهنئه بمولود له :

قد كان أجذلنى ما أحدث الله لأمير المؤمنين من المَوْهَبَة التى ليس، وإن كان أولى بها من غيره، بأعظم فيها حظّا من رَعِيّتــه . فعمّر الله لك ياأمير المؤمنين قلوبهــم بنور الحكمة وأبصارهم حتى يَشُدّ بهم عَضُدك، ويَسُــدّ بهم ثُلْمَتك، ويُبلِّغهم الغاية المأمول لهم بلوغُها بعدك، غيرمُقْعَد بك مَهَل، ولا مُحَلّ بك أَجَل، ولا مُكَذِّبك أَمَل، ولا مُنْقَطعة أيامك، حتى تُخْتَرم أنفسُنا قبلك .

وكتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود له :

بارك الله فى مولودك الذى أتاك، وهَنَاك نعمته بعطيتـه ، وملّاك كرامتـه بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته، وجعله بارًّا تقيّا، ميمونا مباركا زكيا، ممدودا له فى البقاء، مُبَلَّغا غاية الأمل، مشدودا به عَضُدُك، مُكَثَّرا به ولُدُك، مُداما به سرورك، مدفوعا به الآفات عنك، مشفوعا بأكثر العدد، من طَيِّب الولد .

وله فى مثل ذلك :

هَنَاك الله هذه الفائدة التى أفادكها، وبارك الله فى الهبة التى رزقكها، وشفعها بإخوة متواترين ، يَسُرّونك فى حياتك ويَخْلُفونك فى عَقبك .

تهنئـــة بمولود

كتب رجل الى رجل يهنئه بمولود :

جُعِلْتُ فداءك . للبقاء مولودك، فى السناء نباته، وفى اليُمْن شبابه، وعلى البركة ميلاده .

تهنئـــة بمولود

كتب الحسن بن سهل الى ذى الرياستين :

إنه ليس من نعم الله، وفوائد قِسَمه — وإن خُصّ موقعها ووجب شكرها — نعمةٌ تعدِل النعمة فى الولد، لنمائها فى العدد، وزيادتها فى قوة العضد، وما يُتَعجّل به من عظيم بهجتها، ويُرجى من باقى ذكرها فى الخُلُوف والأعقاب، ولاحق بركتها فى الدعاء والاستغفار. وإن الله قد أفادك وأنالك غلاما سَرِيّا، سَمَّيته فلانا، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين. فرجوتَ أن تكون موافاته بالنصر الذى أظهرَنا الله به على عدوّ الدين والمسلمين من دلائل بركته ويُمْنه ، وشواهد سعادته والسعادة به . فبارك الله لأمير المؤمنين فى طارف نعمه وتالدها ، وشَفَع له قديم مننه بحادثها، ورزقه ذكورا طيِّبين مهذّبين ، يأنس بهم ربعُه، ويتصل بهم نجاحه، ويجعلهم ذرّية زاكية، وبقية صالحة .

آخـــر :

بلغنى الذى وهب الله لك، جعله الله ذُخرا سنيّا، وعَقِبا كريما .

عَمرو بن مَسْعَدَة الى الحسن بن سهل

أما بعد، فإنّ هبةَ الله لك هبةٌ لأمير المؤمنين، وزيادته إياك فى عدده لمحلّك عنده ومكانك فى دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سَرِيّا، فبارك الله لك فيه، وجعله بارّا تقيّا، مباركا سعيدا زكيّا .

تهنئــة بمولود

الحمدُ لله الذى رضى منّا بيسير القول عنـد عظيم النعمة، حمدًا نستوجب به بقاء هذه المَوْهَبـة للنّماء والفائدة؛ فإنّ نعمة الله وإن كانت لم تزل متتابعة، فقد كان ما يَقبض الأمل منا ذكر انفراد الأمير بنفســه وقلّة نَسْله، وما لا يؤمن من انقطاع الذكر بفوات الأجل، ومن دُثُور الأنام، بواقع الحِمَام، وقد أصبحنا من الله من يدين فى فُسْحَة المهـل، ومدّه مواقع الأجل، لمن أراد فيه مَوْضع أملنا فى حسن الخلافة من الأمير وإحياء ذكره .

تهنئــة بمولود

سرورُك سرورٌ يَخُصُّنى منه ما يَخُصُّك، وتَلْبَسنى فيه النعمة ما تَلْبَسك، والحمدُ لله على النعمة فيك وعندك .

كتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعـد، فقد بلغنى من متجدّد نعم الله عزّ وجلّ عليك، وإحسانه اليك فيما رَزَقك من الهبة ما اشتدّ جذلى به، وسألت الله أن يشفعه بأمثاله؛ ولذلك أقول :

قد شُفِـع الواحد بالوافد * وأُرْغِمَ الأنفُ من الحاسدِ
أبا حُسَـين قَرّ عينًا بمـا * أُعْطِيته من هِبَةِ الماجدِ

قد قلتُ لمّا بشّرون به * بُورك فى المولود للوالدِ
إنّا لنرجو وافدا مثلَه * والطائرُ الميمون للوافدِ

ولَه الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا وفرحا، إلّا كنتُ به بَهِجًا، أعتدّ فيه بالنعمة من الله الذى أوجب علىّ من حقّك وعرّفنى من جميل رأيك . فزادك الله خيرا، وأدام إحسانه اليك . وقد بلغنى أنّ الله وَهَبَ لك غلاما سَرِيًّا، أكمل لك صُورته، وأتمّ خلقه، وأحسن البلاء فيه عندك، فاشتدّ سرورى بذلك، وأكثرت حمد الله عليه . فبارك الله فيه، وجعله بارًّا تقيًا، يَشُدّ عَضُدَك، ويُكثر عَدَدَك، ويُقِرّ عينك .

وكتب إسحاق بن يحيى الى بعض إخوانه يهنئه بابنة له :

رُبّ مكروهٍ أعقب مَسَرّة، ومحبوب أعقب مَعَرّة . وخالقُ المنفعة والمضرّة، أعلمُ بمواضع الخِيَرَة .

كتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية :

بارك الله لك فى الأبنة المستفادة ، وجعلها لكم زينا ، وأجرى لكم بها خيرا ، فلا تكرهها؛ فإنهنّ الأمّهات والأخوات، والعمّات والخالات، ومنهنّ الباقيات الصالحات؛ وربّ غلام ساء أهلَه بعد مَسَرّتهم، وربّ جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم .

وكتب عبد الحميد بن يحيى الى أخ له فى مولود ولد له وهو أول مولود كان :

أمّا بعد، فإن مما أعترف من مواهب الله، نعمةً خُصِصتُ بمزيّتها، وآصطفيتُ بخصّيصتها، كانت أسرّلى من هبة الله ولدا سميتُه فلانا، وأمّلتُ ببقائه بعدى حياةً وذكرى، وحُسن خلافتى فى حُرَمتى، وإشراكه إيّاى فى دعائه، شافعا الى ربه عند خلواته فى صلاته وحجّه ، وكلّ مَوْطن من مواطن طاعته، فاذا نظرتُ الى شخصه تحرّك به وجدى وظهر به

سروري، وتعطّفت عليــه منه أنه الولد، وتولّت عنّي به وَحْشــة الوَحدة، فأنا به بجَذَل فى مَغِيبى ومشهدى، أُحاول مسّ جسده بيدى فى الظُّلَم، وتارة أُعانقه وأَرشُفه، ليس يعدله عنــدى عظيمات الفوائد، ولا منفسات الرغائب. سرّنى به واهبــه لى على حين حاجتى، فشدّ به أَزرى، وحمّلني من شكره فيه ما قد آدَنى بثقل حمل النعم السالفة الىّ به، المقرونة سَرّاؤها فى العجب بقــدر ما يدركنى به من رقّة الشفقة عليــه، مخافة مجاذبة المنايا إياه، ووَجَلا من عواطف الأيام عليــه. فأسأل الله الذى آمتنّ علينا بحسن صُــنْعه فى الأرحام، وتأديته بالزكاء، وحَرْسه بالعافية، أن يرزقنا شكر ما حمّلنا فيه وفى غيره، وأن يجعل ما يهَب لنا من ســلامته والمُدّة فى عمره موصولا بالزيادة، معروفا بالعافية، محوطا من المكروه، فإنّه المنّان بالمواهب والواهب بالمنى، لا شريك له. حمّلنى على الكتّاب اليك لعلم ما سُررتُ به علمى بحالك فيه وشركك إياى فى كل نعمة أســداها الىّ ولىّ النعم. وأهــل الشكر أولى بالمزيد من الله جلّ ذكره. والسلام عليك.

تهنئة بنقلة الى دار جديدة

تناهى الىّ نُقْلتك الى الدار التى أرجو أن يجعلها الله نُقْلة المكروه عنك، ونُقْلة السرور اليك، ودوامَ نعمة الله عليك. جعلها الله لك أيمنَ دار وأعظمها بركة، ووصل نعمه فينــا عندك ونعمه عندنا فيك.

تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصرانى أسلم

أنا أقول الحمد لله الذى وفّقك لشكره، وعرّفك هدايته، فطهّر من الأرتياب قلبك، ومن الأفتراء عليه لسانَك. وما زالت مخايلك مُمَثّلة لنا جميل ما وَهَب الله لك، حتى كأنك لم تزل بالإسلام مَوْسوما، وإن كنت على غيره مقيما، وكنّا مؤمّلين لِمَــا صِرتَ اليه، مشفقين لك ممــا كنتَ عليه، واذ كاد إشــفاقنا يستعلى رجاءنا، أتت السعادة بمــا لم تزل الأنفس تعــد منك. فأسأل الله الذى نوّر لك فى رأيك وأضاء لك سبيل رُشْدك، أنــ يوفّقك لصالح العمل، وأن يؤتيك فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ويَقِيكَ عذاب النار.

باب المنظـــــوم

١ — أبو نواس (١)

كان أبو نُوَاس ينادم ولدَ المهدىّ ويلازمهم فلم يُلْفَ مع أحدٍ من النــاس غيرِهم ، ثم نادم القاسمَ بن الرشيد ولقى منه أشياءَ كرهها وكُرِهتْ له ، ففارقه .

(١) هو أبو على الحسن بن هانئ ، الشاعر المتفنن ، الماجن ، صاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ، ورأس المحدثين بعد بشار . وهو فارسى الأصــل . ولد بقرية من كورة خوزستان سنة ١٤٥ هـ ونشأ يتيما فقدمت به أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، فتعلم العربية ورغب فى الأدب ، فلم تعبأ أمه بحاله وأسلمته الى عطار بالبصرة ، فمكث عنده لا يفتر عن معاناة الشعر والاختــلاف الى الأدباء والمجان ، الى أن صادفه عند العطار والبة بن الحباب الشاعر الماجن الكوفى فى إحدى قدماته الى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأخرجه والبــة معه الى الكوفة ، فبقى معه ومع ندمائه من خلعاء الكوفة وتخرج عليهم فى الشعر وفاقهم جميعا . وقدم بغداد وقد أربت ســنه على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم ، وبلغ خبره الرشيد فأذن له فى مدحه ، فمدحه بقصائد طنانة وحبسه مرة على هجوه مضر .

وكان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحهم ومنهم الخصيب عامل مصر ، ثم انقطع الى مدح محمــد الامين ، وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد .

وكان أبو نواس جميل الصورة ، فكه المحضر ، كثير الدعابة ، حاضر البديهة ، متينا فى اللغة والشعر والأدب ، متعصبا لليمانية على المضرية . وأجمع أكثر علماء الشعر ونقدته وفحول الشعراء على أن أبا نواس أشعر المحدثين بعد بشار وأكثرهم تفننا وأرصنهــم قولا وأبدعهم خيالا مع دقة لفظ وبديع معنى ، وأنه شاعر مطبوع برّز فى كل فن من فنون الشعر .

وامتاز عن كل الشعراء بقصائده الخمريات ومقطعاته المجونيات ، وكان شعره لقاح الفساد والقدوة السيئة ، لنقله الغزل من أوصاف المؤنث الى المذكر والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم إذ لم يكن ذلك معروفا قبــله وقبل شيطانه والبه . وزاد على ذلك انفراده بالإبداع فى وصف الخمر ، فكان نموذج سوء لمن تأخر ، فافتتن بشعره الشبان فى زمانه وبعــده وحاكوه وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعــد ظريفا إلا اذا مزج شعره بشىء من ذلك وإن لم يقع فى محظوراته .

ووصفه عبــد الله الجماز فقال : كان أظرف الناس منطقا ، وأغزرهم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم جوابا ، وأكثرهم حياء ، وكان أبيض اللون ، جميــل الوجه ، مليح النغمة والاشارة ، ملتف الأعضاء بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف ، وكان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشمائل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، =

ثم جلس أبو نواس الى الناشئ الراوية فقرأ عليه شعرَ ذى الرُّمة، فأقبل الناشئ على أبيه هانئ وقال له : إن عاش ابنُك هذا وقال الشعرَ لَيقولنّه بلسانٍ شَتُوم .

ثم اتصل بوَالِبَةَ بن الحُبَاب الأسدى، لقيه بدار النّجَاشِيّ الأسدى والى الأهواز للنصور، فقال له والبة: إنى أرى فيك مخايلَ فلاح، وأرى أنك لا تضيعها، وستقول الشعر وتعلوفيه، فاصحَبْنى حتى أُخَرِّجك؛ فقال : ومن أنت؟ قال : أبو أُسَامةَ؛ قال: والبة؟ قال: نعم؛ قال : أنا والله جُعِلتُ فِدَاكَ فى طلبك، وقد أردتُ الخروجَ الى الكوفة والى بغدادَ من أجلك؛ قال: ولماذا ؟ قال؛ شهوةً للقائك ولأبياتٍ سمعتُها لك؛ قال : وما هى؟ فأنشده :

ولها ولا ذنبٌ لها * حبٌّ كأطرافِ الرماحِ
جرحتْ فؤادى بالهوى * فالقلبُ مجروح النواحى
سلَّ الخليفـةُ صارمًا * هو للفساد وللصلاحِ
أجداه كفُّ أبى الوليـ * ـد يداً مُبَارِيةَ الرياحِ
ألـق بجانب خَصْره * أمضَى من الأجل المُتَاحِ
وكأنما ذَرّ الهبا * ءَ عليه أنفاسُ الرياحِ

فمضى معه، ثم سأله أن يخرج الى البادية مع وفد بنى أسد ليتعلم العربية والغريب، فأخرجه مع قوم منهم، فأقام بالبادية سنةً؛ ثم قدم ففارق والبةَ ورجع الى بغداد .

وكان أبونواس متكلما جَدِلًا راوية خلا، رقيقَ الطبع ثابت الفهم فى الكلام اللطيف.

ويدل على معرفته بالكلام أشياءُ من شعره، منها قوله :

وذاتِ خدٍّ مورَّد * فِضّيّـة المتجـرَّدْ
تأمّل العينُ منها * محاسنًا ليس تنفَدْ

= راوية للأشعار، علامة بالأخبار، كأن كلامه شعر موزون . توفى سنة ١٩٩ هـ . وتجد ترجمته وأخباره وأشعاره فى كتاب خاص باسم « أخبار أبى نواس » لابن منظور طبع مصر سنة ١٩٢٤ والأغانى (ج ١٨ ص ٢) و(ج ٦ ص ١١٠، ١٧٠، ١٨٦) و(ج ١٦ ص ١٤٨) وابن خلكان (ج ١ ص ١٣٥) وطبقات الادباء (ص ٩٦) والشعر والشعراء (ص ٥٠١) والفهرست (ص ١٦٠) والعقد الفريد (ج ٣ ص ٣٣٧) .

فبعضـــه قد تناهى * وبعضـــه يتـــولّد
والحسن فى كل شىء * منهـا مُعـاد مردّد

ومنها قـــوله :

يا عاقدَ القلب عـــنّى * هـــلا تذكرتَ حلَّا
تركتَ غيّ قليـــلًا * مرن القليـــل أقلَّا
يكـاد لا يتجـــزَّى * أقـــلّ فى اللفظ مِنْ لا

ومنها قوله فى آمرأة آسمها حُسْن :

ان اسم حُسْن لوجهها صفـــةٌ * ولا أرَى ذا فى غيرها جُمِعَـا
فهى اذا سُمّيت فقد وُصِفتْ * فيجمعُ الإسم معنيين معًا

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة :

قـــل لزُهَير اذا حدَا رشَـــدًا * أقللْ أوَ أكثِرْ فأنت مِهْـــذارُ
سَخُنْتَ من شـــدّة البرودة حـــتّى * صرتَ عنـــدى كأنك النارُ
لا يعجَبِ السامعون من صفتى * كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

هذا شىء أخذه أبو نواس من مذهب حكماء الهند، فانهم يقولون: إن الشىء اذا أفرط فى البرودة انقلب حارًا، وقالوا: إن الصَّنْدل يحكّ منه اليسير فيبرد، فاذا أكثر منه سخن .

قالوا : كان أبو نواس دعيًا يخلط فى دعوته . فمن ذلك قوله يهجو عربَ البَصْرة :

ألا كل بصرىّ يرى أنمـا العُلا * مُكَمَّهَة سُحْـــقٌ لهنّ جَرِينُ(١)
فان تغرِسُـــوا نخلًا فان غِرَاسَنا * ضِرابٌ وطعنٌ فى النحور سَخِينُ
فان أكُ بصريًّا فإن مُهـاجَرى * دِمَشقُ ولكنّ الحـــديثَ فنونُ
مجاورَ قوم ليس بيـــنى وبينهم * أواصرُ إلا دعـــوةٌ وظنـــونُ
اذا مادعا باسِمى العريف أجبتُه * الى دعـــوة ممـا علىّ تَهُون

---

(١) المكمهة : الغراس الكثيرة . والسحق : الطويلة ، يريد النحل . والجرين هنا : موضع تجفيف التمر .

ثم هجا اليمن فى هذه القصيدة بقوله :

لأزد عُمَانٍ بالمهلّب نَزوةٌ * اذا افتخر الأقوام ثمّ تلينُ
وبكر ترى أن النبوّةَ أُنزلَت * على مِسْمَعٍ فى الرّحْم وهو جنينُ
وقالت تميمٌ لا نرى أن واحدا * كأحنفنا حتّى المماتِ يكونُ
فما لُمتُ قيسًا بعدها فى قُتيبة * وفخرٍ به إن الفخار فنونُ

وإنما نشأ أبو نواس بالبصرة وليس له بدمشق قبلٌ ولا بعدٌ .

ومما هجا به اليمنَ أيضا قوله لهاشم بن حُديج :

وردنا على هاشم مصرَهُ * فبارت تجارتنا عِندَهْ

يقول فيها :

رأيتك عند حضور الخوا * ن شديدا على العبد والعبده
وتحتدُّ حتى يخافَ الجليُ * س شَذاك عليه من الحدّه
وتختم ذاك بفخرٍ عليه * بِكِنْدةَ فاسلَحْ على كنده
فإن حُديجا له هجرةٌ * ولكنّها زمنَ الردّه
وما كان إيمانكم بالرسول * سوى قتلكم صهرَه بعده
تعُدونها فى مساعيكمُ * كعدّ الأهلّة معتدّه
وما كان قاتلُه فى الرجال * بجمل لطهر ولا رِشده
فلو شهدتْه قريشُ البِطا * ح لما محشت تأركم جلده(١)

وقوله أيضا :

ما منك سلمى ولا أطلالها الدُّرُسُ * ولا نواطقُ من طير ولا خُرُسُ
يا هاشمُ بنَ حديج لو عددتَ أبا * مثلَ القَلَمّس لم يعلَق بك الدّنَس
إذ أصبح الملكُ النعمانُ وافدَه * ومن قُضاعَة أسرى عنده حُبُس

(١) المحش : قشر الجلد عن اللحم .

فابتاعهم بإخاءِ الدهـــر ما عَمِـروا * فلم ينل مثلَها من مثلهـــم أنَسُ
أو رحت مثـــلَ حُوَىٍّ فى مكارمه * هيهات منـــك حُوَىٌّ حين يُلتمس
أو كالسَّـــمَوءل اذ طاف الهمام به * فى جَحفل لَجِبِ الأصواتِ يرتجس
فاختار ثُكلًا ولم يَغـــدِرْ بذمتـــه * إذ قيل أشرِف تَرَ الأوداجَ تنبجسُ
ما زاد ذاك على تيـــهٍ خُصِصتَ به * وكيف يَعْـــدِل غيرَ السوءة الفَرَسُ

وقـــوله :

يا هاشمُ بنَ حُدَيج ليس فخـــركمُ * بقتل صهرِ رسول الله بالسَّـــدَدِ
أدرجتمُ فى إهاب العَـــيرِ جثتَـــه * فبئسَ ما قدَّمتْ أيديكُم لغـــدِ
إن تقتلوا ابنَ أبى بكر فقـــد قَتَلتْ * حُجرًا بدارةِ مَلْحوبٍ بنو أســـدِ
وطـــرَّدوكم الى الأجبال من أجَأٍ * طردَ النَّعام اذا ما تاه فى البـــلدِ
وقد أصـــاب شَراحيلا أبو حَنَشٍ * يومَ الكُلاب فـــا دافعـــتمُ بيدِ
ويوم قلـــتم لزيدٍ وهو يقتلكـــم * قتل الكلاب لقد أبرحتَ من ولدِ
وكلّ كِنْديّةٍ قالت لجـــارتهـــا * والدمعُ ينهلّ من مَثْنى ومنفـــرِدِ
ألْهَى امرأَ القيسِ تشبيبٌ بغانية * عن ثأره وصـــفاتُ النَّوْء والوتدِ

وقد رثَى أبو نواس خَلَفًا الأحمرَ بعد موته بقصائدَ من شعره، منها قصيدتُه التى أوّلهـا قـــوله :

لو كانـــ حىٌّ وائـــلًا(١) من التَّلَفْ * لو ألتْ شَـــغْواءُ فى أعلى شَعَفْ
أمّ فُـــرَيخ أحرزتْه فى لَجَفْ(٢) * مُزَغّبَ الألْغادِ لم يأكل بكفّ
كأنه مستقعِدٌ من الخَـــرَفْ * هاتيـــك أو عَصْماء فى أعلى شَرَفْ
تَرُوع فى الطُّبَّاقِ والتَّرْع(٣) الألُفْ * أوْدَى جِماعُ العلم مُذْ أودَى خَلَفْ

---

(١) وائلا : ناجيا . ووألت : لجأت . والشغواء : العقاب . والشعف : رءوس الجبال .

(٢) اللجف : الغار فى الجبل . ومزغب : صار ذا زغب ، والزغب صـــغار الريش . والألغاد جمع لغد بالضم وهو لحمة فى الحلق .   (٣) الطباق والترع : نوعان من الشجر .

مَن لا يَعُدّ العِلمَ إلا ما عَرَف * قَلَيْذَمٌ[1] من العَيالِمِ الخُسُف

كَمَّا متى نَشاءُ منه نَغترِف * روايةً لا تُجتنى من الصحف

ومنها قوله يرثيه :

لا تَئِلُ العُصْمُ فى الهضاب ولا * شَغواء تَغْذُو فرخين فى لَجَف

يُكِنّها الجوُّ فى النهار ويُؤْ * ويها سَوادُ الدُّجَى الى شَرَف

تحنو بجُؤْشُوشِها[2] على ضَرِم * كقِعْدة المنحني من الحَرَف

ولا شَبُوب[3] باتت تؤرّقه النَّثْرةُ منها بوابِلٍ قَصِف

دانٍ على الأرض والوَصيد وفى * نُؤْيٍ أمينِ الإيادِ ذى هَدَف[4]

ديدنُه ذاك طولَ ليلتِه * حتى اذا انجاب حاجبُ السَّدَف

غدا كوَقْف الهَلُوك ينهفتُ الـ * ـقِطْقِطُ[5] من مَنْبِتيه والكَتِف

كأن شَذْرًا وهتْ معاقدُه * بين صَلاه فلعَب الشَّنَف

وأخدرىٌّ صُلْب النَّواهق صَلْـ * ـصالٍ أمينِ الفُصُوص والوُظُف

منفرد فى الفَلاة تُوسعه * رياً وما يختليه من عَلَف

ما ترك الموت من أولى شَبَحًا * بادتْ بتلك القِلال والشَّعَف

لما رأيتُ المنونَ آخذةً * كلَّ شديدٍ وكلَّ ذى ضَعَف

بتُّ أعزِّى الفؤادَ عن خَلَف * وبات دمعى إلا يَفِضْ يَكِف

أنسى الرَّزايا ميتٌ فُجِعتُ به * أمسى رهينَ التُّراب فى جَدَف

---

(١) القليذم : البئر العزيرة . والعيالم : جمع عيلم وهو البئر الكثيرة الماء . والخسف جمع خسيفة وهى البئر التى حفرت فى حجارة فنبع منها ماء عزير لا ينقطع .

(٢) الجؤشوش : الصدر . والضرم : فرخ العقاب .

(٣) الشبوب : الشاب من الثيران والغنم . والنثرة : منزلة من منازل القمر .

(٤) الوصيد : بيت كالحظيرة يتخذ من الحجارة للمال أى الغنم وغيرها فى الجبال . والإياد : التراب يجعل حول الحوض أو الخباء يقوى به أو يمنع ماء المطر . والهدف : كل مرتفع من بناء أو كثيب رمل أو جبل .

(٥) ينهفت : يتساقط ويتحفص . والقطقط : المطر الصغير أو المتتابع العظيم القطر وقيل هو دون الرذاذ وقيل البرد أو صغاره .

كان يُسَنِّى برفقه غُلُقًا (١) * فى غير عِىٍّ منه ولا عُنُف
يجوبُ عنك التى غُشيتَ بها * من قبلُ حتى يَشفيك فى لَطَف
لا يبهم الحاءَ فى القراءة بالخا * ء ولا لامَها مع الألف
ولا يُعَمِّى معنى الكلام ولا * يكون إنشادُه عن الصُّحُف
وكان ممن مضى لنا خَلَفًا * فليس منه إذ بان من خَلَف

واختلف أبو نواس الى أبى زيد فكتب الغريب من الألفاظ، ثم نظر فى نحو سيبويه، ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السمّان وغيرهم، فلم يتخلف عن أحد منهم، وأدرك الناس فعلم، ثم قدم بغداد بعد ذلك .

وكان أيضا يتَنَزَّر ويُدعى للفرزدق . ثم وقع بينه وبين الحكم بن قنبر المازنى، فهجاه الحكم وذكر برِّيَه العودَ وبَغى عليه ونكّبه . ولما قال أبو نواس قصيدته التى يهجو بها خِنْيف، وهى :

ألم تَربَعْ على الطَّلَل الطَّمَاس (٢) * عَفَاه كل أسحم ذى ارتجاس
وذارِى التُّرب مُرْتكِمُ حَصَاه (٣) * نسيج المِيث مِعتَقَة الدَّهَاس
سوى سُفْع أعارتها الليالى (٤) * سوادَ الليل من بعد اغبساس
وأورَق حالف المَثْواةَ هابٍ (٥) * كضاوى الفِراخ من المَلَاس
منازلُ من عُفَيرَة أو سُلَيمى * أو الدهماء أخت بنى الحِماس
كأن معاقدَ الأوضاح منها * بجيدِ أغنَّ تُوم فى الكِناس
وتَبْسِمُ عن أغرّ كأن فيه (٦) * مُجاجَ سُلافة من بيت راس
فمَنْ ذا مبلغٌ عمرًا رسولًا * فقد ذَكَرْتَ وُدَّك غير ناس

---

(١) سناه تسنية : سهله وفتحه . (٢) طماس بالكسر : دارس . والأسحم : السحاب . والارتجاس : الرعد . (٣) المعتقة : حبل فى الرمل .
(٤) الاغبساس : بياض فيه كدرة . والسفع : يريد بها الأثافى . (٥) الملاس : الصمور وهاب : لونه لون الهباء . (٦) بلدة بالشأم تنسب اليها الخمر .

فلم أهجُرْك هجرَ قِلًى ولكن * نوائبُ لا تزالُ لها تُقاسي
نوائبُ تعجِزُ الأدباءُ عنها * ويعيا دونَها اللقِن النِّطاسي
وقد نافحتُ عن أحسابِ قومٍ * هُمُ وَرِثوا مكارمَ ذِى نُوَاس
فإن تَكُ أُوقِدتْ للحرب نارٌ * فما غَطَّيْتُ خوفَ الحرب راسي
سأُبلِي خيرَ ما أبلَى مُحَامٍ * اذا ما النَّبْلُ أُلحِمَ بالقِياس(١)
وسُمتُ الوائلِينَ بفاقِراتٍ * بهنّ وسَمْتُ رهطَ أبي فِراس
وقالت كاهلٌ وبنو قُعَيْنٍ * حَنَانَكَ إننا لسنا بناس
فما بالُ النِّعاج تَفِتْ بشَتْمِي * وفي زَمَعاتهن دمُ الفِراس
وما حامتْ عن الأحساب إلا * لِترفع ذكرَها بأبي نواس

عارضه الحكم وهجاه ، فانقلب على النِّزارية وادّعى أنه من حاء وحكم ؛ فزجره يزيد بن منصور الحميرىّ خال المهدى وقال له : أنت خوزى، فمالك ولحاء وحكم ! فقال له : أنا مولًى لهم، فتركوه، وقال بعضهم لبعض : إنه لظريف اللسان غزير العلوم فدعوه، وبهذا الولاء يتعصّب لنا ويكايد عنا ويهجو النزاريّة، فكان كما قالوا وكما ظنوا، فانقلب الى اليمن وعَدَل عن كنيته بأبى فراس واكتنى بأبى نواس، تشبُّها بكنية ذى نُوَاس كما كانت اليمن تكتنى، وندم على هجاء اليمن، ووجدهم له أنصرَ ولدعوته أقبلَ، فاعتذر الى هاشم بن حُديج الكندى من هجائه ، ومَدَحَ اليمن فقال :

أهاشمُ خذْ منّى رضاك وإن أتَى * رضاك على نفسى فغيرُ ملُوم
فأُقسمُ ما جاوزتُ بالشتم والدِى * وعِرضى وما مزّقتُ غيرَ أديمى
فعُذتُ بحَقْوَىْ هاشمٍ فأعاذنى * كريمٌ أراه فوقَ كلّ كريم
وإنّ آمرأً أغضَى على مثلِ زَلّتي * وإن جَرَحتْ فيه لجَدُّ حليم
تطاولَ فوقَ الناس حتّى كأنّما * يَرون به نجما أمام نجوم

(١) جمع قوس .

اذا آمتازتِ الأحسابُ يوما بأهلها * أناخَ الى عاديّـــةٍ وصَمـــيم
الى كلّ مَعصُوبٍ به التّاجُ مِقْوَلٍ * اليـــه أيادى عامرٍ وتمـــيم

وكان قبل أن ينتمِى لليمن ويدعَى لنزار يتعاجم فى شعره، فمن ذلك قوله :

فاسقنيها وغنِّ صَو * تًا، لك الخـــيرُ أعجما
ليس فى نعتِ دِمْنَـــةٍ * لا ولا زَجْـــر أشأما .

وكان الجاحظ يقول : ما أعرف لأبى نواس شعرا يفضُل هذه القصيدة وهى :

ودارِ نَدامَى عطّلوها وأدلجَـــوا * بهـــا أثرٌ منهـــم جديدٌ ودارسُ
مَساحِبُ من جرّ الزِّقاق على الثّرى * وأضغاثُ ريحانٍ جـــنىٌّ ويابسُ
حبستُ بها صَحبِي فجدّدتُ عهدَهم * وإنّى عـــلَى أمثال تلك لحابسُ
ولم أدر منهم غيرَ ما شهِـــدتْ به * بشَرقىّ ساباطَ الديارُ البسابسُ
أقمنـــا بهـــا يومًا ويوما وثالثـــا * ويوما له يومُ الـــترحّل خامسُ
تُـــدار علينـــا الراحُ فى عَسجديّة * حَبَتْهـــا بأنواع التّصـــاوِير فارس
قَرارتُهـــا كسرَى وفى جَنباتها * مَهًا تدّريها بالقِسىّ الفـــوارسُ
فللخمر ما زُرّت عليـــه جُيوبُها * وللمـــاء ما دارتْ عليـــه القَلانسُ (١)

وقوله يصف كَرمة وعبّر عنها بالهَجْمة وهو يريد الدِّنان :

لنـــا هَجمةٌ لا يُدرك الذئبُ سَخلَها * ولا راعَها نَزوُ الفِحالة والخطـــر
اذا امتُحنت ألوانُها مالَ صفوُها * الى الكُمْت إلا أن أوبارَها خُضرُ
وإن قام فيها الحالبون آتقتْهمُ * بنَجلاء ثقب الجوف دِرّتُها الخمرُ
مَسارحها الغربِىُّ من نهر صَرصَر * فقُطْـــرَ بُّلٌ فالصّالحيّـــةُ فالعَقْـــرُ

---

(١) يعنى أن الخمر مصبوب فيها الى حلوق الصور صرفا . وقوله : وللماء، يعنى انهم صبوا الماء فى مزجها حتى علا رءوسها .

تُراثُ أبي ساسانَ كسرَى ولم تكن * مواريثَ ما أبقت تميمٌ ولا بكر
قَصرتُ بها ليلي وليلَ ابنِ حُرّة * له حسبٌ زاكٍ وليس له وَفـرُ

وفى تَمَاجُم أبي نواس فى شعره يقول الرقاشيّ يهجوه :

نَبَطيّ فاذا قيل له * أنت مولى حَكَمٍ قال أجَل
هو مولَى الله اذ كان به * لاحقًا فالله أعلَى وأجلّ
واضعا نسبتَه حيثُ اشتهى * فاذا ما رابَه ريبٌ رَحَل

فقال أبو نواس يهجوه :

هجوتُ الفضلَ دهرى وهو عندى * رَقَاشيٌّ كما زعم المسـولُ
فلما سُوئلتْ عنه رقَاشٌ * لنعلم ما تقول وما يقول
ولمّا أن نصصناه اليها * لتعلم ما يُقال وما نقولُ
وجدنا الفضلَ أبعدَ من رقاش * من الأُتُنِ ادّعت فيها الفُيول
وجدنا الفضلَ أكرمَ من رقاش * لأنّ الفضلَ مولاه الرسولُ

يريد بذلك قولَه صلّى الله عليه وسلّم : «أنا مولَى من لا مولَى له» .

وقال أيضا يهجوه :

قل للرّقاشيّ اذا جئتَه * لو متَّ يا أحمقُ لم اهجُكا
لأنّنى أكرِم عِرضي ولا * أقرُنه يومًا الى عِرْضكا
إن تهجُنى تَهْجُ فتى ماجدا * لا يرفع الطَّرْفَ الى مثلكا
دونَك عِرضى فاهجُه راشدًا * لا تَدْنَس الأعراضُ من هجوكا
والله لو كنتُ جريرًا لما * كنتُ بأهجى لك من أصلكا

وقال أيضا يهجوه :

يا عربيًّا من صَنْعة السُّوقِ * وصنعةُ السُّوق ذاتُ تشـقيق
ما رأيكم يانزَارُ فى رجل * يدخُل فيكم من خَلْق مخلوق

ويحمل الوَطْبَ والعِلَابَ ولا * يصلُح إلّا لحملِ إبريق

لقد ضربنا بالطبل أنك في الشقوم * صحيحٌ وصِيح في البُوق

قد أخذ اللهُ من رَقَاشَ على * تركهمُ المجدَ بالمواثيق

فالناس يسعَوْن للعلا قُدُمًا * وهم وراءُ مكسّرو السُّوق

هـذا كذا كم وفى الهَيَاج اذا * هِيجَ فما شئتَ من بوَاشِيق(١)

وقال أيضا يهجوه :

أصبح الفضلُ ظاهرَ التِّيهِ * وذاك مذ صِرتُ أهاجيه

لله شعرى، أيّ مفـواهةٍ * لكلّ من دونى قوافيه

كم بين فضلٍ منذ هاجيتُه * وبينه قبلَ أُهاجيه

فالحمد لله وإن كنتُ لم * أحفِلْ بقومٍ تَصَحوا فيه

رَضيتُ أن يشتمنى ساقطٌ * شِنشِيَ خيرٌ من مَوَاليه

وكان أبو نواس فى دعاويه يتماجَنُ ويعبَث ويُخفى نسبه واسمَ أمّه لئلا يُهْجَى ، وذلك مشهور عنه . ولو غضب هو نفسه على أبيه لهجاه ولم يَحْتشِم. والمذكور من أمره أنه كان مولى الحَكَمِيّين، يفتخر باليمن ويمدحهم لذلك، ويمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم، فلذلك قال فى العجم ما قال.

قال ابو الفرج الأصفهانى : كان أبو عُبَيدة يقول : ذهبتِ اليمنُ بجِدِّ الشعر وهزله : امرؤ القيس بجِدّه ، وأبو نواس بهزْله . وكان يقول : ذهبت اليمنُ بجيد الشعر فى قديمه وحديثه : امرؤ القيس فى الأوائل، وأبو نواس فى المحدثين. وكان يقول : شعراء اليمن ثلاثة : امرؤ القيس وحَسّان بن ثابت وأبو نُوَاس . وقال أيضا : أبو نواس فى المحدثين مثل امرئ القيس فى المتقدمين ، فتحَ لهم هـذه الفِطَنَ ودلّهم على المعانى وأرشدهم الى طريق الأدب والتصرف فى فنونه . وكان يقول : يعجبنى من شعر أبى نواس قوله :

---

(١) جمع باشق وهو اسم طائر، أعجمى معرب .

بَنَينا على كسرى سماءَ مُدامةٍ * مكلَّلة حافاتُها بنجوم
فلو رُدَّ فى كسرى بن ساسان روحُه * إذًا لاصطفانى دونَ كل نديم

وسئل يعقوب بن السِّكيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء، فقال: اذا أردت من الجاهليين فلامرئ القيس والأعشى ، ومن الإسلاميين فلجَرير والفرزدق، ومن المحدَثين فلأبى نواس فَحَسْبُ. وقيل : للعُتْبِي من أشعرُ الناس؟ قال : عند الناسِ أم عندى؟ قيل عند الناس؟ قال : امرؤ القيس، قيل : فعندك؟ قال : أبو نواس .

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة : من طلب الأدب فلم يَرْوِ شعرَ أبى نواس فليس بتامّ الأدب . وسئل : من أشعرُ المحدَثين؟ فقال: الذى يقول :

كأنَّ ثيابَه أطلعـ * ـن من أزواره قمَرا
يزيدك وجهُه حسنًا * اذا ما زدتَه نظرا
بعينٍ خالط التفتيـ * ـرُ من أجفانها الحوَرا
ووجهٍ سابرىٍّ لو * تصوَّب ماؤه قطَرا
وقد خطَّت حواضنُه * له من عنبرٍ طُررًا

وقال ابراهيم بن العباس الطويل : اذا رأيت الرجلَ يحفظ شعر أبى نواس علمت أن ذلك عنوانُ أدبه ورائدُ ظَرْفه .

وكان أبو نواس يقول عن نفسه : سفُلْتُ عن طبقة من تقدّمني من الشعراء وعلوت عن طبقة مَنْ معى ومن يجىء بعدى، فأنا نسيجُ وَحْدى .

وحدّث جماعة من الرواة ممن شاهد أبا نواس قالوا : كان أقلُّ ما فى أبى نواس قولَ الشعر، وكان فحلا راويةً عالما .

وقال أبو عبيدة : بلغنى أن أبا نواس يتعاطى قَرْضَ الشعر فتلقانِى وهو سكرانُ ماطَرَّ شاربُه بعدُ، فقلت له : كيف فلان عندك؟ فقال : ثقيلُ الظل، جامد النسيم، فقلت : زِدْ ، فقال : مظلم الهواء، منتنُ الفناء، فقلت : زد ، فقال : غليظ الطبع، بارد الشكل،

قلت : زد ؛ فقال : وَخْم الطَّلْعة، عَسِر القَلْعة، قلت : زد، قال : نائيُّ الجَنَبات ، بارد الحركات، قال : نخفّفتُ عنـه ؛ فقال : زدنى سؤالا، أزدْك جوابا؛ فقلت : «كفى من القلادةِ ما أحاط بالعنق» .

وقال سليمان بن أبى سَهْل لأبى نواس : ما الذى استُجِيد من أجناس شعرك ؟ فقال: أشعارى فى الخمر لم يُقَل مثلُها ، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس، وهما أجود شعرى إن لم يزاحم غزلى ما قلته فى الطَّرْد .

وكان يقول : ما قلت الشعر حتى رَوَيتُ لستين امرأة من العرب منهن الخَنْساء وليلى، فما ظنك بالرجال ؟ وانى لأروى سبعمائة أُرْجوزة ما تُعرف .

وكان قد استأذن خَلَفًا فى نظم الشعر،فقال: لا آذَنُ لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظَ ألفَ مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومَقْطوعة ؛ فغاب عنه مدةً وحضر اليه فقال له : قد حفظتُها؛ فقال : أنشِدْها ، فأنشده أكثرَها فى عدة أيام، ثم سأله أن يأذن له فى نَظْم الشعر؛ فقال له : لا آذَنُ لك إلا أن تنسى هذه الألفَ أرجوزة كأنك لم تحفظْها، فقال له : هذا أمر يصعُب علىّ فإنى قد أتقنت حفظَها ،فقال له : لا آذن لكَ إلا أن تنساها ،فذهب الى بعض الدِّيرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتُها حتى كأنْ لم أكن قد حفظتُها قطّ؛ فقال له : الان فانظم الشعر .

وكان أبو نواس يقول : لا أكاد أقول شعرًا جيِّدا حتى تكون نفسى طيبة، وأكونَ فى بستان مونِق، وعلى حال أرتضيها من صلةٍ أُوصَل بها أو وعدٍ بصلة، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعارًا لا أرضاها . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياما، ثم يعرِضها على نفسه فيُسْقِط كثيرًا منها و يترك صافيَها ، ولا يسرُّه كلُّ ما يَقْذِف به خاطرُه . وكان يهمُّه الشعرُ فى الخمر فلا يعمله إلا فى وقت نشاطه . ولم يكن فى الشـعر بالبطىء ولا بالسريع بل كان فى منزلة وُسْطَى .

وكان الأصمعي يقول : يعجبني من شعر الشاعر بيتٌ واحد قد أجاد قائلُه وهو :

ضعيفةُ كَرِّ الطَّرْف تحسَب أنها * قريبــةُ عهدٍ بالإفاقة من سُـقْمِ

وإنّى لآتِى الأمرَ من حيث يُتَّقَى * ويعلَم سَهْمِى حينَ أنْزِع مَنْ أرْمِى

قال العَتَّابيّ لرجلين تناظرا فى شعر أبى نواس : والله لو أدركَ الخبيثُ الجاهليةَ ما فُضِّل عليــه أحد .

وقال أبو عمرو الشَّيْبانى : أشعرُ النـاس فى وصف الخمر ثلاثة : الأَعْشى والأَخْطل وأبو نُوَاس .

قال محمد بن عمر : لم يكن شاعرٌ فى عصر أبى نواس إلا وهو يحسُده لميل الناس اليـه وشهوتهم لمعاشرته ، وبُعْدِ صِيتِه وظَرْف لسانه .

وقال أبو حاتم : سئل أبو نواس عن شعره فقال : اذا أردتُ أن أَجِدّ ، قلتُ مثـل قصيدى « أيهـا المنتابُ عن عُفُرِهْ » ، واذا أردت العبثَ قلت مثل قصيدى : « طاب الهوى لعميده » ، فأما الذى أنا فيه وحدى وكلُّه جيدٌ فاذا وصفت الخمر .

وقال أبو ذَكْوانَ : كنا عنـد التَّوَّزِىّ فذكرتُ عنده أبا نواس ، فوضع منـه بعضُ الحاضرين ؛ فقال له التوزى : أتقول هذا لرجل يقول :

يخـافُه النـاسُ ويرجُونه * كأنه الجنــةُ والنـارُ

ويقــول :

فما جازه جودٌ ولا حــلّ دونَه * ولكن يصير الجـودُ حيث يصيرُ

ويقــول :

فتَمَشَّتْ فى مَفَاصلهــمْ * كتَمَشِّى البُرْءِ فى السَّقَمِ

قال ابن الأعرابى يوما لجلسائه : ما أشعرُ ما قال أبو نواس فى الخمر؟ فقال بعضهم :

اذا عَبّ فيهـا شاربُ القومِ خلتَه * يُقَبِّل فى داجٍ من اللّيــل كوكبا

وقال آخر :

كأن كُبْرَى وصُغْرَى من فَقَاقعها * حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذَّهَبِ

وقال آخر :

تَرَى حيث ما كانتْ من البيت مَشْرِقاً * وما لم تكن فيـــه من البيت مَغرِبا

وقال آخر :

فكأنّ الكؤوسَ فينا نجومٌ * دائراتٌ بروجُها أيدينـا

وقال آخر :

صفراءُ لا تنزلُ الاحزانُ ساحتَهـا * لـــو مَسّها حَجَــرٌ مسته سَرّاءُ

فقال ابن الأعرابى : إن هـــذا كله لشاعرٍ انفرد بالإحسان فيه ، وتقدّم من سـبقه ومن تأخر عنه، ولكنه أشعر من هذا كله فى قوله :

لا ينزِلُ الليـــلُ حيث حَلّتْ * فـــدهرُ شُــرّابهـا نهـارُ

قال مسلم بن بهرام : لَقِيتُ أبا العَتاهِيَةِ فقلت له : من أشعرُ النـاس ؟ قال : تريد جاهليّاً أو إسلاميّا أو مولّدها ؟ قال : كُلّا أريد، قال : الذى يقول فى المديح :

اذا نحن أثنينـا عليـك بصـالحٍ * فأنت كما نُثْنِى وفـوق الذى نُثْنِى

وإن جرَتِ الألفاظُ يوماً بمدحةٍ * لغـــيرك إنساناً فأنت الذى نَعنِي

والذى يقول فى الزهد :

ألا ربّ وجهٍ فى التُّراب عَتِيـــقِ * ويارُبّ حُسْنٍ فى التراب رقيـقِ

ويارُبّ حزمٍ فى التراب ونَجْـــدةٍ * ويارُبّ رأيٍ فى التراب وَثِيـــقِ

فقـــل لقريب الدار إنك راحلٌ * الى منزلٍ نائى المحَـــلِّ سَحيـــقِ

وما النـاسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ * وذُو نَسَبٍ فى الهـالكين عريقِ

اذا امتحن الدنيا لَبِيبٌ تَكَشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثيـاب صـــديقِ

وكان يقول : سبقني أبو نواس الى ثلاثة أبيات وَدِدتُ أني سبقته اليها بكل ما قلتـه فإنه أشعر الناس فيها، منها قوله :

يا كبيرَ الذّنب عفوُ اللّـ * ـه من ذنبـك أكبرْ

وقـــوله :

مَنْ لم يكن لله متّهما * لم يُمسِ محتاجًا الى أحدِ

وقـــوله :

اذا آمتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثيـاب صـديقِ

ثم قال : قلت فى الزهد ستة عشر ألف بيت وَدِدتُ أن أبا نواس له ثلثُها بهذه الأبيات .

وقال الجاحظ : سمعت النَّظَّام يقول ، وقد أنشد شعراً لأبى نواس : كأن هذا الفتى جُمِـع له الكلامُ فاختار أحسنَه . وقال بعضهم : كأن المعانى حُبِستْ عليه، فأخذ حاجتَه وفَرّق الباقى على النـاس . وقال أبو حاتم : كانت المعانى مدفونة حتى أثارها أبو نواس .

حدّث الحسين بن الخصيب الكاتب، قال : قال أحمد بن يوسف الكاتب : كنتُ أنا وعبـدُ الله بن طاهر عند المأمون، وهو مستلقٍ على قفاه، فقال لعبـد الله بن طاهر : يا أبا العباس، مَنْ أشعرُ مَنْ قال الشعر فى خلافة بنى هاشم ؟ فقال : أميرُ المؤمنين أعرفُ بهـذا وأعلى عينا، فقال له المأمون : على ذلك قَفِّـلْ، تكلم أنت يا أحمـد بن يوسف، فقال عبد الله بن طاهر : أشعرُهم الذى يقول :

ويا قبرَ معنٍ كنت أوّلَ حُفرة * من الأرض خُطَّت للسَّماحة منزلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب : فقلت : بل أشعرُهم الذى يقول :

أَشْبهتِ أعدائى فصرتُ أُحِبُّهـمْ * إذ كان حَظّى منـك حَظّى منْهُمُ

فقال المأمون : يا أحمد أبيتَ إلا غَزَلا ! أين أنتم عن الذى يقول :

يا شقيقَ النّفس من حَكَمٍ * نِمْتَ عن لَيْـلِى ولم أَنَمِ

فقلنا : صدقتَ يا أمير المؤمنين .

وكان المأمون يقول : لو سُئلت الدنيا عن نفسها فنطقت ، لما وصفتْ نفسَها كما وصفها أبو نواس فى قوله :

اذا امتحن الدنيا لبيبٌ تَكَشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثياب صـــديقِ

وَرَد على العتابى بحَلَب عِدّةٌ من الكِبَار من أهل قِنَّسْرين، فدخلوا وسلّموا، وكان فى يده رُقْعــة ينظر اليها، فقال لهم : لقد سَلَكَ صاحبُ هــذه الرُّقعة وادياً ما سلكه أحدٌ قبله ؛ فنظروا فاذا هو شعر أبى نواس فى جِنان جارية آل عبد الوهّاب الثقفىّ، وهو قوله :

رَبْعُ الكَرَى بين الجفــون مُحِيــلُ * عَفَّى عليه بُكًى عليــك طويلُ

يا ناظـــرًا ما أقلعتْ لحظـاتُه * حــتى تشحَّط بينهن قتيــلُ

أحللتُ قلبِى من هــواكَ مَحِلّةً * ما حلّهـا المشروبُ والمأكولُ

بكمال صــورتك التى من دونِهـا * يتحــيّر التشبيـــهُ والتمثيـــلُ

فــوقَ القصيرةِ والقصيرةُ فوقَها * دون السّمين ودونَها المهـــزولُ

ومما أنشده العتابى لأبى نواس فقال أحسن وأجاد :

متتـابِهٌ بجمـاله صَــلِفٌ * لا يســتطاع كلامُــه تِيهَـا

للحسن فى وَجَناته بِدَعٌ * ما إن يَمَــلُّ الدرسَ قاريهـا

لو كانت الأشــياءُ تعقــله * أَجْللنَــه إجــلالَ باريهـا

لو تستطيع الأرض لانقبضت * حـــتى يصــير جميعه فيهـا

وقـــوله :

إن السحابَ لتستحي اذا نظــرتْ * الى نــداك فقاســتْه بمـا فيهـا

حـــتى تَهُـــمّ بإقـــلاعٍ فيمنعُها * خوفٌ من السُّخْط من إجلال منشيها

قال محمد بن صالح بن بَيْهَس الكلّابى : لمـا دخلتُ العراقَ صرتُ الى مدينة السلام فسألت عمّن بها من الشعراء المحسِنين ، وذلك فى أيام خلافة الأمين أو عنـد موته قبل دخول المأمون بيسير، فقيل لى : قد غلب عليهم فتًى من أهل البصرة يقال له الحسن

ابن هانئ ويعرف بأبي نواس ، وقد كنت سمعتُ شيئا من شعره، فأتاني فتى كان من أهل الأدب، فقلت له : هل تروى لأبي نواسكم هذا شيئا؟ قال : أروى له أبياتا في الزهد وليس هو من طريقته، فقلت أنشدنيها، فأنشدني :

أخى ما بالُ قلبك ليس يَنْقَى * كأنك لا تظُنّ الموتَ حقّا
ألا يا بنَ الذين فنَوا وبادوا * أما والله ما ذهبُوا لتبقَى
وما للنفس عندكَ من مُقَام * اذا ما استكملتْ أجَلًا ورِزْقا
وما أحدٌ بزادك منك أحْظَى * ولا أحدٌ بذنبك منك أشْقَى
ولا لكَ غيرَ تقوى الله زادٌ * اذا جعلتْ الى اللّهَوات ترْقَى

فقلت له : أحسن والله ! قال : أفلا أنشدك أحسنَ من هذا؟ قلت بلى، فأنشدني في رثاء محمد الأمين :

طوى الموتُ ما بيني وبين محمد * وليس لما تَطْوِى المنيةُ ناشرُ
فلا وصلَ إلا عَبْرةٌ تستديمُها * أحاديثُ نفسٍ مالها الدهرَ ذاكرُ
لئن عَمَرتْ دور بمن لا أودّه * لقد عَمَرتْ ممن أحبُّ المقابرُ
وكنتُ عليه أحذرُ الموتَ وحدَه * فلم يَبْقَ لى شيءٌ عليه أُحاذرُ

فقال : بحقٍّ ما غلب هذا على أهل الأدب وقَدّموه على غيره .

قال محمد بن جعفر الأَصَمّ : كنا عند أبي نُعَيم ، فتذاكرنا قول عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حين ذكرتْ شعرَ لَبِيد يَرْثِي أخاه أربد :

ذَهَبَ الذين يُعاشُ فى أكنافهم * وبَقِيتُ فى خَلَفٍ كجلد الأجربِ

ولقد أنشدنى أبو نعيم أبياتا، قلنا : أنشِدْناها، فقال :

ذهبَ الناسُ فاستقَلُّوا وصِرْنا * خَلَفًا فى أراذل النّاسِ
فى أُناسٍ نَعُدُّهم من عديدٍ * فاذا فُتِّشُوا فليسوا بناسِ

كلما جئتُ أبتغى الفضلَ منهم * بَدَرُونى قبـــل السؤالِ بيــاس
وبَكَوْا لى حتى تمنّيتُ أنّى * مُفْلتٌ عنـــد ذاك رأسًا براس

ثم قال : أتدرون لمن الشعر؟ قلنا : لا، قال : للحسن بن هانىء .

قال أبو عبد الرحمن الضَّرير : رأيتُ مسلم بن الوليد بُجُرجان وهو يتولّاها، فسألنى عمن خلّفتُ من الشعراء؛ فقلت له : أما من الكوفيّين فأبو نواس، وهو مقدّم عندهم؛ فقال : ويحك ! كيف يتقدّم وهو يقول : رُوَيْدَكَ يا إنسانُ لا أنت تَقْفِزُ أرأيتَ قوله : « تقفز » خرجتْ من بين فَكَّىْ شاعرٍ قط! ثم قال: ويلك! وكيف يكون كذلك وهو يُحيل ويتخطّى من صفة المخلوق الى صفة الخالق؟ فقلت: مثل ماذا من قوله؟ قال: أما فيما أحال فكقوله :

وأخفتَ أهــلَ الشّرْكِ حتى إنه * لَتخافُك النُّطَفُ التى لم تُخْــلَقِ

وهــذا من الإغراق المستحيل فى العقول ومـمــا ليس على مذهب القوم؛ وأما فى تخطّيه بصفة المخلوق الى صفة الخالق فكقوله :

يَجِــلّ أن تلحَقَ الصفاتُ به * فكلّ خُلْقٍ لخُلْقــه مثـــلُ

وكقـــوله :

* برىءٌ من الأشباه ليس له مثل *

ومما قيل عن أبى نواس إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يُحسنهما، وأجودُ شعره فى الخمر والطَّرْد، وأحسنُ ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سَرَقه، وحَسْبُك من رجل يريد المعنى ليأخذَه فلا يُحسن أن يَبْنى عليه حتى يجىءَ به قبيحا، مثل قوله : « وداوِنى بالتى كانت هى الداءُ» أخذه من قول الأعشى: «وأخرى تداويتُ منها بها» والذى أخذه منه أحسن . ومنها أيضا قولُه : « إن الشَّبابَ مطيّةُ الجهلِ » أخذه من قول النابغة الجَعْدىّ : «فإنّ مطيّةَ الجهلِ الشّبابُ» . وقوله : « كطلعة الأشمط من إهابه» أخذه من قول أبى النجم : « كطلعة الأشمط من كِسائه» . ولكن رُزِق أبو نواس فى شعره أن سار وحَمَله الناسُ وقدّمه أهلُ عصره، وإن له على ذلك لأشياءَ حِسانًا لا يدفعها ولا يطرَحها إلا جاهلٌ بالكلام أو حاســـد .

ومن أحسن مدائح أبي نواس قوله من أرجوزته التي يمدح بها الفضل بن الربيع وهي :

وبلدة فيها زَوَرْ * صَعْراءَ تُخطَى في صَعَرْ
مَرْتٍ[1] اذا الذئبُ اقتفرْ * بها من القوم الأثرْ
كان له من الجَزَرْ * كلُّ جَنينٍ ما اشتكرْ[2]
ولا تَعَلَّاه شَعَرْ * مَيْتُ النَّسا حيُّ النَّفَرْ
عَسَفْتُها[3] على خَطَرْ * وغَرَرٍ من الغَرَرْ
ببازلٍ حين فَطَرْ * يَهُزُّه جِنُّ الأَشَرْ
لا مُنْتَشٍ من سَدَرْ[4] * ولا قريبٍ من خَوَرْ
كأنه بعدَ الضُّمُرْ * وبعدَ ما جال الضُّفُرْ[5]
وأَمْعَجَ في خَسَرْ : * جأْبٌ[6] رَبَاعُ المُثْغَرْ
يَحْدُو بحُقْبٍ كالأُكَرْ * ترى بأَثْباجِ القَصَرْ[7]
منهنّ توشيمُ الجَدَرْ * رَعَيْنَ أبكارَ الخَضَرْ
شَهْرَىْ رَبيعٍ وصَفَرْ * حتى اذا الفحلُ جَفَرْ[8]
وأشبهَ السَّفَى الإبَرْ * ونَشَّ أَدْخارُ النُّقَرْ[9]
قُلْنَ له : ما تأتمرْ؟ * وهنّ إذ قُلْنَ : أَشِرْ
غيرُ عَوَاصٍ ما أمَرْ * كأنّها لمن نَظَرْ
رَكْبٌ يَشِيمُونَ مَطَرْ * حتى اذا الظِّلُّ قَصُرْ

(١) المرت : الأرض لا نبات فيها ، واقتفر الأثر : اقتفاه وتبعه . (٢) الجزر (بفتحتين) : ما يذبح من الشاء ذكرا كان أو أنثى . واحدته : جزرة . وما اشتكر : لم ينبت له الشكر وهو الضعيف من الشعر الذى لا يكاد يظهر . (٣) عسفها : سلكها متخبطا ، والغرر : الخطر . (٤) السدر : التحير .
(٥) الضمر (بالضم وبضمتين) : الهزال . والضفر : جمع ضفار (بالفتح) وهو ما يشدّ به البعير من شعر مضفور .
(٦) الجأب : الحمار الغليظ من حمر الوحش . (٧) الأثباج جمع ثبج وهو وسط الشىء ، والقصر جمع قصرة وهى أصل العنق . (٨) جفر : امتنع عن الضراب .
(٩) السفى : كل شجر له شوك ، ونش : نضب ، والنقر : جمع نقرة وهى الوهدة المستديرة من الأرض .

يَمْنَ من جَنْبِي هَجَرْ * أخضرَ طَامِ العَكَرْ
وبين أحقاف القتَرْ * سَار وليس للسَّمَرْ
ولا تِلَاوَاتِ السُّوَرْ * بِمَسَحِ مِرْنَانًا يَسِرْ (١)
زُمَّتْ بمشزُورِ المِرَرْ * لَأْمٍ كَحُلْقُومِ النُّغَرْ (٢)
حتى إذا اصْطَفَّ السَّطَرْ * أهدَى لها لو لم تُجَرْ
دَهْيَاءَ يَحْدُوهَا القَدَرْ * فتِلْكَ عَنْسٌ لم تُدَرّ
شَهْبًا إذا الآلُ ظَهَرْ * إليكَ كلَّفنا السَّفَرْ
خُوصًا يُجَاذِبْنَ النَّظَرْ * قد انطوتْ منها السُّرَرْ
طَيَّ القَرَارِيّ الحِبَرْ (٣) * لم تتقعَّدْها الطِّيَرْ
ولا السَّنِيحُ المزدَجَرْ * يا أفضلُ للقوم البَطَرْ
إذ ليس في الناس عَصَرْ * ولا من الخوف وَزَرْ
ونزلتْ إحدى الكُبَرْ * وقيلَ صَمَّاءُ الغِيَرْ
فالناسُ أبناءُ الحَذَرْ : * فرَّجْتَ هاتيكَ الغُمَرْ
عنَّا «وقد صَابَتْ بقُرّ» (٤) * كالشمس في شخص بشَرْ
أعيا مُجارِيكَ الخَطَرْ * أبوكَ جَلَّى عن مُضَرْ
يومَ الرُّوَاقِ المحتَضَرْ * والخوفُ يَفْرِي ويَذَرْ
لما رأى الأمرَ اقمطَرّ (٥) * قام كريمًا فانتصَرْ
كهَزَّةِ العَضْبِ الذَّكَرْ * ما مسَّ من شيءٍ هَبَرْ (٦)

---

(١) المرنان : القوس . (٢) زمت : شدت ، ومشزور : مفتول ، والمرر : جمع مرة وهي قوة الفتل ، واللأم : الشديد ، والنغر : كصرد البلبل . والعرب تشبه الدقيق بالأوتار وحلاقيم النغران . (٣) القراري : الخياط
(٤) القر : القرار ، يقال اذا وقع الأمر موقعه : صابت بقر ووقعت بقر . قال طرفة بن العبد البكري :

كنت منهم كالمعطي رأسه * فانجلى اليوم غطائي وخمر
سادرا أحسب غيي رشدا * فتناهيت وقد صابت بقر

(٥) اشتد . (٦) هبر : قطع .

وأنت تقتاف الأثر * من ذى حجول وغرر

معيد ورد وصدر * وإن علا الأمر اقتدر

فأين أصحاب الغمر * اذ شربوا كأس المقر [1]

وقصروا فيمن قصر * هيهات لا يخفى القمر

أصحرت اذ دبوا الخمر [2] * شكرا ، وحر من شكر

فالله يعطيك الشبر [3] * وفى أعاديك الظفر

والله من شاء نصر * وأنت إن خفنا الحصر [4]

وهر دهر وكشر * عن ناجذيه وبسر [5]

أغنيت ما أغنى المطر * وفيك أخلاق اليسر

فان أبوا إلا العسر * أمررت [6] حبلا فاستمر

حتى ترى تلك الزمر * تهوى لأذقان الثغر [7]

من جذب ألوى [8] لو نتر * اليه طودا لانأطر [9]

صعب اذا لاقى أبر * وإن هفا القوم وقر

أو رهبوا الأمر جسر * ثم تسامى ففغر

عن شقشق ثم هدر * ثم تنابى خطر

بذى سبيب [10] وعذر * يمضع أطراف الوبر

هل لك والهل [11] خير * فيمن اذا غبت حضر

أو نالك القوم ثأر * وإن رأى خيرا شكر

* أو كان تقصير عذر *

---

(١) المقر : المر . (٢) أصحرت : برزت الى الصحراء . ودبوا الخمر : مشوا مختفين . والخمر : ما سترك من شجر أو بناء أو نحوه . (٣) الخير والقوة . (٤) الضيق . (٥) كشر أبدى عن ناجذيه ، وبسر : عبس . (٦) أى أحكمت فتله . (٧) جمع ثغرة وهى نقرة النحر . (٨) الألوى : الشديد الخصومة . (٩) اعوج وانثنى . (١٠) السبيب : شعر الذنب والعرف والناصية ، والعذر جمع عذار . (١١) قصد لفظ هل الاستفهامية فأدخل عليها الألف واللام .

ولمـا عمل أبو نواس القصـيدة التى أولهـا : * ومستعبدٍ إخوانَه بثرائه * بلغتِ الأمينَ، فبعث اليه، وعنده سليمان بن جعفر . فلما دخل عليه قال له : يا عاضّ بَظْرِ أمّه العاهرة ، ويامدّعىَ ولاءِ حاءَ وحَكَمٍ ! أتدرى يابنَ اللَّخْناء من توليت والى من ادّعيتَ ؟ الى ألأمِ قبيلتين فى اليمن ، عُلُوجٍ باضين . أنت تكتسب بشعرك أوساخَ أيدى الناس اللئام، وتقول : * ولا صاحب التاج المحجَّب فى القَصْر * أما والله ما نلتَ منّى شيئًا بعد ذلك أبدا ! فقال له سليمان بن أبى جعفر : إى والله ! نعم هو مع هذا من كِبار الثَّنَوِيَّة[1] (وكان يُرمى بذلك) ؛ فقال له محمد الأمين : وهل يشهد عليه شاهد بشىء من ذلك؟ فأتاه سليمان بعدّة نَفَرٍ ، فشهدوا عليه أنه شرب فى يوم مَطِيرٍ فوضـع قدحَه تحت السماء فى المطر فوقع فيــه المطر ؛ فقالوا له : ما تصنع بذلك وَيْحَك ؟ قال : أنتم تزعُمون أنه ينزل مع كل قطـرة ملكٌ، فكم ترانى أشرب من الملائكة ! ثم شرب ما فى القــدح ؛ فغضب محمد ، وأمر به الى السجن . فذلك قول أبى نُوَاس :

يارَبِّ إنَّ القومَ قد ظلَموني * وبلا اقترافِ معطِّلٍ حبَسُوني
وإلى الجحود بمـا عرفتَ خلافَه * ربِّى إليــك بِكِذْبِهم نَسَبُونى
ما كان إلّا الجَرْىُ فى مَيْـدانهم * فى كلِّ خِزْى والمَجَانةُ دِينِى
لا العذرُ يُقبَل لى ويَفْرَق شاهدى * منهم ، ولا يرضَوْن حَلْفَ يمينِى
ما كان — لو يدرون — أولَ مَخْبأ * فى دار مَنْقَصة ومنزل هُونِ
أما الأمــينُ فلستُ أرجو دفعَــه * عنّى، فمن لى اليـومَ بالمأمون

فبلغت أبيـاتُه المأمونَ ، فقال : والله لئن لحقتُه لأُغْنِيَنّه غِنًى لايؤمّله . فمات قبل دخول المأمون بغداد .

لمـا وصلت الخلافةُ الى محمـد الأمين وولّى الفضـلَ بن الربيع الوزارة ، تفرّغ محمدٌ للّهو والصيد والنزهة، وكان لا يخرج إلا لصيد أو لنزهة . فخرج ذات يوم وقد أمر الجندَ

(١) الثنوية أصحاب الاثنين الأزليين وهم الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس فانهم قالوا بحدوث الظلام .

والقوادَ فركبوا، ولبس ثيـابَه وتقلد سـيفه ، وأُعِدّت الحَـرّاقات[١] والزَّلاجاتُ فى دِجْلة ؛ فقال له اسماعيلُ بن صُبَيْح — وكان كاتبَ سِرّه — : يا أمير المؤمنين ان قوادَك وجندَك وعامّة رعيتك قد خُبِثَتْ نفوسُهم ، وساءت ظنونُهم، وكَبُر عنـدهم مايرَوْن من احتجابك عنهم ، فلو جلستَ لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ! فإن فى ذلك تسكينا لهم ومراجعـة لآمالهم ! فجلس فى مجلسه وأذن للناس عامةً فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبـوا ، والشعراء فأنشدوا، فلم يكن أحد منهم يتعدّى الى الاطناب والتطويل، الا أُمِر بالسكوت ومُنِـع من القول .

وقام فيمن قام أبو نواس، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء الشعراء أهل حَجَر ومَدَر ، وإبل و وصـف للبقر و بيوت الشَّـعَر، قد جَفَتْ ألفاظُهم، وغَلُظتْ معانيهم، ليس لهم بَصَر بمدح الخلفاء ونَشْر مكارِمهم ، فان رأى أميرُ المؤمنين أن يأذن لى فى إنشاده فليفعل، فأذن له فأنشده :

أيا دارِها بالمـاء حتى تُلينَها * فلن تُـكرم الصَّهباءَ حتى تُهينَها
أُغالِى بها حتى اذا ما ملكتُها * أهنتُ لإكرام الخليل مَصُونَها
وصفراءَ قبل المَزْج بيضاءَ بعده * كأنّ شعاع الشمس يلقاك دونَها
ترى العينَ تستعفيك من لمَعَانها * وتحسُرُ حتى ما تُقِـلّ جفونَهـا
نَزُوعٌ بنفس المـرء عما يَسُوءه * ويُجْـذِلُه ألّا يزالَ قرينَهـا
كأنّ يواقيتا رواكدُ حولَهـا * وزُرْقَ سَـنانِير تدير عُيونَهـا
وشَمْطاءَ حلّ الدهرُ منها بنَجْوة * دلفتُ اليهـا فاستللتُ جَنِينَها
كأنا حُلُولٌ بين أكنافِ روضةٍ .. إذا ما سلَبْناها مع الليل طِينَها

الى أن أكمل القصـيدةَ . فقال له محمـد : ألم أَنْهَـكَ عن شرب الخمر ! قال : بلى يا أمير المؤمنين ، والله ما شربتُها منذ نهيتَنى عنها ومنعتنى من شُرْبِها، وأنا الذى أقول :

---

(١) الحراقات : ضرب من السفن فيها مرامى نيران يرمى بها العدو فى البحر .

أيها الرائحان باللوم لُوما * لا أذوق المدامَ الا شَمِيمَا
نالنى بالمَـــلامِ فيهـا إمامٌ * لا أرَى لى خِلَافَه مستقيمَا
فاصرِفاها الى سِـواىَ فإنّى * لستُ الا على الحديثِ نديمَا
كبرُ حظّى منها إذا هى دارتْ * أن أرَاها وأن أشمّ النسيمَا
فكأنّى وما ازيِّن منهـا * قَعَــدِىٌّ يُحَسِّن التحكيمَا(1)
كلَّ عن حمله السلاحَ الى الحر * ب فأوصى المُطيقَ ألّا يقِيمَا

فتبسّم محمد، وقال له : أحسنتَ ! وقام بعضُ الشعراء فأنشد :

ترقَّى فى فضــائله الامينُ * وزايلَه المُشَاكِلُ والقَـرينُ
وأورق زَهْرةُ التقوى وعزّتْ * خلافتُــه وصُــدِّقتِ الظُّنُونُ
تَمَسُّ منــابرَ الخلفاء منــه * يدٌ بخلاف طاعتِها المَنُونُ
يخاف الخوفُ صولتَه و يرجو * نداه الجــودُ فهو له خَدِينُ

فقال عِدّة ممّن حضر : قد أوجز وأجاد، أكرم الله أميرَ المؤمنين! فقال أبو نواس : أشعر منه يا أمير المؤمنين الذى يقول :

ألا يا خيرَ من رأتِ العيــونُ * نَظِـيرُك لا يُحَسُّ ولا يَكونُ
وفضلُك لا يُحَـدّ ولا يُجَارَى * ولا تَحوِى حيازتَه الظنونُ
فأنت نَسِيجُ وحدِك لا شـبيهٌ * يُحَاشيه عليــك ولا خَدِينُ
خُلِقتَ بــلا مشا كلة لشىء * فأنت الفــوقُ والثقــلان دُونُ
كأن الملكَ لم يكُ قبــلُ شيئًا * الى أن قام بالملكِ الامينُ

قال : ففضّله محمد وأحسن جائزتَه . ويقال : إنه قالها بديهًا .

(١) القعدى من الخوارج : الذى يرى رأى القعدة الذين يرون التحكيم حقا ، غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس .

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحَرّاقةَ الى الشّمّاسيّة، واصطفّتْ له الخيل وعليها الرجال على شاطئ دجلة، وحُملتْ معه المطابخُ والخزائن . وكان ركوبه حرّاقةً[1] على مثال الأسد . فما رأى الناس منظرًا كان أبهى ولا مسيرًا كان أحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه، فقال :

سخّـر اللهُ للأمين مطايا * لم تسخّر لصاحب المحراب[2]

فاذا ما ركابُه سِرْنَ بحرًا * سار فى الماء راكبًا ليث غابِ

أسـدًا باسطا ذراعيه يعدو * أَهْرَتَ الشّدْقِ[3] كالحَ الأنيابِ

لا يعانيه باللّجام ولا السّو * طِ ولا غمزِ رجلِه فى الرُّكابِ

عَجِب الناسُ إذ رأوْك على صو * رة ليثٍ تمرُّ مَرَّ السحابِ

سبّحوا اذ رأوك سرتَ عليه * كيف لو أبصروك فوقَ العُقابِ

ذات زَوْر ومِنْسَر وجناحـ * ـين تشُقُّ العُبَاب بعـد العُبَابِ

تسبِق الطيرَ فى السماء اذا ما اسـ * ـتعجلوها بجَيْئـةٍ وذهـابِ

بارَك الله للأمين وأبقا * ه وأبقى له رداءَ الشـبابِ

ملك تَقْصُر المدائحُ عنـه * هاشِمِيٌّ موفّق للصـوابِ

ويقال : ان هـذا الشعر قاله أبو نواس فى محمد ، وقد ركب حراقتَـه الدُّلْفينَ ؛ فقـال له شيخٌ الى جانبه : اِتّق الله يا هذا ! فقال له أبو نواس : يا شيخ، إن الله لم يسخّر لصاحب المحراب الدُّلْفين، وقد سخرله ما هو خير من الدلفين، فأى شئ تنكر من هذا ؟

قال ابن حبيبَ : كنت مع مؤنس بن عِمْران، ونحن نريد الفضلَ بن الربيع ببغداد ، فقال مؤنس : لو دخلنا على أبى نواس فى السجن فسلّمنا عليـه ! ففعلنا ؛ فقال أبو نواس

(١) وذلك أنه كان للامين ثلاث من السفن المعـروفة بالحراقات لركوبه خاصـة ؛ وهى الليث والعقاب والدلفين . (٢) صاحب المحراب هو سليمان بن داود عليه السلام لأنه بنى بيت المقدس .

(٣) أهرت الشدق : واسعه . وكالح الأنياب : كاشرها .

لمؤنس: أين تريد ؟ فقال : أريد أبا العباس الفضلَ بن الربيع، قال فبلِّغه رقعةً أعطيكها؛ قال : نعم، فأعطاه رقعة فيها :

ما من يدٍ فى الناس واحدةٍ * كيدٍ أبو العباس مَوْلاها
نام البُغَـاةُ على مضاجعهم * وسَرَى الى نفسى فأحياها
قد كنتُ خِفْتُكَ ثم أمّنى * من أن أخافك خوفُكَ الله
فعفوتَ عنّى عفوَ مقـتدر * وَجَبَتْ له نِقَـمٌ فألغاها

فكانت هذه الأبيات سبب خروجه من السجن .

اِنصرف أبو نواس من بعض المواخير سكرانَ، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصـلاة، فدخل فقام فى الصف الأوّل ؛ فقرأ الأمام : ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾ فقال أبو نواس من خلفه : لبَّيكَ ؛ فلمـا قضيت الصـلاة لَبَّبوه[1] وقالوا له : يا كافر نشهد عليك بالكفر ودفعوه . فبلغ خبره الرشيد، فدعا له حَمْدُويه صاحب الزندقة ، وأحضر أبا نواس فقال له حمـدويه : يا أمير المؤمنين، إن هـذا ماجن، وليس هو بحيث يُظَنّ ؛ فقال له الرشيد : وَيْحَك ! إنه وقع فى نفسى منه شىء ، فامتحنْه . قال : فخطَّ له صورة مانى[2]، وقال له : أُبصُق عليها ؛ فأهوى أبونواس بفيه ليبق‍ء عليها ؛ فقال له حمدويه : قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ما جن . قال : ودعا برجل من الزنادقة مشهور، وقال له : ابصق عليها ؛ فقال : وما معنى البُصَاق ! إنه من أخلاق الشِّرْك ولا أفعـله ، وأبى أن يفعل . فقال الرشـيد لبعض خدم القصر : اِمض بهذا (يعنى أبا نواس) الى السِّنْدى، فقل له : أدِّبْه وأطلقه ،

---

(١) لببوه : أخذوا بلبيه، وهو موضع القلادة فى الصدر . (٢) هو مانى بن فاتك الحكيم ، الذى ظهر فى زمن سابور ذى الاكتاف بن أزدشير ، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى عليه السـلام . اتخذ له دينا بين المجوسية والنصرانية . وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام . حكى محمد بن هارون المعروف بأبى عيسى الوراق، وكان فى الأصل مجوسيا عارفا بمذاهب القوم ، أن الحكيم مانى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا ، وأنكر وجود شىء الا من أصل قديم ، وأنهما لا يزالان قويين حساستين سميعتين بصيرتين، وهما مع ذلك فى النفس والصورة والفعل والتدبير متضادتان، وفى الحيز متحاذيتان تحاذى الشخص والظل .

(انظر الملل والنحل للشهرستانى)

وبهذا (يعنى الزنديق) فقل له : احبسه قِبَلك الى أن تستتيبَه، فان تاب وإلا قتلناه .
قال : فمضى بهما الخادم، فلما صار فى آخر الصحن، قال أبو نواس للخادم : الى أين تذهب بنا ؟ قال : الى السندى، قال : فما تقول له ؟ قال : أقول له : يحبسك قِبَلَه حتى تُستتاب أو تُقتل، ويؤدّب هذا ويطلقه . قال : فرفع أبو نواس يدَه ولطَمه، وقال له : يابن الزانية، من الساعة نسيتَ ! . وبَصُرَبهم الرشيدُ، فقال : رُدّوهم ؛ فقال لأبى نواس : ما هذا الذى رأيتُ منك ؟ قال : أراد والله أن يُهْلِكَنى ويطرحنى بحيثُ أُنْسَى أبدا أو أبقى مخلَّدا ، سَلْه يا أمير المؤمنين عن الرسالة، فاذا هو قد غيّرها ؛ فضحك من أبى نواس وأطلقه .

قال رُزَين الكاتب : اجتمعنا يوما أنا وأبو نواس وعلىّ بن الخليل فى سوق الكَرْخ، وكنا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار ونتحدّث بها . فقال أبو نواس : أَدْبَرَ مَنْ كان فى نفسى وكان أسرعَ الخلق فى طاعتى، فما أدرى ما أحتال له ؟ فقال على بن الخليل يمازحه : يا أبا على، سَلْ شيخَك وأستاذَك يُعْطِفه عليك، فقال له أبو نواس : من تَعْنى ؟ قال : من أنت فى طاعته ليلَك ونهارَك (يعنى ابليس) فان لم يقضِ لك هذه الحاجة ، فما ينبغى لك أن تسأله مسألة ولا أن تُقِرّ عينه بمعصية؛ فقال : هو أسَدُّ لرأيه من أن يُخِلّ بى أو يَخْذُلنى؛ وانقضى مجلسنا ذلك . فلما كان بعدَ أيام اجتمعْنا فى ذلك الموضع، وأخذنا فى أحاديثنا، فضحك أبو نواس؛ فقلنا له : ما أضحكك؟ فقال : ذكرتُ قول على بن الخليل يومئذ : سَلْ شيخَك يعطفه عليك . حينئذ قد سألتُه يا أبا الحسن فقضى الحاجة، وما مضت والله ثالثةٌ حتى أتانى من غير أن أبعث اليه ومن غير أن أستزيره ، فعاتبنى واسترضانى، وكان الغضب منه والتجنّى، وأحسب الشيخَ (يعنى ابليس) كان يتسمّع علينا فى وقت كلامنا؛ وقد قلت أبياتا فى ذلك؛ فقلنا : هاتها، فأنشد :

لما جفانى الحبيبُ وامتنعتْ ... عنّى الرسالاتُ منه والخبرُ
واشتدّ شوقى فكاد يقتلُنى ... ذكرُ حبيبى والهمُّ والفِكَرُ

دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له * فى خَلْوة والدموع تنحـــدر:
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد * أقرح جَفْنى البكاءُ والســـهرُ ؟
إن أنت لم تُلْقِ لى المودةَ فى * صـــدر حبيبى وأنت مقتدر
لا قلتُ شـعرا ولا سمعتُ غِنًا * ولا جرى فى مفاصِـلى السَّكَرُ
ولا آزالُ القرآنَ أدرُسُه * أروح فى درسـه وأبتـكرُ
وألزم الصـومَ والصـلاةَ ولا * أزال دهرى بالخـير آتمـرُ
فما مضتْ بعــد ذاك ثالثةٌ * حتى أتانى الحبيبُ يعتــذرُ
ويطلب الودَّ والوِصَالَ على * أفضلِ ما كان قبلَ يهتجرُ
فيالهـا مِنّةً لقــد عظُمتْ * عنــدى لإبليس ما لهـا خَطَرُ

. لما قَدِم أبو نواس على الخَصِيب[1] بمصر أذن له وعنده جماعة من الشعراء فاستنشده ، فقال له : هنا جماعة من الشعراء هم أقدم منّى وأسنّ ، فأذَنْ لهم فى الإنشاد ، فان كان شعرى نظيرَ أشعارهم أنشدتُ وإلا أمسكتُ ، فاستنشدهم الخصيبُ ، فأنشدوا مديحا فى الخصيب ، فلم تكن أشعارهم مقاربةً لشعر أبى نواس ؛ فتبسّم أبو نواس ثم قال : أُنْشِدُك أيها الأمير قصيدةً هى بمنزلة عصا موسى تَلقَّفُ ما يأفِكُون؟ قال هات ، فأنشده قصيدته التى أولها :

أجارةَ بيتَيْنا أبوكِ غَيُــورُ * ومَيسورُ ما يُرْجَى لديكِ عَسِيرُ

حتى أتى على آخرها ، فانفضّ الشعراءُ من حوله .

ويقال : إن أبا نواس كان خرج الى مصر فى زىّ الشُّطّار[2] وتقطيعهم بطُرّة قد صَفّفها وكُمّين واسعين وذيل مجرور ونعـل مطبق ، وكان خروجه مع سليمان بن أبى سهل ؛ فلمـا دخل على الخَصيب بهذه الصورة ازدراه واستخفّ به ، وكان تُورد عليه كتبُ الجِلّة ممن

(١) هو الخصيب بن عبد الحمـيد العجمى أمير مصر على الخراج . واليه تنسب منية الخصيب بالوجه القبلى وليس بابن صاحب نهر أبى الخصيب ، ذاك عبد للمنصور يقال له مرزوق . وكان هــذا رئيسا فى أراضيه . فانتقل الى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازى ، ثم انتقل الى الامارة .

(٢) الشطار : جمع شاطر وهو من أعيا أهله خبثا .

بباب السلطان، ووردت كتب أبى نواس فيها فقرأها ولم يستنشده، فانصرف مهموما . وجاءه أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه للخصيب؛ فاستحضره فأنشده :

أجارةَ بيتينا أبوكِ غيورُ * وميسورُ ما يُرجَى لديك عسيرُ
فان كنتِ لا خِلْما(١) ولا أنت زوجةٌ * فلا برِحَتْ دونى عليكِ سُتورُ
وجاورتُ قوما لا تزاوُرَ بينهم * ولا وصلَ الّا أن يكون نُشُورُ
فما أنا بالمشغوفِ ضربةَ لازبٍ * ولا كلُّ سلطانٍ علىّ قديرُ
وانّى لطَرْفِ العين بالعين زاجرٌ * فقد كدتُ لَا يَخْفَى علىّ ضميرُ
كما نظَرتْ والريحُ ساكنةٌ لها * عُقَابٌ بأرساغ اليدين نُدُورُ(٢)
طوتْ ليلتين القوتَ عن ذى ضرورةٍ * أُزَيْغِبَ لم ينبُتْ عليه شَكِيرُ(٣)
فأوفتْ على علياءَ حين بدا لها * من الشمس قَرْنٌ والضَّرِيبُ يمورُ(٤)
تقلّبُ طرفًا فى حِجَاجَىْ مغارةٍ * من الرأسِ لم يدخُل عليه ذُرُورُ(٥)

ولما قال أبو نواس :

تقول التى من بيتها خَفَّ مركبى: * عزيزٌ علينا أن نراكَ تَسيرُ
أما دونَ مصرَ للغنى متطلَّبٌ ؟ * بلَى إنّ أسبابَ الغنى لكثيرُ
فقلتُ لها واستعجلتْها بوادرٌ * جرتْ فجَرى فى جَرْيهن عَبيرُ
ذَرِينى أكثِّرْ حاسديك برِحلةٍ * الى بلدٍ فيه الخَصيبُ أميرُ

قال له الخصيب : اذًا يكثُر حسادها وتبلغ أملَها، وأمر له بألف دينار .

---

(١) الخلم : الصديق . (٢) الندور: خروج العظم من موضعه أو زواله وفى البيت من سوء التركيب ما فيه ، والتقدير فيه كما نظرت عقاب لها بأرساغ اليدين ندور والريح ساكنة . (٣) أزيغب تصغير أزغب وهو الفرخ ذو الزغب أى الريش الدقيق اللين . والشكير : الريش أوّل ما ينبت . (٤) الضريب : الثلج أو الجليد . ويمور : يتحرك أو يجىء ويذهب أو يسيل على وجه الأرض . (٥) الحجاجان مثنى حجاج وهو العظم الذى ينبت عليه شعر الحاجب . والذرور: ما يذر فى العين من الدواء .

وتمامها :

اذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيب ركابُنا * فأىّ فتًى بعدَ الخصيب تزور !

فما جازه جودٌ ولا حَلَّ دونَه * ولكن يصير الجودُ حيث يصير

فتًى يشترى حسنَ الثناء بماله * ويعلم أنّ الدائراتِ تدورُ

ولم تَرعَينى سُودَدًا مثلَ سُودَدٍ * يحلُّ أبو نصرٍ به ويسير

وأطرق حيّات البلاد لحيّةٍ * خَصيبيّةِ التصميم حين تَسُور[1]

سموْت لأهل الجور فى حال أمنهم * فأضحَوْا وكلٌّ فى الوَثاقِ أسيرُ

اذا قام غبّته على الساق حِليةٌ * لها خَطْوُه عند القيام قصيرُ

فمن يكُ أمسى جاهلًا بمقالتى * فان أميرَ المؤمنين خبيرُ

فما زلتَ توليه النصيحةَ يافعًا * الى أن بدا فى العارضَيْن قتيرُ[2]

إذا غاله أمرٌ فإمّا كفيْتَه * وإما عليه بالكفاءِ تشيرُ

إليك رمت بالقوم هُوجٌ كأنما * جماجمها تحت الرِّحال قبور

رحلْنَ بنا من عَقْرَقوفَ[3] وقد بدا * من الصبح مفتوقُ الأديم شَهيرُ

فما نجدتْ[4] بالمَاء حتى رأيتُها * مع الشمس فى عينىْ أبَاغَ تغورُ

وغُمّرنَ من ماء النقيب بشَرْبةٍ * وقد حان من ديك الصباح زَميرُ

ووافيْنَ إشراقا كنائس تَدْمُرٍ * وهنّ الى رُعْنِ المدخّن صُورُ[5]

يؤمّمن أهلَ الغُوطتين كأنما * لها عند أهل الغُوطتيْن ثؤورُ

وأصبحْنَ بالجولان يَرْضَخْن[6] صخرَها * ولم يبق من أجراحهن شُطورُ

وقاسيْنَ ليلا دون بَيْسانَ لم يكد * سَنَا صبحه للناظرين يُنيرُ

وأصبحن قد فوّزْنَ من نهر فطرسٍ * وهنّ عن البيت المقدّس زُورُ[7]

---

(١) تسور : تثب . (٢) القتير : الشيب . (٣) عقرقوف : اسم موضع .

(٤) نجدت : عرقت .

(٥) صور : مائلات . (٦) يرضخن : يكسرن . (٧) زور : جمع زوراء بمعنى مائلة .

طوالب بالرُّكبان غرة هاشم * وفى القَرما من حاجهن شُقُور (١)

ولما أتت فسطاطَ مصر أجارها * على ركبها أن لا تزال مجيرُ

من القوم بَسّامٌ كأن جبينَه * سَنَا الفجرِ يَسرى ضوءه وينيرُ

زها بالخصيب السيفُ والرمحُ فى الوَغَى * وفى السّلم يزهو مِنبرٌ وسريرُ

جوادٌ اذا الأيدى كففنَ عن الندى * ومن دون عورات النساء غَيُورُ

له سَلَفٌ فى الأعجمين كأنهم * إذا استُؤذنُوا يومَ السلام بدورُ

وإنِّى جدير اذ بلغتُك بالمنى * وأنت بما أمّلتُ منك جديرُ

فان تُولِنِى منك الجميلَ فأهلُه * وإلا فإنّى عاذرٌ وشكورُ

وقال يمدح العباس بن الفضل بن الربيع وأجاد :

ساد الملوكَ ثلاثةٌ ما منهمُ * إن حُصّلُوا إلا أغرُّ قَرِيعُ

ساد الربيعُ وساد فضلٌ بعدَه * وعَلَتْ بعبّاسِ الكريم فُرُوعُ

عباسُ عباسٌ اذا احتدمَ الوَغَى * والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعُ

وقال يعاتب عُمَر الورّاق :

يا من جَفَانِى وَملَّا * نسيتَ أهلًا وسَهْلَا

وماتَ مرحبُ لما * رأيتَ مالى قَلّا

انى أظنّك تَحْكِى * فيما فعلتَ القِرِلَّى (٢)

تلقاه فى الشرّ يَنْأَى * وفى الرخا يتدلّى

وله فى عزة النفس :

ومستعبِدٍ إخوانَه بِثَرائه * لبستُ له كِبرًا أبرّ على الكِبْرِ

اذا ضَمَّنى يومًا وإياه مَحْفِلٌ * يرى جانبى وَعْرًا يزيد على الوَعْرِ

---

(١) جمع شقر وهو الأمر الملتصق بالقلب المهم له .

(٢) القرلى : كان لحير وكان لا يسمع لأحد شيئا إلا جاء اليه وداخله ولا يتخلف عن طعام لأحد ، واذا سمع بخصومة لم يقرب ذلك ، فضرب به المثل حتى قيل لطير من طيور الماء يوفى عليه : القرلى .

أخالفـــه فى شكله وأجرّه * علىّ المنطق المبرور والنظر الشزر
وقــد زادنى تيهًا على الناس أننى * أرانىَ أغناهم وإن كنتُ ذا فقرِ
فوالله لا يُبْـدِى لسانى لحاجةٍ * الى أحد حتى أُغيَّب فى قبرى
فلا يطمعَنْ فى ذاك منّىَ طامعٌ * ولا صاحبُ التاج المحجَّبُ فى القصر
فلو لم أُورثْ فخـرًا لكانت صيانتى * عن الناس حَسْبى من سؤالى من الفخر

دخل أبو نواس بعد ما نسك على قوم من إخوانه عندهم شرابٌ ومُغَنٍ، فعرضوا عليه الجلوسَ فأبى، وأخذ الدواةَ والقرطاس وكتب :

اذا لم تَنْــهَ نفسَك عن هواها * وتُحْسِن صونَهــا فاليــكَ عنّى
فانى قــد شبِعْتُ من المعاصى * ومن إدمانهــا وشبِعْنَ مــنّى
ومن أســوا وأقبح من لبيبٍ * يرى متطرّبًا فى مثــلِ سنّى

ومن شعر أبى نواس :

عفّى المصلّى وأقوتِ الكُثُبُ * مِـنّى فالمِربدانِ فاللَّهَبُ
منـازلٌ قــد عَمَــرْتُهـا يَفَعًـا * حــتى بدا فى عِذارىَ الشُّهُبُ
فى فتيــةٍ كالسيوف هَزّهمُ * شَرْخُ شبابٍ وزانَهــم أدبُ
ثم أرابَ الزمانُ فاقتسموا * أيدى سَبًا فى البــلاد فانشعبُوا
لن يُخْلِفَ الدهرُ مثلَهــم أبدا * علىّ هيهــاتَ شأنُهــم عجبُ
لمــا تيقّنْتُ أن رَوْحتَهــم * ليس لهــا ما حييتُ منقــلَبُ
أبليتُ صــبرا لم يُبْــلِه أحد * واقتســمتْنِي مآربٌ شُــعَبُ
لذاك أنى اذا رُزِئْتُ أخًا * فليس بيــنى وبينَــه نَسَبُ
قُطْرَبُّلٌ مَرْبَعى ولى بقُــرَى الـ * ـكرخِ مَصيفٌ وأُمّىَ العِنَبُ
تُرْضِــعُنى دَرَّها وتُلْحِفُــنى * بظلّهــا والهَجــيرُ يلتهبُ
اذا تَنَتْــه الغُصونُ جلّلَنِي * فَيْنــانُ[1] ما فى أَديمِــه جَرَبُ

(١) الفينان : الظل الكثيف، والجرب، أى لا خلل فيه .

تَبِيت فى مَأْتَم حَمَائِمُه * كما تَرَاءَى الفواقدُ السُّلُبُ
يَهُبُّ شَوْقِى وشوقُهن معًا * كأنما يَسْتخِفُّنا الطَّرَبُ
فقمتُ أَحْبُو الى الرِّضَاع كما * تَحَامَل الطفلُ مسَّه السَّغَبُ
حتى تخيرتُ بنتَ دَسْكَرةٍ * قد عَجَمتْها السُّنُون والحِقَبُ
هتكتُ عنها والليلُ معتكرٌ * مهلهلَ النَّسج ماله هُدُبُ
من نَسْج خَرْقاء لا تُشَدّ لها * أَخِيّةٌ فى الثَّرَى ولا طُنُبُ
ثم توجَأْتُ خَصْرَها بشَبَا الـ * إشفى فجاءتْ كأنها لَهَبُ
فاستوسَقَ الشَّربُ للنَّدام وأجـ * ـراها علينا اللُّجَيْنُ والغَرَبُ[1]
أقول لما تحاكَيَا شَبَهًا * أيُّهما للتشابُهِ الذَّهَبُ
هما سواءٌ وفَرْقُ بينهما * أنهما جامدٌ ومنسكبُ
مُلْسٌ وأمثالُها محفَّرَةٌ * صُوَر فيها القُسُوس والصُّلُبُ
يَتْلُون إنجيلَهم وفوقَهُمُ * سماءُ خمرٍ نجومُها حَبَبُ
كأنها لؤلؤٌ تبدَّده * أَيْدِى عَذَارَى أَفْضَى بها اللَّعِبُ

ومن جيّد شعرِه قولُه لما منعه الأمين من شرب الخمر، وذلك أن المأمون أمر الخطباءَ بخراسانَ أن يَعِيبُوا الأمينَ بشعر أبى نواس ويقولوا هو جليسُه ونَدِيمُه وينشدوا على المنابر شعرَه، فمنعه الأمينُ فقال :

غنِّنا بالطلولِ كيف بَلِينَا * وٱسْقِنا نُعْطِك الثناءَ الثَّمِينَا
من سُلَافٍ كأنه كلُّ طِيبٍ * يتمنَّى مُخَبَّرٌ أن يكونا
أكل الدهرُ ما تجسَّم منها * وتبقَّى لُبَابُها المكنونَا
ثم شُجَّت فاستضحكتْ عن لآلٍ * لو تجمَّعنَ فى يدٍ لاقْتُنِينَا
واذا ما لَمَسْتَها فَهَبَاءٌ * تمنع الكفَّ ما تُبِيح العُيُونَا

---

(١) الغرب : الذهب .

فى كؤوسٍ كأنهنّ نجومٌ * جارياتٌ بروجُها أيدينا
طالعاتٌ من السُّقاة علينا * فاذا ما غَرَبْنَ يغربْنَ فينا
لوترى الشَّرْبَ حولَها من بعيدٍ * قلتَ قومٌ من قِرَّةٍ يَصْطَلُونا
وغزالٍ يُديرُها ببَنانٍ * ناعماتٍ يزيدُها الغَمْرُ لِينا
ذاكَ عيشٌ لو دام لى غيرَ أنّى * عِفْتُه مكرهًا وخِفْتُ الأمينا
أدرِ الكأسَ حان أن تَسقِينا * وانقُرِ العودَ إنه يُلْهِينا
ودَعِ الذكرَ للطُّلولِ اذا ما * دارتِ الكأسُ يَسْرةً ويَمِينا

ومن قول أبى نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبى جعفر:

غرّد الديكُ الصَّدُوح * فاسقِنى طاب الصَّبُوحُ
اسقِنى حتى ترانى * حَسَنًا عندى القبيحُ
قهوةً تذكر نوحًا * حين شاد الفلكَ نوحُ
نحن نُخْفيها ويأبَى * طيبُ عَرْفٍ فيفُوح
فكأن القومَ نُهْبَى * بينهم مسكٌ ذَبيحُ
أنا فى دنيا من العبـ * ـاس أغْدو وأروحُ
هاشمىٌّ عَبْدلِىٌّ * عنده يَغْلو المديحُ
علَم الجودِ كتابٌ * بين عينيه يلوحُ
كلّ جودٍ يا أميرى * ما خلا جُودَك رِيحُ
إنما أنتَ عطايا * أبدا ما تستريحُ
بَحّ صوتُ المالِ ممّا * منك يَشْكو ويَصيحُ
ما لهذا أحدٌ فو * قَ يديه أو نَصيحُ
جُدْتَ بالأموالِ حتّى * قيل ما هذا صحيحُ
فهو بالمال جوادٌ * وهو بالعِرْضِ شَحيحُ
صُوِّرَ الجودُ مثالا * وله العباسُ رُوحُ

قال محمد بن عُيَينة : لقيت أبا نُوَاسٍ بعسكرٍ مُكْرَم فقلت له : أحبّ أن تنشدنى من شعرك شيئًا تَضَنّ به على غيرى، فأنشدنى :

يَكْفِى الكريمَ من الكلا * م لمن يحادثه أَقَلُّه
والشىءُ شىءٌ لم يَزَل * بأدقّه يأتى أجَلُّه
إن لم يُصِبْكَ من الكري * م الحُرّ وابلُه فطَلُّه
يُبْدِى مكارمَه كما * يُبْدِى فِرِنْدَ السيفِ سَلُّه
والنذلُ يُوقِع نفسَه * متعمّدًا فيما يُذِلُّه
والحرُّ يكرِم نفسَه * بالصفح عمّن لا يُجِلُّه

وقال أبو نواس يمدح الأمين :

صببتُ على الأمين ثيابَ مدحى * فكلُّ الناسِ حسّن وٱستجادا
ولولا فضلُه ما جاد شعرِى * ولا أعطتْنِيَ الفِطَنُ القِيَادا
وقالوا قد أجدتَ فقلتُ إنّى * وجدتُ القولَ يمكنُنِي فجادا

ومن خمرياته :

ذكر الصَّبُوحَ بسُحْرةٍ فٱرتاحا * وأمَلَّه ديكُ الصباح صِيَاحا
أَوْفَى على شَرَفِ الجدار بسُدْفَةٍ * غَرِدًا يصفّق بالجناحِ جَنَاحا
فٱدرْ صباحَك بالصَّبُوحِ ولا تكن * كمُسَوِّفين غَدَوْا عليك شِحَاحا
إن الصَّبُوحَ جِلَاء كل مخمّر * بدرتْ يَدَاه بكأسه الإصْبَاحا
وخَدِينِ لَذّاتٍ معلّل صاحبٍ * نقتاتُ منه فكاهةً ومزاحا
نبّهتُه والليلُ ملتبسٌ به * وأزحتُ عنه نُعَاسَه فٱنزاحا
قال ٱبْغِنِي المصباحَ، قلت له ٱتّئِدْ * حَسْبِي وحَسْبُك ضوؤُها مصباحا
فسكبتُ منها فى الزجاجة شَرْبةً * كانت له حتى الصباحِ صَبَاحا

مِن قهوةٍ جاءتك قبـــل مِزَاجِها * عُطُــلًا فألبسها المـــزاجُ وِشَاحَا
شَـــكَّ البِزَالُ فـؤادَها فكأنهـا * أهـــدتْ اليك بريحهـا تُفَّاحَا
صفراء تفترِسُ النفوسَ فلا ترى * منها بهنّ ســـوى السُّبَاتِ جِرَاحَا

ومنهـا :

لا تَبْـكِ لَيْـلَى ولا تطربْ الى هنـد * وَاشربْ على الورد من حمراءَ كالوردِ
كأسًا اذا انحدرتْ فى حلقِ شاربهـا * أجدَتْه حمرتَهـا فى العينِ والخـدِّ
فالخمـــر ياقـــوتةٌ والكأس لؤلؤةٌ * من كـف لؤلؤة ممشوقة القـــدِّ
تسقيك من طَرْفِها خمـــرا ومن يدها * خمرا فمـا لك من سكرينِ من بُدِّ
لى نشـــوتانِ وللنـــدمان واحدةٌ * شىءٌ خُصِصْتُ به من دونهم وَحْدِى

كان الأصمعى يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة :

أما ترى الشمسَ حلّتِ الحَمَلَا * وطاب وقتُ الزمان واعتدلَا
وغنّتِ الطـــيرُ بعد عُجْمَتِهـا * واستوفتِ الخمرُ حَوْلَهـا كَمَلَا
واكتستِ الأرضُ من زخارِنها * وَشْىَ ثيـابٍ تخـالُه حُلَلَا
فاشربْ على جِدّة الزمان فقد * أصبح وجهُ الزمانِ مقتبلا
من قهـوةٍ تُذْهِب الهمومَ فلا * أرْهَبُ فيهـا المـلامَ والعذَلَا
كَرْخيّةٍ تترك الطويلَ من العيـ * ـش قصـــيرًا وتبسُط الأملا
تَلْمعُ لمعَ السرابِ فى قَدَح الـ * ـقوم اذا ما حَبَابُهـا اتصـلا
يقول صِرْف اذا مزجتُ له * من لم يكـن للكثير محتملا
فسَـــقِّ هـــذا بقدر طاقته * وآحملْ على ذا بقدر ما آحتملا
مُجنا بشيئين مـن طبائعها * حسنٍ وطيبٍ ترى به المَثَلَا

كان أبو نواس لا يُستنشَد شيئا من شعره إلا أنشد هذه القصيدةَ :

وخَيْمةِ نَاطُورٍ[1] برأس مُنِيفةٍ * تَهُمّ يدًا مَنْ رامها بزَلِيلِ[2]

اذا عارضتْها الشمسُ فاءَ ظلالُها * وإن واجهتْها آذنتْ بدُخُولِ

حَطَطْنا بها الأثقالَ فَلَّ هَجِيرةٍ[3] * عَبُورِيةٍ تُذْكَى بغيرِ فَتِيلِ

تأنَّتْ[4] قليلًا ثم فاءتْ بمَذْقَةٍ * من الظلّ فى رَثّ الأَبَاءِ ضَئِيلِ

كأنّا لديْها بين عِطْفَىْ نعامةٍ * جَفَا زورُها عن مَبْرَكٍ ومَقِيلِ

حلبتُ لأصحابى بها دِرّةَ الصِّبَا * بصَهْباءَ من ماء الكروم شَمُولِ

اذا ما أتتْ دون اللَّهاةِ من الفتى * دعا همُّه من صدره برَحِيلِ

فلما توفَّى الشمسَ جِنْحٌ من الدُّجَى * تصابيتُ واستجملتُ غيرَ جميلِ

وعاطيتُ من أهْوَى الحديثَ كما بدا * وذلّلتُ صعبًا كان غيرَ ذَلِيلِ

فغنَّى وقد وسَّدْتُ يُسْرَاىَ خدَّه * ألا ربما طالبتُ غيرَ مُنِيلِ

وأنزلتُ حاجاتى بحَقْوَىْ مساعدٍ * وإن كان أدنى صاحب وخليلِ

وأصبحتُ ألْحَى السكرَ والسكرُ مُحسِنٌ * ألا رُبَّ إحسانٍ عليكَ ثقيلِ

كفى حَزَنًا أن الجوادَ مقتَّرٌ * عليه ولا معروفَ عند بَخِيلِ

سأبْغِى الغنى إما جليسَ خليفةٍ * يقوم سواءً أو مُخيفَ سبيلِ

بكلّ فتًى لا يُستطارُ جَنانُه * اذا نوّه الزَّحْفانِ باسم قَتِيلِ

لنَخمِسَ مالَ الله من كلّ فاجرٍ * أخى بِطْنةٍ للطيّبات أكُولِ

ألم ترَ أن المالَ عَوْنٌ على النّدَى * وليس جوادٌ مقتَّرٌ كبخيلِ

---

(١) الناطور : حافظ النخل والكرم والزرع وفى البارع : الناصر والناطور بالطاء المهملة حافظ الزرع ، من كلام أهل السواد وليس بعربى محض . (٢) الزليل مصدر كالزلل . (٣) أى منهزمى هاجرة ، وعبورية نسبها الى الشعرى العبور وأيام طلوعها أيام الحر الشديد . (٤) يعنى الشمس ، أى توقفت فى الجو عند زوالها . وفاءت بمذقة ، أى دخلت عليهم من تلك الخيمة الخلقة التى ثبتت على الأباء الضعيف من القصب الرث فلم تقو الشمس وعليهم لم تمنعهم الخيمة بستر قوى فيصير ظلا ولكنه شمس وظل ، فشبهت بالممذوق من اللبن ، أى الممزوج .

فإن استُزِيد أنشدَ هذه القصيدةَ الأخرى :

كان الشبابُ مطيــةَ الجهــل * ومحسِّن الضحكاتِ والهزْلِ
كان الجمــالَ اذا ارتديتُ به * ومشيتُ أخطِر صَيِّتَ النعــلِ
كان البليــغَ اذا نطقتُ به * وأصاختِ الآذانُ للمُــلِي
كان المشــفَّع فى مآربه * عنــد الفتــاةِ ومدرِكَ التَّبْــلِ
والآمرِى حــتى اذا عزمتْ * نَفْسِى أعان يدىّ بالفِعْــلِ
فالآنَ صرتُ الى مقــاربة * وحططتُ عن ظهرِ الصِّبا رَحْلِي
والراح أهْــواها وإن رَزَأتْ * بُلَغَ المعاشِ وقلَّلتْ فضْــلِي
صــفراء مجّــدها مَرَازِبُهــا * جلَّتْ عن النُّظَــراءِ والمِثْــلِ
ذُخِرتْ لآدمَ قبــل خِلْقتِــه * فتقــدّمتْه بحُظْــوة القَبْــلِ
فأتاك شىءٌ لا تلامِسُـــه * إلا بحسنِ غَرِيزة العقــــل
فَتَرُود منهــا العينُ فى بَشَرٍ * حُرِّ الصفيحة ناصِع سَهْــلِ
فاذا عــلاها المــاءُ ألبسهــا * حَبَبًــا شبيــهَ جَلاجِل الحَجْلِ
حــتى اذا سكنتْ جَوَانحُها * خطّت بمثــل أكارع النَّمْــلِ
خطّين من شــتّى ومجتمع * غُفْــلٍ من الإعجام والشَّكْلِ
فاعــذِر أخاك فإنه رجــلٌ * مَرَنتْ مسامعُــه على العَذْلِ

ومن طيب شعره، والشطر الأول من القصيدة لفظ ابن الدُّمَينة :

أعاذلَ ما على وجهى قُتُــومُ * ولا عِرْضِى لأولِ مَنْ يَسُــومُ
يفقِّ نى على الفتيانِ أنّى * أبيتُ فــلا أُلامُ ولا أَلُوم
أعاذل إن يكن بُرْدَاىَ رَثّا * فــلا يَعْــدَمْك بينهما كريمُ
شُقِقْتُ من الصبا واشْتُقَّ منّى * كما اشْتُقَّتْ من الكَرْم الكُرُومُ
فلست أَسُــومُ للذات نفسِى * مساومــةً كما دفع الغــريمُ

ومتصلٍ بأسباب المعالى * له فى كل مكرمةٍ قديمُ
رفعتُ له النداءَ بقُمْ نخُذْها * وقد أخذتْ مطالعها النجومُ
بتَفديةٍ تزال النفسُ فيها * وتُمتهن الحؤولةُ والعمومُ
فقام وقمتُ من أخوين هاجا * على طربٍ وليلهما بهيمُ
أجرّ الزِّقَّ وهو يجرّ رجلا * يجور به النعاسُ ويستقيمُ
سَلِ النَّدمان ما أولته منها * وسَلْها ما احتوى منها الكريمُ
كلا الشخصين متصِفٌ ولكن * قضتْ وَطَرًا وذا منها سَقيمُ

وقال :

إنّى صرفتُ الهوى الى قمرٍ * لم تبتذله العيونُ بالنظرِ
اذا تأملتَه تعاظمك آلـ * إقرارُ أنه من البَشرِ

ومن قوله :

يا شقيقَ النفسِ من حَكَمٍ * نمتَ عن ليلَى ولم أنَمِ
فاسقِنِى البكرَ التى آختمرتْ * بخِمار الشيبِ فى الرَّحمِ
ثُمّتَ آنصاتَ الشبابُ لها * بعد ما جازتْ مَدَى الهَرَمِ
فهى لليومِ التى بُزِلتْ * وهى تِربُ الدهرِ فى القِدَمِ
عَتُقتْ حتّى لو آتصلتْ * بلسانٍ ناطقٍ وفَمِ
لآحتبتْ فى القوم ماثلةً * ثم قصّتْ قصّةَ الأمَمِ
فرعَتْها بالمزاج يَدٌ * خُلِقتْ للسيفِ والقلمِ
فى نَدَامَى سادةٍ زُهُرٍ * أخذوا اللذاتِ من أمَمِ
فتمشّتْ فى مفاصلهم * كتمشّى البُرْء فى السَّقَمِ
فعلتْ فى البيتِ اذ مُزِجَتْ * مثلَ فعلِ الصبحِ فى الظُّلَمِ
فاهتدى سارى الظلامِ بها * كاهتداء السَّفْر بالعَلَمِ

ومن طَرْدِيَّاتِ أبى نواس فى صفة الكلب :

أنعتُ كلبًا أهــلُه من كَدِّهْ * قد سـعِدتْ جُدودُهم بجَـدِّهْ

فكلّ خيرٍ عندَهم من عِنْـدِه * وكل رِفْـد نالهم من رِفْدِهْ

يظَلّ مــولاه له كعبــدهْ * يبيتُ أَدْنى صاحبٍ من مَهْدِهْ

وإن عرى جلَّله بــبُرْدِهْ * ذا غُــرَّة محجَّــلا بِزَنْدِهْ

تلَذُّ منـه العينُ حسنَ قدِّه * يا حُسْنَ شِدْقِيْـه وطولَ قدِّه

تَلْقَ الظبـاءُ عنتًـا من طَرْدِهْ * يشربُ كأسًا شدُّها من شَدِّهْ

* يالك من كلبٍ نسيج وَحْدِهْ *

أبو نواس وجَنَـان

قال أبوالفرج : كانت جَنَانُ هذه جارية آلِ عبدالوهاب بن عبد المجيد الثَّقَفِى، وكانت حلوةً جميلةَ المنظر أديبةً، ويقال : إن أبا نواس لم يَصْدُق فى حبِّ امرأةٍ غيرِها، وقيل له يوما إن جنانَ قد عزمتْ على الحج، فكان هذا سببَ حجه وقال : أما والله لا يفوتنى المسيرُ معها والحجُّ عامِى هذا إن أقامت على عزيمتِها، وقال وقد حج وعاد :

ألم تر أننى أفنيتُ عمرى * بمطلبِهـا ومطلبُهـا عســيرُ

فلمـا لم أجـدْ سببًا اليهـا * يقرِّبنى وأعيَتْنِى الأمــورُ

حَجَجْتُ وقلتُ قد حَجَّتْ جنانٌ * فيجمَعُنِى وإياها المَســيرُ

قال مَنْ شهده حين حجَّ مع جنان وقد أحرم : لمـا جَنَّه الليلُ جعل يلبِّى بشعر ويحدُو به ويطرَب، فغنَّى به كلُّ من سمعه وهو قوله :

إلهنـا ما أعــدَلَكْ * مَليــكَ كلِّ من مَلَكْ

لبَّيْــكَ قــد لبَّيْتُ لكْ * لبيــكَ إن الحمدَ لكْ

والملكَ لا شريكَ لكْ * والليــلَ لمـا أن حَلَكْ

والسابحات فى الفلَكْ * على مَجَارِى المُنْسلَكْ

ما خاب عبــدٌ أمّلَكْ * انت له حيثُ سَـلَكْ

لولاك يا ربِّ هــلَكْ * كلُّ نبيٍّ ومَــلَكْ

وكل مَنْ أهلّ لكْ * ســبّح أو لبَّى فلكْ

يا مخطئا ما أغفلك * عجِّــل وبادرْ أجَلكْ

واختمْ بخــيرٍ عمــلَكْ * لبيــك ان الملكَ لَكْ

والحمــدُ والنعمــةُ لكْ * والعــزُّ لا شريكَ لكْ

وفيها يقول :

جَفْنُ عيــنِي قــد كاد يسـ * ـقطُ من طـولِ ما اختلجْ

وفـؤادى من حرّ حبـ * ـك والهجـرِ قـد نَضَجْ

خــبِّرينى فــدتكِ نفـ * ـسى وأهـلى متى الفـرجْ

كان ميعـادُنا خرو * جَ زيادٍ فقــد خرجْ

أنت من قتــلِ عائذٍ * بكِ فى أضيقِ الحَــرَجْ

قال الأصفهانى : قال محمــد بن ابراهيم بن كثير الصُّوفى : دخلنا على أبى نواس نَعُوده فى علته التى مات فيها ، فقال له على بن صالح الهاشمى : يا أبا على ، أنت فى أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، و بينك و بين الله عز وجل هَنَاتٌ ، فتُبْ الى الله عز وجل ، فبكى ساعةً ثم قال : سانِدُونى سانِدُونى ، ثم قال : أأُخَوَّفُ بالله عز وجل وقد حدثنى حماد ابن مســلم عن زيد الرَّقَاشِى عن أَنَس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل نبيٍّ شــفاعةٌ وانى اختبأتُ شــفاعتى لأهل الكبائر من أمتى يومَ القيامة » أفترانى لا أكونُ منهم ؟

ومن قوله فى مرض موته :

دبَّ فىَّ السقامُ عُلْوًا وسُفْلًا * وأرانى أموتُ عُضْوًا فعُضْوًا

ليس تمضى من لحظةٍ بىَ إلّا * نقصتنى بمرِّها فىَّ جُزْوًا

ذهبتْ بجدّتى بحاجة نفسى * وتطلبتُ طاعةَ الله نِضْوا

لهَف نفسى على ليالٍ وأيا * مٍ تجاوزتُهن لِعْبًا ولَهْوًا

قد أسأنا كلَّ الإساءة فاللهـ * ـهمّ صفحًا عنا وغَفْرا وعَفْوَا

ثم قال :

شِعْرحىٍّ أتاكَ من لفظ مَيْتٍ * صار بين الحياة والموت وَقْفَا

قد برتْ جسمَه الحوادثُ حتى * كاد عن عين الخلائق يَخْفَى

لو تأملتَنى لتُبْصِرَ وجهى * لم تبنْ من كتاب وجهىَ حَرْفَا

ولكرَّرْتَ طَرْفَ عينيكَ فيمن * قد براه السقام حتى تعَفَّى

وكان عمر أبى نواس تسعا وخمسين سنة ، وكانت وفاتُه قبل دخول المأمون مدينةَ السلام بست سنين (سنة ١٩٨) .

٢ — العَتّابي(١)

قال أحمد بن سَهْل: تذاكرنا شعرَ العَتّابي فقال بعضُنا: فيه تكلّف، ونَصَره بعضُنا.

فقال: شيخ حاضر، ويحكم! أيقال إن فى شعره تكلّفا وهو القائل:

رُسُلُ الضّميرِ اليك تَتْرَى * بالشوقِ ظالِعةً وحَسْرَى

مترجّيَات(٢) ما يَنِيـ * ـنَ على الوَجَا من بعد مَسْرَى

ما جَفَّ للعينين بعـ * ـدك ياقريرَ العينِ مجرَى

فاسْلَمْ سَلِمتَ مُبرَّأً * من صَبْوتى أبداً مُعرَّى

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابى التغلبى من ولد عتاب بن أسيد ثم من بنى تغلب بن وائل، شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف فى فنون الشعر مقدّم، من شعراء الدولة العباسية، وكان منقطعا الى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به، فبلغ عنده كل مبلغ وعظمت فوائده منه.

وكان حسن الاعتذار فى شعره ورسائله وله مصنفات فى المنطق والأدب واللغة وكان يقيم فى رأس عين بعيدا عن دور الخلفاء والأمراء. وبلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إشخاصه اليه فجاء، وعليه قميص غليظ وفروة وخف، وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل، فلما رفع الخبر بقدومه إلى الرشيد أمر بأن تفرش له حجرة ويقام له وظيفة ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدمت اليه أخذ منها رقاقة وملحا وخلط الملح بالتراب فأكلهما، فاذا كان وقت النوم نام على الأرض، والخدم يتفقدونه ويتعجبون من فعله. وسأل الرشيد عنه فأخبروه فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلى وهو فى منزله فسلم عليه وانتسب له فرحب به وقال له «ارتفع» فقال «لم آتك للجلوس» قال «فما حاجتك» قال «دابة أبلغ عليها إلى رأس عين» فقال: يا غلام، أعطه الفرس الفلانى: فقال: لا حاجة لى فى ذلك ولكن تأمر أن تشترى لى دابة أتبلغ عليها: فقال لغلامه «امض معه فابتع له ما يريد» فمضى معه فعدل به العتابى إلى سوق الحمير فقال الغلام: إنما أمرنى أن ابتاع لك دابة: فقال له: انه أرسلك معى ولم يرسلنى معك فان عملت ما أريد والا انصرف: فمضى معه فاشترى حمارا بمائة وخمسين درهما وقال: ادفع اليه ثمنه: فدفعه اليه فركب الحمار عريا بمرشحة عليه وبرذعة وساقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد «فضحتنى! أمثلى يحمل مثلك على هذا!» فضحك وقال «ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك» ومضى إلى رأس عين.

توفى سنة ٢٢٠ هـ وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٢ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ٢ ص ١٢٧).

(٢) أى متبلغات بالقليل حتى يصلن اليك.

إن الصبابة لم تدع * منى سوى عظم مبرى
ومدامع عبرى على * كبد عليك الدهر حرى

أو يقال إنه متكلف وهو الذى يقول :

فلو كان للشكر شخص يبين * اذا ما تأمله الناظر
لمثلته لك حتى تراه * لتعلم أنى امرؤ شاكر

وَجِدَ الرشيدُ على العتّابى فدخل سِرًّا مع المتظلّمين بغير إذن، فمثل بين يدى الرشيد وقال له : ياأمير المؤمنين، قد آذتنى الناس لك ولنفسى فيك، وردّنى ابتلاؤهم الى شكرك، وما مع تذكّرك قناعة بغيرك، ولنعم الصائنُ لنفسى كنت لو أعاننى عليك الصبر، وفى ذلك أقول :

أخضنى المقامَ الغَمْرَ إن كان غرّنى * سنا خُلّب أو زلّت القدمان
أتتركنى جَدْبَ المعيشة مُقتِرًا * وكفّاك من ماء الندى تكفان
وتجعلنى سهمَ المطامع بعد ما * بلَلْتَ يمينى بالندى ولسانى

فأعجب الرشيدَ قولُه، وخرج وعليه الخِلَع، وقد أمر له بجائزة .

كلّم العتّابى يحيى بن خالد فى حاجة بكلمات قليلة، فقال له يحيى: لقد نَزُر كلامُك اليوم وقلّ، فقال له : وكيف لا يقلّ وقد تكتنفنى ذلّ المسألة وحَيْرة الطلب وخوف الرّد؟ فقال: والله لئن قلّ كلامك لقد كثرت فوائدُه، وقضى حاجته .

قال يحيى بن خالد البرمكى لولده : إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتّابى فضلا عن رسائله وشعره، فلن تروا أبدا مثلَه .

وقف العتّابى بباب المأمون يلتمس الوصولَ اليه، فصادف يحيى بن أكثم جالسا ينتظر الإذن، فقال له : إن رأيتَ أعزّك الله أن تذكر أمرى لأمير المؤمنين اذا دخلتَ فافعل، قال له : لستُ أعزّك الله بحاجبه، قال: فإن لم تكن حاجبا فقد يفعل مثلُك ماسألتُ، واعلم أن الله عز وجل جعل فى كل شى زكاة، وجعل زكاة المال رِفْدَ المستعين، وزكاةَ الجاه إغاثة الملهوف ؛ واعلم أن الله عز وجل مقبِلٌ عليك بالزيادة إن شكرتَ، أو التغيير إن كفرتَ .

وإنى لك اليومَ أصلحُ منك لنفسك، لأنى أدعوك الى ٱزدياد نعمتك وأنت تأبَى، فقال له يحي: أفعَلُ وكرامة، وخرج الإذن ليحي، فلما دخل لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن ٱستأذن المأمونَ للعتّابى، فأذِن له .

وقيل له : لو تزوّجتَ، فقال: إنى وجدت مكابدة العِفّة أيسرَ علىّ من الاحتيال لمصلحة العيال .

قال دِعْبِل : ما حسدتُ أحدا قطّ على شعر كما حسدتُ العتّابىَّ على قوله :

هَيْبَةُ الإخوانِ قاطعــةٌ * لأخى الحاجات عن طَلَبِهْ
فإذا ما هِبتَ ذا أمل * مات ما أمّلتَ من سببهْ

كان العتّابى جالسا ذات يوم ينظر فى كتاب، فمرّ به بعضُ جيرانه، فقال : أيش ينفع العلمُ والأدبُ من لا مالَ له؟ فأنشد العتّابى قوله :

يا قاتَــل اللهُ أقواماً اذا ثقِفُــوا * ذا اللّب ينظر فى الآداب والحِكَم
قالوا وليس بهــم إلا نَفَاسَــتُه[(١)] * أنافعٌ ذا من الإقتار والعُــدُم
وليس يدرون ما الحظّ الذى حُرِموا * — لحاهم الله — من عِلْم ومن فَهَم

ومن قوله أيضا :

لئن كانت الدنيــا أنالتْــك ثروةً * فأصبحتَ ذا يُسر وقد كنت ذا عُسْرِ
لقــد كشّف الإثراءُ منــك مَخازياً * من اللؤم كانت تحت سِتْر من الفقر

وقال أيضــا :

رحَل الرجاءُ اليــك مغترِبا * حُشِدَتْ عليــه نوائبُ الدهر
ردّتْ اليــك نَدامتى أمــلى * وثنــا اليك عِنانه شكرى
وجعلتُ عَتْبَك عَتْبَ موعظة * ورجاءَ عفوك منتهى أمــلى

لمــا سعَى منصورٌ النَّمَرى بالعتّابى الى الرشيد ٱغتاظ عليــه فطلبه، فستَره جعفر بن يحي عنه مدّة وجعل يستعطفه عليه حتى ٱستلّ ما فى نفسه وأمّنه، فقال يمدح جعفر بن يحي :

(١) حسده .

ما زلتُ فى غمرات المـوت مُطَّرَحًا * قد ضاق عنى فسيحُ الأرض من حِيَلى
ولم تزل دائبا تسعى بلطفـك لى * حتى ٱختلستَ حياتى من يَدَىْ أَجَلى

عاد عبد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم بن مُصْعَب كلثوم بن عمرو العتّابى فى علّة ٱعتلّها، فقال الناس : هذه خَطْرة خطرتْ ، فبلغ ذلك العتّابى ، فكتب الى عبـد الله بن طاهر :

قالوا الزيارةُ خَطْرةٌ خَطَرتْ * وبِحارُ بِرّك ليس بالخَطْر
أَبْطِلْ مقالتهم بثانيـة * تستنفِد المعروفَ مِنْ شكرى

فلما بلغت أبياتُه عبـدَ الله بن طاهر ضحك من قوله وركب هو وإسحاق فعاداه مرة ثانيـة .

كانت له آمرأة من باهلة، فلما مضى الى رأس عَيْن قالت له : هذا منصور النَّمرى : قد أخذ الأموال فحلّى نساءه وبنى داره وآشترى ضِيَاعا وأنت ههنا كما ترى، فأنشأ يقول :

تلوم عـلى تَرْك الغِنى باهليّـةٌ * نوى الفقر عنها كلَّ طِرْف وتالد
رأت حولها النّسوان يرفُلْن فى الثرى * مقـلّدة أعناقُهـا بالقـلائد
أَسَرّك أنى نلتُ ما نال جعفـر * من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أميرَ المؤمنين أغصّنى * مغصهما بالمُـرْهَفات البَـوارد
رأيتُ رفيعاتِ الامور مَشُـوبةً * بمستودَعات فى بطون الأسـاود
دعينى تَجِئْنى ميتتى مطمئنـةً * ولم اتجشّم هولَ تلك الموارد

لمـا قدم العتّابى مدينة السلام على المأمون أذِنَ له، فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصلى، وكان العتابى شيخا جليلا نبيلا، فسلم فردّ عليه وأدناه وقرّبه حتى قرُب منه، فقبّل يَدَه، ثم أمره بالجلوس فجلس، وأقبل عليه يسائله عن حاله وهو يجيبه بلسان ذُلق طُلَق، فاستظرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداعبة والمزاح، فظن الشيخ أنه آستخفّ به، فقال: ياأمير المؤمنين، الإيناس قبل الإبْسَاس [1]، فاشتبه على المأمون قولُه، فنظر الى إسحاقَ مستفهما،

(١) الابساس : دعوة الناقة الى الحلب .

فأوما اليه وغمزه على معناه حتى فهم، فقال: ياغلام، ألف دينار، فأتى بذلك، فوضع بين يدى العتابى وأخذوا فى الحديث، وغمز المأمونُ إسحاقَ بن إبراهيم عليه، فجعل العتّابى لا يأخذ فى شىء إلا عارضه إسحاق، فبقى العتابى متعجبا، ثم قال : يا أمير المؤمنين، أتأذن لى فى سؤال هـذا الشيخ عن اسمه ؟ قال : نعم سَلْ، فقال لإسحاق ياشيخ، من أنت وما ٱسمك؟ قال : أنا من الناس وٱسمى كُلْ بَصَل، فتبسّم العتّابى وقال : أما أنتَ فمعروف وأما الاسم فمُنكَر، فقال إسحاق : ما أقلّ إنصافك! أتنكر أن يكون ٱسمى كل بصل، وٱسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم ؟ فقال له العتّابى : لله درّك ! فما أحجّك، أتأذن لى يا أمير المؤمنين فى أن أصله بما وصلتَنى به ؟ فقال المأمون : بل ذلك موفّر عليك ونأمر له بمثله : فقال له إسحاق : أما إذ أقررتَ بهذه فتوهّمنى تجدْنى، فقال : ما أظنك إلا إسحاق الموصلىّ الذى يَتَناهى الينا خبرُه، قال : أنا حيثُ ظننتَ، وأقبل عليه بالتحيّة والسلام، فقال المأمون — وقد طال الحديث بينهما — : أما إذ قد ٱتفقتما على المودّة فانصرِفا متنادمَيْن، فانصرف العتّابى الى منزل إسحاق فأقام عنده .

قال عثمان الورّاق : رأيت العتّابى يأكل خبزا على الطريق بباب الشام، فقلت له : وَيْحَكَ ! اما تستحيى ؟ فقال لى : أرأيتَ لو كنا فى دار بها بَقَر كنت تستحيى وتحتشم أن تأكل وهى تراك؟ فقال : لا، قال : فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام فوعَظ وقصّ ودعا حتى كثر الزّحام عليه ثم قال لهم : روى لنا غير واحد أنه من بلَغ لسانُه أرْنبةَ أنفه لم يدخل النار، فما بقى أحد إلا أخرج لسانه يومىء به نحو أرنبة أنفه ويقدّره حتى يبلغها أم لا، فلما تفرّقوا قال لى العتّابى: ألم أخبرك أنهم بقر ؟

قال الفضل : رأيت العتّابى بين يدى المأمون وقد أسنّ، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فمازال المأمون يُنهِضه رويدا رويدا حتى أقلّه فنهَض .

وكتب كلثوم بن عمرو العتّابى الى صديق له يستجديه :

أما بعد — أطال الله بقاءك وجعله يمتـدّ بك الى رِضْوانه والجنّـة — فإنك كنتَ عندنا روضـة من رياض الكَرَم، تبتهج النفوسُ بها، وتستـريحُ القلوب اليها، وكنّا نعفيها من النُّجْعة[1] آستيناما لزهرتها، وشـفقةً على خضرتها، وآدّخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سَـنَةٌ كانت عنـدى قطعة من سِنِي يوسف آشتدّ علينا كَلَبُها[2]، وغابت قِطّتها، وكذّبتنا غيومُها، وأخلفتنا بروقُها، وفقدنا صالحَ الإخوان فيها، فانتجعتُك . وأنا بانتجاعى إياك شديدُ الشفقة عليك، مع علمى بأنك موضع الرائد[3]، وأنك تغطّى عينَ الحاسـد . والله يعلم أنى ما أعدك إلا فى حَوْمَة[4] الأهل . وآعلم أن الكريم اذا آستحيا من إعطاء القليـل ولم يمكنه الكثير، لم يُعرف جوده ولم تَظْهر همّته . وأنا أقول فى ذلك :

اذا تكرمت عن بذل القليل ولم * تقدِر على سَعَة لم يظهر الجُود

بث النـوالَ ولا تمنعك قِلّته * فكل ما سَدّ فقرا فهو محمـود

قيل فَشَاطَره جميعَ ماله .

---

(١) النجعة : طلب الكلأ فى موضـعه . (٢) الكلب : القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة هنا : الجماعة والطائفة .

٣ – دِعْبِل [١]

شاعر متقدّم مطبوع هجّاء خبيث اللسان، لم يسلَم منه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نَباهة أحسن اليه أم لم يُحسن، ولا أفلت منه كبيرٌ أو صغير.

وكان دعبل من الشّيعة المشهورين بالميل الى علىّ صلوات الله عليه. وقصيدته: «مدارس آيات خَلَت من تِلاوة» من أحسن الشعر وفاخر المدائح المَقُولَة فى أهل البيت عليهم السلام، وقصد بها أبا على بن موسى الرِّضا بخراسان، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه وخلع عليه خلْعة من ثيابه، فأعطاه بها أهل قُمّ ثلاثين الف درهم، فلم يَبِعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها؛ فقال لهم: إنها إنما تُراد لله عزّ وجل وهى محرّمة عليكم، فدفعوا اليه ثلاثين الف درهم، فحَلَف ألّا يبيعها أو يعطوه بعضَها ليكون فى كفنه، فأعطوْه فردَكُمّ، فكان من أكفانه.

قال ابراهيم بن المهدى للمأمون قولا فى دعبل يحرّضه عليه؛ فضحك المأمون وقال: إنما تحرّضنى عليه لقوله فيك:

يا معشرَ الأجناد لا تَقْنَطوا * وارْضَوْا بما كان ولا تَسخَطوا
فسوف تُعْطَوْن حُنَيْنِيَّةً [٢] * يَلْتَذّها الأَمْرَدُ والأَشْمَط
والمَعْبَدِيّاتُ [٣] لِقُوّادكم * لا تدخل الكِيسَ ولا تُرْبَط
وهكذا يَرزق قُوّادَه * خليفةٌ مُصْحفه البَرْبَط

---

(١) هو دعبل بن على بن رزين من خزاعة، أصله من الكوفة وجاء بغداد بطلب من الرشيد. وهو شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أو لم يحسن، ولا أفلت منه كبير أو صغير. فكان الناس يخافونه ويتقونه حتى المأمون فإنه هجاه هجاء شديدا واحتمل ذلك منه. توفى سنة ٢٤٦ هـ. وتجد أخباره فى الأغانى ج ١٨ ص ٢٩ وابن خلكان ج ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء ص ٥٣٩ والفهرست (ص ١٦١).

(٢) يريد أصواتا منسوبة الى حنين الحيرى المغنى.

(٣) يريد أصواتا منسوبة الى معبد المغنى.

قـد ختمَ الصَّـكُّ بأرزاقكم * وصحّح العزمَ فـلا تسخَطوا

بيْعَـةُ ابراهـيم مشـئومةٌ * يُقْتَل فيها الخَلق أو يقْحَطوا

فقال له ابراهيم : فقد والله هجاك أنت يا أمير المؤمنين؛ فقال : دع هذا عنك فقد عفوت عنه فى هجائه إيّاى لقوله هذا، وضحك . ثم دخل أبو عبّاد، فلما رآه المأمون من بُعْـد قال لإبراهيم : دعبل يجسر على أبى عبّاد فى الهجاء ويُحجم عن أحد! فقال له : وكأن أبا عبّاد أبسط يدا منك يا أمير المؤمنين ؛ قال : لا ! ولكنّه حديد جاهل لا يؤمَن، وأنا أحلُمُ وأصفح، والله ما رأيتُ أبا عباد مقبِلا إلا أضحكنى قولُ دعبل فيه :

أولى الأمورِ بضَيْعةٍ وفساد * أمرٌ يدبّره أبـو عبّـاد

خَرِقٌ على جلسائه فكأنهم * حضَروا لِمَلْحَمة ويومِ جِلاد

يَسـطو على كتّابه بِدَواته * فمُضَمّخ بدم ونَضْح مِداد

وكأنه من دَيْرِ هِرْقِل مُفلتٌ * حَرِد يجرّ سلاسـل الأقياد

فاشدُدْ أميرَ المؤمنين وَثاقه * فأصحُّ منـه بقيّـة الحـدّاد

وكان «بقيّة» هذا مجنونا فى البيمارستان .

قال أبو خالد الخُزاعى لدعبل : ويحك ! قد هجوتَ الخلفاء والوزراء والقوّاد ووترْتَ الناس جميعا، فأنت دهرَك كلّه شريدٌ طريد هارب خائف، فلو كففتَ عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك! فقال : ويحك ! انى تأملتُ ما تقول فوجدت أكثر الناس لا يُنتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالَى الشاعر وإن كان مُجيدا اذا لم يُخَف شرّه ، ولَمَن يتّقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك فى تشريفه، وعيوبُ الناس أكثر من محاسنهم، وليس كل من شرّفتَه شَرُف، ولا كل من وصفته بالجود والمجـد والشجاعة ولم يكن ذلك فيـه آنتفع بقولك، فاذا رآك أوجعتَ عِرْض غيره وفضحتَه آتّقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر، ويحك يا أباخالد! إن الهجاء المقذع آخَذُ بضَبْع الشاعر من المديح المضرع؛ فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حَتْفَ أنفه .

كان سببُ خروج دعبل من الكوفـة أنه كان يَتَشطّر ويصحب الشُّطار، فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعَتَمَة، فجلسا على طريق رجل من الصَّيارفة، وكان يروح كل ليلة بكيسه الى منزله ، فلما طلع مقبلا اليهما وثبا اليه فجَرحاه وأخذا ما في كُمّه، فاذا هى ثلاث رُمّانات فى خِرْقة، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه ، ومات الرجل مكانه ، وآستتر دعبل وصاحبـه وجَدّ أولياء الرجل فى طلبهما وجدّ السلطانُ فى ذلك ، فطال على دعبـل الآستتار فاضطر الى أن هرب من الكوفة، فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد .

قال أحمـد بن خالد : كنا يوما بدار صالح بن على من عبد القَيْس ببغداد ومعنا جماعة من أصحابنا، فسقط على سطح البيت دِيك طار من دار دعبل ، فلما رأيناه قلنا : هذا صَيْدنا، فأخذناه، فقال صالح : ما نصنع به ؟ قلنا : نذبحـه، فذبحناه وشويناه. وخرج دعبـل فسأل عن الديك فعرَف أنه سقط فى دار صالح، فطلبه منّا فجحدناه وشربنا يومنا، فلمّا كان من الغد خرج دعبل فصلّى الغداة ثم جلس على باب المسجد — وكان ذلك المسجد مَجْمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ويَنتابهم الناس — فجلس دعبل على باب المسجد وقال :

أَسَرَ المؤذِّنَ صالحٌ وضيوفُه * أَسْرَ الكَمِىّ هَفَا خلال الماقِط

بَعثـوا عليه بَنِيهـمُ وبَناتِهم * من بين نائِفـةٍ وآخَر سامِط

يتنازعون كأنهم قـد أوثقوا * خاقان أو هَزَموا قبائلَ ناعط (١)

نَهَشوه فانتزعت له أسنانُهم * وتهشّمت أقفاؤهم بالحائط

فكتبها الناس عنه ومَضَوا ؛ فقال لى أبى، وقد رجع الى البيت : ويحكم ! ضاقت عليكم المآكل فلم تجدوا شيئا تأكلونه سوى ديك دعبل! ثم أنشدنا الشعر، وقال : لا تدع ديكا ولا دَجاجة تقدر عليه إلا آشتريته وبعثتَ به الى دعبل وإلا وقعنا فى لسانه، ففعلتُ ذلك .

قال أحمد بن أبى كامل : كان دعبل ينشدنى كثيرا هِجاءً له ، فأقول له فيمن هـذا ؟ فيقول ما آستحقّه أحدٌ بعينه بعـد، وليس له صاحب، فاذا وجَد على رجل جعـل ذلك الشعر فيه وذكر آسمه فى الشعر .

(١) قبيلة من همدان، بأصله جبل ولوابه عسبوا به .

كان دعبل يختلف الى الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو خرّجه وفهّمه وأدّبه، فظهر له منه جفاء وبلغه أنه يعيبه ويذكره وينال منه، فقال يهجوه :

يا بؤس للفضل لو لم يأت ما عابَهْ * يستفرغ السمّ من عمياء قرضابَهْ

ما إن يزال وفيه العيبُ يجمعه * جهلا لأعراض أهل المجد عيّابَهْ

إن عابنى لم يعِبْ إلا مؤدِّبه * ونفسَه عاب لما عاب أدّابَهْ

فكان كالكلب ضرّاه مكلّبه * لغيره فعدا فاصطاد كلّابَهْ

كان دعبل يقول : ما كانت لأحد قط عندى منّة إلا تمنّيتُ موته .

كتب دعبل الى أبى نَهْشَل بن حُمَيد الطُّوسى قوله :

إنما العيشُ فى مُنادمة الإخوا * ن لا فى الجلوس عند الكَعاب

وبصِرفٍ كأنها ألسُن البر * قِ إذا استعرضت رقيقَ السّحاب

إن تكونوا تركتمُ لذّةَ العيـ * ـش حِذارَ العِقاب يومَ العقاب

فدعونى وما ألذّ وأهوى * وادفعوا بى فى صدر يوم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرغانى: سمعت دعبلا يقول فى كلام جرى «لَيْسَك» فأنكرته عليه، فقال : دخل زيد الخَيـل على النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال له : «يا زيد ما وُصف لى رجل إلا رأيتُه دون وصفه لَيْسَك» يريد غيرك .

قال عمرو بن مَسْعَدة : حضرتُ أبا دُلَف عند المأمون وقد قال له المأمون : أى شىء تروى لأخى خُزَاعة يا قاسم؟ فقال: وأىّ أخى خزاعة يا أمير المؤمنين؟ قال: ومَنْ تعرف فيهم شاعرا؟ فقال: أمّا من أنفُسِهم فأبو الشِّيص ودعبل وابن أبى الشِّيص وداود بن أبى رزين، وأما من مواليهم فطاهر وابنه عبد الله ، فقال : ومن عسى من هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبل ! هات أىّ شىء عندك فيه ، فقال: وأىّ شىء أقول فى رجل لم يسلَم عليه أهلُ بيته حتى هجاهم، فقرَن إحسانَهم بالإساءة وبذلهم بالمنع وجودهم بالبخل، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة منه ، قال : حين يقول ماذا؟ قال : حين يقول فى المطّلب بن عبد الله

آبن مالك، وهو أصدق الناس له وأقربهم منـه، وقد وفد اليـه الى مصر فأعطاه الجزيل ووَلّاه، ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

إضرِبْ نَدَى طَلْحَةِ الطَّلْحات متئِـدا * بلــؤم مطَّلِبٍ فينـا وكن حَكَمَا

تُخْـرِج خُزَاعةَ من لؤم ومن كَرَم * فـلا تحِسّ لهـا لؤما ولا كرما

فقال المأمون : قاتله الله ! ما أغوَصَه وألطفه وأدهاه، وجعل يضحك. ثم دخل عبد الله آبن طاهر فقال : أى شىء تحفظ يا عبد الله لدعبل؟ فقال : أحفظ أبياتا له فى أهل بيت أمير المؤمنين، قال : هاتها ويحك ! فأنشده :

سَقْيًا ورَعْيًا لأيام الصَّــبَابات * أيام أرفُــل فى أثواب لذّاتى

أيام غصنى رطيبٌ من لَيانتــه * أصــبو الى غير جاراتٍ وكُنّات

دع عنك ذكر زمان فات مَطلبُه * وآقذِف برحلك عن مَتْن الجَهَالات

وآقصِــد بكل مديح أنت قائلُه * نحــو الهُداة بَنِى بيت الكَرَامات

فقال المأمون : إنه قد وجد والله مقالا فقال، ونال ببعيد ذكرهم ما لا يناله فى وصف غيرهم.

ومن قول دعبل وفيه غناء :

أيْنَ الشـباب وأَيَّةً سلَكا * لا أين يُطلب ضَلّ من هَلَكا

لا تعجبى يا سَلْمَ من رجل * ضحِك المشيبُ برأســه فَبَكى

يا ليت شـعرى كيف يومُكما * يا صاحبىّ اذا دَمِى سُفِكا

لا تأخــذوا بظُلامتى أحدًا * قلبى وطَرْفى فى دمى آشـتركا

قال إبراهيم بن المدبّر : لقيت دعبـل بن على فقلت له : أنت أجْسَرُ النـاس عندى وأقدمهم حيث تقول :

إنى من القــوم الذين سيوفُهم * قتلَتْ أخاك وشرّفتـك بمَقْعَــد

رفعوا محلَّك بعد طول خمــوله * وآستنقذوك من الحضيض الأوْهَد

وأولها :

أخذ المشيبُ من الشباب الأغيدِ * والنائباتُ من الأنام بمَرْصد

فقال : يا أبا اسحاق، أنا أحمل خَشَبتى منذ أربعين سنة، فلا أجد من يصلبنى عليها .

كان دعبل يخرج فيغيب سنين يدُور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى، وكانت الشُّراة والصّعاليك يلقَونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرّونبه، وكان اذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم اليه ودعا بغلاميه : نفنف وشعف ، وكانا مغنيين ، فأقعدهما يغنّيان وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم، فكانوا قد عرفوه وألِفوه لكثرة أسفاره، وكانوا يواصلونه ويصلونه . وأنشد دعبل لنفسه فى بعد أسفاره :

حلّتْ محَلّاً يقصُر البرقُ دونه * ويعجز عنه الطيفُ أن يَتجشّما

قال البحترى : دعبل بن على أشـعر عندى من مسـلم بن الوليد، لأن كلام دعبل أدخل فى كلام العرب من كلام مسلم، ومذهبه أشبه بمذاهبهم؛ وكان يتعصّب له .

كان المعتصم يبُغض دعبلا لطول لسانه. وبلغ دعبلا أنه يريد اغتياله وقتله ، فهرب الى الجبل؛ وقال يهجوه :

بَكى لِشَـتات الدين مكتئبٌ صبٌّ * وفاض بفَرْط الدمع من عينه غَرْبُ

وقام إمام لم يكن ذا هِـدَاية * فليس لـه دِين وليس له لُبّ

وما كانت الأنبـاءُ تأتى بمثـله * يُمَلَّك يـوما أو تدِين له العُـرْب

ولكن كما قال الذين تتابعــوا * من السّلَف الماضِين اذ عَظُم الخطب

ملوك بنى العباس فى الكُتْبِ سبعةٌ * ولم تأتنا عن ثامن لهم كُتْب

كذلك أهلُ الكهف فى الكهف سبعةٌ * خِيـارٌ اذا عُدّوا وثامنهــم كَلْب

وإنى لأُعلِي كلبَهــم عنـك رفعةً * لأنـك ذو ذَنْب وليس لـه ذنب

لقد ضاع مُلك الناس اذ ساس مُلكَهم * وصِـيفٌ وأشناس وقد عَظُمَ الكرب

وفَضْل بن مروان يُثَـلِّم ثُلمةً * يظل لهـا الإسـلام ليس له شَعْب

لما مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيّات يرثيه :

قد قلتُ إذ غيّبوه وآنصرفوا * فى خير قبر لخيرِ مدفونِ

لن يجبر اللهُ أمّةً فقدتْ * مثلك إلا بمثل هارونِ

فقال دعبل يعارضه :

قد قلتُ إذ غيّبوه وآنصرفوا * فى شرّ قبر لشر مدفونِ

اِذهب الى النار والعذاب فما * خَلْقُك إلا من الشياطينِ

ما زلت حتى عقدتَ بَيْعةَ مَنْ * أضرّ بالمسلمين والدينِ

وقال فى ذلك وفى قيام الواثق :

الحمدُ لله لا صبْرٌ ولا جَلَدٌ * ولا عزاءٌ اذا أهلُ البلا رقدوا

خليفةٌ مات لم يحزَن له أحد * وآخَرٌ قام لم يفرح به أحد

ولقد أحسن فى وصف سفر سافره، فطال ذلك السفر عليه، فقال فيه :

ألم يأنِ للسَّفْر الذين تحمّلوا * الى وطنٍ قبل الممات رجوعُ

فقلت ولم أملك سوابقَ عَبْرة * نَطَقْن بما ضُمّت عليه ضلوعُ

تبيّنْ فكم دارٍ تفرّق شملُها * وشَمْلٍ شتيتٍ عاد وهو جميعُ

كذاك الليالى صَرْفُهنّ كما ترى * لكل أناس جَدْبةٌ ورَبيعُ

ثم قال : ما سافرتُ قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عينى فى سفرى وهِجِّيراى ومسليتى حتى أعود .

ومن قول دعبل وفيه غناء :

سَرَى طيفُ ليلى حين آن هُبُوبُ * وقضّيت شوقا حين كاد يذوب

فلم أرَ مطروقًا يحلّ برحلة * ولا طارقا يَقْرِى المُنَى ويُثيب

ومن قوله :

لقد عجبتْ سَلْمى وذاك عجيبُ * رأت بى شيبا عجّلته خُطوبُ

وما شيّبتنى كَبْرةٌ غير أننى * بدهرٍ به رأسُ الفطيم يَشيب

وقال فى صالح بن عطيّة الأضجم وكان من أقبح الناس وجها، وخاطب فيها المعتصم :

قل للإمام إمامِ آل محمــد * قول آمرئ حدِبٍ عليك مُحَامِ
أنكرت أن تفترّ عنـك صنيعةٌ * فى صالح بن عَطيّة الحَجّام
ليس الصنائع عنده بصنائع * لكنهن طوائلُ الإســلام
اِضربْ به جيشَ العــدوّ فإنه * جيشٌ من الطاعــون والبِرْسام

قال أبو تمّــام : ما زال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقرّا بأُسْتَاذِيتّه، حتى ورد عليه بجُرجان بجفاه مسلم، وكان فيه بخل، فهجره دعبل وكتب اليه :

أبا مَخْـلَدٍ كنا عَقِيـدَى مودّة * هــوَانا وقلْبانا جميعـا معًا معا
أحوطك بالغيب الذى أنتَ حائطى * وأجزع إشــفاقا مِنَ آنْ تتوجّعـا
فصــيّرتنى بعـــد انتكاثك مُتْهِما * لنفسى عليها أَرْهَبُ الخلق أجمعـا
غششتَ الهوى حتى تداعت أصولُه * بنا وآبتذلتَ الوصــلَ حتى تقطّعا
وأنزلتَ مَن بين الجوانح والحَشَى * ذخــيرةَ وُدٍّ طالمـا قــد تمنّعـا
فلا تَلْحَيَنّى ليس لى فيــك مطْمعٌ * تخرقتَ حـتى لم أجــد لك مرقعا
فَهَبْك يمينى استأكلتْ فقطعتُهـا * وجشّمتُ قلبى صــبرَه فتشجّعـا

ثم تهاجرا فمـا آلتقيا بعد ذلك .

اجرى الرشيد على دعبل رزقا سنّيا ، فكان أوّل من حرّضه على قول الشعر . فوالله مابلغه أن الرشيد مات حتى كافأه على فعله من العطاء السنىّ والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمــول بأقبح مكافأة ، وقال فيه يهجوه من قصيدة مدح بها أهلَ البيت عليهم السلام :

وليس حَىٌّ مِنَ الأحياء نعلمه * من ذى يمَانٍ ومن بكْرٍ ومن مُضَرِ
إلا وهم شركـاءُ فى دمائهــمُ * كما تَشَارك أيْسَارٌ عــلى جُزُر
قتــلٌ وأسْرٌ وتحــريقٌ ومَنْهَبةٌ * فِعلَ الغُزاةِ بأرض الروم والخَزَر
أرى أميّة معذورين إن قتلوا * ولا أرى لبـنى العباس من عُذُر

أربعٌ بطوس على القبر الزكىّ اذا * ما كنت تربع من دين على وطر
قبران فى طوس خيرُ الناس كلهم * وقبرُ شرّهم هذا من العبر
ما ينفع الرجسَ من قرب الزكىّ ولا * على الزكىّ بقرب الرجس من ضرر
هيهات، كلّ امرىء رهنٌ بما كسبت * له يداه فخُذْ ماشئتَ أو فذَر

استدعى بعض بنى هاشم دعبلا وهو يتولى للمعتصم ناحية من نواحى الشام، فقصده اليها فلم يقع منه بحسن ظن وجفاه، فكتب اليه دعبل :

دلّيتنى بغرورٍ وعدك فى * مُتلاطم من حَوْمة الغرَق
حتى إذا شمت العدوّ وقد * شُهِرَ انتقاصك شُهْرة البلَق
أنشأت تحلف أن ودّك لى * صافٍ وحبلك غير منحذِق
وحسبتنى فَقْعًا بقرْقرة * فوطئتنى وَطْئًا على حَنَق
ونصبتَنى عَلَمًا على غَرَض * ترمينى الأعداءُ بالحَدَق
وظننتَ أرضَ الله ضيقةً * عنّى وأرضُ الله لم تَضِق
من غير ما جُرمٍ سوى ثِقةٍ * منّى بوعدك حين قلتَ ثِق
ومودّةٍ تحنو عليك بها * نفسى بلا مَنٍّ ولا مَلَق
فمتى سألتُك حاجةً أبدا * فاشددْ بها قُفْلا على غَلَق
وقفَ الإخاءُ على شفا جُرُف * هارٍ فبعه بيعة الخَلَق
وأعِدّ لى قُفْلا وجامعةً * فاشدد يدىّ بها إلى عنقى
أعفيك مما لا تحبّ بها * وأسُدُّ على مذاهب الأفُق
ما أطولَ الدنيا وأعرضَها * وأدلّنى بمسالك الطُرُق

دخل دعبل على عبد الله بن طاهر فأنشده وهو ببغداد :

جئتُ بلا حُرْمة ولا سببٍ * إليك إلّا بحرمة الأدبِ
فاقضِ ذِمامى فإنّنى رجلٌ * غير مُلِحٍّ عليك فى الطّلب

فانتقل عبد الله ودخل الحَرَم ووجَّه اليه بصُرّة فيها ألف درهم ، وكتب اليه :

أعجلتنا فأتاك عاجـــلُ برِّنا * ولو انتظرت كثيرَه لم يقلل

فخذ القليلَ وكن كأنك لم تَسَلْ * ونكون نحن كأننـــا لم نفعل

مات دعبل بقرية من قُرَى السُّوس ، بعث اليه مالك بن طَوْق من ضرب ظهره بعكّاز لها زُجٌّ مسموم فمات من غد .

٤ — حسين بن الضّحّاك[1]

« شاعر[2] ظريف شديد الظّرف، ربما انقطع نظيرهُ فى شعراء العصر العبّاسى كلّه، وهو مع ظرفه وإسرافه فى المجون، قليلُ الفحش فى اللفظ، غير مُتَهالِك على القول الآثم والألفاظ المنكرة، لا يتخيّرها ولا يقصد اليها، وإنما يعرض لها اذا اضطُر اليها اضطرارا وهو على ظرفه ورقّة حاشيته وحِرْصه على نقاء اللفظ وطُهره شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، مجوّد اذا فكّر، مظفر اذا بحث، موفّق الى اللفظ المتين، والأسلوب الرّصين فى غير جفوة ولا غِلظة، لا يعرف التكلّف فى لفظ ولا معنى، وإنما ينطلق لسانه مع سجيته، وسجيّته سهلة مرسَلة غنيّة غزيرة المادة، لا تكاد تنضُب، ولا ينالها إعياء أو كَلَال، وحياته كلها عِبَر وعظات ولكنها عبر وعظات مبتسمة ليست بالمظلمة ولا العابسة ولا بالتى تردّك وتنفّرك، وتجعل للحزن والأسى الى قلبك سبيلا، ولعلك لا تجد من شعراء هذا العصر رجلا مثله، تقرأ أخباره فتظلّ مبتسما منذ تبتدئ الى أن تنتهى دون أن تعبِس أو تقطب. وربما تجاوزتَ الابتسام الى الإغراق فى الضحك من حين الى حين، ولكنك لن تترك الابتسام الى الحزن الشديد. وربما اعترضتك فى طريقك سحابة محزنة ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هيّنة، فهى أضعف من أن تزيل ابتسامتك. وكان هذا الشاعر من المعمَّرين، بلغ المائة أو كاد، وعاصر طبقاتٍ من الشعراء، وألوانا من حاشية الخلفاء، ولكنه ظلّ محتفظا بشخصيّته الوادعة المبتسمة، تغيّر الناس واختلفت الظروف، وظلّ هو واحدا

(١) هو مولى باهلة، ولد فى البصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بنى العباس، وكان خليعا فاسدا وكان مع ذلك حسن التصرف فى النظم ولشعره قبول ورونق، فهو من المتفننين وله معان جديدة فى الخمر كان أبو نواس يأخذها عنه، ومع أن أبا نواس مات سنة ١٦٨ هـ، والضحاك مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تعاصرا لأن مولدهما متقارب لأن ابن الضحاك عمر كثيرا. وهو أوّل من نادم الأمين وله فيه مدائح كثيرة، وعمر عمرا طويلا حتى قارب مائة السنة ومات فى خلافة المستعين أو المنتصر. ونجد أخباره فى الأغانى (ج ٦ ص ١٧٠) وابن خلكان (ج ١ ص ١٥٤.

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

لم يتغير. كان خليعا، بل كان يُعرف بالخليع، وكان كثيرَ المجون مُسْرفا فيه، وما أحسب أن أبا نواس سبقه الى لذة أو برز عليه فى مأثم، ولكنه على خلاعته وإسرافه فى المجون وتهالُكه على اللذات، احتفظ طول حياته بشىء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجَوْدة الأصل، كأنما كانت هذه اللّذات والآثام تنزلق على نفسه وأخلاقه انزلاقا دون أن تترك فيها أثرا باقيا، وإنما كانت الآثار التى تتركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعَبَث، هذه الأشعار الجميلة الحلوة التى سأظهرك على طرف منها .

فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين إنما كانوا يَصِلون الى الخلفاء بعد الجهد والكَدّ، وبعد التلطّف وحسن الحيلة؛ وإنما كان متصلا بالخلفاء اتّصالا شديدا، يعاشرهم ويرافقهم ويتدخّل فى حياتهم الخاصة، وربما تدخّل الى أكثر مما ينبغى . وكان الخلفاء يعشون عنه، ويَحْرِصون على عشرته ويبذلون فى ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر فى أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء » .

فترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب ظريف مطبوع، حسن التصرّف فى الشعر حلو المذهب. لشعره قَبُول ورونق صاف، وكان أبو نواس يأخذ معانيه فى الخمر فيُغِير عليها، واذا شاع له شعر نادر فى هذا المعنى نسبه الناس الى أبى نواس، وله معان فى صفتها أبدع فيها، وهاجَى مسلمَ بن الوليد فانتصف منه، وله غزل كثير جيّد، وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارهم ومذاهبهم جملة من التكلّف .

قال : أنشدت أبا نواس قصيدتى التى قلتها فى الخمر وهى :

بُدِّلتَ من نَفَحات الورد بالآءِ[1] * ومن صَبُوحك دَرَّ الإبْلِ والشّاء

فلما انتهيتُ منها الى قولى

حتى اذا أُسْنِدت فى البيت وٱحْتُضِرت * عند الصّبوح بَبسّامين أكفاء
فُضَّت خواتمها فى نَعْت واصفها * عن مثل رَقراقة فى جفن مَرْهاء[2]

(١) الآء : ثمر شجر واحدته آءة . (٢) المرهاء : التى لا تكتحل .

فصُعق صعقة أفزعتنى وقال : أحسنتَ والله يا أشقر، فقلت : ويلك يا حسن، إنك أفزعتَنى والله، فقال : بلى والله أنت أفزعتَنى ورُعتنى، هذا معنى من المعانى التى كان فكرى لابد أن ينتهى اليها أو أغوص عليها وأقولها، فسبقتَنى اليه وآختلستَه منّى، وستعلم لمن يُروى ألِى أم لك؟ فكان والله كما قال، سمعت من لا يَعْلَم يَرويها له :

لما قدِم المأمون من خراسان أمر بأن يُسَمّى له قوم من أهل الأدب ليجالسوه ويسامروه، فذُكِر له جماعة فيهم الحسين بن الضّحّاك، وكان من جلساء محمد المخلوع ، فلما رأى آسمَه قال : أليس هو الذى يقول فى محمد :

هلا بقيتَ لسَدّ فاقتنا * أبدا وكان لغيرك التّلَفُ

فلقد خَلَفْتَ خلائفا سَلَفوا * ولسوف يُعْوِز بعدك الخَلَف

لا حاجة لى فيه، والله ولا يرانى أبدا إلا فى الطريق، ولم يعاقب الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به، وآنحدر حسين الى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون .

قال أبو صالح بن الرشيد : دخلت يوما على المأمون ومعى بيتان للحسين بن الضحاك، فقلت : يا أمير المؤمنين، أُحب أن تسمع منى بيتين، فقال : أنشِدْهما، فأنشدتهما :

حمدنا الله شكرًا إذ حَبَانا * بنصرك يا أمير المؤمنينا

فأنت خليفة الرحمن حقّا * جمعت سماحة وجَمَعتَ دِينا

فقال : لمن هذان البيتان ؟ فقلت : لعبدك يا أمير المؤمنين حسين بن الضحاك، قال : قد أحسن، فقلت : وله يا أمير المؤمنين أجود من هذا، فقال : وما هو؟ فأنشدته قولَه :

أَيَجْزَنى فإنى قد ظَمِئتُ الى الوعد * متى تُنجِز الوعدَ المؤكد بالعَهْد

أُعيذُك من خُلف الملوك وقد بدا * تَقطّع أنفاسٌ عليك من الوَجْد

أيبخل فَرْدُ الحسن عنى بنائل * قليلٍ وقد أفردتُه بهوًى فَرْد

رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عباده * فملّكه والله أعلم بالعبد

ألا إنما المأمون للناس عصمة * مميِّزة بين الضّلالة والرشد

فأطرق ساعة ثم قال : ما تَطيب نفسى له بخير بعد ما قال فى أخى محمد ما قال .

ومن قوله يرثى محمدا الأمين :

أطِل حَزَنا وابكِ الإمام محمـدا * بحزن وإن خِفتَ الحسام المهندا
فـلا تمّتِ الأشياءُ بعد محمـد * ولا زال شَمْل الملك منها مُبَـدّدا
ولا فرح المأمونُ بالملك بعـده * ولا زال فى الدنيا طريدا مشرّدا

وللحسين فى محمد الأمين مَرَاثٍ كثيرة جيادٌ، وكان كثير التحقّق به والموالاة له لكثرة إفضاله عليه، وميله اليـه، وتقديمه إياه، وبلغ من جزعه عليه أنه خُولِط فكان يُنكر قتـله لمـا بلغه ويدفعه ويقول: إنه مستتر وأنه قد وقف على دُعاته فى الأمصار يدعون الى مراجعة أمره والوفاء ببيعته ضَنّا به وشفقة عليه .

ومن جيّد مراثيه إياه قوله :

سألونا أنْ كيف نحن ؟ فقلنا * من هَوَى نجمُـه فكيف يكون؟
نحن قوم أصابنا حَدَثُ الدهـ * ـر فظَلْنا لريْبِـه نستكين
نتمـنى من الأمين إيابا * لَهْفَ نفسى وأين منّى الأمين

ومن جيّد قوله فى مراثيه إياه .

أعَزّى يا محمـدُ عنك نفسى * معاذ الله والأيدى الجِسامِ
فهـلّا مات قومٌ لم يمـوتوا * ودُوفع عنـك لى يومَ الحِمامِ
كأن الموت صادَف منك غُنْما * أو استشفى بقربك من سَقَام

وقال أيضا يرثيه :

يا خير أسْرته وإن زَعمـوا * إنّى عليـك لُمثْبَتٌ أسِفُ
الله يعـلم أن لى كبدا * حَرّى عليك ومقلةٌ تَكِف
ولئن شَجِيتُ بما رُزئتُ به * إنى لأُضْمِر فوق ما أَصِف
هلّا بَقِيتَ لسَـدّ فاقتنـا * أبدا وكان لغيـرك التَّلَف
فلقد خَلَفتَ خلائفا سَلَفوا * ولسوف يُعْوِز بعدك الخلف

لابات رَهْطُك بعد هفوتهم * إنى لرهطك بعدها شَنِف (١)
هَتكوا بحرمتك التى هُتِكت * حُرَمَ الرسول ودونها السُّجُف
وثَبَتْ أقاربُك التى خَذَلتْ * وجميعُها بالذّل معترف
لم يفعلوا بالشّطّ إذ حضروا * ما تفعل الغَيْرانة الأنُف
تركوا حريمَ أبيهم نَفَلا * والمحصَنات صوارِخٌ هُتُف
أبدت مُخَلْخَلَها على دَهَش * أبكارُهنّ ورنّت النَّصَف
سُلِبَت مَعاجِرهنّ (٢) واجْتُلِيت * ذاتُ النِّقاب ونُوزِع الشَّنَف
فكأنهنّ خِلالَ مُنْتَهَب * دُرٌّ تكشّف دونَه الصَّدَف
مَلِكٌ تخون مُلْكَه قَدَرٌ * فَوَهَى وصرفُ الدهر مختلف
هيهاتَ بعدك أن يدوم لنا * عِزٌّ وأن يبقى لنا شَرَف
لا هَيَّبُوا غُرَفًا مشرَّفة * للغادرين تحتها الجَدَف
أفبَعْد عهد الله تقتُلُه * والقتل بعد أمانة سَرَف
فستعرِفون غدا بعاقبة * عِزّ الإله فأوْرِدُوا وقِفُوا
يامن يُخَوّن نومَه أرَقٌ * هَدَتِ الشجونُ وقلبُه لَهِف
قد كنتَ لى أملا غَنِيتُ به * فمضى وحلّ محلَّه الأَسَف
مَرِجَ النّظام وعاد مُنْكَرُنا * عُرْفا وأُنْكِر بعدك العُرُف
فالشملُ منتشر لفقدك والـ * ـدُّنيا سُدًى والبال منكسف

وقال أيضا يرثيه :

اذا ذُكِر الأمينُ نَعَى الأمينا * وإن رقَد الخَلِيّ حَمَى الجُفُونا
وما بَرِحتْ منازلُ بين بُصرى * وكَلْوَاذَى تُهَيِّج لى شجونا
عِراصُ الملك خاويةٌ تَهادى * بها الأرواح تَنْسجُها فنونا

(١) مبغض متكر . (٢) جمع معجر بالكسر وهو ثوب تعتجر به المرأة أى تشده على رأسها .

تخـوّن عزّ ساكنها زمانٌ * تلعّب بالقرون الأوّلينا
فشتّت شملهـم بعد اجتماع * وكنتُ بحسن ألفتهم ضنينا
فلم أر بعـدهم حُسْنا سِواهم * ولم ترهـم عيونُ الناظرينا
فوا أسفًا وإن شمت الأعادى * وآه على أمـير المؤمنينا
أضلّ العُرف بعـدك متّبعوه * ورقّـه عن مطايا الراغبينا
وكنّ الى جنابك كلّ يـوم * يُرحْنَ على السّعود ويغتدينا
هو الجبلُ الذى هوت المعالى * لهـدّته وريع الصّالحونا
ستندُب بعدك الدنيا جِوارا * وتنـدب بعدك الدينَ المصونا
فقد ذهبت بشاشةُ كلّ شىء * وعاد الدين مطروحا مَهينا
تعقّـد عزُّ مُتّصِـلٍ بكسرى(١) * ومِلّتـه وذلّ المسلمونا

وقال أيضا يرثيه :

أسفًا عليك سَلاك أقربُ قُربَةً * منّى وأحزانى عليـك تزيد

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدى: حسين بن الضحاك أشعر المحدَثين حيث يقول:

أىّ ديباجـةِ حُسْنٍ * هيّجتْ لوعةَ حزنى
إذ رمانى القمـرُ الزا * هر عن فـترة جفن
بأبى شمسُ نهـار * برزتْ فى يوم دَجْن
قرّبتنى بالمـنى حتـ * ـى اذا ما أخلفتـنى
تركتنى بين ميعـا * د وخُلْف وتجنّ
ما أرى فىّ من الصّبْـ * ـوة إلّا حسنَ ظنى
إنمـا دامت على الغد * ر لمـا تعرف مـنّى
أستعيذ الله من إعرا * ض من أعرض عنّى

---

(١) استحكم .

لما وَلى المعتصم أمر بمكاتبته بالقدوم عليه ، فلما دخل وسلّم آستأذنه فى الإنشاد، فأذِن له ، فأنشده قولَه :

هلّا سألتَ تلذّذ المشتاق * ومَنَنْتَ قبلَ فراقه بتَلاق
إن الرقيب ليَستريب تنفُّسا * صُعُدا إليك وظاهر الإقلاق
ولئن أَرِبْتُ لقد نظرتُ بمقلة * عَبْرى عليك تخينة الآماق
نفسى الفداءُ لخائفٍ مترقِّبٍ * جَعَل الوداع إشارةً بعِناق
إذ لا جوابَ لمُفْحَم متحيِّر * إلا الدموع تُصان بالإطراق

حتى آنتهى الى قوله :

خيرُ الوفود مبَشِّر بخلافة * خَصّتْ ببهجتها أبا إسحاق
وافته فى الشهر الحرام سليمةً * من كل مشكلة وكل شِقاق
أعطته صفقتَها الضمائرُ طاعةً * قبل الأكُفّ بأوكد الميثاق
سكَنَ الأنامُ الى إمام سَلامة * عَفّ الضمير مهذّب الأخلاق
فحمى رعيّتَه ودافع دونها * وأجار مُمْلِقَها من الإملاق

حتى أتمّها، فقال له المعتصم : آدْنُ منى ، فدنا منه ، فملأ فَمَه جوهرا من جوهر كان بين يديه، ثم أمره بأن يخرجه من فمه ، فأخرجه وأمر بأن يُنْظَم ويدفع اليه ويخرج الى الناس وهو فى يده، ليعلموا موقعه من رأيه، و يعرفوا فضله ، فكان أحسن ما مُدح به يومئذ .

ومن شعره قوله :

أميرَ الله ثِق بالله * ـه تُعْطَ الصبر والنُّصْرَهْ
وكِلِ الأمرَ الى الله * كَلاك الله ذو القُدره
لنا النصر بعون الله * والكَرّة لا الفَرّه
وللمُرّاق أعدا * ئك يومُ السوء والدَّبْره
وكأس تلفظ الموت * كريهٍ طعمُها مُرّه

سَقونا وسقيناهم * ولكن بهم الحِرَّه
كذاك الحرب أحيانا * علينا ولنا مَرَّه

ومن قوله فى غضب حظيّة للواثق من زيارته أخرى فى نوبتها :

غَضِبتْ أنْ زرتُ أخرى خِلْسةً * فلها العُتْبى لَدَيْنا والرِّضا
يا فَدَتْكِ النفس كانت هَفْوةً * فاغفريها وٱصفحى عما مضى
وٱتركى العَذْل على من قاله * وٱنسُبى جَوْرى الى حكم القضا
فلقد نبهتِنى من رَقْدتى * وعلى قلبى كنيران الغَضا

كان الواثق يتحظَّى جارية له فماتت، فجزع عليها وترك الشراب أياما، ثم سلاها وعاد الى حاله ، فدعا الحسين ليلة وقال له : رأيت فلانة فى النوم فليت نومى كان طال قليلا لأتمتع بلقائها، فقل فى هذا شيئا، فقال :

ليت عينَ الدهرِ عنا غَفَلت * ورقيبَ الليل عنا رَقَدا
وأقام النوم فى مدّته * كالذى كان وكنّا أبدا
بأبى زَوْرٌ تلفّتُّ له * فتنفّستُ اليه الصُّعَدا
بينما أضحك مسرورا به * إذ تقطّعتُ عليه كَبِدا

لما أعيته الحيلةُ فى رضا المأمون عنه رمى بأمره الى عمرو بن مَسْعَدَة وكتب اليه :

أنت طَوْدى من بين هذى الهِضاب * وشهابى من دون كل شهاب
أنت يا عمرو قُوّتى وحياتى * ولسانى وأنت ظُفْرى ونابى
أتُرانى أنسى أياديَك البيـ * ـض اذا ٱسودّ نائل الأصحاب
أين أخلاقك الرضيّة حالت * فىّ أم أين رِقّة الكُتّاب؟
أنا فى ذِمّة السحاب وأظمَا؟ * إن هذا لَوَصْمةٌ فى السحاب
قم الى سيّد البريّة عنّى * قومةً تَسْتَجِرْ حُسْنَ الخطاب
فلعل الاله يُطفئُ عنّى * بك نارا علىّ ذات ٱلتهاب

فلم يزل عمرو يُلْطِف للمأمون حتى أوصله اليه وأدرّ أرزاقه .

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحضاره، فلما حضر سلّم ، فرد عليه السلام ردًا جافيا، ثم أقبل عليه فقال : أخبِرنى عنك، هل عرفتَ يوم قُتِل أخى محمد هاشميّة قُتلت أو هُتكت ؟ قال : لا، قال : فما معنى قولك :

وسِرْب ظِباء من ذؤابة هاشم * هتفن بدعوى خير حى وميّت
أرُدّ يدًا منّى اذا ما ذكرته * على كبد حرّى وقلبٍ مُفتّت
فلا بات ليلُ الشامتين بغبطةٍ * ولا بلّغت آمالُهم ما تمنّت

فقال : يا أمير المؤمنين ، لوعة غلبتنى، وروعة فاجأتنى، ونعمة فقدتُها بعد أن غمرتنى ، وإحسان شكرته فأنطقنى ، وسيّد فقدته فأقلقنى، فإن عاقبتَ فبحقّك ، وإن عطفت فبفضلك ؛ فدمعت عينا المأمون وقال : قد عفوتُ عنك ، وأمرتُ بإدرار رِزْقك ، وإعطائك ما فات منه، وجعلت عقوبتك آمتناعى من آستخدامك .

ومن قوله :

وكالوردة الحمراء حَيا بأحمر * من الورد يمشى فى قَراطِق كالورد
له عَبَثاتٌ عند كل تحيّة * بعينيه تَستدعى الحليمَ الى الوجد
تمنّيت أن أُسقَى بكفيه شَرْبة * تذكّرنى ما قد نَسيتُ من العهد
سقى الله دهرا لم أَبِتْ فيه ليلةً * خليّا ولكن من حبيبٍ على وعد

ومن قوله :

وا بِأبى مُفْحَم لعزّته * قلتُ له اذ خلوتُ مكتتما
تُحِبّ بالله من يخصّك بالـ * ـود فما قال لا ولا نَعَما
ثم تولّى بمُقْلَتَىْ خَجِل * أراد رَجْع الجواب فاحتشما
فكنت كالمُبتغى بحيلته * بُرءًا من السُّقم فابتدا سَقَما

وقال فى هوًى له :

عالِمٌ بحبّيه * مطرِق من التّيه
يوسفُ الجمالِ وفر * عون فى تَعدّيه

لا وحقٌّ ما أنا فيـ * ـه من عطفٍ أُرَجّيه
ما الحياةُ نافعة * لى على تأبّيه
النعيم يَشغَلُه * والجمال يُطغيه
فهو غيرُ مكترث * للذى ألاقيه
تائهٌ تُزَهِّده * فىّ رغبتى فيه

ومن قوله فى هوى له :

إن من لا أرى وليس يَرانى * نُصْب عينى مُمَثّل بالأمانى
بأبى مَنْ ضميره وضميرى * أبدا بالمَغيب ينتجيان
نحن شخصان إن نظرت ورو * حان اذا ما آختبرت يمترجان
فاذا ما هَممتُ بالأمر أو همّ * بشىء بدأتُه وبدانى
كان وَفقا ما كان منه ومنّى * فكأنى حَكَيتُه وحَكانى
خَطَرات الجفون منّا سواءٌ * وسواء تحرّكُ الأبدان

ومن قوله :

فَدَيتُ من قال لى على خَفَره * وغَضّ من جفنه على حَوَره
سَمّع بأشعارك المليحَ فما * يَنْفَعك شادٍ بها على وَتَره
حسبك بعضُ الذى أذعتَ ولا * حَسْبُ لِصَبٍّ لم يَقْضِ من وَطَره
وقلتُ يا مستعيرَ سالفة الـ * ـخِشْفِ وحُسْنِ الفُتور من نَظَره
لا تنكرنّ الحبيبَ من طَرَب * عاوَد فيك الصِّبا على كِبَره

ومن قوله :

سائل بطيفك عن لَيْلِى وعن سهرى * وعن تتابع أنفاسى وعن فِكَرى
لم يَخْلُ قلبىَ من ذكراك إذ نظرت * عينى اليك على صَحْوى ولا سكرى
سَقْيًا ليومٍ سرورى إذ تُنَازِعنى * صفوَ المُدامة بين الأُنس والخَفَر

وفضلُ كأسك يأتيني فأشربه * جَهْرا وتشربُ كأسى غير مُستتر
وكيف أشمله لثمى وألزمه * نحرى وترفعه كفّى الى بصرى
فليت مُدّة يومى إذ مضى سلَفا * كانت، ومدّة أيامى على قَدَر
حتى اذا ما انطوت عنّا بشاشته * صِرنا جميعا كذا جارَين فى الحُفَر

ومن قوله لهوًى كان له :

تَعَزَّ بيأس عن هواكَ فإننى * اذا انصرفت نفسى فهيهات عن ردّى
إذا خُنتُمُ بالغيب ودّى فمالكم * تُدِلّون إدلال المقيم على العهد
ولى منك بد فاجتنبنى مَذَمّما * وان خِلتَ أنى ليس لى منك مِنْ بدّ

لما ولى الواثق الخلافة أنشده حسين :

أُكاتم وجدى فما ينكتمْ * بمن لو شكوتُ اليه رَحِمْ
وإنى على حسن ظنّى به * لأحْذَر إن بُحتُ أن يحتشم
ولى عند لحظته رَوْعة * تحقّق ما ظنّه المتّهم
وقد علم الناس أنّى له * محبّ وأحسبه قد علِم
وإنى لُمُغضٍ على لوعة * من الشوق فى كبدى تَضطرم
عَشيّة ودّعت عن مقلة * سَفُوحٍ وزفرةِ قلبٍ سَدِم
فما كان عند النّوى مُسْعِد * سوى العين تمزج دمعًا بِدَم
سيذكر من بان أوطانَه * ويبكى المقيمين من لم يُقِم

كتب إلى الحسن بن رجاء فى يومِ شَك، وقد أمر الواثق بالإفطار، فقال :

هَزَزْتُك للصَّبوح وقد نهانى * أميرُ المؤمنين عن الصِّيام
وعندى من قِيان المِصر عَشْرٌ * تَطِيب بهنّ عاتِقة المدام
ومن أمثالهن اذا انتشينا * ترانا نجتنى ثَمَر الغرام
فكن أنتَ الجواب فليس شيء * أحبّ إلىّ من حَذْف الكلام

فوردت رقعته، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر ووجّه اليه بغلامٍ نظيف الوجه ومعه ثلاثة غِلمة أقران حِسان الوجه، ومعهم رُقعة كتبها كما تكتب المناشير، وختمها فى أسفلها وكتب فيها يقول :

سِرْ على آسم الله يا أشـ * ـكل من غصنٍ بلُجَيْنِ
فى ثلاثٍ من بَنى الرو * م إلى دار حسيـنِ
أَشخِص الكهل الى مو * لاك يا قُــرّة عينى
أَرِه العُنْف اذا آستعـ * ـصى وطالِبْــه بدَيْنِ
ودَعِ اللفـــظ وخاطبـ * ـه بغمز الحاجبَيْنِ
وآحذرِ الرَّجعة من وجـ * ـهك فى خُفَّىْ حُنَيْنِ

فمضى معهم .

ومن قوله لمن أعرض عنه :

تَتِيــه علينا أَنْ رُزِقْتَ ملاحةً * فمهلًا علينا بعضَ تيهك يا بَدْرُ
لقد طال ما كُنّا مِلاحا وربمـا * صـدَدنا وتِهنا ثم غيّرنا الدهرُ

وله فى هوى حُجِب عنه :

ظَنّ من لا كان ظنٌّ * ـا بحـبيبى فحَـمَاه
أَرْصَـد البابَ رقيبـ * ـن له فاكتنَفَاه
فإذا ما آشـــتاق قربى * ولقـائى منَــعَـاه
جعـــل اللهُ رقيبيـ * ـه من السُّوء فِــداه
والذى آقرح فى الشا * دن قلبى ولَوَاه
كلُّ مشتاق اليـه * فمن السُّــوء فِـداه
سِيَّما من حالت الأحـ * ـراس من دون مُنــاه

أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه، فلم يطق ذلك لكبر سنه ، فقال المتوكّل بعض من حضر عنده : هو يُطيق الذهاب الى القُرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك، فبلّغه ذلك، فدفع الى أحمد بن حَمْدون أبياتا قالها وسأله إيصالها، فأوصلها الى المتوكّل، وهى :

أما فى ثمانين وُفِّيتَها * عذيرٌ وإن أنا لم أعتَذِرْ
فكيف وقد جزتُها صاعدا * مع الصاعدين بتسع أُخَرْ
وقد رفع الله أقلامه * عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصرّ على فتنة * وألحد فى دينه أو كفر
وإنى لمن أُسَراء الإلـ * ـه فى الأرض نصْبَ صُروف القَدَر
فإن يَقْضِ لى عملا صالحا * أثاب وإن يقضِ شرًّا غفر
فلا تلحَ فى كبرٍ هدّنى * فلا ذنب لى أن بلغت الكبر
هو الشيب حلّ بعقب الشباب * فمن ذا يلوم اذا ما عذر
وإنى لَفى كَنَفٍ مُغْدِق * وعزٍّ بنصر أبى المُنْتَصِر
يُبارى الرياح بفضل السما * ح حتى تَبلّد أو تَحْسِر
له أكد الوحىُ ميراثه * ومن ذا يخالف وحى السُّوَر
وما للحسود وأشباهه * ومن كذّب الحقّ إلا الحجر

فلما أوصلها شيّعها بكلام يعذره وقال : لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها ؛ فقال المتوكل : صدقت، وأمر له بعشرين ألف درهم .

٥ ـ محمد بن عبد الملك الزيّات (١)

كان محمد شاعرا مُجيدا لا يُقاس به أحد من الكتّاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثـله في ذلك ، فإن إبراهيم مُقِلّ وصاحب قِصار ومقطّعات . وكان محمد شاعرا يُطيل فيُجيد ، ويأتى بالقِصار فيجيد ، وكان بليغا حسن اللفظ اذا تكلّم واذا كتب .

ولمـا تولى محمد الوزارة اشترط ألا يلبس القَبَاء ، وأن يلبس الدُّرَّاعة ويتقلّد عليها سيفا بحمائل ، فأُجِيب الى ذلك .

وكان يقول : الرحمةُ خَوَرٌ فى الطبيعة ، وضَعْف فى المُنّة ، ما رحِمتُ شيئا قط ؛ فكانوا يطعنون عليه فى دينه بهـذا القول ، فلما وُضِـع فى الثِّقل والحديد قال : ارحمونى ، فقالوا له : وهل رحمت شيئا قط فتُرحم ؟ هذه شهادتك على نفسك وحُكْمك عليها .

لمـا ماتت أم ابنه عمرو رثاها بقصيدة منها :

يقول لى الخِلّان لو زُرْتَ قبرَها * فقلتُ وهل غير الفؤاد لها قـبرُ
على حين لم أحدُث فأجهل قبرها * ولم أبلُغ السِّنّ التى معها الصـبر

ومن شعره قوله :

ما أعجب الشيءَ ترجـوه فتُحرَمَـه * قد كنتُ أحسب أنى قد ملأت يدى
مالى اذا غِبتُ لم أُذكَـر بصالحـة * وإنْ مَرِضتُ فطال السُّقمُ لم أُعَد

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة واشتُهِر بابن الزيات لأن جده (أبان) كان يجلب الزيت من مواضعه الى بغداد ، وكان أديبا شاعرا عالما بالنحو واللغة ، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل جيدة ، وكان فى أول أمره من جملة الكتّاب ثم صار وزيرا للمعتصم ولابنه الواثق . ولما تولى المتوكل قبض عليـه وأمر بادخاله فى تنور من حديد كان ابن الزيات أعدّه لتعذيب المصادرين وأرباب الدواوين المطالبين بالاموال وقيده بخمسة عشر رطلا من حديد ، ثم أمر باخراجه بعد أن مكث فيه أربعين يوما ، فوجدوه ميتا وذلك سنة ٢٣٣ هـ . وتجد ترجمته فى الأغانى (ج ٢٠ ص ٤٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ٧٨) .

ومن شعره قوله :

ألم تعجب لمكتئب حزين * خدين صبابةٍ وحليف صبرِ
يقول اذا سألت به بخير * وكيف يكون مهجورٌ بخير

وكان لمحمد بِرْذون أشهب لم يُرَ مثلُه فَرَاهة وحُسْنا، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم ووصف له فراهته، فبعث اليه المعتصم فأخذه منه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه :

كيف العزاءُ وقد مضى لسبيله * عنا فودّعنا الأحمّ الأشهبُ
دبَّ الوُشاةُ فأبعدوك وربما * بَعُد الفتى وهو الأحبّ الأقرب
لله يومَ نأيت عنّيَ ظاعنا * وسُلِبتُ قربك أىّ عِلْق أُسْلَب
نَفسٌ مفرَّقةٌ أقام فريقُها * ومضى لِطيّته فريقٌ يُجْنَب
فالآن اذ كمُلت أداتك كلّها * ودعا العيونَ اليك لونٌ مُعْجِب
وأُختير من سِرّ الحدائد خيرُها * لك خالصا ومن الحلىّ الأغرب
وغدوتَ طَنّان اللجام كأنما * فى كل عُضو منك صَنْج يضرِب
وكأن سَرْجك إذ علاك غمامةٌ * وكأنما تحت الغمامة كوكب
ورأى عَلَىَّ بك الصديقُ جَلالةً * وغدا العدوّ وصدرُه يتلهّب
أنساك لا زالت اذا منيتيه * نفسى ولا زالت يمينى تنكب
أضمرتُ منك اليأس حين رأيتنى * وقُوَى حبالى من قُواك تُقَضَّب
ورجعتُ حين رجعت منك بحسرة * لله ما فعل الأحمّ الأشهب

ولما وثب إبراهيم بن المهدىّ على الخلافة اقترض من مياسير التّجار مالا ، فأخذ من عبد الملك أبى محمد عشرة آلاف درهم وقال له : أنا أردّها اذا جاءنى مال، ولم يتمّ أمره، فآستخفى ثم ظهر ورضى عنه المأمون، فطالبه الناس بأموالهم، فقال : إنما أخذتها للسلمين وأردت قضاءها من فَيْئهم، والأمْرُ الآن الى غيرى ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة خاطب فيها المأمون ومضى الى إبراهيم بن المهدى فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطنى

المال الذى اقترضته من أبى لأوصلنّ هذه القصيدة الى المأمون، نخاف أن يقرأها المأمون فيتدبّر ما قاله، فيُوقع به، فقال له: خذ منى بعض المال ونجّم علىّ بعضه، ففعل؛ والقصيدة قوله:

ألم تر أنّ الشئَ للشئِ عِلّةٌ * تكون له كالنار تُقدَح بالزَّنْدِ
كذلك جرّبت الأمور وإنما * يدُلُّك ما قد كان قبلُ على البَعْدِ
وظَنّى بإبراهيم أنّ مكانه * سيَبْعث يوما مثلَ أيامه النُّكْدِ
رأيت حُسَينا حين صارَ محمدٌ * بغير أمانٍ فى يَدَيْهِ ولا عَقْدِ
فلو كان أمضى السيفَ فيه بضربة * فصيّره بالقاع مُنْعفِرَ الخَدِّ
اذا لم تكن للجُنْد فيه بقيةٌ * فقد كان ما بُلِّغْتُ من خبر الجندِ
هُمُ قتلوه بعد أن قتلوا له * ثلاثين ألفا من كُهول ومن مُرْدِ
وما نصروه عن يدٍ سَلفت له * ولا قتلوه يوم ذلك عن حِقدِ
ولكنّه الغَدْر الصُّراحُ وخِفّة الـ * ـحلوم وبُعد الرأى عن سُنَن القَصْدِ
فذلك يومٌ كان للناس عِبرةً * سيبقى بقاءَ الوَحْى فى الحجر الصَّلدِ
وما يوم إبراهيم إن طال عمرُه * بأبعد فى المكروه من يومه عندى
تذكّر أميرَ المؤمنين مَقامَه * وأيْمانه فى الهزل منه وفى الجِدِّ
أما والذى أمسيتَ عبدًا خليفةً * له شرّ إيمان الخليفة والعبدِ
اذا هزّ أعوادَ المنابر باسْتِه * تَغَنّى بليلَى أو بميّة أو هندِ
فوالله ما من تَوْبةٍ نَزعتْ به * اليك ولا مَيْلٍ اليك ولا وُدِّ
ولكنّ إخلاصَ الضمير مقرِّبٌ * إلى الله زُلْفى لا تَبِيدُ ولا تُكْدِى
أتاك بها كُرْها اليك بأنفه * على رَغْمه واستأثر الله بالحمدِ
فلا تَتْركَنْ للناس موضعَ شُبْهة * فإنك مجزِىٌّ بحَسْب الذى تُسْدى
فقد غلطوا للناس فى نَصْب مِثْله * ومن ليس للمنصور بابنٍ ولا المهدى

فكيف بمن قد بايع الناسُ والتقت * ببيعته الرُّكبانُ غَوْرا الى نَجدِ
ومن سَكَّ تسليمُ الخلافة سمعَه * يُنادَى به بين السِّماطين من بُعْدِ
وأيّ امرئٍ سُمّى بها قط نفسَه * ففارقها حتى يُغيَّب فى اللَّحْدِ
وتزعمُ هذِى النابِتِيّةُ أنه * إمام لها فيما تُسِرّ وما تُبدِى
يقولون سُنّى وأيّةُ سُنّة * تَنِمّ بصَعْل الرأس جَوْنِ القفا جَعْدِ
وقد جعلوا رُخْص الطعام بعهده * زعيما له باليُمْن والكوكب السَّعدِ
اذا ما رأوْا يوما غَلاءً رأيتَهم * يَحِنّون تَحْنانا الى ذلك العهدِ
وإقبالُه فى العيد يُوجِفُ حَوْلَه * وَجِيفَ الجيادِ واصطكاكُ القَنَا الجُرْدِ
ورَجّالةٌ يمشون بالبِيض قبْلَه * وقد تبِعوه بالقضيب وبالبُرْدِ
فإن قلتَ قد رام الخلافةَ قبْلَه * فلم يُؤتَ فيما كان حاول مِن جَدّ
فلم أَجْزِه إذ خيّبَ الله سَعْيه * على خطأ إذ كان منه على عَمْدِ
ولم أرْضَ بعد العفو حتى رفعتُه * وللعمّ أولى بالتغمّدِ والرِّفْدِ
فليس سَواءً خارجىٌّ رَمَى به * اليك سَفَاه الراى والرأى قد يُردى
تَعَادَتْ له من كل أوْب عصابة * متى يُورِدوا لا يُصدِروه عن الوِرْدِ
ومن هو فى بيتِ الخلافة تلْتَقى * به وبك الآباء فى ذِرْوة المجدِ
فمولاك مولاهُ وجُنْدُكَ جُنْدُه * وهل يَجْمع القَيْنُ الحُسَامين فى غِمْدِ
وقد رابَنى من أهل بيتك أننى * رأيتُ لهم وَجْدا به أيَّما وَجْدِ
يقولون لا تَبْعَد من ابنِ مُلِمّةٍ * صبورٍ على اللأواء ذى مِرّة جَلْدِ
فَدانا وهانت نفسُه دون مُلْكنا * عليه لدى الحال التى قلّ مَنْ يَفْدى
على حينِ أعطَى الناسُ صَفْقَ أكفّهم * علىَّ بن موسى بالوِلاية والعهْدِ
فما كان فينا من أبَى الضيمَ غيرُه * كريمٌ كَفَى ما فى القبول وفى الرَّدّ
وجرّد إبراهيم للموت نفسَه * وأبدى سلاحا فوق ذى مَيْعة نَهْدِ

وأبلى ومن يبلُغ من الأمر جَهْدَه * فليس بمذموم وإن كان لم يُجْـد
فهذى أمور قد يخاف ذوو النُّهى * مغبّتها والله يهـديك للرّشـد

وكانت الخلافة فى أيام الواثق تدور على إيتاخ وكاتبه سليمان بن وهب، وعلى أشناس وكاتبه أحمد بن الخصيب ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها الى الواثق على أنها لبعض أهل العسكر، وهى :

يابن الخلائف والأملاك إن نُسِبوا * حُزْت الخـلافةَ عن آبائك الأُوَل
أَجُرْت أم رقدت عيناك عن عَجَب * فيـه البريّة من خوف ومن وَهَل
وليتَ أربعـةً أمرَ العباد معـا * وكلُّهم حاطِبٌ فى حبل مُحْتبِـل
هـذا سليمانُ قد ملّكت راحتَه * مشارقَ الأرض من سَهْل ومن جبل
ملّكته السِّند فالشِّحْرَيْن من عَدَن * الى الجزيرة فالأطراف من مَلَل
خلافةٌ قد حواها وحده فَمَضَتْ * أحكامُه فى دماء القوم والنُّفَـل
وابن الخصيب الذى ملّكت راحته * خلافةَ الشأم والغازين والقفـل
فنيلُ مِصرَ فبحرُ الشأم قـد جَرَيَا * بما أراد من الاموال والحُلَل
كأنهـم فى الذى قَسّمتَ بينهـم * بَنُو الرشـيد زمانَ القَسْم للدُّوَل
حَوَى سليمانُ ما كان الأمينُ حوى * من الخلافة والتبليغ للأمـل
وأحمـدُ بن خصيب فى إمارته * كالقاسم بن الرشيد الجَامع السُّبل
أصبحتَ لا ناصحٌ يأتيك مسـتَترا * ولا علانيـةً خوفا من الحِيَـل
سل بيتَ مالك أين المـال تعرفه * وسل خَراجك عن أموالك الجُمَل
كم فى حُبُوسك ممن لا ذنوب لهم * أسْرَى التَّكذب فى الأقياد والكُبَل
سمِّيت باسم الرشيد المُرتضى فَبِـه * تُسْمى الأمور التى تُنْجِى من الزَّلل
عِشْ فيهم مثل ما عاشت يداه معا * على البرامك بالتهـديم للقُـلَل

فلما قرأ الواثق هـذا الشعر غاظَه ، ونكب سليمانَ بن وهب وأحمـد بن الخصيب، وأخذ منهما ومن أسبابهما ألفى ألف دينار فجعلها فى بيت المـال .

٦ – ابنُ البَوّاب[1]

لما أُتِى المأمونُ بشعر ابن البواب الذى يقول فيه :

أيخلُ فَرْدُ الحسنِ فَرْدُ صِفَاته * علىّ وقد أفردتُه بهوًى فَرْدِ

رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عباده * فملّكه واللهُ أعلم بالعبد

ألا إنما المأمونُ للناس عِصمة * مميِّزة بين الضّلالة والرّشد

فقال المأمون : أليس هو القائل :

أعَيْنَىّ جُودَا وابْكِيَا لِى محمدا * ولا تَذْخَرا دمعا عليه وأسْعِدا

فلا فرِح المأمون بالمُلك بعده * ولا زال فى الدنيا شريدا مُطَرّدا

واحدة بواحدة، ولم يَصِلْه بشىء . ولما سخِط عليه قال قصيدة يمدحه بها، ودسّ مَنْ غنّاه فى بعضها لما وجد منه نشاطا، فسأل: مَنْ قائلُها، فأُخبر به، فرضى عنه وردّه إلى رسمه من الخدمة، وهى :

هل للحبّ مُعِينُ * إذ شَطّ عنه القرينُ

فليس يبكى لشجو الـ * ـحزينِ إلّا الحزينُ

يا ظاعِنا غاب عنا * غداةَ بانَ القَطِينُ

أبْكَى العيونَ وكانت * به تَقَرّ العيونُ

يأيها المأمون الـ * ـمبارَكُ الميمونُ

لقد صَفَتْ بك دنيا * للمسلمين ودينُ

عليك نورُ جلال * ونور مُلْك مُبِينُ

(١) هو عبد الله بن عتاب من أهل بخارى، وجىء بجده وجماعة معه رهينة الى الحجاج بن يوسف، فنزلوا عنده بواسط، فأقطعهم سكة بها، فاختطوها ونزلوها طول أيام بنى أمية، ثم انقصعوا من الدولة العباسية الى الربيع يخدمونه، وكان عبدالله بن محمد هذا يخلف الفضل بن الربيع على حجبة الخلفاء، وكان صالح الشعر قليله وراوية لأخبار الخلفاء عالما بأمورهم .

القولُ منــك فَعال * والظن منك يقين
ما من يديــكَ شِمال * كلتا يديك يمين
كأنما أنت فى الجو * د والتقى هارون
مَنْ نال من كل فضل * ما ناله المأمون
تألف النـاس منـه * فضـلٌ وجود ولين
كالبـدر يبدو عليه * سكينةٌ وسكون
فالرزق من راحتيـه * مقسّم مضمون
وكل خَصْلة فضل * كانت فمنه تكون

ومما يغنَّى فيه قوله :

أَفِقْ أيها القلب المعذَّب كم تَصْبو؟ * فلا النَّأْى عن سَلْماك يُسلى ولا القربُ
أقول غَداةَ آستخبرتْ مِمَّ علَّتِى ؟ * من الحب كربٌ ليس يُشبهه كرب
اذا أبصرتْكِ العينُ من بُعْد غاية * فأدخلت شكا فيك أثبتَك القلب
ولو أن رَكْبا يَمَّمُوك لَقادهم * نسيمُك حتى يَستدلَّ بك الركب

أملق ابن البواب حين جَفَاه الخليفة وعَلَت سِنّه عن الخدمة، فرحَل الى أبى دُلَف القاسمِ بن عيسى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها الى بغداد، فما نفدت حتى مات؛ وهى قوله :

طرَقَتْك صائدةُ القلوب رَبابُ * ونَأَتْ فليس لها اليك مآب
وتصرّمتْ منها العهود وغُلّقتْ * من دون نَيل طِلابها الأبواب
فلأَصْدِفنّ عن الهوى وطِلابه * فالحبّ فيه بَلِيّة وعذاب
وأخصُّ بالمدح المهذّب سيّدا * نَفَحاتُه للمُجْتدِين رِغاب
والى أبى دُلَف رحلتُ مطيّتى * قد شفّها الإرقال[1] والإتعاب

(١) الارقال : ضرب من الخبب .

تعلو بنا قُلَلَ الجبال ودونها * مما هَوَتْ أهْوِيَةٌ وشِعَاب
فاذا حللتُ لدى الأمير بأرضه * نلتُ المنى وتقضّتِ الآرابُ
مَلِك تأثل عن أبيه وجده * مَجْدًا يقصر دونه الطُّلَّاب
وإذا وزنت قديمَ ذى حَسَبٍ به * خَضَعتْ لفضل قديمه الأحساب
قوم عَلَوا أملاكَ كلِّ قبيلة * فالناسُ كلُّهم له أذناب
ضَربتْ عليه المكرماتُ قِبابها * فعلا العمودُ وطالت الأطناب
عَقِم النساءُ بمثله وتعطّلت * من أن تُضَمَّن مثلَه الأصلابُ

٧ – الخُرَيْمي [1]

كان متّصلا بمحمد بن منصور بن زِيَاد كاتب البرامكة، وله فيه مدائحُ جِيَاد، ثم رثاه بعد موته، فقيل له : يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زِياد أحسن من مراثيك وأجود، فقال : كنّا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد .

وهو القائل فى عينيه :

أُصغِي الى قائدى ليُخبرنى * إذا ٱلتقينا عمّن يُحيّينى

أريد أن أعدِل السلام وأن * أَفْصِل بين الشريف والدّون

أسمع ما لا أرى فأَكْرَه أن * أُخْطِئ والسمعُ غير مأمون

لله عينى التى فُجعتُ بها * لو أن دهرا بها يُواتينى

لو كنتُ خُيّرت ما أخذتُ بها * تعميرَ نوح فى مُلك قارون

حتّى أخِلّائى أن يَعودونى * وأن يُعزّوا عنّى ويبكونى

وهو القائل :

اذا ما مات بعضُك فابكِ بعضًا * فإن البعض عن بعض قريبُ

يُمنّينى الطبيبُ شِفاء عينى * وهل غير الإله لها طبيب

---

(١) هو إسحاق بن حسان ويكنى أبا يعقوب، من السجم، وهو القائل :

إنى آمرؤ من سراة الصغد ألبسنى * عرق الأعاجم جلدا طيب الخبر

وكان مولى آبن خريم الذى يقال لأبيه : خريم الناعم . وهو خريم بن عمرو من بنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . وعمى أبو يعقوب الخريمى بعد ما أسنّ، وكان يقول فى ذلك شعرا، فمنه قوله :

فإن تك عينى خبا نورها * فكم قبلها نور عين خبا

فلم يعم قلبى ولكنما * أرى نور عينى إليه سرى

فأسرج فيه إلى نوره * سراجا من العلم يشفى العمى

وقال يذكر بغداد والفتنة التى كانت بها :

قالوا ولم يَلْعبِ الزمانُ ببغـ * ـداد وتَعْثُرْ بها عواثِرُها
إذ هى مثلُ العروس بادِيُها * مُهَوِّلٌ للفتى وحاضِرها
جَنّةُ دنيا ودارُ مَغْبِطَة * قَلّ من النائبات واتِرُها[1]
دَرّت خُلوفُ الدنيا لساكنها * وقَلّ معسورُها وعاسِرُها
وانفرجَتْ بالنعيم وانتجعت * فيها بلذّاتها حواضِرها
فالقومُ منها فى روضة أُنُف * أشرق غِبَّ القِطار زاهرها
من غَرّه العيش فى بُلَهْنِيَة * لو أن دنيا يدوم عامِرها
دارُ ملوك رَسَت قواعدها * فيها وقرّت بها منابِرها
أهلُ العلا والثّرى وأندِيَة الـ * ـفخر إذا عُدّدَتْ مفاخِرها
أفراخُ نُعْمَى فى إرث مملكة * شَدّ عُراها لها أكابرها
فلم يزل والزمانُ ذو غِيَر * يَقدَح فى مُلكها أصاغرها
حتى تَساقتْ كأسا مُثَمَّلة * من فتنة لا يُقال عاثِرها
وافترقتْ بعد أُلفة شِيَعًا * مقطوعةً بينَها أواصِرها
ياهلْ رأيتَ الأملاكَ ما صَنعت * إذ لم يَزَعْها بالنّصح زاجرها
أورد أملاكُنا نفوسَهمُ * هُوّةَ غَىٍّ أعيَت مصادِرها
ما ضَرّها لو وَفَتْ بموثقها * واستحكمتْ فى التُّقَى بصائرها
ولَمْ تُسافِك دماءَ شِيعتها * وتَبْتَعِل فتيةً تُكابِرها
واقْنَعتْها الدنيا التى جُمِعت * لها ورَغْبُ النفوس ضائرها
مازال حَوْضُ الأملاك [... ...] * مسجورها بالهوى وساجرُها
تُبْقِى فُضُولَ الدنيا مُكاثِرَةً * حتى أُبيحت كَرْها ذخائرها

---

(١) معيرها وداسرها .

تبيع ما جمّع الأُبُوّة للـ * أبناء لا أربحت متاجرها
يا هل رأيتَ الجنانَ زاهرةً * يروق عينَ البصير زاهرها
وهل رأيت القصورَ شارعة * تُكِنّ مثل الدُّمَى مقاصرها
وهل رأيتَ القُرى التي غَرَس الـ * أملاكُ مُخضرّةً دساكرُها
محفوفةً بالكروم والنخلِ والـ * رَيحان قد دَميت محاجرها (١)
فإنها أصبحت خلايا من الـ * إنسان قد دَميت محاجرها (١)
قفرًا خلاء تَعوِى الكلابُ بها * يُنكر منها الرسومَ دائرها
وأصبح البؤسُ ما يفارقها * إلفًا لها والسرورُ هاجرها
بزَنْدَوَرْد والياسِريّة والـ * شّطّين حيث انتهت معابرها
وبالرحى والخَيْزُرانية الـ * عُليا التى أشرفت قناطرها
وقَصْر عَبْدويه عِبرةٌ وهُدًى * لكل نفس زكت سرائرها
فأين حرّاسها وحارسُها * وأين مَجبورها وجابرها
وأين خِصيانُها وحشوتها * وأين سكّانها وعامرها
أين الجَرادية الصّقالبُ والـ * أحبُش تعدو هُدْلا مَشافرها
ينصدِع الجندُ عن مواكبها * تعدو بها سُرّبًا ضوامرها
بالسّند والهند والصّقالب والـ * نوبةِ شِيبت بها برابرها
طيرًا أبابيلَ أرسلَت عبثا * يقدُم سُودانَها أحامرها
أين الظباء الأبكار فى روضة الـ * مُلك تَهادى بها غرائرها
أين غَضاراتها ولذّتها * وأين مَحبورُها وحابرها
بالمسك والعنبر اليمانيّ والـ * يلنجوج مشبوبةٌ مجامرها
يرفُلن فى الخَزّ والمجاسد والـ * مَوْشيّ مخطومةً مَزامرها

---

(١) كذا فى الطبرى فى حوادث سنة ١٩٧ هـ ، طبع بلاق وطبع أوربا .

فأين رقاصها وزامرها * يجبن حيث انتهت حناجرها
تكاد أسماعهم تُسَلّ اذا * عارض عيدانها مزاهرها
أمست بجوف الحمار خالية * يسعّرها بالجحيم ساعرها
كأنما أصبحت بساحتهم * عادٌ ومستهم صراصرها
لا تعلم النفسُ ما يبايتها * من حادث الدهر أو يباكرها
تُضحي وتمسي دريّةً غرضاً * حيث استقرت بها شراشرها
لأسهم الدهر وهو يرشقها * مُخْطِئها مرة وباقرها
يابؤس بغداد دارِ مملكةٍ * دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها * لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبال * حرب التي أصبحت تُساورها
كم قد رأينا من المعاصي بها * كالعاهر السوء ... ...
حلّت ببغداد وهي آمنة * داهيةٌ لم تكن تُحاذرها
طالعها السوءُ من مطالعه * وأدركت أهلها جرائرها
رقّ بها الدين واستُخِفّ بذي ال * فضل وعزّ النُسّاك فاجرها
وخَطْم العبدُ أنفَ سيّده * بالرغم واستعبدتْ مخادرها
وصار ربّ الجيران فاسقُهم * وابتزّ أمرَ الدروب ذاعرها
من ير بغدادَ والجنودُ بها * قد رَبّقتْ حولها عساكرها
كلّ طَحُونٍ شهباء باسلةٍ * تُسقِط أحبالها زماجرها
تلقى بغيّ الردى أوانسها * يُرهقها للقاء طاهرها
والشيخُ يعدو حزماً كتائبُه * يُقدِم أعجازها يعاورها
ولزهير بالقول مأسدة * مرقومة صُلبةٌ مكاسرها
كتائبُ الموت تحت ألويةٍ * أبرَح منصورُها وناصرها

يعلم أن الأقدارَ واقعةٌ * وقعا على ما أحَبَّ قادرها
فتلك بغدادُ ما يَبِنّ من الـ * بِدّلَه فى دُورها عصافرها
محفوفةً بالردى منطّقةً * بالصقر محصورةً جبابرها
وبين شَطّ الفُرات منه الى * دِجلة حيث انتهت مَعابرها
كهادِى الشُّفراء نافِرُه * تركُض من حولها أشاقِرها
يُحرقها ذا وذاك يَهدِمها * ويَشتفى بالنِّهاب شاطرها
والكَرخُ أسواقُها معطّلة * يَستنّ عَيّارها وعائِرها
أخرجتِ الحربُ من سواقِطِها * آسَاد غِيل غُلْبا تُساورها
من البَوارى تِرَاسُها ومن الـ * ـخُوص اذا استلأمتْ مَغافرها
تغدو الى الحربِ فى جواشِنها الـ * ـصّوف اذا ما عَدَت أساوِرها
كتائبُ الهِرْش تحت رايته * سَاعَد طَرّارَها مُقامِرها
لا الرّزق تبغى ولا العطاءَ ولا * يحشُرها للقاء حاشرها
فى كل دَرْب وكل ناحية * خَطّارة يَستهِلّ خاطرها
بمثل هام الرجال من فِلَق الـ * ـصخر يَزود المقلاعَ بائرها
كأنما فوق هامها عِدَف * من القطا الكُدْر هاج نافِرها
والقومُ من تحتها لهم زَجَل * وهى تَرامَى بها خواطرها
بل هل رأيتَ السيوفَ مصْلتة * أشهَرَها فى الأسواق شاهرها
والخيلَ تستَنّ فى أزِقّتها * بالتُّرك مسنونة خناجرها
والنّفط والنار فى طرائقها * وهابِيًا للدخان عامرها
والنّهب تعدو به الرجالُ وقد * أبدت خلاخيلَها حَرائرها
مُعْصَوْصِبات وسط الأزِقّة قد * أبرزها للعيون ساتِرها
كلُّ رقُود الضّحى مُخَبّأةٌ * لم تَبْدُ فى أهلها محاجرها

بَيْضَـة خِدْر مكنونة بَرَزَتْ * للنـاس منشـورةً غدائرها
تعـثُر فى ثوبهـا وتُعْـجِلها * كَبَّةُ خيـل زِيعت حوافرها
تسأل أين الطّريق والهـةً * والنـار من خلفها تبادرها
لم تجتـل الشمسُ حسنَ بهجتها * حتى آجتلتها حَرْب تُباشرها
ياهْـل رأيت الثـكلى مُوَلوِلةً * فى الطُّرق تسعى والجَهْد باهرها
فى إثْر نعش عليـه واحدها * فى صـدره طعنة يُساوِرها
فرغاء تُلْقِى الثّـار من يدها (١) * يَهـزّها بالسّنان شاجرها
تنظُر فى وجهـه وتهتِف بالـ * ـثكل وعزّ الدمـوع خاطرها
غَرْغر بالنّفس ثم أسـلَمَها * مَطـلولةً لا يُخاف ثائرها
وقد رأيتُ الفِتيان فى عَرْصَة الـ * ـمَعْرك معفـورةً مَناخرها
كلّ فـتى منَـاعٌ حقيقتَـه * تَشـقَى به فى الوغى مساعرها
باتت عليه الكلاب تنهشُـه * مخضوبةً من دمٍ أظافرها
أما رأيتَ الخيـولَ جائلةً * بالقـوم منكوبةً دوائرها
تعثُر بالأوجُهِ الحسان من الـ * ـقتْـلَى وغُلّتْ دماً أشاعرها
يَطأْنَ أكبادَ فتيـةٍ نُجُـدٍ * يَفْـلِق هاماتِهـم حوافرها
أما رأيتَ النّسـاء تحت المجا * نيق تَعادَى شُعثاً ضفـائرها
عقـائلَ القـوم والعجائزَ والـ * ـعُنّس لم تُختـبر مَعاصرها
يحملن قوتا من الطّحين على الـ * أكتاف معصوبةً مَعاجرها
وذات عيش ضَـنْك ومُقْعِسة * تَشـدَخُها صَخْـرةٌ تُعاوِرها
تسأل عن أهلهـا وقد سُلِبت * وآبتُزّ عن رأسها غَفـائرها
يا ليت ما والدهر ذو دُوَلٍ * تُرجى وأخرى تُخشى بوادرها

(١) كذا فى هامش النسخة الأوربية من الطبرى . وفى نسخة بولاق وأوربا (فى صلبها) :
* فرغاء ينق الشنار مريدها * وهى رواية ظاهر عليها التحريف وفساد المعنى .

هل ترجعن أرضنا كما عَنِيَت * وقد تناهت بنا مصايرها
مَنْ مُبلغٌ ذا الرياستين رسا * لاتٍ تأتَّى للنصح شاعرها
بأن خير الوُلاة قد علم النـ * ـاسُ اذا عُدِّدت مآثرها
خليفةُ الله من بريته الـ * ـمأمون سائسها وجابرها
سمتْ اليه آمال أمته * منقادةً برّها وفاجرها
شاموا حيا العدل من مخايله * وأصحرت بالتقى بصائرها
وأحمدوا منك سيرةً جلَتِ الـ * ـشك وأخرى صحّت معاذرها
واستجمعتْ طاعة برفقك للـ * ـمأمون نجديها وغائرها
وأنت سمع فى العالمين له * ومقلةٌ ما يكلّ ناظرها
فاشكر لذى العرش فضلَ نعمته * أوجبَ فضلَ المزيد شاكرها
واحذر فداء لك الرعيةُ والـ * أجنادُ مأمورُها وآمرها
لا تردَنْ غمرةً بنفسك لا * يصدر عنها بالرأى صادرها
عليك ضحضاحها فلا تلج الـ * ـغمر ملتجةً زواخرها
والقصدَ إن الطريق ذو شُعَبٍ * أشأمُها وعثُها وجائرها
أصبحتَ فى أمة أوائلُها * قد فارقت هدْيها أواخرها
وأنت سرسورُها وسائسها * فهل على الحق أنت قاسرها
أدِّبْ رجالا رأيتَ سيرتهم * خالف حكمَ الكتاب سائرها
وامدُد الى الناس كف مرحمة * تُسَدّ منهم بها مفاقرها
أمكنك العدلُ إذ هممتَ به * ووافقت مدَّه مقادرها
وأبصر الناسُ قصدَ وجههمُ * وملكت أمةً أخايرها
تُشْرع أعناقنا اليك اذا الـ * ـسادات يوما جمّت عشائرها
كم عندنا من نصيحةٍ لك فى الـ * ـله وقُربى عزّت زوافرها

وحرمـــةٍ قربتْ أواصـــرُها * منك وأخرى هل أنتَ ذاكرها

سَـعْىُ رجالٍ فى العلم مطلبُهم * رائحُـــها باكـــر وباكرها

دونك غـــراءَ كالوَذيلة لا * تفقـــد فى بلدة ســـوائرها

لا طَمَعًا قلتُهـــا ولا بَطَـــرا * لكل نفس نفسٌ تُؤَامرهـــا

ســـيّرها الله بالنصـــيحة والـ * ـخَشــــية فاستدمجتْ مرائرها

جاءتك تحكي لك الأمـــور كما * ينشر بَزّ التّـــجار تاشـــرها

حمّلتُهـــا صاحِبا أخا ثِقَـــةٍ * يظـــلّ عُجْبًـــا بهـــا يحاضرها

ومن جيّد شعره قوله :

النـــاسُ أخلاقُهم شـــتّى وإن جُبِلوا * على تَشَـــابُه أرواحٍ وأجســـاد

للخـــير والشرّ أهلٌ وُكِّلوا بهمـــا * كلٌّ له من دواعِى نفســـه هاد

منهـــم خليلُ صَـــفاء ذو محافظـــةٍ * أرسى الوفاءُ أواخِيـــه بأوتاد

ومُشْـــعَر الغـــدر مَحْنِىٌّ أضـــالعُه * على سريرة غُمْـــر غِلّهـــا باد

مُشَاكِسٌ خَدِع جَـــمّ غوائلُهُ * يُبْدى الصفاءَ ويخفى ضَربة الهـــادى

يأتيـــك بالبغى فى أهل الصـــفاء ولا * ينـــفَكّ يســـعى بإصلاحٍ لإفساد

ومن جيّد شعر الحريمى قوله :

أضاحِك ضـــيفى قبـــل إنزال رَحْله * ويُخصب عنـــدى والمحـــل جَديب

وما الخصب للأضياف أن يكثُر القِرى * ولكنما وجه الكـــريم خَصِيب

ومن جيّد شعره قوله :

زاد معـــروفَك عنـــدى عِظَمًا * أنه عنـــدك محقـــورٌ صـــغير

وتناســـيه كأن لم تأته * وهو عنـــد الناس مشهور كبير

وهو القائل :

وإن أشدّ الناس فى الحَشر حَسْرَةً * لَمُورِثُ مالٍ غيرَه وهو كاسِـــبه

كفى سَفَهًا بالكهل أن يتبعَ الصِّبا * وأن يأتِىَ الأمرَ الذى هو عائبـــه

ويُستجاد له قوله :

ودون النّـدى فى كل قلب ثَنيّـة * لهـا مَصْعَدٌ وعر ومُنْحَدر سَهْل

وَوَدّ الفتى فى كل نيـل يُنيله * اذا ما ٱنقضى لو أن نائله جَزْل

وأعلم علمـا ليس بالظن أنه * لكل أناس من ضَرائبهم شَكْل

وأنّ أخِلاءَ الزمان غَناؤهـم * قليل اذا الإنسانُ زَلّت به النّعل

تزوّدْ من الدنيـا متاعاً لغيرها * فقـد شمّرتْ حَذّاء وٱنصرم الحبل

وهل أنتَ إلا هامَةُ اليومِ أو غَدِ * لكل أناس من طوارقها ٱلثّكل

وفى هذا الشعر يقول :

أبا لصُّغْد بأسٌ إذ تعيّرنى جُمْـلُ * سَفاهًا ومن أخلاق جارَتِىَ ٱلجهل

فإن تفخرى يا جمـل أو تتجمّلى * فلا فخرَ إلا فوقه الدّين وٱلعقـل

أرى الناس شَرْعا فى الحياة ولا يُرى * لقـبر على قـبر عَلاء ولا فَضْـل

وما ضَرّنى أن لم تَلِدْنى يُحابِر * ولم تَشْـتمل جَرْمٌ علىّ ولا عُكْل

وهو القائل :

ما أحسنَ ٱلغَـيْرَةَ فى حينِهـا * وأقبـحَ ٱلغيرة فى كل حِين

من لم يزل متّهِما عِرْسَـه * مُنَاصِبا فيهـا لريْب ٱلظنون

أوشـك أن يُغْرِيَهـا بالذى * يَخاف أن يُبرزها للعيون

حسـبك من تحصينها وَضْعُها * منك إلى عِرضٍ صحيح ودين

لا تطّلع منـك على رِيبـةٍ * فيتبع المقرونُ حبـل القرين

٨ - عبد الله بن طاهر[1]

كان بمحلّ من علوّ المنزلة وعِظَم القَدْر ولُطْف مكان من الخلفاء، يُستغنَى به عن التقريظ له والدّلالة عليه ، وأمرُه فى ذلك مشهورٌ عند الخاصّة والعامّة، وله فى الأدب مع ذلك المحلّ الذى لا يُدْفع، وفى السماحة والشجاعة ما لا يقاربُهُ فيه أحدٌ .

وكان أديبا ظريفا جيّد الغناء، نسب اليه صاحب الأغانى أصواتا كثيرة أحسن فيها ونقلها أهلُ الصنعة عنه، وله شعر رائع ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله :

نحن قومٌ تُلينُنا الحَدَقُ النُّجْـ * ـلُ على أنّنا نُلين الحديدا
طَوْعُ أيدى الظّباء تقتادنا العيـ * ـن ونقتاد بالطّعان الأُسودا
نَملِك الصّيدَ ثم تملكنا البيـ * ـضُ المصوناتُ أعيُنًا وخدودا
تَتّقى سخطنا الأسود ونخشى * سَخَط الخِشْف حين يُبدى الصدودا
فترانا يوم الكريهة أحرا * را وفى السِّلم للغوانى عبيدا

أعطاه المأمونُ مالَ مصر لسَنَة، خَراجَها وضِياعَها ، فوهبه كلّه وفرّقه فى الناس ورجع صِفْرا من ذلك ، فغاظَ المأمونَ فعلُه ، فدخل اليه يوم مَقْدَمه ، فأنشده أبياتا قالها فى هذا المعنى ، وهى :

---

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق كان سيدا نبيلا عالى الهمة شهما ، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه ، حسن الالتفات اليه لذاته ورعاية لحق والده وما أسلفه من الطاعة فى خدمته ، وكان واليا على الدينور فلما خرج بابك الخرمى على خراسان وأوقع الخوارج بأهل قرية الحمراء من أعمال نيسابور وأكثروا فيها الفساد واتصل الخبر بالمأمون بعث الى عبد الله وهو بالدينور يأمره بالخروج الى خراسان، فخرج اليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور فى رجب سنة ٢١٥ هـ . وكان المطر قد انقطع عنها تلك السنة ، فلما دخلها مطرت مطرا كثيرا ، فقام اليه رجل بزاز من حانوته وأنشده :

قد قحط الناس فى زمانهم * حتى اذا جئت جئت بالدرر
غيثان فى ساعة لنا قدما * فمرحبا بالأمير والمطر

تولى الشام والعراق ومصر . وتوفى سنة ٢٣٠ هـ . وتجد ترجمته فى ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٩) والأغانى (ج ١١ ص ١١) .

نَفسى فداؤكَ والأعناقُ خاضعةٌ * للنائبات أبيًّا غيرَ مهتضم
اليك أقبلتُ من أرض أقمتُ بها * حَولين بعدك فى شَوقٍ وفى ألم
أقفو مساعيك اللائى خُصِصتَ بها * حَذوَ الشِّراك على مِثل من الأدم
فكان فضلِى فيها أننى تَبَعٌ * لِما سَننتَ من الإنعام والنِّعم
ولو وُكِلتُ الى نفسى غَنيت بها * لكن بدأتَ فلم أعجزْ ولم ألَم

فضحك المأمون وقال : والله ما نَفِستُ عليك مكرُمة تلتها ، ولا أُحدُوثةً حَسُنَ عندك ذكرها ، ولكن هذا شىء اذا عَوَّدته نفسَك افتقرت ، ولم تقدر على لَمِّ شَعثك وإصلاح حالك . وزال ما كان فى نفسه .

لمّا فتح عبدُ الله مصرَ سَوَّغه المأمونُ خَراجها ، فصَعِدَ المِنبرَ فلم يزل حتى أجازَ بها كلّها ثلاثة آلاف ألفِ دينار أو نحوها ، فأتاه مُعَلَّى الطائى وقد أعلموه ما صنع بالناس فى الجوائز وكان عليه واجدا ، فوقف بين يديه تحت المنبر فقال : أصلح الله الأمير ، أنا معلّى الطائى وقد بلغ منّى ما كان منك من جفاء وغِلَظ ، فلا يَغلُظَنّ علىّ قلبُك ، ولا يستخفنّك الذى بلغك ، أنا الذى أقول :

يا أعظمَ الناسِ عفوًا عند مَقدِرَةٍ * وأظلمَ الناس عندَ الجود للمال
لو أصبحَ النيلُ يجرِى ماؤه ذهبًا * لَمَا أشرتَ الى خَزنٍ بمِثقال
تُغلِى بما فيه رِقّ الحمدِ تملكه * وليس شىءٌ أعاضَ الحمدَ بالغالى
تَفُكّ باليُسرِ كفَّ العُسرِ من زَمَنٍ * اذا ٱستطالَ على قومٍ بإقلال
لم تخلُ كفُّك من جُودٍ لمُختبِطٍ * ومُرهَفٍ قاتلٍ فى رأسِ قتّال
وما بَثَثتَ رَعِيلَ الخيلِ فى بلَدٍ * إلا عَصَفنَ بأرزاقٍ وآجال
إن كنتُ منك على بابٍ مَنَنتَ به * فإنّ شكرَكَ من قلبى على بال
ما زلتُ مُقتَضَبًا لولا مجاهرةٌ * من ألسُنٍ خُضنَ فى صَدرِى بأقوالِ

فضحك عبد الله وسُرَّ بما كان منه وقال : يا أبا السَّمْراء، أقرِضْني عشرةَ آلافِ دينار فما أمسيتُ أملكها، فأقرضَه فدفعها اليه .

كان موسى بن خاقان مع عبد الله بن طاهر بمصر، وكان نديمَه وجليسَه، وكان له مُؤْثِرا مقدِّما، فأصاب منه معروفا كثيرا وأجازه بجوائز سنيّة هناك وقبل ذلك، ثم إنه وَجَد عليه فى بعض الأمر بجفاه وظهر له منه بعض ما لم يحبّه، فرجع حينئذ الى بغداد وقال :

إنْ كان عبـدُ الله خلّانا * لا مُبْدئا عُرْفا وإحسانا

فحَسْبُنا اللهُ رَضِينـا به * ثم بعبـد الله مَـولانا

يعنى به المأمونَ، وغنّت فيه جاريته وسمعه المأمون، فاستحسنه ووصله وإياها، فبلغ ذلك عبدَ الله بن طاهر، فغاظه ذلك وقال : أَجَلْ! صنعنا المعروفَ الى غير أهله فضاع .

ولعبد الله ألحانٌ صاغها، فمنها ومن مختارها وصـدورها ومقدّمها لحنه فى شعر أخت عاصية فإنه صوتٌ نادرٌ جيّدٌ صحيحُ العمل مُزْدَوج النغم، بينَ لِينٍ وشِدّةٍ على رسم الحُذّاق من القُدَماء، وهو :

هلّا سَـقَيْتُمْ بنى سَهْم أَسِـيرَكُمُ * نَفْسى فداؤك من ذى غُلّةٍ صادى

الطاعنُ الطعنةَ النجلاءَ يتبعها * مُضَرَّجٌ بعـد ما جادتْ بإزْباد

ومن غنائه أيضا :

راحَ صَحْبي وعاودَ القلبَ داءُ * من حبيب طِلَابُهُ لى عَنـاءُ

حَسَنُ الرأى والمواعيد لا يُلْـ * ـفى لشىء مما يقول وفاءُ

مَنْ تَعَزّى عمن يحب فإنى * ليس لى ما حييتُ عنه عَزاءُ

ما قيل فى هجاء الأمين ورثائه

قيل فى هجائه :

لم نُبَكِّيك لماذا للطَّرَبْ * يا أبا موسى وتَرْويج اللَّعبْ
ولِتَرْك الخمس فى أوقاتها * حَرَصًا منها على ماء العنبْ
وشَنِيف أنا لا أبكى له * وعلى كَوْثَر لا أخشى العَطَب
لم تكن تعرف ما حدّ الرضا * لا ولا تعرف ما حَدّ الغضب
لم تكن تَصلُح للملك ولم * تُعطِك الطاعةَ بالملك العرب
أيها الباكى عليه لا بَكَتْ * عين من أبكاك إلّا للعَجَب
لم نبكّيك لما عَرّضتنا * للمَجانيق وطَوْرا للسَّلَب
ولقومٍ صيّرونا أعْبُدًا * لهم يبدو على الرأس الذّنَب
فى عذابٍ وحِصارٍ مُجْهِدٍ * سَدّد الطُّرقَ فلا وَجْهَ طلب
زعموا أنك حىٌّ حاشر * كلّ من قد قال هذا قد كَذَب
ليت من قد قاله فى وَحْدَة * من جميع ذاهبٍ حيث ذهب
أوجب اللهُ علينا قتلَه * فاذا ما أوجب الأمرَ وجَب
كان والله علينا فِتنةً * غَضِبَ الله عليه وكَتَب

وقال عبد الرحمن بن أبى الهُداهد يرثيه :

يا غَرْبُ جُودى قد بُتّ من وذَمِه * فقد فقدنا الغزير من دِيَمِه
ألوت بدنياك كفُّ نائبة * وصرتَ مُغْضًى لنا على نِقَمه
أصبح للموت عندنا عَلَم * يضحك سِنّ المنون من عَلَمه
ما استنزلَتْ دَرّةُ المنون على * أكرم من حَلّ فى ثرى رَحِمه
خليفةُ الله فى بريّته * تقصُر أيدى الملوك عن شِيَمِه

يفترّ عن وجهه سَنا قمر * ينشق عن نوره دُجَى ظُلَمه
زُلزلت الأرضُ من جوانبها * اذ أُولغَ السيفُ من نجيع دَمه
مَنْ سكتت نفسُه لمَصْرعهِ * من عُمُمِ الناس أو ذَوى رَحِمه
رأيتُه مثلَ ما رآه به * حتى تذوّق الأمرَّ من سَقَمه
كم قد رأينا عزيزَ مملكةٍ * يُنقل عن أهله وعن خَدَمه
يا مَلِكا ليس بعده مَلِك * لخاتم الأنبياء فى أُمَمه
جادَ وحىّ الذى أقمتَ به * سَحّ غزير الوكيف من دِيَمه
لو أحجم الموتُ عن أخى ثِقةٍ * أشوىَ فى العزّ مُستوى قدَمِه
أو ملكٍ لا ترام سطوتُه * إلا مَرامَ الشّتيم فى أجَمه
خلّدك العزّ ما سَرَى سَدَف * أو قام طِفل العشىّ فى قدَمه
أصبح مُلكٌ اذا آتزرتَ به * يقرع سنّ الشّقاة من ندَمه
أثّر ذُو العرش فى عِداك كما * أثّر فى عاده وفى إرَمه
لا يُبعد الله صَيْورةً تَليت * لخير داعٍ دعاه فى حَرَمه
ما كنتُ إلا كحُلم ذى حُلُم * أُولِجَ بابَ السرور فى حُلُمه
حتى اذا أطلقتْه رَقْدتُه * عاد الى ما آعتراه من عَدَمه

وقال أيضا يرثيه :

أقول وقد دنوت من الفِرار * سُقيت الغيثَ ياقصر القَرارِ
رمتك يدُ الزمان بسهم عَين * فصرتَ مُلوّحا بدُخان نار
أبِن لى عن جميعك أين حَلّوا * وأين مزارهم بعد المَزار
وأين محمدٌ وآبناه مالى * أرى أطلالهم سُود الدّيار
كأن لم يُؤنَسوا بأنيس مُلْك * يطول على الملوك بخير جار
إمامٌ كان فى الحَدَثان عونا * لنا والغيثُ يمنع بالقِطار

لقـد ترك الزمانُ بنى أبيه * وقـد غمرتهم سُود البحار
أضاعوا شمسَهم بجَرَتْ بنحس * فصاروا فى الظّلام بلا نهار
وأجلَوْا عنهــم قمرا منيرا * وداستْهُمْ خيولُ بنى الشّرار
ولو كانوا لهـم كفؤًا ومِثلا * اذا ما تُوِّجوا تيجانَ عار
ألا بَانَ الأمامُ وَوَارِثاه * لقد ضَرِم الحشى منّا بنار
وقالوا الخُلْد يبع فقلتُ ذُلًّا * يصير ببائعيه الى صَغار
كذاك الملك يتْبع أوّليه * إذا قُطع القَرار من القرار

وقال مُقَدّس بن صَيْفِىّ يرثيه :

خليلى ما أتتْك به الخطوبُ * فقد أعطاك طاعتَه النّحيب
تدلّت من شماريخ المنايا * مَنَايا ما تقوم لها القلوبُ
خِلالَ مقابر البستان قبر * يُجاور قبرَه أسَدٌ غريب
لقد عظُمت مُصيبته على من * له فى كل مَكرُمة نصيب
على أمثاله العَبَراتُ تُذرى * وتُهْتَك فى مآتِمِه الجُيوب
وما آدّخرتْ زُبيدة عنه دمعا * تُخَصّ به النسيبةُ والنّسيب
دعُوا موسى آبنه لبُكاء دَهر * على موسى آبنه دخَل الحَزِيب
رأيتُ مَشاهدَ الخلفاء منه * خَلاءً ما بساحتها مُجيب
ليَهْنِك أننى كهلٌ عليه * أذوبُ وفى الحشى كَبِد تذوب
أُصيبَ به البعيد فخرّ حزنا * وعاين يومَه فيه المُريب
أنادى من بطون الأرض شخصًا * يحرّكه النّداء فما يُجيب
لئن نَعَتِ الحروبُ اليه نفسًا * لقد نُعِيَت بمصرعه الحروب

وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخيرِ أمامٍ قام من خيرِ عُنْصُر * وأفضلِ سامٍ فوق أعواد منبرِ
لوارثِ علم الأولين وفهمهم * وللملك المأمونِ من أم جعفرِ
كتبتُ وعيني مُسْتهِلٌّ دموعُها * اليك ابن عمى من جفونى ومَحْجَرى
وقد مسَّنى ضُرٌّ وذلٌّ كآبةٍ * وأرَّق عينى يا ابن عمى تفكُّرى
وهِمتُ لما لاقيتُ بعد مصابه * فأمرى عظيم مُنْكَرٌ جدّ مُنْكَر
سأشكو الذى لاقيتُه بعد فقده * اليك شَكاةَ المستهامِ المُقَهَّر
وأرجو لما قد مَرّ بى مذ فقدتُه * فأنت لبَثِّى خير ربٍّ مُغَيِّر
أتى طاهرٌ لاطهّر اللهُ طاهرا * فما طاهرٌ فيما أتى بمُطَهَّر
فأخرجنى مكشوفةَ الوجه حاسرا * وأنْهَبَ أموالى وأحْرَق آدُرِى
يَعِزّ على هارون ما قد لقِيتُه * وما مَرّ بى من ناقص الخَلْق أعور
فان كان ما أسدى بأمرٍ أمرتَه * صبَرتُ لأمرٍ من قدير مُقَدَّر
تذكَّر أميرَ المؤمنين قرابتى * فديتُك من ذى حرمة مُتَذَكِّر

وقال أيضا يرثيه :

سبحان ربّك ربِّ العِزّة الصَّمَد * ماذا أُصِبْنا به فى صُبْحة الأحَد
وما أُصيب به الإسلامُ قاطبةً * من التَّضعضُع فى رُكْنَيه والأَوَد
مَنْ لم يُصَب بأمير المؤمنين ولم * يُصبح بمَهْلَكة والهمُّ فى صُعُد
فقد أصِبتُ به حتى تبيّن فى * عقلى ودينى ودنياى وفى جسدى
يا ليلةً يَشتكى الإسلامُ مُدّتَها * والعالمون جميعا آخرَ الأَبَد
غَدرتِ بالملك الميمونِ طائرُه * وبالإمام وبالضِّرغامة الأَسَد
سارتْ اليه المنايا وهى تُرهِبه * فواجَهَتْه بأوغادٍ ذوى عَدَد
بشُورَجِينَ وأغتامٍ يقودهم * قُرَيْشُ بالبِيض فى قُمْص من الزَّرَد

فصادفوه وحيدًا لا مُعين له * عليهم غائبَ الأنصار بالمَدد

يجزعوه المنايا غيرَ مُمتنِع * فردًا فيالك من مُستبسِلٍ فَرِد

يلقى الوجوهَ بوجه غير مُبتذَل * أبهى وأنقى من القُوهيّة الجُدُد

واحمرّتا وقريشٌ قد أحاط به * والسيفُ مُرتعِد فى كفّ مُرتعِد

فما تحرّك بل ما زال منتصبا * منكّسَ الرأس لم يُبدئْ ولم يُعِد

حتى اذا السيفُ وافى وسْطَ مَفرِقه * أذرَته عنه يداه فعلَ مُتّئِد

وقام فاعتلقتْ كفّاه لَبّته * كضيغمٍ شَرِسٍ مستبسِلٍ لَبِد

فاجترّه ثم أهوى فاستقلّ به * للأرض من كفّ ليث مُحْرَج حَرِد

فكاد يقتله لو لم يُكاثِره * وقام منفَلِتا منه ولم يَكَد

هذا حديثُ أمير المؤمنين وما * نقصتُ من أمره حرفا ولم أزِد

لا زلت أندُبه حتى المماتِ وإنْ * أخنى عليه الذى أخْنَى على لُبَد

وذكر عمر بن شَبّة أن محمد بن أحمد الهاشمى حدّثه أن لُبَابة ابنة علىّ بن المهدى قالت البيتين الآتيين وقيل أنهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مُمْلَكَة بمحمد :

أبكيك لا للنّعيم والأُنْس * بل للمعالى والرّمح والتُّرْس

أبكى على هالكٍ فُجِعتُ به * أرمَلَنى قبل ليلة العُرس

هجاء يحيى[(١)] بن أكثم

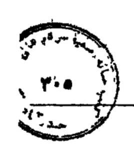
وعدناك فى المجلد الأوّل أن نذكر مثلا من الهجاء قاله بعض الشعراء فى يحيى بن أكثم، وها هو ذا :

أرّقه بَرْحُ الهوى وسَدِمُهْ * ومَلّه الحبُّ فبات يألَمُهْ
طورا يُعَانيه وطورا يَشْتُمه * مثل الحريق فى الحشا يُضَرِّمُه
ففاضتِ العينُ بدمع تَسجُمُه * نمت عليه كلّ شوق يكتُمُه
وباح بالحب الذى يُجَمْجِمُه * وبات والقلبُ يُسامِي هَمَّه
من لمحبٍ قد تراه يرحمُه * أصبح بالبأساء عارٍ أنعمه
طال تَصابيه وطال سَقَمه * وبَلِي الجسم ورَقّت أعظُمُه
يَشهدنى الله على من يَظلمُه * يمنعه طعم الكرى ويحرِمُه
واهًا له يصرِم من لا يصرِمُه * أصبح هذا الدين رثًّا رِمَّمُه
عطّله الجور وطال قِدَمُه * تحت من الجوْر عليه دِيَمُه
فَبادَ مغنى رَبْعه وأرسُمُه * إلا بقايا قومه وحِمَمُه
أوطَنَه الجور فأضحى مَعْلَمُه * يَرود فيه شاؤه ونَعَمُه
من يَشْهَد الجور فنحن نَعلَمُه * أنوك قاضٍ فى البلاد نعلمُه
يقول حقا لا تَعيث ترحمُه * مذ وَلِىَ الحكمَ أُبيح حَرَمُه
وانتُهِكتْ من القضاء حُرَمُه * واضطربت أركانُه ودِعَمُه
والله يَبْنيه ونحن نهدِمُه * يا ليت يحيى لم يَلِده أكثَمُه
ولم تَطأْ أرضَ العراق قَدَمُه * ملعونةٌ أخلاقه وشيمُه[(٢)]

(١) أنظر ما كتبناه عن يحيى بن أكثم فى المجلد الأوّل (ص ٤٤٠) .

(٢) حذفنا بعد هذا البيت أربعة أبيات رأينا أنها تنافى الآداب العامة .

والله والله لقد حلّ دمُه * لو أن للدّين عماداً يدعمُه
يعدل عنه الميل أو يقوّمُه * لكان قد رنّ عليه مأتمُه
أرجو ويقضي اللهُ لا يُسَلّمه * من وجهه هذا ولكن يقصمُه
* بالسيف اذ حلت عليه نقمه *



وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سَلْب ونهب وتحريق وتخريب وفتنة شعواء وقتل ودماء، فانا نترك الكلمة فى ذلك لشعراء ذلك العصر.

قال الأعمى يصف دمار الحروب :

تقطّعتِ الأرحامُ بين العشائر * وأسْلَمهم أهلُ التقى والبصائر

فذاك انتقامُ الله من خَلْقه بهم * لما اجترموه من ركوبِ الكبائر

فلا نحن أظهرنا من الذنب توبةً * ولا نحن أصلحنا فسادَ السرائر

ولم نستمع من واعظٍ ومذكِّر * فَينجَعَ فينا وعظُ ناهٍ وآمرِ

فابكِ على الإسلام لما تقطّعت * عراه وربّى ضرّه كلّ كافر

فاصبح بعضُ الناس يقتل بعضَهم * فمن بين مقهورٍ عزيزٍ وقاهر

وصار رئيسُ القوم يحمل نفسه * وصار رئيسا فيهم كلُّ شاطر

فلا فاجر للبرّ يحفظ حرمة * ولا يستطيع البرّ دفعًا لفاجر

تراهم كأمثال الذئابِ رأتْ دمًا * فأمّته لا تلوى على زَجْر زاجر

وأصبح فُسّاقُ القبائلَ بينهم * تسلّ على أقرانها بالخناجر

فابك لِقتلَى من صديقٍ ومن أخٍ * كريم ومن جار شفيقٍ مُجاور

ووالدةٍ تبكى بحزنٍ على ابنها * فيبكى لها من رحمةٍ كلُّ طائر

وذاتِ حليلٍ أصبحت وهى أيّم * وتبكى عليه بالدموع البوادر

تقول له قد كنتَ عِزًا وناصرا * فغُيّب عنى اليوم عزّى وناصرى

وأبك لإحراقٍ وهدمِ منازل * وقتلٍ وإنهاب اللهى والذخائر

وإبراز ربّات الخـدور حواسرا * خرجن بلا خُمْـرٍ ولا بمآزِر
تَراها حَيارى ليس تعرف مَذْهبًا * نوافرَ أمثالَ الظبـاء النوافـر
كأن لم تكن بغدادُ أحسنَ مَنْظَرا * ومَلْهى رأته عينُ لَاهٍ وناظـر
بلى هكذا كانت فأذهَب حسنَهـا * وبدّد منها الشّمْلَ حكمُ المَقـادر
وحلّ بهم ماحلّ بالنـاس قبلهـم * فأضحَوْا أحاديثا لبَـادٍ وحاضـر
أبغــدادُ يا دارَ الملوك ومُجتَنَى * صروف المنـايا مسـتقرّ المنـابر
ويا جَنّـةَ الدنيـا ومطّلَبَ الغنى * ومستنبطَ الأموال عنـد الضرائر
أبِنِى لنـا أيـن الذين عَهِدتُهم * يحلّون فى روضٍ من العيش زاهر
وأين ملوكٌ فى المواكب تَقْتَـدى * تُشَـبَّه حسـنا بالنجوم الزواهر
وأين القضـاة الحاكمون برأيهـم * لو رُدّ أمور مشـكلاتِ الأوامر
أو القـائلون النـاطقون بحكمـة * ورَصْفِ كلامٍ من خطيبٍ وشاعر
وأيـن مراح[1] للملوك عهِدتُهـا * مزخرفةً فيهـا صنوفُ الجواهر
تُرَشّ بمـاء المسك والورد أرضُها * يفوحُ بهـا من بعد رِيحِ المجامر
ورَوْح النّدامى فيـه كلّ عَشيّة * الى كل فيّـاض كريم العنـاصر
وأين قِيانٌ تستجيب لنغمـها * اذا هـو لبّـاها حَنينُ المزامر
وأين الملوك الغُـرُّ من آل هاشم * وأشياعهم فيها اكتفوا بالمعـاذر
يروحون فى سلطانهم وكأنهم * يروحون فى سلطان بعض العشائر
يجـادل عمـا نالهم كبراؤهم * فنـالتهمو بالكُرْه أيدى الأصاغر
فأقسم لو أنّ الملوك تناصروا * لَزَلّتْ لهـا خوفًا رِقابُ الجبـابر

(١) كذا فى الأصل ولعلها صروح .

وقال عمرو بن عبد الملك الورّاق يبكى بغداد ويهجو طاهرا و يعرّض به :

من ذا أصابكِ يا بغــدادُ بالعيْنِ * ألم تكونى زماناً قُــرّة العينْ
ألم يكن فيــكِ أقوامٌ لهم شرف * بالصّالحــات و بالمعروف يلْقَوْنى
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنُهم * وكان قربُهمُ زيناً من الزيْنْ
صاح الزمانُ بهم بالبيْنِ فانقرضوا * ما ذا الذى فجعتْنى لوعــة البيْنْ
أستودِعُ اللهَ قوماً ما ذكرتُهمو * ألّا تحــدّر ماءُ العيــن من عينى
كانوا ففرّقهم دهرٌ وصدّعهم * والدهر يَصْدَع مابين الفريقيْنْ
كم كان لى مُسْعِد منهم على زَمَنى * كم كان منهم على المعروف من عوْنْ
لله دَرُّ زمان كان يجمعنــا * أيْن الزمانُ الذى ولّى ومن أيْنْ
يا من يُخــرّب بغــداداً ليعمرُها * أهلكتَ نفسك ما بين الطريقيْنْ
كانت قلوبُ جميع الناسِ واحدةً * عينا وليس يكون العينُ كالدّيْنْ
لمـا استبيتهــمُ فرّقتهــم فــرقاً * والنــاس طُراً جميعــا بين قلبيْنْ

ولبعض فتيان بغداد :

بكيتُ دماً على بغــداد لمــا * فقدتُ غَضارةَ العيش الأنيق
تَبَدّلْنــا همــوماً من سرور * ومن سَعَةٍ تبــدلْنا بضيق
أصابتها من الحُسّــاد عينٌ * فأفنت أهلَهــا بالمَنْجَنيــق
فقــومٌ أُحْرِقوا بالنــار قسْرًا * ونائحــةٌ تنــوح عــلى غَريق
وصــائحةٌ تُنَــادى واصَــباحا * وباكِيةٌ لِفقْدان الشّــفيق
وحــوراءُ المــدامع ذاتُ دَلّ * مضمّخَة المَجاســد بالخَــلُوق
تَفِرّ من الحريق الى انتهابٍ * ووالدُها يفــرّ الى الحــريق

وسَالِبـــةٌ الغـــزالةِ مُقْلَتيها * مَضـاحِكها كَلألأة البُروق
حَيَارَى كالهَدايا مُبْكِرات * عليهن القـلائدُ فى الحُلوق
يُنـادِين الشفيقَ ولا شـفيقٌ * وقد فُقِد الشفيقُ من الشفيق
وقومٌ أخرِجوا من ظِلّ دُنيَـا * متاعُهـمُ يُبـاع بكل سُـوق
ومُغْـتَرِبٌ قـريبُ الدار مُلْقَى * بلا رأسٍ بقـارعةِ الطـريق
توسّط من قِتالهمُ جميعـا * فـا يدرون من أى الفَريق
فـلا ولد يُقِــيم على أبيـــه * وقد هَرَب الصّديق من صديق
ومهما أنْسَ من شىء تولّى * فإنى ذاكـر دار الرّقيـــق

بيان المصادر العربية والافرنجية العامة
التى عولنا عليها فى المراجعة لكتاب عصر المأمون

نثبت لك هنا العام من مراجع الكتاب عدا دواوين الشعراء ومعجمات اللغة التى أشرنا اليها فى مواضعها من الكتاب وهوامشه . وهى :

المصادر باللغة العربية :

تاريخ الطبرى ، طبعة مصر وليدن .

تاريخ الكامل لابن الأثير، طبعة مصر.

تاريخ مروج الذهب للسعودى، طبعة مصر وباريس .

تاريخ اليعقوبى ، طبعة ليدن باشراف المسيو هتسما .

تاريخ أبى الفدا للملك المؤيد ، طبعة الأستانة .

تاريخ علماء الأندلس لأبى الوليد عبدالله محمد بن يوسف، طبعة أوربا .

تجارب الامم لابن مسكويه، طبعة مصر.

تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون، طبعة مصر .

الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى، طبعة ليدن .

نظم الجوهر لابن البطريق ، طبعة أكسفورد سنة ١٦٥٩ للستشرق ادوار بوكوك .

تاريخ دمشق لابن عساكر، مخطوط .

تاريخ المشارقة لصليبا بن يوحنا ، مخطوط .

تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، مخطوط .

تاريخ بغداد لابن طيفور (الجزء السادس طبعة أوربا) .

تاريخ التشريع الاسلامى للمرحوم الخضرى بك، طبعة مصر .

تاريخ الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا ، طبعة أوربا .

تاريخ النجوم الزاهرة لابن تغريبردى ، طبعة أوربا .

البدء والتاريخ لأبى زيد البلخى، طبعة باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو» .

الآثار الباقية للبيرونى، طبعة ليبسك .

مختصر تاريخ الدول لأبى الفرج الملطى، طبعة بيروت .
تاريخ الاسحاقى، طبعة أوربا .
فتوح الشام للواقدى، طبعة مصر .
نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، طبعة مصر .
ولاة مصر وقضاتها للكندى، طبعة بيروت .
مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى، طبعة مصر .
كشف الظنون لحاجى خليفة، طبعة الأستانة وليبسك ومصر .
المستطرف للابشيهى، طبعة بولاق .
معجم البلدان لياقوت الحموى، طبعة ليبسك ومصر .
المزهر للسيوطى، طبعة بولاق .
الأحكام السلطانية للماوردى، طبعة أوربا .
أعلام الناس للاتليدى، طبعة مصر .
كتاب المعارف لابن قتيبة، طبعة أوربا .
معجم الأدباء لياقوت الرومى، طبعة مصر واشراف مرجليوث .
الفهرست لابن النديم، طبعة ليبسك .
طبقات الأمم لابن صاعد، طبعة بيروت .
طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة، طبعة مصر .
تراجم الحكماء للقفطى، طبعة مصر .
طبقات الأدباء لعبد الرحمن الأنبارى، طبعة مصر .
وفيات الأعيان لابن خلكان، طبعة مصر .
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى، طبعة مصر .
الملل والنحل للشهرستانى، طبعة مصر .
ألف باء ليوسف البلوى، طبعة مصر .
مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى، طبعة دار الكتب .
فتوح البلدان للبلاذرى، طبعة ليدن .
كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذانى، طبعة ليدن .
كتاب البلدان لليعقوبى، طبعة ليدن .
مسالك الممالك للاصطخرى، طبعة ليدن .
المسالك والممالك لابن حوقل، طبعة ليدن .
أحسن التقاسيم للمقدسى، طبعة ليدن .
المسالك والممالك لابن خرداذبه، طبعة ليدن .
الأعلاق النفيسة لابن رستة، طبعة ليدن .
حسن المحاضرة للسيوطى، طبعة مصر .
بلوغ الأرب فى أحوال العرب للألوسى طبعة بغداد .
مقدمة الياذة هوميروس تعريب البستانى طبعة مصر .

حضارة الاسلام فى دار السلام لجميل مدور، طبعة مصر .
كتاب الأغانى للاصبهانى، طبعة بولاق والساسى .
الجزء الأول من كتاب الأغانى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
نهاية الأرب، طبع مطبعة دار الكتب المصرية والنسخة الفتوغرافية بالدار .
صبح الأعشى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب التاج المنسوب للجاحظ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب الأمالى لأبى على القالى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب الكامل للمبرد، طبعة مصر .
كتاب البيان والتبيين للجاحظ، طبعة مصر .
العمدة لابن رشيق، طبعة مصر .
كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى، طبعة فردرك شوالى .
كتاب المحاسن والاضداد للجاحظ، طبعة ليدن .
كتاب البخلاء للجاحظ، طبعة مصر .
كتاب الحيوان للجاحظ، (نسخة فتوغرافية محفوظة بدار الكتب المصرية) .
كتاب الكشكول للعاملى، طبعة مصر .
سراج الملوك للطرطوشى، طبعة مصر .
كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، طبعة ليدن .
كتاب الخراج لأبى يوسف، طبعة بولاق .
تاريخ الوزراء المنسوب للصولى، طبعة بيروت .
أشهر مشاهير الاسلام، للرحوم رفيق العظم بك، طبعة مصر .
كتاب نفح الطيب، طبعة مصر وأوربا .
مفاتيح العلوم للخوارزمى، طبعة مصر .
مفيد العلوم للخوارزمى، طبعة مصر .
كتاب المواهب الفتحية للرحوم الشيخ حمزة فتح الله، طبعة مصر .
كتاب السيرة لابن هشام، طبعة مصر .
مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر .
خطط الشام للاستاذ محمد كرد على، طبعة دمشق .
مجموعة مجلة المشرق، طبعة بيروت .
مجموعة مجلة المجمع العلمى، طبعة دمشق .
مجموعة مجلة الهلال، طبعة مصر .
مجموعة مجلة المقتطف، طبعة مصر .
بعض فصول ومباحث من المجلة الأسيوية .
حديث الأربعاء للدكتور طه حسين، طبعة مصر .

منهل الرواد فى علم الانتقاد لقسطاكى الحمصى بك، طبعة مصر.

محاضرات الأستاذ الاسكندرى المدرس بدار العلوم، طبعة مصر.

الوسيط للاستاذ الاسكندرى المدرس بدار العلوم، طبعة مصر.

أدبيات اللغة العربية للاستاذ مصطفى صادق الرافعى، طبعة مصر.

أدبيات اللغة العربيـة للمرحوم عاطف بركات بك وزملائه، طبعة مصر.

مهذب الأغانى للمرحوم الخضرى بك، طبعة مصر.

بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف، طبعة مصر.

الشعر والشعراء لابن قتيبة، طبعة ليدن.

طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى، طبعة ليدن ومصر.

كتاب الأذكياء لابن الجوزى، طبعة مصر.

العقد الفريد للملك السعيد، طبعة مصر.

العـقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة مصر.

لطائف المعارف للثعالبى، طبعة ليدن.

عيون الأخبار لابن قتيبة، طبعة دار الكتب وأوربا.

حلبة الكميت، طبعة بولاق.

خزانة الأدب لابن حجة الحموى، طبعة بولاق.

خزانة الأدب للبغدادى، طبعة بولاق.

محاضرات الفلسفة لستتلانه بالجامعة المصرية.

محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية للسنيور كرلو نلينو، طبعة روما.

مفتاح السـعادة ومصباح السـيادة لطاشـكبرى زاده، طبعـة حيدر آباد.

محاضرات الشيخ عبد الوهاب النجار بالجامعة المصرية.

محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدى بالجامعة المصرية.

محاضرات الأستاذ الخضرى بك فى تاريخ الأمم الاسلامية، طبعة مصر.

محاضرات الأستاذ الخضرى بك فى تاريخ الدولة الأموية، طبعة مصر.

التمـدن الاسلامى للمرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر.

تاريخ آداب اللغـة العربيـة للمرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر.

طبقات ابن سعد، طبعة أوربا.

طبقات الشافعية للسبكى، طبعة مصر.

المنثور والمنظوم لابن طيفور.

رسالة بنى أمية للجاحظ، خطية.

الأوراق للصولى، خطية .
مطبوعات تذكار جيب الانجليزية
وخاصة مؤلفات الأستاذين
مرجليوث وبرون .
زهر الآداب للحصرى، طبعة مصر .
المشتبه فى أسماء الرجال للذهبى، طبعة
أوربا .
الوافى بالوفيات للصفدى (المحفوظ
بدار الكتب المصرية تحت
رقم ١٢١٩) .
أخبار أبى نواس لابن منظور، طبعة
مصر .
رسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد على،
طبع مصر .
جمهرة أشعار العرب لأبى زيد . طبعة
مصر .
المفضليات للضبى، طبعة مصر .
حماسة البحترى، طبعة بيروت .
الصناعتين لأبى هلال العسكرى، طبعة
مصر .
الموشى لأبى الطيب، طبعة أوربا .
ديوان الحماسة لأبى تمام، طبعة مصر .
مجانى الأدب وشرحه، طبعة بيروت .
مختارات البارودى، طبعة مصر .
حياة الحيوان للدميرى، طبعة مصر .
عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى
(أجزاء منه محفوظة بدار الكتب
المصرية) .
الفرج بعد الشدة للتنوخى، طبعة
مصر .

المصادر الافرنجية :

Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris.

Life of Mohamet by Sir W. Muir. (London).

The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by Ameer Ali. (London).

D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London) in "Heroes of the Nations' Series".

H. Lammens: "Etudes sur les régnes des Califs Omaiyades Moawia 1er et Yasid 1er". (Beyrouth).

Library of Universal History (N. Y.).

History of Arabic Literature: Cl. Huart. (London).

A Literary History of Persia: Ed. G. Browne. (London).

A Literary History of the Arabs by R. A. Nicholson. (London).

Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London).

The Caliphate: its rise decline and fall by Sir W. Muir. (London).

Annals of the Early Califphate by Sir W. Muir. (London).

Baghdad during the Abbasia Caliph by G. le Strange. (Oxford).

Encyclopaedia of Islam. (Luzac).

Encyclopaedia Britannica. (London).

La Grande Encyclopédie. Paris.

The Historians' History of the World by H. S. Williams. (New York).

Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings. (London).

The History of the Declins and Fall of the Roman Empire by Gibbon. (London).

The History of Philosoply in Islam by J. de Bœr translated by Jones. (London).

Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle).

Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Andalusie par les Almoravides by R. Dozy. (London).

Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory by D. B. Macdonald. (London).

Margoliouth's Works Etc.

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٢١٥٠)